

النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

إبراهيم أبو عواد

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي مُحَمَّدٍ وإخوته الأنبياء الكرام، وآل كُلِّ، وصَحْبِ كُلِّ .

لا شك أن النبي مُحَمَّدًا ﷺ هو الإنسان الأكمل ، والمثل الأعلى في تاريخ الحضارة البشرية . وهذا ليس غريبًا ، فالنبي ﷺ هو أعظم مخلوقات الله على الإطلاق ، وهذا الأمر ليس شعارًا أو غرورًا أو توزيعًا للألقاب ، فالرُتبة السامية التي وصل إليها النبي ﷺ منحة ربّانية ، وفضل إلهي .

ومهما أوتي الكاتب من براعة في الوصف ، وقوة في التعبير ، وقدرة على اختيار الألفاظ والمعاني ، فلن يتمكن من الوصول إلى حقيقة النبي التي لا يعلمها إلا الله وحده . وكلُّ الكتاب الذين يكتبون عن النبي ﷺ إنما يقتربون منه ، لكنهم عاجزون عن الوصول إليه ، بسبب مكانته الجليلة ، ومنزلته الرفيعة ، ونوره الوهاج . لذلك لا يمكن الإحاطة بعظمة النبي مُحَمَّد ﷺ ، ولكننا نحاول جاهدين تقديم صورة عنه ، وتسلط الضوء على جوانب شخصيته ومراحل حياته الشريفة .

يتكوّن هذا الكتاب من ثلاثة وعشرين فصلاً ، تُشكّل في مجموعها منظومةً دينية وفكرية ، تكشف حياة النبي ﷺ بكل جوانبها، وتُظهر تميّزه، وقدره الشريف، ومكانته الرفيعة، وشأنه العظيم . الفصل الأول يتحدث عن شخصية النبي ﷺ وملامحها ، ومكوّناتها، وتأثيرها في البيئة المحيطة بكل عناصرها . وشخصية النبي قوية بلا عَجْرفة ، وتأثيرها بالغ بلا غُفٍ ولا طُغيان . والشخصية القوية الواثقة هي الرّكيزة المحورية في العلاقات الاجتماعية .

الفصل الثاني يتحدث عن بعثته الشريفة ، التي كانت إعادةً للرّوح والحياة في الأنساق المعنوية والمادية ، وصارَ للوجود الإنساني معنى قائمًا بذاته ، وبعثته الشريفة هي بَعْثٌ للإنسان والطبيعة . فالشمس حين تُرسل نورها ، فإنّ جميع عناصر الوجود تستفيد منه .

الفصل الثالث يتحدث عن الوحي ، ومعناه ، وأهميته ، وكيف قامَ بِرِبط الأرض بالسماء ، ولا شك أن الوحي يدلُّ على رحمة الله بعباده ، وإرادته الخير لهم . فالله لم يخلق الناس ليُعذبهم ، بل خلَقهم ليُرحمهم ، فأرسل إليهم الأنبياء كي يُرشّدوا الناس إلى طريق الله وحده لا شريك له .

الفصل الرابع يتحدث عن طبيعة الرّسالة ، وكمالها ، وشُمولها لكل جوانب الحياة ، وأهميتها في إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التخلف إلى الحضارة ، ومن العذاب إلى النعيم .

الفصل الخامس يتحدث عن تأييد الرسالة ، فالله لا يتخلى عن أنبيائه ، ولا يتركهم لأعدائهم ، بل يؤيدهم بالحجج الباهرة والمُعْجَزَات الواضحة التي تدلُّ على صدق الرسالة الإلهية . وعوامل قُوَّة الرسالة كامنة فيها . فالرسالة الإلهية كاملة ومعصومة وقائمة بذاتها ، وتُصدِّق نفسها بنفسها .

الفصل السادس يتحدث عن التَّأْسِي والاقْتِدَاء . فالنبي ﷺ هو القدوة الكاملة ، والمثل المعصوم ، والمرجعية العليا ، وهو القائد الذي يجب اتِّباعه والاقْتِدَاء به ، والسَّير على خطاه . وَمَنْ اقتدى به هُدي إلى خير الدنيا ونعيم الآخرة .

الفصل السابع يتحدث عن معرفة أهل الكتاب إِيَّاه . فاليهود والنصارى كانوا يَعْرِفُونَ النبي ﷺ حَقَّ المعرفة ، لأنه مذكور في كُتُبِهِم الدِّينية . ولكنَّهم كانوا شديدي الحِرْص على مناصبهم وسلطتهم وأموالهم التي يأخذونها من الناس بِغَيْر وَجْهٍ حَق ، وهذا جعلهم يُخْفُونَ أَمْرَ النبي ﷺ .

الفصل الثامن يتحدث عن صفات النبي ﷺ في التَّوْرَة والإنجيل ، ويُشير إلى تلاعب اليهود والنصارى بِنُصُوصِهِم الدِّينية من أجل طَمَسِ آيَةٍ إشارة إلى النبي محمد ﷺ في كُتُبِهِم . وهذا الطَّمَسُ المتعمَّد مَرَّجعه إلى تقديس المصالح الشخصية .

الفصل التاسع يتحدث عن أخلاقه المجيدة وصفاته الحميدة وفضل الله عليه . فالنبي ﷺ هو مُصدِّر الأخلاق ومَنبِع الفضائل . ولا شك أن الأخلاق الحميدة تَجْذِبُ الناس ، وتَسْتَقْطِبُ الأتباع ، وتَبْعَثُ العناصر الإيجابية في المجتمع .

الفصل العاشر يتحدث عن عِصْمَتِهِ وحِمَايَتِهِ . فالله يَعْصِمُ أنبياءه مِنْ كُلِّ الشُّرُور والأخطار ، ويَحْمِيهِمْ مِنْ أَعْدَاء الدَّعوة ، ويُحِيطُهُمْ بِالْعِناية والرَّعاية . والنبي ﷺ مَحْرُوسٌ وَمَحْمِيٌّ ، ولا يحتاج إلى حراسة شَخْصية ، لأنَّ الله قَدْ تَعَهَّدَ بِعِصْمَتِهِ وحِمَايَتِهِ .

الفصل الحادي عشر يتحدث عن مآثره وخصائصه ، وهذا يُشير إلى تَمَيُّزِهِ بِدُونِ غُرُور ، ورفعة قَدْرِهِ بِدُونِ تَكَبُّر . وخصائص النبي ﷺ واضحة ، ومآثره لا يُمكن إخفاؤها ، لأن الشمس لا تُغْطَى بِغُرْبَال . فهو القائد الذي يخفض جناحه للمؤمنين ، وتواضعه نابع من القُوَّة لا الضَّعف ، فالنبي هو السَّيِّد المتواضِع ، والقائد الذي يعيش مَعَ الناس ، ولا يعيش في البُرج العاجي . واقترب القائد مِنْ الناسِ يَجْعَلُ الناسَ يَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُ ، وَيَشْعُرُونَ أَنَّهُ واحدٌ مِنْهُمْ ، وَلَيْسَ غريباً عنهم .

الفصل الثاني عشر يتحدث عن جِزَاء مَنْ يُشَاقِقُ الرَّسُول . فمحمَّد ﷺ هو النبي العظيم ، والرسول الكريم ، وكلُّ مَنْ يُعَادِيهِ ، لا بُدَّ أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَ كُفْرِهِ في الدُّنيا والآخرة . ومُعَادَاةُ محمد ﷺ

هِيَ مُعَادَاةُ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ . فَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى .

الفصل الثالث عشر يتحدث عن أدب المؤمنين معه ، وضرورة التعامل مع النبي ﷺ باحترام وتقدير وتعظيم . فالنبي ﷺ ليس شخصاً عادياً . إِنَّهُ إِنْسَانٌ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ ، لِذَلِكَ يَجِبُ التَّعَامُلُ مَعَهُ بِالتَّقْدِيرِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَتَدْقِيقِ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ فِي حَضْرَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، حَيًّا وَمَيِّتًا .

الفصل الرابع عشر يتحدث عن أقوال الكافرين الطاعنين في النبي ﷺ والنَّبُوَّةِ ، وَكَيْفَ رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمُ بِالذَّلِيلِ الْوَاضِحِ وَالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ ، وَلَيْسَ بِالشَّتَائِمِ أَوْ الْجَمْعَةِ بِلَا طَحْنٍ . فَالْقُرْآنُ أَوْرَدَ شُبُهَاتِ الْكَافِرِينَ ، وَأَقْوَالَهُمُ الْوَاهِيَةَ ، وَرَدَّ عَلَيْهَا بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ .

الفصل الخامس عشر يتحدث عن صدقه واستحالة تقوُّله على الله تعالى . فالنبي ﷺ معروف بالصدق والأمانة في كُلِّ مَرَاكِلِ حَيَاتِهِ ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ . وَلَا تُوجَدُ نِقَاطُ ضَعْفٍ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ تُشَكِّكُ النَّاسَ فِيهِ ، إِذْ إِنْ حَيَاتِهِ صَفْحَةٌ بَيَاضٌ مَكْشُوفَةٌ لِلْجَمِيعِ ، لَا ثَغْرَاتٍ فِيهَا ، وَلَا نِقَاطَ سَوْدَاءٍ .

الفصل السادس عشر يتحدث عن تنزيهه عن الشعر ، فالنبي ﷺ لَيْسَ شَاعِرًا ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ الشَّعْرَ ، كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ أَصَالِبِ الشُّعْرَاءِ وَلَا عِلَاقَةٌ لَهُ بِعِلْمِ الْعَرُوضِ . وَالتُّهْمَةُ الَّتِي كَانَ يُلْقِيهَا الْكَافِرُونَ بِأَنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ تُهْمَةٌ وَاهِيَةٌ ، فَالسُّورُ الْقُرْآنِيَّةُ تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ الْقَصَائِدِ الشُّعْرِيَّةِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ وَاضِحٌ لِلْجَمِيعِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمَاءٍ مُتَحَرِّينَ فِي اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ .

الفصل السابع عشر يتحدث عن تسليته وتنزيهه . فَاللَّهُ لَا يَشْرُكُ أَنْبِيََاءَهُ بِالْمَصَائِبِ وَالْأَحْزَانِ ، بَلْ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ ، وَيَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ ، وَيُثَبِّتُهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ . وَالنَّبِيُّ إِنْسَانٌ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ ، يَشْعُرُ بِالْفَرَحِ وَالْحُزَنِ ، وَيَتَأَثَّرُ بِالْمَصَائِبِ وَالْأَحْزَانِ ، وَيُصَابُ بِالْمَرَضِ ، وَيُعَانِي مِثْلَ الْآخَرِينَ . لَكِنَّ هَذِهِ الشَّدَائِدَ تَزِيدُهُ قُوَّةً وَإِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا يُصَابُ بِالْأَسَى وَالْفَنُوطِ ، وَلَا يَتَخَلَّى عَنِ الدَّعْوَةِ .

الفصل الثامن عشر يتحدث عن مخاطبة الله إِيَّاهُ ، وَهَذَا تَشْرِيفٌ إِلَهِيٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَرَفْعٌ لِمَنْزِلَتِهِ ، وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ . فَالْخَالِقُ الْعَظِيمُ حِينَ يُخَاطَبُ الْمَخْلُوقَ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ رُتْبَةٌ سَامِيَةٌ لِلْمَخْلُوقِ ، وَشَرَفٌ مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ .

الفصل التاسع عشر يتحدث عن مُعَاتَبَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ ، وَهِيَ مُعَاتَبَةُ الْحَبِيبِ لِلْحَبِيبِ ، وَلَا تَعْنِي الْإِنْتِقَاصُ مِنْ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَإِنَّمَا تَعْنِي أَنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُ أَنْبِيََاءَهُ ، وَيُثَبِّتُهُمْ كَيْ يَزْدَادَ إِيمَانُهُمْ ، وَتَرْتَفِعَ مَنَازِلُهُمْ . وَكُلَّمَا ارْتَفَعَتْ مَكَانَةُ الْإِنْسَانِ ازْدَادَ التَّدْقِيقُ عَلَيْهِ . وَالتَّدْقِيقُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَاضِحٌ كَيْ

يَصِلُوا إِلَى ذِرْوَةِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِي. وكما قيل : حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ . وَالْعِتَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ وَأَمَانَتِهِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صَاحِبِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ كَاذِبًا لَأَخْفَى آيَاتِ الْعِتَابِ ، وَمَا أَظْهَرَهَا لِلنَّاسِ ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ بَعِيدًا عَنِ الْعِتَابِ وَاللُّومِ .

الفصل العشرون يتحدث عن الإسراء والمعراج . هذه الْمُعْجِزَةُ الْخَالِدَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ ، وَقُدْرَتِهِ اللَّامِحْدُودَةِ ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ ، وَمَكَانَةِ النَّبِيِّ الرَّفِيعَةِ . وَالْمُعْجِزَةُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، يُؤَيِّدُ اللَّهَ النَّبِيَّ بِهَا رَفْعًا لِمَكَانَتِهِ ، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ ، وَإِظْهَارًا لِصِدْقِهِ ، وَتَصَدِيقًا لِنُبُوءَتِهِ .

الفصل الحادي والعشرون يتحدث عن هجرته الشريفة ، وَمَنْزِلَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ ضَحَّوْا بِالْغَالِيِ وَالتَّنْفِيسِ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ نُصْرَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَهَجْرَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ وَطَنِهِ أَمْرٌ شَدِيدُ الصُّعُوبَةِ . وَلَكِنْ ، كُلُّ شَيْءٍ يَهْوَنُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

الفصل الثاني والعشرون يتحدث عن أزواجه الطاهرات وبناته الشريفات . فالنبي ﷺ هُوَ الرَّوْجُ الْمِثَالِي ، وَالْأَبُ الْحَانِي . الرَّوْجُ الَّذِي يُعَامِلُ زَوَاجَتَهُ بِاحْتِرَامٍ وَأَدَبٍ وَتَقْدِيرٍ لِلْأُنُوثَةِ ، وَالَّذِي يُشْبِعُ زَوَاجَتَهُ عَاطْفِيًّا وَجَسَدِيًّا . وَالْأَبُ الَّذِي يُرَبِّي بَنَاتَهُ وَفَقَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ ، وَقَوَاعِدَ الشَّرَفِ وَالطَّهَارَةِ وَالنَّقَاءِ ، بِدُونِ عُقْدِ نَفْسِيَّةٍ وَلَا وَسَاوِسٍ .

الفصل الثالث والعشرون يتحدث عن أفضلية أُمَّتِهِ وَشَهَادَتِهِ عَلَيْهَا ، وَشَهَادَتِهَا عَلَى النَّاسِ . وَهَذَا دَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَظَمَةِ أُمَّتِهِ الْمُسْتَمْدَةِ مِنْ عَظَمَةِ رَسُولِهَا الْكَرِيمِ . فَالنَّبِيُّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ الَّتِي تَشْهَدُ بِدَوْرِهَا عَلَى بَاقِي الْأُمَمِ ، وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْحَةٌ إِلَهِيَّةٌ ، وَتَشْرِيفٌ وَتَكْلِيفٌ فِي آيٍ مَعًا .

إِنَّ هَذِهِ الْمَقْدَمَةَ السَّرِيعَةَ تَعْبِيرٌ عَنْ مَوَاضِيْعِ الْكِتَابِ بِشَكْلِ مُوجِزٍ دُونَ الْخَوْضِ فِي التَّفَاصِيلِ وَالْحِيثِيَّاتِ . وَقَدْ حَاولْتُ جَاهِدًا إِخْرَاجَ هَذَا الْكِتَابِ بِدُونِ أَيِّ خَطَأٍ ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ كُتْلَةٌ مِنَ الْأَخْطَاءِ ، وَالْمَعْصُومُ مِنَ عَصَمَةِ اللَّهِ ، وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . وَشَرَفُ الْمَحَاوَلَةِ يَكْفِينِي . أَرْجُو اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنِي الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ حُجَّةً لِي ، لَا حُجَّةً عَلَيَّ . إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

إبراهيم أبو عواد

الفصل الأول الشخصية

تمهيد

إنَّ النبيَّ محمدًا ﷺ ليس إنسانًا عاديًّا ، فهو مُؤَيَّدٌ بِالوَحْيِ الإلهيِّ ، وهذا التأييدُ السَّماويُّ المطلقُ جعله كائنًا مُتَفَوِّقًا ذا شخصية مُتَفَرِّدة وكيان مُتَمَيِّز . والشَّخصيةُ المحمَّديةُ هِيَ الشَّخصيةُ المركزيةُ في تاريخ الوجود البشريِّ ، وهذا الأمر ليس غرورًا أو استكبارًا . فالنبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ أخرجَ النَّاسَ مِنَ الخرافاتِ إلى الحقِّ ، ومن الظلماتِ إلى النُّورِ ، وجعلَ رُعاةَ الغنمِ رُعاةً لِلأُمَمِ ، وجعلَ الصَّحراءَ حضارةً إنسانيةً قادرةً على تقديم الحلول للبشرية . وهذه الإنجازاتُ العظيمةُ تُشيرُ إلى حقائق كثيرة، من أبرزها: الرعايةُ الإلهيةُ للنبيِّ ﷺ ، وتوفيقه إلى طريق الخير، وتسييد خطاه ، وهذا جعل النبيَّ ﷺ يَنْتَقِلُ من نجاحٍ إلى نجاحٍ رغم كثرة الأعداء ، وصعوبة المواقف ، وشح الموارد ، وتكاثر الأزمات .

والرَّعايةُ الإلهيةُ تُشيرُ إلى تَمَيُّزِ الشخصيةِ المحمَّديةِ وقُدْرَتِها على صناعة الواقع ، وتحويل الشَّعاراتِ إلى تطبيقات عملية ، وتحويل الكلام إلى فعلٍ . والله تعالى لا يُرْسِلُ أَشْخاصًا فاشلين لإنفاذ البشرية ، وإنما يُرْسِلُ صَفوةَ خَلْقِهِ لانتشال النَّاسِ مِنْ مُستَنقَعِ الضلال . والنبيُّ مُحَمَّدٌ هو القائدُ المُلْهُمُ في كُلِّ المجالاتِ الروحيةِ والماديةِ ، وَلَوْ كَانَ عاجزًا لَمَّا استطاعَ التأثيرُ في الأتباعِ وصناعةِ الواقعِ الجديدِ . إذن ، نجاحه الباهرُ في التَّربيةِ والتَّعليمِ ، ووضعِ الأمورِ في نصابها الصحيح ، وتحويل الإنسان إلى كائن مُتَزِنٍ ومُتَوَازِنٍ رُوحِيًّا وماديًّا ، وصناعةِ الحاضرِ الجميلِ الذي يَقُودُ إلى المستقبلِ المشرقِ، كُلُّ هذه الأمور تدلُّ على عَظَمَةِ الشَّخصيةِ النَّبَوِيَّةِ ، وأَنَّنا أمامَ إنسانٍ غيرِ عادي . لقد نَجَّحَ النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ في كُلِّ المجالاتِ ، فَهُوَ الرُّوحُ المِثاليُّ القادرُ على إشباعِ زوجاته عاطفيًّا وجسديًّا ، وَهُوَ الأبُّ الحانيُّ الذي يُرَبِّي وَيُعَلِّمُ وَيَسْتَعْمِلُ اللينَ والحُزمَ ، وَهُوَ الخطيبُ الذي يُؤَثِّرُ في النَّاسِ بِحُسْنِ بَيَانِهِ وفصاحته وبلاغته ، وَهُوَ المُصْلِحُ الاجتماعيُّ الذي يَجِدُ حُلُولًا لمشكلاتِ الفردِ والجماعةِ وَيُطَبِّقُها على أرض الواقعِ ، ولا يَتَغَنَّى بالشَّعاراتِ . وَهُوَ القائدُ العسكريُّ الذي يُقاتِلُ بالسَّيْفِ أعداءَ اللَّهِ ، ولا يَخْتَبِئُ في غُرْفَةِ العَمَلِياتِ ، ولا يُضَحِّي بِجُنُودِهِ في سبيلِ راحتهِ الشخصيةِ ، بَلْ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفِ . وهذه الشَّخصيةُ الكاملةُ المتكاملةُ أنقذتِ النَّاسَ ، وَحوَلَتِ البيئةَ القاسيةَ إلى واحةٍ للأمنِ والأمان . لقد بنى النبيُّ ﷺ الفردَ ، وَحوَلَهُ مِنْ وَحْشٍ شَهْوانِيٍّ استهلاكيٍّ إلى إنسانٍ مُؤْمِنٍ صالحٍ ومُصْلِحٍ في آخِ مَعَا ، وجعلَ الجماعةَ البشريةَ منظومةً للحقِّ والفضيلةِ بعيدًا عن العصبيةِ والعنصريةِ .

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ نُورَهُ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحَاطَهُ بِالرَّعَايَةِ، وَهَذَا سَبَبُ خُلُودِ شَخْصِيَّتِهِ وَتَمَيُّزِهَا .
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾
 [آل عمران: ١٥٩] .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الْقَائِدُ الرَّحِيمُ بِاتِّبَاعِهِ ، الْمُشْفِقُ عَلَيْهِمْ ، يَسْهِّلُ التَّعَامُلَ مَعَهُ ، فَهُوَ لَيِّنُ الْجَانِبِ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَمُتَسَامِحٌ كَرِيمٌ بِدُونِ غَفْلَةٍ ، وَطَيِّبُ الْقَلْبِ بِلا سَدَاجَةٍ . وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَاسِيًا ، وَغَلِيظَ الطَّبَاعِ لَهَرَبَ مِنْهُ النَّاسُ ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ . وَدَائِمًا ، يَهْرَبُ النَّاسُ مِنَ الْغَلِيظِ الْجَافِي ، وَيَنْجَذِبُونَ إِلَى الرَّحِيمِ الْمُتَوَاضِعِ . وَالْقُلُوبُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .
 ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ ^(١) . لَقَدْ أَوْدَعَ اللَّهُ فِي قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ ، لِذَلِكَ كَانَ رَحِيمًا بِاتِّبَاعِهِ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ ، نَاصِحًا لَهُمْ ، بِلا خُشُونَةٍ وَلَا قَسْوَةٍ .

وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْعُجَابِ (٢ / ٧٧٤) : ((اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَقِّ الَّذِينَ انْهَزَمُوا يَوْمَ أُحُدٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْلُظْ عَلَى الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَهُ حَتَّى كَانُوا سَبَبًا لِقَتْلِ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) .
 فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ ، وَعَامَلَهُمْ بِلُطْفٍ وَاحْتِرَامٍ . إِنَّ اللَّهَ غَسَلَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ الْحَمِيدَةِ ، فَكَانَ الْقُدْوَةَ الْغَالِيَا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَمَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَالْمَرْجِعَةَ السَّامِيَةَ فِي الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ عَلَى النَّاسِ لِذَلِكَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بِكُلِّ رَحْمَةٍ وَإِشْفَاقٍ ، بِلا شِدَّةٍ وَلَا عَجَرَفَةٍ ، وَاحْتَمَلَ أَذَى الْجَاهِلِينَ ، وَلَمْ يَحْقُدْ عَلَيْهِمْ .
 وَفِي الشِّفَا لِلْقَاضِي عِيَّاضٍ (١ / ٢٤) : ((قَالَ السَّمُرْقَنْدِيُّ : ذَكَرَهُمُ اللَّهُ مِتْنَةً أَنَّهُ جَعَلَ رَسُولَهُ رَحِيمًا بِالْمُؤْمِنِينَ ، رَوْوْفًا ، لَيِّنَ الْجَانِبِ ، وَلَوْ كَانَ فَظًّا خَشِنًا فِي الْقَوْلِ لَتَفَرَّقُوا مِنْ حَوْلِهِ ، وَلَكِنْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى سَمَحًا سَهْلًا طَلْقًا بَرًّا لَطِيفًا)) اهـ .

وَلَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ لَهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . فَالْفَضْلُ كُلُّهُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ النَّبِيَّ رَحِيمًا رَوْوْفًا . وَالرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ إِلَهِيَّةٌ ، وَمِنْحَةٌ رَبَّانِيَّةٌ . فَبِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ وَإِحْسَانِهِ ، صَارَتْ أَخْلَاقُ النَّبِيِّ ﷺ سَهْلَةً ، وَصَارَ قَادِرًا عَلَى

(١) فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (١ / ٥٥٦) : ((قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هَذَا خُلِقَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ)) اهـ .
 وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٠٨) : ((أَيْ بِرَحْمَةٍ . وَ"مَا" مُزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّنْبِيهِ وَالِدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ لِيْنَهُ لَهُمْ مَا كَانَ إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ رِئْطُهُ عَلَى جَاشِهِ وَتَوْفِيقِهِ لِلرَّفَقِ بِهِمْ حَتَّى اغْتَمَّ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ خَالَفُوهُ)) .

التَّحَمُّلُ والاحتمال . لقد لَانَ جانبُهُ ، وَحَسُنَ خُلُقُهُ ، وَكَثُرَ احتمالُهُ . وَاللَّهُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، يَرْحَمُ عِبَادَهُ ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْهُمْ ، لَا يَحْتَاجُهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَهُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَنْ كَانَ رَحِيمًا بِالنَّاسِ ، وَعَطُوفًا عَلَيْهِمْ ، وَمُحْسِنًا إِلَيْهِمْ . وَلَئِنْ النَّبِيَّ ﷺ يَتَجَلَّى فِي عَفْوِهِ عَنِ الَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ ، وَلَمْ يَخْجِدْ عَلَيْهِمْ ، مَعَ مُخَالَفَتِهِمُ الْوَاضِحَةَ لِأَمْرِهِ الشَّرِيفِ ، فَقَدْ كَانَتْ أَخْلَاقُهُ سَهْلَةً ، وَتَحَمُّلُ الْأَذَى الَّذِي تَسَبَّبُوا بِهِ . وَالْآيَةُ تَحْمِلُ تَوْبِيخًا لِلَّذِينَ خَالَفُوا أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ التَّقْرِيعَ وَالْمَلَامَ ، وَلَكِنْ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَئِنْ لَمْ يَتَجَلَّى لَهُمْ ، وَتَجَاوَزَتْ عَنْهُمْ ، وَلَمْ تَقُمْ بِتَوْبِيخِهِمْ ، أَوْ تَوْجِيهِهِ لِلْيَوْمِ لَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلتَّوْبِيخِ .

قال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٦) : ((يقول تعالى مُخَاطِبًا رُسُلَهُ مُمْتَنِّنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبَهُ عَلَى أُمَّتِهِ الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ ، التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ .)) فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ، أَي : أَيُّ شَيْءٍ جَعَلَكَ لَهُمْ لَئِنْ لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٨٥) : ((وَفِيمَنْ تَتَعَلَّقُ بِهِ هَذِهِ الرَّحْمَةُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَالثَّانِي بِالْمُؤْمِنِينَ)) اهـ .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه _ أَنَّهُ قَالَ : أَخَذَ بِيَدِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ لِي : ((يَا أَبَا أُمَامَةَ ، إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَلِينُ لِي قَلْبُهُ)) (٢) .

﴿ وَلَوْ كُنْتُ فَظًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَاسِيًا ذَا أَخْلَاقٍ سَيِّئَةٍ ، لَهَرَبَ مِنْهُ النَّاسُ ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَتَرَكُوهُ ، بِسَبَبِ قَسَوَتِهِ وَغِلْظَتِهِ ، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَحَمُّلِ الْقَسْوَةِ وَالْغِلْظَةِ . وَلَكِنَّ اللَّهَ طَهَّرَهُ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْغِلْظَةِ ، وَنَقَّاهُ مِنَ الْكَلَامِ السَّيِّئِ وَالْجَفَاءِ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ فَظًّا وَلَا غَلِظًا . وَالْفَظَاطَةُ فِي الْقَوْلِ ، وَغِلْظَةُ الْقَلْبِ فِي الْفِعْلِ ، وَكَلاهُمَا مَنَفِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (٣) .

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٢٦٧) . وقال الهيثمي في المجمع (١ / ٢٣١) : ((رجاله رجال الصحيح)) .

(٣) قال الصابوني في صفوة التفسير (٢ / ٦١) : ((وَلَمَّا كَانَتْ الْفَظَاطَةُ فِي الْكَلَامِ ، نَفَى الْجَفَاءَ عَنْ لِسَانِهِ ، وَالْقَسْوَةَ عَنْ قَلْبِهِ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٦) : ((والفظ الغليظ ، والمراد به ههنا غليظ الكلام ، لقوله بعد ذلك « غَلِظَ الْقَلْبُ » ، أي : لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِي الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَانْفَضُّوا عَنْكَ وتركوك ، ولكنَّ الله جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ ، وألَانَ جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٧٤٧) أنَّ عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي الله عنه _ قال عن صفة النبي ﷺ في التَّوراة : ((لَيْسَ بِقَطٍّ ، وَلَا غَلِظٍ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ)) .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ قَطًّا (سَيِّئَ الْخُلُقِ) ، وَلَا غَلِظَ (شَدِيدَ فِي الْقَوْلِ) ، وَلَا سَخَّابَ فِي الْأَسْوَاقِ (يَرْفَعُ صَوْتَهُ عَلَى النَّاسِ) ، وَلَا يُقَابِلُ الْإِسَاءَةَ بِالْإِسَاءَةِ ، وَإِنَّمَا يُقَابِلُهَا بِالْحَسَنَةِ ، وَيُؤَاجِهُ الْأَخْلَاقَ السَّيِّئَةَ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَيَغْفُو عَنِ النَّاسِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ ، وَيَغْفِرُ أخطاءَهُمْ ، وَيَلْتَمِسُ لَهُمُ الْأَعْذَارَ . وقال الحافظ في الفتح (٤ / ٣٤٣) : ((وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ دُخُولَ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ السُّوقَ لَا يَحُطُّ مِنْ مَرْتَبَتِهِ ، لِأَنَّ التَّنْفِيَّ إِنَّمَا وَرَدَ فِي ذِمِّ السَّخَبِ فِيهَا لَا عَنْ أَصْلِ الدُّخُولِ)) اهـ . وفي هذا السِّيَاقُ تَبَرُّزُ أَهْمِيَّةِ مُدَارَاةِ النَّاسِ ، وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ بِلُطْفٍ وَاحْتِرَامٍ ، وَعَدَمِ التَّصَادُمِ مَعَهُمْ . فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَمُدَارَاةُ النَّاسِ تُوصِلَانِ إِلَى الْمَطْلُوبِ بِلَا عَنَاءٍ ، وَتَنْشُرَانِ الْمَحَبَّةَ بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَجْتَمِعُ الْكَلِمَةُ ، وَتَسِيرُ الْأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ . وَالْمُدَارَاةُ تَخْتَلِفُ عَنِ التَّفَاقُ وَالْمُدَاهَنَةِ . وَدَائِمًا ، النَّاسُ أَسْرَى الْكَلَامِ الطَّيِّبِ ، وَقُلُوبُهُمْ تَمِيلُ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا . وَكَمَا قِيلَ :

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ٢٦٠) : ((وعن سعيد بن المسيَّب : رأس العقل بعد الإيمانِ مُدَارَاةُ النَّاسِ)) اهـ .

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أَمَرَنِي بِإِقَامَةِ الْفَرَائِضِ)) (٤) . وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٢٤١ و ٢٤٢) : ((وَقَدْ قِيلَ : دَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ ... وَحَيْثُ مَا دُمْتَ فِي حَيْثُهم . وقال ﷺ : " بُعِثْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ " (٥) ، وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَلِهَذَا كَانَ

(٤) قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ (٢ / ٣٥٨) : أَخْرَجَهُ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ عَدِيٍّ بِسَنَدٍ فِيهِ مَتْرُوكٌ عَنْ عَائِشَةَ .

(٥) قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ (٤ / ١٢٢) : أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ وَضَعَفَهُ .

كثير من أكابر السلف المعروفين بمزيد الورع يقبلون جوائز الأمراء المظهرين للجور، ويظهرون لهم البشاشة حفظاً للدين، ورفقاً بالمسلمين، ورحمةً لذلك الظالم المبتلى المسكين، وهكذا كان أسلوب المصطفى ﷺ مع المؤلفة وغيرهم ((اهـ .

﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ ﴾ . تجاوزَ عَنْ أَتْبَاعِكَ يَا مُحَمَّدُ ، بسبب ما نالكَ مِنْهُمْ مِنْ أذى في غزوة أُحُدَ ، فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِكَ ، وَقَدْ خَالَفُوا أَمْرَكَ لِسُوءِ تَقْدِيرِهِمْ ، وَلَيْسَ رَفْضًا لِأَمْرِكَ أَوْ اسْتِهَانَةً بِكَلامِكَ . فَأَعْفُ عَنْهُمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِكَ ، فَالْكَرِيمُ يَعْفو عَنِ الْمُسِيءِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٢٣) : ((تَجَاوَزَ عَنْهُمْ مَا أَتَوْا يَوْمَ أُحُدَ)) اهـ .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ . اطلُبْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يُشَفِّعَكَ فِيهِمْ ، وَيَغْفِرَ ذُنُوبَهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٤٩٤) : ((وَادْعُ رَبَّكَ لَهُمُ بِالْمَغْفِرَةِ لِمَا أَتَوْا مِنْ جُرْمٍ وَاسْتَحَقُوا عَلَيْهِ عِقَابَهُ مِنْهُ)) اهـ .

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . شَاوِرْ أَصْحَابَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي كُلِّ شَأْنٍ لِكَيْ تُؤَسِّسَ مَبْدَأَ الشُّورَى فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَيَقْتَدِيَ بِكَ النَّاسُ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمُشَاوَرَةَ تَكُونُ فِي الْقَضَايَا الَّتِي لَا وَحْيَ فِيهَا . وَإِذَا حَكَمَ الْوَحْيُ فِي قَضِيَّةٍ مَا ، فَلَا مَعْنَى لِلشُّورَى وَلَا الْمُشَاوَرَةَ .

والله تعالى أمرَ محمدًا ﷺ بِمُشَاوَرَةِ أَصْحَابِهِ فِي الْقَضَايَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِنْ أَجْلِ جَمْعِ كَلِمَتِهِمْ ، وَرَفْعِ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ ، وَمَنْحِهِمُ الثِّقَةَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَوْحِيدِ قُلُوبِهِمْ عَلَى الْمَحَبَةِ وَالْحَقِّ ، وَنَشْرِ الْأَلْفَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ . وَكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ تُسَاهِمُ فِي بَثِّ الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، وَجَعْلِ النَّاسِ يُقَدِّمُونَ عَلَى الْعَمَلِ بِكُلِّ نَشَاطٍ وَحَيَوِيَّةٍ ، لِأَنَّهُمْ مُشَارِكُونَ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ ، وَلَيْسُوا مُتَفَرِّجِينَ . وَجَاءَ مَبْدَأُ الشُّورَى مُطَبَّقًا عَمَلِيًّا لَا شِعَارًا مُفْرَعًا مِنَ الْمَعْنَى أَمَامَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ لخداع الرأي العام . فَالشُّورَى حَيَاةٌ ، وَمَنْهَجٌ تَطْبِيقِيٌّ عَلَى أَرْضِ الْوَقَاعِ أَرَسَى دَعَائِمَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَاقِعًا مَلْمُوسًا فِي مَوَاقِفَ بِالْغَةِ الْحَسَّاسِيَّةِ ، وَلِحِظَاتٍ مَفْصَلِيَّةٍ فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

فَحَدَّثَتِ الْمَشُورَةُ يَوْمَ بَدْرَ ، وَهِيَ لِحِظَةٌ مَفْصَلِيَّةٌ تَتَضَمَّنُ حَرْبًا شَرِسَةً فِي بَدَايَاتِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

ففي صحيح مسلم (٣ / ١٤٠٣) : عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ . قَالَ : فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ . ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ . فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ،

فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ ، والذي نفسي بيده لو أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيطُهَا الْبَحْرَ لَأَخْضَنَاهَا _ يعني الخيل _ ، ولو أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ _ اسم موضع _ لَفَعَلْنَا ^(٦) .
وهنا تتجلى الْمَشُورَةُ في أبهى صورها بين القائد والأتباع . وقد أراد النبي ﷺ رأي الأنصار لأنه لم يكن قد بايعهم على الخروج للقتال ولقاء الأعداء . وقد أحسن سعد بن عُبَادَةَ رضي الله عنه _ في كلامه الذي يدل على قوة الإيمان ، ورباطة الجأش ، والشجاعة في مواجهة الأعداء . وهذا ليس بغريبٍ على الأنصار .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١٢٤) : ((قال العلماء : إنما قصد ﷺ اختبار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو ، وإنما بايعهم على أن يَمْنَعُوهُ مِمَّنْ يَقْصِدُهُ . فلَمَّا عَرَضَ الخروجَ لِعَيرِ أَبِي سَفْيَانَ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُمْ يُوَافِقُونَ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَجَابُوهُ أَحْسَنَ جَوَابٍ بِالْمُوَافَقَةِ التَّامَةِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ وَغَيْرِهَا ، وفيه استشارة الأصحاب وأهل الرأي والخبرة)) اهـ .

ويتجلى الأخذ بِمَشُورَةِ الصَّحَابَةِ يوم بَدْر . فمضى النبي ﷺ " يُبَادِرُ قُرَيْشًا إِلَى الْمَاءِ ، حتى إذا جاء أدنى من ماء بَدْرَ نَزَلَ بِهِ ، فقال حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنُ الْجَمُوحِ أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ ؟ أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ ، قال : ((بَلْ هُوَ الْحَرْبُ وَالرَّأْيُ وَالْمَكِيدَةُ)) ، قال : فَإِنْ هَذَا لَيْسَ لَكَ بِمَنْزِلٍ ، فانهض حتى نَأْتِيَ أَدْنَى قَلْبِ الْقَوْمِ _ يعني البئر _ فَنَنْزِلُهُ ، ثم نُغَوِّرُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْقَلْبِ ، ثم نبني حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ ، ثم نُقَاتِلُ الْقَوْمَ ، فَتَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ " . [السيرة لابن جَبَّان (١ / ١٥٧) . وانظر تاريخ الطبري (٢ / ٢٩) ، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٦٧)] .

فهذا الصحابي الجليل قَدَّمَ خَبْرَتَهُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، ولم يكتفِ الْمَشُورَةَ الصَّادِقَةَ ، بل أعطى رأيه مدعومًا بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ مِنْ أَجْلِ صِنَاعَةِ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ . وقد كان ذَكِيًّا حينما سأل عن اختيار الموقع قبل إبداء النصيحة ، هل هو أَمْرٌ إِلَهِيٌّ مَعْصُومٌ أَمْ اجْتِهَادٌ بَشَرِيٌّ وَفَقَّ ظُرُوفِ الْحَرْبِ ؟ . فهذا السؤال له أبعاد دقيقة . فالأمرُ الإلهيُّ لا يأتيه الباطلُ من بين

(٦) المعنى : لَوْ أَمَرْتَنَا بِإِدْخَالِ خَيْلِنَا إِلَى الْبَحْرِ لَأَدْخَلْنَاهَا اسْتِجَابَةً لِأَمْرِكَ . وَضَرَبُ أَكْبَادِ الْخَيْلِ كِنَايَةً عَنْ رَكْضِهَا ، لِأَنَّ الْفَارِسَ إِذَا أَرَادَ رَكْضَ الْفَرَسِ يُحَرِّكُ رِجْلَيْهِ مِنْ جَانِبَيْهَا ضَارِبًا عَلَى مَوْضِعِ الْكَبِدِ .

يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَلَا يُمْكِنُ رَفْضُهُ أَوْ الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ ، أَمَّا الِاجْتِهَادُ الْبَشَرِيُّ فَيُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ إِذَا ظَهَرَ رَأْيُ رَاجِحٍ .

وَشَاوَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِي الْمَشْرِكِينَ . مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَةِ الْمَشُورَةِ فِي فِقْهِ التَّعَامُلِ مَعَ الْأَعْدَاءِ عِنْدَ الْأَزْمَاتِ .

فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٤ / ١٥٣١) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ ، أَنْتَرُونَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ قَطَعَ غُنًّا مِنَ الْمَشْرِكِينَ ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ - يَعْنِي مَسْلُوبِينَ -)) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تَرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ ، وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ ، فَتَوَجَّهْ لَهُ ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ .

إِنَّ الْمَشْرِكِينَ قَدْ صَدُّوا النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يُهَاجِمَ عِيَالَ الْمَشْرِكِينَ وَنَسْلَهُمْ . وَالذَّرَارِيُّ جَمْعُ ذُرِّيَّةٍ ، وَهِيَ نَسْلُ الْإِنْسَانِ . فَإِنْ يَخْرُجَ الْمَشْرُوكُونَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ، يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ كَمَنْ لَمْ يَبْعَثْ جَاسُوسًا وَوَجَّهَهُمُ بِالْقِتَالِ ، وَهَذَا الْمَقْصُودُ بِقَطْعِ الْغِنَى ، وَالْعَيْنُ هُوَ الْجَاسُوسُ . وَفِي رِوَايَةٍ : ((قَطَعَ غُنًّا)) .

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٥ / ٣٣٤) : ((وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ﷺ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ هَلْ يُخَالِفُ الَّذِينَ نَصَرُوا قُرَيْشًا إِلَى مَوَاضِعِهِمْ فَيَسْبِي أَهْلَهُمْ ، فَإِنْ جَاؤُوا إِلَى نَصَرِهِمْ اشْتَغَلُوا بِهِمْ ، وَانْفَرَدَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِقُرَيْشٍ ، وَذَلِكَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : " تَكُنْ غُنًّا قَطَعَهَا اللَّهُ " ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ بِتَرْكِ الْقِتَالِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى مَا خَرَجَ لَهُ مِنَ الْعُمْرَةِ ، حَتَّى يَكُونَ بَدْءُ الْقِتَالِ مِنْهُمْ ، فَرَجَعَ إِلَى رَأْيِهِ)) اهـ .

وَشَاوَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَادِثَةِ الْإِفْكِ حَيْثُ تَمَّ اتِّهَامُ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - بِالزَّنا . فَعِنَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا ، فَتَشَهَّدَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : ((أَمَّا بَعْدُ ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْاسٍ أَبْنُوا أَهْلِي - يَعْنِي اتِّهَمُوهُمْ وَذَكَرُوهُمْ بِسُوءٍ -))^(٧) .

وَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - . حَيْثُ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(٧) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٧٨٠) برقم (٤٤٧٩) ، ومسلم (٤ / ٢١٢٩) برقم (٢٧٧٠) .

عليّ بن أبي طالب وأسماء بن زيد_ رضي الله عنهما_ حين اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ (أبطأ)، يَسْأَلُهُمَا ، وهو يستشيرهما في فراق أهله^(٨).

وهذه مشورة في أدق تفاصيل الحياة العائلية بين الرجل وزوجته، علماً بأن العلاقة بين الزوجين خاصة للغاية ، وتجري خلف أبواب مُغلقة . وقد أراد النبي ﷺ تأسيس مبدأ الشورى في العلاقات الأسرية والاجتماعية ، والأخذ بكلام الثقة أصحاب الخبرة والرأي الثاقب .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٦) : ((وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل ، حتى أشار المنذر بن عمرو المُعْنِق بالتقدم إلى أمام القوم . وشاورهم في أخذ في أن يقعد في المدينة ، أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصلحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ، فأبى ذلك عليه السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك)) .

وهذه المنهجية الشاملة من الشورى في الأمور الحربية العسكرية ، والعلاقات الاجتماعية ، والمصالح التجارية ، تدل _بدون أدنى شك _ على شمولية مبدأ الشورى ، وعدم اقتصره على مجال دون آخر. وبالطبع فإن المشورة إنما تُؤخذ من أهل الخبرة والكفاءة والاختصاص، كلَّ حَسَب مجاله . والنبي ﷺ كان كثير المشاورة لأصحابه _ رضي الله عنهم _ .

ونشر مبدأ الشورى في المجتمع ، يُزيل الأحقاد ، ويُطيب النفوس ، ويُشعر الناس بأهميتهم في صناعة الأحداث . وعندما يستشير النبي ﷺ أصحابه فهذا تكريم لهم ، وتعظيم لِقَدْرِهِمْ ، وبذلك يزداد إيمانهم ، ويتعمق مفهوم الولاء والانتماء في نفوسهم ، فهُمْ أشخاص مُؤَثَّرُونَ يصنعون الواقع ولا يتفَرَّجون عليه. إنهم ليسوا حجارة على رُقعة الشَّطرنج، بل هُمْ قادة فاعلون يصنعون مَسَارَهُمْ ومَصِيرَهُمْ ، ووجودهم ضروريٌّ ومهم ، وليس وجودهم كَعَدَمِهِ .

والنبي ﷺ صاحب الرأي الثاقب ، والمؤيد بالوحي السماوي المعصوم ، لا يحتاج إلى آراء الناس وأفكارهم ، وإنما أراد أن يعلمهم أهمية المشاورة ، ولكي تقتدي به الأُمَّة مِنْ بَعْدِهِ .

وقد يؤيد الوحي رأي أحد الصحابة ويعتمده إذا أصاب مُراد الله تعالى . وهذا يدل على أهمية رأي الصحابة ومشورتهم التي أدت إلى إعمال عقولهم وفكرهم في خدمة الدعوة ، وأن لا يكونوا في موقف المتفرج عن بُعد ، وإنما يشاركون في صناعة الأحداث ، وإبداء أحكامهم في المسائل

(٨) متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٦٨٢) برقم (٦٩٣٥)، ومسلم (٤ / ٢١٢٩) برقم (٢٧٧٠) .

المختلفة . فالإسلام ليس سُلطة قمعية يجبر مُعتنقيه على الاتِّباع الأعمى ، بل يحثُّهم على التفكير والنقد الاجتماعي ، ودعم الخير ، ودحض الباطل .

قال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ((وافقتُ ربي في ثلاث ، فقلتُ : يا رسول الله ، لو اتَّخذنا مِن مقام إبراهيم مُصلًى ، فَأُنزلت : ﴿ واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] . وآية الحجاب ، قلت يا رسول الله: لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يُكَلِّمُهُنَّ البُرُّ والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلت لهنَّ : عسى ربُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِلَه أزواجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ، فَأُنزلت هذه الآية))^(٩) .

وقال الحافظ في الفتح (٢٩٢ / ١٣) : ((ذَكَرَ ابْنُ بَطَّالٍ أَمْثَلَةً مِمَّا عَمِلَ فِيهِ ﷺ بِالرَّأْيِ مِنْ أَمْرِ الْحَرْبِ ، وَتَنْفِيزِ الْجِيُوشِ ، وَإِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ ، وَأَخْذِ الْفِدَاءِ مِنْ أُسَارَى بَدْرٍ ... قَالَ : وَلَا تَكُونَ الْمَشُورَةَ إِلَّا فِيمَا لَا نَصَ فِيهِ)) اهـ .

وهذه قاعدة جليلة ، فلا يُعَقَّلُ أن الله تعالى يُوحِي للنبي ﷺ بِفَعْلِ شَيْءٍ مَا ، ثم يترك النبي ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ تعالى ، ويذهب لأخذ رأي الصحابة ، ومشورتهم ، والوقوف على كلامهم . فالشورى محكومة فيما لا نص فيه . أمَّا إِنْ نَزَلَ الْوَحْيُ بِأَمْرٍ مَا ، فعندئذ لا شورى ولا مَعْنَى لِلرَّأْيِ الشَّخْصِيَّةِ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، قَالَ : ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _))^(١٠) .

وهذا ليس غريبًا ، فأبو بكر وعمر هُما وزيرَا النبي ﷺ وَالْمُؤْتَمَنَانِ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَالْعَزْمُ هُوَ مُشَاوَرَةُ أَهْلِ الرَّأْيِ وَاتِّبَاعُهُمْ . وَعَلَى الْمُسْتَشَارِ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ ، وَيُقَدِّمَ الْمَشُورَةَ الصَّادِقَةَ بِلَا تَرْيِيفٍ لِلْحَقَائِقِ ، وَلَا مُجَامَلَةٍ ، وَلَا نِفَاقٍ ، وَلَا غَدْرٍ ، وَلَا خِيَانَةٍ ، وَلَا خِدَاعٍ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ))^(١١) .

إِنَّ الْمُسْتَشَارَ أَمِينٌ فِي الْقَضَايَا الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ الْإِسْتِشَارَةَ بِصِدْقٍ وَأَمَانَةٍ ، وَلَا يَخُونُ الْمُسْتَشِيرَ بِإِخْفَاءِ مَصْلَحَتِهِ ، أَوْ إِعَادَةِ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ .

(٩) رواه البخاري (١٥٧ / ١) برقم (٣٩٣) واللفظ له ، ومسلم (١٨٦٥ / ٤) برقم (٢٣٩٩)

بلفظ " وافقتُ ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أُسَارَى بَدْرٍ " .

(١٠) رواه الحاكم في المستدرک (٧٤ / ٣) برقم (٤٤٣٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١١) رواه الحاكم في المستدرک (١٤٥ / ٤) برقم (٧١٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِير (٦ / ٢٦٨) : ((أَي : آمِن عَلَى مَا اسْتُشِيرَ فِيهِ ، فَمَنْ أَفْضَى إِلَى أَخِيهِ بِسِرِّهِ وَأَمَّنْهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَدْ جَعَلَهُ بِمَحَلِّهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُشِيرَ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ صَوَابًا ... وَفِيهِ حَثٌ عَلَى مَا يَحْصُلُ بِهِ مَعْظَمُ الدِّينِ وَهُوَ النَّصْحُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبِهِ يَحْصُلُ التَّحَابُّ وَالْإِتِّلَافُ ، وَبِضِدِّهِ يَكُونُ التَّبَاغُضُ وَالْإِخْتِلَافُ)) اهـ .

إِنَّ مِنْهَجِيَّةَ التَّدْرِجِ تَبَرُّزٌ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى _ أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ . فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ . وَعَفُوُّ النَّبِيِّ عَنْهُمْ هُوَ تَطْهِيرُهُمْ لَهُمْ ، فَانْتَقِلُوا إِلَى الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ ، حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ الْإِسْتِغْفَارَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ فِي حَقِّ اللَّهِ ، لِأَنَّ مَعْصِيَةَ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ مَعْصِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى . فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ . وَلَا شَكَّ أَنَّ اسْتِغْفَارَ النَّبِيِّ ﷺ مَقْبُولٌ ، وَاللَّهُ لَا يَرْفُضُهُ تَكْرِيمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ . وَمَغْفَرَةُ اللَّهِ لَهُمْ هِيَ التَّطْهِيرُ الثَّانِي . وَبَعْدَ مُرُورِهِمْ فِي الْمَرْحَلَتَيْنِ ، وَتَطْهِيرِهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَصَلُّوا إِلَى الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، فَصَارُوا أَهْلًا لِلْإِسْتِشَارَةِ ، وَقَادِرِينَ عَلَى إِبْدَاءِ آرَائِهِمْ ، إِذْ إِنْ قُلُوبُهُمْ صَارَتْ نَقِيَّةً ، وَأُذْهَانُهُمْ صَارَتْ صَافِيَةً . وَالرَّأْيُ الثَّاقِبُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ قَلْبٍ نَجَسٌ ، وَالْعَقْلُ السَّلِيمُ لَا يُوْجَدُ فِي الْجِسْمِ الْمَلُوثِ .

إِنَّ الشُّورَى مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا أَنَّهَا طَرِيقُ الْفَلَاحِ وَالرَّشَادِ ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَى الشُّورَى بَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى هُدًى إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ ^(١٢) . وَيَجِبُ عَلَى الْحُكَّامِ وَالْوُلاةِ مُشَاوَرَةَ الْعُلَمَاءِ (أَهْلِ الْإِخْتِصَاصِ فِي كُلِّ مَجَالٍ) ، وَذَلِكَ لِنَحْقِيقِ مَصَالِحِ النَّاسِ ، وَنَشْرِ الْخَيْرِ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَتَأْسِيسِ التَّنْمِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي الْبِلَادِ لَا التَّنْمِيَةِ الشُّعَارَاتِيَّةِ .

وَكُلُّ حَاكِمٍ مُسْتَبِدٍّ بِرَأْيِهِ لَا يَسْتَشِيرُ أَحَدًا ، فَيَجِبُ عَزْلُهُ ، لِأَنَّ بَقَاءَهُ خَطَرٌ حَقِيقِيٌّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ . وَكَمَا قِيلَ : مَا خَابَ مَنْ اسْتَشَارَ ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ . وَدَائِمًا ، الْعَقْلُ الْجَمْعِيُّ أَقْوَى مِنَ الْعَقْلِ الْفَرْدِيِّ .

(١٢) قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١٣ / ٣٤٠) : ((أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : " مَا تَشَاوَرَ قَوْمٌ قَطُّ بَيْنَهُمْ إِلَّا هَدَاهُمُ اللَّهُ لِأَفْضَلِ مَا يَحْضُرُهُمْ " ، وَفِي لَفْظٍ : " إِلَّا عَزَمَ اللَّهُ لَهُمُ بِالرُّشْدِ أَوْ بِالرُّشْدِ " ... وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ حَسَنِ عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا قَالَ : " قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مَا بِهِ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ _ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ لَا يَحْتَاجُ أَصْحَابَهُ _ ، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ ")) .

وَعَلَيْهِ الْقَوْمُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، يَسْتَشِيرُونَ أَصْحَابَ الْخَبَرَةِ وَالْإِخْتِصَاصِ ، لِأَنَّ غِيَابَ
الاستشارة تهدد حقيقي لمصالح الناس ومصير الأوطان .

وعلى الإنسان أن يستشير أصحاب التجارب ، لأنه يأخذ خلاصة التجارب بلا تعب ولا ثمن .
والعاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَالْجَاهِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ . وَالْأَتَّعَظُ بِالْآخِرِينَ مَجَانِيٌّ ، أَمَّا الْإِتَّعَظُ
بِالنَّفْسِ فَتَكْلِفَتُهُ عَالِيَةٌ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَشِيرَ الْإِنْسَانُ أَصْحَابَ التَّجَارِبِ الصَّادِقِينَ وَالْأَمْنَاءِ حَتَّى
يُقَدِّمُوا النِّصْحَةَ بِإِخْلَاصٍ بِلَا خِدَاعٍ . وَفِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٢٧٥) : ((قَالَ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ
وَجْهَهُ - : " الْمُشَاوَرَةُ حِصْنٌ مِنَ التَّدَامَةِ وَأَمْنٌ مِنَ الْمَلَامَةِ " . وَقِيلَ : الْأَحْمَقُ مَنْ قَطَعَ الْعُجْبَ عَنِ
الاستشارة ، والاستبدادُ عن الاستخارة ، وكفى بِمَدْحِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . لَكِنْ
لَا يُشَاوِرُ إِلَّا أَمِينًا حَازِقًا نَاصِحًا مُجَرَّبًا ثَابِتَ الْجَأْشِ ، غَيْرَ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ ، وَلَا مُتْلَوِّنَ فِي رَأْيِهِ ، وَلَا
كَاذِبَ فِي مَقَالِهِ ، فَمَنْ كَذَبَ لِسَانُهُ كَذَبَ رَأْيُهُ ، وَيَجِبُ كَوْنُهُ فَارِغَ الْبَالِ وَقَدْ اسْتَشَارَ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٤ / ٢٤٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى
جَوَازِ الاجْتِهَادِ فِي الْأُمُورِ ، وَالْأَخْذِ بِالظُّنُونِ مَعَ إِمْكَانِ الْوَحْيِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ .
وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنَى الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُشَاوِرَ فِيهِ أَصْحَابَهُ ، فَقَالَتْ
طَائِفَةٌ : ذَلِكَ فِي مَكَائِدِ الْحُرُوبِ ، وَعِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، وَتَطْيِيبِ لِنَفُوسِهِمْ ، وَرَفْعِ الْأَقْدَارِ ، وَتَأْلُفِهَا عَلَى
دِينِهِمْ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَغْنَاهُ عَنْ رَأْيِهِمْ بِوَحْيِهِ . رُويَ هَذَا عَنْ قَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ وَابْنِ إِسْحَاقَ
وَالشَّافِعِيِّ)) .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

شَاوِرْ صَدِيقَكَ فِي الْخَفِيِّ الْمُسْكَنِ وَاقْبَلْ نَصِيحَةَ نَاصِحٍ مُتَفَضِّلٍ
فَاللَّهُ قَدْ أَوْصَى بِذَلِكَ نَبِيَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ شَاوِرْهُمْ ﴾ وَ﴿ فَتَوَكَّلْ ﴾

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ . إِذَا عَقَدْتَ النِّيَّةَ عَلَى أَمْرٍ مَا بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ ، فَاعْتَمِدْ عَلَى
اللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ لَا عَلَى الْمُشَاوَرَةِ ، وَثِقْ بِاللَّهِ ، وَامْضِ فِي طَرِيقِكَ لِتَحْقِيقِ رُؤْيَاكَ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ .
وَالْمُشَاوَرَةُ قَبْلَ الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ ، وَإِذَا عَزَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى أَمْرٍ ، فَلَا شَيْءَ يَتَقَدَّمُ عَلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ . وَالْعَزْمُ عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَى تَنْفِيزِ الْأَمْرِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِ ، الْمُعْتَرِفِينَ بِعَجْزِهِمْ أَمَامَهُ . وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ هُوَ الْاعْتِمَادُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ ، مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ دُونَ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ، وَالتَّفَوُّيْضُ فِي الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَالتَّوَكُّلُ عَلَامَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى صِدْقِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ ، وَتَعْظِيمِهِ لِقُدْرَةِ خَالِقِهِ اللَّامِحْدُودَةِ ، وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى . وَالتَّوَكُّلُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى حُبِّ الْعَبْدِ لِلَّهِ ، وَحُبِّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٩٤) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : فَإِذَا صَحَّ عَزْمُكَ بِتَثْبِيْتِنَا إِيَّاكَ ، وَتَسْهِيدِنَا لَكَ فِيْمَا نَابَكَ وَحَزَبَكَ مِنْ أَمْرِ دِينِكَ وَدُنْيَاكَ ، فَامْضِ لِمَا أَمَرْنَاكَ بِهِ عَلَى مَا أَمَرْنَاكَ بِهِ ، وَافْقَ ذَلِكَ آرَاءَ أَصْحَابِكَ وَمَا أَشَارُوا بِهِ عَلَيْكَ أَوْ خَالَفَهَا . وَتَوَكَّلْ _ فِيْمَا تَأْتِي مِنْ أُمُورِكَ وَتَدَعِ وَتُحَاوِلْ أَوْ تُزَاوِلْ _ عَلَى رَبِّكَ ، فَثِقْ بِهِ فِي كُلِّ ذَلِكَ ، وَارْضَ بِقَضَائِهِ فِي جَمِيعِهِ دُونَ آرَاءِ سَائِرِ خَلْقِهِ وَمَعُونَتِهِمْ . ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ ، وَهُمْ الرَّاْضُونَ بِقَضَائِهِ ، وَالمُسْتَسْلِمُونَ لِحُكْمِهِ فِيهِمْ ، وَافْقَ ذَلِكَ مِنْهُمْ هَوًى أَوْ خَالَفَهُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا إِذَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَبِالتَّالِي ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَجْلِبَ النَّفْعَ لِنَفْسِهِ أَوْ يَدْفَعَ عَنْهَا الضَّرَّ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُ الْغَيْبَ لَحَصَلَ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ، وَابْتَعَدَ عَنِ الْأَرْمَاتِ . إِنَّهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، الْمُصَدِّقِينَ بِكَلَامِهِ .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ^(١٣) . النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ النَّاسَ بِمَجِيءِ السَّاعَةِ ، وَلَكِنْ لَا يَعْرِفُ مَوْعِدَهَا ، لِأَنَّ مَوْعِدَ قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ ، وَاللَّهُ لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِبَ لِنَفْسِهِ الْخَيْرَ ، وَلَا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا الضَّرَّ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَلْبِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الضَّرِّ . وَهَذَا لَيْسَ تَوَاضُعًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الْوَاضِحُ . فَالنَّبِيُّ ﷺ مَخْلُوقٌ عَاجِزٌ أَمَامَ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُ ﷺ بِخُضُوعِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنِهِ عَبْدًا لَخَالِقِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَدَّعِيَ لِنَفْسِهِ مَا لَيْسَ لَهَا . وَالْآيَةُ تُظْهِرُ عُبودِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَصِدْقَهُ وَإِخْلَاصَهُ ، وَالتَّبَرُّؤَ مِنْ ادِّعَاءِ مَعْرِفَةِ

(١٣) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٩٩) : ((سَبَبُ نَزْوِهَا أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَلَا يُخْبِرُكَ رَبُّكَ بِالسَّعْرِ الرَّخِيصِ قَبْلَ أَنْ يَغْلُوَ فَتَشْتَرِيَ فِتْرَتَهُ ، وَبِالْأَرْضِ الَّتِي تَرِيدُ أَنْ تُجَادِبَ فَتَرْتَحِلَ عَنْهَا إِلَى مَا قَدْ أَخْصَبَ . فَتَنْزِلُ هَذِهِ الْآيَةُ ، رُؤِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي الْمَرَادِ بِالنَّفْعِ وَالضَّرِّ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ عَامٌ فِي جَمِيعِ مَا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ . وَالثَّانِي أَنَّ النِّفْعَ الْهَدْيَ وَالضَّرَّ الضَّلَالَةَ قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ)) .

الْغَيْبِ . وَلَوْ كَانَ ﷺ كَاذِبًا لَأُعْطِيَ لِنَفْسِهِ قُدْرَاتٍ خَارِقَةٌ ، وَادَّعَى مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ كَمَا يَفْعَلُ السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ ، وَذَلِكَ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى النَّاسِ ، وَزِيَادَةِ عَدَدِ الْأَتْبَاعِ ، وَيَسْطِ نَفُوذِهِ وَسُلْطَتِهِ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْقَبَائِلِ ، لَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يَفْعَلْ ، وَهَذَا دَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى صِدْقِهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرْسَلَهُ لِإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وَلَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي شَيْئًا))⁽¹⁴⁾ .

وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ ، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ النِّفْعَ وَلَا الضَّرَرَ ، فَكَيْفَ يُقَدِّمُهُمَا لِغَيْرِهِ ؟! . وَمَنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ ، كَيْفَ يَمْلِكُ عِلْمَ السَّاعَةِ ؟! . وَعِلْمُ السَّاعَةِ قَدْ اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا شَأْنَ لِلْمَخْلُوقَاتِ بِهِ . وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَرِفُ بِعَجْزِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَيْفَ بِالْمُنْجِمِينَ وَالْذَّجَالِينَ وَالْمَشْعُودِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ ؟! . كَذَبَ الْمُنْجِمُونَ وَلَوْ صَدَقُوا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٢٩٤) : ((ﷻ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ)) فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بِالِاسْتِثْنَاءِ . وَالْمَعْنَى : إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُمْلِكَنِي وَيُمْكِنَنِي مِنْهُ)) اهـ .

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾⁽¹⁵⁾ . لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُ الْغَيْبَ لَحَصَلَ الْخَيْرُ وَجَلِبَهُ لِنَفْسِهِ ، وَابْتَعَدَ عَنْ كُلِّ الْأَضْرَارِ ، وَحُمِيَ نَفْسُهُ مِنْهَا ، وَلَكِنَّهُ ﷺ عَبْدٌ لِلَّهِ ، وَغَيْرُ مُطَّلِعٍ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، فَلَا يَعْرِفُ مَاذَا يَنْتَظَرُهُ فِي الزَّمَنِ الْآتِي ، وَلَا يَعْرِفُ مَا قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَلَا مَا قَدَّرَهُ لَهُ . وَالْغَيْبُ كُلُّ مَا غَابَ عَنْكَ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ وَصَحِيحَةٍ : ((لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ)) . وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ النَّبَوِيَّةُ تُشِيرُ بِكُلِّ وَضُوحٍ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْرِفُ الْغَيْبَ ، وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : لَوْ عَادَ بِي الزَّمَنُ إِلَى الْوَرَاءِ لَقُمْتُ بِتَغْيِيرِ فِعْلِي الَّذِي قُمْتُ بِهِ فِي الْمَاضِي ، لِمَا ظَهَرَ لِي مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِي . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى : لَوْ عَلِمْتُ فِي الْمَاضِي مَا أَعْلَمُهُ الْآنَ لَقُمْتُ بِكَذَا

(١٤) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤ / ٢٣٨) بِرَقْمِ (٧٤٩٥) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

(١٥) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٣٠٠) : ((وَيُخْرَجُ فِي الْمَرَادِ بِالْخَيْرِ هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، وَالثَّانِي : الْمَالُ ، وَالثَّالِثُ : الرِّزْقُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْفَقْرُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ كُلُّ مَا يَسُوءُ ، قَالَه ابْنُ زَيْدٍ ، وَالثَّالِثُ الْجَنُونُ ، قَالَه الْحَسَنُ ، وَالرَّابِعُ التَّكْذِيبُ ، قَالَه الرَّجَّاحُ . فَعَلَى قَوْلِ الْحَسَنِ يَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ مُبْتَدَأً ، وَالْمَعْنَى : وَمَا بِي مِنْ جَنُونٍ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ . وَعَلَى بَاقِي الْأَقْوَالِ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِمَا قَبْلَهُ)) .

وكذا . وهذا يُشير إلى محدودية عِلْمِ النَّبِيِّ وَعَدَم معرفته الغَيْب . فالنَّبِيُّ ﷺ لا يَعْلَمُ إِلَّا إِذَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، ولا يَعْرِفُ الغَيْبَ إِلَّا إِذَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ٢٩٤) : ((﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ﴾))
المعنى: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنِّي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُعَرِّفَنِيهِ لَفَعَلْتُهُ . وقيل: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ متى يكون لي النَّصْرُ في الحرب لقاتلتُ فَلَمْ أُغْلَبْ . وقال ابن عباس : لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ سَنَةَ الْجَدْبِ لَهَيَّأتُ لها في زمن الخِصْبِ ما يَكْفِينِي . وقيل : المعنى : لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ التجارة التي تَنْفِقُ لاَشْتَرِيَتْها وقت كسادها . وقيل : المعنى لو كُنْتُ أَعْلَمُ متى أموت لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ العمل الصالح ، عن الحسن وابن جُرَيْج . وقيل: المعنى لو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لأَجَبْتُ عَنْ كُلِّ ما أُسْأَلُ عَنْهُ ، وَكُلُّهُ مُرَاد ، والله أعلم)) .

﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . محمد ﷺ إنسان ، اصطفاه الله وجعله نَبِيًّا رَسُولًا ، وأرسله نَذِيرًا ، يُنْذِرُ الغُصَاةَ الْعِقَابَ الْإِلَهِيَّ ، وَيُخَوِّفُهُمُ الْعَذَابَ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ ، وَالنَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ . وَالنَّذَارَةُ وَالْبَشَارَةُ تَكُونَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يُصَدِّقُونَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلْيَسُوا مَعْنِينَ بِالْأَمْرِ ، لَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ١٤٠) : ((﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾)) يقول : ما أنا إلا رسول لله ، أُرْسِلُنِي إِلَيْكُمْ ، أَنْذِرْ عِقَابَهُ مَنْ عَصَاهُ مِنْكُمْ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَأُبَشِّرْ بِثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَطَاعَهُ مِنْكُمْ . وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، يقول : يُصَدِّقُونَ بَأَنِّي لِرَسُولٍ ، وَيَقْرَأُونَ بِحَقِيقَةِ مَا جِئْتُهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

هذه الآيةُ مِنْهَاجٌ مُتَكَامِلٌ ، فَهِيَ تَوْضَحُ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتُشِيرُ إِلَى أَصْلِهِ الشَّرِيفِ ، وَمَكَانَتِهِ الرَّفِيعَةِ ، وَأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ . وَالآيَةُ مَدِيحٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَإِظْهَارٌ لِفَضْلِهِ ، وَرَفْعٌ لِمَنْزِلَتِهِ .
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ . لقد جاءكم أيُّهَا الْعَرَبُ رَسُولٌ مِنْكُمْ ، تَعْرِفُونَ تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ ، وَلَيْسَ غَرِيبًا عَنْكُمْ . قَبِيلَتُهُ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَيَاتُهُ مَكْشُوفَةٌ ، وَأَخْلَاقُهُ طَيِّبَةٌ . عَامِلُكُمْ وَعَامِلَتُمُوهُ .
وَالْخِطَابُ لِلْعَرَبِ خَاصَّةٌ . لقد جاءكم رَسُولٌ مِنْ جَنْسِكُمْ ، فَهُوَ عَرَبِيٌّ قُرَشِيٌّ هَاشِمِيٌّ . تَعْرِفُونَ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ ، وَمَكَانَتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ﷺ ، لَيْسَ أَعْجَمِيًّا وَلَا جَنْبِيًّا وَلَا مَلَكًا .

إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْ جَنْسِهِمْ ، يَتَحَدَّثُ بِلُغَتِهِمْ ، يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ ، وصفاته ، وصدقته ، وأمانته ، وتفاصيل حياته . يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الطَّهَارَةِ وَالشَّرَفِ . فَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ نَسَبًا ، وَلَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ مِنْ أَوْسَاخِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَهُوَ ﷺ الطَّاهِرُ الْمُطَهَّرُ . وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ نَقَاطُ سَوْدَاءٍ فِي حَيَاتِهِ ﷺ ، لَقَامَ النَّاسَ بِتَغْيِيرِهِ بِهَا ، وَأَثَرَتْ سَلْبًا عَلَى الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَحْدُثْ ، لِأَنَّ حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةَ ﷺ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ ، وَصَفَحَاتُ بَيَاضٍ ، بِلا مَنَاطِقٍ مُظْلِمَةٍ وَلَا نَقَاطِ سَوْدَاءٍ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يُذَكِّرُ الْعَرَبَ بِهَذِهِ النِّعَةِ الْعَظِيمَةِ ، حَيْثُ أَرْسَلَ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ ، وَبِمَا يَفْهَمُونَهُ ، دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى مُتَرَجِّمٍ أَوْ وَسِيطٍ . وَهَذَا تَشْرِيفٌ لَهُمْ ، وَشَرَفٌ لَهُمْ إِلَى الْأَبَدِ . وَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سَفَاحٍ ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي)) (16) .

وَالسَّفَاحُ هُوَ الزَّنى . مَأْخُوذٌ مِنْ : سَفَحَ الْمَاءَ ، إِذَا صَبَّهُ . فَالزَّانِي هُمُّهُ صَبُّ الْمَنِيِّ ، وَتَفْرِيقُ شَهْوَتِهِ الْجَنَسِيَّةِ ، وَلَا يَهْدَفُ إِلَى إِنْشَاءِ أُسْرَةٍ ، وَإِنْجَابِ الْأَنْبَاءِ ، وَتَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ . وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ نَسَبَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى آدَمَ ﷺ لَمْ يَكُنِ النَّسْلُ فِيهِ إِلَّا مِنْ نِكَاحٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ زِنَى . وَالحديثُ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ ، لَكِنَّ سَنَدَهُ مُتَكَلِّمٌ فِيهِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٣ / ٨) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا مِنْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا وَلَدَتْ النَّبِيَّ ﷺ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ)) اهـ . وَ « مِنْ أَنْفُسِكُمْ » تُشِيرُ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ صَفْوَةِ الْعَرَبِ ، وَأَشْرَفِ قِبَائِلِهَا . وَهَذَا مَدِيحٌ إِلَهِيٌّ لِنَسَبِ النَّبِيِّ ﷺ . وَفِي قِرَاءَةِ " مِنْ أَنْفُسِكُمْ " بَفَتْحِ الْفَاءِ . وَهِيَ مِنَ التَّنَاسُتِ . يَعْنِي : مِنْ أَشْرَفِكُمْ وَأَفْضَلِكُمْ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥٢٠ و ٥٢١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » . قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الْفَاءِ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ مَحِيصَنٍ وَمُحِبُّوبٌ عَنْ أَبِي عَمْرٍو بِفَتْحِهَا . وَفِي الْمِزْمُومَةِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : مِنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ ، قَالَهُ ابْنُ

(١٦) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (٨٠ / ٥) بِرَقْمِ (٤٧٢٨) . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٣٩٥ / ٨) : ((وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ . صَحَّحَ لَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ ، وَقَدْ تُكَلِّمُ فِيهِ ، وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ ثَقَاتٌ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَلْخِيصِ الْحَبِيرِ (١٧٦ / ٣) : ((فِي إِسْنَادِهِ نَظَرٌ)) .

عباس. وقال : ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ . والثاني : مِمَّنْ تَعْرِفُونَ ، قاله قتادة . والثالث : مِمَّنْ نِكَاحَ لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ مِنْ وِلَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، قاله جعفر الصادق . الرابع : بَشَرٍ مِثْلُكُمْ ، فهو آكِدٌ لِلْحُجَّةِ ، لأنكم تفقهون عَمَّنْ هُوَ مِثْلُكُمْ ، قاله الرَّجَّاجُ . وفي المفتوحة ثلاثة أقوال : أحدها : أَفْضَلُكُمْ خُلُقًا ، والثاني : أَشْرَفُكُمْ نَسَبًا ، والثالث : أَكْثَرُكُمْ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٧٨٢) : عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسَقَعِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)) . وهذا يدل على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ ، وَأَنَّهُ فِي أَعْلَى هَرَمِ الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ وَالطَّهَارَةِ . فَاللَّهُ قَدْ اخْتَارَهُ لِحَمْلِ كَلِمَتِهِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ تَكْلِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَشْرِيفٌ لَهُ فِي آنٍ مَعًا . وعن ابن عباس _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ : يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَ : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ " ، يَعْنِي : مِنْ أَعْظَمِكُمْ قَدْرًا (١٧) .

وقراءة ابن عباس وَفَّقَ الْحَدِيثَ إِنَّمَا هِيَ بَفَتْحِ الْفَاءِ فِي " أَنْفُسِكُمْ " . مِنَ النَّفَاسَةِ . ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (١٨) . يَعُزُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الشَّيْءُ الَّذِي يَشُقُّ عَلَى أُمَّتِهِ . وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى ، يَعُزُّ عَلَيْهِ مَشَقَّتُكُمْ لِأَنَّهُ مِنْ جَنْسِكُمْ ، وَمُرْسَلٌ لِهَدَايَتِكُمْ وَإِرْشَادِكُمْ إِلَى الْخَيْرِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى رَحْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِأُمَّتِهِ ، وَعَظْفِهِ عَلَيْهَا ، وَاعْتِنَائِهِ بِهَا ، وَحُبِّهِ لَهَا . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥٢٢) : ((أَي : عَزِيزٌ عَلَيْهِ عَنَّتُكُمْ ، وَهُوَ دُخُولُ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمُ وَالْمَكْرَهُ وَالْأَذَى)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٨٨) : ((شَدِيدٌ عَلَيْهِ مَشَقَّتِكُمْ ، وَكُلُّ مَضَرَّةٍ تُصِيبُكُمْ)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ : ((الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)) (١٩) .

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٦٢) برقم (٢٩٤٥) ، وسكت عنه الذهبي .
(١٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٥٢١) : ((فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : شَدِيدٌ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ ، رَوَاهُ الصَّحَّاحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ الرَّجَّاجُ : شَدِيدٌ عَلَيْهِ عَنَّتُكُمْ ، وَالْعَنَتُ لِقَاءُ الشَّدَةِ . وَالثَّانِي : شَدِيدٌ عَلَيْهِ مَا أَتَمَّكُمْ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢٣ / ١) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) .

لا يمكن لأحد أن يُغالب الدِّينَ أو يتفوق عليه . فالعاقِلُ يلتزم بالرِّفق واللين والوسطية ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها فيُهْلِكها ، ولا يُهْمِل التعاليم الدينية ويستخف بها فيُضيع نفسه . فالإسلام يُسْرٌ بلا ضعف . فكلُّ مُتَمَقِّق في الدِّين وفق مبادئ التشدد ستَنقَطع به السُّبُل ، فإذا ترك الإنسان الرِّفق والهدوء فسوف يَسْقُط حتماً .

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . إِنَّ النبي ﷺ حَرِيصٌ على هداية الناس إلى طريق الخير كي يَحْصِلُوا على الجنة . إِنَّهُ شَدِيدُ الْحَرَصِ على قِيَادَةِ النَّاسِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وهذا الحرصُ ليس من أجل مصلحة شخصية ، أو لتحقيق أهداف ذاتية ، وإنما هو _ أي الحرص _ جُزء لا يَتَجَزَّأ من معنى الرسالة النبوية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١٨١ / ١) : ((﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي: على إيمانكم وصلاح شَأْنِكُمْ)) اهـ .

ولأنَّ النبي ﷺ عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ النَّاسُ النَّارَ ، وحريصٌ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَقَدْ بَيَّنَ لَهُمْ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . فلم يَكْتُم شَيْئاً ، وَلَمْ يَخْدَعْهُمْ . بَلْ أَوْصَلَ لَهُمُ الرِّسَالَةَ الإِلَهِيَّةَ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ . وهذا ليس غريباً ، فهو الصادقُ الأَمِينُ في كُلِّ مَرَاوِجِ حَيَاتِهِ . وهنا ، تتجلى أمانةُ تَبْلِيغِ الوَحْيِ الإِلَهِيِّ بلا زيادة ولا نقصان . والوَحْيُ الإِلَهِيُّ جَاءَ لِإِنْفَاذِ النَّاسِ مِنَ الْعَذَابِ ، وإرشادهم إلى السعادة في الدارين . واللهُ غَنِيٌّ عَنِ النَّاسِ ، لا تَضُرُّهُ المَعْصِيَةُ ، ولا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ .

(١٩) رواه أحمد (٢٣٦ / ١) برقم (٢١٠٧) ، وحسنه الحافظ في الفتح (٩٤ / ١) . وقال العجلوني في كشف الخفاء (٥١ / ١) : ((رواه أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة أيضا لكن بلفظ " إني أرسلتُ بالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةَ ")) . وقال الحافظ في الفتح (٩٤ / ١) : ((والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبَدَّل وتُنَسَّخ . والحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ . والحَنِيفُ في اللغة من كان على مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ . وَتَمَّيَّ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا لِمَيْلِهِ عَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ ، لَأَن أَصْلَ الْحَنِيفِ الْمَيْلُ)) اهـ .

وعن أبي ذر _ رضي الله عنه _ قال : تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يُقَلَّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً. قال: فقال ﷺ : ((ما بقي شيء يُقَرَّب مِنَ الجنة ، ويُباعِد مِنَ النار ، إلا وقد بُيِّنَ لَكُمْ)) (20).

﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ . النبي ﷺ رفيقٌ بالناس كلهم . فهو رؤوفٌ بالمطيعين ، رحيمٌ بالمُذنبين ، شديد الرحمة ، يُريد الخير للناس ، وهو لا يحتاجهم . فالجنة مضمونة له ﷺ ، وهو يُحبُّ أن يدخل الناس الجنة ، ولا يدخل أحد النار . والرؤوف هو المُبالغ في الشفقة عليهم ، والرأفة أرقُّ الرحمة . ويُقال : الرأفة أخصُّ ، والرحمة أعمُّ . وقد منح الله محمداً اسمين من أسمائه ، وهذا دليلٌ باهر على المكانة الرفيعة لهذا النبي العظيم ﷺ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٧٣ / ٨) : ((الرؤوف : المُبالغ في الرأفة والشفقة ... وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحدٍ من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ ، فإنه قال: ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رؤوف رحيم ، عزيز عليه ما عنتم ، لا يهتم إلا شأنكم ، وهو القائم بالشفاعة لكم ، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته ، فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة)) اهـ .
وكما قال جرير :

يَرى للمسلمين عليه حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

وعن أبي بن كعب _ رضي الله عنه _ قال : آخر ما نزل من القرآن : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (21).
وقال الله تعالى: ﴿ وما كُنْتُمْ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا لَا رِثَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

إن النبي ﷺ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ، وهذه فضيلة له ودليل صدقه . والأُمِّيَّة في غيره غيبٌ ونقص . ولو كان النبي ﷺ قارئاً و كاتباً لَشَكَّ فيه الكُفَّار ، وقالوا : لقد قام بتأليف القرآن ،

(٢٠) رواه الطبراني في الكبير (٢ / ١٥٥) برقم (١٦٤٧). وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٤٧٢) : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، وهو ثقة .

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٨) برقم (٣٢٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وَتَجْمِيعِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَتَلْفِيقِ الْأَخْبَارِ وَالرَّوَايَاتِ، بِاعْتِبَارِهِ قَارِئًا وَكَاتِبًا. وَأَيْضًا ، لَشَكِّ فِيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ قَارِئٌ وَكَاتِبٌ ، وَهَذَا يُخَالِفُ صِفَتَهُ فِي كُتُبِنَا الدِّينِيَّةِ ، وَسَوْفَ يَتَّهِمُونَهُ بِالْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. إِذَنْ، أُمِّيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مُعْجَزَةٌ لَهُ، وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ. فَالْإِنْسَانُ الْأُمِّيُّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَلِّفَ كِتَابًا يُعْجِزُ الْعُلَمَاءَ وَالْفُصَحَاءَ وَالشُّعْرَاءَ . وَالْعَرَبُ هُمْ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْأَشْعَارِ .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ . إِنَّ أُمِّيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ مَعْرُوفَةٌ لِلْجَمِيعِ. فَقَدْ قَضَى حَيَاتِهِ لَا يَقْرَأُ، وَلَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ. وَهَذِهِ صِفَتُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ . وَأَيْضًا إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يَسْهَرُ مَعَ الشُّعْرَاءَ ، أَوْ يَتَرَدَّدُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ (الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) . وَقَدْ جَاءَ بِهَذَا الْكِتَابَ الْمُعْجِزَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْأَحْكَامَ وَالشَّرَائِعَ ، وَأَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَالْأُمُورَ الْغَيْبِيَّةَ . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى . إِذْ إِنْ ظَهَرَ الْقُرْآنُ الْجَامِعَ لِأَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَخْبَارِ وَالْغُيُوبِ وَالْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ عَلَى يَدِ رَجُلٍ أُمِّيٍّ هُوَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، وَمُعْجَزَةٌ تُشِيرُ إِلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٥٥٢) : ((أَي : قَدْ لَبِثْتَ فِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذَا الْقُرْآنِ عُمَرَا ، لَا تَقْرَأُ كِتَابًا ، وَلَا تُحَسِّنُ الْكِتَابَةَ ، بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ وَغَيْرِهِمْ يَعْرِفُ أَنَّكَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ... وَهَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لَا يُحَسِّنُ الْكِتَابَةَ ، وَلَا يَخْطُ سَطْرًا وَلَا حَرْفًا بِيَدِهِ ، بَلْ كَانَ لَهُ كُتَّابٌ يَكْتُبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْوَحْيَ وَالرَّسَائِلَ إِلَى الْأَقَالِمِ)) اهـ .

﴿ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تَأْكِيدٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْتُبُ ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ عَادَةً تَكُونُ بِالْيَدِ الْيُمْنَى . وَقَالَ الْبِيضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣١٩) : ((وَذِكْرُ الْيَمِينِ زِيَادَةٌ تَصَوِيرٌ لِلْمَنْفَعَةِ)) اهـ .

﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ . لَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَارِئًا وَكَاتِبًا لَشَكَّ فِيهِ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ ، وَاعْتَبَرُوهُ مُؤَلِّفَ الْقُرْآنِ بِحُكْمِ مَعْرِفَتِهِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَى كِتَابَاتِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ ، وَأَيْضًا لَشَكَّ فِيهِ الْيَهُودُ ، لِأَنَّ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ أُمِّيٌّ ، فَلَوْ كَانَ قَارِئًا وَكَاتِبًا ، لَكَانَ هَذَا مُنَافِضًا لِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ ، وَبِالتَّالِي سَيَطْعَنُ فِيهِ الْيَهُودُ ، وَيَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ وَالْخِدَاعِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣ / ٣١٢) : ((﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أَي مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَكَانَ لَهُمْ فِي ارْتِيَابِهِمْ مُتَعَلِّقٌ ، وَقَالُوا : الَّذِي نَجِدُهُ فِي كُتُبِنَا أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَيْسَ بِهِ .

قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ ، فنزلت هذه الآية. وقال النحاس : دليلاً على نبوته لقريش ، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يخاطب أهل الكتاب ، ولم يكن بمكة أهل الكتاب ، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ، وزالت الريبة والشك)) اه .

وقد سمّاهم مُبْطِلِينَ ، لأنهم لا يبحثون عن الحق ، وإنما يتخذون موقفاً مسبّقاً مُعَادِياً للإسلام ، سواءً ظهّر لهم الحق أم لم يظهر . وحتى لو كان النبي ﷺ قارئاً و كاتباً ، فهذا لا يعطيهم المُبرّر للطعن فيه ، بسبب صدقه وأمانته وكثرة مُعْجَراته . وقد كفروا به وهو أمّي جاءهم بكتاب مُعْجَز . فماذا سيفعلون لو كان قارئاً و كاتباً وعالمًا بالكتب السابقة ، ودارسًا لأحوال الأمم الغابرة ؟!

وقال البيضاوي في تفسيره (٣١٩ / ١) : ((إذا لارتاب المُبْطِلون)) أي : لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا : لعله تعلّمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين . وإنما سمّاهم مُبْطِلِينَ لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المُكاثرة . وقيل : لارتاب أهل الكتاب لو وجدناهم نعتك على خلاف ما في كتبهم)) اه .

والجدير بالذكر أن بعض المتأخرين _ كالقاضي الباجي _ قد ذهب إلى أن النبي ﷺ كتب يوم الحديبية ، وهو يقصد أن هذا الأمر على وجه المُعْجَزة ، وليس أنه ﷺ كان يكتب . ففي صحيح البخاري (٩٦٠ / ٢) : ((فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب)) . لقد تمسكوا بظاهر النص . والمعنى أن النبي ﷺ أمر علياً فكتب . فكل من أمر بشيء يجوز نسبة الفعل إليه مثل : ضرب الأمير فلاناً ، إذا أمر بضربه . ونقول : غزاهم الملك ، وهو جالس بمكانه لم يتحرك ، إذا أرسل إليهم جيشاً ... إلخ . وقال الحافظ في الفتح (٥٠٣ / ٧) : ((فادّعى (الباجي) أن النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن يكتب ، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ، ورموه بالزندقة ، وأن الذي قاله مُخَالِف للقرآن ، حتى قال قائلهم : برئت ممن شرى دنيا بآخرة ، وقال إن رسول الله قد كتب ، فجَمَعَهُم الأمير ، فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة ، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن ، بل يؤخذ من مفهوم القرآن ، لأنه قيّد النفي بما قبل ورود القرآن ، فقال : « وما كنت تلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » . وبعد أن تحققت أميته ، وتقرّرت بذلك مُعْجَزته ، وأمن الارتياب في ذلك ، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم ، فتكون مُعْجَزة أخرى . وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك منهم شيخه أبو ذر الهروي ، وأبو الفتح التيسابوري ، وآخرون من علماء إفريقية)) اه . والصحيح الثابت أن

النبي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب. وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٣١٢) : ((هذا ، وهو الصحيح في الباب ، أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنما أمر من يكتب ، وكذلك ما قرأ ولا تهجى)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستقيموا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٦] .

النبي ﷺ بشر كباقي الناس ، لكن الله خصه بالوحي والتبوء ، فصار متميزاً عن الناس . وقد جاء بدعوة التوحيد ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، فيجب الإيمان بالله والاستقامة على طريقه ، واللجوء إليه في كل الحالات ، وطلب الغفران منه ، لأنه سبحانه يملك سلطة غفران الذنوب .
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلاءِ المشركين : أنا لست إلا بشراً من جنسكم ، اختارني الله نبياً ورسولاً لإيصال الرسالة الإلهية إلى الناس . وفي تفسير القرطبي (١٥ / ٢٩٧) : ((قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع)) اهـ .

وَجَبَ على النبي ﷺ أن يُبْلَغَ ، وَوَجَبَ على الناس أن يتبعوه ، ولا داعي لتكذيبه ، لأنه قدّم الأدلة الثقلية والعقلية على صحة نبوته . والرسالة الإلهية قائمة على توحيد الله وإفراده بالعبادة ، فهو الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له ، وليس مثل الأصنام الآلهة المتعددة والمتفرقة ، إنما هو إله واحد . وبما أن النبي ﷺ بشرٌ مثلهم ، فهو لا يستطيع أن يُجبرهم على الإيمان والتصديق به ، ولا يملك سلطة غفران ذنوبهم . لذلك عليهم أن يتوجهوا إلى الله وحده ، مُخلصين له الدين ، مُستقيمين على طريقه ، طالبين المغفرة منه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٠٦) : ((لَسْتُ مَلَكًا وَلَا جِنِّيًّا لَا يُمكنكم التلقي منه ، ولا أدعوكم إلى ما تنبؤ عنه العقول والأسماع ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل ، ويدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل)) اهـ .

﴿ فَاستقيموا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ . فَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَاسْتَقيموا على المنهاج الإلهي ، واطلبوا المغفرة من الله ، فهو خالقكم الذي يقبل التائبين ، ويغفر للمستغفرين .
﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ . هذا تهديد للمشركين ، ووعد لهم ، فالعذاب لهم ، والهلاك عليهم ، إن ظلوا على شركهم . وَيْلٌ لَهُمْ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ ، وَاسْتَهَانَتِهِمْ بِأَحْكَامِ اللَّهِ ، وَكُفْرِهِمْ بِهِ سُبْحَانَهُ .
وقد قال النبي ﷺ : ((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)) (22) .

(٢٢) متفق عليه . البخاري (١ / ١٥٦) برقم (٣٩٢) ، ومسلم (١ / ٤٠٠) برقم (٥٧٢) .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَّرَ كِبَاقِي النَّاسِ ، لَكِنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنْهُمْ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، لِأَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْزِلُ عَلَى النَّاسِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشُّورَى : ١٥] (٢٣).

ادْعُ إِلَى الْإِسْلَامِ يَا مُحَمَّدُ ، فَهُوَ دِينُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ غَيْرَهُ . وَاثْبُتْ عَلَى الدِّينِ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الْكَافِرِينَ وَأَمْزِجْتَهُمْ وَعَقَائِدَهُمُ الْمُتَنَاقِضَةَ ، وَكُنْ مُؤْمِنًا بِكُتُبِ اللَّهِ كُلِّهَا ، وَاعْدِلْ بَيْنَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْقَضَايَا . إِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ . وَلِلْمُسْلِمِينَ أَعْمَالُهُمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَعْمَالُهُمْ ، اتَّضَحَ الْحَقُّ وَظَهَرَ ، فَلَا مَعْنَى لِلْجِدَالِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعِنَادُ وَالْمُكَابَرَةُ ، وَاللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُوفُ . ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ . بِسَبَبِ التَّفَرُّقِ الَّذِي خَصَلَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، ادْعُ يَا مُحَمَّدُ إِلَى الْإِسْلَامِ دِينَ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكُلِّ الْأَدْيَانِ سِوَاهُ بَاطِلَةٌ . وَالْإِسْلَامُ هُوَ الْحَاكِمُ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ ، لِأَنَّهُ الدِّينُ الْوَحِيدُ الْمَحْفُوظُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّلَاعِبِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦ / ١٤) : ((لَمَّا جَازَ أَنْ يَكُونَ الشُّكُّ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَوْ لِقُرَيْشٍ قَبْلَ لِه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ ، أَي : فَتَبَيَّنَتْ شَكُّهُمْ ، فَادْعُ إِلَى اللَّهِ ، أَي : إِلَى ذَلِكَ الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْأَنْبِيَاءِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٢٧٨) : ((وَلِلْمُفَسِّرِينَ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْقُرْآنُ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ . وَالثَّانِي أَنَّهُ التَّوْحِيدُ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ)) اهـ .

(٢٣) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦ / ١٤) : ((وَقِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَشَيْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ ، وَقَدْ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ دَعْوَتِهِ وَدِينِهِ إِلَى دِينِ قُرَيْشٍ ، عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ الْوَلِيدُ نِصْفَ مَالِهِ ، وَيُزَوِّجَهُ شَيْبَةَ بَابْنَتِهِ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٢٧٩) : ((وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا اقْتَضَتْ الْاِقْتِصَارَ عَلَى الْإِنْذَارِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْقِتَالِ ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةُ السَّيْفِ فَنَسَخَتْهَا ، قَالَهُ الْاَكْثَرُونَ . وَالثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهَا إِنَّ الْكَلَامَ بَعْدَ ظُهُورِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ قَدْ سَقَطَ بَيْنَنَا ، فَعَلَى هَذَا هِيَ مُحْكَمَةٌ ، حَكَاهُ شَيْخُنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ)) .

﴿وَأَسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتُ﴾ . استقيم على العمل بالإسلام ، واجعله واقعاً عملياً ، وتمسك به كما أمرك الله تعالى . وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ١٤) : ((﴿وَأَسْتَقِمُّ﴾ خطاب له عليه السلام . قال قتادة: أي استقيم على أمر الله . وقال سفيان: أي استقيم على القرآن . وقال الضحاك : استقيم على تبليغ الرسالة)) اهـ .

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ . ولا تتبع أهواء الكافرين الذين بنوا دينهم على التناقض والشكوك والأكاذيب ، فغاب عنهم اليقين ، وغرقوا في مستنقع الشكوك والأهواء . ورفض دعوتهم لترك دين التوحيد . ولا تغبأ بخلافهم ، ولا تتأثر بعبادتهم ، ولا تلتفت إلى طعنهم في الحق ، فأهواؤهم باطلة ، وأمزجتهم فاسدة ، وأحكامهم جائرة ، وعقائدهم منحرفة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٧٩) : ((قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب لأنهم دَعَوْهُ إِلَى دينهم)) .

﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ . قل: آمنت بكل الكتب السماوية بلا استثناء . آمنت بالتوراة والإنجيل والزبور وصُحُف إبراهيم وموسى . والجدير بالذكر أن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) قد تفرقوا في دينهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، لأن عقائدهم مبنية على الأهواء والشكوك والمصالح الشخصية .

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ . لقد أمره الله أن يعدل بينهم في الحكم إذا تخاصموا إليه . والنبى ﷺ عادل في الحكم بينهم بالحق والإنصاف بلا محاملة ولا ظلم ، كما أنه ﷺ عادل في تبليغ الرسالة ، يؤمن بجميع الكتب السماوية بلا استثناء ، ويؤمن بجميع الأنبياء دون تفرقة بينهم . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٥٥) : ((﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في أحكام الله إذا ترافعتم إليّ ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه الله أو بنقصان منه ، وأبلغ إليكم ما أمرني الله بتبليغه)) .

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ . الله هو المعبود بحق ، وحده لا شريك له . وهو رب المؤمنين والكافرين . وكل شخص — مهما كانت عقيدته — هو خاضع لله ، إما أن يكون ذلك بإرادته أو رغم أنفه . والله خالق الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، وهو رب كل شيء ، فيجب توحيده ، ورفض الشرك . ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ . نحن بريئون مما تعملون ، وأنتم بريئون مما نعمل . كل إنسان يتحمل نتيجة عمله ، سواء كان ذلك خيراً أم شراً . وكل شخص مسؤول عن أعماله ، ولا علاقة له بأعمال الآخرين .

﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ . لَا جَدَلَ بَيْنَنَا وَلَا خُصُومَةَ ، فَقَدْ اتَّضَحَ الصَّوَابُ ، وَبَانَ الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَظَهَرَ الْحَقُّ ، وَزَهَقَ الْبَاطِلُ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعِنَادُ وَالتَّبَجُّحُ وَالْمُكَابَرَةُ . وَالْكَفَرُ عِنَادٌ . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ . اللَّهُ يَجْمَعُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُحَاسِبَهُمْ ، فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا وَجَدَ خَيْرًا ، وَمَنْ عَمِلَ شَرًّا ، وَجَدَ جَزَاءَ عَمَلِهِ .

﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ . إِلَى اللَّهِ الْمَرْجِعُ ، وَلَا أَحَدٌ يَهْرُبُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ الْقَاضِي الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلَمُ وَلَا يُجَامِلُ ، وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْكُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَوْ يَحْكُمُ لَهُ . وَلَا رَادَّ لِحُكْمِهِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ سَيَذْهَبُ بَعْدَ مَوْتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَكِنَّ السَّعِيدَ مَنْ يَذْهَبُ فِي حَيَاتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٢٥) : ((﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ فلاجل ذلك التفرق أو الكتاب أو العلم الذي أوتيته ﴿ فَادْعُ ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية ، أو الاتباع لما أوتيت ، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع " إلى " لإفادة الصلة والتعليل . ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ ﴾ واستقيم على الدعوة كما أمرك الله تعالى . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الباطلة . ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾

يعني جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ﴿ وَأَمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات ، والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية ، وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية . ﴿ اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ خالق الكل ومُتَوَلِّي أمره . ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ وكلُّ مُجَارَى بعمله . ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ ولا حِجَاج ، بمعنى لا خُصُومَةَ ، إِذْ الْحَقُّ قَدْ ظَهَرَ ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُحَاجَّةِ مَجَالٌ ، وَلَا لِلْخِلَافِ مَبْدَأٌ سِوَى الْعِنَادِ . ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ مَرْجِعُ الْكُلِّ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ . وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مُتَارَكَةِ الْكُفَّارِ رَأْسًا حَتَّى تَكُونَ مَنسُوخَةً بِآيَةِ الْقِتَالِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الْفَتْحُ : ٢٩] .

إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قد اختاره الله نبيًا ورسولًا، كما اختار له أصحابه الذين حملوا الدعوة الإسلامية في شتى بقاع الأرض. وهؤلاء الأصحاب الكرام يمتازون بالأخلاق الحميدة، والصفات الجميلة، والمزايا الكثيرة. وقد وعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم، ووعد الله لا يتخلف.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾. بدأ الله بذكر اسم محمد ﷺ وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ تعظيمًا لقدر هذا النبي الكريم. فهو رسول الله حقًا وصدقًا، وليس كما يزعم المشركون. فإن كذبه الناس، فالله يعلم أنك صادق، ويشهد أنك رسوله.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. والذين مع محمد ﷺ هم صحابته الكرام الذي يسيرون على خطاه، ويحملون دعوته إلى العالم، قلوبهم قاسية على الكفار أعداء الدين، بسبب عداوتهم للحق، ومُحاربتهم لنور الإيمان، لكنهم أصحاب قلوب رقيقة على المؤمنين، فالله ألقى في قلوبهم الرحمة والرأفة بعضهم لبعض. وهذه صفة المؤمنين: الشدة على الكفار، والرحمة فيما بينهم. فهم غلاظ على الكفار، كما يغلظ الأسد على فريسته، لا تأخذهم فيهم رأفة، لكنهم متعاطفون ورحماء فيما بينهم، كالولد مع الوالد. والمعنى العام: يغلظون على من خالف دينهم، ويظهرون له القسوة والشدة والصلابة، ويتراحمون فيما بينهم، ويعطف بعضهم على بعض. إنهم ينفذون أمر الله تعالى، حيث أمرهم بالغلظة على الكفار، فقال الله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. أي: شدة وحمية وصبرًا على جهادهم. وقال الثعالبي في تفسيره (١٦٦/٢): ((خشونة وبأسًا)) اهـ.

وقد بلغ من تشدد المؤمنين مع الكفار أنهم كانوا يبتعدون عنهم لئلا يحدث تلامس بينهم، في حين أنهم يُصافحون المؤمنين ويُعانقونهم. وقال التفسير (١٥٩/٤): ((وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتزق بثيابهم، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمنًا إلا صافحه وعانقه)) اهـ.

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ((تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)) (24).

(٢٤) متفق عليه. البخاري (٢٢٣٨/٥) برقم (٥٦٦٥)، ومسلم (١٩٩٩/٤) برقم (٢٥٨٦).

إنَّ المؤمنين جَسَدٌ واحدٌ ، يتعاونون فيما بَيْنَهُم لأداء الوظائف الحيوية في المجتمع ، وأيُّ خلل في أيِّ جزء من هذه المنظومة سَوْفَ يُؤثِّر على المنظومة بشكل كامل . والمؤمنون وَحدةٌ واحدةٌ ، يُساعد الغنيُّ الفقيرَ ، ويهتمُّ القويُّ بالضعيف ، ويُعلِّم العالمُ الجاهلَ ، ويحترم الصَّغيرُ الكبيرَ ، ويعطف الكبيرُ على الصغير ... إلخ . وإذا تَعَرَّضَ مُؤْمِنٌ لمشكلة ما ، فعلى جميع المؤمنين الوقوف إلى جانبه بالقول والفعل ، ومُساعدته من أجل حل هذه المشكلة . فالمجتمعُ الإيمانيُّ كُلُّه في سَفينة واحدة ، إمَّا النَّجاة معًا أو الهلاك معًا .

وَضَرَبَ الأمثال إنما هُوَ لِتَقريب المعاني إلى العقول ، وتوضيح الصُّورة في الأذهان ، وربط الأجزاء بعضها ببعض من أجل اكتمال المشهد .

وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٤٣٩ و ٤٤٠) : ((قَوْلُهُ : " كَمَثَلِ الْجَسَدِ " أي بالنسبة إلى جميع أعضائه . ووجه التشبيه فيه التوافق في النعب والراحة . قَوْلُهُ : " تداعى " أي دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم ، ومنه قَوْلُهُم : تداعت الجيطان أي تساقطت أو كادت . قَوْلُهُ : " بالسَّهر والحمى " أمَّا السَّهر فلأنَّ الألم يَمْنَع النَّوْمَ ، وأمَّا الحمى فلأنَّ فَقْدَ النوم يُثِيرُهَا . وقد عَرَّفَ أهل الحِذْق الحمى بأنها حرارة غريزية تشتعل في القلب ، فَتَشْبُّ منه في جميع البدن ، فتشتعل اشتعالًا يَضُرُّ بالأفعال الطبيعية . قال القاضي عِيَّاض : فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح ، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية ، وفيه تعظيم حقوق المسلمين ، والحض على تعاونهم ومُلاطفة بعضهم بعضًا . وقال ابن أبي جمرة : شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الإيمان بالجسد ، وأهله بالأعضاء ، لأن الإيمان أصل ، وفُروعه التكاليف ، فإذا أَخْلَ المرء بشيء من التكاليف شَانَ ذلك الإخلالُ الأصلَ ، وكذلك الجسد أصل كالشجرة ، وأعضاؤه كالأغصان ، فإذا اشتكى عُضْوٌ من الأعضاء اشتكت الأعضاء كُلُّهَا ، كالشجرة إذا ضُرِبَ غصن من أغصانها ، اهتزت الأغصان كلها بالتحرك والاضطراب)) اهـ .

﴿ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ . وَصَفَهُمُ اللَّهُ تعالى بكثرة العبادة والصلاة ، فَهُمْ يَقْضُونَ أوقاتهم راكعين ساجدين بكل إخلاص وخُشوع ، ولا يَنْتَظِرُونَ أَجْرًا إِلَّا مِنَ اللَّهِ تعالى . إنهم زُهَّاب بالليل ، أَسُود بالنهار . يَطْلُبُونَ رِضاه سُبْحانه ، وَيَرْجُونَ رَحْمته ، وَيَشْتَاقُونَ إلى جَنَّتِهِ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٠) : ((وَصَفَهُم بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ ، وَهِيَ خَيْرُ الْأَعْمَالِ ، وَوَصَفَهُم بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْإِحْتِسَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى جَزِيلِ الثَّوَابِ ،

وهو الجنة المشتعلة على فضل الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهو سَعَة الرِّزْق عليهم ورضاه تعالى عنهم ، وهو أكبر من الأول)) اهـ .

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ . علامتهم في وجوههم من كثرة السُّجُود والصلاة . فالصلاة تحسِّن وجوههم ، وتسكَّب عليها الثَّور والبهاء والخشوع والجمال والتواضع . وفي تفسير القرطبي (١٦ / ٢٤٨) : ((قال منصور: سألت مجاهدًا عن قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ أَهْوَأُ أَثَرُ يَكُونُ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّجُلِ ؟ ، قال : لا ، ربما يكون بين عَيْنَيِ الرَّجُلِ مِثْلُ زُكْبَةِ الْعُزْ ، وهو أقسى قلبًا من الحجارة ! ، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٦ و ٤٧) : ((قوله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾

سيماهم أي علامتهم في وجوههم . وهل هذه العلامة في الدنيا أم في الآخرة ، فيه قولان : أحدهما في الدنيا ، ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنها السَّمَت الحسن ، قاله ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة، وقال في رواية مجاهد : أما إنه ليس بالذي تَرَوْنَ ولكنه سِما الإسلام وسمته وخشوعه ، وكذلك قال مجاهد : ليس بِنَدَبِ التراب في الوجه ، ولكنه الخشوع والوقار والتواضع . والثاني أنه ندى الطَّهْر وثرى الأرض ، قاله سعيد بن جبَّير ، وقال أبو العالية: لأنهم يسجدون على التراب لا على الأنواب ، وقال الأوزاعي بلغني أنه ما حَمَلَت جباههم من الأرض . والثالث أنه السُّهُوم ، فإذا سَهَمَ وجه الرجل من الليل أصبح مُصْفَرًّا . قال الحسن البصري : سيماهم في وجوههم الصُّفْرَة . وقال سعيد بن جبَّير : أثر السَّهَر . وقال شَمْرُ بن عطية: هو تهيج في الوجه من سَهَر الليل . والقول الثاني أنها في الآخرة ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ : أحدهما أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشدَّ وجوههم بياضًا يوم القيامة ، قاله عطية العوفي . وإلى نحو هذا ذهب الحسن والزُّهري . وروى العوفي عن ابن عباس قال : صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة . والثاني أنهم يُبْعَثُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الطَّهْرِ ، ذَكَرَهُ الرَّجَاج)) اهـ .

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ، حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ)) (25) .

(٢٥) رواه ابن ماجه في سننه (١ / ٤٢٢) برقم (١٣٣٣) . وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ١٥٨٤) : ((قال في المقاصد: لا أصل له، وإن رُوي من طُرُق عند ابن ماجه بعضها عن جابر . وأورد الكثير منها الفُضاعي وغيره . قال: ولكن قرأت بخط شيخنا في بعض أجوبته أنه ضعيف بل قَوَاهُ بعضهم

مَعْنَى الْحَدِيثِ صَحِيحٌ بِشَهَادَةِ الْقُرْآنِ ، وَالتَّجَرِبَةِ الْعَمَلِيَّةِ . لَكِنَّ إِسْنَادَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ ثَابِتٍ .
وَالصَّوَابُ أَنَّهُ كَلَامُ بَعْضِ السَّلَفِ ، وَلَمْ يَقُلْهُ النَّبِيُّ ﷺ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٦٠ / ٤) :
((وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ)) اهـ .

وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ تَمَامًا ، فَمَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ ، صَارَ وَجْهُهُ مُضِيئًا ، وَعَلَا النُّورُ جَوَارِحَهُ ،
وَصَارَ التَّوْفِيقُ خَلِيقَهُ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٦٠ / ٤) : ((وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ ،
وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ ، وَسَعَةً فِي الرَّزْقِ ، وَمَحَبَةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ . وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانُ _ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ _ : " مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبَدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَقَلَّتْ لِسَانُهُ " .
وَالْغَرَضُ أَنَّ الشَّيْءَ الْكَامِنَ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ الْوَجْهِ ، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
صَحِيحَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَصْلَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ظَاهِرَهُ لِلنَّاسِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ عُمرَ بْنِ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى غَلَابَتَهُ)) اهـ .

وَالْإِنْسَانُ إِذَا أَسْرَّ سَرِيرَةً ، فَإِنَّ آثَارَهَا سَتَظْهَرُ عَلَيْهِ ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . وَلِكُلِّ
جَوْهَرٍ مَظْهَرٌ ، وَلِكُلِّ جَسَدٍ ثِيَابٌ .

وَالصَّحَابَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ كَانَتْ نِيَّاتُهُمْ صَافِيَةً ، وَأَعْمَالُهُمْ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى . وَكُلُّ مَنْ نَظَرَ
فِيهِمْ رَأَى فِيهِمْ عِلَامَاتِ الصَّدَقِ وَالْخُشُوعِ . وَكُلُّ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحُوهَا ، لَمْ يَقُلْ أَهْلُهَا : لَقَدْ جَاءَنَا
أَشْخَاصٌ أَشْرَارٌ أَوْ قُطَاعٌ طُرُقٌ أَوْ غُرَاةٌ ، لِأَنَّ عِلَامَاتِ الطَّهَارَةِ وَاضِحَةٌ عَلَيْهِمْ .

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٢٦٠ / ٤) : ((وَقَالَ مَالِكٌ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : بَلَغَنِي أَنَّ النَّصَارَى كَانُوا
إِذَا رَأَوْا الصَّحَابَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ الَّذِينَ فَتَحُوا الشَّامَ يَقُولُونَ : وَاللَّهِ لِهَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنَ الْخَوَارِيزِيِّينَ
فِي مَا بَلَغْنَا ، وَصَدَقُوا فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مُعَظَّمَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا
أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ نَوَّهَ اللَّهُ _ تَبَارَكَ وَتَعَالَى _ بِذِكْرِهِمْ فِي الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ وَالْأَخْبَارِ
الْمُتَدَاوِلَةِ)) .

وَالْمُعْتَمَدُ الْأَوَّلُ . وَأُطْنَبَ ابْنُ عَدِيٍّ فِي رَدِّهِ . قَالَ ابْنُ طَاهِرٍ : ظَنَّ الْفُضَاعِيُّ أَنَّ الْحَدِيثَ صَحِيحٌ لِكَثْرَةِ
طُرُقِهِ ، وَهُوَ مَعْدُورٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَافِظًا)) اهـ .

وعن أبي سعيد الخُدري _ رضي الله عنه _ عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءَ ، لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ ، لَخَرَجَ عَمَلُهُ إِلَى النَّاسِ ، كَانَتْ مَا كَانَ)) (26).

لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْمَلُ فِي مَكَانٍ مُغْلَقٍ لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا نَافِذَةٌ ، وَلَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ النَّاسُ ، لَطَهَّرَتْ آثَارُ عَمَلِهِ عَلَى جَوَارِحِهِ ، فَرَأَاهَا النَّاسُ ، سَوَاءٌ كَانَ عَمَلُهُ خَيْرًا أَمْ شَرًّا . وَالْأَشْيَاءُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْقَلْبِ ، سَتَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ ، مَهْمَا حَاوَلَ الْإِنْسَانُ التَّصَنُّعَ أَوْ النِّفَاقَ . كَمَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ

وعن أبي بن كعب _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ، قَالَ : ((التَّوَرُّ يُؤَمُّ الْقِيَامَةَ)) (27).

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيْفَ تَعْرِفُ أُمَّتَكَ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ ، مَا بَيْنَ نُوْحٍ إِلَى أُمَّتِكَ ؟ ، قَالَ : ((غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ ، وَلَا يَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ غَيْرِهِمْ ، وَأَعْرِفَهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ ، وَأَعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، وَأَعْرِفَهُمْ بِنُورِهِمُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)) (28).

لَقَدْ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِالْمَجْدِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِكْرَامًا لِرَسُولِهَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَيْسَ هَذَا تَكَبُّرًا أَوْ اعْتِنَاقًا لِخُرَافَةٍ نَقَاءِ الْعِرْقِ ، بَلْ إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ السَّاطِعَةُ . فَالْمُسْلِمُونَ وَخَدَمُهُمْ هُمْ حَمَلَةُ كَلِمَةِ اللَّهِ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ . وَإِذَا زَالُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا .

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَعْرِفُ أُمَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْأُمَمِ الْكَثِيرَةِ بِالتَّوَرُّ الظَّاهِرِ عَلَى وُجُوهِهَا مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْوُضُوءَ مِنْ خِصَائِصِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ دُونَ بَاقِي الْأُمَمِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢٦) رواه أبو يعلى في مسنده (٥٢١ / ٢) برقم (١٣٧٨) . وحسنه الهيثمي في المجمع (٣٨٧ / ١٠) .

(٢٧) رواه الطبراني في الصغير (٣٧٠ / ١) برقم (٦١٩) . وحسنه السيوطي في الدر المنثور (٥٤٢ / ٧) .

(٢٨) رواه الحاكم في المستدرک (٥٢٠ / ٢) برقم (٣٧٨٤) وصححه ، وسكت عنه الذهبي .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣ / ١٣٥) : ((قال أهل اللغة : العُرَّة بياض في جبهة الفرس ، والتَّحجيل بياض في يديها ورجليها . قال العلماء : سَمِيَ الثَّوَر الذي يكون على مواضع الوضوء يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَّةً وَتَحْجِيلًا ، تَشْبِيهًا بِعُرَّةِ الْفَرَسِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .
﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ . ذَلِكَ وَصَفُ الصَّحَابَةِ فِي التَّوْرَةِ : الشَّدَّةُ عَلَى الْكُفَّارِ ، وَالرَّحْمَةُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَكَثْرَةُ الْعِبَادَةِ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٦٩) : ((هذه الصِّفَةُ الَّتِي وُصِفَتْ لَكُمْ مِنْ صِفَةِ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ مَعَهُ ، صِفَتُهُمْ فِي التَّوْرَةِ)) اهـ .
﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٤٧ و ٤٤٨) : ((فَأَمَّا قَوْلُهُ :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ ، فَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ الْمَذْكُورَ أَنَّهُ فِي التَّوْرَةِ هُوَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَاحِدٌ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، فَأَمَّا مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ فَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ وَهَذَا قَوْلُ الصَّحَّاحِ وَابْنِ زَيْدٍ . وَالثَّالِثُ أَنَّ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ، ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ)) اهـ .

﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ . وَصَفَ اللَّهُ الصَّحَابَةَ فِي الْإِنْجِيلِ بِأَنَّهُمْ زَرْعٌ أَخْرَجَ فِرَاحَهُ وَنَبَاتَهُ . فَالصَّحَابَةُ فِي بَدَايَةِ الدَّعْوَةِ كَانُوا قَلِيلِينَ وَضَعْفَاءَ ، ثُمَّ زَادُوا ، وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ . تَمَامًا كَمَا يَحْدُثُ فِي الزَّرْعِ ، حَيْثُ يَكُونُ وَحِيدًا ثُمَّ يَتَكَاثَرُ ، وَتَزْدَادُ فُرُوعُهُ ، وَيُصْبِحُ قَوِيًّا ذَا فِرَاحٍ كَثِيرَةٍ . وَهَذَا مَثَلٌ إِلَهِيٌّ عَظِيمٌ ، وَتَوْضِيحٌ لِلْحَالَةِ الْوَاقِعَةِ ، وَتَصَوُّيرٌ لِلْمَشْهَدِ بِدَقَّةٍ ، وَبَيَانٌ فِي غَايَةِ الرُّوعَةِ وَالْقُوَّةِ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٦٩) : ((لَأَنَّهُمْ ابْتَدَؤُوا فِي الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُمْ عِدَدٌ قَلِيلُونَ ، ثُمَّ جَعَلُوا يَتَزَايِدُونَ ، وَدَخَلَ فِيهِ الْجَمَاعَةُ بَعْدَهُمْ ، ثُمَّ الْجَمَاعَةُ بَعْدَ الْجَمَاعَةِ ، حَتَّى كَثُرَ عَدْدُهُمْ ، كَمَا يَحْدُثُ فِي أَصْلِ الزَّرْعِ ، الْفَرْخُ مِنْهُ ثُمَّ الْفَرْخُ بَعْدَهُ ، حَتَّى يَكْثُرَ وَيَنْمَى)) اهـ .
﴿ فَازَرَهُ ﴾ . قَوَى الزَّرْعُ فِرَاحَهُ وَفُرُوعَهُ . أَيُ : قَوَى الزَّرْعُ شَطْأَهُ وَشَدَّهُ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٤٨) : ((﴿ فَازَرَهُ ﴾ أَيُ : قَوَاهُ وَأَعَانَهُ وَشَدَّهُ ، أَيُ : قَوَى الشَّطْأَ الزَّرْعَ . وَقِيلَ : بِالْعَكْسِ ، أَيُ : قَوَى الزَّرْعُ الشَّطْأَ)) اهـ .

﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ . بَعْدَ عَمَلِيَةِ التَّقْوِيَةِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ الزَّرْعِ وَفُرُوعِهِ ، صَارَ الزَّرْعُ قَوِيًّا وَغَلِيظًا وَفُتْمَاسِكًا بَعْدَ أَنْ كَانَ ضَعِيفًا . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٦٠) : ((أَيُ : شَبَّ وَطَالَ)) اهـ .

﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ﴾ . استقام الزُّرْعُ على أصوله . وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٤٨) :
 ((فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ﴾ على عُودِهِ الذي يقوم عليه فَيَكُونُ ساقاً له)) اه .
 ﴿ يُعْجِبُ الزُّرْعَ ﴾ . يُعْجِبُ هذا الزُّرْعُ الذي قَوِيَ وطال واستقام على أصوله الزُّرْعَ الذين قاموا بزراعته . إِنَّ هذا الزُّرْعَ يُعْجِبُ زَارِعَهُ بسبب قُوَّتِهِ وصلابته وكثافته وحسن منظره . وهو مثلاً ضربَه الله تعالى للصَّحابة في الإنجيل ، حيث يكونون قليلاً ، ثُمَّ يَكْثُرُونَ ، ويزدادون قُوَّةً .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٠) : ((أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزرُّوه وأيدُّوه ونصَّروه ، فَهُم مَعَهُ كالشَّطَاءِ مَعَ الزُّرْعِ ﴾ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)) اه .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٠٩) : ((﴿ يُعْجِبُ الزُّرْعَ ﴾ بكثافته وقُوَّتِهِ وغِلْظِهِ وحسن منظره ، وهو مثلاً ضربَه الله تعالى للصَّحابة ، قَلُّوا في بدء الإسلام ، ثُمَّ كَثُرُوا واستحكموا ، فَتَرَقَّى أمرُهُم بحيث أعجب النَّاسَ ﴾ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ عِلَّةٌ لِتَشْبِيهِهِم بِالزُّرْعِ في زَكَاتِهِ واستحكامه)) .
 ﴿ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ ⁽²⁹⁾ . لَقَدْ قَوَّى اللهُ الصَّحَابَةَ وَكَثَّرَهُمْ لِيَكُونُوا غِيْظاً لِلْكَافِرِينَ وَيَقْهَرَهُمْ . ولا شَكَّ أَنَّ الحاقِدَ على الصَّحَابَةِ ، وَيَشْعُرُ بِالغِيْظِ تَجَاهَهُمْ ، قد أصابته هذه الآية . وهذا دَلِيلٌ واضحٌ على أَنَّ الروافض سائرون على خُطَى الْكُفَّارِ ، وَهُمْ في دائرة الخطر .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٤٩) : ((وَفِيْمَنْ أُرِيدُ بهذا الْمَثَلِ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّ أصلَ الزُّرْعِ عبد المطلب ، أخرج شَطْأَهُ ، أخرج محمداً ﷺ ، فَأَزْرَهُ بِأبي بكر ، فاستغلظَ بِعُمَرَ ، فاستوى بِعُثْمَانَ ، على سُوْقِهِ عليُّ بن أبي طالب ، رواه سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس . والثاني أَنَّ الْمُرَادَ بِالزُّرْعِ محمد ﷺ ، أخرج شَطْأَهُ أبو بكر ، فَأَزْرَهُ بِعُمَرَ فاستغلظَ بِعُثْمَانَ ، فاستوى على سُوْقِهِ بِعَلِيٍّ ، يُعْجِبُ الزُّرْعَ يعني المؤمنين لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وهو قول عُمر لأهل مكة : لا يُعْبَدُ اللهُ سِوَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، رواه الضَّحَّاكُ عن ابن عباس ومبارك عن الحسن)) اه .
 وفي الحديث أَنَّ رَجُلًا قرأ على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه — سُورَةَ الْفَتْحِ . فَلَمَّا بَلَغَ :

(٢٩) قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٠) : ((وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَزَعَ الْإِمَامُ مَالِكٌ — رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ — فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِتَكْفِيرِ الرِّوَاغِ الَّذِينَ يُغِيْضُونَ الصَّحَابَةَ — رضي الله عنهم — . قال : لأَنَّهُمْ يَغِيْظُونَهُمْ = ومن غاظ الصَّحَابَةَ — رضي الله عنهم — فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء — رضي الله عنهم — على ذلك . والأحاديث في فضل الصَّحَابَةِ — رضي الله عنهم — والنَّهْيِ عن التعرض لهم بِمَسَاءَةٍ كَثِيرَةٍ ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم)) اه .

﴿ كَزَرَخَ شَطَّاهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ . قال : ((لِيُغَيِّظَ اللَّهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وبأصحابه الكفار)) . قال : ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ((أَنْتُمْ الزُّرَّاعُ ، وَقَدْ دَنَا حَصَادُهُ)) (30) .

إِنَّ الزُّرَّاعَ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَالشَّطَّاءُ أَصْحَابُهُ ، كَثَرَهُمُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَلَّةً ، وَقَوَّاهُمُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفَاءَ . وَهُوَ تَشْبِيهُ قُرْآنِيٍّ بَلِيغٍ ذُو تَأْثِيرٍ قَوِيٍّ ، يَرَسُمُ الْمَشْهَدَ فِي الْأَذْهَانِ ، وَيُقَرِّبُ الصُّورَةَ إِلَى الْعَقُولِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٤٨) : ((وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ . يَعْنِي أَنَّهُمْ يَكُونُونَ قَلِيلًا ، ثُمَّ يَزْدَادُونَ وَيَكْثُرُونَ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ بَدَأَ بِالْدُّعَاءِ ضَعِيفًا ، فَأَجَابَهُ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ ، حَتَّى قَوِيَ أَمْرُهُ ، كَالزُّرْعِ يَبْدُو بَعْدَ الْبَذْرِ ضَعِيفًا ، فَيَقْوَى حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، حَتَّى يَغْلُظَ نَبَاتُهُ وَأَفْرَاخُهُ . فَكَانَ هَذَا مِنْ أَصَحِّ مَثَلٍ وَأَقْوَى بَيَانٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَثَلُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْإِنْجِيلِ ، مَكْتُوبٌ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ قَوْمٍ ، يَنْبُتُونَ نَبَاتَ الزُّرْعِ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)) اهـ .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِالْمَغْفِرَةِ الْأَكِيدَةِ لِلذُّنُوبِ ، وَالزُّرْقِ الْكَرِيمِ ، وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَنْقُطِعُ وَهُوَ الْجَنَّةُ . وَوَعَدَ اللَّهُ وَاقِعَ لَا مَحَالَةَ ، وَلَا يَتَخَلَّفُ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٦٠) : ((وَكُلُّ مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فَهُوَ فِي حُكْمِهِمْ ، وَلَهُمُ الْفَضْلُ وَالسَّيِّقُ وَالْكَمَالُ الَّذِي لَا يُلْحَقُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ - وَجَعَلَ جَنَّاتِ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُمْ ، وَقَدْ فَعَلَ)) اهـ .

لَقَدْ خَصَّ اللَّهُ الصَّحَابَةَ بِوَعْدِ الْمَغْفِرَةِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ ، وَبَيَانًا لِمَكَانَتِهِمْ الْجَلِيلَةِ ، وَرَفْعًا لِقُدْرَتِهِمْ وَشَأْنِهِمْ ، وَهَذَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ حَقِيقَةِ أَنَّ الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّ بِالْمَغْفِرَةِ شَامِلٌ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ " مِنْ " فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَلَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ . فَالْمَقْصُودُ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ ، وَلَيْسَتْ جَمَاعَةٌ دُونَ أُخْرَى . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ [الْحَج : ٣٠] . وَ ﴿ مِنْ ﴾ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، وَلَيْسَ لِلتَّبْعِيضِ . وَالْمَقْصُودُ اجْتِنَابُ كُلِّ أَنْوَاعِ الرِّجْسِ ، وَلَيْسَ فَقَطِ رِجْسُ الْأَوْثَانِ .

(٣٠) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٠١) بِرَقْمِ (٣٧١٨) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٤٨) : ((أي : فاجْتَنِبُوا الرَّجْسَ مِنْ جِنْسِ الْأَوْثَانِ ، إِذْ كَانَ الرَّجْسُ يَقَعُ مِنْ أَجْناسٍ شَتَّى مِنْهَا : الزَّيْنَى وَالزَّيْبَا وَشَرْبُ الْخَمْرِ وَالْكَذِبُ)) اهـ .
وأفضليَّة الصَّحابة _ رضي الله عنهم _ واضحة ، ومشهورة ، وثابتة في القرآن والسُّنة المتواترة (النَّصُوصُ قَطْعِيَّةُ الْوُرُودِ ، وَقَطْعِيَّةُ الدَّلَالَةِ) .

وعن أبي سعيد الخُدْرِي _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)) (31).
والمُدُّ والنَّصِيفُ هُمَا مِكيَالَانِ . والمعنى : لَوْ أَنْفَقَ الشَّخْصُ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَنْ يَصِلَ إِلَى رُتْبَةٍ أَنْ يُنْفِقَ الصَّحَابِيُّ مُدًّا طَعَامٍ أَوْ نَصِيفَهُ . وذلك لمكانة الصحابيِّ وتضحيتِهِ وإخلاصِهِ وثباتِهِ في أصعبِ المواقِفِ .

وقال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٤) : ((قال البيضاوي: معنى الحديث: لَا يَنَالُ أَحَدُكُمْ بِإِنْفَاقٍ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ مَا يَنَالُ أَحَدُهُمْ بِإِنْفَاقٍ مُدًّا طَعَامٍ أَوْ نَصِيفَهُ . وسبب التفاوت ما يُقَارَنُ الْأَفْضَلُ مِنْ مَزِيدِ الْإِخْلَاصِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ . قلت _ يعني ابن حجر _ : وأعظم من ذلك في سبب الأفضلية عِظَمُ مَوْقِعِ ذَلِكَ ، لِشِدَّةِ الْإِحْتِيَاجِ إِلَيْهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الْجُمُعَةُ : ٢] .
إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِي الْعَرَبِ رَسُولًا مِنْهُمْ ، أُمِّيًّا مِثْلَهُمْ ، لِأَنَّ غَالِيَةَ الْعَرَبِ كَانُوا أُمِّيِّينَ ، وَقَدْ خَصَّهِمُ اللَّهُ بِالذِّكْرِ فِي الْآيَةِ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرْسِلَ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، تَشْرِيفًا لَهُمْ ، وَرَفْعًا لِشَأْنِهِمْ بَيْنَ الْأُمَمِ .
يَقْرَأُ عَلَيْهِمُ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الْآثَامِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، وَقَدْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ضَائِعِينَ ، يَغْرَقُونَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْكُفْرِ بِلا طَوْقِ نَجَاةٍ . وإرسالُ النَّبِيِّ ﷺ ذَلِيلٌ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بَعَادَهُ ، حَيْثُ لَمْ يَتْرَكْهُمْ ضَائِعِينَ فِي مَتَاهَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، بَلْ أَرَادَ إِنْقَاذَهُمْ وَهِدَايَتَهُمْ إِلَى خَيْرِ الدَّارَيْنِ ، حَيْثُ يَعِيشُونَ فِي الدُّنْيَا بِسَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ ، وَيَحْصِلُونَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْجَنَّةِ الَّتِي لَا يَزُولُ نَعِيمُهَا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦٥) : ((وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ

(٣١) متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٤٣) برقم (٣٤٧٠) ، ومسلم (٤ / ١٩٦٧) برقم (٢٥٤٠) .

الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى ، وله الحمد والمِنَّة على حين فترة من الرُّسل ، وطُمُوس من السُّبل . وقد اشتدَّت الحاجة إليه ، وقد مَقَّت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، أي نَزَرًا يسيرًا ممَّن تمسَّك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، وذلك أنَّ العرب كانوا قديمًا مُتَمَسِّكِينَ بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدَّلوه وغيَّروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شرًّا ، وباليقين شكًّا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدَّلوا كُتُبهم وحرَّفوها وغيَّروها وأوَّلوها ، فَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا _ صلوات الله وسلامه عليه _ بِشَرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومَعَادهم ، والدعوة لهم إلى ما يُقَرِّبهم إلى الجنة ورضا الله عنهم ، والنَّهي عمَّا يُقَرِّبهم إلى النار وسَخَط الله تعالى . حاكم فاصل لجميع الشُّبهات والشُّكوك والريب في الأصول والفروع ، وَجَمَعَ له تعالى وله الحمد والمِنَّة جميع المحاسن ممَّن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعْطَ أحدًا من الأولين ، ولا يُعْطيه أحدًا من الآخرين ، فصلواتُ الله وسلامه عليه دائمة إلى يوم الدين)) اهـ .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . كان العربُ أُمَّةً أُمِّيَّةً لا تكتب . أمَّا وجود بعض القادرين على الكتابة ، فهذا لا يَنفي صِفَةَ الْأُمِّيَّةِ عَنِ الْعَرَبِ ، لأن النادر لا حُكْم له . والعربُ كانوا يعتمدون على الرواية الشَّفْهِيَّة ، ولا يعتمدون على التَّدْوِين . وهذا يُناسب حياة الفوضى والتحرر التي كانوا يعيشونها . كما أنَّهم ليس لديهم كتاب سماويٌّ مثل اليهود والنصارى . وهذا يُعطي معنَى آخَرَ لِأُمِّيَّةِ الْعَرَبِ . قال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٨١) : [قال ابن عباس : ((الْأُمِّيُّونَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ ، مَنْ كَتَبَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ ، لَأَنْهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ)) . وقيل : الْأُمِّيُّونَ الَّذِينَ لَا يَكْتُبُونَ ، وكذلك كانت قُرَيْش] اهـ .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، لَا نَكْتُبُ ، وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ ، هَكَذَا هَكَذَا))⁽³²⁾ . يعني : مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ .

(٣٢) متفق عليه. البخاري (٢ / ٦٧٥) برقم (١٨١٤) ، ومسلم (٢ / ٧٥٩) برقم (١٠٨٠) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٩٢ و ١٩٣) : ((قال العلماء : أُمِّيَّة باقون على ما ولدتنا عليه الأمهات ، لا نكتب ولا نحسب . ومنه النبيُّ الأُمِّيُّ ، وقيل : هو نسبة إلى الأم وصفتها ، لأن هذه صفة النساء غالباً)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٤ / ١٢٧) : ((أُمِّيَّة بلفظ النسب إلى الأم . قيل : ... أُمَّة العرب لأنها لا تكتب ، أو منسوب إلى الأمهات ، أي إنهم على أصل ولادة أُمَّهم ، أو منسوب إلى الأم لأن المرأة هذه صفتها غالباً . وقيل : منسوبون إلى أم القرى ... وقيل للعرب أُمِّيُّون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة... ولا يُردُّ على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب ، لأن الكتابة كانت فيهم قليلة نادرة)) اهـ .

وقد كان النبيُّ ﷺ أُمِّيًّا ، وظَهَرَ مِنَ العرب ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . وهذا تشريفٌ للعرب ، وتَعْظِيمًا لِقُدْرِهِمْ في تاريخ الحضارة الإنسانية . فقد خَصَّهم الله بالذكر مع أنَّ النبيَّ أُرْسِلَ للعرب وغير العرب . وتخصيصُ الأُمِّيِّين (العرب) بالذكر تكريمٌ لهم ، ولا ينفي من عداهم ، ولكنَّ النعمة الإلهية على العرب أعظم وأشمل . فالنبيُّ ﷺ عَرَبِيٌّ وَأُمِّيٌّ ، يعني أنه ينتمي إلى جنس العرب وحالتهم ، فلن يشعروا بأنه غريب عنهم ، وهذا يؤلِّد الموافقة والانسجام . حيث إنَّ نَسَبَهُ نَسَبُهُمْ ، ويتحدَّث بلُغَتِهِمْ ، وهذا أبلغ في إقامة الحُجَّة عليهم . فلا يُمكنهم أن يتذرعوا بأنه يتكلم لُغَةً لا يفهمونها ، أو أنه قارئ وكاتب وهم أُمِّيُّون ، أو أنه غريب عنهم من غير بيتهم ، ولا يعرف أحوالهم ، ويجدون صعوبة في التَّواصل معه . لقد قَطَعَ الله عُذْرَهُمْ ، وأقام عليهم الحُجَّة . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٣١٥) : ((وَوَجْهُ الامتنان بِكَوْنِهِ مِنْهُمْ أنَّ ذلك أقرب إلى الموافقة ، لأنَّ الجنسَ أُمِّيُّ إلى جنسِهِ ، وأقرب إليه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٨١) : ((﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعني محمدًا ﷺ ، وما من حيٍّ من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد ولدوه . قال ابن إسحاق : إلا حي تغلب ، فإنَّ الله تعالى طَهَّرَ نَبِيَّهٖ ﷺ منه لِتَصْرَانِيَّتِهِمْ ، فلم يجعل لهم عليه ولادة)) اهـ .

وتتجلى الحكمة الإلهية في إرسال نبيٍّ أُمِّيٍّ ، وهو محمد ﷺ . حيث وُصِفَ محمد في الكتب الدينية السابقة بأنه أُمِّيٌّ ، وقد بَشَّرَ الأنبياءُ بالنبيِّ الأُمِّيِّ . وَكَوْنُهُ أُمِّيًّا يَتَوَافَقُ مَعَ التَّنْصُوصِ الدِّينِيِّ السابقة وبشارة الأنبياء ، فلا يُوجَد تناقض ، وهذا ينفي عنه الشك ، ويُبعد عنه الشبهات . وأيضًا أُمِّيَّة النبيِّ ﷺ تتشابه مع أُمِّيَّة العرب ، فلا يَتَمَيَّز عنهم ، وهذا يعني أنَّه من جنسهم (مِنْهُمْ وفيهم) وحالته تُشَبِّه حالتهم ، وهذا يُقَرِّب المسافة بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فيُحْدِث التجاذب لا التنافر ، ممَّا يُفِيد

الدَّعوة ، ويقترب مِنْهُ الناس ، ولا يشعرون أَنَّهُ غريب عَنْهُمْ ، أو يعيش في البُرج العاجي بعيداً عنهم .

وأيضاً أُمِّيَةُ النَّبِيِّ ﷺ دليلٌ على صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوتِهِ ، ومُعْجَزَةٌ لَهُ . فَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قارئاً وكتائباً ، لَاتَّهَمَهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُ أَلْفَ الْقُرْآنِ ، وقام بِتَجْمِيعِهِ مِنْ كُتُبِ السَّابِقِينَ ، وأَحَادِيثِ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ ، بِحُكْمِ قُدْرَتِهِ عَلَى الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، وإِطْلَاعِهِ عَلَى كُتُبِ الْآخِرِينَ .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ . يَقْرَأُ النَّبِيُّ عَلَى الْعَرَبِ (الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ) آيَاتِ الْقُرْآنِ ، لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ، وَمِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمِنَ الْوَهْمِ إِلَى الْحَقِيقَةِ . إِنَّهُ يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ أَحَدٍ ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ .

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ . وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ ، وَقَذَارَةِ الذُّنُوبِ ، وَظُلُمَاتِ الْآثَامِ ، وَالْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ . وفي تفسير القرطبي (١٨ / ٨١) : ((أي : يجعلهم أزكيا القلوب بالإيمان ، قاله ابن عباس . وقيل : يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ ، قاله ابن جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلٌ . وقال السُّدِّيُّ : يأخذ زكاة أموالهم)) اهـ .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وما فيه مِنْ أَحْكَامٍ وَشَرَائِعٍ وَمَوَاعِظٍ ، كما يُعَلِّمُهُمُ السُّنَّةَ الَّتِي جَاءَتْ مُفَسَّرَةً لِلْقُرْآنِ ، وَمُوضَّحَةً لِأَحْكَامِهِ . وقيل : الْحِكْمَةُ الْفَقْهُ فِي الدِّينِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٣٧) : ((﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، الْقُرْآنَ وَالشَّرِيعَةَ أو معالم الدِّينِ مِنَ الْمُنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ ، ولو لَمْ يَكُنْ لَهُ سِوَاهُ مُعْجَزَةٍ لَكَفَّاهُ)) اهـ .

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ (قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولاً) سَائِرِينَ فِي طَرِيقِ الْكُفْرِ ، وَتَائِهِينَ فِي أَوْهَامِ الضَّلَالِ ، وَعَائِشِينَ عَلَى هَامِشِ الْحَيَاةِ بِلا هَدَفٍ وَلَا مَعْنَى . يَصْنَعُونَ الْأَصْنَامَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَعْبُدُونَهَا . أي إِنَّ الْعَبِيدَ يَصْنَعُونَ آلِهَتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، وَهَذَا مُنْتَهَى الضَّلَالِ . وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ وَهُوَ مِنْهُمْ ، وَلَيْسَ غَرِيباً عَنْهُمْ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] (33) .

(٣٣) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٤ / ٤٢٣) : ((أي مُجْتَمِعِينَ ، بعضهم على بعض . واحِدُهَا : لِبْدَةٌ)) . وقال الرازي في مختار الصحاح (١ / ٦١٢) : ((يُقَالُ : النَّاسُ لُبْدٌ . أي مُجْتَمِعُونَ)) .

عِنْدَمَا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو اللَّهَ وَيَعْبُدُهُ ، كَادَ الْجِنُّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الْإِزْدِحَامِ ، حِرْصًا عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْعُبُودِيَّةِ : ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِاسْمِهِ ، تَشْرِيفًا لَهُ ، وَتَعْظِيمًا لِقُدْرِهِ . فَقَدْ أَضَافَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ تَكْرِيمًا لَهُ . وَالْعُبُودِيَّةُ هِيَ أَسْمَى الْمَرَاتِبِ .
إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ بَطْنِ نَخْلَةٍ بِالْحِجَازِ ، وَهِيَ مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ ، كَادَ الْجِنُّ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ أَنْ يَسْقُطُوا عَلَيْهِ ، تَعَجُّبًا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْعَظِيمِ ، وَانْهَارًا بِهِ . فَقَدْ أَصَابَهُمُ الْعَجَبُ وَالذَّهْشَةُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٨٣ و ٣٨٤) : ((وفي معنى الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم ، والمعنى : أنه لما قام يُصَلِّي كَادَ الْجِنُّ لِإِزْدِحَامِهِمْ عَلَيْهِ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حِرْصًا عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ . رواه عطية عن ابن عباس . والثاني أنه من قول الجن لِقَوْمِهِمْ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، فَوَصَفُوا لَهُمْ طَاعَةَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَانْتِمَاعِهِمْ بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا : لَمَّا قَامَ يُصَلِّي كَادَ أَصْحَابُهُ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي رِوَايَةِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّالِثُ أَنَّ الْمَعْنَى لَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْأُذُنِ ، تَلَبَّدَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ، وَتَظَاهَرُوا عَلَيْهِ ، لِيُطِيلُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((لَمَّا رَأَوْهُ يُصَلِّي ، وَأَصْحَابُهُ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ فَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ ، فَعَجِبُوا مِنْ طَوَاعِيَةِ أَصْحَابِهِ لَهُ ، قَالُوا لِقَوْمِهِمْ : ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾)) (34).

لَمَّا رَأَى الْجِنُّ النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي إِمَامًا بِأَصْحَابِهِ ، وَهُمْ مُلتَزِمُونَ بِصَلَاتِهِ وَسُجُودِهِ ، عَجِبُوا مِنْ انضباط الصحابة ، وَخُضُوعِهِمُ التَّامَ لَصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالُوا : لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يُصَلِّي ، كَادَ أَصْحَابُهُ يَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِ . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى إِزْدِحَامِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَانضباطهم .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية : ٢١] .

ذَكَّرَ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَدَلَائِلِ عَظَمَتِهِ ، وَحُجَجِهِ الْبَالِغَةِ ، وَعَظْمَتِهِمْ ، وَخَوْفِهِمْ ، وَلَا تَعْبَأُ بِكُفْرِ الْكَافِرِينَ ، وَاسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، إِنَّمَا أَنْتَ وَاعِظٌ ، وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْوَعْظُ وَالْإِشَادُ وَالتَّبْلِيغُ . وَلَيْسَ مَطْلُوبًا مِنْكَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا ، لِأَنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ .

(٣٤) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٤٢٦) برقم (٣٣٢٣) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٨٥) : ((فلا عَلَيْكَ إِنْ لَمْ يَنْظُرُوا وَلَمْ يَذْكُرُوا ، إِذْ مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١١٩٧) : ((ذَكَرَهُمْ نَعَمَ اللَّهُ وَدَلَّاهُ تَوْحِيدَهُ ، فَإِنَّكَ مَبْعُوثٌ بِذَلِكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] ^(٣٥) .

يُخَاطَبُ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَلِّطٍ ، وَلَا أَنْتَ جَبَّارٌ ، حَتَّى تَفْرِضَ الْإِسْلَامَ عَلَيْهِمْ فَرَضًا ، وَتُجْبِرَهُمْ عَلَى اعْتِنَاقِهِ . وَوُضِعَتْ لِنَبِيِّ ﷺ هِيَ التَّبْلِيغُ ، أَمَّا الْحِسَابُ فَهُوَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٥٥٧) : ((لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَلِّطٍ وَلَا أَنْتَ بِجَبَّارٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَا تُرِيدُ . يَقُولُ : كُلُّهُمْ إِلَيَّ ، وَدَعَهُمْ وَحُكْمِي فِيهِمْ)) اهـ .

(٣٥) قال بعضُ أهل العلم إنَّ هذه الآية منسوخة بآية السَّيْف . راجع الناسخ والمنسوخ لابن حزم (١ / ٦٥) ، والناسخ والمنسوخ للكرمي (١ / ٢٢٤) ، وناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البازري (١ / ٥٨) . لكن هذا الكلام فيه نظر . إذ إن هناك آياتٍ لا يمكن نسخها لِمَا تَتَضَمَّنُهُ من أحكام ثابتة . فقد قال ابن الجوزي في مُصَنَّفِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوحِ (١ / ٥٩) : ((قيل : نُسخَتْ بآية السَّيْف . وقيل : معناها لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَلِّطٍ فَتُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، فعلى هذا لا نسخ)) اهـ . والذي يدحض فرضية نَسْخِهَا ما رواه الحاكم في المستدرَك (٢ / ٥٦٨) وصَحَّحَهُ ووافقه الذهبي : عن جابر رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أُمرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا لِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)) ، ثُمَّ قرأ رسول الله ﷺ : ((لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ)) . قلتُ : هناك أمران في المسألة ، الأول _ إن القتال في الإسلام يكون بضوابط تحددها الشريعة ، ولا يُجَبَّرُ أَحَدٌ عَلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ . أمَّا الكفار المحاربون والذين يحولون دون وصول الدعوة فهؤلاء يُقَاتَلُونَ . والثاني _ إن سياق الحديث يفيد بأن الحساب على الله تعالى ، وحمل الأمور على الظاهر دون السيطرة على الخلق والتجبر عليهم ، وإكراههم على الإيمان . فلو كانت ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ منسوخة ، فما فائدة أن يُوردها النبي ﷺ في حديثه الذي يتحدث عن القتال وامتلاك الله وَحْدَهُ لِسُلْطَةِ الْحِسَابِ ؟ . بل إن النبي ﷺ أراد أن يقول إنه يُنْقَذُ تعاليم الله تعالى في القتال المنضبط لا العشيء الممحي ، ومع هذا فهو ليس مُسَيِّطِرًا عَلَى الْخَلْقِ ، لأن حسابهم بيد الله وَحْدَهُ ، ودَوْرُ النَّبِيِّ ﷺ هو إقامة الشعائر وفق الظاهر لأنه لا يملك السيطرة على قلوب الناس وبواطنهم .

وهذه القاعدة الجلييلة تدل على أن النبي ﷺ داعية إلى الله تعالى ، لا يملك السُّلطة على إكراه الناس على الدخول في الإيمان. وليس لديه القدرة على حساب الناس، وإرسالهم إلى الجنة أو النار، لأن هذه الأعمال اختصها الله تعالى لنفسه . فالدعوة النبوية إرشادية تُخرج الناس من الظلمات إلى النور . وعند هذه النقطة تنتهي صلاحيات النبي ﷺ. وسواء آمن الشخص أم كفر، فإنه يتحمل تبعات اختياره أمام الله تعالى مالك أمور الخلاق ، والذي بيده الجنة والنار . حتى النبي ﷺ شخصياً لا يقدر أن يدخل الجنة بأعماله وإخلاصه إلا أن يتغمده الله تعالى بالرحمة . وهذا يعكس القصور الإنساني ، والحاجة إلى الله تعالى في السراء والضراء .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ)) . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ، قال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمّدني الله برحمته))⁽³⁶⁾. إذا كان النبي ﷺ وهو أعظم مخلوقات الله تعالى ، لا يستطيع أن يغفر لنفسه ، ولا أن يرسل نفسه إلى الجنة ، فكيف سيحاسب الناس ويحكم عليهم بالجنة أو النار ؟ ! . وكما قال الله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] .

وقال ابن القيم في مدارج السالكين (١ / ١٧٩) : ((فصلواتُ الله وسلامه على أعلم الخلق بالله ، وحقوقه ، وعظمته ، وما يستحق جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية ، وحقوقها ، وأقوّمهم بها)) .



(٣٦) متفق عليه. البخاري (٥ / ٢٣٧٣) برقم (٦٠٩٨) ، ومسلم (٤ / ٢١٦٩) برقم (٢٨١٦) .

الفصل الثاني

البَحثَة

تمهيد

إن بعثة النبي ﷺ هي الإشراق في حياة البشرية التي من الله عليها بإرسال حامل الشريعة ، ومُنقذ الناس من الضلال ، ومُحقّق أحلام الجماهير المكبوتة، ومُرشد الأمم الضائعة إلى الحضارة الحقّة ، مُحَمَّد بن عبد الله النبي العربيّ الأمّيّ ﷺ .

والبعثة النبوية قائمة على الحق ، وكل حق لا بد أن يقوم على الحق ، لأن منظومة الحق واحدة لا تتجزأ ، وهذا يعني تشييد بناء النبوة المتماسك ، وتطبيق مبادئها واقعاً ملموساً ، لإحداث نقلة نوعية في حياة الأفراد والشعوب : الانتقال من عبادة العبيد إلى عبادة رب العبيد ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، والتّجاة من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وبهذا تتحقق السعادة المنشودة فيلتقي الإنسان بإنسانيته ، ويجد مساره الصحيح بعيداً عن الحيوانية الغريزية ، أو الاستهلاكية الجنونية ، أو العبث المضاد للمبادئ الإنسانية السامية .

وإذا التقى الفرد بكيانه البشري ، فعندئذ سوف يكتشف مساره بدقة بالغة ، لأن معرفة الأشياء المحيطة تنطلق من معرفة الذات . فمن خلال تجذير الوعي الإيماني العميق ، يمكن للإنسان أن ينطلق في الحياة حاملاً شخصية متوازنة ومُبدعة ومستقيمة. أمّا الذين لا يعرفون أنفسهم فسوف يضيعون في متاهات الوسواس الشاذة ، والأيدولوجيات المنحرفة . وكما قيل : لا يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب . ومن عَرَفَ طريقه لا يَلْتَفِت أثناء سيره ، ولا يعبأ بالعقبات .

ومن خلال هذا الفهم التأصيلي يمكن القول إن البعثة النبوية جاءت لكي تُعرّف الإنسان على إنسانيته ، وتُعيد مصالحةً بين الفرد وجوارحه ، بحيث يحيا الإنسان في سلام مع نفسه ، ومن ثمّ ينشر السلام في العناصر المحيطة به . فمن غير المنطقي أن يعيش الفرد جوّ الحرب في ذاته ، ثم نطلب منه أن يكون عنصر سلام في مجتمعه . إن فاقد الشيء لا يُعطيه ، وإنك لن تجني من الشؤك العنب. لذلك ليس غريباً أن يتحوّل المسلمون إلى صنّاع للسلام المنبثق من موقف القوّة لا الضّعف. إنهم يصنعون السلام ويرفضون الاستسلام ، وهذا لا يتعارض مع فكرة استخدام القوّة في نصابها الصحيح. فلا بُدّ للعقيدة من قوّة تحميها ، ولا بُدّ للقوّة من عقيدة تُوجّها .

وقد كانت طبيعة البعثة المحمّدية طيّعةً جماعيةً ، تنتشل الأفراد والجماعات من المأزق الوجودي الخطر ، وتُتيح لهم آفاقاً واسعة لاكتشاف جوهرهم الفطري بعد أن ينفّضوا عنه الغبار ، وبالتالي يلتقون مع فطرتهم السليمة غير الملوّثة ، والتي تَنجّه إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة : ١١٩] (١).

لقد أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْإِسْلَامِ (الدِّينَ السَّمَاوِيِّ الْوَحِيدَ) ، يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِرِضَا اللَّهِ وَنَيْلِ جَنَّتِهِ (بَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ) ، وَيُنْذِرُ الْكَافِرِينَ بِغَضَبِ اللَّهِ وَالْخُلُودِ فِي النَّارِ (نَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ بِالْعِقَابِ) . وَلَا يُسْأَلُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كُفْرٍ مَنْ كَفَرَ ، لِأَنَّ وَظِيفَتَهُ هِيَ التَّبْلِيغُ لَا الْهَدَايَةُ بِيدِ اللَّهِ وَحْدَهُ . وَالنَّبِيُّ ﷺ أَدَّى الرِّسَالَةَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ ، فَلَا يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ كُفْرِ الْكَافِرِينَ ، وَلَيْسَ مَسْئُولًا عَنْهُمْ . وَالْجَحِيمُ هِيَ النَّارُ الْعَظِيمَةُ . وَمِنْ شِدَّةِ إِخْلَاصِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ النَّاسِ ، اعْتَبَرَ نَفْسَهُ مَسْئُولًا عَنْهُمْ ، وَهُوَ لَيْسَ مَسْئُولًا عَنْهُمْ .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٢٩) : ((﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ بِالْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ ، أَيْ : مَعَ الْحَقِّ . ﴿ بَشِيرًا ﴾ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ مُخَوِّفًا وَمُحَذِّرًا لِلْكَافِرِينَ . ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ، أَيْ : لَسْتُ بِمَسْئُولٍ عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ بِأَسْهٍ بِالْيَهُودِ لَأَمَنُوا " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، أَيْ : لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِهِمْ عُهْدَةٌ وَلَا تَبِعَةٌ)) .
وقال اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٣٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا : " لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ " فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَسْهٍ بِالْيَهُودِ لَأَمَنُوا " فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . وَفِي الْمَرَادِ بِالْحَقِّ هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْقُرْآنُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالثَّانِي : الْإِسْلَامُ ، قَالَه ابْنُ كَيْسَانَ ، وَالثَّلَاثُ : الصِّدْقُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ ﴾ الْأَكْثَرُونَ بِضَمِّ التَّاءِ عَلَى الْخَبَرِ ، وَالْمَعْنَى : لَسْتُ بِمَسْئُولٍ عَنْ أَعْمَالِهِمْ . وَقَرَأَ نَافِعٌ وَيَعْقُوبُ بِفَتْحِ التَّاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ ، عَلَى النَّهْيِ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهُمْ)) اهـ . وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمُنْتَوَرِ (١ / ٢٧١) : ((عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ قَالَ : [قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ " ، فَتَنَزَّلَ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ، فَمَا ذَكَرْهُمَا حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ] قُلْتُ : هَذَا مُرْسَلٌ ضَعِيفٌ الْإِسْنَادُ . وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ دَاوُدَ ابْنِ أَبِي عَاصِمٍ [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ : " أَتَيْنَ أَبَوَايَ ؟ " ، فَتَنَزَّلَ] . قُلْتُ : وَالْآخِرُ مُعْضَلٌ الْإِسْنَادُ ضَعِيفٌ ، لَا يَقُومُ بِهِ وَلَا بِالَّذِي قَبْلَهُ حُجَّةٌ)) .

هذه دَعْوَةُ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِي الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، وَيُطَهِّرُهُمُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالشُّرْكَ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ . وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ ، وَالْحَكِيمُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الْعَبَثِ ، فَكُلُّ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ لَهَا حِكْمٌ بَلِيغٌ ، وَلَا تَجِيءُ صُدْفَةٌ ، وَلَا تَجِيءُ بِشَكْلٍ عَابَثٍ . وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْكَرِيمَةِ الصَّادِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً بِعِبَادِهِ .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . لَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَحَسَبَهُ ، وَيُدْرِكُونَ تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ دُونَ مَنَاطِقِ غَامِضَةٍ وَلَا نِقَاطِ مُظْلِمَةٍ . يُخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ . وَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى مَكَانَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَدَوْرِهِ الْبَارِزِ فِي الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَةِ ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ بِهِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ النَّبِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي جَاءَ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ _ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الشَّرْفُ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٥٢) : ((يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ، أَيِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ قَدَرَ اللَّهِ السَّابِقَ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ _ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ _ رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ ، إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)) اهـ .

وَعَنْ الْعَرِيَّاضِ بْنِ سَارِيَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَبِي مُنَجِّدٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةِ عِيسَى)) (٢) .

لَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ خَلْقِ جَسَدِ آدَمَ ﷺ وَقَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ . وَقَدْ كَانَ آدَمُ ﷺ صُورَةً مِنْ طِينٍ ، مَطْرُوحَةً عَلَى الْأَرْضِ ، لَمْ تَجْرِ فِيهِ الرُّوحُ . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النَّهْجَةِ فِي غَرِيبِ الْأَثَرِ (١ / ٧٠٧) عَنْ مَعْنَى " مُنَجِّدٌ فِي طِينَتِهِ " : ((أَيِ مُلْقَى عَلَى الْجَدَالَةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ)) اهـ . وَ" دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ " تَنْجَلِي فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . أَمَّا " بِشَارَةُ عِيسَى " فَتَنْجَلِي فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ عِيسَى ﷺ : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصَّف : ٦] .

(٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٤٥٣) بِرَقْمِ (٣٥٦٦) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ . يقرأ عليهم آيات كتابك (الوحي الإلهي) .
﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ . وقيل : الحِكْمَةُ هي المعرفة بالدين والفقه فيه . والنبي ﷺ هو المعلم الذي يؤسس العلوم الشرعية والمعارف الكونية وفق الوحي الإلهي الذي يتلقاه . وسميت الحِكْمَةُ بهذا الاسم لأنها تمنع من الجهل . وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٢٩) : ((الكتاب : القرآن ، والحكمة : المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذي هو سَجِيَّةٌ ونور من الله تعالى ، قاله مالك . ورواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن زيد . وقال قتادة : الحِكْمَةُ السُّنَّةُ وبيان الشرائع)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٦) : ((والصواب من القول عندنا في الحِكْمَةِ أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ ، والمعرفة بها ، وما دلَّ عليه ذلك من نظائره ، وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل)) .

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ . يُطَهِّرُهُم مِنَ الذنوب والآثام وعبادة الأصنام . وقيل : يأخذ منهم الزكاة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٤٦) : ((وفي قوله تعالى : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ معناه يأخذ الزكاة منهم فيطهرهم بها ، قاله ابن عباس والقرءاء ، والثاني : يطهرهم من الشرك والكفر ، قاله مقاتل . والثالث : يدعوهم إلى ما يصيرون به أزكيا)) اهـ .

﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . العزيز هو القوي الغالب ، الذي لا يعجزه شيء ، لأنه قادر على كل شيء ، والحكيم الذي تخلو أفعاله وأقواله من الخطأ والعبث والصدفة .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٦) : ((يعني تعالى ذكره بذلك : إِنَّكَ يَا رَبِّ ، أَنْتَ ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ القوي الذي لا يعجزه شيء أراده : فافعل بنا وبذرئتنا ما سألناه وطلبناه منك . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، فأعطينا ما ينفعنا وينفع ذرئتنا ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك)) .
وقال الله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

يَمُنُّ اللهُ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وهو ينتمي إليهم . وهذه النعمة الإلهية العظيمة يجب أداء حقها ، وشكر الله عليها قولاً وفعلاً . فالنبي محمد ﷺ قد أرسله الله رحمةً للإنس والجن ، كي يُنقذهم من النار ، ويُقودهم إلى الجنة . يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويُطهرهم من الآثام وعبادة الأصنام ، ويُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، ويُعَلِّمُهُمُ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ ، والمواظَ الدِّينِيَّةِ ، والأفكارَ البليغة ، وأحوالَ الأمم الغابرة ، وأمورَ الدنيا والآخرة . فقد كانوا في جاهلية

عمياء ، فنقلهم الله ببركة البعثة المحمدية من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن مُستنقع الكفر إلى فضاء الإيمان ، فصاروا مؤمنين وعلماء ومفكرين ، ينطقون بالحكمة والمعرفة ، وبينون حياتهم على بصيرة. والتعلّم النبوي إنما يستند إلى توجيهات الوحي الإلهي المعصوم والكمال . والنبي ﷺ لا يعلم إلا إذا علمه الله تعالى . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٣٩) : ((﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ﴾ . المعنى : ولأنّ نعمتي عليكم كإرسالي إليكم رسولا ، أي : أنتم هذه كما أتممت تلك بإرسالي ﴾ رسولا منكم ﴾ تعرفون صدقه ونسبه ﴾ يتلوه عليكم آياتنا ﴾ يعني : القرآن . وهذا احتجاج عليهم ، لأنهم عرفوا أنه أمّي لا يقرأ ولا يكتب ، فلمّا قرأ عليهم تبين لهم صدقه في النبوة . ﴾ ويُرْزِئُكُمْ ﴾ أي : يُعْرِضُكُمْ لِمَا تَكُونُوا بِهِ أَزْكَيَاءَ مِنَ الْأَمْرِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٢ / ٣٩) : ((﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ وَهُوَ الْفُرْقَانُ . يَعْنِي أَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَهُ . وَيَعْنِي بِـ ﴿ الْحِكْمَةِ ﴾ السُّنَنَ وَالْفِقْهَ فِي الدِّينِ ... وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : وَيُعَلِّمُكُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَصَصِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَالْخَبَرِ عَمَّا هُوَ حَادِثٌ وَكَائِنْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ تَعْلَمُهَا ، فَعَلِمُوهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُمْ جَلَّ ثَنَاهُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنَّمَا يُدْرِكُونَهُ بِرَسُولِهِ ﷺ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة:

٢٥٢].

هذه الآية تقدّم دليلاً واضحاً على صدق نبوة محمد ﷺ ، فقد ذكر الله تعالى بعض الأمور الغيبية التي حدثت في الماضي ، ومحمد ﷺ لم يكن يعلمها ، لا هو ولا قومه . وهذه حجة باهرة على أن القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد ﷺ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٥٤٩) : ((﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى ما قصّ من حديث الألوّف ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهمزام الجبابرة ، وقتل داود جالوت)) اهـ . وقد ذكر الله هذه الأحداث بدقّة كما حدثت في الماضي ، بحيث لا يشكّ فيها علماء أهل الكتاب ولا المؤرّخون. وإنّك يا محمد نبيّ مرسل من عند الله تعالى، فمن صدّقك نجا ، ومن كذّبك هلك. وآيات الله التي أخبر بها هي علامات توحّيده، ودلالات على صدق محمد ﷺ ، وصحّة نبوته. وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٠٦) : ((﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٠١) : ((وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ حُكْمُكَ حُكْمُهُمْ ، فَمَنْ صَدَقَكَ فَسَبِيلَهُ سَبِيلَ مَنْ صَدَّقَهُمْ ، وَمَنْ عَصَاكَ فَسَبِيلَهُ سَبِيلَ مَنْ عَصَاهُمْ)) اهـ .
ولا شك أن ذكر الأمور الغيبية دليل واضح على صدق النبي ﷺ ، فهو رجل أمي ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجالس العلماء ، ولم يختلط بأهل الكتاب . فكيف عرّف أحوال الأمم السابقة ؟ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] .

لقد أخذ الله العهد على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، لأن النبوة كيان واحد ، والنبيون إخوة يسرون في طريق واحد ، ويدعون الناس إلى توحيد الله تعالى . كما أخذ الله العهد على النبيين أن ينصروا محمداً ﷺ إن أدركوه . وكل النبيين بشروا بمحمد ﷺ الذي ختمت به النبوة . وهذا يدل على مكانة النبي محمد ﷺ الرفيعة ، كما يدل على صدق الأنبياء وأمانتهم في التبليغ . وكل الأنبياء جاؤوا بدعوة التوحيد ، ولا نزاع بينهم ، ولا صدام بين مناهجهم .

وقال الصابوني في صفوة التفاسير (٢ / ٣٤) : ((لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خِيَانَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِتَحْرِيفِهِمْ كَلَامَ اللَّهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَغْيِيرِهِمْ أَوْصَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَوْجُودَةِ فِي كُتُبِهِمْ حَتَّى لَا يُؤْمِنُوا بِهِ ، ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا مَا تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِنْ أَدْرَكُوا حَيَاتِهِ ، وَأَنْ يَكُونُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ وَأَنْصَارِهِ ، فَإِذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُشِيرُوا بِمَبْعَثِهِ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ التَّكْذِيبُ بِرِسَالَتِهِ ؟)) اهـ .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ . أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَشْهَدُوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ . وَالْمِيثَاقُ قَدْ أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَأُمَمِهِمْ ، لَكِنَّ الْأُمَمَ لَمْ تُذَكَّرْ فِي الْآيَةِ ، لِأَنَّ أَخْذَ الْمِيثَاقِ عَلَى النَّبِيِّينَ (الْمَتَّبِعِينَ) يُلْزِمُ الْأَتْبَاعَ . وَأَخْذَ الْمِيثَاقِ عَلَى الْمَتَّبِعِينَ يُشِيرُ إِلَى أَخْذِهِ عَلَى التَّابِعِ . وَالتَّابِعُونَ هُمُ الْقَادَةُ ، وَالْأُمَمُ تَابِعَةٌ لَهُمْ وَخَاضِعَةٌ لِأَوْامِرِهِمْ . وَإِضَافَةُ الْمِيثَاقِ إِلَى النَّبِيِّينَ هِيَ إِضَافَةٌ إِلَى الْفَاعِلِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٤ / ١٢٢) : ((قِيلَ : أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى مِيثَاقَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَأْمُرَ بَعْضُهُمْ بِالْإِيمَانِ بَعْضًا ، فَذَلِكَ مَعْنَى النَّصْرَةِ بِالتَّصْدِيقِ . وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ وَطَاوُوسَ وَالسُّدِّيَّ وَالْحَسَنَ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤١٤) : ((وفي الذي أَخَذَ مِثاقَهُمْ عَلَيْهِ قَوْلان: أحدهما أنه تصديق محمد ﷺ ، رُوِيَ عن عليّ وابن عباس وقتادة والسُّدي. والثاني أنه أَخَذَ مِثاقَ الأولِ مِنَ الأنبياءِ لِيُؤْمِنَنَّ بما جاء به الآخر منهم ، قاله طاووس)) اهـ .

﴿ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ . للذي آتَيْتُكُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّونَ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، بمعنى الْخَبَرِ . قال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٠٢) : ((أي: لَمَهْمَا أُعْطِيَتْكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)) اهـ . وقال ابن منظور في لسان العرب (١٢ / ٥٥٧) : ((روى المنذري عن أبي طالب النحوي أنه قال: المعنى في قوله : ﴿ لَمَّا آتَيْتُكُمْ ﴾ لَمَهْمَا آتَيْتُكُمْ ، أي: أَيُّ كِتَابٍ آتَيْتُكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . قال: وقال أحمد بن يحيى : قال الأخفش : اللام التي في " لَمَّا " اسم)) اهـ .

وقد قرأ البعض ﴿ لَمَّا ﴾ بِكسر اللام ، فصارَ المعنى: مِنْ أَجْلِ الذي آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ . وهذه قراءة غير صحيحة ، لأنها تُغَيِّرُ معنى الآية . فالله تعالى أَخَذَ مِثاقَ جميع الأنبياءِ بِتَصْدِيقِ بعضهم بَعْضًا ، والأمر غير مُرتَبَطِ بِنَزولِ الْكُتُبِ . وهناك أنبياء لم تَنْزِلْ عَلَيْهِمْ كُتُبٌ . وَمَعَ هذا ، فَهُم مأمورون بِتَصْدِيقِ بعضهم بَعْضًا (3) .

﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ . المقصود هو محمد ﷺ الذي جاء مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ . وَالْخِطَابُ لِأهل الكتاب المعاصرين للنبي محمد ﷺ .

والمعنى العام: اذكروا يا أهل الكتاب حِينَ أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ عَلَى النَّبِيِّينَ للذي آتَيْتُكُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّونَ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ ، وَمُؤَيِّدًا لِلْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ . وفي هذا إشارة إلى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ نُبُوتِهِ ، وَأَنَّ جميع الأنبياء قد أرسلهم اللهُ تعالى ، فلا تناقض بينهم ولا تعارض . وَكُلُّ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ لها مَصْدَر واحد وهو السماء ، فلا

(٣) قال الطبري في تفسيره (٣ / ٨١) : ((وَأَوَّلَى الْقَرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ ﴾ بفتح اللام ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَ مِثَاقَ جميع الأنبياء بتصديق كل رسول له ابتعثه إلى خَلْقِهِ فيما ابتعثه به إِلَيْهِمْ ، كان يَمُنُّ آتَاهُ كِتَابًا أَوْ يَمُنُّ لَمْ يُؤْتِهِ كِتَابًا ، وذلك أنه غير جائز وصف أحد من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ وَرُسُلِهِ بأنه كان يَمُنُّ أُنْبِيحَ لَهُ التَّكْذِيبُ بِأَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَكَانَ مَعْلُومًا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، كَانَ بَيِّنًا أَنَّ قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ ذَلِكَ : " لَمَّا آتَيْتُكُمْ " بِكسر اللام بمعنى: مِنْ أَجْلِ الذي آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ ، لا وجه له مفهوم إلا على تأويل بعيد وانتزاع عميق)) اهـ .

تناقض بينها ولا تعارض . ومع أن لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ نكرة ، إلا أنه يُشير إلى مُعرّف ومُعَيّن ، وهو النبي محمد ﷺ .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٨١) : ((فتأويل الآية : واذكروا يا معشر أهل الكتاب ، إذ أخذ الله ميثاق النبيّين ، لَمَهْمَا آتَيْتُكُمْ أَيْهَا النَّبِيُّونَ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِي مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)) اهـ .

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ . لَتُصَدِّقُنَّهُ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . وهذا احتجاج على اليهود . وفي تفسير ابن كثير (١ / ٥٠٢) : ((قال عليّ بن أبي طالب وابن عمّه ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمداً وهو حيّ ليؤمننّ به ونصُرُنَّهُ ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ، ليؤمننّ به ولنصُرُنَّهُ)) اهـ . والنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وأعظمهم بلا مُنازع . لذلك كان إماماً للأنبياء في ليلة الإسراء والمعراج ، وإمامته لهم تُشير إلى أفضليته وتَفُوقِهِ عَلَيْهِمْ ، وهو الشّفيع في المُحشَر دُون سائر الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ . قَالَ اللَّهُ : قَبِلْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ عَهْدِي ؟ . والإصر هو العهد الثقيل المؤكّد . والإصر لغةً هو الثقل ، وسُمّي العهد إصرًا لما فيه من التّشديد . وفي تاج العروس (١ / ٢٤٥٨) : ((الإصر بالكسر : العهد وفي التّنزيل العزيز : ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ . قال ابن شميل : الإصر : العهد الثّقيل وما كان عن يمينٍ وعهدٍ فهو إصرٌ . وقال الفراء : الإصر ها هنا إنمّ العهد والعهد إذا ضيّعوه كما شدّد على بني إسرائيل)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٨١) : ((يقول : وأخذتم على ما واثقتموني عليه من الإيمان بالرّسل التي تأتيكم بتصديق ما معكم من عندي والقيام بنصرتهم ﴿إِصْرِي﴾ ، يعني عهدي ووَصِيّتي ، وقَبِلْتُمْ في ذلك مِنِّي وَرَضِيْتُمُوهُ . والأخذ هو القبول في هذا الموضع ، والرّضا)) .

﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا﴾ قالوا : قَبِلْنَا .

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ . قَالَ اللَّهُ : لِيَشْهَدَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ . وأنا على إقراركم واعترافكم وشهادة بعضكم على بعض شاهدٌ . أو : فاشْهَدُوا على أنفسكم وعلى أتباعكم ، والله شاهدٌ عليكم وعليهم . وهذا توكيدٌ وتَحذِيرٌ لهم من التلاعب أو الخيانة . والشّهادة هي الإخبار بالشّيء المُشاهد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤١٦) : ((وفيمن خُوطب بهذا قولان : أحدهما أنه خطاب للنبيين ، ثم فيه قولان : أحدهما أن معناه : فاشهدوا على أممكم ، قاله علي بن أبي طالب ، والثاني : فاشهدوا على أنفسكم ، قاله مقاتل . والثاني أنه خطاب للملائكة ، قاله سعيد بن المسيب ، فعلى هذا يكون كناية عن غير مذكور)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٦٩) : ((قال ابن عباس : صَاحَ الشَّيْطَانُ يَوْمَ أُحُدٍ : قُتِلَ مُحَمَّدٌ . فقال قوم : لئن كان قُتِلَ لَنُغْطِيَنَّهُمْ بأيدينا ، إنهم لَعَشَائِرُنَا وإخواننا ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ حَيًّا لَمْ نُهْزَمْ ، فَتَرَحَّصُوا فِي الْفِرَارِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وقال الضحَّاك : قال قوم من المنافقين : قُتِلَ مُحَمَّدٌ فَالْحَقُوا بِدِينِكُمُ الْأَوَّلِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وقال قتادة : قال أناس : لو كان نبيًّا ما قُتِلَ ، وقال ناس من عليّة أصحاب رسول الله : قَاتِلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّكُمْ حَتَّى تَلْحَقُوا بِهِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ)) .

النبيُّ محمد ﷺ خادِمٌ للإسلام . ومحمد ﷺ مَحْكُومٌ بِالْمَوْتِ ، لكنَّ الإسلام لا يَمُوت . محمد ﷺ رَسُولٌ كِبَاقِي الرُّسُلِ . والرُّسُلُ يُبْلَغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْحَلُونَ عَنِ الْحَيَاةِ . مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ . وَلَوْ مَاتَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَوْ قُتِلَ ، فهذا ليس مُبَرَّرًا لِلارْتِدَادِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنْسَانٌ أَوَّلًا وَأَخِيرًا . وَمَوْتُهُ لَا يَعْنِي مَوْتَ الْإِسْلَامِ ، لأنَّ الْإِسْلَامَ أَعْظَمُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ . وَمَنْ يَرْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ هُوَ الَّذِي يَخْسِرُ ، لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ ، وَلَنْ يُوقَفَ نُورُ الْإِسْلَامِ . وَمَنْ يَثْبُتْ عَلَى الْإِسْلَامِ هُوَ الْفَائِزُ ، وَسَيَمْنَحُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى صَبْرِهِ وَثَبَاتِهِ .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ . مُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولٌ كَغَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ ، ومحمد ﷺ لا يَحْتَلِفُ عَنْهُمْ . وَحَتَّى لَوْ قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فيجب الثبات على الإسلام والدفاع عنه . ومحمد ﷺ قَدْ أَدَّى الرِّسَالَةَ بِإِخْلَاصٍ ، وَبَلَغَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ ، وَلَا يَضُرُّهُ إِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ . وَعَلَى أُمَّتِهِ أَنْ تَسِيرَ عَلَى خُطَاهُ ، وَتَقْتَفِيَ أَثَرَهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٤٣) : ((لَمَّا انْهَزَمَ مَنْ انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، نَادَى الشَّيْطَانُ : أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . وَرَجَعَ ابْنُ قَمِيئَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَهُمْ : قَتَلْتُ مُحَمَّدًا . وَإِنَّمَا كَانَ قَدْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ

من الناس ، واعتقدوا أَنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل ، وجَوَّزوا عَلَيْهِ ذلك ، كما قَدْ قَصَّ الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهْنٌ وتأخَّرَ عن القتال . ففي ذلك أنزلَ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أي : له أُسُوةٌ بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عَلَيْهِ)) اهـ .

﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ . الآية عِتَابٌ للصحابه _ رضي الله عنهم _ فليس لهم أن يترجعوا حتى لو قُتل محمد ﷺ ، ويجب عليهم الدفاع عن الإسلام سواءً عاشَ النبي ﷺ أو مات . والتَّبَوُّة لا تَحْمِي النبي مِنَ الموت ، والإسلام لا يَزُول بِمَوْتِ النبي ﷺ أو قَتْلِهِ . والآية تَحْمِلُ عِتَابًا لهم ، وتُقيم عليهم الْحُجَّةَ . ومعنى الآية: أَفَإِنْ مَاتَ محمد ﷺ أو قَتَلَهُ الكفارُ ارتددتُم عن الإسلام ؟ . وبعبارة أُخرى : كَيْفَ تَرْتَدُّونَ عن الإسلام إذا مات محمد ﷺ أو قُتل ؟ . إِنَّ الرُّسُلَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْحَلُونَ إِلَى اللَّهِ بِالمَوْتِ أو القَتْلِ . وَلَنْ يَسْقُطَ الدِّينُ بِمَوْتِ الرسول أو قَتْلِهِ . الدِّينُ باقٍ ، ويجب الدفاع عنه ، والسَّيرُ على خُطَى الرُّسُولِ والتَّمَسُّكُ بتعاليمه . والآية تَحْمِلُ معنى الاستفهام الإنكاري . إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ ليس إِلَهًا مَعْبُودًا حَتَّى تَرْجِعُوا وتترجعوا بعد مَوْتِهِ أو قَتْلِهِ . الله هو الإله المعبود ، وهو حَيٌّ لا يَمُوت . والصحابه كانوا قَدْ اسْتَبَعَدُوا قضية موت الرسول ﷺ أو قَتْلِهِ ، وتعاملوا مَعَهُ كشخصٍ خالِدٍ باعتباره رَسُولاً لِلَّهِ تعالى، وهذا بسبب شِدَّةِ حُبِّهِمْ لَهُ ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِهِ ، وَتَمَسُّكِهِمْ بشريعته . وَقَدْ أَعْلَمَهُمُ اللهُ تعالى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ كِبَاقِي الرُّسُلِ ، فليس غريباً أن يَمُوتَ أو يُقْتَلَ . والقانونُ الإلهيُّ الذي يَحْكُمُ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِ يَحْكُمُ مُحَمَّدًا أَيْضًا بلا استثناء . وقال الثعالبي في تفسيره (١ / ٣١٦) : ((المعنى أَنَّ مُحَمَّدًا عليه السلام رَسُولُ كَسَائِرِ الرُّسُلِ ، قَدْ بَلَغَ كما بَلَّغُوا ، وَلَزِمَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ العمل بمضمون الرسالة ، وليست حياته وبقاؤه بين أظهركم شَرْطًا في ذلك ، لأنه يموت كما مَاتَتِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ)) اهـ .

وَكُلُّ مَنْ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ يُقَالُ لَهُ: انْقَلَبَ عَلَى عَقْبَيْهِ. فَصَارَتْ مَثَلًا. وَالْعَقْبُ مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ. ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ . وَمَنْ يَرْتَدَّ عَنِ الإسلام فَهُوَ الْخَاسِرُ ، لِأَنَّهُ قَادَ نَفْسَهُ إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ ، وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ تعالى ، وَلَنْ يُطْفِئَ شَمْسَ الإسلام .

وَسَيُثِيبُ اللَّهُ الْمُطِيعِينَ الَّذِينَ تَبَتُّوا عَلَى الإسلام ، وَصَبَرُوا وَجَاهَدُوا ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا النِّعْمَةَ الإلهية العظيمة المتمثلة في الإسلام ، وقاموا بأداء حَقِّ شُكْرِهَا . وَكُلُّ شَخْصٍ التَزَمَ أَوَامِرَ اللَّهِ

واجتنب نواهيه ، فقد شَكَرَ النِّعْمَةَ التي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ .

وقال الواحدي في الوجيز (٢٣٥ / ١) : (... لَمَّا نَعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَأُشِيعَ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ ، قَالَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ لِلْمُؤْمِنِينَ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قُتِلَ فَالْحَقُّوا بِدِينِكُمُ الْأَوَّلِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أَي : فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ بِاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٦٩) : (وَسَيَجْزِي ، أَي يُثِيبُ الشَّاكِرِينَ ، وَفِيهِمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ ، قَالَهُ عَلِيٌّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — وَقَالَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَمِيرَ الشَّاكِرِينَ . وَالثَّانِي أَنَّهُمُ الشَّاكِرُونَ عَلَى التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ ، وَالثَّالِثُ عَلَى الدِّينِ)) اهـ .
وقد ضَرَبَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — مَثَلًا فِي الثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ ، وَعَدِمِ الْإِهْتِرَازِ . فِيهِ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤ / ١٦١٨) : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ ، فَقَالَ : اجْلِسْ يَا عُمَرُ ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، وَتَرَكُوا عُمَرَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ . قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤).

يُعْرِفُ الرَّجَالُ فِي الشَّدَّةِ ، وَلَا يُعْرِفُونَ فِي الرَّخَاءِ . وَالشَّدَائِدُ تَكْشِفُ عَنْ مَعَادِنِ الرَّجَالِ . فِيهِ هَذَا الْمَوْقِفُ الصَّعْبُ ، وَهُوَ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ ، انْهَارَ الصَّحَابَةِ بِسَبَبِ شِدَّةِ حُبِّهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَدْ عَاشَ مَعَهُمْ وَعَاشُوا مَعَهُ ، وَلَمْ يَتَخَيَّلُوا أَنَّهُ سَيُفَارِقُهُمْ ، لِذَلِكَ لَمْ يَتَحَمَّلُوا وَقَعَ الصَّدْمَةِ ، حَتَّى إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — الْمَعْرُوفَ بِقُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ — لَمْ يَسْتَطِعْ تَحَمُّلُ هَذَا الْأَمْرِ الصَّاعِقِ . وَالصَّحَابِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي تَصَرَّفَ بِهُدُوءٍ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — ، فَقَدْ خَطَبَ فِي

(٤) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢١٨) : (هَذِهِ الْآيَةُ أَذَلُّ دَلِيلٍ عَلَى شَجَاعَةِ الصَّدِيقِ وَجَرَأَتِهِ ، فَإِنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْجَرَأَةَ حَدُّهُمَا ثُبُوتُ الْقَلْبِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ ، وَلَا مَصِيبَةٌ أَعْظَمُ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ... فَظَهَرَتْ عِنْدَهُ شَجَاعَتُهُ وَعِلْمُهُ . قَالَ النَّاسُ : لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، مِنْهُمْ عُمَرُ ، وَخَرَسَ عُثْمَانُ ، وَاسْتَخْفَى عَلِيٌّ ، وَاضْطَرَبَ الْأَمْرُ ، فَكَشَفَهُ الصَّدِيقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ)) اهـ .

الناس ، وذَكَرَهُمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وليس إِلَهًا مَعْبُودًا ، فليسَ غَرِيبًا أَنْ يَمُوتَ . واللهُ تعالى هُوَ الإِلَهُ المَعْبُودُ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ . وقد قرأ هذه الآيةَ التي يَعْرِفُهَا الصَّحَابَةُ ، ولكنَّ مِنْ شِدَّةِ الصَّدَمَةِ ، لَمْ تَخْطُرْ عَلَى بَالِهِمْ ، فَكَانُوا كَأَنَّمَا يَسْمَعُونَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ . وفي هذا الموقف الشديد، تَضَحَّ رِبَاطَةُ جَاشِ أَبِي بَكْرٍ ، وَكَثُرَةُ عِلْمِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ الرَّاسِخَةُ ، وَيَقِينُهُ الثَّابِتُ . وَلَيْسَتْ الْقُوَّةُ بِالْعَضَلَاتِ الْمَفْتُولَةِ ، وَإِنَّمَا الْقُوَّةُ ثَبَاتُ الْقَلْبِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ . وعن ابن عباس أن عَلِيًّا _ رضي الله عنه _ كان يقول في حياة رسول الله ﷺ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ، وَاللَّهُ لَا نَنْقَلِبُ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ، وَاللَّهُ لَعَنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ لَأُقَاتِلَنَّ عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ حَتَّى أَمُوتَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لِأُخُوهُ وَوَلِيِّهِ وَابْنُ عَمِّهِ وَوَارِثُهُ ، فَمَنْ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي ؟ (5)

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥] (6).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١ / ١٠٧). وقال الهيثمي في الجمع (٩ / ١٨٣): ((رجاله رجال الصحيح)).
(٦) سبب نزولها ما رواه الترمذي في سننه (٥ / ٢٤٤) : عن قتادة بن النعمان قال : كان أهل بيت منّا يُقال لهم بنو أُبَيْرِقٍ ، بِشْرٍ وَبَشِيرٍ وَمُبَشِّرٍ ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشَّعْرُ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ يَنْحُلُهُ بَعْضُ الْعَرَبِ (يَنْسُبُهُ إِلَى بَعْضِ الْعَرَبِ) ، ثُمَّ يَقُولُ : قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا ، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ الشَّعْرَ ، قَالُوا : وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشَّعْرُ إِلَّا هَذَا الْخَبِيثُ وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ (غِنًى) فَقَدِمَتْ ضَافِطَةُ (الْجَمَّالُونَ) مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرَمَكِ (الدقيق المحوّر) ، ابْتِغَاءَ الرَّجُلِ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةُ مِنَ الشَّامِ فَابْتِغَاءَ عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرَمَكِ ، فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ (غُرْفَةٍ) ، وَفِي الْمَشْرَبَةِ سِلَاحٌ وَدُرْعٌ وَسَيْفٌ ، فَعُدِّيَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ فَتُنْقَبَتِ الْمَشْرَبَةُ ، وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلَاحُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةَ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِنَّهُ قَدْ عُدِّيَ عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ ، وَتُنْقَبَتِ مَشْرَبَتُنَا ، فَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلَاحِنَا فَتَحَسَّنَا فِي الدَّارِ ، وَسَأَلْنَا فَقِيلَ لَنَا : قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أُبَيْرِقٍ ، اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَلَا نَرَى فِيمَا نَرَى إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ ، قَالَ : وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ : وَاللَّهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَبِيدَ بْنِ سَهْلٍ ، رَجُلٌ مِنَّا لَهُ صِلَاحٌ وَإِسْلَامٌ ، فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ : أَنَا أَسْرِقُ ؟

إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ، فَالْقُرْآنُ حَقٌّ ، وَنَزَلَ بِالْحَقِّ ، لِيَحْكُمَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ النَّاسِ وَفَقَّ الْوَحْيُ الْإِلَهِيَّ . وَفِيهِ دَلَالَةٌ جَوَازُ الْجَاهِدِ فِي حَقِّهِ ، وَأَنَّ اجْتِهَادَهُ مَعْصُومٌ ، لِأَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ يُوَافِقُ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْحُكْمُ قَدْ يَكُونُ نَصًّا وَاضِحًا ، وَقَدْ يَكُونُ اجْتِهَادًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكِلَاهُمَا وَحْيٌ إِلَهِيٌّ . وَقَدْ نَهَاهُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ مُجَادِلًا عَنِ الْخَائِنِينَ وَمُدَافِعًا عَنْهُمْ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٧٧١/١) : ((وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاصِمَ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ)) اهـ .

وَالْآيَةُ تَحْمِلُ تَشْرِيفًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَعْظِيمًا لَهُ ، فَهُوَ الْقَاضِي الْعَادِلُ بَيْنَ النَّاسِ ، يَتَحَرَّكُ وَفَقَّ تَوْجِيهَاتِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَالْآيَةُ تَحْمِلُ تَوْجِيهًا إِلَهِيًّا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْأَلَةِ الْقَضَاءِ وَالْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَحُكْمُ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ . أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ خَاضِعَةٌ لِلْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْكَامِلِ وَالْمَعْصُومِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَتَصَرَّفُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، وَلَا يَحْكُمُ بِرَأْيِهِ الشَّخْصِيِّ . وَأَيْضًا ، تَحْمِلُ الْآيَةُ نَهْيًا عَنْ حِمَايَةِ الْخَائِنِينَ وَالْجِدَالِ عَنْهُمْ ، فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّونَ الدَّعْمَ . وَيَحْرُمُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُجَادِلَ عَنْ أَيِّ شَخْصٍ إِلَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ .

، فَوَاللَّهِ لِيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ ، أَوْ لَتُبَيِّنَنَّ هَذِهِ السَّرْقَةَ ، قَالُوا : إِلَيْكَ عَنْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا ، فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشْكُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا ، فَقَالَ لِي عَمِّي : يَا ابْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ . قَالَ قَتَادَةُ : فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : إِنَّ أَهْلَ بَيْتِ مَنْ أَمَّا أَهْلَ خِفَاءٍ عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ ، فَتَقَبُّوا مَشْرِبَةً لَهُ ، وَأَخَذُوا سِلَاحَهُ وَطَعَامَهُ ، فَلِيرُدُّوا عَلَيْنَا سِلَاحَنَا ، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " سَأَمُرُّ فِي ذَلِكَ " ، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِقَ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ : أُسَيْرُ بْنُ عُزْوَةَ ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانَ وَعَمَّهُ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتِ مَنْ أَمَّا أَهْلَ خِفَاءٍ عَمَدُوا بِالسَّرْقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ (حُجَّةٌ) . قَالَ قَتَادَةُ : فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمْتُهُ ، فَقَالَ : " عَمَدْتُ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ ذِكْرٍ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرْقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ " ، قَالَ : فَارْجِعْ وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أَكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي = مَا صَنَعْتَ ؟ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ : اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ بَنِي أُبَيْرِقَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٥٧): ((قال العلماء: ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يُجادل فريق منهم فريقاً عنهم ليَحْمُوهم ويدفعوا عنهم ، فإن هذا قد وَقَعَ على عهد النبي ﷺ ، وفيهم نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾)) اهـ .

والجدير بالذكر أَنَّ طائفة من علماء الأصول احتجُّوا بالآية القرآنية : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (٧) في قضية أَنَّ النبي ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد . كما احتجُّوا بالحديث: عن أم سلمة رضي الله عنها _ أَنَّ رسول الله ﷺ قال : ((إنكم تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، ولعلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ ، فإنما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يأخذها)) (٨) . وهذا الحديث يُشير بوضوح إلى أَنَّ النبي ﷺ له أن يحكم باجتهاده ، كما أَنَّه يحكم على الظاهر ، ولا يَعْرِفُ بواطنَ الأمور إلا إذا أطلعه الله عليها .

وقد يكون الشخصُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ ، يعني أكثر فصاحةً ببيان وجهة نظره ، وعرض أدلته ، وإظهار أَنَّ الحقَّ له ، وقد يكون ظالماً ، لكنَّه يَمْلِكُ أَسْلُوبًا جَدًّا ، ولذَّيْه قُدْرَاتٌ لُغَوِيَّةٌ على إلباس الباطل ثوب الحق . والنبي ﷺ يحكم حَسَبَ الظاهر ، وَوَفَّقَ الأدلة المعروضة عليه ، ولا يعلمُ الغَيْبَ إلا إذا أطلعه الله عليه . فَإِنْ حَكَمَ النبي ﷺ له بظاهرٍ يُخَالِفُ الباطنَ ، فهو حَرَامٌ يَقُودُهُ إلى النار . وفي الحديثِ دلالةٌ واضحة على أَنَّ القاضي يحكم بالظاهر ، وَوَفَّقَ الأدلة المعروضة أمامه ، ولا ذَنْبَ عَلَيْهِ في هذا الْحُكْمِ ، وأُيِّ خِيَانَةٌ إِنَّمَا يَتَحَمَّلُهَا الشخصُ الخائنُ لا القاضي .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٥) : ((... وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَبِوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ وَبِالْيَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الظَّاهِرِ ، مَعَ إِمْكَانِ كَوْنِهِ فِي الْبَاطِنِ خِلَافَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا كُتِّفَ الْحُكْمَ بِالظَّاهِرِ ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَطْلَعَهُ ﷺ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْنِ ، فَحَكَمَ بَيِّقِينَ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةِ أَوْ يَمِينٍ ، لَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ

(٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٩١) : ((في قوله : ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ قولان: أحدهما أنه الذي عَلَّمَهُ ، والذي عَلَّمَهُ أن لا يقبل دَعْوَى أحد على أحد إلا بِبُرْهَانٍ ، والثاني أنه مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ اجتهاده دَكَّرَهُ الماوردي)) .

(٨) متفق عليه . البخاري (٢ / ٩٥٢) برقم (٢٥٣٤) ، ومسلم (٣ / ١٣٣٧) برقم (١٧١٣) .

وأفعاله وأحكامه أجرى له حكمهم في عدم الاطلاع على باطن الأمور ، لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ حُكْمَهُ ، فَأَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ لِيَصِحَّ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ ، وَتَطْيِبَ نَفُوسَ الْعِبَادِ لِلْاِتِّقَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

والجدير بالذكر أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَ الْبَشَرَ مِنَ الْحُكْمِ فِي دِينِهِ بِآرَائِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ . حَتَّى النَّبِيُّ ﷺ لَا يَمْلِكُ سُلْطَةَ الْحُكْمِ بِرَأْيِهِ الشَّخْصِيِّ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا يَحْكُمُ وَفْقَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ .

قال الغزالي في المستصفى (١ / ٢٨٩) : ((وقال ابن عباس: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ فِي دِينِهِ بِرَأْيِهِ . وقال الله تَعَالَى لِنَبِيِّهِ _ عَلَيْهِ السَّلَام _ : ﴿ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ بِمَا رَأَيْتَ)) اهـ .

وقال الله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧٠] .

هذا خطابٌ إلهيٌّ كريمٌ للناسِ كافَّةً . قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِدِينِ الْإِسْلَامِ الْكَامِلِ وَالْمَعْصُومِ مِنَ اللَّهِ ، فَآمِنُوا بِهِ خَيْرًا لَكُمْ ، إِذْ إِنَّكُمْ تَنْقُذُونَ أَنْفُسَكُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنَ النَّارِ ، وَاللَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِيْمَانِكُمْ ، فَالطَّاعَةُ لَا تَنْفَعُهُ ، وَالْمَعْصِيَةُ لَا تَضُرُّهُ . إِيْمَانُكُمْ يُفِيدُكُمْ أَنْتُمْ ، وَلَا يُفِيدُ اللَّهَ تَعَالَى . وَإِنْ تَكْفُرُوا فَلَنْ تَضُرُّوا اللَّهَ ، فَاللَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَبْدٌ لِلَّهِ تَعَالَى . وَكُفْرُ الْكَافِرِ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ ، وَلَا يَعُودُ عَلَى غَيْرِهِ . فَالْكَافِرُ لَنْ يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ . وقال النُّعْمَانِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٣٤) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الْآيَةُ . خِطَابٌ لَجَمِيعِ النَّاسِ ، وَهِيَ دُعَاءٌ إِلَى الشَّرْعِ ، وَلَوْ كَانَتْ فِي أَمْرٍ مِنْ أَوْامِرِ الْأَحْكَامِ وَنَحْوِ هَذَا لَكَانَتْ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . وَالرَّسُولُ فِي الْآيَةِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَهَذَا خَبَرٌ بِالْاِسْتِغْنَاءِ ، وَإِنَّ ضَرَرَ الْكُفْرِ إِنَّمَا هُوَ نَازِلٌ بِهِمْ)) اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ . خُطَابٌ لِكُلِّ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ . وَهَذَا يُشِيرُ بوضوح إِلَى السُّلْطَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ ، فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُخَاطَبُ النَّاسَ جَمِيعًا ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ ، وَهُمْ عِبِيدُهُ ، وَخَاضِعُونَ لِسُلْطَتِهِ .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٣٧١) : ((﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَسَائِرُ أَصْنَافِ الْكُفْرِ)) اهـ .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْإِسْلَامِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .
والإسلام الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره . وقيل : جاءكم بالقرآن . وقيل : جاءكم بلا إله إلا الله .
وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٨٣) : ((أي : قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه
بالهدى ، ودين الحق ، والبيان الشافي من الله — عَزَّ وَجَلَّ —)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٨٢) : ((لَمَّا قَرَّرَ أَمْرَ النُّبُوَّةِ ، وَبَيَّنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى
الْعِلْمِ بِهَا ، وَوَعِدَ مَنْ أَنْكَرَهَا ، خَاطَبَ النَّاسَ عَامَةً بِاللَّدْعَاةِ وَالزَّامِ الْحُجَّةِ)) اهـ .

﴿ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ . فَأَمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ الَّذِينَ جَاءَ بِهِ ، فَهَذَا يَعُودُ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ
وَالْمَنْفَعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٥٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ . قَالَ الزَّجَّاجُ عَنِ الْخَلِيلِ وَجَمِيعِ الْبَصَرِيِّينَ إِنَّهُ مَنْصُوبٌ بِالْحَمَلِ عَلَى مَعْنَاهُ ،
لَأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ : إِنَّهُ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْتَ تَدْفَعُهُ عَنْ أَمْرٍ فَتُدْخِلُهُ فِي غَيْرِهِ ، كَانَ الْمَعْنَى : إِنَّهُ وَأَنْتَ
خَيْرٌ لَكَ ، وَادْخُلْ فِي مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ)) اهـ .

﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . وَإِنْ تَكْفُرُوا بِالْإِسْلَامِ وَتَجْحَدُوا نُبُوَّةَ
محمد ﷺ فَأَنْتُمْ تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ ، لَأَنَّكُمْ تَقُودُونَهَا إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ . وَلَنْ يَنْتَصِرَ اللَّهُ بِكُفْرِكُمْ ،
فَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ . لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِيْمَانِكُمْ . إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوَكُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ رَحْمَةً بِكُمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ .
وَإِيْمَانُكُمْ لَنْ يَزِيدَ فِي مُلْكِ اللَّهِ شَيْئًا ، وَكُفْرُكُمْ لَنْ يُنْقِصَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ شَيْئًا . فَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ
شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ .

وفي تفسير الجلالين (١ / ١٣٢) : ((﴿ فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا
وَعَبِيدًا ، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ)) اهـ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . اللَّهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ ، يَعْلَمُ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْإِيْمَانِ أَوْ
الْكُفْرِ ، وَحَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ فِي تَكْلِيفِكُمْ مَعَ عِلْمِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْكُمْ
(اِخْتِيَارِ الْإِيْمَانِ أَوْ اِخْتِيَارِ الْكُفْرِ) .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٣٧١) : ((﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بِمَا أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ
طَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَمَعْصِيَتِهِ فِي ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِذَلِكَ ... ﴿ حَكِيمًا ﴾
يَعْنِي : حَكِيمًا فِي أَمْرِهِ إِتَاكُمْ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَفِي نَهْيِهِ إِتَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
تَدْبِيرِهِ فَيْكُمْ ، وَفِي غَيْرِكُمْ مِنْ خَلْقِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] ^(٩).

هذا تشریف إلهي لمحمد ﷺ وتعظيم له . فقد ناداه الله بالرسول ، فهو الحامل للرسالة الإلهية . وقد أمره الله بتبليغ الوحي كاملاً غير منقوص ، وإذا لم يُبلِّغ محمد ﷺ الوحي كاملاً ، فقد خان الأمانة وما بَلَغَ الرسالة الإلهية ، وحاشاه ، فهو الرسول الصادق الأمين في كُلِّ مراحل حياته . والله يحفظ رسوله محمداً من كُلِّ سوء ، فلا داعي أن يتخذ إجراءات لحمايته من الناس ، فالله قد تكفل بحفظه وحمايته . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٠٦) : ((يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وأمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به . وقد امتثل — عليه أفضل الصلاة والسلام — ذلك ، وقام به أتم القيام)) اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ ﴾ . تشریف إلهي لمحمد ﷺ ، وتعظيم لقدره ، ورفع لشأنه . فقد ناداه الله باسم الرسالة الإلهية التي هي أشرف الأسماء وأعظم الأوصاف ، وليس باسمه المجرد " محمد " . ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . أمر الله رسوله محمداً ﷺ بتبليغ الوحي الإلهي كاملاً ، كما هو ، بلا زيادة ولا نقصان ، ولا يهتم بكلام الناس ، وإنما يُرْكَز على تبليغ الرسالة الإلهية كاملة . بَلَغَ جميع ما أنزل إليك يا محمد ، ولا تُراقب أحداً ، ولا تُخفِ شيئاً مما أنزل إليك خوفاً من الناس ، أو تخوفاً أن ينالك مكروه . بَلَغَ الوحي كاملاً للناس ، وجاهر به ، ولا تخش شيئاً . ولا تترك التبليغ لمخالفة من خالفك ومعاداة من عاداك .

(٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٩٦) : ((ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت على أسباب . روى الحسن أن النبي ﷺ قال : " لَمَّا بَعَثَنِي اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ ضِيقْتُ بِهَا ذَرْعًا ، وَعَرَفْتُ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُكْذِبُنِي " . وكان رسول الله ﷺ يهاب قُرَيْشًا وَالْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وقال مجاهد : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال : يا رب ، كَيْفَ أَصْنَعُ ؟ ، إِنَّمَا أَنَا وَخْدِي ، يَجْتَمِعُ عَلَيَّ النَّاسُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وقال مقاتل : لَمَّا دَعَا الْيَهُودَ وَأَكْثَرَ عَلَيْهِمْ جَعَلُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ ، فَسَكَتَ عَنْهُمْ ، فَحُرِّضَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . وقال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ مُحْرَسًا ، فَيُرْسَلُ مَعَهُ أَبُو طَالِبٍ كُلَّ يَوْمٍ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَحْرُسُونَهُ ، حَتَّى نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَقَالَ : يَا عَمَّاهُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَنِي مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٢٨ / ٦) : ((يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)) قيل: معناه أظهر التبليغ لأنه كان في أول الإسلام يُخفيه خوفاً من المشركين ثم أمر بإظهاره في هذه الآية)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٤٧ / ١) : ((يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)) جميع ما أنزل إليك ، غير مراقب أحداً ، ولا خائف مكرهاً)) اهـ .

وعن مسروق عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : ((مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ ، وَاللَّهُ يَقُولُ :)) يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﷻ . _ الآية _)) (10) . وهذا يدل على صدق النبي ﷺ وأمانته في تبليغ الوحي الإلهي كاملاً غير منقوص . وهذه الآية دليل على قبول خبر الآحاد (خبر الواحد) لأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أرسل للناس كافةً، ويجب عليه تبليغهم. وَمِنْ المستحيل أن يُرْسَلَ عدد التواتر إلى جميع الناس . وهذا يُشير إلى وجوب قبول خبر الآحاد .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت: ((وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدًا ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكُتِمَ هَذِهِ الْآيَةُ :)) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﷻ [الأحزاب : ٣٧])) (11) . ما قالته السيدة عائشة صحيحٌ تماماً ، ويدل على فطنتها وذكائها ، لأنَّ هذه الآية تكشف عن الأمور الشخصية للنبي ﷺ ، وتبرز التفاصيل الدقيقة في حياته ، وتوضح مشاعره الداخلية ، والتي لا يعلمها مخلوق . وتبليغ الآية كاملةً بدون زيادة ولا نقصان ، يدل على أمرين: الأول _ صدق النبي ﷺ وأمانته في التبليغ. والثاني _ القرآن ليس من عند محمد ﷺ ، وإنما من عند الله صاحب السُّلطة المطلقة ، وما مُحَمَّدٌ ﷺ إلا رَسُولٌ يُبَلِّغُ كَلَامَ اللَّهِ ، وليس له مِنَ الأمر شيء . والله تعالى إذا أَرَادَ أَنْ يَكْشِفَ أَمْرًا ما ، فلا يَقْدِرُ النَّبِيُّ ﷺ على إخفائه ، حَتَّى لَوْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بتفاصيل حياة النَّبِيِّ ﷺ وأفكاره الداخلية ومشاعره الباطنية .

و [عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَجَاءَ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ نَاسًا يَأْتُونَا فَيُخْبِرُونَنَا أَنَّ عِنْدَكُمْ شَيْئًا لَمْ يُبْدِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ((أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

(١٠) رواه البخاري (١٦٨٦ / ٤) برقم (٤٣٣٦) . ومسلم (١ / ١٥٩) برقم (١٧٧) .

(١١) رواه مسلم (١ / ١٥٩) برقم (١٧٧) ، والبخاري (٦ / ٢٦٩٩) برقم (٦٩٨٤) .

الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، والله مَا وَرَّثَنَا رسول الله ﷺ سِوَاءَ فِي بَيْضَاءِ)) [(12).

ابن عباس _ رضي الله عنهما _ من كبار علماء الصحابة ، ومن أعمدة آل البيت _ عليهم السلام _ . وقد نفى بشكل واضح أن يكون النبي ﷺ قد خَصَّهم بِشَيْءٍ دُونَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ . والنبي ﷺ لَمْ يَتْرِكْ لَهُمْ شَيْئًا مَكْتُوبًا (سِوَاءَ فِي بَيْضَاءِ) . والنبي ﷺ إِذَا خَصَّ آلَ بَيْتِهِ بِشَرَائِعٍ خَاصَّةٍ دُونَ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ خَانَ الْأَمَانَةَ ، وَحَوَّلَ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ إِلَى عَصَبِيَّةٍ قَبِيلِيَّةٍ ، وَحَوَّلَ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ إِلَى حِزْبٍ هَاشِمِيٍّ . وبالتالي ، تَفَقَّدَ الرِّسَالَةُ الْإِلَهِيَّةُ مَعْنَاهَا ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ كَامِلًا لِلنَّاسِ كَافَّةً دُونَ تَمْيِيزٍ عَلَى أَسَاسٍ دِينِيٍّ أَوْ قَبِيلِيٍّ أَوْ عَرَقِيٍّ .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١١١٠) : عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قُلْتُ لِعَلِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ ، قَالَ : ((وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهَمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ)) . قُلْتُ : وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ ؟ ، قَالَ : ((الْعَقْلُ ، وَفِكَائِكَ الْأَسِيرِ ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ)) (13) . وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ ، وَزَعِيمِ آلِ الْبَيْتِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَدْ خَصَّهمُ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ دُونَ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ .

وهذان الصحابيَّانِ الجليلانِ (عليُّ بنُ أبي طالب ، وعبدُ اللهِ بنُ عباس) هُمَا شَيْخَا آلِ الْبَيْتِ ، مَعْرُوفَانِ بِالْتَّقْوَى وَالْوَرَعِ وَالْعِلْمِ وَالْغَزِيرِ وَالْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمَرْمُوقَةِ ، وَقَدْ نَفَى أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ خَصَّ آلَ بَيْتِهِ بِتَعَالِيمٍ مُعَيَّنَةٍ دُونَ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا يَرُدُّ بِوُضُوحٍ عَلَى الشَّيْعَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ خَصَّ آلَ بَيْتِهِ بِعِلْمٍ مُعَيَّنٍ دُونَ بَاقِي الْمُسْلِمِينَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّشْيِيعَ نَزْعَةٌ فَارْسِيَّةٌ وَرِاثِيَّةٌ كَهَنُوتِيَّةٌ ، وَهَذَا يَتَعَارَضُ تَمَامًا مَعَ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ لِلنَّاسِ كَافَّةً دُونَ تَمْيِيزٍ وَلَا طَبَقَةٍ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٢٢٨) : ((وَقَبَّحَ اللَّهُ الرَّوَافِضَ ، حَيْثُ قَالُوا : إِنَّهُ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، كَانَ لِلنَّاسِ حَاجَةٌ إِلَيْهِ)) اهـ .

(١٢) تفسير ابن كثير (٢ / ١٠٦) . وقال : ((هذا إسنادٌ جيّدٌ)) .

(١٣) "فلق الحبة": شَقَّهَا فِي الْأَرْضِ حَتَّى تُنْبِتَ ثُمَّ تُثْمِرَ. "بَرَأَ": خَلَقَ. "النَّسَمَةُ": النَّفْسُ. "العقل": الدِّيَّةُ. وقال ابن قُتَيْبَةَ فِي فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ (١/ ٢٢٣): ((وَالْعَقْلُ الدِّيَّةُ، وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْإِبِلَ كَانَتْ تُجْمَعُ وَتُعَقَّلُ بِفَنَاءٍ وَلِيٍّ الْمُقْتُولِ ثُمَّ سُمِّيَتْ الدِّيَّةُ عَقْلًا، وَإِنْ كَانَتْ دَرَاهِمَ وَدَنَانِيرَ، وَقِيلَ لِمَنْ أَدَاهَا عَاقِلَةً)).

وقد شَهِدَتِ الأُمَّةُ للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بأداء الرِّسالة على أكمل وجه ، وتبليغ الوحي كاملاً غير منقوص . وَلَوْ قَصَرَ النَّبِيُّ ﷺ في أداء الرسالة أو خان الأمانة ، لَظَهَرَ مَنْ يَنْتَقِدهُ وَيَتَّبِعُهُم بالتقصير والخيانة . لكنَّ هذا لَمْ يَحْدُثْ . وأجمعت الأُمَّةُ كُلُّهَا على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَلَغَ الوحيَ الإلهيَّ للناس ، كاملاً غير منقوص ، وكانَ صَادِقاً وأَمِيناً . ولا تُوجَدُ مناطق مُظْلِمَةٌ في حياة النَّبِيِّ ﷺ ، ولا تُوجَدُ أسرار في الدَّعوة الإسلامية، والإسلامُ لَيْسَ نِظاماً وِرائياً ولا سُلطة كهنوتية . كُلُّ شَيْءٍ مَكشُوفٌ ، ولا يُوجَدُ شَيْءٌ يَخْجَلُ مِنْهُ المسلمون . والإسلامُ مَبْنِيٌّ على النَّقْلِ والعَقْلِ مَعاً ، وقائِمٌ على قُوَّةِ المنطق ومنطق القُوَّةِ مَعاً . فلا بُدَّ للعقيدة مِنْ قُوَّةٍ تَحْمِيهَا ، ولا بُدَّ للقُوَّةِ مِنْ عَقِيْدَةٍ تُوجِّهُهَا . والإسلامُ مُصَحَّفٌ وَسَيِّفٌ ، لا يَقْبَلُ أحدهما دُونَ الآخر . التسامُحُ في مَوْضِعِ التسامُح ، والسَّيْفُ في مَوْضِعِ السَّيْفِ .

والإسلامُ ليس دِيناً دُمُويّاً مُتَعَطِّشاً لِسَفْكِ دِمَاءِ الناس . ولكنه دِينٌ واضح لا مكان فيه للتلاعب أو المجاملات . فهو يحتوي على قواعد السلام والحرب مَعاً ، ويشتمل على البُنى الاجتماعية الخاصة بكل حالة . وهو يَضَعُ السَّيْفَ في مَوْضِعِ السَّيْفِ ، ويَضَعُ النَّدَى في مَوْضِعِ النَّدَى . وهذا هو الحق الساطع . وإنَّ أيَّ اختلال في هذه المنظومة ، سيؤدي إلى نتائج كارثية . وكما قال الشاعر :

وَوَضَعَ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضِرَّ كَوْضَعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

وفي صحيح البخاري (٢٧٣٧ / ٦) : ((قال الزُّهْرِيُّ : مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ ، وعلى رسول الله ﷺ البلاغُ ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ)) اهـ .

وقَدَ شَهِدَ الصَّحَابَةُ للنَّبِيِّ ﷺ بِتَبْلِيغِ الرِّسالةِ الإلهيةِ كاملةً بلا زيادة ولا نقصان في أعظم مُؤتمر شَهِدَهُ الإسلامُ ، وهو حَجَّةُ الْوُودَاعِ التي حَضَرَهَا عَشْرَاتُ آلَافٍ مِنَ الصَّحَابَةِ _ رضي الله عنهم _ . ففي صحيح مسلم (٨٨٦ / ٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في حَجَّةِ الْوُودَاعِ : ((وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي ، فما أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟)) ، قالوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ ، فقال _ بِاصْبِغْ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتْهَا إِلَى النَّاسِ _ : ((اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ _ ثلاث مرات _)) .

﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ . يجب تبليغ الوحي الإلهي كاملاً غير منقوص ، وإن كنتم النبي ﷺ آيةً واحدةً ، فما بلغ الوحي الإلهي ، ويُعتبر خائناً للأمانة ، وحاشاه . وكنتم آيةً واحدةً يهدم الإسلام بالكامل ، ويُلغي الرسالة الإلهية كلها .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٧٨) : ((ومعنى الآية : إن لم تُبلِّغ الجميع وتتركت بعضه ، فما بلغت شيئاً . أي : جُرمك في ترك تبليغ البعض كجُرمك في ترك تبليغ الكل)) اهـ .
والآية توجية إلهي لحملة العلم أن يوصلوا العلم للناس ، ولا يكتموا منه شيئاً . والجدير بالذكر أن النبي ﷺ قد بلغ كل شيء أمره الله بتبليغه ، لكن هناك أشياء لم يُبلِّغها رسول الله ﷺ لأنه لم يُؤمر بتبليغها ، والناس لا علاقة لهم بها . فليس كل ما يُعرف يُقال .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٤٧) : ((وظاهر الآية يُوجب تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد ، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه ، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه)) اهـ .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((من كنتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))^(١٤) .

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٢٢٨) : ((وقيل : بلغ ما أنزل إليك من ربك في أمر زينب بنت جحش الأسدية _ رضي الله عنها _ . وقيل غير هذا . والصحيح القول بالعموم . قال ابن عباس : المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك ، فإن كنتم شيئاً منه فما بلغت رسالته . وهذا تأديب للنبي ﷺ ، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ، وقد علم الله تعالى من أمر نبيه أنه لا يكتنم شيئاً من وحيه)) اهـ .

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . الله يحفظ محمداً ﷺ من كل سوء ، فلا داعي أن يقلق . عليه أن يركز جهوده في الدعوة الإسلامية ، ولا يشغل بوسائل حمايته ، لأن الله يحميه من كل أذى . والآية دليل واضح على صدق محمد ﷺ وصحة نبوته . فمن عصمه الله ، لا يمكن أن يكون إلا نبياً يوحي إليه، ويبلغ الوحي كاملاً بلا زيادة ولا نقصان، لأنه معصوم من الخيانة والخطأ في التبليغ . لقد تعهد الله بحفظ النبي ﷺ ، وتكفل بحمايته، وضمن له العصمة من الأعداء ، والله تعالى لا يتراجع في كلامه ، ولا يخلف وعده . إذن ، لا داعي أن يقلق النبي ﷺ على حياته ، ولا داعي أن

(١٤) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

يَهْتَمُّ بِمُرَاقَبَةِ الْكَافِرِينَ ، أَوْ تَوْفِيرِ حِرَاسَةِ شَخْصِيَّةِ لَهُ . عَلَيْهِ أَنْ يُرَكِّزَ عَلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَلَا يَهْتَمُّ مُطْلَقًا بِأَمْنِهِ الشَّخْصِيِّ ، لِأَنَّ اللَّهَ يَحْرُسُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَيَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٠٦) : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) أَي : بَلَّغْ أَنْتَ رِسَالَتِي ، وَأَنَا حَافِظُكَ ، وَنَاصِرُكَ ، وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَمُظَفِّرُكَ بِهِمْ ، فَلَا تَخَفْ ، وَلَا تَحْزَنْ ، فَلَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ)) اهـ .

وقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، يَحْمِيهِ الصَّحَابَةُ وَيَحْرُسُونَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالْكَفَّارِ الطَّامِحِينَ إِلَى قَتْلِهِ ، وَإِنْهَاءِ دَعْوَتِهِ .

وعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ : ((أَيُّهَا النَّاسُ ، انصَرِفُوا ، فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ)) (١٥) .

هَذَا الْحَدِيثُ يُشِيرُ إِلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَاذِبًا لَمَا تَخَلَّى عَنِ الْحِرَاسَةِ وَالْحِمَايَةِ . بَلْ اعْتَمَدَ عَلَى الْأَسْبَابِ الْمَادِيَةِ فَقَطْ ، وَمَا غَامَرَ بِحَيَاتِهِ ، وَعَرَضَ نَفْسَهُ لِلْأَخْطَارِ . وَفِي الْحَدِيثِ تَبَرُّزُ أَهْمِيَّةِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ، وَالِاحْتِرَاسِ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَتَوْفِيرِ الْحِرَاسَةِ وَالْحِمَايَةِ ، وَعَدَمِ الْإِهْمَالِ فِي الْمَوَاقِفِ الْحَسَّاسَةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٠٦) : ((وَمِنْ عِصْمَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ حِفْظُهُ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَصَنَادِيدِهَا وَخُسَادِهَا وَمُعَانِدِيهَا وَمُتَرَفِفِيهَا مَعَ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَةِ ، وَنَصَبِ الْمُحَارَبَةِ لَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا ، بِمَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَظِيمَةِ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَصَانَهُ فِي ابْتِدَاءِ الرِّسَالَةِ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِذْ كَانَ رَئِيسًا مُطَاعًا كَبِيرًا فِي قُرَيْشٍ ، وَخَلَقَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةَ طَبِيعِيَّةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا شَرْعِيَّةَ . وَلَوْ كَانَ أَسْلَمَ لَاجْتِرَأَ عَلَيْهِ كِفَارُهَا وَكِبَارُهَا ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قَدَرٌ مُشْتَرَكٌ فِي الْكُفْرِ هَابُوهُ وَاحْتَرَمُوهُ ، فَلَمَّا مَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ نَالَ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ أَذًى يَسِيرًا ، ثُمَّ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ الْأَنْصَارَ ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى دَارِهِمْ وَهِيَ الْمَدِينَةُ ، فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهَا مَنَعُوهُ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ، وَكَلَّمَا هَمَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِسُوءِ كَادِهِ اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُ عَلَيْهِ ، كَمَا كَادَهُ الْيَهُودُ بِالسَّحْرِ ، فَحَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَتِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ دَوَاءً لَذَلِكَ الدَّاءِ ،

(١٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٢) برقم (٣٢٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه الترمذي

في سننه (٥ / ٢٥١) برقم (٣٠٤٦) بسند حسنّه الحافظ في الفتح (٦ / ٨٢) .

وَلَمَّا سَمَهُ الْيَهُودُ فِي ذِرَاعِ تِلْكَ الشَّاةِ بِخَيْرٍ ، أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَحَمَاهُ مِنْهُ ، وَلِهَذَا أَشْبَاهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا يَطُولُ ذِكْرُهَا)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (٧٨ / ١) : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) يَحْفَظُكَ ، وَيَمْنَعُكَ مِنَ النَّاسِ . فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ قَدْ شُجَّ رَأْسُهُ ، وَكُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ، وَأُوذِيَ بِضُرُوبٍ مِنَ الْأَذَى ؟ . قِيلَ : مَعْنَاهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الْقَتْلِ ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَى قَتْلِكَ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ مَا شُجَّ رَأْسُهُ ، لِأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ . وَقِيلَ : وَاللَّهُ يَخْصُصُكَ بِالْعِصْمَةِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ)) اهـ .

و [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كُنَّا إِذَا نَزَلْنَا طَلَبْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ شَجَرَةٍ وَأُظْلَلَهَا ، فَنَزَلَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَجَاءَ رَجُلٌ ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ _ يَعْنِي سَيْفَ النَّبِيِّ ﷺ _ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ، قَالَ : ((اللَّهُ)) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ))] (16) .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غُرَّةً _ يَعْنِي غَفْلَةً _ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ ، حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالسَّيْفِ ، فَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : ((اللَّهُ)) ، قَالَ : فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ ؟ قَالَ : كُنْ خَيْرَ آخِذٍ ، قَالَ : ((تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ؟)) ، قَالَ : أَعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أَقَاتِلَكَ ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ ، قَالَ : فَخَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبِيلَهُ ، فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ (17) .

لَقَدْ قَاتَلَ النَّبِيُّ ﷺ قَبِيلَةَ مُحَارِبٍ خَصَفَةَ فِي نَخْلٍ (مَوْضِعٍ) ، وَأُضِيفَ مُحَارِبٌ إِلَى خَصَفَةَ لِلتَّمْيِيزِ ، لِأَنَّ " مُحَارِبٌ " فِي الْعَرَبِ جَمَاعَةٌ . وَالْمَقْصُودُ هُوَ مُحَارِبُ (ابن خصفة) . وَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَفْلَةً ، فَقَامُوا بِاسْتِغْلَالِهَا ، وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَامِلًا سَيْفَهُ ، يُهْدِدُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْقَتْلِ . وَهَنَا تَتَجَلَّى عِصْمَةُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ ، حَيْثُ مَنَعَهُ مِنْ هَذَا الْكَافِرِ ، وَحَمَاهُ مِنَ الْقَتْلِ ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْهُ ، وَأَخَذَهُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ ، لَكِنَّهُ رَفَضَهُ ، وَتَعَهَّدَ بَعْدَ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَفَا عَنْهُ ، وَهَنَا

(١٦) ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٩٨ / ٦) وَحَسَّنَهُ . وَقَالَ : أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ .

(١٧) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٣ / ٣١) بِرَقْمِ (٤٣٢٢) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

يتجلى التسامح والعفو عند المقدرة (العفو من موقف القوة لا الضعف) . وعاد إلى قومه ذاكراً لهم أخلاق النبي الحميدة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ . على الرسول البلاغ، أما الهداية فهي بيد الله وحده . يهدي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ . والله لَا يُرْشِدُ الْكَافِرِينَ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ ، وَلَا يَهْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُطَهَّرُوا قُلُوبَهُمْ ، وَنُورُ الْإِيمَانِ لَا يَهْبِطُ فِي الْقَلْبِ النَّجَسِ . وَلَنْ يُمَكِّنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِلْحَاقِ الْأَذَى بِالنَّبِيِّ ﷺ . إِنَّهُمْ مَخْذُولُونَ أَيْمًا تَوَجَّهُوا . وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٦٤٦) : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُوفِّقُ لِلرُّشْدِ مَنْ حَادَ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَجَارَ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ ، وَجَحَدَ مَا جِئَتْهُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِ وَأَوْجَبَهُ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٩٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا : لَا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَالثَّانِي : لَا يُعِينُهُمْ عَلَى بُلُوغِ غَرَضِهِمْ .))

وقال الله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] .

ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة الإلهية . ووظيفته تنحصر في إيصال الوحي الإلهي إلى الناس، وقد قام النبي ﷺ بأداء أمانة التبليغ على أكمل وجه . والناس أحرار في اختيار الكفر أو الإيمان . وقد قامت عليهم الحجة بشكل واضح لا لبس فيه ، وليس لهم أي عُذر في التفريط . وكُلُّ شَخْصٍ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ اخْتِيَارِهِ أَمَامَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَأَمَامَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ . وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَلَهُ نَعِيمُ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ عَصَاهُ فَلَهُ عَذَابُ النَّارِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُرْشِدُ ، عَلَيْهِ التَّبْلِيغُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ الْهُدَى . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ . وَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُحَاسِبُ الْعِبَادَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٠٤) : ((أَي : لَيْسَ لَهُ الْهُدَايَةُ وَالتَّوْفِيقُ وَلَا الثَّوَابُ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْبَلَاغُ . وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ)) اهـ . وقال النسفي في تفسيره (١ / ٣٠٤) : ((تَشْدِيدٌ فِي إِيْجَابِ الْقِيَامِ بِمَا أُمِرَ بِهِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ فَرَّغَ مِمَّا وَجِبَ عَلَيْهِ مِنَ التَّبْلِيغِ ، وَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ ، وَلَزِمَتْكُمْ الطَّاعَةُ ، فَلَا عُذْرَ لَكُمْ فِي التَّفْرِيطِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام :

١٤] .

لقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ بالإسلام ، ونهاه عن الشرك . أمره الله تعالى بأن يكون أول المسلمين من هذه الأمة لأنه إمامها، وقائدها، والقُدوة العظمى، والمرجعية العليا ، ويرفض الشرك ، ولا يكون من المشركين .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٦) : ((لأنَّ النبي ﷺ سابقُ أمته في الدين)) اهـ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١١) : ((قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ، أي : أول مسلم من هذه الأمة . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . قال الأخفش : معناه : وقيل لي : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ ﴾ ، فصارت ﴿ أُمِرْتُ ﴾ بدلًا من ذلك ، لأنه حين قال : ﴿ أُمِرْتُ ﴾ قد أخبر أنه قيل له)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

هذا خطابٌ للناس كافةً ، وهو يُشير إلى عموم رسالة محمد ﷺ للعرب والعجم على السواء . فقد أرسله الله مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ للناسِ كُلِّهِمْ . والله — وَحْدَهُ — هُوَ الإلهُ المعبودُ بِحَقِّهِ . فيجب على الناس أن يؤمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، فهو النبي الصادق الأمين صاحب المعجزات ، الذي يؤمن بالله والكتب السماوية والأنبياء كُلِّهِمْ . واتباعه هُوَ طريق الحق والهدى والتَّجاة ، ولا طريق سواه .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ . أمرُ إلهي للنبي ﷺ أن يُخاطب الناس ، وهذا دليل على عموم الرسالة، وعدم اقتصرها على العرب .

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ . مُحَمَّدٌ ﷺ رسولُ الله إلى الناسِ جميعًا بلا استثناء، وهذا تَشْرِيفٌ له وتكليف في آنٍ مَعًا . ويُظهِرُ تَفَوُّقَهُ على باقي الرُّسل ، لأنَّ الرسالات الإلهية التي جاء بها الرُّسل قبل الرسول محمد ﷺ كانت خاصةً بأقوام مُعَيَّنِينَ ، أمَّا الرسالةُ المحمَّديةُ الإسلاميةُ فهي عامَّةٌ للناسِ جميعًا ، لأنَّها آخِرُ الرِّسَالَاتِ الإلهيةِ ، كما أنَّ محمدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبياء ، وهذا يُوَضِّحُ حِكْمَةَ أن تكون الرسالةُ المحمَّديةُ الإسلاميةُ عامَّةً لكلِّ الناسِ، في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ . والجدير بالذكر أنَّ إرسالَ محمد ﷺ إلى الناسِ كافةً معلومٌ مِنَ الدِّينِ بالضرورة ، بحيث إنَّ مُنْكَرَهُ كافرٌ .

وفي صحيح البخاري (١ / ١٢٨) عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)) (18). وهذا تَكْرِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَشْرِيفٌ لَهُ ، وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ . فَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ بِلا استثناء ، وهذا يُشِيرُ إِلَى مَكَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ المرموقة ، وَتَمَيُّزِهِ عَنِ بَاقِي الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَفَوُّقِهِ عَلَيْهِمْ . إِنَّ الرِّسَالَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ اللَّقَاءُ الْأَخِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . لِذَلِكَ كَانَتْ مَحْفُوظَةً مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّلَاعِبِ وَالتَّحْرِيفِ ، لِأَنَّ أَيَّ تَلَاعَبٍ فِيهَا بِأَيِّ شَكْلٍ ، يَعْنِي أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ سَوْفَ تَضِلُّ طَرِيقَهَا إِلَى الْأَبَدِ ، وَلَا فُرْصَةَ لِلنَّجَاةِ ، فَلَنْ يَأْتِيَ نَبِيٌّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهَذَا تَجَلَّى حِكْمَةُ اللَّهِ فِي حِفْظِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ . فَقَدْ أَرَادَ لَهُمُ الْهُدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ ، وَإِنْقَادَهُمْ مِنَ النَّارِ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٨٧) : ((إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)) لَا إِلَى بَعْضِكُمْ دُونَ بَعْضٍ ، كَمَا كَانَ مَنْ قَبْلِي مِنَ الرُّسُلِ مُرْسَلًا إِلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أُرْسِلَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ رِسَالَتِي لَيْسَتْ إِلَى بَعْضِكُمْ دُونَ بَعْضٍ ، وَلَكِنهَا إِلَى جَمِيعِكُمْ)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٤ / ١٧٠١) أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ (مُجَادَلَةٌ) ، فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ ، فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا ، فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ، فَلَمْ يَفْعَلْ ، حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ ، وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخَبَرَ . قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ . إِنِّي قُلْتُ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتُ)) .

(١٨) قال الحافظ في الفتح (١ / ٤٣٦) : ((وَلَا يَعْتَرِضُ بِأَنَّ نَوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مَعَهُ ، وَقَدْ كَانَ مُرْسَلًا إِلَيْهِمْ لِأَنَّ هَذَا الْعُمُومَ لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِ بَعْثِهِ ، وَإِنَّمَا اتَّفَقَ بِالْحَادِثِ الَّذِي وَقَعَ ، وَهُوَ انْخِصَارُ الْخَلْقِ فِي الْمَوْجُودِينَ بَعْدَ هَلَاكِ سَائِرِ النَّاسِ ، وَأَمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَعُمُومَ رِسَالَتِهِ مِنْ أَصْلِ الْبِعْثَةِ ، فَثَبَّتَ اخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ)) .

هذه الحديث يُشير إلى مكانة أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ ، وأسبقته في نُصرة الله ورسوله ﷺ ، فقد صدّق النبي ﷺ حين أعلن أنه رسول للناس جميعًا في حين كذّبه الناس .
وفي صحيح مسلم (١٣٤ / ١) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن رسول الله ﷺ أنه قال :
((والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة ، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به ، إلا كان من أصحاب النار)) .

وهذا يُشير إلى عموم رسالته ﷺ ، وأنه جاء للناس كافةً ، وأن الإسلام قد نسخ الأديان السابقة كلها ، وأن القرآن قد نسخ الكتب السماوية كلها . وفي الحديث دليل على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور ، ولا حكم قبل ورود الشرع .

والحديث لا يحصر الدعوة في اليهود والنصارى ، بل هو شامل لكل كافر مهما كان دينه .
وانما ذكر اليهود والنصارى ، لأنهم الأقرب إلى المسلمين من غيرهم ، حيث إنهم أهل كتاب رغم كل ما أصاب التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل . ولفظة الأمة في الحديث تعني أهل الكتاب .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨٨ / ٢) : ((وقوله ﷺ : " لا يسمعُ بي أحد من هذه الأمة " ، أي من هو موجود في زماني وبعدي إلى يوم القيامة ، فكُلُّهم يجب عليهم الدخول في طاعته ، وانما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما ، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب ، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا ، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى ، والله أعلم)) اهـ .
والجدير بالذكر أن كل من بلغه القرآن فكانما رأى النبي ﷺ وسمع منه . ولا شك أن أحكام القرآن صالحة لجميع الناس في كل زمان ومكان .

﴿ الذي له ملكُ السماوات والأرض ﴾ . لقد أرسل الله محمدًا ﷺ للناس كافةً ، رحمةً بهم ، فهو سبحانه الغني عنهم ، يملك السماوات والأرض ، ويتصرف في ملكه كما يشاء . لا يحتاج إلى إيمان المؤمنين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين . والذي يملك السماوات والأرض ، ويتصرف فيها كما يشاء ، هو الإله على الحقيقة ، والمعبود بحق ، والمستحق للألوهية والرُبوبية والعُبودية .
وقال الطبري في تفسيره (٨٧ / ٦) : ((الذي له سلطان السموات والأرض ، وما فيها ، وتدير ذلك ، وتصريفه)) اهـ .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ . الله وحده هو المتفرد بالألوهية والرُبوبية ، وهو المستحق للعبادة ، فهو وحده الإله المعبود بحق ، وكل الآلهة (الأنداد والأصنام) من دونه باطلة ، لأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تُحيي ولا تُميت .

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . إحياء الناس وإماتتهم ، بيد الله وحده . والله وحده يملك سلطة الإحياء والإماتة .

والإله المسيطر على السماوات والأرض ، ويحيي ويميت ، هو الإله المعبود بحق ، وما سواه آلهة باطلة لا تملك من أمرها شيئاً .

﴿ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ النَّبِيِّ الْاُمِّيِّ ﴾ . فآمنوا بالله وحده ، وصدقوا بتوحيده وربوبيته ، وصدقوا بمحمد ﷺ النبي الصادق الأمين الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والذي جاء بالمعجزات الإلهية التي أبهرت العلماء وأهل الفصاحة والبلاغة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٣٩) : ((﴿ النَّبِيِّ الْاُمِّيِّ ﴾ أي : الذي وعدتم به وبشئتم به ، في الكتب المتقدمة ، فإنه منعت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال : ﴿ النَّبِيِّ الْاُمِّيِّ ﴾)) اهـ .
﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ . يؤمن محمد ﷺ بالله الذي أرسله للناس كافة ، ويؤمن بالكتب السماوية كلها ، وعلى رأسها القرآن ، ويسير على خطى الأنبياء من قبله ، مُصدقاً بهم ، وداعماً لهم ، ومُداًفعاً عنهم .

﴿ وَاتَّبِعُوْهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ ﴾ . اتبعوه رجاء اهتدائكم إلى الطريق المستقيم . وهنا يبرز أمران في غاية الأهمية : التصديق والاتباع . ومن صدق محمداً ﷺ ، ولم يتبعه ، فهو في الضلال . وعلامة التصديق هي الاتباع . والتصديق إذا لم يتحول إلى اتباع ، فهو حجة على الشخص لا حجة له .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٨٧) : ((فاهتدوا به أيها الناس ، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله ﴾ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . يقول : لكي تهتدوا ، فترشدوا ، وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

الله أرسل محمداً ﷺ بالفرائض والسُنن ودين الإسلام ، الذي لا يقبل الله غيره ، ليعلي الإسلام على الأديان كلها بالْحُجَجِ الدامغة ، والبراهين الواضحة ، والأدلة الساطعة ، وينصر الإسلام على سائر الأديان ، رغم أنوف المشركين الكارهين لظهور الحق . ويأبى الله إلا أن يتم دينه ، والكمال لا يصدُرُ إلا عن الكامل . والإسلام ظاهر لا محالة ، ومنصور لا ريب ، سواء كان المسلمون أقوياء أم ضغفاء ، لأن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله . ومن أراد استئصال

الإسلام كَمَنْ يُرِيدُ إِطْفَاءَ الشَّمْسِ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٦٠) : ((فالهْدَى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعِلْمُ النافع . ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النَّافعة في الدنيا والآخرة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٢٧ و ٤٢٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ ﴿ بِالْهُدَى ﴾ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّهُ التَّوْحِيدُ ، والثاني : الْقُرْآنُ ، والثالث : تَبْيَانُ الْفَرَائِضِ . فَأَمَّا ﴿ دِينَ الْحَقِّ ﴾ فهو الْإِسْلَامُ . وفي قَوْلِهِ : ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّ الْهَاءَ عَائِدَةٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاَلْمَعْنَى : لِيُعَلِّمَهُ شَرَائِعَ الدِّينِ كُلَّهَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ ، قاله ابن عباس . والثاني أَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الدِّينِ ، ثُمَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ : أحدهما لِيُظْهِرَ هَذَا الدِّينَ عَلَى سَائِرِ الْمِلَلِ . ومتى يكون ذلك ؟ . فِيهِ قَوْلَانِ : أحدهما عند نزول عيسى _ عليه السلام _ فَإِنَّهُ يَتَّبِعُهُ أَهْلُ كُلِّ دِينٍ ، وتصير الْمِلَّةُ واحدة ، فلا يَبْقَى أَهْلُ دِينٍ إِلَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، أَوْ أَدَّوْا الْحِزْبَ ، قاله أَبُو هُرَيْرَةَ وَالضَّحَّاكُ ، والثاني أَنَّهُ عِنْدَ خُرُوجِ الْمَهْدِيِّ ، قاله الشُّدِّي . والقول الثاني أَنَّ إِظْهَارَ الدِّينِ إِنَّمَا هُوَ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلِ النَّاسُ فِيهِ)) اهـ .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى)) ، فقالت عائشة : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ _ تَبَارَكَ وَتَعَالَى _ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ تَامًّا ، فقال : ((إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبًا ، فَيَتَوَفَّى مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ)) (19) .

والمعنى : لَا يَنْقُطِعُ الزَّمَانُ وَلَا تَأْتِي الْقِيَامَةُ حَتَّى يَعُودَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى مِنْ جَدِيدٍ . وَهُمَا صَنَمَانِ مَعْرُوفَانِ مِنْ أَصْنَامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وفي تفسير القرطبي (١٧ / ٨٩) : ((وَكَانَتِ اللَّاتُ لِتَقِيفٍ ، وَالْعُزَّى لِقُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٢١٥) : عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ

(١٩) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٩٤) برقم (٨٣٨١) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

سِوَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَسْتَبِيحُ بِيَضَّتِهِمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لَأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَةٍ ، وَأَنْ لَا أَسْلَطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيَضَّتِهِمْ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا_أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا (وَالشَّكُّ مِنَ الرَّايِ) _ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا) .

لَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْأَرْضَ ، فَرَأَى مِشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ مُلْكَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَيَمْتَدُّ عَلَى هَذِهِ الْمَسَاحَةِ الْهَائِلَةِ ، وَيُسَيِّطِرُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْعِرَاقِ وَالشَّامِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُ : إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ لِلْمُسْلِمِينَ الْأَرْضَ ، وَيَنْتَشِرُ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَقَدْ حَفِظَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ مِنَ الْقَحْطِ الْعَامِ الْمُهِلِكِ ، وَحَمَاهَا مِنْ أَعْدَائِهَا ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى اسْتِئْصَالِهَا (اسْتِبَاحَةِ بِيَضَّتِهَا) ، حَتَّى لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا جَمِيعًا . لَكِنَّ أَفْرَادَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَيَتَقَاتِلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيُهْلِكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٨ / ١٣) : ((أَمَّا " زَوَى " فَمَعْنَاهُ جَمَعَ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ مُعْجَزَاتٌ ظَاهِرَةٌ ، وَقَدْ وَقَعَتْ كُلُّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : الْمَرَادُ بِالْكَنْزَيْنِ الذَّهَبُ [الْأَحْمَرُ] وَالْفِضَّةُ [الْأَبْيَضُ] ، وَالْمَرَادُ كَنْزِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ مَلِكِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ . فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَكُونُ مُعْظَمُ امْتِدَادِهِ فِي جِهَتِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَهَكَذَا وَقَعَ ، وَأَمَّا فِي جِهَتِي الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ فَقَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)) اهـ .

وَعَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَبْلَغَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَلَا يَتْرَكَ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ ، إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ ، بِعِزِّ عَزِيزٍ ، أَوْ بِدُلٍّ ذَلِيلٍ)) (20) .

سَيَنْتَشِرُ مُلْكُ الْإِسْلَامِ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ . وَسَوْفَ يُدْخِلُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي كُلِّ الْبُيُوتِ فِي الْحَوَاضِرِ وَالْبُوَادِي . وَبَيْتُ الْمَدْرِ (الطِّينِ الْيَابِسِ) يَدُلُّ عَلَى الْأَمَاكِنِ الْحَضَرِيَّةِ . وَبَيْتُ الْوَبَرِ يَدُلُّ عَلَى الصَّحَارِيِّ وَالْبُوَادِي . يَعِزُّهُمْ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهِ ، أَوْ يُذِلُّهُمْ بِالْكَفْرِ فَيُؤْذُونَ الْجَزِيَّةَ .

وَالْإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الْأَسْرَعُ انْتِشَارًا عَلَى كَوَكَبِ الْأَرْضِ ، رَغْمَ الْهَجَمَاتِ ضِدَّهُ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ ، وَالْعَمَلِيَّاتِ الْمُنْهَجِيَّةِ لِتَشْوِيهِ صُورَتِهِ الْمَشْرِقَةِ ، وَرَغْمَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ . وَهَذِهِ مُعْجَزَةٌ إِلَهِيَّةٌ بِحَدِّ

(٢٠) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤ / ٤٧٧) بِرَقْمِ (٨٣٢٦) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

ذاتها تستحق التأمل . فالمسلمون أُمَّةٌ ضَعِيفَةٌ لَا وَزْنَ لَهُمْ عَلَى السَّاحَةِ الْعَالِمِيَّةِ ، وَمَعَ هَذَا ،
فَالْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ . فَمَا هِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَقِفُ وَرَاءَهُ وَتَنْشُرُهُ فِي الْعَالَمِ ؟ .
إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ مُتَمَاسِكٌ ، وَعَوَامِلُ قُوَّتِهِ كَامِنَةٌ فِيهِ . وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ .
وَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ وَنَشْرِهِ ، سَوَاءً كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَقْوِيَاءَ أَوْ ضَعْفَاءَ . وَقُوَّةُ الْإِسْلَامِ تَجَلِي فِي
عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ الْمُوَافِقَةِ لِلْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ السَّلِيمَةِ ، وَالْأَدْلَةُ النَّقْلِيَّةِ ، وَالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ .

وفي مسند أحمد (٤ / ٢٥٧) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : ((أَسْلِمَ تَسْلَمُ _ ثَلَاثًا _))
، قَالَ : قُلْتُ : إِنِّي عَلَى دِينٍ . قَالَ : ((أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ)) ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي
؟ ، قَالَ : ((نَعَمْ ، أَلَسْتَ مِنَ الرُّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مَرْبَاعَ قَوْمِكَ ؟)) ، قُلْتُ : بَلَى . قَالَ : ((فَإِنَّ
هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ)) ، قَالَ : فَلَمْ يَغْدُ أَنْ قَالَهَا ، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا . فَقَالَ : ((أَمَّا إِنِّي أَعْلَمُ
مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، تَقُولُ : إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ .
أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ ؟)) ، قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا . قَالَ : ((فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ
هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظُّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ أَحَدٍ ، وَلَيُفْتَحَنَّ كُنُوزُ
كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ)) ، قَالَ : قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ ؟ . قَالَ : ((نَعَمْ ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزٍ ، وَلَيُبْدَلَنَّ الْمَالُ
حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)) . قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظُّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي
غَيْرِ جَوَارٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ ، لِأَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا .

عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ وَزُعَمَائِهِمْ ، فَوَالِدُهُ حَاتِمُ الطَّائِي الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي
الْكَرَمِ . وَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ لِيَعْرِفَ أَمْرَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي ظَهَرَ وَيَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ . وَقَدْ عَرَضَ
النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ . فَقَالَ إِنَّهُ عَلَى دِينٍ ، يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ وَثَنِيًّا عَابِدًا لِلْأَصْنَامِ مِثْلَ الْعَرَبِ . وَقَدْ
انْبَهَرَ وَدُهَشَ حِينَ أَعْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَعْرِفُ دِينَهُ أَكْثَرَ مِنْهُ . وَالرُّكُوسِيَّةُ قَوْمٌ لَهُمْ دِينٌ بَيْنَ النَّصَارَى
وَالصَّابِيِّينَ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : نَصَارَى . وَالْمَرْبَاعُ مَا يَأْخُذُهُ الرَّئِيسُ وَهُوَ رُبْعُ الْمَغْنَمِ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ فِي
الرُّكُوسِيَّةِ . وَقَدْ خَجَلَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ مِنْ نَفْسِهِ ، وَأُصِيبَ بِالْإِحْرَاجِ ، حِينَ أَعْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ
يَأْكُلُ مَالًا مُحَرَّمًا حَسَبَ دِينِهِ ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ غَيْرُ مُلتَزِمٍ بِتَعَالِيمِ دِينِهِ (الرُّكُوسِيَّةِ) . وَقَدْ أَخْبَرَهُ
النَّبِيُّ ﷺ بِمَا يَمْنَعُهُ مِنَ دُخُولِ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا أَمْرٌ دَاخِلِيٌّ بَيْنَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَنَفْسِهِ ، وَهُوَ أَنَّ
الضُّعْفَاءَ يَتَّبِعُونَ الْإِسْلَامَ ، فَهُوَ دِينُ الضُّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْعَبِيدِ ، وَقَدْ أَعْلَنَتِ الْعَرَبُ الْحَرْبَ عَلَيْهِمْ ،
وَلَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْحَرْبِ . هَكَذَا كَانَ تَفْكِيرُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ . وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُبْرِزَ قُوَّةَ

الإسلام على المدى البعيد . فأخبره أَنَّ المرأةَ (الظعينة) ستخرج من الحيرة (مدينة كان يسكنها الملكُ النُعمان بن المنذر ، وهي قريبة من الكوفة بالعراق) حتى تطوف بالكعبة في مكة المكرمة ، وهي تأمن على نفسها وعرضها ومالها ولا تطلب حماية أحد ، وسوف تفتح كنوز كسرى ، يعني تفتح بلاد فارس . وقد أصاب عدي بن حاتم الذُهوُل والانهيار ، لأنَّ الفُرس كانوا قُوَّةَ عالمية . وسوف يفيضُ المالُ ويُدلَّ حتى لا يقبله أحد . وقد حدثت اثنتان ، وبقيت واحدة .

وهذا الحديث من أعلام النبوة ، لأنَّه يشتمل على الإخبار بالغيب . وما قاله النبي ﷺ حق ، والواقع يُصدِّقه . وعلى الإنسان أن يتحلى ببُعْدِ النَّظَرِ ، لأنَّ العبرة بالخواتيم ، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً . والضُّعفاء صاروا أقوياء ، وفتحوا العالم .

وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] (21) .

أَفَلَمْ يَتَفَكَّرِ الْمُشْرِكُونَ فِي عَظَمَةِ الْقُرْآنِ وإعجازه وفصاحته وبيانه ، فَيُؤْمِنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، وَيَعْرِفُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُدْرِكُوا صِدْقَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةَ نُبُوءَتِهِ ، أَمْ جَاءَهُمْ شَيْءٌ غَرِيبٌ وَمُبْتَدَعٌ لَمْ يَأْتِ أَسْلَافَهُمُ الْأَقْدَمِينَ ، فَأَنْكَرُوهُ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ . وَالآيَةُ تَوْبِيخٌ لَهُمْ .

والمعنى: إِنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ إِلَى النَّاسِ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ ، وَإِنْزَالُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ، فَلَا مَعْنَى لِلْإِسْتِغْرَابِ أَوْ الدَّهْشَةِ . وَالْقُرْآنُ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ . وَهَذَا الْأَمْرُ لَيْسَ فِيهِ شُدُودٌ وَلَا غَرَابَةٌ . وَاللَّهُ قَدْ بَعَثَ رُسُلًا إِلَى أَقْوَامِهِمْ ، وَكَذَلِكَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَهُوَ يُكْمِلُ مَسِيرَةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ مُبْتَدَعًا وَلَا غَرِيبًا .

(٢١) قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣٤) : ((يقول تعالى مُنْكَرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عَدَمِ تَفَهُّمِهِمُ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَتَدَبُّرِهِمْ لَهُ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عَلَى رَسُولٍ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَشْرَفَ ، لَا سِيَّما آبَاؤُهُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْهُمْ كِتَابٌ ، وَلَا أَتَاهُمْ نَذِيرٌ ، فَكَانَ اللَّائِقُ بِهَؤُلَاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَسَدَاهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقُبُولِهَا ، وَالْقِيَامَ بِشُكْرِهَا وَتَفَهُّمِهَا ، وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، كَمَا فَعَلَهُ النَّجَبَاءُ مِنْهُمْ ، مِنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ ﷺ ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ)) اهـ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١٤٣ / ٦) : ((يعني أَنَّ مَجِيءَ الْكُتُبِ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى إِلَى الرُّسُلِ _ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ _ سُنَّةٌ قَدِيمَةٌ لَهُ تَعَالَى ، لَا يَكَادُ يَتَسَنَّى انْكَارُهُ ، وَأَنَّ مَجِيءَ الْقُرْآنِ عَلَى طَرِيقَتِهِ ، فَمِنْ أَيْنَ يُنْكِرُونَهُ ؟)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٨٤ / ٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ يعني : الْقُرْآنَ ، فَيَعْرِفُوا مَا فِيهِ مِنَ الدَّلَالَاتِ وَالْعِبَرِ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِمْ ﴾ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الْمَعْنَى : أَلَيْسَ قَدْ أُرْسِلَ الْأَنْبِيَاءُ إِلَى أُمَمِهِمْ كَمَا أُرْسِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ)) اهـ .
والجديرُ بالذكر أَنَّ الْقُرْآنَ سُمِّيَ قَوْلًا ، لِأَنَّهُمْ خُوطِبُوا بِهِ .

وهناك تفسير ثانٍ للآية. وهو أَنَّ تَكُونَ ﴿ أَمْ ﴾ بِمَعْنَى " بَل " ، يَعْنِي : بَلْ جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَقْدَمِينَ ، وَهَذَا سَبَبُ كُفْرِهِمْ بِهِ . فَقَدْ اعْتَبَرُوهُ شَيْئًا غَرِيبًا لَا عَهْدَ لَهُمْ بِهِ .

إِنَّ كُفْرَ الْمُشْرِكِينَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَعُودُ إِلَى عَدَمِ التَّفَكُّرِ فِيهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ تَدَبُّرِهِ وَتَفْسِيرِهِ . وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا يَجْهَلُونَ . وَلَوْ تَفَكَّرُوا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ ، وَدَرَسُوا أَحْكَامَهُ ، وَعَرَفُوا فَصَاحَتَهُ وَبِلَاغَتَهُ وَإِعْجَازَهُ ، لَأَدْرَكُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، وَآمَنُوا بِهِ ، وَآمَنُوا بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَالْتَزَمُوا بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَأَطَاعُوهُ ، وَابْتَعَدُوا عَنْ مَعْصِيَتِهِ . وَلَوْ تَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي الْقُرْآنِ لَوَجَدَ فِيهِ دَافِعًا لَهُ إِلَى الطَّاعَاتِ ، وَمَانِعًا مِنَ الْمَعَاصِي . وَلَا يُمَكِّنُ الْإِنْتِفَاعُ بِالْقُرْآنِ إِلَّا إِذَا كَانَ الشَّخْصُ ذَا قَلْبٍ نَقِيٍّ ، وَذِهْنٍ صَافٍ ، فَعِنْدَئِذٍ سَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِعُيُونٍ مَفْتُوحَةٍ لَا مَيِّتَةٍ ، وَيَفْهَمُ مَعَانِيهِ وَأَلْفَاظَهُ ، فَيَدْخُلُ الْقُرْآنُ إِلَى قَلْبِهِ وَرُوحِهِ . أَمَّا الشَّخْصُ الَّذِي قَلْبُهُ نَجَسٌ ، فَلَنْ يَسْتَفِيدَ مِنَ الْقُرْآنِ . وَكُلَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ابْتَعَدَ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَالْقُرْآنُ كِتَابٌ شَرِيفٌ ذُو مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ ، وَلَا يَدْخُلُ إِلَى الْقُلُوبِ النَّجَسَةِ .

وهنا تَتَضَحُّ أَهْمِيَّةُ التَّفَكُّيرِ وَالتَّأَمُّلِ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِّ . وَأَيْضًا يَعُودُ كُفْرُهُمْ إِلَى مَجِيءِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَجِئْ إِلَى آبَائِهِمْ كِتَابًا ، فَلِذَلِكَ اعْتَبَرُوا الْقُرْآنَ شَيْئًا غَرِيبًا وَشَاذًا ، لِأَنَّهُمْ سَاءَرُونَ عَلَى خُطَى آبَائِهِمْ بِلا بَصِيرَةٍ ، وَغَارِقُونَ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى بِلا تَفَكُّيرٍ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ : ٦٩] .

هَذِهِ الْآيَةُ تَوْبِيخٌ آخِرٌ لَهُمْ . أَمْ لَمْ يَعْرِفْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ الَّذِي نَشَأَ فِيهِمْ ، وَعَاشَ مَعَهُمْ . إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ مُنْذُ وَلَادَتِهِ ، وَلَيْسَ غَرِيبًا عَنْهُمْ حَتَّى يُنْكِرُوا مَعْرِفَتَهُ . فَكَيْفَ يُكْذِبُونَهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَخْلَاقَهُ الْحَمِيدَةَ وَأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ الَّذِي لَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ الْكَذِبَ طِيلَةَ حَيَاتِهِ ؟ ! .

لَقَدْ أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ظُلْمًا وَحَقْدًا وَحَسَدًا وَعِنَادًا ، إِذِ إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ .
يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ صَغِيرًا وَكَبِيرًا . وَالْكَفْرُ عِنَادٌ .
وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٢٣) : ((وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه ،
بعدما عَرَفُوهُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ)) اهـ .

والآيتان السابقتان تَحْمِلَانِ تَوْبِيخًا شَدِيدًا لِلْكَافِرِينَ ، وَتَكْشِفَانِ أَسْبَابَ كُفْرِهِمْ :
السَّبَبُ الْأَوَّلُ _ لَقَدْ أَعْرَضُوا عَنِ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهِ ، وَلَمْ يَدْرُسُوا آيَاتِهِ . وبالتالي ، لَمْ
يَتَنَفَّعُوا بِهِ ، لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ بِالشَّيْءِ أَسَاسُ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ تَفَكَّرُوا فِي الْقُرْآنِ لَعَرَفُوا صِدْقَهُ .
وهذه المعاني مأخوذة من الآية : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ . والهمزة للإنكار .
والسبب الثاني _ جَاءَهُمْ كِتَابٌ لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، وَهُمْ سَائِرُونَ عَلَى خُطَى آبَائِهِمْ بِلا
بصيرة ولا تفكير ، وفق مبدأ التقليد الأعمى . وهذا سبب إنكارهم للقرآن . وهذه المعاني مأخوذة
من الآية : ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، وَفَقَّ تَفْسِيرُ ﴿ أَمْ ﴾ بِمَعْنَى " بَل " . وَيُمْكِنُ
الْقَوْلُ : لَقَدْ جَاءَهُمْ كِتَابٌ كَمَا جَاءَ مِثْلُهُ لآبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ لَهُمْ رَسُولًا ، كَمَا أَرْسَلَ الرَّسُلَ
لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، فَكَيْفَ يُكَذِّبُونَهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ إِرْسَالِ الرَّسُلِ !؟ . وهذا توبيخ لهم لأنَّهم
أَنْكَرُوا أَمْرًا مَعْرُوفًا وَلَيْسَ غَرِيبًا .

والسبب الثالث _ عَرَفُوا مُحَمَّدًا ﷺ بِالنَّسَبِ الشَّرِيفِ ، وَالْأَدَبِ الرَّفِيعِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْأَمَانَةِ ،
وَالطَّهَارَةِ ، وَالشَّرَفِ ، وَقَدْ وَصَفُوهُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ ، ثُمَّ أَنْكَرُوهُ حَقْدًا وَحَسَدًا وَعِنَادًا . وهذه
المعاني مأخوذة من الآية : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .
وقد قال جعفر بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ : ((أَيُّهَا الْمَلِكُ ،
كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُؤْسِيءُ
الْجَوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْ الضَّعِيفِ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِّنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،
وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ ، وَعَقَافَهُ)) (22) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ حَدَّثَهُ فَقَالَ : انْطَلَقْتُ فِي الْمَدَةِ الَّتِي
كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : فِينَا أَنَا بِالشَّامِ ، إِذْ جِئْتُ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ .

(٢٢) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٢٩٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ٢٤) : ((رجاله رجال الصحيح
غير محمد بن إسحاق ، وقد صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ)) .

قال : وكان دِخْيَةُ الْكَلْبِيِّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمٍ بَصْرِيٍّ ، فَدَفَعَهُ عَظِيمٌ بَصْرِيٍّ إِلَى هِرْقَلٍ ، قَالَ هِرْقَلُ : هَلْ هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ ، فَقَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَدَخَلْنَا عَلَى هِرْقَلٍ ، فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : فَقُلْتُ : أَنَا ، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي ، ثُمَّ دَعَا بِتُرْجُمَانِهِ ، فَقَالَ : قُلْ لَهُمْ : إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ . قَالَ أَبُو سَفْيَانَ : وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ يُؤَثِّرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ . ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ : سَلْهُ كَيْفَ حَسَبَهُ فِيمَكُمْ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ . قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا . قَالَ : فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ ، قُلْتُ : لَا . قَالَ : أَتَيْتُغُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ ؟ . قَالَ : قُلْتُ : بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ . قَالَ : يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، بَلْ يَزِيدُونَ . قَالَ : هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخَطَةٌ لَهُ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا ، يُصِيبُ مِنَّا وَتُصِيبُ مِنْهُ . قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : لَا ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَمَكْنِي مِنْ كَلِمَةٍ أَدْخَلَ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ ، قَالَ : فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ ؟ ، قُلْتُ : لَا . ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ : إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيمَكُمْ ، فَرَزَعْتُمْ أَنَّهُ فِيمَكُمْ ذُو حَسَبٍ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ ، تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا . وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ ، فَرَزَعْتُمْ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ ، قُلْتُ : رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ . وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضْعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ ، قُلْتُ : بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ، فَرَزَعْتُمْ أَنْ لَا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخَطَةٌ لَهُ ، فَرَزَعْتُمْ أَنْ لَا ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بِشَاشَةَ الْقُلُوبِ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ ، فَرَزَعْتُمْ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ، فَرَزَعْتُمْ أَنَّهُمْ قَاتَلْتُمُوهُ ، فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا ، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ ، تُبْعَثُ ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ ، فَرَزَعْتُمْ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ . وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ ، فَرَزَعْتُمْ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ : رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلِ قَبْلِ قَبْلِهِ . قَالَ : ثُمَّ قَالَ : بِمِ يَأْمُرُكُمْ ؟ قَالَ : قُلْتُ : يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالْعِفَافِ . قَالَ : إِنَّ يَلِكُ مَا

تقول فيه حقاً فإنه نبيٌّ ؟ ، وقد كُنتُ أعلمُ أنه خارجٌ ولم أكن أظنُّه مِنكُم ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَأُحِبِّتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ ، وَلَيَسْلُغَنَّ مَلَكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ (23) .

هذا الحديثُ شديدُ الأهمية ، ونستفيد منه دروساً كثيرة ، منها :

- ١ _ المقصود بالمدة هي فترة الصُّلح بين النبي ﷺ وقُرَيْش . أي صلح الحُدَيْبية (٦ هـ) .
- ٢ _ كان النبي ﷺ إذا أرسلَ رسولاً اختارَه حَسَنَ الوُجْهِ وصاحبَ عَقْلٍ راجح . وهذا يتَّضح في اختيار الصحابيِّ الجليل دِخْيَةَ الْكَلْبِيِّ _ رضي الله عنه _ . وقد كان جبريل _ عليه السلام _ يأتي إلى النبي ﷺ في صورة دِخْيَةَ . ففي مُسنَد أحمد (٢ / ١٠٧) عن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ قال : ((وكان جبريل _ عليه السلام _ يأتي النبي ﷺ في صورة دِخْيَةَ)) .
- وقال الأبيشي في المستطرف (١ / ٢٧٧) : ((وقيل لَقَيْلسُوف : أي الرُّسُلُ أنجح . قال : الذي له جمال وعَقْل . وقيل : إذا أرسلتم رسولاً في حاجة ، فاتَّخذوه حَسَنَ الوُجْهِ ، حَسَنَ الاسم ، وقال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، لا تَبْعَثْ رسولاً جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فَكُنْ رسولَ نَفْسِكَ)) .

- ٣ _ لقد سأل هرقل عن أقرب الناس نسباً للنبي ﷺ ، لأنه يكون مُطلِعاً على أحواله ، عالمًا بحقيقته . والقريبُ يَعْرِفُ قَرِيبَهُ وأسرته وتفاصيل حياته بِحُكْمِ رابطة الدَّم .
- ٤ _ أجلس هرقل أصحابَ أبي سُفيان خَلْفَهُ ، لِكَيْ يُكَذِّبُوهُ إنْ كَذَبَ ، ولا يَخْجَلُوا مِنْهُ ، لأنَّ مُواجهةَ الشخص بالكذب (وَجْهاً لَوَجْهِ) شديدة الصُّعوبة .

- ٥ _ لقد كان أبو سُفيان (وهو يَوْمِئِذٍ مُشْرِكٌ) حريصاً على الكذب ، ولكِنَّهُ خَافَ أن تَلْتَصِقَ صِفَةُ الكذبِ بِهِ ، وتُصْبِحَ فضيحةً له في أوساط قُرَيْش ، وقبائل العرب . وهذا يُدْمِرُ مكانته الاجتماعية . وهذا دليلٌ على أنَّ الكذبَ مذموم في الجاهلية والإسلام .

- ٦ _ جَمِيعُ الرُّسُلِ يَنْتَسِبُونَ إلى أشرف العائلات ، وهذا الأمرُ يجعلهم بعيدين عَنِ الصِّفَاتِ القبيحة ، ويجعل الناسَ يَقْتَرِبُونَ مِنْهُمْ ، وَيَتَّبِعُونَهُمْ .
- ٧ _ غالبيةُ أتباعِ الرُّسُلِ يَكُونُونَ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ، لأنَّ الأشرافَ يَخَافُونَ أن يَخْسِرُوا سُلْطَتَهُمْ وَمَنَاصِبَهُمْ ومكانتهم الاجتماعية ، كما أنهم يَتَرَفَّعُونَ عَنِ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ، وَيَرْفُضُونَ أن يَتَقَدَّمُوا عَلَيْهِمْ .

(٢٣) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٦٥٧) برقم (٤٢٧٨) ، ومسلم (٣ / ١٣٩٣) برقم (١٧٧٣) .

٨_ كان هِرْقُلُ مُقْتَنِعًا بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله. وَمِنْ الواضح أَنَّ معلوماته مأخوذة مِنْ الكُتُب الدِّينِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ (اليهود والنصارى). إِذْ إِنَّ وَصْفَ النَّبِيِّ ﷺ موجود في التَّوْرَةِ والإنجيل.

٩_ لقد خافَ هِرْقُلُ على مَنْصِبِهِ وراثته، فَأَثَرُ الْمُلْكِ وَالرَّائِسَةِ على الإسلام ، وهذا مَنَعَهُ مِنْ اعتناق الدِّينِ الْحَقِّ. وَلَمْ يُوقِّفْهُ اللهُ إِلَى الإسلامِ مِثْلَ النَّجَاشِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ_ الَّذِي اعتنقَ الإسلامَ ، وَمَعَ هَذَا ، لَمْ يَخْسَرْ سُلْطَنَهُ ، بَلْ بَقِيَ رَئِيسًا . وَالإسلامَ لَا يُحَوَّلُ النَّاسُ إِلَى فَقَرَاءٍ وَعَبِيد ، بَلْ يُحَوَّلُهُمْ إِلَى سَادَةِ حَقِيقِينَ ، يُحِيطُهُمُ الْمَجْدُ وَالشَّرَفُ وَالسِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ .

١٠_ لقد كَانَ أَبُو سُفْيَانٍ وَأَصْحَابُهُ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ مُشْرِكِينَ ، يُعَادُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَمَعَ هَذَا اعترفوا بِصِفَاتِهِ الْحَمِيدَةِ، وَأَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى أَشْرَفِ الْأَنْسَابِ، وَمَعْرُوفٍ لَدَيْهِمْ بِالصَّدْقِ وَالْأَمَانَةِ . وَهَذَا اعترافٌ وَاضِحٌ مِنْهُمْ _ وَهُمْ كُفَّارُ أَعْدَاءِ لِلإسلامِ _ . وَالاعترافُ سَيِّدُ الْأَدْلَةِ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [التَّمَلُّ : ٩١] .

هَذَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ عَظِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقُولَ : إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللهُ رَبُّ الْبَلَدِ الْأَمِينِ (مَكَّة) الَّذِي جَعَلَهَا حَرَمًا آمِنًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُلْكٌ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . لَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقًا وَمُلْكًا وَتَصَرُّفًا . وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَبْدٌ لِلَّهِ تَعَالَى . وَأُمِرْتُ أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِلَّهِ ، وَأُخَصَّصَهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا أُعْبَدَ الْأَصْنَامَ . وَهَذَا تَجَلَّى أَهْمِيَّةُ الْأَمْتِثَالِ لِأَوَامِرِ اللهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ .

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ رَبُّ الْبِلَادِ كُلِّهَا ، لَكِنَّهُ تَعَالَى قَدْ خَصَّ مَكَّةَ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لَهَا ، وَتَعْظِيمًا لِمَكَانَتِهَا السَّامِيَةِ ، فَفِيهَا بَيْتُ اللهِ الْحَرَامُ ، وَهِيَ أَعْظَمُ بُقْعَةٍ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ ، وَأَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ . وَأَيْضًا ، خَصَّصَهَا اللهُ بِالذِّكْرِ مِنْ أَجْلِ تَعْرِيفِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، إِذْ جَعَلَ بِلَدَهُمْ آمِنًا فِي مُحِيطٍ مُلْتَهَبٍ ، حَيْثُ الصَّرَاعَاتُ الْقَبَلِيَّةُ، وَانْتِشَارُ الْحُرُوبِ ، وَحَمَاهُمْ مِنَ النَّاسِ . لَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الْأَصْنَامَ هِيَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٥٠٣) : ((وَإِضَافَةُ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَى الْبَلَدَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّشْرِيفِ لَهَا وَالاعْتِنَاءِ بِهَا)) اهـ .

وَقَدْ يَتَوَهَّمُ أَحَدُهُمْ عِنْدَمَا يَقْرَأُ : ﴿ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ ، فَيُظَنُّ أَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ مَكَّةَ وَحْدَهَا ، لِذَلِكَ قَالَ اللهُ بَعْدَهَا : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لِتُزِيلَ أَيُّ وَهْمٍ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى الدَّهْنِ .

وَتَحْرِيمُ مَكَّةَ تَحْرِيمٌ إِلَهِيٌّ لَا بَشَرِيٌّ . فَلَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ ، وَلَا يُظَلَمُ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يُصَادُ فِيهَا صَيْدٌ ، وَلَا يُعَصَّدُ فِيهَا شَجَرٌ ، وَهَذِهِ نِعَمٌ إِلَهِيَّةٌ عَلَى قُرَيْشٍ ، فَقَدْ حَمَى اللهُ بِلَدَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ،

وَوَقَاهُ مِنَ الْفِتَنِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٩٨) :
 ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ الْمَعْنَى : قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ
 الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو عَمْرَانَ الْجَوْنِي " الَّتِي حَرَّمَهَا " وَهِيَ مَكَّةُ . وَتَحْرِيمُهَا تَعْظِيمُ
 حُرْمَتِهَا بِالْمَنْعِ مِنَ الْقَتْلِ فِيهَا وَالسَّيِّ وَالْكَفِّ عَنْ صَبِيدِهَا وَشَجَرِهَا . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لِأَنَّهُ خَالِقُهُ
 وَمَالِكُهُ . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَيِ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ)) اهـ .

وفي تاج العروس (١ / ١٩٠١) : ((وقال التوربشتي في شرح المصابيح _ عن مكة المكرمة
 _ : إِنَّهَا هِيَ الْبَلَدَةُ الْجَامِعَةُ لِلْخَيْرِ ، الْمُسْتَحَقَّةُ أَنْ تُسَمَّى بِهَذَا الْأَسْمِ دُونَ غَيْرِهَا ، لِتَفُوقِهَا عَلَى
 سَائِرِ مُسَمِّيَّاتِ أَجْنَاسِهَا تَفُوقَ الْكَعْبَةِ فِي تَسْمِيَّتِهَا بِالْبَيْتِ عَلَى سَائِرِ مُسَمِّيَّاتِهِ ، حَتَّى كَأَنَّهَا هِيَ
 الْمَحَلُّ الْمُسْتَحَقُّ لِلْإِقَامَةِ دُونَ غَيْرِهَا)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ : ((إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ
 حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ
 فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا
 يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنْقَرُ صَبِيدُهُ ، وَلَا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ)) (٢٤).

لقد حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَهَا حَرَمًا آمِنًا ، وَهَذِهِ الْحُرْمَةُ مُسْتَمِرَّةٌ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُلْغِيَهَا . وَالْقِتَالُ فِي مَكَّةَ مُحَرَّمٌ شَرْعًا ، وَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَ
 النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْ يَحِلَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ الْقِتَالُ فِي مَكَّةَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ . وقال النووي في شرحه على
 صحيح مسلم (٩ / ١٢٦) : ((هَذَا مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ إِنَّ مَكَّةَ فَتَحَتْ عَنْوَةً ، وَهُوَ مَذْهَبُ
 أَبِي حَنِيفَةَ وَكَثِيرِينَ أَوْ الْأَكْثَرِينَ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ : فَتَحَتْ صُلْحًا . وَتَأَوَّلُوا هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى
 أَنَّ الْقِتَالَ كَانَ جَائِزًا لَهُ ﷺ فِي مَكَّةَ ، وَلَوْ احتَاجَ إِلَيْهِ لَفَعَلَهُ ، وَلَكِنْ مَا احتَاجَ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .
 " لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ " . يَعْنِي : لَا يُقْطَعُ شَوْكُهُ .

(٢٤) متفق عليه. البخاري (٣ / ١١٦٤) برقم (٣٠١٧) ، ومسلم (٢ / ٩٨٦) برقم (١٣٥٣) .
 وقال الحافظ في الفتح (٤ / ٤٧) : ((وَقِيلَ : الْحُرْمَةُ الْحَقُّ . أَيِ حَرَامٍ بِالْحَقِّ الْمَانِعِ مِنْ تَحْلِيلِهِ . وَاسْتُدِلَّ
 بِهِ عَلَى تَحْرِيمِ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ بِالْحَرَمِ . فَأَمَّا الْقَتْلُ ، فَتَنْقِلُ بَعْضُهُمُ الْإِتِّفَاقَ عَلَى جَوَازِ إِقَامَةِ حَدِّ الْقَتْلِ فِيهَا
 عَلَى مَنْ أَوْقَعَهُ فِيهَا . وَخُصَّ الْخِلَافُ بِمَنْ قَتَلَ فِي الْحِلِّ ثُمَّ لَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ . وَمَنْ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ
 الْجَوْزِيِّ)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢٦ / ٩) : ((فيه دلالة لمن يقول بتحريم جميع نبات الحَرَم مِنَ الشَّجَرِ وَالْكَأِ ، سواء الشَّوْكُ المؤذي وَغَيْرُهُ ، وهو الذي اختاره المتولِّي من أصحابنا (يعني الشافعية) . وقال جمهور أصحابنا : لا يَحْرُمُ الشَّوْكُ لَأَنَّهُ مُؤَذِّ ... والصحيح ما اختاره المتولِّي ، والله أعلم)) اهـ .

" ولا يُنْفَرُ صَيْدُهُ " . يعني : لا يُزْعَجُ . وإذا كان إزعاجه مُحَرَّمًا ، فإتلافه أَوْلَى بالتَّحْرِيمِ .
" ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا " . يعني : لا يُؤْخَذُ ما سَقَطَ فِيهَا ، بَلْ يُتْرَكُ عَلَى الْأَرْضِ .
ولا تَحِلُّ إِلَّا لِمَالِكِهَا . أَمَّا مَنْ وَجَدَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنَ عَنْ صَاحِبِهَا وَلَمْ يَجِئْ .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢٦ / ٩) : ((ومعنى الحديث : لا تَحِلُّ لُقْطَتُهَا لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُعَرِّفَهَا سَنَةً ثُمَّ يَتَمَلَّكَهَا ، كما في باقي البلاد ، بل لا تَحِلُّ إِلَّا لِمَنْ يُعَرِّفُهَا أَبَدًا ولا يَتَمَلَّكَهَا ، وبهذا قال الشافعي وعبد الرحمن بن مهدي وأبو عُيَيْدٍ وَغَيْرُهُمْ ، وقال مالك : يَجُوزُ تَمَلُّكُهَا بَعْدَ تَعَرُّفِهَا سَنَةً كَمَا فِي سَائِرِ الْبِلَادِ ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ)) اهـ .
" ولا يُخْتَلَى خَلَاهُ " . يعني : لا يُقَطَّعُ حَشِيشُهَا الرُّطْبُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢٥ / ٩) : ((وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِ قَطْعِ أَشْجَارِهَا الَّتِي لَا يَسْتَنْبِتُهَا الْآدَمِيُّونَ فِي الْعَادَةِ ، وَعَلَى تَحْرِيمِ قَطْعِ خَلَاهَا ، وَاخْتَلَفُوا فِيْمَا يُنْبِتُهُ الْآدَمِيُّونَ وَاخْتَلَفُوا فِي ضَمَانِ الشَّجَرِ إِذَا قَطَّعَهُ ، فَقَالَ مَالِكٌ : يَأْتِمُ وَلَا فِدْيَةٌ عَلَيْهِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : عَلَيْهِ الْفِدْيَةُ . وَاخْتَلَفَا فِيهَا . فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : فِي الشَّجَرَةِ الْكَبِيرَةِ بِقَرَةٍ وَفِي الصَّغِيرَةِ شَاةٌ ، وَكَذَا جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الْوَاجِبُ فِي الْجَمِيعِ الْقِيَمَةُ)) .

وفي تفسير القرطبي (١١٧ / ٢) أن العلماء قالوا عن مكة المكرمة : ((لَمْ تَزَلْ حَرَمًا مِنْ الْجَبَابِرَةِ الْمُسْلَطِينَ ، وَمِنْ الْخُسُوفِ وَالزَّلَازِلِ وَسَائِرِ الْمَثَلَاتِ الَّتِي تَحِلُّ بِالْبِلَادِ . وَجُعِلَ فِي النُّفُوسِ الْمَتَمَرِّدَةِ مِنْ تَعْظِيمِهَا وَالْهَيْبَةِ لَهَا مَا صَارَ بِهِ أَهْلُهَا مُتَمَيِّزِينَ بِالْأَمْنِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى . وَلَقَدْ جَعَلَ فِيهَا — سُبْحَانَهُ — مِنَ الْعَلَامَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ مَا شُوهِدَ مِنْ أَمْرِ الصَّيْدِ فِيهَا ، فَيَجْتَمِعُ فِيهَا الْكَلْبُ وَالصَّيْدُ فَلَا يُهَيِّجُ الْكَلْبُ الصَّيْدَ ، وَلَا يَنْفِرُ مِنْهُ ، حَتَّى إِذَا خَرَجَا مِنَ الْحَرَمِ عَدَا الْكَلْبُ عَلَيْهِ ، وَعَادَ إِلَى الثُّفُورِ وَالْهَرَبِ . وَإِنَّمَا سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَجْعَلَهَا بَلَدًا آمِنًا مِنَ الْقَحْطِ وَالْجَدْبِ وَالْغَارَاتِ ، وَأَنْ يَرْزُقَ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ . لَا عَلَى مَا ظَنَّهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ الْمَنْعُ مِنْ سَفْكِ الدَّمِ فِي

حق من لزمه القتل . فإن ذلك يبعد كونه مقصوداً لإبراهيم ﷺ حتى يقال : طلب من الله أن يكون في شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم . هذا بعيد جداً)) اه .

ومكة المكرمة هي الحاضنة للكعبة المشرفة قبلة المسلمين التي توخّدهم على اختلاف مذاهبهم وبلادهم وأجناسهم ولغاتهم . وهذه المدينة هي قلب العالم الإسلامي النابض، وسيّدة مدين كوكب الأرض . إنها مدينة الله وحرمه الآمن ، من دخلها فهو في كنف الله تعالى ، يتمتع بالأجواء الإيمانية الصافية، ويخلو قلبه من المخلوقات، ويتوجّه بالكلية إلى خالقه تعالى .
إن مكة المكرمة هي المركز الحضاري والمركزية الشرعية العالمية . من آوى إليها آوته ، ومن قصدها بسوء قصمته ، ومن دخلها بقلب مشتاق للإيمان فإن الفتوحات الربانية ستهبط عليه ، وتكتنفه الفيوضات الإلهية المجيدة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ أُنَلِّقُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [التمل : ٩٢] .

وأمرت أن أتلو القرآن لتظهر لي حقائقه العظيمة ، وأقرؤه على الناس ليؤمنوا بالله وكلامه ورسوله ﷺ ، ويعرفوا أحكام الحلال والحرام، وأحوال الدنيا والآخرة . وقال أبو السعود في تفسيره (٦ / ٣٠٦) : ((﴿ وَأَنْ أُنَلِّقُوا الْقُرْآنَ ﴾ أي : أواظب على تلاوته لتكشف لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً ، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتنشئة الإرشاد ، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته في الهداية والإرشاد من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى)) اه .
ومن آمن بالنبى ﷺ والقرآن الذي جاء به فقد اهتدى إلى طريق الحق ، وفاز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، ومن انحرف عن الطريق المستقيم بتكذيب النبى ﷺ ورفض القرآن ، فقد خسر الدنيا والآخرة معاً ، والنبى ﷺ مُنذِرٌ يُبَلِّغُ الرِّسَالَةَ الإلهية للناس بلا زيادة ولا نقصان ، ولا يُحاسب الناس . إنما حساب العباد على رب العباد .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٥) : ((يقول تعالى ذكّره : فَقُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ ضَلَّ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَكَذَّبَكَ وَلَمْ يُصَدِّقْ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِي : إِنَّمَا أَنَا مَنْ يُنذِرُ قَوْمَهُ عَذَابَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِنِّي ، وقد أنذرتكم ذلك مَعَشَرَ كِفَارٍ قُرَيْشٍ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ وَانْتَهَيْتُمْ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْكُمْ مِنَ الشَّرْكِ بِهِ ، فَحُظُوا أَنْفُسَكُمْ تُصِيبُونَ ، وَإِنْ رَدَدْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ ، فَعَلَى أَنْفُسِكُمْ جَنَّتُمْ ، وقد بَلَّغْتُكُمْ مَا أُمِرْتُ بِإِبْلَاغِهِ إِلَيْكُمْ وَنَصَحْتُ لَكُمْ)) اه .

والنبي ﷺ سائر على خطى إخوانه الأنبياء المُنذرين _ عليهم الصلاة والسلام _ ، الذين أَوْصَلُوا الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ لِلنَّاسِ بِكُلِّ صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ ، وقاموا بأداء أمانة التبليغ على أكمل وجه ، ولم يتكاسلوا ولم يَقْصُرُوا ، وحسابُ أَمَمِهِمْ على الله تعالى . والنبي ﷺ واحدٌ مِنْهُمْ ، لا يَنحَرِفُ عَنْ طَرِيقِهِمْ ، بَلْ هُوَ زَعِيمُهُمْ وَقَائِدُهُمْ .

وَنَفْعُ الْإِيمَانِ يَعُودُ عَلَى صَاحِبِهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ مَعًا . وَمَنْ اهْتَدَى وَانْتَفَعَ بِالْقُرْآنِ وَعَمِلَ بِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ وَمَوَاضِعِهِ فَلَهُ أَجْرٌ هِدَايَتِهِ ، وَالْقُرْآنُ قَائِدُهُ إِلَى الْجَنَّةِ . وَمَنْ اخْتَارَ الْكَفْرَ ، فَهُوَ خُرٌّ فِي اخْتِيَارِهِ ، لَكِنَّهُ أَهْلَكَ نَفْسَهُ ، وَقَادَهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ ، وَوَبَّأَلْ ضَلَالَهُ عَلَيْهِ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ كُفْرِ الْكَافِرِينَ ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ . وَالْإِنْسَانُ خُرٌّ فِي اخْتِيَارِهِ ، وَيَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ اخْتِيَارِهِ أَمَامَ النَّاسِ ، وَأَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[التَّمْلِ : ٩٣] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي وَخَصَّنِي بِالنَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ . وَاللَّهُ سَيَكْشِفُ آيَاتِهِ الْبَاهِرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ . وَاللَّهُ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ . يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا يَعْفُلُ عَنْ شَيْءٍ .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهَا نِعْمَةُ الْإِيمَانِ وَالْهِدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَقَفْنَا لِقَبُولِ الْحَقِّ الَّذِي رَفَضْتُمُوهُ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٥٠٣) : ((أَي : اللَّهُ الْحَمْدُ الَّذِي لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَالْإِنْذَارِ إِلَيْهِ)) اهـ .

﴿ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ . وَعِيدٌ شَدِيدٌ ، وَتَهْدِيدٌ رَهيبٌ . سِيرِكُمْ اللَّهُ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْأُلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، وَتَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣ / ٢٢١) : ((﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أَي : دَلَائِلُ قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَفِي السَّمَوَاتِ ، وَفِي الْأَرْضِ)) اهـ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ مَعْرِفَةَ الْكُفَّارِ بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ لَا تَنْفَعُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهَا بَعْدَ قَوَاتِ الْأَوَانِ . لَقَدْ عَرَفُوهَا بَعْدَ إِغْلَاقِ بَابِ الْإِيمَانِ ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ . سَيَعْرِفُونَ الْآيَاتِ حِينَ لَا تَنْفَعُهُمُ الْمَعْرِفَةُ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٨٤) : ((﴿ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ يعني : يوم بَدُر من القتل والسَّيِّ وضَرْب الملائكةُ وجوههم وأدبارهم ... وقال مجاهد : سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ في السماء والأرض وفي أنفسكم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٩٨) : ((﴿ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ وَمَتَى يُرِيهِمْ ؟ . فيه قولان : أحدهما في الدنيا . ثُمَّ فيها ثلاثة أقوال ، أحدها أَنَّ مِنْهَا الدُّخَانُ وانشقاق القمر ، وقد أراههم ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فتعرفونها في السماء وفي أنفسكم وفي الرِّزْق ، قاله مجاهد . والثالث : القتل بِدُر ، قاله مقاتل . والثاني : سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ في الآخرة فتعرفونها على ما قال في الدنيا ، قاله الحسن)) اهـ .

﴿ وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . لقد أمهلهم الله ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ رَحْمَةً بِهِمْ ، لكنَّهُم اغْتَرَبُوا بهذه الْمُهْلَةِ ، وفَسَّرُوهَا بصورة مغلوطة . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَقْوَالَ النَّاسِ وَأَفْعَالَهُمْ ، ليس بغافل عنها . فهو سُبحَانَهُ خَالِقُهُمْ ، أَعْلَمُ بأنفسهم مِنْهُمْ ، وهو شهيد على كُلِّ شَيْءٍ . وتأخيرُ عذاب الكافرين ليس عَجْزًا مِنَ اللَّهِ أَوْ غَفْلَةً عَنْ أَعْمَالِهِمْ . فاللَّهُ لَا يُعْجِزُ شَيْءٌ ، وهو سُبحَانَهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ . والآيةُ وعد ووعدٌ لهم بالجزاء على أَعْمَالِهِمْ ، تشتمل على تهديد عظيم وترهيب شديد .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَمَا رُبُّكَ يَا مُحَمَّدُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، ولكن لهم أَجَلٌ هُمْ بِالْعَوَةِ ، فإذا بَلَغُوهُ فلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ : فَلَا يَخْزُنُكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ ، فإني مِنْ وَرَاءِ إِهْلَاكِهِمْ ، وإني لهم بِالْمِرْصَادِ . فَأَيُّقُنْ لِنَفْسِكَ بالنصر ، وَلِعَدُّوكَ بِالذُّلِّ وَالْخِزْيِ)) اهـ .
ولو كَانَ اللَّهُ مُغْفِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ الْبُعُوضَةَ وَالنَّمْلَةَ وَالذَّرَّةَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٠٣) : ((عن عمر بن عبد العزيز قال : فَلَوْ كَانَ اللَّهُ مُغْفِلًا شَيْئًا لَأَغْفَلَ مَا تُعْفِي الرِّيحُ مِنَ أَثَرِ قَدَمِي ابْنِ آدَمَ . اهـ . وقد ذُكِرَ عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كَانَ يُشِيدُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ إِمَّا لَهُ وَإِمَّا لِغَيْرِهِ :

خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ	إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ
وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ)) .	وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفَلُ سَاعَةً

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

إنَّ الله تعالى أرسلَ محمدًا ﷺ بالإيمانِ وأحكامِ الدينِ بشيرًا للمؤمنين ، يُشَرِّهم بسعادة الدُّنيا ونعيم الجنة ، ونذيرًا للكافرين ، يُنذِرهم عذاب النارِ إنِ اختاروا الكُفرَ على الإيمانِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٧) : ((أي: بشيرًا بالوعد الحق ، ونذيرًا بالوعيد الحق)) اهـ .

وكلُّ الأُمَم قد أرسلَ اللهُ إليهم الرُّسلَ لِيُنذِرُوهم ، وقد قَطَعَ اللهُ أَعْدَارَ النَّاسِ ، وأقامَ عَلَیْهم الْحُجَّةَ . والأُمَّةُ هي الجماعةُ الكثيرةُ مِنَ النَّاسِ . وقد ذُكِرَ النَّذيرُ ذُونُ البَشيرِ ، لأنَّ النَّذارةَ مُرتبطةٌ بالبشارة ، كما أنَّ النَّذارةَ هي الهدفُ الأساسيُّ للرَّسالةِ النبويةِ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٩١) : ((واقتصر على ذكر النذير ذُونُ البشير ، لأنه أَلصقُ بِالْمَقَامِ)) اهـ .

والعربُ قد جاءها نذيرٌ ، لأنَّ دَعْوَةَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَأَبْنائِهِ قَدْ وَصَلَتْهُم ، ولكنَّ لَمْ يَأْتِهم نذيرٌ مُباشرٌ سِوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ . وفي تفسير الثعالبي (٣ / ٢١٣) : ((وقال ابن عباس ومقاتل : المعنى لَمْ يَأْتِهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر : ٤٢] .

أَقْسَمَ الْمُشْرِكُونَ (قُرَيْشٌ وَالْعَرَبُ) بِاللَّهِ أَشَدَّ الْأَيْمَانِ ، حِينَ عَلِمُوا بِتَكْذِيبِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِرُسُلِهِمْ ، وذلك قبل بعثة النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ : لَئِنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يُنذِرُهُمْ ، لَيَكُونُنَّ أَتْبَعَ لِلْحَقِّ وَأَصْوَبَ دِينًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ . وكانَ الْعَرَبُ يَأْمَلُونَ أَنَّ يَظْهَرُ فِيهِمْ رَسُولٌ ، كما ظَهِرَ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا حَقَّقَ اللَّهُ أُمْنِيَّتَهُمْ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَفَرُوا بِهِ ، وَابْتَعَدُوا عَنْهُ ، وَهُوَ رَسُولٌ مِنْهُمْ ، عَرَبِيٌّ قُرَشِيٌّ هَاشِمِيٌّ ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ غَرِيبًا عَنْهُمْ ؟ ! .

وفي تفسير الجلالين (١ / ٥٧٧) : ((﴿ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ . أَي : أَيُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، إِذْ قَالَتِ الْيَهُودُ : لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٢٦) : ((﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يعني : كَفَارَ مَكَّةَ ، لَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، قَالُوا : لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَتَتْهُمْ الرُّسُلُ فَكَذَّبُوهم وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ ، وَقَالُوا : لَوْ أَنَا رَسُولٌ لَتَكُونُنَّ أَهْدَى دِينًا مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا

بُعْثَ مُحَمَّدٌ كَذَّبُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ رسول ،

﴿ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِهْدَى الْأُمَمِ ﴾ يعني: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ، أي : ما زادهم مجيئه إلا تباعدًا عن الهدى)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨) ﴾ [سورة الشرح] .

هذه السُّورَةُ تُشِيرُ إِلَى الْمَكَانَةِ السَّامِيَةِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعِنَايَةِ اللَّهِ بِهِ . فَقَدْ اخْتَارَهُ اللَّهُ وَطَهَّرَهُ ، وَرَفَعَ اسْمَهُ الشَّرِيفَ . كَمَا تُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ التَّفَرُّغِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ . وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ بِإِلَافٍ . وَاللَّهُ يُعَدِّدُ نِعَمَهُ الْجَلِيلَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ ، وَيَرْفَعُ شَأْنَهُ . ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ . أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ ، لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . وَمِنْ بَيْنِهَا نِعْمَةُ شَرْحِ صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَقِّ وَالْهُدَى وَالْإِيمَانِ ، فَصَارَ صَدْرُهُ وَاسِعًا مُمْتَلَأًا بِنُورِ الْإِيمَانِ ، لَا ضِيقَ فِيهِ وَلَا حَرَجَ . وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ يَحْمِلُ مَعْنَى التَّقْرِيرِ وَالتَّأَكِيدِ وَالتَّذْكِيرِ . وَالصَّدْرُ هُوَ الْوَعَاءُ الْحَاضِنُ لِأَحْوَالِ النَّفْسِ وَالْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ . لِذَلِكَ خُصَّ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِ . لَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ صَدْرَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَلَانَ قَلْبَهُ ، وَجَعَلَهُ مَنبَعًا لِلنُّورِ ، وَوَعَاءً لِلْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . وَاللَّهُ يُمِئُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُذَكِّرُهُ بِإِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِ ، إِذْ جَعَلَ صَدْرَهُ وَاسِعًا وَقَادِرًا عَلَى تَحْمُلِ مَسْئُولِيَةِ النُّبُوَّةِ وَأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ ، وَالتَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ وَأَعْرَاقِهِمْ . وَلَا بُدَّ مِنْ سَعَةِ الصَّدْرِ كَيْ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَيَتِمَّ إِصَالُهُ إِلَى النَّاسِ دُونَ عَوَاقِبِ .

وقال القاضي عياض في الشفا (١ / ١٧) : ((شَرَحَ : وَسَّعَ . وَ الْمُرَادُ بِالصَّدْرِ هُنَا : الْقَلْبُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : شَرَحَهُ بِالْإِسْلَامِ . وَقَالَ سَهْلٌ : بَنُورُ الرِّسَالَةِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : مَلَأَهُ حِكْمًا وَعِلْمًا . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَلَمْ نَطْهِّرْ قَلْبَكَ حَتَّى لَا يُؤْذِيَنَّكَ الْوَسْوَاسُ)) اهـ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٤٢٤) : ((ذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور إنما هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لِتَلَقِّي مَا يُوحَى إِلَيْهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٌ : هَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى شَرْحِهِ بِشَقِّ جَبْرِيلَ عَنْهُ فِي وَقْتِ صِغَرِهِ ، وَفِي وَقْتِ الْإِسْرَاءِ ، إِذْ التَّشْرِيحُ شَقُّ اللَّحْمِ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٤٥) : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ ﷺ ، وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً ،

فقال : ((هذا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ)) ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لَأَمَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ . وجاء الغلمان يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ (يَعْنِي ظَنَرَهُ الْمَرْضِعَةَ) ، فقالوا : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ ، وَهُوَ مُتَنَقِّعُ اللَّوْنِ . قال أنس : وقد كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخِيطِ فِي صَدْرِهِ .

لقد شَقَّ جَبْرِيلُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — صَدْرَ مُحَمَّدٍ ، وَأَخْرَجَ قَلْبَهُ الشَّرِيفَ ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ قِطْعَةً صَغِيرَةً ، هِيَ نَصِيبُ الشَّيْطَانِ مِنْهُ ، فَصَارَ قَلْبُهُ يَخْلُو تَمَامًا مِنْ أَيْ أَثَرٍ لِلشَّيْطَانِ . ثُمَّ قَامَ جَبْرِيلُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِغَسْلِ قَلْبِهِ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ الْمُبَارَكِ ، ثُمَّ لَأَمَهُ (ضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ وَجَمَعَهُ) ، وَأَعَادَ قَلْبَهُ إِلَى مَكَانِهِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٢١٦) : ((وليس في هذا ما يُوهِمُ جَوَازَ اسْتِعْمَالِ إِنَاءِ الذَّهَبِ لَنَا ، فَإِنَّ هَذَا فِعْلُ الْمَلَائِكَةِ وَاسْتِعْمَالُهُمْ . وليس بِلَازِمٍ أَنْ يَكُونَ حُكْمُهُمْ حُكْمَنَا ، وَلَأنَّهُ كَانَ أَوَّلُ الْأَمْرِ قَبْلَ تَحْرِيمِ النَّبِيِّ ﷺ أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)) اهـ .

وقد اعتقد الغلمان الذين كانوا يَلْعَبُونَ مَعَهُ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ مُتَأَثِّرًا بِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرِ الْمَعْهُودِ ، وَجَاؤُوا إِلَى حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ وَهِيَ مُرْضِعَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَخْبَرُوهَا أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ . وجاءَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ وَهُوَ مُتَغَيَّرُ اللَّوْنِ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّدِيدَةِ . وقد ذَكَرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَثَرَ الْإِبْرَةِ فِي صَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٢١٧) : ((وفي هذا دليلٌ على جَوَازِ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى صَدْرِ الرَّجُلِ ، وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِهِ ، وَكَذَا يَجُوزُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا فَوْقَ سُرَّتِهِ وَتَحْتَ رَكْبَتِهِ إِلَّا أَنْ يَنْظُرَ بِشَهْوَةٍ ، فَإِنَّهُ يَحْرُمُ النَّظَرُ بِشَهْوَةٍ إِلَى كُلِّ آدَمِيٍّ إِلَّا الزَّوْجَ لِزَوْجَتِهِ وَمَمْلُوكَتِهِ ، وَكَذَا هُمَا إِلَيْهِ ، وَإِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ أَمْرَدَ حَسَنِ الصُّورَةِ ، فَإِنَّهُ يَحْرُمُ النَّظَرُ إِلَيْهِ ، إِلَى وَجْهِهِ وَسَائِرِ بَدَنِهِ ، سِوَاكَ كَانَ بِشَهْوَةٍ أَوْ بَغَيْرِهَا ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِحَاجَةِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالتَّطْيِيبِ وَالتَّعْلِيمِ وَنَحْوِهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ . لقد غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَ مُحَمَّدٍ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَجَاوَزَ عَنْهَا ، وَحَظَّ عَنْهُ حِمْلُهُ الثَّقِيلَ ⁽²⁵⁾ . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠ / ٩٧) : ((وَالْوِزْرُ : الذَّنْبُ . أَي : وَضَعْنَا عَنْكَ مَا

(٢٥) قال البغوي في تفسيره (١ / ٤٦٣) : ((وقال الحسين بن الفضل : يعني الخطأ والسَّهْوُ . وقيل : ذُنُوبٌ أُمْتُكَ . فَأَضَافَهُ إِلَيْهِ لِاشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِهِمْ . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عُبَيْدَةَ : يعني : خَفَقْنَا عَنْكَ أَعْيَاءَ النَّبُوءَةِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهَا)) .

كُنْتُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَأَنَّهُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَذَاهِبِ قَوْمِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَبْدَ صَنَمًا وَلَا وَثْنًا. قَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ الضَّحَّاكُ : كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ ذُنُوبٌ أَثْقَلَتْهُ ، فَغَفَرَهَا اللَّهُ لَهُ)) اهـ .
وفي زاد المسير (٩ / ١٦٣) : ((قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَأَصْلُ الْوِزْرِ مَا حَمَلَهُ الْإِنْسَانُ عَلَى ظَهْرِهِ فَشُبِّهَ بِالْحِمْلِ)) اهـ .

والجدير بالذكر أنَّ الأنبياءَ معصومون (بعد البعثة) ، لكنَّهم قَدْ يَرْتَكِبُونَ خِلَافَ الْأَوَّلَى ، وَقَدْ يَتْرَكُونَ الْأَفْضَلَ ، وَيَأْخُذُونَ بِالْفَاضِلِ ، وَاللَّهُ يُعَاتِبُهُمْ عَلَى هَذَا. وَكَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ. وَالتَّدْقِيقُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ شَدِيدٌ فِي كُلِّ الْأُمُورِ لِأَنَّهُمْ سَادَةُ الْبَشَرِيَّةِ وَرُؤَسَاءُ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾. الَّذِي أَثْقَلَ ظَهْرَكَ. أَثْقَلَهُ حَتَّى سَمِعَ نَقِيضَ الظَّهْرِ (صَوْتَهُ). وَالْمَعْنَى: لَوْ كَانَ حِمْلًا يُحْمَلُ لَسَمِعَ نَقِيضَ الظَّهْرِ مِنْهُ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠ / ٩٧) : ((وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ : أَنْقَضَ الْحِمْلُ ظَهْرَ النَّاقَةِ : إِذَا سَمِعَتْ لَهُ صَرِيرًا مِنْ شِدَّةِ الْحِمْلِ)) اهـ .

وقَدْ وُصِفَتْ ذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ بِالشَّدَةِ وَالْحِمْلِ الثَّقِيلِ ، مَعَ أَنَّهَا زَلَّاتٌ عَابِرَةٌ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ ، بِسَبَبِ مَكَانَةِ الْأَنْبِيَاءِ الرَّفِيعَةِ ، وَخَوْفِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَشِدَّةِ اهْتِمَامِهِمْ بِهَا ، وَنَدَمِهِمُ الشَّدِيدَ عَلَيْهَا. وَذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ أَخْطَاءٌ عَادِيَّةٌ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَقَدْ غَفَرَهَا اللَّهُ لَهُمْ ، إِكْرَامًا لَهُمْ ، وَتَعْظِيمًا لِقُدْرِهِمْ .

ويشكُلُ عام. إِذَا كَانَ الْمَعْنَى مُرْتَبِطًا بِفَتْرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ شَارَكَ مَعَ عَشِيرَتِهِ ، وَخَالَطَ النَّاسَ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي بَعْضِ الْأَخْطَاءِ بَعِيدًا عَنِ الشَّرِّكَ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. وَقَدْ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْأَخْطَاءُ الْبَسِيطَةَ ذُنُوبًا عَظِيمَةً ، وَصَارَتْ ثَقِيلَةً عَلَيْهِ . وَقَدْ غَفَرَهَا اللَّهُ لَهُ . أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَعْنَى مُتَعَلِّقًا بِفَتْرَةِ مَا بَعْدَ الْبِعْثَةِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ ارْتَكَبَ خِلَافَ الْأَوَّلَى ، وَلَهُ أَخْطَاءٌ بَسِيطَةٌ بِحُكْمِ بَشَرِيَّتِهِ ، وَهِيَ أَخْطَاءٌ عَادِيَّةٌ لَا تَقْدَحُ فِي نُبُوتِهِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَأَوَّلًا أَوْ مُجْتَهِدًا فِي ظِلِّ غِيَابِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَهَذِهِ الْأَخْطَاءُ هِيَ ذُنُوبٌ بَسِيطَةٌ ، لَيْسَتْ بِمَعْنَى الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ وَالْفُجُورِ . فَالْأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ مِنَ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي . وَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى هَذِهِ الذُّنُوبِ الْبَسِيطَةِ ، وَهِيَ مُجَرَّدُ أَخْطَاءٍ بَشَرِيَّةٍ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ ، وَقَدْ غَفَرَهَا اللَّهُ لَهُ. مِثْلُ : إِذْنُهُ لِلْمُنَافِقِينَ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ ، وَأَخْذِهِ الْفِدَاءِ مِنْ أُسْرَى بَدْرَ ، وَعَبَسَهُ فِي وَجْهِ الْأَعْمَى (ابْنُ أُمِّ مَكْتُومِ) .

وقَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ فِي الشِّفَا (٢ / ١٣٦) : ((وَمَعْنَى: ﴿ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أَي كَادَ يَنْقُضُهِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لِمَا قَبْلَ التُّبُوتِ ، اهْتِمَامَ النَّبِيِّ ﷺ بِأُمُورِ فَعَلَهَا قَبْلَ نُبُوتِهِ

وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ التَّوْبَةِ ، فَعَدَّهَا أَوْزَارًا ، وَثَقُلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَشْفَقَ مِنْهَا . أَوْ يَكُونُ الْوَضْعُ عِصْمَةً لِلَّهِ لَهُ ، وَكِفَايَتُهُ مِنْ ذُنُوبٍ لَوْ كَانَتْ لِأَنْقَضَتْ ظَهْرَهُ . أَوْ يَكُونُ مِنْ ثَقُلِ الرِّسَالَةِ أَوْ مَا ثَقُلَ عَلَيْهِ وَشَغَلَ قَلْبَهُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِعْلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ وَحْيِهِ)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (٢٠ / ٩٧) : ((قال _ المحاسبي _ : وإنما وُصِفَتْ ذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَذَا الثَّقُلِ مَعَ كَوْنِهَا مَغْفُورَةً لِشِدَّةِ اهْتِمَامِهِمْ بِهَا ، وَنَدَمِهِمْ مِنْهَا ، وَتَحَسُّرِهِمْ عَلَيْهَا)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٣٢٤) : عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ ، يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)) .

الْمُؤْمِنُ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، يُعَظِّمُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَيَسْتَغْطِي ذُنُوبَهُ مَعَ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ ، لِأَنَّ النِّقْطَةَ السَّودَاءَ تَظْهَرُ بِوُضُوحٍ فِي الثَّوْبِ الْأَبْيَضِ . وَالْمُؤْمِنُ مُتَأَكِّدٌ مِنْ ذَنْبِهِ ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُتَأَكِّدٍ مِنْ غُفْرَانِهِ .

وَالْفَاجِرُ قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ . قَلْبُهُ مُظْلِمٌ ، قَلَّ خَوْفُهُ ، وَاسْتَهَانَ بِالْمَعْصِيَةِ . يَغْرَقُ فِي مُسْتَنْقَعِ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ ، وَيَرَى ذُنُوبَهُ بَسِيطَةً ، وَلَا تَدْعُو إِلَى الْقَلْقِ ، فَلَا يَكْتَرِثُ بِهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الذُّنُوبِ دَلِيلُ الْإِيمَانِ ، وَعَدَمُ الْخَوْفِ مِنَ الذُّنُوبِ دَلِيلُ الْفُجُورِ . وَحِكْمَةُ التَّشْبِيهِ بِالذُّبَابِ ، لِأَنَّ الذُّبَابَ أَحْقَرُ طَيْرٍ وَأَخْفَى .

وفي فتح الباري (١١ / ١٠٥) : ((قال ابن أبي جمرة : السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُتَوَرِّعٌ ، فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ مَا يُخَالِفُ مَا يُتَوَرَّعُ بِهِ قَلْبُهُ عَظُمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ . وَالْحِكْمَةُ فِي التَّمَثِيلِ بِالْجَبَلِ أَنَّ غَيْرَهُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ قَدْ يَحْصُلُ التَّسَبُّبُ إِلَى النِّجَاةِ مِنْهُ بِخِلَافِ الْجَبَلِ ، إِذَا سَقَطَ عَلَى الشَّخْصِ لَا يَنْجُو مِنْهُ عَادَةً ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْلُبُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ ، لِقُوَّةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَلَا يَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ بِسَبَبِهَا . وَهَذَا شَأْنُ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ دَائِمُ الْخَوْفِ وَالْمُرَاقَبَةِ ، يَسْتَصْغِرُ عَمَلَهُ الصَّالِحَ ، وَيَخْشَى مِنْ صَغِيرِ عَمَلِهِ السَّيِّئِ . قَوْلُهُ : " وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ _ فِي رَوَايَةِ أَبِي الرَّبِيعِ الزَّهْرَانِيِّ عَنْ أَبِي شَهَابٍ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ _ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهَا ذُبَابٌ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ " ، أَيْ ذَنْبُهُ سَهْلٌ عِنْدَهُ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ كَبِيرُ ضَرَرٍ ، كَمَا أَنَّ ضَرَرَ الذُّبَابِ عِنْدَهُ سَهْلٌ ، وَكَذَا دَفْعُهُ عَنْهُ ... قَالَ الْمَحَبُّ الطَّبْرِيُّ : ...

وَفِي الْحَدِيثِ ضَرْبُ الْمَثَلِ بِمَا يُمَكِّنُ ، وَإِرْشَادٌ إِلَى الْحِصْنِ عَلَى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ ، وَاعْتِبَارُ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى بَقَاءِ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ . وَفِيهِ أَنَّ الْفُجُورَ أَمْرٌ قَلْبِي كَالْإِيمَانِ . وَفِيهِ دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يُكْفَرُونَ بِالذُّنُوبِ ، وَرَدَّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُكْفَرُونَ بِالذُّنُوبِ)) اهـ .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (26). لقد شَرَّفَ اللهُ اسْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَعْلَى ذِكْرَهُ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلَا يُذَكَّرُ اللهُ إِلَّا وَيُذَكَّرُ مُحَمَّدٌ مَعَهُ. واسمُ مُحَمَّدٍ مَقْرُونٌ بِاسْمِ اللهِ. وَذَلِكَ فِي الشَّهَادَتَيْنِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، الَّتِي يُرَدِّدُهَا النَّاسُ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ. وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْأَذَانِ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ طَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ طَاعَةً لِلَّهِ، وَصَلَّى عَلَيْهِ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ، وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُخَاطَبْهُ بِاسْمِهِ الْمَجْرَدِ، بَلْ خَاطَبَهُ بِالْأَلْقَابِ الْفَخْمَةِ، مِثْلَ: " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ "، " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ". وَمَنْ الْوَاضِحُ أَنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ مُرْتَبِطٌ بِاسْمِ اللهِ فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالشَّهَادَةِ وَالْخُطْبَةِ. وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٠٥): ((وَإِنَّمَا زَادَ ﴿ لَكَ ﴾ لِيَكُونَ إِبْهَامًا قَبْلَ إِيضَاحٍ، فَيُفِيدَ الْمُبَالَغَةَ)) اهـ.

وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (٢٠ / ٩٨) : ((وَرُويَ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : يَقُولُ لَهُ : لَا ذِكْرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِيَ فِي الْأَذَانِ، وَالْإِقَامَةِ، وَالشَّهَادَةِ، وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَيَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ الْأَضْحَى، وَأَيَّامَ التَّشْرِيقِ، وَيَوْمَ عَرَفَةَ، وَعِنْدَ الْجِمَارِ، وَعَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَفِي خُطْبَةِ النَّكَاحِ، وَفِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبْدَ اللهِ جَلَّ ثَنَاهُ وَصَدَّقَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَكُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يَشْهَدْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ وَكَانَ كَافِرًا. وَقِيلَ : أَيُّ أَعْلَانَا ذِكْرَكَ فَذَكَرْنَاكَ فِي الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَأَمَرْنَاكَ بِالْإِشَارَةِ بِكَ، وَلَا دِينَ إِلَّا وَدِينُكَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ : رَفَعْنَا ذِكْرَكَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ، وَفِي الْأَرْضِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَرَفَعُ فِي الْآخِرَةِ ذِكْرَكَ بِمَا نُعْطِيكَ مِنَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَكَرَائِمِ الدَّرَجَاتِ)) اهـ.

وَصَدَّقَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ شَاعِرُ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ عَبْدَهُ بِرُهَانِهِ وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَمَجْدُ

(٢٦) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٩ / ١٦٣): ((فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ. مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنِ رَسُولِ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَ جَبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِيَ ". قَالَ قَتَادَةُ: فَلَيْسَ خَطِيبٌ وَلَا مُتَشَهِّدٌ وَلَا صَاحِبُ صَلَاةٍ إِلَّا يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَالثَّانِي رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ بِالنَّبُوءَةِ، قَالَهُ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ. وَالثَّلَاثُ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا رَفَعْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَكَاهُ الْمَوْرِدِيُّ. وَالرَّابِعُ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْخَامِسُ بِأَخْذِ الْمِثْقَالِ لَكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْإِيمَانِ بِكَ وَالْإِقْرَارُ بِفَضْلِكَ، حَكَاهُمَا التَّعْلِي) .

وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِجَلِّهِ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ
أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَيْمُونٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وعن أبي سعيد الخُدري أن رسول الله ﷺ قال : ((أتاني جبريلُ ، فقال : إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ
لَكَ : كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ ؟ ، قال : اللَّهُ أَعْلَمُ ، قال : إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِيَ)) (27).

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ . كُلُّ مُشْكَلَةٍ وَلَهَا حَلٌّ ، وَكُلُّ شِدَّةٍ
سَيَكُونُ بَعْدَهَا فَرَجٌ ، وَكُلُّ ضَيْقٍ سَيَتَّبِعُهُ رَخَاءٌ . وَهَذَا وَعْدٌ إِلَهِيٌّ لَا يَتَخَلَّفُ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ .
وَمَعَ الْعُسْرِ يُوجَدُ يُسْرَانٌ لَا يُسَرُّ وَاحِدٌ . فَالْعُسْرُ مَذْكُورٌ فِي الْآيَتَيْنِ بِأَلِ التَّعْرِيفِ ، فَهُوَ مَعْرِفَةٌ ،
وَالْيُسْرُ مَذْكُورٌ بِذَوْنِ أَلِ التَّعْرِيفِ ، فَهُوَ نَكِيرَةٌ . وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْعُسْرَ وَاحِدٌ ، وَالْيُسْرَ اثْنَانِ (28) .
وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، إِنَّ الْعُسْرَ مُعَرَّفٌ بِأَلِ التَّعْرِيفِ فِي الْحَالَتَيْنِ فَهُوَ مُفْرَدٌ . أَمَّا الْيُسْرُ فَنَكِيرَةٌ (بِدَوْنِ أَلِ
التَّعْرِيفِ) ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُ يَتَعَدَّدُ . وَالْعُسْرُ مُحْصُورٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ : فَرَجٌ عاجِلٌ فِي الدُّنْيَا ، أَوْ أَجَرٌ
آجِلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَكُلُّ مُشْكَلَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَهَا حُلُّهَا . وَكُلُّ حُزْنٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْقِبَهُ فَرَحٌ .

ومهما كانت المشكلة كبيرة فلا بد من وجود حل لها، ومهما كانت المصيبة عظيمة ، فهي
سحابة صيف عمَّا قليل ستَنْقَشِعُ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَظْهَرُ صَغِيرًا ثُمَّ يَكْبُرُ ، إِلَّا الْمَصِيبَةُ ، فَإِنَّهَا تَظْهَرُ
كَبِيرَةً ثُمَّ تَصْغُرُ .

وعن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ حُصِرَ بِالشَّامِ ، وَقَدْ تَأَلَّبَ
عَلَيْهِ الْقَوْمُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : ((سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ مَا يَنْزِلُ بَعْدَ مُؤْمِنٍ مِنْ مَنْزِلَةٍ شَدِيدَةٍ ،
إِلَّا يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ بَعْدَهَا فَرَجًا ، وَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ)) (29).

(٢٧) رواه ابن حبان في صحيحه (٨ / ١٧٥) ، وأبو يعلى في مسنده (٢ / ٥٢٢) ، وقال الهيثمي في
المجمع (٨ / ٤٥٥) : ((إسناده حسن)) .

(٢٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٦٤) : ((قال الفراء : العرب إذا ذُكِرَتْ نَكِيرَةٌ ثُمَّ أَعَادَتْهَا
بِنَكِيرَةٍ صَارَتْ اثْنَتَيْنِ ، كَقَوْلِكَ : إِذَا كَسَبْتَ دِرْهَمًا فَأَنْفَقَ دِرْهَمًا ، فَالثَّانِي غَيْرُ الْأَوَّلِ ، وَإِذَا أَعَادَتْهَا مَعْرِفَةً فَهِيَ
كَقَوْلِكَ : إِذَا كَسَبْتَ دِرْهَمًا فَأَنْفَقَ الدَّرْهَمَ ، فَالثَّانِي هُوَ الْأَوَّلُ)) اهـ .

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٢٩) برقم (٣١٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠ / ٩٨) : ((يعني : العُسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب ، وهو يُسر الدنيا ، فأما يُسر الآخرة فكائن لا محالة ، ولن يغلبه شيء)) اهـ .
لقد وعد الله محمداً ﷺ بالرخاء بعد الشدة، فقد كان بمكة في شدة، ويعاني من أذى المشركين الأقوياء الأغنياء ، والنبى ﷺ في حالة ضعف وفقر . فجاءته البشارة الإلهية : لا تحزن يا محمد بسبب ما تلاقيه من أذى المشركين فإن مع العُسر يُسرًا . وقد جاء التكرار لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ، أي : سيأتي الرخاء بعد الشدة ، والفرج بعد الضيق، فلا تحزن يا محمد، وثق بالله فهو ناصرُك ومؤيدُك على أعدائك، وسوف تغلبهم وتقهرهم.

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٧١٢) : [عن ابن مسعود بإسناد جيد من طريق قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ بشر أصحابه بهذه الآية ، فقال : ((لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))].

وقد فتح الله على النبى ﷺ ، وأنجز ما وعده ، فانتقل النبى ﷺ من الضعف إلى القوة ، ومن الفقر إلى الغنى . وإذا سيطر اليقين على القلب، فإن الإنسان سيراتح ، ويتحرر من الهموم والتعب.

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٢١٢) : ((أي : مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين يُسرًا بإظهاره إياك عليهم ، حتى تغلبهم وينقادوا لك طوعًا أو كَرْهًا)) اهـ .
وفي صفوة التفاسير (٢٠ / ٧٥) : ((قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه ، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين ، فوعده الله باليسر ، كما عدّد عليه النعم في أول السورة تسليّة وتأنيسًا له ، لتطيب نفسه ، ويقوى رجاؤه ، وكأن الله تعالى يقول : إن الذي أنعم عليك بهذه النعم الجليّة ، سينصرك عليهم ، ويظهر أمرك ، ويبدّل لك هذا العُسر يُسرًا قريب ، ولذلك كرّره مُبالغةً ، فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾)) اهـ .
وصدق القائل :

إِذَا ضَاقَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ فَفَكِّرْ فِي أَلَمِ نَشْرَحِ
فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ إِذَا ذَكَرْتَهُ فَأَفْرَحِ

وصدق القائل :

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا

مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ لَمْ يَنْلُهُ أَذَى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا

وصدق القائل :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ	وضاق لِمَا بِهِ الصدرُ الرحيبُ
وأوطأت المكاره واطمأنت	وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم ترَ لَانكشافِ الضُرِّ وَجْهًا	ولا أغنى بِحِيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ	يَمُنُّ بِهِ اللطيفُ المُستجيبُ
وَكُلُّ الحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ	فَمَوْصُولٌ بِهَا الفَرْجُ القريبُ

وصدق القائل :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ لَهَا الْفَتَى	دَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا	فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

﴿ فَإِذَا فَرَّغْتَ فَانصَبْ ﴾ . فإذا فرغت يا محمد من دعوة الناس إلى الإسلام ، فتفرغ لعبادة الله خالق الناس ، وإذا فرغت من قضايا الدنيا وأمورها ، فتوجه بالكلية إلى الآخرة . ويمكن القول : إذا فرغت من تبليغ الرسالة أو قتال الأعداء ، فاجتهد في الدعاء ، واتعب في العبادة طلباً لرضا الله ، وشكراً له على نعمه الكثيرة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٦٦ و ١٦٧) : ((قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَّغْتَ فَانصَبْ ﴾

﴿

أي : فأدأب في العمل ، وهو من النَّصَب ، والنَّصَب التعب الدؤوب في العمل . وفي معنى الكلام خمسة أقوال : أحدها فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل، قاله ابن مسعود . والثاني فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، قاله ابن عباس والضحاك ومقاتل . والثالث فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك، قاله مجاهد . والرابع فإذا فرغت من التشهد فادعُ لدنياك وآخرتك، قاله الشعبي والزُّهري . والخامس إذا صحَّ بدنك فاجعل صحتك نصباً في العبادة ، ذكره علي بن أبي طلحة)) اهـ .

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ . اجعل نيتك خالصةً لوجهِ الله تعالى ، وارغب فيما عنده ، وليكن همك محصوراً في الدار الآخرة لا الدنيا الفانية . والمعنى : ارغب إلى الله وحده في كلِّ حالاتك ، وتوجه إليه بالدعاء ، فهو القادر وحده على إنقاذك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٦٧٧ / ٤) : ((إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَشْغَالِهَا، وَقَطَعْتَ عِلَاقَتَهَا، فَاَنْصَبْ إِلَى الْعِبَادَةِ، وَقُمْ إِلَيْهَا نَشِيطًا، فَارْغِ الْبَال، وَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ النَّيَّةَ وَالرَّغْبَةَ)) اهـ .
 وقال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) ﴿ [الْبَيِّنَةُ : ١ - ٤] .
 لقد وَقَفَ أَهْلُ الْكِتَابِ (الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى) مَوْقِفًا سَلْبِيًّا تَجَاهِ الدَّعْوَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، بَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ أَمَامَهُمْ ، وَقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ . فَقَدْ جَاءَهُمُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي عَرَفُوا أَوْصَافَهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَمَعَ هَذَا كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا وَعِنَادًا . فَكَانَ كُفْرُهُمْ كُفْرَ الْعَالَمِ لَا كُفْرَ الْجَاهِلِ ، وَهَذَا أَكْثَرُ سُوءًا .

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . لَمْ يَكُنِ الْكَفَّارُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ (الْعَرَبِ) وَعِبْدَةَ النَّارِ (الْعَجَمِ) مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَمُنْفَصِلِينَ عَنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ الْوَاضِحَةُ وَالْحُجَّةُ السَّاطِعَةُ، وَهِيَ بَعْنَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ (30) .
 جَاءَهُمُ بِالْقُرْآنِ الْمُعْجَزِ الْمُفْهِمِ، وَأَظْهَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَقَّ وَبَيَّنَ جَهْلَهُمْ وَكُفْرَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ .
 وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١٢٩ / ٢٠) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (أَهْلُ الْكِتَابِ) الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَشْرَبُ وَهُمْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ وَبَنُو قَيْنُقَاعَ ، وَالْمُشْرِكُونَ : الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ وَحَوْلَهَا ، وَالْمَدِينَةَ وَالَّذِينَ حَوْلَهَا ، وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ)) اهـ .

وَمَعَ أَنَّ لَفْظَ " الْمُشْرِكِينَ " يُقْصَدُ بِهِ الْعَرَبُ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ ، إِلَّا أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُشْرِكُونَ أَيْضًا ، فَمِنْ الْيَهُودِ مَنْ قَالَ : عَزَّيْزُ ابْنِ اللَّهِ ، وَمِنْ النَّصَارَى مَنْ قَالَ : عِيسَى هُوَ اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ

(٣٠) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢٩ / ٢٠) : ((قِيلَ : الْإِنْتِهَاءُ بُلُوغُ الْغَايَةِ أَيْ لَمْ يَكُونُوا لِيُتْلَعُوا نِهَائَةً أَعْمَارَهُمْ فَيَمُوتُوا حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . فَالْإِنْفِكَاءُ عَلَى هَذَا بِمَعْنَى الْإِنْتِهَاءِ . وَقِيلَ : ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ زَائِلِينَ . أَيْ لَمْ تَكُنْ مُدَّتُهُمْ لِيَنْزُولِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ . وَالْعَرَبُ تَقُولُ : مَا أَنْفَكْتُ أَفْعُلُ كَذَا : أَيْ مَا زِلْتُ، وَمَا أَنْفَكَ فُلَانٌ قَائِمًا : أَيْ مَا زَالَ قَائِمًا . وَأَصْلُ الْفِكَ : الْفَتْحُ، وَمِنْهُ فَكُّ الْكِتَابِ وَفَكُّ الْحُلُحَالِ)) .

قال : هو ابنه ، ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . والنصارى غارقون في عقائد التثليث ، واليهود غارقون في عقائد التشبيه . وكلهم مشركون ، حرّفوا التّوراة والإنجيل ، ورَفَضُوا مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَهُمْ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٩٥) : ((فهذه الآية فيمن آمن من الفريقين . أخبر أنهم لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم الرسول ، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا ، فأنقذهم الله من الجهل والضلالة)) . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٩٦) : ((وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم . وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبيا حتى بُعث فافترقوا . وقال بعضهم : لم يكونوا ليتروكوا مُنْفَكِّينَ عَنْ حُجَجِ اللَّهِ حَتَّى أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةُ ، والوجه هو الأول)) اهـ .

﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ . فَسَّرَ اللَّهُ الْبَيِّنَةُ ، وهي محمد ﷺ رسول الله ، يقرأ صُحُفًا مُنَزَّهَةً عن الباطل والشكوك والشبهات والضلالة . وهذا النبي الأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، إنما يقرأ القرآن عن ظهر قلب ، والنبي ﷺ هو البَيِّنَةُ الواضحة ، والحُجَّةُ الباهرة ، والآية العظمى . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٩٥) : ((ثُمَّ فَسَّرَ الْبَيِّنَةُ يَقُولُهُ : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يعني مُحَمَّدًا ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مُكْتَتَبٌ في المَلَأِ الْأَعْلَى فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ ... قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يَذْكُرُ الْقُرْآنَ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ وَيُشْنِي عَلَيْهِ بِأَحْسَنِ الثَّنَاءِ)) اهـ .

﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴾ . فِي الصُّحُفِ الْمُطَهَّرَةِ كُتِبَ إِلَهِيَّةٌ عَادِلَةٌ وَمُحْكَمَةٌ نَاطِقَةٌ بِالْحَقِّ ، لَا خَطَأَ فِيهَا وَلَا تَنَاقُضَ . وَالْمَقْصُودُ بِالْكِتَابِ الْآيَاتُ وَالْأَحْكَامُ الْمَكْتُوبَةُ فِيهَا . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٩٦) : ((﴿ فِيهَا ﴾ أَي : فِي الصُّحُفِ ﴿ كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴾ أَي : عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ تُبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَهِيَ الْآيَاتُ . قَالَ مُقَاتِلٌ : وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا : كُتِبَ ، لِمَا جَمَعَتْ مِنْ أُمُورٍ شَتَّى)) .

وَفِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٢٠ / ٨٦) : ((قَالَ الصَّاوِي : الْمُرَادُ بِالصُّحُفِ الْقِرَاطِيسُ الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا الْقُرْآنُ ، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ الْأَحْكَامُ الْمَكْتُوبَةُ فِيهَا ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴾ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَمَعَ ثَمَرَةَ كُتُبِ اللَّهِ الْمُتَقَدِّمَةِ)) اهـ .

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ . كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مُتَّفَقِينَ عَلَى ظُهُورِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، لِأَنَّ وَصْفَهُ ثَابِتٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ آمَنَ بِهِ بَعْضُهُمْ ، وَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ

نُبُوتَهُ . وَكُفْرُهُمْ يَنْطَلِقُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالْعِنَادِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ وَحُبِّ الرِّئَاسَةِ وَالرَّعَامَةِ وَطَلَبِ الدُّنْيَا . وَالْكَفْرُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْعِلْمِ أَسْوَأُ مِنَ الْكَفْرِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْجَهْلِ . وَأَهْلُ الْكِتَابِ (الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى) لَدَيْهِمُ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَهُنَاكَ عُلَمَاءُ كِبَارَ بَيْنَهُمْ ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْعُلُومُ الدِّينِيَّةُ وَالْمَعَارِفُ ، بِعَكْسِ الْعَرَبِ عِبَادِ الْأَصْنَامِ الْجَهْلِ النَّائِثِينَ فِي الصَّحَارِيِّ بِلا عِلْمٍ وَلَا كُتُبٍ دِينِيَّةٍ . لِذَلِكَ خُصَّ أَهْلُ الْكِتَابِ بِالذِّكْرِ لِتَوْبِيخِهِمْ وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ وَقَضْحِهِمْ ، لِأَنَّ كُفْرَهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ، وَلَمْ يَكُونُوا جُهَّالًا كَالْعَرَبِ الْوَثْنِيِّينَ . لَقَدْ اتَّضَحَ الْحَقُّ أَمَامَهُمْ ، وَظَهَرَ الصَّوَابُ ، وَأُقِيمَتِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَانْقَطَعَتِ أَعْدَارُهُمْ . وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا اخْتَارُوا الْكُفْرَ . وَإِذَا تَفَرَّقُوا وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، فَغَيَّرَهُمْ مِمَّنْ لَا كِتَابَ لَهُ تَابِعٌ لَهُمْ ، وَأَوَّلَى بِالْتَّفَرُّقِ وَالْاِخْتِلَافِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٦٩٥) : ((يَعْنِي بِذَلِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلَةَ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا بَعْدَ مَا أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ ، تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِي الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِمْ ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) اهـ . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥١٦) : ((﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ ، بَأَن آمَنَ بَعْضُهُمْ ، أَوْ تَرَدَّدَ فِي دِينِهِ ، أَوْ عَن وَعْدِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ ﴾ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ ... وَإِفْرَادِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شَنَاةِ حَالِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَمَّا تَفَرَّقُوا مَعَ عِلْمِهِمْ ، كَانَ غَيْرُهُمْ بِذَلِكَ أَوْلَى)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٩ / ١٩٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يَعْنِي : مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ ﴾ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا مُحَمَّدٌ ﷺ . وَالْمَعْنَى : لَمْ يَزَالُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ حَتَّى بُعِثَ ، قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ . وَالثَّانِي : الْقُرْآنُ قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ . وَالثَّلَاثُ : مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ بَيَانِ نُبُوتِهِ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ . وَقَالَ الرَّجَّاجُ : وَمَا تَفَرَّقُوا فِي كُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ تَبَيَّنُوا أَنَّهُ الَّذِي وَعَدُوا بِهِ فِي كُتُبِهِمْ)) اهـ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى ذَمِّ الْاِخْتِلَافِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي جَمَاعِ الْعِلْمِ (١ / ٦٩) : ((فَإِنَّمَا رَأَيْتُ اللَّهَ ذَمَّ الْاِخْتِلَافَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ)) اهـ .

وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى _ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ)) ، قَالَ : فَقَرَأَ عَلَيَّ : ((﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ

(٣) وما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) ﴿٤﴾، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْحَنِيفَةُ غَيْرُ الْمُشْرِكَةِ وَلَا الْيَهُودِيَّةِ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَنْ يَفْعَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ ((⁽³¹⁾).

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ : قال النبي ﷺ لأبي : ((إن الله يأمرني أن أقرأ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ . قال : وَسَمَّانِي ؟ ، قال : ((نعم)) . فبكى ⁽³²⁾ .

لقد أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقرأ السُّورَةَ التي تبدأ بِالآيَةِ : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ على أبي بن كعب _ رضي الله عنه _ . وهذه فضيلةٌ عَظْمَى لهذا الصحابي ، وتدل على رُسُوحِهِ فِي الْعِلْمِ وَتَمَكُّنِهِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِأَحْكَامِهِ . وقد بكى مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ، أَوْ أَنَّهُ بَكَى خَوْفًا مِنْ تَقْصِيرِهِ فِي شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْجَلِيلَةِ .

وقال الحافظ في الفتح (١٢٧ / ٧) : ((وَسَمَّانِي ؟ . أَي هَلْ نَصَّ عَلَيَّ بِاسْمِي ؟ ، أَوْ قَالَ : اقْرَأْ عَلَيَّ وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِكَ فَاخْتَرْتَنِي أَنْتَ ؟ ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ : " نَعَمْ " ، بَكَى ، إِمَّا فَرَحًا وَسُرُورًا بِذَلِكَ ، وَإِمَّا خُشُوعًا وَخَوْفًا مِنْ التَّقْصِيرِ فِي شُكْرِ تِلْكَ النِّعْمَةِ)) اهـ .

وهذا الحديث يدل على أَنَّ مِنَ الْفِقْهِ قِرَاءَةُ الْعَالِمِ عَلَى الْمُتَعَلِّمِ ، وَهَذَا يَنْشُرُ قِيَمَةَ التَّوَاضُعِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلَا يَتَرَفَّعُ أَحَدٌ عَنِ التَّعَلُّمِ وَالْقِرَاءَةِ عَلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْمَكَانَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِ الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَيُقَوِّي مُسْتَوَاهِمُ الْفِكْرِيِّ ، وَيُحَسِّنُ أَدَاءَهُمْ ، وَيُطَوِّرُ قُدْرَاتِهِمْ وَمَلَكَاتِهِمْ ⁽³³⁾ .

(٣١) رواه أحمد في مسنده (١٣٢ / ٥) ، والحاكم في المستدرک (٥٧٩ / ٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٢) متفق عليه . البخاري (١٣٨٥ / ٣) برقم (٣٥٩٨) ، ومسلم (٥٥٠ / ١) برقم (٧٩٩) .

(٣٣) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢١ / ١٦) : ((وَأَمَّا تَخْصِصُ هَذِهِ السُّورَةِ بِالْقِرَاءَةِ فَلَأَنَّهَا مَعَ وَجَازَتِهَا جَامِعَةٌ لِأَصُولٍ وَقَوَاعِدٍ وَمُهِّمَّاتٍ عَظِيمَةٍ ، وَكَانَ الْحَالُ يَقْتَضِي الْإِخْتِصَارَ ، وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فِي أَمْرِهِ بِالْقِرَاءَةِ عَلَى أَبِي . قَالَ الْمَازَرِيُّ وَالْقَاضِي : هِيَ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَبِي أَلْفَظَهُ ، وَصِغَةَ أَدَائِهِ ، وَمَوَاضِعَ الْوُقُوفِ وَصُنْعَ النَّعَمِ فِي نِعَمَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى أَسْلُوبِ أَلْفِهِ الشَّرْعُ وَقَدْرِهِ ، بِخِلَافِ مَا سِوَاهُ مِنَ النِّعَمِ الْمُسْتَعْمَلِ فِي غَيْرِهِ ، وَلِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ النِّعَمِ مَخْصُوصٌ فِي النِّفَوسِ ، فَكَانَتِ الْقِرَاءَةُ عَلَيْهِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ . وَقِيلَ : قَرَأَ عَلَيْهِ لِيَسْتَنْ عَرَضَ الْقُرْآنِ عَلَى حِفْظِهِ الْبَارِعِينَ فِيهِ ، الْمُجِيدِينَ لِأَدَائِهِ ، وَلِيَسْتَنْ التَّوَاضُعَ فِي أَخْذِ الْإِنْسَانِ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي النَّسَبِ وَالدِّينِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَرْتَبَةِ وَالشُّهُرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَلِيُنَبِّهَ النَّاسَ عَلَى فَضِيلَةِ أَبِي فِي ذَلِكَ ، وَيَحْتَثُّهُمْ عَلَى الْأَخْذِ مِنْهُ ، وَكَانَ كَذَلِكَ ، فَكَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَأْسًا وَإِمَامًا مَقْصُودًا فِي ذَلِكَ مَشْهُورًا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

الفصل الثالث

الوحي

تمهيد

الوَحْيُ _ لُغَةً _ هو الإعلامُ في خفاء . واصطلاحًا : إعلامُ الله إلى نبيِّه بكتاب ، أو بإرسال ملك ، أو بِمَنام ، أو إلهام ، أو بلا واسطة .

والوَحْيُ الإلهيُّ يُثَبِّتُ النبيَّ ، ويُقَوِّي عزمته في مواجهة أعداء الحق الكثيرين . وهؤلاء الأعداء ينطلقون من موقف مسبق ، يرفض الإسلام (دين كُلِّ الأنبياء) ، ولا يبحثون عن الحق ، وإنما يسعون جاهدين إلى التشويش على مسار الدَّعوة الإسلامية ، على أمل إطفاء نور الإسلام ، واجتثاثه من الصدور ، ومن الواقع . وهم بذلك كمن يحاول إطفاء الشمس بنفخة .

وعندما يؤيِّد الوَحْيُ الإلهيُّ النبيَّ ، ويُخبره بالأمر الغيبية ، فهذا دليل باهر على صدِّقه وصحَّة نبوته ، لأنَّ النبيَّ لم يكن حاضرًا مع الأمم السابقة ، ولم يكن مُطلِّعًا على أحوالها وأسرارها وتفاصيل حياتها ، وعندما يُخبر بهذه الأمور ، فهذا دليل على أنَّه لم يَجِئ بشيء من عنده ، وإنما هو وَحْيٌ إلهيٌّ . لذلك نقول إنَّ علومَ النبيِّ ومعارفه مصدرها سماويٌّ لا أرضيٌّ .

والوَحْيُ ليس بدعةً أو أمرًا غريبًا . فالله تعالى قد أوحى إلى الأنبياء السابقين ، وكُلُّهم سائرون وفقَّ منهاج الإلهيِّ واحد ، دينهم واحد وهو الإسلام ، وشرائعهم مختلفة بسبب اختلاف طبيعة الناس والزمان والمكان . إذن ، فالوَحْيُ ليس غريبًا عن الحضارة الإنسانية ، إنَّه صانع الحضارة الإنسانية ، وليس أمرًا ضيِّد العقل البشريِّ ، فالمفروض أنَّ الناس قد اعتادوا على مجيء الوَحْيِ الإلهيِّ إلى الأنبياء منذ بدء الخليقة ، فالأمر لا غرابة فيه ، ولا يدعو إلى الدهول أو الدهشة .

والذين يطعنون في الوَحْيِ الإلهيِّ ، إنما ينطلقون من أهوائهم الشخصية بلا دليل نقلي ولا حجة عقلية . لذلك يلقون التُّهم الجاهزة (سحر ، شعر ، كهانة ، جنون) مُحاولين طمس الحقيقة بأقوال لا دليل عليها . وهم عاجزون عن مُقارعة الحجة بالحجة . وهذه التُّهم الجاهزة تدل على انهيار مستواهم العلميِّ . ولَوْ كانوا صادقين في كلامهم ، لَنَاقَشُوا الأنبياء مُناقشةً علميةً ، وأفحموهم ، وأقاموا عليهم الحجة . لكنَّ هذا لم يحدث . وفي هذا إشارة واضحة إلى أنَّهم يتبعون أهواءهم بغير علم . وإلقاء التُّهم سهَّل ، والكذب سهَّل جدًا . لكنَّ العبرة تكمن في مُناقشة الأدلة ، ومُقارعة الحجة بالحجة . والوَحْيُ الإلهيُّ إنما جاء لإنقاذ البشرية . ولم يكن مشروعًا شخصيًّا للنبيِّ لِيَسْطِ نفوذه على الأتباع واستغلالهم . لقد جاء النبيُّ بالوَحْيِ لعبادة الله وَحْدَهُ ، وليس لعبادة نفسه أو تحقيق مصالح شخصية ، وهذا دليل واضح على صدِّق النبيِّ وصحَّة رسالته ، وعظَمَةِ المرسلِ سبحانه .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٨] ^(١).

اختلف العلماء في المقصود بالذين لا يعلمون . ففي تفسير القرطبي (٢ / ٨٩) : ((قال ابن عباس : هم اليهود . وقال مجاهد : النصارى ، ورجحه الطبري ، لأنهم المذكورون في الآية أولاً . وقال الربيع والسدي وقتادة : مشركو العرب)) اهـ .

لقد أرادوا أن يكلمهم الله تعالى ، فيُخبرهم أن القرآن كلامه ، وأن محمداً رسوله ، أو أن يأتي النبي ﷺ بعلامة دالة على صدقه وصحة نبوته . وهذا الطلب إنما هو بدافع الاستكبار والعناد والتعجيز والسخرية وإضاعة الوقت ، وفق تفكيرهم القاصر . وقد وصفهم الله بعدم العلم لأنهم يجهلون التوحيد والنبوة ، أو لأنهم لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا كالجبال الذين لم يعلموا أصلاً .

والجدير بالذكر أن الله تعالى لا يكلم إلا الأنبياء والملائكة ، ولا يكلم أعداءه الكفار ، فهذا شرف لا يستحقونه ، ولا يؤيدهم بالمعجزات الداعمة لكفرهم وكذبهم ، وإنما يؤيد أنبياءه بالمعجزات الداعمة لصدقهم . لقد جاءهم النبي ﷺ بالمعجزات ، وعلى رأسها معجزة القرآن الذي تحداهم أن يأتوا بمثله ، فعجزوا . وبما أن محمداً ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ، إذن ، فالقرآن ليس من عنده ، بل من عند الله تعالى . إن مصدّر القرآن سماوي لا أرضي ، لذلك لا يستطيع الإنسان والجن أن يأتوا بمثله ، وكل شخص يحاول أن يتحدى القرآن محكوم بالفشل ، وسوف يسخر الناس منه ، ويفضح نفسه بنفسه . والوقائع التاريخية شاهدة على هذا الكلام ، إذ إن كل الذين حاولوا معارضة القرآن سقطوا في الفشل ، وصاروا مثاراً للسخرية والاستهزاء ، والناس يضحكون عليهم ، ويوردون كلامهم على سبيل التندر والاستهزاء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٢) : ((﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلة المشركين أو المتجاهلون من أهل الكتاب ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ هاءاً يكلمنا الله كما يكلم الملائكة ، أو

(١) في تفسير ابن كثير (١ / ٢٢٣) : ((قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رافع بن خزيمة _ أحد أئمة اليهود _ لرسول الله ﷺ : يا محمد ، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾)) .

يُوحِي إِلَيْنَا بِأَنَّكَ رَسُولُهُ ﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ حُجَّةٌ عَلَى صِدْقِكَ . والأول استكبار ، والثاني جُحود)) اهـ .

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ . إذا قُلْنَا إِنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ هُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وإذا قُلْنَا إِنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، فَإِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ . وإذا قُلْنَا إِنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ هُمْ النَّصَارَى ، فَإِنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ الْيَهُودُ .

﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . كُلُّهُمْ سَآئِرُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالِ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ . أَقْوَالُهُمْ مُتَشَابِهَةٌ ، لِأَنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ قُلُوبٍ نَجَسَتْ وَمُتَشَابِهَةٌ . وَلَا يُمْكِنُ لِلْأَقْوَالِ أَنْ تَتَشَابَهَ إِلَّا إِذَا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ . وَالْكُفْرُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ ، وَالْكَفَّارُ يُقْلِدُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَنْسَخُونَ كَلَامَ بَعْضِهِمْ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ ، وَيَسْرِقُونَ أَفْكَارَ بَعْضِهِمْ كَيْ يَظْهَرُوا فِي صُورَةِ الْمُتَقَفِّينَ وَالْعُلَمَاءِ وَقَادَةِ الْفِكْرِ التَّنْوِيرِيِّ . لَقَدْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فِي اتِّفَاقِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ ، كُلُّهُمْ يَعْتَنِقُونَ الْعِنَادَ وَالْوَقَاحَةَ وَالتَّبَجُّحَ وَطَلَبَ الْمُحَالِ ، وَلَا يَحْتَشِرُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا يُنَاقِشُونَ الْأَفْكَارَ ، وَلَا يُقَارِعُونَ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ . وَالْكُفْرُ عِنَادٌ . وَفِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَخْفِيفٌ عَنْهُ ، وَتَثْبِيتٌ لَهُ ، وَرَفْعٌ لِمَعْنَوِيَّاتِهِ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٩٢) : ((﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قُلُوبٌ هَؤُلَاءِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْعَمَى وَالْعِنَادِ)) اهـ .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . لَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْحَقَّ ، وَوَضَّحَ الْأَدْلَةَ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ ، وَأَقَامَ عَلَى النَّاسِ الْحُجَّةَ ، وَقَطَعَ أَعْذَارَهُمْ ، وَلَا مَعْنَى لَطَلَبِ أَسْئَلَةٍ أُخْرَى ، لِأَنَّ الْأُمُورَ قَدْ تَمَّتْ ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ . وَلَا عُذْرَ لِلْكَافِرِينَ فِي كُفْرِهِمْ لِأَنَّ الْحَقَّ ظَاهِرٌ أَمَامَهُمْ . أَمَّا الْعِنَادُ فَيَحْجِبُ نُورَ الْإِيمَانِ . وَالْآيَاتُ ظَاهِرَةٌ لِلْحَرِيصِينَ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَلَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمُ الذَّاتِيَّةَ ، وَلَا يَرْكُضُونَ وَرَاءَ مَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ . هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُوقِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَيُصَدِّقُونَ كَلَامَهُ ، وَيَسْتَفْعُونَ بِأَحْكَامِهِ . وَقُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ عَامِرَةٌ بِالْيَقِينِ ، يَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ آيَاتِ اللَّهِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَيَخْضَعُونَ لَهَا ، وَلَا يَطْلُبُونَ آيَاتٍ أُخْرَى ، لِأَنَّ هَذَا تَعَنُّتٌ وَعِنَادٌ وَإِضَاعَةٌ لِلْوَقْتِ .

وقال النعالي في تفسيره (١ / ١٠٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ قَرِينَةٌ تَقْتَضِي أَنَّ الْيَقِينَ صِفَةٌ لِعِلْمِهِمْ ، وَقَرِينَةٌ أُخْرَى أَنَّ الْكَلَامَ مَدْحٌ لَهُمْ)) اهـ .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٢٨) : ((مَنْ أَيْقَنَ وَطَلَّبَ الْحَقَّ ، فَقَدْ أَتَتْهُ الْآيَاتُ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ بُرْهَانٌ شَافٍ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٢) : ((﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : يطلبون اليقين ، أو يُوقِنُونَ الحقائق ، لا يعترِبُهُمْ شُبْهَةٌ وَلَا عِنَادٌ . وفيه إشارة إلى أنهم _أي الكفار_ ما قالوا ذلك لِخَفَاءٍ فِي الْآيَاتِ ، أو لطلب مزيد اليقين ، وإنما قالوه عُنْتًا وَعِنَادًا)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَىٰ أُولَٰئِكَ الْأَقْلَامُ مِنْهُمْ ﴾
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

أَيَّدَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِذِكْرِ قِصَصِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ ، قِصَّةُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ وَابْنَتِهَا مَرْيَمَ ، وَقِصَّةُ زَكَرِيَّا وَابْنِهِ يَحْيَى _ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . وَهَذِهِ الْقِصَصُ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ ، حَيْثُ حَدَّثَتْ فِي الْمَاضِي ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أُمِّي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَا عَلِمَ لَهُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مُحَاوَرَةَ الْعُلَمَاءِ . فَكَيْفَ عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَفَاصِيلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ ؟ . هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ مَصْدَرَ الْقُرْآنِ هُوَ السَّمَاءُ ، وَأَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ إلهِيٌّ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ .

لَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَفَاصِيلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوءَتِهِ ، وَحُجَّةً عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ (الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ التَّفَاصِيلِ الْغَيْبِيَّةِ إِلَّا بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَبِالتَّالِي ، لَا عُذْرَ لَهُمْ فِي تَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ .
وَالْغَيْبُ كُلُّ مَا غَابَ عَنِ الْإِنْسَانِ ، وَالْوَحْيُ كُلُّ شَيْءٍ ذَلَّلَتْ بِهِ مِنْ كَلَامٍ أَوْ كِتَابٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ رِسَالَةٍ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٢٦٥) : ((وَيَعْنِي بِـ ﴿ الْغَيْبِ ﴾ أَنَّهَا مِنْ خَفِيِّ أَخْبَارِ الْقَوْمِ الَّتِي لَمْ تَطَّلِعْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَيْهَا وَلَا قَوْمُكَ ، وَلَمْ يَعْلَمْهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَجْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ وَرُهْبَانِهِمْ)) اهـ .

لَقَدْ أَجْرُوا الْقُرْعَةَ بَيْنَهُمْ أَيُّهُمْ يَقُومُ بِحِضَانَةِ مَرْيَمَ وَرِعَايَتِهَا ، أَي : يَضُمُّهَا إِلَى نَفْسِهِ وَيُرَبِّيُّهَا . وَقَدْ اخْتَصَمُوا فِي الْأَمْرِ ، أَي تَنَافَسُوا فِي شَأْنِهَا رَغْبَةً فِي الْأَجْرِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٨٢) : ((أَي : مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدُ فَتُخْبِرُهُمْ عَنْهُمْ مُعَايَنَةً عَمَّا جَرَى ، بَلْ أَطْلَعَكَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ كَأَنَّكَ حَاضِرٌ وَشَاهِدٌ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ ، أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا ، وَذَلِكَ لِرَغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ)) اهـ .
وَالْوَحْيُ _ لُغَةً _ هُوَ الْإِعْلَامُ فِي خَفَاءٍ .

وفي تفسير القرطبي (٤ / ٨٦) : ((قال ابن فارس : الْوَحْيُ الإِشَارَةُ وَالْكِتَابَةُ وَالرَّسَالَةُ ، وَكُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ حَتَّى يَعْلَمَهُ وَحْيِي كَيْفَ كَانَ)) اهـ .

﴿ وما كُنْتُ لَدَيْهِمْ ﴾ . يعني: وما كُنْتُ حَاضِرًا مَعَهُمْ يا مُحَمَّد . وهذا الأمر معروف للجميع ، فقد جاء النَّبِيُّ ﷺ بعدهم بِقُرُونٍ . لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى قَضِيَّةٍ هَامَّةٍ ، وَهِيَ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَحْضُرْ مَعَهُمْ ، وَلَمْ يُشَاهِدْهُمْ ، فَكَيْفَ عَرَفَ بِالْمَوْضُوعِ ؟ . إِنَّهُ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ لَا غَيْرَ

وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ حَاضِرًا مَعَهُمْ لَقَالُوا إِنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا وَشَاهَدَ الْقِصَّةَ بِأَمِّ عَيْنَيْهِ . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ لَقَالُوا إِنَّهُ قَرَأَ الْقِصَّةَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ لَقَالُوا إِنَّهُ تَعَلَّمَ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَسَمِعَ بِهَا مِنْهُمْ . وَبِمَا أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ مَرْفُوضَةٌ . إِذَنْ ، إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ ، لَا مَجَالَ لِمَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ حَسَدًا وَعِنَادًا وَحُبًّا لِلدُّنْيَا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٨٨) : ((وفي الأقلام ثلاثة أقوال : أحدها أنها التي يُكْتَبُ بِهَا ، قاله ابن عباس وابن جُبَيْر والسُّدِّي . والثاني أنها الْعِصْيُ ، قاله الربيع بن أنس ، والثالث أنها الْقِدَاحُ ، وهو اختيار ابن قُتَيْبَةَ . وكذلك قال الرَّجَاجُ هِيَ قِدَاحٌ جَعَلُوا عَلَيْهَا عِلَامَاتٍ يَعْرِفُونَهَا عَلَى جِهَةِ الْقُرْعَةِ . وَإِنَّمَا قِيلَ لِلْسُّهْمِ الْقَلَمُ لِأَنَّهُ يُقْلَمُ أَي يُبْرَى ، وَكُلُّ مَا قَطَعَتْ مِنْهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَقَدْ قَلَّمْتُهُ ، وَمِنْهُ الْقَلَمُ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ ، لِأَنَّهُ قُلِّمَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَمِنْهُ قَلَّمْتُ أَظْفَارِي)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣] .
لقد أنزلَ اللَّهُ الْوَحْيَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا أَنْزَلَ الْوَحْيَ عَلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَهُ .
فليس في الأمر غَرَابَةٌ وَلَا هُوَ بَدْعَةٌ . فلا داعي للدهشة أو الذهول أو التشكيك . والأنبياءُ جَمِيعًا دينهم واحد وهو الإسلام ، وشرائعهم مُخْتَلِفَةٌ لِإِخْتِلَافِ طِبَائِعِ النَّاسِ ، وإِخْتِلَافِ طَبِيعَةِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ اخْتَارَ عِبْرَ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ أَنْبِيَاءَ ، لِحَمْلِ رِسَالَةِ السَّمَاءِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَأَيَّدَهُم بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ فِي كُلِّ الْأُمَمِ ، وَلَا يَدْعُو لِلْعَجَبِ أَوْ الْغَرَابَةِ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ سَائِرُ عَلَى خُطَى الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ قَدَّمَ اللَّهُ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ عَلَى نُوحٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَعَ أَنَّ نُوحًا لَهُ الْأَسْبَقِيَّةُ الزَّمَنِيَّةُ ، وَذَلِكَ لِفَضْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَفَوُّقِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ . وَخُصَّ نُوحٌ ﷺ

بالذكر لأنه أول نبي جاء بالشرائع ، وقيل غير ذلك . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢ / ٢٥٥) :
 ((وإنما بُدئَ بِذِكْرِ نُوحٍ لأنه أبو البشر ، وأول نبي شَرَعَ اللهُ تعالى على لسانه الشرائع والاحكام ،
 وأول نبي عُدَّتْ أُمَّتُهُ لِرَدِّهِمْ دَعْوَتَهُ ، وقد أَهْلَكَ اللهُ بدعائه أهل الأرض)) اهـ .
 وسبب نزول الآية هُوَ نَفْيُ بعض أخبار اليهود أن يَكُونَ اللهُ قَدْ أَنْزَلَ كِتَابًا بعد مُوسَى ﷺ ،
 فَكَذَّبَهُمُ اللهُ تعالى ، وَفَضَحَ باطلهم . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٥٤) : ((قال ابن
 عباس : قال عَدِيُّ بن زَيْد وسُكَيْن : يا محمد ، ما نَعْلَمُ اللهُ أَنْزَلَ على بَشَرٍ مِن شَيْءٍ بعد موسى ،
 فَنَزَلَتْ هذه الآية)) اهـ .

وأمرُ محمد ﷺ كأمرِ سائر الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فلا مَعْنَى أن تَطْلُبُوا مِنْهُ ما لَمْ
 يَطْلُبْهُ الَّذِينَ عَاصَرُوا الرُّسُلَ السَّابِقِينَ _ عليهم الصلاة والسلام _ .
 وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٢٨٠) : ((﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
 مِنْ بَعْدِهِ ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، واحتجاج عليهم
 بأنَّ أَمْرَهُ فِي الْوَحْيِ كَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ _ عليهم الصلاة والسلام _)) اهـ .
 وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] (2).

يَنْطَلِقُ الْكَافِرُونَ مِنْ مَوْقِفٍ مُسَبِّقٍ رَافِضٍ لِلْإِيمَانِ ، وَسَوَاءٌ جَاءَتْ الْمُعْجِزَاتُ أَمْ لَمْ تَجِئْ ،
 لِأَنَّهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ ، سَيَرَفُضُّونَ الْإِيمَانَ . فَهُمْ لَا يَبْحَثُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَغَيْرَ مَعْنِينِ بِالرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ .
 لَوْ نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ كِتَابًا مَكْتُوبًا عَلَى وَرَقٍ كَمَا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ ، فَرَأَوْهُ بِأَمِّ أَعْيُنِهِمْ ،
 وَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ، لَيَتَأَكَّدُوا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَشْكُونُ بِالْأَمْرِ ، أَيِ إِنَّهُمْ أَذْرَكُوهُ بِحَاسَةِ الْبَصَرِ وَحَاسَةِ
 اللمس ، لَقَالُوا الْكَافِرُونَ عِنْدَ رُؤْيَا هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الْكُبْرَى عِنَادًا : مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٦١) : ((المعنى : وَلَوْ نَزَّلْنَا يَا مُحَمَّدُ بِمَرَأَى مِنْهُمْ كَمَا زَعَمُوا وَطَلَبُوا
 كَلَامًا مَكْتُوبًا فِي قِرْطَاسٍ . وعن ابن عباس : كِتَابًا مُعَلَّقًا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَهَذَا يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ التَّنْزِيلَ
 عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا _ عَلَى مَعْنَى نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِمَعْنَى نَزَلَ الْمَلَكُ بِهِ ، وَالْآخَرُ وَلَوْ نَزَّلْنَا كِتَابًا فِي
 قِرْطَاسٍ يُمَسِّكُهُ اللهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَقَالَ : ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ عَلَى الْمُبَالَغَةِ بِطُولِ مُكْثِ الْكِتَابِ بَيْنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . وَالْكِتَابُ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْكِتَابَةِ ، فَبَيَّنَ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي قِرْطَاسٍ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْقُولٍ كِتَابَةً إِلَّا
 فِي قِرْطَاسٍ ، أَيِ فِي صَحِيفَةٍ ، وَالْقِرْطَاسُ الصَّحِيفَةُ)) اهـ .

وهذا يُشير إلى أنهم لَن يُؤمنوا وَلَوْ جاءَ تهم كُلُّ الآياتِ الباهرة والمُعْجَرات الواضحة، لأنَّهم يَعتنقون رفض الإيمانِ ديناً لهم ، ويغرقون في العناد والاستكبار والتَّعَتُّ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٢٩) : ((معناه : لا يَنفَع مَعَهُمْ شَيْءٌ لِمَا سَبَقَ فِيهِمْ مِنْ عِلْمِي)) اهـ .

وفي الآية ، تَضَحُّ مُكابرتهم للمحسوسات ، وقَسوة قلوبهم ، وعنادهم الشديد ، وصلابتهم في الكُفْر . وإذا كان هذا هو حالهم مَعَ الشَّيْء الذي رَأَوْهُ وَلَمَسُوهُ (المرئي المحسوس) ، وكفروا به ، فكَيْفَ يُؤمنون بالوَحْي الذي يَنْزِلُ بِهِ المَلَك الذي لا يَرُونَهُ ولا يَلْمسونَهُ !! .

إنهم يَرفضون الآيةَ الباهرة، ويدفعون الدليل ، وَلَوْ رَأَوْا الكتاب يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاء لقالوا: سحر . لقد ذَكَرَ اللهُ اللَّمْسَ ، فقالَ : ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُعَانِيَةَ وَالنَّظَرَ ، والحِكمة من ذلك أن يَزُولَ عنهم الشَّك ، وَيُوقِنُوا بالأمر ، وَيَتَأَكَّدُوا مِنْهُ ، لأنَّ اللَّمْسَ أَقْوَى مِنَ البَصَرِ في الإدراكِ والعِلْمِ ، والسَّحَرُ (خِداع بصري) يُؤَثِّرُ على حاسةِ البصر ، ولا يُؤَثِّرُ على حاسةِ اللَّمْسِ . فالسَّحَرُ يَجْري على المرئيِّ ، ولا يَجْري على الملموس . وَقَدْ يَحْدُثُ خِداعُ بصريٍّ ، ولكنَّ مِنَ المستحيلِ خُذُوعُ خِداعٍ لَمَسِيٍّ . والشَّكُّ قَدْ يُصِيبُ حاسةَ البصر ، لكنَّهُ لا يُصِيبُ حاسةَ اللَّمْسِ . وعلى سبيلِ المثال ، إِنَّ الأعمى لا يَسْتَطِيعُ الإدراكَ بحاسةِ البصر ، لكنَّهُ يَسْتَطِيعُ الإدراكَ بحاسةِ اللَّمْسِ ، وهي أَقْوَى من حاسةِ البصر . وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، حيث أَغْلَقَ الطَّرِيقَ على الكافرين لئلا يَقولوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا . وَحَتَّى لَوْ سُكِّرَتْ أَبْصَارُهُمْ ، يَسْتَطِيعُونَ الإدراكَ بحاسةِ اللَّمْسِ ، وَمَعَ هذا فَهُم يَرفضون الإيمان ، ويعتقدون الكُفْرَ ديناً .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ١٥٠) : ((وهذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى ذَكَرَهُ نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ عن هؤلاء القوم الذين يَعدِّلُونُ ربَّهم الأوثان والآلهة والأصنام . يقول تعالى ذِكْرُهُ : وكيف يَتَفَقَهُونَ الآياتَ أم كيف يَسْتَدِلُّونَ على بُطْلانِ ما هُم عليه مُقيمون من الكفر بالله وجُحودِ نُبُوتِكَ بِحُجَجِ اللهِ وآياته وأدلته وَهُمْ لعنادهم الحقَّ وبُعدهم مِنَ الرُّشْد ، لَوْ أنزلْتُ عليك يا محمد الوَحْيَ الذي أنزلته عليك مع رسولي في قِرطاس يُعَينُونَهُ وَيَمَسُّونَهُ بِأَيْدِيهِمْ ، وينظرون إليه ويقرؤونه منه مُعلِّقًا بين السماء والأرض بحقيقة ما تدعوهم إليه ، وَصِحَّة ما تأتيهم بِهِ مِنْ توحيدِي وتنزيلِي ، لقال الذين يَعدِّلُونُ بي غَيْرِي فَيُشْرِكُونَ في توحيدِي سِوَاي : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِين ﴾ ، أي : ما هذا الذي جئنا به إِلَّا سِحْرٌ سَحَرَتْ بِهِ أَعْيُنُنَا ، ليست لَهُ حَقِيقَةٌ ولا صِحَّةٌ ﴾ مُبِين ﴾ يقول : مُبِين لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وتأَمَّلَهُ أَنَّهُ سِحْرٌ لا حَقِيقَةٌ لَهُ)) اهـ . أمَّا سبب نزول الآية ، فقالَ ابنُ الجوزي في زاد المسير (٣ / ٧) : ((سبب نزولها أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّة قالوا : يا محمد ، والله لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بكتاب من

عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون أنه من عند الله ، وأنتك رسولُه ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب ... فأما قوله تعالى: ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ فهو تأكيد لنزوله. وقيل : إنما علَّقه باللمس باليد إبعاداً له عن السحر ، لأنَّ السَّحْرَ يُتَخَيَّلُ في المرئيات دُون الملموسات ، ومعنى الآية إنهم يدفعون الصحيح)) اهـ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قوله تعالى : _ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ ، قال: ((مَسُوهُ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ ، لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ)) (3). وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨] .

يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن عناد المشركين وجَهْلِهِمْ ، فقد اقترحوا _ بكل جحود _ إنزال مَلَكٍ على النبي ﷺ ليكون معه نذيرًا ومُسانِدًا . وهذا ممَّا يتذرَّع به المشركون ، حيث يخترعون الأشياء من نبات أفكارهم بسبب عجزهم عن مقارعة الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ . فينتهجون هذا الأسلوب العقيم الذي يُنبئ عن جهل وعناد وفكرة مسبقة رافضة للإيمان مهما حصل من مُعْجِزَاتٍ . لذلك تراهم يبحثون عن أمور غير منطقية ، ويحاولون إلباسها ثوب المنطق ومُقَارَعَةِ الدليل بالدليل . لكنَّ الرَّدَّ الإلهيَّ لم يتأخر في دَخْضِ باطلهم ، فلو أنزلَ مَلَكٌ لَمَا أَطَاقُوا رُؤْيَاهُ لِعَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، أو أن العذاب سيأتيهم عاجلاً بلا تأخر ، وعندئذ لا يُمَهِّلُونَ ، ولا يُمَنِّحُونَ فرصة للتوبة . ومُفَاجَأَةُ العذابِ أَشَدُّ مِنْ نَفْسِ العذاب . وغُنْصَرُ المفاجأة _ دائماً _ قاتل . وهنا تتجلى الرَّحْمَةُ الإلهيَّة التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الكافرين .

وفي زاد المسير (٨ / ٣) : ((قال مُقَاتِلٌ : نزلت _ أي الآية _ في النَّضْرِ بن الحارث وعبد الله ابن أبي أُمَيَّة وَتَوْفَل بن خُوَيْلِد . ولولا بمعنى هَلَا أنزل عليه مَلَكٌ نَصَدَّقَهُ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا فَعَايَنُوهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا لَقُضِيَ الْأَمْرُ . وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المعنى لَمَاتُوا ولم يُؤَخَّرُوا طَرْفَةَ عَيْنٍ لِتَوْبَةٍ ، قاله ابن عباس . والثاني : لَقَامَتِ السَّاعَةُ ، قاله عِكْرَمَةُ ومجاهد . والثالث : لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، قاله قتادة)) اهـ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ . اقترح المشركون بدافع العناد والتكبر أن يُنْزَلَ اللهُ مَلَكًا على محمد ، فَيَرُونَهُ ، وَيُكَلِّمَهُمْ ، وَيَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ ، وَأَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيْهِ . وهذا نوعٌ جديد من أنواع كُفْرِ المشركين ، وَجَحْدِهِمْ لِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا نُزُولَ الْمَلَكِ بَحْثًا عَنْ

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٤) برقم (٣٢٢٧) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

الحق والحقيقة أو للتأكد من نبوة محمد ﷺ ، لأنهم كانوا يعلمون أن محمداً نبياً يوحي إليه ، وهو الصادق الأمين . ولكنها حيلة يستخدمونها للتلاعب وتضييع الوقت والتهرب من الإيمان . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٣٤٥) : ((طلبوا ملكاً يروونه يشهد له بالرسالة)) اهـ .

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ . لَوْ أَنزَلَ اللَّهُ مَلَكًا _ كما طلب المشركون _ ثُمَّ كَفَرُوا لَتَمَّ إِهْلَاكُهُمْ فَوَرًّا ، وَلَمْ يُمنَحُوا آيَةً فرصة للتوبة . وَسُنَّةُ اللَّهِ ثَابِتَةٌ لَا تَبْدُلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ آيَةً ، وَكَفَرَ بِعَدْوِيَّتِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُهْلِكُ فِي الْحَالِ ، كما فعل بالأُمم السابقة . وهنا تتجلى رحمةُ اللَّهِ بالمشركين الذين أرادوا تدمير أنفسهم بأنفسهم مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . وهكذا هُمُ الْجُهَالُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، يَسِيرُونَ إِلَى الْهَاطِئَةِ بِأَقْدَامِهِمْ ، وَيَطْلُبُونَ مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ ، وَكَمَا قِيلَ : رَبِّ مُتَمَنَّي حَتْفُهُ فِي أُمِّيَّتِهِ ، أَوْ رَبِّ امْرَأٍ حَتْفُهُ فِيمَا تَمَنَّاهُ . وَالْجَبَانُ قَدْ يَلْقَى حَتْفَهُ فِي مَطْنَةِ النِّجَاةِ . لَقَدْ حَمَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْقَوِيِّ ، وَمَنَحَهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةَ . فَاللَّهُ يُمְهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ أَحْبَابَهُ وَأَعْدَاءَهُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ . يُرِيدُ لَهُمُ الْهَدَايَةَ ، لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِ ، وَلَا يَتَضَرَّرُ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِ . الطَّاعَاتُ لَا تَنْفَعُهُ ، وَالْمَعَاصِي لَا تَضُرُّهُ . لَكِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ لِأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، يَرْجُو اللَّهَ ، وَيَخَافُ الذُّنُوبَ الَّتِي اقْتَرَفَهَا .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ١٥١) : ((يقول : وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا عَلَى مَا سَأَلُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ ، وَلَمْ يُنْظَرُوا فَيُؤَخَّرُوا بِالْعُقُوبَةِ مُرَاجَعَةً التَّوْبَةِ ، كَمَا فَعَلْتُ بِمَنْ قَبْلَهُمْ _ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي سَأَلَتْ الْآيَاتِ ثُمَّ كَفَرَتْ بَعْدَ مَجِيئِهَا _ مِنْ تَعْجِيلِ النَّقْمَةِ وَتَرْكِ الْإِنْظَارِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] . لَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِطَلَبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيُّ وَرَسُولٌ ، لَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ كَي يُحَاوِرَهُمْ وَيُحَاوِرُوهُ ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ ، وَيَنْتَفِعُوا بِعِلْمِهِ . إِنَّ النَّاسَ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَا الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ ، فَهَذَا الْأَمْرُ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى التَّحْمُلِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ ، وَلَا يَنْسَجِمُ مَعَ غَيْرِ جِنْسِهِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٣) : ((فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَقْوَى عَلَى رُؤْيَا الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ ، وَإِنَّمَا رَأَوْهُمْ كَذَلِكَ الْأَفْرَادُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ بِقُوَّتِهِمُ الْقُدْسِيَّةِ)) .

وَلَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا بِصُورَتِهِ الْحَقِيقَةِ ، لَهَرَبَ النَّاسُ مِنْهُ بِسَبَبِ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، وَلَمَّا حَصَلَتْ فَائِدَةُ التَّبْلِيغِ وَالِدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَطْلُ مَعْنَى التُّبُوءِ وَالرَّسَالَةِ . وَلَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا عَلَى صُورَةِ بَشَرٍ ، لَمَّا صَدَّقَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ مَلَكٌ ، وَقَالُوا إِنَّكَ بَشَرٌ ، وَكَذَّبُوهُ ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسَّحْرِ وَبَاقِي التُّهَمِ الْجَاهِزَةِ ، وَكَفَرُوا بِهِ . وَبِالتَّالِي ، لَا تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ ، وَلَا يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِرِسَالَةِ السَّمَاءِ . وَفِي الْحَالَتَيْنِ ، يَطْلُ دَوْرُ النَّبِيِّ ، وَتَفْقَدُ الرِّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةُ مَعْنَاهَا . وَهَكَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ اخْتِيَارَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى الْبَشَرِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحِكْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا يَأْتُونَ الْأَنْبِيَاءَ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ ، فَأَتَوْا إِبْرَاهِيمَ وَلُوطًا _ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ ، وَجَاءَ الْمَلَكَانِ إِلَى دَاوُدَ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلَيْنِ . وَكَانَ جِبْرِيلُ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دُخْيَةِ الْكَلْبِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ (4) ، وَهُوَ صَحَابِيٌّ جَمِيلُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ .

﴿ وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (5) . وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَشَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ ، وَحَدَّثَ الْإِلْتِبَاسُ وَالشُّكَّ وَالْإِشْكَالَ ، فَلَا يَعْرِفُونَ أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ إِنْسَانٌ .

(٤) فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جِبْرِيلَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَم سَلَمَةٌ ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُ ثُمَّ قَامَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَأَمْ سَلَمَةٌ : ((مَنْ هَذَا ؟)) ، قَالَتْ : هَذَا دُخْيَةٌ . [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . الْبُخَارِيُّ (٣ / ١٣٣٠) وَمُسْلِمٌ (٤ / ١٩٠٦)] . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٨ / ١٦) : ((وَفِيهِ مَنَقِبَةٌ لَأَمْ سَلَمَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، وَفِيهِ جَوَازُ رُؤْيَا الْبَشَرِ الْمَلَائِكَةِ وَوُقُوعِ ذَلِكَ ، وَيَرَوْنَهُمْ عَلَى صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَيْهِمْ عَلَى صُورِهِمْ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَى جِبْرِيلَ عَلَى صُورَةِ دُخْيَةٍ غَالِبًا ، وَرَأَاهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ)) أَه . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ (٢ / ٣٨٥) : ((وَرَوَى النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ : كَانَ جِبْرِائِيلُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دُخْيَةِ الْكَلْبِيِّ)) .

(٥) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٣) : ((أَي : لَشَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ . يُقَالُ : أَلْبَسْتُ الْأَمْرَ عَلَى الْقَوْمِ أَلْبَسَهُ ، أَيِ شَبَّهْتُهُ عَلَيْهِمْ وَأَشْكَلْتُهُ . وَالْمَعْنَى : لَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَشْكُوْا ، فَلَا يَدْرُونَ أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ آدَمِيٌّ ، فَأَضَلَّلْنَاهُمْ بِمَا بِهِ ضَلُّوا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ الْمَلَكُ . وَقَالَ الرَّجَاجُ : كَانُوا يَلْبِسُونَ عَلَى ضَعْفَتِهِمْ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَقُولُونَ : إِنَّمَا هَذَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : لَوْ رَأَوْا الْمَلَكَ رَجُلًا ، لَكَانَ يَلْحَقُهُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَسِ مِثْلُ مَا لَحِقَ ضَعْفَتَهُمْ مِنْهُ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٣) : ((وَلَكَبَسْنَا جَوَابَ مُحذوف ، أي: وَلَوْ جعلناه رَجُلًا لَلَبَسْنَا ، أي : لَخَلَطْنَا عليهم ما يَخْلُطُونَ على أنفسهم ، فيقولون : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مثلكم)) .
وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

الله يشهد بِصِدْقِ محمد ﷺ وَصِحَّةِ رسالته ، وكفى به شهيداً . وسبب نزول الآية أَنَّ المشركين طلبوا من النبي ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بِمَنْ يُصَدِّقُهُ وَيَشْهَدُ لَهُ بِصِحَّةِ نُبُوتِهِ . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٣) : ((سبب نزولها أَنَّ رؤساء مكة أَتَوْا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا محمد ، ما نرى أحداً يُصَدِّقُك بما تقول ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فزعموا أنه ليس لك عندهم ذِكر ولا صِفة ، فأرنا مَنْ يَشْهَدُ أَنَّكَ رسول الله ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس)) اهـ .
﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ . قُلْ يا محمد للمشركين الذين يُنْكِرُونَ نُبُوتَكَ : مَنْ أَعْظَمُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً حَتَّى يَشْهَدَ لِي بِصِدْقِي وَصِحَّةِ نُبُوتِي ؟ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٨) : ((وَالشَّيْءُ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَوْجُود)) اهـ .
﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ . أَجِبْهُمْ يا محمد وَقُلْ : اللَّهُ يَشْهَدُ لِي بِصِدْقِي وَصِحَّةِ نُبُوتِي ، وكفى بالله شَهِيداً ، وَهُوَ عَلَى مَا أَقُولُ شَهِيد ، يَشْهَدُ لِي بِالْحَقِّ ، وَيَشْهَدُ أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ وَمُبْطِلُونَ . وشهادة الله صادقة لا كَذِبَ فِيهَا وَلَا خَطَأَ وَلَا مُجَامَلَةَ وَلَا نِفَاقَ ، أَمَّا شَهَادَةُ النَّاسِ فَهِيَ مُعَرَّضَةٌ لِلْخَطَأِ وَالنَّسْيَانِ ، وبذلك تَكُونُ شَهَادَةُ اللَّهِ أَكْبَرَ شَهَادَةً ، وَلَا يُوجَدُ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . فهو الْعَظِيمُ الْأَعْظَمُ . وبعبارة أخرى ، إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمَشْرِكِينَ ، إِذَنْ ، شَهَادَةُ اللَّهِ الْخَالِقِ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَهَادَاتِ الْمَخْلُوقِينَ .

وقد أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَسْأَلَ وَيُجِيبَ بِنَفْسِهِ ، بِسَبَبِ وَضُوحِ الْأَمْرِ ، وعدم قُدْرَتِهِمْ عَلَى أَنْ يُجِيبُوا بِغَيْرِهِ ، أَوْ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ رُبَّمَا يَتَهَرَّبُونَ مِنَ الْجَوَابِ وَيَتَلَعَثُونَ فِيهِ ، لَيْسَ لِعَدَمِ اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، بَلْ لِكَوْنِ اللَّهِ شَهِيداً يَشْهَدُ بِصِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ رسالته .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٣٤٧) : ((اللَّهُ الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ، يَشْهَدُ لِي بِالنُّبُوَّةِ بِإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ ، وَإِنزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيَّ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٣) : ((وَمَعْنَى الْآيَةِ: قُلْ لِقُرَيْشٍ: أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ شَهَادَةً، فَإِنْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فَقُلْ : اللَّهُ، وَهُوَ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَلَى مَا أَقُولُ . وَقَالَ الرَّجَاجُ : أَمَرَ اللَّهُ

أَنْ يَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْ شَهِدَ اللَّهُ فِي نُبُوتِهِ أَكْبَرَ شَهَادَةٍ ، وَأَنْ الْقُرْآنَ الَّذِي أَتَى بِهِ يَشْهَدُ لَهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ)) .

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾ . وَالْقُرْآنُ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ نُبُوتِهِ مُحَمَّد ﷺ ، يُنْذِرُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ وَيُخَوِّفُهُمْ ، وَمَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْسِيًّا أَمْ جَنِّيًّا ، عَرَبِيًّا أَمْ أَعْجَمِيًّا . وَكَتَفَى بِذِكْرِ الْإِنْذَارِ عَنِ الْبِشَارَةِ لِلتَّخْوِيفِ وَالرَّدْعِ ، وَالنَّذَارَةِ مُرْتَبِطَةً بِالْبِشَارَةِ ، كَمَا أَنَّ النَّذَارَةَ هِيَ الْهَدَفُ الْأَسَاسِيُّ لِلرَّسَالَةِ النَّبَوِيَّةِ .

وَمَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ كَانَ نَذِيرًا لَهُ ، وَقَدْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَكَانَ كَمَنْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَسَمِعَ مِنْهُ . وَمَنْ وَصَلَتْهُ الرِّسَالَةُ فَقَدْ عَرَفَ الرَّسُولَ ، وَعَرَفَ الْمُرْسَلِ . وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ الْقُرْآنُ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ . وَهَذَا تَبَرُّزُ مَسْئُولِيَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي إِصَالِ الْقُرْآنَ لَهُ . وَفَرَضَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسِيرُوا عَلَى خُطَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُبَلِّغُوا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لِلنَّاسِ ، وَيَنْشُرُوا الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٣٦٦) : ((وَقِيلَ : وَمَنْ بَلَغَ الْحُلُمَ . وَذَلِكَ بِهَذَا عَلَى أَنْ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ لَيْسَ بِمُخَاطَبٍ وَلَا مُتَعَبَّدٍ . وَتَبْلِيغُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَأْمُورٌ بِهِمَا كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَبْلِيغِهِمَا)) .

وَفِي الدُّرِّ الْمُنْتَوَرِ (٣ / ٢٥٧) : ((وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جُرَيْرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ﴾ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : " بَلِّغُوا عَنِ اللَّهِ ، فَمَنْ بَلَّغْتُهُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، فَقَدْ بَلَّغَهُ أَمْرُ اللَّهِ ")) . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى صِلَاةِ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَشُمُولِهَا لِكُلِّ شَيْءٍ . وَأَحْكَامُ الْقُرْآنِ صَالِحَةٌ لِلَّذِينَ عَاشُوا فِي الْمَاضِي ، وَالَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الْحَاضِرِ ، وَالَّذِينَ سَيَأْتُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . أَيِ إِنَّهَا صَالِحَةٌ لِلْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ الَّذِي سَيُوجَدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَفِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٣ / ٦٢) : ((قَالَ ابْنُ جَزَى : وَالْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ الْإِسْتِشْهَادُ بِاللَّهِ - الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ شَهَادَةٍ - عَلَى صِدْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَشَهَادَةِ اللَّهِ بِهِذَا هِيَ عِلْمُهُ بِصِحَّةِ نُبُوتِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّد ﷺ وَإِظْهَارِ مُعْجَزَتِهِ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِهِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ١٣ و ١٤) : ((قَالَ الرَّجَّاحُ : ... فِي الْإِنْذَارِ بِهِ (بِالْقُرْآنِ) دَلِيلٌ عَلَى نُبُوتِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ وَلَا يَأْتِي ، وَفِيهِ خَبَرٌ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ ، وَوَعَدَ اللَّهُ فِيهِ بِأَشْيَاءَ فَكَانَتْ كَمَا قَالَ ... وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى كِسْرَى وَفَيْصَرَ ، وَكُلَّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -)) اهـ .

وروى الطبراني في الأوسط (٢ / ١٥٠) عن أنس قال : ((كتب رسول الله إلى كِسرى وقَيْصَر، وإلى كُلِّ جَبَّارٍ، يدعوهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وذلك لَمَّا نَزَلَتْ عليه هذه الآية ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾)) .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٩٧) : عن أنس أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كِسْرَى ، وإلى قَيْصَر ، وإلى النَّجَاشِيِّ ، وإلى كُلِّ جَبَّارٍ يدعوهم إلى الله تعالى ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ .

والجدير بالذكر أَنَّ " كِسْرَى " لقب كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْفُرسِ . و " قَيْصَر " لقب كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ ، و " النَّجَاشِي " لقب كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْحَبَشَةِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٨) : ((﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ... أي لِأُنذِرَكُمْ بِهِ يا أَهْلَ مَكَّةَ وسائر مَنْ بَلَغَهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ أَوْ مِنَ الثَّقَلَيْنِ ، أَوْ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمَوْجُودُونَ وَمَنْ بَلَغَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وفيه دليل على أَنَّ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ تَعُمُّ الْمَوْجُودِينَ وَقَدْ نَزَلَتْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَأَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ بِهَا مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١٢٧٥) عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) .

فعلى المسلم أن ينشر الإسلام في كل زمان ومكان ، ويُبلِّغ آيات القرآن الكريم ، وينشر السُّنَّةَ النبوية الشريفة . فالدَّعوةُ إلى الإسلام ليست وظيفةً حكوميةً أو شهادةً جامعية ، إِنَّ الدَّعوةَ منهجُ حياةٍ لكل مسلم ، وكلَّ مسلم يجب أن يكون داعيةً بأسلوب لطيف ، وحَسَبَ إمكانياته .

والحديث يدل على جَوَازِ ذِكْرِ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﷺ بلا أسانيد بسبب المدة الزمنية الطويلة التي تفصل المسلمين عن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﷺ . فيجوز الحديث عن قصص بني إسرائيل وأمورهم العجيبة كَنَزُولِ النَّارِ مِنَ السَّمَاءِ لِتَأْكُلَ الْقُرْبَانَ وَلَوْ كَانَ بِلا سَنَدٍ . ولا إثم على المسلمين في التحديث بهذا الأمر وَغَيْرِهِ بِشَرَطِ عَدَمِ الْكَذْبِ . فلا يجوز الكذب على أيِّ شخص ، مُسْلِمًا كَانَ أَمْ كَافِرًا .

أما حديث النبي ﷺ فلا بُدَّ مِنَ الْأَسَانِيدِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ عَلَيْهِ بِشَكْلِ مُتَعَمِّدٍ يُؤَدِّي إِلَى الْهَلَاكِ الْحَتْمِيِّ ، وَدُخُولِ النَّارِ . فالنبي مُشَرَّعٌ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْكَذِبُ عَلَيْهِ يَعْنِي تَلَوِثَ الشَّرِيعَةِ وَتَشْوِيقَهَا،

والإساءة إليها عن طريق إدخال الأكاذيب إلى الدين الإسلامي الحق. وهذا يُشَوِّه صورة الإسلام،
ويؤدي إلى إفساد المسلمين، وتغيير الناس من الإسلام.

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٩٨ و ٤٩٩) : ((" وَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ " أي
لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ، لأنه كان تقدّم منه ﷺ الرَّجْرَجُ عن الأخذ عنهم والنظر في
كتيبهم ، ثم حصل التوسع في ذلك ، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد
الدينية ، خَشْيَةُ الْفِتْنَةِ ، ثم لَمَّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك لِمَا في سماع الأخبار التي كانت
في زمانهم من الاعتبار . وقيل : معنى قَوْلِهِ " لَا حَرَجَ " لَا تَضِيقُ صُدُورَكُمْ بِمَا تَسْمَعُونَهُ عَنْهُمْ مِنْ
الْأَعَاجِبِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ كَثِيرًا . وقيل : لَا حَرَجَ فِي أَنْ لَا تُحَدِّثُوا عَنْهُمْ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ أَوَّلًا "
حَدَّثُوا " صِيغَةُ أَمْرٍ تَقْتَضِي الْوَجُوبَ ، فَأشار إلى عدم الوجوب ، وأن الأمر فيه للإباحة بقَوْلِهِ : "
وَلَا حَرَجَ " أي في ترك التحديث عنهم . وقيل : المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك لِمَا في أخبارهم
من الألفاظ الشنيعة نَحْوَ قَوْلِهِمْ : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ، وَقَوْلِهِمْ : اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا . وقيل :
المراد ببني إسرائيل أولاد إسرائيل نَفْسِهِ ، وَهُمْ أولاد يعقوب ، والمراد : حَدَّثُوا عَنْهُمْ بِقَصْتِهِمْ مَعَ
أَخِيهِمْ يُوسُفَ ، وَهَذَا أَبْعَدُ الْأَوْجَهِ . وقال مالك : المراد جواز التحدث عنهم بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ
حَسَنٍ ، أَمَّا مَا عَلِمَ كَذِبُهُ فَلَا . وقيل : المعنى حَدَّثُوا عَنْهُمْ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ
الصَّحِيحِ . وقيل : المراد جواز التحدث عنهم بِأَيِّ صُورَةٍ وَقَعَتْ مِنْ انْقِطَاعٍ أَوْ بِلَاغٍ لِيَتَعَدَّرَ الْإِتِّصَالُ
فِي التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِخِلَافِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي التَّحَدُّثِ بِهَا الْإِتِّصَالُ وَلَا يَتَعَدَّرُ
ذَلِكَ لِقُرْبِ الْعَهْدِ . وقال الشافعي : مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُجِيزُ التَّحَدُّثَ بِالْكَذِبِ ، فَالْمَعْنَى
: حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبَهُ ، وَأَمَّا مَا تُجَوِّزُونَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّحَدُّثِ بِهِ
عَنْهُمْ ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ : " إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ " ، وَلَمْ يُرَدِّ الْإِذْنَ
وَلَا الْمَنْعَ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمَا يَقْطَعُ بِصِدْقِهِ وقد اتفق العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله
ﷺ ، وَأَنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ ، حَتَّى بَالِغُ الشَّيْخِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجَوِينِي فَحَكَمَ بِكُفْرٍ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَكَلَامُ
الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْعَرَبِيِّ يَمِيلُ إِلَيْهِ . وَجَهْلَ مَنْ قَالَ مِنَ الْكِرَامِيَّةِ وَبَعْضِ الْمُتَزَهِّدَةِ إِنَّ الْكَذِبَ
عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَجُوزُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَقْوِيَةِ أَمْرِ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ .
وَاعْتَلُّوا بِأَنَّ الْوَعِيدَ وَرَدَ فِي حَقِّ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ لَا فِي الْكَذِبِ لَهُ ، وَهُوَ اعْتِلَالٌ بَاطِلٌ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ
بِالْوَعِيدِ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ الْكَذِبَ سَوَاءً كَانَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، وَالدِّينُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَامِلٌ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى تَقْوِيَتِهِ
بِالْكَذِبِ)) اهـ .

وعن جُبَيْر بن مُطْعَم عن أبيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((نَصَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي ، فَوَعَاها ، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ)) (٦) .

دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَجَابٌ . لَقَدْ دَعَا لِلْعَبْدِ الَّذِي يَسْمَعُ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَحْفَظُهُ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، ثُمَّ يُبَلِّغُهُ لِمَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ . لَقَدْ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحُسْنِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ . وَفِي تَبْلِيغِ الشَّرِيعَةِ حِفْظٌ لَهَا . وَالتَّبْلِيغُ يَشْمَلُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ مَعًا ، فَيَجِبُ نَشْرُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَتَعْلِيمُهُمْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ . وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ فَقِيهًا ، لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنَ النُّصُوصِ ، فَيَحْصُلُ لَهُ ثَوَابُ النَّقْلِ ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابُ الْاسْتِنْبَاطِ وَاسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ . وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ فَيَسْتَنْبِطُ الْأَحْكَامَ وَيَسْتَخْرِجُ الْفَوَائِدَ مِنَ النُّصُوصِ لَا مِثْلَ الْقُدْرَةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى ذَلِكَ . وَمِنَ الضَّرُورِيِّ إِيصَالُ الْحَدِيثِ كَمَا هُوَ ، بِدُونِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، لِتَحْصُلِ فَائِدَةِ الْاسْتِنْبَاطِ ، أَمَّا إِيصَالُ الْحَدِيثِ نَاقِصًا أَوْ زَائِدًا ، فَيَقْطَعُ طَرِيقَ الْاسْتِنْبَاطِ ، وَيُؤَثِّرُ سَلْبًا عَلَى الْفَقِيهِ ، فَقَدْ يَسْتَخْرِجُ أَحْكَامًا مَغْلُوطَةً ، لِأَنَّ نَصَّ الْحَدِيثِ الَّذِي وَصَلَهُ غَيْرُ دَقِيقٍ . وَهَذَا تَبَرُّزُ أَهْمِيَّةِ النُّقْلِ الصَّحِيحِ وَالدَّقِيقِ . وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ رَاوِيَ الْحَدِيثِ لَيْسَ شَرْطًا أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا ، لَكِنَّ شَرْطَهُ الْحِفْظَ ، فَهُوَ يَنْقُلُهُ إِلَى الْفَقِيهِ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، وَالْفَقِيهُ يَسْتَنْبِطُ مِنَ الْحَدِيثِ الْأَحْكَامَ ، وَيَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الْأَصُولَ وَالْفُرُوعَ وَالْأَدْلَةَ وَالْفَوَائِدَ .

﴿ أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴾ . إِنَّ الْمَشْرِكِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ هُنَاكَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ ، فَكَيْفَ تَشْهَدُونَ بِوُجُودِ آلِهَةٍ مَعَ اللَّهِ وَقَدْ ظَهَرَتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ . وَالْإِسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ . وَفِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ١٤) : ((قَالَ الْفَرَاءُ : وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ أُخْرَى ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أُخْرَ ، لِأَنَّ الْآلِهَةَ جَمْعٌ ، وَالْجَمْعُ يَقَعُ عَلَيْهِ التَّأْنِيثُ)) اهـ .

﴿ قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ . ارْفُضِ الْأَصْنَامَ يَا مُحَمَّدُ ، وَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تُشَارِكْهُمْ فِي كُفْرِهِمْ .

﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نِدَ .

﴿ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ . أَعْلِنُ بَرَاءَتَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ شُرَكَائِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ ، وَاعْبُدِ اللَّهَ وَخُدْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَهُوَ وَخُدْهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ ، وَهُوَ وَخُدْهُ الْمُتَّصِفُ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١١٨) : ((﴿ أَنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴾

(٦) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١ / ١٦٢) بِرَقْمِ (٢٩٤) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بذلك ، وإن شَهِدْتُمْ بِهِ فإنه باطل صِرْف (خالص).
﴿قُلْ﴾ تكرير للأمر للتأكيد . ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي : بل إِنَّمَا أَشْهَدُ أَنَّهُ تَعَالَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ، أَوْ مِنْ إِشْرَاكِكُمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٥٠] .
صحيحٌ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسولُ اللَّهِ ، ومؤيَّدٌ بِالوَحْيِ الإِلَهِيِّ ، لكَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ، يُنْقِذُ أَوَامِرَ اللَّهِ ، وَلَا
يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ، يَدْعُو النَّاسَ ، وَلَا يَمْلِكُ سُلْطَةَ الْحِسَابِ . يَعْبُدُ اللَّهُ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُدْخِلَ
نَفْسَهُ الْجَنَّةَ . فَالْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُوْلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ نُبُوءَتَكَ
، وَيَطْلُبُونَ مِنْكَ تَنْزِيلَ الْآيَاتِ ، وَيَقْتَرِحُونَ أَنْ تَأْتِيَ بِالْأَشْيَاءِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ : لَا أَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ
حتى أَنْصَرِفَ فِيهَا كَمَا أُرِيدُ ، فَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَلَسْتُ إِلَهًا حَتَّى أَنْزِلَ مَا اقْتَرَحْتُمُوهُ مِنَ الْآيَاتِ
. لَا أَمْلِكُ مِنْ أَمْرِي شَيْئًا ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا . لَا أَمْلِكُ خَزَائِنَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَلَا خَزَائِنَ رِزْقِهِ ، وَلَا
أَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ الرِّزْقِ لِنَفْسِي وَلَا لِغَيْرِي ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُعْطِيَكُمْ مَا تُرِيدُونَ ، وَلَا إِحْضَارِ الْآيَاتِ
الَّتِي تَطْلُبُونَهَا ، فَأَنَا أَوَّلًا وَأَخِيرًا عَبْدُ اللَّهِ ، خَاضِعٌ لَهُ ، وَلَا أَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي مَمْلُوكَاتِ اللَّهِ . فَاللَّهُ
وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ . وَاللَّهُ وَحْدَهُ يُنْزِلُ الْآيَاتِ أَوْ لَا يُنْزِلُهَا . وَلَا شَكَّ أَنَّ كَثْرَةَ طَلِبَاتِ
الْمُشْرِكِينَ تُشِيرُ إِلَى عِنَادِهِمْ وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ وَفَهْمِهِمُ الْمَغْلُوطِ لِلنُّبُوءَةِ ، وَرُطْبَتِهِمُ الْعَقَائِدَ الدِّينِيَّةَ
بِالْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ إِنْسَانٌ يُوْحَى إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ إِلَهًا خَالِقًا وَرَازِقًا . فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْإِلَهُ
الْخَالِقُ الرَّازِقُ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ١٧١) : ((أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ لَمَّا كَثُرَ
اقتراحهم عَلَيْهِ ، وَتَعَنَّتْهُمْ بِانْزَالِ الْآيَاتِ الَّتِي تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ خَزَائِنُ اللَّهِ
حتى يَأْتِيَهُمْ بِمَا اقْتَرَحُوهُ مِنَ الْآيَاتِ . وَالْمُرَادُ خَزَائِنُ قُدْرَتِهِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ))
اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٣) : ((قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ﴾ سبب نزولها أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كَنْزًا فَتَسْتَغْنِي بِهِ ، فَإِنَّكَ فَقِيرٌ
محتاج ، أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ تَأْكُلُ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ تَجُوعُ ، فَتَزَلْتَ هَذِهِ الْآيَةَ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ)).

﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ . النبي ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا إِذَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْرِفُ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَهُ ، فَكَيْفَ سَيَعْرِفُ مَاذَا سَيَحْدُثُ لِلْآخِرِينَ ؟ ! . إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ حَتَّى يُخْبِرَهُمْ بِمَا كَانَ أَوْ مَا سَيَكُونُ ، أَوْ بِمَوْعِدِ عَذَابِهِمْ . وَسُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِمَعْرِفَةِ الْغَيْبِ لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ عَظَمَتَهُ وَالْوَهِيَّةَ ، وَيُثَبِّتَ لَهُمْ أَيْضًا ضَعْفَهُمْ وَعُيُودِيَّتَهُمْ .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ . وَلَا أَدْعِي أَنِّي مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، أَشَاهِدُ مِنْ أُمُورِ اللَّهِ مَا لَا يُشَاهِدُهُ الْبَشَرُ . وَالْمَعْنَى : إِنِّي إِنْسَانٌ أَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَأَكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنْزَوُجُ ، وَأَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الَّتِي لَا يَفْعَلُهَا الْمَلَائِكَةُ ، لِأَنِّي إِنْسَانٌ ، وَلَسْتُ مَلَكًا . وَالْبَشَرِيَّةُ مِنْ مَبَادِئِ النَّبُوءَةِ ، وَلَيْسَتْ مَانِعًا لَهَا ، وَلَا هِيَ غَيْبٌ أَوْ نَقِيصَةٌ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْقَائِلُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَفَى أَنْ يَكُونَ مَلَكًا ، بِمَعْنَى يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَتَزَوَّجُ ، وَلَيْسَ بِمَعْنَى أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ مِنْهُ . فَلَا دَلِيلَ فِي الْآيَةِ لِلْقَائِلِينَ بِتَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا السَّلَامُ _ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ١٧١) : ((﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ حَتَّى تُكَلِّفُونِي مِنَ الْأَفْعَالِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ مَا لَا يُطِيقُهُ الْبَشَرُ ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ اشْتَغَلَ بِهَذِهِ الْمُفَاضَلَةِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَلَا يَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ فَائِدَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا دُنْيَوِيَّةٌ بَلِ الْكَلَامُ فِي مِثْلِ هَذَا مِنَ الْإِشْتِغَالِ بِمَا لَا يَعْنِي ، وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)) اهـ .

إِنَّ الْمَشْرُوكِينَ اتَّخَذُوا هَذِهِ الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ دَلِيلًا _ وَفَقَّ تَفْكِيرَهُمُ الْقَاصِرُ _ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَهُوَ لَا يَمْلِكُ خَزَائِنَ اللَّهِ ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَيْسَ مَلَكًا . وَبِالتَّالِي ، فَهُوَ لَيْسَ نَبِيًّا _ حَسَبَ زَعْمِهِمْ _ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَدْعِي شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ ، وَهَذَا لَا يَقْدَحُ فِي نُبُوءَتِهِ ، وَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ رِسَالَتِهِ . بَلْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِهِ وَعَدَمِ كَذِبِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . فَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَلَمْ يَقْدَمْ نَفْسَهُ إِلَيْهَا خَالِقًا وَرَازِقًا ، بَلْ قَدَّمَ نَفْسَهُ عَبْدًا لِلَّهِ وَرَسُولًا لَهُ . وَلَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ ، وَيَمْنَحْ نَفْسَهُ سُلْطَاتٍ وَهْمِيَّةً لخداع الناس وجذب الأتباع . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ .

وفي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٣ / ٧٠) : ((أَيُّ وَلَسْتُ أَدْعِي أَنِّي مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى تُكَلِّفُونِي الصُّعُودَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَعَدَمَ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَعَدَمَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ . قَالَ الصَّاوِي : وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ حِينَ قَالُوا لَهُ : إِنْ كُنْتَ رَسُولًا فَاطْلُبْ مِنْ رَبِّكَ أَنْ يُوسِّعَ عَلَيْنَا ، وَيُغْنِيَ فَقْرَنَا ، وَأُخْبِرْنَا

بمصالحننا ومضارنا ، فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده . اه . والمعنى : إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة رسالتي)) اه .

﴿ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . إن النبي ﷺ لا يأتي بشيء من عنده ، والنبوّة ليست مشروعاً شخصياً أو شركة تجارية . إن النبي ﷺ يتحرك حسب توجيهات الوحي الإلهي ، لا يخالفها . يتلقى الوحي الإلهي ويبلغه بلا زيادة ولا نقصان . وأقواله وأفعاله إنما تنطلق من الوحي الإلهي ، وليس من أفكاره الشخصية وطموحاته البشرية ومصالحه الذاتية . وقد قدم النبي ﷺ الأدلة الكافية على صدقه وصحة نبوته، فالأمر ليس غريباً. إنه متوافق مع العقل البشري، وليست النبوة أمراً غريباً فوق قدرات العقل البشري على الاستيعاب. وقد جاء النبي ﷺ بالبراهين الثقلية والعقلية على صدقه. وما يأتي به النبي ﷺ من وحي الله تعالى ، وهذا غير مستحيل في العقل مع قيام الحجج البالغة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٠) : ((تبرأ عن دعوى الألوهية والملكية ، وادّعى النبوة التي هي من كمالات البشر ، ردّاً لاستبعادهم دعواه ، وجزمهم على فساد مدّعاه)) اه .

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٩٣) : ((﴿ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمراً إلا إذا كان فيه وحي . والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد ، والقياس على المنصوص ، والقياس أحد أدلة الشرع)) اه .

ذهب بعض أهل العلم إلى نفي اجتهاد الأنبياء استناداً إلى أسلوب القصر في الآية . والصحيح أن الأنبياء يجتهدون في ضوئ الوحي وتوجيهاته ، ولا يأتون باجتهادات نابعة من أفكارهم الشخصية . والله يؤيدهم بالتوفيق ، ويُسدّدهم . واجتهادات الأنبياء معصومة لأنها خاضعة للوحي . وينبغي أخذ الأدلة الشرعية مجتمعة ، والنظر إلى كلّ الأحكام ، والابتعاد عن الاجتزاء والتبعض .

لقد أخذوا بظاهر الآية ، وهو أن النبي ﷺ لا يقول بشيء إلا إذا كان فيه وحي . والصواب أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد والقياس ، والقياس أحد أدلة الشرع . وهذه القضية معروفة عند العلماء . وقد قال النبي ﷺ : ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)) (٧).

إن القرآن والسنة كلاهما وحي إلهي . والفرق بينهما أن القرآن من الله لفظاً ومعنى ، أمّا السنة فمعناها من الله ، ولفظها من النبي ﷺ ، ولا تتلى كما يتلى القرآن الكريم .

(٧) رواه أحمد في مسنده (٤ / ١٣٠) . وصححه الشوكاني في نيل الأوطار (٨ / ١٨٢) .

وفي تفسير القرطبي (١ / ٧٢) أن الخطابي قال : ((يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما _ أن معناه أنه أُوتِيَ مِنَ الْوَحْيِ الْبَاطِنِ غَيْرِ الْمَثْلِيِّ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ مِنَ الظَّاهِرِ الْمَثْلِيِّ . والثاني _ أنه أُوتِيَ الْكِتَابَ وَحْيًا يُتْلَى ، وَأُوتِيَ مِنَ الْبَيَانِ مِثْلَهُ ، أي أُذِنَ لَهُ أَنْ يُبَيِّنَ مَا فِي الْكِتَابِ ، فَيُعَمِّمَ وَيُخَصِّصَ ، وَيَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَيُسْرِعَ مَا لَيْسَ لَهُ فِي الْكِتَابِ ذِكْرٌ ، فيكون في وجوب العمل به ، ولزوم قبوله ، كالظاهر المثلّو من القرآن)) اهـ .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّد : هل يستوي الكافر الذي عَجَزَ عَنْ رُؤْيَةِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ ، وفشل في مُشَاهَدَةِ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ مَعَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي رَأَى آيَاتِ رَبِّهِ فَأَمَنَ بِهَا وَلَمْ يُكَابِرْ وَلَمْ يُعَانِدْ ؟ . والاستفهام للإنكار . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٨١) : ((أي : هل يستوي مَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَهُدِيَ إِلَيْهِ ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْهُ فَلَمْ يَنْقُدْ لَهُ)) .

﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ، فتعلمون أنهما لا يستويان . إِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ لَا لَبْسَ فِيهِ . لا بُدَّ من التمييز بين الحق والباطل ، وهذا هو طريق الهداية التي تقود إلى اتِّبَاعِ الْوَحْيِ بكل ما جاء به . والآية توبيخٌ لهم وتقريع ، وحض على أعمال عُقُولِهِمْ ، والتفكير في هذه القضية التي جاءت في عبارة العَرَضِ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ١٩٧) : ((﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يقول لهؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ : أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِيمَا أَحْتَجُّ عَلَيْكُمْ بِهِ أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ هَذِهِ الْحُجَجِ ، فَتَعْلَمُوا صِحَّةَ مَا أَقُولُ ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ فُسَادِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنْ إِشْرَاكِ الْأَوْثَانِ وَالْأَنْدَادِ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِنِّي مَعَ ظُهُورِ حُجَجِ صِدْقِي لِأَعْيُنِكُمْ فَتَدْعُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ مُقِيمُونَ إِلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ الَّذِي بِهِ تَفُوزُونَ ؟)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٣) : ((وفي الأعمى والبصير قولان : أحدهما أن الأعمى الكافر ، والبصير المؤمن ، قاله ابن عباس وقتادة .

والثاني : الأعمى الضَّالُّ ، والبصير المُهْتَدِي ، قاله سعيد بن جُبَيْر ومجاهد . وفي قوله : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ قولان : أحدهما فِيمَا بَيَّنَّ لَكُمْ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَصِدْقِ رَسُولِهِ . والثاني فِيمَا ضَرَبَ لَكُمْ مِنْ مَثَلِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ ، وأنهما لا يستويان)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] (٨).

لقد كَذَّبَ مشركو قُرَيْشٍ رُسُلَ اللَّهِ ، وأنكروا الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ عِنَادًا واستكبارًا ، وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . لكنَّ الراجح أنها نزلت في مشركي قُرَيْشٍ ، لأنَّ الآيَةَ مَكِّيَّةً ، وأيضًا ، إِنَّ الْيَهُودَ يُؤْمِنُونَ بِإِنزَالِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيُؤْمِنُونَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ بِإِنزَالِ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى ﷺ ، أَمَّا مُشْرِكُو قُرَيْشٍ وَالْعَرَبُ الْوَثْنِيُّونَ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ السَّمَاوِيَةِ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، وَيُنْكِرُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَهُ .

﴿ وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ . وما عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . حِينَ قَالُوا : مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى إِنْسَانٍ كِتَابًا وَلَا وَحْيًا . لقد أنكروا الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ عِنَادًا واستكبارًا .

وقال القرطبي في تفسيره (٣٥ / ٧) : ((نَسَبُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنَّهُ لَا يُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا يَأْمُرُهُمْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ الصَّلَاحُ ، فَلَمْ يُعْظَمَوْهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ ، وَلَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ . وقال أبو عُبيدة : أي ما عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ . قال النَّحَّاسُ : وهذا معنى حَسَنٌ ، لِأَنَّ مَعْنَى قَدَرْتُ الشَّيْءَ وَقَدَّرْتُهُ عَرَفْتُ مِقْدَارَهُ)) اهـ .

﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنْزَالَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ : مَنْ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى نُورًا يَهْدِي الصَّالِينَ ، وَهُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَقُودُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَيُثَبِّتُهُمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ؟ . وقد أَفْحَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَوَضَّحَ لَهُمُ الْبُرْهَانَ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهِ وَلَا الِاتِّفَافِ حَوْلَهُ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢٠١ / ٢) : ((وَلَمَّا وَقَعَ مِنْهُمْ هَذَا الْإِنْكَارُ ، وَهُمْ مِنْ الْيَهُودِ ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُورِدَ عَلَيْهِمْ حُجَّةً لَا يُطِيقُونَ دَفْعَهَا ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ ، وَيُدْعُونَ لَهُ ، فَكَانَ فِي هَذَا مِنَ التَّبَكُّيْتِ لَهُمُ وَالتَّقْرِيعِ مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ ، مَعَ إِلْجَائِهِمْ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِمَا أَنْكَرُوهُ مِنْ وَقْعِ أَنْزَالِ اللَّهِ عَلَى الْبَشَرِ ، وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَبَطُلَ جَحْدُهُمْ ، وَتَبَيَّنَ فَسَادُ إِنْكَارِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ الْقَائِلِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، فَيَكُونُ إِلْزَامُهُمْ بِأَنْزَالِ اللَّهِ الْكِتَابَ عَلَى مُوسَى مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ ، وَيَعْلَمُونَهُ بِالْأَخْبَارِ مِنَ الْيَهُودِ ، وَقَدْ كَانُوا يُصَدِّقُونَهُمْ)) اهـ .

﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ . تَكْتُبُونَ أَجْزَاءَ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَأَوْرَاقًا مُتَفَرِّقَةً ، تُظَهِّرُونَ بَعْضَهَا ، وَتُخْفُونَ أَكْثَرَهَا ، وَتَتَلَاعَبُونَ بِهَا ، وَتُحَرِّفُونَهَا ، وَتُؤَوَّلُونَهَا وَفَقْ أَهْوَائِكُمْ وَمَصَالِحِكُمُ الشَّخْصِيَّةِ . وَهَذَا ذَمٌّ لَهُمْ . وقال القرطبي في تفسيره (٣٥ / ٧) : ((وَلِذَلِكَ كَرِهَ الْعُلَمَاءُ كُتْبَ الْقُرْآنِ أَجْزَاءً)) اهـ .

وَقَدْ حَذَفُوا مِنَ التَّوْرَةِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَطَمَسُوا نُبُوتَهُ ، فِي مُحَاوَلَةٍ يَائِسَةٍ مِنْهُمْ لِإِخْفَاءِ الْحَقِيقَةِ ، وَطَمَسُوا نُورَ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

﴿ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ . لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ مُشْتَمِلًا عَلَى الْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِظِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَعَلَّمَكُمْ فِيهِ أُمُورًا كَثِيرَةً لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَهَا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . لَقَدْ كُنْتُمْ تَجْهَلُونَهَا وَلَا تُدْرِكُونَهَا ، وَصِرْتُمْ عَالِمِينَ بِهَا . فَأَخْرَجَكُمْ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ . وَقَدْ تَكُونُ الْآيَةُ تَحْمِلُ مَعْنَى الْإِمْتِنَانِ ، أَيْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَمْتَنُّ عَلَيْهِمْ أَنْ عَلَّمَهُمْ فِي الْقُرْآنِ مَا لَمْ يَعْلَمُوا هُمْ وَلَا آبَاؤُهُمْ ، وَنَقَلَهُمْ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى الْعِلْمِ ، أَوْ

قَدْ تَكُونُ الْآيَةُ تَحْمِلُ مَعْنَى الذَّمِّ ، أَيْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَهُمْ فِي الْقُرْآنِ مَا لَمْ يَعْلَمُوا هُمْ وَلَا آبَاؤُهُمْ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِسَبَبِ عِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ . وَدَائِمًا ، تَمْنَعُ الْأَخْلَاقُ الذَّمِيمَةُ الْقَلْبَ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٦٦) : ((الْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهَا خِطَابٌ لِلْيَهُودِ يَقُولُ : عَلَّمْتُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا لَمْ تَعْلَمُوا)) أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ . قَالَ الْحَسَنُ : جُعِلَ لَهُمْ عِلْمٌ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَضَيَّعُوهُ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ يُذَكِّرُهُمُ النِّعْمَةَ فِيمَا عَلَّمَهُمْ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ)) اهـ .

﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ : اللَّهُ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْقُرْآنَ . وَقَدْ بُهْتُوا فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ . وَقَدْ أُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِالْإِبْرَاهِيمِ ، وَلَيْسَ بِالشَّتَائِمِ وَالْجَمْعَةِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٢١٠) : ((قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَيْ قُلِ اللَّهُ أَنْزَلَهُ . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الْمُتَعَيَّنُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، لَا مَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَنَّ مَعْنَى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ ، أَيْ : لَا يَكُونُ خِطَابُكَ لَهُمْ إِلَّا هَذِهِ الْكَلِمَةُ [اللَّهُ] ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هَذَا الْقَائِلُ يَكُونُ أَمْرًا بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيبٍ ، وَالْإِتْيَانُ بِكَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ لَا يُفِيدُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ فَائِدَةَ يَحْسُنُ السُّكُوتُ عَلَيْهَا)) اهـ .

﴿ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ . ثُمَّ أَتْرَكْتَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَجَهْلِهِمْ يَلْعَبُونَ وَيَضْحَكُونَ . فَلَا مَسْئُولِيَّةَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ بَعْدَ تَبْلِيغِهِمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ . وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَلْعَبُونَ بِمَصِيرِهِمْ ، وَيُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَسَوْفَ يَنْتَهِي لَعِبُهُمْ حِينَ يَصْعَقُهُمُ الْمَوْتُ ، فَيُذَكِّرُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ . وَالْآيَةُ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ مُخِيفٌ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٥ / ٢٦٢) : ((يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ثُمَّ دَعَاهُمْ لِأَعْبِينَ يَا مُحَمَّدُ ، فَإِنِّي مِنْ وَرَاءِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ اسْتِهْزَائِهِمْ بِآيَاتِي بِالْمِرْصَادِ ، وَأَذِيقَهُمْ بِأَسَى ، وَأُحِلُّ لَهُمْ أَنْ تَمَادَوْا فِي غِيهِمْ سَخَطِي)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ٩٣] .

لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ، فَجَعَلَ لَهُ وَلَدًا أَوْ شُرَكَاءَ كَالْأَصْنَامِ ، أَوْ ادَّعَى أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَهُ رَسُولًا ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ ، وَلَمْ يُرْسَلْ . أَوْ قَالَ : لَقَدْ نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ ، وَلَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، كَمَا فَعَلَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ سَيَأْتِي

بكلامٍ مثل القرآن، ويتحدّى به القرآن. لقد ظلّموا أنفسهم بأن قاذوها إلى العذاب الأبديّ، ولم يظلموا الله تعالى، لأنّ الله هو القاهرُ القهارُ، فوقَ كلّ شيءٍ، لا أحدَ يستطيع أن ينفعه، ولا أحدَ يقدر على الإضرار به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ . مَنْ أَجْهَلُ وَأَظْلَمُ وَأَسْوَأُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ عَامِدًا مُتَعَمِّدًا ؟ . والاستفهامُ يَحْمِلُ مَعْنَى التَّنْفِي . والمعنى : لا أحدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ عَامِدًا مُتَعَمِّدًا ، فَتَنَسَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى الْوَلَدَ كَمَا فَعَلَ النَّصَارَى ، حَيْثُ جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنًا لِلَّهِ تَعَالَى ، أَوْ كَمَا فَعَلَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، حَيْثُ جَعَلُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَشَرِيكَةً لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالِدُعَاءِ .

﴿أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ . أَوْ ادَّعَى كَذِبًا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ وَاخْتَارَهُ نَبِيًّا .

والذين ادَّعَوْا النُّبُوَّةَ - كَذِبًا وَزُورًا - عَنَرِ التَّارِيخِ كَثِيرُونَ ، وَكُلُّهُمْ افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ ، وَصَارُوا مَثَارًا لِلسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ كَلَامًا يَتَحَدَّى بِهِ الْقُرْآنَ . وَالَّذِينَ يَدَّعُونَ النُّبُوَّةَ كَذِبًا إِنَّمَا يَبْحَثُونَ عَنِ الشُّهُرَةِ ، وَيُرِيدُونَ تَحْقِيقَ مَصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ ، وَالْحَصُولَ عَلَى مَكَاسِبِ مَادِيَّةٍ . وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَفِيهِمْ فُحُولُ الشُّعْرَاءِ وَالخُطَبَاءِ ، وَأَسَاطِينُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، وَقَدْ عَجَزُوا أَنْ يَأْتُوا بِكَلَامٍ مِثْلِهِ ، وَهُوَ بِلُغَتِهِمْ . وَإِذَا كَانُوا عَاجِزِينَ وَهُمْ عَرَبٌ أَقْحَاحٌ ، فَغَيَّرُهُمْ أَعْجَزَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢١١) عَنْ الْآيَةِ : ((قَالَ عِكْرِمَةُ وَقْتَادَةُ : نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ٣٧) : ((وَمِنْ هَذَا النَّمَطِ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْفِقْهِ وَالسُّنَنِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ مِنَ السُّنَنِ ، فَيَقُولُ : وَقَعَ فِي خَاطِرِي كَذَا ، أَوْ أَخْبَرَنِي قَلْبِي بِكَذَا ، فَيَحْكُمُونَ بِمَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَوَاطِرِهِمْ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ ذَلِكَ لِصِفَائِهَا مِنَ الْأَكْدَارِ ، وَخُلُوقِهَا عَنِ الْأَغْيَارِ ، فَتَتَجَلَّى لَهُمُ الْعُلُومُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْحَقَائِقُ الرَّبَّانِيَّةُ ، فَيَقْفُونَ عَلَى أَسْرَارِ الْكُلِّيَّاتِ ، وَيَعْلَمُونَ أَحْكَامَ الْجَزْئِيَّاتِ ، فَيَسْتَغْنَوْنَ بِهَا عَنْ أَحْكَامِ الشَّرَائِعِ الْكُلِّيَّاتِ ، وَيَقُولُونَ : هَذِهِ الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ الْعَامَّةُ إِنَّمَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الْأَغْيِيَاءِ وَالْعَامَةِ ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ وَأَهْلُ الْخُصُوصِ فَلَا يَحْتَاجُونَ لِتِلْكَ النُّصُوصِ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهَا يَنْقُلُونَ : " اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ " . وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى هَذَا بِالْخَضِرِ ، وَأَنَّهُ اسْتَغْنَى بِمَا تَجَلَّى لَهُ مِنْ تِلْكَ الْعُلُومِ عَمَّا كَانَ عِنْدَ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الْقُفُومِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ زَنْدَقَةٌ وَكُفْرٌ)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٦١٧) عَنْ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَنْبِيَاءٌ - كَذِبًا وَزُورًا - : ((فَخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ بِالْبِمَامَةِ ، وَالْأَسُودَ الْعَنْسِي بِالْبَيْمَنِ ، ثُمَّ خَرَجَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ طَلِيحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ فِي بَنِي أَسَدَ بْنِ خُزَيْمَةَ ، وَسَجَّاحَ التَّمِيمِيَّةِ فِي بَنِي تَمِيمٍ ، وَفِيهَا يَقُولُ شَيْبَابُ بْنُ رَبِيعٍ وَكَانَ مُؤَدِّبَهَا :

أضحت نَبِيَّتُنَا أنثى تُطيفُ بِهَا ... وأصبحت أنبياءُ الناسِ ذُكرانا . وقُتلَ الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ ، وقُتلَ مُسَيْلِمَةُ في خلافة أبي بكر ، وتاب طُليحة ومات على الإسلام على الصحيح في خلافة عُمر ، ونُقِلَ أن سَجَّاحَ أيضاً تاب ، وأخبار هؤلاء مشهورة عند الأخباريين ((اهـ . وأشهرُ مَنْ ادَّعى التُّبُوَّةَ مُسَيْلِمَةُ الكذاب ، والأسود العنسي . وقد بلغت وقاحة مُسَيْلِمَةُ الكذاب أن أرسلَ إلى النبي ﷺ يَعرِضُ عليه دَعْوَتَهُ الساقطة .

فعن نُعَيْم بن مسعود الأشجعيّ _ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ لِرَسُولِي مُسَيْلِمَةَ حينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ : ((مَا تَقُولَانِ أَنتُمَا ؟)) ، قالَا : نقولُ كما قال ، قال : ((أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا)) (9).

وهنا تتجلى الأخلاقُ المَحْمُودَةُ الإسلاميَّةُ في عدم قتلِ الرُّسُلِ ، لأنَّ الرُّسُولَ ما عَلَيْهِ إِلَّا تَبْلِيغُ الرسالةِ مَهْمَا كانت عقيدته . وهو شخصُ مُسَالِمٍ لَا يَرْفَعُ سِلَاحًا ، وَإِنَّمَا يُوصِلُ رسالةً مَنْ أَرْسَلَهُ . وقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقولَ لهما إنكما رسولَا عَدُوِّي مُسَيْلِمَةُ الكذاب الذي يَدَّعي التُّبُوَّةَ كَذِبًا ، وسَأَقْتُلُكُمَا عُقُوبَةً لَكُمَا ، ومن أجل تلقينِ مُسَيْلِمَةَ الكذابَ دَرْسًا ، لكنَّ النبي ﷺ وهو الصادقُ الأمينُ ذو أخلاقٍ رَفِيعَةٍ ، لَا يُلَطِّخُ اسْمَهُ الشَّرِيفَ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ . لذلك ظَلَّ النبي ﷺ قُدُوةَ البشرية على مدار تاريخها في الأخلاق الرفيعة والشرف والمجد والسَّيَادَةِ والتسامح ، وحُسنِ التعاملِ معِ الأزماتِ والتَّحَدِيَّاتِ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الكذاب على عهد رسول الله ﷺ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ . وَقَدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ ، ومعه ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، وفي يد رسول الله ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : ((لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أُعْطَيْتُكَهَا ، وَلَكِنْ تَعُدُّوْا أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ ، وَلَكِنْ أَدْبَرْتُ لِبَعْثِ رَجُلٍ اللَّهُ ، وَإِنِّي لأُرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ)) (10).

لقد كان مُسَيْلِمَةُ الكذاب سَيِّدًا على قَوْمِهِ وَزَعِيمًا لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ شَخْصًا عَادِيًّا ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى خُطُورَتِهِ فِي الإِغْوَاءِ وَالْإِضْلالِ وَقِيَادَةِ النَّاسِ إِلَى الْهَلَاكِ . وقد كان يَطْمَحُ إِلَى تَحْقِيقِ مَكَاسِبِ شَخْصِيَّةٍ ، وَتَحْصِيلِ مَنَافِعِ دُنْيَوِيَّةٍ زَائِلَةٍ مِنْ وَرَاءِ ادِّعَائِهِ التُّبُوَّةَ ، لذلك قال : " إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٥٥) برقم (٢٦٣٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠) متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٢٥) برقم (٣٤٢٤) ، ومسلم (٤ / ١٧٨٠) برقم (٢٢٧٣) .

الأمر من بعده تبعته". ولَوْ كان صادقاً لَمَا قال هذه العبارة. إنه ينظر إلى النبوة باعتبارها مشروعاً تجارياً وراثياً لتحقيق الأرباح المادية، وبسَط النفوذ على القبائل، والحصول على السيادة والسلطة والثروة. لذلك فهو يطمح إلى خلافة النبي ﷺ في موضوع النبوة _ وفق تفكيره القاصر. وقد فَصَح مُسَيْلِمة الكذاب نفسه بنفسه، وكشف عن حقيقة دعوته الساقطة.

وقد جاءه النبي ﷺ حاملاً في يده غُصْنٍ نَخْلٍ مُجَرَّدًا مِنْ وَرَقِهِ، ورفض أن يُعْطِيَهُ هذا الغُصْنُ لَوْ طَلَبَهُ مِنْهُ، فكيف يُعْطِيهِ النبوة؟. إِنَّ النبوة بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ يُعْطِيهَا لِمَنْ يَشَاءُ، ومحمد ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبياء، ولا نُبُوَّةَ بَعْدَهُ ولا أنبياء. وَلَنْ يَتَجَاوَزَ مُسَيْلِمة قَضَاءَ اللَّهِ فِيهِ مِنَ الشَّقَاوَةِ، فَمَا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ سَوْفَ يَرَاهُ ولا مَهْرَبَ مِنْهُ. وَإِنْ أَعْرَضَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأدبرَ عَنْهَا، سَيَقْتُلُهُ اللَّهُ وَيُهْلِكُهُ، وقد رَأَى النبي ﷺ فِي مَنَامِهِ أَنَّ اللَّهَ سَيُهْلِكُ مُسَيْلِمة الكذاب. وهذا ما تحقَّق على أرض الواقع، وهذه مُعْجَزَةٌ نبوية شريفة. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ٣٣): ((قال العلماء: إنما جاءه تَأَلُّفًا لَهُ وَلَقَوْمِهِ رَجَاءَ إِسْلَامِهِمْ، وَلِيُبَلِّغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ. قال القاضي: ويَحْتَمِلُ أَنْ سَبَبَ مَجِيئِهِ إِلَيْهِ أَنْ مُسَيْلِمة فَصَدَهُ مِنْ بَلَدِهِ لِلِقَائِهِ، فَجَاءَهُ مُكَافَأَةً لَهُ ... (ولن أتعدى أمر الله فيك) فهكذا وقع في جميع نُسَخِ مسلم، ووقع في البخاري "ولن تعدو أمر الله فيك"، قال القاضي: هُما صحيحان. فمعنى الأول: لَنْ أَعْدُوَ أَنَا أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، مِنْ أَنِّي لَا أُجِيبُكَ إِلَى مَا طَلَبْتَهُ، مِمَّا لَا يَنْبَغِي لَكَ مِنَ الاستِخْلَافِ، أو المشاركة، وَمِنْ أَنِّي أَبْلُغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيَّ، وَأَدْفَعُ أَمْرَكَ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ. ومعنى الثاني: ولن تعدو أنت أمر الله في خيبتك فيما أُمِّلَتْهُ مِنَ النبوة وهلاكك دون ذلك، أو فيما سبق من قضاء الله تعالى وقدره في شقاوتك، والله أعلم ... وَقَتْلَهُ اللَّهُ تَعَالَى يوم اليمامة، وهذا من مُعْجَزَاتِ النبوة)) اهـ. أمَّا المَنَامُ الَّذِي رآه النبي ﷺ، فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُوتِيتُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ، فَوُضِعَ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَكَبُرَا عَلَيَّ وَأَهْمَانِي، فَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا، فَطَارَا، فَأَوَّلَتْهُمَا الْكَذَابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا بَيْنَهُمَا، صَاحِبَ صَنْعَاءَ، وَصَاحِبَ الْيَمَامَةِ))^(١١).

هذه الرؤية النبوية الشريفة لا تُؤْخَذُ كَمَا هِيَ، وَإِنَّمَا هِيَ مَثَلٌ. إِذْ إِنَّ ارتداء الذهب مُحَرَّمٌ عَلَى الرِّجَالِ، وَبِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْصِي اللَّهُ تَعَالَى، كَانَ تَأْوِيلُ الذَّهَبِ بِالْكَذِبِ، وَالسَّوَارَيْنِ بِالْكَذَابَيْنِ اللَّذَيْنِ ادَّعَا النَّبُوَّةَ، وَهُمَا الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ (صاحب صَنْعَاءَ)، وَصَنْعَاءُ عَاصِمَةُ الْيَمَنِ.

(١١) متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٥٨٠) برقم (٦٦٣٠)، ومسلم (٤ / ١٧٨١) برقم (٢٢٧٤).

ومُسَيْلِمة الكذاب (صاحب اليمامة) . وهو من بني حنيفة ، ومَقَرُّه اليمامة ، وهي على بُعد مرحلتين من الطائف .

وفي فتح الباري (١٢ / ٤٢١) : ((وإنما أوَّل النبي ﷺ السَّوَارِينَ بالكذابين ، لأن الكذب وضع الشيء في غير موضعه ، فلمَّا رأى في ذراعيه سوارين من ذهب ، وليسا من لبسه لأنهما من حلية النساء ، عَرَفَ أنه سَيَظْهَرُ مَنْ يَدَّعِي ما لَيْسَ له ، وأيضًا ففي كونهما من ذهب والذهب منهيٌّ عن لبسه ، دليل على الكذب . وأيضًا فالذهب مُشْتَقٌّ من الذهاب ، فَعَلِمَ أنه شيء يذهب عنه ، وتأكد ذلك بالإذن له في نفخهما فطارا ، فَعَرَفَ أنه لا يَثْبُتُ لهما أمر ، وأنَّ كلامه بالوحي الذي جاء به يُزيلهما عن موضعهما ، والتَّفَحُّحُ يدل على الكلام)) اهـ .

وهذان الكذابان كانا زَعِيمَيْن ، وَلَدَيْهِمَا العشيرة والأتباع والمال والسلاح ، وَلَمْ يَكُونَا شَخْصَيْنِ عاديين ، لذلك كانا شَدِيدَي الخطورة على الإسلام والمسلمين ، وقد كان النبي ﷺ حريصًا على الدعوة الإسلامية ، وهذان الكذابان سَبَّبا مُعَانَاةً شديدةً للنبي ﷺ والمؤمنين ، وقد قَتَلَا بحمد الله تعالى .

وروى الحاكم في المستدرک (٣ / ٥٩٧) أنَّ عبد الله بن زَيد بن عاصم : هو خَزْرَجِيٌّ من بني مازن بن النجار ، وهو قَاتِلُ مُسَيْلِمة .

وقال ابن الأثير في أسد الغابة (١ / ٦١٤) : ((وقال أبو عُمر : شَهِدَ أَحَدًا وَغَيْرَهَا وَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا وهو الصحيح ، وهو قَاتِلُ مُسَيْلِمة الكذاب _ لعنه الله _ في قول خليفة بن خِطَّاط وَغَيْرِهِ . وكان مُسَيْلِمة قد قَتَلَ أخاه حبيب بن زيد ، وَقَطَّعَهُ عُضْوًا عُضْوًا ، فأحبَّ عبد الله بن زيد أن يأخذ بثأر أخيه ، فَقَدَّرَ الله تعالى أن شاركَ وَحْشِيًّا في قَتْلِ مُسَيْلِمة ، رماه وَحْشِيٌّ بِالْحَرْبَةِ ، وَضَرَبَهُ عبد الله ابن زيد بالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ)) اهـ .

أما الأسودُ العنسيُّ فقد قَتَلَهُ فَيَرُوزُ بن الدَّيْلَمِيِّ _ رضي الله عنه _ . فقد قال ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥ / ٥٣٣) : ((وكان فَيَرُوزُ فيمن قتل الأسود بن كعب العنسي باليمن ، الذي كان تَنَبَّأُ باليمن . فقال رسول الله ﷺ : " قتلته الرَّجُلُ الصالح فيروز بن الدَّيْلَمِي " ، ومات فيروز باليمن في خلافة عثمان بن عفان رحمه الله)) اهـ .

﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ . وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيَأْتِي بِكَلَامٍ يُعَارِضُ بِهِ الْقُرْآنَ ، استهزاءً بِالْقُرْآنِ وَسُخْرِيَّةً مِنْهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢١١) : ((أَي : وَمَنْ ادَّعَى أَنَّهُ يُعَارِضُ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنَ الْوَحْيِ مِمَّا يَفْتَرِيهِ مِنَ الْقَوْلِ)) اهـ .

والمقصود بالآية عبد الله بن أبي سرح، فقد كان أحد كتّاب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام ،
ولحق بالمشرّكين .

قال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٣١) : [كان يكتب لرسول الله ﷺ . فلما نزلت : ﴿ ولقد
خلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طين ﴾ ، فلما بلغ قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقًا آخر ﴾ ، قال عبد الله :
فبارك الله أحسن الخالقين ، تعجبًا من تفصيل خلق الإنسان ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((
اكتبها فكذلك نزلت)) ، فشكّ عبد الله ، وقال : لئن كان محمد صادقًا ، لقد أوحى إليّ كما
أوحى إليه ، ولئن كان كاذبًا ، لقد قلتُ كما قال [اهـ .

وهذا الانحراف الفكري مرجعه إلى عدم فهم آيات الله تعالى . وبالتأكيد ، إن عبد الله بن أبي
سرح لم يكن ذا قلب ثابت ، فهو مهزوز ، ومُخلخل العقيدة ، ولا يملك علمًا شرعيًا بالصورة
الكافية . وقد اختاره النبي ﷺ وفق مبدأ الحكم على الظاهر ، والنبي ﷺ لا يعلم الغيب ، وغير
مُطلع على قلوب الناس . وبشكل عام ، إن الوحي قد يؤيد رأي أحد الصحابة ويعتمده إذا أصاب
مُرَاد الله تعالى . وهذا يدل على أهمية رأي الصحابة ومشورتهم التي أدت إلى إعمال عقولهم
وفكرهم في خدمة الدعوة ، وأن لا يكونوا في موقف المتفرّج عن بُعد ، وإنما يشاركون في صناعة
الأحداث ، وإبداء أحكامهم في المسائل المختلفة . فالإسلام ليس سُلطة قمعية يُجبر مُعتنقيه على
الاتباع الأعمى ، بل يحثهم على التفكير والنقد الاجتماعي ، ودعم الخير ، ودحض الباطل . وقد
قال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ((وافقتُ ربي في ثلاث ، فقلتُ : يا رسول الله ، لو
اتَّخذنا مِن مقام إبراهيم مُصلًى فأنزلت : ﴿ واتَّخذوا مِن مقام إبراهيم مُصلًى ﴾ [البقرة: ١٢٥] .
وآية الحجاب ، قلتُ : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنه يُكلمهنَّ البر والفاجر ،
فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه ، فقلتُ لهنَّ : عسى ربُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن
يُبدله أزواجًا خَيْرًا مِنكُنَّ ، فأنزلت هذه الآية))^(١٢) .

لقد وافق عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ الوحي ، ونزل الوحي مُؤيِّدًا له ، فلم يدخل
الشكُّ في قلبه ، وذلك بسبب إيمانه الراسخ ، وعلمه الواسع .

(١٢) رواه البخاري (١٥٧ / ١) برقم (٣٩٣) واللفظ له ، ومسلم (١٨٦٥ / ٤) برقم (٢٣٩٩)
بلفظ " وافقتُ ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر " .

والحمد لله تعالى، فقد رجع عبد الله بن أبي سرح إلى الإسلام. ففي تفسير القرطبي (٧ / ٣٧): ((قال أبو عمر [ابن عبد البر]: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك، وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارس بني عامر بن لؤي المعداد فيهم، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين، وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين، ...، فمضى إلى عسقلان فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضي الله عنه وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فاراً من الفتنة، ودعا ربّه فقال: اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح فتوضاً، ثم صلى فقرأ في الركعة الأولى بأُم القرآن والعاديات، وفي الثانية بأُم القرآن وسورة ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره، فقَبَضَ اللهُ رُوحَهُ. ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ يزيد ابن أبي حبيب وغيره)) اهـ .

[وعن سُرحيل بن سعد، قال: ((نزلت في عبد الله بن أبي سرح: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ مكة، فَرَّ إلى عثمان بن عفان _ رضي الله عنه _، وكان أخاه مِنَ الرِّضَاعَةِ، فَعَيَّيْهِ عِنْدَهُ حَتَّى اطمأنَّ أَهْلُ مَكَةَ، ثُمَّ أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْمَنَ)) . قال الحاكم: قد صحَّت الرواية في الكتابين أنَّ رسول الله ﷺ أَمَرَ قَبْلَ دُخُولِهِ مَكَةَ بِقَتْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطْلٍ. فَمَنْ نَظَرَ فِي مَقْتَلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَنَايَاتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ عَلَيْهِ بِمَصْرٍ، إِلَى أَنْ كَانَ أَمْرُهُ مَا كَانَ، عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَعْرَفَ بِهِ] (١٣).

وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ٣٧): ((وروى حَفْصُ بْنُ عُمرٍ عَنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ [﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾] نزلت في النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، لِأَنَّهُ عَارِضَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: وَالطَّاحِنَاتِ طَحْنًا، وَالْعَاجِنَاتِ عَجْنًا، فَالْخَابِرَاتِ خُبْرًا، فَالْإِقْمَاتِ لُقْمًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٨٥ و٨٦ و٨٧): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾. اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال: أحدها أنَّ أَوَّلَهَا إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ نزل في مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد تكلم بالإسلام، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في بعض الأحيان، فإذا أُملِيَ عَلَيْهِ: عزيز حكيم، كتب: غفور رحيم، فيقول

(١٣) رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٤٨) برقم (٤٣٦٢)، وسكت عنه الذهبي .

لرسول الله ﷺ : هذا وذاك سواء ، فلمَّا نزلت : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ ، أملاها عليه ، فلمَّا انتهى إلى قوله : ﴿ خلَقًا آخَرَ ﴾ ، عَجِبَ عبد الله بن سعد ، فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ﷺ : كذا أنزلت عليَّ فاكْتُبها ، فَشَكَكَ حينئذٍ ، وقال : لئن كان محمد صادقًا ، لقد أُوحيَ إليَّ كما أُوحيَ إليه ، ولئن كان كاذبًا لقد قُلْتُ كما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال عكرمة : ثُمَّ رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة . والقول الثاني أنَّ جميع الآية في عبد الله بن سعد ، قاله السُّدي . والثالث أنها نزلت في مُسَيْلِمة والأَسود العنسي ، قاله قتادة . فإن قيل : كيف أفردَ قوله : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحيَ إليَّ ﴾ من قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى ﴾ ، وذلك مُفْتَرٍ أيضًا ، فعنه جوابان : أحدهما أنَّ الوصفين لرجُل واحد ، وُصف بأمرٍ بعد أمرٍ ليدل على جرأته

والثاني أنه خَصَّ بقوله : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحيَ إليَّ ﴾ بعد أن عمَّ بقوله : ﴿ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ ﴾ لأنه ليس كُلُّ مُفْتَرٍ على الله يَدَّعي أنه يُوحى إليه ، ذكرهما ابن الأنباري . قوله تعالى : ﴿ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي سأقول . قال ابن عباس : يَعْنُونَ الشَّعْرَ ، وهُم المستهزئون . وقيل : هو قول عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ((اه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] .

هذه الآية تُشير إلى عناد المشركين وتَعَنُّتهم ومحاولتهم تغيير حُكْم الله تعالى . وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضًا عنهم ، وهذا يتَّضح في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ . فالله تعالى لَمْ يَقُلْ : وإذا تُتلى عليكم . فالله تعالى لَمْ يُوجِّهْ للمشركين الخطاب توبيخًا لهم وذمًا لهم ، وهُم لا يَسْتَحِقُّونَ هذا الشَّرَفَ الإلهي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنها نزلت في مُشركي مكة ، قاله مجاهد وقتادة . والمراد بالآيات القرآن .))

وإذا قُرِئَ على المشركين آيات القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ ، واضحة الدلالة ، ظاهرة الحُجَّة ، لا لَبْسَ فيها ولا إشكال . قال المشركون الذين لا يُؤمنون بالبعث ، ولا يخافون عقابًا ،

ولا يَرْجُونَ ثَوَابًا : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلُهُ ﴾ . لقد طلبوا من النبي ﷺ أن يَأْتِيَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا الْقُرْآنَ ، أو أن يُغَيِّرَ الْقُرْآنَ ، فيحذف الآيات التي يتضايق منها المشركون ، والتي فِيهَا ذَمُّ آلِهَتِهِمُ الْأَصْنَامِ ، وإبطالُ عبادتها ، وَتَخْوِيفُهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ إِنْ اسْتَمَرُّوا فِي عِبَادَتِهَا ، وَيُضَيِّفُ بَعْضَ الْآيَاتِ الَّتِي تَتَوَافَقُ مَعَ مُرَادِ الْمُشْرِكِينَ وَإِرَادَتِهِمْ ، وتتوافق مَعَ أَهْوَائِهِمْ وَأَمَزَجَتِهِمْ .

وقد طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْإِثْيَانَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ أو تَبْدِيلَهُ ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا آيَاتِ الْقُرْآنِ تَضَاقَعُوا بِشِدَّةٍ ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِمُ الْغَيْظُ وَالْعَصِيَّةُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ هَدَمَتْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ (عِبَادَةَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ) ، وَذَمَّتْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ، وَفَضَحَتْ جَهْلَهُمْ ، وَأَظْهَرَتْ حِمَاقَاتِهِمْ ، وَنَسَفَتْ تَارِيخَهُمْ ، وَجَعَلَتْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مُصِيرَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . لِذَلِكَ طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ كِتَابًا غَيْرَ الْقُرْآنِ ، يَخْلُو مِنَ الْبَعْثِ وَالتَّنْشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَلَا يُوجَدُ فِيهِ ذَمُّ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَتَسْفِيَةُ أَحْلَامِهِمْ ، وَهَدْمُ تَرَاثِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ .

وَهُمْ قَدْ طَلَبُوا هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ رَغْبَةً فِي الْإِيمَانِ ، وَإِنَّمَا عِنَادًا وَتَعَنُّتًا ، وَسُخْرِيَّةً وَاسْتَهْزَاءً ⁽¹⁴⁾ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٨٩ / ٨) : ((والفرق بين تبديله والإثيان بغيره ، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإثيان بغيره قد يجوز أن يكون معه . وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه : أحدها _ أنهم سألوه أن يُحوَّلَ الوعد وعيدًا ، والوعيد وعدًا ، والحلال حرامًا والحرام حلالًا ، قاله ابن جرير الطبري . الثاني _ سألوه أن يُسْقَطَ ما في القرآن مِنْ غَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَتَسْفِيَةِ أَحْلَامِهِمْ ، قاله ابن عيسى .

الثالث _ أنهم سألوه إسقاط ما فيه مِنْ ذِكْرِ الْبَعْثِ وَالتَّنْشُورِ ، قاله الرَّجَاجُ)) اهـ .

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي ﴾ . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَبْدٌ مَأْمُورٌ مِنَ اللَّهِ . يُنْقِذُ الْأَوَامِرَ الْإِلَهِيَّةَ بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ، وَيُبَلِّغُ كَلَامَ اللَّهِ لِلنَّاسِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِ حَرْفٍ وَاحِدٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ .

(١٤) قال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢١ / ٢) : ((وَغَرَضُهُمْ فِي هَذَا الْاِقْتِرَاحِ الْكَيْدُ ، أَمَّا اقْتِرَاحُ إِبْدَالِ قُرْآنٍ بِقُرْآنٍ ، فَفِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِكَ ، وَأَنْكَ قَادِرٌ عَلَى مِثْلِهِ ، فَأُبْدِلُ مَكَانَهُ آخَرَ ، وَأَمَّا اقْتِرَاحُ التَّبْدِيلِ فَلَاخْتِبَارِ الْحَالِ ، وَأَنَّهُ إِنْ وُجِدَ مِنْهُ تَبْدِيلٌ ، فِيمَا أَنْ يُهْلِكَهُ اللَّهُ فَيَنْجُو مِنْهُ ، أَوْ لَا يُهْلِكَهُ فَيَسْخَرُوا مِنْهُ ، فَيَجْعَلُوا التَّبْدِيلَ حُجَّةً عَلَيْهِ ، وَتَصْحِيحًا لِافْتِرَائِهِ عَلَى اللَّهِ)) اهـ .

والمعنى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فلا يَقْدِرُ عَلَى تَبْدِيلِهِ .
وقد ذَكَرَ التَّحْدِيدَ فَقَطْ ، لاسْتِزَامِ امْتِنَاعِهِ الْإِتْيَانَ بِقُرْآنٍ آخَرَ .
وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٦٢٣) : ((أَيُّ مَا يَنْبَغِي لِي ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، فَنفى عَنْ نَفْسِهِ أَحَدَ الْقِسْمَيْنِ ، وَهُوَ التَّحْدِيدُ ، لِأَنَّهُ الَّذِي يُمْكِنُهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا ، بِخِلَافِ الْقِسْمِ الْآخَرِ ، وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِقُرْآنٍ آخَرَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ ﷺ نفى عَنْ نَفْسِهِ أَسْهَلَ الْقِسْمَيْنِ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ أَصْعُبِهِمَا بِالطَّرِيقِ الْأَوَّلِيِّ ، وَهَذَا مِنْهُ ﷺ مِنْ بَابِ مُجَازَاةِ السُّفْهَاءِ ، إِذْ لَا يَصْدُرُ مِثْلُ هَذَا الْاِقْتِرَاحِ عَنِ الْعُقَلَاءِ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ ، وَبِمَا يَدْفَعُ الْكُفَّارَ عَنْ هَذِهِ الطَّلَبَاتِ السَّاقِطَةِ وَالسُّؤَالَاتِ الْبَارِدَةِ)) اهـ .

﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . فالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَتَصَرَّفُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، فَهُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ يَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَيُطَبِّقُهَا عَلَى الْأَرْضِ كَمَا هِيَ ، بَلَا تَبْدِيلَ وَلَا تَحْرِيفَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَّبِعُ الْوَحْيَ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرَ الْوَحْيِ . وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَا كَلَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَبِالتَّالِي لَا يَقْدِرُ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى تَبْدِيلِهِ .

وهَدَفُ الْمُشْرِكِينَ هُوَ التَّشْكِيكُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَتَكْذِيبُهُ . وَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ الْقُرْآنَ مِنْ تَأْلِيفِكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَانْتِ بِقُرْآنٍ آخَرَ ، أَوْ بَدِّلْهُ لِيَصِيرَ مُتَوَافِقًا مَعَ رَغْبَاتِنَا ، فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَأْلِيفُكَ .
وقال البَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٨٩) : ((تَعْلِيلٌ لِمَا يَكُونُ ، فَإِنَّ الْمُتَّبِعَ لغيرِهِ فِي أَمْرٍ لَا يَسْتَبْدُ بِالتَّصَرُّفِ فِيهِ بوجهٍ ، وَجَوَابٌ لِلنَّقْضِ بِنسخِ بَعْضِ الْآيَاتِ بَعْضُ ، وَرَدٌّ لِمَا عَرَضُوا لَهُ بِهَذَا السُّؤَالِ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ وَاخْتِرَاعُهُ ، وَلِذَلِكَ قَيَّدَ التَّحْدِيدَ فِي الْجَوَابِ ، وَسَمَّاهُ عَصِيَانًا ، فَقَالَ : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أَيُّ بِالتَّحْدِيدِ)) اهـ .

﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . إِنِّي أَخَافُ مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ، وَرَفَضْتُ أَوَامِرَهُ ، وَحَرَفْتُ كِتَابَهُ ، عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَشِيبُ لِأَهْوَالِهِ الْوُلْدَانُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْكَلَامَ ، يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَإِبْطَالِ اقْتِرَاحِهِمْ ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٨٩) : ((وَفِيهِ إِيمَاءٌ بِأَنَّهُمْ وَاسْتَوْجَبُوا الْعَذَابَ بِهَذَا الْاِقْتِرَاحِ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يُونُسُ : ٢٠] .

يُريد المشركون إنزال آية على النبي ﷺ ، تكون دليلاً على صدقه وصحة نبوته . إنهم يريدون مُعجزةً غير القرآن ، مثل تحويل جبال مكة إلى ذهب ، أو يحيي من مات من آبائهم ، أو يأتي بمُعجزة مثل عصا موسى ، أو ناقة صالح . وهذا يُشير إلى جهلهم ، لأنهم لم يعرفوا القرآن حق المعرفة ، فهو المُعجزة الخالدة التي هي أكبر من كل المُعجزات . والقرآن أعظم من كل مُعجزات الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فهو كلام الله ، والكلام صفة المتكلم ، ولا يُعقل أن يُقارَن القرآن مع عصا موسى أو ناقة صالح أو أي مُعجزة أخرى . لقد أنزل الله عليهم كلامه الذي هو أعظم من كل شيء . ومن غير المعقول أن تتم مقارنة كلام الخالق مع المخلوقات الزائلة . وعندما يُطلب المشركون آية غير القرآن ، فهذا يعني أنهم يستهينون بالقرآن ، ولا يعتبرونه آية عظيمة ، وهذا يُشير إلى جهلهم ، لأن الناس أعداء ما يجهلون ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره . كما يُشير إلى عنادهم واستكبارهم ، وعدم اعترافهم بمُعجزات النبي ﷺ ، وكأنهم يقولون : نحن الذين نختار نوعية المعجزة وليس الله . أي إنهم يريدون فرض الشروط على الله تعالى، وإلزام النبي ﷺ بكلامهم ، وهذا مُنتهى الكفر والضلال والعناد والغرور والاستكبار .

والجدير بالذكر أنَّ الفعل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ جاء بصيغة المضارع لاستحضار صورة كلامهم الشنيع ، والدلالة على الاستمرارية . والقائلون هم كفار مكة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٤١) : ((أي : يقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمد آية من ربه . يَعتُنون كما أعطى الله ثمود الناقة ، أو أن يُحوَّل لهم الصفا ذهباً ، أو يُزج عنهم جبال مكة ، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤ / ١٣٣) : ((أرادوا آية من الآيات التي اقترحوها ، كأنهم لِفَرطِ العُتُوِّ والفساد ونهاية التماذي في المُكابرة والعناد لم يَعدُّوا البينات النازلة عليه ﷺ من جنس الآيات، واقترحوا غيرها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمُعجزات المتكاثرة، ما يضطرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول)) اهـ .

وقد أرشد الله محمدًا ﷺ إلى الجواب على اقتراحهم والرد عليهم ، فقال الله تعالى : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لَلَّهِ ﴾ . وهذا إفحام لهم ، وإظهار للحجة الإلهية ، وتوضيح للبرهان المتوافق مع العقول السليمة . فالأمر كله لله الذي يعلم خفايا الأشياء ، وعاقبة الأمور ، والله قادر على كل شيء ، وهو حكيم في أقواله وأفعاله ، يفعل ما يريد في الوقت الذي يريد ، ولا يفعل ما يُريده

الناس ، لأنَّ عقول الناس محدودة، وقدراتهم قاصرة، وأفكارهم محصورة في الزمان والمكان، ولا يُدرِكون عواقب الأمور . ورُبَّ امرئٍ حَتَفَهُ فِيمَا تَمَنَّاهُ . والإنسانُ قَدْ يَطْلُبُ الشَّيْءَ الَّذِي فِيهِ هَلَاكُهُ . وَقَدْ يُؤَدِّي إِنْزَالُ الْآيَاتِ إِلَى ازدياد كُفْرِهِمْ ، أو تعذيبهم دُونَ إعطائهم آيَةً مُهَلِّةَ زَمْنِيَّةٍ . واللهُ يُمِهلُ ولا يُهْمِلُ .

وقَدْ ذَكَرَ اللهُ أَنَّ الْغَيْبَ لَهُ ، وَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّ الشَّهَادَةَ أَيْضًا لِلَّهِ تَعَالَى ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهَا . وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي يَمْلِكُ الْغَيْبَ يَمْلِكُ الشَّهَادَةَ أَيْضًا ، وَمَنْ يَعْرِفُ السِّرَّ ، فَهُوَ يَعْرِفُ الْعَلَانِيَةَ أَيْضًا . كَمَا أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ تَنْتَمِي إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يَمْلِكُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى .

واللهُ يَمْنَعُ وَيُعْطِي وَفَقَ حِكْمَتَهُ وَمَشِئَتَهُ ، فَهُوَ خَالِقُ الْإِنْسَانِ ، وَأَعْلَمُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ ، يَعْلَمُ مَا يُصْلِحُهُ وَمَا يُفْسِدُهُ ، أَمَّا الْإِنْسَانُ فَهُوَ كَائِنٌ ضَعِيفٌ عَاجِزٌ ، يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَذْهَبُ إِلَى الْخَلَاءِ لِإِخْرَاجِ الْأَوْسَاحِ ، وَهَذَا الْكَائِنُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقَرَّرَ مَصِيرَ الْكَوْنِ ، وَلَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى فَرْضِ الشُّرُوطِ عَلَى اللهِ تَعَالَى . فَالْمَخْلُوقُ هُوَ الَّذِي يَخْضَعُ لِلْخَالِقِ ، وَالْخَالِقُ لَا يَخْضَعُ لِلْمَخْلُوقِ . وَنُزُولُ الْآيَةِ (الْمُعْجِزَةِ) أَمْرٌ غَيْبِيٌّ ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ . وَقَدْ اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى تَفَرُّدِهِ بِالْأُلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقَرَّرُ هَلْ يُنْزِلُ آيَةً أَوْ لَا يُنْزِلُهَا ، وَهُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ مَوْعِدَ إِنْزَالِ الْآيَةِ إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ ، وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا . وَالْغَيْبُ لِلَّهِ تَعَالَى ، إِذَا شَاءَ أَنْزَلَ الْآيَةَ ، وَإِذَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يُنْزِلْهَا . فَانْتَظِرُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ نُزُولَ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحْتُمُوهَا ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ . وَقَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى : فَانْتَظِرُوا قَضَاءَ اللهِ بَيْنَنَا بِإِظْهَارِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعَكُمْ يَنْتَظِرُ ذَلِكَ .

وَإِذَا كَانُوا لَا يَقْبَلُونَ بِالْإِيمَانِ ، حَتَّى يُشَاهِدُوا الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا ، فَلْيَنْتَظِرُوا حُكْمَ اللهِ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِمْ ، وَهُوَ الْحُكْمُ الْفَاصِلُ الْقَاطِعُ . وَقَدْ رَأَوْا آيَاتِ اللهِ الْبَاهِرَةَ الَّتِي أَجْرَاهَا عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ ، لَكِنَّهُمْ يُضَيِّعُونَ الْوَقْتَ ، وَيَتَلَاعِبُونَ ، وَيَعْتَنِقُونَ السُّخْرِيَّةَ طَرِيقًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ ، وَيَلْتَزِمُونَ بِالْاِسْتِهْزَاءِ ، وَلَا يَبْتَغُونَ عَنِ الْحَقِّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٤١) : ((أَي: إِنْ كُنْتُمْ لَا تَوْمِنُونَ حَتَّى تُشَاهِدُوا مَا سَأَلْتُمْ فَانْتَظِرُوا حُكْمَ اللهِ فِيَّ وَفِيكُمْ ، هَذَا مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِهِ ﷺ أَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا ، حِينَ أَشَارَ بِحَضْرَتِهِمْ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ إِبْدَارِهِ فَانْشَقَّ اثْنَتَيْنِ ، فِرْقَةً مِنْ وَرَاءِ الْجَبَلِ ، وَفِرْقَةً مِنْ دُونِهِ ، وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ مِمَّا سَأَلُوا وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا . وَلَوْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَأَلُوا ذَلِكَ اسْتِرْشَادًا وَتَثْبِيًا لِأَجَابِهِمْ ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْأَلُونَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا ، فَتَرَكَهُمْ فِيمَا رَابَهُمْ ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ لَا

يؤمن منهم أحد)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٧ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ سَوَالَكُمْ لِمَ لَمْ تَنْزِلِ الْآيَةُ غَيْبٌ ، وَلَا يَعْلَمُ عِلَّةَ امْتِنَاعِهَا إِلَّا اللَّهُ . وَالثَانِي أَنَّ نَزُولَ الْآيَةِ مَتَى يَكُونُ غَيْبٌ ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا انْتَظِرُوا نَزُولَ الْآيَةِ ، وَالثَانِي : قَضَاءُ اللَّهِ بَيْنَنَا بِإِظْهَارِ الْمُحِقِّ عَلَى الْمُبْطِلِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يُونُسُ : ١٠٩] .

وَاتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالتَّزِمْ بِهِ قَوْلًا وَعَمَلًا ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ أَذَى الْمَشْرِكِينَ ، فَالصَّبْرُ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ ، حَتَّىٰ يَفْصَلَ اللَّهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَهُوَ الْحَكْمُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُجَامِلُ وَلَا يُحَايِي ، وَهُوَ أَعْدَلُ الْفَاصِلِينَ ، وَقَاضِي الْقَضَاةِ ، الَّذِي لَا يُخْطِئُ وَلَا يَسْهَوُ ، لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيِّنَةٍ أَوْ شُهُودٍ .

وَالصَّبْرُ رُكْنٌ أَسَاسِيٌّ فِي الْإِسْلَامِ . وَاللَّهُ يَأْمُرُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَى الْمَشْرِكِينَ وَعِنَادِهِمْ وَغُرُورِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ ، وَتَحْمُلِ أَعْيَاءَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللَّهُ بِحُكْمِهِ ، فَيَنْصِرَهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُظْهِرَ الْإِسْلَامَ ، وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ : حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بِالْإِتِّصَارِ عَلَيْهِمْ أَوْ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ .

وقال البغوي في تفسيره (١٥٥ / ١) : ((﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ، فَحَكْمُ يَقْتُلُ الْمَشْرِكِينَ وَبِالْجِزْيَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ يُغْطُونَهَا عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٧١ / ٢) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ أَي : تَمَسَّكَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَاصْبِرْ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أَي : يَفْتَحْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ﴾ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أَي : خَيْرُ الْفَاتِحِينَ بِعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٢] .
اتَّبِعِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ يَا مُحَمَّدُ قَوْلًا وَعَمَلًا ، فَفِيهِ الْعِصْمَةُ وَالنَّجَاةُ ، وَلَا تَتَّبِعْ شَعَائِرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَا أَهْوَاءَ النَّاسِ . وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ رَفْضِ الْآرَاءِ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ . وَلَا مَعْنَى لِلْإِجْتِهَادِ الْبَشَرِيِّ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَسَيُجَازِي كُلَّ إِنْسَانٍ حَسَبَ عَمَلِهِ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٥٤) : ((يقول : واعْمَلْ بِمَا يُنَزَّلُ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ وَحْيِهِ وَآيِ كِتَابِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ يقول : إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُ بِهِ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ وَأُمُورِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ، أَيِ ذَا خَبْرَةٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَعَدَكُمْ مِنَ الْجَزَاءِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [فَاطِر : ٣١] .

الْقُرْآنُ وَحْيٌ إلهيٌّ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ هُوَ الْحَقُّ الْوَاضِحُ ، وَالْحُجَّةُ الدَامِغَةُ ، وَالْبُرْهَانُ الْإِلَهِيُّ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٤١٠) : ((هُوَ الْحَقُّ عَلَيْكَ ، وَعَلَى أُمَّتِكَ أَنْ تَعْمَلَ بِهِ وَتَتَّبِعَ مَا فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أُوحِيَتْ إِلَى غَيْرِكَ)) اهـ .

وَالْقُرْآنُ يُصَدِّقُ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ السَّابِقَةَ ، وَيَشْهَدُ لَهَا ، وَيُدَافِعُ عَنْهَا ، وَيَجْعَلُ الْإِيمَانَ بِهَا وَاجِبًا أَسَاسِيًّا . وَالْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ كُلُّهَا وَحْيٌ إلهيٌّ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا جَمِيعًا ، وَهِيَ مُتَّفَقَةٌ فِي الْعَقَائِدِ وَأُصُولِ الْأَحْكَامِ ، وَتَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْقُرْآنُ وَحْدَهُ هُوَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ الْمَحْفُوظُ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّحْرِيفِ وَالضِّيَاعِ . أَمَّا الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ الْأُخْرَى ، فَبَعْضُهَا اخْتَفَى ، وَبَعْضُهَا خُرِفَ وَتَمَّ التَّلَاعِبُ فِيهِ ، كَمَا فِي حَدَثِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَهُمَا كِتَابَانِ سَمَاوِيَانِ _ فِي الْأَصْلِ _ وَلَكِنْ طَرَأَ عَلَيْهِمَا التَّغْيِيرُ وَالتَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ ، وَظَهَرَتْ فِيهِمَا آثَارُ التَّلَاعِبِ الْبَشَرِيِّ .

وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأُمُورِ عِبَادِهِ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ . خَبِيرٌ بِأَسْرَارِ النَّاسِ وَعَلَانِيَتِهِمْ ، بَصِيرٌ بِالَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٣١) : ((وَلِهَذَا فَضَّلَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَفَضَّلَ النَّبِيِّينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَجَعَلَ مَنَزِلَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوْقَ جَمِيعِهِمْ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٩) : ((﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ عَالِمٌ بِالْبُاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ ، فَلَوْ كَانَ فِي أَحْوَالِكَ مَا يُنَافِي النَّبُوَّةَ لَمْ يُوحَ إِلَيْكَ مِثْلُ هَذَا الْكِتَابِ الْمُعْجَزِ ، الَّذِي هُوَ عِيَارٌ عَلَى سَائِرِ الْكُتُبِ . وَتَقْدِيمُ الْخَبِيرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْعُمْدَةَ فِي ذَلِكَ الْأُمُورِ الرُّوحَانِيَّةِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [ص : ٧٠] .

محمد ﷺ هو عَبْدُ اللَّهِ ورسولُهُ ، وقد أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، وأُطْلِعَهُ عَلَى أُمُورٍ غَيْبِيَّةٍ ، من أجل إنقاذ الناس من العذاب ، وقيادتهم إلى النعيم في الدنيا والآخرة . والمعنى : ما يُوحَى إِلَيَّ إلا الإنذار . لقد أوحى الله إلى محمد ﷺ لِيُنْذِرَ النَّاسَ ، وَيُخَوِّفَهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، فَيَرْتَدُّوا عَنْ ضَلَالِهِمْ ، وَيَتَزَيَّعُوا بِطَرِيقِ الْإِيمَانِ . وَمَنْ خَوَّفَكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ أَفْضَلُ مِمَّنْ أَمَّنَكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ . وفي فتح القدير (٤ / ٦٣٠) : ((قال الفراء : المعنى ما يُوحَى إِلَيَّ إلا أنني نذير مُبين ، أُبَيِّنُ لَكُمْ ما تَأْتُونَ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ ، وما تَدْعُونَ مِنَ الْحَرَامِ وَالْمَعْصِيَةِ . قال : كأَنَّكَ قُلْتَ : ما يُوحَى إِلَيَّ إلا الإنذار . قال النَّحَّاسُ : ويجوز أن تكون في مَحَلِّ نَصَبٍ بِمَعْنَى : ما يُوحَى إِلَيَّ إلا لأنَّما أنا نذير مُبين)) .

وقال الله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : ٥٥] .

وَاتَّبِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ الْقُرْآنَ ، وَاتَّزِمُوا أَوَامِرَهُ ، وَاجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُ . أَجْلُوا حَلَالَهُ ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ . مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ فَجَاءَةً ، فَيُيَاغِتَّكُمْ وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ ، دُونَ أَنْ تُمْنَحُوا آيَةً فُرْصَةً لِلتَّوَّابِ وَتُعَدَّلَ مَسَارِكُمْ وَتُصَحِّحَ أُمُورُكُمْ ^(١٥) .

وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ حَسَنٌ ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ وَأَحْسَنُهَا ، لَا تَفَاوُتُ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابٌ . وَالْإِيمَانُ بِالْقُرْآنِ مَبْنِيٌّ عَلَى اتِّبَاعِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَالْأَخْبَارِ ، وَالْأَمْثَالِ ، وَالْقَصَصِ ، وَالْوَعْدِ ، وَالْوَعِيدِ . وَهَذَا هُوَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْسَنُ وَالْأَكْمَلُ . فَالْقُرْآنُ ذَكَرَ الْعَقَائِدَ الصَّافِيَةَ ، وَالصِّفَاتِ الطَّيِّبَةَ ، وَالْأَخْلَاقَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْعِبَادَاتِ النَّقِيَّةَ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ التَّزَامِ ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا ، وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا . وَأَيْضًا ، ذَكَرَ الْعَقَائِدَ الْبَاطِلَةَ ، وَالْإِتِّمَامَ الشَّيْئَةَ ، وَالْأَخْلَاقَ الدَّنِيئَةَ ، وَالصِّفَاتِ

(١٥) قال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٢٣٦) : ((﴿ أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ . وَكُلُّهُ حَسَنٌ . وَالْمَعْنَى مَا قَالَ الْحَسَنُ: التَّزَمُوا طَاعَتَهُ وَاجْتَنِبُوا مَعْصِيَتَهُ . وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْأَحْسَنُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : يَعْنِي الْمُحْكَمَاتِ ، وَكُلُّوا عِلْمَ الْمُتَشَابِهِ إِلَى عَالِمِهِ . وَقَالَ : أُنْزِلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ ، ثُمَّ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ ، وَأَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ ، فَهُوَ الْأَحْسَنُ . وَهُوَ الْمُعْجَزُ . وَقِيلَ: هَذَا أَحْسَنُ لِأَنَّهُ نَاسَخَ قَاضٍ عَلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ ، وَجَمِيعِ الْكُتُبِ مَنْسُوخَةٌ . وَقِيلَ: يَعْنِي الْعَفْوُ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَيَّرَ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالْقَصَاصِ . وَقِيلَ : مَا عَلَّمَ اللَّهُ النَّبِيَّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَلَيْسَ بِقُرْآنٍ ، فَهُوَ حَسَنٌ ، وَمَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَهُوَ الْأَحْسَنُ . وَقِيلَ : أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ)) .

السَّيِّئَةُ ، من أجل الابتعاد عنها ، ورفضها ، وعدم الوقوع فيها . وعلى المرء أن يَتَّبِعَ الأحسنَ والأفضلَ ، وليس المعنى أنَّ في القرآنَ حَسَنَ وَغَيْرَ حَسَنَ ، فالقرآنُ كُلُّهُ في ذِوَةِ المجد والعظْمَةِ والحُسْنِ ، وَمُنَزَّرَةٌ عَنِ التَّفَاوُتِ والتناقض والاختلاف والاضطراب .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٦١) : ((فالأحسن للمرء أن يسلك طريقَ الطاعة ، والانتهاة عن المعصية ، والعفو في الأمور ونحو ذلك ، من أن يسلك طريقَ الغفلة والمعصية ، فيجد أو يقع تحت الوعيد ، فهذا المعنى هو المقصود بأحسن ، وليس المعنى أنَّ بعضَ القرآنِ أحسنُ من بعضٍ .))

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ، يحمل نفسَ معنى قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥] .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٥٩) : ((إن قيل : كأنَّ فيها ما ليس بحَسَنَ ، فعنه جوابان أحدهما أن المعنى يأخذوا بِحُسْنِهَا ، وكُلُّهَا حَسَنَ ، قاله قُطْرُب . وقال ابن الأنباري : ناب أحسن عن حَسَنَ ، كما قال الفرزدق : إِنَّ الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لنا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ . أي عزيمة طويلة ... والثاني أن بعض ما فيها أحسن من بعض ثم في ذلك خمسة أقوال : أحدها أنهم أُمروا فيها بالخير ، ونُهِوا عن الشر ، ففَعِلُ الخير هو الأحسن . والثاني أنها اشتملت على أشياء حسنة ، بعضها أحسن من بعض ، كالمقاصص والعفو والانتصار والصبر ، فأُمروا أن يأخذوا بالأحسن ، ذَكَرَ القَوْلِينَ الرَّجَاجَ ، فعلى هذا القول يكون المعنى أنهم يَتَّبِعُونَ العزائمَ والفضائلَ ، وعلى الذي قَبْلَهُ يكون المعنى أنهم يَتَّبِعُونَ الموصوفَ بالحُسْنِ وهو الطاعة ، ويجتنبون الموصوفَ بالقُبْحِ ، وهو المعصية . والثالث : أحسنها الفرائض والنوافل وأدونها في الحُسْنِ المُباح . والرابع أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة ، فَتَصَرَّفَ إلى الأشبه بالحق ، والخامس أن أحسنها الجَمْعُ بين الفرائض والنوافل)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستقيموا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦] .

تَوْجِيهٌ إلهيٌّ عظيمٌ للنبي ﷺ أن يقول للمشركين : إنما أنا بشرٌ من جنسكم ولستُ مَلَكًا ولا جِنًّا . إنني واحدٌ مِنْكُمْ ، اختارني الله مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَخَصَّنِي بِالنُّبُوَّةِ والرسالة . ولا تُوجَدُ حواجزُ بَيْنَنَا تمنعنا من التواصل ، وَلَوْلَا الوَحْيُ ما دَعَوْتُكُمْ ، وبما أنني نبيٌّ يُوحَى إِلَيَّ وَجَبَ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعِي . وقد قَدَّمَ النبي ﷺ الأدلةَ المعنوية والمادية على صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ كَلَامًا في الهواء .

وقد عَلَّمَهُ اللهُ التَّوَاضُّعَ ، فَلَمْ يَرْفَعْ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ فَوْقَ مَا يَسْتَحِقُّ ، وَلَمْ يَدَّعِ الْأُلُوهِيَّةَ ، وَلَمْ يَمْنَحْ نَفْسَهُ سُلْطَاتٍ وَهْمِيَّةً . وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَلَكًا أَوْ جَنِّيًّا لَمَا حَصَلَ التَّوَاضُّعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، لِاخْتِلَافِ الطَّبِيعَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَتَبَايُنِ الطَّبَائِعِ . وَعِنْدُنَا ، سَيَتَذَرُّ الْمُشْرِكُونَ بِاخْتِلَافِ الْجِنْسِ لِكَيْ يَسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ .

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّ اللَّهَ هُوَ إِلَهُكُمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ . وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ ، وَإِفْرَادِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، وَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ دُونَ الْأَصْنَامِ الْبَاطِلَةِ ، وَاطْلُبُوا مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ ، فَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . اسْتَغْفِرُوا مِنْ شُرَكَائِكُمْ وَذُنُوبِكُمْ ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ ، فَاللَّهُ يَقْبَلُ الْمُسْتَغْفِرِينَ وَالتَّائِبِينَ ، وَدَمَارٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَهَلَاكٌ لَهُمْ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لَهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٨٦) : ((﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ يَقُولُ : فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ ، وَوَجَّهُوا إِلَيْهِ وَجُوهَكُمْ بِالرَّغْبَةِ وَالْعِبَادَةِ دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَوْثَانِ)) اهـ .

وَإِذَا اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ ، وَتَوَجَّهَ الْفَرْدُ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَسَوْفَ تَخْضَعُ الْجَوَارِحُ لِلْقَلْبِ (مَلِكِ الْجَوَارِحِ) . وَهَذَا الْأَمْرُ يَدْفَعُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْاسْتِقَامَةِ عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ ، وَتَوْحِيدِهِ ، وَعِبَادَتِهِ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١٠٦ / ١) : ((﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ، لَسْتُ مَلَكًا وَلَا جَنِّيًّا لَا يُمَكِّنُكَ التَّلْقِي مِنْهُ ، وَلَا أَدْعُوكُمْ إِلَى مَا تَنبُو عَنْهُ الْعُقُولُ وَالْأَسْمَاعُ ، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْاسْتِقَامَةِ فِي الْعَمَلِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِمَا دَلَائِلُ الْعَقْلِ وَشَوَاهِدُ النُّقْلِ . ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ فَاسْتَقِيمُوا فِي أَعْمَالِكُمْ ، مُتَوَجِّهِينَ إِلَيْهِ ، أَوْ فَاسْتَوُوا إِلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ فِي الْعَمَلِ . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ . ثُمَّ هَدَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ مِنْ فَرْطِ جَهَالَتِهِمْ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِاللَّهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى :

[٣]

الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ لَيْسَ بِدَعَا ، وَلَا يَدْعُو إِلَى الْغَرَابَةِ أَوْ الْجُحُودِ . فَالْبَشَرِيَّةُ قَدْ اعْتَادَتْ عَلَى نُزُولِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ سَائِرٌ عَلَى خُطَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَهُوَ خَاتَمُهُمْ ، وَبِالتَّالِي ، نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَيْهِ لَيْسَ أَمْرًا عَجِيبًا وَلَا غَرِيبًا . وَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، وَأَوْحَى إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَأَيْنَ الْغَرَابَةُ فِي الْمَوْضُوعِ ؟ .

كما أنزل الله القرآن على محمد ﷺ ، أنزل الكتب والصُحف على الأنبياء السابقين . وكأنَّ السياق القرآنيّ يشتمل على سؤال: مَنْ يُوحى ؟ . الجواب : الله العزيزُّ في انتقامه من أعدائه ، الحكيمُ في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه .

ولا شكَّ أنَّ الوحيَّ يشتمل على أخبار الغيب ، والغيبُ لله وحده . ومجيء النبي ﷺ بأخبار الغيب دليلٌ على صحَّة نبوته ، وأنه يتلقَّى الكلامَ من الله الذي تفرَّد بعلم الغيب ، ولا شريك له في ذلك . والجدير بالذكر أنَّ الفعل ﴿ يُوحى ﴾ جاء بصيغة المضارع ، للإشارة إلى استمرارية الوحي . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٢١) : ((وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية ، للدلالة على استمرار الوحي ، وأنَّ إحياء مثله عاذته)) اهـ .

والآية ﴿ العزيز الحكيم ﴾ تشتمل على اسمين لله تعالى ، وهُو الْمُتَّصِف بِالْعِزَّة والحِكْمَةِ . وهذه الآية تعظيمٌ لله تعالى ، ورفعٌ لشأن الوحي الإلهي الذي لا يُنزله إلا الله العزيز الحكيم . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٤٨) : ((هذا كلام مُستأنف غير مُتعلِّق بما قبله : أي مثل ذلك الإحياء الذي أُوحى إلى سائر الأنبياء من كتب الله المُنزلة عليهم المشتملة على الدَّعوة إلى التَّوحيد والبَعث ، يُوحى إِلَيْكَ يا محمد)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٧١ و ٢٧٢) : ((قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها أنه كما أُوحِيت " حم عسق " إلى كل نبيٍّ كذلك نُوحِها إِلَيْكَ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني كذلك نُوحى إِلَيْكَ أخبار الغيب كما أُوحِينا إلى مَنْ قَبْلَكَ ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث أنَّ " حم عسق " نزلت في أمر العذاب ، فقيل : كذلك نُوحى إِلَيْكَ أنَّ العذاب نازل بِمَنْ كَذَّبَكَ كما أُوحِينا ذلك إلى مَنْ كان قَبْلَكَ ، قاله مقاتل . والرابع أنَّ المعنى هكذا نُوحى إِلَيْكَ ، قاله ابن جرير)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وما كانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

ما ينبغي لإنسان أن يكلمه الله مُواجهَةً . والآية تُوضِّح أنَّ كلام الله لعباده على ثلاثة وجوه : الوجه الأول _ ﴿ وما كانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا ﴾ . أي : الوحي بطريق الإلهام أو المَنام . ورؤيا الأنبياء وحيٌّ إلهيٌّ وحقٌّ لا سُلطة للشَّيْطان عَلَيْهِ ، لأنَّ الأنبياءَ معصومون ، يُخبرون بما سَيَكُون ، والرُّؤيا تُشير إلى ما سَيَكُون ، والأنبياءُ يُوحى إِلَيْهِمْ في منامهم كما يُوحى إِلَيْهِمْ في اليقظة . وقلوبهم لا تنام ، لأنها مُتصلة بالله تعالى . أمَّا رؤية الناس فقد تحضرها الشَّيَاطِين ، بسبب

عدم عصمة الناس . وفي صحيح البخاري (٣ / ١٣٠٨) عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ أنه قال: ((والنبي ﷺ نائمة عينا ، ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء ، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)) . وقد رأى النبي إبراهيم ﷺ في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل ﷺ . وقال الله على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

ورؤيا الأنبياء يقين لأنها وحي إلهي . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((رؤيا الأنبياء وحي)) (١٦) .

وقد يوحى الله إلى النبي بطريق الإلهام، بحيث لا يشك أن هذا الإلهام وحي إلهي ، والأنبياء معصومون، ولا سلطة للشيطان عليهم. وقد يوحى الله إلى أوليائه ، لكن الإلهام الأولياء غير محروس من الشياطين ، لأن الأولياء غير معصومين ، أمّا الإلهام الأنبياء فهو حق لا يؤثر فيه الشياطين ، لأن الأنبياء معصومون .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن جبريل عليه السلام ألقى في روعي أن أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه)) (١٧) .

يعني : ألقى جبريل في نفسي ذون أن أراه ولا أسمع ، أن كل إنسان سيأخذ رزقه كاملاً غير منقوص ، فلا معنى للتعب والقلق . وعلى الإنسان أن يوقن أن رزقه محفوظ ، لن يأخذه غيره . وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٥٠) : ((أي : ألقى الوحي في خلدي وبالي ، أو في نفسي أو قلبي أو عقلي)) اهـ .

أمّا سبب نزول الآية : فقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٩٧) : ((قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ . قال المفسرون : سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً صادقاً ، كما كلمه موسى ونظر إليه ، فقال لهم : " لم ينظر موسى إلى الله " ، ونزلت هذه الآية . والمراد بالوحي هاهنا الوحي في المنام)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ١١٧) : ((نزلت بسبب خوض كان للكفار في معنى تكليم الله موسى ونحو

(١٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٦٨) برقم (٣٦١٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥) برقم (٢١٣٦) . وقال الحافظ العراقي في تخریج الإحياء (

٢ / ٧٥) : صححه الحاكم على شرط الشيخين .

ذلك ، ذهب قُرَيْش واليهود في ذلك إلى تجسيم ، ونَحْوِه ، فَتَزَلَّت الآية مُبَيَّنَةً صورة تكليم الله عباده كيف هُوَ)) اهـ .

الوجه الثاني _ ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ . أو يُكَلِّمُه الله فَيَسْمَعُ كَلَامَه ولا يَرَاه ، كما كَلَّمَ الله مُوسَى ﷺ . وفي الآية تَمَثِيلٌ بحال الملك المُحتَجِب ، الذي يُكَلِّمُ المقرَّبِينَ مِنْه مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . وليس المقصود حجاب الله تعالى ، فالله لا يَحْجُبُه شَيْءٌ ، ولا يَجُوزُ عليه ما يَجُوزُ على الأجسام مِنَ الحِجَابِ . والوَجْه الثاني خاصٌّ بموسى كليم الله ، وبمحمد ﷺ ، إذ كَلَّمَه الله في لَيْلَةِ المعراج . وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ((إِنَّ الله تعالى لا يُكَلِّمُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا)) (18) .

لقد كَلَّمَه مُوَاجَهَةً ليس بينهما حِجَابٍ ولا رسول ، وهذا في عالم البرزخ (بعد الموت) ، أمَّا في الحياة الدُّنيا فهذا الأمر لا يتحقق . ولا شَكَّ أَنَّها فضيلة عَظْمَى وشرف كبير لهذا الصحابيِّ الجليل .

وقال السُّيوطي في شرح سُنَنِ ابنِ ماجة (١٧ / ١) : ((الآية مخصوصة بدار الدُّنيا ، فلا يُتَصَوَّرُ في الدنيا كلام الله تعالى مع عبده مُوَاجَهَةً ، لأنَّ أجساد الدُّنيا كثيفة ، لا يَلِيقُ بها التَّجَلِّي الذاتيُّ ، لأنَّ الله تعالى لَمَّا تَجَلَّى للجبل جَعَلَه دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعَقًا ، وَأَمَّا في الآخرة فَالتَّجَلِّيَّات تحصل للأرواح ، أو للأجساد المثالية لأجساد الجنة)) اهـ .

وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٢ / ٤٩٢) : ((وروى ابن وهب عن يونس بن يزيد عن ابن شهاب (يعني الزُّهري) أنه سُئِلَ عن هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ . قال : ترى هذه الآية تَعْمُ مَنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ مِنَ البَشَرِ كُلِّهِمْ . والكلامُ كلامُ الله الذي كَلَّمَ به موسى (عليه السلام) مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . والوَحْيُ ما يُوحِي اللهُ إلى النبيِّ مِنْ أنبيائه ، فَيُتَبَّعُ اللهُ ما أَرَادَ مِنَ الوَحْيِ في قلب النبيِّ فيتكلم به النبيُّ فيكتبه ، فهو كلامُ الله ووَحْيُهُ . ومنه ما يكون بين الله ورُسُلِهِ ، لا يُكَلِّمُ به أحد من الأنبياء أَحَدًا من الناس ، ولكنه يكون سِرًّا غَيْبٍ بين الله وبين رُسُلِهِ . ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتُمونه أَحَدًا ، ولا يُؤْمَرُونَ بكتمانه ، ولكنهم يُحَدِّثُونَ به الناس حديثًا ، وَيُبَيِّنُونَ لَهُمْ أَنَّ

(١٨) رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٢٢٤) برقم (٤٩١٤) وصَحَّحَه ، والترمذي في سننه)

(٢٣٠ / ٥) برقم (٣٠١٠) ، وحسنه .

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَيُبَلِّغُوهُمْ إِيَّاهُ. وَمَنْ الْوَحْيِ مَا يُرْسِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، فَيُوحِيهِ وَحْيًا فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ((اهـ .

وعن مسروق قال : قلت لعائشة _ رضي الله عنها _ : يا أُمّنا ، هل رأى محمد ﷺ ربّه ، فقالت : ((لقد قَفَّ شِعْري مِمَّا قُلْتَ . أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكُهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ ، مَنْ حَدَّثَكَ أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأْتُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] . ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ (19) .

والمعنى : لقد قامَ شِعْري خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ . وقال الحافظ في الفتح (٦٠٧ / ٨) : ((قالت : " لقد قَفَّ شِعْري " أي قَامَ مِنَ الْفَزَعِ لَمَّا حَصَلَ عِنْدَهَا مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ ، وَاعْتَقَدَتْهُ مِنْ تَنْزِيهِهِ ، وَاسْتَحَالَةَ وَقُوعِ ذَلِكَ)) اهـ .

الوجه الثالث _ ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ . يعني : الْوَحْيِ بِوَسْطَةِ الْمَلَكِ . يُرْسِلُ اللَّهُ مَلَكًا إِلَى الرَّسُولِ لِتَبْلِيغِهِ الْوَحْيِ ، كَمَا أَرْسَلَ اللَّهُ جِبْرِيلَ بِالْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . وهذا خاص بالأنبياء .

وفي تفسير القرطبي (٤٨ / ١٦) : ((قال محمد بن زهير : هو جبريل عليه السلام ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ ، وهذا الْوَحْيِ مِنَ الرَّسْلِ خِطَابٍ مِنْهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ يَسْمَعُونَهُ نَظْقًا وَيَرَوْنَهُ عِيَانًا ، وهكذا كانت حال جبريل عليه السلام ، إِذَا نَزَلَ بِالْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ . قال ابن عباس : نزل جبريل عليه السلام على كل نبيٍّ ، فَلَمْ يَرَهُ مِنْهُمْ إِلَّا مُحَمَّدٌ وَعِيسَى وَمُوسَى وَزَكَرِيَّا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَكَانَ وَحْيًا إِلَهُامًا فِي الْمَنَامِ)) اهـ .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِحَكِيمٍ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى ، تَعَالَى عَنِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، ذُو حِكْمَةٍ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِ خَلْقِهِ . وَأَفْعَالُ اللَّهِ لَيْسَتْ عَبْثِيَّةً ، وَإِنَّمَا تَجْرِي عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ تَعَالَى ، فَقَدْ يُوحِي إِلَى النَّبِيِّ ، وَقَدْ يُوحِي إِلَى الْوَلِيِّ ، وَقَدْ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَقَدْ يُرْسِلُ رَسُولًا إِلَى النَّبِيِّ . وهذه الأمور مُنْزَهَةٌ عَنِ الصُّدْفَةِ وَالْعَبْثِيَّةِ ، فَاللَّهُ الْحَكِيمُ يَقَرَّرُ مَاذَا يَفْعَلُ ، وَيَعْرِفُ مَاذَا يَقَعُ . وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

(١٩) رواه البخاري (٤ / ١٨٤٠) برقم (٤٥٧٤) واللفظ له ، ومسلم (١ / ١٦٠) برقم (١٧٧) .

لقد أوحى الله القرآن إلى محمد ﷺ لإحياء قلوب الناس ، ونقلهم من الشقاء إلى السعادة ، ومن الظلمات إلى النور ، وهذه هي الحياة الحقيقية . والوحي حياة للناس من موت الكفر ، لأن الكافر ميت ، حتى لو كان على قيد الحياة ، لذلك سمى الله القرآن روحاً ، فهو يرشد الناس إلى الحياة الحقيقية (حياة القلوب) . وقد كان محمد قبل البعثة لا يعرف القرآن ولا معاني الإيمان التفصيلية ، والقرآن نور إلهي يهدي الله به من يشاء ، والنبى ﷺ هو قائد الناس إلى طريق الله ، الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ . الْوَحْيُ لَيْسَ بِدَعْوَةٍ وَلَا اخْتِرَاعًا بَشَرِيًّا . وَكَمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الرُّسُلِ السَّابِقِينَ ، أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هَذَا الْقُرْآنَ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْقُرْآنُ رُوحٌ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَأَنَّهُ يُحْيِي الْقُلُوبَ بِنُورِ الْإِيمَانِ ، وَيُعْذِّبُهَا بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٣٧) : ((وَسَمَاءُ رُوحًا ، لأن القلوب تحيا به . وقيل : جبريل . والمعنى : أرسلناه إِلَيْكَ بِالْوَحْيِ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٤٩) : ((وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ ، فإن القرآن ربيع القلوب ، كما أن الغيث ربيع الأرض)) اهـ .
﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ۚ . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْلَمُ شَيْئًا عَنِ الْقُرْآنِ ، وَلَا يُدْرِكُ حَقَائِقَ الْإِيمَانِ بِشَكْلِ تَفْصِيلِيٍّ ، فَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ تَعَالَى بِشَكْلِ إِجْمَالِيٍّ ، وَلَا يَعْرِفُ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ وَفُرُوعَهَا . وَالنَّبِيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَ الْكِتَابَ ، وَيَطَّلِعَ عَلَى أَحْوَالِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ طَالِبَ عِلْمٍ ، وَلَمْ يُجَالِسِ الْعُلَمَاءَ . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ صَادِقٌ ، جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقُمْ بِتَأْلِيفِهِ . وَالآيَةُ تُقَدِّمُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَقَدْ خُصَّ الْإِيمَانُ بِالذِّكْرِ لَأَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٣٧) : ((مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ۚ أي قَبْلَ الْوَحْيِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَعَبِّدًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ بِشَرْعٍ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ هُوَ الْإِيمَانُ بِمَا لَا طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا السَّمْعُ)) اهـ .

والجدير بالذكر أن الأنبياء جميعاً كانوا مؤمنين بالله تعالى قبل الوحي ، فالله لا يختار شخصاً كان كافراً ليحمل رسالة السماء . ومحمد ﷺ كان قَبْلَ الْوَحْيِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ .
وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٧٦) : ((وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا بِهِ . وَقَالُوا مَعْنَى الْآيَةِ : مَا كُنْتَ تَدْرِي قَبْلَ الْوَحْيِ كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَا

كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ، وقيل : كان هذا قبل البلوغ حين كان طفلاً وفي المهد . وقال الحسين ابن الفضل : إنه على حذف مُضاف : أي ولا أهل الإيمان ، وقيل : المراد بالإيمان دين الإسلام ، وقيل : الإيمان هنا عبارة عن الإقرار بكل ما كَلَّفَ الله به العباد)) اهـ .

﴿ ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ . جعل الله القرآن ضياءً للناس ، ونوراً يُرشدهم إلى طريق الحق ، والله يهدي بالقرآن من اختاره من عباده ، وهم الذين وفَّقهم الله للإيمان ، وهداهم إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

﴿ وإنك لتَهْدِي إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ . والنبي ﷺ يُرشد الناس إلى الإسلام ، وهو الدين السماوي الوحيد ، وهذا هو الطريق الواضح والمستقيم ، لا لبس فيه ولا اعوجاج .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠) : ((﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ . قال ابن عباس : هو القرآن ، وقال مقاتل : وَحْيًا بأمرنا . قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾ ، وذلك أنه لم يكن يعرف القرآن قبل الوحي ، ﴿ ولا الإيمان ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه بمعنى الدعوة إلى الإيمان ، قاله أبو العالية . والثاني أن المراد به شرائع الإيمان ومعالمه ، وهي كُلُّهَا إيمان . وقد سَمَّى الصلاة إيماناً بقوله : ﴿ وما كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إيمانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . هذا اختيار ابن قُتَيْبَةَ ومحمد بن إسحاق بن خُزَيْمَةَ . والثالث أنه ما كان يَعْرِفُ الإيمان حين كان في المهد ، وإذا كان طفلاً قبل البلوغ ، حكاه الواحدي . والقول ما اختاره ابن قُتَيْبَةَ وابن خُزَيْمَةَ . وقد اشتهر في الحديث عنه عليه السلام أنه كان قبل النبوة يُوحَدُ الله ، وَيُبْغِضُ اللات والعزى ، وَيَحُجُّ وَيَعْتَمِر ، وَيَتَّبِعُ شريعة إبراهيم عليه السلام . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عَلَى دِين قَوْمِهِ فَهُوَ قَوْلٌ سُوءٌ ، أَلَيْسَ كَانَ لَا يَأْكُلُ مَا دُبِحَ عَلَى النَّصْبِ . وقال ابن قُتَيْبَةَ : قد جاء في الحديث أنه كان على دين قومه أربعين سنة ، ومعناه أن العرب لم يزلوا على بقايا من دين إسماعيل ، من ذلك حَجَّ الْبَيْتِ ، وَالْخِتَانِ ، وَإِيقَاعُ الطَّلَاقِ إِذَا كَانَ ثَلَاثًا ، وَأَنَّ لِلزَّوْجِ الرَّجْعَةَ فِي الْوَاحِدَةِ وَالْاِثْنَتَيْنِ ، وَدِيَّةُ النَّفْسِ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ ، وَتَحْرِيمُ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ بِالْقَرَابَةِ وَالصَّهْرِ ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالْعَمَلُ بِشَرَائِعِهِمْ فِي الْخِتَانِ وَالْغُسْلِ وَالْحَجِّ ، وَكَانَ لَا يَقْرُبُ الْأَوْثَانَ ، وَيَعْيِيهَا ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُ شَرَائِعَ اللَّهِ الَّتِي شَرَعَهَا لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾ يعني القرآن ، ﴿ ولا الإيمان ﴾ يعني : شَرَائِعُ الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يُرِدِ الْإِيمَانُ الَّذِي

هُوَ الإِقْرَارُ بِاللَّهِ ، لِأَنَّ آبَاءَهُ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ ، كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَيَحُجُّونَ لَهُ الْبَيْتَ مَعَ شُرَكَاهُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ فِي هَاءِ الْكِنَايَةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ ، وَالثَّانِي إِلَى الْإِيمَانِ . ﴿ نُورًا ﴾ أَيِ : ضِيَاءٍ وَدَلِيلًا عَلَى التَّوْحِيدِ ، ﴿ نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ إِلَى دِينِ الْحَقِّ . ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ أَيِ لَتَدْعُو ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ﴾ [النَّجْمُ : ٤] .

إِنَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ، لَا يَنْقُصُ مِنْهُ وَلَا يَزِيدُ . وَهَذَا الْوَحْيُ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ ، وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَعَ أَنَّهُمَا وَحْيٌ إِلَهِيٌّ ، هُوَ أَنَّ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ كِلَاهُمَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . أَمَّا السُّنَّةُ فَمَعْنَاهَا مِنَ اللَّهِ ، وَلَفْظُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ لَا يُجِيزُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْحَوَادِثِ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦٢ / ٨) : ((وَلَيْسَ كَمَا ظَنُّوا ، لِأَنَّ اجْتِهَادَ الرَّأْيِ إِذَا صَدَرَ عَنِ الْوَحْيِ ، جَازٌ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْوَحْيِ)) اهـ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١٤٩ / ٥) : ((﴿ يُوحَى ﴾ صِفَةٌ لَوَحْيِي ، تَفِيدُ الْاسْتِمْرَارَ التَّجَدُّدِي ، وَتَفِيدُ نَفْيَ الْمَجَازِ : إِنَّ هُوَ وَحْيٌ ، حَقِيقَةٌ لَا لِمُجَرَّدِ التَّسْمِيَةِ)) .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيِّ مِثْلُ الْحَيِّينِ أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الْحَيِّينَ رُبْعَةً وَمُضَرَّ)) ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْ مَا رُبْعَةً مِنْ مُضَرٍّ ؟ ، فَقَالَ : ((إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ))⁽²⁰⁾ .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ كَمَا يُلْقِنُهُ الْوَحْيُ وَيُعَلِّمُهُ بِلاَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ . وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣٥٢ / ٥) : (((لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ) قِيلَ : إِنَّهُ أُوَيْسُ الْقَرْنِيِّ ... فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا رُبْعَةً مِنْ مُضَرٍّ ؟ ، أَيِ مَا نِسْبَةُ رُبْعَةٍ إِلَى مُضَرٍّ ، وَبَيْنَهُمَا فِي الشَّرَفِ بَوْنٌ بَعِيدٌ ، فَقَالَ : (إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ) ... أَيِ لَقْنَتُهُ وَعُلْمَتُهُ ، أَوْ أَلْقَيْ عَلَى لِسَانِي مِنَ الْإِلْهَامِ ، أَوْ هُوَ وَحْيِي حَقِيقَةٌ)) اهـ .

(٢٠) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٥٧ / ٥) . وَقَالَ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ (٤ / ٢٤١) : ((رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ)) اهـ . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (١٠ / ٦٩٣) : ((رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ بِأَسَانِيدٍ ، وَرِجَالٍ أَحْمَدٌ وَأَحَدُ أَسَانِيدِ الطَّبْرَانِيِّ رِجَالُهُم رِجَالُ الصَّحِيحِ ، غَيْرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَةَ ، وَهُوَ ثَقَّةٌ)) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأُرِيدُ حِفْظَهُ ، فَتَهَتَّنِي فُرْيَشٌ ، وَقَالُوا : تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرُ يَتَكَلَّمُ فِي الرِّضَا والغضب ؟! ، قال : فَأَمْسَكْتُ فذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : ((أَكْتُبْ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ)) . وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ _ يَعْنِي فَمَهُ الشَّرِيفَ _ (21) .

وهذا يدل على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ فِي حَالِ الرِّضَا وَلَا فِي حَالِ الغضب . وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ إلهيٌّ فِي قَلْبِهِ ، وَعَلَى لِسَانِهِ ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرِ الْحَقِّ . وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وَمَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنََّّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ)) (22) .

وهذا يدل على أَنَّ الْوَحْيَ الإلهيَّ كَامِلٌ وَمَعْصُوم ، لَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا . قَالَ : ((إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا)) (23) . وهذا يدل على أَهْمِيَةِ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمِزَاحِ بِاعْتِدَالٍ ، وَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ . فَهَنَّاكَ أَوْقَاتٍ لَا يَصْلَحُ

فِيهَا إِلَّا الْجِدُّ ، وَأَوْقَاتٍ لَا يَصْلَحُ فِيهَا إِلَّا الْمِزَاحُ . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :
أَهَازِلُ حَيْثُ الْهَزْلُ يَحْسُنُ بِالْفَتَى وَإِنِّي إِذَا جَدَّ الرَّجَالُ لَذُو جِدٍّ

وَالنَّبِيُّ ﷺ صَادَقٌ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ لِعِصْمَتِهِ مِنَ الْخَطَا وَالزَّلَلِ ، فَلَا يَقُولُ فِي مِزَاحِهِ إِلَّا حَقًّا وَعَدْلًا وَصِدْقًا ، وَهَذَا لَا يُطَبِّقُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ . وَفِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ١٤) : ((قَالَ الرَّاعِبُ : الْمِزَاحُ وَالْمُدَاعَبَةُ إِذَا كَانَ عَلَى الْاِقْتِصَادِ مَحْمُودًا ، وَالْإِفْرَاطُ فِيهِ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ ، وَيُجْرِي السُّفْهَاءَ ، وَتَرْكُهُ يَقْبِضُ الْمُؤَانَسَ ، وَيُوحِشُ الْمُخَالِطَ . لَكِنَّ الْاِقْتِصَادَ مِنْهُ صَعْبٌ جِدًّا ، لَا يَكَادُ يُوقَفُ عَلَيْهِ . وَلِذَلِكَ يَخْرُجُ عَنْهُ أَكْثَرُ الْحِكَمَاءِ ، حَيْثُ قِيلَ : الْمِزَاحُ مَسْلَبَةٌ لِلْبَهَاءِ ، مَقْطَعَةٌ لِلْإِحْيَاءِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النَّجْمُ : ١٠] (24) .

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ١٨٧) برقم (٣٥٩) وصحَّحه .

(٢٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٥ / ٤٦٥) برقم (٢١٠٦) .

(٢٣) رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٥٧) برقم (١٩٩٠) . وقال : ((حسن صحيح)) .

فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى ، أو : فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل . والوحي إلقاء الشيء بسرعة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٨١) : ((قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه ... فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى . وقيل المعنى ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ مَا أَوْحَى ﴾ . وقيل : المعنى : فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربه ، قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل ، وأوحى جبريل إلى محمد)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] .

يَأْمُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُخَبِّرَ قَوْمَهُ أَنَّ الْجِنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ ، فَتَأَثَّرُوا بِعَظَمَتِهِ ، وإعجازه، وفصاحته ، وحُسنِ نَظْمِهِ ، وبلاغةِ أسلوبِهِ، ومواعظه الجليلة ، فَآمَنُوا بِهِ . وهذا توبيخٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ، حيث إن القرآن نزل بلغتهم ، فلم يتأثروا بِهِ ، وكذبوه ، في حين أن الجنَّ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ بِكُلِّ تَرْكِيزٍ، وأذركوا أنه ليس كلام بشر ، بسبب تفوقه ، وعظمته ، فصدَّقوا بِهِ ، وآمنوا.

وَلَمْ يَعْلَمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْجِنَّ قَدْ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ إِخْبَارِ الْوَحْيِ بِذَلِكَ . والنبي ﷺ لم يَرَهُمْ، وهذا واضحٌ في قوله تعالى : ﴿ اسْتَمِعْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

وفي صحيح مسلم (١ / ٣٣١) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٧) : ((﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، والنَّفَرُ ما بين الثلاثة إلى العشرة ، و﴿ الْجِنَّ ﴾ أجسام عاقلة خفيفة يغلب عليهم النارية أو الهوائية . وقيل : نوع من

(٢٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٧) : ((فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أوحى الله إلى محمد كِفَاحًا بلا واسطة، وهذا على قول مَنْ يقول إنه كان في ليلة المعراج . والثاني أوحى جبريل إلى النبي ﷺ ما أوحى الله إليه ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث : أوحى الله إلى جبريل ما يُوحِيهِ ، رُوِيَ عن عائشة _ رضي الله عنها _ والحسن وقتادة)) .

الأرواح المجردة . وقيل : نفوس بشرية مُفارقة عن أبدانها . وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتَّفَق حضورهم في بعض أوقات قراءته ، فسمعوها ، فأخبر الله به رسوله ، ﴿ فقالوا ﴾ لَمَّا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا ﴾ كِتَابًا ﴿ عَجَبًا ﴾ بَدِيعًا مُبَايِنًا لِكَلَامِ النَّاسِ فِي حُسْنِ نَظْمِهِ ، وَدِقَّةِ مَعْنَاهُ . وَهُوَ مَصْدَرٌ وَصَفَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ)) اهـ .

وقد تحدَّث القرآن عن استماع الجنِّ للقرآن لَمَّا رَأَوْا فِيهِ مِنَ الْقُدَاسَةِ وَالْجَلَالِ . مِمَّا يَشِيرُ — بلا شك — إلى أن القرآن يُؤثِّرُ في كلِّ المخلوقات على اختلاف جنسها . وإن لم يشعر المخلوق بتأثير القرآن ، فالمشكلة في المخلوق لا القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

إن الجنَّ قد استمعوا إلى القرآن، وأصيبوا بالدهشة لجلاله وإعجازه، وآمنوا به بعد أن تدبروه . وفي هذه الآية توبيخٌ شديد لمشركي قريش المتمسكين بالكفر والنبي ﷺ بين ظهرانيهم ، في حين أن الجن يستمعون القرآن بأدب وخشوع ويؤمنون به . وهذا مديحٌ إلهي للجنِّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨٥) : ((أَمَلْنَاهُمْ إِلَيْكَ ، وَالتَّفَرُّ دُونَ الْعَشْرَةِ)) اهـ .

أما سببُ نزول الآية، فعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ بِطَنْ نَخْلَةٍ ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، قَالُوا : صَه . وَكَانُوا تِسْعَةً ، أَحَدُهُمْ زَوْجَةٌ))⁽²⁵⁾ .

إنَّ الجنَّ هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في منطقة " بطن نخلة " بالحجاز ، وهي موضع بين مكة والطائف . فَلَمَّا سَمِعُوهُ انبهروا بسبب جلال الكلام الإلهي وعلو شأنه ، فَأَمَرُوا بَعْضُهُمْ بِالْإِنْصَاتِ كَمَا يَزِدَادُوا اسْتِعَابًا لِلْقُرْآنِ ، وَمَعْرِفَةً بِأَحْكَامِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ الصَّحَابِيُّ عَدَدَهُمْ وَاسْمَ أَحَدِهِمْ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((انطلق النبي ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ ، وقد حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ ، فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٩٥) برقم (٣٧٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال ابن منظور في لسان العرب (٨ / ١٤٠) : ((وَزَوْجَتُهُ اسْمُ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، أَوْ رَئِيسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْجِنِّ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْإِعْصَارُ زَوْجَةً ، وَيُقَالُ : أُمُّ زَوْجَةٍ)) اهـ .

الشَّهْب، قالوا: ما حَالٌ بَيْنَكُمْ وبين خَبَرِ السماءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فانظروا ما هذا الذي حَالٌ بَيْنَكُمْ وبين خَبَرِ السماءِ ، فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تهمامة إلى النبي ﷺ وهو بِنَخْلَةٍ ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ ، فقالوا : هذا والله الذي حَالٌ بَيْنَكُمْ وبين خَبَرِ السماءِ ((²⁶).

إن الشياطين قد حُجِبُوا عن خبر السماء ، فلم يعودوا يَطْلَعُونَ عليه ، أي إنهم لم يعودوا يعرفون ماذا يحدث في المأى الأعلى ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشَّهْبُ الحارقة تطاردهم في كل مكان . مِمَّا جعلهم يعتقدون أن هناك حَدَثًا عَظِيمًا قد حصل بسبب هذا التغير المفاجئ بالنسبة لهم . فبدؤوا رحلة البحث عن سبب حَجَبِهِمْ عن خبر السماء .

وحينما سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يقرأ القرآن العظيم استمعوا له بتدبُّرٍ وانبهار ، لأنه كلامٌ جديد على مسامعهم لا يُشَبِّهُه كلام العرب أهل الفصاحة والبيان ، فكلامُ الله أعلى وأَجَلُّ ، فأدركوا حينئذٍ سبب الحِيلولة بينهم وبين خبر السماء ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين يُبَشِّرُونَهُمْ بهذا الكلام الإلهي المقدس . فقد أدركوا أن هذا الكلام العظيم لا يمكن أن يكون من تأليف إنس ولا جن ، لأن اللغة القرآنية لا يرقى لمستواها مخلوقٌ، مهما علا كُعبُهُ في مجال الفصاحة والبيان والبلاغة . ولا شك أن كلام الله الخالق ، يختلف عن كلام الإنسان المخلوق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤ / ١٧٠) : ((قال الإمام أبو عبد الله المازري : ظاهر الحديث أنهم آمنوا عند سماع القرآن ، ولا بُدَّ لِمَنْ آمَنَ عند سماعه أن يعلم حقيقة

(٢٦) متفق عليه . البخاري (١ / ٢٦٧) برقم (٧٣٩) ، ومسلم (١ / ٣٣١) برقم (٤٤٩) . وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٦٧٥) : ((ولكن لا يلزم من عدم ذِكر اجتماعهم بهم حين استمعوا أن لا يكون اجتماعهم بهم بعد ذلك .. وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن ، وأنهما لمسمًى واحد ، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان ، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان . وفيه أن الصلاة في الجماعة شُرعت قبل الهجرة ، وفيه مشروعيتها في السفر ، والجهر بالقراءة في صلاة الصبح ، وأن الاعتبار بما قضى الله للعباد من حُسن الخاتمة ، لا بما يظهر منه من الشر ولو بَلَغَ ما بَلَغَ ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بِمُجَرَّدِ استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتَّوجُّه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها ، ومع ذلك فَغَلَبَ عليهم ما قُضِيَ لهم من السعادة بِحُسن الخاتمة)) اهـ .

الإعجاز وشروط المعجزة ، وبعد ذلك يقع له العلم بصدق الرسول ، فيكون الجنُّ عَلموا ذلك من كتب الرُّسل المتقدمين قَبْلَهُم على أنه هو النبيُّ الصادق المُبَشِّر به . واتفق العلماء على أن الجن يُعَذَّبون في الآخرة على المعاصي. قال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هُود : ١١٩]. واختلَفوا في أن مؤمنهم ومُطيعهم هل يدخل الجنة وينعم بها ثوابًا ومُجازاةً له على طاعته أم لا يدخلون ، بل يكون ثوابهم أن ينجوا من النار، ثم يُقال : كُونا ترابًا كالبهائم ، وهذا مذهب ابن أبي سُليم وجماعة، والصحيح أنهم يدخلونها وينعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما، وهذا قول الحسن البصري ، والضَّحَّاك ، ومالك بن أنس ، وابن أبي ليلى ، وغيرهم ((اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣٣٢ / ١) : عن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : .. كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأُودِيَةِ وَالشَّعَابِ ، فَقُلْنَا : اسْتَطِير _ أَي طَارَتْ بِهِ الْجِنُّ _ أَوْ اغْتِيلَ ، قَالَ : فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءَ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَقَالَ : ((أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ ، فَذَهَبَتْ مَعَهُ ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ)) . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم ، وآثارَ نيرانهم ، وسألوه الزَّادَ ، فقال : ((لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ ، أَوْفَرُ مَا يَكُونُ لَحْمًا ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِدَوَابِّكُمْ)) ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((فلا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا ، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ)) .

وقال بعضُ العلماء إنَّ العَظْمَ الذي ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ هو طعامُ الجنِّ المؤمن لا الكافر . والحديثُ يُوَضِّحُ أن الاستنجاء بالعَظْمِ والرَّوْث لا يجوز ، لأنهما طعامُ الجنِّ . العَظْمُ لهم ، والرَّوْثُ لِدَوَابِّهِمْ .

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرْسِلَ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، فليس غريبًا أن يقرأ القرآن على الجن ، فهم مُكَلَّفون من الناحية الشرعية ، وفيهم المؤمن والكافر تمامًا كالإنس . كما أن هناك إشارة دقيقة إلى الجُهد النبويِّ الجليل في الدَّعوة ، وعدم التقصير في ذلك ، فهو _ ﷺ _ لم يُعْرِضَ عن داعي الجن حينما أتاه ، بل ذهب معه بلا موكب أو حُرَّاس شخصيين ليقراً القرآن ، ويُبَلِّغ الرسالة السماوية على أكمل وَجْه . والنبيُّ ﷺ مُنَزَّه عن التقصير، إذ إن وظيفته الأساسية هي الدعوة إلى الله تعالى ، فهو سيِّد الدَّعاة ، والقُدوة العُليا في كل زمان ومكان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٧ / ٧) : ((وفي سبب صَرَفَهُم إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ صَرَفُوا إِلَيْهِ بِسَبَبِ مَا حَدَّثَ مِنْ رَجْمِهِم بِالشُّهْبِ ... والثاني أَنَّهُمْ صَرَفُوا إِلَيْهِ

لِيُنْذِرَهُمْ وَأُمِرَ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، هذا مذهب جماعة منهم قتادة ... والثالث أنهم مرؤوا به وهو يقرأ فَسَمِعُوا الْقُرْآنَ . فذكر بعض المفسرين أنه لما يئس من أهل مكة أن يُجيبوه ، خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام ، وقيل : ليلتمس نصرهم ، وذلك بعد موت أبي طالب، فلما كان بطن نخلة قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر ، فَمَرَّ بِهِ نَفَرٌ مِنْ أَشْرَافِ جَنْ نَضِيبِينَ ، فاستمعوا القرآن ، فعلى هذا القول والقول الأول لم يعلم بحضورهم حتى أخبره الله تعالى . وعلى القول الثاني : علم بهم حين جاؤوا . وفي المكان الذي سمعوا فيه تلاوة النبي ﷺ قولان : أحدهما الْحُجُون [مَوْضِعٌ بِمَكَّةَ] وقد ذكرناه عن ابن مسعود، وبه قال قتادة. والثاني: بَطْنُ نَخْلَةٍ، وقد ذكرناه عن ابن عباس، وبه قال مجاهد)) .



الفصل الرابع

طبيعة الرسالة

تمهيد

الرسالة المحمدية الإسلامية ليست مشروعاً عائلياً شخصياً، ولا نظاماً ملكياً متوارثاً، ولا حزباً قُرَشِيّاً هَاشِمِيّاً. إنّ هذه الرسالة العظيمة قد جاءت للإنس والجن ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور حقيقةً ، وليس مُجَرَّدَ شِعارات .

وطبيعة هذه الرسالة الجليلة تُشير إلى عَظَمَةِ المُرسِلِ سُبْحَانَهُ وتعالى . فهي رسالة إلهية قائمة على توحيد الله تعالى ، وإفراده بالألوهية والرُّبُوبية . وهذا يُشير إلى أنّ مَصْدَرَهَا سَمَويٌّ لا أَرْضِيٌّ . والنبِيُّ محمد ﷺ كَانَ صادقاً وأميناً في نَقْلِ الرِّسَالَةِ وتَبْلِغِهَا بلا زيادة ولا نُقصان ، فلم يَطْلُب مِنَ الناسِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَمْ يَسْتَغْلِ سُلْطَتَهُ لتحقيق مكاسب مادية له ولعائلته، وَلَمْ يَبْنِ مَجْدَهُ على أَشْلاءِ الآخَرين ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَيَشْبِعِ على حساب أتباعه .

لقد جاء بتوحيد الله ، وأمر الناس أن يتوجهوا إلى الله وَحْدَهُ . وقد بَلَغَ رسالة السماء كاملةً غير منقوصة، وعانى وجاعاً في سبيل الدَّعوة، وكان بإمكانه أن يعيش في القُصور، ويتناول أشهى الأطعمة ، ويقضي حياته بين الجوّاري والخدم . لكنّه لم يفعل ، لأنّ هَمَّهُ كان مُرْكُزاً على الدار الباقية لا الدُّنيا الفانية .

بَلَغَ النبي ﷺ رسالة السماء بأسلوب طيّب مُتوازن قائم على البشارة والنذارة ، والترغيب والترهيب . وصبر على أذى المشركين ، استعمل لُغَةَ الحوار في مَوْضِعِ الحوار ، واستعمل السَّيفَ في مَوْضِعِ السَّيفِ . فهو نبيُّ البَيانِ والسَّيفِ ، والإسلامُ مُصَحَّفٌ وسَيِّفٌ .

والرسالة الإلهية هي منظومة متكاملة من العلوم والمعارف والمواعظ والأحكام ، تُخْرِجُ الناسَ مِنَ الجَهِلِ إلى العِلْمِ. وَقَدْ حَوَّلَت العربَ المتخلفين المنسيين في الصحراء إلى قادة وزُعماء ومُفَكِّرين. حَوَّلَت رُعاةَ الغنم إلى قادةٍ للأُمَمِ وسادةٍ عَلَيْهِم يَيمانُهُم وأَخلاقُهُم ، وليس بِقَهْرِهِم واضطهادِهِم .

والرسالة الإلهية ليست سُلْطَةً جَبْرِيَّةً، والنبِيُّ ﷺ ليس جَبَّاراً ولا وَصِيّاً على قلوب الناس. إنّهُ يُبَلِّغُ تعاليمَ الإسلام ، وَمَنْ شاءَ آمَنَ ، وَمَنْ شاءَ كَفَرَ ، والنبِيُّ ﷺ يُجْري الأحكامَ على الظاهر، ولا يُحاسبُ أحداً ، لأنَّ حساب العباد على رَبِّ العباد . كما أنّ النبي ﷺ يُرشدُ الناسَ إلى طريقِ الله ، ولا يَمْلِكُ القُدْرَةَ على إدخال الإيمان في قلوبهم ، لأنَّ الهادي هُوَ الله . يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، وَيُضِلُّ

مَنْ يَشَاءُ ، يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . والرسالة المحمدية الإسلامية هي آخرُ الرسالات السماوية ، ولا رسالة بعدها ، لذلك جاءت للإنس والجن في كلِّ زمانٍ ومكان .
 قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] (١).

مِنْ غَيْرِ الْمُعْقُولِ أَنْ يَدَّعِيَ النَّبِيُّ — أَيُّ نَبِيٍّ — الْأُلُوهِيَّةَ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِهَدَايَةِ النَّاسِ ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، فَكَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَيَدَّعِيَ الْأُلُوهِيَّةَ وَيُضِلُّ النَّاسَ؟! . هذا أَمْرٌ ضَدَّ الْعَقْلَ ، وَبِتَصَادُمٍ مَعَ الْمَنْطِقِ . إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ جَمِيعًا يَدْعُونَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَمْتَازُونَ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّبْلِيغِ وَالْإِرْشَادِ . وَعَصَمْتُهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ وَالزَّيْفِ وَالْإِنْحِرَافِ . لَا يُعْقَلُ وَلَا يَنْبَغِي لِإِنْسَانٍ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، وَمَنَحَهُ الْفَهْمَ وَالْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ ، وَاخْتَارَهُ نَبِيًّا ، وَكَلَّفَهُ بِحَمْلِ النَّبُوَّةِ وَشَرَفَهُ بِهَا ، أَنْ يَطْلُبَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْبُدُوهُ . إِنَّهُ لَا يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنْ يَكُونُوا فُقَهَاءَ عَامِلِينَ بِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، يُطِيعُونَهُ وَلَا يَعَصُونَهُ . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب للناس ، ودارسين له . و﴿ مَا كَانَ ﴾ تَحْمِلُ مَعْنَى النِّفْيِ التَّامِ ، فَمِنْ غَيْرِ الْمُعْقُولِ أَنْ يَدَّعِيَ النَّبِيُّ — أَيُّ نَبِيٍّ

—
 الْأُلُوهِيَّةَ ، فَضْلًا أَنْ يَحْصُلَ ذَلِكَ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، فَالْعَقْلُ يَرْفُضُ ادِّعَاءَ الْأُلُوهِيَّةِ مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ ، فَكَيْفَ يَصْبِحُ ذَلِكَ وَاقِعًا؟! . وَاللَّهُ اخْتَارَ النَّبِيَّ كَمَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ،

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤١٣) : ((﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أَنَّ قَوْمًا مِنْ رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَتَرِيدُ أَنْ نَتَّخِذَكَ رَبًّا، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ ، مَا بِذَلِكَ بَعْثَنِي ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَلَا نَسْجُدُ لَكَ ؟ ، قَالَ : لَا ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَصَارَى بَجْرَانِ ، حَيْثُ عَبَدُوا عِيسَى ، قَالَه الضَّحَّاكُ وَمِقَاتِلُ . وَفِيمَنْ عَنِ بَرِّ الْبَشَرِ " قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا — مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَالْكِتَابُ الْقُرْآنُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءُ . وَالثَّانِي — عِيسَى ، وَالْكِتَابُ الْإِنْجِيلُ ، قَالَه الضَّحَّاكُ وَمِقَاتِلُ)) اهـ .

فكيف يدْعُو الناسَ إلى عبادة نَفْسِهِ ؟! . والله يَعْرِفُ مَنْ يَخْتَارُ مِنْ عِبَادِهِ لِحَمْلِ كَلِمَتِهِ ، ولا يُؤْتِي التَّبَوُّةَ للكذابين والخائنين .

وقال الطبري في تفسيره (٢٢٢ / ٣) : ((والبشر جَمَعَ بني آدم ، لا واحد له مِنْ لَفْظِهِ مِثْلُ : الْقَوْمِ وَالْخَلْقِ . وقد يكون اسْمًا لواحد)) اهـ .

وإذا كَانَ ادْعَاءُ الأُلُوْهِيةِ لا يَصْلُحُ لِنَبِيِّ ، وهو سَيِّدُ النَّاسِ وقائِدُهُمْ ، وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ، ويتحدَّثُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمِنْ الْأَوَّلَى أَنَّ ادْعَاءَ الأُلُوْهِيةِ لا يَصْلُحُ للشَّخْصِ الْعَادِيِّ .

وفي تفسير ابن كثير (١ / ٥٠١) : ((قال الحسن البصري : لا يَنْبَغِي هذا لمُؤْمِنٍ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ)) اهـ .

وللأسف، فَإِنَّ عِبَادَةَ الْأَشْخَاصِ مُنْتَشِرَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، خُصُوصًا النَّصَارَى ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التَّوْبَةِ : ٣١] .

أَيَّ إِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ كَمَا يُطَاعُ الرَّبُّ تَعَالَى ، فَأَخْلُوا لَهُمُ الْحَرَامَ ، وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ . فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : ((يَا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثْنَ)) ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قَالَ : ((أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلُوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ))^(٢) .

قال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٠١) : ((فالجهلة من الأحرار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرُّسُلِ وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرُونَ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ ، وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامَ ، وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامَ ، فَالرُّسُلُ — صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ — هُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي أَدَاءِ مَا حَمَلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَإِبْلَاغِ الْأَمَانَةِ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَنَصَحُوا الْخَلْقَ، وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ)) اهـ .

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٧٨ / ٥) برقم (٣٠٩٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠ / ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطبراني (١٧ / ٩٢) برقم (٢١٨) .

إنَّ العلماءَ الفاسدين قد ضَلُّوا وأضلُّوا ، وذلك لأنَّهم رؤوسُ الناسِ ومرجعياتهم ، وإذا فسَدَ الرأسُ انتهى الجسدُ . وهؤلاءُ العلماءُ كالحمارِ يَحْمِلُ أسْفارًا ، يَحْفَظُونَ الكُتُبَ ، ويَمْلِكُونَ ناصيةَ اللغةِ ، وفصلَ الخطابِ ، ومع هذا لَمْ يَسْتَفِيدُوا شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِمْ ، فكانَ عِلْمُهُمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لا لَهُمْ ، لأنَّهم اتَّخَذُوا العِلْمَ طريقًا لتحقيقِ منافعِ شخصيةٍ ، وليس ابتغاءَ وجهِ الله تعالى . وهؤلاءُ يَنْظُرُونَ إلى الدِّينِ بوصفه مشروعًا تجاريًّا استثماريًّا يُدِرُّ أرباحًا وفيرةً ، ويَضْمَنُ ولاءَ الناسِ وتبعيةَهم ، ويَحْشِدُ الجماهيرَ . وهكذا صار علماءُ السُّوءِ دُعاةً على أبوابِ النارِ ، مَنْ أطاعهم قَذَفُوهُ فيها .
وصدق القاضي الجرجاني إذ يقول :

لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانِهِمْ وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَفُوسِ لَعُظِّمُوا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَسُوا مُجَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

والآيةُ تُكَذِّبُ النصارى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّ عيسى ﷺ قد أَمَرَهُمْ بعبادته ، وأنه ابْنُ اللهِ وإلهٌ مَعَهُ . كما تُكَذِّبُ اليهودَ الذين زَعَمُوا أَنَّ غَزِيرًا ابْنُ اللهِ تعالى ، وَمَنْ كَانَ ابْنًا لِلَّهِ فَهُوَ إِلَهٌ مَعَ اللهِ تعالى . وقد كَذَّبَ اللهُ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَكَشَفَ باطِلَهُمْ ، وَفَضَحَ كَذِبَهُمْ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَحْدَهُ شَرِيكَ لَهُ ، ولا يُمكنُ لِلأنبياءِ أَنْ يَكْذِبُوا على اللهِ تعالى . والجديرُ بالذكرُ أَنَّ غَزِيرًا مُخْتَلَفٌ فِي نُبُوَّتِهِ . والجديرُ بالذكرُ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ لِيَشِرَّ ﴾ ببيانِ لِعِلَّةِ الْحُكْمِ ، إِذْ إِنَّ الْبَشَرِيَّةَ تَتَعَارَضُ مَعَ ادِّعَاءِ الْأُلُوهِيَّةِ . فالإنسانُ مَخْلُوقٌ ، والإلهُ خَالِقٌ . ولا يُمكنُ للمخلوقِ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا ، لأنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كاذبًا لَدَعَا النَّاسَ إلى عبادته وتقديسه ، واستغَلَ نفوذَهُ ومكانةَ عشيرته الشريفة ، من أجل تحقيقِ مكاسبِ شخصيةٍ ، واستعبادِ الناسِ ، وتجميعِ العبيدِ والجواري ، والحصولِ على الأموالِ والمناصبِ . لكنَّ هذا لَمْ يَحْدُثْ . ممَّا يدلُّ على صِدْقِهِ في تبليغِ رسالةِ السماءِ . والآيةُ _ أيضًا _ تردُّ على النصارى الذين اتَّخَذُوا المَسِيحَ إلهًا ، مَعَ أَنَّهُ جَاءَ بِالتَّوْحِيدِ ، ولا يُوجدُ أيُّ نصٍّ في الإنجيلِ يتضمَّنُ دَعْوَةَ المَسِيحِ إلى عبادته . وهذا دليلٌ على أَنَّ المَسِيحَ ﷺ هو عَبْدُ اللهِ ورسولُهُ . والأنبياءُ _ جميعًا _ دينُهُم واحدٌ (الإسلام) ، ودَعْوَتُهُم واحدةٌ (التَّوْحِيدُ) ، بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ الإلهيةَ بلا زيادةٍ أو نقصانٍ ، وعاشوا يَنْظُرُونَ إلى الآخِرَةِ ، وَلَمْ يَأْكُلُوا الدُّنْيَا بالدِّينِ .

وفي إنجيل لوقا [٤ : ٨] : ((فردَّ عليه يسوع قائلاً: قد كُتب: للربِّ إلهك تسجد، وإيَّاه وَخَدَه تَعْبُد !)) . وهذا دليلٌ مِنَ الإنجيل على أَنَّ المسيحَ يَدْعُو إلى عبادة الله وَخَدَه ، وهذه حُجَّةٌ باهرة تَنسِفُ فكرة ألوهية المسيح التي اخترعها النصارى ، وتُكذِّبُ الإنجيلَ والمسيحَ معاً .
وفي الحديث أَنَّ الصحابة _ رضي الله عنهم _ قالوا للنبي ﷺ : فنحن أحقُّ أن نَسجدَ لَكَ ، فقال : ((لا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أن يَسجدَ لِبَشَرٍ)) (3).

﴿ ولكنْ كُونُوا رَبَّانِيَّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (4).

ولكنْ كُونُوا حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ مُنْتَمِينَ إِلَى شَرِيعَةِ السَّمَاءِ ، وَمُنْسَوِينَ إِلَى الرَّبِّ _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى _ بتعليمكم الناس كتابَ الله ، ودراسته ، والعمل بِأحكامه ، وإقامة حُدُودِهِ . ولا شَكَّ أَنَّ هَدَفَ الْعِلْمِ هُوَ الْعَمَلُ . والمعنى : عُلِّمُوا النَّاسَ أَحْكَامَ دِينِهِمْ ، وَتَعَالِيمَ شَرِيعَتِهِمْ ، وَاشْرَحُوا لَهُمُ الْقَضَايَا الْإِيمَانِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ . وَجَدِيرٌ بِمَنْ دَرَسَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا . وَالرَّبَّانِيَّةُ قَائِمَةٌ _ أُسَاسًا _ عَلَى الْعِلْمِ وَالدِّرَاسَةِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى خُطُورَةِ فَضْلِ الْعَمَلِ عَنِ الْعِلْمِ . فَهَاتَانِ الْقِيَمَتَانِ الشَّرِيفَتَانِ مُتَلَازِمَتَانِ ، وَمَنْ فَصَلَهُمَا هَلَكَ .

وفي سُنَنِ الدَّارِمِيِّ (١ / ١٠٧) : ((عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيَّينَ ﴾ ، قَالَ : عُلَمَاءُ فَقَهَاءَ . أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : سَمِعْتُ سَفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ : يُرَادُ لِلْعِلْمِ الْحِفْظُ وَالْعَمَلُ وَالِاسْتِمَاعُ وَالْإِنْصَاتُ وَالتَّنَشُّرُ . قَالَ : وَأَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَنْ سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ قَالَ : أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ تَرَكَ مَا يَعْلَمُ ، وَأَعْلَمُ النَّاسِ مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ ، وَأَفْضَلُ النَّاسِ أَحْشَعُهُمُ لِلَّهِ)) .
وقال البَيْضاوي في تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٦) : ((﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ، بِسَبَبِ كَوْنِكُمْ مُعَلِّمِينَ الْكِتَابَ ، وَبِسَبَبِ كَوْنِكُمْ دَارِسِينَ لَهُ ، فَإِنَّ فَائِدَةَ التَّعْلِيمِ وَالتَّعَلُّمِ مَعْرِفَةٌ

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣ / ١٥٨) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٥٥٦) : ((رواه أحمد والبرزّار ورجاله رجال الصحيح، غَيْرَ خَفِصَ ابْنُ أَخِي أَنَسٍ وَهُوَ ثِقَةٌ)) اهـ. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ١٩٧) : ((رواه أحمد والنسائي بإسناد جيّد ، زُوَاتِهِ ثِقَاتٌ مَشْهُورُونَ ، وَالْبَرَزَّارُ بَنَحْوُهُ)) .

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤١٣) : ((فَأَمَّا الرَّبَّانِيُّونَ . فَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّهُ قَالَ : " هُمُ الَّذِينَ يُعْذُونَ النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ ، وَيُرْتُونَهُمْ عَلَيْهَا " . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ : هُمُ الْفُقَهَاءُ الْمُعَلِّمُونَ . وَقَالَ قَتَادَةُ وَعَطَاءُ : هُمُ الْفُقَهَاءُ الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَاحِدُهُمْ رَبَّانِيٌّ ، وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْمُعَلِّمُونَ)) .

الحق والخير ، للاعتقاد والعمل)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢ / ٥٢ و ٥٣) : ((أي بسبب مُشايرتكم على تعليم الكتاب ، ودراسته أي قراءته ، فَإِنَّ جَعَلَ خَيْرَ كَانَ مُضَارِعًا لإفادة الاستمرار التَّجديدي ، وتكرير " بما كنتم " للإيذان باستقلال كُلِّ من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الرِّبائِيَّة ، وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها ، أو لأنَّ الخطاب الأول لِرؤسائهم ، والثاني لِمَن دُونَهُم)) اهـ .

وَالرَّبَّانِيُّ مَنْسُوبٌ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى ، وَهُمْ الَّذِينَ يُرْتَبُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ . إِذْ إِنَّهُمْ الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ ، الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَالْأَمَرَ وَالنَّهْيَ . وَالرَّبَّانِيُّ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ ، لِذَلِكَ فَهُوَ فِي مَرْتَبَةٍ تَفُوقُ مَرْتَبَةَ الْعَالِمِ . وَيَكْفِيهِ شَرَفًا أَنَّ اللَّهَ نَسَبَهُ إِلَيْهِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤] .

قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمَشْرِكِينَ : أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ إِلَهًا مَعْبُودًا ؟ . وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلإِنكَارِ وَالتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ . وَالْمَعْنَى : لَا اتَّخَذَ إِلَهًا مَعْبُودًا إِلَّا اللَّهُ ، وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمُبْدِعُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ . وَهَذَا رَدٌّ بَلِيغٌ عَلَى الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ١٠ و ١١) : ((قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْفَاطِرُ مَعْنَاهُ الْخَالِقُ ، وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْمُبْتَدِئُ . وَمِنْهُ : " كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ " أَيِ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقَةِ ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِاللَّهِ حِينَ أَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بئرٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَطَرْتُهَا أَيِ أَنَا ابْتَدَأْتُهَا)) اهـ .

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ . اللَّهُ يَرْزُقُ خَلْقَهُ وَلَا يُرْزَقُ . يُطْعِمُ خَلْقَهُ وَلَا يَأْكُلُ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ١٧٠) : ((أَيِ وَهُوَ الرِّزَاقُ لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ احتِياجٍ إِلَيْهِمْ)) اهـ .

وَتَخْصِيصُ الطَّعَامِ بِالذِّكْرِ ، بِسَبَبِ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَلَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ ، أَوْ لِأَنَّ الطَّعَامَ مُعْظَمَ مَا يَصِلُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الرِّزْقِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ١١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ . قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِضَمِّ الْيَاءِ مِنَ الثَّانِي . وَمَعْنَاهُ : وَهُوَ يَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ ، لِأَنَّ بَعْضَ الْعَبِيدِ يَرْزُقُ مَوْلَاهُ . وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ وَالْأَعْمَشُ : " وَلَا يُطْعَمُ " بَفَتْحِ الْيَاءِ . قَالَ الرَّجَاجُ : وَهَذَا الْاِخْتِيَارُ عِنْدَ الْبُصَرَاءِ بِالْعَرَبِيَّةِ وَمَعْنَاهُ : وَهُوَ يَرْزُقُ وَيُطْعِمُ وَلَا يَأْكُلُ)) اهـ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ ، فانطلقنا معه ، فلما طعم وغسل يديه - أو قال : يده - قال : ((الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ...)) (5) .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ قَائِدُ الْأُمَّةِ وَرَأْسُهَا وَالْقُدْوَةُ الْعُلْيَا وَالْمَرْجِعُ السَّامِي ، فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَأْمُرَهُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُسْلِمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَالْإِسْلَامُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعْنَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَيَتَّخِذُونَ آلِهَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرْكَ ، فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْخِطَابِ هُمْ النَّاسُ ، وَتَحْذِيرُهُمْ مِنَ الشَّرْكَ . فَالْمُؤْمِنُ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِالْإِيمَانِ ، وَيَحْذَرُ الْوُقُوعَ فِي الشَّرْكَ ، وَالْمُشْرِكُ عَلَيْهِ أَنْ يَقْلَعَ عَنْ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ، وَيَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَالْمَعْنَى الْعَامُ : لَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، وَنَهَانِي عَنِ الشَّرْكَ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٥٨ / ٥) : ((وَقُلْ لَهُمْ أَيْضًا : إِنِّي أَمَرْتُ رَبِّي : ﴿ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ يَقُولُ : أَوَّلَ مَنْ خَضَعَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَتَذَلَّلَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَانْقَادَ لَهُ مِنْ أَهْلِ دَهْرِي وَزَمَانِي . ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يَقُولُ : وَقُلْ لِي : لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْآلِهَةَ وَالْأَنْدَادَ شُرَكَاءَ . وَجَعَلَ قَوْلُهُ : ﴿ أُمِرْتُ ﴾ بَدَلًا مِنْ "قِيلَ لِي" ، لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أُمِرْتُ ﴾

مَعْنَاهُ : قِيلَ لِي . فَكَأَنَّهُ قِيلَ : قُلْ إِنِّي قِيلَ لِي : كُنْ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَاجْتَرَأَ بِذِكْرِ الْأَمْرِ مِنْ ذِكْرِ الْقَوْلِ ، إِذْ كَانَ الْأَمْرُ مَعْلُومًا أَنَّهُ قَوْلٌ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٨] .

اللَّهُ يُرْسِلُ الرُّسُلَ لِمُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلِتَخْوِيفِ الْكَافِرِينَ مِنْ شِقَاةِ الدُّنْيَا وَالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ . إِنَّهُمْ مُبَشَّرُونَ بِالنَّوَابِ ، وَمُنذَرُونَ بِالْعِقَابِ . وَهَذِهِ هِيَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ ، وَلَيْسَتْ وَظِيفَتُهُمْ إِحْضَارُ الْآيَاتِ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكَافِرُونَ ، فَالرُّسُلُ يَأْتُونَ بِالْآيَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ يَخْتَارُ الْآيَاتِ تَصْدِيقًا لَهُمْ ، وَإِفْحَامًا لِلْخُصُومِ ، وَلَا أَحَدٌ يَفْرُضُ شُرُوطَهُ عَلَى اللَّهِ

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣١) برقم (٢٠٠٣) وصحَّحه .

تعالى . والله أعلم بما يصلح الناس وما يفسدهم ، ويعلم عنهم ما لا يعلمونه عن أنفسهم ، فهو سبحانه خالقهم ، والخالق أعلم بالمخلوق من نفسه .

والرسالة السماوية كاملة لا نقص فيها ، جاءت لإسعاد الناس في الدنيا والآخرة ، ومنحهم النعيم في الدنيا (الحياة الكريمة السعيدة) والنعيم في الآخرة (الجنة الأبدية) . أمّا ما يقترحه الكافرون ويطلبونه من الآيات ، فهذا نابغ من كفرهم وعنادهم ووساوسهم ، ولا علاقة له بالرسالة السماوية الكاملة الغنية عن الاقتراحات والتعليقات ، والمنزهة عن النقد والتشكيك والافتراء . والفعل المضارع ﴿ تُرْسِلُ ﴾ يشير إلى الاستمرارية ، وأن عادة الله في إرسال الرسل مستمرة لا تتغير . وصدق الرسل واضح بالحجج الباهرة ، والأدلة العقلية ، والبراهين المادية . وكل رسول من عند الله ، إنما يأتي إلى الناس ومعه دليل صدقه ، ولا يأتي خالي الوفاض . ولا غدر للكافرين في كفرهم ، لأنّ الحجة قد أقيمت عليهم بالدليل المعنوي والدليل المادي .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ١٧٠) : ((وما تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل : أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعد الله له من الجزاء العظيم ، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الويل . وقيل : مبشرين في الدنيا بسعة الرزق ، وفي الآخرة بالثواب ، ومنذرين مخوفين بالعقاب . وهما حالان مقدرتان : أي ما تُرْسِلُهُمْ إِلَّا مُقَدَّرِينَ تَبَشِيرَهُمْ وَإِنْدَارَهُمْ)) اهـ .

فَمَنْ آمَنَ بِالرَّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَأَصْلَحَ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى ، وَأَصْلَحَ غَيْرَهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالْإِرْشَادِ وَالتَّوَجُّهِ ، فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ حِينَ يَخَافُ أَهْلُ النَّارِ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنُوا . لقد أجاز الله المؤمنين من الخوف والحزن بما أعد لهم في الآخرة من النعيم الأبدي الذي لا يزول ولا ينقطع ، فلا خوف عليهم من العذاب ، ولا هم يحزنون بقوات الأجر ، فلا شيء يضيع عند الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٨٠) : ((﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : فَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلُهُ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُمْ ﴾ فلا خوف عليهم ﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه ﴾ ولا هم يحزنون ﴾ أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها . الله وليهم فيما خلّفوه ، وحافظهم فيما تركوه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود : ٢] .

نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الْمُعْجِزُ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَالنَّبِيُّ ﷺ نَذِيرٌ ، يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ اخْتَارُوا الْمَعْصِيَةَ ، وَيُشِيرُ ، يُشِيرُهُمْ بِالْجَنَّةِ إِنْ اخْتَارُوا الطَّاعَةَ . وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ مِنْهُ ﴾ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . يَعْنِي : النَّبِيُّ ﷺ نَذِيرٌ وَيُشِيرٌ مِنَ اللَّهِ . أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ وَالْبَشَارَةِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ : نَذِيرٌ بِالْعَذَابِ إِنْ كَفَرْتُمْ ، وَيُشِيرُ بِالثَّوَابِ إِنْ آمَنْتُمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ٩) : ((وَقِيلَ : هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، أَيْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنْ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ ، أَيْ اللَّهُ نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ)) اهـ .

وقد قال النبي ﷺ لِقُرَيْشٍ حِينَ جَمَعَهُمْ : ((فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)) (٦) . يُخَوِّفُهُمْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ، إِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَرَفَضُوا الْإِيمَانَ ، وَوَاصَلُوا مُحَارَبَةَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّرْهيبَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَقْوَى تَأْثِيرًا مِنَ التَّرْغِيبِ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرَّعْدُ : ٧] .

يفرق الكافرون في عنادهم وجهلهم وضلالهم ، فيطلبون أَنْ يَأْتِيَ مُحَمَّدٌ بِمُعْجِزَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوءَتِهِ ، مِثْلَ مُعْجِزَاتِ مُوسَى وَعِيسَى — عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — . وَيَأْتِي الرَّدُّ الْإِلَهِيُّ الْمُنْفِجُ : إِنَّمَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ مُنْذِرٌ ، تُخَوِّفُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْزِلَ الْآيَاتِ ، لِأَنَّ الْآيَاتِ بِيَدِ اللَّهِ وَحَدَهُ . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُخَوِّفُ الْكَافِرِينَ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — . إِنَّهُمْ مُنْذِرُونَ ، وَلَا يَخْتَارُونَ الْمُعْجِزَاتِ ، وَلَا يُحَدِّدُونَ وَقْتَ نُزُولِهَا مِنْ عَدَمِهِ . وَالْآيَةُ تُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، فَمَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ إِلَّا إِنْذَارُهُمْ ، وَلَا تَهْتَمُ بِعِنَادِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ لِلْمُعْجِزَاتِ الَّتِي جِئْتَ بِهَا . وَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَلِّغُ رِسَالَةَ السَّمَاءِ كَامِلَةً ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُثَبِّتَ الْإِيمَانَ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، فَاللَّهُ هُوَ الْهَادِي .

وهؤلاء الكافرون يسيرون إلى الهاوية بأقدامهم ، فَقَدْ طَلَبُوا الْآيَاتِ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْإِيمَانِ ، وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ اللَّهِ بِإِهْلَاكِ الْأَقْوَامِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ الَّتِي طَلَبُوهَا إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا ، لِذَلِكَ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنْ مَنَحَهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةَ ، وَأَمْهَلَهُمْ ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ ، لِذَلِكَ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ ، وَيَطْلُبُونَ

(٦) متفق عليه . البخاري (١٧٨٧ / ٤) برقم (٤٤٩٢) ، ومسلم (١ / ١٩٣) برقم (٢٠٨) .

هالك أنفسهم ، ورُبَّ امرئٍ حَتَفَهُ فِيمَا تَمَنَّاهُ . وَمَعَ هَذَا ، فَالنَّبِيُّ ﷺ جَاءَ بِمُعْجَزَاتٍ كَثِيرَةٍ وَكَافِيَةٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوتِهِ ، وَتُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ ، أَعْظَمُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ : مُعْجَزَةُ الْقُرْآنِ . لَكِنَّ الْكَافِرِينَ اسْتَصْغَرُوا هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةَ ، وَلَمْ يَعْتَدُوا بِهَا ، وَصَارُوا يَطْلُبُونَ مُعْجَزَاتٍ عِنَادًا وَكُفْرًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ ، وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي بَحْثِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، لَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ . فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَافِرِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ عِنَادًا .

وفي صفوة التفاسير (٦ / ٤١) : ((قَالَ فِي الْبَحْرِ : لَمْ يَعْتَدُوا بِالْآيَاتِ الْخَارِقَةِ الْمُنْزَلَةِ كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ ، وَانْقِيَادِ الشَّجَرِ ، وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ ، وَأَمْثَالِ هَذِهِ الْمُعْجَزَاتِ ، فَاقْتَرَحُوا عِنَادًا آيَاتٍ أُخْرَى)) اهـ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى إِنْزَالِ الْآيَاتِ ، وَالْإِتْيَانِ بِالْمُعْجَزَاتِ ، فَهَذَا الْأَمْرُ يَتِمُّ بِقُدْرَةِ اللَّهِ الْخَالِقِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَتِمُّ بِقُدْرَةِ الْمَخْلُوقِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَلِّغُ الرِّسَالَةَ الْإِلَهِيَّةَ بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ ، وَيُخَوِّفُ الْعِبَادَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرَّكُ وَفَقَّ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَتَحَرَّكُ حَسَبَ أَهْوَاءِ الْكَافِرِينَ وَطَلِبَاتِهِمْ وَاقْتِرَاحَاتِهِمْ . وَلَا أَحَدٌ يَفْرِضُ أَوْامِرَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَأَسْلُوبُ الْحَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ يتلاءم مَعَ سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيُنْكِرُونَ الرِّسَالَةَ الْمَحْمُودِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، وَهَذَا لَا يَنْفِي أَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ صِفَاتٍ أُخْرَى ، فَهُوَ بَشِيرٌ أَيْضًا ، وَلَيْسَ مُنْذِرًا فَحَسَبَ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٩٧) : ((﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ لِبَيَانِ أَنَّهُ ﷺ مُرْسَلٌ لِإِنْذَارِ الْعِبَادِ ، وَبَيَانِ مَا يَحْذَرُونَ عَاقِبَتَهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَقَدْ فَعَلَ مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَأَنْذَرَ أَبْلَغَ إِنْذَارٍ ، وَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى بِهِ ، وَأَوْضَحَهُ وَكَرَّرَهُ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنْ أُمَّتِهِ خَيْرًا)) . وَلِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِمَا يُعْطِيهِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَلَيْسَ بِمَا يَقْتَرِحُهُ الْكَافِرُ . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يَخْتَارُونَ مُعْجَزَاتِهِمْ . وَمُعْجَزَاتُ الرُّسُلِ تَخْتَلِفُ ، لِأَنَّهَا تَجْرِي وَفَقَّ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ يُعْطِي الْمُعْجَزَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِكُلِّ نَبِيٍّ ، وَالتِّي تَتَلَاءَمُ مَعَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَطَبِيعَةِ النَّاسِ . وَالْغَايَةُ مِنَ الْمُعْجَزَةِ بَيَانُ صِدْقِ النَّبِيِّ ، لِأَنَّهَا أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ . وَوُضِعَتْ الْأَنْبِيَاءُ هِيَ إِنْذَارُ النَّاسِ ، وَتَخْوِيفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَلَا عِلَاقَةَ لَهُمْ بِاخْتِيَارِ الْمُعْجَزَاتِ . إِنَّهُمْ يَخْضَعُونَ لِأَوْامِرِ اللَّهِ ، وَلَا يَخْضَعُونَ لَشُرُوطِ الْكَافِرِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٩ / ٢٤٣) : ((وَقِيلَ : الْهَادِي اللَّهُ ، أَيِ عَلَيْكَ الْإِنْذَارُ ، وَاللَّهُ هَادِي كُلِّ قَوْمٍ إِنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُمْ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٣٠٦ و ٣٠٧) :

((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لَوْلَا بِمَعْنَى هَلَا . وَالْآيَةُ الَّتِي طَلَبُوهَا مِثْلَ عَصَا مُوسَى وَنَاقَةِ صَالِح ، وَلَمْ يَقْنَعُوا بِمَا رَأَوْا ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أَي : مُخَوِّفٌ عَذَابَ اللَّهِ ، وَلَيْسَ لَكَ مِنَ الْآيَاتِ شَيْءٌ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْهَادِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالنَّخَعِيُّ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : إِنَّمَا إِلَيْكَ الْإِنذَارُ ، وَاللَّهُ الْهَادِي . وَالثَّانِي أَنَّ الْهَادِي الدَّاعِي ، رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْهَادِي النَّبِيُّ ﷺ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ ، فَالْمَعْنَى وَلِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيٌّ يُنْذِرُهُمْ . وَالرَّابِعُ أَنَّ الْهَادِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيْضًا ، قَالَهُ عِكْرَمَةُ وَأَبُو الضَّحَى ، وَالْمَعْنَى أَنْتَ مُنْذِرٌ وَأَنْتَ هَادٍ . وَالْخَامِسُ أَنَّ الْهَادِي الْعَمَلُ ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ . وَالسَّادِسُ أَنَّ الْهَادِي الْقَائِدَ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ إِلَى الشَّرِّ ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَدْ رَوَى الْمُفَسِّرُونَ مِنْ طَرُقٍ لَيْسَ فِيهَا مَا يَثْبُتُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ ، فَقَالَ : " أَنَا الْمُنْذِرُ " وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْكِبِ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : " أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ ، بِكَ يَهْتَدِي مِنَ بَعْدِي " . قَالَ الْمَصْنَفُ : وَهَذَا مِنْ مَوْضُوعَاتِ الرَّافِضَةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [التَّحَلُّ : ٦٤] .

إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، لِيُوضِّحَ لِلنَّاسِ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ وَالْبَعْثِ _ وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ _ ، فَيَفْصِلُ الْحَقَّ عَنِ الْبَاطِلِ ، وَهَذَا الْبَيَانُ النَّبَوِيُّ التَّوْضِيحِيُّ يُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَقْطَعُ أَعْذَارَهُمْ ، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ وَلَا فُرْصَةَ لِلتَّهَرُّبِ مِنَ الْحَقِيقَةِ . وَكُلُّ الْأُمَمِ الْهَالِكَةِ إِنَّمَا هَلَكَتْ بَعْدَ أَنْ أُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَكُونُوا أَبْرِيَاءَ وَلَا مَعْدُورِينَ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٤٨) : ((أَي : مَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَلَا لِعِلَّةٍ مِنَ الْعِلَلِ إِلَّا لِعِلَّةِ التَّبَيِّنِ لَهُمْ : أَيِ لِلنَّاسِ ، الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ، وَأَحْوَالِ الْبَعْثِ ، وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ)) اهـ .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَرُشْدًا وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَكُتِبَهِ وَرُسُلُهُ . وَالْهُدَى وَالرَّحْمَةُ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ . وَالْمَعْنَى: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا تَوْضِيحًا لِلنَّاسِ ، وَتَبْيَانًا لَهُمْ ، وَرُشْدًا وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٦٠٥) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يَقُولُ :

﴿ وَهُدًى ﴾ بَيَانًا مِنَ الصَّلَاةِ ، يعني بذلك الكتاب . ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بِهِ ، فَيُصَدِّقُونَ بِمَا فِيهِ وَيُقَرُّونَ بِمَا تَضَمَّنَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ ، ويعملون به . وعطف بالهدى على مَوْضِعِ ﴿ لِتُبَيِّنَ ﴾ لِأَنَّ مَوْضِعَهَا نَصَبٌ ، وإنما معنى الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا للناس ، فيما اختلفوا فيه ، هُدًى وَرَحْمَةً ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .
الأنبياءُ يشهدون على أممهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ رِسَالَةَ اللَّهِ تَعَالَى .

والأنبياءُ ليسوا غريبين عن أممهم ، لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى الْأُمَّةِ الَّتِي يَنْتَمِي إِلَيْهَا ، مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا ، وَقَطْعِ عُذْرِهَا . وَلَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَى غَيْرِ أُمَّتِهِ ، لَقَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ غَرِيبٌ عَنَّا ، وَلَا يَنْتَمِي إِلَيْنَا ، وَلَيْسَ مِنْ جِنْسِنَا ، وَلَا يَعْرِفُنَا وَلَا نَعْرِفُهُ ، وَنَجِدُ صَعُوبَةً فِي التَّوَاصُلِ مَعَهُ . وَسَوْفَ يَتَّخِذُونَ هَذَا الْأَمْرَ ذَرِيعَةً لِلْكَفْرِ ، وَقَدْ أَعْلَقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذَا الطَّرِيقَ ، وَأَقَامَ عَلَى النَّاسِ الْحُجَّةَ بِأَنَّهُ أَرْسَلَ الْأَنْبِيَاءَ إِلَى أَقْوَامِهِمْ ، وَقَطَعَ كُلَّ الْأَعْذَارِ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَشْهَدُ كُلُّ نَبِيٍّ عَلَى أُمَّتِهِ ، فَيُصَدِّقُهَا أَوْ يُكَذِّبُهَا . وَالْأُمَّةُ تَكُونُ حَاضِرَةً لَا غَائِبَةً ، كَيْ تَسْمَعَ شَهَادَةَ نَبِيِّهَا عَلَيْهَا .
وَيُخَاطَبُ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ . وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِكَ الَّتِي أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهَا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٦٨) : ((يعني أُمَّتَكَ . أي : اذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ ، وَمَا مَنَحَكَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ)) اهـ .

وَنَزَّلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ بَيَانًا لِلْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْمَوَاعِظِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَهُدًى مِنَ الضَّلَالِ ، وَرَحْمَةً لِلْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِكَلَامِ اللَّهِ ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ ﷺ ، وَبُشْرَى لَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَهُمُ السَّعَادَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ . وَالْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَالْبُشْرَى خَاصَّةٌ بِالْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُمْ وَحْدَهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ . وَالْقُرْآنُ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، وَقَدْ وَضَّحَ الْقُرْآنُ الْأُمُورَ وَالنَّوَاحِي .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ السِّيَاقَ الْقُرْآنِيَّ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ يَشْتَمِلُ عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، فَالْأُمُورُ لَا تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ ، بَلْ هُنَاكَ مَحْكَمَةُ إِلَهِيَّةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهَنَاكَ أَنْبِيَاءُ شُهُودٌ عَلَى أُمَمِهِمْ

الحاضرة لا الغائبة . وكلُّ أُمَّةٍ تستمع إلى شهادة نبيِّها ، وهناك أدلة وأحكام بالخلود ، إمّا في الجنة أو النار .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١٣٥ / ٥) : ((وَجِئْنَا بِكَ)) إشار لفظ المجيء على البعث ، لكمال العناية بشأنه _ عليه السلام _ . وصيغَةُ الماضي للدلالة على تحقُّق الوقوع)) اهـ .
وقال البيضاوي في تفسيره (٤١٦ / ١) : ((تَبَيَّنَا)) بيانا بليغا « لِكُلِّ شَيْءٍ » من أمور الدِّين على التفصيل أو الإجمال ، بالإحالة إلى السُّنة أو القياس . « وَهُدَى وَرَحْمَةً » للجميع ، وإنما حرمان المحروم من تفريطه . « وَبُشِّرَى لِلْمُسْلِمِينَ » خاصّة)) اهـ .

والنَّاء في « تَبَيَّنَا » للمبالغة . فالقرآن فيه التَّوضيح الشافي والبيان الكافي للقواعد والأصول والفروع والأحكام ، وفيه إظهار لدور السُّنة النبوية في التشريع ، وضرورة اتِّباع النبي ﷺ ، فالقرآن والسُّنة كلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ، لا يُقبل أحدهما بدون الآخر، والسُّنة شارحة للقرآن ومُبيِّنة له .

وقال الطبري في تفسيره (٦٣٣ / ٧) : ((وَرَحْمَةً)) لِمَنْ صَدَّقَ بِهِ ، وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه، فَأَحَلَّ حلاله ، وَحَرَّمَ حرامه . « وَبُشِّرَى لِلْمُسْلِمِينَ » يقول : وبشارة لِمَنْ أطاع الله، وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يُبَشِّرُهُ بِجَزِيلِ ثَوَابِهِ فِي الْآخِرَةِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ)) .
والآيتان « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ » و « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ » تُشيران إلى ارتباط تنزيل القرآن بشهادة النبي ﷺ على أُمَّته . وكأنَّ المعنى : إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ ، وَفَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَهُ ، سَوْفَ يَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤٦ / ١٠) : ((فِي كُلِّ زَمَانٍ شَهِيدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا . وَفِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ أُمَّةُ الْهُدَى الَّذِينَ هُمْ خُلَفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ . الثَّانِي : أَنَّهُمْ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ حَفِظَ اللَّهُ بِهِمْ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ . قُلْتُ (يَعْنِي الْقُرْطُبِيُّ) : فَعَلَى هَذَا لَمْ تَكُنْ فِتْرَةٌ إِلَّا وَفِيهَا مَنْ يُؤَخِّدُ اللَّهَ كَقِسِّ ابْنِ سَاعِدَةَ وَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ : " يُبْعَثُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ " (7) ، وَسَطِيحٌ ،

(٧) تُؤَفِّى زَيْدٌ عَلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : ((يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَحْدَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَيْسَى)) [سُنَنِ النَّسَائِيِّ الْكَبِيرِ (٥ / ٥٤)] . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (١ / ٢٣٦) : سَنَدُهُ جَيِّدٌ .

وورقة بن نوفل الذي قال فيه النبي ﷺ : " رَأَيْتُهُ يَنْعِمُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ " (8)، فهؤلاء وَمَنْ كَانَ مِثْلُهُمْ حُجَّةً عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وشهيد عليهم ، والله أعلم)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُم أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٤] .

الله يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . والهداية والإضلال خاضعان لمشئة الله تعالى . إِنْ يَشَأْ اللهُ يَهْدِي الْإِنْسَانَ ، وَيَمْنَحُهُ الْإِيمَانَ ، وَيُوقِّعُهُ لَطَاعَةَ اللهِ تَعَالَى ، فيفوز في الدَّارَيْنِ ، وبذلك يكون الله تعالى قَدْ رَحِمَهُ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ اللهُ يُضِلُّ الْإِنْسَانَ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ ، ولأنه ذُو قَلْبٍ نَجَسَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ ، فيخسر الدَّارَيْنِ ، وَيَكُونُ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ . والمعنى : إِنْ يَشَأْ يَمْنَحُكُم الْإِيمَانَ فَيَرْحَمُكُمْ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يَخْتِمُ لَكُمْ بِالْكَفْرِ فَيُعَذِّبْكُمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٧ و ٤٨) : ((قوله تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ فَيَمَنْ خُوطِبَ بِهَذَا، قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، ثُمَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكُمْ فَيَنْجِيَكُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ فَيُسَلِّطُهُمْ عَلَيْكُمْ، رواه ابو صالح عن ابن عباس . والثاني: إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكُمْ بِالتَّوْبَةِ أَوْ يُعَذِّبْكُمْ بِالْإِقَامَةِ عَلَى الذُّنُوبِ، قاله الحسن . والثاني أَنَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ، ثُمَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكُمْ فَيَهْدِيكُمْ لِلْإِيمَانِ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ فَيَمِيتُكُمْ عَلَى الْكُفْرِ، قاله مقاتل، والثاني أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ الْقَحْطُ بِالْمُشْرِكِينَ، فَقَالُوا : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدُّخَانُ : ١٢] . قال الله تعالى: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ مَنْ الَّذِي يُؤْمِنُ وَمَنْ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ . إِنْ يَشَأْ يَرْحَمُكُمْ فَيَكْشِفُ الْقَحْطَ عَنْكُمْ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ فَيَتْرَكُهُ عَلَيْكُمْ، ذَكَرَهُ أَبُو سَلِيمَانَ)) .

والنبي ﷺ ليس حفيظاً على الناس ، وَلَا يُحَاسِبُهُمْ ، وَلَا يَمْلِكُ أَنْ يُدْخِلَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، يُبَلِّغُ رِسَالَةَ اللهِ ، بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجْبِرَ النَّاسَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَمْلِكُ سُلْطَةً حِسَابِ النَّاسِ . وحسابُ العبادِ على رَبِّ الْعِبَادِ ، والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥١) : ((﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ مَوْكُولًا إِلَيْكَ أَمْرُهُمْ، تَقْسِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، فَدَارِهِمْ وَمُرُ أَسْحَابِكَ بِالْإِحْتِمَالِ مِنْهُمْ .

(٨) لَمْ أَقِفْ عَلَى تَحْرِيجِهِ .

وروي أن المشركين أفرطوا في إيدائهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وقيل : شتم عمر رضي الله تعالى عنه رجل منهم، فهم به فأمره الله بالعفو ((اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٤٢) : ((ربُّكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذّبكم)) هذا خطاب للمشركين . والمعنى : إن يشأ يوفّقكم للإسلام فيرحمكم ، أو يُميتكم على الشّرك فيُعذّبكم . قاله ابن جرير . وأعلم بمعنى عليم ، نَحْو قولهم : الله أكبر ، بمعنى كبير . وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أي : إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة ، أو إن يشأ يعذّبكم بتسليطهم عليكم ، قاله الكلبي . ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلًا ﴾ أي : وما وُكّلناكَ في منعهم من الكفر ، ولا جعلنا إلك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلاً لهم تُؤخذ بهم ، قاله الكلبي ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ أنّما إِلَهُكُم إِلَهٌ واحدٌ فمن كان يرجو لقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنّما أنا إنسان من جنسكم ، خصّني الله بالنبوة ، وأنزل عليّ الوحي ، وإنّ الله يُوحى إليّ أنّه سبحانه إِلَهُكُم ، واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، لا شريك له ولا ند . وهذا إرشادٌ إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والإقرار برؤوبيته وألوهيته .

وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٦٦) : ((أي : لا أعلم إلا ما يُعلّمني الله تعالى ، وعلم الله تعالى لا يُحصى ، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنّه لا إله إلا الله)) اهـ .

والنبي ﷺ إنسان مثل الناس ، لا ملك ولا جنّي ، ولكنّ الله اختاره نبيًا ، ولا علم له إلا ما علّمه الله تعالى . ولا يملك من أمره شيئًا . والفرق بين النبي ﷺ والناس أنّ النبي ﷺ يُوحى إليه ، وهذا ما يميّزه عن الناس . إنّ النبي ﷺ كائنٌ بشريّ كالْبَشَر ، مُساوٍ لهم في الأمور الدنيوية والمعيشية ، ويختلف عنهم في مجال الأوامر الدينية ، إذ إنه ﷺ يمتاز عن البشر بالوحي الإلهي ، وهذه الخصوصية تعني تبليغ الأحكام الدينية التي تأتيه من السماء . والجدير بالذكر أنّ النبي ﷺ إنسان لا يعلم الغيب ، إلا إذا أطلعه الله عليه . ومن كذّب النبي ﷺ وشكّك في صحّة رسالته ، عليه أن يأتي بمثل القرآن ، كي يُثبت أنّ القرآن كلامٌ بشريّ من تأليف محمد . وبما أنّ الإنس والجنّ عاجزون عن المعجزة بمثل القرآن الذي جاء به محمد الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، إذن ، يجب التسليم بأن القرآن ليس من عند محمد ، وإنما من عند الله تعالى .

وقد علّم الله محمدًا التواضع ، وضرورة التركيز على بشريته ، وعدم التكبر على الناس لأنّه نبيّ يأتيه خبر السماء . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢١٢) : ((قال ابن عباس : علّم الله رسوله

التواضع، لئلا يزُهو على خلقه، فأمره أن يُقرَّ فيقول : إني آدميٌّ مثلكم ، إلا أنني خُصِصْتُ بالوحي، وأكرمني الله به ، يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد لا شريك له)) اهـ .
﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَيَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ بسبب المعصية. والرجاء هو توقُّع وصول الخير في المستقبل. وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢١٢) : ((أي : يخاف المصير إليه . وقيل : يأمل رؤية رَبِّهِ . فالرجاء يكون بمعنى الخوف والأمل جميعاً)) .

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ فليعمل الطاعات (الأعمال الموافقة لشريعة الله تعالى) .
﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، ولتكن أعماله خالصةً لوجه الله وحده لا شريك له . وهنا تبرز القاعدة الشرعية الخالدة: إنَّ العمل المقبول يجب أن يكون مُوافِقًا للشَّرْع ، وخالصًا لله وحده.

والشُّركُ نوعان : شُرْكٌ جَلِيٌّ مُخْرِجٌ مِنَ الْإِسْلَامِ مثل عبادة الأصنام، وشُرْكٌ خَفِيٌّ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْإِسْلَامِ وهو الرِّياء . وهذان النوعان مرفوضان جُملةً وتفصيلاً .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥ / ٢٥١) : ((﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ ... والمراد بلقائه تعالى كرامته . وإدخال الماضي على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ، أي فَمَنْ استمر على رجاء كرامته تعالى ، فليعمل لتحصيل تلك الطَّلِبَةِ (الحاجة) العزيزة عملاً صالحاً في نفسه ، لا تَفْلاً بذلك المرجو ، كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا إِشْرَاكًا جَلِيًّا ، كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، وَلَا إِشْرَاكًا خَفِيًّا ، كما يفعله أهل الرِّياء ، وَمَنْ يَطْلُبْ بِهِ أَجْرًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٢٠٢ و ٢٠٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ سبب نزولها أَنَّ جُنْدُبَ بْنَ زُهَيْرٍ الْغَامِديَّ ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنْ أَعْمَلْتُ الْعَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِذَا طَلَعَ عَلَيْهِ سَرَّنِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ ، وَلَا يَقْبَلُ مَا رُؤِيَ فِيهِ " . فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقَالَ طَاوُوسٌ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنْ أَحَبَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَنْ يُرَى مَكَانِي ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنْ أَتَصَدَّقْتُ ، وَأَصِلُ الرَّحِمَ ، وَلَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى ، فَيَذْكُرُ ذَلِكَ مِنِّي وَأُحْمَدُ عَلَيْهِ فَيَسُرُّنِي ذَلِكَ ، وَأَعْجَبَ بِهِ ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ)) اهـ .

إنَّ المنهجية الإسلامية واضحة في قضية أعمال العبد ، فيجب أن يكون العمل صالحاً موافقاً للشَّرْع لا ابتداع فيه ، وخالصاً لوجه الله تعالى . وهذان الشرطان يجب تحقيقهما معاً ، ولا يُقبل أحدهما بدون الآخر .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رجل : يا رسول الله ، إنني أقفُ الموقف أُريد وجه الله ، وأريد أن يُرى مَوطني ، فلم يُردَّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٩).

وهذا يشير إلى خطورة الرياء (العمل لغير الله ، حيث يتم إظهار العمل للناس كي يَروُهُ ويمدحوا صاحبه) . والرياء مرفوضٌ مَهْمَا كَانَ حَجْمُهُ ، لأنَّه يَسْلُبُ العبادة معناها ، ويُحيل العبادات إلى إجراءات ميكانيكية مُوجَّهة لِتَبِيلِ رضا المخلوقين الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولا يملكون جَنَّةً ولا ناراً .

وعن شدَّاد بن أوس _ رضي الله عنه _ قال : ((كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله ﷺ أَنَّ الرِّياءَ الشَّرْكُ الأصغر)) (١٠).

وتسميهُ الرياء بالشَّرْك الأصغر تغليظاً له ، وتخويفاً منه ، ومُبالغةً في الزَّجر عنه .

وقال الله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

لَمْ يُرْسَلِ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأحكام الشريعة إلا رَحْمَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ كَافَّةً . لقد رَحِمَ اللهُ الْمَخْلُوقَاتِ بِالنَّبِيِّ ﷺ . فالنبي ﷺ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ هَدَاهُمْ اللهُ بِهِ ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَمَنْحَهُمُ الْجَنَّةَ الْأَبَدِيَّةَ . وأيضاً ، النبي ﷺ رَحْمَةٌ لِلْكَافِرِينَ ، فَاللهُ لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ كَمَا كَانَ حَالُ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ فِي الْمَاضِي ، وَذَلِكَ إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ . وهكذا ، فَازَ الْمُؤْمِنُونَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَسَلِمَ الْكَافِرُونَ مِنَ الْخُسْفِ وَالْمَسْخِ وَالْفَنَاءِ . وقيل : النبي ﷺ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً . والصحيح أَنَّهُ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

إنَّ اللهُ أَهْلَ كُفْرَارٍ قُرَيْشٍ ، وَلَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ بِالْعَذَابِ ، إِكْرَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ . وقد جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى أَلَا يُعَذَّبُ قَوْمًا وَفِيهِمْ نَبِيُّهُمْ . وقد اغترَّ الكافرون بِالْمُهَلَّةِ الإلهية ، وَتَمَادَوْا فِي ضَلَالِهِمْ ،

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٢٢) برقم (٢٥٢٧) وصَحَّحْهُ ، ووافقه الذهبي .

(١٠) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٦٥) برقم (٧٩٣٧) وصَحَّحْهُ ، ووافقه الذهبي .

لأن العذاب لم ينزل عليهم ، وقد غرهم حلم الله عليهم ، وفسروه بشكل خاطئ ، وكأنّ المشركين يقولون : إننا على الحق بدليل أن العذاب لم ينزل علينا ، ولو كنّا نعصي الله لعذبنا (11) .
وفي تفسير الجلالين (١ / ٢٣٢) : ((لأنّ العذاب إذا نزل عمّ ، ولمّ تعدّ أمة إلا بعد خروج نبيّها والمؤمنين منها)) اهـ .

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم . فنزلت : ﴿ وما كان الله ليُعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله مُعذّبهم وهم يستغفرون ﴾ ... (12) .

(١١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٩) : ((قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليُعذّبهم وأنت فيهم ﴾ في المُشار إليه قولان : أحدهما : أهل مكة ، وفي معنى الكلام قولان : أحدهما : وما كان الله ليُعذّبهم وأنت مُقيم بين أظهرهم ، قال ابن عباس : لمّ تُعذّب قرية حتى يخرج نبيّها والمؤمنون معه . والثاني : وما كان الله ليُعذّبهم وأنت حيّ ، قاله أبو سليمان . والثاني أنّ المُشار إليهم المؤمنون . والمعنى : وما كان الله ليُعذّب المؤمنين بضرب من العذاب الذي أهلك به من قبلهم وأنت حيّ ، ذكره أبو سليمان الدمشقي)) .
(١٢) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٧٠٥) برقم (٤٣٧٢) ، ومسلم (٤ / ٢١٥٤) برقم (٢٧٩٦) .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٥٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وما كان الله مُعذّبهم وهم يستغفرون ﴾ وفي معنى هذا الكلام خمسة أقوال : أحدها : وما كان الله مُعذّب المشركين ، وفيهم من قد سبق له أن يؤمن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، واختاره الرَّجَّاح . والثاني : وما كان الله مُعذّبهم وهم يستغفرون الله ، فإنهم كانوا يُلبّون ويقولون : غفرانك ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، وفيه ضعف ، لأن استغفار المشرك لا أثر له في القبول . والثالث : وما كان الله مُعذّبهم يعني المشركين ، وهم يعني المؤمنين الذين بينهم يستغفرون ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضّحّاك وأبو مالك . قال ابن الأنباري : وُصفوا بصفة بعضهم ، لأن المؤمنين بين أظهرهم ، فأوقع العموم على الخصوص ، كما يُقال : قتل أهل المسجد رجلاً ، وأخذ أهل البصرة فلاناً ، ولعله لم يفعل ذلك إلا رجل واحد . والرابع : وما كان الله مُعذّبهم ، وفي أصلاهم من يستغفر الله ، قاله مجاهد . قال ابن الأنباري : فيكون معنى تعذيبهم إهلاكهم فالمعنى : وما كان الله مُهلكهم وقد سبق في علمه أنه يكون لهم أولاد يؤمنون به ويستغفرونه ، = فوصفهم بصفة ذراريهم ، وغلبوا عليهم كما غلب بعضهم على كلّهم في الجواب الذي قبله . والخامس أن المعنى : لو استغفروا لما عذبهم الله ، ولكنهم لم يستغفروا فاستحقوا العذاب ، وهذا كما تقول العرب : ما كنتُ

لقد قال أبو جهل مقولته الشنيعة سُخْرِيَّةً واستهزاءً ، ومعنى كلامه : اللهمَّ إن كان القرآن حقًّا من عندك ، فأنزل علينا حجارةً من السماء عُقوبَةً لنا على كُفْرنا به ، أو أهلكنا بعذاب مُؤلم . إنه يدعو على نفسه بالعذاب والهلاك جهلاً منه وسَفَهًا وسُخْرِيَّةً واستهزاءً ، وهو يريد إظهار اليقين التام على كون القرآن باطلاً، وأن المشركين على حق. لقد استعجل العذاب بنفسه ، وأراد أن يُدمر نفسه بنفسه، وهذه هي فلسفة المشركين الباطلة . ولو كان أبو جهل خاصةً والمشركون عامةً أصحاب عُقول لقالوا : اللهمَّ إن كان هذا هو الحقُّ من عندك فاهدنا له ، أو وفّقنا للإيمان به .

والله تعالى يُمهِّل ولا يُهمِّل ، لا تستفزّه معصية الغصاة ، ولا يُثيره كُفر الكافرين . لا تنفعه الطاعة ، ولا تضرّه المعصية . وقد بيّن الله عِلَّةَ عدم تعذيبهم ، إذ إنّ فيهم أمانين : الأمان الأول _ وجود النبي ﷺ فيهم . والأمان الثاني : الاستغفار . وإذا زال هذان الأمانان ، فإنّ العذاب نازلٌ بهم . وهذا تخويفٌ لهم وتهديد شديد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((كان فيكم أمانان، مضت إحداهما ، وبقيت الأخرى: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنتَ فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾)) (13).

فالأمان الأول قد مضى بوفاة النبي ﷺ، أمّا الأمان الثاني وهو الاستغفار فباقٍ إلى يوم القيامة.

لأهنيك وأنت تُكرمني ، يُريدون : ما كُنْتُ لأهنيك لو أكرمتني ، فأما إذا لَسْتُ تُكرمني فإنك مستحق لإهانتي ، وإلى هذا القول ذهب قتادة والسُّدي . قال ابن الأنباري : وهو اختيار اللغويين. وذكر المفسِّرون في معنى هذا الاستغفار ثلاثة أقوال أحدها أنه الاستغفار المعروف وقد ذكرناه عن ابن عباس، والثاني أنه بمعنى الصلاة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ومنصور عن مجاهد وبه قال الضُّحاك ، والثالث أنه بمعنى الإسلام ، رواه ابن أبي جريح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة)) .

(١٣) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٢٦) برقم (١٩٨٨) وصحَّحه .

((وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قَوْمُكَ حينَ مَلَكُوا عليهم امرأة، قال: أجهل من قَوْمِي قَوْمُكَ، قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق : "إن كان هذا هو الحقُّ من عندك فأُمْطِرْ علينا حجارةً" ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له)) [تفسير الكشَّاف للزمخشري (١ / ٤٥٧) ، وانظر تفسير النسفي (٢ / ٦٣) ، والبيان والتبيين للجاحظ (١ / ٥٩٢) ، والمستطَرَف للأبشيهي (١ / ١٣٤)] .

والنبي ﷺ رحمة للعالمين . وَمَنْ قَبِلَ الرَّحْمَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ ، وَعَرَفَ قِيَمَتَهَا ، وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الإِلَهِيَّةَ الْعَظِيمَةَ ، حَصَلَ عَلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ (الجنة) ، وَمَنْ رَفَضَهَا ، وَلَمْ يَشْكُرْهَا ، فَقَدْ قَادَ نَفْسَهُ إِلَى شَقَاءِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ (النار) .

وفي تفسير القرطبي (١١ / ٣٠٦) : ((قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ بِهِ سَعِدَ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ سَلِمَ مِمَّا لَحِقَ الْأُمَمَ مِنَ الْخَسْفِ وَالْغُرُقِ . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة)) اهـ .
إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، وَرَحْمَةٌ لِلْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ وَكُلِّ عُنَاصِرِ هَذَا الْوُجُودِ . إِنَّهُ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ بِالْهُدَايَةِ ، وَرَحْمَةٌ لِلْمُنَافِقِ بِالْأَمَانِ ، وَرَحْمَةٌ لِلْكَافِرِ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١١١) : ((لَأَنَّ مَا بُعِثَ بِهِ سَبَبٌ لِإِسْعَادِهِمْ ، وَمُوجِبٌ لِصَلَاحِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ . وَقِيلَ : كَوْنُهُ رَحْمَةً لِلْكَفَّارِ ، أَمَّنَّهُمْ بِهِ مِنَ الْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَعَذَابِ الْاسْتِثْصَالِ)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يا أيها الناس ، إنما أنا رحمة مُهْدَاة)) (١٤).

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، أَهْدَاها اللهُ لِلخَلْقِ تَكْرِيماً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَعْظِيماً لِشَأْنِهِ ، وَإِحْسَاناً إِلَى الْخَلْقِ ، وَرَحْمَةً بِهِمْ ، وَإِكْرَاماً لَهُمْ . وَالْهُدْيَةُ إِنَّمَا تُبْعَثُ عَلَى وَجْهِ الْإِكْرَامِ . وَيَسَبِّبُ عَظَمَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَكَثْرَةَ إِحْسَانِهِ إِلَى النَّاسِ ، صَارَ هُوَ الرَّحْمَةُ بِعَيْنِهَا . وَمَنْ قَبِلَ هَذِهِ الْهُدْيَةَ الإِلَهِيَّةَ فَازَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَمَنْ رَفَضَهَا خَسِرَ فِي الدَّارَيْنِ .

وفي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٩ / ٢٦) : ((لَمْ يَقُلِ اللهُ تَعَالَى : رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِمَ الْخَلْقَ بِإِرْسَالِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ ، لِأَنَّهُ جَاءَهُمْ بِالسَّعَادَةِ الْكُبْرَى ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الشَّقَاوَةِ الْعَظْمَى ، وَنَالُوا عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَعَلَّمَهُمْ بَعْدَ الْجَهَالَةِ ، وَهَدَاهُمْ بَعْدَ الضَّلَالَةِ ، فَكَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، حَتَّى الْكَافِرَ رُحِمُوا بِهِ ، حَيْثُ أَخَّرَ اللهُ عَقُوبَتَهُمْ ، وَلَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ بِالْعَذَابِ ، كَالْمَسْخِ وَالْخَسْفِ وَالْغُرُقِ)) اهـ .

(١٤) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٩١) برقم (١٠٠) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٠٦) : عن أبي هريرة رضي الله عنه _ قال : قيل : يا رسول الله ، اذغ على المشركين ، قال : ((إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعْنًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)) .
 اللعن يتعارض تمامًا مع منهجية النبي ﷺ في الدعوة والإرشاد ، والنبي ﷺ لم يُبعث إلى الناس ليدمرهم ، ويقضي عليهم ، ويجعل حياتهم جحيمًا لا يُطاق ، وإنما بُعث لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . والبعثة المحمدية الإسلامية إنما هي رحمة للخلق ، وإنقاذ لهم من العذاب ، وإرشاد لهم إلى جنّة الدنيا وجنة الآخرة.

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٥٧٣) : ((لأنه حُسي بالرحمة والرفقة ، فاستنار قلبه بنور الله ، فرقت الدنيا في عينه ، فبدل نفسه في جنب الله ، فكان رحمة ومفرجًا ومأمّنًا وغياثًا وأمانًا ، فالعذاب لم يقصد من بعثته)) اهـ .

وعن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا ، فحلّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يَمُرُّون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهُمْ يَحْلُون رحالهم ، فجعل يتخلّلهم الراهب حتى جاء ، فأخذ بيد رسول الله ﷺ . قال : هذا سيّد العالمين ، هذا رسول ربّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟ ، فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبقَ شجرٌ ولا حجرٌ إلا خرّ ساجدًا ، ولا يسجدان إلا لنيي ، ... (15) .
 لقد خرج أبو طالب وهو سيّد بني هاشم إلى الشام ، ومعه النبي ﷺ ، وأشراف قريش ، فلما أشرفوا على الراهب بحيرا نزلوا ، ففتحوا رحالهم ، فخرج إليهم هذا الراهب على غير عادته ، وصار يمشي بينهم باحثًا عن شخص مُعيّن ، وكان النبي ﷺ هو المقصود .

(١٥) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٥٩٠) وقال : ((حسن غريب)) اهـ . وصحّحه الحاكم في المستدرک (٢ / ٦٧٢) . وفي كشف الخفاء (١ / ١٥٦) : ((قال الحافظ ابن حجر : الحديث رجاله ثقات ... وقال البيهقي : هذه قصة مشهورة عند أهل المغازي . وذكر الجلال السيوطي في الخصائص الكبرى لها شواهد)) .

ولا شكَّ أنَّ هذه القِصَّة قبل نُزول الوحي على محمد ﷺ ، وقد أدركَ هذا الراهبُ بما لديه من علوم التَّوراة والإنجيل ، أنَّ محمدًا ﷺ نبيُّ آخر الزمان ، وأيضًا ، استدلَّ بِسُجود الشجر والحجر له ، وهذا السُّجود سُجود تَحِيَّة وليس سُجود عبادة .

والراهبُ يُخيرا كان يُقيم في منطقة بُصرى الواقعة في جنوب سوريا ، وكانت لديه مُؤشَّرات ممَّا عنده من كُتب دينية ومأثورات على قُرب ظهور نبيٍّ في جزيرة العرب ، وهو نبيُّ آخر الزمان . وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الحج : ٤٩] .

الخطابُ للمشرِكين الذين يَسْتعجلون العذاب ، ويُريدون تدميرَ أنفسهم بأنفسهم ، ويخلِطون استعجالَ العذاب بالسُّخرية والاستهزاء والعبث واللعب ، وهم يُريدون هلاكَ أنفسهم من حيث لا يشعرون ، وهكذا الحمقى في كُلِّ زمان ومكان ، يمشون إلى الهاوية بأقدامهم ، والجاهلُ عدُوُّ نفسه . النبيُّ ﷺ لا يملك من أمره شيئًا ، فالأمرُ كُلُّه بيدَ الله تعالى . والنبيُّ ﷺ لا يُحاسب أحدًا ، ولا يُقدِّر أن يُنزلَ العذابَ على الناسِ أو يُنزلَ عليهم الرحمة . إنَّه يُنفذُ أوامرَ الله بلا زيادة ولا نقصان ، ويخوِّف الناسَ من عذابِ الله إن استمروا على المعاصي ، وحسابُ العباد على رَبِّ العباد . والنبيُّ ﷺ نذيرٌ يُبين للناس ما يحتاجون إليه من أمر دينهم . وقد خُصَّ " نذير " بالذكر مع أنَّ النبيَّ ﷺ بشيرٌ أيضًا ، لأنَّ السياق يتحدَّث عن المشرِكين وعقابهم وتخويفهم ، فَظَهَرَت النَّذارة ولم تَظْهَر البِشارة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٠٧) : ((أي : إنما أرسلني الله إليكم نذيرًا لكم بين يدي عذابٍ شديد ، وليس إليَّ من حسابكم من شيء . أمرُكم إلى الله . إن شاء عَجَّلَ لكم العذاب ، وإن شاء أَخَّرَ عنكم ، وإن شاء تابَ على من يتوب إليه ، وإن شاء أَضَلَّ من كتبَ عليه الشقاوة ، وهو الفَعَالُ لِمَا يَشَاء ويُريد ويختار)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مُبَشِّرًا ونذيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٦] .

الله تعالى لم يُرسل محمدًا ﷺ إلا مُبَشِّرًا يُبشِّر المؤمنين بِسعادة الدُّنيا وجنة الآخرة ، ونذيرًا يُخوِّف الكافرين من عذاب النار إن استمروا على كُفْرهم وضلالهم . يُبشِّر الطائعين بنعيم الجنة ، ويخوِّف العَصاة من عذاب النار . ولم يُرسله الله ليُحاسب الناس ، أو يَكُون عليهم مُسيطرًا وجبارًا .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٤٠٢) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ محمد ﷺ : ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد إلى من أرسلناك إليه ﴾ إلا مُبَشِّرًا ﴾ بالشواب الجزيل من آمن بك ، وصدَّقَكَ ، وآمنَ

بالذي جَنَّتْهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي وَعَمِلُوا بِهِ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ مَنْ كَذَّبَكَ ، وَكَذَّبَ مَا جَنَّتْهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِي ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا بِهِ وَلَمْ يَعْمَلُوا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [التِّلْ : ٨١] .

الهداية بمعنى إدخال الإيمان في القلب ، بيد الله وَحْدَهُ . ولا علاقة للنبي ﷺ بها . والنبي ﷺ يَهْدِي النَّاسَ إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ ، وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ . ولا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا . وهذه هي هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ ، وهي وظيفة الأنبياء كُلِّهِمْ .

والنبي ﷺ يَهْدِي إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِدْخَالَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَصْرِفَ الْكَافِرِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ . فَمَنْ أَعْمَاهُ اللَّهُ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَجَعَلَ بَيْنَ الْهَدَى وَقَلْبِهِ حَاجِزًا ، لَا يَسْتَطِيعُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَهْدِيَهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٩٠ / ٦) : ((وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ ﴾ أَي : مَا أَنْتَ بِمُرْشِدٍ مَنْ أَعْمَاهُ اللَّهُ عَنِ الْهَدَى ، ﴿ إِنْ تَسْمِعُ ﴾ إِسْمَاعَ إِفْهَامٍ ﴾ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا)) اهـ .
إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُرْشِدُ إِلَّا الْمُؤْمِنَ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُسْمِعُ — سَمَاعَ وَغَيِّ وَإِفْهَامَ — إِلَّا مَنْ يُصَدِّقُ بآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُمْ الَّذِينَ خَضَعُوا لِلَّهِ ، وَاسْتَسَلَمُوا لَهُ ، وَأَخْلَصُوا لَهُ ، فَالْتَزَمُوا بِأَمْرِهِ ، وَاجْتَنَبُوا نَوَاهِيهِ . وَالْمُؤْمِنُ هُوَ الْمَنْتَفِعُ بِتَوْجِيهَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِرْشَادَاتِهِ ، أَمَّا الْكَافِرُ فَلَا يَسْتَفِيدُ شَيْئًا مِنَ الْهَدْيِ النَّبَوِيِّ .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُسْمِعُ — سَمَاعَ إِفْهَامَ — إِلَّا مَنْ يُصَدِّقُ بآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيُؤْمِنُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَهْلُ الْعُقُولِ وَالتَّفَكِيرِ وَالتَّحْلِيلِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْمَصْنُوعَاتِ عَلَى الصَّانِعِ ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْآثَارِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ . وَإِيمَانُهُمْ يَجْعَلُهُمْ يَسْتَوْعِبُونَ أَلْفَاظَ الْآيَاتِ ، وَيَتَدَبَّرُونَ مَعَانِيَهَا . إِنَّهُمْ الْخَاضِعُونَ لِلَّهِ ، الْمُسْتَسْلِمُونَ لَهُ ، الْمُتَأَقِدُونَ لِلْحَقِّ ، يَتَّبِعُونَهُ ، وَلَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ . وَلَنْ يَسْتَجِيبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مَنْ كَانَ ذَا بَصِيرَةٍ ، يَرَى آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةَ ، وَيُشَاهِدُ الدَّلَائِلَ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَيَسْتَوْعِبُ الْحُجَجَ الْبَاهِرَةَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ . أَمَّا الْكَافِرُ فَهُوَ أَعْمَى ، حَتَّى لَوْ امْتَلَكَ حَاسَّةَ الْبَصَرِ . إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْبَصِيرَةَ ، فَلَا يَرَى آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةَ ، وَهَذَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِيمَانِ . وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ لَهُ رَكْنَانِ — وَفَقَّ سِيَاقُ الْآيَةِ — : الرُّكْنُ الْأَوَّلُ — السَّمْعُ الصَّحِيحُ (سَمِعَ الْفَهْمُ وَالتَّدَبُّرُ) ، وَالرُّكْنُ الثَّانِي — امْتَلَاكَ الْبَصِيرَةِ ، وَهِيَ رُؤْيَا الْقَلْبِ لِلْأَشْيَاءِ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ١٣) : ((﴿ وما أنت ﴾ يا محمد ﴿ بهادي ﴾ من أعماء الله عن الهدى والرشاد ، فجعل على بصره غشاوة أن يتبين سبيل الرشاد ، عن ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد . وقوله : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ يقول : ما تقدّر أن تفهم الحق وتوعيه أحداً إلا سمع من يصدق بآياتنا ، يعني بأدلته وحججه وآي تنزيله . ﴿ فهم مسلمون ﴾ ، فإن أولئك يسمعون منك ما تقول ، ويتدبرونه ، ويفكرون فيه ، ويعملون به ، فهم الذين يسمعون)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

هذه الآية ردّ بليغ على المنافقين الذين يضطادون في ماء أفكارهم العكر . فعندما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة ، قال المنافقون والجهال : لقد تزوج امرأة ابنه . وذلك بسبب تبني النبي ﷺ لزيد بن حارثة ، وقد كان يدعى زيد بن محمد . فنزلت الآية لتوضيح هذه القضية ، والنهي أن يقال : زيد بن محمد ، لأن النبي ﷺ لم ينجب زيدا ، وبالتالي ، لن يكون أباه . فالنبي ﷺ لم يكن أبا أحدٍ من الرجال . فهو ليس أبا زيد بن حارثة مع أنه تبناه . حتى إن أبناءه الذين أنجبهم ماتوا قبل أن يبلغوا مرحلة الرجولة . والحسن والحسين كانا طفليْن ، ولم يكونا رجلين مُعاصرين للنبي ﷺ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٠) : ((فإنه ﷺ وُلِدَ له القاسم والطيب والطاهر من خديجة _ رضي الله عنها _ فماتوا صغارا . وُولِدَ له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة _ رضي الله عنهن _ أجمعين ، فمات في حياته ﷺ ثلاث ، وتأخرت فاطمة _ رضي الله عنها _ حتى أُصِيبَ به ﷺ ، ثم ماتت بعده لسته أشهر)) اهـ .

والجدير بالذكر أنَّ النبي ﷺ هو الأب للأُمَّة ، بمعنى السيد المطاع ، والراعي لهم ، والحريص على مصالحهم ، الذي يحترم كبيرهم ، ويعطف على صغيرهم . إنه رأس المسلمين وقائدهم . وهذا يفرض على أُمَّته تعظيمه ، والخضوع لأوامره . فهذه هي الأُبُوَّة لا أُبُوَّة النَّسَب .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنما أنا لكم مثلُ الوالد))^(١٦). وقال البيضاوي في تفسيره (٣٧٧ / ١) : ((ما كان مُحَمَّدٌ أباً أحَدٍ مِنْ رِجالِكم)) على الحقيقة ، فَيُثَبَّتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ما بين الوالد وولده مِنْ حُرمةِ الْمُصَاهَرَةِ وغيرها ، ولا يَنْتَقِضُ عُمومُهُ بِكَوْنِهِ أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم ، لأنهم لَمْ يَنْلُغُوا مَبْلَغَ الرجال ، ولو بَلَّغُوا كانوا رِجالَهُ لا رِجالَهُمْ)) اهـ .

﴿ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ . وَلَكِنَّهُ ﷺ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، لَا نَبِيٌّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولٌ . وَكِتَابُهُ الْقُرْآنُ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ . وَرِسَالَتُهُ آخِرُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَةِ ، وَقَدْ نَسَخَتْ كُلَّ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَةِ قَبْلَهَا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٩٣ / ٦) : ((قال الرَّجَاجُ : مَنْ نَصَبَهُ فَاَلْمَعْنَى : وَلَكِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَانَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَمَنْ رَفَعَهُ فَاَلْمَعْنَى : وَلَكِنْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ . وَمَنْ قَرَأَ خَاتِمَ بِكسر التاء فمعناه : وَخَتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَمَنْ فَتَحَهَا فَاَلْمَعْنَى : آخِرُ النَّبِيِّينَ . قال ابن عباس : يُريدُ لَوْ لَمْ أُخْتِمَ بِهِ النَّبِيُّينَ ، لَجَعَلْتُ لَهُ وَلَدًا يَكُونُ بَعْدَهُ نَبِيًّا)) اهـ .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْذُ الْأَزَلِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، لِذَلِكَ لَمْ يُعْطِهِ وَلَدًا ذَكَرًا يَصِلُ إِلَى مَرَحَلَةِ الرُّجُولَةِ ، وَلَوْ عَاشَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَدٌ ، لَصَارَ مِثْلَ أَبِيهِ نَبِيًّا ، وَهَذَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٦٥٠ / ٣) : ((فهذه الآية نص في أنه لا نبيَّ بَعْدَهُ ، وإذا كان لا نبيَّ بَعْدَهُ ، فلا رسولَ بَعْدَهُ بالطريق الأولى والأخرى ، لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَحْصُ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ، وَلَا يَنْعَكُسُ)) اهـ .

إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا نَبِيٌّ بَعْدَهُ ، وَبِهِ خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ . وَهَذَا الْأَمْرُ ثَابِتٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، وَمَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، بِحَيْثُ إِنَّ مُنْكَرَهُ كَافِرٌ .

(١٦) رواه النَّسَائِيُّ فِي الْمَجْتَبَى (٣٨ / ١) بِرَقْم (٤٠) ، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢٥٠ / ٢) بِرَقْم (٧٤٠٣) . وَصَحَّحَهُ ابْنُ جَبَّانٍ (٢٧٩ / ٤) بِرَقْم (١٤٣١) . وَصَحَّحَهُ أَبُو عَوَانَةَ [قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي تَلْخِيصِ الْحَبِيرِ (١٠٢ / ١)] . وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ (٤٣ / ١) بِرَقْم (٨٠) بَلَفْظُ " إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ " .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيُعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وَضَعْتَ هَذِهِ اللَّبْنَةَ ، فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)) (17).

الثبوة بناءً شامخٌ وخالدٌ إلى يوم القيامة . وشريعته كُلُّ نبيٍّ كاملةٌ ، لا نَقْصَ فِيهَا وَلَا عَيْبَ ، وهي تُشَكِّلُ جُزْءًا مِنَ الْبِنَاءِ النَّبَوِيِّ ، وَلَا تُشَكِّلُ كُلَّ أَجْزَاءِ الْبِنَاءِ النَّبَوِيِّ . وَكُلُّ نَبِيٍّ يُضِيفُ جُزْءًا فِي هَذَا الْبِنَاءِ الشَّامِخِ ، وَيَتْرَكُ بِصَمْتِهِ الشَّرِيفَةِ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَةِ . وَكُلُّ نَبِيٍّ يُكْمِلُ مَا بَدَأَهُ النَّبِيُّ السَّابِقُ ، بَلَا تَنَاقُضَ وَلَا نَقْصَ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ اللَّبْنَةُ الْأَخِيرَةُ ، وَبِهِ اكْتَمَلَ الْبِنَاءُ النَّبَوِيُّ ، فَصَارَ كَامِلًا ، وَسِظْلُ كَامِلًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَأْتِيَ أَيُّ نَبِيٍّ لِيُضِيفَ شَيْئًا عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَمَسْنُكُ الْخِتَامِ .

وفي الحديث ضَرْبٌ لِلْأَمْثَالِ لِتَقْرِيبِ الْمَعْنَى إِلَى الْعُقُولِ ، كَمَا يُشِيرُ إِلَى أَفْضَلِيَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى بَاقِي الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ _ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَتَمَ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ ، وَأَكْمَلَ بِهِ شَرَائِعَ الدِّينِ . وَالدِّينُ كَامِلٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا نَقْصَ فِيهِ وَلَا عَيْبَ . وَبِعِثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَرِيعَتِهِ السَّمْحَاءِ ، اكْتَمَلَ الْبِنَاءُ الْإِيمَانِيُّ ، وَتَكَرَّسَ الْهَدْيُ الْإِلَهِيُّ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَشُدِّدَتْ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَأَرْكَانُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْمَسَاوَاةِ ، وَسِظْلُ نُورِ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَةِ الْإِسْلَامِيَةِ خَالِدًا إِلَى الْأَبَدِ ، يَهْدِي النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَيُوَفِّرُ لِلْبَشَرِيَّةِ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُرْشِدُهَا إِلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْأَبَدِيِّ .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالثُّبُوتَ قَدْ انْقَطَعَتْ ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ)) . قال : فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : ((لَكِنْ الْمُبَشِّرَاتُ)) ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُبَشِّرَاتُ ؟ ، قال : ((رُؤْيَا الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ هِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الثُّبُوتِ)) (18).

الرِّسَالَةُ وَالثُّبُوتُ كِلَاهُمَا ذَهَبَتْ وَلَنْ تَعُودَ . وَلَا رَسُولَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا نَبِيَّ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرِّسَالَةَ وَالثُّبُوتَ شَيْئَانِ مُخْتَلِفَانِ ، كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ وَالنَّبِيَّ مُتَغَايِرَانِ ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا . فَالرَّسُولُ أَعْظَمُ مِنَ النَّبِيِّ ، وَالرِّسَالَةُ أَعْظَمُ مِنْ الثُّبُوتِ .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذِي (٦ / ٤٥٥) : ((النَّبِيُّ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ : مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ ، فَإِنْ أُمِرَ بِتَلْيِغِهِ فَرَسُولٌ . وَقِيلَ : هُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى الْخَلْقِ بِالْوَحْيِ لِتَلْيِغِ مَا أَوْحَاهُ . وَالرَّسُولُ

(١٧) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣ / ١٣٠٠) برقم (٣٣٤٢) . ومسلم (٤ / ١٧٩٠) برقم (٢٢٨٦) .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٣٣) برقم (٨١٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قد يكون مُرادفًا له ، وقد يختص بمن هو صاحب كتاب . وقيل : (النبي) هو المبعوث لتجديد شَرع أو تقريره ، والرسول هو المبعوث للتجديد فقط . وعلى الأقوال النبي أعمُّ من الرسول)) اهـ . وقد صَعَبَ على الناس أن تنقطع الرسالة والنُّبوة ، فَخَفَّفَ النبي ﷺ عنهم ، وأخبرهم بأنَّ هناك مُبَشِّرات ستبقى ولا تنقطع، وهي الأشياء التي تُدخل الفرح والسُّرورَ على الإنسان، وهي الرُّؤيا الصالحة ، رُؤيا المسلم في المنام ، فهي جزءٌ مِنَ الوحي الذي انقطع بِمَوْتِ النبي ﷺ . وقال الحافظ في الفتح (١٢ / ٣٧٦) : ((قال المُهَلَّب ما حاصله : التعبير بالمُبَشِّرات خرج للأغلب ، فإنَّ مِنَ الرُّؤيا ما تكون مُنذِرة وهي صادقة ، يُريها الله للمؤمن رِفْقًا به ليستعد لما يقع قبل وقوعه)) اهـ .

وعن العرياض بن سارية_ رضي الله عنه_ صاحب رسول الله ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ)) [سبق تخريجه] .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٠) : ((فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ إِرسال محمد ﷺ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ مِنْ تَشْرِيفِهِ لَهُمْ خَتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ بِهِ ، وإكمال الدِّين الحنيف له . وقد أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِي السُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ادَّعَى هَذَا الْمَقَامَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَذَابٌ وَأَفَّاكٌ دَجَّالٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ ، لَوْ تَحَرَّقَ وَشَعِبَذَ وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السَّحَرِ وَالطَّلَاسِمِ وَالْبِرْنَجِيَّاتِ ، فَكُلُّهَا مُحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أُولَى الْأَلْبَابِ ، كما أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى يَدِ الْأَسْوَدِ الْعَنَسِيِّ بِالْيَمَنِ وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَابِ بِالْيَمَامَةِ مِنَ الْأَحْوَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْوَالِ الْبَارِدَةِ ، مَا عَلِمَ كُلُّ ذِي لُبٍّ وَفَهْمٍ وَحُجَى أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ ضَالَّانِ لِعَنَمَا اللَّهُ ، وكذلك كُلُّ مُدَّعٍ لِدَلَالِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُخْتَمُوا بِالْمَسِيحِ الدَّجَالِ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَذَابِيِّينَ يَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَهُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَشْهَدُ الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا ، وهذا مِنْ تَمَامِ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، فَإِنَّهُمْ بِضُرُورَةِ الْوَاقِعِ لَا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِتِّفَاقِ ، أَوْ لِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْمَقَاصِدِ إِلَى غَيْرِهِ ، ويكون في غاية الإِفْكَ وَالْفُجُورِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ... وهذا بِخِلَافِ حَالِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَإِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْبِرِّ وَالصَّدَقِ وَالرُّشْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالْعَدْلِ فِيمَا يَقُولُونَهُ ، وَيَفْعَلُونَهُ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ مَعَ مَا يُؤَيِّدُونَهُ مِنَ الْخَوَارِقِ لِلْعَادَاتِ ، وَالْأَدْلَةِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَاتِ ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] .

لقد أرسل الله محمدًا ﷺ شاهدًا على أُمته بتبليغ رسالة السماء إليهم، وشاهدًا على الأمم بتبليغ أنبيائهم رسالات السماء إليهم ، ومُبَشِّرًا للمؤمنين بنعيم الجنة ، ومُنذِرًا للكافرين من عذاب النار . والنبي ﷺ شاهدٌ بالحق والعدل والإنصاف ، لا يُجامل ولا يُحابي .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٠٩) : ((يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا)) أي على أُمته ، يشهد لِمَنْ صَدَّقَهُ وآمَنَ بِهِ ، وعلى مَنْ كَذَّبَهُ وَكَفَرَ بِهِ . قال مجاهد : شاهدًا على أُمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين برحمة الله ، وبما أعدّه لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين والعصاة بالنار ، وبما أعدّه الله لهم من عظيم العقاب)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٧٤٧) : عن عطاء بن يسار قال : لَقِيتُ عبد الله بن عمرو ابن العاص _ رضي الله عنه _ . قلت : أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ . قال : ((أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمِيتُكَ الْمُتَوَكَّلَ ، لَيْسَ بِقَطْ ، وَلَا غَلِيظَ ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بَأَن يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا غُمِيًّا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا)) .

النبي ﷺ حصن للعرب (الأُمِّيِّينَ) ، وهو المتوكل على الله في كُلِّ أحواله ، المعتمد عليه دائماً وأبداً ، ليس بِسَيِّئِ الْخُلُقِ ، ولا شديد في القول ، ولا يرفع صوته على الناس ، ولا يُقَابِلُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وإنما يُقَابِلُهَا بِالْحَسَنَةِ ، ويُقَابِلُ الْمُنْكَرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَعْفو عَنِ النَّاسِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ أَخْطَائِهِمْ ، وَيُسَامِحُهُمْ . وقد أرسله الله تعالى لِغَفْيِ الشَّرِّكَ وَتَثْبِيتِ التَّوْحِيدِ ، وفتح عيون الناس على الحق بعد أن كانت عمياء لا ترى الحقَّ ، وفتح آذانهم التي كانت لا تسمع دَعْوَةَ الْخَيْرِ ، وفتح قلوبهم التي غَطَّتْهَا ظُلْمَةُ الشَّرِّكَ .

وقال الحافظ في الفتح (٤ / ٣٤٣) : ((" وَحِرْزًا " ... أي حافظًا . وأصل الحِرْزِ الموضع الحصين ، وهو استعارة . وقوله : " حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ " أي مِلَّةَ الْعَرَبِ ، ووصفها بِالْعَوَجِ لِمَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَالْمَرَادُ بِإِقَامَتِهَا أَنْ يَخْرُجَ أَهْلُهَا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٦] .

وقد أرسل الله محمدًا ﷺ داعيًا إلى توحيد الله ، وإفراده بالألوهية والرُّبُوبية، وإخلاص العبادة له ، بأمر الله ، فالنبي ﷺ لا يتصرف من تلقاء نفسه . وكُلُّ أقواله وأفعاله إنما هي بإذن الله تعالى ،

وَيَتَوَفَّقُهُ تَعَالَى . وَالِدَعْوَةُ الْمَحْمُودِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَيْسَتْ أَمْرًا هَيِّنًا . إِنَّهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، يَحْتَاجُ إِلَى إِذْنِ إِلَهِيٍّ ، وَمَعُونَةٍ رَبَّانِيَّةٍ .

﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهْدِي النَّاسَ الْغَارِقِينَ فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ نُورٌ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَهْدِي إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ (إفراد الله بالعبادة) . وَالنَّبِيُّ ﷺ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ كَمَا يُسْتَضَاءُ بِالْمِصْبَاحِ فِي الظَّلامِ . وَقَدْ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِرِسَالَتِهِ ، وَامْتَلَأَتْ نُورًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا . وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ " سِرَاجًا مُنِيرًا " لِوُضُوحِ أَمْرِهِ ، وَصِدْقِهِ الظَّاهِرِ ، وَصِحَّةِ نُبُوءَتِهِ الْوَاضِحَةِ ، وَتَنْوِيرِ الْقُلُوبِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ (19) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٥) : ((أَي : وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ فِيمَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ، كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَافِهَا وَإِضَاءَتِهَا ، لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ)) اهـ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣٠٩) : ((وَسِرَاجًا مُنِيرًا جَلَا بِهِ اللَّهُ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ ، وَاهْتَدَى بِهِ الضَّالُّونَ ، كَمَا يُجَلَّى ظَلَامُ اللَّيْلِ بِالسِّرَاجِ الْمُنِيرِ ، وَيُهْتَدَى بِهِ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ الْقُرْآنُ .

(١٩) قَالَ الْأَبَشِيهِي فِي الْمُسْتَطَرَفِ (٢ / ٦١٧) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ، أَي يُهْتَدَى بِهِ كَمَا يُهْتَدَى بِالسِّرَاجِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، فَإِنْ قُلْتَ : مَا الْحِكْمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : قَمْرًا مُنِيرًا ، فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ السِّرَاجَ أَعْمُ مِنَ الْقَمَرِ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالسِّرَاجِ هُنَا الشَّمْسُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نُوح : ١٦] . وَالشَّمْسُ أَعْمُ نَفْعًا وَنُورًا مِنَ الْقَمَرِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ السِّرَاجُ الَّذِي يُقْتَبَسُ مِنْهُ ، لِأَنَّ الْقَمَرَ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأَيْدِي حَتَّى يَقْتَبَسُونَ مِنْهُ . وَالسِّرَاجُ إِذَا كَانَ فِي بَلَدٍ يَمْلَأُ ذَلِكَ الْبَلَدَ نُورًا ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ جَاءَ يَقْتَبِسُ مِنْهُ ، وَالْقَمَرُ = لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلِهَذَا كَانَتِ الدُّنْيَا قَبْلَ وَلَادَتِهِ ظَلَامًا ، فَلَمَّا وُلِدَ ظَهَرَ سِرَاجُ دِينِهِ بِمَكَّةَ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ اقْتَبَسَ مِنَ الرِّجَالِ أَبُو بَكْرٍ ، وَمِنَ النِّسَاءِ خَدِيجَةُ ، وَمِنَ الشَّبَابِ عَلِيٌّ ، وَمِنَ الْمَوَالِي زَيْدٌ ، وَمِنَ الْعَبِيدِ بِلَالٌ — رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ — . وَجَاءَ سَلْمَانٌ مِنْ أَرْضِ فَارِسٍ فَاقْتَبَسَ ، وَصُهَيْبٌ مِنَ الرُّومِ وَبِلَالٌ مِنَ الْحَبَشَةِ ، وَوَفَدَ الْوُفُودُ وَاقْتَبَسُوا ، وَأَبُو لَهَبٍ إِلَى جَانِبِ الْبَيْتِ وَلَمْ يَقْتَبَسْ ، وَاقْتَبَسَ النَّاسُ مِنْ مِشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا حَتَّى امْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْ نُورِ سِرَاجِهِ ، فَهُوَ أَعْظَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَكْرَمُ الْمُرْسَلِينَ ، وَسَيِّدُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ، لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ أَحْسَنَ ، وَلَا أَجْمَلَ ، وَلَا أَكْمَلَ ، وَلَا أَفْضَلَ ، وَلَا أَفْصَحَ ، وَلَا أَرْجَحَ ، وَلَا أَسْمَحَ ، وَلَا أَصْبَحَ ، وَلَا أَجَلَ ، وَلَا أَعْظَمَ ، وَلَا أَسَخَى ، وَلَا أَكْرَمَ ، وَلَا أَبْهَى ، وَلَا أَنْصَفَ ، وَلَا أَعْدَلَ مِنْهُ ، فَلَوْ أَنَّ الْبَحَارَ مِدَادَ ، وَالنَّبَاتَ أَقْلَامَ ، وَجَمِيعَ الْخَلْقِ تَكْتَبُ مُعْجَزَاتِهِ ، لَعَجَّزُوا عَنْ وَصْفِ نَزْرِ النَّزْرِ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ)) .

فيكون التقدير : وذا سراج منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً . ووُصف بالإنارة ، لأنَّ مِنَ السُّرْج ما لا يُضيء إذا قُلَّ سَلْبَطُهُ ، وَدَقَّتْ فَتِيلَتُهُ)) اهـ .

وقد صدَّق العباسُ بن عبد المطلب _ رضي الله عنه _ حينَ مدح النبي ﷺ ، فقال :

وَأَنْتَ لَمَّا ظَهَرْتَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ وَضَاءَ بِنُورِكَ الْأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرُ

وعن عرياض بن سارية _ رضي الله عنه _ صاحب رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : ((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَبِي مُنَجِّدٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَاحِرِكُمْ عَنْ ذَلِكَ ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أُمُّهُاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ)) ، وَإِنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْهُ لَهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهَا قُصُورَ الشَّامِ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ﴾ (19).

وعن ابن عباس قال : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، دَعَا النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا وَمُعَاذًا ، وَقَدْ كَانَ أَمْرُهُمَا أَنْ يَخْرُجَا إِلَى الْيَمَنِ ، فَقَالَ : ((انْطَلِقَا ، وَبَشِّرَا ، وَلَا تُنْفَرَا ، وَيَسِّرَا ، وَلَا تُعَسِّرَا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَنْزَلَتْ عَلَيَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ عَلَى أُمَّتِكَ ، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بِالْجَنَّةِ ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ مِنَ النَّارِ ، ﴿ وَدَاعِيًا ﴾ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ بِالْقُرْآنِ)) (20).

وقد وَصَفَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ بِخَمْسَةِ أَوصَافٍ تَشْتَمِلُ عَلَى الْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ ، وَالْمَجْدِ الْعَظِيمِ ، وَالشَّرَفِ الْجَلِيلِ ، وَالشَّانِ الرَّفِيعِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ الشَّاهِدُ والمُبَشِّرُ والنذير والدَّاعِي إِلَى اللَّهِ ، والسَّراج المنير .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سَبَأُ : ٢٨] .

(١٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٥٣) برقم (٣٥٦٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٠) رواه الطبراني في الكبير (١١ / ٣١٢) . وقال الهيثمي في الجمع (٧ / ٢٠٩) : ((وفيه عبد الرحمن ابن

محمد بن عبيد الله العَرَزَمِي ، وهو ضعيف)) .

لقد أرسل الله محمدًا ﷺ إلى جميع الناس بلا استثناء، العرب والعجم، يُشَرِّ مَنْ أطاعه بالجنة ، ويُذِر مَنْ عصاه بالنار . وأكثرُ الناسِ يجهلون هذه الحقيقة ، ولا يعلمون أن الله أرسل محمدًا ﷺ إلى جميع الناس . والبعضُ يكذبُ محمدًا ﷺ ولا يعترفُ أنه رسولُ الله إلى الناس ، والبعضُ يعتقد أن محمدًا ﷺ مُرْسَلٌ إلى العربِ وحدهم ، ولا علاقة له بباقي الناس . وهذه كُلُّها أوهام وأباطيل . وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٦٤) : ((وقال الزجاج : أي وما أرسلناك إلا جامعًا للناس بالإنذار والإبلاغ ، والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافيًا للناس تكفُّهم عما هم فيه من الكفر ، وتدعوهم إلى الإسلام ، والهاء للمبالغة)) اهـ .

والآية تُثَبِّتُ أفضليَّةَ النبيِّ محمد ﷺ على جميع الأنبياء ، لأنه وحده الذي بُعِثَ إلى الناس كافةً ، ليس هذا فَحَسَبَ ، بل بُعِثَ إلى الإنس والجن . وهذه خاصية للنبيِّ محمد ﷺ تُشير إلى مكانته الرفيعة ، وعُلُوُّ شأنه . وعمومُ الرِّسالةِ المحمَّدية الإسلامية إنما هو بسبب كونها خاتمة الرِّسالات السماوية ، فلا رسالة من السماء بعد رسالة محمد ﷺ ، ولا نبي بعده .

وفي صحيح البخاري (١ / ١٢٨) عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((وكان النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعْثُ إلى النَّاسِ عَامَّةً)) .

وعن أبي ذر _ رضي الله عنه _ قال : طَلِبْتُ رسولَ الله ﷺ لَيْلَةً ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا يُصَلِّي ، فَأُطَالَ الصَّلَاةَ ثُمَّ قَالَ : ((أُوتِيَتْ اللَّيْلَةَ خَمْسًا لَمْ يُؤْتَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي ، أُرْسِلْتُ إلى الأحمر والأسود ، وَنَصِرْتُ بالرُّعْبِ ، فَيَرْعَبُ العدوُّ وهو على مسيرة شهر ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَقِيلَ لِي : سَلْ تُعْطَهُ ، فَاخْتَبَأْتُهَا شَفَاعَةً ، فَهِيَ شَفَاعَةٌ لَأُمَّتِي ، فَهِيَ نَائِلَةٌ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا)) (21) .

هذه خمس خصائص تفرَّد بها النبيُّ محمد ﷺ ، وهي تُميِّزه عن باقي الأنبياء _ عليهم السلام _ .

الخاصية الأولى : إرساله إلى الأحمر والأسود . يعني العجم والعرب ، لأنَّ الغالب على ألوان العجم الحُمْرة والبياض ، وعلى ألوان العرب السُّمرة . وقيل : الأحمر الجن ، والأسود الإنس . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ١٠٤٤) : ((وقيل : أراد بالأحمر الأبيض مُطْلَقًا ، فإنَّ العرب تقول : امرأة حُمْراء أي بيضاء . وسئل ثعلب : لِمَ خَصَّ الْأَحْمَرُ دُونَ الْأَبْيَضِ ؟

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٦٠) برقم (٣٥٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فقال : لأنَّ العرب لا تقول رَجُلٌ أبيضٌ من بياض اللون ، وإنما الأبيض عندهم الطاهر النقي من الغيوب ، فإذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا الأحمر . وفي هذا القول نظر . قد استعملوا الأبيض في ألوان الناس وغيرهم)) اهـ .

الخاصية الثانية : نصره بالرعب مسيرة شهر . أي إن الله تعالى يلقي في قلوب الأعداء الخوف ، فيسقطون ، وتنهار رُوحهم المعنوية ، وينتصر النبي ﷺ عليهم . وليس الرعب مقصوداً لذاته ، بل أيضاً ينتصر النبي ﷺ ، ويكسر شوكتهم . و " مسيرة شهر " يعني : بينه وبينهم مسيرة شهر . وقال الحافظ في الفتح (١ / ٤٣٧) : ((قوله : " مسيرة شهر " مفهومه أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة ، ولا في أكثر منها ، أمّا ما دُونها فلا ... وإنما جعل الغاية شهراً ، لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه ، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق ، حتى لو كان وحده بغير عسكر ، وهل هي حاصلة لأُمَّته من بعده ؟ فيه احتمال)) اهـ .

الخاصية الثالثة : جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً . والمعنى أن الأرض كلها جعلت للنبي ﷺ وأُمَّته مكاناً صالحاً للصلاة ، وجعل ترابها صالحاً للتيمم والتطهر ، واستباحة الصلاة به . في حين أن الأمم السابقة كانت صلاتها في أماكن مخصوصة ، وهي أماكن العبادة ، كالمعابد والبُيع والكنائس والصوامع .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ٤٣٧) : ((وقيل : إنما أبيحت لهم في موضع يتيقنون طهارته ، بخلاف هذه الأمة ، فأبيح لها في جميع الأرض إلا فيما تيقنوا نجاسته . والأظهر ما قاله الخطابي ، وهو أن من قبله إنما أبيحت لهم الصلوات في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع)) اهـ .

الخاصية الرابعة : جعل الغنائم له حلالاً . والغنائم جمع غنيمة ، وهي ما أخذ من الكفار على وجه الغلبة والقهر . والمعنى : إن الأمم السابقة كانت الغنائم حراماً عليهم ، وكانوا يتركونها في العراء ، حتى تأتي نار من السماء فتأكلها . وقد أحلَّ الله الغنائم للنبي ﷺ ، يتصرف فيها كيف يشاء . وهي حلالٌ أيضاً لأُمَّته من بعده .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ٤٣٨) : ((قال الخطابي : كان من تقدّم على ضربين ، منهم من لم يؤذن له في الجهاد ، فلم تكن لهم مغام ، ومنهم من أُذن له فيه ، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحلَّ لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقتة . وقيل : المراد أنه خُصَّ بالتصرف في الغنيمة بصرفها كيف يشاء . والأول أصوب ، وهو إن من مضى لم تحلَّ لهم الغنائم أصلاً)) اهـ .

الخاصية الخامسة : الشفاعة العظمى يوم القيامة . حيث يلجأ الناس إلى الأنبياء من شدة الخوف والقلق ، فيطلب الأنبياء من الناس أن يتوجهوا إلى محمد ﷺ ، فيشفع لهم ويريحهم من هول الموقف الرهيب. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤ / ٥) : ((هي الشفاعة العامة التي تكون في المحشر بفرع الخلاق إليه ﷺ ، لأن الشفاعة في الخاصة جعلت لغيره أيضاً . قال القاضي : وقيل: المراد شفاعة لا تُرد. قال: وقد تكون شفاعته لخروج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار ، لأن الشفاعة التي جاءت لغيره إنما جاءت قبل هذا ، وهذه مختصة به كشفاعة المحشر)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء ، وفضله على أهل الأرض)) . قالوا : يا ابن عباس ، فيما فضله الله على أهل السماء ؟ ، قال : ((قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٩] . وقال لمحمد ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الآية _] . قالوا : فيما فضله الله على أهل الأرض ؟ ، قال : ((إن الله عز وجل يقول : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ _ الآية _ . وقال لمحمد ﷺ : ﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ)) (٢٢).

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [ص : ٦٥] . هذا كلام جامع بين التَّخْوِيفِ والدَّعْوَةِ إلى التَّوْحِيدِ ، ويظهر وظيفة النبي ﷺ ومهمته في هذه الحياة . إنه مُنْذِرٌ ، يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَا يَمْلِكُ سُلْطَةَ الْحِسَابِ . إنه مُنْذِرٌ ، وَلَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ سَاحِرٌ وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَحِسَابُ الْعِبَادِ عَلَى رَبِّ الْعِبَادِ . قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَكَ ، وَيَطْعَنُونَ فِي صِحَّةِ رِسَالَتِكَ : إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ، أَخَوْفُ الْعُصَاةِ مِنَ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ . وَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْإِلَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ ، وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ ، قَهْرُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَخَضَعُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ . وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٤٤) : ((﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ : ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨١) برقم (٣٣٣٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ما أنا إلا رسول مُنذِرُ أُندِرِكُم عذابَ الله تعالى . ﴿ وما مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ﴾ وأقول لكم إِنَّ دِينَ الْحَقِّ تَوْحِيدُ اللهِ ، وأن تعتقدوا أن لا إلهَ إِلَّا اللهُ . ﴿ الواحدُ ﴾ بلا نِد ولا شريك ﴿ القَهَّارُ ﴾ لِكُلِّ شَيْءٍ .
وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ [ص : ٦٧] .

قُل يا محمد لمشركي قَوْمِكَ الَّذِينَ يُكذِّبُونَكَ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ : هذا الْقُرْآنُ خَبَرٌ عَظِيمٌ ، وأمرٌ جليل ، وشأنٌ عَالِي الْقَدَرِ ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَتَعْظِيمُهُ ، وَلَا يَنْبَغِي الْكُفْرُ بِهِ وَاسْتِصْغَارُهُ .
وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْبَاقِيَةُ إِلَى الْأَبَدِ ، جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، فَقَدْ اشْتَمَلَ عَلَى الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ وَالْبَلَاغَةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْغَيْبِيَّاتِ ، وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا إِلَّا نَبِيٌّ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأ وَلَا يَكْتُبُ ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ بِكُلِّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ الدَّقِيقَةِ وَالصَّحِيحَةِ ؟ . إِنَّهُ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ .

وفي تفسير القرطبي (١٥ / ١٩٨) : ((وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْبَأَكُمْ بِهِ خَبَرٌ جَلِيل . وقيل : عظيم المنفعة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٥٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ النَّبَأُ الْخَبَرُ . وفي الْمُشَارِ إِلَيْهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْقُرْآنُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْجُمْهُورُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، قَالَه قَتَادَةُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : ٦٨] .

أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ غَافِلُونَ عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، لَا تُدْرِكُونَ عَظَمَتَهُ ، وَلَا تَعْرِفُونَ قَدْرَهُ ، وَلَا تَفْهَمُونَ حُجَجَهُ الْبَاهِرَةَ ، وَلَا تَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَلَا تَنْتَفِعُونَ بِمَوَاعِظِهِ الْجَلِيلَةِ . وَالْآيَةُ تُؤَيِّدُهُمْ ، وَتَكْشِفُ مَدَى جَهْلِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ ، فَالْعَاقِلُ لَا يُعْرِضُ عَنْ بَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامِهِ ، فَالْقُرْآنُ خَاطِبُ الْأَرْوَاحِ وَالْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ ، وَقَدَّمَ الْأَدْلَةَ الْبَاهِرَةَ ، وَالْحُجَجَ السَّاطِعَةَ ، وَلَمْ يَجِئْ بِشَيْءٍ مُخَالَفٍ لِلْعُقُولِ ، وَلَمْ يُقَدِّمِ تَنْظِيرَاتٍ خَيَالِيَّةً ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ حُلُولاً وَاقِعِيَّةً لِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٦٣٠) : ((تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَتَقْرِيعٌ ، لِكُونِهِمْ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَيَعْلَمُوا صِدْقَهُ ، وَيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى مَا أَنْكَرُوهُ مِنَ الْبَعْثِ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٥٤) : ((أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ، أَي : لَا تَتَفَكَّرُونَ فِيهِ فَتَعْلَمُونَ صِدْقِي فِي بُنْيَانِي ، وَأَنْ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْ قِصَصِ الْمَاضِينَ لَمْ أَعْلَمْهُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص : ٦٩] .

النبي ﷺ لم يكن يعلم شيئاً عن اختلاف الملائكة (الملائكة الأعلى) في شأن خلق آدم ﷺ . وإخبار النبي ﷺ عن هذه التفاصيل الغيبية دليل على صدقه وصحة رسالته، وأن القرآن وحي إلهي، ولم يؤلفه محمد . فمن أين جاء محمد الأمي بهذه القصة الصحيحة ، وهو لم يقرأها في كتاب ، ولم يسمعها من عالم حيث إنه لا يجالس العلماء ؟ . إنه برهان واضح على أنه نبي يوحى إليه من السماء . ولولا أن الله أخبره بهذه القصة لما عرفها . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٦) : ((أي : لولا الوحي ، من أين كنت أدري باختلاف الملائكة الأعلى ؟ ، يعني : في شأن آدم _ عليه الصلاة والسلام _ ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومُحاجَّته رَبِّه في تفضيله عليه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ١٩٨) : ((الملائكة الأعلى هم الملائكة ، في قول ابن عباس والسدي . اختصموا في أمر آدم حين خلق ، فـ « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها » [البقرة : ٣٠] . وقال إبليس : « أنا خير منه » [ص : ٧٦] . وفي هذا بيان أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي ، فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ، ولهذا وصل قوله بقوله : « قل هو نبي عظيم » (٦٧) أنتم عنه معرضون (٦٨))) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظٌ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الشورى : ٦] .

المشركون الذين اتخذوا آلهة، وشركاء لله، وأنداداً له، الله عليهم بعقائدهم وأحوالهم وكفرهم، ورقيبٌ عليهم ، وشهيدٌ على أعمالهم ، يحصيها كاملة غير منقوصة ، وسيحاسبهم عليها ، ولن يهزبوا من الحساب ، وما أنت يا محمد بمسؤول عن كفرهم ، ولست عليهم بوكيل حتى تجبرهم على الإيمان ، إنما أنت مُنذِر ، تُؤدِّي أمانة التبليغ فحسب ، ولست إلهاً تُحاسِبهم . فالله وحده هو الذي يحصي أعمالهم ، ويحاسبهم عليها . والآية تخفيف عن النبي ﷺ ، ورفع لمعنوياته ، ووعيد شديد للكافرين . والآية مُحكمة وثابتة ، وقد اعتبرها بعض المفسرين منسوخة بآية السيف ، وهذا خطأ واضح . وآية السيف هي الآية الخامسة من سورة التوبة : ﴿ فإذا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاقْصِرُوا عَنْهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٢٢) : ((﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ شركاء وأنداداً، ﴿ الله حفيظٌ عليهم ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ، ﴿ وما أنت يا محمد ﴾ عليهم بوكيل ﴿ مؤكل بهم ، أو بموكل إليك أمرهم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأحقاف : ٩] .

هذه الآية حُجَّةٌ ظاهرة ، ودليلٌ واضح ، وبرهانٌ ساطع . قُلْ يا محمد للمشركين : لَسْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ يَأْتِي إِلَى هَذَا الْعَالَمِ ، فَقَدْ كَانَ قَبْلِي رُسُلٌ كَثِيرُونَ ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ رِسَالَتِي ؟ ، ولماذا تَتَعَجَّبُونَ مِنْ كَوْنِي رَسُولًا ؟ . وَالْبَدْعُ وَالْبَدِيعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ الْمَبْتَدَأُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِثْلُهُ . وَالْأَمْرُ لَيْسَ عَجَبِيًّا ، وَلَا يَدْعُو إِلَى الْغَرَابَةِ أَوْ الدَّهْشَةِ ، إِذِ الْبَشَرُ عِبْرَ مَرَاكِحِ التَّارِيخِ مُعْتَادُونَ عَلَى مَجِيءِ الرُّسُلِ . وَرِسَالَاتُ السَّمَاءِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كَانَتْ مُسْتَمِرَّةً وَدَائِمَةً ، حَتَّى خُتِمَتْ بِالرَّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَا رِسَالَةَ بَعْدَهَا ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٩٧) : ((أَي : لَسْتُ بِأَوَّلِ رَسُولٍ طَرَقَ الْعَالَمَ ، بَلْ جَاءَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِي ، فَمَا أَنَا بِالْأَمْرِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ حَتَّى تَسْتَكْرُونِي وَتَسْتَبْعِدُوا بِعِثَّتِي إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَبْلِي جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْأُمَمِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — وَمَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ مَا أَنَا بِأَوَّلِ رَسُولٍ ، وَلَمْ يَخْلُكْ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ غَيْرَ ذَلِكَ)) اهـ .

﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ . النَّبِيُّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا إِذَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ ﷺ لَا يَعْرِفُ مَاذَا يَحْدُثُ لَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ (فِي الدُّنْيَا) ، هَلْ يَبْقَى فِي مَكَّةَ أَوْ يَخْرُجُ مِنْهَا ؟ . هَلْ يَمُوتُ أَوْ يُقْتَلُ ؟ . هَلْ تَأْتِي الْعُقُوبَةُ إِلَى مُشْرِكِي قَوْمِهِ أَوْ يُمَهِّلُونَ ؟ . أَمَّا فِي الْآخِرَةِ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُ تَمَامًا أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ هُوَ وَأُمَّتُهُ ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٧٢ و ٣٧٣) : ((فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَمَّا اشْتَدَّ الْبَلَاءُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، رَأَى فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ نَخْلٍ وَشَجَرٍ وَمَاءٍ ، فَقَصَّصَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ فَاسْتَبَشَرُوا بِذَلِكَ لَمَّا يَلْقَوْنَ مِنْ أَذَى الْمَشْرِكِينَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَكَثُوا بُرْهَةً لَا يَرَوْنَ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَتَى تَهَاجِرُ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي رَأَيْتَ ؟ ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾

يَعْنِي : لَا أَدْرِي أَخْرَجُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي أَمْ لَا ، ثُمَّ قَالَ : " إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي وَمَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ " ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَكَذَلِكَ قَالَ عَطِيَّةٌ : مَا أَدْرِي هَلْ يَتْرَكُنِي بِمَكَّةَ أَوْ يُخْرِجُنِي مِنْهَا . وَالثَّانِي مَا أَدْرِي هَلْ أُخْرِجُ كَمَا أُخْرِجُ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلِي ، أَوْ أُقْتَلُ كَمَا قُتِلُوا ، وَلَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِكُمْ أَتَعَذَّبُونَ أَمْ تُؤَخَّرُونَ ، أَتُصَدِّقُونَ أَمْ تُكَذِّبُونَ ، قَالَهُ الْحَسَنُ .

والقول الثاني أنه أراد ما يكون في الآخرة، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَ بِعَظَمَتِهَا: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وقال : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥] . فَأَعْلَمَ مَا يَفْعَلُ بِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمَشْرُوكِينَ فَرَحُوا عِنْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ _ يَعْنِي : ﴿وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ _ وَقَالُوا : مَا أَمْرُنَا وَأَمْرُ مُحَمَّدٍ إِلَّا وَاحِدٌ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ابْتَدَعَ مَا يَقُولُهُ لِأَخْبَرَهُ الَّذِي بَعَثَهُ بِمَا يُفْعَلُ بِهِ ، فَتَزَلَّ قَوْلُهُ : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ ، فَقَالَ الصَّحَابَةُ : هَنِيئًا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَاذَا يُفْعَلُ بِنَا ؟ ، فَتَزَلَّتْ : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ ، وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ أَنَسُ وَعِكْرَمَةُ وَقَتَادَةُ وَرُؤْيُ عَنْ الْحَسَنِ ذَلِكَ)) . وَعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ الْأَنْصَارِيَّةِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ وَقَدْ كَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . قَالَتْ : طَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ فِي السُّكْنَى حِينَ أَقْرَعَتِ الْأَنْصَارُ عَلَى سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ . قَالَتْ : فَاشْتَكَيْ ، فَمَرَضَتْهُ حَتَّى تُؤْفَى ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي أَثْوَابِهِ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ : رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا السَّائِبِ فَشَهِدْتِي أَنْ قَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وَمَا يُدْرِيكَ ؟)) ، قَالَتْ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ((أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ)) ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾)) . قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ : وَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا (23) .

أَجْرَى الْأَنْصَارُ قُرْعَةً لِتَحْدِيدِ أَيْنَ يَسْكُنُ الْمُهَاجِرُونَ ، لِأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ نَزَلُوا عَلَى الْأَنْصَارِ . وَمَعْنَى " طَارَ لَنَا " يَعْنِي وَقَعَ فِي سَهْمِنَا وَحَصَّتْنَا ، وَقَدْ مَرَضَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ ، فَحَاوَلُوا عِلاجَهُ ، لَكِنَّهُ تُؤْفَى . وَهُوَ أَوَّلُ الْمُهَاجِرِينَ وَفَاةً فِي الْمَدِينَةِ . وَقَدْ أَثْنَتْ عَلَيْهِ أُمُّ الْعَلَاءِ ، وَشَهِدَتْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ لَا سَبِيلَ لِمَعْرِفَتِهِ ، لِذَلِكَ قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : ((وَمَا يُدْرِيكَ ؟)) . يَعْنِي : كَيْفَ جَزَمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَعْرِفَةُ بِذَلِكَ ؟ . وَالصَّحَابَةُ الْجَلِيلَةُ قَالَتْ كَلِمَتَهَا عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ ، وَلَمْ تُفَكِّرْ فِيهَا . لَقَدْ جَاءَهُ الْمَوْتُ (الْيَقِينُ) ، وَقَدْ رَجَا النَّبِيُّ ﷺ

لَهُ الْخَيْرَ مِنَ اللَّهِ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَعْرِفُ مَاذَا سَيَفْعَلُ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا بِهِمْ . وَبَعْدَ هَذَا التَّنْبِيهِ النَّبَوِيِّ ، خَلَفَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ أَلَا تُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ أَبَدًا ، أَيْ : لَا تَجْزِمُ عَلَى عَاقِبَةِ أَحَدٍ بِخَيْرٍ ، لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ غَيْبِيٌّ ، وَالنَّاسُ لَا يَعْرِفُونَ مَاذَا سَيُلَاقِي الشَّخْصُ بَعْدَ مَوْتِهِ .

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٩٣) وصحَّحه، وقال الذهبي: ((وهو في البخاري مُختَصَرٌ)).

﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ . النبي ﷺ يَتَّبِعُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَلَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ .
﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ . وما النبي ﷺ إِلَّا نَذِيرٌ ، يُخَوِّفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، بَيِّنَ الْإِنذَارِ
بِالدَّلَائِلِ الصَّادِقَةِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٨) : ((﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لَا
أَتَجَاوِزُهُ ، وَهُوَ جَوَابٌ عَنْ اقْتِرَاحِهِمُ الْإِخْبَارَ عَمَّا لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ ، أَوْ اسْتِعْجَالَ الْمُسْلِمِينَ
أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ . ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ مِنْ عِقَابِ . ﴿مُبِينٌ﴾ بَيِّنَ الْإِنذَارِ بِالشَّوَاهِدِ
الْمُيَبِّنَةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْمَصْدَقَةِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].
لقد أرسل الله محمدًا ﷺ إلى الناس برسالة السماء ، لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِيْمَانًا صَادِقًا وَجَازِمًا ،
يَخْلُو مِنَ الشُّكُوكِ ، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وَتُعْظَمُوهُ وَتُفَخِّمُوهُ . والمقصود النبي ﷺ .
وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٢٧) : ((أي : تُعْظَمُوهُ وَتُفَخِّمُوهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَالْكَلْبِيُّ .
والتَّعْزِيرُ : التَّعْظِيمُ وَالتَّوْقِيرُ . وقال قتادة : تَنْصُرُوهُ ، وَتَمْنَعُوا مِنْهُ ، وَمِنْهُ التَّعْزِيرُ فِي الْحَدِّ لِأَنَّهُ مَانِعٌ ...
وقال ابن عباس وعكرمة : تَقَاتِلُونَ مَعَهُ بِالسَّيْفِ ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ : تُطِيعُوهُ)) اهـ .
﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وَتَحْتَرِمُوهُ وَتُجْلُوهُ وَتُعْظَمُوهُ .

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ . يعني : تُسَبِّحُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ، أَيْ تُنْزِّهُونَهُ عَنْ
كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَتِهِ ، أَوْ قَدْ يَكُونُ الْمَعْنَى : الصَّلَاةُ الَّتِي فِيهَا التَّسْبِيحُ .
وَتَعْظِيمُ النَّبِيِّ ﷺ يَعْنِي التَّزَامَ أَوْامِرِهِ ، وَمُخَاطَبَتَهُ بِاحْتِرَامٍ وَتَوْقِيرٍ بِصِغَةِ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَوْ يَا رَسُولَ
اللَّهِ ، وَعَدَمُ مُخَاطَبَتِهِ بِاسْمِهِ الْمَجْرُودِ (مُحَمَّد) أَوْ كُنْيَتِهِ (أَبِي الْقَاسِمِ) .
وذهب بعضُ المفسرين إلى أَنَّ الضَّمَائِرَ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى . وَوَقَّعَ هَذَا الْقَوْلُ ، يَكُونُ الْمَعْنَى :
﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ . أي : تُعْظَمُونَ اللَّهَ ، وَتَخْضَعُونَ لِأُلُوهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ ، وَتَعْتَرِفُونَ بِوَحْدَانِيَّتِهِ
، وَتُنْزِّهُونَهُ عَنِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْبَدَنِ .

وقال الحِصْنِيُّ فِي دَفْعِ شُبْهِ مَنْ شَبَّهَ وَتَمَرَّدَ (١ / ٦٩) : ((قَالَ الْأَثَمَةُ : لَمْ يُؤْمِنْ بِالرَّسُولِ
مَنْ لَمْ يُعِزَّهُ ، وَيُعِزَّ أَوْامِرَهُ ، وَيُوَقِّرَهُ وَيُوَقِّرَ أَصْحَابَهُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ —)) اهـ .
وعن عكرمة قال : قلتُ لابن العباس — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — : مَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ .
قال : ((الصَّرْبُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ بِالسَّيْفِ)) (24) .

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٠٠) برقم (٣٧١٥) وصَحَّحَهُ . اهـ .

الفصل الخامس

تأييد الرسالة

قلتُ : هذا الحديث موضوع. في سنده مُبَشَّر بن عُبيد. قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٣٠ / ١٠) :
((وقال الجرجاني: حَدَّثْتُ عَنْ أَحْمَدَ قَالَ : مُبَشَّرُ بْنُ عُبَيْدٍ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنِ الْحَدِيثِ ، أَحَادِيثُهُ بِوَاطِئٍ .
وقال البخاري : مُنْكَرُ الْحَدِيثِ . وقال الدارقطني : متروك الحديث)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٥ /
١١٥) : ((متروك)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٤ / ٥٢٤) : ((متروك)) .

تمهيد

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَخَلَّى عَنْ رُسُلِهِ ، وَلَا يَتْرِكُ رِسَالَاتِهِ غُرْضَةً لِلتَّشْكِيكِ وَالطَّعْنِ . فَاللَّهُ يُدَافِعُ عَنْ رُسُلِهِ ، وَيُؤَيِّدُ رِسَالَاتِهِ بِالْحُجَجِ الدَّامِغَةِ وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ .

وبما أَنَّ الرِّسَالَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ آخِرُ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَالنَّاسِخَةُ لِكُلِّ الرِّسَالَاتِ قَبْلُهَا ، فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلهَجَمَاتِ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ . وَقَدْ دَافَعَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَحَمَاهَا مِنْ كُلِّ أَدَى .

وعندما جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِرِسَالَةِ السَّمَاءِ ، وَجَدَ أَمَامَهُ ثَلَاثَ قُوَى رَئِيسِيَّةٍ: قُرَيْشٌ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى (أَهْلُ الْكِتَابِ) . وَالْعَرَبُ أُمَّةٌ وَثْنِيَّةٌ بِدَائِيَّةٍ وَجَاهِلَةٌ ، لَا كِتَابَ لَهَا ، وَمُصَابَةٌ بِعُقْدَةِ النِّقْصِ وَالشُّعُورِ بِالذُّوْنِيَّةِ ، لِذَلِكَ كَانَتْ تُقَلِّدُ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِمُ الْمَرْجِعِيَّةَ الْعُلْيَا ، فِي أَيْدِيهِمُ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَهُمَا كِتَابَاتُ سَمَاوِيَّانِ فِي الْأَصْلِ ، أَمَّا الْعَرَبُ فَقِبَائِلُ أُمِّيَّةٌ بِدَائِيَّةٍ مُتَنَاحِرَةٌ ، لَيْسَ لَدَيْهِمْ كِتَابٌ سَمَاوِيٌّ وَلَا أَرْضِيٌّ ، وَلَا يَمْلِكُونَ شَرِيعَةً إِلَهِيَّةً وَلَا وَضْعِيَّةً .

وَأَهْلُ الْكِتَابِ هُمْ أَعْدَاءُ لِلْإِسْلَامِ ، وَعَدَاوَتُهُمْ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ ، وَلَيْسُوا جُهَالًا ، وَهُنَا تَكْمُنُ خُطُورَتُهُمْ . وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ بَاطِلَهُمْ ، وَفَضَحَهُمْ ، وَأَفْحَمَهُمْ .

وَقَدْ قَدَّمَ الْقُرْآنُ الْأَدْلَةَ عَلَى صِحَّةِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَخَاطَبَ الْعُقُولَ بِالْمَنْطِقِ وَالْبُرْهَانَ بِدُونِ صُرَاخٍ وَلَا جَعَجَعَةٍ .

وَتَظْهَرُ الرُّدُودُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ حَسَدُوا مُحَمَّدًا ﷺ وَحَقَدُوا عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ ظَهَرَ مِنَ الْعَرَبِ .

وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ أَسْرَارَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَتَسَتَّرُونَ عَلَيْهَا ، وَفَضَحَ تَارِيخَهُمُ الْقَائِمَ عَلَى الْعِنَادِ وَالتَّلَاعِبِ وَمُعَامَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِخَشُونَةٍ وَوَقَاحَةٍ . وَكُلُّ مَوْقِفٍ وَقَفَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ضِدَّ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، تَمَّ التَّصَدِي لَهَا ، وَفَضَحَهَا ، وَكَشَفَ أَعْيَانَهَا . وَكُلُّ شُبْهَةٍ تَعَلَّقَ بِهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، لَمْ تَمُرْ بِدُونِ رَدٍّ وَاضِحٍ . كَمَا تَظْهَرُ الرُّدُودُ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ السَّائِرِينَ عَلَى خُطَى أَهْلِ الْكِتَابِ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ يُقَلِّدُونَهُمْ بِشَكْلِ أَعْمَى ، وَالْجَاهِلُ دَائِمًا يُقَلِّدُ عُلَمَاءَ الضَّلَالِ . وَالطَّيَورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ .

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْعَرَبَ بِبِنِعْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، حَيْثُ اخْتَارَ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَشَرَّفَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ ، لَكِنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمْ يَعْرِفُوا قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاعْتَبَرُوهَا وَبَالًا عَلَيْهِمْ . وَدَائِمًا فَإِنَّ الْجَاهِلَ يُحَوِّلُ النِّعْمَةَ إِلَى نِقْمَةٍ . وَلَئِنْ اللَّهُ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ ، فَقَدْ أَهْمَلَ النَّاسَ ، وَأَعْطَاهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُّ الْفُرْصَةِ لِتَصْحِيحِ مَسَارِهِمْ ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ بِالْعَذَابِ .

فَاللَّهُ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِلُ ، لَا تَسْتَفِزُّهُ حِمَاقَاتُ الْكَافِرِينَ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعَاصِي ، وَلَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَاتُ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

لَوْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِكُلِّ آيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، وَقَدَّمَ كُلَّ الْبَرَاهِينِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، فَسَوْفَ يَرْضَاهُ أَهْلُ الْكِتَابِ (اليهود والنصارى)، وَلَنْ يَعْتَرِفُوا بِهِ ، وَلَنْ يَرْضَوْا عَنْهُ ، لَأَنَّهُمْ يَسْتَنْدُونَ إِلَى مَوْقِفٍ مُسَبِّقٍ رَافِضٍ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا يَحْتَشُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ لِلتَّائِيْدِ مِنْ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَهُمْ يُدْرِكُونَ أَنَّهُ صَادِقٌ ، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ مُسَيِّطِرٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَالْعِنَادَ يُهَيِّمُ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ . وَلَنْ يَرْضَوْا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى يَتْرَكَ الْإِسْلَامَ ، وَيَتَّبِعَ مِلَّتَهُمُ الْبَاطِلَةَ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣): ((مُبَالِغَةٌ فِي إِقْنَاطِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَرْضَوْا عَنْهُ حَتَّى يَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَ مِلَّتَهُ ؟ ، وَلَعَلَّهُمْ قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَحَكَّى اللَّهُ عَنْهُمْ)) .

وَلَا يُمَكِّنُ إِِرْضَاؤُهُمْ بِاتِّبَاعِ مِلَّتِهِمْ ، لِأَنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ دِينَانِ مُتَعَارِضَانِ وَمُتَنَافِرَانِ ، وَبَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عِدَاوَاتٌ وَنِزَاعَاتٌ وَتَنَاحُرٌ وَحَقْدٌ وَكَرَاهِيَّةٌ ، لَكِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى مُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ ، فَهَذَا الْهَدَفُ هُوَ الَّذِي يُوحِّدُهُمْ .

وَمِنْ الْمُحَالِ أَنْ يَتَّبِعَ النَّبِيُّ ﷺ مِلَّتَهُمْ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ ، كَمَا أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَجْتَمَعَ فِيهِ دِينَانِ مُتَعَارِضَانِ . وَمِنْ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ يَهُودِيًّا وَنَصْرَانِيًّا فِي نَفْسِ الْوَقْتِ . إِذَنْ ، لَا يَنْبَغِي الْإِلْتِفَاتُ إِلَى أَهْوَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَلَا يُمَكِّنُ نَيْلَ رِضَاهُمْ . وَالْآيَةُ تَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَعَدَمِ الْإِنْشَاغَالِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَأَهْوَائِهِمُ الْمُتَضَارِبَةِ ، وَعَقَائِدِهِمُ الْمُتَنَاقِضَةِ ، فِإِرْضَاؤُهُمْ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٣٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى ﴾ . فِي سَبَبِ نَزُولِهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ ، كَانُوا يَرْجُونَ أَنْ يُصَلِّيَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى قِبْلَتِهِمْ ، فَلَمَّا صُفِرَ إِلَى الْكَعْبَةِ يَسُّوْا مِنْهُ ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ دَعَوْهُ إِلَى دِينِهِمْ ، فَتَنَزَّلَتْ ، قَالَه مَقَاتِلُ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْأَلُونَهُ الْهَدَنَةَ وَيُطْعَمُونَهُ فِي أَنَّهُ إِنْ هَادَنَهُمْ وَافَقَوْهُ ، فَتَنَزَّلَتْ . ذَكَرَ مَعْنَاهُ الرَّجَاجُ)) اهـ .

وأهل الكتاب قلوبهم قاسية ، وطباعهم خسنة ، وهم ثابتون على الكفر حتى الموت ، والآية تشير إلى شدة شكيمتهم في الكفر والضلال . واليهود أسوأ من النصارى ، وأشد منهم ، وقلوب اليهود هي مضرب المثل في القسوة والصلابة ، وحقد اليهود لا يُماثله أي حقد .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٢٥) : ((وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق)) اهـ .

وفي الآية دليل على أن الكفر ملة واحدة ، لأن الله تعالى ذكر الملة بصيغة المفرد : ﴿ مِلَّتِهِمْ ﴾ ، مع أن اليهود والنصارى فريقان .

وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ٩١) : ((والملة : اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه ، وعلى ألسنة رسله ، فكانت الملة والشرعة سواء)) اهـ .

﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ . قل يا محمد لليهود والنصارى ، إن هدى الله (الإسلام) الذي بعثني به هو الهدى الحقيقي ، والإسلام وحده هو الدين الحق ، وليس اليهودية ولا النصرانية . والله تعالى يرشد النبي ﷺ إلى كيفية الرد على أهل الكتاب ، وإفحامهم ، وكشف باطلهم . ولا يوجد عاقل يساوي بين شريعة الخالق الكاملة الصحيحة ، وبين أفكار المخلوقين الناقصة المتعارضة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٢٥) : ((أي : قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى ، يعني : هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل . قال قتادة في قوله : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ ، قال : خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه ، يُخاصمون بها أهل الضلالة)) .

﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ . الخطاب للنبي ﷺ ، والمقصود أمته ، لأن النبي ﷺ معصوم . وهذا تهديد ووعيد لمن يسير على خطى اليهود والنصارى ، ويتبع آراءهم الواهية ، وعقائدهم الباطلة ، وأفكارهم المتعارضة ، بعد أن اتضحت له آيات القرآن والسنة النبوية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٣٨) : ((وفي الذي جاءه من العلم أربعة أقوال : أحدها أنه التحول إلى الكعبة ، قاله ابن عباس . والثاني أنه البيان بأن دين الله الإسلام . والثالث أنه القرآن . والرابع العلم بضلالة القوم)) اهـ .

﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . الخطابُ للنبي ﷺ ، والمقصودُ أمته . ففي حال اتّباع أهواء اليهود والنصارى بعد وُضوح الهدى ، ما لَكَ وَلِيٌّ يَحْفَظُكَ ، ولا نَصِيرٌ يَحْمِيكَ مِنَ اللَّهِ . وهو جواب ﴿ لَئِنْ ﴾ .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٥٦٥) : ((﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يعني بذلك : ليس لَكَ يا محمد مِنْ وَلِيٍّ يَلِيّ أَمْرَكَ ، وَفِيٍّ يَقُومُ بِهِ . ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ينصرك مِنَ اللَّهِ ، فَيَدْفَعُ عَنْكَ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ عِقَابِهِ ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّ أَحَلَّ بِكَ ذَلِكَ رَبُّكَ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] .

فَمَنْ جَادَلَكَ يا محمد في شأن المسيح عيسى بن مريم ، مِنْ بَعْدِ أَنْ ظَهَرَ الْحَقُّ أَمَامَكَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، فَادْعُوهُمْ إِلَى الْاجْتِمَاعِ وَالْمُبَاهَلَةِ ، ثُمَّ نَلْتَعِنْ (نَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَلْعَنَ الْكَاذِبَ فِيْنَا) .

وفي الآية : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ لَمْ تُذَكَّرِ الْبَنَاتُ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْأَبْنَاءُ فَقَطْ . إِمَّا لِأَنَّ الْبَنَاتِ دَاخِلَاتٌ فِي النِّسَاءِ ، أَوْ لِأَنَّ الْأَبْنَاءَ هُمُ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ مَوَاقِفَ الْخِصَامِ دُونَ الْبَنَاتِ .
والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الْأَبْنَاءَ وَالنِّسَاءَ تَمَّ تَقْدِيمُهُمْ عَلَى الْأَنْفُسِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُخَاطِرُ بِحَيَاتِهِ دِفَاعًا عَنِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ ، وَيُقَاتِلُ مِنْ أَجْلِ حِمَايَتِهِمْ .

وأصلُ الابتِهالِ الاجتهادُ في الدُّعَاءِ بِاللَّعْنِ . وقد كانت المُبَاهَلَةُ بعد إقامة الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .
وفي زاد المسير (١ / ٣٩٩) : ((فَأَمَّا الْإِبْتِهَالُ فَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : هُوَ التَّدَاعِي بِاللَّعْنِ . يُقَالُ : عَلَيْهِ بِهَلْهُ اللَّهُ ... وَقَالَ الرَّجَاجُ : مَعْنَى الْإِبْتِهَالِ فِي اللُّغَةِ الْمُبَالِغَةُ فِي الدُّعَاءِ ، وَأَصْلُهُ الْإِلْتِعَانُ . يُقَالُ : بِهَلْهُ اللَّهُ أَيَّ لَعْنَةٍ)) اهـ .

وقد نزلت هذه الآية في نصارى نَجْرَانَ ، حَيْثُ قَدِمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ ، وَإِلَهُ مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا . وقد أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ ، فَخَافُوا مِنَ الْعَذَابِ ، وَرَفَضُوا الْمُبَاهَلَةَ ، وَرَضُوا بِأَنْ يَدْفَعُوا الْجَزْيَةَ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى إِيْمَانِهِمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ صَادِقٌ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ، وَلَوْ كَانَ النَّصَارَى وَاثِقِينَ مِنْ دِينِهِمْ ، لَقَبِلُوا بِالْمُبَاهَلَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ دِينَهُمْ بَاطِلٌ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠٤ / ٤) : ((هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ ، لأنه دعاهم إلى المباهلة ، فأبوا منها ، ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم (العاقب) أنهم إن باهلوهم اضطرم عليهم الوادي نارا ، فإن محمدًا نبيُّ مُرسل ، وقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى ، فتركوا المباهلة ، وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كلِّ عام ألف حُلَّة في صفر ، وألف حُلَّة في رجب ، فصالحهم رسولُ الله ﷺ على ذلك بدلًا من الإسلام)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١٨٧٠ / ٤) : عن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ قال : وَلَمَّا نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، دعا رسولُ الله ﷺ عَلِيًّا وفاطمة وحسنا وحسينًا ، فقال : ((اللهم هؤلاء أهلي)) .

هذا دليلٌ على صدقِ النبي ﷺ وصحة رسالته ، وَلَوْ كَانَ كاذبًا _ وحاشاه _ لَمَا خَاطَرَ بحياته وحياة أقرب الناس إليه ، والحديث يُشير إلى فضلِ عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين ، إذ إنهم صفوة الصفوة ، وأهلُ النبي ﷺ ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ لَمَا اختارهم للمباهلة . وفي الحديث أيضًا دليلٌ على أن أبناء البنات يُسمَّون أبناء ، لأنَّ النبي ﷺ اعتبر الحسن والحسين ابنيهِ (1) .

وفي تفسير القرطبي (١٠٤ / ٤) : ((قال كثير من العلماء : إنَّ قوله عليه السلام في الحسن والحسين لَمَّا بَاهَلَ : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَسَنِ : " إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ " [صحيح البخاري (٩٦٢ / ٢)] مَخْصُوصٌ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ أَنْ يُسَمِّيَا ابْنِي النَّبِيِّ ﷺ دُونَ غَيْرِهِمَا)) اهـ .

لقد دعا النبي ﷺ نصارى نجران إلى المباهلة لِذَخْصِ باطلهم ، وفضحهم أمام الناس ، وكشف عقائدهم الزائغة ، واختار أهلَ بَيْتِهِ الْمُقَرَّبِينَ لهذا الأمر العظيم ، وهنا تَظْهَرُ ثقة النبي ﷺ بالله ، وإيمانه الراسخ بالتأييد الإلهي ، لكنَّ نصارى نجران ، تَهَرَّبُوا مِنَ الْمَوْضُوعِ بِسَبَبِ مَا يُشْكَلُهُ مِنْ خُطُورَةٍ عَلَى حَيَاتِهِمْ . وترك النصارى للمباهلة (المُلَاعَنَةُ) يدل على علمهم بِصَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ ، وهذا

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٩٩ / ١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْفُسَنَا ﴾ فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَرَادَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَهُ الشَّعْبِيُّ ، وَالْعَرَبُ تُخْبِرُ عَنْ ابْنِ الْعَمِّ بِأَنَّهُ نَفْسُ ابْنِ عَمِّهِ . وَالثَّانِي أَرَادَ الْإِخْوَانَ ، قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَالثَّلَاثُ أَرَادَ أَهْلَ دِينِهِ ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ . وَالرَّابِعُ أَرَادَ الْأَزْوَاجَ . وَالْخَامِسُ أَرَادَ الْقَرَابَةَ الْقَرِيبَةَ ، ذَكَرَهَا عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ النَّيْسَابُورِيُّ)) .

دليل واضح على صحة نبوة محمد ﷺ. كما يشير إلى اتباع أهل الكتاب لأهوائهم، وحرصهم على مصالحهم الشخصية وحب الرعامة وشهوة الرئاسة ، وهذه هي الحواجز التي منعتهم من الإيمان . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٢١٤) : ((دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة ، وهي الدعاء على الظالم من الفريقين ، وخرج رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين وعلي وفاطمة عليهم السلام ، وهو يقول لهم : " إذا أنا دعوت فأمّنوا " فذلك قوله : ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ يعني : بني العم . ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلُ ﴾ نتضرع في الدعاء . وقيل : ندعو بالبهلة وهي اللعنة ، فندعو الله باللعة على الكاذبين ، فلم تجبه النصارى إلى المباهلة خوفاً من اللعنة ، وقيلوا الجزية)) اهـ .

وَلَوْ قَبِلَ النصارى بالمباهلة ، لَحَلَّ عليهم العذاب بما كسبت أيديهم ، وبسبب أكاذيبهم ، حيث جعلوا المسيح ابناً لله وإلهاً معه، وهذا كذب على الله، وكذب على المسيح عبد الله ورسوله . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالاً وَلَا أَهْلًا)) (2) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٣] .

فإن أعرض هؤلاء النصارى الذي حاجبوا النبي ﷺ في أمر عيسى ﷺ عن الحق، ورفضوا توحيد الله، وأصرّوا على تأليه عيسى واعتباره ابناً لله تعالى، فإنهم مفسدون، وغارقون في الكفر والضلال . والله عليم بهم وبفسادهم . يُحصي أعمالهم ، وسيحاسبهم عليها ، ويُعذّبهم أشدّ العذاب . والآية وعيد شديد لهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٨) : ((وعيد لهم ، ووُضِعَ المظهر موضع المضمّر ، لبدل على أنّ التّولي عن الحُجج والإعراض عن التوحيد إفسادٌ للدين، والاعتقاد المؤدّي إلى فساد النّفس ، بل وإلى فساد العالم)) اهـ .

إنّ أصل الكلام " فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِهِمْ " ، فجاءت كلمة ﴿ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ وهي مظهر مكان المضمّر "بهم" للتنبية على أنهم مفسدون في غاية الإفساد، وأنّ رفض البراهين منتهى الفساد. والمراد هو تقرير المعنى وتثبيتته في قلب السامع .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١ / ٢٤٨) برقم (٢٢٢٥) ، وأبو يعلى في مسنده (٤ / ٤٧١) برقم (٢٦٠٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٤١٨) : ((رجال أبي يعلى رجال الصحيح)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا : عَنِ الْمُلَاعَنَةِ ، قَالَهُ مَقَاتِلُ . وَالثَّانِي أَنَّهُ : عَنِ الْبَيَانِ الَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، قَالَهُ الرَّجَّاجُ . وَالثَّلَاثُ : عَنِ الْإِقْرَارِ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ، قَالَهُ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ . وَفِي الْفَسَادِ هَاهُنَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي ، قَالَهُ مَقَاتِلُ . وَالثَّانِي : الْكُفْرُ ، ذَكَرَهُ الدَّمَشَقِيُّ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٦٤] .

لَقَدْ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ ، إِذْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولًا مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَاحِدًا مِنْهُمْ يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَعَرَبِيًّا مِثْلَهُمْ يَفْتَحِرُونَ بَانْتِسَابِهِ إِلَيْهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ بَعْدَمَا كَانُوا مُشْرِكِينَ ، يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يَعْرِفُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَلَيْسَ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِشَرِيعَةِ السَّمَاءِ . ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَةَ . وَقَدْ كَانُوا قَبْلَ الْبِعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي ضَلَالٍ ظَاهِرٍ ، وَكُفْرٍ وَاضِحٍ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٥٦) : ((قِيلَ : لَفْظُ الْمُؤْمِنِينَ عَامٌ ، وَمَعْنَاهُ خَاصٌ فِي الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ خِيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ إِلَّا وَقَدْ وَلَدَهُ ﷺ ، وَلَهُمْ فِيهِ نَسَبٌ إِلَّا بَنِي تَغْلِبَ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا نَصَارَى ، فَطَهَّرَهُ اللَّهُ مِنْ دَنَسِ النَّصْرَانِيَّةِ)) اهـ .
وَنِعَمَ اللَّهُ كَثِيرَةً لَا يُمَكِّنُ حَصْرُهَا ، وَاللَّهُ يَمُنُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ : —

الْمِنَّةُ الْأُولَى : إِرْسَالُ نَبِيِّ إِنْسِيٍّ وَعَرَبِيٍّ . فَكَوْنُهُ مِنَ الْإِنْسِ يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ أَلْفَةً سَتَحْصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَوْ كَانَ مَلَكًا أَوْ مِنْ الْجِنِّ ، لَمَا حَصَلَ الْأُنْسُ وَالْأَلْفَةُ وَالْمُودَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ لِاخْتِلَافِ الْجِنْسِ . وَكَوْنُهُ عَرَبِيًّا مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ سَيَفْهَمُونَ كَلَامَهُ ، وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مُتَرْجِمٍ . وَبِمَا أَنَّ مُحَمَّدًا إِنْسَانٌ مِثْلَ النَّاسِ ، وَظَهَرَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْمُعْجَزَاتُ ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَرَسُولٌ مِنَ اللَّهِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٥٦) : ((أَيُّ : مِنْ جِنْسِهِمْ لِيَتِمَكَّنُوا مِنْ مُخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (١ / ٤٩٤) : ((وَفِي وَجْهِ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِمْ بِكَوْنِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا لِكَوْنِهِ مَعْرُوفٍ النَّسَبِ فِيهِمْ ، قَالَهُ ابْنُ

عباس وقتادة. والثاني : لكونهم قد خبروا أمره وعلموا صدقه ، قاله الزجاج . والثالث : ليسهل عليهم التعلم منه لموافقة لسانه للسانهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والرابع : لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم ، قاله الماوردي . وهل هذه الآية خاصة أم عامة ؟ ، فيه قولان : أحدهما أنها خاصة للعرب ، روي عن عائشة والجمهور . والثاني أنها عامة لسائر المؤمنين ، فيكون المعنى أنه ليس بمالك ولا من غير بني آدم ، وهذا اختيار الزجاج)) اهـ .

المنة الثانية : قراءة القرآن عليهم بعدما كانوا جاهلاً لا يعرفون الوحي، وإخراجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن التخلف إلى الحضارة . وقد خص المؤمنون بالذكر مع أن النبي ﷺ أرسل إلى الإنس والجن ، لأن المؤمنين هم المنتفعون برسالته ودعوته. أمّا الكافرون فلن يستفيدوا من القرآن شيئاً ، ولن يعرفوا قيمته وإعجازه ، لأن الأعمى لا يقدّر أن يرى نور الشمس ، والناس أعداء ما جهلوا ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وكما قال الشاعر :

وَمَنْ يَكْ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزَّلَالَا

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١١١) : ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)) ، نعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه ، وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها ... ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ من نسيهم أو من جنسهم ، عريباً مثلهم ، ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مُفتخرين به ، وقُرئ " من أنفسهم " أي من أشرفهم لأنه _ عليه الصلاة والسلام _ كان من أشرف قبائل العرب وبطونها. ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جاهلاً لم يسمعوا الوحي)) اهـ .

المنة الثالثة : تزكية المؤمنين ، وذلك بانتشالهم من المعاصي ، وإرشادهم إلى الطاعات ، وبالتالي يطهّرهم من الذنوب والآثام والطّباع السيئة ، والعقائد الباطلة ، والأعمال المنحرفة ، فتصفو قلوبهم ، وتصبح حياتهم ذات معنى .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٦) : ((أي : يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، لتزكّو نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا مُتلبّسين به في حال شركهم وجاهليتهم)) .

المنة الرابعة : تعليمهم الكتاب (القرآن) والحكمة (السنة) ، وهذا يجعلهم علماء عاملين ، يتمتعون بالعلم والإخلاص ، بعد أن كانوا جاهلاً ضالين ، بلا تاريخ ولا حضارة .

وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

لقد زعم اليهود أن الله أوصاهم وأمرهم في كتبه وعلى السنة أنبيائه ، ألا يُصدّقوا رسولا حتى يأتيهم بآية خاصة ، وهي أن يُقدّم قربانا فتَنزِل نار من السماء وتأكله . وهذا افتراء على الله وكذب عليه ، فالله ما أوصاهم بهذا ، ولا أمرهم به . والقربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من صدقة وعمل صالح .

وقد كان عادة بني إسرائيل أنهم كانوا يُقربون القربان لله تعالى طاعة له وتقربا منه ، فيقوم النبي فيدعو ، فتَنزِل نار من السماء وتحرقه كعلامة لقبول القربان ، والله لم يتعبد كل الأنبياء بهذا الأمر ، ولم يجعله شرطا للإيمان ، ولا دليلا على صدق النبي وصحة نبوته (3) . لذلك كذبهم الله تعالى ، وكشف باطلهم ، وفضحهم ، وأمر محمدا ﷺ أن يقول لهم توبيخا وإظهارا لافتراءهم وكذبهم وإقامة للحجة عليهم : قد جاءكم رسول من قبلي بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، والبراهين الدالة على صدقهم وصحة نبوتهم ، وبما ادّعيتم (أكل النار للقربان) ، فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في إيمانكم ، وحريصين على تطبيق أوامر الله ، ومتمسكين بالشرعية ؟ . وهذا توبيخ شديد لهم ، وتقريع ، وفضح لباطلهم ، وكشف لتلاعبهم بأحكام الشريعة ، وإظهار لعنادهم وحقدهم ورفضهم للإيمان .

لقد قطع الله أعدائهم ، وأقام عليهم الحُجج ، وظهر لهم صدق أنبيائهم ، ومع هذا كذبوهم وقتلوهم مثل يحيى وزكريا وغيرهما ، وتلاعبوا بأحكام الشريعة ، وحرفوا نصوص التوراة . وقد سمى الله اليهود المعاصرين للنبي محمد ﷺ قَتَلَةً ، مع أنهم لم يقتلوا الأنبياء ، وذلك بسبب رضاهم عن فعل أسلافهم ، ومن رضي بالجريمة فهو شريك فيها ، وشريك للمجرم ، سواء بسواء . والآية تُظهر أن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ نسخة طبق الأصل عن أسلافهم ، وكل اليهود (السابقين واللاحقين) سائرون في طريق الضلال نفسه ، وشركاء في الكفر والكذب والعناد

(٣) قال البغوي في تفسيره (١ / ١٤٤) : ((وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل ، وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمَةً ، جاءت نار بيضاء من السماء لا دُخان لها ولها دويٌّ وخفيف فتأكله ، وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة ، فيكون ذلك علامة القبول ، وإذا لم يُقبل بقيت على حالها)) .

والحسد والحقد . إِذْ إِنَّ وَصَفَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَوْجُودٌ فِي التَّوْرَةِ ، وَلَيْسَ غَرِيبًا عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا نُبُوتَهُ حَقًّا وَحَسَدًا لَهُ وَلِلْعَرَبِ كُلِّهِمْ ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ خَرَجَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَصَارَتْ فِي الْعَرَبِ . وَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ مُتَأَكِّدِينَ مِنْ صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَكِنَّ الْعِنَادَ وَالْحَسَدَ وَالْمَصَالِحَ الشَّخْصِيَّةَ مَنَعَتْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٨٧ / ٤) : ((وَهَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي تَلَاهَا عَامِرُ الشَّعْبِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فَاحْتَجَّ بِهَا عَلَى الَّذِي حَسَنَ قَتْلَ عَثْمَانَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى الْيَهُودَ قَتْلَةً لِرِضَاهُمْ بِفِعْلِ أَسْلَافِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمْ نَحْوٌ مِنْ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥١٦ / ١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا

﴿

قال ابن عباس : نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ ، وَجَمَاعَةٍ مِنَ الْيَهُودِ ، أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا ، أَيِ أَمَرْنَا فِي التَّوْرَةِ أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ ، أَيِ لَا نُصَدِّقَ رَسُولًا يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولٌ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَالْقُرْبَانُ مَا تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَبْحٍ وَغَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا الْقُرْبَانَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَكَانَ نَزُولُ النَّارِ عِلَامَةً الْقَبُولِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الرَّجُلُ يَتَصَدَّقُ ، فَإِذَا قُبِلَتْ مِنْهُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْهُ ، وَكَانَتْ نَارًا لَهَا دَوِيٌّ وَخَفِيفٌ . وَقَالَ عَطَاءٌ : كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُونَ لِلَّهِ فَيَأْخُذُونَ أَطْيَبَ اللَّحْمِ ، فَيَضَعُونَهَا فِي وَسْطِ الْبَيْتِ تَحْتَ السَّمَاءِ ، فَيَقُومُ النَّبِيُّ فِي الْبَيْتِ ، وَيُنَاجِي رَبَّهُ ، فَتَنْزِلُ نَارٌ فَتَأْخُذُ ذَلِكَ الْقُرْبَانَ ، فَيَخْرُجُ النَّبِيُّ سَاجِدًا ، فَيُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ مَا يَشَاءُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران : ١٨٤] .

لَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ لَكَ ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِكَ فَكَذَّبُوكَ ، فَقَدْ كَذَّبَتْ أَسْلَافُهُمُ الرُّسُلَ الَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَكَ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ ، وَأَقَامُوا عَلَى أَقْوَامِهِمُ الْحُجَّةَ ، وَقَطَعُوا عُذْرَهُمْ .

فَلَا تَضَعُفُ يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ ، فَلَكَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ وَسُخْرِيَّتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَلَمْ يَضْغَفُوا ، وَلَمْ تَنْكَسِرْ مَعْنَوِيَّاتُهُمْ ، بَلْ زَادَتْ ثِقَتُهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَزَادُوا تِمَاسُكًا وَقُوَّةً وَثَبَاتًا .

وَقَدْ جَاءَ الْأَنْبِيَاءُ وَمَعَهُمْ أَدْلَةٌ صِدْقِهِمْ ، وَلَمْ يَأْتُوا فَارِغِي الْأَيْدِي . جَاءُوا بِالْبُرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ ، وَالزُّبُرِ (الْكُتُبِ الْمُتَلَقَّاةُ مِنَ السَّمَاءِ) ، وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ الْهَادِي

إلى الحق ، وهو التَّوراة والإنجيل . ومع هذا ، تَمَّ تكذيبهم والكُفْرُ بهم والاستهزاء بهم . فكَيْفَ لَوْ جاؤوا فارغي الأيدي ؟! . والرُّبُّ هي الكتب المزبورة ، أي المكتوبة .
والمعنى : لستَ يا محمد أولَ رسولٍ يتمُّ تكذيبه والكُفْرُ به .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٢٥) : ((تسليّة للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود . والرُّبُّ جمع زُبُور ، وهو الكتاب المقصور على الحُكْم ، والكتاب في عُرف القرآن ما يتضمَّن الشرائع والأحكام ، ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عَامَّة القرآن . وقيل : الرُّبُّ المواعظ والزواجر مِنْ زِبْرَتِهِ إِذَا زَجَرْتُهُ)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٥٣٩) : ((وهذا تعزية مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاهُ نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ على الأذى الذي كان يناله من اليهود وأهل الشرك بالله مِنْ سائر أهل المِلَل . يقول الله تعالى له : لَا يَحْزُنْكَ يَا مُحَمَّدُ كَذِبُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ ، وافتراءهم على ربهم اغترارًا بامهال الله إياهم ، وَلَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكَ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ ، وادعاءهم الأباطيل مِنْ عهود الله إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِكَ فَكَذَّبُوكَ وَكَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ ، فَقَدْ كَذَّبَتْ أَسْلَافُهُمْ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ قَبْلَكَ مَنْ جَاءَهُمْ بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ الْعُذْرَ ، وَالْأَدْلَةَ الْبَاهِرَةَ الْعَقْلَ ، وَالْآيَاتِ الْمَعْجَزَةِ الْخُلُقَ ، وَذَلِكَ هُوَ الْبَيِّنَاتُ . وَأَمَّا ﴿ الرُّبُّ ﴾ ، فَإِنَّهُ جَمْعُ زُبُورٍ وَهُوَ الْكِتَابُ ، وَكُلُّ كِتَابٍ فَهُوَ زُبُورٌ ويعني بِـ ﴿ الْكِتَابِ ﴾ التوراة والإنجيل ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَذَّبَتْ عِيسَى ، وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَخَرَفَتْ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَبَدَّلَتْ عَهْدَهُ إِلَيْهِمْ فِيهِ ، وَأَنَّ النَّصَارَى جَحَدَتْ مَا فِي الْإِنْجِيلِ مِنْ نَعْتِهِ ، وَغَيَّرَتْ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي أَمْرِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ الْمُنِيرُ ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي : الَّذِي يُنِيرُ فَيُبَيِّنُ الْحَقَّ لِمَنْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ وَيُوضِّحُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الثُّورِ وَالْإِضَاءَةِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .
لقد أرسلَ الله مُحَمَّدًا ﷺ إلى النَّاسِ كُلِّهِمْ ، يُبَلِّغُهُمُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ كَامِلًا ، بلا زيادة ولا نُقْصَانٍ ، وليس عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَحِسَابُ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَهُوَ أَيْضًا شَهِيدٌ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالنَّاسِ ، يَعْلَمُ مَا يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ ، وَكَيْفَ يَكُونُ رَفْضُهُمْ لِلْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا .
وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى عُمُومِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ، وَأَنَّهَا لِلنَّاسِ جَمِيعًا بِلا استثناء ، كما تُشِيرُ إِلَى مَكَانَةِ مُحَمَّدٍ الْجَلِيلَةِ ، وَمَنْزِلَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى كُلِّ النَّاسِ . وَهَذَا تَكْلِيفٌ عَظِيمٌ وَتَشْرِيفٌ مُجِيدٌ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣٩٣ / ١) : ((وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)) تَوَعَّد للكفار ، وتهديد تقتضيه قوة الكلام ، لأنَّ المعنى : شهيدًا على مَنْ كَذَّبَهُ)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٧٨ / ٤) : ((إِنَّمَا جَعَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدَ رَسُولًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخَلْقِ ، تُبَلِّغُهُمْ مَا أَرْسَلْنَاكَ بِهِ مِنْ رِسَالَةٍ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ غَيْرُ الْبَلَاغِ ، وَأَدَاءُ الرِّسَالَةِ إِلَى مَنْ أُرْسِلْتَ ، فَإِنَّ قَبِلُوا مَا أُرْسِلْتَ بِهِ فَلأنفُسِهِمْ ، وَإِنْ رَدُّوا فَعَلَيْهَا)) وَكَفَى بِاللَّهِ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ)) شَهِيدًا)) . يقول : حَسْبُكَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ شَاهِدًا عَلَيْكَ فِي بِلَاغِكَ مَا أَمَرْتُكَ بِبِلَاغِهِ مِنْ رِسَالَتِهِ وَوَحْيِهِ ، وَعَلَى مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِ فِي قَبُولِهِمْ مِنْكَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُكَ وَأَمْرُهُمْ ، وَهُوَ مُجَازِيكَ بِبِلَاغِكَ مَا وَعَدَكَ ، وَمُجَازِيهِمْ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ جَزَاءَ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ . ((

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء : ٨٠] .

مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَى الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، لأنَّ الرسولَ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ ، إِنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى الْمَكَانَةِ الْجَلِيلَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ ، إِذْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى ، فَالرَّسُولُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ . وَأَقْوَالُ الرَّسُولِ وَأَفْعَالُهُ ، كُلُّهَا خَاضِعَةٌ لِلْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَمَنْ رَدَّ كَلَامَ الرَّسُولِ ، إِنَّمَا هُوَ يَرُدُّ كَلَامَ اللَّهِ .

وفي الشَّفا للقاضي عِيَاض (١٧ / ١) : ((وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّهُ قَالَ : مِنْ فَضِيلَتِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ طَاعَتَكَ طَاعَتَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ . ((

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي)) (٤) .
وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي تَحْكُمُ الْعِلَاقَةَ مَعَ الْأَمِيرِ هِيَ : لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، لِأَنَّ الْأَمِيرَ لَيْسَ مَعْصُومًا ، فَقَدْ يَأْمُرُ بِأَمْرٍ مُخَالِفٍ لِلشَّرْعِ . أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ ، لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ .

(٤) متفق عليه . البخاري (٢٦١١ / ٦) برقم (٦٧١٨) ، ومسلم (١٤٦٦ / ٣) برقم (١٨٣٥) .

ومعنى " أميري " هو كُلٌّ مَنْ يَتَوَلَّى عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهِمْ وَفَقَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .
وقد أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَأَمَرَ الرَّسُولُ بِطَاعَةِ أَمِيرِهِ ، فَتَلَزَمَتِ الطَّاعَةُ . وَقَدْ رَبَطَ الرَّسُولُ ﷺ طَاعَةَ الْأُمَرَاءِ بِطَاعَتِهِ ، وَمَعْصِيَتِهِمْ بِمَعْصِيَتِهِ ، مِنْ أَجْلِ حَثِّ النَّاسِ عَلَى طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ ، وَتَوْحِيدِ الصَّفُوفِ ، وَحِفْظِ وَحْدَةِ الْكَلِمَةِ ، وَجَمْلِ الشُّمْلِ ، وَحِمَايَةِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّنَاحُرِ ، وَلَا شَكَّ أَنْ تَفَرَّقَ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ يُشْكَلُ خَطَرًا حَقِيقِيًّا عَلَى وُجُودِهِمْ وَإِنْجَازَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ .

وفي عُمدَةِ الْقَارِي (١٤ / ٢٢٢) : ((قَالَ الْخَطَّابِيُّ : كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَرَبِ لَا يَعْرِفُونَ الْإِمَارَةَ ، وَلَا يُطِيعُونَ غَيْرَ رُؤَسَاءِ قَبَائِلِهِمْ ، فَلَمَّا وَلِيَ فِي الْإِسْلَامِ الْأُمَرَاءُ أَنْكَرْتَهُ نَفُوسُهُمْ ، وَامْتَنَعَ بَعْضُهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلُ لِيُعَلِّمَهُمْ أَنَّ طَاعَةَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ كَانَ يُؤَلِّهِمْ وَجِبَتْ عَلَيْهِمْ لَطَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ هَذَا الْأَمْرُ خَاصًّا بِمَنْ بَاشَرَهُ الشَّارِعَ بِتَوَلِيَةِ الْإِمَامِ بِهِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ ، بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ أَمِيرٍ عَدَلَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ نَقِيضُ ذَلِكَ فِي الْمُخَالَفَةِ وَالْمَعْصِيَةِ)) اهـ .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ أَوْامِرِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَرَفَضَ دَعْوَتَهُ ، فَلَا مَسْئُولِيَّةَ عَلَى الرَّسُولِ ، لِأَنَّ وَظِيفَةَ الرَّسُولِ هِيَ التَّبْلِيغُ ، وَالرَّسُولُ لَيْسَ رَقِيبًا عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا . وَمَنْ اسْتَجَابَ لَهُ نَجَا ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ هَلَكَ ، وَالرَّسُولُ لَا يَتَحَمَّلُ اخْتِيَارَاتِ النَّاسِ ، مَا عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْصِي أَعْمَالَ الْعِبَادِ وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (١٤ / ١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ أَحْبَبَنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ " ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : لَقَدْ قَارَبَ هَذَا الرَّجُلُ الشَّرْكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ مَقَاتِلٌ . وَمَعْنَى الْكَلَامِ : مَنْ قَبِلَ مَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ ، فَإِنَّمَا قَبِلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ تَوَلَّى أَيَّ أَعْرَضَ عَنْ طَاعَتِهِ . وَفِي الْحَفِيفِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الرَّقِيبُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي الْمُحَاسِبُ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ وَابْنُ قُتَيْبَةَ)) اهـ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢ / ٥٩٤) : عَنْ عَبْدِ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا فَقَدْ غَوَى . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ . قُلْ : وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى)) .

مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَدْ هُدِيَ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَدْ ضَلَّ وَانْحَرَفَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَانْهَمَكَ فِي الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ وَالشَّرِّ .

وقد أنكر النبي ﷺ على هذا الخطيب ، لأنَّ قَوْلَهُ : " وَمَنْ يَعَصِهِمَا " يعني إشراك الله ورسوله في الضمير . والواجبُ ذِكْرُ الله مُقَدِّمًا على ذِكْرِ النبي ﷺ . فالله هو العظيمُ الأعظمُ ، ولا يُوجد أحدٌ يُشاركه في العِظَمَةِ . وفي هذا دليلٌ على أنَّ " الواو " تُفيد الترتيب .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ١٥٩ و ١٦٠) : ((قال القاضي وجماعة من العلماء : إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية ، وأمره بالعطف تعظيمًا لله تعالى بتقديم اسمه... والصواب أنَّ سبب التَّهْيِ أنَّ الخُطْبَ شَأْنُهَا البَسْطُ والإيضاح واجتساب الإشارات والرموز ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثًا ليُفْهَمَ . وأما قول الأولين فيُضَعَّفُ بأشياء منها أنَّ مثل هذا الضمير قد تكرر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله ﷺ كقوله ﷺ : " أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما " وغيره من الأحاديث . وإنما تُنَى الضمير ها هنا لأنه ليس خطبة وعُظ ، وإنما هو تعليم حُكْم ، فكلُّما قلَّ لفظه كان أقرب إلى حفظه ، بخلاف خطبة الوُعْظ ، فإنه ليس المراد حفظه ، وإنما يراد الاتِّعَاضُ بها)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

لَوْلَا أن أنعم الله على محمد ﷺ بالنبوة والعصمة ، ونبَّهه على الحق ، وأرشدَه إلى الصواب ، لَهَمَّتْ فرقة من الخائنين أن يُضِلُّوه عن الحق ، وقد عصمه الله من ذلك . والآية ﴿ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ هي جواب " لَوْلَا " ، وليس المقصود هو نفي همَّهم ، لأنهم همُّوا بالفعل ، وإنما المقصود نفي تأثيره في النبي ﷺ بسبب عصمته . وهؤلاء الخائنون لا يُضِلُّونَ إلا أنفسهم ، لأنَّ وِبَالَ خيانتهم راجع إليهم ، وهم يُضَيِّعون أنفسهم بأنفسهم ، ولا يقدرُونَ على إلحاق الضرر بالنبي ﷺ لأنه معصوم ، والله يحميه ويؤيده ، كما أنَّ النبي ﷺ يحكم بالظاهر ، ولا شيء عليه في الحُكْم قبل نزول الوحي ، فهو ﷺ لا يعلم الغيب ، ولا يعرف ماذا تُخبئ قلوبُ الناس ، وقد أنزل الله عليه القرآن والسنة ، وكلاهما وحي إلهي ، فكيف يُضِلُّونه والوحي ينزل عليه ؟ ، وعلمه الشرائع والأحكام والأمور الغيبية ، التي لم يكن يعرف عنها شيئًا . وقد تَفَضَّلَ الله عليه بالنبوة ، ولا شيء أعظم منها ، وأسبغَ عليه نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٩٦ و ١٩٧) : ((في سبب نزولها قولان : أحدهما أنها مُتعلّقة بقصة طُعْمَة وَقَوْمِهِ ، حيث لَبَسُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَمْرَ صَاحِبِهِمْ ، هذا قول ابن عباس من طريق ابن السائب . والثاني أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : جِئْنَاكَ نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا نُحْشَرَ وَلَا نُعْشَرَ ^(٥) ، وَعَلَى أَنْ تُمَتَّعَنَا بِالْعَزَى سَنَةً ، فَلَمْ يُجِبْهُمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هذا قول ابن عباس في رواية الضَّحَّاك . وفي المراد بفضل الله ورحمته قولان : أحدهما الثُّبُوة والعِصْمَةُ ، والثاني الإسلام والقرآن ، رُويَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ مُقَاتِلٌ : لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيْثُ بَيَّنَّ لَكَ أَمْرَ طُعْمَةٍ وَحَوْلِكَ بِالْقُرْآنِ عَنْ تَصَدِيقِ الْخَائِنِ . ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ : وَالْمَعْنَى لَقَدْ هَمَّتْ ، فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ ﴾ وَقَدْ هَمَّتْ بِإِضْلَالِهِ ؟ ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ، لَطَهَّرَ تَأْثِيرَ مَا هَمُّوا بِهِ ، فَأَمَّا الطَائِفَةُ فَعَلَى رِوَايَةِ ابْنِ السَّائِبِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَوْمُ طُعْمَةٍ ، وَعَلَى رِوَايَةِ الضَّحَّاكِ : وَفْدَ ثَقِيفٍ . وَفِي الْإِضْلَالِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا التَّخَطُّطُ فِي الْحُكْمِ ، وَالثَّانِي الْإِسْتِزْلَالُ عَنِ الْحَقِّ . قَالَ الرَّجَّازُ : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الضَّالِّينَ ، فَيَرْجِعُ الضَّلَالُ إِلَيْهِمْ . فَأَمَّا الْكِتَابُ فَهُوَ الْقُرْآنُ . وَفِي الْحِكْمَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا الْقَضَاءُ بِالْوَحْيِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَالثَّلَاثُ بَيَانُ مَا فِي الْكِتَابِ وَالْهَامِ الصَّوَابِ ، وَالْقَاءُ صَحَّةُ الْجَوَابِ فِي الرُّوْعِ ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الشَّرْعُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ وَالثَّانِي أَخْبَارُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ ، وَالثَّلَاثُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْمِنَّةُ بِالْإِيمَانِ ، وَالثَّانِي الْمِنَّةُ بِالثُّبُوةِ ، هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ عَامٌ فِي جَمِيعِ الْفَضْلِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ ، قَالَهُ أَبُو سُلَيْمَانَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٦] .

(٥) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٩٦٧) : ((أي لا يُنْدَبُونَ إِلَى الْمَغَازِي ، وَلَا تُضْرَبُ عَلَيْهِمُ الْبُعُوثُ . وَقِيلَ : لَا يُحْشَرُونَ إِلَى عَامِلِ الزَّكَاةِ لِيَأْخُذَ صَدَقَةَ أَمْوَالِهِمْ ، بَلْ يَأْخُذُونَهَا فِي أَمَاكِنِهِمْ)) اهـ .

إذا جحد الكافرون نُبُوتَكَ يا محمد ، وكفروا بك ، ولم يعترفوا بنزول الوحي عليك ، فإن الله يشهد بأنك عنده ورسوله الذي أنزل عليه القرآن المعجز ، أنزله بعلمه الخاص الذي لا يطّلع عليه غيره ، والملائكة يشهدون بأنك رسول ينزل عليه الوحي ، وهذا تقوية للنبي ﷺ في مواجهة البشر الجاحدين ، وشهادة الملائكة الأبرار أعظم من شهادة البشر . فلا تحزن بسبب تكذيب الكافرين لك ، ولا تتضايق من كفرهم وإنكارهم ، وكفى الله شاهداً على صدقك وصحة رسالتك ، وشهادة الله الخالق أعظم شهادة ، وتغني عن شهادة كل مخلوق . وقد أقام الله الحجج على صحة نبوة محمد ﷺ ، وأيده بالمعجزات ، ولم يتركه وحيداً في مواجهة الكافرين . والحجج الإلهية تغني عن كل البراهين .

والآية : ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ دليل في إثبات علم الله تعالى ، وأن الله عالم بعلم ، وفي هذا رد على من يقولون : عالم بلا علم . وقال الثعالبي في تفسيره (١ / ٤٣٤) : ((هذه الآية من أقوى متعلقات أهل السنة في إثبات علم الله عز وجل ، خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون : عالم بلا علم . والمعنى عند أهل السنة : أنزله وهو يعلم إنزاله ونزوله)) اهـ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٨١٤) : ((وشهادة الله سبحانه ، هي ما يصنعه من المعجزات الدالة على صحة النبوة ، فإن وجود هذه المعجزات شهادة للنبي ﷺ بصدق ما أخبر به من هذا وغيره)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٥٧) : ((في سبب نزولها قولان : أحدهما أن النبي عليه السلام دخل على جماعة من اليهود ، فقال : " إني والله أعلم أنكم لتعلمون أنني رسول الله " ، فقالوا : ما نعلم ذلك ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس . والثاني أن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : سألنا عنك اليهود ، فرعموا أنهم لا يعرفونك ، فائتينا بمن يشهد لك أن الله بعثك ، فنزلت هذه الآية . هذا قول ابن السائب . قال الزجاج : الشاهد ، المبين لما يشهد به ، فالله عز وجل بين ذلك ، ويعلم مع إباته أنه حق . وفي معنى ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنزله وفيه علمه ، قاله الزجاج . والثاني : أنزله من علمه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي ، والثالث : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه ، قاله ابن جرير . قوله تعالى : ﴿ والملائكة يشهدون ﴾ ، فيه قولان : أحدهما : يشهدون أن الله أنزله ، والثاني : يشهدون بصدقك . قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ ، قال الزجاج : الباء دخلت مؤكدة ، والمعنى : اكتفوا بالله في شهادته .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧٠] .

الخطاب للناس عامة بالدعوة وإقامة الحجّة والوعد والوعيد . قد جاءكم الرسول محمد ﷺ بالإسلام ، وهو الدين الحق من عند الله تعالى ، فَصَدَّقُوا مُحَمَّدًا وَمَا جَاءَ بِهِ ، فهذا التصديق خَيْرٌ لكم في الدنيا والآخرة . ففي الدنيا ، تعيشون بسعادة ، وفي الآخرة تَفُوزُونَ بالجنة . وَإِنْ تَكْفُرُوا بِمُحَمَّدٍ وَتُكَذِّبُوهُ ، فَضَرَرْتُكُمْ يَعود إليكم ، فالله غَنِيٌّ عن المؤمنين والكافرين ، لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . إيمان الناس لا يريد في ملكه شيئاً ، وكفرهم لا ينقص من ملكه شيئاً . والله يَمْلِكُ السماوات والأرض وما فيهما ، وله سبحانه ما في الكون مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا . والله يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الهداية فيهديه ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الضلال فيضلّه ، والله حَكِيمٌ في أقواله وأفعاله ، مُنَزَّهٌ عن الظلم والعبث .

وقال الطبري في تفسيره (٣٧١ / ٤) : ((﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مُشركي العرب وسائر أصناف الكفر . ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ ﴾ يعني : محمداً ﷺ قد جاءكم ﴿ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يقول : بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً . يقول : ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني : من عند ربكم . ﴿ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ يقول : فَصَدَّقُوهُ وَصَدَّقُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ مِنَ الدِّينِ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ . ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا ﴾ يقول : وَإِنْ تَجَحَدُوا رِسَالَتَهُ ، وَتُكَذِّبُوا بِهِ ، وَبِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ جُحُودَكُمْ ذَلِكَ وَتَكْذِيبَكُمْ بِهِ لَنْ يَضُرَّ غَيْرَكُمْ ، وَإِنَّمَا مَكْرُوهُ ذَلِكَ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ ذُونَ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِالَّذِي بَعَثَ بِهِ إِلَيْكُمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُلْكًا وَخَلْقًا ، لَا يُنْقِصُ كُفْرُكُمْ بِمَا كُفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَمْرِهِ ، وَعِصْيَانُكُمْ إِيَّاهُ فِيمَا عَصَيْتُمُوهُ فِيهِ مِنْ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ شَيْئًا . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ يقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بما أنتم صائرون إليه من طاعته فيما أمركم به ، وفيما نهاكم عنه ، ومعصيته في ذلك على عِلْمٍ مِنْهُ بِذَلِكَ مِنْكُمْ . أمركم ونهاكم . ﴿ حَكِيمًا ﴾ يعني : حَكِيمًا في أمره إِيَّاكُمْ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وفي نهيه إِيَّاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وفي غير ذلك من تدبيره فيكم ، وفي غيركم من خلقه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] .

الخطاب الإلهي مُوجَّه لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) . فقد جاءهم النبي محمد ﷺ ليُوضِّحَ كثيرًا من الأمور التي أخفاها أهل الكتاب وحرَّفوها وتلاعبوا بها (مثل : آية الرِّجَم ، وقصة

أصحاب السَّبْت الذين مُسِخُوا قِرْدَةً . والإضافة في قوله تعالى : ﴿ رُسُلُنَا ﴾ لِتَشْرِيفِ النَّبِيِّ ﷺ ، ورفع مكانته ، وتعظيم شأنه . وأيضاً ، لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اتِّبَاعِهِ ، فهو الْمُتَحَدِّثُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى . ويتجاوز النَّبِيُّ ﷺ عن كثير من باطلهم وتحريفهم للكتاب لعدم وجود فائدة في بيانه ، وبسبب عدم اشتماله على أحكام شرعية، ولو بَيَّنَّه لَفَضَحَهُمْ . وإنما يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ ما فيه حُجَّةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ (6) .

وإظهار ما أخفاه أهل الكتاب دليل باهر على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لأنه أُمِّيٌّ لم يَقْرَأِ التَّوْرَةَ والإنجيل . إذن ، هذه المعلومات التي أظهرها النَّبِيُّ ﷺ ليس لها أيُّ مَصْدَرٍ إِلَّا الْوَحْيُ السَّمَاوِيُّ الْمَوْجَّهٌ لِسُلُوكِ النَّبِيِّ ﷺ وتعاملاته . وقد أَخَفَوْا آيَةَ الرَّجْمِ ، وَصِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ في كُتُبِهِمْ . وقال القرطبي في تفسيره (١١٥ / ٦) : ((﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، أي يتركه ولا يُبَيِّنُهُ ، وإنما يُبَيِّنُ ما فيه حُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِهِ ، وشهادة برسالته ، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبينه)) اهـ .

والمناهج النبوي قائم على النَّقْلِ والعقل ومقارعة الحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، ولا يقوم على الشتائم والفضائح . وقد جاءهم مِنَ اللَّهِ نُورٌ (ضِيَاءٌ) ، وهو القرآن المعجز الذي يُبَيِّنُ الْأَحْكَامَ ، فهو ظاهرٌ في إعجازه ، وواضحٌ في أحكامه . وقيل : النور هو محمد ﷺ ، لأنه الهادي إلى طريق الله تعالى . وتنوين ﴿ نُورٌ ﴾ لِلتَّفْخِيمِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٠٧ / ١) : ((﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ، يعني القرآن ، فإنه الكاشف لِظُلُمَاتِ الشَّكِّ والضلال ، والكتاب الواضح الإعجاز وقيل : يُرِيدُ بِالنُّورِ مُحَمَّدٌ ﷺ)) اهـ .

(٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣١٦ / ٢) : ((فَإِنْ قِيلَ : كيف كان له أن يُمَسِكَ عن حق كتموه فلا يُبَيِّنُهُ ؟ فعنه جوابان : أحدهما أنه كان مُتَلَقِّيًا ما يُؤَمَّرُ بِهِ ، فإذا أُمِّرَ بإظهار شيء من أمرهم أظهره وأخذهم به ، وإلا سكت . والثاني أَنَّ عَقْدَ الدِّمَةِ إنما كان على أن يُقْرَأَ على دينهم ، فلمَّا كَتَمُوا كَثِيرًا مِمَّا أُمِرُوا بِهِ وَاتَّخَذُوا غَيْرَهُ دِينًا ، أظهر عليهم ما كَتَمُوا مِنْ صِفَتِهِ وعلامة نُبُوَّتِهِ لِتَحَقُّقِ مُعْجَزَتِهِ عندهم واحتكموا إليه فِي الرَّجْمِ ، فأظهر ما كَتَمُوا مِمَّا يُوَافِقُ شَرِيعَتَهُ ، وسكت عن أشياء لِتَحَقُّقِ إِقْرَارِهِمْ عَلَى دِينِهِمْ)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه قال : ((مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالرَّحْمَنِ ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ، فَكَانَ مِمَّا أَخَفَوْا الرَّجْمُ))^(٧).

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنِيَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟)) ، فَقَالُوا : نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : كَذَبْتُمْ ، إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا ، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : ارفَعْ يَدَكَ ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ ، فَقَالُوا : صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ ، فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ . فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا (٨).

وهكذا نرى ضعف النفوس يُحاولون إخفاء النصوص الدينية والتحايل عليها من أجل تحقيق مصالح شخصية ، وبسط السيطرة والنفوذ على الأتباع الجاهل الذين لا يملكون حصيلة علمية ، وهؤلاء العوام العميان يتبعون كل ناعق دون إعمال عقولهم، فدينهم مبني على التقليد الأعمى. وتظهر مسألة الرجم في هذا السياق لتعكس طبيعة تفكير أهل الكتاب العائشين في الأوهام والعقائد المتضاربة ، والخاضعين لسلطة رجال الدين وعلية القوم في تفسير النصوص والتلاعب بها حسب الأهواء والمنافع الذاتية . حيث يتم تمييع النصوص الدينية وإعادة تأويلها أو إخفاؤها لتناسب مع الظروف ، فتصبح البيئة المحيطة هي الحاكمة على النص الديني ، وليس العكس .

(٧) رواه ابن جبان في صحيحه (١٠ / ٢٧٦) برقم (٤٤٣٠). ورواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٠٠) برقم (٨٠٦٩) وصححه ، ووافقه الذهبي . / ملاحظة : الكفر لا يكون إلا بإنكار نص قطعي الورد (القرآن الكريم والحديث المتواتر) وقطعي الدلالة .

(٨) رواه البخاري (٣ / ١٣٣٠) برقم (٣٤٣٦) واللفظ له ، ومسلم (٣ / ١٣٢٦) برقم (١٦٩٩) . وقال الحافظ في الفتح (١٢ / ١٦٨) : ((قال الباجي : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلِمَ بِالْوَحْيِ أَنَّ حُكْمَ الرَّجْمِ فِيهَا ثَابِتٌ عَلَى مَا شَرَعَ لَمْ يَلْحَقْهُ تَبْدِيلٌ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلِمَ ذَلِكَ بِإِخْبَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى وَجْهِ حَصَلٍ لَهُ بِهِ الْعِلْمُ بِصِحَّةِ نَقْلِهِمْ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا سَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُمْ فِيهِ ، ثُمَّ يَتَعَلَّمُ صِحَّةَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى)) اهـ .

إن أهل الكتاب أَخَضَعُوا كَلَامَ اللَّهِ لِأَهْوَاءِ الْبَشَرِ، وآرَاءِ التُّخْبَةِ الدِّينِيَةِ الْمَحْصُورَةِ فِي الضَّغُوطَاتِ السِّيَاسِيَةِ وَالْاجْتِمَاعِيَةِ . فَتَكْرَسَ التَّحْرِيفُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَصَارَ كَلَامُ الْإِنْسَانِ _ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ _ هُوَ الْحَاكِمُ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا مُنْتَهَى الضَّلَالِ وَالْكَفْرِ . وَهَذَا الانْحِرَافُ نَاتِجٌ عَنْ ضَغْطِ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٣ / ١٣٢٧) : عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا _ أَيِ مُسَوِّدٍ الْوَجْهَ _ مَجْلُودًا ، فِدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ : ((هَكَذَا تَجْدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالُوا : نَعَمْ . فِدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ : ((أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، أَهَكَذَا تَجْدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالَ : لَا ، وَلَوْلَا أَنْكَ نَشَدْتَنِي بِهِذَا لَمْ أُخْبِرْكَ . نَجَدُهُ الرَّجْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا ، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرْكَنَاهُ ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقْمَنَّا عَلَيْهِ الْحَدَّ . قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعَ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمَهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ .

وهذا الحديث يُشِيرُ إِلَى الْأَيْدِي الْعَابِثَةِ بِالْأَنْصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ ، خُضُوعًا لِإِعْتِبَارَاتٍ دِينِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ . فَتَصْبِحُ فِلْسُفَةُ تَغْيِيرِ الْأَحْكَامِ الْإِلَهِيَّةِ شَرِيعَةً جَدِيدَةً عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ نَزُولًا عِنْدَ ضَغْطِ الْأَهْوَاءِ وَالْمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْقَاصِرَةِ . وَهَكَذَا نَدْرِكُ الْأَسَاسَ الْفِكْرِيَّ لِتَحْرِيفِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَالَّذِي يَتِمَحْوَرُ حَوْلَ التَّلَاعِبِ بِالْعَامَةِ عِبْرَ خِدَاعِهِمْ ، وَتَثْبِيتِ خُضُوعِهِمْ لِلسُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ الْمَشْوَشَةِ ، وَالسُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُتَحَالِفَةِ مَعَ طَبَقَةِ رِجَالِ الدِّينِ ، لِضَمَانِ اسْتِمْرَارِيَّةِ حَاكِمِيَّةِ الطَّغَاةِ دُونَ تَغْيِيرِ . وَبِالطَّبَعِ ، فَإِنَّ الشَّعْبَ هُوَ مَنْ يَدْفَعُ الثَّمَنَ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٩] . اللَّهُ تَعَالَى يُخَاطِبُ أَهْلَ الْكِتَابِ (الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِمْ أَنْ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ لِبَيَانِ الشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ الصَّحِيحَةِ بَعْدَ انْتِشَارِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَتَحْرِيفِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَتَفْشِيِ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . وَقَدْ حَدَّثَ انْقِطَاعُ مِنَ الرُّسُلِ . وَالْبِعْثَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ جَاءَتْ بَعْدَ مَدَّةٍ زَمْنِيَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنْذَ عِيسَى ﷺ (أَقْرَبَ الْأَنْبِيَاءِ زَمَنِيًّا إِلَى النَّبِيِّ الْخَاتَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ) . وَهَذَا فَضْلٌ إِلَهِيٌّ جَلِيلٌ . فَالْخَالِقُ الرَّحِيمُ بَعَادَهُ لَمْ يَتْرَكْهُمْ لِلشَّيَاطِينِ تَتَلَاعَبَ بِهِمْ ، وَلَمْ يَكِلْهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ . بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ خَيْرَ رُسُلِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ، لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالبِدْأَةِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالحَضَارَةِ . وَبِالنَّالِي ، فَلَا عُذْرَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا حُجَّةَ . فَقَدْ جَاءَهُمْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَقَطَعَ أَعْدَارَهُمْ ، لَنَلَا يَقُولُوا : مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ

بالخير ، ويُذَر من الشرِّ . فقد جاءهم محمد ﷺ يُبَشِّر المؤمنين بالجنة ، ويُخَوِّف الكافرين من النار ، وقد أعلَى شَأَن موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وكشفَ تلاعبَ أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل . والله يُقَدِّرُ على عِقَاب مَنْ عَصَاه ، وثوابِ مَنْ أطاعه . وهو سُبْحَانَهُ على كُلِّ شيءٍ قدير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٠) : ((والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرُّسُل ، وطُمُوسٍ مِنَ السُّبُل ، وتَغْيِيرِ الأديان ، وكثرةِ عبادةِ الأوثان واليران والصُّلْبَان ، فكانت النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ ، والحاجةُ إليه أمرٌ عَمَمَ (عام تام) ، فإنَّ الفساد كان قد عمَّ جميعَ البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد ، إلا قليلاً مِنَ المتمسِّكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أحرار اليهود وعُبَّاد النصارى والصابئين)) اهـ .

أما سببُ نزول الآية . فقد روى الطبري في تفسيره (٤ / ٥٠٧) عن ابن عباس قال : ((قال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَعُقَيْبَةُ بْنُ وَهْبٍ لِلْيَهُودِ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فوالله إنكم لتَعْلَمُونَ أنه رسول الله ، لقد كُنْتُمْ تَدْكُرُونَهُ لَنَا قَبْلَ مَبْعَاثِهِ ، وتصفونه لنا بِصِفَتِهِ ، فقال رافع ابن خُرَيْمَةَ وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا : مَا قُلْنَا هَذَا لَكُمْ ، وما أنزلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ بَعْدَ مُوسَى ، ولا أَرْسَلَ بِشِيرًا وَلَا نَذِيرًا بَعْدَهُ)) اهـ .

وبعد رفع عيسى ﷺ إلى السماء انقطع وجود الأنبياء لمدة ستمائة سنة (9) ، حتى جاء محمد ﷺ . وفي فترة الانقطاع انتشرت الأديانُ الباطلة ، واتَّسَعَتْ رُقْعَةُ عِبَادَةِ الأصنام حيث انتشرت الوثنية والعقائد المنحرفة . وأضحى وجهُ الأرض كَثِيبًا جَرَّاءَ العقائد الكُفْرِيَّةِ ، وغيابِ الهداية الإلهية

(٩) روى البخاري في صحيحه (٣ / ١٤٣٥) عن سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ قال : ((فَتْرَةٌ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ _ سِتْمِائَةَ سَنَةٍ)) . وقال الحافظ في الفتح (٧ / ٢٧٧) : ((والمراد بالفترة المدة التي لا يُبْعَثُ فيها رسولٌ من الله ، ولا يُمْتَنَعُ أَنْ يُنْبَأَ فيها مَنْ يَدْعُو إِلَى شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْآخِرِ . ونقل ابن الجوزي الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان هذا)) اهـ . وذهب علماء التفسير إلى وجود أنبياء بعد عيسى ﷺ مُسْتَدِلِّينَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس : ١٤] . وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٥١٧) : ((فَأَضَافَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِرْسَالَ إِلَى نَفْسِهِ...لأن عيسى أَرْسَلَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَرْسَلَهُمْ بَعْدَ رَفْعِ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ)) اهـ .

، وَاتَّبَعَ النَّاسَ لَأَهْوَاءِهِمْ وَشَيَاطِينِهِمْ . فَجَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ ، وَيُخْرِجَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ الْعِبَادِ .

وفي صحيح مسلم (٢١٩٧ / ٤) : عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) . وهذا الحديث يتعلق بالفترة الزمنية التي سَبَقَتْ الْبَعْثَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ . فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ أَشَدَّ الْبُغْضِ ، بِسَبَبِ انْحِرَافِهِمْ ، وَاتِّبَاعِهِمْ لِلشَّيْطَانِ ، وَعَدَمِ التَّزَامِهِمْ بِشَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّمَاوِيَّةِ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالَّذِينَ الْحَقُّ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو زَمَنٌ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧ / ١٩٧ و ١٩٨) : ((الْمَقْتُ : أَشَدُّ الْبُغْضِ . وَالْمَرَادُ بِهَذَا الْمَقْتُ وَالنَّظَرُ ، مَا قَبَّلَ بَعْثَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَالْمَرَادُ بِبَقَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ الْبَاقُونَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ)) اهـ .

وتتكرس العلاقة بين محمد وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ باعتبارهما رسولين كريمين ، وباعتبار الفترة الزمنية بينهما . فعن أبي هريرة _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ ، وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَاتٍ ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ))^(١٠) . فالأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ إخوة ، دينهم واحدٌ . يَحْمِلُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ لِإِنْقَادِهِمْ ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَكُلُّ نَبِيٍّ يُصَدِّقُ مَنْ قَبْلَهُ . وَكُلُّهُمْ يَصْنَعُونَ الْبَنِيَانَ الْإِيمَانِيَّ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ دُونَ تَعَارُضٍ أَوْ تَنَافُرٍ .

(١٠) متفق عليه . البخاري (١٢٧٠ / ٣) برقم (٣٢٥٨) . ومسلم (١٨٣٧ / ٤) برقم (٢٣٦٥) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١٩ / ١٥) : ((قَالَ الْعُلَمَاءُ : أَوْلَادُ الْعَلَاتِ _ بَفَتْحِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ _ هُمُ الْأَخَوَةُ لِأَبٍ مِنْ أُمَهَاتٍ شَتَّى ، وَأُمَّا الْأَخَوَةُ مِنَ الْأَبْوِينَ ، فَيُقَالُ لَهُمْ أَوْلَادُ الْأَعْيَانِ)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٤٨٩ / ٦) : ((هُوَ أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ، وَذَاكَ مِنْ جِهَةِ قُوَّةِ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ ، وَهَذَا مِنْ جِهَةِ قُوَّةِ قُرْبِ الْعَهْدِ بِهِ... وَالْعَلَاتُ _ بَفَتْحِ الْمَهْمَلَةِ _ الضَّرَائِرُ ، وَأَصْلُهُ أَنْ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْرَى كَأَنَّهُ عَلٌّ مِنْهَا ، وَالْعَلُّ الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ . وَأَوْلَادُ الْعَلَاتِ الْأَخَوَةُ مِنَ الْأَبِ وَأُمَهَاتُهُمْ شَتَّى ... وَمَعْنَى الْحَدِيثِ : أَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ وَاحِدٌ ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فُرُوعُ الشَّرَائِعِ)) اهـ .

ومعنى الحديث أن أصل إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة . فهم مُتَّفِقُونَ في أصول التَّوْحِيدِ ، ومُخْتَلِفُونَ في فروع الشَّرَائِعِ ، لأنَّ الشَّرَائِعَ تختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس ، وقد جاءت الشَّرَائِعُ لتحقيق مصالح الناس ، ولم تَجِءْ للتَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ . وحيث تكون المصلحة فَشَمَّ شَرَعَ اللهُ تعالى . وَكُلُّ الأنبياء بلا استثناء دينهم الإسلام ، قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] أمَّا الشَّرَائِعُ فمُتَعَدِّدَةٌ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٨] .

يُخْبِرُ اللهُ تعالى عن عناد المشركين وجَهْلِهِمْ ، فقد اقترحوا _ بكل جحود _ إنزال مَلَكٍ على النَّبِيِّ ﷺ لِيَكُونَ معه نَذِيرًا وَمُسَانِدًا . وهذا مِمَّا يَنْدَرِعُ به المشركون ، حيث يَخْتَرِعُونَ الأشياءَ من نبات أفكارهم بسبب عجزهم عن مقارعة الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ . فينتهجون هذا الأسلوب العقيم الذي يُبْنَى عن جهل وعناد وفكرة مسبقة رافضة للإيمان مهما حصل من مُعْجَزَاتٍ . لذلك تراهم يبحثون عن أمور غير منطقية ، ويحاولون إلباسها ثوب المنطق ومُقَارَعَةِ الدليل بالدليل . لكنَّ الرَّدَّ الإلهيَّ لم يتأخر في دَخْضِ باطلهم ، فلو أنزلَ مَلَكٌ لَمَا أَطَاقُوا رُؤْيَاهُ لِعَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، أو أن العذاب سيأتيهم عاجلاً بلا تأخر ، وعندئذ لا يُمَهِّلُونَ ، ولا يُمنَحون فرصة للتوبة . ومُفَاجَأَةُ العذابِ أَشَدُّ مِنْ نَفْسِ العذاب . وغَنَصِرُ المفاجأة _ دائماً _ قاتل . وهنا تتجلى الرَّحْمَةُ الإلهية التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الكافرين .

وفي زاد المسير (٣ / ٨) : ((قال مُقَاتِلُ : نزلت _ أي الآية _ في التَّضَرُّعِ بن الحارث وعبد الله ابن أبي أُمَيَّةَ وَنَوْفَلَ بن خُوَيْلِدٍ . وَلَوْلَا بمعنى هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يُصَدِّقُهُ ، وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا فَعَايَنُوهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا لَفُضِيَ الْأَمْرُ . وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّ المعنى لَمَاتُوا وَلَمْ يُؤْخَرُوا طَرْفَةَ عَيْنٍ لِنُبُوَّةٍ ، قاله ابن عباس . والثاني : لَقَامَتِ السَّاعَةُ ، قاله عِكْرَمَةُ ومجاهد . والثالث : لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، قاله قتادة)) اهـ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ . اقترح المشركون بدافع العناد والتَّكْبِيرِ أن يُنْزَلَ اللهُ مَلَكًا على محمد ، فَيَرُونَهُ ، وَيُكَلِّمَهُمْ ، وَيَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْهِ . وهذا نَوْعٌ جديد من أنواع كُفْرِ المشركين ، وَجَحْدِهِمْ لِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا نُزُولَ الْمَلَكِ بَحْثًا عَنْ

الحق والحقيقة أو للتأكد من نبوة محمد ﷺ ، لأنهم كانوا يعلمون أن محمداً نبياً يوحي إليه ، وهو الصادق الأمين . ولكنها حيلة يستخدمونها للتلاعب وتضييع الوقت والتهرب من الإيمان . وقال الواحد في الوجيز (١ / ٣٤٥) : ((طَلَبُوا مَلَكًا يَرُونَهُ يَشْهَدُ لَهُ بِالرَّسَالَةِ)) اهـ .

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ . لَوْ أَنزَلَ اللَّهُ مَلَكًا _ كما طَلَبَ المشركون _ ثُمَّ كَفَرُوا لَتَمَّ إِهْلَاكُهُمْ فَوَرَّا ، وَلَمْ يُنْصَحُوا آيَةً فَحِيلَةً لِلتَّوْبَةِ . وَسُنَّةُ اللَّهِ ثَابِتَةٌ لَا تَبْدُلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ آيَةً ، وَكَفَرَ بِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُهْلِكُهُ فِي الْحَالِ ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ . وَهَذَا تَجَلَّى رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَرَادُوا تَدْمِيرَ أَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

وهكذا هم الْجُهَالُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، يَسِيرُونَ إِلَى الْهَابِيَةِ بِأَقْدَامِهِمْ ، وَيَطْلُبُونَ مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ ، وَكَمَا قِيلَ : رَبُّ مُتَمَنٍّ حَتْفُهُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، أَوْ رَبُّ أَمْرٍ حَتْفُهُ فِيْمَا تَمَنَّاهُ . وَالْجَبَانُ قَدْ يَلْقَى حَتْفَهُ فِي مَظَنَّةِ النِّجَاةِ . لَقَدْ حَمَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَاكِ الْفَوْرِيِّ ، وَمَنْحَهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةَ . فَاللَّهُ يُمְهِلُ وَلَا يُهْمِلُ ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ أَحْبَابَهُ وَأَعْدَاءَهُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ . يُرِيدُ لَهُمُ الْهَدَايَةَ ، لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ إِيْمَانِ الْمُؤْمِنِ ، وَلَا يَنْصُرُ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِ . الطَّاعَاتُ لَا تَنْفَعُهُ ، وَالْمَعَاصِي لَا تَضُرُّهُ . لَكِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ بِرَحْمَةِ اللَّهِ لِأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، يَرْجُو اللَّهَ ، وَيَخَافُ الذُّنُوبَ الَّتِي اقْتَرَفَهَا .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ١٥١) : ((يَقُولُ : وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا عَلَى مَا سَأَلُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ ، وَلَمْ يُنْظَرُوا فَيُؤَخَّرُوا بِالْعُقُوبَةِ مُرَاجَعَةً التَّوْبَةِ ، كَمَا فَعَلْتُ بِمَنْ قَبْلَهُمْ _ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي سَأَلَتْ الْآيَاتِ ثُمَّ كَفَرَتْ بَعْدَ مَجِيئِهَا _ مِنْ تَعْجِيلِ النَّقْمَةِ وَتَرْكِ الْإِنْظَارِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩] . لَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِطَلَبِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا يَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ ، لَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ كَيُّ يُحَاوِرُهُمْ وَيُحَاوِرُوهُ ، وَيَتَعَلَّمُوا مِنْهُ ، وَيَنْتَفِعُوا بِعِلْمِهِ . إِنَّ النَّاسَ لَا يُطِيقُونَ رُؤْيَا الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ ، فَهَذَا الْأَمْرُ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى التَّحُمُلِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ ، وَلَا يَنْسَجِمُ مَعَ غَيْرِ جِنْسِهِ .

وقال البضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٣) : ((فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْبَشَرِيَّةَ لَا تَقْوَى عَلَى رُؤْيَا الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ ، وَإِنَّمَا رَأَاهُمْ كَذَلِكَ الْأَفْرَادُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ بِقُوَّتِهِمُ الْقُدْسِيَّةِ)) اهـ .

وَلَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا بِصُورَتِهِ الْحَقِيقَةِ ، لَهَرَبَ النَّاسُ مِنْهُ بِسَبَبِ عَظَمَتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، وَلَمَّا حَصَلَتْ فَائِدَةُ التَّبْلِيغِ وَالِدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَبْطُلُ مَعْنَى التَّيَبُّوتِ وَالرَّسَالَةِ . وَلَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَلَكًا عَلَى صُورَةِ بَشَرٍ ، لَمَّا صَدَّقَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّهُ مَلَكٌ ، وَقَالُوا إِنَّكَ بَشَرٌ ، وَكَذَّبُوهُ ، وَاتَّهَمُوهُ بِالسَّحْرِ وَبَاقِي التُّهَمِ الْجَاهِزَةِ ، وَكَفَرُوا بِهِ . وَبِالتَّالِي ، لَا تَتَحَقَّقُ الْمَصْلَحَةُ ، وَلَا يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِرِسَالَةِ السَّمَاءِ . وَفِي الْحَالَتَيْنِ ، يَبْطُلُ دَوْرُ النَّبِيِّ ، وَتَفْقَدُ الرِّسَالَةُ السَّمَاوِيَّةُ مَعْنَاهَا . وَهَكَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ اخْتِيَارَ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى الْبَشَرِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ ، وَحُكْمَتِهِ الْجَلِيلَةِ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا يَأْتُونَ الْأَنْبِيَاءَ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ ، فَأَتَوْا إِبْرَاهِيمَ وَلُوطًا _ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ ، وَجَاءَ الْمَلَكَانِ إِلَى دَاوُدَ ﷺ فِي صُورَةِ رَجُلَيْنِ . وَكَانَ جِبْرِيلُ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دُخْيَةِ الْكَلْبِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ (11) ، وَهُوَ صَحَابِيٌّ جَمِيلُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الصُّورَةِ .

﴿ وَلَبَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (12) . وَلَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَشَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ ، وَحَدَّثَ الْإِلْتِبَاسُ وَالشُّكَّ وَالْإِشْكَالَ ، فَلَا يَعْرِفُونَ أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ إِنْسَانٌ .

(١١) فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جِبْرِيلَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَم سَلَمَةٌ ، فَجَعَلَ يُحَدِّثُ ثُمَّ قَامَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَأَم سَلَمَةٌ : ((مَنْ هَذَا ؟)) ، قَالَتْ : هَذَا دُخْيَةٌ . [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . الْبُخَارِيُّ (٣ / ١٣٣٠) وَمُسْلِمٌ (٤ / ١٩٠٦)] . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٨ / ١٦) : ((وَفِيهِ مَنْقِبَةٌ لِأَم سَلَمَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، وَفِيهِ جَوَازُ رُؤْيَا الْبَشَرِ الْمَلَائِكَةِ وَوُقُوعِ ذَلِكَ ، وَيَرَوُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى رُؤْيَيْهِمْ عَلَى صُورِهِمْ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَى جِبْرِيلَ عَلَى صُورَةِ دُخْيَةٍ غَالِبًا ، وَرَأَاهُ مَرَّتَيْنِ عَلَى صُورَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ)) أَه . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ (٢ / ٣٨٥) : ((وَرَوَى النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كَانَ جِبْرِائِيلُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دُخْيَةِ الْكَلْبِيِّ)) .

(١٢) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٣) : ((أَي : لَشَبَّهْنَا عَلَيْهِمْ . يُقَالُ : أَلْبَسْتُ الْأَمْرَ عَلَى الْقَوْمِ أَلْبَسَهُ ، أَيِ شَبَّهْتُهُ عَلَيْهِمْ وَأَشْكَلْتُهُ . وَالْمَعْنَى : لَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَشْكُوْا ، فَلَا يَدْرُونَ أَمَلَكٌ هُوَ أَمْ آدَمِيٌّ ، فَأَضَلَّلْنَاهُمْ بِمَا بِهِ ضَلُّوا قَبْلَ أَنْ يُعْثَ الْمَلَكُ . وَقَالَ الرَّجَاجُ : كَانُوا يَلْبِسُونَ عَلَى ضَعْفَتِهِمْ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَقُولُونَ : إِنَّمَا هَذَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : لَوْ رَأَوْا الْمَلَكَ رَجُلًا ، لَكَانَ يَلْحَقُهُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَسِ مِثْلُ مَا لَحِقَ ضَعْفَتَهُمْ مِنْهُ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٩٣) : ((وَلَبَّسْنَا جَوَابَ مُحذوف ، أي : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ رَجُلًا لَلَبَّسْنَا ، أي : لَخَلَطْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَخْلُطُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فيقولون : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بُرْسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

إِنْ جَحَدَ الْكَافِرُونَ نُبُوتَكَ يَا مُحَمَّد ، وَسَخِرُوا مِنْكَ ، واستهزؤوا بما جئتَ به ، فقد استهزأ الكافرون من الأمم السابقة بأنبيائهم الذين بعثهم الله إليهم ، فجاءتهم العقوبة الشديدة ، وأصابهم العذاب الأليم جزاء سُخْرِيَتِهِمْ واستهزائهم ، وقد أَهْلَكُوا بسبب استهزائهم بالحق . وفي الآية وَعَدٌ إِلَهِيٍّ لِلنَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ بِالنَّصْرِ ، وَالتَّمَكُّنِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ .
وفي سيرة ابن كثير (٢ / ٨٣) : ((قال ابن إسحاق : وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ _فِيَمَا بَلَغْنَا_ بِالْوَلِيدِ ابْنَ الْمَغِيرَةِ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ وَأَبِي جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ فَهَمَزُوهُ ، واستهزؤوا به ، فغاضه ذلك ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بُرْسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾)) اهـ .

وَالْآيَةُ تُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَتَشُدُّ مِنْ أَرْزِهِ ، فَلَهُ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِالرُّسُلِ ، وَتُقَوِّي النَّبِيَّ ﷺ فِي مُوَاجَهَةِ الْكَافِرِينَ ، وَالتَّصَدِّي لِهِمْ ، وَإِفْحَامِهِمْ ، وَرَدُّعِهِمْ ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ . وفي الآية تهديدٌ شديد للكَفَّارِ ، وَوَعِيدٌ لَهُمْ ، وَتَحْطِيمٌ لِعِنَادِهِمْ وَجَبْرُوتِهِمْ ، وَكَسْرٌ لِمَعْنَوِيَّاتِهِمْ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ تَنْكِيرَ رُسُلٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اسْتَهْزَيْ بُرْسُلٍ ﴾ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّكْثِيرِ . كَمَا أَنَّ " حَاقَ " مَخْصُوصَةٌ فِي الشَّرِّ ، وَالْمَعْنَى : نَزَلَ وَأَحَاطَ .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٢٩) : ((يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : فَلَنْ يَعْدُوَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئُونَ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُفْرَةِ أَنْ يَكُونُوا كَأَسْلَافِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ رُسُلَهَا ، فَيَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ بِاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ نَظِيرَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا ﴾ ، أَيْ

:

أَحَاطَ . قَالَ الرَّجَاجُ : الْحَقِيقُ فِي اللُّغَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهِ فَعَلَهُ ... ، قَالَ السُّدِّي : وَقَعَ بِهِمْ الْعَذَابُ الَّذِي اسْتَهْزَؤُوا بِهِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [الأنعام : ١١] .

قُلْ يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين يُكذِّبونك وَيَسْخَرُونَ مِنْ دَعْوَتِكَ: سَافِرُوا فِي الْبِلَادِ مُعْتَبِرِينَ وَتَفَكَّرُوا فِي نَهَايَةِ الْكَافِرِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ. لَقَدْ حَلَّ عَلَيْهِمُ الْغَضَبُ الْإِلَهِيُّ ، وَنَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ، وَصَارَتْ دِيَارُهُمْ خَرَابًا . لَقَدْ كَفَرُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ ، وَسَخَرُوا مِنْهُمْ ، فَمَسَحَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْوُجُودِ ، وَجَعَلَهُمْ أَثَرًا إِثْرَ عَيْنٍ . لَقَدْ خَسَرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَعًا . وَالْمَقْصُودُ مِنْ عَمَلِيَةِ السَّيْرِ هُوَ أَخْذُ الْعِبَرَةِ مِنْ حَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَإِذَا تَمَّتِ الْمَعْرِفَةُ وَالْعِبَرَةُ فَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ ، حَتَّى لَوْ لَمْ يَتِمَّ السَّيْرُ . وَلَكِنْ بِالطَّبَعِ السَّيْرِ فِي الْبِلَادِ وَمُشَاهَدَةِ الْأَثَارِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ ، وَأَقْوَى أَثَرًا .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٦٩ / ٢) : ((أَي : فَكَّرُوا فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَانظُرُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ بِالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ وَعَانَدُوهُمْ ، مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا أَدْخَرَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَيْفَ نَجَّى رُسُلَهُ وَعِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١٣٠ / ١) : ((« قُلْ » يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ مُعْتَبِرِينَ . يُحْتَمَلُ هَذَا : السَّيْرُ بِالْعُقُولِ وَالْفِكْرِ ، وَيُحْتَمَلُ السَّيْرُ بِالْأَقْدَامِ ﴿ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ، أَي : آخِرُ أَمْرِهِمْ ، وَكَيْفَ أَوْرَثَهُمُ الْكَفْرُ وَالتَّكْذِيبُ الْهَلَاكَ ، فَحَذَّرَ كَفَارَ مَكَّةَ عَذَابَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [الْأَنْعَامِ] .

لَقَدْ غَرَّقَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْجَحُودِ وَالتَّكْذِيبِ ، وَبَلَغُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْوَقَاحَةِ أَنَّهُمْ جَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ يُجَادِلُونَهُ بِالْبَاطِلِ ، وَيُخَاصِمُونَهُ فِي الدِّينِ ، مُحَاوِلِينَ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكْتَفُوا بِالْكَفْرِ ، بَلْ تَهَجَّمُوا عَلَى الْقُرْآنِ ، وَوَصَفُوهُ بِأَنَّهُ خُرَافَاتٌ مَنقُولَةٌ مِنْ كُتُبِ السَّابِقِينَ .

وَالْمُشْرِكُونَ لَمْ يَقْدَمُوا دَلِيلًا وَاحِدًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَذِبٌ ، وَإِنَّمَا اكْتَفَوْا بِالطَّعْنِ فِيهِ بِدَافِعِ الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ وَالْجَهْلِ وَالْأَهْوَاءِ . وَالْجَاهِلُ عَدُوٌّ نَفْسِهِ . وَحُجَّتُهُمْ الْوَاهِيَةُ هِيَ الشَّتَائِمُ ، وَالْقَاءُ التُّهْمِ بِلَا دَلِيلٍ ، وَهَذِهِ حُجَّةُ الضَّعِيفِ الْعَاجِزِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ .

لَقَدْ اتَّهَمُوا الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ أَكَاذِيبٌ مَنقُولَةٌ مِنْ كُتُبِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْدَمُوا دَلِيلًا وَاحِدًا عَلَى ذَلِكَ . فَمَثَلًا ، لَمْ يَأْتُوا بِالْكَتَبِ السَّابِقَةِ لِكَيْ تَحْدُثَ الْمَقَارَنَةُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَبَيْنَهَا . وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ ، لَأَخْضَرُوا كُتُبَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَوَضَّحُوا أَوَّجَةَ التَّشَابُهِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آيَاتِ

القرآن ، ونشروا ذلك بين الناس ، لكي يعرفوا أن القرآن ليس وحياً ، وإنما كلام بشر تم نقله من كتب الأقدمين .

لكن هذا لم يحدث . وهذا يشير بوضوح إلى أنهم عاجزون عن مقارعة الحجة بالحجة ، وخاضعون للعناد والتعنت والتكبر ، ويتبعون أهواءهم بغير علم .

والدعاوى إن لم تُقيموا عليها بينات أبنائها أدياء

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٧١) : ((« يقول الذين كفروا » يعني قريشاً . قال ابن عباس : قالوا للنضر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ قال : أرى تحريك شفثيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية . وكان النضر صاحب قصص وأسفار ، سمع أقاصيص في ديار العجم مثل : قصة رستم وإسفنديار ، فكان يحدثهم)) اهـ .
« يقول الذين كفروا » إن هذا إلا أساطير الأولين » (13).

يعني : سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم . والمشكلة الحقيقية أن الكافرين يضحكون على أنفسهم ويخدعونها . والإنسان قد يخدع غيره لتحقيق مكاسب معينة ، أما أن يخدع نفسه فهذه هي الكارثة الكبرى . فاتهام القرآن بأنه أساطير الأولين ، كُتب من أخبار الأمم الغابرة يفتقد إلى المنطق والعقلانية . فلو كان القرآن كلاماً بشرياً لما عجز العرب (وهم أهل الفصاحة والبلاغة

(١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٠١٩) : ((وفيها قولان : أحدهما أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : أساطير الأولين : كذبهم وأحاديثهم في دهرهم ... وقال ابن قتيبة : أساطير الأولين أخبارهم ، وما سطر منها ، أي ما كُتب . والقول الثاني أن معنى أساطير الأولين الترهات . قال أبو عبيدة : واحد الأساطير أسطورة وإسطارة ... قال ابن الأنباري : الترهات عند العرب طرق غامضة ومسالك مُشكِلة)) اهـ . وقال الزركشي في البرهان (١ / ١٥٧) : ((قالوا : وحيثما جاء في القرآن " أساطير الأولين " فقائلها النضر بن الحارث بن كلدة ، وإنما كان يقولها لأنه دخل بلاد فارس وتعلم الأخبار ثم جاء ، وكان يقول : أنا أحدثكم أحسن مما يحدثكم محمد ، وإنما يحدثكم أساطير الأولين . وفيه نزل : « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » [الأنعام : ٩٣] . وقتله النبي ﷺ صَبْرًا يَوْمَ بَدْر)) اهـ . قلت : كل شخص يؤثق حتى يقتل فقد قُتل صَبْرًا .

والشعر (عن الإتيان بمثله. فلماذا عجز الشعراء والخطباء عن تأليف كتاب كالقرآن؟! كما أن محمداً ﷺ معروف للجميع بأنه الصادق الأمين، فمن غير المعقول أن يتحرى الصدق مع الناس طيلة حياته ثم يكذب على الله تعالى. أضف إلى هذا أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يُعرف بأنه كان طالباً للعلم، أو دارساً للتاريخ واللغات القديمة، أو مُطَّلِعاً على تراث الحضارات السابقة، فمن أين أتى بكل المعلومات الدقيقة في القرآن الكريم؟! إن هذا يدل بلا شك على أن مُصَدِّرَ القرآن أعلى من مستوى البشر. ولَوْ كان القرآن من تأليف إنسان فلماذا لم يُعرفنا هذا المؤلف بكتابه، أو يقول إن محمداً قد أخذه منه؟! مع العلم أن كلَّ مؤلف يَهْتَمُّ بتعريف الناس بكتبه، والدعوة إلى قراءتها.

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (14).

إنَّ المشركين يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباعِ النبي ﷺ ويُبْعِدُونَهُمْ عنه، ويتَّباعدونُ هُم عنه. وبذلك يكونون قد مَنَعوا الناسَ مِنَ الإيمانِ بالنبي ﷺ وَمَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ، فلم يَسْتَفِيدُوا مِنَ الدعوة، ولم يتركوا الناسَ يَسْتَفِيدُونَ منها.

وما يُهْلِكُونَ بهذا الفعلِ القبيحِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، حيث يُعَرِّضُونَهَا للغضبِ الإلهيِّ، وما يَشْعُرُونَ بهذه المصيبة (إصرارهم على الكفر) التي وَقَعُوا فِيهَا، والتي سَتَقُودُهُمْ إِلَى العذابِ الأبديِّ. إنهم غافلون تماماً عن مصيرهم الكارثي.

وقال ابن كثير في تفسيره (١٧٣ / ٢) : ((في معنى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قولان (أحدهما) أن المراد أنهم يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباعِ الحقِّ وتصديقِ الرسولِ والانقيادِ للقرآن . ﴿ وَيَنْأُونَ عَنْهُ ﴾ أي وَيُبْعِدُونَ هُم عنه ، فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْفَعْلَيْنِ الْقَبِيحَيْنِ ، لَا يَنْتَفِعُونَ ، وَلَا يَدْعُونَ أَحَدًا يَنْتَفِعَ . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يَرْذُونَ الناسَ عن محمد ﷺ أن يُؤْمِنُوا بِهِ . وقال محمد بن الحنفية : كان كفار قُريش لا يَأْتُونَ النبي ﷺ ، وَيَنْهَوْنَ عنه . وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد ، وهذا القول أَظْهَرَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وهو اختيار ابن جرير)) اهـ .

(١٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢١ / ٣) : ((وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ (الأولى) قولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، ثُمَّ فِيهِ قولان : أحدهما : يَنْهَوْنَ عَنْ أَذَاهُ ، والثاني : عن اتِّباعِهِ . = والقول الثاني أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . ﴿ وَيَنْأُونَ ﴾ بمعنى يَبْعِدُونَ ، وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ قولان أحدهما أنها راجعة إلى النبي ﷺ ، والثاني إلى القرآن)) اهـ .

والقول الثاني هو أن الآية نزلت في أبي طالب ، فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ ، قال : ((نزلت في أبي طالب ، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، ويتباعد عما جاء به)) (15).

وأبو طالب (عم النبي ﷺ) لم يُسلم ، وهذا الأمر ثابت . ففي الحديث الصحيح أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية ابن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : ((يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله)) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم ، هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول : لا إله إلا الله (16).

والمعنى أن أبا طالب قد اقتربت دلائل وفاته ، ولم يصل إلى مرحلة المعاينة والنزع ، ففي هذه المرحلة لا ينفع الإيمان ولا معنى له . قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء : ١٨] .

والجدير بالذكر أن عبارة " حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم ، هو على ملة عبد المطلب " ، تحمل ضمير الغيبة " هو " ، وليس " أنا " ، وذلك استقباحاً من الراوي لهذه العبارة ، فلم يرد أن ينقلها بلسان المتكلم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١ / ٢١٤) : ((فهذا من أحسن الآداب والتصرفات ، وهو أن من حكى قول غيره القبيح ، أتى به بضمير الغيبة ، لفتح صورة لفظه الواقع)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

إن كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك ، وكفرهم بك ، وتكذيبهم لما جئت به ، وصعب الأمر عليك ، ولم تستطع أن تصبر على أذاهم القولي والفعل ، فإن قدرت أن تطلب سرّاً ومنقداً في باطن الأرض فتطلع لهم آية ، أو درجاً ومصعداً تصعد به إلى السماء ،

(١٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٥) برقم (٣٢٢٨) ، وصححه الذهبي .

(١٦) متفق عليه . البخاري (١ / ٤٥٧) برقم (١٢٩٤) ، ومسلم (١ / ٥٤) برقم (٢٤) .

فَتُنَزِّلُ مِنْهَا آيَةً ، وَذَلِكَ وَفَّقَ اقتراحهم ورجبتهم ، فافعل ذلك . وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ لَوْفَقَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ ، لَكَنَّ اللَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِسَابِقِ عِلْمِهِ فِيهِمْ ، وَنَافِذِ قَضَائِهِ . فَلَا تَكُونَنَّ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ ، وَمَشِئَتِهِ النَافِذَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِرَادَتِهِ الَّتِي خَضَعَ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَا تَحْزَنُ يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَتُصْبِحَ مِثْلَ الْجَاهِلِينَ . دَعِ الْأُمُورَ لِلَّهِ تَعَالَى ، فَهُوَ خَالِقُ النَّاسِ ، وَأَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَعْرِفُ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ، وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعَبْثِ . إِنَّ هَدَى اللَّهِ الْعَبْدَ إِلَى الْإِيمَانِ فَيَفْضُلَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَهُ الْمِنَّةُ . وَإِنْ هَدَاهُ إِلَى الْكُفْرِ فَيَعْدِلْهُ ، وَلِلَّهِ عَلَى الْعَبْدِ الْحُجَّةُ

وقيل : الخطابُ للنبي ﷺ ، والمقصودُ أُمَّتُهُ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَضَايِقُونَ بِشِدَّةٍ مِنْ كُفْرِ النَّاسِ وَسُخْرِيَتِهِمْ .

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى إِيْمَانِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرِيَهُمُ اللَّهُ كُلَّ آيَةٍ يَطْلُبُونَهَا طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ . وَكَانَ يَحْزَنُ بِشِدَّةٍ وَيَتَضَايِقُ مِنْ كُفْرِ قَوْمِهِ ، فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ إِلَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ لَهُ السَّعَادَةَ ، وَإِيْمَانُ النَّاسِ أَوْ كُفْرُهُمْ ، كِلَاهُمَا خَاضِعٌ لِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ إِلَّا إِذَا أَدْنَى اللَّهُ بِذَلِكَ .

وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى إِخْلَاصِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ ، وَشَفَقَتِهِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَحِرْصِهِ الْبَالِغِ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ . فَلَوْ اسْتَطَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ مِنْ جَوْفِ الْأَرْضِ أَوْ مِنَ السَّمَاءِ ، لَجَاءَ بِهَا رَجَاءً إِيْمَانِهِمْ . وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْآيَاتِ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، فَهَذَا الْأَمْرُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَلَيْسَ أَمَامَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْمَشْرِكِينَ وَكُفْرِهِمْ ، وَمُواصَلَةُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِكُلِّ قُوَّةٍ وَاجْتِهَادٍ وَتَحَمُّلٍ .

وَاللَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا ، وَجَهَلَهَا مَنْ جَهَلَهَا . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِجْبَارِ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَى الْإِيْمَانِ . وَلَكِنْ فِي هَذَا الْحَالَةِ ، يَصِحُّ التَّكْلِيفُ بِلَا مَعْنَى ، وَلَا مَعْنَى لِلْمَتَّحَانِ ، وَلَا مَعْنَى لِلْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، مَا دَامَ النَّاسُ مُؤْمِنِينَ اضْطِرَارًا ، وَرَغْمَ أَنْوْفِهِمْ ، وَلَيْسَ بِاخْتِيَارِهِمْ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٣٨٢) : ((﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ ، أَيْ لَخَلَقَهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَطَبَعَهُمْ عَلَيْهِ . بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ كُفْرَهُمْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ زِدًّا عَلَى الْقُدْرَةِ ، وَقِيلَ الْمَعْنَى : أَيْ لِأَرَاهُمْ آيَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُثِيبَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمَنْ أَحْسَنَ))

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٢ و ٣٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ائْتِنَا بآيَةٍ كَمَا كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ تَأْتِي قَوْمَهَا بِالْآيَاتِ ، فَإِنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَكَبُرَ بِمَعْنَى عَظُمَ . وَفِي إِعْرَاضِهِمْ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ . وَالثَّانِي عَنْ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ . فَأَمَّا النَّفَقُ ، فَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : النَّفَقُ فِي الْأَرْضِ الْمَدْخَلُ ، وَهُوَ السَّرْبُ ، وَالسَّلْمُ فِي السَّمَاءِ الْمَصْعَدُ ... وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ ﴾ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا بَآيَةٌ قَدْ سَأَلُوكَ إِيَّاهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا نَزُولَ مَلَكٍ ، وَمِثْلَ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ، كَعَصَا مُوسَى وَنَاقَةِ صَالِحٍ . وَالثَّانِي : بَآيَةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ آيَتِكَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالُ : أَحَدُهَا لَوْ شَاءَ أَنْ يَطْبِعَهُمْ عَلَى الْهُدَى لَطْبِعَهُمْ . وَالثَّانِي : لَوْ شَاءَ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، ذَكَرَهُمَا الرَّجَاحُ .

والثالث : لَوْ شَاءَ لَأَمَنُوا كُلُّهُمْ ، فَأَخْبَرَ إِنَّمَا تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِمَشِئَتِهِ وَنَافَذَ قَضَائِهِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالُ : أَحَدُهَا : لَا تَجْهَلْ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . وَالثَّانِي : لَا تَجْهَلْ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِكَ بَعْضُهُمْ وَيَكْفُرُ بَعْضُهُمْ . وَالثَّالِثُ : لَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا صَبْرَ لَهُ ، لِأَنَّ قَلَّةَ الصَّبْرِ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِينَ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

خَوْفُ يَا مُحَمَّدَ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ ، وَيَخَافُونَ مِنْ عَذَابِ الْحَشْرِ ، لِأَنَّ خَوْفَهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى عِلْمٍ وَبِقَيْنٍ . لَيْسَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ عَذَّبَهُمْ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ وَيُنْقِذُهُمْ ، وَلَا قَرِيبٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ .

لَقَدْ أَيْقَنُوا بِالْحَشْرِ ، لَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْ أَهْوَالِ الْحَشْرِ وَشِدَّتِهِ ، وَهَذَا الْخَوْفُ لَيْسَ شُعُورًا مُجَرَّدًا ، وَإِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْيَقِينِ الثَّابِتِ ، وَكُلُّ خَوْفٍ مَبْنِيٍّ عَلَى الْيَقِينِ هُوَ إِيمَانٌ .

لَيْسَ لَهُمْ غَيْرُ اللَّهِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ . خَوْفُهُمْ كَيْ يَتَّقُوا اللَّهَ ، فَيَلْتَزِمُوا بِأَوَامِرِهِ ، وَيَجْتَنِبُوا نَوَاهِيهِ . وَالْآيَةُ تَرُدُّ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ زَعَمُوا أَنََّّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، وَأَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُمْ وَلَا يُعَذِّبُهُمْ ، كَمَا تَرُدُّ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ جَعَلُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ ، وَتَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ . فَوَضَّحَ اللَّهُ أَمْرَ الشَّفَاعَةِ ، وَأَنَّهُ لَا تَكُونُ لِلْكَافِرِينَ ، وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا . وَالشَّفَاعَةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَا شَفِيعٌ وَلَا نَاصِرٌ لِأَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٤٥) : ((لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فَيَنْتَهُونَ عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ، وإنما نفى الشَّفَاعَةَ لِغَيْرِهِ _ مع أَنَّ الأنبياء والأولياء يَشْفَعُونَ _ ، لأنهم لا يَشْفَعُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ)) اهـ .
 إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنْذِرُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ، وَلَكِنْ تَمَّ تَخْصِيسُ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ لِأَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَاضِحَةٌ لَاعْتِرَافِهِمْ بِالْمَعَادِ ، وَلِأَنَّ الْإِنْذَارَ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ ، إِذْ إِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْحَشْرِ ، أَمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْحَشَرَ ، فَلَنْ يَتَأَثَّرُوا بِالْإِنْذَارِ ، وَسَوْفَ يَسْخَرُونَ مِنْهُ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَشْرِ أَصْلًا . وَالْمُؤْمِنُ بِالْحَشْرِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا ، فَيُنْذِرُهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلابْتِعَادِ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَالِاتِّزَامِ بِالطَّاعَاتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَنَابِيًّا (يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا) ، فَيُنْذِرُهُ كَيْ يَتْرِكَ الْكُفْرَ وَيَعْتَنِقَ الْإِسْلَامَ . وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُجْمِعُونَ عَلَى الْحَشْرِ . وَالْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى كُلُّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ ، يَعْكُسُ الْوَثْنِيُّونَ الَّذِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ شَيْءٍ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَالْمَوْتُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ هُوَ النِّهَايَةُ ، وَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ .

وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٩٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أَيُّ بِالْقُرْآنِ ، وَالْإِنْذَارُ الْإِعْلَامُ . وَقِيلَ : بِهِ ، أَيُّ بِاللَّهِ . وَقِيلَ : بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَخُصَّ ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ لِأَنَّ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ أَوْجَبَ ، فَهُمْ خَائِفُونَ مِنْ عَذَابِهِ ، لَا أَنَّهُمْ يَتَرَدَّدُونَ فِي الْحَشْرِ . فَالْمَعْنَى : يَخَافُونَ يَتَوَقَّعُونَ عَذَابَ الْحَشْرِ . وَقِيلَ : ﴿يَخَافُونَ﴾ يَعْلَمُونَ ، فَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا أُنْذِرَ لِيَتْرِكَ الْمَعَاصِي ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُنْذِرَ لِيَتَّبِعَ الْحَقَّ . وَقَالَ الْحَسَنُ : الْمُرَادُ الْمُؤْمِنُونَ . قَالَ الرَّجَاجُ : كُلُّ مَنْ أَقَرَّ بِالْبَعْثِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ . وَقِيلَ : الْآيَةُ فِي الْمَشْرُوكِينَ ، أَيُّ أُنْذِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ)) اهـ .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعِنْدَهُ خَبَّابٌ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَعُمَارُ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ ؟! . فَتَزَلَّ فِيهِمُ الْقُرْآنُ : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (١٧) .
 فَالْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ هُمْ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ وَسَادَتُهَا . وَقَدْ اعْتَبَرُوا هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ أَشْخَاصًا مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْعَبِيدِ ، لِذَلِكَ تَرَفَّعُوا عَنِ التَّعَامُلِ مَعَهُمْ أَوْ مُجَالَسَتِهِمْ . فَالْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّمْيِيزِ الطَّبَقِيِّ ، إِذْ إِنَّهُ يُقَسِّمُ النَّاسَ إِلَى سَادَةِ وَعَبِيدٍ ، وَأَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ ، وَأَشْرَافَ وَرِعَاعٍ .

(١٧) رواه أحمد في مسنده (١ / ٤٢٠) برقم (٣٩٨٥) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٨٨) : ((رجال أحمد رجال الصحيح غير كُزْدُوس ، وهو ثقة)) .

والمنهج الإسلامي يُعارض النظرة العربية الجاهلية ، فالتقيُّ هو الشريف ، والمؤمن هو السيّد .
وقد ألغى الإسلام التمييز على أساس العرق أو اللون أو الطبقة الاجتماعية ، وجعل التمييز وفق التقوى . فالتفاوت الحقيقي بين الناس إنما هو في التقوى .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ٦٦] .
كَذَّبَتْ قُرَيْشٌ (قَوْمَ النَّبِيِّ ﷺ) بِالْقُرْآنِ ، وهو الكتاب المعجز الذي أنزله الله على محمد ﷺ بالحق . والقرآن هو الحق الواضح ، والصدق الظاهر ، والواقع بلا شك .
قُلْ يَا مُحَمَّد : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِجَبَّارٍ ، ولا بحافظ أعمالكم فأجازيكم عليها ، ولا أقدر أن أجبركم على الإيمان ، إنما أنا مُنذِرٌ ، والله الحفيظ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٠ / ٣) : ((قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ في هاء ﴿ بِهِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنها كناية عن القرآن ، والثاني : عن تصريف الآيات ، والثالث : عن العذاب .))

وقال البغوي في تفسيره (١٥٤ / ١) : ((﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالقرآن . وقيل : بالعذاب .
﴿ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ برفيب . وقيل : بِمُسْلَطَ الزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم ،
إنما أنا رسول)) اهـ .

وقال الأبيشي في المُستطرف (١٣٣ / ١) : ((وقال معاوية يؤمها : أيها الناس إن الله حبا قُرَيْشًا بثلاث ، فقال لِنَبِيِّهِ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، ونحن عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ .
وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَدَكِّرٌ لَكَ وَلَقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، ونحن قَوْمُهُ . وقال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ ﴾ [قُرَيْش] ، ونحن قُرَيْش . فأجابه رجل من الأنصار ، فقال : على رَسَلِكَ يَا مُعَاوِيَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى يقول : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ [الأنعام : ٦٦] ، وأنتم قَوْمُهُ . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ [الزخرف : ٥٧] ، وأنتم قَوْمُهُ . وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَسُولُ رَبِّكَ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] ، وأنتم قَوْمُهُ . ثلاثة بثلاثة ، ولو زِدْنَا لَزِدْنَاكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

هذا القرآن أوحاه الله إلى محمد ﷺ . كتاب عظيم كثير البركة والمنافع والفوائد ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويُبشِّرُ بالثواب ، ويُخَوِّفُ من العقاب . يُصدِّق الكتب السماوية

السابقة كالنوراة والإنجيل ، ويشهد لها بالحق والصدق ، ويوافقها في نفي الشرك ، وإثبات التوحيد . والكتاب اسم من أسماء القرآن ، ومعناه مكتوب ، فوضع الكتاب مكان المكتوب . وقد أنزل الله القرآن للبركة والإنذار ، ليخوف محمد ﷺ أهل مكة (أم القرى) وجميع الناس من عذاب الله وبأسه . وإنذار أهل القرى لا يتعارض مع البشارة للمؤمنين ، فالهدف من الإنذار هو الإيمان ، والبشارة تنبع من الإيمان .

وكل من آمن باليوم الآخر ، يؤمن بالقرآن لما فيه من الوعد والوعيد ، والبشارة والنذارة ، والترغيب والترهيب ، ويُقيم الصلوات في أوقاتها . والمقصود صحابة النبي ﷺ .

وإذا آمن الإنسان باليوم الآخر ، ولم يؤمن بمحمد ﷺ والقرآن ، فإيمانه باطل ، ولا فائدة منه . ومن صدق باليوم الآخر ، خاف من عذاب الله ، وهذا يدفعه إلى النظر والتأمل والتدبر ، حتى يؤمن بالنبي ﷺ وما جاء به . وتخصيص الصلاة بالذكر ، لأنها عمود الدين ، وأشرف العبادات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٨٥) : ((وفي تسميتها بأُم القرى أربعة أقوال : أحدها أنها سُميت بذلك لأن الأرض دُحيت (بُسِطَتْ) من تحتها ، قاله ابن عباس . والثاني : لأنها أقدمها قاله ابن قتيبة . والثالث : لأنها قبلة جميع الناس يؤمنونها . والرابع : لأنها كانت أعظم القرى شأنًا ، ذكرهما الزجاج . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، قال ابن عباس : يُريد الأرض كلها . قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ، في هاء الكناية قولان : أحدهما أنها ترجع إلى القرآن ، والثاني إلى النبي محمد ﷺ . والمعنى : من آمن بالآخرة آمن به ، ومن لم يؤمن به ، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة ، ولا يُعتد به . ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ فدل على أنه أراد المؤمنين الذين يحافظون على الصلوات)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف :

١٨٤] .

يدعو الله الكافرين الذين يكذبون بآيات الله ولا يؤمنون بمحمد ﷺ ، إلى التأمل والتدبر والتفكير في حال محمد ﷺ وما جاء به . فهو ليس مجنونًا ، ولا يعاني من أية مشكلات عقلية ، فهو عبد الله ورسوله ، حقًا وصدقًا ، أرسله الله لهداية الإنس والجن إلى طريق الحق . والآية تنفي ما نسبته المشركون للنبي ﷺ من الجنون . وليس محمد إلا رسول مُنذر بين الإنذار ، يخوف الناس من عذاب الله تعالى ، وأمره لا يخفى على عاقل .

والآية تُقرّر حقيقة أنّ محمداً رسولُ الله ، وليس مجنوناً . وفيها توبيخٌ شديد للكافرين ، لأنهم يُلْقون التُّهم بلا تفكر ، ويُطْلِقون الأحكام بلا أدلة . ويُمكن لأيِّ شخص أن يقول أيّ كلام . ودُخول " من " في قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ ينفي كلّ أنواع الجنون بلا استثناء ، لأنّ هناك جنوناً خفيفاً ، وجنوناً شديداً ، وجنوناً واضحاً ، وجنوناً خفيفاً . وكلّ أنواع الجنون مُنْفِيَةٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . وأمرُ النَّبِيِّ ﷺ واضحٌ لا لبسَ فيه، ومَن تَفَكَّرَ في حاله، وتَدَبَّرَ في كلامه ، أدرك أنّه رسولُ الله . ومحمد ﷺ سلوكه قويم ، وأفعاله راقية ومُهدّبة ، وكلامه مُتماسك ، ينطق بالحكمة والعلم والمعرفة، ويعرف كيف يتعامل مع الناس ، ويُناقشهم ، ويُحاورهم ، ويُرشدهم ، ويُقارِع الحُجّة بالحُجّة . أمّا الشخصُ المجنون ، فأفعاله طائشة ، وكلامه مُبعَثَر ، وغير مُسيطر على نفسه . فَمِنَ المُحال أن يكون محمد ﷺ مجنوناً . والمشركون كانوا يَعْرِفون هذه الحقيقة ، فمحمد ﷺ نشأ بينهم، وعاشَ معهم ، ويعرفون كلّ تفاصيل حياته ، وعلاقاته الاجتماعية . لكنّهم عَجَزوا عن مُقارعة الحُجّة بالحُجّة ، وهذا دفعهم إلى إلقاء التُّهم بلا أدلة . وهذه حُجّة العاجز في كلّ زمان ومكان . ولَوْ كان المشركون صادقين في زعمهم أنّ محمداً مجنون ، لأُثْبِتُوا ذلك بالبُرْهان والدليل أمام الناس ، وكشفوا أمره ، وحذّروا الناس منه . لكنّهم لم يَسْتَطِيعُوا فِعْلَ ذلك ، فلجؤوا إلى الشتائم وإلقاء التُّهم ، وهذا يُشير إلى عنادهم وجهلهم وعجزهم .

والآية : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ لِلإِنكار عَلَيْهِمْ ، إِذْ إِنَّهُمْ أَطْلَقُوا أَحْكَامَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دُونَ تَفْكِيرٍ ، ودُونَ تقديم أيّ دليل . وَلَوْ تَفَكَّرُوا فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَأَذْرَكُوا صِدْقَهُ وَصِحَّةَ مَا جَاءَ بِهِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٩٦) : ((قوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ سبب نزلها أنّ رسول الله ﷺ علا على الصفا ليلة ، ودعا قُرَيْشًا فَحِذًا فَحِذًا ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، فَحَذَّرَهُمْ بِأَسَ اللَّهِ وَعِقَابِهِ ، فقال قائلهم : إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا لَمَجْنُونٌ ، بَاتَ يُصَوِّتُ حَتَّى الصَّبَاحِ . فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قاله الحسن وقتادة . ومعنى الآية : أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فَيَعْلَمُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ، أي جنون ، فَحَثَّهِمْ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي أَمْرِهِ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْجَنُونِ . إِنَّهُ هُوَ ، أَيُّ مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ ، أَيُّ مُخَوِّفٍ مُبِينٍ ، يُبَيِّنُ طَرِيقَ الْهُدَى)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

لقد حَثَّهم الله على التفكير في أمرِ محمد ﷺ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مَجْنُونًا ، ثُمَّ حَثَّهم فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى النَّظَرِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْعِلْمِ . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ مُحَمَّدًا ﷺ وَلَا يُؤْمِنُونَ

بِالْقُرْآنِ ، إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مُلْكِ اللَّهِ ، وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَالِاسْتِفْهَامِ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ . إِذْ إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ اللَّامِحْدُودَةِ ، وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ .

لَقَدْ أَعْرَضُوا عَنِ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣٩٦) : ((وَالْمَعْنَى : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَتَفَكَّرُوا حَتَّى يَنْتَفِعُوا بِالتَّفَكُّرِ ، وَلَا نَظَرُوا فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ حَتَّى يَهْتَدُوا بِذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، بَلْ هُمْ سَادِرُونَ فِي ضَلَالَتِهِمْ ، خَائِضُونَ فِي غَوَايَتِهِمْ ، لَا يُعْمِلُونَ فِكْرًا ، وَلَا يُمَعِّنُونَ نَظْرًا)) اهـ .

وَاللَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ لِيَسْتَدِلُّوا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَأَخَذَ الْعِبْرَةَ وَالْمَوْعِظَةَ . فَالْمَصْنُوعُ يَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ ، وَالْمَخْلُوقُ يَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ بوضوح إلى أهمية النظر والتأمل والتفكير في مُلْكِ اللَّهِ الْوَاسِعِ ، وَضَرُورَةِ الْإِعْتِبَارِ بِمَخْلُوقَاتِهِ (18).

(١٨) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٢٩٠) : ((وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَوَّلِ الْوَاجِبَاتِ ، هَلْ هُوَ النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ أَوْ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ التَّصَدِيقُ الْحَاصِلُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَرْطِ صِحَّتِهِ الْمَعْرِفَةُ ؟ ، فَذَهَبَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ الْوَاجِبَاتِ النَّظَرُ وَالِاسْتِدْلَالُ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَلِّمُ ضَرُورَةً ، وَإِنَّمَا يُعَلِّمُ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْأَدْلَةِ الَّتِي نَصَبَهَا لِمَعْرِفَتِهِ ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، حَيْثُ بَوَّبَ فِي كِتَابِهِ (بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ) لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مُحَمَّدٌ: ١٩] قَالَ الْقَاضِي : مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِاللَّهِ فَهُوَ جَاهِلٌ ، وَالْجَاهِلُ بِهِ كَافِرٌ . قَالَ ابْنُ رَشْدٍ فِي مَقْدَمَاتِهِ : وَلَيْسَ هَذَا بِالْبَيِّنِّ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَصِحُّ بِالْيَقِينِ الَّذِي قَدْ يَحْصُلُ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ بِالتَّقْلِيدِ ، وَبِأَوَّلِ وَهْلَةٍ مِنَ الْإِعْتِبَارِ بِمَا أَرَشَدَ اللَّهُ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ . قَالَ : وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْبَاجِي عَلَى مَنْ قَالَ إِنَّ النَّظَرَ وَالِاسْتِدْلَالَ = أَوَّلَ الْوَاجِبَاتِ ، بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْعَامَةِ وَالْمَقْلَدِّ مُؤْمِنِينَ . قَالَ : فَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ صَحِيحًا لَمَا صَحَّ أَنْ يُسَمَّى مُؤْمِنًا إِلَّا مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . قَالَ : وَأَيْضًا فَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، لَجَازَ لِلْكَفَّارِ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَقُولُوا لَهُمْ : لَا يَحِلُّ لَكُمْ قِتْلُنَا ، لِأَنَّ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ الْإِيمَانُ لَا يَصِحُّ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، فَأَخْرَجُونَا حَتَّى نَنْظُرَ وَنَسْتَدِلَّ . قَالَ : وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَأَلَّا يُقْتَلُوا حَتَّى يَنْظُرُوا وَيَسْتَدِلُّوا . قُلْتُ : هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْبَابِ)) .

وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا شَدِيدِي الْحَذَرِ ، فَقَدْ يَكُونُ مَوْتُهُمْ قَدْ اقْتَرَبَ ، وَإِذَا مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ ، فَمَصِيرُهُمُ الْخُلُودُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَا فُرْصَةٌ لِلتَّعْوِيزِ . إِذَنْ ، عَلَيْهِمُ الْمِبَادَرَةُ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْإِيمَانِ قَبْلَ مَوْتِهِمُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ قَرِيبًا . وَإِذَا مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ ، فَلَا فائدة من التفكير والإيمان ، لِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ انْقَطَعَ ، وَالْآخِرَةُ دَارُ الْجَزَاءِ ، وَلَيْسَ دَارُ الْعَمَلِ . فَيَجِبُ عَلَيْهِمُ الْمَسَارَعَةُ إِلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ مُفَاجَأَةِ الْمَوْتِ وَنَزُولِ الْعَذَابِ .

وَإِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الْمَعْجَزِ الْمَشْتَمِلِ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ، وَالْمَوَاعِظِ الْمُؤَثِّرَةِ ، وَالْحُكْمِ الْبَلِیْغَةِ ، وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَبَأَيِّ كِتَابٍ سَيُؤْمِنُونَ ؟ ، وَبَأَيِّ كَلَامٍ سَيَتَأَثَّرُونَ ؟ . لَا يَوْجَدُ كِتَابٌ سَمَاوِيٌّ بَعْدَ الْقُرْآنِ ، وَلَا يُوجَدُ نَبِيٌّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَالْمَعْنَى : إِذَا لَمْ يُؤَثَّرْ فِيهِمْ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَنْ يَتَأَثَّرُوا بِكَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ . وَفِي الْاسْتِفْهَامِ تَوْبِيخٌ لَهُمْ .

وَقَالَ الْبِضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٧٨) : ((« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا » نَظَرَ اسْتِدْلَالٍ . « فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّيْءِ مِنَ الْأَجْنَاسِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ حَضْرُهَا ، لِيَذُلُّهُمْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ صَانِعِهَا ، وَوَحْدَانِيَةِ مُبْدِعِهَا ، وَعَظَمِ شَأْنِ مَالِكِهَا وَمُتَوَلِّيِ أَمْرِهَا ، لِيُظْهِرَ صِحَّةَ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... « فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ » أَيِ بَعْدَ الْقُرْآنِ « يُؤْمِنُونَ » إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الْبَيَانِ . كَأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِالطَّبَعِ وَالتَّصْمِيمِ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِزَامِ الْحُجَّةِ ، وَالْإِرْشَادِ إِلَى النَّظَرِ . وَقِيلَ : هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : « عَسَى أَنْ يَكُونَ » كَأَنَّهُ قِيلَ : لَعَلَّ أَجْلَهُمْ قَدْ اقْتَرَبَ ، فَمَا بِالْأَهْلِ لَا يُبَادِرُونَ الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ ، وَمَاذَا يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ وَضُوحِهِ ، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فَبَأَيِّ حَدِيثٍ أَحَقُّ مِنْهُ يُرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [الْأَعْرَافُ : ٢٠٣] .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ بَآيَةٌ كَمَا طَلَبُوا ، قَالُوا : لَوْلَا اخْتَرَعْتَهَا ، وَجِئْتَ بِهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ . وَكَلَامُهُمْ هَذَا فِي سِيَاقِ السُّخْرِيَةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ . وَكَانَ الْمَشْرِكُونَ إِذَا لَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، قَالُوا لَهُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَهْكُومًا وَسُخْرِيَةً . وَقَدْ كَانَ الْمَشْرِكُونَ يَسْأَلُونَ الْآيَاتِ تَعْنُتًا وَمُكَابَرَةً ، فَإِذَا لَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ أَتَاهُمَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَسَخَرُوا مِنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٣١١ و ٣١٢) : ((وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ سَأَلُوها تَعْنُتًا ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ . وَالثَّانِي : إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ لِإِبْطَاءِ الْوَحْيِ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . وَفِي قَوْلِهِ : « لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا » قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : هَلَا افْتَعَلْتُهَا مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِكَ ، قَالَه ابْنُ

عباس ومجاهد وقتادة والسُّدي وابن زيد والفراء والزجاج وابن قُتيبة ... وَحُكِيَ عن الفراء أنه قال : العربُ تقول : اجْتَبَيْتَ الكلامَ واختَلَقْتَهُ وارْتَجَلْتَهُ، إذا افْتَعَلْتَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ ، والثاني: هَلَّا طَلَبْتَهَا لَنَا قَبْلَ مَسْأَلَتِكَ ، ذَكَرَهُ الماوردي ، والأولُ أصحُّ)) اهـ .

والنبي ﷺ لا يَأْتِي بِالآيَاتِ مِنْ عِنْدِهِ ، فهو لا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، فَإِنْ جَاءَتْ آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَبْلَهَا وَخَضَعَ لَهَا ، وَأَبْلَغَهَا لِلنَّاسِ بِأَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ . وَإِنْ لَمْ تَجِئْ لَمْ يَسْأَلْهَا إِلَّا إِذَا أَدِنَ اللَّهُ لَهُ .

وقال البياضوي في تفسيره (١ / ٨٥) : ((لَسْتُ بِمُخْتَلِقٍ لِلآيَاتِ ، أَوْ لَسْتُ بِمُقْتَرِحٍ لَهَا))

وقد وَضَحَ اللَّهُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ الْمُعْجَزَاتِ ، وَأَكْبَرُ الْآيَاتِ ، وَأَصْدَقُ الْحُجَجِ . إِنَّهُ الْمُعْجَزَةُ الْعَظْمَى الَّتِي تُغْنِي عَنْ بَاقِي الْمُعْجَزَاتِ . وَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ اخْتَفَتِ النُّجُومُ . وَالْقُرْآنُ بَصَائِرُ لِلْقُلُوبِ ، وَعَلَامَاتُ هِدَايَةٍ ، وَنُورٌ يَكْشِفُ طَرِيقَ الْحَقِّ . وَبِالْقُرْآنِ يُبْصَرُ الْحَقُّ ، وَيُعْرَفُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَتَتَضَحُّ أَحْوَالُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُصْبِحُ الْأَعْمَى بَصِيرًا . وَالْقُرْآنُ هِدَايَةٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ وَخَدَهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ أَحْكَامِهِ ، لِأَنَّهُمْ فَتَحُوا قُلُوبَهُمْ لَهُ ، فَأَضَاءَ أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ .

وفي زاد المسير (٣ / ٣١٢) : ((قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْبَصَائِرُ بِمَعْنَى الْحُجَجِ ، وَالْبُرْهَانِ ، وَالْبَيَانِ ، وَاحِدَتُهَا بَصِيرَةٌ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : مَعْنَى الْبَصَائِرِ ظُهُورُ الشَّيْءِ وَبَيَانُهُ)) اهـ .

وقال الصابوني في صفوة التفسير (٤ / ٦١) : ((﴿ هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فِيهِ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ . وَأَصْلُهُ " هَذَا كَالْبَصَائِرِ " ، حُذِفَتْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَهِ ، فَهُوَ بَلِيغٌ . وَيَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ ، حَيْثُ أُطْلِقَ الْمُسَبَّبُ عَلَى السَّبَبِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمَّا كَانَ سَبَبًا لَتَنْوِيرِ الْعُقُولِ ، أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ الْبَصِيرَةِ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٤١] .

وإن كَذَّبَكَ المشركون يا محمد ، وطعنوا في نُبُوتِكَ ، فَقُلْ : لِي جَزَاءُ عَمَلِي ، وَلَكُمْ جَزَاءُ عَمَلِكُمْ . لَا تُؤَاخِذُونَ بَعْمَلِي ، وَلَا أُؤَاخِذُ بِعَمَلِكُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ جَزَاءَ الْعَمَلِ لَا يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ عَامِلِهِ ، وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ عَمَلِهِ وَخَدَهُ . وَوُظِيفَةُ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ التَّبْلِيغُ ، وَالْإِنْسَانُ خُرٌّ فِي اخْتِيَارِ الْإِيمَانِ أَوْ الْكُفْرِ . وَاللَّهُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْعِبَادِ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَاسِبُهُمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٩٩) : ((وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ وَإِنْ أَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِكَ بَعْدَ إِلْزَامِ الْحُجَّةِ ، ﴾ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ، فَقَدْ أَعْذَرْتَ . وَالْمَعْنَى : لِي جَزَاءُ عَمَلِي وَلَكُمْ جَزَاءُ عَمَلِكُمْ ، حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا . ﴾ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

لا تُؤَاخِذُونَ بَعْمَلِي ، وَلَا أُؤَاخِذُ بِعَمَلِكُمْ . وَلَمَّا فِيهِ مِنْ إِيْهَامِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِمْ ، قِيلَ : إِنَّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ)) اهـ .

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ وَثَابِتَةٌ وَغَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، فَلَا تَعَارُضُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آيَةِ السَّيْفِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يُؤْنَسُ : ٤٢] .

هَؤُلَاءِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ الْبَلِيغَ ، لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ سَاهِيَةٌ لَا هِيَّةَ ، لِأَنَّهَا مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا . إِنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَى أَسْمَاعِهِمُ الظَّاهِرَةِ ، لَكِنَّ الْكَلَامَ لَا يَدْخُلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، لِذَلِكَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ . وَقَدْ شَهِهَهُمُ اللَّهُ بِالصُّمِّ (الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ) فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، وَلِشِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لِلْحَقِّ . وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ مَعْنَاهُ النَّفْيُ ، أَيِ إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَهْدِي مَنْ أَصَمَّهُ اللَّهُ عَنْ سَمَاعِ الْهُدَى .

لَقَدْ عَاشُوا فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَاعْتَادُوا عَلَى الْأَوْهَامِ وَالْخَرَافَاتِ ، وَانْتَكَسَتْ فِطْرَتُهُمْ ، فَصَارُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْحِكْمِ الْبَلِيغَةِ وَالْمَوَاعِظِ الْمُؤَثِّرَةِ . إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ الْأَلْفَاظَ ، وَلَا يَفْهَمُونَ الْمَعْنَى . وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ سُوءًا مِنَ الصُّمِّ ، لِأَنَّ الصُّمَّ لَدَيْهِمْ عُقُولٌ ، وَيُحْلِلُّونَ الْأُمُورَ ، وَيَتَفَكَّرُونَ بِالْأَشْيَاءِ ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ فَلَا يَسْمَعُونَ ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ عُقُولٌ ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْهُمْ .

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٩٩) : ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمْتَ الشَّرَائِعَ ، وَلَكِنْ لَا يَقْبَلُونَ كَالْأَصَمِّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ أَصْلًا . ﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ تَقْدِيرٌ عَلَى إِسْمَاعِهِمْ ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَلَوْ انْضَمَّ إِلَى صَمَمِهِمْ عَدَمُ تَعَقُّلِهِمْ . وَفِيهِ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ اسْتِمَاعِ الْكَلَامِ فَهْمُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ لَا تُوصَفُ بِهِ الْبَهَائِمُ ، وَهُوَ لَا يَتَأْتَى إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ فِي تَدْبِيرِهِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٣٥٣) : ((اخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

أحدها في يهود المدينة ، كانوا يأتون رسولَ الله ، وَيَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ، فَيَعْجَبُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالثَّانِي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمُسْتَهْزِئِينَ ، كَانُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِلْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالْقَوْلَانِ مَرْوِيَّانِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

وَالثَّالِثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، قَالَهُ مَقَاتِلٌ . قَالَ الرَّجَاجُ : ظَاهِرُهُمْ ظَاهِرٌ مَنْ يَسْتَمَعُ ، وَهُمْ لِشِدَّةِ عداوتِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الصُّمِّ ، ﴿ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : وَلَوْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ جَهْلًا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُرِيدُ أَنَّهُمْ شَرٌّ مِنَ الصُّمِّ ، لِأَنَّ الصُّمَّ لَهُمْ عَقُولٌ وَقُلُوبٌ ، وَهَؤُلَاءِ قَدْ أَصَمَّ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٤٣] .

وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ، وَيَرَى عِلَامَاتِ الصِّدْقِ فِي وَجْهِكَ ، وَدَلَائِلَ صِحَّةِ نُبُوتِكَ ، لَكِنَّ اللَّهَ خَذَلَهُ ، وَلَمْ يَمْنَحْهُ الْهُدَايَةَ ، وَلَمْ يُرْشِدْهُ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَضَاعَ فِي مَتَاهَاتِ الْكُفْرِ ، وَضَلَّ الطَّرِيقَ فَلَا يَهْتَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَهْدِيَهُ يَا مُحَمَّدٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَعْمَى بَصِيرَتَهُ . وَلَا أَحَدٌ يُؤْمِنُ بِذِكَاثِهِ وَمَوَاهِبِهِ الذَّاتِيَّةِ ، فَالْإِيمَانُ إِنَّمَا هُوَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ ، وَهَذَا يَرُدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ .

وَقُلُوبُ الْمَشْرِكِينَ مَلِئَةٌ بِالْعِنَادِ وَالْحَقْدِ وَكَرَاهِيَةِ الْحَقِّ ، لِذَلِكَ لَمْ يَهْدِهِمُ اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ شَرَفَ الْإِيمَانِ ، وَاللَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ شَيْئًا ، وَلَكِنْهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَغَرَقُوا فِي الضَّلَالِ . إِنَّ عُيُونَهُمْ مَفْتُوحَةٌ ، لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ مُعَلَّقَةٌ . وَالْأَبْصَارُ لَا تَعْمَى ، وَإِنَّمَا تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . وَقَدْ أَعْمَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، فَلَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْهُدَى ، وَلَا يُبْصِرُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٥٥٠) : ((أَي : يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَإِلَى مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ التَّوَدُّعِ وَالسَّمْتِ الْحَسَنِ ، وَالْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، وَالدَّلَالَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى نُبُوتِكَ لِأُولِي الْبَصَائِرِ وَالنُّهَى . وَهَؤُلَاءِ يَنْظُرُونَ كَمَا يَنْظُرُ غَيْرُهُمْ ، وَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْهُدَايَةِ شَيْءٌ كَمَا يَحْصُلُ لِغَيْرِهِمْ ، بَلِ الْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْوَقَارِ ، وَهَؤُلَاءِ الْكَافِرَاتُ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ بِعَيْنِ الْاِحْتِقَارِ)) اهـ .

وَالْمُرَادُ التَّخْفِيفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَفْعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ . فَالْمَعْنَى : إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تُسْمِعَ الْأَصْمَ ، وَلَا تَقْدِرَ أَنْ تَخْلُقَ لِلْأَعْمَى بَصَرًا يَهْتَدِي بِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَهْدِيَ الْكَافِرِينَ إِلَى الْإِيمَانِ ، إِذَا لَمْ يُوقَفْهُمْ اللَّهُ لِلْإِيمَانِ . فَمَنْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ ، فَلَنْ يُؤْمِنَ أَبَدًا ، وَقَدْ هَلَكَ .

وَالْأَعْمَى فَاقِدُ الْبَصَرِ قَدْ يَرَى الْأُمُورَ بِبَصِيرَتِهِ ، وَيُدْرِكُ مَعْنَاهَا ، وَيَفْهَمُ أَبْعَادَهَا ، وَيَهْتَدِي إِلَى الْحَقِّ . أَمَّا الَّذِي فَقَدَ الْبَصَرَ وَالْبَصِيرَةَ مَعًا ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْهُ . إِنَّهُ يَغْرَقُ فِي الضَّلَالِ ، وَلَا يُوجَدُ طَوْقَ نَجَاةٍ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٤٨) : ((لأنَّ العمى مانعٌ ، فكيف يطمع من صاحبه في النظر ، وقد انضمَّ إلى فقد البصر فقد البصيرة ، لأنَّ الأعمى الذي له في قلبه بصيرة ، قد يكون له من الحدس الصحيح ما يفهم به في بعض الأحوال فهُمَا يقوم مقام النظر ، وكذلك الأصم العاقل قد يتحدَّس تحدُّسًا يفيدُه بعض فائدة ، بخلاف مَنْ جُمع له بين عمى البصر والبصيرة ، فقد تعدَّر عليه الإدراك ، وكذا مَنْ جُمع له بين الصَّمم وذهاب العقل ، فقد انسَدَّ عليه بابُّ الهدى)) اهـ .

وفي زاد المسير (٤ / ٣٥) : ((وقال الرَّجَّاج: مِنْهُمْ مَنْ يَقْبَلُ عَلَيْكَ بِالنَّظَرِ، وَهُوَ مِنْ بُغْضِهِ لَكَ وَكَرَاهَتِهِ لِمَا يَرَى مِنْ آيَاتِكَ كَالْأَعْمَى . وقال ابن جرير : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ قَوْلَكَ ، وَيَنْظُرُ إِلَى حُجَجِكَ عَلَى نُبُوتِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ سَلَبَهُ التَّوْفِيقَ. وقال مقاتل: "و" لَوْ " فِي الْآيَتَيْنِ بِمَعْنَى " إِذَا ")) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ١٠٤] . يقول الله لرسوله محمد ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ : إِنْ كُنْتُمْ تَشْكُونُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي جِئْتُ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ آلِهَتَكُمْ (الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ) ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي يُمِيتُكُمْ كَمَا أَحْيَاكُمْ ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ مِنَ الْمَوْتِ . وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ بِآيَاتِهِ ، وَأَنْ أَكُونَ مُخْلِصًا لَهُ . وَالْمَعْنَى : لَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَشْكُوا فِي دِينِكُمُ الْوَحْدِيِّ ، وَتُعِيدُوا حَسَابَاتِكُمْ ، فَمُحَمَّدٌ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَهُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ ، الْقَادِرُ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْبَعْثِ ، أَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ فَتَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ الْحَجَرِيَّةَ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٦١٧) : ((وإنما معنى الكلام : إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِيهِ ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِي الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ شَيْئًا ، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، فَأَمَّا دِينِي فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِيهِ ، لِأَنِّي أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَقْبِضُ الْخَلْقَ ، فَيُمِيتُهُمْ إِذَا شَاءَ ، وَيَنْفَعُهُمْ وَيَضُرُّهُمْ إِنْ شَاءَ ، وَذَلِكَ أَنَّ عِبَادَةَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِرُهَا ذُو فِطْرَةٍ صَحِيحَةٍ ، وَأَمَّا عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ فَيُنْكِرُهَا كُلُّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ صَحِيحٍ)) اهـ .

والآية ﴿الَّذِي يَتَوْفَّاكُمْ﴾ فيها تهديد ووعد. ولم يقل : "الذي أحياكم" أو "الذي خلقكم"، لأن ذكر الموت مُخيف، وشديد التأثير في النَّفْس البشرية، كما أنه يُشير إلى الخلق أولاً، والإعادة ثانياً. وموتُ المشركين هو مَوعِد عذابهم. والمعنى : الذي يقبض أرواحكم، ويُنهي حياتكم، ويُعذِّبكم أشدَّ العذاب.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٧١) : ((فَإِنْ كَانَتْ آلِهَتُكُمْ الَّتِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَقًّا ، فَأَنَا لَا أَعْبُدُهَا ، فَادْعُوها فَلْتَضُرَّنِي ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَإِنَّمَا الَّذِي بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : ١٠٨] .

يأمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يُخبر الناس أن القرآن هو كلام الله حقًا وصدقًا، جاءهم من عند الله فلم يبقَ لهم عُذر ولا حُجَّة. فيه البيان والشفاء والأحكام النافعة والحكم البليغة، ويشتمل على كُلِّ ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم. فمن آمن به وصدقَه واتَّبعه، فهو الفائز، لأن نفع إيمانه يعود إليه، والله غني عن إيمانه، ومن كفر بالقرآن ورفض بُرْهانه محمد ﷺ، فهو الخاسر، لأن وبال كُفره يرجع عليه، والله لا يتضرر بكُفره. فالله غني عن المؤمنين والكافرين، لا ينفعه الإيمان، ولا يضرُّه الكُفر. ونفعُ إيمان العبد يعود إليه، وضررُ كُفر العبد يرجع إليه. والله غني عن كُلِّ شيء، وهو سبحانه يُرشد العبادَ لإنقاذهم ومنحهم السعادة في الدارين رحمةً بهم، وهو غني عنهم، ولا يحتاجهم، بل هم الذين يحتاجونه. والخطابُ في الآية للناس كُلِّهم بلا استثناء.

والنبي ﷺ ليس رقيبًا على الناس، ولا يستطيع إجبارهم على اعتناق الإسلام. إنما هو يُبلغ الوحيَ الإلهي. والله يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، والله يُحاسِب الناس. أمَّا النبي ﷺ فلا يملك سُلطة حساب الناس، إنما هو بشير ونذير. وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٣٤٤) : ((قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ ﴾ أي: القرآن. وقيل : الرسول ﷺ ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي: صدَّق محمدًا وآمنَ بما جاء به. ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ أي: لخلاص نفسه. ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ أي: ترك الرسولَ والقرآنَ واتَّبع الأصنام والأوثان. ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي: وبال ذلك على نفسه. ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي: بحفيظ أحفظ أعمالكم، إنما أنا رسول)) اهـ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٧١) : ((قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما أنه القرآن ، والثاني : محمد ﷺ . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه . قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي : في منعم من اعتقاد الباطل . والمعنى : لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك .)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

يُخَفِّفُ اللَّهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، ويرفع معنوياته . والمعنى . فلعلك يا محمد تترك أن تُبلِّغهم الوحي الإلهي خوفاً من سُخْرِيَتِهِم واستهزائِهِم ، ولِعَظَمِ ما تراه منهم من الكفر والضلال واقتراح الآيات عِناداً وَتَعَنُّتاً وَتَبَاعاً لأهوائِهِم ، وضائق بالوحي صَدْرُكَ مخافة أن يقولوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ ﴾ فيُصْبِحَ غَنِيًّا ، ويعيش عَيْشاً رَغِيداً هو وأصحابه ، وَيَنْتَفِعَ بِالمال الوفير . ولا شك أن حياة النبي ﷺ قائمة على التَّقَشُّفِ والزُّهْدِ والخشونة ، وكذلك حياة أصحابه . ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يشهد له بأنه صادق ، ويُبَيِّنُ صِحَّةَ رسالته . دَعَاكَ يا محمد من أفكار الكافرين واقتراحاتهم القائمة على العناد والسُّخْرِيَةِ ، ولا يَضِيقُ صَدْرُكَ بجهلهم واستهزائِهِم ، ولا يَمْنَعُكَ ذلك من الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تعالى . بَلِّغِ الوحي الإلهي كاملاً ، بلا زيادة ولا نقصان ، إنما أَنْتَ نَذِيرٌ ، ليس عليك إلا البلاغ ، تُخَوِّفُهُم من عذاب الله ، وليس عليك هُدَاهُمْ . عَلَيْكَ أَنْ تُنذِرَهُم بالوحي ، وليست مهمتك أن تأتيهم بما يقرِّحونه من الآيات والمعجزات . وَلَكِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِ أَقْوَامِهِمْ ، وواصلوا الدَّعْوَةَ بلا يَأْسٍ ولا كَسَلٍ . واللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ وَشَهِيدٌ ، فَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، فهو يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَجَهْرَهُمْ ، وَسَوْفَ يُحَاسِبُهُمْ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ضَائِقٌ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : ضَيْقٌ . وذلك لِتَشَاكِيلِ كلمة ﴿ تَارِكٌ ﴾ التي قَبْلَهَا ، وأيضاً ، لأنَّ الضائق عارض ويزول ، بعكس " ضَيْقٌ " فهي أَشَدُّ لُزُوماً . وقد كان النبي ﷺ حَلِيمًا وَهَادِئًا وَوَاسِعَ الصَّدْرِ ، يتعامل مع الناس بأدب ووقار ، ويُحَاوِرُ بهدوء ، بدون جَعَجَعَةٍ وَلَا صُراخٍ . والآية ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ ﴾ ، وكأنها في صِيغَةِ الاستفهام ، أي : هل أَنْتَ تَارِكٌ ؟ . وقيل : هي في معنى التَّنْفِي مع الاستبعاد . يعني : لا تَتْرُكْ تَبْلِيغَهُمْ خَوْفاً مِنْ كُفْرِهِمْ وَعِنادِهِمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ ، بَلْ تُبَلِّغُهُم الوحي كاملاً ، شَاوُوا أَمْ أَبَوْا . وَالْأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ ، يُبَلِّغُونَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ كاملاً ، وَمُتَرَهِّونَ عن الخيانة والكذب والتدليس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨٢ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ ، سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يُونُسُ : ١٥] . فَهَمَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا يُسْمِعَهُمْ عَيْبَ آلِهِمْ رَجَاءً أَنْ يَتَّبِعُوهُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ مَقَاتِلٌ . وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ تَبْلِيغِ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الْآلِهَةِ ، وَضَائِقٍ بِمَا كَلَّفْتَهُ مِنْ ذَلِكَ صَدْرُكَ خَشْيَةً أَنْ يَقُولُوا : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ . وَالثَّانِي : فَلَعَلَّكَ لِعَظِيمِ مَا يَرِدُ عَلَى قَلْبِكَ مِنْ تَخْلِيطِهِمْ تَتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ يُزِيلُونَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ . فَأَمَّا الضَّائِقُ فَهُوَ بِمَعْنَى الصَّيِّقِ . قَالَ الرَّجَاجُ : وَمَعْنَى ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ كَرَاهِيَةٌ أَنْ يَقُولُوا . وَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُنذِرَهُمْ بِمَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بِاقْتِرَاحِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْحَافِظُ ، وَالثَّانِي : الشَّهِيدُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هُود : ١٣] .

يُوضِّحُ اللَّهُ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ ، وَعَجَزَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنْ مُعَارَضَتِهِ . وَكَلَامُ اللَّهِ الْخَالِقِ لَا يُشَبِّهُهُ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ . وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْعُظْمَى ، وَأَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَلَمَّا عَجَزَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ ، لَجَّؤُوا إِلَى الْكَذْبِ وَالْقَاءِ التُّهْمِ بِلا دَلِيلٍ . وَهَذِهِ حُجَّةُ الْعَاجِزِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَزَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا قَامَ بِتَأْلِيفِ الْقُرْآنِ . وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ لِتَوْبِيخِهِمْ . إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَى الْقُرْآنَ ، فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مُخْتَلَفَاتٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ مَا دَامَ مُحَمَّدٌ حَسَبَ زَعْمِكُمْ _ قَدْ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ . وَهَذَا أَمْرٌ تَعَجِيزٌ . وَمُحَمَّدٌ عَرَبِيٌّ ، وَأَنْتُمْ عَرَبٌ أَهْلُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَتَعْرِفُونَ الشُّعْرَ وَالْكِهَانَةَ وَالْقَصَصَ ، وَاسْتَعِينُوا بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ آلِهَتِكُمْ وَأَعْوَانِكُمْ . وَإِنْ كَانَ سَلَا حُ مُحَمَّدٌ هُوَ تَأْلِيفُ الْقُرْآنِ _ وَفَقَّ قَوْلُكُمْ _ ، فَوَاجِهُوهُ بِنَفْسِ سَلَا حِهِ وَنَفْسِ لُغَتِهِ الَّتِي هِيَ لُغَتُكُمْ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ تَحْدِيَّ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ جَاءَ عَلَى مَرَا حِلٍ . الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى _ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ . فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ _ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ _ أَنْ يَأْتُوا بِسُوْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ

قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٥﴾ . لقد سَهَّلَ اللَّهُ عليهم الأمر ، وَتَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ واحدة . وقد فَشَلُوا ، وَأُفْجِمُوا ، وشَهِدُوا على أنفسهم بالعجز التام . لقد كانوا شديدي الحرص على إبطال الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية . وَلَوْ استطاعوا مُعَارَضَةَ القرآن لاغتنموا هذه الفرصة ، وما قَصَّروا في ذلك ، وذلك من أجل شَرَعنة مشروعهم الوثني . لكنهم لَمْ يَقْدِرُوا على ذلك . وإذا كَانَ فَصحاءُ العرب عاجزين عن مُعَارَضَةِ القرآن ، وهو بِلُغَتِهِمْ ، فغَيْرُهُمْ أَكْثَرُ عَجْزًا .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ١٠٥) : ((فبلاغَةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ، بَلْ تجاوزَتْ حَدَّ الإحسان والإجادة ، إلى حَيِّزِ الإرباء والزيادة ، هذا رسول الله ﷺ مع ما أُوتِيَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ ، واختَصَّ بِهِ مِنْ غرائب الحِكمِ ، إذا تأمَّلتَ قَوْلَهُ ﷺ في صِفَةِ الجَنانِ _ وإنْ كان في نهاية الإحسان _ وَجَدْتُهُ مُنْحَطًّا عن رُتبة القرآن ، وَلَكَ في قَوْلِهِ _ عليه السلام _ : " فِيهَا ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ " [صحيح مسلم (٤ / ٢١٧٥)] ، فأينَ ذلك مِنْ قَوْلِهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ فِيهَا ما تَشْتَهِيهِ الأنفُسُ وتَلَدُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزُّحُوف : ٧١] ، وقَوْلِهِ : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السَّجدة : ١٧] . هذا أَعْدَلُ وَزَنًا ، وأَحْسَنُ تَرْكِيبًا ، وأَعْدَبُ لَفْظًا ، وأَقْلُ حُرُوفًا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هُود : ١٤] (19) .

إِنْ لَمْ يَأْتِ المَشْرُكونَ بِعَشْرِ سُورٍ _ وَهُمْ المُفْصَحاءُ البَلْغاءُ _ ، وَفَشَلُوا في هذا التَّحدي ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ ، وكشفوا باطلهم بأيديهم ، فاعلَمُوا أيها المَشْرُكونَ أَنَّ القرآنَ وَحْيٌ سَمَويٌّ (يَشتمَلُ على أوامرِ اللهِ ونَواهيه) أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ ﷺ بِعِلْمِ اللهِ وإِذْنِهِ . وهذا دَليلٌ على صِدْقِ القرآنِ ، وصِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، واعلَمُوا أَنَّ اللهَ إِلهٌ واحدٌ لا شَرِيكَ لَهُ ، وهو وَحْدَهُ المعبودُ بحَقِّ

(١٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٨٣) : ((فَإِنْ قِيلَ : كيف وَحَّدَ القَوْلُ في قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ ثُمَّ جَمَعَ في قَوْلِهِ : ﴿ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ فَعَنَهُ جوابان : أحدهما أَنَّ الخِطابَ للنبيِّ ﷺ وَحْدَهُ في المَوْضِعَيْنِ ، فيكون الخِطابُ لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَكُمْ ﴾ تعظيمًا ، لأنَّ خِطابَ الواحدِ بلفظ الجمع تعظيم ، هذا قول المفسرين . والثاني أَنَّهُ وَحَّدَ في الأولِ لخطابِ النبيِّ ﷺ ، وجمَعَ في الثاني لِمُخاطَبَةِ النبيِّ ﷺ وأصحابه ، قاله ابن الأنباري)) اهـ .

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر، أي: أسلموا. وهذا الاستفهام يحمل معنى قيام الحجّة وزوال الغدر. وقد تكون الآية كلّها تحمل خطاباً للمؤمنين .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٢٥): ((﴿ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ يأتیان ما دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ ، وَجَمْعُ الضَّمِير ، إمّا لتعظيم الرسول ﷺ أو لأنّ المؤمنين كانوا أيضاً يَتَحَدَّثُونَهم، وكان أمرُ الرسول ﷺ مُتَنَاوِلًا لهم ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، إِلَّا مَا خَصَّه الدَّلِيلُ ، وللتنبية على أنّ التَّحْدِي مِمَّا يُوجِبُ رُسُوخَ إيمانهم ، وَقَرَّةَ يَقِينهم ، فلا يَغْفُلُونَ عنه ، ولذلك رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ مُلْتَبِسًا بما لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، ولا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ . ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وَاَعْلَمُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لِأَنَّهُ الْعَالِمُ الْقَادِرُ بِمَا لَا يَعْلَمُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، وَلِظُهُورِ عَجْزِ آلِهَتِهِمْ ... وفيه تهديد وإقناط مِنْ أَنْ يُجْبِرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ آلِهَتُهُمْ . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هُود : ٣٥] (20).

يَطْعَن الكافرون في النَّبِيِّ ﷺ ، ويقولون إِنَّهُ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ ، وقَامَ بتأليفه ، وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . قُلْ يا مُحَمَّد: إِنْ اخْتَلَقْتُ الْقُرْآنَ وَكَذَبْتُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَعَلَيَّ إِثْمِي وَعِقَابُ إِجْرَامِي ، وَإِنْ كُنْتُ صَادِقًا فِيمَا أَقُولُ فَعَلَيْكُمْ عِقَابُ تَكْذِيبِي ، وَلَا أُؤَاخِذُ بِذُنُوبِكُمْ . وَالْإِجْرَامُ كَسْبُ الذَّنْبِ . والمعنى : لَمْ أَخْتَلِقِ الْقُرْآنَ ، لِأَنِّي أَعْلَمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَنْتَظِرُنِي إِنْ كَذَبْتُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَنْ يُنْقِذَنِي أَحَدٌ مِنْهُ .

وقال أبو السُّعُود في تفسيره (٤ / ٢٠٥) : ((﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ مِنْ إِجْرَامِكُمْ فِي إِسْنَادِ الْاِفْتِرَاءِ إِلَيَّ ، فلا وجه لإعراضكم عني ومُعَادَاتِكُمْ لِي)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ١٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ . قَالَ الرَّجَاجُ : المعنى يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْاِفْتِرَاءُ الْاِخْتِلَاقُ . ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أَي جُزْمُ ذَلِكَ الْاِخْتِلَاقِ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ فِي التَّكْذِيبِ)) اهـ .

(٢٠) قال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٧١٧) : ((وقد اختلف المفسِّرون في هذه الآية ، فَقِيلَ : إنها حكاية عن نُوحٍ ، وما قاله لِقَوْمِهِ . وقيل : هي حكاية عن الحَاوِرَةِ الواقعة بين نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وكفار مكة . والأوَّلُ أَوْلَى ، لِأَنَّ الْكَلَامَ قَبْلَهَا وَيَعْدُهَا مَعَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وما زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هُود : ١٠١] .
 إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكِ الْأُمَمَ الْكَافِرَةَ إِلَّا وَهُمْ مُسْتَحِقُونَ للعقوبة والعذاب . لقد أمهلهم الله تعالى كي يُراجعوا حساباتهم ، ويتركوا كُفْرَهُمْ ، ويعتقوا الإسلام ، فاعتزوا بهذه المُهلة ، وغرهم طول الأمل .
 لَمْ يَظْلِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى . بَلْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بتكذيبهم الأنبياء والكُفر بهم ، وما نفعهم الأصنام التي كانوا يعبدونها مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَمْ تُنْقِذْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَمْ تُدْفِعْ عَنْهُمْ حِينَ حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ . وما زادتهم آلِهَتُهُمْ غَيْرَ تَدْمِيرٍ وَهَلَاكِ ، وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ قَادِرَةٌ عَلَى دَفْعِ الضَّرِّ عَنْهُمْ ، وَجَلَبِ الْمَنَافِعِ لَهُمْ . لقد كان سببُ دمارهم وهلاكهم هو عبادتهم لهذه الآلهة الباطلة ، فحسروا الدنيا والآخرة مَعًا .

وقال البياضوي في تفسيره (١ / ٢٦٠) : ((﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بإهلاكنا إِيَّاهُمْ ﴾ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بِأَنْ عَرَّضُوهَا لَهُ بِارْتِكَابِ مَا يُوجِبُهُ ﴾ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ﴾ فَمَا نَفَعْتَهُمْ وَلَا قَدَرْتَ أَنْ تَدْفِعَ عَنْهُمْ بَلْ ضَرَرْتَهُمْ ﴾ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ حِينَ جَاءَهُمْ عَذَابُهُ وَنِقْمَتُهُ . ﴿ وما زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ هلاك أو تخسير)) اهـ .
 وَالْفِعْلُ الْمَضَارِعُ فِي الْآيَةِ : ﴿ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ ﴾ حكاية للحالة الماضية ، أو دلالة على استمرار عبادتهم للأصنام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ١٥٦ و ١٥٧) : ((﴿ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه التخسير ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وقتادة ، واختاره ابن قُتَيْبَةَ وَالرَّجَاجُ . والثاني أنه الشر ، قاله ابن زيد . والثالث : التدمير والإهلاك ، قاله أبو عُبَيْدَةَ . فَإِنْ قِيلَ : الْآلِهَةُ جَمَادٌ ، فَكَيْفَ قَالَ : ﴿ زَادُوهُمْ ﴾ فعنه جوابان : أحدهما : وما زادتهم عبادتها . والثاني أنها في القيامة تكون عَوْنًا عَلَيْهِمْ ، فَتَزِيدُهُمْ شَرًّا)) اهـ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هُود : ١٢٠] .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَبِّرُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَحْوَالِ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ ، وَمَعَانَاتِهِمُ الشَّدِيدَةَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، وَصَبْرَهُمْ عَلَى سُخْرِيَةِ أَقْوَامِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ رَفْعِ مَعْنَوِيَّاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَهُ فِيهِمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ . وَدَائِمًا ، الْأَدْلَةُ وَالْبَرَاهِينُ تُثَبِّتُ الْقُلُوبَ ، وَتُقَوِّي النَّفْسَ ، وَتَزِيدُ الْعِلْمَ .

يُقْصُ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ، وَصَبْرَهُمْ عَلَى أَذَى أَقْوَامِهِمْ، مِنْ أَجْلِ تَثْبِيثِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْذِيرِ الْيَقِينِ فِي قَلْبِهِ ، وَزِيَادَةِ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّحْمَلِ وَالصَّبْرِ ، فَيَزِدَادُ قُوَّةً وَقُدْرَةً عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَمِعَ هَذِهِ الْأَخْبَارَ ، قَوِيَ قَلْبُهُ ، وَازْدَادَتْ قُدْرَتُهُ عَلَى الصَّبْرِ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ . وَتَثْبِيثُ الْقَلْبِ إِنَّمَا هُوَ تَقْوِيَتُهُ ، وَزِيَادَةُ الْيَقِينِ فِيهِ ، وَالْمَعْنَى لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالشَّكِّ أَوْ الْارْتِيَابِ . وَكُلَّمَا كَانَتْ الْأَدْلَةُ أَكْثَرَ ، وَالْبَرَاهِينُ أَقْوَى ، اِزْدَادَ الْقَلْبُ يَقِينًا وَثَبَاتًا عَلَى الْحَقِّ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٦٩) : ((﴿ وَكَلَّا ﴾ وَكُلُّ نَبَأٍ ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ﴾ نُخِيرُكَ بِهِ . ﴿ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ بَيَانٌ لِكَلَّا ، أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ ، وَفَائِدَتُهُ التَّنْبِيهُ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْاِقْتِصَاصِ ، وَهُوَ زِيَادَةُ يَقِينِهِ ، وَطَمَآنِينَةُ قَلْبِهِ ، وَثَبَاتُ نَفْسِهِ عَلَى أَدَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَاحْتِمَالُ أَذَى الْكُفَّارِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٦١١) : ((يَقُولُ تَعَالَى : وَكُلُّ أَخْبَارٍ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ الْمَتَّقِدِّمِينَ مِنْ قَبْلِكَ مَعَ أَمَمِهِمْ ، وَكَيْفَ جَرَى لَهُمْ مِنَ الْمُحَاجَّاتِ وَالْخُصُومَاتِ ، وَمَا احْتَمَلَهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى ، وَكَيْفَ نَصَرَ اللَّهُ حِزْبَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَدَلَ أَعْدَاءَهُ الْكَافِرِينَ . كُلُّ هَذَا مِمَّا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، أَيُّ قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ، لِيَكُونَ لَكَ بِمَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُسْوَةٌ .))

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ . وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ ، وَالْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ ، وَالْحُجَجُ الْبَاهِرَةُ ، وَذِكْرُ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ ، وَأَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَوَاعِظُهُمْ ، وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ . وَخُصَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّ كُلَّ سُورَةِ الْقُرْآنِ حَقٌّ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى الْحَقِّ ، تَشْرِيفًا لَهَا ، وَتَأْكِيدًا عَلَى مَكَانَتِهَا الْجَلِيلَةِ ، وَلَمَّا فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ ، وَالْحِكْمِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْمَوَاعِظِ الْبَلِيغَةِ . وَأَيْضًا ، تَخْصِيصُ هَذِهِ السُّورَةِ بِالذِّكْرِ يَحْمِلُ مَعْنَى الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِلْكَافِرِينَ . وَالْمَعْنَى : وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ، وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي أَصَابَ الْأُمَمَ الَّتِي كَذَّبَتْ أَنْبِيَاءَهَا .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ١٧٣ و ١٧٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾

فِي الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِـ ﴿ هَذِهِ ﴾ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا السُّورَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ ، وَرَوَاهُ شَيْبَانٌ عَنْ قَتَادَةَ . وَالثَّانِي أَنَّهَا الدُّنْيَا ، فَالْمَعْنَى : وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، رَوَاهُ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ وَعَنْ الْحَسَنِ كَالْقَوْلَيْنِ . وَالثَّالِثُ أَنَّهَا الْأَقَاصِيصُ الْمَذْكُورَةُ . وَالرَّابِعُ أَنَّهَا هَذِهِ

الآية بِعَيْنِهَا ، ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . وفي المراد بالحق هاهنا ثلاثة أقوال : أحدها أنها البيان ، والثاني صِدْقُ الْقَصَصِ وَالْأَنْبَاءِ ، والثالث : التَّبَوُّة . فَإِنْ قِيلَ : أليسَ قد جاءه الحق في كُلِّ الْقُرْآنِ ، فَلِمَ خُصَّ هذه السُّورَةُ . فالحِجَابُ : إِنَّا إِن قُلْنَا إِنَّ الْحَقَّ التَّبَوُّةُ ، فالإشارة بِـ ﴿ هَذِهِ ﴾ إلى الدنيا ، فيكون المعنى : وجاءكَ في هذه الدُّنْيَا التَّبَوُّةُ ، فيرتفع الإشكال . وَإِنْ قُلْنَا إنها السُّورَةُ ، فعنه أربعة أجوبة : أحدها أَنَّ المراد بالحق البيان ، وهذه السُّورَةُ جَمَعَتْ مِنْ تبيين إهلاك الأمم وشرح مآلهم ، ما لَمْ يَجْمَعْ غَيْرُهَا ، فبِأَنِّ أثرُ التخصيص ، وهذا مذهب بعض المفسرين . والثاني أَنَّ بعض الحق أُوْكِدَ مِنْ بَعْضِ ظُهُورِهِ عِنْدَنَا وَخَفَانِهِ عَلَيْنَا ، ولهذا يقول الناس : فُلَانٌ فِي الْحَقِّ ، إِذَا كَانَ فِي الْمَوْتِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ فِي بَاطِلٍ ، وَلَكِنْ لَتَعْظِيمُ مَا هُوَ فِيهِ ، فَكَانَ الْحَقُّ الْمُبِينُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَجْلَى مِنْ غَيْرِهِ ، وهذا مذهب الزَّجَاجِ . والثالث أَنَّهُ خُصَّ هذه السُّورَةُ بِذَلِكَ لِبَيَانِ فَضْلِهَا ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِهَا حَقٌّ أَيْضًا ... وهذا مذهب ابنِ الْأَنْبَارِيِّ . والرابع أَنَّ المعنى : وجاءكَ في هذه السُّورَةِ الْحَقُّ مَعَ مَا جَاءَكَ مِنْ سَائِرِ السُّورِ ، قاله ابن جرير الطبري ((اهـ .

﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ . يَتَعَذَّبُونَ حِينَ يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الْأُمَمِ ، وَكَيْفَ عُدَّتْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ ، فَتَلِينُ قُلُوبُهُمْ ، وَيَلْتَزِمُونَ بِشَرِّ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَالْجَاهِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ . وقال القرطبي في تفسيره (٩ / ١٠٠) : ((الموعظة ما يُتَعَذَّبُ بِهِ مِنْ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الْمُكْذِبَةِ . وهذا تشريف لهذه السورة ، لِأَنَّ غَيْرَهَا مِنَ السُّورِ قَدْ جَاءَ فِيهَا الْحَقُّ وَالْمَوْعِظَةُ وَالذِّكْرُ ، وَلَمْ يَقُلْ : فِيهَا ، كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ عَلَى التَّخْصِيسِ .

﴿ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . يَتَذَكَّرُونَ عَذَابَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ ، فَيَتَوَبُّونَ إِلَى اللَّهِ ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِالْإِيمَانِ . وَخُصَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَفِعُونَ بِالْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرِ . أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلَا يَسْتَفِيدُونَ شَيْئًا مِنْهُمَا ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ نَجَسَةٌ ، وَيَغْرَقُونَ فِي الْعِنَادِ وَالضَّلَالِ وَالْكَذِيبِ وَالْخِرَافَاتِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يُوسُف : ١٠٨] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ : هَذِهِ طَرِيقِي وَمِنْهَا جِي . وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَالْإِيمَانِ ، وَالْإِخْلَاصِ . طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ ، لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا زَيْفَ ، وَلَا شُكُوكَ وَلَا شُبُهَاتَ . أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى يَقِينٍ وَحَقٍّ وَعِلْمٍ . وقال الثعالبي في تفسيره (٢ / ٢٦٠) : ((والبصيرة اسمٌ لِمُعْتَقَدِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْحَقِّ وَالْبَقِيَّةِ)) اهـ . أَنَا وَالْمُؤْمِنُونَ بِي . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى ضَرُورَةِ أَنْ يَقْتَدِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَيَدْعُوا إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ النَّبِيُّ ﷺ . وَتَقَدَّسَ اللَّهُ وَتَنَزَّاهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَأَنَا

أَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ، وَأُعْظِمَهُ ، وَأُنْزِلَهُ ، وَلَسْتُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَيَتَّخِذُونَ الشُّرَكَاءَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣١١) : ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد . ولذلك فَسَّرَ السَّيْلَ بِقَوْلِهِ : ﴿ اذْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ وَقِيلَ : هُوَ حَالٌ مِنَ الْيَأْسِ . ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ بَيَانٌ وَخُبْرَةٌ وَاضِحَةٌ غَيْرُ عَمِيَاءَ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٢٩٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ الْمَعْنَى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ : هَذِهِ الدَّعْوَةُ الَّتِي أَدْعُو إِلَيْهَا وَالطَّرِيقَةُ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا سَبِيلِي ، أَيِ سُنَّتِي وَمِنْهَا جِي . وَالسَّيْلُ تَذَكُّرٌ وَتَوَنُّثٌ ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَيِ : عَلَى يَقِينٍ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَكُلُّ مُسْلِمٍ لَا يَخْلُو مِنَ الدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّهُ إِذَا تَلَا الْقُرْآنَ فَقَدْ دَعَا إِلَى اللَّهِ بِمَا فِيهِ . وَبِجُوزِ أَنْ يَتِمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ : ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ الْمَعْنَى : وَقُلْ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، تَنْزِيهًا لَهُ عَمَّا أَشْرَكُوا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ [الرُّعْدُ : ٢٧] .

نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ ، حِينَ اقْتَرَحُوا عِنَادًا وَتَعَنُّتًا أَنْ تَنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ مِثْلُ : مُعْجِزَةِ فَلَقِ الْبَحْرِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ مُعْجِزَةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْزَالِ الْآيَاتِ ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْكَافِرِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ لِإِضَاعَةِ الْوَقْتِ ، وَالْعَبَثِ وَاللَّعِبِ ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ . فَهُمْ يَنْطَلِقُونَ مِنْ مَوْقِفٍ مُسَبِّقٍ رَافِضٍ لِلْإِيمَانِ ، سِوَاءَ نَزَلَتْ الْآيَاتُ أَمْ لَمْ تَنْزِلْ .

وَقَدْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْزَالِ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا ، فَلَوْ أَنْزَلَهَا وَكَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ ، لَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ فَوْرًا كَحَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَلَمْ يُعْطِهِمْ آيَةً فُرْصَةً . وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ ، أَنْ أَمْهَلَهُمْ ، وَمِنْهُمْ الْفُرْصَةُ تَلَوُ الْفُرْصَةَ . وَاللَّهُ هُوَ الْهَادِي ، سِوَاءَ جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ حَسَبَ اقْتِرَاحِهِمْ أَمْ لَمْ تَجِئْهُمْ . وَأَنْزَالُ الْآيَاتِ إِنَّمَا هُوَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَالْهَدَايَةُ وَالْإِضْلَالُ خَاضِعَانِ لِمَشِئَتِهِ تَعَالَى . وَلَا عِلَاقَةَ لِهَمَا بِأَنْزَالِ الْآيَاتِ أَوْ عَدَمِ أَنْزَالِهَا .

وَالضَّلَالُ إِنَّمَا هُوَ خَاضِعٌ لِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ فَلَنْ يَسْتَفِيدَ شَيْئًا مِنْ أَنْزَالِ الْآيَاتِ .

والله يهدي إلى الحق مَنْ أَنَابَ ، أي : رَجَعَ إلى الله بقلبه . والمعنى : مَنْ رَجَعَ إلى الله بالتوبة ، والإقلاع عن الذنوب . أي : طَهَّرَ قَلْبَهُ ، فَصَارَ أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٢٨ / ١) : ((﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أَقْبَلَ إِلَى الْحَقِّ ، وَرَجَعَ عَنِ الْعِنَادِ . وهو جواب يجري مجرى التَّعَجُّبِ مِنْ قَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : قُلْ لَهُمْ : مَا أَعْظَمَ عِنَادَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مِمَّنْ كَانَ عَلَى صِفَتِكُمْ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى اهْتِدَائِهِمْ ، وَإِنْ أَنْزَلْتُ كُلَّ آيَةٍ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ، بِمَا جِئْتُ بِهِ ، بَلْ بَادَنِي مِنْهُ مِنَ الْآيَاتِ)) اهـ .

وقد جاءتهم الآية العظمى ، والمعجزة الباهرة ، وهي القرآن العظيم ، كما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ بِمُعْجَزَاتٍ أُخْرَى ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَطَلَبُوا غَيْرَهَا ، وَغَرَقُوا فِي الْكُفْرِ . إِذَنْ ، الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ قَضِيَّةَ إِنْزَالِ الْآيَاتِ . إِنَّهُمْ يَغْرَقُونَ فِي عِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَجَبْرَوْتِهِمْ ، وَيَتَّخِذُونَ قَضِيَّةَ إِنْزَالِ الْآيَاتِ لِلْسُّخْرِيَّةِ وَاللَّعِبِ ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ . وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مَعَ ظُهُورِ الْآيَاتِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ بِدُونِ ظُهُورِ الْآيَاتِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٦٧ / ٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعَ أَنَّ اقْتِرَاحَ الْآيَاتِ عَلَى الرُّسُلِ جَهْلٌ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا آيَةً وَاحِدَةً تَدُلُّ عَلَى الصِّدْقِ . وَالْقَائِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةٍ وَأَصْحَابُهُ ، حِينَ طَالَبُوا النَّبِيَّ ﷺ بِالْآيَاتِ . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيِ كَمَا أَضَلَّكُمْ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ مِنَ الْآيَاتِ وَحَرَّمَكُمْ الْاِسْتِدْلَالَ بِهَا ، يُضِلُّكُمْ عِنْدَ نُزُولِ غَيْرِهَا . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ ، أَيِ : مَنْ رَجَعَ . وَالْهَاءُ فِي ﴿ إِلَيْهِ ﴾ لِلْحَقِّ أَوْ لِلْإِسْلَامِ ، أَوْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، عَلَى تَقْدِيرٍ : وَيَهْدِي إِلَى دِينِهِ وَطَاعَتِهِ مَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ . وَقِيلَ : هِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرَّعْدُ : ٣٠] .

كما أَرْسَلَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ إِلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، كَذَلِكَ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، كَيْ يَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ سَبَقَتْهَا أُمَمٌ كَثِيرَةٌ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ ، فَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ يُرْسَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ خَاتِمَةِ الْأُمَمِ . وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ إِرْسَالَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِإِرْسَالِ مَنْ قَبْلَهُ ، لِأَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ سَائِرُونَ وَفَقَّ مِنْهَاجِ الْهَيِّ وَاحِدٍ ، دِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَكُلُّهُمْ يَدُّ وَاحِدَةٍ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٧٧) : ((يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة

﴿ لِيَسْأَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، أي: لِيَسْأَلَهُمْ رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، كذلك أَرْسَلْنَا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْكَافِرَةِ بِاللَّهِ ، وَقَدْ كُذِّبَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ، فَلَكَ بِهِمْ أُسْوَةٌ. وكما أَوْفَعْنَا بِأَسْنَا وَنَقَمْنَا بِأَوْلِكَ ، فليحذر هؤلاء مِنْ خُلُولِ النَّقَمِ بِهِمْ ، فَإِنْ تَكْذِيبُهُمْ لَكَ أَشَدُّ مِنْ تَكْذِيبِ غَيْرِكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ)) .

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ (21) . يَجْحَدُونَ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِهَا ، وَيُنْكِرُونَ اسْمَهُ الْمُقَدَّسَ " الرحمن " . إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِالَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَعْطَاهُمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَالسِّيَادَةَ وَالْأَمْنَ وَالْأَمَانَ وَالطَّعَامَ وَالشَّرَابَ . لَقَدْ أَحَاطَهُمُ بِالنَّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، فَكَفَرُوا بِالنَّعَمِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٢٩) : ((وحالهم أنهم يكفرون بالبلغ الرحمة ، الذي أحاطت بهم نِعْمَتُهُ ، وَوَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُهُ ، فَلَمْ يَشْكُرُوا نِعْمَتَهُ ، وَخُصُوصًا مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِإِرسالِكَ إِلَيْهِمْ ، وَإِنزالِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَيْهِمْ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ ﴾ [الرَّعْدُ : ٣٦] .

والذين أنزل الله عليهم التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِمَّنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ الَّذِي كَانَ حَبْرًا مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ ، وَالنَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، يَفْرَحُونَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ ، وَالْبَشَارَةِ بِهِ . وَالْفَرَحُ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِهِ

(٢١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٢٩) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال، أحدها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَالَ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ : "اسجدوا للرحمن"، قالوا: وما الرحمن؟، فنزلت هذه الآية. وقيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي ، هذا قول الضَّحَّاك عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . والثاني أَنَّهُمْ لَمَّا أَرَادُوا كِتَابَ الصُّلْحِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ، كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي السَّلَامِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا مُسَيْلِمَةً، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُقَاتِلٌ . والثالث أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا = فِي الْحِجْرِ يَدْعُو، وَأَبُو جَهْلٍ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "يا رحمن". فَوَلَّى مُدْبِرًا إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يَهَانُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَلْهَةِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهَيْنِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ النَّيْسَابُورِيِّ)) .

عند صاحبه ، ومحبه له . فَلَوْ كَانَ كَارَهَا للإيمان ، ورافضاً له ، لَمَا فَرِحَ بِهِ ، بَلْ أُصِيبَ بالحزن والهم . فالفرحُ تابعٌ للمحبة . وما وَقَرَ في القلبِ ظَهر على الجوارح . وقال القرطبي في تفسيره (٢٧٦ / ٩) : ((أي : بعض من أُوتِيَ الكتابَ يفرح بالقرآن كابن سلام وسلمان والذين جاؤوا من الحبشة ، فاللفظ عام والمراد الخصوص . وقال قتادة: هم أصحاب محمد ﷺ يفرحون بنُور القرآن . وقاله مجاهد وابن زيد . وعن مجاهد أيضاً أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يفرحون بنُزول القرآن لتصديقه كُتبهم . وقال أكثر العلماء: كان ذِكْرُ الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أنزل ، فلَمَّا أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ، ساءهم قَلَّةُ ذِكْرِ الرحمن في القرآن مع كثرة ذِكْرِهِ في التوراة ، فَسَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عن ذلك . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] . فقالت قُرَيْشٌ : ما بال محمد يدعو إلى إله واحدٍ فأصبح اليوم يدعو إلهين الله والرحمن ! ، والله ما نعرف الرحمن إلا رحمنَ اليمامة ، يَعْتُونُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَابِ ، فَتَنَزَلَتْ : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : ٣٠] . فَفَرِحَ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ بِذِكْرِ الرحمن ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

ومن الطوائف من يُكذِّبُ ببعض ما أنزل الله على محمد ﷺ ، مع يَقِينِهِمْ بِصِدْقِهِ ، لَأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ : إِنَّمَا بُعِثْتُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَدَمِ الْإِشْرَاقِ بِهِ . إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ أَدْعُو النَّاسَ ، وَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعِي وَمَصِيرِي . وقال البيضاوي في تفسيره (٣٣٣ / ١) : ((﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ جواب المنكرين . أي : قُلْ لَهُمْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَأُوَحِّدَهُ ، وَهُوَ الْعُمْدَةُ فِي الدِّينِ وَلَا سَبِيلَ لَكُمْ إِلَى إِنْكَارِهِ . وَأَمَّا مَا تُنْكِرُونَهُ لِمَا يُخَالِفُ شَرَائِعَكُمْ فَلَيْسَ بِبِدْعٍ مُخَالَفَةِ الشَّرَائِعِ وَالْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ فِي جُزْئِيَّاتِ الْأَحْكَامِ ... ﴾ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ لا إلى غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ مَابٍ ﴾ وإليه مرجعي للجزاء ، لا إلى غيره . وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء ، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فَمِمَّا يَخْتَلِفُ بِالْأَعْيَانِ وَالْأُمَمِ ، فَلَا مَعْنَى لِإِنْكَارِكُمُ الْمُخَالَفَةَ فِيهِ)) اهـ .

والأحزاب هم الذين تَحَزَّبُوا على النبي ﷺ من المشركين واليهود والنصارى ، كانوا يُنْكِرُونَ بَعْضَهُ لَا كُلَّهُ ، فَقَدْ كَانُوا يُنْكِرُونَ ذِكْرَ الرحمن ، وَلَا يُنْكِرُونَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى . وَأَيْضًا ، كَانُوا يُنْكِرُونَ مَا يُخَالِفُ شَرَائِعَهُمْ .

ومن هؤلاء الأحزاب طاغوت اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه ، والسَّيد ، والعاقب ، وأتباعهما . كانوا لا يُنكرون الأحكامَ الثابتة في كتبهم ، لكنَّهم كانوا يُنكرون نبوَّة محمد ﷺ ، وغير ذلك ممَّا حَرَّفوه وغيروه وتلاعَبوا به .

وفي الدر المنثور (٤ / ٦٥٨) : ((عن قتادة _ رَضِيَ اللهُ عنه _ في قَوْلِه : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ . قال: أولئك أصحاب محمد ﷺ ، فَرِحُوا بكتاب الله وبرسوله ﷺ ، وَصَدَّقُوا بِهِ . ﴾ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُكْرِ بِعَضَهُ ﴾ ، يعني : اليهود والنصارى والمجوس .))

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٣٤) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنهم مُسلمو اليهود ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل : هم عبد الله ابن سلام وأصحابه . والثاني أنهم أصحاب رسول الله ﷺ ، قاله قتادة . والثالث مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، ذكره الماوردي . والذي أُنزل إِلَيْهِ الْقُرْآن ، فَرِحَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَصَدَّقُوهُ ، وَفَرِحَ بِهِ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ ، لِأَنَّهُ صَدَّقَ مَا عِنْدَهُمْ . وقيل : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، سَاءَ لَهُمْ قَلَّةُ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ فِي الْقُرْآنِ مَعَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ فِي التَّوْرَةِ ، فَلَمَّا نَزَلَ ذِكْرُهُ فَرِحُوا ، وَكَفَرُوا بِمُشْرِكِيهِمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . فَأَمَّا الْأَحْزَابُ فَهُمْ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمُعَادَاةِ . وفيهم أربعة أقوال : أحدها أنهم اليهود والنصارى ، قاله قتادة . والثاني أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله ابن زيد . والثالث بنو أُمَيَّةَ وَبَنُو الْمَغِيرَةِ وَآلُ أَبِي طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى . قاله مقاتل . والرابع كفار قُرَيْشٍ ، ذكره الماوردي . وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال : أحدها أنه ذُكِرَ الرَّحْمَنُ وَالْبَعْثُ وَمُحَمَّدٌ ﷺ ، قاله مقاتل . والثاني أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم ، وأنكروا نبوَّتَه . والثالث أنهم عَرَفُوا صِدْقَهُ ، وَأَنْكَرُوا تَصْدِيقَهُ ، ذَكَرَهُمَا الْمَآوِرْدِيُّ .))

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرَّعْدُ : ٣٨] .

لقد أرسل الله الرُّسُلَ قبل محمد ﷺ إلى أقوامهم ، وجعلهم بشرًا لهم زوجات وأبناء ، ولم يجعلهم ملائكة لا يشربون ولا يأكلون ولا يَنكِحُونَ . والمعنى : إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولٌ مِثْلُ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ ، كانوا بشرًا ، يأكلون ويشربون ويتزوَّجون ويُنجِبُونَ ، ويقضون شهواتهم بالحلال . ومحمد ﷺ ليس غريبًا عنهم ، ولم يأت بشيء شاذ .

والآية تردُّ على الذين كانوا يُنكِّرون على النبي ﷺ تزوّجه بالنساء . فالزواج شأنُ الرُّسل الكرام ، فلا معنى لإنكاركم على محمد ﷺ . والآية أيضاً تُبيِّن أنَّ النِّكاح من سنن المُرسَلين ، وتحضُّ عليه ، وتنهى عن الرهبانية والتَّبتُّل (ترك النِّكاح) .
وقد قال النبي ﷺ : ((لِكُنِّيْ أَصَوْمٌ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأُزِفُّد ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) (22).

إنَّ محمداً ﷺ إنسان ، يُمارِس حياته بشكل طبيعيٍّ كسائر البشر ، وما يُميّزه عنهم أنَّه يُوحى إليه . ومحمد ﷺ ليس ملكاً ، ولا يدعو إلى الرهبانية . إنَّه يقوم بالعبادات على أكمل وجه ، ويشعر بالتعب فيرتاح ، كما أنَّه يتزوَّج النساء كباقي الناس ، ومن أعرَضَ عَنْ منهج محمد ﷺ ، ورَفَضَ طريقته في هذه الدُّنيا ، فهو كافرٌ ، إنْ تَرَكَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ استهانةً بها ، أو كُرْهاً لها ، أو عدم اعتقاد بها . أمَّا إنْ تَرَكَ السُّنَّةَ لِغَيْرِ ذلك ، فهو مُخَالِفٌ لطريقة النبي ﷺ القائمة على اليسر والاعتدال والحنيفية السَّمحة ، بلا تَشَدُّد ولا رهبانية (23) .

ولا يَقْدِرُ رسولُ الله أن يَأْتِيَ بِمُعْجِزَةٍ مِنْ تِلْكَ نَفْسِهِ ، إنما يَأْتِي بها بِأَمْرِ اللَّهِ تعالى . وهذا ردُّ على الكافرين الذين كانوا يَقْتَرِحُونَ نُزُولَ آيَاتٍ مُعَيَّنَةٍ . لِكُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللَّهُ كِتَابًا . وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . ولا تَكُونُ مُعْجِزَةٌ إِلَّا بِأَجَلٍ قَدْ قَضَاهُ اللَّهُ فِي كِتَابٍ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٣٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الْآيَةِ . سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ الْيَهُودَ عَيَّرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِكُثْرَةِ التَّزْوِيجِ ، وَقَالُوا : لَوْ كَانَ نَبِيًّا كَمَا يَزْعُمُ شَغَلَتْهُ النَّبُوَّةُ عَنْ تَزْوِيجِ النِّسَاءِ ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ

(٢٢) متفق عليه . البخاري (٥ / ١٩٤٩) برقم (٤٧٧٦) ، ومسلم (٢ / ١٠٢٠) برقم (١٤٠١) .
(٢٣) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩ / ١٧٤) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي " ، فَمَعْنَاهُ : مَنْ رَغِبَ عَنْهَا إِعْرَاضًا عَنْهَا غَيْرَ مُعْتَقِدٍ عَلَى مَا هِيَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . أَمَّا الْأَفْضَلُ مِنَ النِّكَاحِ وَتَرْكِهِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا (الشَّافِعِيَّةُ) : النَّاسُ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ تَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَيَجِدُ الْمُؤَنَ فَيَسْتَحِبُّ لَهُ النِّكَاحَ ، وَقِسْمٌ لَا تَتَوَقَّعُ وَلَا يَجِدُ الْمُؤَنَ فَيُكْرَهُ لَهُ . وَقِسْمٌ تَتَوَقَّعُ وَلَا يَجِدُ الْمُؤَنَ = فَيُكْرَهُ لَهُ ، وَهَذَا مَأْمُورٌ بِالصَّوْمِ لِدَفْعِ التَّوَقُّانِ . وَقِسْمٌ يَجِدُ الْمُؤَنَ وَلَا تَتَوَقَّعُ ، فَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَجُمْهُورُ أَصْحَابِنَا أَنَّ تَرْكَ النِّكَاحِ لِهَذَا وَالتَّحْلِي لِلْعِبَادَةِ أَفْضَلُ . وَلَا يُقَالُ النِّكَاحُ مَكْرُوهٌ ، بَلْ تَرْكُهُ أَفْضَلُ . وَمَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَبَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَبَعْضُ أَصْحَابِ مَالِكٍ أَنَّ النِّكَاحَ لَهُ أَفْضَلُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

الرُّسُلَ قَبْلَكَ كانوا بَشَرًا لهم أزواج ، يعني النساء ، وذُرِّيَّةٌ يعني الأولاد . ﴿ وما كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بَايَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، أي : بِأَمْرِهِ . وهذا جواب للذين اقترحوا عليه الآيات . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : لِكُلِّ أَجَلٍ مِنْ آجَالِ الْخَلْقِ كِتَابٌ عِنْدَ اللَّهِ ، قاله الحسن . والثاني أَنَّهُ مِنَ الْمَقْدَّمِ وَالْمُؤَخَّرِ . والمعنى : لِكُلِّ كِتَابٍ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ أَجَلٌ ، قاله الضَّحَّاكُ والفَرَّاءُ . والثالث : لِكُلِّ أَجَلٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ كِتَابٌ أُثْبِتَ فِيهِ ، وَلَا تَكُونُ آيَةٌ وَلَا غَيْرُهَا إِلَّا بِأَجَلٍ قَدْ قَضَاهُ اللَّهُ فِي كِتَابٍ ، هذا معنى قول ابن جرير ((اهـ . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا نُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيْتُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرَّعْدُ : ٤٠] .

﴿ وَإِنَّمَا ﴾ هِيَ : وَإِنَّ مَا . (ما) زائدة لتأكيد معنى الشرط .
والفعل المضارع ﴿ نَعِدُهُمْ ﴾ حكاية عن الحال الماضية ، أو أَنَّ الوعد متجدد للتخويف والإندار .

وَإِنَّ نُرِيَّتْكَ يا محمد في حياتك بعضَ الذي نَعِدُ أعداءَكَ المشركين مِنَ الْعُقُوبَةِ والعذاب ، أو نَقْبُضُكَ قَبْلَ أَنْ تَقَرَّرَ عَيْنُكَ بعذابهم ، ففي الحالتين ، يلزمكم البلاغ لا غير . إنما أَنْتَ مُبَلِّغٌ ، تُبَلِّغُهُمُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ كاملاً . تُبَلِّغُهُمُ رِسَالَةَ اللَّهِ كاملاً ، ولا علاقة لَكَ بتحقيق الوعيد في هذه الرسالة .

وليس عليك إلا البلاغ ، وقد فَعَلْتَ ذلك بأمانة ونزاهة . إلى اللَّهِ مصيرُهُمْ ، وَعَلَيْهِ سُبْحَانَهُ حسابُهُمْ وجزاؤُهُمْ . فلا تتضايق من إعراضهم ، ولا تستعجل عذابَهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ ناصِرُكَ . وَإِنْ تَأَخَّرَ النصرُ فلا تَجَزَعْ ولا تضطرب ، فَإِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ في أقواله وأفعاله ، يَعْلَمُ المصَالِحَ الخفية . يفعل ما يُريد في الوقت الذي يُريد . وقد تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ للناسِ ، وقد لا تَظْهَرُ . وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ والفوضى . وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٠٥) : ((يَقُولُ تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَإِنَّمَا نُرِيَّتْكَ يا مُحَمَّدٌ في حياتك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِنَ الْعِقَابِ عَلَى كُفْرِهِمْ ، أَوْ نَتَوَقَّيْتُكَ قَبْلَ أَنْ نُرِيَّتَكَ ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى طَاعَةِ رَبِّكَ فِيمَا أَمَرَكَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِهِمْ رِسَالَتَهُ ، لَا طَلَبَ صَلَاحِهِمْ وَلَا فسادِهِمْ ، وَعَلَيْنَا مُحَاسِبَتُهُمْ فَمَجَازَاتُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ)) . وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرَّعْدُ : ٤٣] .

يقول مُشركو العرب: لستَ يا محمد نبيًّا ولا رسولاً، إنما أنتَ تتقوّل على الله ، وذلك لأنّه لم يَجِئْ بِالآيَاتِ الّتي اقترحوها . والنبيُّ ﷺ لا يستطيع أن يأتي بالآيات . الله وَحْدَهُ يُنْزِلُ الْآيَاتِ أَوْ لَا يُنْزِلُهَا . إنهم مقتنعون في قرارة أنفسهم بأنّ محمداً ﷺ صادق، لكنهم يجحدون نُبُوَّتَهُ عِنَادًا وحسداً وتعنُّتًا. قُلْ يا محمد رَدًّا عَلَيْهِمْ : حَسْبِيَ اللهُ شَاهِدًا ، تكفيني شهادته لي بأنني صادق وأنتم كاذبون . ولا شَكَّ أَنَّ تَأْيِيدَ مُحَمَّدٍ بِالْمُعْجَزَاتِ الْإِلَهِيَّةِ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. فالله لا يُؤَيِّدُ الْكَاذِبِينَ بِالْمُعْجَزَاتِ. وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ يَكْذِبُ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، لَمَا أَيْدَهُ بِالْقُرْآنِ الْمُعْجَزَةِ الْخَالِدَةِ .

والله يشهد لمحمد ﷺ أنه نبيٌّ ورسول، بَلَّغَ الرِّسَالَةَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِه ، وَيَشْهَدُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ كَاذِبُونَ.

وقال أبو السُّعُود في تفسيره (٢٩ / ٥) : ((﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾)) قيل : قاله رؤساء اليهود . وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها ، أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم)) اهـ .

وشهادةُ اللهِ أعظمُ دليل ، وتُغْنِي عن شهادات المخلوقين . فقد أَيْدَى اللهُ مُحَمَّدًا بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَأَظْهَرَ الْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ وَالْأَدْلَةَ السَّاطِعَةَ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ . حَسْبِيَ شَهَادَةُ اللهِ بِصِدْقِي بِمَا أَيْدَنِي مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، وَأَيْضًا شَهَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ دَرَسُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَيَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا مِنْ وَصْفِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ . وشهادة علماء أهل الكتاب قَطَعَتْ كَلَامَ الْخُصُومِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٨٥ / ٩) : ((وهذا احتجاج على مُشركي العرب ، لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب)) اهـ .

وكان مشركو العرب يرجعون إلى اليهود والنصارى (أهل الكتاب) ويسألونهم ، لأنَّ العرب أُمَّةٌ وَثْنِيَّةٌ جَاهِلَةٌ مَقْطُوعَةٌ عَنِ السَّمَاءِ ، أَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَلَدَيْهِمُ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَهُمَا فِي الْأَصْلِ كِتَابَانِ سَمَاوِيَانِ ، وَلَدَيْهِمُ الْعُلَمَاءُ بِعَكْسِ الْعَرَبِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمَقْصُودَ بِ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنِ سَلَامٍ . وَهَذَا قَوْلٌ غَيْرُ صَحِيحٍ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَعَبْدُ اللهِ ابْنُ سَلَامٍ أَسْلَمَ فِي الْمَدِينَةِ حِينَ قَدِمَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٤١ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿

فِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَالثَّانِي كُفَّارُ قُرَيْشٍ . ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أَي :

شَاهِدًا . ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بِمَا أَظْهَرَ مِنَ الْآيَاتِ ، وَأَبَانَ مِنَ الدَّلَالَاتِ عَلَى بُبُوتِي . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ فِيهِ سَبْعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ السَّائِبِ وَمُقَاتِلٌ .

وَالثَّلَاثُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَانُوا يَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَتَمِيمُ الدَّارِيُّ ، قَالَهُ قَتَادَةُ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . وَالْخَامِسُ أَنَّهُ عَلِيُّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَهُ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ . وَالسَّادِسُ أَنَّهُ بَنِيَامِينَ قَالَهُ شُمَيْرٌ . وَالسَّابِعُ أَنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى ، رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَاخْتَارَهُ الرَّجَاجُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إِبْرَاهِيمَ : ١] .

أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ، بِأَمْرِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ وَلُطْفِهِ ، إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ ، وَلَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ . وَالْقُرْآنُ لَمْ يَأْتِ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ ، وَالْحُجَجِ السَّاطِعَةِ ، وَالْأَحْكَامِ النَّافِعَةِ ، وَالشَّرَائِعِ الْكَامِلَةِ ، وَالْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ خَاضِعٌ لِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ . وَلَكِنْ يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ اسْتَحَقَّ الْهُدَايَةَ ، وَيُضِلُّ مَنْ اسْتَحَقَّ الضَّلَالَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَهْدِي النَّاسَ بِالْقُرْآنِ إِلَى طَرِيقِ الْإِيمَانِ ، وَلَا يَهْدِيهِمْ بِآرَائِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، أَوْ أَفْكَارِهِ الذَّاتِيَّةِ ، أَوْ عِلَاقَاتِهِ الْجَمَاعِيَّةِ .

وَأُضِيفَ الْفِعْلُ ﴿ لُتُخْرِجَ ﴾ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ الدَّاعِي وَالْهَادِي وَالْبَشِيرُ وَالنَّذِيرُ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٤١٣) : ((فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ صِحَّةُ قَوْلِ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ الَّذِينَ أَضَافُوا أَفْعَالَ الْعِبَادِ إِلَيْهِمْ كَسَبًا ، وَإِلَى اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ إِنْشَاءً وَتَنْدْبِيرًا ، وَفَسَادَ قَوْلِ أَهْلِ الْقَدَرِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ صُنْعٌ)) اهـ .

والعزيزُ هو القاهرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، ولا يَغلبه شَيْءٌ ، المنيعُ في مُلكه وسلطانه . والحميدُ هو المحمودُ بِكُلِّ لسان ، المُمَجَّدُ في كُلِّ مكان . وإضافةُ الصَّراطِ (الطريق) إلى الله تعالى ، لأنَّ الله هُوَ المُظْهِرُ له ، الذي يُوضِّحه للناسِ ، بلا لُبْسٍ ولا عِوَج . كما أنَّ الغايةَ من الطريق الوصولُ إلى الله ، فالله هو المقصود . وإضافةُ الصَّراطِ إلى الله دليلٌ على عَظَمَةِ هذا الصَّراطِ واستقامته وشرفه ، وأَنَّهُ الصَّراطُ الوحيدُ الموصِلُ إلى الحق .

وتخصيصُ ﴿ العزيزِ الحميدِ ﴾ بالذكرِ، للتبْيِيهِ إلى أنَّ السائرَ في طريقِ الله ، لا يَذِلُّ ولا يَخِيبُ . وكيف يَذِلُّ أو يَخِيبُ وهو سائرٌ في طريقِ القادرِ الغالبِ ، والكامِلِ في استحقاقِ الحمد والثناء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٤٣ و ٣٤٤) : ((وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ الظلمات الكُفْرُ، والنور الإيمان، رواه العوفي عن ابن عباس. والثاني أنَّ الظلمات الضلالة ، والنور الهدى ، قاله مجاهد وقادة . والثالث أنَّ الظلمات الشك ، والنور اليقين ، ذكره الماوردي . وفي قوله : ﴿ يَأْذِنُ رَبَّهُمْ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها بأمرِ رَبِّهِمْ ، قاله مقاتل ، والثاني بتوفيق ربهم، قاله أبو سليمان، والثالث أنه الإِذْنُ نَفْسُهُ ، فالمعنى : بما أَذِنَ لَكَ مِنْ تعليمهم ، قاله الزَّجَّاجُ . قال : ثُمَّ بَيَّنَّ ما النُّورُ ، فقال : ﴿ إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾ ، قال ابن الأباري : وهذا مِثْلُ قولِ العرب : جَلَسْتُ إلى زَيْدٍ ، إلى العاقلِ الفاضلِ ، وإنما تُعاد " إلى " بمعنى التعظيم للأمر)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحَجَرُ : ٩٤] .
أمرَ اللهُ رسولَه محمدًا ﷺ أن يُبَلِّغَ قَوْمَه والناسَ الوَحْيَ الإِلَهِيَّ كاملاً ، فافعلْ ما تُؤْمَرُ يا محمد . اجْهَرْ بِهِ وأظْهِرْهُ . بَلِّغْ رسالةَ اللهِ ، ولا تَعَبْ بِالْمُشْرِكِينَ الذين يُريدون مَنَعَكَ مِنْ أداءِ مهمتك ، ولا تهتم بِسُخْرِيَتِهِمْ واستهزائِهِمْ ، ولا تلتفت إِلَيْهِمْ إذا لاموك على إظهارِ الدَّعوة .
ويمكن القولُ إِنَّ هُناكَ عِدَّةَ مَعَانٍ لِلآيَةِ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ . مِنْهَا : امضِ لِمَا تُؤْمَرُ بِهِ مِنْ إبطالِ الشُّرْكِ ، أو : أظْهِرْ ما تُؤْمَرُ بِهِ من الحق ، أو : شُقِّ جماعةَ المُشْرِكِينَ بالتَّوحيدِ .

و " اصدع " بمعنى " بَلِّغْ " لكنها أَبْلَغُ وأقوى ، فتأثيرُ الصَّدْعِ أَشَدُّ مِنْ تأثيرِ التَّبْلِيغِ . فقد لا يُؤثِّرُ التَّبْلِيغُ ، ولكنَّ الصَّدْعَ يُؤثِّرُ حَتْمًا . وقال الماوردي في أعلام النبوة (١ / ٧٦) : ((وقد حكى أبو عبيدة أنَّ أعرابياً سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فَسَجَدَ ، وقال : سَجَدْتُ لفصاحةِ هذا الكلام)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٧) : ((﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي

: بالذي تُؤمَر به ، أي بَلَّغ رسالة الله جميع الخلق، لِتَقُوم الحُجَّةَ عَلَيْهِم، فقد أَمَرَكَ اللهُ بذلك .
والصَّدْع : الشَّق ، وَتَصَدَّعَ الْقَوْم ، أي تَفَرَّقُوا)) اه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٢٠ و ٢١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾
فيه ثلاثة أقوال : أحدها فَاْمَضْ لِمَا تُؤْمَر ، قاله ابن عباس . والثاني أَظْهَرُ أَمْرَكَ ، رواه ليث عن
مجاهد ... والثالث أَنَّ المراد به الجهر بالقرآن في الصلاة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . قال
موسى بن عُبيدة : ما زال رسولُ الله ﷺ مُسْتَخْفِيًا حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه .
وفي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أَكْفَفْ عَنْ حَرْبِهِمْ . والثاني لَا تُبَالِ
بِهِمْ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى لَوْمِهِمْ عَلَى إِظْهَارِ أَمْرِكَ . والثالث أَعْرِضْ عَنِ الْاهْتِمَامِ بِاسْتِهْزَائِهِمْ . وأكثر
المفسرين على أَنَّ هذا الْقَدْر من الآية مَنسوخ بآية السَّيْف)) اه .

وقال الله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [التَّحَلُّل : ٢] .

يُنَزِّلُ اللهُ الْمَلَائِكَةَ بِالْوَحْيِ بِأَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ رُسُلِهِ ، لِيُخَوِّفُوا أَهْلَ الْكُفْرِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَعَ اللهِ تَعَالَى ، وَجَعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا ، وَعَبَدُوا الْآلِهَةَ وَالْأَوْثَانَ ، فَإِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ،
ووَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نِد ، وَلَا تَنْبَغِي الْأُلُوهِيَّةُ إِلَّا لَهُ ، وَلَا مَعْبُودٌ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ .
فَاتَّقُوا الْعِقَابَ الْإِلَهِيَّ لِمَنْ يُخَالِفُ أَمْرَ اللهِ تَعَالَى ، وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ ، وَهَذَا يَتَجَلَّى مَعْنَى التَّحْذِيرِ مِنَ
الشَّرِكِ .

والمعنى : مُزَوِّجُهم بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى مَعَ إِنْذَارِهِم بِالْقُرْآنِ إِنْ لَمْ يُقَرُّوا بِالتَّوْحِيدِ ، فَإِنَّ الْإِنْذَارَ
يَحْمِلُ مَعَانِيَ التَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ ، وَلَهُ وَقَعٌ شَدِيدٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ . وَسُمِّيَ الْوَحْيُ رُوحًا ، لِأَنَّهُ
يُحْيِي الْقُلُوبَ وَالْحَقَّ .

وَالْآيَةُ تُثَبِّتُ أَنَّ التُّبُوَّةَ عَطَائِيَّةٌ ، يُعْطِيهَا اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا تُكْتَسَبُ اِكْتِسَابًا بِاجْتِهَادِ
الْعَبْدِ أَوْ ذِكَاثِهِ أَوْ صَفَاءِ قَلْبِهِ . فَاللهُ يَخْتَارُ مَنْ يَشَاءُ لِحَمْلِ كَلِمَتِهِ إِلَى النَّاسِ .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٥٥٧) : ((﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ يَقُولُ : فَاحْذَرُونِي بِأَدَاءِ فَرَائِضِي ،
وَإِفْرَادِ الْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ الرُّبُوبِيَّةِ لِي ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَجَاتُكُمْ مِنَ الْهَلَكَةِ)) اه . وقال البيضاوي في
تفسيره (١ / ٣٨٤) : ((وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَزُولَ الْوَحْيِ بِوَسْطَةِ الْمَلَائِكَةِ ، وَأَنَّ حَاصِلَهُ التَّنْبِيْهُ
عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى كَمَالِ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَالْأَمْرُ بِالتَّقْوَى الَّذِي هُوَ أَقْصَى كَمَالِ الْقُوَّةِ
الْعَمَلِيَّةِ)) اه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٢٨) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُرِيدُ

بالملائكة جبريل عليه السلام وَحْدَهُ . وفي المراد بالروح ستة أقوال : أحدها الوحي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني أنه النبوة ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثالث أن المعنى تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى أن أمر الله كله روح . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد . والرابع أنه الرحمة ، قاله الحسن وقتادة . والخامس أنه أرواح الخلق ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح ، قاله مجاهد . والسادس أنه القرآن ، قاله ابن زيد. فعلى هذا سمّاها روحاً ، لأنّ الدّين يحيا به ، كما أنّ الروح تحيي البدن)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

لقد زعمت قريش أنّ الله أعظم من أن يرسل رسولا من البشر . وهم يرون أنّ الرسول ينبغي أن يكون ملكا . فردّ الله عليهم ، وبَيّن أنّه سبحانه لا يرسل إلى الأمم إلا رجالا من البشر . يختارهم الله ويوحى إليهم . والآية دليل واضح على أنّ الرُّسل لا يكونون من الملائكة ولا الجن ولا النساء . وبما أنّ مشركي قريش كانوا يعتبرون اليهود والنصارى هم العلماء بما في التوراة والإنجيل ، وجههم الله إلى أن سؤال العلماء بالتوراة والإنجيل ، فإنهم يعلمون أنّ الرُّسل كلّهم كانوا بشرًا . ولا شك أنّ مشركي قريش يُقدّمون كلام اليهود والنصارى على كلام محمد ﷺ .

وقد كان الخطاب الإلهي في الآية: ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ مُوجّهاً إلى النبي ﷺ تعظيماً لِقُدْرته، وتشريفاً له ، وإعلاماً بأنّ محمداً ليس بدّعا من الرُّسل . ووجه الله كلامه للمشركين : ﴿ فاسألوا ﴾ توبيخاً لهم ، وفضحاً لباطلهم ، وإفحاماً لهم ، وإقامة للحجة عليهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٤٩) : ((قال المفسرون : لمّا أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاًّ بعث إلينا ملكاً ، فنزلت هذه الآية . والمعنى أنّ الرُّسل كانوا مثلك آدميين ، إلا أنهم يوحى إليهم ... فاسألوا يا معشر المشركين أهل الذّكر ، وفيهم أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل التوراة والإنجيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أهل التوراة ، قاله مجاهد . والثالث أهل القرآن ، قاله ابن زيد . والرابع العلماء بأخبار من سلف ، ذكره الماوردي . وفي قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قولان : أحدهما لا تعلمون أنّ الله تعالى بعث رسولا من البشر . والثاني : لا تعلمون أنّ محمداً رسول الله . فعلى القول الأول جائز أن يسأل من آمن برسول الله ومن كفر ، لأنّ أهل الكتاب والعلم بالسيرة متفقون

على أنَّ الأنبياء كُلَّهُم مِنَ الْبَشَرِ ، وعلى الثاني إنما يسأل مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وقد رُوِيَ عن مجاهد :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ ، قال: عبد الله بن سلام، وعن قتادة قال : سلمان الفارسي ((اه . وقد أمرهم الله أن يسألوا العلماء ، وشفاء الجاهل السؤال . أي : عليه أن يسأل العلماء كي يرشدوه إلى الصواب ، ولا يُبرِّر جهله ، ولا يتحجج به ، فالجاهل يجب عليه أن يسأل ويتعلم . وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ، قال الله جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾)) (24). والحديث معناه صحيح ، لكنَّه سنده ضعيف . فالعالم يجب أن ينشر العلم ، ويُجيب السائلين بعلم وأمانة، والجاهل يجب عليه أن يسأل العلماء كي يسير على بصيرة ، ولا يظل تائهاً في عماءه.

وقال الله تعالى : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

أرسل الله رُسُلَهُ بِالْبَيِّنَاتِ (الْحُجَجِ وَالِدَلَالِ) وَالزُّبُرِ (الْكُتُبِ) ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ ، لِيُوضِّحَ لِلنَّاسِ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ ، وَمَعَانِيَهُ ، وَمَوَاعِظَهُ ، وَأَحْكَامَهُ ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَأَمَّلُوا ، وَيَفْهَمُوا آيَاتِ اللَّهِ ، وَيَتَفَكَّرُوا فِي مَسَارِهِمْ وَمَصِيرِهِمْ ، فَيَتَعَطَّوْا ، وَيَفُوزُوا بِالْدَّارَيْنِ . وَسُمِّيَ الْقُرْآنُ ذِكْرًا ، لِأَنَّهُ مَوْعِظَةٌ وَتَنْبِيهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٧٥٣ / ٢) : ((﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : مِنْ رَبِّهِمْ لِعَلِّمَكَ بِمَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَحَرْصِكَ عَلَيْهِ ، وَاتِّبَاعِكَ لَهُ ، وَلِعَلِّمْنَا بِأَنَّكَ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، فَتُفَصِّلَ لَهُمْ مَا أُجْمِلَ ، وَتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا أُشْكِلَ)) اه . والنبي ﷺ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمُوضِّحٌ لِمُرَادِهِ ، وَمُفَسِّرٌ لِكَلَامِهِ سُبْحَانَهُ . وَالآيَةُ تُوضِّحُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَأْمُورٌ بِبَيَانِ الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ ، وَبِالتَّالِي ، إِثْبَاتِ حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لَا يَنْفَصِلَانِ . وَهَكَذَا يَتَضَحُّ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ دِينٌ وَاضِحٌ ، لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا أَسْرَارَ وَلَا مَوَاضِعَ غَامِضَةٍ . فَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ بِالْبَيَانِ الشَّافِي ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ بِتَوْضِيحِهِ بِالْدَّلِيلِ الْكَافِي ، فَانْقَطَعَتْ أَعْدَارُ النَّاسِ ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ .

(٢٤) رواه الطبراني في الأوسط (٢٩٨ / ٥) . وقال الهيثمي في المجمع (٤٠٣ / ١) : ((وفيه محمد ابن أبي حميد ، وقد أجمعوا على ضعفه)) .

ولا شكَّ أنَّ النبي ﷺ يَمْتَلِكُ القُدْرَاتِ العقلية الفائقة، ويَمْتَلِكُ ناصيةَ البيان . فهو الفصيحُ القادر على التأثير ، والحوار، ومُقَارَعَةُ الحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ . إِنَّهُ يُبَيِّنُ الوَحْيَ بأسلوبه الجميل ، ولغته المؤثرة ، وفصاحته الباهرة . وبالتأكيد ، إنَّ تفسير القرآن يُطَلَّبُ مِنَ السُّنَّةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٥٠) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ وهو القرآن بإجماع المفسرين ، ﴿ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فيه ، مِنْ حلال وحرام ووعد ووعيد ، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك فَيَعْتَبِرُونَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : ٨٢] .

فإنَّ أعرَضَ المشركون عن النظر والاستدلال والإيمان ، بعد وضوح الحق أمامهم ، وإقامة الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، فلا عَلَيْكَ يا محمد مِنْهُمْ ، ولا تتحمَّلُ مسؤوليةَ كُفْرِهِمْ وإِعْرَاضِهِمْ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ الواضح لا غير، وقد أدَّتْ أمانةُ التبليغ بكل أمانة وإخلاص . ولا يُوجد تقصير من النبي ﷺ لأنَّ وظيفته هي البلاغ الواضح، وليس إجبار الناس على اعتناق الإسلام . فالهداية بيد الله وَحْدَهُ . وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ للتخفيف عنه، ورفع معنوياته .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٤) : ((﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَعْرَضُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْكَ ﴾ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ، فلا يَضُرُّكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ، وقد بَلَّغْتَ . وهذا من إقامة السبب مقام المُسَبِّب)) اهـ .

وقد أُقيم السبب (العلة) مقامَ المُسَبِّب (المعلول) . وتقدير الكلام : فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فلا تقصير ولا مؤاخذه عَلَيْكَ ، لأنَّكَ ما عَلَيْكَ إلا البلاغ الواضح .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] .

إنَّ الله يَعْلَمُ أَنَّ المشركين يقولون _ كَذِبًا وَجَهْلًا _ عن النبي ﷺ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ أَنَّ القرآنَ كلامٌ بشريٌّ لا علاقة له بالسماء ، وأنَّ النبي ﷺ يأخذ كلامه مِنْ آدَمِيٍّ ، ثُمَّ يَنْسُبُهُ إِلَى الله ، ويفتري على الله الكذب . وهدفهم من هذا الاتِّهام الطعن في القرآن والنُّبُوَّةِ .

أما المقصودُ بهذا البَشَر الذي يُعَلِّمُ النبي ﷺ _ حَسَبَ كلام المشركين _ ، فاختلف العلماء في تحديده .

قال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٠) : ((يَعْنُونَ جَبْرًا الرُّومِيَّ غَلَامَ عامر بن الحضرمي . وقيل: جَبْرًا وَيَسَارًا كانا يصنعان السيوف بمكة ، ويقرآن التوراة والإنجيل ، وكان الرسول ﷺ يمرُّ

عليهما ، ويسمع ما يقرآنه . وقيل : عائشًا غلام حُوَيْطَب بن عبد العُزَّى ، قد أسلم ، وكان صاحب كُتُب . وقيل : سلمان الفارسي)) اه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((قالوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا عَبْدُ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْكُتُبِ ، فَقَالَ اللَّهُ : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾)) (25).

وهذه التُّهْمَةُ الباطلة التي اخترعها المشركون ، لا دليل عليها ، وهي ضد المنطق والعقل ، وهي كذبة مكشوفة بدافع الهوى والحقد والعناد . فكيف يتعلَّم النبي ﷺ اللغة العربية من شخص أعجمي ، لا علاقة له بالعربية ؟ (26) . فلسان الشخص الذي يميل إليه المشركون (يلحدون إليه) أعجمي لا يحسن العربية ، فكيف يُعلِّمُ محمدًا العربية ؟! والإلحاد هو الميل عن القصد . والقرآن باللغة العربية الفصحى الذي أعجز فصحاء العرب وخطباءهم ، وفحول شعرائهم . فكيف يأتي بالقرآن العربي شخص غير عربي ؟! لا يقول بهذا عاقل . وسُمِّيَ القرآن لِسَانًا ، لأنَّ العرب تقول : اللغة لِسَان . أو المقصود باللسان البلاغة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٧٤) : ((فكيف يتعلَّم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كُلِّ كتاب نَزَلَ على نبيٍّ أُرْسِلَ ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟)) اه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٠) : ((وهذا ﴾ وهذا القرآن ، ﴿ لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٩) برقم (٣٣٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . =

= وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ١٥٨) : ((أي : كيف يُعلِّمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يُعارضوا منه سورة واحدة فما فَوْقَهَا ؟ . وَذَكَرَ النَّفَّاسُ أَنَّ مَوْلَى جَبْرِ كَانَ يَضْرِبُهُ ويقول له : أَنْتَ تُعَلِّمُ مُحَمَّدًا ، فيقول : لا والله ، بَلْ هُوَ يُعَلِّمُنِي وَيَهْدِينِي . وقال ابن إسحاق : كان النبي ﷺ فيما بَلَغَنِي ، كثيرًا ما يجلس عند المَرْوَةِ إلى غلام نصرانيٍّ ، يُقال له جَبْرُ عبد بني الحضرميِّ ، وكان يقرأ الكُتُبَ ، فقال المشركون : والله ما يُعلِّمُ محمدًا ما يأتي به إلا جَبْرُ النصرانيِّ)) اه .

(٢٦) في زاد المسير (٤ / ٤٩٤) : ((قال ابن قُتَيْبَةَ : لا يكاد عَوَامُّ النَّاسِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْعَجَمِيِّ وَالْأَعْجَمِيِّ وَالْعَرَبِيِّ وَالْأَعْرَابِيِّ . فالأعجمي الذي لا يُفصِّح وإن كان نازلًا بالبادية ، والعجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا . والأعرابي هو البدوي ، والعربي منسوب إلى العرب ، وإن لم يكن بدويًا)) .

ذو بيان وفصاحة. والجملتان مُستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقريره يَحتمِل وجهين ، أحدهما : أنَّ ما سَمِعَهُ مِنْهُ كَلَامٌ أَعْجَمِي ، لا يفهمه هُوَ ولا أنتم ، والقرآنُ عَرَبِيٌّ تفهمونه بأدنى تأمُّلٍ ، فيكفِ يكون ما تَلَقَّفه مِنْهُ ؟. وثانيهما: هَبْ أَنَّهُ تَعَلَّمَ مِنْهُ الْمَعْنَى بِاسْتِمَاعِ كَلَامِهِ ، لكن لَمْ يَتَلَقَّفْ مِنْهُ اللَّفْظَ ، لأنَّ ذَلِكَ أَعْجَمِي ، وهذا عَرَبِيٌّ ، والقرآنُ كما هُوَ مُعْجِزٌ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى ، فهو مُعْجِزٌ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ ، مَعَ أَنَّ الْعُلُومَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ لَا يُمْكِنُ تَعَلُّمُهَا إِلَّا بِمُلَازِمَةِ مُعَلِّمٍ فَانِقٍ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ مُدَّةً مُتَطَوِّلاً . فَكَيْفَ تَعَلَّمَ جَمِيعَ ذَلِكَ مِنْ غُلَامٍ سُوْقِيٍّ ، سَمِعَ مِنْهُ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِ مُرُورِهِ عَلَيْهِ كَلِمَاتٍ أَعْجَمِيَّةٍ ، لَعَلَّهُمَا لَمْ يَعْرِفَا مَعْنَاهَا ؟! . وَطَعْنُهُمْ فِي الْقُرْآنِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الرِّكْبَكَةِ دَلِيلٌ عَلَى غَايَةِ عَجْزِهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٦] .

لقد جَعَلَ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ أَغْطِيَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ ، وَاسْتِيعَابِ مَعَانِيهِ . فَقُلُوبُهُمْ غَارِقَةٌ فِي الظَّلَامِ ، لَا يَصِلُ إِلَيْهَا نُورُ الْقُرْآنِ . وَالْأَكِنَّةُ جَمْعُ كِنَانٍ ، وَهُوَ الْغِطَاءُ . فَالْكَافِرُونَ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ لَكِنْهُمْ لَا يَفْهَمُونَهُ . وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْبَهَائِمِ تَسْمَعُ النَّدَاءَ ، لَكِنْهَا لَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ . وَهَذَا مُنْتَهَى الْخِذْلَانِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٣٦) : ((﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أَي: لِنَا لَا يَفْقَهُوهُ ، أَوْ كَرَاهِيَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، أَي أَنْ يَفْهَمُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَالْحُكْمِ وَالْمَعَانِي ، وَهَذَا زِدٌّ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ (نَفَاةُ الْقَدْرِ))) اهـ .

وَفِي آذَانِهِمْ صَمَمٌ وَثِقَلٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ حَاسَةَ السَّمْعِ هِيَ الَّتِي تَلْتَقِطُ الْأَلْفَافَ وَالْمَعَانِي ، وَيُحْلِلُّهَا الْعَقْلُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥٠) : ((وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى ، أَثْبَتَ لِمُنْكَرِهِ مَا يَمْنَعُ عَنْ فَهْمِ الْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ اللَّفْظِ)) اهـ .

وَإِذَا وَحَّدَ النَّبِيُّ ﷺ اللهُ تَعَالَى فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، انزَعَجَ الْكَافِرُونَ أَشَدَّ الْانزِعَاجِ ، وَتَضَافَقُوا بِشَكْلِ وَاضِحٍ ، لِأَنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ تُذَكَّرَ آلِهَتُهُمْ كَمَا يُذَكَّرُ اللهُ تَعَالَى . فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ غَيْرَ مَشْفُوعٍ بِهِ آلِهَتُهُمْ ، أَعْرَضُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهَرَبُوا مِنْ اسْتِمَاعِ التَّوْحِيدِ .

وقال ابن القيم في روضة المحبين (ص ٣٠٥) : ((ومن غيّرته سبحانه وتعالى غيّرته على توحيدِهِ ودينِهِ وكلامِهِ أن يحظى بِهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، بَلْ خَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ غَيْرَةٌ عَلَيْهِ ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾)) اهـ .

وقال السيوطي في الدر المنثور (٥ / ٢٩٨) : ((وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد _ رضي الله عنه _ في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ، قال : بُغْضًا لِمَا تَكَلَّمُ بِهِ لِنَا يَسْمَعُوهُ ، كما كان قومٌ نُوحٍ يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يَسْمَعُوا ما يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الاسْتِغْفَارِ والتَّوْبَةِ)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ، قال : ((الشَّيَاطِينُ)) (٢٧).

وقال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٧] .

أخبر الله أنه أعلم بحال المشركين المتلبسين باللغو والاستهزاء بالقرآن ، حين يستمعون إلى النبي ﷺ وهو يقرؤه . والمعنى : نحن أعلم وقت يستمعون إليك بما يستمعون به ، وهذا وعيدٌ شديدٌ ، لأنه الله مُطَّلِعٌ على أعمالهم ، ويحصيها ، وسيحاسبهم عليها .

لقد كانوا يستمعون إلى القرآن باستخفاف بهدف الطعن فيه ، والسخرية منه . والواجب عليهم أن يستمعوا إليه بأدب وخشوع كي يستفيدوا منه . لذلك لم يشعروا بعظمة القرآن ، ولم يستفيدوا منه شيئاً . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٣٧) : ((وكانوا يستمعون من النبي ﷺ القرآن ، ثم ينفرون ، فيقولون : هو ساحر ومسحور ، كما أخبر الله تعالى به عنهم ، قاله قتادة وغيره)) اهـ .

وأيضاً ، الله أعلم بما يتناجون به في تلك الحالة ، وأعلم بغرضهم من الاستماع ، وكانوا يتناجون بينهم بالكذب والاستهزاء ، ويتحدّثون في أمر النبي ﷺ ، بعضهم يقول : مجنون ، وبعضهم يقول : ساحر ، وبعضهم يقول : كاهن .

(٢٧) رواه الطبراني في الكبير (١٢ / ١٧٥) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٣٩) : ((وفيه زُوح ابن المسيّب . قال ابن مَعِين : صُوِّلِح ، وضعفه غيره ، وقال ابن جَبَان : لا تحِلُّ الرواية عنه ، وبقيّة رجاله ثقات)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٣٧) : ((﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أي مُتَنَاجُونَ في أمرِك . قال قتادة : وكانت نَجْوَاهُمْ قولهم إنه مجنون، إنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأولين وغير ذلك)) اهـ .
 إِذْ يَقُولُ المشركون الذين ظلموا أنفسهم بالشرك مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة : ما تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا أَصَابَهُ السَّحَرُ ، وَفَسَدَ عَقْلُهُ ، فَصَارَ مَغْرُورًا مَخْدُوعًا ، وَهُمْ يُرِيدُونَ إِبْعَادَ النَّاسِ عَنْهُ .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٢) : ((قال المفسِّرون : أمر رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام أن يَتَّخِذَ طعامًا، ويدعو إليه أشرف قُرَيْشٍ من المشركين، ففعل ذلك، ودخل عليهم رسول الله ﷺ ، فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التَّوْحِيدِ، وكانوا يَسْتَمْعُونَ، ويقولون فيما بينهم : هو ساحر ، هو مسحور ، فنزلت هذه الآية : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ أي يستمعونه)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] .

أنزل الله القرآن بالذِّينِ القويم والأمرِ الثابت ، ففيه العدل والخير والأخلاق الحميدة ، وبذلك نزل على محمد ﷺ ، محفوظًا من الزيادة والنقصان . والقرآن حق ، ونزوله حق ، وآياته حق .
 وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٩٤) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ ، هذا مُتَّصِلٌ بِمَا سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ الْمُعْجِزَاتِ ... ووجه التكرير في قوله : ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ يجوز أن يكون معنى الأول: أَوْجَبْنَا إِنْزَالَهُ بِالْحَقِّ ، ومعنى الثاني : وَنَزَلَ فِيهِ الْحَقُّ ، كَقَوْلِهِ : خَرَجَ بَشَابَهُ أَيِ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ . وقيل : الباء في ﴿ وَبِالْحَقِّ ﴾ الأول ، بمعنى " مع " أي : مع الحق ، كَقَوْلِكَ : رَكِبَ الْأَمِيرُ بِسَيْفِهِ ، أَيِ مَعَ سَيْفِهِ . ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي : محمد ﷺ ، أَيِ : نَزَلَ عَلَيْهِ ، كما تقول : نَزَلْتُ يَزِيدَ ، وقيل : يجوز أن يكون المعنى : وَبِالْحَقِّ قَدَرْنَا أَنْ يَنْزَلَ ، وكذلك نَزَلَ)) اهـ .
 وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] .

لقد يَسَّرَ اللهُ الْقُرْآنَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ (لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ) لِيَسْهُلَ فَهْمُهُ وَحِفْظُهُ ، وجعله سَهْلًا وَوَاضِحًا لِكُلِّ مَنْ تَفَكَّرَ فِي أَلْفَاظِهِ ، وَتَدَبَّرَ مَعَانِيهِ ، وَذَلِكَ لِكَفَى يُبَشِّرَ النَّبِيَّ ﷺ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا عَذَابَ اللَّهِ بِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي ، بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ الْأَبَدِيِّ ، وَيُنذِرَ بِالْقُرْآنِ قَوْمًا شَدِيدِي الْخُصُومَةِ وَالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ ، وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ .
 وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢٥٨) : ((﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ شِدَادًا فِي الْخُصُومَةِ . جمع (الْأُلْدُ) . وقال الحسن : صُمًّا فِي الْحَقِّ . قال مجاهد : (الْأُلْدُ) : الظَّالِمُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ . قال أبو عبيدة : (الْأُلْدُ) الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ وَيَدَّعِي الْبَاطِلَ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرْتُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٠] .

هذا توبيخ شديد للمشركين ، وفضح لباطلهم . يقولون : بمحمد جنون ، فهو فاقد قواه العقلية، وكلامه عبثي، وأفعاله فوضوية . وفي تفسير الجلالين (١ / ٤٥٢) : ((﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ الاستفهام للتقرير بالحق من صدق النبي ، ومجيء الرُّسل للأمم الماضية ، ومعرفة رسولهم بالصدق والأمانة ، وأن لا جنون به)) اهـ .

والجنون هو خلل يصيب عقل الإنسان . وكانوا يعتقدون أنه من مس الجن . ليس الأمر كما زعم المشركون في حق القرآن ومحمد ﷺ . بل جاءهم محمد بالقرآن المشتمل على الفصاحة والبيان والأحكام والشرائع والوعد والوعيد . والقرآن لا يخفى جماله وفصاحته على عاقل . إذن، لا يمكن أن يكون محمد ﷺ مجنوناً . فالمجنون لا يتكلم بالحكمة والموعظة الحسنة . أما محمد ﷺ فهو أفصح الفصحاء ، يتكلم بالحق والعلم والمعرفة والحكمة والموعظة الحسنة ، ويقارع الحجة بالحجة . وهذا ينفي عنه صفة الجنون . والمشركون كانوا يعرفون تماماً أن محمداً أرجحهم عقلاً ، وأفصحهم لغةً ، لكنهم وصفوه بالجنون عناداً وحسدًا وتعنُّتًا وتكبرًا . وبما أنهم لا يملكون القدرة على مواجهة محمد ﷺ بالدليل والبرهان ، اعتمدوا على الشتائم والاتهامات .

لقد زعم المشركون أن محمداً ﷺ جاء بالقرآن من عنده ، أو أنه مجنون لا يعرف ماذا يقول . وهذا اتِّهامات ساذجة، يُكذِّبها الواقع، ولا دليل عليها . وقد تركوا الإيمان بحجة أن محمداً مجنون، وهذه حجة داحضة ، ووهم واضح . فالمجنون تظهر عليه علامات الجنون والاضطراب أمام الناس، ولا يستطيع أن يخفي أمره . ومحمد ﷺ لم يكن كذلك . فهو أرجح الناس عقلاً ، لكنه جاء بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ، وألغى عبادة الأصنام المتوارثة ، وقضى على ثراث آبائهم الوثني ، فكفروا به عنادًا وتعصُّبًا وحميةً . لقد وُلد محمد ﷺ بينهم ، وعاش معهم ، ويعرفون نسبه وفصاحته وصدقته وأمانته ، فكيف يكونون مجنوناً ؟ !

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٣٤) : ((وأخبر الله عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ، ولا يُدافع ، وقد تحدَّاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الآبدين)) اهـ .

ومع وضوح الدعوة الإسلامية ، إلا أنَّ أكثر المشركين يَكْرَهُونَ الحقَّ حسداً وعناداً وتقليداً للآباء وتَعْصِباً لهم ، ولما في قلوبهم من الرِّغْبِ والضلال والانحراف . وقد نشأ المشركون في بيئة الكراهية والحقد والصراع والعنصرية والتعصب والحيمة الجاهلية وتقليد الآباء ، لذلك رَفَضُوا الحقَّ الذي جاء به محمد ﷺ ، لأنه يُلْغِيُ تراثهم الوثني ، ويُعيد ترتيب حياتهم من جديد . وهذا بالنسبة إليهم مرفوض جُمْلَةً وتفصيلاً . والآية : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ فيها دليل على أنَّ أَقْلَهُمْ لَمْ يَكُنْ كَارِهاً للحق ، ولكنَّه ترك الإيمان خوفاً من قومه ، أو جهلاً ، أو اتباعاً لِدِينِ الآباء مثل أبي طالب .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٧٠٦) : ((وظاهر النِّظْم أنَّ أَقْلَهُمْ كانوا لا يَكْرَهُونَ الحقَّ ، ولكنهم لَمْ يُظْهِرُوا الإيمانَ خوفاً من الكارهين له)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦٢) : ((وإنما قُيِّدَ الْحُكْمُ بِالْأَكْثَرِ لأنه كان منهم مَنْ ترك الإيمان استكافاً من توبيخ قومه ، أو لِقَلَّةِ فِطْنَتِهِ وعدمِ فِكْرَتِهِ ، لا كراهة للحق)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٢٣٣) : ((﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُهُ : ما بهؤلاء الكفرة أنهم لَمْ يَعْرِفُوا محمداً بالصدق ، ولا أنَّ محمداً عندهم مجنون ، بل قد علّموه صادقاً مُحَقِّقاً فيما يقول ، وفيما يدعّوهم إليه ، ولكن أكثرهم للإذعان للحق كارهون ، ولا تَباع محمد ساخطون ، حسداً منهم له ، وبَغْياً عَلَيْهِ ، واستكباراً في الأرض)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المؤمنون : ٧٣] . وَإِنَّكَ يَا محمد لَتَدْعُوهُوَ هؤلاء المشركين إلى طريق واضح ومستقيم ، لا عِوَجَ فيه ولا لَبْسَ . وهو الإسلام ، الدِّينُ الحق ، وهو الطريق المستقيم الموصِلُ إلى الجنة . وأصحابُ العقول يَشْهَدُونَ باستقامة هذا الطريق ، ولا عِوَجَ فِيهِ يجعل المشركين يَتَّهِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ بالتَّهمِ الجاهزة والباطلة . وَلَوْ كَانَ هناك ثغرة أو انحراف في هذا الطريق المستقيم ، لَكَانَ المشركون على حق في طعنهم بمحمد ﷺ ، ولكنَّه طريق واضح ومستقيم . إذن ، لا معنى لَاتِّهَامَاتِ المشركين ، ولا عُذْرَ لهم في كُفْرِهِمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ١٢٨) : ((أي : إلى دين قويم . والصَّراطُ في اللغة الطريق . فَسَمِّيَ الدِّينَ طَرِيقاً ، لأنه يؤدي إلى الجنة ، فهو طريق إِلَيْهَا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

تَقْدَسَ اللهُ وتعالى وَتَنْزَرَهُ، الذي نَزَلَ الْقُرْآنَ الذي يَفْرُقُ بين الحق والباطل، على عَبْدِهِ محمد ﷺ، لِيَكُونَ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ دُونَ الْمَلَائِكَةِ نَذِيرًا، يُخَوِّفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِنْ كَفَرُوا. وَالْقُرْآنُ هو كتاب الله، فِيهِ أَحْكَامُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وهو كتابٌ عَظِيمٌ فِيهِ الْخَيْرُ، يَغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ، فوق مستوى الشُّبُهَاتِ وَالتَّفَدُّدِ، لِأَنَّهُ الْعَالِي الْأَعْلَى، فَلَيْسَ فَوْقَهُ كِتَابٌ. وَفَرَّقَ اللهُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَسَمَّى الْفُرْقَانَ. وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٠٥): ((وَالْفُرْقَانُ ﴿مصدر فَرَّقَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، إِذَا فَصَلَ بَيْنَهُمَا. سَمَّى بِهِ الْقُرْآنَ لِفَصْلِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِتَقْرِيرِهِ، أَوِ الْمُحَقِّ وَالْمُبْطِلِ بِإِعْجَازِهِ، أَوْ لِكَوْنِهِ مَفْصُولًا، بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ فِي الْإِنْزَالِ)) اهـ.

و﴿عَبْدِهِ﴾ مَدْحٌ وَتَعْظِيمٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَهُ إِلَى عُبودِيَّتِهِ، وَنَسَبَهُ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ (28). وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرِسَالَتُهُ عَامَّةٌ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْوَقَائِعِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَلَا الطَّعْنَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رِسَالَتَهُ إِلَى مُلُوكِ الْأَرْضِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَدَعَا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ إِلَى اعْتِنَاقِهِ، مُتَّفَعًا أَمَرَ اللهُ فِي وُجُوبِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً. وَالْإِسْلَامُ لَمْ يَجِئْ لِلْعَرَبِ وَخَذَهُمْ، بَلْ جَاءَ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (١ / ١٢٨) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُؤْتَى إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)).

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤١١): (("نَزَلَ" فِعْلٌ مِنَ التَّكْرَرِ وَالتَّكثُّرِ ... لِأَنَّ الْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ مُنْجَمًا مُفْرَقًا مُفَصَّلًا، آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ، وَسُورًا بَعْدَ سُورٍ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ، وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ)) اهـ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] (29).

(٢٨) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ (١ / ٢٦٩): ((قَالَ الشَّاعِرُ: لَمَّا انْتَسَبْتُ إِلَيْكَ صِرْتُ مُعْظَمًا ... وَعَلَوْتُ قَدْرًا دُونَ مَنْ لَمْ يُنْسَبْ. وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَى الْمَحْبُوبِ فَهُوَ مَحْبُوبٌ)) اهـ.

(٢٩) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣ / ٧): ((وَالضَّمِيرُ فِي ﴿قَالُوا﴾ لِقُرَيْشٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لَمْ يَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَ مَشْهُورٍ، ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ وَغَيْرِهِ. مُضْمِنُهُ أَنَّ سَادَتَهُمْ — عُتْبَةُ ابْنِ رَبِيعَةَ وَغَيْرِهِ — اجْتَمَعُوا مَعَهُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ!، إِنْ كُنْتَ تَحِبُّ الرِّيَاسَةَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ عَاقِبَتُكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَحِبُّ الْمَالَ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا، فَلَمَّا أَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، رَجَعُوا فِي بَابِ الْإِحْتِجَاجِ مَعَهُ، فَقَالُوا: مَا

المشركون غارقون في العناد والجحود. لقد رفضوا الإيمان، وطعنوا بالرسول ﷺ بلا دليل ولا حجة. وقد تذرّعوا بأنّ محمدًا ﷺ يأكل الطعام كما يأكل الناس ، ويحتاج إلى إخراجهم كما يحتاج الناس ، ويذهب في الأسواق ويعود منها لقضاء أموره ، وتلبية طلباته ، وطلب الأرزاق . وهذا من وجهة نظرهم يتعارض مع مكانة الأنبياء . فالمشركون يزعمون أنّ النبيّ يجب أن يكون ملكًا لا يأكل، أو أن يكون ملكًا، لأنّ الملك لا يتسوّق ، وإنما لديه خدم يحضرون حاجاته من الأسواق . وهذا وهم كبير في أذهان المشركين ، لأنّ الرسول ﷺ يأكل ويشرب. أمّا مشيّه ﷺ فهذا يُشير إلى تواضعه ، واختلاطه بالناس كي يطلع على أحوالهم ، ويقدم لهم حلولاً لمشكلاتهم ، ونصائح لتحسين حياتهم .

والمشركون يُريدون أن يقولوا إنّ محمدًا لا يتميّز عنّا بشيء ، فهو يأكل كما نأكل ، ويمشي في الأسواق كما نمشي ، فكيف يكون رسولاً مُميّزًا عنّا ؟! . وهذا تفكير قاصر ، لأنّ تميّز الرُّسل إنما هو بالأحوال النَّفسية لا الجسمانية . فالرسولُ مثل باقي الناس ، يأكل ، ويشرب ، ويذهب إلى الخلاء ، ويتزوَّج ، ويتعب ، ويمرض ... إلخ. وهذا لا يطعن فيه . لكنّه يتميّز بنزول الوحي عليه .

وقال البغوي في تفسيره (٧٣/١): ((« وقالوا مآل هذا الرسول ﷺ يعنون محمدًا ﷺ ، » يأكل الطعام » كما نأكل نحن . « ويمشي في الأسواق » يلتبس المعاش كما نمشي ، فلا يجوز أن يمتاز عنّا بالنبوة ، وكانوا يقولون له : لست أنت بملك ولا بملك ، لأنك تأكل ، والملك لا يأكل ، ولست بملك ، لأنّ الملك لا يتسوّق ، وأنت تتسوّق وتبذل . وما قالوه فاسد ، لأنّ أكله الطعام لكونه آدميًا، ومشيه في الأسواق لتواضعه، وكان ذلك صفة له. وشيء من ذلك لا يُنافي النبوة)) .

بأنّك وأنت رسول الله تأكل الطعام ، وتقف بالأسواق ! . فعَيَّروه بأكل الطعام ، لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكًا ، وعَيَّروه بالمشي في الأسواق حين رَأوا الأكاسرة والقيصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق . وكان عليه السلام يُخالطهم في أسواقهم ، ويأمرهم وينهاهم ، فقالوا : هذا يطلب أن يتملك علينا ، فما له يُخالف سيرة الملوك ؟!)) .

وَقَوْلُ الْمُشْرِكِينَ ﴿ مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ ﴾ يُشِيرُ إِلَى اسْتِصْغَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَاحْتِقَارِ شَأْنِهِ ، كَمَا أَنَّ تَسْمِيَةَ الْمُشْرِكِينَ لِمُحَمَّدٍ بِالرَّسُولِ ، مَعَ كُفْرِهِمْ بِهِ ، وَطَعْنِهِمْ فِيهِ ، وَعَدَمِ اعْتِرَافِهِمْ بِرِسَالَتِهِ ، يُشِيرُ إِلَى السُّخْرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٠٧) : ((﴿ وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ ﴾ مَا لَهَذَا الَّذِي يَزْعُمُ الرِّسَالَةَ ، وَفِيهِ اسْتِهْزَاءٌ وَتَهْكُؤٌ)) اهـ .

وَلَمْ يَكْتَفُوا بِهَذَا ، بَلْ طَلَبُوا أَنْ يُنْزَلَ إِلَى مُحَمَّدٍ مَلَكٌ يُؤَيِّدُهُ ، وَيُصَدِّقُهُ ، وَيَشْهَدُ لَهُ بِصَحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَيَكُونُ مَعَهُ دَاعِيًا ، فَيَعْلَمُونَ صِدْقَ مُحَمَّدٍ بِتَصْدِيقِ الْمَلَكِ لَهُ . وَقَدْ نَزَلَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ وَجُوبِ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مَلَكًا إِلَى ضَرُورَةِ أَنْ يُنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى تَنَاقُضِهِمْ ، وَاضْطِرَابِهِمْ ، وَتَلَاعِبِ الْأَهْوَاءِ بِهِمْ ، وَالتَّشْوِيشِ الْهَائِلِ فِي أَذْهَانِهِمْ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦ / ٧٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ . ﴿ مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ ، أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا يَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَيَمْشِي فِي الطَّرْقِ كَمَا يَمْشِي سَائِرُ النَّاسِ يَطْلُبُ الْمَعِيشَةَ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَلَكٍ وَلَا مَلَكٍ ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَأْكُلُ ، وَالْمُلُوكَ لَا تَتَبَدَّلُ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَعَجَبُوا أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِلْبَشَرِ لَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٌ . وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ بَشَرًا لِيَكُونَ مُجَانِسًا لِلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَلَكًا يَمْتَنِعُ مِنَ الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْجَبَابَرَةِ ، وَلِأَنَّهُ أَمَرَ بِدَعَائِهِمْ ، فَاحْتَاجَ أَنْ يَمْشِيَ بَيْنَهُمْ)) اهـ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الفرقان : ٨] .

يَقْتَرِحُ الْمُشْرِكُونَ إِنْزَالَ آيَاتِ مُعَيَّنَةٍ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا وَإِضَاعَةً لِلْوَقْتِ . إِنَّهُمْ لَا يَحْتَشُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا يُرِيدُونَ مُعْجَزَاتٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَإِنَّمَا يَقْضُونَ وَقْتَهُمْ فِي السُّخْرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ أَنْ يُنْزِلَ كُلَّ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَحْتَشُونَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا يَسْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ . وَسَوَاءٌ أُنْزِلَتِ الْآيَاتُ أَمْ لَمْ تَنْزَلْ ، فَالْمُشْرِكُونَ قَدْ اتَّخَذُوا مَوْقِفًا مُسَبِّقًا رَافِضًا لِلْإِيمَانِ . وَلَنْ يَنْتَفِعُوا بِإِنْزَالِ الْآيَاتِ . وَلَوْ أُنْزِلَ اللَّهُ آيَةٌ كَمَا اقْتَرَحَ الْمُشْرِكُونَ ثُمَّ كَفَرُوا ، لَعَذَّبُوا فَوْرًا ، وَلَمْ يُنَحِّوْا آيَةَ فُرْصَةٍ . وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ ، فَكُلُّ قَوْمٍ يَطْلُبُونَ نَزُولَ آيَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، ثُمَّ يَكْفُرُونَ بَعْدَ نَزْوِلِهَا ، يُهْلِكُهُمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ . إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ إِهْلَاكَهُمْ ، وَيَسِيرُونَ إِلَى الْهَاطِيَةِ ، جَهْلًا مِنْهُمْ . وَقَدْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ مَنَحَهُمُ الْفُرْصَةَ تَلُوَ الْفُرْصَةَ ، وَأَمْهَلَهُمْ ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعَذَابِ .

لقد طلبَ المشركون أن ينزلَ على النبي ﷺ كنزٌ (فضة أو ذهب) من السماء ، فيصبح غنيًا ، ويُنفقَ منه ، ولا يحتاج إلى طلب المعاش ، ولا يحتاج إلى المشي في الأسواق . أو يكون له بستان يأكل من ثماره ، فتكون له مزية على الناس ، بأنه يأكل من بستانه الخاص ، ولا يحتاج إلى أحد . وتكون هذه الآية دليلاً على صدقه وصحة نبوته . وقال البيضاوي في تفسيره (٢٠٧ / ١) : ((هذا على سبيل التنزيل ، أي : إن لم يُلَقَ إليه كنز ، فلا أقل من أن يكون له بستان ، كما للدهاقين والمياسير فيتعيش برّعه)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤١٣ / ٣) : ((وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة)) اهـ .

لقد عيّرَ المشركون النبي ﷺ ، لأن حياته كانت خشنة وقاسية ، ولم يعيش كالملوك مُرفّها في القصور بين الخدم والجواري . ولا شك أن الغنى فتنة لقلوب المشركين .

وقال المشركون للمؤمنين إن تتبعون إلا رجلاً غلبَ على عقله السحر ، فلا يدري ماذا يقول ولا يعرف ماذا يفعل . وتقدير الآية : ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ هو : وقالوا إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . فوضع الظاهر " الظالمون " موضع المضمَر مع وصفهم بالظلم ، للتسجيل عليهم به ، وبيان تجاوزهم حد الضلال ، وإدانتهم ، وتوبيخهم .

وقال النسفي في تفسيره (١٦١ / ٣) حكاية عن المشركين : ((إن صحَّ أنه رسول الله فما بأله يأكل الطعام كما نأكل ، ويردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكاً مُستغنياً عن الأكل والتعيش ، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنساناً معه ملك ، حتى يتساندا في الإنذار والتخويف ، ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقي إليه من السماء ، يستظهر به ، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش ، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلاً له بستان يأكل هو منه كالمياسير)) .

وقال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٩] . يقول الله لرسوله محمد ﷺ : انظر إلى هؤلاء المشركين كيف ضربوا لك الأمثلة ، واخترعوا لك الأحوال الغريبة ، وقالوا فيك الأقوال الشاذة : مسحور ، والمحتاج إلى ما يُنفقه ، وإلى ملك يُسانده في الدعوة ، ليتوصلوا إلى تكذيبك . والأمثال هي الاقتراحات الغريبة والأقوال الشاذة . فَضَلُّوا عن الحق والهدى ، وابتعدوا عن الدين والإيمان ، وفشلوا في إثبات اتهاماتهم ، فلا يستطيعون طريقاً إلى القُدْح في نبوتك ، ولا يجدون مخرجاً من ضلالهم ، فهم مُتَحِيرُونَ في أمرهم ، لا يعرفون ماذا يصنعون .

والمشركون لم يُقدِّموا أيَّ دليل على اتِّهاماتهم للنبي ﷺ ، وإنما اعتمدوا على الأباطيل والشتائم والأقاويل المنحرفة . وَلَوْ كانوا صادقين لَقَارَعُوا الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ ، وَقَدَّمُوا الأدلة والبراهين على صِحَّة اتِّهاماتهم للنبي ﷺ ، لكن هذا لم يحدث . حتى إنهم لم يستقروا على اتِّهام واحد ، فَظَلُّوا تائهين وحائرين . وهذا يُشير إلى عِنَادهم وانحرافهم وأوهامهم واتباعهم للأهواء والمصالح الشخصية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤١٣) : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ﴾ أي جَاؤُوا بما يَقْدِفُونَكَ بِهِ ، وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَلَيْكَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر ، وَكُلُّهَا أقوال باطلة . كُلُّ أَحَدٍ مِمَّنْ لَهُ أَدْنَى فَهْمٍ وَعَقْلٍ ، يَعْرِفُ كَذِبَهُمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَضَلُّوا ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ وَطَرِيقِ الْهُدَى ، فَإِنَّهُ ضَالٌّ حَيْثَمَا تَوَجَّهَ ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَمِنْهُجُهُ مُتَّحِدٌ ، يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٧٤) : ((انْظُرْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾

حِينَ مَثَلُوكَ بِالمسحور وبالكاهن والمجنون والشاعر ، ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بهذا عن الهدى ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَخْرَجًا مِنَ الْأَمْثَالِ الَّتِي ضَرَبُوهَا ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا ، وَلَمْ يَجِدُوا عَلَى قَوْلِهِمْ حُجَّةً وَبُرْهَانًا . وَقَالَ الْفَرَّاءُ : لَا يَسْتَطِيعُونَ فِي أَمْرِكَ حِيلَةً . وَالثَّانِي : سَبِيلًا إِلَى الطَّاعَةِ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان : ١٠] .

تَنَزَّهَ اللَّهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَكَاثَرَ خَيْرُهُ ، الَّذِي إِنْ شَاءَ آتَى مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلَ مِمَّا اقْتَرَحَهُ الْمُشْرِكُونَ (الْكُنْزُ وَالْبِسْتَانُ) وَأَحْسَنَ وَأَعْظَمَ . ثُمَّ وَضَّحَ اللَّهُ ذَلِكَ الْخَيْرَ : الْجَنَّاتِ وَالْقُصُورِ . لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَّرَ ذَلِكَ إِلَى الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . وَالْآيَةُ ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ تَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَ أَنْ يُعْطِيَهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٧٣) : ((﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾

الذي قالوا أو أفضل من الكنز ، والبستان الذي ذكروا . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : يعني خيراً من المشي في الأسواق ، والتماس المعاش ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذلك الخير ، فقال : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيُجْعَلُ لَكُمْ فُصُورًا ﴾ بُيُوتًا مُشِيدَةً ، والعربُ تُسمِّي كُلَّ بيت مُشِيدٍ قَصْرًا)) اهـ . وقال التَّسْفِي في تفسيره (٣ / ١٦٢) : ((تَكَاثَرَ خَيْرُ الذي إِنْ شَاءَ وَهَبَ لَكَ فِي الدُّنْيَا خَيْرًا مِمَّا قَالُوا ، وهو أَنْ يُعْجَلَ لَكَ مِثْلُ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْقُصُورِ)) اهـ . وفي لُبَاب النُّقُول لِلشُّيُوطِي (١ / ١٦٢) : ((عَنْ خَيْثَمَةَ : قَالَ : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنْ شِئْتَ أُعْطِيْنَاكَ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَخَزَائِنَهَا ، لَا يُنْقَصُكَ ذَلِكَ عِنْدَنَا شَيْئًا فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنْ شِئْتَ جَمَعْتَهُمَا لَكَ فِي الْآخِرَةِ ، قَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُمَا لِي فِي الْآخِرَةِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَارَكَ الذي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ الْآيَةُ)) اهـ .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ((يَا عَائِشَةُ ، لَوْ شِئْتُ لَسَارَتَ مَعِيَ جِبَالُ الذَّهَبِ . جَاءَنِي مَلَكٌ إِنْ حُجِرْتَهُ لَتُسَاوِيَ الْكَعْبَةَ ، فَقَالَ : إِنْ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : إِنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا)) . قال : ((فَظَنَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ)) ، قال : ((فَأَشَارَ عَلَيَّ أَنْ ضَعَّ نَفْسَكَ)) ، قال : ((فَقُلْتُ : نَبِيًّا عَبْدًا)) . قالت : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لَا يَأْكُلُ مُتَكِنًا ، يَقُولُ : ((أَكُلْتُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلَسْتُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ)) (30) .

الْحُجْرَةُ : مَعْقِدُ الْإِزَارِ مِنَ الْإِنْسَانِ . وَالنَّبِيُّ يُشِيرُ إِلَى عَظْمَةِ هَذَا الْمَلِكِ الذي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِتَخْيِيرِهِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا أَوْ نَبِيًّا مَلِكًا . فَاخْتَارَ النَّبِيُّ ﷺ الْعِبَادِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِاعْتِبَارِهَا أَشْرَفُ الصِّفَاتِ وَأَعْظَمُهَا . مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعِهِ ﷺ ، وَعَدَمِ اغْتِرَارِهِ بِزُخَارِفِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا الزَّائِلَةِ وَنَعِيمِهَا الْفَانِي . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْكُلُ بِتَوَاضُعٍ ، رَاضِيًا بِمَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، مُتَأَدِّبًا مَعَهُ ، وَلَا يَتَكَبَّرُ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ التَّرَفِ وَالرِّفَاهِيَةِ . وَأَكُلُهُ وَجُلُوسُهُ ﷺ مِثَالٌ لِلْأَدَبِ وَالتَّوَاضُعِ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٥٥) : ((كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ) أَيُ : فِي الْقَعُودِ لَهُ ، وَهَيْئَةُ التَّنَاولِ ، وَالرِّضَا بِمَا حَضَرَ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَذْبًا مَعَهُ ، فَلَا أَتَمَكَّنُ عِنْدَ جُلُوسِي لَهُ ، وَلَا أَتَكَبَّرُ كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرِّفَاهِيَةِ ، وَلَا أَنْبَسُطُ فِيهِ . فَالْمُرَادُ بِالْعَبْدِ هُنَا الْإِنْسَانُ الْمُتَذَلِّلُ الْمُتَوَاضِعُ لِرَبِّهِ .

(٣٠) رواه أبو يعلى في مسنده (٨ / ٣١٨) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٥٨٢) : ((إسناده حسن)) . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤١٧) : ((وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خَيْرُ بَيِّنٍ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا ، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا ، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا)) اهـ .

وأجلس) في حالة الأكل وغيرها (كما يجلس العبد) لا كما يجلس الملك ، فإن التخلق بأخلاق العبودية أشرف الأوصاف البشرية)) اهـ .
وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥٧].

النبي ﷺ لا يطلب أجراً على دعوته من الناس، فهو يُبلغ رسالة الله بلا مُقابل ماديّ ، ولا يُريد أموالاً كأجرة على دعوته وإنذاره وتبليغه. بل يفعل ذلك خالصاً لوجه الله تعالى. وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يطلب أجراً على دعوته ، لقال المشركون : إنه يُريد أموالنا فلا نتبعه ، وسوف يتهمونه بأن غرضه دنيوي ، ويتستّر بالدين . وعدم طلب النبي ﷺ لأموالهم يُشير إلى صدقه وإخلاصه ، وأنه لم يتخذ الدعوة وسيلة لاستغلال الناس، والاستحواذ على أموالهم، وتحقيق مصالح شخصية، وبسط نفوذه .
والاستثناء في الآية منقطع . تقديره : لكن مَنْ شاء أن يتقرب إلى الله بالإِنفاق من ماله فليفعل، ولا أمنعه من ذلك . والمعنى : لا أسألكم لنفسي أجراً ، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طاعة الله، واتخاذ السبيل إلى جنته .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ١٢١) : ((﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : قُلْ لهم يا محمد : ما أسألكم على القرآن من أجر ، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال . والاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ منقطع . أي : لكن مَنْ شاء أن يتخذ إلى ربّه سبيلاً فليفعل . وقيل: هو مُتّصل. والمعنى : إلا مَنْ شاء أن يتقرب إليه سبحانه بالطاعة ، وصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الحصول. وَلَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْكَفَّارَ مُتَظَاهِرُونَ على رسول الله ، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتّة ، أمره أن يتوكّل عليه في دفع المضار ، وجلب المنافع)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] .
نَزَلَ بِالْقُرْآنِ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عليه السلام . وهو أعظم الملائكة على الإطلاق، وأمينٌ على وَحْيِ اللَّهِ إلى أنبيائه. وسُمِّيَ جِبْرِيلُ رُوحًا لِأَنَّ الدِّينَ يَحْيَا بِهِ وَيُوحِيهِ. وكان جِبْرِيلُ عليه السلام _ يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي _ رضي الله عنه ، وهو صحابيٌّ جَمِيلُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الصُّورَةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٦٢) : ((وهو جبريل _ عليه السلام _ . قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهرى وابن جريج ، وهذا مما لا نزاع فيه ... وقال مجاهد : مَنْ كَلَّمَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشُّعَرَاءُ : ١٩٤] .
نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ ، وَتَلَاهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، حَتَّى وَعَاهُ بِقَلْبِهِ ، وَثَبَّتَ فِيهِ ، فَلَا يَنْسَاهُ أَبَدًا ، لِيَكُونَ رَسُولًا مِنْ رُسُلِ اللَّهِ ، يُنذِرُ قَوْمَهُ بِمَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ مِنَ التَّحذِيرَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ ، وَيُخَوِّفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٦٢) : ((﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أَي : لِتُنذِرَ بِهِ بَأْسَ اللَّهِ وَنِقْمَتَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ ، وَكَذَّبَهُ ، وَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ لَهُ)) .

وُحِصَّ الْقَلْبُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ سَيِّدُ الْأَعْضَاءِ ، وَمَكَانُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعَارِفِ .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٥٢) : ((﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ تقرير لِحَقِّيةِ تِلْكَ الْقَصَصِ ، وَتَنْبِيهِ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّ الْإِخْبَارَ عَنْهَا مِمَّنْ لَمْ يَتَعَلَّمْهَا لَا يَكُونُ إِلَّا وَحْيًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَالْقَلْبُ إِنْ أَرَادَ بِهِ الرُّوحُ فَذَاكَ ، وَإِنْ أَرَادَ الْعُضْوُ ، فَتَخْصِيصُهُ لِأَنَّ الْمَعَانِي الرُّوحَانِيَّةَ إِنَّمَا تَنْزِلُ أَوَّلًا عَلَى الرُّوحِ ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ مِنْهُ إِلَى الْقَلْبِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّعَلُّقِ ، ثُمَّ تَتَصَعَّدُ مِنْهُ إِلَى الدِّمَاغِ فَيَنْتَقِشُ بِهَا لَوْحَ الْمَتْخِيلَةِ ... ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ عَمَّا يُؤَدِّي إِلَى عَذَابٍ مِنْ فِعْلِ أَوْ تَرْكِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [الْقَصَصُ : ٤٤] ⁽³¹⁾ .

وَمَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ الْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ (وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي نَاجَى فِيهِ مُوسَى ﷺ رَبَّهُ) ، حِينَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى بِالنُّبُوءَةِ ، وَاخْتَارَهُ رَسُولًا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَمَا كُنْتَ شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الْحَاضِرِينَ .

(٣١) ((يقول تعالى مُنْبِّهًا عَلَى بُرْهَانِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، حَيْثُ أَخْبَرَ بِالْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ خَبِيرًا كَأَن سَامِعَهُ شَاهِدَ وَرَاءَ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْكُتُبِ ، نَشَأَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ)) . [تفسير ابن كثير (٣ / ٥١٩)] .

وهذا دليلٌ على صِدْقِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوتِهِ . فمحمَّدٌ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ طَالِبًا لِلْعِلْمِ . وَلَمْ يَكُنْ حَاضِرًا مَعَ مُوسَى ﷺ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ . فَكَيْفَ عِلِمٌ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَمَّ فِي الْمَاضِي الْبَعِيدِ ؟ . إِنَّهُ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ وَلَا شَيْءَ غَيْرِهِ . لَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِهَذَا الْأَمْرِ لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوتِهِ . وَالْأُمُورُ الْغَيْبِيَّةُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالْوَحْيِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٢٥٨) : ((« إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ » ، إِذْ كَلَّفْنَاهُ أَمْرَنَا وَنَهَيْنَا ، وَأَلْزَمْنَاهُ عَهْدَنَا . وَقِيلَ : أَيِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى أَمْرَكَ وَذَكَّرْنَاكَ بِخَيْرِ ذِكْرٍ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « إِذْ قَضَيْنَا » أَيِ : أَخْبَرْنَا أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَيْرُ الْأُمَمِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : « وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » [الْقَصَص : ٤٥] .

خلق الله أُمَّةً وَأَجْيَالًا بَعْدَ مُوسَى ﷺ ، فَطَالَتْ عَلَيْهِمُ الْمُدَّةُ ، حَتَّى نَسُوا شَرَائِعَ اللَّهِ وَأَوَامِرَهُ وَعَهْدَهُ ، فَتَغَيَّرَتِ الشَّرَائِعُ ، وَخُرِفَتِ الْأَخْبَارُ ، وَاخْتَفَتِ الْعُلُومُ وَالْمَعَارِفُ الدِّينِيَّةُ ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ . فَأَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِإِنْقَاذِ النَّاسِ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ قِصَّةَ مُوسَى ﷺ .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٢٥١) : ((« فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » طَالَتْ عَلَيْهِمُ الْمُهْلَةُ ، وَتَمَادَى عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَتَغَيَّرَتِ الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ ، وَتَنَوَّسَتِ الْأَدْيَانُ ، فَتَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ ، وَنَسُوا عَهْدَهُ)) اهـ .

وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى عَهِدَ إِلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ عَهْدًا فِي مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَكِنَّ طُولَ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ جَعَلَتْ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، فَتَنَسُوا الْعَهْدَ ، وَغَيَّرُوا الشَّرَائِعَ ، وَحَرَّفُوا وَبَدَّلُوا ، وَانْحَرَفُوا عَنِ الْمَنْهَجِ الْإِلَهِيِّ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٢٥٩) : ((وظاهر هذا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ جَرَى لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكْرٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيِّعَنَّهُ ، وَلَكِنْ طَالَتِ الْمُدَّةُ ، وَغَلَبَتِ الْقَسْوَةُ ، فَتَنَسَى الْقَوْمُ ذَلِكَ . وَقِيلَ : آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَأَخَذْنَا عَلَى قَوْمِهِ الْعَهْدَ ، ثُمَّ تَطَاوَلَ الْعَهْدُ فَكَفَرُوا ، فَأَرْسَلْنَا مُحَمَّدًا مُجَدِّدًا لِلدِّينِ ، وَدَاعِيًا الْخَلْقَ إِلَيْهِ)) اهـ .

وما كنتُ يا محمد مُقِيمًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ كَمَا أَقَامَ مُوسَى وَشُعَيْبٌ ، تُذَكِّرُهُم بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَلَكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَآتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا عَلِمْتَهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ . وَالْمَعْنَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَرِ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَسْمَعْ بِهَا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَاهَا إِلَيْهِ وَأَخْبَرَهُ بِهَا ، وَلَوْلَا الْوَحْيُ لَمَا عَلِمَهَا هُوَ وَلَا قَوْمُهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٢٥ / ٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا ﴾ أَي : خَلَقْنَا أُمَّمًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ أَي طَالَ إِمَهَالُهُمْ ، فَنَسُوا عَهْدَ اللَّهِ ، وَتَرَكُوا أَمْرَهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ عُهِدَ إِلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ عَهْدٌ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأُمِرُوا بِالْإِيمَانِ بِهِ ، فَلَمَّا طَالَ إِمَهَالُهُمْ ، أَعْرَضُوا عَنْ مُرَاعَاةِ الْعَهْدِ . ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا ﴾ أَي مُقِيمًا ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ فَتَعَلَّمَ خَبَرَ مُوسَى وَشُعَيْبٍ وَابْنَتَيْهِ ، فَتَتَلَوُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ . أَرْسَلْنَاكَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَخْبَرْنَاكَ خَبَرَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا عَلِمْتَهُ)) اهـ .

وَكَأَنَّ الْمَعْنَى الْعَامَ : إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَعْرِفُ مَا جَرَى لِمُوسَى ، وَلَكِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَحْدَاثَ هَذِهِ الْقِصَّةِ . إِذَنْ ، سَبَبُ الْوَحْيِ هُوَ طُولُ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ . فَتَمَّ الْإِكْتِفَاءُ بِالسَّبَبِ (طُولُ الْفَتْرَةِ الزَّمْنِيَّةِ) عَنْ الْمُسَبَّبِ (الْوَحْيِ) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الْقَصَصُ : ٤٦] .

وَمَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِجَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ وَقْتَ نَدَائِنَا لِمُوسَى أَنْ خُذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَلَكِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقِصَصَ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ ، لِتُخَوِّفَ أَهْلَ مَكَّةَ الَّذِينَ مَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ يُنْذِرُهُمْ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ، وَذَلِكَ فِي مُدَّةِ الْفَتْرَةِ (سِتْمِائَةِ سَنَةٍ) بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى لَعَلَّهُمْ يَتَّعِظُونَ . وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَأَخَذَ الدَّرُوسَ وَالْعِبْرَ ، وَالْجَاهِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ .

لَمْ تُشَاهِدْ يَا مُحَمَّدُ شَيْئًا مِنْ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَمْ تَعْرِفْ أَخْبَارَهُمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيْكَ ، وَعَرَّفَكَ بِقِصَصِهِمْ رَحْمَةً مِنْهُ بِكَ وَبِالْعِبَادِ ، لِتُنْذِرَ الْعَرَبَ بِأَسَنِ اللَّهِ الشَّدِيدِ بِسَبَبِ عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ وَشُرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ، لَعَلَّهُمْ يَتَّعِظُونَ بِإِنذَارِكَ ، فَيَتْرَكُونَ الْكُفْرَ ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩٥ / ١) : ((﴿ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لَوُقُوعُهُمْ فِي فِتْرَةِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ عِيسَى وَهِيَ خَمْسَمِائَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً ، أَوْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِسْمَاعِيلَ عَلَى أَنْ دَعَا مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، كَانَتْ مَخْتَصَةً بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا حَوَالِيَهُمْ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢٢٦ / ٦) : ((﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ أَيِ بِنَاحِيَةِ الْجَبَلِ الَّذِي كُلَّمَا عَلَيْهِ مُوسَى ، ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ مُوسَى وَكُلَّمُنَاهُ ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كَانَ هَذَا النَّدَاءُ ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أُعْطِيْتُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي ، وَأَسْتَجِيبُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ . قَالَ الرَّجَاجُ : الْمَعْنَى : لَمْ تُشَاهِدْ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَكِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَقَصَّصْنَاهَا عَلَيْكَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)) اهـ .

لقد ذَكَرَ اللهُ الرَّحْمَةَ التي هي سبب إرسال النبي ﷺ إلى الناس ، وهي تُشير إلى المُسَبَّب الذي هو الإرسال .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : ﴿ وما كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ . قال : ((نُودُوا يا أُمَّةَ محمد ، استجبتُ لكم قبل أن تدعوني ، وأُعْطَيْتُكُمْ قبل أن تسألوني)) (32).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [القصص : ٨٥] (33).

إِنَّ اللهَ الذي أنزلَ عليك القرآنَ يا محمد ، وفَرَضَ عليك تلاوته والعملَ به وتبليغه ، لَرَادُّكَ إلى مكة منصورًا مُظْفَرًا ، وهذا وعدٌ إلهيٌّ بفتح مكة . وكان ﷺ قد اشتاق إليها ، أو لَرَادُّكَ إلى يوم القيامة ، فيسألك عن القرآن وماذا عملتَ به .

والمَعَادُ هو يوم القيامة ، حيث العودة لكي يُحاسب المرء على أفعاله ، ويحصل الفردُ على نتيجة الامتحان الدُّنيويِّ ، ويقف على مستواه الدقيق ، إمَّا فائزًا أو خاسرًا . وفي هذا اليوم العظيم تظهر الإنجازات البشرية والإخفاقات على حدٍّ سواء .

والدنيا ليست هي نهاية المطاف ومنتهى الأحلام ، فما بَعْدَهَا أجمل منها أو أسوأ منها . فالموتُ هو البداية الحقيقية للحياة ، بل إن الموت هو الحياة بعينها ، وإذا لم ينتبه المرء إلى هذه المبدأ السامي ، فإن الأوهام ستجرفه . وهنا يظهر الفرق بين الفناء (الدنيا) والبقاء (الآخرة) . ولَوْ كانت الدنيا ذَهَبًا ، والآخرة حديدًا ، لاختارَ العُقلاء الحديدَ الباقي على الذهب الفاني .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٦٨) : ((أي إِنَّ الذي أوجبَ عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ، ومُعِيدكَ يوم القيامة ، وسألك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو مُتَّجِه حَسَن)) (34).

(٣٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٤٣) برقم (٣٥٣٥) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

(٣٣) قال ابن الجوزي في زاد المسیر (٦ / ٢٤٩) : ((قال مقاتل : خرج رسولُ الله ﷺ مِنَ الغار ليلاً ، فمضى مِنْ وَجْهِهِ إلى المدينة ، فسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلمَّا أَمِنَ رجعَ إلى الطريق ، فنزل الجُحْفَةَ بين مكة والمدينة ، فعرف الطريقَ إلى مكة ، فاشتاق إليها ، وذكَّرَ مَوْلِدَهُ ، فأناه جبريلُ فقال : أتشتاق إلى بلدك ومَوْلِدِكَ ؟ قال : "نعم" ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ . فنزلت هذه الآية بالجحفة)) اهـ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢٦٨ / ٤) : ((يُقال : بَيْنِكَ الْمَعَاد : أي يوم القيامة ، لأن الناس يَعُودُونَ فيه أَحْيَاء)) اهـ .

وتتجلى القدرة الإلهية غير المحدودة يوم الْمَعَاد ، حيث يعود الناس أَحْيَاء بعد أن جمع الله تعالى عظامهم ، وأخرجهم من قبورهم ، وأحضرهم جميعًا بلا استثناء ، دون وجود أية فرصة للهرب أو الغياب أو الاختباء .

وفي صحيح مسلم (٢٠٨٧ / ٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يدعو : ((وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها مَعَادِي)) .

وهذا المعنى العظيم يشير إلى أهمية الدار الآخرة باعتبارها الباقية ، حيث يعود الإنسان إليها ليستقر فيها إلى الأبد . فيجيء الدعاء النبويُّ لِئِنَّهُ على أهمية إصلاحها بالطاعات في الدنيا ، لكي يكون الْمَعَادُ راحةً أبدية لا شقاءً دائماً .

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤْلَاءِ الْمَشْرِكِينَ : رَبِّي أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِي (الْمُحِقِّ) وَالضَّالِّ (الْمُبْطِلِ) ، أنا أم أنتم . وهذا جواب لكفار مكة حين قالوا للنبي ﷺ : إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . والنبي ﷺ هو الذي جاء بالهدى ، فهو يدعو إلى توحيد الله ومكارم الأخلاق . والمشركون في ضلال واضح ، لأنهم يعبدون الأصنام ، ويغرقون في الصفات السيئة . والمعنى : الله عَالِمٌ بالفريقَيْن ، وَسَيُجَازِي كُلَّ فَرِيقٍ بما يستحقه من خير أو شر . وقال النَّسَفِيُّ في تفسيره (٢٤٩ / ٣) : ((وَلَمَّا وَعَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرَّدَّ إِلَى مِيعَادِهِ ، قَالَ : قُلْ لِلْمَشْرِكِينَ : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ يعني نَفْسَهُ ، وما له من الثواب في مِيعَادِهِ ، ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يعني المشركين ، وما يستحقونه من العذاب في مَعَادِهِمْ)) اهـ .

(٣٤) قال الشوكاني في فتح القدير (٢٦٨ / ٤) : ((قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزُّهري والحسن : إن المعنى : لراك إلى يوم القيامة ، وهو اختيار الرَّجَّاح)) اهـ = وفي صحيح البخاري (١٧٩٠ / ٤) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ ، قال : ((إلى مكة)) . اهـ . وفي رواية أن ابن عباس قال : ((إلى الموت)) [ذكرها الحافظ في الفتح (٥١٠ / ٨) ، وقال : ((أخرجها ابن أبي حاتم ، وإسناده لا بأس به))] . وروى أبو يعلى في مُسنده (٣٧٠ / ٢) أن أبا سعيد الخُدْرِيَّ قال في تفسير الآية : ((مَعَادُهُ آخِرَتُهُ)) . وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٢ / ٧) : ((رجاله ثقات)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١) : ((وفي معنى : ﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها فرض عليك العمل بالقرآن ، قاله عطاء بن أبي رباح وابن قُتيبة . والثاني : أعطاك القرآن ، قاله مجاهد . والثالث : أنزل عليك القرآن ، قاله مقاتل والفراء وأبو عبيدة . وفي قوله : ﴿ لَرَأَدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أربعة أقوال : أحدها إلى مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية والضحاك . قال ابن قُتيبة : مَعَادُ الرَّجُلِ بَلَدُهُ ، لأنه يتصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إلى بلده . والثاني : إلى معادك من الجنة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن والزُّهري . فإن اغترض على هذا ، فقل : الرَّدُّ يقتضي أنه قد كان فيما رُدَّ إليه ، فعنه ثلاثة أجوبة : أحدها أنه لما كان أبوه آدم في الجنة ثم أُخرج ، كان كائنًا ولده أُخرج منها ، فإذا دخلها فكأنه أُعيد . والثاني أنه دخلها ليلة المعراج ، فإذا دخلها يوم القيامة كان رَدًّا إليها ، ذكرهما ابن جرير . والثالث أن العرب تقول : رَجَعَ الأمرُ إلى كذا ، وإن لم يكن له كَوْنٌ فيه قط ... والثالث لَرَأَدُكَ إلى الموت ، رواه سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس ، وبه قال أبو سعيد الخدري . والرابع : لرادك إلى القيامة بالبعث ، قاله الحسن والزُّهري ومجاهد في رواية والزجاج . ثم ابتدأ كلامًا يَرُدُّ به على الكفار حين نسبوا النبي ﷺ إلى الضلال ، فقال : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ والمعنى : قد علمَ أني جئتُ بالهدى ، وأنكم في ضلال مُبين)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [القَصَص : ٨٦] .

ما كانَ محمد يَرجو أن يَنزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، ولم يَكُنْ يَطْمَعُ بِالنُّبُوَّةِ ، ولم يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سَيَخْتاره ، ويُرسِلُه إلى الإنس والجن كُلِّهِمْ . لكنَّ اللَّهَ رَحِمَهُ فَاخْتاره لِلنُّبُوَّةِ وَأَنزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيَ ، وَرَحِمَ الْخَلْقَ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَعْظَمَ رُسُلِهِ . فلا تُكُنْ يا محمد نصيرًا للكافرين ومُسَاعِدًا لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، بَلْ خَالَفَهُمْ وَوَاظَمَهُمْ ، ولا تُجَامِلُهُمْ ، ولا تَسْتَجِبْ لِباطِلِهِمْ .

وقد ذَكَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِنِعْمَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي لَا تُكْتَسَبُ بِالذِّكَاءِ وَقُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَهَارَاتِ الذَّاتِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، وَتَكْلِيفٌ وَتَشْرِيفٌ فِي آتٍ مَعًا . والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الاستثناءَ مُنْقَطِعٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، والمعنى : لكنَّ رَبَّكَ رَحِمَكَ فَأَنزَلَ عَلَيْكَ الْوَحْيَ ، وجعلكَ رَسُولًا .

وفي صفوة التفاسير (١١ / ٥١) : ((قال المفسرون : دعا المشركون الرسول إلى دين آبائه ، فأمر بالتحرز منهم ، وأن يصدع بالحق ، والخطاب بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أمته ، لئلا يظاهروا الكفار ، ولا يوافقوهم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ [القصص : ٨٧] .

لا تلتفت يا محمد للمشركين ، ولا تبعأ بأقوالهم واتهاماتهم وأكاذيبهم ، ولا تتأثر بعنادهم وكفرهم وسخريتهم ، فإن الله ناصرٌ ومؤيدٌ . امض لشأنك ، وادع إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو وحده المستحق للألوهية والرئوبية ، ولا تخضع لأهواء المشركين وضلالهم ، ولا تُساعدهم ، فتصبح منهم . والخطاب للنبي ﷺ ، والمقصود غيره ، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون مشركاً ، لأنه معصوم .

والجدير بالذكر أن العصمة لا تمنع التَّهْيِي ، فالنبي ﷺ معصوم ، ومع هذا خاطبه الله بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢٢٨) : ((قال ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ ، والمراد به أهل دينه ، أي : لا تظاهروا الكفار ، ولا توافقوهم)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] .

لا تعبد يا محمد إلهاً إلا الله ، لا معبود بحق إلا هو ، سبحانه وتعالى ، ولا معبود تصلح له العبادة إلا الله . والآية نفى لكل معبود سوى الله ، وإثبات لعبادته وحده . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٣٣) : ((أي : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٠٦) : ((﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هذا وما قبله للتهيج ، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم)) اهـ .

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا اللَّهُ . وقد عبّر عن ذاته المقدسة بالوجه . والمعنى : كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَيَزُولُ إِلَّا ذات الله تعالى . وقد وصَفَ الله ذاته المقدسة بالبقاء والدوام .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٣٣) : ((إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ، ولا يموت)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢٢٨) عن الآية ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ : ((أي : إلّا هُوَ . وقيل : إلّا مُلْكُهُ . قال أبو العالية : إلّا ما أُريد به وَجْهَهُ)) اهـ .

لَهُ وَحْدَهُ الْمُلْكُ وَالْحُكْمُ بَيْنَ خَلْقِهِ ، لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ . وَاللَّهُ هُوَ الْحَكَمُ الْحَاكِمُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نِدَ . لَهُ سُبْحَانَهُ الْقَضَاءُ النَافِذُ ، يَقْضِي بِمَا شَاءَ ، وَيَحْكُمُ بِمَا أَرَادَ . يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ فِي الْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهِ . وَإِلَيْهِ يَعُودُ الْخَلْقُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ، فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ ، وَيُجَازِي الْمُؤْمِنَ بِالْجَنَّةِ ، وَيُعَاقِبُ الْكَافِرَ بِالنَّارِ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ ، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ)) (35) .

المقصودُ بالباطلِ هو الفاني الزائل . والمعنى : كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَيَزُولُ إِلَّا اللَّهَ . وَكُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ . فَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ . وَهَذِهِ أَعْظَمُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ وَأَصْدَقُهَا ، لِأَنَّهَا مُوَافِقَةٌ لِلثَّقَلِ وَالْعَقْلِ مَعًا . وَالْمَقْصُودُ بِالْكَلِمَةِ فِي هَذَا السِّيَاقِ بَيِّتُ الشَّعْرِ . وَتَمَامُ الْبَيْتِ : وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ .

والحديثُ منقبةٌ للصحابيّ الجليل لبّيد بن أبي ربيعة _ رضي الله عنه _ (36) ، وهو الشاعرُ الوحيدُ الذي أسلمَ مِنْ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ . وَ " شَيْءٌ " اسْمٌ لِلْمَوْجُودِ ، وَلَا يُقَالُ لِلْمَعْدُومِ شَيْءٌ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٥٢٩) : ((وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ أَصْدَقُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ نَازِمٌ أَوْ نَائِرٌ ، مُقَدِّمَتُهَا كَلِمَةٌ مَقْطُوعٌ بِصَحَّتِهَا وَشُمُولِهَا ، عَقْلًا وَنَقْلًا ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ كُلِّبَتِهَا شَيْءٌ قَطْعًا إِلَّا مَا مَرَّ اسْتِثْنَاؤُهُ ، وَهُوَ اللَّهُ وَصِفَاتُهُ وَعِقَابُهُ وَثَوَابُهُ . وَفِيهِ جَوَازُ الشَّعْرِ وَإِنْشَادُهُ ، مَا لَمْ يَحِلْ بِأَمْرِ دِينِيٍّ ، أَوْ يُزِيلَ الْوَقَارَ ، أَوْ يَحْصُلَ مِنْهُ إِطْرَاءٌ أَوْ إِكْثَارٌ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنْ تَكْذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت : ١٨] .

(٣٥) متفق عليه . البخاري (٣ / ١٣٩٥) برقم (٣٦٢٨) ، ومسلم (٤ / ١٧٦٨) برقم (٢٢٥٦) .
(٣٦) في تحفة الأحوذِي (٨ / ١١٥) : ((هو ابن ربيعة الشاعر العامري . قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ قَوْمَهُ بَنُو جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ ، وَكَانَ شَرِيفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . نَزَلَ الْكُوفَةَ ، وَمَاتَ بِهَا سَنَةً إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ ، وَلَهُ مِنَ الْعُمَرِ مِائَةٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً . وَقِيلَ : مِائَةٌ وَسَبْعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً . ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْمِشْكَاتِ . وَمِنْ جُمْلَةِ فَضَائِلِهِ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ لَمْ يَقُلْ شَيْعَرًا ، وَقَالَ : يَكْفِينِي الْقُرْآنُ)) .

هذه الآية تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيد . وإنْ تُكذَّبوا أيها الناس محمدًا ﷺ ، فقد كَذَّبْتُمْ أُمَّمَ وَأَقْوَامَ قَبْلَكُمْ . كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَحَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ ، ونزلت بهم العقوبة الشديدة ، فاحذروا أن تكونوا مِثْلَهُمْ ، وتسيروا في طريقهم ، فَتَهْلِكُوا . وما على محمد ﷺ إلا البلاغ الواضح المفهوم ، الذي لا غُمُوضَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ . يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٤٠) : ((يعني إنما على الرسول أن يُبَلِّغَكُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ ، وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَاحْرَصُوا لَأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّعْدَاءِ)) .

والتكذيبُ عادةُ الكفارِ، وليس على الرسول إلا التبليغ. وليس عليه هدايتهم ، وليس ذلك في استطاعته . فالهادي هو الله تعالى . والأقوامُ الكافرةُ ضَرُّوا أَنْفُسَهُمْ ، لأنهم جلبوا العذابَ والشقاءَ لأنفسهم ، وقادوها إلى الهلاك الأبديِّ، وَلَمْ يَضُرُّوا رُسُلَهُمْ . وَاللَّهُ يُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، بسبب انزعاجه الشديد وشعوره بالضيق بسبب كفر أهل مكة وعنادهم وشخريتهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ١٢٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَإِنْ تُكَذَّبُوا أَيُّهَا النَّاسُ رَسُولُنَا مُحَمَّدًا ﷺ فِيمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ، وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الْأَوْثَانِ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ جَمَاعَاتٍ مِنْ قَبْلِكُمْ رُسُلَهَا فِيمَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ مِنَ الْحَقِّ ، فَحَلَّ بِهَا مِنَ اللَّهِ سَخَطُهُ ، وَنَزَلَ بِهَا مِنْهُ عَاجِلُ عِقَابِهِ ، فَسَبِيلُكُمْ سَبِيلُهَا فِيمَا هُوَ نَازِلٌ بِكُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ إِيَّاهُ .)) وما على الرسول إلا البلاغُ المُبِينُ . يقول : وما على محمد إلا أن يُبَلِّغَكُمْ عَنْ اللَّهِ رِسَالَتَهُ ، وَيُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ مَا أَمَرَ بِهِ بِأَدَائِهِ إِلَيْكُمْ رُتْبَهُ . ويعني بالبلاغ المُبِينُ : الذي يبين لِمَنْ سَمِعَهُ مَا يُرَادُ بِهِ ، وَيَفْهَمُهُ بِمَا يُعْنَى بِهِ)) . وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [الرُّومُ : ٥٢] .

لقد بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ رِسَالَةَ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ بِأَسْلُوبٍ طَيِّبٍ وَجَمِيلٍ وَوَاضِحٍ ، يَتَوَافَقُ مَعَ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ مَعًا ، وَقَدَّمَ الْأَدْلَةَ وَالْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ . لَكِنَّ الْمَشْرِكِينَ الْغَارِقِينَ فِي تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ، لَا يَسْمَعُونَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَوْثُورَ وَلَا يَفْهَمُونَهُ ، مَعَ أَنَّ حَوَاسَّهُمْ سَلِيمَةٌ ، وَأَعْضَاءُهُمْ صَحِيحَةٌ . وَذَلِكَ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُلَوَّثَةٌ ، وَعَقُولُهُمْ مَيْتَةٌ ، وَبَصَائِرُهُمْ عَمِيَاءٌ . وَلَا يَقْدِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُسْمِعَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ . وَالْآيَةُ تَرُدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ (نَفَاةُ الْقَدَرِ) .

وهذا مِثْلُ ضَرَرِهِ لِلَّهِ لِلْكَافِرِينَ ، فَشَبَّهَهُمُ بِالْمَوْتَى ، وَالصُّمَّ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ، مَعَ أَنَّ حَوَاسَّهُمْ سَلِيمَةٌ . لَيْسَ هَذَا فَحْشَبٌ ، بَلْ هُمْ صُمٌّ مُعْرِضُونَ ، لَا فَائِدَةَ مِنْهُمْ . وَالصُّمُّ لَا يَسْمَعُونَ

في الوضع العاديّ ، فكيفَ إذا وَلَّوْا مُعْرِضِينَ ؟! . وهذا للتأكيد والمبالغة ، وتَوْضِيحُ إِعْرَاضِهِمْ ، وَقَسْوَةُ قُلُوبِهِمْ ، وعنادهم الشديد .

والشخصُ الأصمُّ إذا كان مُقْبِلًا قَدْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ ، وَيَفْهَمُ الْمُرَادَ بِالْحَرَكَاتِ وَالْإِشَارَاتِ . أَمَّا إِذَا كَانَ مُدْبِرًا ، فَلَا يُمْكِنُ إِسْمَاعُهُ وَلَا إِرْشَادُهُ وَلَا التَّفَاهُمُ مَعَهُ وَلَا التَّعَامُلُ مَعَهُ . وهذا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ مَخْتومَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِمْ ، وَلَا أَمَلٌ فِي إِسْمَاعِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ .

وعَدَمُ السَّمْعِ صِفَةُ سَيِّئَةٍ ، وَالْإِعْرَاضُ صِفَةُ سَيِّئَةٍ . فكيفَ إِذَا جُمِعَتِ الصِّفَتَانِ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ ؟! . إنها المصيبةُ التي ما بعدها مصيبةٌ . وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ الْكَافِرِينَ قَدْ جَمَعُوا الصِّفَتَيْنِ مَعًا ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ . وهذا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ وَصَلُوا إِلَى أَسْوَأِ مَرَحَلَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَا فَائِدَةَ مِنْهُمْ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٧٦) : ((وقيل : الأصمُّ إِذَا كَانَ حَاضِرًا فَقَدْ يَسْمَعُ بَرَفِ الصَّوْتِ ، وَيَفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ ، فَإِذَا وَلَّى لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَفْهَمْ . قال قتادة : الأصمُّ إِذَا وَلَّى مُدْبِرًا ثُمَّ نَادَيْتَهُ لَمْ يَسْمَعْ ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا يَسْمَعُ مَا يُدْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ . ومعنى الآية أَنَّهُمْ لِفَرَطِ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ كَالْمَيِّتِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى إِسْمَاعِهِ ، وَالْأَصَمُّ الَّذِي لَا يَسْمَعُ)) اهـ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٣٢٩) : ((شَبَّهَهُمُ بِالْمَوْتِ وَبِالصُّمِّ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ إِذَا دَعَوْتَهُمْ ، فَكَذَا هَؤُلَاءِ لِعَدَمِ فَهْمِهِمْ لِلْحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتِهِمْ لِلصَّوَابِ . ﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ إِذَا دَعَوْتَهُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَوَعظتهم بمواعظ الله ، وَذَكَّرْتَهُمُ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ بَيَانٌ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ بَيَانِ كَوْنِهِمْ كَالْأَمْوَاتِ وَكَوْنِهِمْ صُمُّ الْآذَانِ)) .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ الْمَقْصُودُ بِهِ سَمَاعُ التَّدْبِيرِ وَالْإِعْظَامِ . فَالْمَوْتَى قَدْ ثَبَتَ سَمَاعُهُمْ بِالْأَدْلَةِ الصَّحِيحَةِ . فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ عَلَى الْقَلْبِ ، وَفِيهِ قَتْلَى بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : ((إِنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ)) . وَقَالَ : ((إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ حَقٌّ)) (37) .

وَالْقَلْبُ حُفْرَةٌ رُمِيَتْ فِيهَا جِيْفُ الْمُشْرِكِينَ . وَالْحَدِيثُ يُثَبِّتُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الْمَوْتَى يَسْمَعُونَ مَا يَقُولُهُ النَّبِيُّ ﷺ ، لَكِنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَ .

(٣٧) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٤٦٢) برقم (٣٧٥٩) ، ومسلم (٢ / ٦٤٣) برقم (٩٣٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: اطلع النبي ﷺ على أهل القلب. فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ((فقل له: تدعو أمواتاً؟. فقال: ((وما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيئون)) (38). والمقصود بالوعد الإلهي تعذيبهم على كفرهم. والحديث يثبت سماع الأموات، وعجزهم عن الإجابة.

وقال الحافظ في الفتح (٣ / ٢٣٤) عن السهيلي : ((قال : وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحال عالمين ، جاز أن يكونوا سامعين ، إما بآذان رؤوسهم كما هو قول الجمهور ، أو بآذان الروح ، على رأي من يوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد)) اهـ . وقال النبي ﷺ: ((إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم)) (39).

وهذا دليل واضح على سماع الموتى .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَزْوَاجَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

[الأحزاب : ٤٨] .

لا تطعمهم فيما يطلبونه من المداينة في الدين والملاينة ، والمسامحة في الإنذار ، ولا تستجب لهم فيما يخالف الشريعة. والمقصود تقوية النبي ﷺ في مواجهتهم ، وتثبيته على موقفه . والمعنى : داوم يا محمد على دعوتك ، واثبت على الوحي ، وبلغه كاملاً غير منقوص ، ولا تتراجع . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٧٩) : ((تهيج له على ما هو عليه من مخالفتهم)) اهـ . لقد نهاه الله عن طاعة أعداء الدين والخضوع لأهوائهم. والخطاب للنبي ﷺ ، والمقصود أمته ، فالنبي ﷺ معصوم عن الاستجابة لرغبات الكافرين السيئة، وأفكارهم المنحرفة، وعقائدهم الباطلة (40).

(٣٨) متفق عليه. واللفظ للبخاري (١ / ٤٦٢) برقم (١٣٠٤) ، ومسلم (٤ / ٢٢٠٣) برقم (٢٨٧٤) .

(٣٩) متفق عليه . البخاري (١ / ٤٦٢) برقم (١٣٠٨) ، ومسلم (٤ / ٢٢٠٠) برقم (٢٨٧٠) .

(٤٠) قال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٧٩) : ((﴿الكافرين﴾ أبي سفيان وعكرمة وأبي الأعور السلمي، قالوا: يا محمد، لا تذكر آلهتنا بسوء تتبعك. ﴿المنافقين﴾ عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق ، حثوا النبي ﷺ على إجابتهم بتعلة المصلحة)) اهـ . والتعلة : ما يُتعلَّل به .

وأَعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ لَكَ ، واصبر عليه ، ولا تعبأ به ، ولا تهتم له ، ولا تُبَالِ بِأَذْيَتِهِمْ لَكَ بسبب دَعْوَتِكَ وَإِنْ ذَاكَ . أو : لا تُؤْذِ الْمُشْرِكِينَ مُجَازَاةً لَهُمْ عَلَى إِيْذَانِكَ ، واصفح عنهم ولا تُعَاقِبِهِمْ . واعتمد على الله في كُلِّ شَأْنٍ وَأَحْوَالِكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ مَا أَهَمَّكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، وَأَنَّهُ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ أُمُورَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَحَمَاهُ مِنْ كُلِّ الشَّرِّ وَالْأَخْطَارِ . وَكَفَى بِاللَّهِ مُفَوَّضًا إِلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ . وَالْوَكِيلُ الْحَافِظُ الْقَائِمُ عَلَى الْأَمْرِ . وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٤١٠) : ((وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)) تَوَكَّلْ إِلَيْهِ الْأُمُورَ ، وَتَفَوَّضْ إِلَيْهِ الشُّؤُونَ . فَمَنْ فَوَّضَ إِلَيْهِ أُمُورَهُ كَفَاهُ ، وَمَنْ وَكَّلَ إِلَيْهِ أَحْوَالَهُ لَمْ يَحْتَجْ فِيهَا إِلَى سِوَاهُ)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٠٧) : ((وَقَوْلُهُ :)) « وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » يَقُولُ : وَلَا تُطْعِ لِقَوْلِ كَافِرٍ وَلَا مُنَافِقٍ ، فَتَسْمَعْ مِنْهُ دُعَاءَهُ إِيَّاكَ إِلَى التَّقْصِيرِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ اللَّهِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَكَ بِهَا إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ . « وَدَعَّ أَذَاهُمْ » يَقُولُ : وَأَعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ لَكَ ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَمْنَعُكَ ذَلِكَ عَنْ الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ ... وَقَوْلُهُ : « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » يَقُولُ : وَفَوَّضْ إِلَى اللَّهِ أُمُورَكَ ، وَثِقْ بِهِ ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ جَمِيعَ مَنْ دُونِهِ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ . « وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » يَقُولُ : وَحَسْبُكَ بِاللَّهِ قِيَمًا بِأُمُورِكَ ، وَحَافِظًا لَكَ)) .

وقال الله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » [سبأ : ٤٦] . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ مُجْنُونٌ : إِنَّمَا أَذْكَرُكُمْ وَأُخَوِّفُكُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ إِنْ اخْتَرْتُمُ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَأُوصِيَكُمْ وَأَعْظَمُكُمْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَفِي هَذَا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

وهذه الكلمة العظيمة تشتمل على كل معاني الإسلام . حيث تنفي الشُّرْكَ ، وَتُثَبِّتُ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهَ . وَكُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ .

أَوْ : أُوصِيَكُمْ بِخَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ أَنْ تَقُومُوا لِأَجْلِ اللَّهِ وَطَلِبِ الْحَقِّ بِدُونِ عَصِيَّةٍ وَلَا عِنَادٍ : اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَوَاحِدًا وَاحِدًا . وَالْمَعْنَى : يَقُومُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ ، وَتَبَاحُثَانِ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، هَلْ صَدَرَ مِنْهُ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى الْجُنُونِ ؟ ، وَيَنْصَحُ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ . ثُمَّ يَنْفَرُ كُلُّ رَجُلٍ ، وَتَتَفَكَّرُونَ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَتَأَمَّلُونَ فِي حَالِهِ ، وَتَسْأَلُونَ عَنْهُ النَّاسَ لَتَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ . هَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذِبًا ؟ . هَلْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ إِشَارَاتٌ تَدُلُّ عَلَى الْجُنُونِ أَوْ السَّحَرِ أَوْ الْكِهَانَةِ ؟ . هَلْ طَمِعَ فِي أَمْوَالِكُمْ

وأراد استغلالكم ؟. لقد عرفوا أنَّ محمدًا ﷺ أرجحهم عقلاً ، وأحسنهم خلقاً ، وأعظمهم خُلُقاً ، فوجب عليهم أن يُصدِّقوه ، فقد قامت عليهم الحُجَّةُ ، وانقطعت أعدائهم .
والمقصود بالقيام هو القيام لطلب الحق بكل إخلاص وصدق ، وليس القيام الذي هو ضد الجلوس . كما يُقال : قام فلان بأمر كذا .

وقال التَّسْفِي في تفسيره (٣ / ٣٣١ و ٣٣٢) : ((وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وتفرُّقهم عن مجتمعهم عنده ، أو قيام القصد إلى الشيء دون النهوض ... أمَّا الاثنان فيتفكران ويعرض كُلُّ واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف ، حتى يؤدِّيَهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفَة ، ويعرض فكره على عقله . ومعنى تفرُّقهم مثنى وفردى أنَّ الاجتماع ممَّا يُشَوِّش الخواطرَ ، ويعمي البصائر ، ويمنع من الرؤية ، ويقلل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يُسمع إلا نصرة المذهب)) اهـ .

﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ تدل على أهمية لقاء الشخصين ، لِما في ذلك من تبادل الخبرات ووجهات النظر . فعقل الاثنين أقوى حُجَّةً من عقل الواحد . وأيضاً تدل الآية على أهمية الانفراد والغزلة من أجل التفكير بهدوء ، لأنَّ الازدحام يُشَوِّش الأفكار ، ويخلط الأقوال ، ويثير العصبية .

فالقيامُ اثنين اثنين يُشير إلى الحوار والمناظرة وتبادل الأفكار والآراء ، وفُرَادَى يدل إلى النظر والتأمل والتفكير والتركيز . والنظرُ المبنيُّ على طلب الحق بدون أهواء ولا عصبية ولا عناد ، يُوصِل إلى الحق واليقين .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٧٢) : ((وقيل : إنما قال : ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ لأنَّ الدَّهْنَ حُجَّةُ الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله ، فإذا كانوا فُرَادَى كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا مَثْنَى تقابل الدَّهْنان فتراءى مِنَ الْعِلْمِ لهما ما أضعف على الانفراد ، والله أعلم)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٠٥) : ((﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ جميعاً ، أي : تجتمعون فتتفكرون ، وتتحدون ، وتفكرون في حال محمد ﷺ فتعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ جنون)) .
ليس محمد مجنوناً ، وهم يعرفون هذه الحقيقة ، ويُدركون أنه أرجحهم عقلاً ، وهو الصادق الأمين . فلا يُعَقَّل أن يترك الكذب على الناس ، ثُمَّ يكذب على الله تعالى . وَلَوْ كَانَ محمد كاذباً

لَفَضَحَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، وانكشف أمره أمام الناس . فالإنسان _ مهما كان ذكياً _ لا يستطيع أن يخدع كُلَّ الناسِ . قد تنطلي ألاعبيه وأكاذيبه على البعض ، ولكنها لن تنطلي على كُلِّ الناسِ . ومحمد ﷺ ليس في تاريخه نقطة سوداء، حتى يُطعن فيه ، أو تُحيط به الشكوك والشبهات. والتفكير بهذه الطريقة يُؤدِّي إلى الإيمان بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، والتَّصديق بما جاء به .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٥) : ((ما بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ)) فتعلموا ما به من جنون يحمله على ذلك . أو استئناف مُنبِّه لهم على أنَّ ما عرفوا من رِجاجة عقله كافٍ في ترجيح صدقه ، فإنه لا يدَّعه أن يتصدى لادِّعاء أمر خطير وخطب عظيم من غير تحقيق ووُثوق ببرهان ، فيُفتَضَح على رؤوس الأَشهاد، ويُلقي نَفْسَهُ إلى الهلاك، فكيف وقد انضمَّ إليه مُعْجِزات كثيرة ؟!!

وما محمد ﷺ إلا نذير ، يُخَوِّف المشركين من عذاب النارِ إن استمروا على كُفْرهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٦٤ و ٤٦٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ)) أي : آمُرُكُمْ وَأُوصِيكُمْ « بِوَاحِدَةٍ » ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها أنها لا إله إلا الله ، رواه ليث عن مجاهد . والثاني طاعة الله ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . والثالث أنها قَوْلُهُ : « أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْيَانٍ » ، والمعنى إنَّ التي أعْطَكم بها قيامكم وتشميركم لطلب الحق ، وليس بالقيام على الأقدام . والمراد بقوله : « مِثْلَ » أي يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ . والمراد بـ « فُرَادَى » أن يتفكر الرَّجُل وَخْدَهُ . ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وَخْدَهُ ، وَلِيُخَلِّ بغيره ، وَلِيُنَظَرَ ، وَلِيُسْتَشَرَ ، فيستدل بالمصنوعات على صانعها ، وَيُصَدِّقَ الرِّسُولَ على أتباعه . وَلِيُقِلَّ الرَّجُلُ لِمَا فِي يَدَيْهِ : هَلُمَّ فَلْتَصَادِقْ: هل رأينا بهذا الرَّجُل جَنَّةً قَطُّ أو جَرَّبْنَا عليه كَذِبًا قَطُّ ؟ . وَتَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ : « ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ » وفيه اختصار ، تقديره : ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا لِتَعْلَمُوا صِحَّةَ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَأَنَّ الرِّسُولَ لَيْسَ بِمُجْنُونٍ . « إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » في الآخرة)) اهـ .

وفي الحديث: ... خرج رسولُ الله ﷺ ، حتى صَعَدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: ((يَا صَبَاحَاه)) . فقالوا: مَنْ هذا ؟، فاجتمعوا إِلَيْهِ، فقال: ((أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي ؟)) . قالوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قال : ((فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)) (41) .

(٤١) (متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤ / ١٩٠٢) برقم (٤٦٨٧)، ومسلم (١ / ١٩٣) برقم (٢٠٨) .

والعبارة " يا صباحاه " تُقال عند هجوم العدو ، لأنَّ الغالب أنَّ العدو يُهاجم في الصباح على حين غرّة وفي حال الأمن والراحة ، كي يتحقق عنصر المفاجأة القاتل . وهذه العبارة تُقال لتحذير الناس واستنفارهم من أجل أن يستعدوا لمواجهة العدو .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ١٤٢) : ((قَوْلُهُ : " يا صباحاه " كلمة تُقال عند هجوم العدو . وخصَّ هذا الوقت لأنه كان الأغلب لوقت الغارة ، فكأنَّ المعنى : جاء وقت القتال فتأهبوا)) . وعن بُريدة قال : خَرَجَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا ، فنادى ثلاث مرات ، فقال : ((يا أيُّها الناس ، تَدْرُونَ مَا مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ ؟)) ، قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال : ((إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ مِثْلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ ، فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَايَا لَهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، أَبْصَرَ الْعَدُوَّ ، فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ)) (٤٢).

الحديثان يُشيران إلى إخلاص النبي ﷺ، وحرصه الشديد على إيمان قومه ، وإنقاذهم من الهلاك. والنبي ﷺ لا يبحث عن مصلحة شخصية ، وإنما يُبلغ الدعوة لانتشال الناس من مستنقع الضلال.

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبا : ٤٧] .

قُلْ يا محمد للمشركين الذين يُكذِّبونك ويَطْعنون في صِحَّة نُبُوتك : الأجر الذي طَلَبْتُهُ مِنْكُمْ مُقَابِلَ تَبْلِيغِي لِلدَّعْوَةِ فَهُوَ لَكُمْ ، خُذُوهُ ، لا حاجة لي به . وهذا تَوْبِيخٌ لَهُمْ ، وإقامة لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَطْلُبْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ . والمراد نَفْيُ السُّؤَالِ رَأْسًا . وقال أبو السُّعُود في تَفْسِيرِهِ (٧ / ١٣٩) : ((كَقَوْلِ مَنْ قَالَ لِمَنْ لَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا : إِنَّ أُعْطِيتَنِي شَيْئًا فَخُذْهُ)) اهـ .

والمعنى : لَمْ أَطْلُبْ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ ، فَتَشْكُؤْا بِي ، وَتَتَّهَمُونِي بِأَنْ هَدَفِي مِنْ وَرَاءِ الدَّعْوَةِ الْمَالِ وَالْأَرْبَاحِ . وهذا دليلٌ واضحٌ على صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ، فهو لَمْ يُحَوِّلْ دَعْوَتَهُ إِلَى مَشْرُوعٍ تِجَارِيٍّ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَرَضٌ دُنْيَوِيٌّ ، وَلَا أَطْمَاعٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْمَنَاصِبِ ، وَلَا رَغْبَةٌ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ . وهذا يَقْطَعُ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ . وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَطْلُبُ مَالًا مِنَ النَّاسِ مُقَابِلَ الدَّعْوَةِ ، لَدَخَلَ الشُّكُ فِي قُلُوبِ الْكَثِيرِينَ ، وَقَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا اخْتَرَعَ مَوْضُوعَ الدَّعْوَةِ ، وَحَوَّلَهُ

(٤٢) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٣٤٨) . وقال الهيثمي في الجمع (٢ / ٤١٤) : ((رجاله رجال الصحيح)) .

وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٣١٧) : سنده جيّد .

إلى مشروع تجاري من أجل استغلالنا ، وأخذ أموالنا ، والسيطرة علينا ، وتحقيق مصالح شخصية له ولعائلته وأتباعه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧١٧) : ((أي : لا أريد منكم جعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله عزَّ وجلَّ إليكم ، ونُصحي إياكم ، وأمركم بعبادة الله)) اهـ .

ما ثوابي على أداء الرسالة إلا على الله ، فهو وَحْدَهُ الذي يَمْنَحُنِي الأجرَ . وبعبارة أخرى ، لا أطلبُ أَجْراً ولا ثواباً إلا من الله وَحْدَهُ ، ولا أطلبُ عَرْضاً دُنْيَوِيّاً زائلاً .

والله يشهد على حقيقة كلامي ، وهو عالم بجميع الأمور ، ومُطَّلِعٌ عليها ، ولا يخفى عليه شيء . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٦) : ((مُطَّلِعٌ ، يَعْلَمُ صِدْقِي ، وَخُلُوصَ نِيَّتِي)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبأ : ٤٨] .

قُلْ يا محمد للمشركين إِنَّ اللهَ يُنْزِلُ الوَحْيَ من السماء فيُلْقِيهِ في قلب النبيِّ ، فَتَظْهَرُ الْحُجَّةُ الإلهيَّةُ وتَتَضَحُّ البراهين الرَّبَّانيَّةُ على لسان النبيِّ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٠٥) : ((والقَذْفُ الرَّمْيُ بالسَّهْمِ والحصى والكلام ، ومعناه : يأتي بالحق وبالوحي ، يُنْزِلُهُ من السماء فيَقْدِفُهُ إلى الأنبياء)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٦) : ((﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ﴾ يُلْقِيهِ وَيُنْزِلُهُ على مَنْ يَجْتَنِيهِ مِنْ عِبَادِهِ ، أَوْ يَرْمِي بِهِ الْبَاطِلَ فَيُدْمِغُهُ ، أَوْ يَرْمِي بِهِ إِلَى أَقْطَارِ الْآفَاقِ ، فَيَكُونُ وَعْداً بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَإِفْشَائِهِ)) اهـ . والله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩] .

قُلْ يا محمد للمشركين : جَاءَ الْقُرْآنُ الذي فيه البراهين والخجج ، وهو صاحبُ الحق ، وذهب الباطلُ واختفى ، وَلَمْ يَعدْ لَهُ وجود (43) . وقيل : المقصود بالباطل هو إبليس ، والمعنى : ما يَخْلُقُ إبليسُ أحداً ولا يَبْعَثُهُ . والله وَحْدَهُ هو الذي يَخْلُقُ النَّاسَ ، وَيُمِيتُهُمْ ، وَيَبْعَثُهُمْ .

(٤٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٦٦) : ((وفي المراد بالباطل ثلاثة أقوال : أحدها أنه الشيطان لا يَخْلُقُ أحداً ولا يَبْعَثُهُ ، قاله قتادة . والثاني أنه الأصنام لا تُبْدِي خَلْقاً ولا تُحْيِي ، قاله الضحاك . وقال أبو سليمان : لا يَتَبَدَّى الصنمُ مِنْ عِنْدِهِ كَلَاماً فَيُجَابِ ، ولا يَرُدُّ ما جَاءَ مِنَ الْحَقِّ بِحُجَّةٍ . والثالث أنه الباطل الذي يُضَادُّ الْحَقَّ ، فالمعنى : ذَهَبَ الْبَاطِلُ بِمَجِيءِ الْحَقِّ ، فلم تَبَقْ مِنْهُ بَقِيَّةٌ يُقْبَلُ بِهَا أو يُدِيرُ أو يُبْدِي أو يُعِيد ، ذَكَرَهُ جماعة من المفسرين)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٧) : ((**﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾** أي: الإسلام. **﴿ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾** وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، أي الشَّرْكُ بحيث لَمْ يبقَ له أثر ، مأخوذ من هلاك الْحَيِّ ، فإنه إِذَا هَلَكَ لَمْ يَبْقَ له إبداء ولا إعادة ... وقيل : الْبَاطِلُ إبليس أو الصَّنَم ، والمعنى : لا يُنْشِئُ خَلْقًا ، ولا يُعيدُه . أو : لا يُبْدِئُ خَيْرًا لأَهْلِهِ ولا يُعيدُه . وقيل : **﴿ مَا ﴾** استفهامية)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَةَ، وَحَوَّلَ الْبَيْتَ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ نَضْبٍ ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ . ويقول : ((**﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنْ الْبَاطِلُ كَانَ زَهُوقًا ﴾** [الإسراء : ٨١] . **﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾**)) (44).

كان حَوْلَ الْكَعْبَةِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ صَنَمٍ (٣٦٠ صَنَمًا) . وَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ احْتِقَارًا لَهَا ، وَسُخْرِيَةً مِنْهَا ، وَإِظْهَارًا لِحَقِيقَةِ عَجْزِهَا عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١٣٠) : ((وهذا الْفِعْلُ إِذْلالٌ لِلْأَصْنَامِ وَلِعَابِدِيهَا ، وَإِظْهَارٌ لِكُونِهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا)) اهـ .

وَقَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَحْدِيدًا لِمَا فِيهَا مِنْ مَعَانِي مَجِيءِ الْحَقِّ ، وَاضْمَحْلَالِ الْبَاطِلِ . وفي هذا استحباب قراءة هاتين الآيتين عند إزالة الْمُنْكَرِ .

وقال الله تعالى : **﴿ قُلْ إِنْ صَلَلْتُ فَأِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾** [سبأ : ٥٠] .

إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : تَرَكْتَ دِينَ آبَائِكَ فَضَلَلْتَ . فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : إِنْ صَلَلْتُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَانْحَرَفْتُ عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ ، فَإِنِّي أَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً ، وَإِثْمَ ضَلَالِي عَلَى نَفْسِي ، وَخَطِيئَةَ انْحِرَافِي تُصِيبُنِي وَخُدِي مِنْ دُونِ النَّاسِ . وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ . وَإِثْمُ الضَّلَالِ يَكُونُ عَلَى النَّفْسِ ، لِأَنَّهَا الْجَاهِلَةُ وَالْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ وَسَبَبُ الْمَصَائِبِ ، فَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّةَ انْحِرَافِهَا . وَإِنْ سَلَكَتُ طَرِيقَ الْحَقِّ ، وَاهْتَدَيْتُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَيُوحِي اللَّهُ وَهُدَايَتَهُ وَتَوْفِيقَهُ . أي: بما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ وَالْبَيَانِ بِالْقُرْآنِ . وَلَوْلَا الْوَحْيُ لَمَّا اهْتَدَيْتُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧١٧) : ((أي الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَفِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْوَحْيِ وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، فِيهِ الْهُدَى وَالْبَيَانُ وَالرَّشَادُ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ)) اهـ .

(٤٤) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٣) ، ومسلم (٣ / ١٤٠٨) برقم (١٧٨١) .

إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا ضَلَّ وَانْحَرَفَ فَهَذَا مِنْ نَفْسِهِ وَالشَّيْطَانِ ، وَإِنْ اهْتَدَى بِفَضْلِ اللَّهِ وَتَوَفَّقَهُ . فَالْخَيْرُ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ (45) .
وفي صحيح مسلم (١ / ٥٣٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)) .

وهذا يدل على أهمية الأدب مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالشَّاءَ عَلَيْهِ ، وَتَعْظِيمَهُ ، وَتَمَجِيدَهُ ، وَمَدْحَهُ بِأَنْ تُضَافَ إِلَيْهِ مَحَاسِنُ الْأُمُورِ ، وَلَا تُضَافَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ السَّيِّئَةُ . وَهَذَا تَأْذُبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمًا لَهُ (46) .
وقد أَمَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِثْمَ ضَلَالِهِ إِنْ ضَلَّ ، مَعَ أَنَّهُ مَعْصُومٌ وَأَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَذَلِكَ لِإِعْطَاءِ دَرَسٍ لِلنَّاسِ ، بِأَنَّ مَنْ ضَلَّ إِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَلَا أَحَدَ فَوْقَ الشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ . وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمَا بِالْكَ بِمَنْ هُوَ دُونَهُ ؟ . وَكُلُّ النَّاسِ دُونَهُ (47) .

(٤٥) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٧١٧) : ((كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — لَمَّا سُئِلَ عَنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمُفَوَّضَةِ — : أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي ، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِئَانِ مِنْهُ)) . اهـ . وَالْمُفَوَّضَةُ هِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي رَوَّجَتْ نَفْسَهَا بِلاَ مَهْرٍ .
(٤٦) فِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٦ / ٥٩) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ : " وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " . فَمِمَّا يَجِبُ تَأْوِيلُهُ لِأَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كُلَّ الْمُحَدَّثَاتِ فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَخَلْقُهُ سِوَاءَ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا وَحِينَئِذٍ يَجِبُ تَأْوِيلُهُ ، وَفِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا مَعْنَاهُ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ ، قَالَهُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ وَالتَّضَرُّ بْنُ شُمَيْلٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ خُزَيْمَةَ وَالْأَزْهَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ . وَالثَّانِي حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ عَنِ الْمُزْنِيِّ ، وَقَالَ غَيْرُهُ أَيْضًا ، مَعْنَاهُ لَا يُضَافُ إِلَيْكَ عَلَى انْفِرَادِهِ ، لَا يُقَالُ : يَا خَالِقَ الْقَرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ ، وَيَا رَبَّ الشَّرِّ ، وَنَحْوَ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَحِينَئِذٍ يَدْخُلُ الشَّرُّ فِي الْعَمُومِ .
وَالثَّلَاثُ مَعْنَاهُ : وَالشَّرُّ لَا يَصْعَدُ إِلَيْكَ إِنَّمَا يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ . وَالرَّابِعُ مَعْنَاهُ : وَالشَّرُّ لَيْسَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَرٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ . وَالخَامِسُ حَكَاهُ الْخَطَّابِيُّ أَنَّهُ كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ إِلَى بَنِي فُلَانٍ ، إِذَا كَانَ عِدَادُهُ فِيهِمْ ، أَوْ صَنَعُوهُ إِلَيْهِمْ)) .

(٤٧) قَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣٣٣) : ((وَكَانَ قِيَاسُ التَّقَابِلِ أَنْ يُقَالَ : وَإِنْ اهْتَدَيْتَ فَإِنَّمَا اهْتَدَيْتَ لَهَا ... وَلَكِنْ هُمَا مُتَقَابِلَانِ مَعْنَى ، لِأَنَّ النَّفْسَ كُلَّ مَا عَلَيْهَا وَضَارَ لَهَا ، فَهُوَ بِهَا وَبَسَبَبِهَا ، لِأَنَّهَا الْأَمَارَةُ

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يَسْمَعُ مَنْ دَعَاهُ ، قَرِيبُ الْإِجَابَةِ . أَوْ : إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِمَا أَقُولُهُ لَكُمْ ، قَرِيبٌ مِنِّي وَمِنْكُمْ ، يُجَازِينِي وَيُجَازِيكُمْ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٧) : ((﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يُدْرِكُ قَوْلَ كُلِّ ضَالٍّ ضَالٍّ وَمُهْتَدٍ ، وَفَعَلَهُ ، وَإِنْ أَخْفَاهُ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٧٤) : ((وَقِيلَ : وَجْهُ النَّظْمِ : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَيُبَيِّنُ الْحُجَّةَ ، وَضَلَالٌ مَنْ ضَلَّ لَا يُطِلُّ الْحُجَّةَ ، وَلَوْ ضَلَلْتُ لِأَضْرُرْتُ بِنَفْسِي ، لَا أَنَّهُ يُطِلُّ حُجَّةَ اللَّهِ ، وَإِذَا اهْتَدَيْتُ فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ إِذْ ثَبَّتَنِي عَلَى الْحُجَّةِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ)) اهـ .

وعن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ارْبُعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا ، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا ، وَهُوَ مَعَكُمْ))^(٤٨) .

فعلى المؤمن أن يخفض صوته لأن الله تعالى ليس أصمًّا ولا بعيدًا ، فهو سميعٌ قريبٌ . فالمرء إذا نادى على إنسان بعيد فإنه يرفع صوته لكي يُسمعه ، بسبب قُصور الأعضاء البشرية ونقصها . أمَّا الله تعالى المُنَزَّه عن الجوارح ، فلا يُعْجِزُهُ شيء ، ولا تختلط عليه الأصوات .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ٢٦) : ((معناه : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لِيُعَدَّ مَنْ يُخَاطَبُهُ لِيُسْمِعَهُ ، وَأَنْتُمْ تَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ هُوَ بِأَصَمٍّ وَلَا غَائِبٍ ، بَلْ هُوَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ، وَهُوَ مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ . فَفِيهِ النَّدْبُ إِلَى خَفْضِ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ إِذَا لَمْ تَدْعُ حَاجَةً إِلَى رَفْعِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا خَفَضَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ ، فَإِنْ دَعَتْ حَاجَةً إِلَى الرَّفْعِ رُفِعَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فَاطِر : ٢٢] .

وما يستوي المؤمنون أصحاب القلوب الحيَّة ولا الكفار أصحاب القلوب الميتة . ومن كان قلبه حيًّا فهو الحيُّ الحقيقيُّ ، ومن كان قلبه ميتًا فهو الميتُ الحقيقيُّ ، حتى لو أكل وشرب وتحرك .

وقد شَبَّهَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَحْيَاءِ ، وَشَبَّهَ الْكَافِرِينَ بِالْأَمْوَاتِ .

بالسُّوء . وما لها مِمَّا يَنْفَعُهَا فَبِهَدَايَةِ رَبِّهَا وَتَوْفِيقِهِ . وَهَذَا حُكْمُ عَامٍ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ رَسُولُهُ أَنْ يُسَيِّدَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، لِأَنَّ الرُّسُولَ إِذَا دَخَلَ تَحْتَهُ مَعَ جَلَالِهِ مَحَلَّهُ ، وَسَدَادِ طَرِيقَتِهِ ، كَانَ غَيْرَهُ أَوْلَى بِهِ)) .

(٤٨) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٥٤١) برقم (٣٩٦٨) ، ومسلم (٤ / ٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٤) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٦ / ١٤) : ((وما يَسْتَوِي الأحياءُ ولا الأمواتُ)) . قال ابن قُتَيْبَة : الأحياءُ العُقلاء ، والأمواتُ الجُهال . قال قتادة : هذه كُلُّها أمثال ، أي : كما لا تستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يَسْتَوِي الكافر والمؤمن)) اهـ .

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ أوليائه المؤمنين الذين هداهم إلى طريق الحق، ووفَّقهم لطاعته، واختارهم لِحَنَّتِهِ . يُسْمِعُهُمْ كَيْ يَتَّعْظُوا وَيُجِيبُوا . وهؤلاء هم المستفيدون من كلام الله ومواعظه ، لأنَّ قلوبهم حية . ومعنى العام : إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وقال البيضاوي في تفسيره (٤١٧ / ١) : ((إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ)) هِدَايَتِهِ ، فَيُوفِّقُهُ لِفَهْمِ آيَاتِهِ ، وَالْإِتِّعَازِ بِعِظَاتِهِ)) اهـ .

أَمَّا الكفار فَيُشْبِهُونَ الأموات في القبور، لأنَّ قلوبهم مَيِّتة، فلا يَتَّعْظُونَ، ولا يَسْتَجِيبُونَ لأوامر الله، فلا فائدة مِنْهُمْ ، ولا أمل في إرشادهم ، ولا فُرْصة لنجاتهم . وكما لا يَسْمَعُ أصحاب القبور، كذلك لا يَسْمَعُ الكفار .

والجدير بالذكر أنَّ صاحب القلب الميت لا يَقْدِرُ أَنْ يَنْتَفِعَ بكلام الله وأحكامه ومواعظه وَحُجَّجِهِ وبراهينه ، فهو عاجزٌ عن معرفة الله ، ولا يَسْتَطِيعُ فَهْمُ كتابه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٨٣ / ٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى :)) وَمَا يَسْتَوِي الأحياءُ ولا الأمواتُ)) فِيهِمْ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّ الأحياءَ المؤمنون ، والأموات الكفار . والثاني أَنَّ الأحياءَ العُقلاء ، والأموات الجُهال . وفي " لا " المذكورة في هذه الآية قولان : أحدهما أَنَّها زائدة مُؤَكِّدة ، والثاني أَنَّها نافية لاستواء أحد المذكورين مَعَ الْآخَرِ ... ((إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ)) أي : يُفْهِمُ مَنْ يُرِيدُ إِفْهَامَهُ . ((وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)) يعني : الكفار . شَبَّهَهُم بِالْمَوْتِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ((وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ)) [فَاطِر : ٣١] .

لقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ، فهو الوَحْيُ الخالدُ. وهو الحقُّ الْمُنَزَّهُ عن الباطل والكذب، وَحَقٌّ على النبي ﷺ وأُمَّتِهِ أَنْ يَتَّخِذُوهُ دُسْتُورًا لِحَيَاتِهِمْ، فَيَعْمَلُوا بِهِ كَامِلًا بلا اجتزاء . وهو الكتابُ النَّاسِخُ للكتب السماوية السابقة، فيجب العملُ بالقرآنِ حَصْرِيًّا ، ولا يجوز العمل بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه. والقرآنُ يُصَدِّقُ الكتبَ السماويةَ السابقة ، وَيَشْهَدُ لَهَا ، كما شَهِدَتْ لَهُ بِأَنَّهُ أعظمُ الكتبِ السماويةِ وآخِرُهَا . وكُلُّ الكتبِ السماويةِ مُتَّفَقةٌ على العقائد وأصول الأحكام ، لكنَّ الاختلافات بينها إنما هي في الفروع والتفاصيل.

والله مُحِيط بجميع أمور عباده ، يَعْلَم ما يُصْلِحهم وما يُفْسِدهم . عَالِمٌ بالظواهر والبواطن ، وَلَوْ كان محمد ﷺ لا يَسْتَحِقُّ النُّبُوَّةَ لِعَيْبٍ فِيهِ أو تَقْصِير ، لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ أعْظَمَ كُتُبِهِ ، وَفَضَّلَهُ على جميع خَلْقِهِ . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أحوالَ محمد كَامِلَةً ، ويعرف تفاصيلَ حياته ، وقد رآه أَهْلًا لِلنُّبُوَّةِ فاختاره واصطفاه . وقد شَرَّفَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِحَمْلِ الوَحْيِ الإلهِيِّ وَكَلَّفَهُ بِتَبْلِيغِهِ للناس ، وهذا دليلٌ على عَظَمَةِ محمد ، ونقاءِ قلبه ، وَسُمُوُّ رُوحِهِ ، وطهارةِ جِسْمِهِ . والله لا يَخْتَارُ الأشخاصَ السَّيِّئِينَ لِلنُّبُوَّةِ والرسالة . والله خَالِقُ الناسِ جميعًا ، وَيَعْلَمُ الصَّالِحَ والفاسدَ فِيهِمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٩) : ((وتقديم " الخير " للدلالة على أَنَّ العُمدَةَ في ذلك الأمور الرُّوحانية)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٣١) : ((« إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِكُلِّ بَصِيرٍ » أَي : هُوَ خَيْرٌ بِهِمْ ، بصير بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ما يُفَضِّلُهُ بِهِ على مَنْ سِوَاهُ . ولهذا فَضَّلَ الأنبياءَ والرُّسُلَ على جميع البشر ، وَفَضَّلَ التَّيِّبِينَ بَعْضَهُمْ على بعض ، ورفعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وجعلَ مَنْزِلَةَ محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِمْ أَجمعين)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : « لِنُنْذِرَ قَوْمًا ما أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » [يس : ٦] . المقصودُ هُمُ العربُ . لَمْ يَجِئْ إِلَيْهِمْ ولا إلى آبائِهِمْ نبيٌّ قبلَ محمد ﷺ . وقد جاءَ إِلَيْهِمْ محمد ﷺ لِيُخَوِّفَهُمْ من عذابِ اللهِ إِنْ استمروا على كُفْرِهِمْ وَرَفَضُوا الإيمانَ . وهؤلاءُ غَافِلُونَ عن الإيمانِ والحقِّ والرَّشادِ ، لأنَّ آبَاءَهُمْ لَمْ يُنْذِرُوا ، وَلَمْ يَجِئْ إِلَيْهِمْ نبيٌّ ، لأنَّهُمْ في الفترة . وهنا تتجلى حاجتهم الماسَّةُ إلى نبيٍّ يُنْقِذَهُمْ مِنَ الضلالِ ، وَيُنْتِشِلَهُمْ من مستنقعِ الكفرِ ، وَيَقُودَهُمْ إلى طريقِ الإيمانِ والخلاصِ ، فيفوزون بسعادةِ الدُّنيا وجَنَّةِ الآخرةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٥) : ((قَوْلُهُ تعالى : « لِنُنْذِرَ قَوْمًا ما أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ » فِي

« ما » قَوْلان : أحدهما أَنَّها تَنْفِي ، وهو قول قتادة والزَّجاج في الأكثرين . والثاني أَنَّها بمعنى " كما " قاله مقاتل . وقيل : هِيَ بمعنى " الذي " . قَوْلُهُ تعالى : « فَهُمْ غَافِلُونَ » أَي عَنْ حُجَجِ التَّوْحِيدِ وَأَدِلَّةِ الْبَيِّنَاتِ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ » [يس : ٧] . لقد وَجَبَ العذابُ على أَكْثَرِ أَهْلِ مَكَّةَ ، فهم لا يُصَدِّقُونَ بِإِنذارِكَ يا محمد ، ولا يُؤْمِنُونَ بِكَ . وقد عَلِمَ اللهُ مِنْهُمْ الإصرارَ على الكُفْرِ طيلة حياتِهِمْ ، والموتَ عَلَيْهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ١١): ((وهذا فيمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره)) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] .
 قُلْ يَا مُحَمَّدَ لِلْمُشْرِكِينَ : لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الْوَحْيِ . وهذا يدل على إخلاص النبي ﷺ وصدقته ، وامتناله لأمر الله ، وطلب الأجر منه ، وعدم طلب عرض الدنيا الفاني .
 وما أنا مِنَ الْمُتَصَنِّعِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَلَا مِنَ الْمُتَقَوْلِينَ الْقُرْآنَ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي .
 فَالْقُرْآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ ، وَلَمْ أَقُمْ بِتَأْلِيْفِهِ . وَكُلُّ مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِهِ فَهُوَ مُتَكَلِّفٌ .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٥٦) : ((﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ الْمُتَصَنِّعِينَ بِمَا لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ ، عَلَى مَا عَرَفْتُمْ مِنْ حَالِي ، فَأَنْتَحِلُ التُّبُوَّةَ ، وَأَتَقَوْلُ الْقُرْآنَ)) اهـ .
 وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((مَنْ عِلِمَ فَلْيَقُلْ ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ :
 اللَّهُ أَغْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لَا تَعْلَمُ : لَا أَغْلَمُ . فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾)) (٤٩) .
 وهذا يدل على أنَّ تمييز المعلوم مِنَ المجهول نوعٌ من العلم ، وقد وَرَدَ أَنَّ " لَا أَدْرِي نِصْفَ الْعِلْمِ " . وَمَنْ قَالَ : لَا أَدْرِي ، فَقَدْ أَفْتَى . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَوْلَ بِلَا عِلْمٍ قِسْمٌ مِنَ التَّكْلِيفِ .
 وصدق القائل :

جَهَلْتُ فَعَادِيَتَ الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا	كَذَاكَ يُعَادِي الْعِلْمَ مَنْ هُوَ جَاهِلُهُ
وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَّصِدًّا	وَيَكْرَهُ " لَا أَدْرِي " أَصِيَّتَ مَقَاتِلُهُ

وفي مختصر تاريخ دمشق (١ / ٥٣٦) : ((وعن أروطة بن المنذر _ وكان من الحكماء _ قال : لَا يَزَالُ الْعَبْدُ مُتَعَلِّمًا مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا قَالَ : قَدْ اكْتَفَيْتُ فَهُوَ أَجْهَلُ مَا يَكُونُ بِأَمْرِ الدُّنْيَا .
 وقال : آيَةُ الْمُتَكَلِّفِ ثَلَاثٌ : يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْلَمُ ، وَيُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ ، وَيَتَعَاطَى مَا لَا يَنَالُ)) اهـ .

(٤٩) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٧٩١) برقم (٤٤٩٦) ، ومسلم (٤ / ٢١٥٥) برقم (٢٧٩٨) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقُصُّصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨] .

لقد أرسل الله رُسُلًا كثيرين قبل محمد ﷺ ، وأيدهم بالمعجزات، وأنزل عليهم الآيات الباهرات، لكن أقوامهم كذبوهم وآذوهم، فصبروا على تكذيبهم وأذاهم، فلتكن لك فيهم يا محمد أسوة حسنة. وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٢ / ١٥) : ((عَزَاهُ أَيْضًا بِمَا لَقِيَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ)) اهـ . والآية تردُّ على مُشركي العرب الذين استبعدوا أن يبعث الله رسولاً مِنَ الْبَشَرِ .

منهم مَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَخْبَارَهُمْ وَقَصَّصْنَاهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ ، ومنهم مَنْ لَمْ نُخَبِّرْكَ بِقَصَصِهِمْ . وقال ابن كثير في تفسيره (١١٣ / ٤) : ((وَهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ ذُكِرَ بِأَضْعَافٍ أَضْعَافٍ)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١٠٢ / ١) : ((إِذْ قِيلَ : عَدَدُ الْأَنْبِيَاءِ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة)) اهـ .

ولا يستطيع الرسول أن يأتي بِمُعْجَزةٍ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ . الله وَحْدَهُ هو الذي يَقَرَّرُ إنزال المعجزة أو لا . أي : لا يَقْدِرُ الرسولُ أن يأتي بِآيَةٍ خارقة للعادة إلا بأمر الله وإرادته ، فتكون دليلاً على صدقه وصحة رسالته . والله يُحَدِّدُ طبيعة المعجزات، ووقت إنزالها، على ما اقتضته حكمته ، لا كما يقترح الكافرون . وفي هذا ردُّ بليغ على قريش الذين اقترحوا نزول آياتٍ مُعَيَّنَةٍ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا .

فإذا جاء عذابُ الله للقوم الكافرين ، يُنَجِّي المؤمنين ، ويُهْلِك الكافرين . أي : إذا جاء الوقت المحدد لعذاب الكافرين في الدنيا أو الآخرة ، فُضِيَ بِالْحَقِّ ، وذلك بإنقاذ المؤمن ، وتعذيب الكافر . وخسر في ذلك الوقت المعاندون الذي يطلبون الآياتِ حَسَبَ مِرَاجِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٢ / ١٥) : ((﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي إذا جاء الوقت المسمَّى لعذابهم أهلكتهم الله، وإنما التأخير لإسلام مَنْ عَلِمَ اللَّهُ إِسْلَامَهُ مِنْهُمْ، وَلِمَنْ فِي أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وقيل : أشار بهذا إلى الْقَتْلِ بِدَر . ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : الذين يَتَّبِعُونَ الْبَاطِلَ وَالشَّرَّكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] .

كما أوحى الله إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أوحى إلى النبي محمد ﷺ قرآنًا عربيًا مُعْجَزًا وواضحًا لا لبس فيه، لِيُنْذِرَ أَهْلَ مَكَّةَ ، وسائر الناس . يُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَالِ كُفْرِهِمْ ، وتكذيبهم ، وعنادهم، ورفضهم الدعوة. وقد جاء القرآن بالعربية لكي يفهمه العرب ، ويعرفوا ما فيه من الحُجَجِ والمواعظ والأحكام . وسُمِّيت مكة بِأَمِّ الْقُرَى لأنها أشرف بقعة على الأرض. وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٧ / ١٤٧): ((وَأُمُّ الْقُرَى أَصْلُ الْقُرَى ، وهي مكة، وسُمِّيت بهذا الاسم إجلالاً لها ، لأنَّ فيها الْبَيْتَ وَمَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، والعربُ تُسَمِّي أَصْلَ كُلِّ شَيْءٍ أُمَّهُ ، حتى يُقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان)) اهـ .

وقد قال رسول الله ﷺ مخاطبًا مكة المكرمة ، بَلَدَهُ الْعَزِيزَ الْمُحَبَّبَ إِلَى نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ : ((وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ)) (50) . وهذا يدل على عَظَمَةِ مكة، وتفوقها على سائر البلاد . فهي أعظم بقعة على كوكب الأرض، وأحبُّ مكان إلى الله تعالى .

﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ . وَتُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْعَظِيمِ ، حَيْثُ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ (الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ) لِلْحِسَابِ . هَذَا الْيَوْمَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَلَا شَكَّ فِيهِ . وَسُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمُ الْجَمْعِ ، لِأَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ فِيهِ النَّاسَ ، أَوِ الْأَرْوَاحَ ، أَوِ الْعُمَلَّ وَالْأَعْمَالَ . وقد أُعيدَ الْفِعْلُ " تُنْذِرُ " فِي الْآيَةِ ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ لزيادة التَّخْوِيفِ مِنْ يَوْمِ الْجَمْعِ الرَّهيبِ ، إِذْ إِنَّ تَخْصِيصَهُ بِالذِّكْرِ بَعْدَ الْإِنْذَارِ الْعَامِ : ﴿ لَتُنْذَرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يَقْتَضِي تَعْظِيمَ أَمْرِهِ ، وَالتَّخْوِيفَ الشَّدِيدَ مِنْهُ .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٧٤٩) : ((لأنه مجمع الخلائق . وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد . وقيل : جمع الظالم والمظلوم . وقيل : جمع العامل والعمل)) اهـ . ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ . فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ ، وَلَهُ عَلَيْهِمُ الْمِنَّةُ . وَفَرِيقٌ فِي النَّارِ ، وَهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا . أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ النَّارَ بِعَذْلِهِ ، وَلَهُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ . وَالسَّعِيرُ هِيَ النَّارُ الْعَظِيمَةُ الْمُسْتَعْرَةِ . أَيِ إِنَّهُمْ سَيُحْرَقُونَ بِالنَّارِ الْمَلْتَهِيَةِ شَدِيدَةِ التَّوَقُّدِ . وَالْآيَةُ تُخَبِّرُ عَنْ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهيبِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ يَنْقَسِمُونَ بَعْدَ الْحِسَابِ إِلَى سُعْدَاءَ وَأَشْقِيَاءَ .

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٨) برقم (٤٢٧٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : خرج عَلَيْنَا رسول الله ﷺ ، وفي يده كتابان ، فقال : ((أتدرون ما هذان الكتابان ؟)) ، فَقُلْنَا : لا ، يا رسول الله ، إلا أن تُخبرنا . فقال للذي في يده اليمنى : ((هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة ، وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ ، فلا يُزَادُ فِيهِمْ ، ولا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا)) ، فقال أصحابه : ففيمَ العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فُرج منه ؟ . فقال : ((سَدَّدُوا وَقَارِبُوا ، فإنَّ صاحب الجنة يُخْتَمَ له بعمل أهل الجنة ، وإنَّ عَمَلَ أَيِّ عَمَلٍ ، وإنَّ صاحب النار يُخْتَمَ له بعمل أهل النار ، وإنَّ عَمَلَ أَيِّ عَمَلٍ)) . ثُمَّ قال رسول الله ﷺ بيديه ، فنبذهما ، ثُمَّ قال : ((فَارْغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير)) (51) .

من الواضح أنَّ أهل الجنة تُكْتَبُ أسماءهم كاملة كما في العقود، وقد أُخْصُوا وُجِّعُوا (أُجْمِلُوا) فلا تغيير يطرأ على الأسماء ، لا بالإضافة ولا بالحذف . وقد سأل الصحابة عن فائدة العمل ما دامَ النتيجة معروفة . وقد أرشدتهم النبي ﷺ إلى المنهج الصحيح . " سَدَّدُوا " يعني : الزَمُوا السَّدَادَ ، وهو الصواب والاعتدال في الأمور بلا إفراط ولا تفريط . و " قَارِبُوا " يعني : اقتصدوا في الأمور ، وتقرَّبوا إلى الله بالطاعات والثبات عليها ، بلا غُلُوٍّ ولا تقصير .

والله تعالى يَعْلَمُ أهل الجنة وأهل النار قبل أن يَخْلُقَهُمْ ، لكنَّ عِلْمَ اللهِ لا يُؤَثِّرُ على مسار العبد . فالله يَعْلَمُ في الأزل أن فلانًا سيختار الإيمان ويموت عليه ، فيدخل الجنة . ويعْلَمُ في الأزل أيضًا أن فلانًا سيختار الكُفْرَ ويموت عليه ، فيدخل النار . وعِلْمُ اللهِ لا علاقة له بإجبار العبد على اختيار طريق مُعَيَّن . وَلَوْ أَجْبَرَ اللهُ العبدَ على اختيار طريق الإيمان أو طريق الكفر، لَبَطَلَ الثواب والعقاب، ولا معنى للجنة والنار ، ولا معنى لوجود الإنسان على كوكب الأرض .

والحديث يُشير إلى أنَّ العبرة بالخواتيم . وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ . وفي صحيح مسلم (٢٢٠٦ / ٤) (أن النبي ﷺ قال : ((يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢١٠ / ١٧) : ((قال العلماء: معناه : يُبْعَثُ على الحالة التي مات عليها)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزُحُوف: ٤٣] .

(٥١) رواه الترمذي في سننه (٤ / ٤٤٩) برقم (٢١٤١) وصَحَّحه . وحسنه الحافظ في الفتح (٢٩١ / ٦) .

يَأْمُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْقُرْآنِ، وَيَعْمَلْ بِهِ، وَإِنْ كَذَّبَ بِهِ الْكَافِرُونَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْحَقِّ الْوَاضِحِ ، يَسِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَمَهْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَنْحَصِرُ فِي الدَّعْوَةِ ، أَمَّا هِدَايَةُ النَّاسِ فَهِيَ بِيَدِ اللَّهِ مَالِكٌ قُلُوبَهُمْ .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٤٨) : ((﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ مِنْ آيَاتِ وَالشَّرَائِعِ ، سِوَاةِ عَجَلْنَا لَكَ الْمَوْعُودَ أَوْ أَخَّرْنَاهُ إِلَى يَوْمِ الْآخِرَةِ . وَفَرِيءٌ " أَوْحَى " عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ ، وَهُوَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ . ﴿ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تَعْلِيلٌ لِلِاسْتِمْسَاكِ أَوْ لِلْأَمْرِ بِهِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزُّحُرْفُ : ٨٨] .

الْقِيلُ هُوَ الْقَوْلُ . هَذَا قَوْلُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، حَيْثُ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ . يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي مُعَانِدُونَ جَاحِدُونَ ، لَا يُصَدِّقُونَ نُبُوتِي ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِاللُّوْحِيِّ . وَقَالَ التَّسْفِي فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ١٢٢) : ((كَأَنَّهُ قِيلَ : وَأَقْسِمَ بِقِيلِهِ : يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِقْسَامُ اللَّهِ بِقِيلِهِ رَفْعٌ مِنْهُ ، وَتَعْظِيمٌ لِدَعَائِهِ وَالتَّجَاهُ إِلَيْهِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٣٣٣) : ((قَالَ قَتَادَةُ : هَذَا نَبِيُّكُمْ يَشْكُو قَوْمَهُ إِلَى رَبِّهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : شَكََا إِلَى اللَّهِ تَخَلَّفَ قَوْمَهُ عَنِ الْإِيمَانِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزُّحُرْفُ : ٨٩] .

أَعْرِضْ عَنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ يَا مُحَمَّدُ ، وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى كَلَامِهِمُ السَّيِّئِ ، وَاصْفَحْ عَنْهُمْ قَوْلًا وَفِعْلًا . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَتَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَخْفِيفٌ عَنْهُ ، وَرَفْعٌ لِمَعْنَوِيَّاتِهِ . وَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ ، وَرَفَعَ شَأْنَ الْإِسْلَامِ ، وَهَزَمَ الشُّرْكَ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَجَعَلَهُمْ أَثَرًا إِثْرًا عَيْنٍ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ السَّلَامَ فِي الْآيَةِ هُوَ سَلَامُ الْمُتَارِكَةِ وَالْإِعْرَاضِ ، وَلَيْسَ تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ . فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَشْرُوعِيَّةُ السَّلَامِ عَلَى الْكَفَّارِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٣٣٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أَيْ :

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا قُلْ خَيْرًا بَدَلًا مِنْ شَرِّهِمْ ، قَالَهُ السُّدِّي .

وَالثَّانِي ارْذُدْ عَلَيْهِمْ مَعْرُوفًا ، قَالَهُ مِقَاتِل . وَالثَّالِثُ قُلْ مَا تَسَلَّمَ بِهِ مِنْ شَرِّهِمْ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِي .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ . وَالثَّانِي أَنَّكَ صَادِقٌ . وَالثَّالِثُ

خُلُولُ الْعَذَابِ بِهِمْ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ)) اهـ .

وقيل : الآية منسوخة بآية السَّيْف . وفي تفسير القرطبي (١٦ / ١٠٨) : ((قال قتادة : أَمَرَ بالصَّفْح عَنْهُمْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِقَتَالِهِمْ ، فَصَارَ الصَّفْحُ مَنْسُوخًا بِالسَّيْفِ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ١٨] .

جعل الله محمداً ﷺ بعد اختلاف أهل الكتاب على طريقة عظيمة الشأن ومنهاج واضح وشريعة سمحة من أمر الدين ، تُوصل إلى الحق ، وتؤدي إلى نيل سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . فاتَّبِعْ شريعتك يا محمد الثابتة بالحجج والبراهين ، واعمل بأحكامها في نفسك وأمتك . ولا تَتَّبِعْ أهواء المشركين وعقائدهم الزائغة وآرائهم المنحرفة . فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقَّ ، ولا يُريدون أن يَعْلَمُوهُ .

وبعبارة أخرى، لا تَتَّبِعْ ضلالات المشركين الذين لَا يَعْلَمُونَ تَوْحِيدَ اللَّهِ وشرائعه لعباده . ولا مقارنة بين دين محمد القائم على التوحيد والحق والأدلة العقلية والعقلية ، وبين دين المشركين القائم على الوثنية والظلم والأهواء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧١) : ((﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ آراء الجَهِالِ التابعة للشَّهَوَاتِ ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ ، قَالُوا لَهُ : ارْجِعْ إِلَى دِينِ آبَائِكَ)) اهـ .
والشَّريعةُ هي ما شرَّعه الله لعباده من الدين . وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ١٤٤) : ((الشريعة لغةٌ مؤرِدُ المياه ، وهي في الدين من ذلك ، لأنَّ الناس يَرِدُونَ الدِّينَ ابتغاءَ رحمة الله والتَّقَرُّبِ مِنْهُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٦٠) : ((﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ سبب نزولها أن رؤساء قُرَيْشٍ دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إلى مِلَّةِ آبَائِهِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ عَلَى شَرِيعَةٍ ﴾ فَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : أَيُّ عَلَى مِلَّةٍ وَمَذْهَبٍ . وَمِنْهُ يُقَالُ : شَرَعَ فُلَانٌ فِي كَذَا إِذَا أَخَذَ فِيهِ ... قَالَ الْمَفْسَّرُونَ : ثُمَّ جَعَلْنَاكَ بَعْدَ مُوسَى عَلَى طَرِيقَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، أَيُّ مِنَ الدِّينِ ، فَاتَّبِعْهَا . وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد : ٢] .

الذين صَدَّقُوا بِاللَّهِ ، والتَزَمُوا أَوَامِرَهُ ، واجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ . أي : جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٢٠) : ((أي : آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَسِرَائِرُهُمْ ، وَاِنْقَادَتْ لِشَرَعِ اللَّهِ جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ)) اهـ .

وَالْآيَةُ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ يَعْمُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَمُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ . وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

وَصَدَّقُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَّلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهُوَ الْوَحْيُ الْحَقُّ الْمُنَزَّهَ عَنِ الْكُذْبِ وَالشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ ، وَلَمْ يُخَالَفُوهُ فِي شَيْءٍ ، مَحَا اللَّهُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَغَفَرَ ذُنُوبَهُمْ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الْمَاضِي بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمْ لِلصَّالِحَاتِ . وَأَصْلَحَ شَأْنُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَعَاشُوا فِي سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ ، وَأَصْلَحَ حَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، بِأَنْ مَنَحَهُمُ الْجَنَّةَ (النعيم الخالد) . وَفِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (١ / ٢٧٧) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا - : عَصَمَهُمْ أَيَّامَ حَيَاتِهِمْ ، يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْإِصْلَاحَ يَعُودُ إِلَى إِصْلَاحِ أَعْمَالِهِمْ حَتَّى لَا يَعْصُوا)) اهـ .

وَقَدْ خُصَّ ذِكْرُ الْإِيمَانِ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، مَعَ أَنَّهُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ الْإِيمَانِ الْكُلِّيِّ ، تَنْبِيْهًا عَلَى شَرَفِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ ، وَغُلُوِّ مَكَانَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٨٨) : ((﴿ وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ تَخْصِيصٌ لِلْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ مِمَّا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ تَعْظِيمًا لَهُ ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ دُونَهُ ، وَأَنَّهُ الْأَصْلُ فِيهِ)) اهـ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، قَالَ : ((هُمُ الْأَنْصَارُ)) . قَالَ : ((﴿ وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ ﴾ أَمْرُهُمْ)) (52) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذَّارِيَّاتُ : ٥٠] .
الْجَوُّوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي كُلِّ شُؤْنِكُمْ ، وَاهْرَبُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي إِلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ مُنْذِرٌ بَيْنَ الْإِنْدَارِ ، يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِي . وَأَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ وَاضِحٌ لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، لِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِالْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ الظَّاهِرَةِ أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاسِ .

(٥٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٤٩٦) بِرَقْمِ (٣٧٠٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

والآية ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ تعليل للأمر بالفرار ، أو لوجوب الامتناع للأوامر الإلهية على لسان النبي ﷺ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ١٤٣) : ((فَإِنَّ كَوْنَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنْذِرًا مِنْهُ تَعَالَى مُوجِبٌ عَلَيْهِ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْفِرَارِ إِلَيْهِ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَمْتَثِلُوا بِهِ ، أَيِ إِنِّي لَكُمْ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى مُنْذِرٌ بَيِّنٌ ، كَوْنُهُ مُنْذِرًا أَوْ مُظْهِرًا لِمَا يَجِبُ إِظْهَارُهُ مِنَ الْعَذَابِ الْمُنْذَرِ بِهِ)) .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٤١) : ((﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ بَيِّنٌ . كَوْنُهُ مُنْذِرًا مِنَ اللَّهِ بِالْمَعْجَزَاتِ . أَوْ ﴿ مُبِينٌ ﴾ مَا يَجِبُ أَنْ يُحْذَرَ عَنْهُ)) اهـ .

لقد أمر الله محمدًا ﷺ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْهَرُوبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وهذا دليلٌ على أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ ليس مُنْذِرًا مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يُنْفِذُ الْأَوَامِرَ الْإِلَهِيَّةَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ عِبَادَةُ مُحَمَّدٍ .

ولفظه " الفرار " تشير إلى أَنَّ وراءَ الناسِ عذابًا يَجِبُ الْهَرَبُ مِنْهُ ، فَجُمِعَتْ لَفْظَةُ ﴿ فَرُّوا ﴾ بين التحذير والاستدعاء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٤١) : ((﴿ فَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ . وَالْمَعْنَى اهْرَبُوا مِمَّا يُوجِبُ الْعِقَابَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى مَا يُوجِبُ الثَّوَابَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ)) اهـ .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ)) (٥٣) .
لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَعَلَى الْمَرْءِ إِنْ أَرَادَ النَّجَاةَ أَنْ يَهْرَبَ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ .
وذلك بالتزام أوامره (عمل الطاعات) واجتناب نواهيه (ترك المعاصي) . وسوى ذلك ، فهو هالكٌ لا محالة .

وقال الله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ [الطُّور : ٢٩] .
يَأْمُرُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ ، وَأَنْ يَثْبُتَ عَلَى الْوَعْدِ وَالتَّذْكِيرِ ، وَلَا يَعْأَ بِأَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَنَاقِضَةِ الَّتِي تَنْبَعُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْعِنَادِ وَالْجَهْلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ .
ومحمد ﷺ بحمد الله وفضله وعصمته وإكرامه بالنبوة والرسالة ، ليس كَاهِنًا يُخْبِرُ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ ، كَمَا يَقُولُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، وَلَا شَخْصًا فَاقِدًا لِقَوَاهِ الْعَقْلِيَّةِ . وَإِنَّمَا هُوَ نَبِيٌّ كَرِيمٌ يُخْبِرُ

(٥٣) متفق عليه . البخاري (٩٧ / ١) برقم (٢٤٤) ، ومسلم (٤ / ٢٠٨١) برقم (٢٧١٠) .

بالغيب عن طريق الوحي المعصوم ، وبالتالي لا يمكن أن يكون كاهنًا يعتمد على قدراته الذاتية ، ويخلط الحق بالباطل . وهو أيضًا رجل يمتاز بالذكاء والفتنة والفصاحة ورجاحان العقل . ومن كان هذه صفته ، لا يمكن أن يكون مجنونًا فاقدًا لقواه العقلية ، أو يتخبطه الشيطان من المس . والآية تردُّ على كفار قريش ، وتُفحِّمهم بالدليل والحجة والبرهان .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٦٣) : ((فَعَقِبَهُ بَنُ أَبِي مُعَيْطٍ قَالَ إِنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَيْعَةَ قَالَ إِنَّهُ سَاحِرٌ ، وَغَيْرُهُمَا قَالَ كَاهِنٌ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ . ثُمَّ قِيلَ : إِنَّ مَعْنَى ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ الْقَسَمُ . أَيِ : وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ مَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . وَقِيلَ : لَيْسَ قَسَمًا ، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا تَقُولُ : مَا أَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ بِجَاهِلٍ ، أَيِ قَدْ بَرَأَكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٥٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أَيِ : فَعِظْ بِالْقُرْآنِ

﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أَيِ : بِإِنْعَامِهِ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ بِكَاهِنٍ ، وَهُوَ الَّذِي يُؤْهِمُهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَيُخْبِرُ عَمَّا فِي غَدٍ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ . وَالْمَعْنَى : إِنَّمَا تَنْطِقُ بِالْوَحْيِ ، لَا كَمَا يَقُولُ فَيْكَ كَفَارِ مَكَّةَ))

وعن إبراهيم بن يزيد قال : سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ : إِنَّ الْوَلِيدَ ابْنَ الْمَغِيرَةَ صَنَعَ لِقُرَيْشٍ طَعَامًا ، فَلَمَّا أَكَلُوا ، قَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : سَاحِرٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَيْسَ بِسَاحِرٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَاهِنٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَيْسَ بِكَاهِنٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : شَاعِرٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : سِحْرٌ يُؤَثِّرُ . فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنَّهُ سِحْرٌ يُؤَثِّرُ (54) .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ [الطُّور : ٣٠] .

يقول المشركون : نصبر على محمد وننتظر به حوادث الدهر حتى يموت فنرتاح منه ، ونستريح من دعوته . ومعنى كلامهم : إِنَّ مُحَمَّدَ شَاعِرٌ ، فَلْنَنْتَظِرْ هَلَاكَهُ كَمَا هَلَكَ الشُّعْرَاءُ مِنْ قَبْلِهِ ،

(٥٤) رواه الطبراني (١١ / ١٢٥) . وفي سنده إبراهيم بن يزيد الخوزي . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (١ / ١٥٧) : ((قال أحمد : متروك الحديث . وقال ابن معين : ليس بثقة وليس بشيء . وقال أبو زرعة وأبو حاتم : منكر الحديث ضعيف الحديث . وقال البخاري : سكتوا عنه . قال الدولابي : يعني تركوه . وقال النسائي : متروك الحديث)) .

وهكذا نرتاح منه، وتموت دعوته بموته، ويتفرق أصحابه، وإنَّ أباه مات شاباً، ونرجو أن يكون مؤثته كموت أبيه . وهذا يدل على شدة كرههم له ، وحقدهم عليه ، وحسد لهم له .
وربَّ المَنون هي حوادث الدَّهر . والمَنون هو الدَّهر أو الموت، سُمِّيَا بهذا الاسم، لأنَّهما يقطعان الأجل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٥٤٣ و ٥٤٤) : ((« أم يقولون شاعر » أي هو شاعر . وقال أبو عبيدة : « أم » بمعنى " بل " . قال الأخطل : كَذَبْتَكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ ... غَلَسَ الظلام من الرِّباب خيالاً . لم يستفهم، إنما أوجب أنه رأى . قَوْلُهُ تعالى : « نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبُ الْمُنُونِ » فيه قولان : أحدهما أنه الموت ، قاله ابن عباس . والثاني : حوادث الدَّهر ، قاله مجاهد . قال ابن قُتيبة : حوادث الدهر وأوجاعه ومصائبه ، والمنون الدَّهر . قال أبو ذؤيب : أَمِنَ المنون ورَّيَّه تتوجَّع ... والدَّهرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ . هكذا أنشدته أصحاب الأصمعي عنه ، وكان يذهب إلى أن المنون الدَّهر . قال : وقوله : والدهر ليس بمُعْتَبٍ ، يدل على ذلك ، كأنه قال : أَمِنَ الدهر ورَّيَّه تتوجع . قال الكِسائي : العرب تقول : لا أَكَلِمَكَ آخِرَ الْمُنُونِ ، أي : آخِرَ الدَّهر)) اهـ .
وفي الدر المنثور (٧ / ٦٣٥) : ((أخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس أنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ . قال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، وتربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابعة ، إنما هو كأحدهم . فأنزل الله في ذلك من قولهم : « أم يقولون شاعر نتربص به ربب المنون »)) .

وقال الله تعالى : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » [الطور : ٣١] .

قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعتبرونك شاعراً وينتظرون مؤثتك : انتظروا موتي ، فإنني مُنتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي . وهذا استهزاء بهم ، وسخرية منهم ، وتهديد ، ووعيد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٥٤) : ((قَوْلُهُ تعالى : « قُلْ تَرَبَّصُوا » أي : انتظروا بي ذلك . « فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » أي : من المنتظرين عذابكم . فعذبوا يوم بدر بالسيف . وبعض المفسرين يقول : هذا منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، إذ لا تضاد بين الآيتين)) .
وقال الله تعالى : « أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » [الطور : ٣٢] (55).

(٥٥) قال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٦٥) : ((وقيل ليعمر بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل ؟ ، فقال : تلك عقول كادها الله ، أي لم يصحَّحها بالتوفيق . وقيل : « أحلامهم » ،

تَأْمُرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ عَقُولَهُمْ بِأَنْ يَرْفُضُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ صَاحِبَ الْمُعْجِزَةِ ، وَيَكْذِبُوا ، وَيَأْتُوا بِالْأَفَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ ، فَيَقُولُوا إِنَّ مُحَمَّدًا كَاهِنٌ ، وَمِرَّةٌ يَقُولُونَ إِنَّهُ مَجْنُونٌ ، وَمِرَّةٌ يَقُولُونَ إِنَّهُ شَاعِرٌ ، وَالْقُرْآنَ شِعْرٌ . مَا تَأْمُرُهُمْ عَقُولُهُمْ بِهَذَا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ ، طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا ، وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ . لَقَدْ كَفَرُوا طُغْيَانًا بَعْدَ ظَهْوَرِ الْحَقِّ لَهُمْ . وَطُغْيَانُهُمْ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٤٨) : ((« أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ » عَقُولُهُمْ » بهذا)) بهذا التناقض في القول ، فَإِنَّ الْكَاهِنَ يَكُونُ ذَا فِطْنَةٍ وَدِقَّةِ نَظَرٍ ، وَالْمَجْنُونُ مُعْطَى عَقْلُهُ ، وَالشَّاعِرُ يَكُونُ ذَا كَلَامٍ مَوْزُونٍ مُتَّسِقٍ مُخَيَّلٍ ، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ مِنَ الْمَجْنُونِ . وَأَمْرُ الْأَحْلَامِ بِهِ مَجَازٌ عَنْ أَدَائِهَا إِلَيْهِ)) .

وفي زاد المسير (٨ / ٥٤) : ((قال المفسرون : كَانَتْ عُظْمَاءُ قُرَيْشٍ تُوصَفُ بِالْأَحْلَامِ ، وَهِيَ الْعُقُولُ ، فَأَزْرَى اللَّهُ بِخُلُومِهِمْ ، إِذْ لَمْ تُثْمِرْ لَهُمْ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ » [الطور : ٣٣] .

يقول المشركون إِنَّ مُحَمَّدًا اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ ، وَجَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ . وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا .
إِنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْقُرْآنِ اسْتِكْبَارًا وَعِنَادًا ، وَيَتَّهِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِهَذِهِ التُّهْمَةِ الْبَاطِلَةِ لِكُفْرِهِمْ بِالْوَحْيِ وَالتُّبُّوَّةِ . لَقَدْ حَمَلَهُمْ كُفْرُهُمْ وَعِنَادُهُمْ وَغُرُورُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقُولَةِ الشَّنِيعَةِ . وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي زَعْمِهِمْ ، فَلْيَقْدِّمُوا دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ كَلَامِهِمْ . لَقَدْ أَلْقَوْا التُّهْمَ وَالْكَاذِبَ لِعَجْزِهِمْ عَنْ تَقْدِيمِ الدَّلِيلِ . وَهَذَا هُوَ أَسْلُوبُ الْعَاجِزِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٧ / ٦٥) : ((وَالتَّقَوُّلُ تَكْلُفُ الْقَوْلِ ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكَذِبِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ ، وَيُقَالُ : قَوْلْتَنِي مَا لَمْ أَقُلْ ! ، ... أَيِ ادَّعَيْتُهُ عَلَيَّ . وَتَقَوُّلٌ عَلَيْهِ ، أَيِ كَذَبَ عَلَيْهِ)) . وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ١٥٠) : ((فَلِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، يَزْمُنُونَ بِهَذِهِ الْأَبَاطِيلِ الَّتِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ بَطْلَانَهَا ، كَيْفَ لَا ، وَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَاحِدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَيْفَ أَتَى بِمَا عَجَزَ عَنْهُ كَافَّةُ الْأُمَمِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : « وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى » [النجم : ١] .

أي : أَذْهَانُهُمْ ، لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يُعْطَى لِلْكَافِرِ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ لَأَمَنَ ، وَإِنَّمَا يُعْطَى الْكَافِرُ الدَّهْنُ ، فَصَارَ عَلَيْهِ حُجَّةً ، وَالدَّهْنُ يَقْبَلُ الْعِلْمَ جُمْلَةً ، وَالْعَقْلُ يُمَيِّزُ الْعِلْمَ ، وَيُعَدِّرُ الْمَقَادِيرَ لِحُدُودِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ)) .

يُقَسِّمُ اللَّهُ بِالنَّجْمِ وقت سُقُوطِهِ من أعلى . والله يُقَسِّمُ بما شاء من مَخْلُوقَاتِهِ . أمَّا الإنسانُ فلا يُقَسِّمُ إلا بالله وَخَدَهُ . وتخصيص وقت سُقُوطِ النَّجْمِ بالذكر ، لأنَّ النَّجْمَ يُهْتَدَى بِهِ في هذه الحالة

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٢ و ٦٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى ﴾ هذا قَسَمٌ . وفي المراد بالنَّجْمِ خمسة أقوال : أحدها أنه الثُّرَيَّا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد . قال ابن قُتَيْبَةَ : والعربُ تُسَمِّي الثريا وهي ستة أنجم نجما ، وقال غَيْرُهُ : هي سبعة ، فسنة ظاهرة وواحد خَفِيٌّ يَمْتَحِنُ به الناسُ أَبْصَارَهُمْ . والثاني الرَّجُومُ من النجوم ، يعني ما يُرْمَى به الشياطين ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثالث أنه القرآن نَزَلَ نُجُومًا مُتَفَرِّقَةً ، قاله عطاء عن ابن عباس ، والأعمش عن مجاهد . وقال مجاهد : كان يَنْزِلُ نُجُومًا ، ثلاث آيات وأربع آيات وَنَحْوُ ذَلِكَ . والرابع نجوم السماء كُلُّهَا ، وهو مروى عن مجاهد أيضًا . والخامس أنها الزُّهرة قاله السُّدِّي . فعلى قَوْل مَنْ قال : النَّجْمُ الثريا ، يكون " هوى " بمعنى غاب . وَمَنْ قال : هو الرَّجُومُ يكون هَوِيَّهَا في رَمَى الشياطين . وَمَنْ قال : القرآن ، يكون معنى " هوى " نَزَلَ . وَمَنْ قال : نجوم السماء كُلُّهَا ، فَفِيهِ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّ هَوِيَّهَا أَنْ تَغِيبَ ، والثاني أن تنتشر يوم القيامة ((اهـ .

وفي الدر المنثور (٨ / ٤١٩) : ((أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ . قال : نزلت في عُتْبَةَ بن أبي لهب حين قال : كفرْتُ بِرَبِّ النَّجْمِ إِذَا هَوَى)) اهـ . وقد دعا عليه النبي ﷺ عقوبة له على كُفْرِهِ الشنيع . فقال ﷺ : ((اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ)) ، فخرج في قافلة يريد الشام ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا ، فقال : إني أخافُ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ، قالوا له : كلا ، فَحَطُّوا مَتَاعَهُمْ حَوْلَهُ ، وَقَعَدُوا يَحْرُسُونَهُ ، فجاء الأسدُ فانتزعه ، فَذَهَبَ بِهِ ⁽⁵⁶⁾ . وقال الله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النَّجْمُ : ٢] .

هذا هو الْمُقَسِّمُ عَلَيْهِ (جواب القَسَمِ) . أي: ما انحرفَ محمد ﷺ عن طريق الحق ، ولا حادَ عن منهج الهداية ، وما صارَ غَاوِيًا ، ولا تَكَلَّمَ في الباطل . والمرادُ نَفْيُ اتِّهَامَاتِ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ . فالنبي ﷺ سائرٌ على الطريق المستقيم ، يَتَمَتَّعُ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، ويمتاز بالفصاحة والبيان والاستقامة . لا تُوجد نقاطُ سُدُوءٍ في تاريخه ، وَلَمْ يَنْحَرَفْ عَنِ الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ

(٥٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٨٨) برقم (٣٩٨٤) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

إِطْلَاقًا . وَلَوْ انْحَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ قَيْدَ أُنْمَلَةٍ ، لَقَامَ الْمُشْرِكُونَ بِتَسْجِيلِ هَذَا الْأَمْرِ عَلَيْهِ ، وَتَعْيِيرِهِ بِهِ ، وَاتِّخَاذِهِ وَسِيلَةً لِلطَّعْنِ فِيهِ وَالتَّشْكِيكِ بِرِسَالَتِهِ . لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَحْدُثْ ، لِأَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْحَقِّ ، وَهُوَ سَائِرٌ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، الَّذِي لَا اعْوْجَاجَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ . وَهَذِهِ الْإِسْتِقَامَةُ الْوَاضِحَةُ جَعَلَتْ الْمُشْرِكِينَ حَائِرِينَ كَيْفَ يَطْعَنُونَ فِيهِ ، وَمَا هِيَ التُّهْمُ الَّتِي سَيُلْقُونَهَا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِنَادِ الْمُشْرِكِينَ ، وَتَنَاقُضِهِمْ ، وَغَرَقِهِمْ فِي الْفَوْضَى ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى تَارِيخِ النَّبِيِّ ﷺ الْأَبْيَضِ بَدُونِ آيَةٍ نَقْطَةٍ سَوْدَاءَ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٣١٥) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ ، هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الشَّهَادَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ، لَيْسَ بِضَالٍّ وَهُوَ الْجَاهِلُ الَّذِي يَسْلُكُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ يَغَيِّرُ عِلْمَ . وَالْغَاوِي هُوَ الْعَالِمُ بِالْحَقِّ الْعَادِلُ عَنْهُ قَصْدًا إِلَى غَيْرِهِ ، فَنَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ وَشَرَعَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ كَالنَّصَارَى وَطَرَائِقِ الْيَهُودِ ، وَهِيَ عِلْمُ الشَّيْءِ وَكَيْتْمَانُهُ وَالْعَمَلُ بِخِلَافِهِ ، بَلْ هُوَ — صَلَاةُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ — وَمَا بَعَثَهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ الْعَظِيمِ فِي غَايَةِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ وَالسَّدَادِ)) اهـ .

و﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ الْخَطَابُ لِغُرَيْشٍ . وَفِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمُ الْعَارِفُونَ بِتَفَاصِيلِ حَيَاةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَقَدْ وُلِدَ فِيهِمْ ، وَعَاشَ مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ غَرِيبًا عَنْهُمْ . وَقَدْ أَطْلَعُوا عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ .

وَفِي تَفْسِيرِ الثَّعَالِبِيِّ (٤ / ٢٢٣) : ((قَالَ الْفَخْرُ : أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ ، فَالْغَيُّ فِي مُقَابَلَةِ الرُّشْدِ . وَالضَّلَالُ أَعْمُ مِنْهُ)) اهـ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النَّجْم : ٣] .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنْ هَوَاهُ ، أَيْ بِهَوَاهُ وَشَهْوَتِهِ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِالْبَاطِلِ ، وَلَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ . وَقَدْ زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ١٤٩) : ((أَيْ : مَا يَصْدُرُ نَطْقُهُ عَنِ الْهَوَى ، لَا بِالْقُرْآنِ وَلَا بِغَيْرِهِ ... وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : إِنَّ ﴿ عَنِ ﴾ بِمَعْنَى الْبَاءِ : أَيْ بِالْهَوَى . قَالَ قَتَادَةُ : أَيْ مَا يَنْطِقُ بِالْقِرَاءَةِ عَنْ هَوَاهُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النَّجْم : ٤] .
إِنَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ، لَا يُنْقَصُ مِنْهُ وَلَا يَزِيدُ . وَهَذَا الْوَحْيُ هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ ، وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ . وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ لَا يُجِيزُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْحَوَادِثِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٢): ((وليس كما ظنوا، لأنَّ اجتهاد الرأي إذا صدر عن الوحي، جاز أن يُنسب إلى الوحي)) اهـ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ١٤٩): ((﴿يُوحَىٰ﴾ صِفَةُ لَوْحِي ، تفيد الاستمرار التجديدي، وتفيد نفْيَ المجاز : إِنَّهُ وَحْيٌ ، حقيقة لا لِمَجَرَّدِ التَّسْمِيَةِ)) اهـ .

وعن أبي أمامة أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيِّ مِثْلُ الْحَيِّينِ أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الْحَيِّينِ رُبْعَةً وَمُضَرٌّ)) ، فقال رجل : يا رسول الله، أَوْ مَا رُبْعَةٌ مِنْ مُضَرٍّ ؟ ، فقال : ((إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ)) (57).

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ كَمَا يُلْقَنُهُ الْوَحْيُ وَيُعَلِّمُهُ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ . وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٥٢) : (((ليدخلن الجنة بشفاعه رجل) قيل : إنه أُويس القرني ... فقال رجل : يا رسول الله وما رُبْعَةٌ مِنْ مُضَرٍّ ؟ ، أي ما نِسْبة رُبْعَةٍ إِلَى مُضَرٍّ ، وبينهما في الشرف بَوْنٌ بعيد ، فقال : (إِنَّمَا أَقُولُ مَا أَقُولُ) ... أَي لُقْنَتْهُ وَعُلِّمَتْهُ ، أَوْ أُلْقِيَ عَلَى لِسَانِي مِنَ الْإِلْهَامِ ، أَوْ هُوَ وَحْيٌ حَقِيقَةٌ)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأُرِيدُ حِفْظَهُ ، فَتَهَنَّنِي فُرَيْشٌ ، وَقَالُوا : تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرُتُ يَتَكَلَّمُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ !؟ ، قال : فَأَمْسَكْتُ فذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقال : ((أَكْتُبُ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ)) . وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ _ يَعْنِي فَمَهُ الشَّرِيفَ _ (58).

وهذا يدل على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ فِي حَالِ الرِّضَا وَلَا فِي حَالِ الْغَضَبِ . وَإِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ إِلَهِيٌّ فِي قَلْبِهِ ، وَعَلَى لِسَانِهِ ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرِ الْحَقِّ . وقال النبي ﷺ : ((وَمَا أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَهُوَ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ)) (59) . وهذا يدل على أَنَّ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ كَامِلٌ وَمَعْصُومٌ ، لَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نَقْصَانٍ .

(٥٧) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٢٥٧) . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤ / ٢٤١) : ((رواه أحمد بإسناد جيّد)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٦٩٣) : ((رواه أحمد والطبراني بأسانيد ، ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح ، غير عبد الرحمن بن ميسرة ، وهو ثقة)) .

(٥٨) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ١٨٧) برقم (٣٥٩) وصحَّحه .

(٥٩) رواه ابن حبان في صحيحه (٥ / ٤٦٥) برقم (٢١٠٦) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قالوا : يا رسول الله ، إنك تُداعبنا . قال : ((إني لا أقول إلا حقاً)) (60).

وهذا يدل على أهمية الملاطفة والمزاح باعتدال ، وليس في كل وقت . فهناك أوقات لا يصلح فيها إلا الجد ، وأوقات لا يصلح فيها إلا المزاح . كما قال الشاعر :

أهزل حيث الهزل يحسن بالفتى وإنني إذا جد الرجال لذو جد

والنبي ﷺ صادق في كل أحواله لعصمته من الخطأ والزلل ، فلا يقول في مزاحه إلا حقاً وعدلاً وصدقاً ، وهذا لا يطيقه الناس لأنهم غير معصومين . وفي فيض القدير (٣ / ١٤) : ((قال الراغب : المزاح والمداعبة إذا كان على الاقتصاد محمود ، والإفراط فيه يذهب البهاء ، ويجري السفهاء ، وتركه يقبض المؤمن ، ويوحش المخالط . لكن الاقتصاد منه صعب جداً ، لا يكاد يُوقف عليه . ولذلك يخرج عنه أكثر الحكماء ، حيث قيل : المزاح مسلبة للبهاء ، مقطعة للإخاء)) اه .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٩] .

الله الذي يُنَزِّلُ على محمد ﷺ الحُجَجَ الباهرة ، والبراهين الواضحة ، والمعجزات الظاهرة ، وأعظم المعجزات على الإطلاق مُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ ، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان . والمعنى : قد لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ لما معه من المعجزات الواضحة ، فلا عُذر لكم في الكفر . والله كثير الرأفة والرحمة ، حيث أنزل الآيات الواضحة لإرشاد الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم ، فيحصلون على سعادة الدنيا ، وينالون نعيم الآخرة . لقد أنزل الله كُتُبَهُ وَبَعَثَ رُسُلَهُ بعد إقامة الحُجَجِ العقلية لهداية الناس ، ولم يتركهم تائهين وضائعين ، تتلاعب بهم الشكوك والأهواء . وهذا مُنتهى الرأفة ، وأعظم رحمة على الإطلاق .

(٦٠) رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٥٧) برقم (١٩٩٠) . وقال : ((حسن صحيح)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٩١) : ((هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)) أي حُجَجًا واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي مِّن ظُّلُمَاتِ الجَهل والكفر والآراء المتضادة إلى نُور الهدى واليقين والإيمان ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : في إنزاله الكُتب وإرساله الرُّسل ، لهداية الناس ، وإزاحة العِلَل وإزالة الشُّبه))

وقال الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

إذا أتاك يا محمد المنافقون (عبد الله بن سَلُول وأصحابه) ، وحَضَرُوا مَجْلِسَكَ ، قالوا بألسنتهم نِفَاقًا ورياءً : نشهد يا محمد إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ . وهذه صيغة تأكيد ، إذ إنهم يُقَدِّمُونَ أنفسهم كمؤمنين صالحين ، وشهادتهم نابعة من قلوبهم بكل إخلاص وإيمان . والحقيقة أَنَّ كلامهم يُخالف ما في قلوبهم . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ٢٥١) : ((إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي : حَضَرُوا مَجْلِسَكَ ، ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ مُؤَكِّدِينَ كلامهم " بَيِّنًا واللام " للإيدان بأن شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم ، وخلص اعتقادهم ، ووفور رغبتهم ونشاطهم)) اهـ .

والله يعلم أَنَّ مُحَمَّدًا رَّسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقًا ، فهو الذي بعثه رسولاً للناس ، وأَيَّدَهُ بِالوَحْيِ والمعجزات . والآية ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ جاءت لدفع الوهم الذي قد يَنشَأ بسبب تكذيب المنافقين في شهادتهم لمحمد بالرسالة . ويدُون هذه الآية ، قد يتبادر إلى الذَّهن أَنَّ قَوْلَ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ كَذِبٌ بِحَدِّ ذَاتِهِ ، أي إِنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ رَسُولَ اللَّهِ . وهذا هَدْمٌ للرسالة .

وقال ابنُ جُرَيِّ في التسهيل (٤ / ٢١٢) : ((وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ ليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، وَلَوْ لَمْ يَذْكُرْهُ لَكَانَ يُوْهِمُ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ إِبْطَالٌ للرسالة ، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم لِئُرِيْلَ هذا الوهم ، وَلِيُحَقِّقَ الرِّسَالَةَ)) اهـ .

والله يشهد بكذب المنافقين فيما أخبروا به مع أنه مطابق للواقع ، لأنهم أضَمَرُوا خِلَافَ مَا أَظْهَرُوا . أي إِنَّ مَا يَقُولُونَهُ بألسنتهم يُخالف ما في قلوبهم . وقد كَذَّبَهُمُ اللَّهُ لِأَنَّ شهادتهم بأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ مُجَرَّدُ كَلَامٍ يُرَدِّدُونَهُ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ . لذلك تَمَّ وَصْفُهُم بِالْكَذِبِ . وحقيقة الكذبِ

أن يقول الشخصُ كلامًا يُخالف ما في قلبه ، وهذه هي حال المنافقين . وشهادة المنافقين هي حلف ، وتمَّ التعبير عن الحلف بالشهادة ، لأنَّ كِلَيْهِمَا إثبات لأمرٍ مُغِيب . والآية : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ تقديرُ الكلام : والله يشهد إنهم لكاذبون . فكان الإظهار في موضع الإضمار من أجل ذمِّهم وتوبيخهم وتسجيل صفة النِّفاق عليهم وفضحهم . والآية ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ جاءت مؤكدةً بأنَّ واللام ، وذلك لزيادة البيان والتقريب والتأكيد .

وفي تفسير القرطبي (١٨ / ١٠٩) : ((وقال الفراء : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ بضمائرهم ، فالتكذيب راجع إلى الضمائر ، وهذا يدل على أنَّ الإيمان تصديق القلب ، وعلى أنَّ الكلام الحقيقي كلام القلب ، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب)) اهـ .

وهذه الآية قد فضحت المنافقين أمام الناس ، وكشفت باطلهم ، وردَّتْ كَيْدَهُمْ في نُحُورِهِمْ . وعن زيد بن أرقم قال : كُنْتُ مَعَ عَمِّي ، فسمعتُ عبد الله بن أبي بن سلول يقول : لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُوا ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي ، فَذَكَرَ عَمِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَدَعَانِي ، فَحَدَّثْتُهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا ، وَكَذَّبَنِي النَّبِيُّ ﷺ ، وَصَدَّقَهُمْ ، فَأَصَابَنِي غَمٌّ لَمْ يُصِبنِي مِثْلُهُ قَطُّ ، فَجَلَسْتُ فِي بَيْتِي ، وَقَالَ عَمِّي : مَا أُرَدْتُ إِلَى أَنْ كَذَبَكَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَقَّتَكَ ؟ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَأَرْسَلْ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَهَا ، وَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ)) (61) .

ودائمًا ، يلجأ المنافقون إلى الحلف الكاذب ، من أجل الدفاع عن أنفسهم ، وترويج باطلهم ، والطعن في الآخرين . وقد فضحهم الله تعالى ، وكشف أَلَاغِيَهُمْ وَأَسَالِيْبَ تَحَايِلِهِمْ . وقال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق : ١٠] .

فخافوا الله ، واحذروا غَضَبَهُ ، بالتزام أوامره ، واجتناب نَوَاهِيهِ ، يا أصحاب العقول الراجحة ، الذين صدَّقوا الله ورسوله ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ وَحْيًا يُتْلَى ، وهو القرآن العظيم . وفي تفسير الجلالين (١ / ٧٥٠) : ((﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نَعَتْ لِلْمُنَادَى أو بيان له ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ هو القرآن)) اهـ .

(٦١) رواه البخاري (٤ / ١٨٦١) برقم (٤٦٢١) ، ومسلم (٤ / ٢١٤٠) برقم (٢٧٧٢) .

وقال الله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق : ١١].

أرسل الله إلى الناس رسولاً (محمدًا ﷺ) يقرأ عليهم آيات الله، واضحات ظاهرات، لا غموض فيها ولا لبس، تشتمل على الشرائع النافعة، وأحكام الحلال والحرام، وأحوال الدنيا والآخرة، ليخرج المؤمنين، وهم الذين جمعوا بين التصديق القلبي وعمل الطاعات، من ظلمات الجهل والكفر الذي كانوا عليه إلى نور العلم والإيمان. أي: يخرجهم من الضلالة إلى الهدى. وخصّ "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" بالذكر لأنهم المُنْتَفِعُونَ بالمواعظ والأحكام والشرائع. وأضاف الإخراج إلى النبي ﷺ، لأن الإيمان يتحقق بطاعته والعمل بتوجيهاته وإرشاداته.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٤٦): ((﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ على صيغة اسم الفاعل: أي الآيات تُبَيِّن للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام)) اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٩٣): ((وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾. قال بعضهم: ﴿رَسُولًا﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال ومُلاَبَسَة، لأن الرسول هو الذي بَلَغَ الذِّكْرَ. قال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذِّكْر، يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي في حال كَوْنِهَا بَيِّنَةً واضحة جَلِيَّةً)) اهـ. وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم : ٥١].

كَانَ الْكَافِرُ يُرَكِّزُونَ النَّظَرَ فِي النَّبِيِّ ﷺ حَقْدًا عَلَيْهِ وَكَرَاهِيَةً لَهُ. وَيَكَادُونَ يَصْرَعُونَهُ بِشِدَّةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ الرَّاجِحُ. وَالتَّفْسِيرُ الثَّانِي أَنَّهُمْ أَرَادُوا إِصَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْعَيْنِ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لَهُ، فَكَانُوا - إِذَا قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ - يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرًا شَدِيدًا وَمُرَكَّزًا مِنْ أَجْلِ صَرْعِهِ وَإِسْقَاطِهِ. وَقَدْ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَحَمَاهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَغْلِي بِالْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالْعِدَاوَةِ، كَمَا تَدُلُّ - حَسَبَ التَّفْسِيرِ الثَّانِي - عَلَى أَنَّ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ حَقٌّ، وَتَأْثِيرُهَا وَاقِعٌ. وَكُلُّ شَيْءٍ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. كَانَ الْكَافِرُونَ يَكْرَهُونَ سَمَاعَ الْقُرْآنِ (الذِّكْر) أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ، فَيُرَكِّزُونَ أَنْظَارَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بُغْضًا لَهُ، وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى الْجَنُونِ بِدَافِعِ الْحَقْدِ وَالْبَغْضَاءِ، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا أَيَّ دَلِيلٍ عَلَى اتِّهَامِهِمْ. وَالْآيَةُ السَّابِقَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَظَرَ الْكَافِرِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْعَيْنِ، لِأَنَّ إِصَابَةَ الْعَيْنِ إِنَّمَا تَكُونُ مَعَ الْإِعْجَابِ وَالِاسْتِحْسَانِ لَا مَعَ الْبُغْضِ

والكراهية . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢٠١) : ((وذلك أن الكفار أرادوا أن يُصيبوا رسولَ الله ﷺ بالعين ، فنظر إليه قومٌ من قُرَيْشٍ ، وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثلَ حُجْجِه . وقيل : كانت العينُ في بني أسد ، حتى كانت الناقة والبقرة السمينه ، تمرُّ بأحدهم فيُعَاينها ، ثُمَّ يقول : يا جارية ، خُذي المِكَتَل _ الوعاء _ والدرهم ، فَأَتينا بشيءٍ من لحم هذه ، فما تَبَرَّحَ حتى تقع بالموت فَتُنَحَّرَ .))

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٤٣ و ٣٤٤) : ((وفي معنى الآية للمفسرين قولان : أحدهما أن الكفار قَصَدُوا أن يُصيبوا رسولَ الله ﷺ بالعين . وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثُمَّ يرفع جانب خبائه ، فتمر به النعم ، فيقول : لَمْ أَرْ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً ، حتى يسقط منها عِدَّةٌ ، فسأل الكفارُ هذا الرجلُ أن يُصيب رسولَ الله ﷺ بالعين ، فعَصَمَ الله نبيّه ، وأنزل هذه الآية ، هذا قول الكلبي ، وتابعه قومٌ من المفسرين تلقفوا ذلك من تفسيره منهم الفراء . والثاني أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يكاد يُزلقه من شدته ، أي يُلقيه إلى الأرض ، وهذا مُستعملٌ في كلام العرب ، يقول القائل : نظر إليّ فلان نظراً كاد يَصْرَعُنِي . وأنشدوا : يَتَقَارِضُونَ إِذَا التَّقَوْا فِي مَوْطِنٍ ... نظراً يُزِيلُ مَوَاطِنَ الْأَقْدَامِ . أي ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة ، يكاد يُزِيلُ الْأَقْدَامَ . وإلى هذا ذهب المحققون ، منهم ابن قتيبة والزجاج)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٧١٩) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ عن النبي ﷺ قال : ((العَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقُ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ)) .
إنَّ الإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ حَقٌّ ، وهي شديدة الضرر ، وأحياناً تكون قاتلةً . وكلُّ الأشياءِ بِقَدَرِ اللَّهِ . والخيرُ والشرُّ لا يُوجَدَانِ بِشَكْلِ اسْتِقْلَالِي ، وَإِنَّمَا يَحْدُثَانِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْقَدَرُ لَا يَسْبِقُهُ شَيْءٌ ، وَلَكِنْ _ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ _ لَوْ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ عَظِيمُ الْقُوَّةِ وَالتَّأثيرِ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَكَانَتِ الْعَيْنُ ، وهذا يدل على شِدَّةِ خطورتها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٧٤) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقُ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ " . فِيهِ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ ، وهو حق بالتَّصَوُّص وإجماع أهل السُّنَّةِ ... ومعناه أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَبَقَ بِهَا عِلْمُهُ ، فَلَا يَقَعُ ضَرَرُ الْعَيْنِ ، وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ إِلَّا بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى . وفيه صِحَّةُ أَمْرِ الْعَيْنِ ، وأنها قوية الضرر ، والله أعلم)) اهـ .

وعن جابر _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((الْعَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ)) (62).

والمعنى أَنَّ الْعَيْنَ شَيْءٌ قَاتِلٌ ، تَقْتُلُ الرَّجُلَ فَيُدْفَنُ فِي قَبْرِهِ ، وَتَقْتُلُ الْجَمَلَ فَيُطَبِّخُ فِي الْقَدْرِ .
وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٢٠٠) : ((وقد أخرج البزار بسند حسن عن جابر رَفَعَهُ :
" أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ بَعْدَ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالنَّفْسِ " . قال الراوي يعني : بِالْعَيْنِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الْقَلَمُ : ٥٢] .

الْقُرْآنُ مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَالْآيَةُ تَرُدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّهَمُوا مُحَمَّدًا ﷺ بِالْجَنُونِ . وَالْمَعْنَى : كَيْفَ يَكُونُ مَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْمَعْجَزُ مَجْنُونًا ؟ . وَهَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَقَضْحٌ لِبَاطِلِهِمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٢٣) : ((أَي : وَمَا الْقُرْآنُ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . وَقِيلَ : أَي :
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ شَرَفٌ ، أَيِ الْقُرْآنِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [الْمُرْئَل : ١٥] .

أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، شَاهِدًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ وَعَصْيَانِهِمْ .
أَوْ : يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ . أَوْ : شَاهِدًا عَلَيْكُمْ بِالتَّبْلِيغِ ،
وِإِيمَانِ مَنْ آمَنَ ، وَكُفْرِ مَنْ كَفَرَ ، كَمَا أَرْسَلَ مُوسَى ﷺ إِلَى الطَّاغِيَةِ فِرْعَوْنَ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي
تفسيره (١ / ٤٠٧) : ((وَلَمْ يُعَيِّنْهُ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ)) اهـ .

وقال الخازن في تفسيره (٤ / ١٦٩) : ((وَإِنَّمَا خُصَّ فِرْعَوْنَ وَمُوسَى بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ
الْأُمَمِ وَالرُّسُلِ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آذَاهُ أَهْلَ مَكَّةَ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ لِأَنَّهُ وُلِدَ فِيهِمْ ، كَمَا أَنَّ فِرْعَوْنَ أَزْدَرَى
بِمُوسَى وَآذَاهُ لِأَنَّهُ رَبَّاهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ [الْمُدَّثِّرُ] .

(٦٢) رواه أبو نُعَيْمٍ فِي جِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ (٧ / ٩٠) . وَقَالَ الْعَجْلُونِي فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ (٢ / ٧٨٨) : ((
نُقِلَ عَنْ ابْنِ عَدِي أَنَّهُ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّهُ قِيلَ لِشُعَيْبٍ _ أَحَدِ رَوَاةِ الْحَدِيثِ _ يَنْبَغِي أَنْ تُمَسِّكَ عَنْ = هَذِهِ
الرِّوَايَةِ)) اهـ . وَقَدْ أَوْرَدَ الْحَدِيثَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٥٢٥) بِسَنَدٍ آخَرَ ، وَقَالَ : ((وَهَذَا
إِسْنَادُ رَجَالِهِ كُلِّهِمْ ثِقَاتٌ)) اهـ .

الخطابُ للنبي ﷺ : يا أيها المتغطّي بشيابه عند نومه يريد الراحة ، قُمْ قِيَامَ عَزْمٍ وتصميم ، وبلّغ رسالة الله بكل ثبات وإصرار ، وَخَوْفٍ قَوْمَكَ (أهل مكة) من عذاب الله إن لم يؤمنوا . وقيل : الإنذار هنا هو إعلامهم بنبوّته ، وقيل : إعلامهم بالتّوحيد .

وقد خُوطب النبي ﷺ بلفظ " المدثر " مُلاطفةً له ومُؤانسة . ولم يُخاطب باسمه " محمد " لئلا يشعر بالخوف أو الرّهبة أو الوحشة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ٥٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ مُلاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب ، إذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصِفته ، وَلَمْ يَقُلْ : يا محمد ويا فلان ، ليستشعر اللين والمُلاطفة من ربّه)) .

ومثّل ذلك قَوْلُ النبي ﷺ لعليّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ : ((قُمْ أبا تُرَاب ، قُمْ أبا تُرَاب)) . [صحيح البخاري (٥ / ٢٣١٦)] . وكان عليّ قد خرج من عند فاطمة _ رضي الله عنها _ غاضبًا ، وذهب إلى المسجد ، ونامَ على الأرض ، فسقطَ رداؤه ، وأصابه تراب . أو مثّل قَوْلُ النبي ﷺ لِخُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ _ رضي الله عنه _ : ((قُمْ يا نَوْمان)) [صحيح مسلم (٣ / ١٤١٤)] . يعني : قُمْ يا كثير النّوم .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ _ وهو يُحدّث عن فترة الوحي _ قال في حديثه : ((بَيْنَا أَنَا أُمَشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمُّونِي زَمُّونِي)) ، فَدَثَرُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ ... (63)

الملكُ هو جبريل _ عليه السلام _ ، وهو عَظِيمُ الْخَلْقَةِ ، ذُو هَيْبَةٍ تَخْلَعُ الْقُلُوبَ . وعندما رآه النبي ﷺ أُصِيبَ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ ، وَفَرَعَ رَهِيْبٍ ، فَرَجَعَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : لُفُّونِي وَغَطُّونِي حَتَّى يَهْدَأَ وَيَذْهَبَ عَنْهُ الْخَوْفُ ، فَقَامُوا بِتَغْطِيَتِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ... إلخ . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ [النَّازِعَات : ٤٥] (64) .

(٦٣) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٨٩٥) برقم (٤٦٧١) ، ومسلم (١ / ١٤٣) برقم (١٦١) .

(٦٤) في تفسير القرطبي (١٩ / ١٨٢) : ((الْآيَةُ رَدٌّ عَلَى مَنْ قَالَ : أحوال الآخرة غير محسوسة ، وإنما هي راحة الرّوح ، أو تألّمها من غير حس)) اهـ .

لقد أرسل الله محمدًا ﷺ لِيُنذِرَ النَّاسَ ، وَيُخَوِّفَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . فَمَنْ خَشِيَ اللَّهَ ، وَأَطَاعَهُ ، فَقَدْ فَازَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَمَنْ عَصَاهُ ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدَّارَيْنِ .

وُحُصَّ الْإِنذَارُ بِمَنْ يَخْشَى ، لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَوْتُهُ عَامَّةٌ ، وَهُوَ مُنْذِرٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، مَنْ يَخْشَى وَمَنْ لَا يَخْشَى . وَالْمَعْنَى : إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِكَ مَنْ يَخْشَى السَّاعَةَ . فَالنَّبِيُّ ﷺ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ لِإِنذَارِ مَنْ يَخَافُ أَهْوَالَ يَوْمِ السَّاعَةِ الرَّهيبِ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ تَحْدِيدِ مَوْعِدِ قِيَامِ السَّاعَةِ.

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُخَوِّفُ مَنْ يَخْشَى قِيَامَ السَّاعَةِ ، وَيَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ . وَلَيْسَتْ وَظِيفَةُ النَّبِيِّ ﷺ تَحْدِيدُ مَوْعِدِ قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَهَذَا الْأَمْرُ الْغَيْبِيُّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى . فَقَدْ اسْتَأْثَرَ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَمْ يُطْلَعْ أَيُّ مَخْلُوقٍ عَلَيْهِ . لَا نَبِيٌّ وَلَا مَلَكٌ .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٩ / ١٠٥) : ((وَظِيفَتُكَ الْإِمْتِثَالُ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ بَيَانِ اقْتِرَابِهَا ، وَتَفْصِيلِ مَا فِيهَا مِنْ فُنُونِ الْأَهْوَالِ كَمَا تُحِيطُ بِهِ خَبْرًا ، لَا تَعَيِّنُ وَقْتُهَا الَّذِي لَمْ يُفَوِّضْ إِلَيْكَ ، فَمَا لَهُمْ يَسْأَلُونَكَ عَمَّا لَيْسَ مِنْ وَظَائِفِكَ بَيَانُهُ)) اهـ .

وَالْمَرْءُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، هُوَ الْمُنْتَفِعُ بِإِنذَارِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَوَاعِظِهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْخَوْفَ لَهُ تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ ، خُصُوصًا الْأُمُورَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَعَذَابِ النَّارِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنذَارَ يَكُونُ ذَا مَعْنَى وَتَأْثِيرٍ إِذَا كَانَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أَمَّا الْكَافِرُ الْجَاهِلُونَ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إِنذَارِهِمْ وَعَدَمِ إِنذَارِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ لَا يَتَأَثَّرُونَ بِالْمَوَاعِظِ وَالتَّخْوِيفِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢ / ٤٤١) : ((يَقُولُ : فَدَعُ مَا لَمْ تُكَلِّفْ عِلْمَهُ ، وَاعْمَلْ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنْ إِنذَارِ مَنْ أُمِرْتَ بِإِنذَارِهِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٩ / ٢٤) : ((وَمَعْنَى الْكَلَامِ : إِنَّمَا أَنْتَ مُخَوِّفٌ مَنْ يَخَافُهَا . وَالْمَعْنَى : إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنذَارُكَ مَنْ يَخَافُهَا ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ بِهَا ، وَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُهَا فَكَأَنَّهُ لَمْ يُنْذَرْ)) اهـ .

وفي الحديث أَنَّ جبريل _ عليه السلام _ جاء إلى النبي ﷺ في هيئة رجل ، وسأله ، فقال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ . فقال النبي ﷺ : ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)) (65).

وجبريل _ عليه السلام _ أرادَ تعليمَ الصحابة، وذلك بسؤال النبي ﷺ كي يُجيب . والحديث يدل على أهمية عدم الإفتاء بغير علم . فالنبي ﷺ أعلم الخلق بالله تعالى ، ومع هذا ، فلم يُجب عن السؤال لأنه لا يعلم الإجابة . وهذا يُشير إلى إخلاص النبي ﷺ وأمانته وتواضعه . فلم يُجب بغير علم ، ولم يكذب على الله تعالى ، ولم يُؤلف جواباً من أفكاره ليُقَال إنه عالم يعرف كل شيء .

وينبغي على العالم إذا سُئل عن شيء لا يعلمه أن يقول : لا أعلم . ولا يشعر بأي حرج .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١ / ١٥٨) : ((فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما ، إذا سُئل عما لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم ، وأن ذلك لا يُنقصه ، بل يُستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه)) اهـ .

والجدير بالذكر أَنَّ بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة .

فعن سهل بن سعد _ رضي الله عنه _ قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال _ بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام _ : ((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ)) (66).

الإصبعان هما الوسطى والسَّابِة . والمعنى : إِنَّ النبي ﷺ ويوم القيامة مُقترنان كاقتران الوسطى والسَّابِة ، والمراد بيان قُرب وقت قيام الساعة .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ١٥٥) : ((قال القاضي : يُحْتَمَلُ أَنَّهُ تَمَثِيلٌ لِمُقَارَبَتِهَا ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِصْبَعٌ أُخْرَى ، كَمَا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لِتَقْرِيبِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُدَّةِ ، وَأَنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَهُمَا كِنِيسَةُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْإِصْبَعَيْنِ تَقْرِيبًا لَا تَحْدِيدًا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] .

هذه الآية هي أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ . وهي دَعْوَةٌ إلهية كريمة إلى القراءة والكتابة والتَّعلم والتَّعليم . وهذه القضايا هي جَوْهر الدِّين الإسلاميِّ الحنيف . فالإسلام قائمٌ على القراءة والعلم والمعرفة ، ولا يقوم على التَّسليم الأعمى ، أو تقليد الآباء ، أو حفظ النصوص وترديد دُون

(٦٥) متفق عليه . البخاري (١٧٩٣ / ٤) برقم (٤٤٩٩) ، ومسلم (٣٩ / ١) برقم (٩) .

(٦٦) متفق عليه . البخاري (١٨٨١ / ٤) برقم (٤٦٥٢) ، ومسلم (٢٢٦٨ / ٤) برقم (٢٩٥٠) .

فَهِمَهَا . وَالْآيَةُ تُظْهِرُ الْأَهَمِيَّةَ الْفَائِقَةَ لِلْعِلْمِ ، فَهُوَ الطَّرِيقُ الْمُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْإِسْلَامِ ، وَاتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِوَعْيٍ وَبَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ . وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ عَقُولَ النَّاسِ ، لِأَنَّ الْعَقْلَ مَنَاطُ التَّكْلِيفِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ (الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ الْمُقَدَّسَ) مُبْتَدِئًا بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ ، وَأَتَقَنَ صِنَاعَةَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَمُسْتَعِينًا بِهِ . وَالْمَقْصُودُ ذِكْرُ التَّسْمِيَةِ فِي بَدَايَةِ كُلِّ سُورَةٍ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٠٩) : ((أَي : اقْرَأَ الْقُرْآنَ مُفْتَتِحًا بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، أَوْ مُسْتَعِينًا بِهِ ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ أَي الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ ، أَوِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ)) اهـ .
وَفِي زَادِ الْمَسِيرِ (٩ / ١٧٥) : ((وَقَالَ الْمَفْسَّرُونَ : الْمَعْنَى : اذْكُرْ اسْمَهُ مُسْتَفْتِحًا بِهِ قِرَاءَتِكَ ، وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، لِأَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ دُونَ أَصْنَامِهِمْ)) اهـ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : ((أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾)) (67).
وَالْمَقْصُودُ هُوَ سُورَةُ الْعَلَقِ الَّتِي تَبْدَأُ بِهَذِهِ الْآيَةِ .

(٦٧) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٢٤٠) بِرَقْمِ (٢٨٧٣) . وَقَالَ الذَّهَبِيُّ : ((عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ)) .

الفصل السادس التَّأْسِي والاعتداء

تمهيد

النبي محمد ﷺ هو الإنسان الكامل، صاحب الشخصية المتفردة، المؤيد بالوحي الإلهي. لا ينطق إلا بالحق، كلامه حكمٌ بليغة، ومواعظٌ جليلة. ولا يفعل إلا الصواب. أفعاله متوازنة، وتستند إلى منظومة أخلاقية متكاملة. لذلك ينبغي الاقتداء به، واتخاذُه قُدوةً. فبالاقتداء به، نقتبس من نوره. وبالتأسي به نحصل على الشرف الرفيع. فالانتسابُ إلى هذا النبي العظيم قِمةُ الشرف والرَّفعة. والانتسابُ إليه ليس شعارًا مُفرغًا من المعنى، أو مُجردَ كلام. وإنما هو انتساب حقيقي، بالسَّير على خطاه، والتَّشبه به، واتخاذ أقواله دُستورًا ومنظومةً فكرية، واتخاذ أفعاله نظامًا لحياة الفرد والوجود الإنساني بأكمله.

والإنسان حين يقتدي بمحمد ﷺ، لا يقتدي بشخص عادي. وإنما يقتدي بأعظم الأنبياء، وسيد المخلوقات. النبي العظيم الذي لا يتصرف من تلقاء نفسه، وإنما يتصرف وفق توجيهات الوحي الإلهي المعصوم.

إن النبي ﷺ هو المثل الأعلى، والقُدوة السَّامية. وهذه حقيقة واقعية. فالنبي ﷺ ضرب أروع الأمثلة في الصبر والثبات والتحمل والقيادة. وجميع مواقف النبي ﷺ تُشير إلى هذه الحقيقة. وقد حوّل كلامه إلى أفعال، كما كانت أفعاله تُصدّق كلامه. لذلك، فلا تناقض بين النظرية والتطبيق في المنهج النبوي الشريف.

لم يعيش النبي ﷺ على حساب أصحابه، ولم يستغلهم لتحقيق مصالح شخصية، ولم يحصل على راحته عن طريق إرهابهم. وإنما كان مُضرب المثل في الصّدق والنزاهة والأمانة، فقاد المَعارك بنفسه، وتقدّم الصفوف، وجاع، وعطش، وتعب، وعانى من الأزمات والشدائد والصعوبات، وعاش حياةً خشنة وقاسية. ولم يعيش في القصور، ولم يتخذ الناس عبيدًا له، ولم يبنَ مَجده على جماجمهم للحصول على السُّلطة، ولم ينشر دعوته بالحديد والنار.

لقد عاش حياته بكل معاني الشرف والكرامة والمجد، ولا توجد نقطة سوداء في تاريخه الشخصي. ولو كان هناك نقطة سوداء لقام المشركون بتغييره بها، وتسجيلها عليه، وتذكيره بها للانتقاص منه والظعن فيه. لكن هذا لم يحدث. إذ إن حياة النبي ﷺ صفحة بيضاء مكشوفة للناس. حتى إن قريشًا التي حاربتُه وكذبتُه، تعرف أنه الصادق الأمين، والمثل الأعلى، والقُدوة السَّامية، فقد وُلد فيهم، وعاش بينهم ومعهم. ولا أحد يُنكر ضوء الشمس إلا الأعمى.

قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله ، فهو القدوة السامية ، والمثل الأعلى ،
ويجب السير على خطاه . وفي الآية عتابٌ للمتخلفين عن القتال من المؤمنين .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٧٧) : ((وهذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله ﷺ
وعسكره بالمدينة من المؤمنين به . يقول لهم جلّ ثناؤه : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
أن تتأسوا به ، وتكونوا معه حيث كان ، ولا تتخلفوا عنه)) اهـ .

لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة في النبي ﷺ حيث بذل روحه رخيصةً لنصرة
الإسلام ، وذلك في خروجه إلى الخندق (غزوة الأحزاب) . والأسوة القدوة . فكان عليكم أن
تتأسوا به ، وتكونوا معه ، ولا تفارقوه .

والأسوة في الرسول ﷺ مفهوم عام وشامل ، يتحقق في الاقتداء به ، واتباع سنته ، وعدم
مخالفة قوله ولا فعله .

ينبغي الاقتداء بالنبي ﷺ في إخلاصه ، وجهاده ، وصبره ، وثباته على الحق . ولا بُد من
التأسي به في أقواله وأفعاله وأحواله ، لأنه لا يتكلم ولا يفعل عن هوى ، ولا يأتي بشيء من عنده .
فحركاته وسكناته خاضعة للوحي الإلهي الكامل المعصوم . لذلك ، وجب اتخاذه قدوة ، والسير على
خطاه ، والعمل بسنته القولية والفعلية والتقريبية ، والتشبه به في كل حالاته ، والالتزام بمنهجه
القيومي .

فَتَشَبَّهُوا إِن لَّمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكَرَامِ فَلَاحُ

ومع أن هذه الآية لها سبب نزول مُحدّد ، إلا أنها عامّة وشاملة . والعبرة بعموم اللفظ لا
بخصوص السبب .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٢٦) : ((هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول
الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر - تبارك وتعالى - الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم
الأحزاب ، في صبره ، ومصابرته ، ومُرابطته ، ومُجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربّه عزّ وجلّ -
صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين - . ولهذا قال تعالى للذين تقلّفوا وتضجّروا وتزلزلوا

واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هالاً اقتديتم به ، وتأسيتهم بشمائله ﷺ ((اه .

والنبي ﷺ هو القائد الذي كان يتقدم الصفوف ، ولم يكن يختبئ في غرفة العمليات ، ولم يتقدم أصحابه للموت ، ويظل نائماً في قصره بين الجواري والخدم . لقد قاد الغزوات بنفسه ، وكسرت رُباعيته، وجرح وجهه، وقتل عمه، وعانى من الجوع، وعاش حياةً خشنة وقاسية . وكان بإمكانه أن يعيش حياة الملوك، ويغرق في نعيم الدنيا ورغد العيش ، لكنه اختار الآخرة على الدنيا . وهذا دليلٌ باهر على صدقه وصحة نبوته، فهو لم يتخذ الدعوة وسيلةً لتحقيق مكاسب مادية . وَلَوْ كَانَ كاذباً في ادعاء النبوة ، لَحَوَّلَ الدعوة إلى مشروع تجاري استثماري لاستغلال الناس ، وسرقة أموالهم ، وقتلهم مقابل أن يظل مُحْتَفَظاً بالكُرسى والسلطة ، ويضمن الهيمنة له ولأتباعه ولعشيرته ، وينام في القصور بين الجواري والخدم ، ويرتاح من الأزمات والشدائد ، ويأكل أشهى الطعام إلى حد التخمّة ، ويرتدي أفخم الثياب مثل الملوك والأكاسرة . لكنه لم يفعل شيئاً من هذا، لأنه نبيٌّ صادق ، جاء لتبليغ الوحي الإلهي للناس بلا زيادة ولا نقصان ، وإنقاذهم لا تدميرهم .

وعن جابر قال : لَمَّا حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْخندقَ أَصَابَهُمْ جَهْدٌ شَدِيدٌ، حَتَّى رَبَطَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرًا مِنَ الْجُوعِ (1).

وفي هذا دلالة واضحة على المعاناة الشديدة التي كابدها النبي ﷺ وأصحابه ، وما كانوا يلقونه من شدةً وجهد ، وصبرهم على ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وتبليغاً للإسلام . ويتم ربط الحجر على البطن لتسكين حرارة الجوع ، ومن أجل شد الجسم ، فلا ينحني الظهر تحت تأثير الجوع . وقال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٩٦) : ((وفائدة ربط الحجر على البطن أنها تضمن من الجوع، فيُخَشَى على انحناء الصُّلب بواسطة ذلك ، فإذا وُضِعَ فَوْقَهَا الْحَجَرُ ، وَشُدَّ عَلَيْهَا الْعِصَابَةُ ، اسْتَقَامَ الظَّهْرُ . وقال الكرماني : لَعَلَّهُ لِتَسْكِينِ حَرَارَةِ الْجُوعِ بِبَرْدِ الْحَجَرِ ، وَلِأَنَّهَا حِجَارَةٌ رِقَاقٌ قَدَّرَ الْبَطْنُ تَشَدُّدَ الْأَمْعَاءِ ، فَلَا يَتَحَلَّلُ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْبَطْنِ ، فَلَا يَحْصُلُ ضَعْفٌ زَائِدٌ بِسَبَبِ التَّحَلُّلِ)) اه .

(١) رواه أحمد في مسنده (٣ / ٣٠١) .

وفي الحديث أَنَّ أبا طلحة قال : فَإِنِّي مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ يُقْرَأُ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ سُورَةَ النِّسَاءِ ، وَقَدْ رَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ حَجْرًا مِنَ الْجَوْعِ (2).

وقد جَرَحَ الْمُشْرِكُونَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يَنْقُصْهُمُ بِالْدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا سَامَحَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَمَّ النَّبِيِّ ﷺ مُنْصَبٌّ عَلَى نَشْرِ الدُّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ ، وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ ، وَلَيْسَ الْإِنْتِقَامُ لِنَفْسِهِ ، أَوْ بِنَاءُ مَجْدِهِ الشَّخْصِيِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، كَمَا يَفْعَلُ الطُّغَاةُ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ النَّاسَ كَيْ يَحْتَفِظُوا بِالسُّلْطَةِ .

وفي صحيح ابن حِبَّانَ (٣ / ٢٥٤) : عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) .

قال أبو حاتم (في الموضع السابق) : يَعْنِي هَذَا الدُّعَاءُ أَنَّ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا شُجَّ وَجْهُهُ ، قَالَ : ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي)) ذَنْبَهُمْ بِي مِنَ الشَّجِّ لِوَجْهِهِ ، لَا أَنَّهُ دَعَا لِلْكَفَّارِ بِالْمَغْفِرَةِ ، وَلَوْ دَعَا لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لِأَسْلَمُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ لَا مَحَالَةَ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ قُدُوةٌ فِي ذَاتِهِ ، حَيْثُ إِنَّهُ صَاحِبُ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَوَازِنَةِ ، وَيَتِمَّتْ بِالْأَخْلَاقِ الرَّفِيعَةِ ، يَجِبُ النَّاسِيُّ بِهِ .

وأيضاً ، هُوَ قُدُوةٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَهُوَ الْأَبُّ الْحَانِي عَلَى أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ ، وَالزَّوْجُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُعَامِلُ زَوْجَاتِهِ بِاحْتِرَامٍ وَأَدَبٍ وَتَقْدِيرٍ ، وَالْمُعَلِّمُ الرَّحِيمُ بِتِلَامِيذِهِ ، صَاحِبُ الْبَيَانِ الْبَاهِرِ وَالْحُجَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَسْلُوبِ الْجَمِيلِ ، وَالْمَصْلُحُ الْاجْتِمَاعِيُّ الَّذِي يُقَدِّمُ حُلُولاً عَمَلِيَّةً لِإِنْقَاذِ الْمَجْتَمَعِ ، وَلَا يُنْظَرُ مِنَ الْبُرْجِ الْعَاجِي ، وَالْقَائِدُ الْعَسْكَرِيُّ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الصَّفُوفَ ، وَيُقَاتِلُ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَرِبَاطَةٍ جَاشٍ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شَخْصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ كَامِلَةٌ وَمُتَكَامِلَةٌ ، لَا نَقَاطَ ضَعْفٍ فِيهَا ، وَلَا أَمَاكِنَ غَامِضَةٍ ، وَلَا ثَغْرَاتٍ وَلَا عُيُوبٍ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦٨) : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) خَصْلَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ حَقِّهَا أَنْ يُؤْتَسَى (يُقْتَدَى) بِهَا ، كَالثِّبَاتِ فِي الْحَرْبِ ، وَمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ ، أَوْ هُوَ فِي نَفْسِهِ قُدُوةٌ يَحْسُنُ النَّاسِيُّ بِهِ)) اهـ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٢ / ٢١٤) : ((فَطَهَّرَهُ اللَّهُ وَأَدَّبَهُ وَأَحْيَا قَلْبَهُ ، فَقَبِلَ أَدَبَهُ ، فَصَارَ مُؤَدِّبًا مُهْدَبًا مُطَهَّرًا ، فَأَمَرْنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ)) اهـ .

(٢) قال الهيثمي في المجمع (٨ / ٥٤٠) : ((رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن)) .

والصَّحَابَةُ _ رضي الله عنهم _ اتَّخَذُوا النَّبِيَّ ﷺ قُدُورَةً صَالِحَةً وَأُسُورَةً حَسَنَةً ، وساروا على خُطَاهُ ، وَالتَّزَمُوا بِسُنَّتِهِ . وقد وَقَفُوا معه في ساحات القتال ، وَلَمْ يَتْرَكُوهُ وَحِيدًا ، وَلَمْ يَخْذُلُوهُ ، وَلَمْ يَهْرَبُوا ، وَلَمْ يَخُونُوهُ . والأَمْثَلُ على ذلك كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . لذلك ، استحقَّ الصَّحَابَةُ أَنْ يَكُونُوا الْجِيلَ الذَّهَبِيُّ الَّذِي حَمَلَ الدَّعْوَةَ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ اقتداءَ الصَّحَابَةِ بالنبيِّ ﷺ في كُلِّ المَجَالَاتِ ، وليس في القتال فقط . فعلى سبيل المثال لا الحصر :

١ _ قال ابن عمر _ رضي الله عنهما _ : ((صَحِبْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَلَمْ أَرَاهُ يُسَبِّحُ فِي السَّفَرِ ، وقال الله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾)) [البخاري (١ / ٣٧٢)] . وقال الحافظ في الفتح (٢ / ٥٧٧) عن معنى " يُسَبِّحُ " : ((أَيِ يَتَنَقَّلُ الرُّوَاتِبَ الَّتِي قَبْلَ الْفَرِيضَةِ وَبَعْدَهَا)) .

٢ _ قال ابن عمر _ رضي الله عنهما _ : ((قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ، وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّفَا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾)) [البخاري (٢ / ٥٨٨)] .

٣ _ وفي الحديث أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ _ رضي الله عنه _ قال : ((وَنَقَمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ وَكَتَبَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرِو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَدِيثِيَّةِ ، حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) ، فَقَالَ سُهَيْلُ : لَا تَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قال : ((فَكَيْفَ أَكْتُبُ ؟)) ، قال : اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَكْتُبْ)) ثُمَّ قَالَ : ((أَكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ)) ، قالوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ نُخَالِفْكَ ، فَكَتَبَ : ((هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قُرَيْشًا)) . يقول الله في كتابه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (٣) .

والقصة باختصار . اعترض الخوارج على علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ لأنه كاتب معاوية باسمه المجرد ، وَلَمْ يَضَعْ لِقَبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فاعتبر الخوارج أَنَّ عَلِيًّا قَدْ انْحَرَفَ ، وَخَلَعَ إِمْرَةً الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يَعُدْ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٦٥) برقم (٢٦٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقد احتج عليّ - رضي الله عنه - بما حدث في الحُدَيْيَةِ ، حيث إنّ النبيّ ﷺ محَا عبارة " محمد رسول الله " ، وكتب " محمد بن عبد الله " . وطبعًا ، لا تناقض بين الأمرين ، لأنّ محمد ابن عبد الله هو رسول الله .

والجدير بالذكر أنّ النبيّ ﷺ أمّي لا يقرأ ولا يكتب . والمعنى أنّه أمر بالكتابة . ومعنى " فكتب رسول الله " ، أي : أمر بالكتابة . وكلُّ مَنْ أَمَرَ بِفِعْلٍ ، جاز أن يُنسَبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ .

٤- عن ابن عباس أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أكَبَّ على الرُّكن ، فقال : ((إني لأعلمُ أنك حَجَرٌ ، وَلَوْ لَمْ أَرِ حَبِيبِي ﷺ قَبْلَكَ أَوْ اسْتَلَمَكَ ، ما اسْتَلَمْتُكَ وَلَا قَبَلْتُكَ .)) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) . [مسند أحمد (٢١ / ١)] .

٥- عن ابن عباس أنّه طاف مع معاوية بالبيت ، فجعل معاوية يستلم الأركان كلّها ، فقال له ابن عباس : ((لِمَ تَسْتَلِمُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَلِمُهُمَا)) ، فقال معاوية : ليس شَيْءٌ مِنَ الْبَيْتِ مَهْجُورًا . فقال ابن عباس : ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) . فقال معاوية : صَدَقْتَ . [مسند أحمد (٢١٧ / ١)] .

﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ . لِمَنْ كَانَ صَادِقًا فِي إِيْمَانِهِ ، مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَصَدَقًا بِالْبَيْعِ ، يَأْمُلُ أَنْ يَنَالَ ثَوَابَ اللَّهِ ، وَيَخَافُ مِنْ عِقَابِهِ . والمقصود بهذه الآية المؤمنون ، لأنهم يرجون لقاء الله وثوابه ، ويخافون عذابه ، ويؤمنون بالبعث .

وقال البغوي في تفسيره (٣٣٥ / ١) : ((﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ لَكُمْ ﴾ ، وهو تخصيص بعد تعميم للمؤمنين يعني أنّ الأسوة برسول الله ﷺ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ . قال ابن عباس : يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ ، وقال مقاتل : يَخْشَى اللَّهَ . ﴿ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ أي : يَخْشَى يَوْمَ الْبَعْثِ الذي فيه جزاء الأعمال)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٦٧ / ٦) : ((وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْأُسْوَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال :

﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ ، والمعنى أنّ الأسوة برسول الله إنما كانت لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وفيه قولان : أحدهما يرجو ما عنده من الثواب والنعيم ، قاله ابن عباس . والثاني : يَخْشَى اللَّهَ ، وَيَخْشَى الْبَعْثَ ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٧٧) : ((لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ يَقُولُ : فَإِنْ مَنْ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يَرْغَبُ بِنَفْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ تَكُونُ لَهُ بِهِ أُسْوَةٌ ، فِي أَنْ يَكُونَ مَعَهُ حَيْثُ يَكُونُ هُوَ)) اهـ .

وهذا يُشير إلى أهمية مُرافقة النبي ﷺ وعدم مُفارقتها . فالمُقتدي بالنبي ﷺ يكون مُلازمًا له في كُلِّ المواطن ، ولا يبتعد عنه تحت أيِّ ظَرْفٍ . ينبغي أن يكون مع النبي ﷺ في اليسر والعسر ، والرَّخاء والشَّدة .

﴿ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴾ . وَذَكَرَ اللَّهُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ . وَقَدْ تَمَّ رِبْطُ الرَّجَاءِ بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْمَعَاصِي . وَهَكَذَا تَتَحَقَّقُ الْأُسْوَةُ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ شِعَارَاتٍ . وَفِي هَذَا السِّيَاقِ ، يَتَضَحُّ أَنَّ الْاِقْتِدَاءَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالتَّأَسِّيَ بِهِ يَقُومُ عَلَى رُكْنَيْنِ: رَجَاءِ اللَّهِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ . وَهَذَانِ الرُّكْنَانِ الْعَظِيمَانِ يَقُودَانِ الْمَرْءَ إِلَى التَّزَامِ الطَّاعَاتِ ، وَالِابْتِعَادِ عَنِ الْمَعَاصِي . وَهَذَا هُوَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ .

وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ بِكَثْرَةٍ ، وَيَسْتَغْفِرُهُ ، وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَيُقَدِّسُهُ ، مُتَّبِعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ ، بِخِلَافِ الْغَافِلِ عَنْهُ . لِذَلِكَ تَمَّ التَّنْبِيهِ عَلَى أَهْمِيَّةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣٨٤/٤): ((وَجَمَعَ بَيْنَ الرَّجَاءِ لِلَّهِ وَالذِّكْرِ لَهُ، فَإِنَّ بِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ)).

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٣٨) : ((وَاخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الْأُسْوَةِ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . هَلْ هِيَ عَلَى الْإِجَابِ أَوْ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ ، عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : عَلَى الْإِجَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ . الثَّانِي : عَلَى الْاسْتِحْبَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِجَابِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْإِجَابِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَعَلَى الْاسْتِحْبَابِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا)) اهـ .



الفصل السابع
معرفة أهل الكتاب إِيَّاه

تمهيد

إنَّ معرفة أهل الكتاب للنبيِّ محمد ﷺ ثابتة وواضحة . فذِكْرُ النبيِّ ﷺ موجود في كتبهم الدينية التي تناقلوها جيلاً بعد جيل . ولكنَّ الكفرَ عنادٌ . كما أنَّ هناك عوامل كثيرة ساهمت في انحراف أهل الكتاب ، مِن أبرزها : الحسد ، لأنَّ محمدًا ﷺ خرج من العرب ، ولم يخرج منهم . وأيضًا ، المصالح الشخصية المتمثلة في حُب الرِّئاسة والثروة والسُّلطة ، فعلماء أهل الكتاب مُقتنعون أنَّ بعثة النبيِّ محمد ﷺ تُهدِّد مكانتهم الاجتماعية المبنية على استغلال الناس وسرقتهم باسم الدين ، وتُشكِّل خطرًا على مناصبهم التي أقاموها على جماجم الناس . لقد أرادوا أن يظلَّ الناسُ عبيدًا لهم ، يأتَمرون بأمرهم ، ويخضعون لأوامرهم ، ويُقدِّسون كلامهم بلا نقاش . ولا شكَّ أنَّ محمدًا ﷺ قادمٌ لإلغاء عبودية الإنسان للإنسان ، وتوجيه عبادته إلى الله وحده . وهذا أكبرُ تهديد للطواغيت وأمرأ الباطل وعُلماء السُّوء . لذلك كَفَرَ أهلُ الكتاب بمحمد ﷺ ، وطعنوا في بُنُوته ، وقاموا بتكذيبه ، في محاولة يائسة منهم لإخفاء نُوره ، وطمس حقيقته ، وبالتالي ، يحافظون على مكانتهم الاجتماعية ، ومصالحهم الشخصية ، ومناصبهم الرفيعة . ولكنَّ الشمس لا يُمكن تغطيتها بِغُرْبال ، وعوامل قوة الحق كامنة فيه ، ولا يمكن طمسه . فالحقُّ ظاهرٌ لا مَحالة .

وبشكلٍ عام ، هناك كثير من العوامل تُؤثِّر على عقيدة المرء وأقواله وسلوكه ، مثل : القناعات الداخلية ، ومستوى التفكير ، والأهواء ، والعوامل الاجتماعية ، والشَّيطان... إلخ . وهذه العوامل وغيرها ، تلعب دورًا محوريًّا في توجيه الإنسان ، وبناء فلسفته في الحياة .

وأهلُ الكتاب بما لديهم من علوم في كتبهم الدينية _ رغم تحريفها _ يُدركون الحقائق التي تجري حوْلهم ، لكن العوامل الاجتماعية والنفسية تلعب دورًا كبيرًا في اعتناق الحق أو رفضه . فهُم يتميِّزون عن العرب الوثنيين في الجاهلية بعلوم دينية ، ومعارف بحقائق الكون ، وإدراك لأُمُور الدنيا والآخرة _ حسب اعتقاداتهم _ ، لأنَّ التوراة والإنجيل _ في الأصل _ كتابان سماويان ، ولكن مع كثرة الأيدي العابثة بهما تحوَّلا إلى خليط من الحق والباطل ، والنور والظلام .

والقاعدةُ الثابتةُ في كُلِّ زمان ومكان أنَّ مَنْ يَبْحَث عن الحق بِصدق وأمانة مُتَجَرِّدًا من الهوى والمصلحة الشخصية والضغط الخارجي ، سَوْفَ يَجده لا مَحالة . وهذا كلامٌ جميل ، لكنَّ الواقع غير جميل ، لأنَّ طريق الحق مَحْجُوف بالتحديات وعوامل الانحراف الكثيرة . وعلى الإنسان أن

رسول الله ﷺ مِنَّا . كَانَ مَعَنَا يَهُودٌ ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ ، وَكُنَّا أَصْحَابَ وَثْنٍ ، وَكُنَّا إِذَا بَلَّغْنَا مِنْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ قَالُوا : إِنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ الْآنَ ، قَدْ أَظْلَمَ زَمَانُهُ ، نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرمَ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ اتَّبَعْنَاهُ ، وَكَفَرُوا بِهِ ، فَفِينَا وَاللَّهُ وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (١).

وهذا يدل على معرفة اليهود الأكيدة بخروج محمد ﷺ نبي آخر الزمان ، فاليهود أهل كتاب ، فالتوراة بين أيديهم، ويؤمنون بالوحي واليوم الآخر ، وصِفَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ثابتة في التوراة . أمَّا العربُ فَهُمْ مُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْوَحْيِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . لذلك، من الطبيعي أن يَمْتَلِكَ الْيَهُودُ الْعُلُومَ الدِّينِيَّةَ لأنها موجودة في كتبهم ، ومن الطبيعي أن يكون العربُ جُهَالًا ، لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا عَنِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ، فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ كِتَابٌ سَمَاوِيٌّ ، وَلَا يَتَعَامَلُونَ مَعَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ . وعندما ظَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَفَرَ بِهِ الْيَهُودُ عِنَادًا وَحَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وهذا يدل على أن كُفْرَهُمْ عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَلَيْسَ عَنْ جَهْلٍ . وهذا أسوأ أنواع الكُفْرِ على الإطلاق .

(١) الدر المنثور للسيوطي (١ / ٢١٥ و ٢١٦) . وانظر سيرة ابن إسحاق (١ / ٦٢) . وقال ابن حجر في العُجَاب (١ / ٢٨٢) : ((قال الواحدي : قال ابن عباس : كانت يهود خَيْبَرَ تُقَاتِلُ غَطَفَانَ ، فَإِذَا اتَّقَوْا هُزِمَتْ يَهُودٌ ، فَعَازَتْ الْيَهُودُ بِهَذَا الدَّعَاءِ : " اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِحَقِّ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي وَعَدْتَنَا أَنْ تُخْرِجَهُ لَنَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ إِلَّا نَصَرْتَنَا عَلَيْهِمْ " ، فَكَانُوا إِذَا اتَّقَوْا فَدَعَوْا بِهَذَا الدَّعَاءِ هَزَمُوا غَطَفَانَ . فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ كَفَرُوا بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : بِكَ يَا مُحَمَّدُ ، إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾)) اهـ . وقال السيوطي في لُبَابِ التَّنْزِيلِ (١ / ١٧) : ((وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس : أنَّ يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قَبْلَ مَبْعَئِهِ ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَرَبِ كَفَرُوا بِهِ ، وَجَحَدُوا مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ . فَقَالَ لَهُمْ مَعَاذُ بَنِي جَبَلٍ وَبِشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ وَدَاوُدَ بْنِ سَلَمَةَ : يَا مَعْشَرَ يَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْلِمُوا ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ وَنَحْنُ أَهْلُ شِرْكَ ، وَتُخَيِّرُونَا بِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ ، وَتَصِفُونَهُ بِصِفَتِهِ . فَقَالَ سَلَامُ بْنُ مِشْكَمٍ أَحَدُ بَنِي النَّضِيرِ : مَا جَاءَنَا بِشَيْءٍ نَعْرِفُهُ ، وَمَا هُوَ بِالَّذِي كُنَّا نَذْكُرُ لَكُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (١ / ٨٨) : ((وَرُوي أَنَّ فَرِيظَةَ وَالنَّضِيرَ وَجَمِيعَ يَهُودِ الْحِجَازِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ . وَبِسَبَبِ خُرُوجِ النَّبِيِّ الْمُنْتَظَرِ ، كَانَتْ نَقْلَتُهُمْ إِلَى الْحِجَازِ ، وَسُكْنَاهُمْ بِهِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلِمُوا صُقْعَ (نَاحِيَةِ) الْمَبْعَثِ ، وَمَا عَرَفُوا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَشَرَعَهُ)) .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ . لَا عُذْرَ لِلْيَهُودِ فِي كُفْرِهِمْ ، إِذْ إِنَّ كُفْرَهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى مَعْرِفَةٍ وَيَقِينٍ ، وَلَمْ يَكُونُوا جُهَالًا أَوْ غَيْرَ مُتَأَكِّدِينَ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . لَقَدْ عَرَفُوا مُحَمَّدًا ﷺ بِصِفَتِهِ الثَّابِتَةِ فِي التَّوْرَةِ ، وَتَأَكَّدُوا مِنْ نُبُوَّتِهِ ، ثُمَّ جَحَدُوا بِهَا ، وَكَذَّبُوهُ عِنَادًا ، وَخَوْفًا عَلَى الرَّئِاسَةِ وَالرَّعَامَةِ ، وَحَسَدًا لِأَنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

﴿ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . لَقَدْ أَخْزَاهُمُ اللَّهُ وَطَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ . وَاللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . وَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . لَقَدْ جَاءَتْ الْآيَةُ بِالظَّاهِرِ فِي مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ : ﴿ الْكَافِرِينَ ﴾ ، لِتَوْيِيخِهِمْ وَفَضْحِهِمْ وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ وَإِدَانَتِهِمْ ، وَبَيَانِ أَنَّ سَبَبَ لَعْنِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٤٥٤) : ((فَمَعْنَى الْآيَةِ : فَخَزِيَّ اللَّهُ وَابْعَادَهُ عَلَى الْجَاهِلِينَ ، مَا قَدْ عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ اللَّهُ وَلِأَنْبِيَائِهِ ، الْمُنْكَرِينَ لِمَا قَدْ ثَبَتَ عَنْهُمْ صِحَّتُهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَبِإِخْبَارِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ الْيَهُودِ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَقُولُهُ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ .

الْبَيَانُ الْوَاضِحُ أَنَّهُمْ تَعَمَّدُوا الْكُفْرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ قِيَامِ الْخُجَّةِ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِمْ ، وَقَطَعَ اللَّهُ عُذْرَهُمْ بِأَنَّهُ رَسُولُهُ إِلَيْهِمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

إِنَّ عُلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ وَصْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَصِحَّةَ رِسَالَتِهِ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، بَحِثْ لَا يَشْتَبِهَ عَلَيْهِمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَأَبْنَاءُ غَيْرِهِمْ . وَوَصَفُ النَّبِيِّ ﷺ ثَابِتٌ فِي كُتُبِهِمْ . وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِمَعْرِفَةِ الرَّجُلِ لِابْنِهِ . وَالرَّجُلُ قَادِرٌ عَلَى مَعْرِفَةِ ابْنِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى قُوَّةِ الْمَعْرِفَةِ ، وَكَمَالِ الْعِلْمِ .

وَالْآيَةُ : ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بَيَانٌ وَاضِحٌ لِلْمَعْرِفَةِ الْأَكِيدَةِ ، وَالْعِلْمِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ ، إِذْ إِنَّ مَعْرِفَةَ الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ هِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ . وَتَخْصِصُ الْأَبْنَاءَ دُونَ الْبَنَاتِ ، لِأَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِأَبْنَائِهِمْ أَشَدُّ وَأَقْوَى ، وَهُمْ يُحِبُّونَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ بَنَاتِهِمْ .

وقال العيني في عمدة القاري (١٨ / ٩٧) : ((وإنما اختُصَّ الأبناء ، لأنَّ الذكور أشهر وأعرف ،
وهم لِصُحبة الآباء ألزَم)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (٢ / ١٥٨) : ((ورؤي أن عمر قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً
ﷺ كما تعرف ابنك ؟ ، فقال : نعم ، وأكثر . بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته ،
فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه)) اهـ .

والجدير بالذكر أن العلماء المؤمنين يعرفون النبي ﷺ أكثر من معرفة أبنائهم ، لأن النبي ﷺ
حق لا شك فيه ، وجبريل أمين الله في سمائه ، ومحمد أمين الله في أرضه . ومحمد وجبريل
كلاهما منزه عن الغدر والخيانة . أما الأم فقد تخون زوجها ، فيربّي الزوج ابن غيره ، وهو يظن
أنه ابنه .

ولا شك أن الأم وحدها هي التي تعلم حقيقة ابنها الذي في أحشائها ، ومن هو أبوه . أما
الأب فيجري الأحكام على الظاهر ، ويعتبر الولد ابناً له ، وليس مُطالباً بالشك وإثارة البلبلة ، لأن
هذا الباب إذا فُتح ، لا يُغلق أبداً .

ونحن في هذا العصر ، حيث التّقدم المعرفي ، والتطور التكنولوجي ، صار البعض يلجأ إلى
تحليل الحمض النووي (DNA) في حالات إثبات النسب .

وللأسف ، ففي هذا العصر ، زادت نسبة الخيانة الزوجية من الطرفين ، نتيجة ضعف الوازع
الديني ، وبسبب الانفتاح الزائد ، وسهولة الوصول إلى الحرام ، وكثرة وسائل التواصل والتلاقي بين
الجنسين في العالم الواقعيّ والعالم الافتراضيّ ، والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية .

وقال ابن حجر في العُجاب (١ / ٣٩٩) : ((وقال يحيى بن سلام : قال الكلبي : لمّا قدّم
رسول الله المدينة ، قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : إن الله أنزل على نبيّه وهو بمكة أن
أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، كيف هذه المعرفة يا ابن سلام ؟ ، قال : نعرف نبيّ
الله بالتّعت الذي نعتّه الله به إذا رأيناه فيكم ، كما يعرف أحَدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان ، والذي
يُحلف به عبد الله بن سلام لأنّا بمحمدٍ أشدُّ منّي معرفةً بابني ، فقال له عمر : كيف ذلك ؟ قال :
عرّفته بما نعتّه الله لنا في كتابنا أنّه هو ، وأمّا ابني فلا أدري ما أحدثت أمّه ، فقال له عمر :
وقَفَكَ الله ، فقد أصبتَ وصدقتَ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٥٨) : ((في هاء ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ قولان : أحدهما أنها تعود على النبي ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني : تعود على صَرفه إلى الكعبة ، قاله أبو العالية وقتادة والسُّدي ومقاتل)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٢ / ٢٨) : ((يعني جَلَّ ثَنَاهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أخبار اليهود وعلماء النصارى . يقول : يعرف هؤلاء الأخبار من اليهود والعلماء من النصارى أنَّ البيت الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قَبْلَكَ ، كما يعرفون أبناءهم)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١ / ٢٤٠) : ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴾ ، قيل : الضمير لمحمد ﷺ : أي يعرفون نُبُوته ، رُوي ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم . وقيل : يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ... وبه قال جماعة من المفسرين ، ورجَّح صاحب الكشف الأول ، وعندي أنَّ الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سبقت له هذه الآيات)) .

وعن سلمان قال : خَرَجْتُ أَبْتَغِي الدِّينَ ، فَوَقَعْتُ فِي الرُّهْبَانِ بَقَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ، وكانوا يقولون : هذا زمانُ نبيٍّ قد أَظْلَمَ ، يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ ، لَهُ عَلَامَاتٌ ، مِنْ ذَلِكَ : شَامَةٌ مُدَوَّرَةٌ بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النَّبُوءَةِ ، فَلَحِقْتُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَرَأَيْتُ مَا قَالُوا كُلَّهُ ، وَرَأَيْتُ الْخَاتَمَ ، فَشَهِدْتُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (٢) .

هذا يُشير إلى أهمية السَّعي من أجل طلب الحق ، وضرورة السَّفر بحثًا عن الإيمان والعلم والخير . إنَّ سلمان الفارسيّ رضي الله عنه لم يجلس في بيته بحثًا عن الراحة والهدوء والسَّكينة ، بل سافر ، وعانى أشدَّ المعاناة بحثًا عن الدِّين الحق ، واستمع إلى كلام العلَّماء ، لأنَّ العلَّماء هم الذين يعرفون حقائق الأمور ، ويوضِّحون القضايا والمسائل ، ويكشفون الطريق أمام الناس . والناسُ يَدُونُ العلَّماء هم مجموعة من العوام العُميان . وقد تَحَقَّقَ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بوجود علامات تُشير إلى صدِّقه وصِحَّة نُبُوته ، فكانَ إيمانُ سلمان مَبْنِيًّا عَلَى الْعِلْمِ واليقين ، وليس الجهل والتقليد . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(٢) رواه الطبراني (٦ / ٢٦٧) برقم (٦١٨٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ٤٣٦) : ((رجاله ثقات)) .

وإن طائفة من أهل الكتاب يُخفون ما في كتبهم من صفة النبي محمد ﷺ ، وهم يعلمون أنَّ محمدًا ﷺ حق ، وما جاء به حق. إذ إن وصف محمد ﷺ ثابت في التَّوراة. وقد بيَّن الله لهم الحق الذي لا شكَّ فيه ، كي يتبعوه ، ولم يتركهم للاحتِمالات والشُّكوك والتَّخمينات ، ولكنَّ سيطرة حُب الدُّنيا على القلوب ، قادت إلى انحراف الكثيرين منهم .

والآية تُشير إلى أنَّ كُفْرهم مبنيٌّ على عِلْم ومعرفة ، وهذا أسوأ أنواع الكُفر ، فلم يكونوا جُهالاً ، ولم يُسيطر عليهم الشُّك بخصوص نُبوة محمد ﷺ . بل كانوا متأكِّدين من صدق محمد ﷺ وصحَّة نُبوته ، ولكنهم كفروا به عنادًا ، وحُبًّا للرئاسة والرَّعامة والسُّلطة والنفوذ ، وحسدًا لأنه من العرب وليس من بني إسرائيل . وصدق القائل :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ
 وقال البِضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٣) : ((﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .
 تخصيص لِمَنْ عَانَدَ ، واستثناء لِمَنْ آمَنَ)) اهـ .

والله عادلٌ في أحكامه ، ومنصفٌ في كلامه ، يُعطي لكلِّ ذي حقٍّ حَقَّهُ . فقد قال : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ ﴾ . والمعنى : إنَّ هناك فريقًا آخر لم يكتُموا الحقَّ . وهؤلاء هم المؤمنون ، وقد أنصفهم الله تعالى . والآية لا تحمل تعميمًا للجميع ، وإنما تُذمُّ الصَّنَفَ الكافر الذي كتم الحقَّ بعد معرفته التامة به . لقد تمَّ تخصيص فريق منهم ، لأنَّ من أهل الكتاب مَنْ أسلم ، ولم يكتُم الحقَّ .

والجدير بالذكر أنَّ الآية مُتعلِّقة بعُلَماء أهل الكتاب . فالعلماء هم الذين يقرؤون النصوص الدينية ، ويُفسِّرونها ، ويعرفون الحقَّ من الباطل . فإمَّا أن يُظهروا الحقَّ وينشروه ، وإمَّا أن يكتُموه ويخدعوا الناس . والعوام لا علاقة لهم بالنصوص الدينية ولا تفسيرها ، فهُمْ يتبعون العلماء ، ويعتمدون كلامهم . ولا شكَّ أنَّ كُفر العوام مبنيٌّ على الجهل والتقليد واتباع العلماء الذين خانوا الله ، وتلاعَبوا بكلامه ، للحفاظ على زعامتهم ، ورئاستهم ، ومناصبهم ، وهيمنتهم على العوام ، من أجل استغلالهم واستعبادهم والاستحواذ على أموالهم بالباطل .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١ / ١٧٦) : ((﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾



هُم الَّذِينَ كَابَرُوا وَعَانَدُوا الْحَقَّ، وَالْبَاقُونَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْحَقَّ، وَلَا يَكْتُمُونَهُ. وَأَمَّا الْجَهْلَةُ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْكِتَابِ ، وَلَا بِمَا فِي تَضَاعِيفِهِ ، فَمَا هُمْ بِصَدَدِ الْإِظْهَارِ ، وَلَا بِصَدَدِ الْكُتْمِ ، وَإِنَّمَا كُفِّرْهُمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْلِيدِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٥٨) : ((وفي الحق الذي كَتَمُوهُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَالثَّانِي أَنَّهُ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَالثَّانِي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَى مُخَالَفَةِ مِنَ الْعِقَابِ)) .

والجدير بالذكر أَنَّ الْعِلْمَ الْمَجْرَدَ لَا يَكْفِي لِصِحَّةِ الْإِيمَانِ ، فَهَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُؤْمِنُوا . فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ الْعِلْمُ بِالتَّصَدِيقِ وَالْعَمَلِ ، كَيْ يَصِلَ الْإِنْسَانُ إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ . وَالْإِيمَانُ هُوَ مَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ ، وَصَدَّقَهُ اللِّسَانُ ، وَظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ . ((وَصَحَّ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : " لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّيِّ وَلَا بِالتَّحَلِّيِّ ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ " . وَنَحْوُهُ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ)) ^(٣) .

(٣) حاشية ابن القَيِّم على سنن أبي داود (١٢ / ٢٩٤) . وانظر تخریج الظَّلَال (١ / ٤٠٧) .

الفصل الثامن
صِفَاتُهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

تمهيد

لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ النَّاسَ ضَائِعِينَ فِي مَتَاهَةِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ ، بَلْ عَرَّفَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ . وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ وَصَفَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، مِنْ أَجْلِ هِدَايَةِ الْأُمَمِ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ وَصْفَ مُحَمَّدٍ ﷺ ثَابِتٌ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ . فَهُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَرِسَالَتُهُ آخِرُ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَكُتَابُهُ الْقُرْآنُ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ . لِذَلِكَ مَهَّدَ اللَّهُ الطَّرِيقَ لِمُجِيءِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمِنْ نَبِيِّ إِلَّا وَأَخْبَرَ أُمَّتَهُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِأَنَّ ظُهُورَهُ حَدَثٌ كَوْنِيٌّ عَظِيمٌ ، فَالرَّسَالَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَهَذَا الْحَقِيقَةُ الْبَاهِرَةُ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَهَا الْأُمَمُ وَالشُّعُوبُ .

وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَجِئْ لِلْعَرَبِ وَحْدَهُمْ ، وَلَيْسَ نَبِيًّا لِفَتْرَةٍ زَمْنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ مِثْلَ بَاقِي الْأَنْبِيَاءِ ، بَلْ هُوَ رَسُولٌ عَالَمِيٌّ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، غَيْرُ مَحْدُودٍ بِفَتْرَةٍ زَمْنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ . وَالشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ الْبَاقِيَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَجِبُ التَّعَبُّدُ وَفَّقَهَا ، وَمَا سِوَاهَا غَيْرُ مَقْبُولٍ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْإِسْلَامَ _ وَحْدَهُ _ هُوَ الدِّينُ السَّمَاوِيُّ ، وَهُوَ دِينُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِإِلَازِمِهِ . فَمُوسَى ﷺ كَانَ مُسْلِمًا ، وَلَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا ، وَعِيسَى ﷺ كَانَ مُسْلِمًا ، وَلَمْ يَكُنْ مَسِيحِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا . كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ دِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، وَشَرَائِعُهُمْ مُتَعَدِّدَةٌ وَمُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ طِبَاعِ النَّاسِ وَطَبِيعَةِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . وَقَدْ أَبْطَلَتِ الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلَّ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ . وَبِظُهُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعُدْ مَقْبُولًا أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا وَفَّقَ الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

وَمِنْ الْخَطَأِ الْفَظِيعِ اسْتِخْدَامُ عِبَارَةِ " الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ " . فَالْإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ السَّمَاوِيُّ الْوَاحِدُ . وَبَاقِي الْأَدْيَانِ أَرْضِيَّةٌ . أَمَّا الشَّرَائِعُ فَمُتَعَدِّدَةٌ وَمُخْتَلِفَةٌ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] . فَهَذَا شَرَائِعُ سَمَاوِيَّةٌ وَكُتُبُ سَمَاوِيَّةٌ ، وَلَكِنْ لَا تَوْجُدُ أَدْيَانُ سَمَاوِيَّةٌ .

إِنَّ أَوْصَافَ مُحَمَّدٍ ﷺ الْوَاضِحَةَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، تَتَنَاسَبُ مَعَ السُّلْطَةِ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ لَهُ ، بِاعْتِبَارِهِ حَامِلَ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي الْأَرْضِ ، وَحَامِلَ كَلِمَةِ اللَّهِ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَالْمُتَحَدِّثِ بِاسْمِ اللَّهِ . وَقَدْ مَهَّدَ اللَّهُ لظُهُورِهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ السَّابِقَةِ لِكَيْ يَسْتَعِدَّ النَّاسُ نَفْسِيًّا وَوَاقِعِيًّا لِاسْتِقْبَالِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِهِ ، وَالْعَمَلِ بِسُنَّتِهِ ، لِأَنَّ الْإِسْتِعْدَادَ النَّفْسِيَّ لَهُ دَوْرٌ فَاعِلٌ فِي حُسْنِ التَّلَقِّيِّ وَالتَّطْبِيقِ . كَمَا أَنَّ التَّمْهِيدَ لِلظُّهْرِ النَّبَوِيِّ أَمْرٌ كَوْنِيٌّ يَخُصُّ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى السَّوَاءِ ، وَلَيْسَ حَدَثًا عَابِرًا أَوْ مَحْصُورًا ضَمْنِ حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

المؤمنون الصادقون من أهل الكتاب هم الذين اتبعوا محمداً ﷺ ، إذ إن صفته ثابتة في التوراة والإنجيل ، يأمر بالفضائل وأعمال الخير ، وينهى عن الأشياء السيئة ، يحل الحلال ، ويحرم الحرام ، جاء للتخفيف على الناس وتيسير أمورهم ، ولم يَجِ لتدميرهم وإفساد حياتهم . والذين صدّقوه ، وساروا على خطاه ، قد فازوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ . الذين ينالون رحمة الله ، ويشملهم بعفوه ونعيمه هم الذين يُصدّقون محمداً ﷺ ، ويؤمنون بنبوته ، ويسيروا على خطاه ، ويعملون بسنته . وهذا هو الاتباع الحقيقي لا الشعاراتي . يتبعون محمداً ﷺ الرسول الذي خصّه الله بالرسالة السماوية الخاتمة ، والناسخة لكل الرسالات السماوية السابقة ، النبي الذي منّ الله عليه بالنبوة ، وكلفه بحمل أعبائها ، وشرّفه بها ، فهي تكليف وتشريف في آنٍ معاً ، الأمّي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، وهنا تتجلى المعجزة الإلهية ، فكيف يُمكن لشخص أمّي أن يأتي بالقرآن الذي أعجز العلماء والفصحاء ؟ . إنه الوحي الإلهي بلا أدنى شك .

والرسول أخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً . والرسول أعظم من النبي . لقد اشتركا في أمرٍ عام ، وهو النبأ ، وافترقا في أمرٍ خاص ، وهو الرسالة . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٦٤) : ((وإنما سمّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبيّاً بالإضافة إلى العباد)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ٢٦٢) : ((و﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ يعني في شرّعه ، ودينه ، وما جاء به . والرسول والنبي اسمان لمعنيين ، فإن الرسول أخص من النبي ، وقُدّم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة ، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم)) .

وعن البراء بن عازب _ رضي الله عنه _ أنه قال : آمنت برسولك الذي أرسلت ، فقال له النبي ﷺ مُصَحَّحًا : ((قُل : آمنتُ بِنبيِّكَ الذي أرسلت))^(١) .

(١) متفق عليه . مسلم (٤ / ٢٠٨١) برقم (٢٧١٠) ، والبخاري (٥ / ٢٣٢٦) برقم (٥٩٥٢) .

إِنَّ كَلَامَ الصَّحَابِيِّ : " آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أُرْسِلَتْ " تَكْرِيرٌ لِلرَّسَالَةِ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَهَذَا التَّكَرُّارُ كَالْحَشْوِ بِلا فَائِدَةٍ . أَمَّا قَوْلُ النَّبِيِّ : ((آمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلْتَ)) ، فَيَحْمِلُ مَعْنَى إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ وَإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ ، وَلَا تَكَرُّارَ فِيهِمَا . كَمَا أَنَّ أَلْفَاظَ الْأَذْكَارِ تَعْبُدِيَّةٌ تَوْقِيفِيَّةٌ لَا يَجُوزُ تَغْيِيرُهَا .

وفي شرح السيوطي على صحيح مسلم (٦ / ٦٥) : ((قال المازري وغيره: سببه أن الأذكار تعبدية ، يُقْتَصَرُ فيها على اللفظ الوارد بحروفه ، وبها يتعلق الجزاء ، ولعله أَوْحِيَ إِلَيْهِ ﷺ بهذه الكلمات ، فَتَعَيَّنَ أَدَاؤُهَا كَمَا هِيَ ، وَاسْتَحْسَنَهُ النَّوَوِيُّ)) اهـ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَيُمَثِّلُ مُعْجَزَةً بَحْدِ ذَاتِهِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ . فَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ ، لَطَعَنَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَامَ بِتَأْلِيفِهِ وَتَجْمِيعِ آيَاتِهِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُهَا ، وَاسْتَغْلَلَ مَعْرِفَتَهُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابِ لِتَأْلِيفِ الْقُرْآنِ وَاخْتِرَاعِ دِينٍ جَدِيدٍ . وَقَدْ أَغْلَقَ اللَّهُ هَذَا الْبَابَ ، وَقَطَعَ أَعْدَارَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يَتْرِكْ لَهُمْ عُذْرًا وَلَا حُجَّةً ، وَنَفَى كُلَّ أَحْتِمَالَاتِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٦٤) : ((﴿ الْأُمِّيُّ ﴾ الَّذِي لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ . وَصَفَهُ بِهِ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ كَمَالَ عِلْمِهِ مَعَ حَالِهِ إِحْدَى مُعْجَزَاتِهِ)) اهـ .

وكلمة "الأمي" منسوبة إلى الأمة الأمية الباقية على أصل ولادتها ، لَمْ تَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : ((إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ ، لَا نَكْتُبُ ، وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ ، هَكَذَا هَكَذَا)) ^(٢) . يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٩٢ و ١٩٣) : ((قال العلماء : أُمِّيَّةٌ بَاقُونَ عَلَى مَا وَلَدْتَنَا عَلَيْهِ الْأُمَهَاتُ ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ . وَمِنْهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ ، وَقِيلَ : هُوَ نِسْبَةٌ إِلَى الْأُمِّ وَصِفَتُهَا ، لِأَنَّ هَذِهِ صِفَةُ النِّسَاءِ غَالِبًا)) اهـ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣٦٧) : ((بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كُتِبَ لَهُمْ هَذِهِ الرَّحْمَةُ بَيَّانًا أَوْضَحَ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَصْرَحَ ، فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَخَرَجَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَسَائِرُ الْمِلَلِ ، وَالْأُمِّيُّ : إِمَّا نِسْبَةٌ إِلَى الْأُمَّةِ الْأُمِّيَّةِ

(٢) متفق عليه . البخاري (٢ / ٦٧٥) برقم (١٨١٤) ، ومسلم (٢ / ٧٥٩) برقم (١٠٨٠) .

التي لا تكتب ولا تحسب : وهم العرب ، أو نسبة إلى الأم . والمعنى أنه باق على حالته التي وُلد عليها ، لا يكتب ولا يقرأ المكتوب . وقيل : نسبة إلى أم القرى ، وهي مكة)) اهـ .
 ﴿ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ . وصفُ النبي محمد ﷺ ثابتٌ في التوراة والإنجيل . وعلماء أهل الكتاب يعرفون هذه الحقيقة، ويجدون صِفَتَهُ وَنَعَتَهُ وَبُيُوتَهُ في كتبهم الدينية.

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٣٥) : ((وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم)) .
 ولم يقل الله تعالى : يجدون اسمه أو يجدون وصفه . بل قال سبحانه : ﴿ يجدونه ﴾ زيادةً في الإثبات والتقرير ، وللإشارة إلى معرفة علماء أهل الكتاب بالنبي ﷺ . إنهم يعرفونه معرفةً أكيدة ، بحيث لا يشكون فيه ، وهو حاضرٌ في كتبهم لا يغيب .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٧٤٧) : عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو ابن العاص _ رضي الله عنه _ . قلتُ : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة . قال : ((أجل ، والله إنه لمؤصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴾ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ ، وحرزاً للأُميين ، أنت عبيدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخابٍ في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً)) (٣).
 ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ . يأمرُ النبي ﷺ أتباعه بالإيمان بالله، والتزام طاعته ، واجتناب نواهيه ، والتحلّي بالأخلاق الحميدة ، وينهاهم عن الشرِّ بالله ، والأخلاق السيئة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٣٥) : ((وقوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله _ عليه الصلاة والسلام _ لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر ، كما قال عبد الله بن مسعود : " إذا سمعتَ الله يقول :

(٣) هذا الحديث سبق أن شرحناه في صفحة ١٧٨ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، فَأَزْعِمَا سَمْعَكَ ، فإنه خير تُؤْمَرُ به ، أو شر تُنْهَى عنه " . ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وَخَدَهُ لا شريك له ، والتَّهْيِي عن عبادة مَنْ سِوَاهُ ، كما أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ)) اهـ .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَأْمُرُ بِمَا تَعْرِفُهُ الْقُلُوبُ وَلَا تُنْكِرُهُ ، أَي : الأخلاق الحميدة ، وَيَنْهَى عَمَّا تُنْكِرُهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَعْرِفُهُ ، أَي : مساوئ الأخلاق . وَسُمِّيَ الْمَعْرُوفَ مَعْرُوفًا ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَعْرِفُهُ ، وَتُدْرِكُ أَنَّهُ صَوَابٌ ، وَتَقْبَلُهُ . وَسُمِّيَ الْمُنْكَرَ مُنْكَرًا ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ تُنْكِرُهُ وَتَرْفُضُهُ ، وَتَعْرِفُ بُطْلَانَهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٧٢) : ((قال ابن عباس : المعروف مكارم الأخلاق وصله الأرحام . والمنكر عبادة الأوثان وقطع الأرحام . وقال مقاتل : المعروف الإيمان والمنكر الشر . وقال غيره : المعروف الحق ، لِأَنَّ الْعُقُولَ تَعْرِفُ صِحَّتَهُ ، وَالْمُنْكَرَ الْبَاطِلَ لِأَنَّ الْعُقُولَ تُنْكِرُ صِحَّتَهُ)) .

وعن أبي حميد و أبي أسيد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِينَ لَهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ، فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِّي تُنْكِرُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَنْفِرُ عَنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ بَعِيدٌ ، فَأَنَا أْبَعْدُكُمْ مِنْهُ)) (٤) .

إِذَا سَمِعَ الْمُؤْمِنُونَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ تَعْرِفُهُ وَلَا تَرْفُضُهُ ، وَيَتَقَبَّلُونَهُ بِكُلِّ صَدْرٍ رَحْبٍ ، لِأَنَّهُ يُوَافِقُ الثَّقَلَ وَالْعَقْلَ ، وَلَا يَتَعَارِضُ مَعَ الدِّينِ وَلَا الْمَنْطِقِ ، وَيَلِينُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرَةُ لِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ كإِشَارَةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى قُبُولِهِ ، وَحُسْنِ تَلْقَائِهِ ، وَيَرَى الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ قَرِيبٌ مِنْهُمْ ، يُعَالِجُ مَشْكَالَاتِهِمْ ، وَيَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أَحَقُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَإِذَا سَمِعَ الْمُؤْمِنُونَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، تَرْفُضُهُ الْقُلُوبُ ، وَتَتَضَاقِقُ مِنْهُ النُّفُوسُ ، وَيَبْتَغِدُ عَنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرَةُ كإِشَارَةٍ إِلَى رَفْضِهِ وَعَدَمِ قُبُولِهِ ، لِأَنَّهُ يُخَالِفُ الثَّقَلَ وَالْعَقْلَ ، وَيَرَى الْمُؤْمِنُونَ أَنَّهُ بَعِيدٌ عَنْهُمْ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ أَبْعَدُ وَاحِدٍ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَهُوَ مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٣٨٢) : ((إِذَا سَمِعْتُمْ) أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكَامِلُونَ الْإِيمَانَ الَّذِي اسْتِضَاءَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ مِشْكَاتِ الثُّبُوتِ (الْحَدِيثَ عَنِّي تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ) أَي تَقْبَلُهُ وَتَشْهَدُ

(٤) رواه ابن جَبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ (١ / ٢٦٤) بِرَقْم (٦٣) . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٣٣٥) : ((رواه الإمام أحمد — رضي الله عنه — بإسناد جيد)) .

يُحْسِنُهُ (وتلين له أشعاركم) جمع شِعْر (وأبشاركم) جمع بَشْرَة (وترون) أي تعلمون (أنه منكم قريب) أي قريب إلى أفهامكم وأحكام دينكم ولا يأبى قواعد علومكم أيها المتشعبة (فأنا أولاكم به) أحق به في القبول المؤدي إلى العمل بمقتضاه، لأنَّ ما أفيض على قلبي من المعارف وأنوار اليقين أكثر من بقية الأنبياء فضلاً عنكم (وإذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد منكم فأنا أبعدهم منه) لِمَا دُكِر . ولذلك جَزَم أئمتنا الشافعية بأنَّ كُلَّ حديث أوهم باطلاً وَلَمْ يقبل التأويل فمكذوب عليه لعصمته ، أو نُقص منه من جهة رواية ما يُزيل الوهم الحاصل بالنقص منه ، وذلك أَنَّ الله بَعَث رُسُلَهُ إلى خَلْقِهِ لبيان الأمور ، ومعرفة التدبير ، وكيف وكم ، وكُنه الأمور عنده مكنون فأفشى منه إلى الرُّسل ما لا يَحتمله عقول غَيْرهم ، ثُمَّ مِنْهُمْ إلى العلماء على قَدْر طاقتهم ، ثُمَّ إلى العامة على قَدْر حالهم . فالعلم بحر يجري منه واد ، ثم من الوادي نهر ، ثم من النهر جدول فساقية ، فلو جرى إلى ذلك الجدول لغرقه ، ولو مال البحر على الوادي لأفسده ، فمن تكلم بشيء من الهدى فالرسول سابق له ، وإن لم يتكلم بذلك اللفظ فقد أتى بأمثلة مُجَمَّلة ، فلهذا كان أَوَّلِي . فإذا كان الكلام غير مُنكر عند العلماء العاملين فهو قول الرسول ، وإذا كان مُنكَراً عندهم فليس قَوْلُهُ ، وإن رُوِيَ عنه فخطأ ، أو سَهُو من بعض الجهلة ، أو وَضَع من بعض الزنادقة أو الجهلة ، وذلك لأنه إذا وَقَعَ ذِكر الحق على القلب التقى نوره ونور اليقين فامتزجا واطمأنَّ القلبُ ، فيعلم أنه حق ، وإذا وقع عليه باطل ، لاقت ظلمته القلب المشرق بنور اليقين ، فينفر النور وَلَمْ يمتزج معه ، فاضطرب القلب وجاش . فَفَرَّقْ ما بين كلام النبوة وكلام غَيْرهم لائِخ واضح عند العلماء بالله وبأحكامه ، العاملين عليها)) اهـ .

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ . يُحِلُّ لَهُم ما حَرَّمَهُ أَهْلُ الجاهلية على أنفسهم بلا دليل شرعي ، ولا منطق عقلي ، كالبخيرة والسائبة والوصيلة والحام ، حيث ضَيَّقُوا على أنفسهم ، وألزموها بالتحريم اتِّباعاً للأهواء الشخصية ، وخُضوعاً للتقليد الأعمى . وَيُحَرِّمُ عليهم الأشياء القذرة والخبثية كلحم الخنزير والميتة والدَّم والرِّبَا والزَّنا ، وما كانوا يَسْتَحِلُّونه من المأكَل والمشارب التي حَرَّمَهَا اللهُ تعالى .

وبشكل عام ، يُحِلُّ لَهُم ما حُرِّمَ عليهم من الأشياء الطيبة ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِم ما يُسْتَحْبَث كالدَّم والميتة ، ولحم الخنزير ، وما لَمْ يُذْكَرَ عَلَيْهِ اسمُ اللهِ .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤١٦) : ((﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعني : ما حُرِّمَ عليهم في التَّوراة مِن لحوم الإبل وشُحوم الضأن . ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ الميتة والدَّم ...)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢٧٩ / ٣) : ((﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ التي حُرِّمَتْ عليهم بِشَوْمِ ظُلْمِهِمْ . ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ كَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَالرِّبَا وَالرَّشْوَةِ)) اهـ .
وقال ابن كثير في تفسيره (٣٣٥ / ٢) : ((قال بعض العلماء : فكلُّ ما أَحَلَّ اللهُ تعالى مِنَ المأكَلِ فهو طَيِّبٌ نافع في البدن والدِّينِ ، وكلُّ ما حَرَّمَهُ فهو خَبِيثٌ ضار في البدن والدِّينِ . وقد تَمَسَّكَ بهذه الآية الكريمة مَنْ يَرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأُجِيبَ عن ذلك بما لا يَتَّسَعُ هذا الموضع له . وكذا احتجَّ بها مَنْ ذَهَبَ مِنَ العلماء إلى أَنَّ المرجع في حِلِّ المأكَلِ التي لَمْ يُنَصَّ على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبطته وفيه كلام طويل أيضًا)) اهـ .

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ . لقد جاء النبي ﷺ بالرَّفَقِ واللين والتيسير على الناس ، وَلَمْ يَجِئْ للتشديد عَلَيْهِمْ . والإِصْرُ هو الثَّقْلُ أو العهد الثقيل (5) .
وقد كان بنو إسرائيل خاضعين لشرائع شديدة ، وهي بمثابة الأغلال (الأثقال) التي تَجْمَعُ اليدَ إلى العُنُقِ ، وتُقَيِّدُ حركتهم ، وتَجْعَلُ حياتهم صعبةً ، حيث تَمَّ التَّضْيِيقُ عَلَيْهِمْ بسبب فسادهم وظلمهم وعنادهم . وقد جاء النبي محمد ﷺ لتيسير أمورهم ، وإسقاط ثَقْلِ العهد الذي أُخِذَ عَلَيْهِمْ ، وتخفيف التكاليف الشاقَّة التي كانت مفروضةً عليهم ، مِثْلُ : القصاص في القتل العمد والخطأ ، وتحريم أخذ الدِّيَّة ، وقتل النَّفْسِ في التَّوْبَةِ ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقَرْضُ مَوْضِعِ النجاسة مِنَ الجِلْدِ والثَّوْبِ ، وإحراق الغنائم ، وتحريم العمل في السَّبْتِ ، وعدم جواز صلاتهم إلا في الكنائس .

(٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٧٣ / ٣) : ((وفي هذا " الإِصْرُ " قولان : أحدهما أنه العهد الذي أَخَذَ اللهُ على بني إسرائيل أَنْ يَعْمَلُوا بما في التوراة ، قاله ابن عباس . والثاني التَّشْدِيدُ الذي كان عليهم مِنْ تحريم السبت ، وأكل الشحوم والعروق ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأمور الشاقَّة ، قاله قتادة . وقال مسروق : لقد كان الرَّجُلُ مِنْ بني إسرائيل يُذْنِبُ الذَّنْبَ ، فَيُصْبِحُ وَقَدْ كُتِبَ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ إِنَّ كَفَارَتَهُ أَنْ تَنْزِعَ عَيْنِيكَ فَيَنْزِعَهُمَا . قوله تعالى : ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ قال الرَّجُلُ : ذَكَرَ الأغلال تمثيل ، أَلَا تَرى أَنَّكَ تقول : جعلْتُ هذا طَوْقًا في عُنْقِكَ ، وليس هناك طَوْقٌ . إِنَّمَا جَعَلْتَ لِرُؤْمِهِ كَالطَّوْقِ . والأغلال أنه كان عليهم أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ فِي القتل دِيَّةٌ ، وَأَنْ لَا يَعْمَلُوا فِي السبت ، وَأَنْ يَقْرِضُوا مَا أَصَابَ جُلُودَهُمْ مِنَ الْبَوْلِ)) .

قال الطبري في تفسيره (٨٢ / ٦) : ((وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنَّ (الإِصْرَ) هو العهد ... وأن معنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان الله أخذَه على بني إسرائيل من إقامة التوراة، والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة كقطع الجُلْد من البُؤْل ، وتحريم الغنائم ، ونَحْو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضة ، فنسخها حُكْم القرآن)) اهـ .

لقد جاء النبيُّ ﷺ بالسَّماحة واللين والتَّيسير . فعن ابن عباس _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا _ قال : قيل لرسول الله ﷺ : أيُّ الأديانِ أحبُّ إلى الله ؟، قال : ((الحنيفيةُ السَّمحةُ)) (6) .

أي : الشريعةُ المائلة عن كُلِّ دينٍ باطل ، فهي حنيفيةٌ في التَّوحيد ، تَميل عن الباطل إلى الحق ، وسهلةٌ في التطبيق بلا تعقيدات ولا أسرار . والحنيفُ هو الذي يَميل إلى الإسلام ، ويثبت عليه .

وقد أوصى النبيُّ ﷺ مُعَاذًا وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن قائلًا: ((يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا ولا تُنْفِرَا ، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا)) (7) .

وفي هذا الحديث، تَتَضَح أركانُ المنهج النبويِّ في الدَّعوة، حيث التَّيسير على الناس والتخفيف عنهم ، وتَبَشِيرهم ومساعدتهم ، وعدم التَّشديد عَلَيْهِم وتَعْقِيد حياتهم . فالدَّعوة الإسلاميةُ لَمْ تَجِئ لِتُدمِر حياةَ الناس وتجعلها جحيماً لا يُطاق، وإنما جاءت لإنقاذ الناس، وإخراجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . وقد جاءت الشريعةُ الإسلامية لرفع الحَرَج ، والأمرُ كُلُّما ضاق اتَّسَعَ .

والتخفيف لا يعني بآية حال من حال تَمييع الدين ، أو لَوِي أعناق النصوص لتتناسب مع الهوى والشهوات الغريزية ، أو الهروب من تحمُّل المسؤولية . وإنما يعني السَّير على الطريق المستقيم ، وهو المنهج الوسطيُّ ، بلا إفراط ولا تفريط ، بلا غُلُو ولا تَسْيُب .

(٦) رواه أحمد في مسنده (٢٣٦ / ١) برقم (٢١٠٧) ، وحسنه الحافظ في الفتح (٩٤ / ١) . وقال العجلوني في كشف الخفاء (٥١ / ١) : ((ورواه أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة أيضاً لكن بلفظ " إني أرسلتُ بالحنيفية السَّمحة ")) . وقال الحافظ في الفتح (٩٤ / ١) : ((والمراد = بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبَدَّل وتُنسخ . والحنيفية مِلَّة إبراهيم . والحنيف في اللغة مَنْ كان على مِلَّة إبراهيم . وسمِّي إبراهيم حنيفاً لِمَيْلِه عن الباطل إلى الحق ، لأن أصل الحنْف المَيْل)) اهـ .

(٧) متفق عليه . البخاري (١١٠٤ / ٣) برقم (٢٨٧٣) ، ومسلم (١٣٥٩ / ٣) برقم (١٧٣٣) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٤١) : ((إنما جَمَعَ في هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأنه قد يفعلهما في وقتين ، فلو اقتصر على يَسْرُوا لَصَدَقَ ذلك على مَنْ يَسَّرَ مَرَّةً أو مَرَّاتٍ ، وعَسَّرَ في معظم الحالات. فإذا قال : ولا تُعَسِّرُوا، انتفى التَّعْسِيرُ في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب. وكذا يُقال في: يَسِّرُوا ولا تُنْفِرُوا وتطوعوا ولا تختلفا، لأنهما قد يتطوعان في وقت ، ويختلفان في وقت ، وقد يتطوعان في شيء ، ويختلفان في شيء . وفي هذا الحديث الأمر بالتَّبَشِيرِ بفضل الله، وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته ، والنهي عن التنفير بِذِكْرِ التخويف وأنواع الوعيد مَحْضَةٌ مِنْ غَيْرِ ضَمِّهَا إِلَى التَّبَشِيرِ . وفيه تأليفٌ مِنْ قَرَبِ إسلامه ، وترك التشديد عليهم ، وكذلك مَنْ قَارَبَ البلوغ من الصبيان وَمَنْ بَلَغَ ، وَمَنْ تاب من المعاصي ، كلهم يتلطف بهم ، وَيَذْرُجُونَ في أنواع الطاعة قليلاً قليلاً ، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج. فمتى يُسَّرَ على الداخل في الطاعة، أو المُريد للدخول فيها ، سَهِّلَتْ عليه ، وكانت عاقبته غالباً التزايد منها. ومتى عُسِّرَتْ عليه أَوْشَكَ أن لا يدخل فيها ، وإنْ دَخَلَ أَوْشَكَ أن لا يدوم أو لا يستحليها . وفيه أمر الوُلاة بالرفق ، واتفاق المتشاركين في ولاية ونحوها ، وهذا من المهمات ، فَإِنَّ غالب المصالح لا يتمُّ إلا بالاتفاق ، ومتى حصل الاختلاف فات . وفيه وَصِيَّةُ الإمام الوُلاة ، وإن كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى ، فَإِنَّ الذِّكْرَ تنفع المؤمنين ((اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ)) (8).

وهذا يُشير إلى سعة رحمة الله ، وعظيم فضله ، وسهولة الشريعة الإسلامية وسماحتها . فحديثُ النَّفْسِ لا يُؤَاخِذُ اللَّهَ بِهِ، وهو مَغْفُورٌ عنه مَهْمَا كانت طبيعته ضمن شروطٍ ثلاثة : الأول _ ألا يَسْتَقَرَّ في القلب ، فإذا استقرَّ في القلب صارَ عقيدةً ، يُحَاسِبُ عليها الإنسان . الثاني _ ألا يعمل به ، فإذا عَمِلَ بِهِ (عمل الجوارح) ، صارَ فعلاً يُحَاسِبُ عليه . الثالث _ ألا يتكلم به ، فإذا تكلم به باللسان ، صارَ قولاً يُحَاسِبُ عليه .

(٨) متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٠٢٠) برقم (٤٩٦٨) ، ومسلم (١ / ١١٦) برقم (١٢٧) .

وفي فيض القدير (٢ / ٢١٨) أنَّ النووي قال : ((قال العلماء : المُراد به الخواطر التي لا تستقر . قالوا : وسواءً كان ذلك خاطر غيبيةً أو كُفراً أو غيره ، فَمَنْ خَطَرَ له الكفر مُجَرَّد خُطُور مِنْ غير تَعَمُّدٍ لتحصيله ، ثم صَرَفَه في الحال ، فليس بكافر ، ولا شيء عليه)) اهـ .
وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسِيَانَ ، وما اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))^(٩) .

ومعنى التَّجَاوَزَ الْعَفْوَ وعدم المؤاخَذة . وقد عفا الله عن هذه الأشياء الثلاثة رحمةً منه وتفضلاً على عباده المؤمنين . الأول _ الخطأ : فَمَنْ أخطأ في الْقَوْل أو الْفِعْل بلا تَعَمُّدٍ ، فلا شيء عليه . والثاني _ النسيان ، وهو ترك الشيء عن دُھول و غَفْلَة ، والثالث _ إجبار المرء على فعل شيء أو تركه ، فإنَّ الواقع تحت الإجبار دون وجود إرادة منه ، فلا شيء عليه .

وهذه الأدلة مُجمعة تُشير إلى سعة رحمة الله تعالى ، وسماحة الشريعة المحمّدية الإسلامية وسهولتها، وكَوْنُهَا جاءت لرفع الحرج، والتخفيف على الناس، وتيسير أمور حياتهم، وإخراجهم من الضيق إلى السعة، ومن التعب إلى الراحة، ومن التعاسة إلى السعادة. وإذا أردنا معرفة رحمة الله بالأُمة المحمّدية وفضله عليها، فلنقارن بين هذه الشريعة السّماحة، وبين الأحكام المشدّدة على بني إسرائيل.

على سبيل المثال لا الحصر : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم البول ، قَطَعَ الجزء الذي أصابته النجاسة ، سواءً مِنْ جِلْدِهِ أو ثَوْبِهِ ، ولا يُقْبَلُ مِنْهُ أَنْ يُطَهِّرَهُ بالماء . وهذا التشديد عليهم بسبب عنادهم ، وقسوة قلوبهم ، وخشونة طباعهم . والجزاء مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .
فعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَصَابَ أَحَدَهُمُ الْبَوْلُ قَرَضَهُ بِالْمِقْرَاضِ))^(١٠) .

وفي صحيح مسلم (١ / ٢٤٦) : عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لَمْ يُؤَاكِلُوها ، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ إلى

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢١٦) برقم (٢٨٠١) وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠) رواه الحاكم (٣ / ٥٢٨) برقم (٥٩٦٤) مرفوعاً وصحّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه البخاري (٩٠ / ١) موقوفاً على أبي موسى الأشعري ، وكذلك مسلم (١ / ٢٢٨) .

آخر الآية . فقال رسول الله ﷺ : ((اصنعوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ)) ، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا : ما يريد هذا الرَّجُلُ أَنْ يَدْعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ .

ومعنى عدم جماعهنَّ في البيوت ، أي إنَّهم لَمْ يُخَالِطُوهُنَّ ، وَلَمْ يُسَاكِنُوهُنَّ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ . وقد اعتنقَ عربُ الجاهليةِ طريقةَ اليهود في التعامل مع المرأة الحائض ، فَتَجَنَّبُوا مُوَاطَاةَ الحائض ومُساكنتها . وهذا من باب التقليد الأعمى بلا دليلٍ دينيٍّ ، ولا برهانٍ عقليٍّ .

والقاعدةُ الفقهيَّةُ في هذا السِّياق هي " اصنعوا كل شيء إِلَّا النِّكَاحَ " ، وهذا يعني جواز مباشرة الحائض فيما عدا الفَرْج . والإسلامُ يُؤَسِّسُ قواعدهُ الخاصةَ دون تقليد لأحدٍ ، فهو نظامٌ متكامل قائم بذاته ، لا يعتمد على التقليد الأعمى ، وإنما يعتمد على الوحي السَّمَاوِيِّ المعصوم . وأيضًا، تتجلى سماحة الشريعة الإسلامية وسهولتها ، ولُيُؤَنِّدُ النظام الاجتماعي في الإسلام ومُرونته . والأغلال التي كانت على بني إسرائيل ، هي التشديد عليهم ، ومنها وجوب قتل بني إسرائيل لبعضهم بعضًا حتى ينالوا التوبة بسبب عبادتهم للعجل . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٤] .

وفي تفسير القرطبي (١ / ٤٤٠) : ((قَالَ سَفِيَّانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : التَّوْبَةُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ . وَكَانَتْ تَوْبَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقَتْلَ . وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ عِبْدَةِ الْعِجْلِ بِأَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ بِيَدِهِ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : لَمَّا قِيلَ لَهُمْ : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، قَامُوا صَفِّينَ ، وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى قِيلَ لَهُمْ : كُفُّوا . فَكَانَ ذَلِكَ شَهَادَةً لِّلْمَقْتُولِ ، وَتَوْبَةً لِّلْحَيِّ)) اهـ .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ . فَالَّذِينَ صَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَعَظَّمُوهُ ، وَحَمَّوْهُ مِنْ كُلِّ الْأَخْطَارِ ، وَأَعَانُوهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِالْكَلامِ وَالْأَفْعَالِ ، وَنَصَرُوا دِينَهُ ، وَنَشَرُوا شَرِيعَتَهُ .

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٥٨٢) : ((وَالتَّعْزِيرُ يَأْتِي بِمَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالْإِعَانَةِ وَالْمَنْعِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَمِنْ هُنَا يَجِيءُ التَّعْزِيرُ بِمَعْنَى التَّأْدِيبِ ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْجَانِيَّ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْجِنَايَةِ)) اهـ .

﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ . وَاتَّبَعُوا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَاتَّخَذُوهُ دُسْتُورًا لِحَيَاتِهِمْ، فَهُوَ النُّورُ الَّذِي يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ . وَبَيَانُ الْقُرْآنِ فِي الْقُلُوبِ كَيِّانُ النُّورِ فِي الْعُيُونِ . لِذَلِكَ اسْتَحَقَّ الْقُرْآنُ أَنْ يُسَمَّى نُورًا . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٤) : ((﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ ، أَي مَعَ نُبُوتِهِ ، يَعْنِي الْقُرْآنَ ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُ نُورًا ، لِأَنَّهُ بِإِعْجَازِهِ ظَاهِرٌ

أمره ، مُظْهِرٌ غَيْرُهُ ، أو لأنه كاشف الحقائق، مُظْهِرٌ لها. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَعَهُ﴾ مُتَعَلِّقًا بِـ ﴿اتَّبِعُوا﴾ . أي : وَاتَّبِعُوا التَّوْرَ الْمُنَزَّلَ مَعَ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ، يكون إشارة إلى اتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)) اهـ .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٧٤) : ((وفي قَوْلِهِ : ﴿مَعَهُ﴾ قَوْلَانِ : أحدهما أنها بمعنى " عَلَيْهِ " . والثاني: بمعنى أنزل في زمانه . قال قتادة : أَمَّا نَصْرُهُ فَقَدْ سَبَقَتْهُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ خَيْرَكُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَاتَّبَعَ التَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ)) اهـ .
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِكُلِّ خَيْرٍ ، الناجون من كُلِّ شَرٍّ . إنهم الفائزون في الدنيا والآخرة .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصَّف : ٦] .

واذْكُرْ يا محمد هذه القصة لِقَوْمِكَ ، حِينَ قَالَ عِيسَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِالْإِنْجِيلِ ، أَصْدَقُ التَّوْرَةِ ، وَلَا أُخَالِفُهَا ، وَلَا أَطْعُنُ فِيهَا ، وَأُبَشِّرُ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، والمقصود هو النبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ، إِذْ إِنَّ لَهُ أَسْمَاءَ كَثِيرَةً ، مِنْ بَيْنِهَا : أَحْمَدُ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ عِيسَى بِالْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ ، كَفَرُوا بِهِ ، وَقَالُوا عَنْهُ : سِحْرٌ وَاضِحٌ . وَوَصَفُهُ بِالسَّحْرِ لِلْمُبَالَغَةِ وَالْإِنْكَارِ الشَّدِيدِ .

إِنَّ وَصْفَ عِيسَى ﷺ ثَابِتٌ فِي التَّوْرَةِ . وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْإِنْجِيلِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَقَدْ خَاطَبَهُمْ عِيسَى ﷺ بِعِبَارَةٍ رَقِيقَةٍ تَحْمِلُ مَعْنَى اللَّيْنِ وَالْأَدَبِ وَالتَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ .

لَقَدْ نَسَبَهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ إِسْرَائِيلَ (يَعْقُوبُ ﷺ) لَكِي يُذَكِّرَهُمْ بِانْتِمَائِهِمْ إِلَيْهِ ، وَهُوَ النَّبِيُّ الطَّاهِرُ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتَفُوا أَثَرَهُ ، وَيَسِيرُوا عَلَى نَهْجِهِ ، فَهُوَ أَبُوهُمْ الصَّالِحُ . وَهَذَا التَّذْكِيرُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَفِّزَ هِمَّتَهُمْ وَيُدْفِعَهُمْ لِلْإِيمَانِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ، كَمَا تَقُولُ لِشَخْصٍ : يَا ابْنَ الْأَشْرَافِ قُمْ بِعَمَلِكَ . فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ سَتَكُونُ دَافِعًا لَهُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَاقْتِفَاءً أَثَارَ مَنْ سَبَقُوهُ ، وَتَذْكِيرًا لَهُ بِأَصْلِهِ الْكَرِيمِ . وَالْمَعْنَى : يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ ، كُونُوا مِثْلَ آبَائِكُمْ فِي الْإِيمَانِ وَعَمَلِ الطَّاعَاتِ ، وَالنِّزَامِ الْحَقِّ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ٢٤٤) : ((يا بني إسرائيل ، ناداهم بذلك استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه)) اهـ .

قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل ، إِنِّي أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ بالوصف المذكور في التَّوراة . وَلَمْ يقل : يا قَوْمِي ، لأنهم ليسوا قَوْمَهُ ، وليس له فيهم نَسَبٌ ، فهو ﷺ يَدُونُ أَب .
ولا شَكُّ أَنَّ تَصْدِيقَهُمَ لِلتَّوراةِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ لِتَصْدِيقِ عِيسَى . فالتَّوراةُ هِيَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦١) : ((يعني التَّوراةُ قد بَشَّرَتْ بِي ، وأنا مُصَدِّقُ ما أَخْبَرَتْ عَنْهُ ، وأنا مُبَشِّرٌ بِمَنْ بَعْدِي ، وهو الرِّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ . فعيسى _ عليه السلام _ هو خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وقد أَقَامَ فِي مَلَأَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ ، وهو أَحْمَدُ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الذي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ وَلَا نُبُوَّةَ)) اهـ .

وبما أَنَّ وَصْفَ عِيسَى ﷺ ثَابِتٌ فِي التَّوراةِ ، فلا دَّاعِي لِتَكْذِيبِهِ ، وَلَا مَعْنَى لِلتَّشْكِكِ فِيهِ . كما أَنَّهُ جَاءَ بِتَصْدِيقِ أَحْكَامِ التَّوراةِ ، وَتَعْظِيمِ شَأْنِهَا ، وَالْإِيمَانِ بِكُتُبِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ بِلا اسْتِثْنَاءٍ ، وَلَمْ يَجِئْ لِلطَّعْنِ فِي التَّوراةِ ، وَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ يُخَالِفُهَا . وَكُلُّ هَذِهِ الدَّلَائِلُ تُشِيرُ إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَلَا مَعْنَى لِتَكْذِيبِهِ ، وَلَا مُبَرَّرٌ لِلطَّعْنِ فِي نُبُوَّتِهِ . فَقَدْ جَاءَهُمْ بِمَا يُوَافِقُ النُّقْلَ وَالْعَقْلَ مَعًا . وَجَاءَهُمْ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّبَشِيرِ مَعًا .

قال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٧٥) : ((﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوراةِ ﴾ لِأَنَّ فِي التَّوراةِ صِفَتِي ، وَإِنِّي لَمْ آتِكُمْ بِشَيْءٍ يُخَالِفُ التَّوراةَ فَتَنْفِرْعُوا عَنِّي)) اهـ .
﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ . قال عيسى : أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ حَالِ كَوْنِي مُصَدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنِّي مِنَ التَّوراةِ ، وَمُبَشِّرًا بِالرَّسُولِ الَّذِي سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِي . وَهَكَذَا يَكُونُ عِيسَى ﷺ بَيْنَ التَّصْدِيقِ وَالتَّبَشِيرِ ، التَّصْدِيقُ بِمَا سَبَقَ ، وَالتَّبَشِيرُ بِمَنْ سَيَأْتِي . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى أَمَانَتِهِ فِي تَبْلِغِ الْوَحْيِ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ . فَلَمْ يَسْعَ عِيسَى إِلَى الطَّعْنِ فِي التَّوراةِ لِإِعْلَاءِ شَأْنِ الْإِنْجِيلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، وَلَمْ يَطْعَنْ فِي مُحَمَّدٍ لِإِعْلَاءِ شَأْنِ نَفْسِهِ . لَقَدْ كَانَ عِيسَى ﷺ أَمِينًا وَصَادِقًا وَشَرِيفًا وَنَزِيهًا . لَمْ يَكْتُمْ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ ، بَلْ بَلَّغَهُ كَامِلًا . وَهَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ بِلا اسْتِثْنَاءٍ . فَهُمْ مُنْزَهُونَ عَنِ الْكُذْبِ وَالْخِيَانَةِ وَالْخِدَاعِ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ٢٤٤) : ((أَي : أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ حَالِ كَوْنِي مُصَدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنِّي مِنَ التَّوراةِ ، وَمُبَشِّرًا بِمَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي مِنْ رَسُولٍ اسْمُهُ أَحْمَدُ ، أَي : مُحَمَّدٌ ﷺ . يُرِيدُ أَنْ دِينِي التَّصْدِيقُ بِكُتُبِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ جَمِيعًا ، مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ)) اهـ .

وعن العرياض بن سارية_ رضي الله عنه _ صاحب رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَأَبِي مُنَجِّدٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى)) (11).

لَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ خَلْقِ جَسَدِ آدَمَ ﷺ وَقَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ. وَقَدْ كَانَ آدَمُ ﷺ صُورَةً مِنْ طِينٍ ، مَطْرُوحَةً عَلَى الْأَرْضِ ، لَمْ تَجْرِ فِيهِ الرُّوحُ .
وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٧٠٧) عن معنى " مُنَجِّدٌ فِي طِينَتِهِ " : ((أَي مُلْقَى عَلَى الْجَدَالَةِ، وَهِيَ الْأَرْضُ)) اهـ.

و " دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ " تَتَجَلَّى فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ .

أَمَّا " بِشَارَةُ عِيسَى " فَتَتَجَلَّى فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ عِيسَى ﷺ : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

وفي تفسير ابن كثير (٤ / ٤٦١) : ((قال ابن عباس : مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ لَنْ يَبْعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لِيَتَّبِعَنَّهُ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ لَنْ يَبْعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءَ لِيَتَّبِعَنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ)) اهـ .

وقصة الصحابة الذين ذهبوا إلى النجاشي بأمر النبي ﷺ مشهورة ، وفيها دلالات عظيمة . فهي اعتراف من مَلِكٍ نصرانيٍّ عَالِمٍ ، وَخَوَّلَهُ رِجَالُ الدِّينِ النصراني المتبحرون في دراسات التوراة والإنجيل ، بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ مَعْرُوفًا فِي كِتَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ . فَالْبَعْضُ يَمْلِكُ الْجَرَأَةَ لِيَعْتَرِفَ بِذَلِكَ ، وَالبعض الآخر تغلبه شهواته ومصالحه الشخصية فتحجب عنه الإيمان بالرسالة المحمدية الإسلامية ، وهذا يُعَرِّضُهُ لَخَسَارَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا . وَبِمُكْنَا أَنْ نُوجِزَ الْقِصَّةَ عَلَى النُّحُوِّ التَّالِي :

((فَقَالَ النجاشي لجعفر : مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ _ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ _ فِي ابْنِ مَرْيَمَ ؟ ، قَالَ : يَقُولُ فِيهِ اللَّهُ : هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ، أَخْرَجَهُ مِنَ الْبُتُولِ الْعَذْرَاءِ لَمْ يَقْرَبْهَا بَشَرٌ ، قَالَ _ الرَّاوِي _ : فَتَنَاوَلَ النجاشي عُودًا مِنَ الْأَرْضِ فَرَفَعَهُ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْقَسِيْسِينَ وَالرُّهْبَانِ ، مَا يَزِيدُ هَؤُلَاءِ عَلَى

(١١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٤٥٣) بِرَقْمِ (٣٥٦٦) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

ما تقولون في ابن مريم ما يَزِنُ هذه . مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده ، فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم ، ولولا ما أنا فيه من المُلْك لأتيتُه حتى أحمل نَعْلَيْهِ))⁽¹²⁾ .

في هذه القصة إشارة واضحة إلى أن أهل الكتاب لديهم علوم دينية ، ويدركون أبعاد الحقيقة، ومعالم الحق. ومنهم من يمتلك الجرأة على التصدي للباطل، والجهر بدعوة الحق . فينبغي على المرء أن يطلب الحق مُخْلِصًا في ذلك دون وجود أهواء شخصية أو أغراض مادية نفعية آنيّة، فلن يدوق لذة معرفة الحقيقة سوى شخص صادق في بحثه وقصده .

وقد رأينا موقف النجاشي _ رضي الله عنه _ في إعلان الحقيقة مُدَوِّيةً أمام حاشيته، ولم يخشَ انقلاب الناس عليه، لأن الحق _ بالنسبة إليه _ أحق أن يتبع . فهذا الموقف الشريف يعكس تحرُّرًا في التفكير البَنَاء ، ويُعدّ نظر ثاقبًا ، وإعمالاً لِمَلَكَاتِ تحليل المواقف ، واستيعاب الخطاب الكلامي بدقّة بالغة ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦١) : ((والمقصود أنَّ الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كُتُبها على أُممها ، وتأمرهم باتّباعه ، ونصّره ، ومؤازرته ، إذا بُعث)) اهـ .

و " أحمد " من أسماء النبي ﷺ ، وهو اسمٌ عَلَمٌ .

وعن جُبَيْر بن مُطْعِم _ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إِنَّ لِي أَسْمَاءً ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي ، الذي يمحو الله بِي الكفر ، وأنا الحاشِر ، الذي يُحْشِرُ الناسُ على قَدَمِي ، وأنا العَاقِب _ يعني الذي لا نبيَّ بَعْدَهُ))⁽¹³⁾ .

ومعنى اسم "أحمد" أنه أكثرُ حَمْدًا لله من غيره . وكُلُّ الأنبياء حَمَادُونَ لله تعالى ، وهو أكثرُهُم حَمْدًا لله تعالى . أو أنه يُحَمَدُ بصفاته الطَّيِّبة الموجودة فيه أكثر ممَّا يُحَمَدُ غَيْرُهُ . وكُلُّ الأنبياء صِفَاتُهُم طَيِّبَةٌ ، وَيُحَمَدُهُم الناسُ ، ومحمد ﷺ أكثرُهُم وأجمعُهُم للفضائل والأخلاق الحميدة، لذلك يَحَمَدُهُ الناسُ أكثر من سائر الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وصَدَقَ حَسَّان بن ثابت حين قال :

صَلَّى الْإِلَهُ وَمَنْ يَخْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيْبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدُ

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٣٨) برقم (٣٢٠٨) وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٣) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٨٥٨) برقم (٤٦١٤) ، ومسلم (٤ / ١٨٢٨) برقم (٢٣٥٤) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٧٥) : ((و " أحمد " اسم نَبِيٍّ ﷺ ، وهو اسمٌ عَلَمٌ منقول من صِفة لا من فعل ، فتلك الصفة " أفعَل " التي يُراد بها التفضيل . فمعنى " أحمد " أي أحمدُ الحامدين لِرَبِّهِ ، والأنبياءُ _ صلوات الله عليهم _ كُلُّهم حامدون الله ، وَنَبِيُّنا أحمدُ أَكثَرُهم حَمْدًا . وأما " مُحَمَّدٌ " فمنقول من صِفة أيضًا ، وهي في معنى " محمود " ، ولكن فيه معنى المُبالغة والتكرار . فالمحمد هو الذي حَمَدَ مَرَّةً بعد مرة ، كما أن المُكْرَم من الكرم مرة بعد مرة ، وكذلك الممدوح ونحو ذلك . فاسمُ " محمد " مُطابق لمعناه ، والله سُبْحانَه سَمَاه قبل أن يُسَمِّي به نَفْسَه ، فهذا عَلَمٌ من أعلام نُبُوَّتِه ، إذ كان اسمُه صادقًا عليه ، فهو محمود في الدنيا لِمَا هَدَى إِلَيْهِ ، ونَفَعَ بِهِ مِنَ العِلْم والحكمة ، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة ، فقد تَكَرَّرَ معنى الحمد كما يقتضي اللفظ ، ثُمَّ إنه لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدًا حتى كان أحمد ، حَمَدَ رَبَّهُ ، فَتَبَّاه ، وَشَرَّفَه ، فلذلك تَقَدَّمَ اسمُ " أحمد " على الاسم الذي هو " محمد " ، فَذَكَرَه عيسى _ عليه السلام _ فقال : ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾)) اهـ .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار في قِصص الأنبياء (ص ٤٧٣) في حوار دار بينه وبين الدكتور كارلو نلينو (14) :

((ما معنى بيريكلتوس؟ ، فأجابني بِقَوْلِه: إِنَّ الْقُسُسَ يَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مَعْنَاهَا " الْمُعْزِّي " ، فقلتُ : إني أسأل الدكتور (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ، ولستُ أسأل قِسِيًّا ، فقال : إِنَّ مَعْنَاهَا (الذي له حمد كثير) ، فقلتُ : هل ذلك يُوافق أفعَل التفضيل من حَمَدَ ؟ . فقال : نعم ، فقلتُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من أسمائه (أحمد) ، فقال : يا أخي ، أنت تحفظ كثيرًا ، ثُمَّ افترقنا . وقد ازددتُ بذلك تَبَيُّنًا في معنى قَوْلِه تعالى حِكَايَةً عن المسيح : ﴿ وَبَشِّرْ بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾)) اهـ .
﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

(١٤) كارلو ألفونسو نلينو (١٨٧٢ - ١٩٣٨) . مستشرق إيطالي . وُلِدَ في مدينة تورينو الإيطالية . لغوي فلكي مؤرخ جغرافي . له اهتمام واسع باللغة العربية ، وعلم الفلك العربي ، وتاريخ اليمن القديم ولهجاته ، والمذاهب الدينية الإسلامية . طُبعت محاضراته عن " تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أُمَيَّة " بعد وفاته . ابنته هي المستشرقة ماريا نلينو . وأبرز تلاميذه الكاتب المصري طه حسين .

فلَمَّا جاءهم عيسى ﷺ بالآيات الواضحة والمعجزات الباهرة مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ، وسائر المعجزات التي تدل على صدقه وصحة نبوته، قالوا عن عيسى : هذا ساحرٌ واضحٌ أمره ، وقد جاءنا بهذا السحر (يقصدون المعجزات والآيات) . أو قد يكونون قد أطلقوا لفظ " سحر " على عيسى ﷺ للمبالغة (15).

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المقصود هو محمد ﷺ . والمعنى : فلَمَّا جاءهم أحمد بالآيات والمعجزات ، وهي الأدلة والحجج على نبوته ، اتهموه بأنه ساحر ، وما جاء به سحر . أو يقصدون أنَّ محمدًا ﷺ هو السحر للمبالغة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٦١) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . قال ابن جرير وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم ﴾ أحمد أي المُبَشِّر به في الأعصار المتقدمة ، المُنَوَّه بِذِكْرِهِ في القرون السالفة . لَمَّا ظَهَرَ أَمْرُهُ وجاء بالبيِّنات قال الكُفْرَةُ والمخالفون :

﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ٢٤٤) : ((﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : بالمعجزات الظاهرة ، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ مُشيرين إلى ما جاء به ، أو إليه _ عليه الصلاة والسلام _ وتسميته سحرًا للمبالغة ، ويُؤيده قراءة مَنْ قرأ : هذا ساحر)) اهـ .

وفي صفوة التفاسير (١٨ / ٤٤) : ((قال المفسرون : بَشَّرَ كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وإنما أفرَدَ اللهُ تعالى ذِكْرَ عيسى بالبشارة في هذا الموضع ، لأنه آخرُ نبيٍّ قبلَ نبينا ﷺ ، فَبَيَّنَ تعالى أَنَّ البشارة به عَمَّتْ جميع الأنبياء ، واحدًا بعد واحد ، حتى انتهت إلى عيسى _ عليه السلام _ آخرِ أنبياء بني إسرائيل)) اهـ .

لقد مهَّد عيسى (خاتم أنبياء بني إسرائيل) الطريقَ لمحمد (خاتم الأنبياء والمرسلين) كي يقود المسيرة البشرية . لكنَّ بني إسرائيل _ كعادتهم _ قَوْمٌ سَوَاءٌ وَحَسَدٌ وَغِنَادٌ ، يريدون احتكارَ الفضل الإلهي لأنفسهم مَعَ أنهم غير مُلتزمين بشريعة الله تعالى .

(١٥) قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٨ / ٤٤) : ((هذا هو الظاهر أنَّ الضمير يعود على " عيسى " لأنه المحدث عنه . وقيل : يعود على " أحمد " الذي بشروا به ، والأول اختيار البضاوي والألوسي وصاحب البحر المحيط ، وهو الأظهر)) اهـ .

لذلك حاولوا بكل ما أُوتوا من قوة عبر الطرق غير المشروعة أن يمنعوا وصول النور المحمديّ إلى العالم ، لكنهم عجزوا عن ذلك رغم سيطرتهم على مثلث الشهوات (المال _ الجنس _ الإعلام) . وقال ابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٣ / ٥٠٤) : ((ثُمَّ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِالَّذِينَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الْمَسِيحَ وَسَائِرَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ مُصَدِّقًا لِمَا جَاءَ بِهِ الْمَسِيحَ ، وَكَانَ الْمَسِيحُ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ ، صَارَتْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ أَتْبَعَ لِلْمَسِيحِ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ غَيَّرُوا شَرِيعَتَهُ ، وَكَذَّبُوهُ فِيمَا بَشَّرَ بِهِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ أُمَّةً مُحَمَّدٌ فَوْقَ النَّصَارَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) اهـ .

وقد جمعت صفات محمد ﷺ في التوراة والإنجيل المتداولة عند أهل العلم ، وأنا أنقلها كما

هي :

أولاً : التوراة (العهد القديم)

[١] تشية ١٨ : ١٥ : ((يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي)) . ونفس الأصحاح الآية ١٨ : ((أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أَوْصِيَهُ بِهِ)) .

وقوله " من إخوتك " يعني العرب ، لأن ولد إسماعيل هم أخوة بني إسرائيل .

[٢] تشية ٣٢ : ٢١ : ((فَأَنَا أُغَيِّرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا . بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغَيِّظُهُمْ)) .

والمقصود بالأمة الغبية : العرب قبل رسالة محمد ﷺ .

[٣] تشية ٣٣ : ٢ : ((جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ وَتَلَأَلَا مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَأَتَى

مِنْ رِبَوَاتِ الْقُدُسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارٌ شَرِيعَةٌ لَهُمْ)) .

فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ ، وإشراقه من سعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ﷺ ، وتلألؤه من فاران إنزاله للقرآن ، لأن فاران من جبال مكة ، ومنه أتت الشريعة المحمدية الإسلامية .

[٤] التكوين ١٧ : ٢٠ : ((وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ . هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ

كَثِيرًا جَدًّا . اثْنِي عَشَرَ رَئِيسًا يُلِدُ وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً)) .

هذه النبوة تجعل من ولد إسماعيل سيد شعب كبير . وهذا لم يتحقق في ولد

إسماعيل إلا لمحمد .

[٥] التكوين ٤٩ : ١٠ : ((لَا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ

شَيْلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خَضُوعٌ شُعُوبٌ)) .

وشيلون هو لقب لمحمد الذي أتى وخضعت له الشعوب .

[٦] المزمور ٤٥ : ٣ : ((تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ جَلَالُكَ وَبَهَاءُكَ)) .

النبي الجبار نبي السيف والبيان هو محمد . وهذه البشارة لا تنطبق على غيره .

[٧] المزمور ١٤٩ . إن هذه البشارة تنبئ عن أمة محمد . إنها أمة الحمد والسَّيف مَعًا .

[٨] إشعياء ٤٢ : ١١ : ((لَتَرْفَعِ الْبَرِيَّةُ وَمَدْنُهَا صَوْتَهَا الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَار)) .

إنها نبوءة على يقظة الصحراء التي سكنها " قِيدَار " الابن الثاني لإسماعيل . فهي تشير إلى الإسلام ومحمد في الحجاز .

[٩] إشعياء ٥٤ : كُلُّهُ . المراد بالعافر " مكة قبل نُبُوَّة محمد " لأنه لم يَقم فيها نبيُّ بعد إسماعيل، ولم ينزل فيها وَحْي. وتعبير " بني المستوحشة " إشارة إلى أولاد " هاجر " . و " الحَدَّاد " المذكور في ٥٤ : ١٦ : ((هَا أَنَذَا خَلَقْتُ الْحَدَّادَ)) إشارة إلى محمد ، حيث قاتل المشركين بِسَيْفِهِ .

[١٠] إشعياء ٦٥ : كُلُّهُ . هذه نبوءة لاستبدال اليهود بالمسلمين شعبًا لله . ((وَيُسَمِّي عبيده اسماً آخر)) [٦٥ : ١٥] .

[١١] نبوءة دانيال المزدوجة: صورة التمثال كناية عن الشرك الذي يُمَثَّل أربع ممالك ، وفي زمن المملكة الرابعة ينقطع حجر من جبل " بغير يد قطعته " فيسحق التمثال والممالك الوثنية التي تحمله [٢ : ٣١ - ٤٥] . وصورة ابن البشر الآتي على سحاب السماء لينشئ على الأرض ملكوت الله على أنقاض ممالك العالم [٧ : ١٣ - ٣٧] . فالحجر الذي يضرب تمثال الشرك هو محمد ، وملكوت الله هي الدولة الإسلامية التي قامت على أنقاض الفُرس والرُّوم .

ثانياً : الإنجيل (العهد الجديد)

[١٢] رسالة يهوذا : ١٤ : ((انظروا ! إن الربَّ آتٍ بصحبة عشرات الألوف من قَدِّيسيه)) .

" الرب " هنا بمعنى السيّد وهو محمد ، أما لفظة " قديسيه " فهي إشارة إلى صحابته .

[١٣] متى ٢ : ٢ : ((أين هو المولود ملك اليهود ؟)) . و ٤ : ١٧ : ((من ذلك الحين بدأ يسوعُ يُبَشِّرُ قائلًا : توبوا ، فقد اقترب ملكوت السماوات !)) .

إن المسيح لم يؤسس دولةً ، وهو مع المَعمدان يُبَشِّرُان بدولة الله في أرضه ، فملكوت السماوات هو الإسلام دولةً وشرعةً .

[١٤] مَتَّى ١٣ : ٣١ : ((وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ ، قَالَ : يُشَبَّهَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ بِبِزْرَةِ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ)) .

فحبة الخردل التي تصير شجرةً صورةً لملكوت الله . وهذه كناية عن الإسلام والنجاة فيه .
[١٥] مَتَّى ٢٠ : ١ - ١٦ . إن هذا المبدأ الإنجيلي نبوءة عن الإسلام ، دين الله في أرضه ، فهو يُبَشِّرُ بأن المسلمين آخر من ظهر من أهل الكتب المنزلة سيكونون أولين ، والأولون من اليهود والنصارى سيكونون آخرين .

[١٦] مَتَّى ٢١ : ٤٢ و ٤٣ : ((الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَاءُ هُوَ نَفْسُهُ صَارَ حَجَرِ الزَّوَايَةِ الْأَسَاسِي... لَذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ : إِنْ مَلَكُوتُ اللَّهِ سَيُنْزَعُ مِنْ أَيْدِيكُمْ وَيُسَلَّمُ إِلَى شَعْبٍ يُؤَدِي ثَمَرَهُ)) .
إِنْ مَلَكُوتُ اللَّهِ الَّذِي يُنْزَعُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَيُعْطَى لِأُمَّةٍ أُخْرَى تُوْدِي ثَمَرَهُ هُوَ الْإِسْلَامُ . وَأَنْ الْحَجَرِ رَأْسِ الزَّوَايَةِ فِيهِ هُوَ مُحَمَّدٌ . أَوْ أَنَّ حَجَرَ الزَّوَايَةِ فِي الْبَنِيَانِ النَّبَوِيِّ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْيَهُودَ رَفَضُوا إِسْمَاعِيلَ ﷺ (الَّذِي يُعْتَبَرُ أَبًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ) ، وَلَمْ يَجِئْ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلِ أَيُّ نَبِيٍّ سِوَى مُحَمَّدٍ . لَقَدْ رَفَضَ الْيَهُودُ إِسْمَاعِيلَ ، وَقَالُوا إِنَّهُ ابْنُ جَارِيَةٍ (هَاجِر) وَإِسْحَاقُ ابْنُ الْحُرَّةِ (سَارَةَ) . كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ يَقُولُونَ إِنَّ الذَّبِيحَ هُوَ إِسْحَاقُ لَا إِسْمَاعِيلَ — عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — .

[١٧] سَفَرُ الرُّؤْيَا ٢ : ٢٦ - ٢٩ . " الْغَالِبُ الْمَوْعُودُ " الَّذِي وَحَدَهُ أُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى الْأُمَمِ هُوَ مُحَمَّدٌ .

[١٨] الْبُؤْعَةُ بِالْفَارَقْلِيْطِ . حَسَبَ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا ١٤ : ١٦ : ((وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ مُعِينًا آخَرَ يَبْقَى مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ)) . وَ ١٤ : ٢٦ ، ١٥ : ٢٦ ، ١٦ : ٧ و ٨ ، ١٦ : ١٢ و ١٣ و ١٤ . [وَإِنَّ الْفَارَقْلِيْطَ الْمَوْعُودَ هُوَ " أَحْمَدُ " الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾] .

إِنَّ النَّصَّ الَّذِي أوردَهُ يوحنا غاية في الأهمية : ((إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَنِي فَاعْمَلُوا بِوَصَايَايَ ، وَسَوْفَ أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ مُعِينًا ^(١٦) آخَرَ يَبْقَى مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ)) [يُوحَنَّا ١٤ : ١٥ و ١٦] .

(١٦) لفظة " الْمُعِين " هي الترجمة للكلمة اليونانية "براكليتييس" ، وأيضًا تعني " الْمُعَزِّي " و " الشفيع " و " المحامي " . ويزعم النصارى أنها تشير إلى عمل رُوح القدس لأجلهم [انظر قاموس الكتاب المقدس ، ص

إن الكلمات السابقة التي أوردتها يوحنا، تدل على أمور عديدة هامة نُجْمِلُها في النقاط التالية:

(١) إن المخلصين حقيقةً للسيد المسيح ﷺ هم الذين سَيَتَّبِعُونَ الْمُعِين ، وهو النبي محمد ﷺ الذي سَيُرْسِلُهُ اللهُ تعالى .

(٢) ((وسوف أطلب من الآب أن يُعْطِيَكُمْ مُعِينًا آخَرَ)) ، تُمَثِّلُ دَعَاءَ نَبِيِّ بَأْن يُرْسِلَ اللهُ تعالى نَبِيًّا آخَرَ لِيُتِمَّمَ ما مضى . ويُشَبِّه دَعَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ _ عليهما الصلاة والسلام _ أن يبعث اللهُ تعالى رسولاً : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

(٣) ومعنى ((يبقى معكم إلى الأبد)) ، أي إن شريعته خالدة وخاتمة لكل ما سبق ، فليست بعدها شريعة ، وهذا النبي (محمد) ليس بعده نبي ، وهذا الأمر واقع إلى قيام الساعة ، وفي العبارة دلالة واضحة على النبي محمد ﷺ . فمن غير المعقول وجود نبي يبقى للأبد ، لأن الموت حق على المخلوقات ، وبالتالي فمعنى البقاء الأبدى هو بقاء الشريعة المحمدية الخاتمة إلى قيام الساعة .

وقد بَشَّرَ سَفَرُ أَعْمَالِ الرُّسُلِ بالنبي محمد ﷺ : ((وموسى هذا هو الذي قال لبني إسرائيل : سَيَبْعَثُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِكُمْ نَبِيًّا مِثْلِي)) [أعمال الرُّسل ٧ : ٣٧] .

ويزعم النصارى أن هذه النبوءة متعلقة بالسيد المسيح ، ولكن كلامهم مردود ولا تقوم له قائمة، فالمسيح ليس مثل موسى ، بل محمد مثل موسى ، بسبب الأدلة التالية :

- (١) إن محمداً وموسى وُلِدا ولادة طبيعية ، أما المسيح وُلِدَ بمعجزة مميّزة .
- (٢) كان لمحمد والدان، وكان لموسى والدان : ((وأخذَ عَمْرَامُ يُوْكَابِدَ عَمَّتَهُ زَوْجَةً لَهُ فَوَلَدَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى)) [خروج ٦ : ٢٠] ، أمّا المسيح فله أم فقط .
- (٣) لقد تزوج محمد وموسى وأنجبا ذُرِّيَّةً ، أمّا المسيح ظلَّ أعزب طوال حياته .

[٦٢٦] . وهم واهمون أو يتصنعون التوهم ، فَرُوحُ الْقُدُسِ فِي الْأَصْلِ الْيُونَانِي " بنِيومَا = PENUMA " . وللتحايل وإخفاء الحقائق قام النصارى بتغيير كلمة مُعَزِّي (مساعد COMFORTER) إلى كلمة وسيط (MEDIATOR) في الإنجيل باللغة الإفريقية، وأقحموا فيها جملة الرُّوحِ الْقُدُسِ، وهكذا يصنع النصارى كلمات الله. [أنظر محمد الخليفة الطبيعي للمسيح ، ص ٩٠ و ٩١] .

إنها أدلة دامغة تجلو الشك والريبة من صدور أولئك المرتابين. ولكن في كل زمان ومكان سيظل هناك مكابرون همهم إخفاء الحق ، والجدال بالباطل اتباعاً لأهوائهم ومصالحهم. إنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم وهاموا في الوديان على رؤوسهم ، فضّلوا وأضلوا . فمن الطبيعي أن يرفضوا الحقّ ويُعادوه ، لكن العلم لن يستفيد منه إلا الذين يُعملون عقولهم سعيًا إلى الوصول للحقيقة ، والله الهادي والمُضِل .

وأختم بهذه القصة : كان عندي تلميذ نصراني ، فقال لي يومًا إنه على الرغم من تمسّكه بالنصرانية _ التي يُسمّيها المسيحية_، فهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وسألني : هل يكون بذلك مسلمًا ؟. فأجبت : لا . حيث إنّ النطق بالشهادتين مُعتقدًا بها لا ينفع مع وجود النواقض مثل اعتقاد ألوهية المسيح أو صلّيه .

وكثير من النصارى يؤمنون بأن الله واحد، لكن من منظور منحرفٍ مضاد لمفهوم التوحيد عند المسلمين . فهم يزعمون أن الله تعالى واحد ذو ثلاثة أقانيم (الآب ، الابن ، الروح القدس) . تعالى الله علوًا كبيرًا. وقد قرأتُ لعالمٍ نصراني كلامًا مُضحكًا حول هذا الموضوع، فقد ضربَ مثلاً لهذه العقيدة الفاسدة فشَبَّهها بالشعاع الواحد الذي يتخذ ثلاثة مسارات !. وكأن التوحيد مسألة فيزياء متعلقة بانكسار الضوء والتشتت ! .

إنّ الاعترافَ بنبوّة محمد ﷺ ورسالته لا يَنفع، ما دامَ هناك رَفْضٌ للشريعة المحمّدية الإسلامية . لقد نَسَخَت هذه الشريعة كُلَّ الشرائع قَبْلَها. وَلَوْ وُجِدَ مُوسَى وعيسى _عليهما الصلاة والسلام_ في هذا الزمان ، فيجب عليهما أن يعبدوا الله وفق شريعة محمد ﷺ ، فما بالك بمن هو دُونهما ؟! . وكُلُّ الناسِ دُونهما .

وَكُلُّ مَنْ لا يَعْتَنِقُ الإسلامَ، فهو هالِكٌ لا مَحالة ، وخالدٌ في النار . مهما تميّزت أعماله بالصلاح والخير ، وكان ذا شخصية مُتمتعة بالأخلاق الحميدة .

لقد أبطلَ القرآنُ العملَ بكل الكتب السماوية قَبْلَه ، لأنه آخر الكتب السماوية . وأبطلَ محمد ﷺ العملَ بكل شرائع الأنبياء قَبْلَه ، لأنه آخر الأنبياء. وإذا ظَهَرَت الشمسُ اختفت النجوم.

والوَحْيُ الإلهيُّ الموجود على كوكب الأرض، مُنذ بعثة محمد حتى يوم القيامة، هو القرآن والسنة ، ولا ثالث لهما .

الفصل التاسع
أَخْلَاقُهُ وَصِفَاتُهُ وَفَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ

تمهيد

إنَّ محمدًا ﷺ هو أعظم الأنبياء والمرسلين ، فليس غريبًا أن تكون أخلاقه الحميدة هي المرجعية العليا ، والغاية القصوى ، ومَضْرِبُ المَثَل . والأخلاق النبوية هي الكمال البشري ، فهي أخلاقٌ مُؤَيَّدَةٌ بالوحي الإلهي ، لا تغرات فيها . ويسعى الناس جميعًا إلى تقليدها والتشبه بها . وكُلُّ الأنبياء أخلاقهم حميدة ، وصفاتهم جليلة . ولكن يظل محمد ﷺ هو المَثَل الأعلى في كُلِّ زمان ومكان .

وكمال محمد ﷺ يرجع إلى شخصيته المتكاملة، فهو نبيٌّ ، ورسولٌ ، وزَوْجٌ ، وأبٌ ، ومُصلِح اجتماعيٌّ، وزعيم سياسيٌّ ، وقائد عسكريٌّ ، وخطيبٌ بليغٌ . جمع بين التنظير الفكري والتطبيق العملي . وكان في كل حالاته مَثَالًا للأدب والتواضع والقُوَّة والعظْمة ، وكانت أخلاقه في كل المواضع شريفةً وحميدةً ، وهذا من فضل الله عليه . وأقصى ما يمكن للناس أن يفعلوه في هذا السياق هو التشبه ، لا أكثر ولا أقل . وكما قال الشاعر :

فَتَشَبَّهُوا إِن لَّمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشْبَهَ بِالْكَرَامِ فَلَاحُ

والنُّبوة _ بشكل عام _ هي منهجٌ أخلاقيٌّ إنفاذيٌّ لا سُلْطة استبدادية استهلاكية . لذلك كانت أخلاقُ الأنبياء في كُلِّ مراحل وجودهم هي الجاذبة للاتباع ، لِمَا تحتويه من فضائل سامية ، وصفات راقية، تشدُّ الآخرين، وتتشلهم من صفاتهم المذمومة، لتضعهم في مستوى الرُّقي الأخلاقي الشامخ .

وبما أنَّ الظواهر مهمة جدًا لأنها الجزء المكشوف في التعاملات البشرية ، برز عمقُ شخصية النبي ﷺ ، وامتلاكها لأدوات التأثير الجماهيري ، وسيطرتها على المحيطين بالأخلاق الحميدة لا بالتلويح بالعصا أو المال . فالإحسان إلى الرعية انعكس إيجابًا على مسيرة الدعوة الإسلامية ، عبر تعميق الانتماء إليها، والتضحية من أجلها . ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ إكرام الكريم بِمِثَابَةِ صَـكِّ مُلْكِيته ، لأنه سيظل شاعرًا بالدين في رقبته أبد الدهر .

وأهمية الأخلاق ترتكز إلى ظهورها العلني في المجتمع ، واحتكاكها مع شَتَّى الطبقات المجتمعية المتفاوتة في العلم والثروة والنسب والمكانة الاجتماعية، فهي ليست أمورًا باطنية خفية

عن الأعمى ، بل هي في صُلْبِ التعاملات العلنية على مَرَأى من الناس ومَسْمَع ، وجميع الناس يلاحظونها ، ويُعملون عقولهم في تصنيفها إيجاباً أو سلباً .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦١]^(١).

ومن المنافقين جماعة يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ بالكلام ، وَيَطْعُون فِيهِ ، وَيَعْبُونَ تَصْرُفَهُ ، ويقولون عنه إِنَّهُ يَسْمَعُ كَلَامَ كُلِّ شَخْصٍ فَيَقْبَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ . وقَصْدُ هؤلاء المنافقين هو رَمْيُ النَّبِيِّ ﷺ بالسَّذَاجَةِ والغفلة ، وأنه لا يُمَيِّزُ الكلامَ ، فَيَسْمَعُ كَلَامَ كُلِّ شَخْصٍ ، وَيَقْبَلُهُ ، دُونَ التَّحْقِيقِ مِنْهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٨٢) : ((﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي : مَنْ قَالَ لَهُ شَيْئًا صَدَّقَهُ فِينَا ، وَمَنْ حَدَّثَهُ صَدَّقَهُ ، فَإِذَا جُنَّاهُ وَحَلَفْنَا لَهُ صَدَّقْنَا . رُوِيَ عَنْهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ .))

وَطَعْنُ الْمُنَافِقِينَ فِي النَّبِيِّ ﷺ يُشِيرُ إِلَى فساد نَوَايَاهُمْ ، وَخُبْثَتِهِمْ ، وَحِقْدِهِمْ ، وَجَهْلِهِمْ . وقد فضحهم الله تعالى ، وكشف كلامهم السيئ ، وأظهر أفعالهم القبيحة .

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٦٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ حِذَامَ بْنَ خَالِدٍ وَالْجَلَّاسَ بْنَ سُؤَيْدٍ وَعُبَيْدَ بْنَ هَلَالٍ فِي آخِرِينَ كَانُوا يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لَا تَفْعَلُوا فَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَلْغِيَهُ فَيَقْعَ بِنَا ، فَقَالَ الْجَلَّاسُ : بَلْ نَقُولُ مَا شِئْنَا فَإِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ سَامِعَةٌ ، ثُمَّ نَأْتِيهِ فَيُصَدِّقُنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يُقَالُ لَهُ : نَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ ، كَانَ يَنْتُمُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُنَافِقِينَ ، فَقِيلَ لَهُ : لَا تَفْعَلْ ، فَقَالَ : إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ ، مَنْ حَدَّثَنِي شَيْئًا صَدَّقَهُ . نَقُولُ مَا شِئْنَا ثُمَّ نَأْتِيهِ فَنَحْلِفُ لَهُ فَيُصَدِّقُنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ . وَالثَّالِثُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، مِنْهُمْ الْجَلَّاسُ بْنُ سُؤَيْدٍ وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ اجْتَمَعُوا ، فَأَرَادُوا أَنْ يَقْعُوا فِي النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُمْ غُلَامٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، يُدْعَى عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ ، فَحَقَّرُوهُ ، فَتَكَلَّمُوا ، وَقَالُوا : لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَغَضِبَ الْغُلَامُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقٌّ ، وَإِنَّكُمْ لَشَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فِدْعَاهُمْ ، فَسَأَلَهُمْ ، فَحَلَفُوا أَنَّ عَامِرًا كَاذِبٌ ، وَحَلَفَ عَامِرُ أَنَّهُمْ كَذَبُوا ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تُفَرِّقْ بَيْنَنَا حَتَّى تُبَيِّنَ صِدْقَ الصَّادِقِ وَكَذِبَ الْكَاذِبِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .))

وقد سَمَّى المنافقون النبي ﷺ بِاسْمِ الجارحة (أُذُن) للمبالغة في أَنَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ فَيُصَدِّقُهُ. وقد اغْتَرَّوا بِحِلْمِهِ، وَصَفَحَهُ، وَكَرَّمَهُ، وإِحْسَانَهُ، وتجاوزوه عَن تصرفاتهم السيئة. وقد اغْتَبَرُوا أخلاقَ النبي الحميدة غَفْلَةً وسَدَاجَةً، وهذا يدل على جَهْلِهِمْ وصفاتهم الذميمة، والناسُ أعداءُ ما يَجْهَلُونَ.

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٥٤) : ((سُمِّيَ بالجارحة للمبالغة، كأنه مِن فَرَطِ استماعه ، صار جُمْلَتَهُ آلَةَ السَّمْعِ ، كما سُمِّيَ الجاسوس عَيْنًا)) اهـ .
﴿ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ . النبي ﷺ أُذُنٌ خَيْرٌ لَا أُذُنٌ شَرٌّ ، يَسْمَعُ الْخَيْرَ وَلَا يَسْمَعُ الشَّرَّ ، وَيُمَيِّزُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ . وهو حُجَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . ﴿ يَوْمَنْ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ . يُصَدِّقُ بِاللَّهِ ، وَيُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا عَلِمَ فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالصِّفَاتِ الطَّيْبَةِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْمَعُ كَلَامَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَقْبَلُهُ ، وَيُصَدِّقُهُ . وَلَا يُصَدِّقُ كَلَامَ الْمُنَافِقِينَ .
إِنَّهُ ﷺ أُذُنٌ خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ إِيْمَانِهِمْ ، إِذْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى . وَأَيْضًا ، النَّبِيُّ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ ، حَيْثُ قَبِلَ إِيْمَانَهُمُ الظَّاهِرَ ، وَلَمْ يَكْشِفْ أَسْرَارَهُمْ ، وَلَمْ يُعَامِلَهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَجْرَى الْأَحْكَامَ عَلَى الظَّاهِرِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ ، وَهُوَ رَحْمَةٌ - أَيْضًا - لِلشَّجَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْجَمَادَاتِ .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وَالَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَعْيَبُونَهُ ، وَيُؤْذُونَهُ بِالْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَقَدْ أَضَاعُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَأَوْرَدُوهَا الْمَهَالِكَ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ مُحَمَّدًا ﷺ بِالرَّسَالَةِ ، وَأَضَافَهُ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ فَقَالَ : ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى مَكَانَتِهِ الْجَلِيلَةِ ، وَمَنْزِلَتِهِ الرَّفِيعَةِ ، وَأَنَّهُ فِي حِمَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الَّذِي تَكْفَّلَ بِالِدِفَاعِ عَنْهُ . وَأَيُّهُ إِسَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ تُمَثِّلُ إِسَاءَةً فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُوجِبٌ لَغَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ . وَالْآيَةُ تَحْمِيلٌ وَعَيْدٌ أَكِيدًا وَتَهْدِيدًا شَدِيدًا لِلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ (2).

(٢) قال أبو السعود في تفسيره (٤ / ٧٧) : ((وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ بما نُقِلَ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ "هُوَ أُذُنٌ" وَنَحْوِهِ . وَفِي صِيغَةِ الْاسْتِقْبَالِ الْمُشْعِرَةِ بِتَرْتُّبِ الْوَعِيدِ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، إِشْعَارٌ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٥٤) : ((« قُلْ أَدُنُّ خَيْرٌ لَّكُمْ » تصديق لهم بأنه أدنُّ ، ولكن لا على الوجه الذي دُمُوا به ، بل من حيث أنه يسمع الخير ويقبله ، ثُمَّ فَسَّرَ ذلك بقوله : « يُؤْمِنُ بِاللَّهِ » يُصدِّق به لما قام عنده من الأدلة « وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » وَيُصدِّقهم لما عَلِمَ من خلوصهم . واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم ، وإيمان الأمان . « وَرَحْمَةً » أي : وهو رحمة « لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ » لِمَنْ أظهر الإيمان ، بِحَيْثُ يَقْبَلُهُ ، ولا يكشف سرَّه . وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قَوْلَكُمْ جَهْلًا بحالكم ، بل رِفْقًا بكم ، وَتَرْحُمًا عليكم)) اهـ .

والنبي ﷺ يَسْتَمِعُ للجميع ، لكنه يميز الخبيث من الطيب ، ويحكم على الظاهر إلا إذا أخبره الوحي بخلاف ذلك ، وهو متمسك بالأخلاق الصافية النقية المستندة إلى الإيمان بالله تعالى ، وتصديق المؤمنين ، وعدم الطعن فيهم إلا بحجة شرعية . فالخلق النبوي الشريف يستلزم إحسان الظن بالآخرين ، بلا غفلة أو جهل .

وليس من وظيفة النبوة التنقيب عن خبايا القلوب ، ورمي الناس بالشكوك والأوهام ، وتفتيت الجماعة المسلمة ، واعتماد القليل والقال منهجًا حياتيًا . فهذا يتعارض تمامًا مع سُمُو أخلاق النبوة ، ويتعارض مع الشخصية النبوية النبيلة .

ويعد النظر الذي كان يتحلى به النبي ﷺ مركّز إلى يقين ثابت ، ووضوح الرؤية الثاقبة . فلا تستفزّه الأحداث الجسام ، أو تُخرجه عن طوره ، ولا يهتزُّ أمام الأزمات العاصفة . فهو المَلَأُ الآمن عند اشتداد الخطوب ، وتأجج نار الفتن .

ومما يدل على ذلك امتناع النبي ﷺ عن قتل رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، لئلا يقدود هذا الأمر إلى تشتيت القوى المؤمنة ، وتفتيت أوصال الدولة الإسلامية ، وضرب الوحدة الاجتماعية الإيمانية، لذلك قال النبي ﷺ : ((لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ))^(٣).

وقد كانت الأخلاق النبوية تأخذ بأيدي الآخرين إلى النجاة، وتخرجهم من المستنقعات الكارثية التي يغرقون فيها . وقد كان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على إيمان الآخرين، ليس لمنفعة شخصية يجنيها من المؤمنين ، أو زيادة راتب شهري كلما جمع مؤمنين أكثر، أو تجميع أتباع من هنا وهناك ليلعب دور الزعيم مُستغلًا نفوذه لامتناع موارد البلاد والعباد .

(٣) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٨٦١) برقم (٤٦٢٢) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤) .

لقد كان حِرْصُهُ نَابِعًا مِنْ حُبِّهِ لِلنَّاسِ ، وَإِنْقَاذَهُمْ مِنَ النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ ، لِيَنَالُوا الْفَوْزَ فِي الدَّارَيْنِ . فلم يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ : لقد قُفْتُ بواجبي ، وليذهب غير المؤمنين إلى الجحيم ، لقد خصلتُ على الجنة ، وَلْيَكُنِ الطوفانُ مِنْ بَعْدِي .

لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ أَخْلَاقَهُ السَّامِيَّةَ تَدْفَعُهُ إِلَى تَعْزِيزِ الْأَخْوَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَالْحِرْصِ عَلَى إِنْقَاذِ النَّاسِ حَتَّى اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْمُسَاعَدَةِ ، لِيَنَالُوا النِّعَمَ ، وَيَبْذُوا الشَّقَاءَ . فلم تكن النُّبُوَّةُ إِلَّا خَلَاصًا لِلْبَشَرِيَّةِ ، وَلَيْسَ لَعْنَةً عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ ، أَوْ حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَى كَاهِلِ الْمَخْلُوقَاتِ .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يُونُس : ١٦] .

قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْمُشْرِكِينَ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَمَا قَرَأْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا أَعْلَمَكُمْ بِهِ . إذن ، فالأمرُ كُلُّهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ إِخْرَاجَ النَّاسِ مِنَ الضَّلَالِ رَحْمَةً بِهِمْ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَعْظَمَ رُسُلِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ كُتُبِهِ . وهذا دليلٌ على أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ، إِذْ إِنَّهُ ﷺ خَاضِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَوْ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِالْقُرْآنِ لِأَرْسَلِ غَيْرَهُ . فالأنبياءُ خاضعون لأمرِ اللَّهِ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . وفي هذا إِبْطَالٌ لِاقْتِرَاحِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَأْتِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ يُبَدِّلَهُ . فالأمرُ لَيْسَ بِمَشِيئَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَإِنَّمَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . والدليلُ على أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ فَصَحَاءَ الْعَرَبِ وَشُعْرَاءَهُمُ الْفُحُولَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ ، كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا مَعْرُوفٌ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ ، وَلَمْ تُسَجَّلْ عَلَيْهِ كَذِبَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا فِي الْإِسْلَامِ .

وقال ابن القيم في التَّبَيَّانِ (١ / ١١١) : ((...)) كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ وهذا مِنْ أَبْلَغِ الْحُجَجِ وَأَظْهَرِهَا ، أَي : هَذَا الْكَلَامُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِي ، وَلَا مِنْ عِنْدِي ، وَلَا أَقْدِرُ أَنْ أَفْتَرِيَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَقْدُورًا لِي ، لَكَانَ مَقْدُورًا لِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْكِتَابَةِ وَمَخَالِطَةِ النَّاسِ وَالتَّعَلُّمِ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِهِ ، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُنْزِلْهُ ، وَلَمْ يُبَيِّنْهُ بِلِسَانِي ، فَلَمْ يَدْعُنِي أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْ أُعَلِّمَكُمْ بِهِ الْبَيِّنَةَ ، لَا عَلَى لِسَانِي ، وَلَا عَلَى لِسَانِ غَيْرِي ، وَلَكِنَّهُ أَوْحَاهُ إِلَيَّ ، وَأَذِنَ لِي فِي تِلَاوَتِهِ عَلَيْكُمْ وَأَدْرَاكُمْ بِهِ ، بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا دَارِينَ بِهِ ، فَلَوْ كَانَ كَذِبًا وَافْتِرَاءً كَمَا تَقُولُونَ ، لَأَمْكَنَ غَيْرِي أَنْ يَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ ، وَتَدْرُوا بِهِ مِنْ جِهَتِهِ ، لِأَنَّ

الكذب لا يعجز عنه البشر ، وأنتم لم تدروا بهذا ، ولم تسمعوه إلا مِنِّي ، ولم تسمعوه مِن بشرٍ غيبي)) اه .

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . لقد أقامَ محمد ﷺ قبل البعثة أربعين سنة بين قُريش ومَعَهُم ، وكانوا يَعْرِفُونَ عنه كُلَّ شيء ، وكانَ معروفًا بالصادق الأمين . لم يَعْرِف عنه أَنَّهُ كَانَ طَالِبًا لِلْعِلْمِ وَلَا خَطِيئًا وَلَا شَاعِرًا ، وَلَمْ يُحَدِّثْهُمْ بِالْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ وَأَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ أَيَّ شَيْءٍ عَنِ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ جَاءَهُم بِالْقُرْآنِ بِدُونِ مَوْعِدٍ مُسَبِّقٍ وَلَا تَرْتِيبٍ وَلَا تَحْضِيرٍ ، وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَإِنَّمَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مِنْ تَأْلِيفِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلِمَاذَا انتظرَ حتى سَنَ الْأَرْبَعِينَ لِيَأْتِيَ بِهِ وَيُعَادِيَ قُرَيْشًا وَيَخْوَضَ الْحُرُوبَ وَيُعَانِيَ الْمَتَاعِبَ وَالصَّعَابَ وَهُوَ فِي هَذِهِ السَّنِ ؟ . لِمَاذَا لَمْ يَأْتِ بِهِ فِي مَرِحَةِ الشَّبَابِ ؟ ! أَفَلَا يَسْتَعْمَلُ الْمُشْرِكُونَ عُقُولَهُمْ لِيُذَكِّرُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨٩) : ((فَإِنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، فَإِنَّ مَنْ عَاشَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يُمَارَسْ فِيهَا عِلْمًا ، وَلَمْ يُشَاهِدْ عَالِمًا ، وَلَمْ يُنْشِئْ قَرِيبًا وَلَا خُطْبَةً ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا بَزَّتْ فَصَاحَتُهُ فَصَاحَةً كُلِّ مَنْطِقٍ ، وَعَلَا فَوْقَ كُلِّ مَنَظُومٍ ، وَاحْتَوَى عَلَى قَوَاعِدِ عِلْمِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ ، وَأَعْرَبَ عَنْ أَقَاصِيصِ الْأَوَّلِينَ وَأَحَادِيثِ الْآخِرِينَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، عُلِمَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ بِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى)) اه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يُوسُف : ١٠٣] .
الخطابُ للنبي ﷺ . أي : وما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ عَلَى إِرْشَادِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ غَرْقِهِمْ فِي الْكُفْرِ ، وَرَفْضِهِمْ لِلْحَقِّ . وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِإِبْعَادِ الْحُزَنِ عَنْهُ .

وفي فتح القدير (٣ / ٨٣) : ((قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إِنَّ قُرَيْشًا وَالْيَهُودَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ، فَشَرَحَهُمَا شَرْحًا شَافِيًا ، وَهُوَ يُؤْمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِسْلَامِهِمْ ، فَخَالَفُوا ظَنَّهُ ، وَحَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِذَلِكَ)) اه .

والنبي ﷺ مأمورٌ بالدعوة والتبليغ والإرشاد إلى الحق (هداية الدلالة) ، أَمَّا الْهَدَايَةُ إِلَى الْإِيمَانِ فَقَدْ اخْتَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا . وَحَزَنُ النَّبِيِّ ﷺ نَابِعٌ مِنْ شَفَقَتِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَحِرْصِهِ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ النَّارِ . وَقَدْ نَزَلَتِ الْآيَةُ لِتَسْلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرَفْعِ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَإِزَالَةِ حُزْنِهِ وَضِيقِهِ . فَالْهَادِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . وَوُظِفَ النَّبِيُّ ﷺ هِيَ الدَّعْوَةُ فَقَطْ ، وَحَسَابُ الْعِبَادِ عَلَى خَالِقِهِمْ وَخَدِّهِ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] ^(٤).

فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها حزناً وهمماً وغماً على فراق المشركين وإعراضهم عن الإيمان ، ورفضهم للدعوة الإسلامية ، إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ (الحديث) حزناً وحسرةً وغضباً على كفرهم . وسُمِّيَ الْقُرْآنُ حديثاً ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُحَدِّثُ بِهِ قَوْمَهُ .

والمعنى : لا تقتل نفسك يا محمد حزناً على عدم إيمان هؤلاء ، فما عليك إلا البلاغ ، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . وهؤلاء الكافرون لا يستحقون أن تأسف عليهم . والأسف هو الحزن الشديد . والآية تسليّة للنبي ﷺ ، وتخفيف عنه ، فقد أصابه الغم والحزن على المشركين لرفضهم الإيمان .

لقد كان النبي ﷺ مُخْلِصًا فِي دَعْوَتِهِ ، رَحِيمًا بِالنَّاسِ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ . قام بأداء أمانة التبليغ كاملةً غير منقوصة بأسلوب طيب ، مع تقديم الحجج والبراهين الثقلية والعقلية ، ولا يوجد أي تقصير من النبي ﷺ ، ولا يتحمل مسؤولية كفر بعض الناس ، وليس مسؤولاً عنهم . وكل إنسان يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة .

وقال النَّسَافِي فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤) : ((﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ قَاتِلٌ نَفْسَكَ ﴾ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ أي : آثار الكفار . شَبَّهَهُ وَإِيَّاهُمْ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْهُ ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ، وما تداخله من الأسف على تَوَلَّيْهِمْ ، بِرَجُلٍ فَارَقَهُ أَحَبَّتُهُ فَهُوَ يَتَسَاوَى حَسْرَاتٍ عَلَى آثَارِهِمْ ، وَيَبْخَعُ نَفْسَهُ وَجَدًا عَلَيْهِمْ ، وَتَلَهْفًا عَلَى فِرَاقِهِمْ ، ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ أَسَفًا ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ، أي : لِفِرَاقِ الْحَزَنِ . وَالْأَسْفُ الْمُبَالِغَةُ فِي الْحَزَنِ وَالْغَضَبِ)) اهـ .

والجدير بالذكر أنَّ " لعل " تُفيد التَّرجِي فِي الْأُمُورِ الْمَرْغُوبَةِ ، وَالْإِشْفَاق فِي الْأُمُورِ الْمَحْذُورَةِ . وهي في سياق هذه الآية للإشفاق .

(٤) قال السيوطي في لُباب النقول (١ / ٤٣) : ((وأخرج ابن مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : اجْتَمَعَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ وَالْأَسُودُ بْنُ الْمَطَّلِبِ وَأَبُو الْبُحْتَرِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَدْ كَبُرَ عَلَيْهِ مَا يَرَى مِنْ خِلَافِ قَوْمِهِ إِيَّاهُ ، وَإِنْكَارِهِمْ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ النَّصِيحَةِ ، فَأَحْزَنَهُ حُزْنًا شَدِيدًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ الْآيَةَ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ١٠٥) : ((فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَالَ : ﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ والغالب عليها الشك ، والله عَالِمٌ بالأشياء قَبْلَ كَوْنِهَا . فالجواب أنها ليست بِشَكٍّ ، إنما هي مُقدَّرةٌ تقدير الاستفهام الذي يعني به التقرير ، فالمعنى : هل أنت قاتلٌ نَفْسِكَ . لا ينبغي أن يطول أسأكَ على إعراضهم ، فَإِنَّ مَنْ حَكَمْنَا عَلَيْهِ بِالشَّقْوَةِ لَا تُجْدِي عَلَيْهِ الحَسْرَةُ . ذَكَرَهُ ابن الأنباري . قَوْلُهُ تعالى :

﴿ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ أي : مِنْ بَعْدِ تَوَلَّيْهِمْ عَنْكَ ، ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَسْفًا ﴾ وفيه أربعة أقوال : أحدها حُزْنًا ، قاله ابن عباس وابن قُتيبة ، والثاني : جَزَعًا ، قاله مجاهد . والثالث غَضَبًا ، قاله قتادة . والرابع : نَدَمًا ، قاله السُّدي . وقال أبو عُبَيْدَةَ : نَدَمًا وَتَلَهُفًا وَأَسَى . قال الرَّجَّاح : الْأَسْفُ الْمُبَالِغَةُ فِي الْحُزْنِ أَوْ الْغَضَبِ وهذه الآية يُشِيرُ بِهَا إِلَى نَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَثْرَةِ الْحِرْصِ عَلَى إِيْمَانِ قَوْمِهِ ، لِنَلَا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى هَلَاكِ نَفْسِهِ بِالْأَسْفِ ((اهـ .

إِنَّ الْآيَةَ تَعَكِّسُ دَرَجَةَ تَأَثُّرِ النَّبِيِّ ﷺ بِعَدَمِ إِيْمَانِ الْبَعْضِ ، وَحِرْصِهِ الْبَالِغِ عَلَى إِنْقَاذِهِمْ وَمُسَاعَدَتِهِمْ ، وَعَدَمِ التَّخَلِّيِ عَنِ الدَّعْوَةِ مُطْلَقًا ، وَمُواصَلَةِ الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ حَتَّى اللَّحْظَةِ الْآخِرَةِ ، فَرُبَّمَا يَأْتِي شَخْصٌ إِلَى حَظِيرَةِ الْإِيْمَانِ ، فَالْوَصُولُ مُتَأَخِّرًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ لَا تَصِلَ أَبَدًا .

لِذَلِكَ كَانَ كَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ يُشِيرُ إِلَى حِرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ قَوْمِهِ ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الْمَعَانَاةِ الَّتِي لَقِيَهَا بِسَبَبِ عِنَادِ قَوْمِهِ وَجَهْلِهِمْ . لَكِنَّ السَّيِّدَ الْكَرِيمَ يَأْبَى أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ قَوْمِهِ مَهْمَا فَعَلُوا مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ . فَالشَّخْصِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ هِيَ رَكِيزَةُ الْحَضَارَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، لَا تَتَسَاقُ وَرَاءَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ ، أَوْ اسْتَفْزَازِ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمَشْوُوشَةِ .

قال عبد الله بن مسعود: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذْمَوْهُ ، فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : ((رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) (٥).

وهذا يُشِيرُ إِلَى أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ الْفَاضِلَةِ ، وَمَا يَتِمَتُّونَ بِهِ صَبْرٍ ، وَغَفْوٍ ، وَرَحْمَةٍ . فَهُمْ لَيْسُوا عَاجِزِينَ ، أَوْ مَتَمَسِّكِينَ بِالرَّحْمَةِ لِضَعْفِهِمْ أَوْ قِلَّةِ حِيلَتِهِمْ . فَأَخْلَاقُهُمْ نَابِعَةٌ مِنْ مَوْقِفِ الْقُوَّةِ ، وَالْقُدْرَةِ ، وَالْعِلْمِ ، وَبُعْدِ النَّظَرِ ، وَالرَّأْفَةِ بِالنَّاسِ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١٥٠) : ((فِيهِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ — صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ — مِنَ الْحِلْمِ ، وَالتَّصَبُّرِ ، وَالْعَفْوِ ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى قَوْمِهِمْ ، وَدَعَائِهِمْ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ

(٥) متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٥٣٩) برقم (٦٥٣٠) ، ومسلم (٣ / ١٤١٧) برقم (١٧٩٢) .

والغفران، وعُذْرهم في جنائيتهم على أنفسهم بأنهم لا يَعْلَمُونَ. وهذا النبيُّ المُشار إليه من المتقدمين،

وقد جرى لِنَبِيِّنا ﷺ مثْلُ هذا يوم أُخِذَ ((اه .

وقال الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٦٧] ^(٦).

جَعَلَ اللهُ تعالى لكل أُمَّةٍ شريعةً ، هُمْ عاملون بها ، وَيَعْبُدُونَ اللهَ وَفَقَّهَا . وهذه الشريعة هي منهاجهم الحياتي ، ولا بُدَّ أن يتمسكوا بها ، وَيَسِيرُونَ حَسَبَ مُقْتَضَاهَا . فالشريعة هي منهاجُ سماويٍّ لا وَضْعِيٍّ . فلكل نبيٍّ من الأنبياء ولكلِّ قَوْمٍ من الأقوام السابقة، كان لهم شريعة يعبدون اللهَ وَفَقَّهَا، فلا يُنَازِعُكَ المشركون يا مُحَمَّدُ في شريعتك، فَإِنَّ الشَّرَائِعَ كانت مَوْجُودَةً في كل العصور .

والمقصودُ : لا تُنَازِعُهُمْ أَنْتَ . وهؤلاء المشركون غارقون في الجحود والعناد ، ولا يَبْحَثُونَ عن الحق . بل يَبْحَثُونَ عن وسائل للطعن في الإسلام ، وإيقاف الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية ، وتشكيك المؤمنين بِدِينِهِمْ ، والتَّشْوِيشَ عليهم ، وتفتيت الروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي .

والمعنى العام : لا يَجُوزُ مُنَازَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ في الشريعة والتشريع ، لأن الحق ظاهر ، والأمور محسومة . والجاهل لا يَحْكُمُ على العالم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٣٩) : ((﴿ فَلَا يُنَازِعُكَ ﴾ سائر أرباب المِلَلِ ، ﴿ في الأمر ﴾ في أمر الدِّين أو النَّسَائِكِ ، لأنهم بين جُهَالٍ وأهل عِنَادٍ ، أو لأن أمر دِينِكَ أظهر من أن يقبل النَّزاع . وقيل : المراد نَهْيُ الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قَوْلِهِمْ وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق ، وهؤلاء أهلُ مِرَاءٍ)) اه .

(٦) قال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٢) : ((وأصل الْمَنَسَكِ في كلام العرب : الموضع المعتاد الذي يعتاده الرَّجُل ويألفه . يُقال : لِفُلَانٍ مَنَسَكٌ ، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر . ولذلك سُمِّيَت المناسك مناسك لأنها تُعتاد ويُتَرَدَّد إليها بالحج والعمرة والأعمال التي يُتَقَرَّب بها إلى الله . وقد قيل : إِنَّ معنى التَّنَسُّكِ : عبادة الله ، وأن الناسك إنما سُمِّيَ ناسكًا بعبادة رَبِّهِ)) اه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٨ و ٤٩) : ((﴿ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، أي في الذبائح ، وذلك أن كفار قُرَيْشٍ وخُزَاعَةَ ، خَاصَمُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في أمر الذبيحة ، فقالوا : كيف تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قَتَلَهُ اللَّهُ _ يَعْنُونَ الْمَيْتَةَ _ ؟)) اهـ .
وعن علي بن الحسين _ رضي الله عنهما _ : في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ ، قال : ((ذَبَحَ هُمْ ذَابِخُوهُ))^(٧).

﴿ وَاذْخُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ . واذْخُ يا محمد الناسَ إلى تَوْحِيدِ رَبِّكَ وعبادته ، وأرشدْهم إلى شريعته الكاملة، إِنَّكَ على طريقٍ واضحٍ لا عِوَجَ فِيهِ ولا لَبْسَ ، وهو طريقُ الحقِّ والإيمانِ الموصل إلى الجنة. طريقٌ واضحٌ مُعْتَدِلٌ ، لا إفراطٌ فِيهِ ولا تفريطٌ . لا غُلُوٌّ فِيهِ ولا تقصيرٌ .
وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشُّعْرَاءُ] .
إِنَّ اللَّهَ يَرَاكَ يا محمد حين تقوم إلى صلاتك بمختلف أحوالك مِنْ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ . وبما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو الإمام ، فقد كان حريصاً على تسوية الصفوف ، وانتظام المصلين ، كي يصلوا إلى الركوع والسجود خاشعين ، لا يُنْقِصُونَ شَيْئاً مِنَ الصَّلَاةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٤٨) : ((﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :
أحدها : حِينَ تَقُومُ إلى الصلاة ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني : حِينَ تَقُومُ مِنْ مَقَامِكَ ، قاله أبو الجوزاء ، والثالث : حِينَ تَخْلُو ، قاله الحسن . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَتَقْلُبُكَ ﴾ أي : ونرى تقلبك .
﴿ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : وتقلبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والثاني : وتقلبك في الركوع والسجود والقيام مع المصلين في الجماعة .
والمعنى : يَرَاكَ وَحَدَّكَ ، وَيَرَاكَ فِي الْجَمَاعَةِ . وهذا قول الأكثرين منهم قتادة . والثالث : وتصرفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين ، قاله الحسن)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ((هَلْ تَرَوْنَ قِبَلَتِي هَهُنَا ؟ ، وَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ رُكُوعُكُمْ ، وَلَا خُشُوعُكُمْ ، وَإِنِّي لَأَرَاكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي))^(٨).

(٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٢٥) برقم (٣٤٧٨) وصحَّحه ، وقال الذهبي عَنْ رَجُلَيْنِ فِي السَّنَدِ : ((زهير ذو مناكير ، وابن عقيل ليس بالقوي)) .

(٨) متفق عليه . واللفظ للبخاري (١ / ٢٥٩) برقم (٧٠٨) . ومسلم (١ / ٣١٩) برقم (٤٢٤) .

هذه مُعْجَزَةٌ نبوية شريفة خارقة للعادة. فالإنسان لا يقدر على رؤية ما وراء ظَهْرِهِ. أمَّا النبي ﷺ فقد أعطاه الله القدرة على الرؤية أمامه وخَلَفَهُ على حَدِّ سَوَاءٍ . وهذه الرؤية حقيقية لا مَجازية . قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤ / ١٤٩ و ١٥٠) : ((قال العلماء : معناه أنَّ الله تعالى خَلَقَ له ﷺ إدراكًا في قَفَاه يُبْصِرُ به مِن ورائه . وقد انخرقت العادة له ﷺ بأكثر من هذا ، وليس يمنع من هذا عَقْلٌ ولا شَرْعٌ ، بل ورد الشرع بظاهره فَوَجَبَ القَوْلُ به . قال القاضي : قال أحمد بن حنبل _ رحمه الله تعالى _ وجمهور العلماء : هذه الرؤية رؤية بالعين حقيقة)) اهـ . وقال الله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [التَّمَلُّ : ٧٩] . فَتَوَكَّلْ يا محمد أُمُورَكَ إِلَى اللَّهِ تعالى ، واعتمدْ عَلَيْهِ في كُلِّ شَأْنِكَ ، وَثِقْ بِهِ وَبِقُدْرَتِهِ ، فَإِنَّهُ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَكَافِيكَ . إِنَّكَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْوَاضِحِ ، الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ . فَلَا تَعَبًا بِمُخَالَفَةِ مَنْ خَالَفَكَ ، فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ صَاحِبُ الْحَقِّ ، وَأَنْتَ الْأَحَقُّ بِالْوُثُوقِ بِحِفْظِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ .

وفي الآية تَعْلِيلٌ لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ (الْحَقِّ الْوَاضِحِ) . وَمَنْ كَانَ مُلتَزِمًا بِالْحَقِّ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ . وقال أبو السعود في تفسيره (٦ / ٢٩٩) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ تَعْلِيلٌ صَرِيحٌ لِلتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ تعالى بِكَوْنِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْحَقِّ الْبَيِّنِ ، أَوِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَاطِلِ ، أَوِ بَيْنِ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ ، فَإِنَّ كَوْنَهُ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ كَذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ الْوُثُوقَ بِحِفْظِهِ تعالى وَنَصْرَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ لَا مَحَالَةَ)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ١٢) : ((﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَفَكَّرَ فِيهِ بِعَقْلِ ، وَتَدَبَّرَهُ بِفَهْمٍ أَنَّهُ الْحَقُّ ذُوْنُ مَا عَلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، الْمُخْتَلِفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَذُوْنُ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَوْتَانِ الْمَكْذُوبُوكَ فِيمَا أَتَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ . يَقُولُ : فَلَا يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُ مَنْ كَذَّبَكَ ، وَخِلَافُ مَنْ خَالَفَكَ ، وَامْضِ لِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ [الزُّخْرَفُ : ٢٩] . لقد أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ ، وَمَنْحَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَأَعْطَاهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةَ ، وَأَمْهَلَهُمْ وَلَمْ يُهْمِلْهُمْ ، فَاعْتَرَوْا بِالنَّعْمِ وَالْمُهِلَّةِ ، حَتَّى جَاءَهُمُ الْقُرْآنُ ، وَأَتَاهُمُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ وَالْحُجَجِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ . وَهُوَ رَسُولٌ بَيِّنُ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ ، يُوضِّحُ لِلنَّاسِ الْأُمُورَ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ . وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ (أَعْظَمَ

كُتِبَهُ)، وأرسل إليهم محمداً ﷺ (أعظم أنبيائه) . وكان المفروض أن يشكروا الله على نِعَمِهِ ، ويُطيعوه ، لكنهم عصَوْهُ ، واختاروا الكُفْرَ على الإيمان .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٨٨) : ((ثُمَّ ذَكَرَ سُبحانَهُ نِعَمَتَهُ على قُرَيْشٍ ، وَمَنْ وَاَفَقَهُمْ من الكفار المعاصرين لهم ، فقال : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أَضْرَبَ عن الكلام الأول إلى ذِكْرٍ ما مَتَّعَهُمْ بِهِ مِنَ الأنفس والأهل والأموال وأنواع النِّعَمِ ، وما مَتَّعَ بِهِ آبَاءَهُمْ ولم يُعَاجِلْهُمْ بالعقوبة ، فَاغْتَرُّوا بِالْمُهْلَةِ ، وَاكْبُؤْا على الشَّهَوَاتِ . ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ . ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ . وَمَعْنَى ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظَاهِرُ الرِّسَالَةِ وَاضِحُهَا ، أَوْ مُبَيِّنٌ لَهُمْ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، فلم يُجِيبُوهُ ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بما أُنْزِلَ عَلَيْهِ)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٧ / ٢٠٨) : ((وَجْهٌ نَظْمُ الآيَةِ أَنَّهُمْ لَمَّا عَوَّلُوا على تقليد الآباء ، وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في الْحُجَّةِ ، اغْتَرُّوا بِطُولِ الإمهال وإِمتناعِ الله إِيَّاهُمْ بنعيم الدنيا ، فَأَعْرَضُوا عن الحق)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [الزُّخْرَفُ : ٤١] .

إِنَّ أَمَاتَ الله مُحَمَّدًا ﷺ قبل تعذيب المشركين ، وَشَفَاءَ صَدْرِهِ وَصُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ بهلاكهم ، فَإِنَّ الله سَيَنْتَقِمُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بعد وفاة النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُعَذِّبُهُمْ في الدنيا والآخرة ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا الهروبَ مِنَ الْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ .

والمعنى : لا بُدَّ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ مِنْهُمْ ، وَيُعَاقِبُهُمْ ، حَتَّى لَوْ ذَهَبَتْ يا محمد .

وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ١٤٦) : ((﴿ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ ﴾ أَي : فَإِنْ قَبَضْنَاكَ قَبْلَ أَنْ نُبْصِرَكَ عَذَابَهُمْ . و " ما " مَزِيدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ بِمَنْزِلَةِ لَامِ الْقَسَمِ في استجلاب النون المؤكدة . ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة)) اهـ .

وذهب بعض العلماء إلى أَنَّ المقصود بالآية هُمُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ . فعن قتادة: في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا نَذَرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ فقال: قال أنس : ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَبَقِيَتِ النَّقْمَةُ ، وَلَمْ يُرِ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ في أُمَّتِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ حَتَّى مَضَى ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إِلَّا وَقَدْ رَأَى الْعُقُوبَةَ في أُمَّتِهِ إِلَّا نَبِيَّكُمْ ﷺ (9) .

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٨٥) برقم (٣٦٧٢) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

لقد أكرم الله محمدًا ﷺ ، ولم يُنزل آية عقوبة في الأمة المحمدية أثناء حياة النبي ﷺ إكرامًا له ، وتعظيمًا لشأنه ، وتشريفًا لقدره ، ولئلا يشعر بالحزن والضيق والألم . وكلُّ نبي رأى العقوبة في أمته سوى محمد ﷺ ، وهذا يُشير إلى المكانة الجليلة لهذا النبي الكريم ، وتفوقه على باقي الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . وبعد وفاة النبي ﷺ ، نزلت عقوبات في الأمة المحمدية ، وأصابها الفتن والمحن ، وحدثت تفرُّق في الأمة ، واقتتال بين أبنائها . وقد أكرم الله محمدًا ﷺ بأن قبضه قبل أن يرى الفتن التي وقعت في أمته ، فلم ير شيئًا قبيحًا في أمته .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٢] .

أو نُريَنَّكَ يا محمد عذاب المشركين ، والانتقام منهم أثناء حياتك ، وإعلاء أمرك فوقهم ، والله قادرٌ على ذلك ، ولا يُعجزه شيء . فهو سبحانه يَقْدِر أن ينصرَكَ عليهم ، ويُجلِّلهم بالخزي والعار .

والمعنى العام : لا بُدَّ أن ينتقم الله من المشركين ويُعذبهم في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته .

والله لم يقبض النبي ﷺ إلا بعد أن أظهره على المشركين ، ونصره عليهم ، وأخزاهم ، وأذلَّهم . وقال القرطبي في تفسيره (٨٠/١٦) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ﴾ وهو الانتقام منهم في حياتك . ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ . قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين . وقال الحسن وقتادة : هي في أهل الإسلام . يُريد ما كان بعد النبي ﷺ من الفتن)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح : ١] .

ذهب بعض العلماء إلى أنَّ المقصود هو فتح مكة . لقد وعد الله محمدًا ﷺ بفتح مكة فتحًا ظاهرًا واضحًا لا يخفى على أحد . والمعنى (حَسَبَ هذا الرأي) : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ يا محمد مكة فَتْحًا ظاهرًا ، وقضينا بانتصارك على أعدائك ، وحكمتنا لك بإظهار دينك . وقد وعد الله محمدًا ﷺ بفتح مكة قبل أن يكون . والفعل الماضي ﴿ فَتَحْنَا ﴾ يدل على التَّحَقُّق الأكيد ، لأنَّ وعد الله لا يتخلف . وما أخبر به الله فهو واقع لا محالة . وهذه بشارة إلهية عظيمة للنبي ﷺ وأصحابه _ رضي الله عنهم _ . والإخبار بالفعل الماضي يُشير إلى عظمة هذا الفتح ، وغُلُو شأنه .

والجدير بالذكر أنَّ فتح مكة كان سببه نقض قريش العهد (صُلح الحديبية) الذي كان بينها وبين النبي ﷺ .

وقال الزمخشري في الكشاف (٢٦٢ / ٤) : ((هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحُدَيْبِيَّة ، وهو وَعْدٌ له بالفتح ، وَجِيءَ بِهِ بلفظ الماضي على عادة رَبِّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ في أخباره ، لأنها في تحققها وتَيَقُّنُهَا بِمَنْزِلَةِ الْكَائِنَةِ الموجودة ، وفي ذلك مِنَ الْفَخَامَةِ والدلالة على غُلُوِّ شَأْنِ الْفَتْحِ ما لا يَخْفَى)) اهـ .

والتُّون في ﴿ فَتَحْنَا ﴾ هي نُون الْعِظَمَةِ . وقد أَسْنَدَ اللَّهُ الْفَتْحَ إِلَى نَفْسِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ أفعال العباد .

وقد نزلت سُورَةُ الْفَتْحِ على النَّبِيِّ ﷺ بعد مَرْجَعِهِ مِنَ الْحُدَيْبِيَّة ، وَالصَّحَابَةُ مُصَابُونَ بِالْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَنْعَوْهُمْ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ على النَّبِيِّ ﷺ ، قال : ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهَايَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) . ثُمَّ قَرَأَ : ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾)) (10) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٣ / ٤) : ((نزلت هذه السورة الكريمة لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهَجْرَةِ حِينَ صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَيَقْضِي عُمرته فيه ، وحالوا بَيْنَهُ وبين ذلك ، ثُمَّ مالوا إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْمُهادَنَةِ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عامه هذا ، ثُمَّ يَأْتِي مِنَ قَائِلٍ ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ على تَكْرُرِهِ مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، مِنْهُمْ عمر ابن الخطاب _ رضي الله عنه _)) اهـ .

وَالرَّأْيُ الرَّاجِحُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْفَتْحِ هُوَ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَإِلَى هَذَا ذهب أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ . فَقَدْ كَانَ صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ بِدَايَةِ الْفَتْحِ الْمُبِينِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَتَرْتَّبَتْ عَلَيْهِ نَتَائِجٌ عَظِيمَةٌ ، مِنْ أَبْرَزِهَا : انْتِشَارُ الْأَمْنِ وَاِنْتِهَاءُ الْحَرْبِ ، وَبَيْعَةُ الرِّضْوَانِ ، وَالصُّلْحُ الَّذِي عَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَعَ قُرَيْشٍ ، وَدُخُولُ الْكَثِيرِينَ فِي الْإِسْلَامِ ... إلخ .

وقال الحافظ في الفتح (٤٤١ / ٧) : ((فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هُنَا الْحُدَيْبِيَّةُ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مَبْدَأَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَرْتَّبَ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي وَقَعَ مِنْهُ الْأَمْنُ وَرَفَعَ الْحَرْبَ ، وَتَمَكَّنَ مَنْ يَخْشَى الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْوَصُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، مِنْ ذَلِكَ كَمَا وَقَعَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمَا ، ثُمَّ تَبَعَتْ الْأَسْبَابُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَى أَنْ كَمُلَ الْفَتْحُ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ : لَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ

(١٠) متفق عليه. البخاري (١٥٣١ / ٤) برقم (٣٩٤٣) ، ومسلم (١٤١٣ / ٣) برقم (١٧٨٦) .

قبل فتح الحديبية أعظم منه ، إنما كان الكفر حيث القتال ، فلما آمنَ الناسُ كُلُّهم كَلَمَ بعضهم بعضاً ، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكن أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه ، فلقد دخل في تلك السنتين مثْلُ مَنْ كان دخلَ في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : وبدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة ، ثُمَّ خَرَجَ بعد سنين إلى فتح مكة في عشرة آلاف)) (11) .

ولا شكَّ أنَّ فترة الصُّلح ، وانتشار الأمن والأمان ، وانتهاء الحرب . كُلُّ هذه العوامل قد ساهمت في معرفة الناس بالإسلام واعتناقه باقتناع وهُدوء بعيداً عن ضَجيج الحروبِ وضوضاءِ السُّيوف . وعن مُجمِّع بن جارية الأنصاريّ، وكان أحد الثَّراء الذين قَرَأُوا القرآن . قال : شَهِدْنَا الحديبيةَ مَعَ رسولِ الله ﷺ ، فَلَمَّا انصَرَفْنَا عَنْهَا إِذِ الناسُ يَهْزُونَ بالأباعر ، فَقَالَ بعضُ الناسِ لبعضٍ : ما للناس ؟ قالوا : أُوحِيَ إلى رسولِ الله ﷺ ، فَخَرَجْنَا مَعَ الناسِ نُوجِف ، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ ﷺ واقفاً على راحلته عند كُرَاعِ الغَمِيمِ ، فَلَمَّا اجتمعَ عَلَيْهِ الناسُ ، قَرَأَ عَلَيْهِم : ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)) .

(١١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤١٨ — ٤٢٣) : ((في المراد بالفتح أربعة أقوال : أحدها أنه كان يوم الحديبية ، قاله الأكثرون . قال البراء بن عازب : نَحْنُ نَعُدُّ الفتحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ . وقال الشعبي : هو فَتْحُ الحديبية ، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ ، وَأُطْعِمُوا نَحْلَ خَيْبَرَ ، وَبَلَغَ الْهُدْيُ مَحَلَّهُ ، وَظَهَرَ الرومُ على فارس ، فَفَرَحَ الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى الْجَوْسِ . قال الزُّهري : لَمْ يَكُنْ فَتْحٌ أَعْظَمَ مِنْ صُلْحِ الحديبية ، وذلك أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اخْتَلَطُوا بِالْمُسْلِمِينَ ، فَسَمِعُوا كَلَامَهُمْ ، فَتَمَكَّنَ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْلَمَ فِي ثَلَاثِ سَنِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَكَثُرَ بِهِمْ سَوَادُ الْإِسْلَامِ . قال مجاهد : يعني بالفتح ما قضى الله له مِنْ نَحْرِ الْهُدْيِ بِالْحَدْيِيَةِ ، وَخَلَقَ رَأْسَهُ . وقال ابن قُتَيْبَةَ : ((إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)) أي : قَضَيْنَا لَكَ قَضَاءً عَظِيمًا ، وَيُقَالُ لِلْقَاضِي الْفَتْاحِ . قال الثَّوَالِي : وَالْفَتْحُ قَدْ يَكُونُ صُلْحًا ، وَيَكُونُ أَخَذَ الشَّيْءِ غُنْوَةً ، وَيَكُونُ بِالْقِتَالِ . وقال غَيْرُهُ : معنى الفتح في اللغة فَتْحُ الْمَغْلُوقِ ، وَالصُّلْحُ الَّذِي جُعِلَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحَدْيِيَةِ ، كَانَ مَسْدُودًا مُتَعَدِّيًا حَتَّى فَتَحَهُ اللهُ تَعَالَى ... والقول الثاني أَنَّ هَذَا الْفَتْحُ فَتْحُ مَكَّةَ ، رَوَاهُ مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ ، وَبِهِ قَالَ الشُّدِّي . وقال بعض مَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا : إِنَّمَا وُعِدَ بِفَتْحِ مَكَّةَ بِهَذِهِ الْآيَةِ . والثالثُ أَنَّهُ فَتْحُ خَيْبَرَ ، قاله مجاهد والعوفي . وعن أنس بن مالك كَالْقَوْلَيْنِ . والرابعُ أَنَّهُ الْقَضَاءُ لَهُ بِالْإِسْلَامِ ، قاله مقاتل . وقال غَيْرُهُ : حَكَمْنَا لَكَ بِإِظْهَارِ دِينِكَ ، وَالنُّصْرَةَ عَلَى عَدُوِّكَ)) .

فقال رجل : يا رسول الله ، أفتَحْ هُوَ ؟ قال : ((نعم ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ، إنه لَفَتَحْ)) .
فَقُسِّمَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ سَهْمًا ، وَكَانَ الْجَيْشُ
أَلْفًا وَخَمْسَ مِائَةٍ ، فِيهِمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ فَارِسٍ ، فَأُعْطِيَ الْفَارِسُ سَهْمَيْنِ ، وَأُعْطِيَ الرَّجُلُ سَهْمًا (12) .
كَانَ النَّاسُ يُحَرِّكُونَ رِوَا حِلَّهُمْ لِتُسْرِعَ بِهِمْ ، وَالْوَهْزُ شِدَّةُ الدَّفْعِ . وَهَذِهِ السُّرْعَةُ مِنْ أَجْلِ
الذَّهَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ ، وَالصَّحَابَةُ يُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ هَذَا الْوَحْيِ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى
حِرْصِهِمُ الشَّدِيدِ عَلَى مَعْرِفَةِ الْوَحْيِ ، وَأَلَّا يَفُوتَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ . وَمَعْنَى " نُوحِفُ " نُسْرِعُ وَنُرَكِّضُ . وَ" كُرَاعُ الْغَمِيمِ " اسْمُ مَوْضِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ .

وَقَدْ انْتَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ اجْتِمَاعَ النَّاسِ ، حَتَّى يَقْرَأَ عَلَيْهِمْ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ بِدَايَةِ
سُورَةِ الْفَتْحِ . وَقَدْ سَأَلَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ النَّبِيَّ ﷺ : " أَفْتَحْ هُوَ ؟ " ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّبُ أَوْ يَسْتَعْرِبُ مِنْ كَوْنِهِ
فَتْحًا ، حَيْثُ لَمْ يَحْدِثْ قِتَالٌ وَلَا غَزْوٌ وَلَا سَيْطَرَةٌ عَلَى الْأَرْضِ . فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ فَتَحَ ، وَهَكَذَا ظَهَرَ
مَفْهُومُ جَدِيدٍ لِلْفَتْحِ بَعِيدًا عَنِ الْقِتَالِ وَالْقِتَالِ . وَصُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ كَانَ فَتْحًا عَظِيمًا لِأَنَّهُ بِدَايَةُ الْفَتْحِ
الْوَاضِحِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ لَهُ نَتَائِجٌ عَظِيمَةٌ سَاهَمَتْ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَزِيَادَةِ أَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الْفَتْحُ : ٢] .

لَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كُلَّ مَا قَامَ بِهِ خِلَافَ الْأَوَّلَى مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يُعَاتَبَ عَلَيْهِ . غَفَرَ لَهُ مَا قَرَّطَ
فِيهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَغَفَرَ لَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ ، وَهَذَا لِتَأْكِيدِ الْمَغْفِرَةِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُ : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا
مُبِينًا لِكَيْ يَجْمَعَ اللَّهُ لَكَ مَعَ الْفَتْحِ الْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ . لَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا يُسْعِدُهُ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ .

وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١٠٠٧) : ((﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ مَا
عَمِلْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مِمَّا لَمْ تَعْلَمْهُ . وَقِيلَ : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ يَعْنِي : ذَنْبُ
أَبَوَيْكَ آدَمَ وَحَوَّاءَ بِرَكْتِكَ ، ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مِنْ ذُنُوبِ أُمَّتِكَ بِدَعْوَتِكَ)) اهـ .
وَبِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ، وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ ، بَشَّرَهُ اللَّهُ
بِالْفَتْحِ ، وَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ . وَذَنْبُ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ التَّأْوِيلِ أَوْ السَّهْوِ أَوْ ارْتِكَابِ خِلَافِ الْأَوَّلَى

(١٢) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ١٤٣) بِرَقْمِ (٢٥٩٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

. وليس معناه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يعصي الله تعالى ، وَيَرْتَكِب الذنوب والآثام . لقد مَنَّ الله على محمد ﷺ بالمغفرة الشاملة ، فكانت حياته صفحةً بيضاء ، لا نقاط سوداء فيها ولا ثغرات .
 وإسنادُ الذَّنْبِ إلى النَّبِيِّ ﷺ مع أَنَّهُ النَّبِيُّ المعصومُ الذي يُطِيعُ الله في كُلِّ صغيرة وكبيرة ، ولا يعصيه مُطلقاً ، إِنَّمَا هو لمكانة النَّبِيِّ الجليلة ، ومنزلته الرفيعة ، وعُلُوُّ شأنه ، ورفعة قدره .
 وكما يُقال : حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين . وكلُّما ارتفعَ قَدْرُ الإنسان ازدادَ التدقيقُ عليه (13) .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٩٩) : ((﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ عِلَّةٌ لِلْفَتْحِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُسَبَّبٌ عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ ، وَالسَّعْيِ فِي إِزَاحَةِ الشَّرْكَ ، وَإِعْلَاءِ الدِّينِ ، وَتَكْمِيلِ النُّفُوسِ النَاقِصَةِ قَهْرًا لِيَصِيرَ ذَلِكَ بِالتَّدْرِيجِ اخْتِيَارًا ، وَتَخْلِيسِ الضَّعْفَةِ عَنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ)) اهـ .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٣٣) : ((﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ هذا مِنْ خِصَائِصِهِ ﷺ التي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ ... غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ ﷺ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنْلُهَا بَشَرٌ سِوَاهُ ، لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ ، وَهُوَ ﷺ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجَعُهُ مِنَ الْخُدْيَةِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَلَى الْأَرْضِ)) ، ثُمَّ قَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : هَنِيئًا مَرِيئًا يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ مَاذَا يَفْعَلُ بِكَ ، فَمَاذَا يَفْعَلُ بِنَا ؟ . فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٥] (14) .

(١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٢٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ قَالَ ثَعْلَبُ : اللَّامُ لَامُ كِي ، وَالْمَعْنَى لَكِي يَجْتَمِعُ لَكَ مَعَ الْمَغْفِرَةِ تَمَامُ النِّعْمَةِ فِي الْفَتْحِ ، فَلَمَّا انْضَمَّ إِلَى الْمَغْفِرَةِ شَيْءٌ حَادِثٌ حَسُنَ مَعْنَى " كِي " . وَغَلَطَ مَنْ قَالَ : لَيْسَ الْفَتْحُ سَبَبُ الْمَغْفِرَةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالْمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا تَأَخَّرَ مَا لَمْ تَعْلَمْهُ . وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّأَكِيدِ ، كَمَا تَقُولُ : فَلَانِ يَضْرِبُ مَنْ يَلْقَاهُ وَمَنْ لَا يَلْقَاهُ)) .
 (١٤) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٣٨٥) برقم (٣٢٦٣) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

لقد نزلت الآية : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ زَمَانَ رُجُوعِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ . والمقصود بما تَقَدَّمَ مِنَ الذَّنْبِ ما فَرَطَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ في الجاهلية بسبب عدم معرفته ، إِذْ إِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ ، لِيُعْلِمَهُ بِمَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ . والمقصود بما تَأَخَّرَ مِنَ الذَّنْبِ ما سَيَحْدُثُ بَعْدَ الرِّسَالَةِ ، وَهُوَ تَرْكُ الْأَوَّلَى ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ ، لَكِنَّهُ يُعَاتَبُ إِذَا ارْتَكَبَ خِلَافَ الْأَوَّلَى ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي حَقِّهِ ذَنْبًا لِعِظَمِ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ ومكانته العالية ، وَإِنْ كَانَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ لَا يُسَمَّى ذَنْبًا . وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَجَلَالَةِ قَدْرِهِمْ ، يُحَاسِبُهُمُ اللَّهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِنُزُولِ آيَةٍ عَظِيمَةٍ عَلَيْهِ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، لِأَنَّهَا آيَةٌ تَتَضَمَّنُ الْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ طِيلَةَ حَيَاتِهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ يَدْعُو إِلَى السَّعَادَةِ ، وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ أَجْمَلَ مِنْ نَيْلِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ الْآيَةَ عَلَى الصَّحَابَةِ ، فَقَامُوا بِتَهْنِئَتِهِ وَالْإِشَادَةِ بِهَذَا الْأَمْرِ . وَهَكَذَا هُمُ الْأَصْحَابُ الْحَقِيقِيُّونَ يُهَنِّتُونَ الْقَائِدَ حُبًّا لَهُ وَإِخْلَاصًا لَهُ ، وَلَيْسَ نِفَاقًا وَكَذِبًا مِنْ أَجْلِ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ .

وفي تُحْفَةِ الْأَحْوِذِيِّ (٩ / ١٠٦) : ((قَالَ الْقِسْطَلَانِيُّ : أَيُّ قَالَ أَصْحَابُهُ ﷺ : هَنِئًا ، أَيْ لَا إِثْمَ فِيهِ . مَرِيئًا : أَيْ لَا دَاءَ فِيهِ . وَنُصِبًا عَلَى الْمَفْعُولِ ، أَوْ الْحَالِ ، أَوْ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ ، أَيْ : صَادَقَتْ ، أَوْ عَشَّ عَيْشًا هَنِئًا مَرِيئًا)) اهـ .

وقد وَضَّحَ اللَّهُ مَاذَا يَفْعَلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ غُفْرَانُ ذَنْبِهِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ . وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةَ عَنْ وَضْعِهِمْ . لَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَفَارَّ فِي الدَّارَيْنِ ، فَمَاذَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِالصَّحَابَةِ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . هَذَا هُوَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ : الْخُلُودُ فِي الْجَنَّاتِ ، وَمَحْوُ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَهَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

وَمَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَغُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ ، وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ ، وَأَنَّهُ يُطِيعُ اللَّهَ لَوَجْهِهِ اللَّهُ الْكَرِيمُ وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ الْجَنَّةِ ، أَنَّهُ ﷺ أَزْدَادَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَصَارَ يُكْثِرُ مِنَ الْعِبَادَةِ ، شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى . وَلَمْ يَتَكَاسَلْ ، وَلَمْ يَخْلُدْ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَلَمْ يَنْمَ وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

فَعَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ : ((أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟)) (١٥).

(١٥) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٨٣٠) برقم (٤٥٥٦)، ومسلم (٤ / ٢١٧١) برقم (٢٨١٩).

إِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ واجبٌ ، وقد صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بخشوع واجتهاد وعزيمة حتى انتفخت قَدَمَاهُ مِنْ طُول قِيَامِهِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ . وهذا يدلُّ على قُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ رُوحِيًّا وَمَادِيًّا ، عاطفِيًّا وجسديًّا . وقد قيلَ له: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ ، والمعنى : خَفَّفَ الصَّلَاةَ وَلَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ ، وَلَا تُتْعِبْ جِسْمَكَ ، فَأَنْتَ مَغْفُورٌ لَكَ ، فلماذا كُلُّ هذا التعبِ وَتَحْمِلُ المشقة ؟ . وقد جاءَ الجوابُ النبويُّ حاسمًا وواضحًا وحاملاً الحُجَّةَ والبرهان: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟" . والمعنى : إِنَّ اللَّهَ تَكْرَّمَ عَلَيَّ وَغَفَرَ ذَنْبِي فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَقَابِلَ هذا الْكَرَمَ الْإِلَهِيَّ بِالنَّشَاءِ عَلَى اللَّهِ ، وَزِيَادَةِ شُكْرِهِ ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ . وَالْمَغْفِرَةُ سَبَبٌ لِلْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ . وهذا وفاءُ نبويٍّ بِحَقِّ الْعُبُودِيَّةِ ، وَقِيَامٌ بِوُظُفَةِ الشُّكْرِ . وَكَيْفَ لَا يَشْكُرُ النَّبِيُّ ﷺ خَالِقَهُ الْعَظِيمَ وَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْمَغْفِرَةِ ، وَمَنْحَهُ الْفَوْزَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟ ! . وَالْحَدِيثُ يدلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ يَكُونُ بِالْعَمَلِ كَمَا يَكُونُ بِاللِّسَانِ .

وَالْإِنْسَانُ الْعَادِيُّ يَعْبُدُ اللَّهَ طَلَبًا لِلْأَجْرِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ . أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَأَنَّهُ خَالِدٌ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ . وَمَعَ هذا فَهُوَ يَعْبُدُ اللَّهَ لِوَجْهِهِ اللَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ ، وَشُكْرًا لَهُ ، وَلَا يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ أَجْلِ الْجَنَّةِ ، أَوْ الْخَوْفِ مِنَ النَّارِ . وقالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٣ / ١٥) : ((وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ : " أَفَلَا أَكُونُ " لِلسَّبَبِيَّةِ ، وَهِيَ عَنْ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : " أَتَتْرُكُ تَهْجُدي فَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ " ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَغْفِرَةَ سَبَبٌ لِكُوْنِ التَّهْجِدِ شُكْرًا كَيْفَ أَتَزَكُّهُ ؟ . قَالَ ابْنُ بَطَالٍ : فِي هذا الْحَدِيثِ أَخَذَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِالشَّدَةِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَإِنْ أَضُرَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ ، لِأَنَّهُ ﷺ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ عِلْمِهِ بِمَا سَبَقَ لَهُ فَكَيْفَ يَمَنُّ لَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ فَضْلًا عَمَّنْ لَمْ يَأْمَنْ أَنَّهُ اسْتَحَقَّ النَّارَ ؟ انْتَهَى . وَمَحَلُّ ذَلِكَ مَا إِذَا لَمْ يُفَضَّ إِلَى الْمِلَالِ ، لِأَنَّ حَالَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ أَكْمَلَ الْأَحْوَالِ ، فَكَانَ لَا يَمَلُّ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَإِنْ أَضُرَّ ذَلِكَ بِيَدِهِ)) اهـ .

وَفِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧ / ١٦٢ وَ ١٦٣) : ((قَالَ الْقَاضِي: الشُّكْرُ مَعْرِفَةُ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ ، وَالتَّحَدُّثُ بِهِ . وَسُمِّيَتْ الْمُجَازَاةُ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ شُكْرًا ، لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ النَّشَاءَ عَلَيْهِ . وَشُكْرُ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَى اعْتِرَافُهُ بِنِعَمِهِ ، وَثَنًاؤُهُ عَلَيْهِ ، وَتَمَامُ مُوَازِنَتِهِ عَلَى طَاعَتِهِ . وَأَمَّا شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَفْعَالُ عِبَادِهِ ، فَمُجَازَاتُهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا ، وَتَضَعِيفُ ثَوَابِهَا ، وَثَنًاؤُهُ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، فَهُوَ الْمُعْطِي وَالْمُثْنِي سُبْحَانَهُ . وَالشُّكُورُ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهذا الْمَعْنَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

﴿وَيْتِمٌ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ . الكامل لا يصدر إلا عن الكامل . والله هو الكامل قد أتم نِعْمَتَهُ على محمد ﷺ ، وجعلها نِعْمَةً تَامَّةً كَامِلَةً ، فقد كَرَّمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَأَيَّدَهُ بِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَرَفَعَ مَنْزِلَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وَيُرْشِدُكَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْوَاضِحِ بِمَا يُسْرِعُهُ لَكَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، الَّذِي لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ، وَيُثَبِّتُكَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى . وَالطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ الْمَوْصِلُ إِلَى رِضَا اللَّهِ وَنَيْلِ جَنَّتِهِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢٩٧) : ((﴿وَيْتِمٌ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ . ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَي : يُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ . وَالْمَعْنَى : لِيَجْتَمَعَ لَكَ مَعَ الْفَتْحِ تِمَامُ النِّعْمَةِ بِالمَغْفِرَةِ ، وَالهَدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ . وَقِيلَ : ﴿وَيَهْدِيكَ﴾ أَي : يَهْدِي بِكَ)) اهـ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٢٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيْتِمٌ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، رُويَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّالِثُ بَفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَخَيْبَرَ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِيُّ . وَالرَّابِعُ بِإِظْهَارِ دِينَكَ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَي : وَيُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ . وَقِيلَ : وَيَهْدِي بِكَ)) .

وما أجمل قول الشاعر :

يا أَوَّلًا فِي الْمُرْسَلِينَ وَآخِرًا	اللَّهُ خَصَّكَ بِالْكَمَالِ لِإِرْضَاكَ
مِنْ قَبْلِ آدَمَ قَدْ جُعِلْتَ نَبِيَّهُ	قَدَمًا فَقَدَّمَكَ الْإِلَهَ لِإِعْلَاكَ
أَوْحَى إِلَيْكَ لِكَيْ تَكُونَ حَبِيبَهُ	وَيْتِمٌ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ

وقال الله تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق : ٤٥] .

إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ مِنْ تَكْذِيبِكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَشَتْمِكَ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِكَ ، وَإِنْكَارِ الْبُعْثِ ، وَالطَّعْنِ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَالِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ . وَلَمْ تُبْعَثْ يَا مُحَمَّدُ لِتُجْبِرَهُمْ عَلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ . لَسْتَ مَلِكًا مُسَلِّطًا تَقْهَرُهُمْ وَتُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ . إِنَّمَا بُعِثْتَ مُذَكِّرًا وَوَاعِظًا ، فَعِظُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَيَخْشَى عَذَابَهُ . وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَوَحْدَهُمْ يَنْتَفِعُونَ بِالدُّكْرِ وَالْمَوْعِظَةِ . أَمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَنْ يَنْتَفِعُوا بِالْقُرْآنِ ، وَسَوْفَ يَزِيدُونَ

كُفِّرًا إِلَى كُفْرِهِمْ. وَالْآيَةُ تُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَهِيَ وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ . وَالْآيَةُ تَنْفِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ التَّكَبُّرَ وَالْإِسْتِعْلَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ لَا تَلِيْقَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ السَّيِّدُ الْمُتَوَاضِعُ وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ لَا الطَّاعِيَةَ الْمُتَكَبِّرَ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٢٥) : ((عَزَى نَبِيِّهِ فَقَالَ : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فِي تَكْذِيبِكَ ، يَعْنِي كِفَارَ مَكَّةَ . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمْ تُبْعَثْ لِتُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ إِنَّمَا بُعِثْتَ مُذَكِّرًا ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِقِتَالِهِمْ . وَأَنْكَرَ الْفَرَّاءُ هَذَا الْقَوْلَ ، فَقَالَ : الْعَرَبُ لَا يَقُولُ : فَعَالٌ مِنْ أَفَعَلْتُ ، لَا يَقُولُونَ خَرَّاجٌ يَرِيدُونَ مُخْرِجًا ، وَلَا دَخَالٌ يَرِيدُونَ مُدْخَلًا . إِنَّمَا يَقُولُونَ فَعَالٌ مِنْ فَعَلْتُ ، وَإِنَّمَا الْجَبَّارُ هُنَا فِي مَوْضِعِ السُّلْطَانِ مِنَ الْجَبَرِيَّةِ... وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : ﴿ بِجَبَّارٍ ﴾ أَيُ : بِمُسْلَطٍ . وَالْجَبَّارُ الْمَلِكُ . سُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَجْبُرِهِ . يَقُولُ : لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمَلِكٍ مُسْلَطٍ .

قَالَ الْبَزْزِيُّ : لَسْتُ بِمُسْلَطٍ فَتَقْهَرُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لِتَقْتُلَهُمْ)) اهـ .
وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَجُلٍ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، فَقَالَ لَهُ : ((هَوْنٌ عَلَيْكَ ، فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي هَذِهِ الْبُطْحَاءِ)) . ثُمَّ تَلَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ (16) .
عِنْدَمَا رَأَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ ارْتَبَكَ ، وَخَافَ ، وَأَصَابَتْهُ رَغْدَةٌ شَدِيدَةٌ مِنْ هَيْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرَاحَ يَرْتَجِفُ ، وَيَضْطَرِبُ مِنَ الرُّعْبِ . وَالْفَرَائِصُ جَمْعُ فَرِيصَةٍ ، وَهِيَ اللَّحْمَةُ بَيْنَ الْجَنْبِ وَالْكَتِفِ ، وَهِيَ تَرْتَجِفُ عِنْدَ الْخَوْفِ .

لَمْ يَسْتَغْلِ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْمَوْقِفَ لِيُكْرِسَ سُلْطَتَهُ وَهَيْمَتَهُ ، وَيُقَدِّمَ نَفْسَهُ كَمَلِكٍ جَبَّارٍ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنِ الرَّجُلِ الْمَذْعُورِ ، وَيُسَاعِدَهُ مِنْ أَجْلِ إِعَادَتِهِ إِلَى الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : خَفَّفْ عَنْ نَفْسِكَ وَلَا تَخَفْ وَلَا تَضْطَرِبْ ، فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ . وَقَدْ نَسَبَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ إِلَى أُمِّهِ ، لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّحَدُّثَ عَنْ صَبْرِهَا وَكِفَاحِهَا وَفَقْرِهَا ، حَيْثُ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ (لَحْمَ الْمَجْجَفِ فِي الشَّمْسِ) فِي الْبُطْحَاءِ (الْمَكَانِ الْمَتَسِّعِ يَسِيلُ فِيهِ الْمَاءُ ، فَيُخَلَّفُ فِيهِ الشَّرَابُ وَالْحَصَى الصَّغَارُ) . وَهَذَا عَلَامَةٌ عَلَى الْفَقْرِ ، وَضِيقِ الْعَيْشِ ، وَالْمَعَانَاةِ الشَّدِيدَةِ ، وَدَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَنْتَمِي إِلَى عَائِلَةٍ غَنِيَّةٍ .

(١٦) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٠٦) بِرَقْمِ (٣٧٣٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

لقد أراد النبي ﷺ أن يقول للرجل إنني ابن امرأة فرشية فقيرة عانت من صعوبة العيش ، ولست ملكاً من عائلة ثرية تغرق في الملذات ورغد العيش . ولا شك أن هذا الكلام يخفف عن الرجل ، ويشعره أن محمداً ﷺ إنسان كريم ومتواضع ، وليس ملكاً جباراً متسلطاً ، ولا طاغية يغرق في نعيم الدنيا وشهواتها .

وقال الأبشيهي في المستطرف (٢٨٣ / ١) عن النبي ﷺ : ((وكان يزقُّع ثوبه ، ويخصف نعلَه ، ويخدم في مهنة أهله ، ولم يكن متكبراً ، ولا متجبراً . أشد الناس حياءً ، وأكثرهم تواضعاً . وكان إذا حدث بشيء مما أتاه الله تعالى قال : " ولا فخر ")) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

اصْبِرْ يا محمد على قضاء الله وحكمه عليك بتبليغ رسالته ، والنزيم بأمره ونهيه ، وبلغ الوحي الإلهي ، ولا تعب بأعداء الدعوة الإسلامية ، فإن الله مطلع على أحوالك ، يراك ويسمعك ويحفظك ، ويحيطك بالعناية والرعاية ، ويعصمك من أذى المشركين ، فلا يستطيعون أن يؤذوك .
وقال البغوي في تفسيره (٣٩٤ / ١) : ((﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكّمنا عليهم . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ^(١٧) ، أي : بمرأى منا . قال ابن عباس : نرى ما يعمل بك . وقال الزجاج : إنك بحيث نراك ونحفظك ، فلا يصلون إلى مكروهك)) اهـ .
ولا شك أن الآية ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ تزيد هموم المؤمنين ، وترفع معنوياتهم . فعليهم أن يرددوها دائماً لاستحضار معية الله تعالى ، وأنه معهم ، يراهم ، ويسمعهم ، ويحفظهم من كل سوء .

(١٧) في فتح الباري (٣٩٠ / ١٣) أن ابن المنير قال : ((ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال : أحدها أنها صفات ذات أثبتها السمع ولا يهتدي إليها العقل . والثاني أن العين كناية عن صفة البصر ، واليد كناية عن صفة القدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود . والثالث إمرارها على ما جاءت مفضّضاً معناها إلى الله تعالى . وقال الشيخ شهاب الدين السهري في كتاب العقيدة له : أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله الاستواء والنزول والنفس واليد والعين ، فلا يُتصرّف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى . قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح . وقال غيره : لم يُنقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره)) .

والتَّوْنُ الثانية في ﴿بَاعَيْنَا﴾ تُفيد الجمع ، وذلك لتعظيم الله تعالى .
﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ . نَزَّهَ اللَّهُ يَا مُحَمَّد عَنْ كُلِّ مَنْقِصَةٍ ، وَسَبِّحْهُ حِينَ تَقُومُ مِنْ
مَجْلِسِكَ ، فَقُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَوْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، مَا شَابَهُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ .
فَإِنْ كَانَ الْمَجْلِسُ خَيْرًا كَانَ تَسْبِيحُ اللَّهِ زِيَادَةً لِلْخَيْرِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ، كَانَ التَّسْبِيحُ كَفَّارَةً
لِلْمَجْلِسِ .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ ، فَكَثُرَ فِيهِ لَفْظُهُ ، فَقَالَ
قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ
وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ)) (18) .

هذا الحديث يُوضِّحُ كَفَّارَةَ الْمَجْلِسِ . فَمَنْ جَلَسَ فِي مَكَانٍ ، فَازْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَانْتَشَرَ
اللَّغْوُ ، وَعَمَّ الْكَلَامُ غَيْرَ الْمُفِيدِ . فَعَلِيهِ أَنْ يَقُولَ هَذَا الدُّعَاءَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ . وَهَذَا الدُّعَاءُ
الْعَظِيمُ يَمْحُو مَا وَقَعَ مِنَ اللَّغْوِ وَاللُّغْوِ .

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ الدُّعَاءَ تَعْلِيمًا لِأُمَّتِهِ وَتَشْرِيْعًا لِلْأَحْكَامِ ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ يَجْلِسُ فِي أَمَاكِنَ
الْغَطِّ ، فَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ وَمُنَزَّاهٌ عَنِ اللَّغْوِ ، وَمَجْلِسُهُ لَا يُوجَدُ فِيهِ إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَالْكَلامُ الْمُفِيدُ .
وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٦٠) : ((﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فِيهِ سِتَّةُ
أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا صَلَّ اللَّهُ حِينَ تَقُومُ مِنْ مَنَامِكَ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي قُلْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ
وَبِحَمْدِكَ حِينَ تَقُومُ مِنْ مَجْلِسِكَ ، قَالَه عَطَاءٌ وَسَعِيدٌ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ فِي آخَرِينَ . وَالثَّالِثُ قُلْ:
سُبْحَانَكَ اللَّهُ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ حِينَ تَقُومُ فِي الصَّلَاةِ ، قَالَه
الضَّحَّاكُ . وَالرَّابِعُ سَبِّحَ اللَّهُ إِذَا قُمْتَ مِنْ نَوْمِكَ ، قَالَه حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةٍ . وَالخَامِسُ صَلَّ صَلَاةَ
الظُّهْرِ إِذَا قُمْتَ مِنْ نَوْمِ الْقَائِلَةِ ، قَالَه زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ . وَالسَّادِسُ اذْكُرِ اللَّهَ بِلِسَانِكَ حِينَ تَقُومُ مِنْ
فِرَاشِكَ إِلَى أَنْ تَدْخُلَ فِي الصَّلَاةِ ، قَالَه ابْنُ السَّائِبِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ [النَّجْمُ : ٥٦] .
إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرٌ يُخَوِّفُ النَّاسَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَهُوَ نَذِيرٌ
مِثْلَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا أَقْوَامَهُمْ ، فَلَمْ يَأْتِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ ، وَلَمْ يَنْحَرْفِ عَنْ

(١٨) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٥ / ٤٩٤) بِرَقْمِ (٣٤٣٣) ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

منهج الأنبياء . وقد أُنذِرَ محمد ﷺ كما أُنذِرَ الأنبياءُ مِن قَبْلِهِ . وهذا تَخْوِيفٌ لِقُرَيْشٍ أَن يُصِيبَهَا العذابُ كما أَصَابَ الأممُ السابقة التي كَفَرَتْ وَطَغَتْ وَتَجَبَّرَتْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ .
والآيةُ تَحْمِلُ وَعِيدًا شَدِيدًا ، فالأقوامُ السابقة عندما كَفَرَتْ عُدَّتْ ، فاحذَرُوا أَن تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ،
فقد جاءكم محمد ﷺ لِيُنذِرَكُمْ وَيُخَوِّفَكُمْ وَيُرْشِدَكُمْ إِلَى طَرِيقِ النجاة ، كما فَعَلَ الرُّسُلُ مِن قَبْلِهِ .
وقال البَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٦١) : ((أَي : هَذَا الْقُرْآنُ إِذْ بَارَأَ مِنْ جِنْسِ الْإِنذَارَاتِ
الْمُتَقَدِّمَةِ ، أَوْ هَذَا الرُّسُولُ نَذِيرٌ مِنْ جِنْسِ الْمُنذِرِينَ الْأَوَّلِينَ)) اهـ .
وقال ابن الجوزي فِي زاد المسير (٨ / ٨٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ :
أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْقُرْآنُ نَذِيرٌ بِمَا أُنذِرَتْ الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالثَّانِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَذِيرٌ
بِمَا أُنذِرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ، قَالَه ابْنُ جُرَيْجٍ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [الْقَلَمُ : ٢] .
الآيةُ تَفْضَحُ الْمُشْرِكِينَ وَتُكْذِّبُهُمْ ، وَتَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ وَأَوْهَامَهُمْ . فَقَدْ اتَّهَمُوا مُحَمَّدًا ﷺ كَذِبًا
وَزُورًا أَنَّهُ مَجْنُونٌ ، لَا يَدْرِي مَاذَا يَقُولُ . وَهَذِهِ تَهْمَةٌ سَاقِطَةٌ . فَمُحَمَّدٌ ﷺ مَعْرُوفٌ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ
وَالْفَصَاحَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَأَقْوَالُهُ حِكْمٌ نَبِيلٌ ، وَأَفْعَالُهُ مُتَنَزِّهَةٌ . وَهُوَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَظِيمَةِ
أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ الْجُنُونِ وَعَالَمُ الْمُجَانِنِينَ . فَأَقْوَالُ الْمَجْنُونِ وَأَفْعَالُهُ قَائِمَةٌ عَلَى الْعَبَثِ وَالْفَوْضَى
وَالْهَذْيَانِ . وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَجْنُونًا لَانْكَشَفَ أَمْرُهُ أَمَامَ النَّاسِ ، وَهَرَبُوا مِنْهُ ، وَصَارُوا يُعِيرُونَ بَنِي
هَاشِمٍ بِهِ . وَهَذَا لَمْ يَحْدُثْ . وَالْمُشْرِكُونَ مُعَانِدُونَ وَجَاحِدُونَ ، يَعْبِزُونَ عَنْ مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ،
لِذَلِكَ يُلْقَوْنَ التَّهْمَ جَزَافًا . وَالْكَذِبُ أَسْهَلُ وَسِيلَةٍ حِينَ تَغِيبُ الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ .
مُحَمَّدٌ ﷺ بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَعِصْمَتِهِ وَإِكْرَامِهِ بِالثَّبُوتِ وَالرِّسَالَةِ ، لَيْسَ مَجْنُونًا كَمَا يَقُولُ كُفَّارُ
قُرَيْشٍ ، بَلْ هُوَ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ ، يُوحَى إِلَيْهِ ، وَيَمْتَنَزِعُ بِرَجْحَانِ الْعَقْلِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، وَيَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ وَالرَّشَادِ . وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مَجْنُونٌ ، لَقَدَّمُوا الْأَدْلَةَ
عَلَى كَلَامِهِمْ ، وَكَشَفُوا أَمْرَهُ أَمَامَ النَّاسِ ، كَيْ يَحْذَرُوا مِنْهُ ، وَيَتَّعِدُوا عَنْهُ . وَهَذَا لَمْ يَحْدُثْ . إِذَنْ ،
يَتَّضِحُ كَذِبُ الْمُشْرِكِينَ وَعِنَادُهُمْ ، وَاتِّبَاعُهُمْ لِلْأَهْوَاءِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ .
وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ ﴿ مَا ﴾ نَافِيَةٌ . وَ﴿ أَنْتَ ﴾ اسْمُهَا . وَ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ خَبَرُهَا . وَقَدْ انْتَفَى عَنْهُ
الْجُنُونُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ . وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ بِهِ شَيْطَانٌ ، وَذَلِكَ
قَوْلُهُمْ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] . فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ ، وَفَضَحَهُمْ ، وَكَشَفَ جَهْلَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩ / ١١) : ((كأنه قيل : أنت بريء من الجنون مُلتبسًا بنعمة الله التي هي النبوة والرياسة العامة . والتعرض لوصف الربوبية المُنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه ﷺ ، والإيدان بأنه تعالى يُتِمُّ نعمته عليه ، ويُبلِّغه من الغلوِّ إلى غاية لا غاية وراءها . والمراد تنزيهه ﷺ عما كانوا ينسبونه ﷺ إليه من الجنون ، حسدًا ، وعداوةً ، ومكابرةً ، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات النائية من حصانة العقل ، ورزانة الرأي)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [القلم : ٣] .

وإنَّ لك يا محمد لثوابًا عظيمًا من الله تعالى ، على تبليغك رسالة الله كاملةً بأمانة وإخلاص ، وصبرك على أذى المشركين ، وتحملك المشاق والصعوبات في سبيل نشر الدعوة الإسلامية . وهذا الثواب الإلهي العظيم غير ممنون ، يعني : غير مقطوع ولا منقوص .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ١٩٨) : ((﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ أي ثوابًا على ما تحمَّلت من أثقال النبوة ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص . يقال : مننتُ الحبل إذا قطعتُه . وحبل منين إذا كان غير متين ... وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير محسوب . الحسن : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ غير مُكَدَّر بالَمَنْ . الضحاك : أجْرًا بغير عمل . وقيل : غير مُقَدَّر ، وهو التَّفَضُّل ، لأنَّ الجزاء مُقَدَّر ، والتَّفَضُّل غير مُقَدَّر ، ذكره الماوردي ، وهو معنى قول مجاهد)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

يمدح الله رسوله محمدًا ﷺ ، ويُعَظِّم قدره ، ويُشَرِّف منزلته ، ويُعلي شأنه ، ويُظهر خُلُقَه العظيم . والآية مديح إلهي للنبي ﷺ ما بعده مديح . وقد جمَعَ الله في محمد ﷺ الفضائل العظيمة اللامحدودة .

يقول الله : وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَى دِينٍ عَظِيمٍ (الإسلام)، وأدبٍ رفيعٍ، وطبعٍ كريمٍ، ووصفٍ شريفٍ . والآية دليل واضح على صدق محمد ﷺ وصحة رسالته، فقد كان فصيحًا بليغًا، يمتاز بالأخلاق الحميدة ، والصفات العظيمة . وهذا يُكذِّب المشركين الذين اتَّهموه بالكذب والسحر والجنون .

وقد أَدَّبَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بأدب القرآن. لذلك كان محمد ﷺ رفيقًا بأُمَّته ، رحيماً بها ، كريماً مع الناس ، يَأْتُمِرُ بأوامر الله ، وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَى عَنْهُ . والمعنى : إِنَّكَ عَلَى الْخُلُقِ الَّذِي أَمَرَكَ اللهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ . لقد أَدَّبَهُ اللهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيَبَهُ ، فاستحقَّ أَنْ يَكُونَ خُلُقُهُ عَظِيماً (19).

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦٩) : ((﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ إِذْ تَتَحَمَّلُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَا يَتَحَمَّلُ أَمْثَالُكَ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٢٨) : ((﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا دِينَ الْإِسْلَامِ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : أَدَبُ الْقُرْآنِ ، قَالَه الْحَسَنُ . وَالثَّالِثُ الطَّبَعُ الْكَرِيمُ . وَحَقِيقَةُ الْخُلُقِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مِنَ الْآدَابِ ، فَسُمِّيَ خُلُقًا لِأَنَّهُ يَصِيرُ كَالْخَلْقَةِ فِي صَاحِبِهِ . فَأَمَّا مَا طُبِعَ عَلَيْهِ فَيُسَمَّى الْخِيَمَ ، فَيَكُونُ الْخِيَمَ الطَّبَعُ الْغَرِيزِي ، وَالْخُلُقُ الطَّبَعُ الْمُتَكَلَّفُ . هَذَا قَوْلُ الْمَوَارِدِيِّ)) اهـ .
وقد صَدَّقَ الْقَائِلُ :

إِذَا اللهُ أَثْنَى بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ عَلَيْكَ فَمَا مِقْدَارُ مَا تَمْدَحُ الْوَرَى ؟

لقد مَدَحَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَعْلَى شَأْنَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَمَاذَا بَقِيَ لِلْمَخْلُوقِينَ كَيْ يَقُولُوهُ ؟ . وَمَاذَا يَقُولُ الشُّعْرَاءُ فِي مَدِيحِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ .
وما أَجْمَلُ قَوْلَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّراً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وعن سعد بن هشام بن عامر في قول الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : _ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ _ ، قال : سَأَلْتُ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا _ : يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، انبئيني عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فقالت : أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ . فقالت : إِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْقُرْآنُ (20).

(١٩) قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٩ / ١٦) : ((وقد كان مِنْ خُلُقِهِ ﷺ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ ، وَشِدَّةُ الْحَيَاءِ ، وَكَثْرَةُ الْعِبَادَةِ وَالسَّخَاءِ ، وَالصَّبْرُ وَالشُّكْرُ ، وَالتَّوَاضُّعُ وَالزُّهْدُ ، وَالرَّحْمَةُ وَالشَّفَقَةُ ، وَحُسْنُ الْمَعَاشِرَةِ وَالْأَدَبُ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخِلَالِ الْعَلِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ)) .

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤١) برقم (٣٨٤٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إنَّ مَقَامَ النُّبُوَّةِ هُوَ مَقَامٌ أَخْلَاقِيٌّ مُسْتَقِيمٌ . وهذه الاستقامة الخُلُقِيَّة ضرورية لتثبيت المرجعية الإيمانية الواضحة التي يعود إليها الأتباع واثقين بها ، ومسترشدين بمنهجها، حيث يرسمون خطواتهم الحياتية على ضوئها .

والنبي ﷺ قد وَصَلَ إلى ذِرْوَةِ الأخلاق الحميدة ، ووصلَ إلى الكمال البشريِّ ، فلا يُوجد مخلوق فوق مَنْزِلَتِهِ الشريفة . ولا شَكَّ أَنَّ الأخلاق الفاضلة تَنشَأُ عن ثباتِ القلبِ على الحق ، وكمالِ العقل ، وقُوَّةِ الإرادة .

والنبي ﷺ قد التزمَ المنهجَ القرآنيَّ ، فصارت حياته نابعةً من الأخلاق القرآنية الجليلة ، حيث تثبت الفضيلة ، ورفض الرذيلة . لقد آمَنَ محمد ﷺ بالقرآن إيماناً مُبْصِراً ومُطَلَّعاً . آمَنَ بالقرآن لَفْظاً وَمَعْنَى ، وصارَ القرآنُ واقعاً ملموساً في حياته ، يلتزم بأوامره ، وَيَجْتَنِبُ نَوَاهِيهِ . لذلك ، كانت أقوالُ النبي ﷺ وأفعاله تطبيقاً عملياً لتعاليم القرآن وأحكامه الشريفة .

قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥١٤) : ((ومعنى هذا أنه _ عليه الصلاة والسلام _ صار امتثال القرآن _ أمراً ونهياً _ سَجِيَّةً لَهُ ، وَخُلُقاً تَطْبَعَهُ ، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الْجِلِّيَّ . فمهما أَمَرَ القرآنُ فَعَلَهُ ، ومهما نَهَاه عنه تَرَكَه ، هذا مَعَ ما جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ)) اهـ .

وعن أنس قال : خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، فَمَا قَالَ لِي : أَفَّ قَطُّ ، وَمَا قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ صَنَعْتُهُ ، وَلَا لَشَيْءٍ تَرَكَتُهُ : لِمَ تَرَكَتُهُ . وكان رسولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقاً ، وَلَا مَسَسْتُ خَزْأً قَطُّ ، وَلَا حَرِيرًا ، وَلَا شَيْئًا ، كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكَاً قَطُّ ، وَلَا عَطْرًا ، كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ (21) .

إن دَلَّ هذا على شيءٍ ، فإنما يدل على عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وهو السَّيِّدُ الْمُتَوَاضِعُ ، الَّذِي لَا يَسْتَعِيزُ بِسُلْطَانِهِ لِاسْتِعْبَادِ الْآخَرِينَ ، وَمِمَّا رَسَاةِ الْاسْتِعْبَادِ عَلَيْهِمْ ، مُسْتَغَلًّا ضَعْفَهُمْ . فالنبي ﷺ حينما يتعامل مع الخادم برفق ، فهو ينطلق من مَقَامِ الْقُوَّةِ لَا مَقَامِ الضَّعْفِ أَوْ قِلَّةِ الْحِيلَةِ . لكنَّ مَقَامَ الْقُوَّةِ النَّبَوِيَّةِ مُحَاطٌ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَالرَّحْمَةِ بِالنَّاسِ ، وَالْأَخْذُ بِأَيْدِي الضَّعَفَاءِ ، وَمُسَاعَدَةُ الْفُقَرَاءِ ، وَتَقْدِيرُ مَشَاعِرِهِمْ وَظُرُوفِهِمُ الْحَيَاتِيَّةِ الصَّعْبَةِ .

(٢١) رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٦٨) برقم (٢٠١٥) . وقال : ((حسن صحيح)) .

ولم يكن النبي ﷺ يتناول على البُسطاء مُستغلاً اسم عائلته الشريفة القوية . ولم يستعرض عضلاته أمام الضعفاء لِيُمارس عليهم دكتاتورية السيد المطلق . ولم يستعمل فصاحته لِيُلفت انتباه الآخرين ، ويتعالى عليهم بما لديه من مقدرة لغوية .
ومِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا التواضع النابع من القوة والقدرة والسُّلطة ، يَعمدُ أبعادَ الشخصية المتكاملة الفريدة للنبي ﷺ .

والحديثُ يُشيرُ أيضاً إلى الطبيعة الجسمانية للنبي ﷺ ، فهو رجلٌ ليس خَشِناً ولا فَظاً . تنبعثُ منه الرائحة الطيبة ، ومظهره يدلُّ على أخلاقه الفاضلة ، وأصله الشريف ، ومَنْزلته الرفيعة . فهو واثقُ بالله تعالى ، يتعامل مع الناس باحترام وقلبٍ صافٍ . وفي نفس الوقت ، يمتاز بالذكاء وبُعد النظر ، وليس ساذجاً ولا ضعيفاً ولا عاجزاً . وقد صدَّقَ حسان بن ثابت حين قال مادحاً النبي ﷺ :

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَةٌ كانت بديهته تأتيك بالخبرِ

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٨١٤) عن عائشة قالت : ((مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً قَطُّ يَبِيدُهُ ، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا خَادِماً ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صاحبه ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -)) .

وهذه الأخلاق الفاضلة المركزية في مسيرة الدعوة لها وَقْعٌ بالغ التأثير في نفوس الجماهير ، لأنها تجعل من الإيمان واقعاً ملموساً ذا تطبيق فعلي لا مُجَرَّدَ حبر على ورق . ولا يخفى دور الأخلاق الفاضلة في تقوية دعائم الأسرة التي هي نواة المجتمع ، فتصبح العلاقات الاجتماعية أكثر ترابطاً ، وهذا يتيح للمجتمع أن يُدفع في كل المجالات ، لأنَّ الأخلاق الفاضلة في الأسر هي الركيزة في الانطلاق نحو صناعة مجتمع الفضيلة والتقدم والحضارة بكل فروعها الروحية والمادية .

لقد كان النبي ﷺ رجلاً يمتاز بالقُوَّة الجسمانية من غير تكبرٍ ولا طُغيان ، وقد استعمل قُوَّته في الجهاد وقتال الأعداء ، ولم يستعملها في ضَرْبِ الناس ، والاستقواء عليهم . وكُلُّ أذى كان يُصيب النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ ، كان يعفو عنه ويتجاوز ، ويُسْقِطُ حَقَّهُ الشخصي ، ولا ينتقم من صاحبه ، ولا يثأر لنفسه ، أمَّا إذا تَمَّ انتهاك حُرْمَاتِ اللَّهِ تعالى ، والتَّعدي على حُدودِ اللَّهِ تعالى ، فعندئذٍ يغضب النبي ﷺ تعظيماً لله تعالى ، ويدافع عن الشريعة الإسلامية بالقول والفعل .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ٨٤) : ((معنى " نِيلَ مِنْهُ " أُصِيبَ بِأَدَى مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، وانتهاك حُرْمَةِ اللَّهِ تعالى هو ارتكاب ما حَرَّمَهُ . قَوْلُهَا) إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ (استثناء منقطع ، معناه : لكن إذا انتهكت حُرْمَةَ اللَّهِ انتصرَ اللَّهُ تعالى ، وانتقمَ مِنْ مَنْ ارتكب ذلك . في هذا الحديث الحثُّ على العَفْوِ ، والحِلْمِ ، واحتمال الأذى ، والانتصار لِإِذِينَ اللَّهِ تعالى مِنْ فَعَلٍ مُحَرَّمًا أَوْ نَحْوِهِ . وفيه أنه يُسْتَحَبُّ لِلْأُتَمَّةِ وَالْقُضَاةِ وَسَائِرِ أُمُورِ التَّخْلِيقِ بهذا الخُلُقِ الكريمِ ، فلا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ ، ولا يُهْمِلُ حَقَّ اللَّهِ تعالى . قال القاضي عياض : وقد أجمعَ العلماء على أن القاضي لا يقضي لنفسه ، ولا لِمَنْ لا يجوز شهادته له ... [وفي الحديث] أَنَّ ضَرْبَ الزَّوْجَةِ وَالْخَادِمِ وَالذَّابَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا لِلأَدَبِ ، فَتَرْكُهُ أَفْضَلُ)) اهـ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ)) (22).
الثَّقُفُ في مكارم الأخلاق عَيْبٌ. والأخلاق لا تكون إلا كُتْلَةً واحدةً وكاملةً. وقد جاء النبي ﷺ لإكمال مكارم الأخلاق، والبناء على الأخلاق الحميدة الموجودة للوصول إلى حالة التَّمام والكمال.

وقال الله تعالى : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ ﴾ [الْقَلَمُ : ٥] .

فسترى يا محمد ، ويرى قَوْمُكَ الذين يُكذِّبُونَكَ وَيَتَّهِمُونَكَ بالجنون (كُفَّار مكة) إذا نَزَلَ بِهِم العذاب . والآية تُفيد اقتراب العذاب . وهذا وَعْدٌ للنبي ﷺ ، ووعدٌ للمشركين .
وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٠١) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَتُبْصِرُونَ ﴾ . قال ابن عباس : معناه فَسَتَعْلَمُ وَيَعْلَمُونَ يوم القيامة . وقيل : فَسَتَرَى وَيَرَوْنَ يوم القيامة حِينَ يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ [الْقَلَمُ : ٦] (23).

فَسَتَعْلَمُ يا محمد، وَيَعْلَمُ كُفَّارُ مكة الذين يَتَّهِمُونَكَ بِأَنَّكَ مجنون، مَنْ المجنون الضَّالُّ: أَنْتَ أَمْ هُمْ. وهل الشَّيْطَانُ يُسَيِّرُ عَلَيْكَ أَمْ عَلَيْهِمْ ؟ . سَوْفَ تَتَضَحَّ الْأُمُورُ ، وَيُظْهِرُ الْحَقُّ ، وَيَنْتَهِي الْبَاطِلُ

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٦٧٠) برقم (٤٢٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٢٩) : ((وفيه أربعة أقوال : أحدها الضَّالُّ ، قاله الحسن . والثاني الشَّيْطَانُ ، قاله مجاهد . والثالث المجنون ، قاله الضَّحَّاك ، والمعنى : الذي قد فُتِنَ بالجنون . والرابع الْمُعَذَّبُ ، حكاه الماوردي)) .

. والمفتون هو المجنون الذي فتنه الشيطان. أو قد يكون المعنى: بأيّ الفريقين منكم المجنون (الشيطان)، أيفريق المؤمنين الذين اختاروا طريق الحق والإيمان، أو بفريق الكافرين الذين جحدوا الحق، ورفضوا الهدى. وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٠١): ((ومُعظم السورة نزلت في الوليد ابن المغيرة وأبي جهل. وقيل: المفتون هو الشيطان لأنه مفتون في دينه. وكانوا يقولون (عن محمد ﷺ): إِنَّ بِهِ شَيْطَانًا، وَعَنُوا بِالْمَجْنُونِ هَذَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَسَيَعْلَمُونَ عَدَا بَأْيِهِمُ الْمَجْنُونُ، أَيِ الشَّيْطَانِ، الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ مَسِّهِ الْجَنُونََ وَاخْتِلَاطِ الْعَقْلِ)) .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة].

القرآن كلام الله يتلوه عليكم رسول كريم مُنَزَّهٌ عن الكذب، وهو محمد ﷺ. وقد أُضيفَ القولُ إلى النبي ﷺ لأنه هُوَ مُبَلَّغُ كلام الله إلى الناس (24).

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٣٩): ((وليس القرآن قول الرسول ﷺ، إنما هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَنُسِبَ الْقَوْلُ إِلَى الرَّسُولِ، لِأَنَّهُ تَالِيهِ وَمُبَلَّغُهُ)) اهـ .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾. ليس القرآن شعراً، لأنه مُخَالِفٌ لأوزان الشعر وأنواعه، وليس محمد شاعراً، لأنه لا يُحْسِنُ نَظْمَ الشَّعْرِ، وَلَا يُتَقِنُ كِتَابَةَ الْقَصَائِدِ. وأهلُ الجاهلية كانوا يعرفون هذه الحقيقة الواضحة. والقرآن ليس شعراً ولا نثراً .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٣٣٦): ((نفى سبحانه أن يكون القرآن من قول شاعر، كما زعمت قريش. و﴿ قَلِيلًا ﴾ نُصِبَ بِفِعْلِ مُضَمَّرٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾، و﴿ مَا ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ نَافِيَةً، فَيَنْتَفِي إِيْمَانُهُمُ الْبَيِّنَةُ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مُصَدِّرَةً، فَيَتَّصِفُ إِيْمَانُهُمْ بِالْقَلَّةِ، وَيَكُونُ إِيْمَانًا لُغَوِيًّا، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَدَّقُوا بِأَشْيَاءَ يَسِيرَةٍ، لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا)) اهـ .

﴿ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾. ليس القرآن بقول كاهن يدعي معرفة الغيب، لأنَّ محمداً ليس كاهناً، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّ أَسْلُوبَ الْقُرْآنِ يَخْتَلِفُ بِشَكْلِ

(٢٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٥٤): ((﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني القرآن. ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾

فيه قولان: أحدهما: محمد ﷺ، قاله الأكثرون. والثاني: جبريل، قاله ابن السائب ومقاتل. قال ابن قتيبة: لَمْ يُرَدْ أَنَّهُ قَوْلُ الرَّسُولِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ قَوْلُ الرَّسُولِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى. وفي الرسول ما يدلُّ على ذلك، فاكْتَفَى بِهِ مِنْ أَنْ يَقُولَ: عَنْ اللَّهِ)) اهـ .

واضح عن سَجْعِ الكُهَّان . وأيضًا صفات محمد الطاهرة تختلف عن صفات الكُهَّان الدينية . فأخلاق الكهنة معجونة بالخُبث والكذب والاستغلال والابتزاز من أجل أخذ أموال الناس . وهذه الأخلاق الدينية بعيدة كُلُّ البُعد عن محمد ﷺ المعروف في الجاهلية والإسلام بالصادق الأمين . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٢١٤) : ((وأراد بالقليل نَفْيَ إيمانهم أصلاً ، كَقَوْلِكَ لِمَنْ لَا يَزُورُكَ : فَلَمَّا تَأْتَيْنَا ، وَأَنْتَ تَرِيدُ : لَا تَأْتِينَا أصلاً)) اهـ .

والجدير بالذكر أن نَفْيَ الشَّعْرِ ارتبطَ بِـ ﴿ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ ، أَمَّا نَفْيُ الكِهَانَةِ فارتبطَ بِـ ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، لأنَّ مُخَالَفَةَ الْقُرْآنِ لِلشَّعْرِ أَمْرٌ وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَرَاةٍ وَتَمْحِصٍ ، أَمَّا مُخَالَفَةُ الْقُرْآنِ لِلْكِهَانَةِ فَتَتَطَلَّبُ دَرَاةً أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيَهُ ، لمعرفة الفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَجْعِ الكُهَّانِ ، كما تتطلب معرفة أحوال النبي ﷺ للتمييز بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَاهِنِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٤) : ((وَذَكَّرُ الْإِيمَانَ مَعَ نَفْيِ الشَّاعِرِيَّةِ ، وَالتَّذَكُّرُ مَعَ نَفْيِ الْكَاهِنِيَّةِ ، لِأَنَّ عَدَمَ مُشَابَهَةِ الْقُرْآنِ لِلشَّعْرِ أَمْرٌ بَيِّنٌ ، لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مُعَانِدٌ ، بِخِلَافِ مُبَايِنَتِهِ لِلْكِهَانَةِ ، فَإِنَّهَا تَتَوَقَّفُ عَلَى تَذَكُّرِ أَحْوَالِ الرُّسُولِ ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ الْمُتَنَافِيَةِ لَطَرِيقَةِ الْكِهَانَةِ وَمَعَانِي أَقْوَالِهِمْ)) اهـ .

إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُدَافِعُ الْقَوِيُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي وَجْهِ خُصُومِهِ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِالذَّعْوَةِ . وَقَدْ ثَبَتَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي طَرِيقِ نَشْرِ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَنَفَى تَهَمَ الْكَافِرِينَ الَّتِي تُلْقَى جُزْأً دُونَ أَذْلَةٍ .

والدعاوى إن لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤها أَدْعِيَاءُ

وقد أَكَّدَ الْخَطَابُ الْقُرْآنِيُّ عَلَى كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ رَسُولًا كَرِيمًا ، لَا شَاعِرًا وَلَا كَاهِنًا . فَالشَّاعِرُ الَّذِي يَرْمِي إِلَى تَنْمِيقِ كَلَامِهِ وَجَعْلِهِ مَوْزُونًا ، فَيَصْنَعُ الْقِصَائِدَ فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيَخْلُطُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَالْوَاقِعَ بِالْخَيَالِ ، طَرِيقُهُ مُخْتَلِفٌ عَنِ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي يُبَلِّغُ كَلَامَ اللَّهِ بِلَا زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ . وَالكَاهِنُ يَحَاوِلُ اسْتِغْلَالَ جَهْلِ النَّاسِ وَابْتِزَازَهُمْ لِلْحَصُولِ عَلَى الْمَنَافِعِ الْمَادِيَةِ بِوَاسِطَةِ الْخَدِيعَةِ ، حَيْثُ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ كَعَالِمٍ بِالْغَيْبِ ، وَمَا سَيَحْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . لِذَا فَإِنَّ هَمَّهُ هُوَ تَحْقِيقُ مَكَاسِبِ شَخْصِيَّةٍ دُونَ التَّفَكِيرِ فِي إِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ ، أَوْ صِنَاعَةِ مَجْتَمَعِ السَّعَادَةِ ، وَالْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَإِعْمَارِ الْإِنْسَانِ وَالْبَيْتَةِ .

وفي اللغة : ((كَهَنَ - كِهَانَةً : صار كَاهِنًا. وتَكَهَّنَ له : أخبره بِالْغَيْبِ. وتَكَهَّنَ بالأمر أخبر به على وجه التَّوَقُّع. والكاهن : مَنْ يَتَنَبَّأ بِالْغَيْبِ))⁽²⁵⁾.

وهكذا يظهر لنا أَنَّ الكِهَانَةَ مُضَادَةٌ لِلْمَنْهَجِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ . فالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَزْعَمْ الْأُلُوْهِيَّةَ أَوْ ادَّعَاءَ الْغَيْبِ. وَلَمْ يَقُلْ لِلنَّاسِ: اعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَلَمْ يَخْتَرِعْ مُعْجَزَاتٍ وَهْمِيَّةَ لابتزاز أموال الآخرين، وتثبيت زعامة سياسية انتهازية. بل كان المسارُ النبويُّ واضحًا في الوسيلة والغاية .

وعن شَرِيحِ بن عُبيد قال : قال عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : خَرَجْتُ أُتَعَرِّضُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ أَسْلِمَ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَقُمْتُ خَلْفَهُ ، فَاسْتَفْتَحَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : هَذَا وَاللَّهِ شَاعِرٌ كَمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ . قَالَ : فَقَرَأَ : ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ)) . قَالَ : قُلْتُ : كَاهِنٌ . قَالَ : ((وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ)) . إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . قَالَ : فَوَقَّعَ الْإِسْلَامُ فِي قَلْبِي كُلِّ مَوْقِعٍ⁽²⁶⁾.

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التَّكْوِيْنُ : ٢٤] .

وما محمد على الْوَحْيِ بِبَخِيلٍ . يعني أَنَّهُ ﷺ يُبْلِغُ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ كَامِلًا ، وَلَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا . وهنا تتجلى أمانَةُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَصِدْقُهُ ، وَإِخْلَاصُهُ . وَتَبْلِيغُ الْوَحْيِ كَامِلًا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا يَقْدِرُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنْ يَتَلَاعَبَ بِالْوَحْيِ ، أَوْ يُخْفِيَ مِنْهُ شَيْئًا .

لَمْ يَبْخُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ ، وَلَمْ يَكْتُمِ عِلْمَهُ ، بَلْ عَلَّمَ النَّاسَ كَلَامَ اللَّهِ وَأَحْكَامَهُ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ . لَقَدْ جَاءَ مُحَمَّدًا خَبَرُ السَّمَاءِ ، وَكَانَ غَيْبًا لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ ، فَنَشَرَهُ ، وَبَلَّغَهُ ، وَلَمْ يَقْصُرْ ، وَلَمْ يَخْصُصْ بِهِ أَحَدًا دُونَ أَحَدٍ . وَإِنَّمَا بَلَّغَهُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا بِلَا تَمْيِيزٍ . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى عُمُومِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَصِلَاحِهَا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَالْآيَةُ تَنْفِي الْكِهَانَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهِيَ التُّهْمَةُ الَّتِي اخْتَرَعَهَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، وَأَلْصَقُوهَا بِالنَّبِيِّ ﷺ كَذِبًا وَزُورًا. فَالكَاهِنُ يَكْتُمُ مَا عِنْدَهُ مِنْ أَجْلِ اسْتِغْلَالِ الْآخَرِينَ وَابْتِزَازِهِمْ ، وَالْحَصُولِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ.

(٢٥) المعجم الوجيز ، ص ٥٤٤ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٢٦) رواه أحمد في مسنده (١ / ١٧) برقم (١٠٧) . والحديثُ ضَعِيفٌ لَانْقِطَاعِ السَّنَدِ . قال الهيثمي

في المجمع (٩ / ٥٦) : ((رجاله ثقات ، إِلَّا أَنَّ شَرِيحَ بْنَ عُبَيْدٍ لَمْ يُدْرِكْ عُمر)) .

أما النبي ﷺ فقد بَلَغَ الوَحْيَ الإلهيَّ كاملاً ، بكل اقتدار وإخلاص وأمانة ، ولم يستغل الناس ، ولم يُساوِهم ، ولم يَسْعَ لتحقيق أرباح مادية ومكاسب شخصية عن طريق ابتزازهم ، ولم يُحوِّل الوَحْيَ (الغيب) إلى تجارة ومشروع ماليّ استثماريّ للسيطرة على الناس ، واستغلالهم ، والحصول على أموالهم ، ونيل المناصب الرفيعة . كما أنه ﷺ لم يُحوِّل الوَحْيَ إلى مشروع عائليّ وراثيّ ، حيث إنه ﷺ لم يُخَصِّ أقاربه وعشيرته بالوَحْيِ ، ويحجبه عن الناس . وإنما بَلَغَ الوَحْيَ كاملاً لكل الناس . ليس هذا فَحَسْبُ ، بل بَلَغَ الوَحْيَ كاملاً للإنس والجن على السواء .

والجدير بالذكر أنَّ سبب تسمية الوَحْيِ (خبر السماء) غَيْباً لأنه غائب عن الناس ولا يَعْلَمُونَهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦١٥) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أي يُمْتَثِّمُ . ومنهم مَنْ قرأ ذلك بالضاد ، أي بِخَيْل ، بل يبذله لكل أحد . قال سُفيان بن عُيينة : ظنين وضنين سواء ، أي ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين المُتَمَثِّمُ ، والظنين البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غَيْباً ، فأنزله الله على محمد ، فما ضَنَّ به على الناس ، بل نَشَرَهُ ، وبَلَّغَهُ ، وبَذَلَهُ لكلِّ مَنْ أَرَادَهُ . وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد . واختار ابن جرير قراءة الضاد . [قال ابن كثير] : وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح)) اهـ . وقال الله تعالى : ﴿ سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [الأعلى : ٦] .

لقد تَكَفَّلَ اللهُ بتثبيت القرآن في صدر محمد ﷺ ، فَيَحْفَظُهُ ، ولا يَنْسَى مِنْهُ شَيْئاً . وهذه بَشَارَةٌ مِنَ اللهِ ، ووَعْدٌ مِنْهُ للنبي ﷺ ، أن يُثَبِّتَ الوَحْيَ في صدره ، فلا يَنْفَلِتُ مِنْهُ شَيْءٌ . و" لا " في الآية نافية ، أي تنفي إمكانية النسيان عن النبي ﷺ . والمعنى : يحفظه الله عليك فلا يفوتك مِنْهُ شَيْءٌ .

وفي تفسير القرطبي (٢٠ / ١٩) : ((قال مجاهد والكلبي : كان النبي ﷺ إذا نَزَلَ عليه جبريل بالوَحْيِ ، لم يَفْرَغْ جبريل من آخر الآية ، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فَنَزَلَتْ :

﴿ سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ بعد ذلك شَيْئاً ، فقد كَفَيْتُكَه)) اهـ .

قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٤٤) : ((﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ وهذا إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى ، ووَعْدٌ مِنْهُ لَهُ ، بأنه سَيُفَرِّغُهُ قراءةً لا يَنْساها)) اهـ .

وفي زاد المسير (٩ / ٨٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ . قال مقاتل : سَنَعَلَمَكَ القرآن ، وَنَجْمَعُهُ في قلبك ، فلا تَنْساها أبداً)) اهـ .

وهذا الأمر بعد ذاته مُعْجَزَةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ . فقد كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأ وَلَا يَكْتُب ، ومعَ هذا ، كَانَ يَحْفَظُ مَا أَقْرَأَهُ جِبْرِيلُ _ عَلَيْهِ السَّلَام _ ، وَلَا يَنْسِي مِنْهُ حَرْفًا وَاحِدًا . وَلَا شَكَّ أَنَّ حِفْظَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ دِرَاسَةٍ وَلَا تَكَرُّارٍ ، يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوءَتِهِ ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٨٠) : ((« سَنُقْرِئُكَ » عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام _ ، أَوْ سَنَجْعَلُكَ قَارِئًا بِإِلْهَامِ الْقِرَاءَةِ . « فَلَا تَنْسَى » أَصْلًا مِنْ قُوَّةِ الْحِفْظِ مَعَ أَنَّكَ أُمِّيٌّ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ آيَةً أُخْرَى لَكَ ، مَعَ أَنَّ الْإِخْبَارَ بِهِ عَمَّا يُسْتَقْبَلُ ، وَوُقُوعَهُ كَذَلِكَ أَيْضًا مِنَ الْآيَاتِ))

وَعَنِ الْقَاسِمِ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ : كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ إِذَا قَرَأَ : « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » . قَالَ : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » . قَالَ : يَتَذَكَّرُ الْقُرْآنَ مَخَافَةً أَنْ يَنْسَى ⁽²⁷⁾ .

كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ يَسْتَلْهِمُ مَعْنَى الْآيَةِ : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » كَيْ تُعِينَهُ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ ، وَعَدَمِ نِسْيَانِهِ . إِنَّهُ يَسْتَحْضِرُ مَعْنَى الْآيَةِ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَهَذَا يُسَاعِدُ فِي قُوَّةِ الْحِفْظِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى » [الْأَعْلَى : ٨] .

نُوفِّقُكَ يَا مُحَمَّدُ لِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ السَّمِيحَةِ الْمُسَيِّرَةِ الَّتِي لَا تَعْقِيدُ فِيهَا ، وَلَا إِفْرَاطَ ، وَلَا تَقْرِيطَ ، وَنُسَهِّلُ عَلَيْكَ عَمَلَ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٦٤٤) : ((أَيُّ : نُسَهِّلُ عَلَيْكَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ ، وَأَقْوَالَهِ ، وَنُشْرِعَ لَكَ شَرْعًا سَهْلًا سَمِيحًا مُسْتَقِيمًا عَدْلًا ، لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ ، وَلَا حَرَجَ ، وَلَا عُسْرَ)) اهـ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ « نُيَسِّرُكَ » عَطْفٌ عَلَى « سَنُقْرِئُكَ » ، لِذَلِكَ لَمْ يَقُلِ اللَّهُ : نُيَسِّرْ لَكَ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٦٠١) : ((« وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى » . قَالَ مُقَاتِلٌ : أَيُّ نُهَوِّنُ عَلَيْكَ عَمَلَ الْجَنَّةِ . وَقِيلَ : نُوفِّقُكَ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَيْسَرُ وَأَسْهَلُ . وَقِيلَ : لِلشَّرِيعَةِ الْيُسْرَى ، وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّهْلَةُ . وَقِيلَ : نُهَوِّنُ عَلَيْكَ الْوَحْيَ حَتَّى تَحْفَظَهُ وَتَعْمَلَ بِهِ . وَالْأَوَّلَى حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ : أَيُّ نُوفِّقُكَ لِلطَّرِيقَةِ الْيُسْرَى فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِمَا الَّتِي تَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَا أَفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ » [الْبَلَدُ : ١] ⁽²⁸⁾ .

(٢٧) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٦٧) بِرَقْمِ (٣٩٢٤) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

هذا قَسَمٌ إلهيٌّ جليل بمكة المكرمة (البلد الحرام) يُشير إلى مكانتها المقدسة . فالله تعالى يُقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس للإنسان أن يحلف بغير الله تعالى . وكما هو معلوم فإن الله لا يُقسم إلا بشيء عظيم ذي مكانة رفيعة . وقد أقسم الله بها تشريعاً لها . وقوله تعالى : ﴿ لا أقسم ﴾ أشدُّ من القسم ، وفيه تأكيد بليغ . وهذا مشهور في لغة العرب . والقسم يلفت انتباه السامع ، ويجذبه من أجل التركيز في اللفظ والمعنى . فالقسم يُعطي أهمية جلية للكلام . وعندما يُقسم الله تعالى بمكة ، فهذا مؤشر باهر على أنها بلدٌ يتمتع بخصوصية مُعينة ، ولها قدسية عظيمة ، ولا يُماثلها أيُّ بلد آخر .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ . قال : ((قسم القسم))⁽²⁹⁾ . إن مكة ليست مكاناً عادياً ، وليست بقعةً جغرافية محصورة في الزمان والمكان . إنها مهبط الرحمة ، ومنبع الطهارة ، وقلب الثور ، وصانعة الزمان والمكان . إنها الحرم الآمن ، الذي يُجبي إليها ثمرات كل شيء . فلا يُسفل فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد ، ولا يُصاد فيها صيد ، ولا يُعصد فيها شجر . وقد شرف الله مكة بوجود الكعبة قبلة المسلمين . وهذا البلد الحرام اجتمعت له من المزايا والفضائل ، ما جعله يتفوق على بقاع الأرض كلها . لذلك أقسم الله به . والجدير بالذكر أن تحريم مكة إلهي لا بشري ، وقد حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض . فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة)) [سبق تخريجه] .

وقال الله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ [البلد : ٢] . لقد أحل الله لمحمد ﷺ القتل والأسر في مكة ، وهذه خصوصية للنبي ﷺ وحده . فلا حرج عليه في ذلك ولا إثم . لقد أحل الله للنبي ﷺ يوم دخل مكة أن يقتل من يشاء ، ويترك من يشاء . وهذه الأمر ليس عاماً ، بل هو خاص بالنبي ﷺ في مدة زمنية محددة . فالأمر مُقيّد لا مُطلق .

(٢٨) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢٠ / ٦٢) : ((زيادة ﴿ لا ﴾ لتأكيد الكلام ، وهو مستفيض في كلام العرب . ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ أي : أقسم بهذا البلد . وفائدتها تأكيد القسم كقولك : لا والله ما ذاك ، كما تقول : أي والله . قال امرؤ القيس : " لا وأبيك ابنة العامري ")) .
(٢٩) قال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٩٠) : ((رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح)) .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٢٩) : ((والمعنى أَنَّ الله تعالى لَمَّا أَقْسَمَ بِمَكَّةَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهَا مَعَ حُرْمَتِهَا ، فَوَعَدَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّهُ يُحِلُّهَا لَهُ حَتَّى يُقَاتَلَ فِيهَا ، وَأَنْ يَفْتَحَهَا عَلَى يَدِهِ ، فَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُحِلَّهَا لَهُ . قَالَ شُرَحْبِيلُ بْنُ سَعْدٍ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ . قَالَ : يُحَرِّمُونَ أَنْ يَقْتُلُوا بِهَا صَيِّدًا وَيَسْتَحِلُّوا إِخْرَاجَكَ وَقَتْلَكَ ؟)) اهـ .

وقد أمر النبي ﷺ بِقَتْلِ ابْنِ خَطْلٍ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، وَمُقَيَّسٌ بِنِ صُبَابَةَ ، وَغَيْرَهُمَا . فَعَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَامَ الْفَتْحِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ ، فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ : إِنَّ ابْنَ خَطْلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، فَقَالَ : ((اقْتُلُوهُ)) (30) .

وَالْمِغْفَرُ (الْخُوْذَةُ) مَا يُلبَسُ عَلَى الرَّأْسِ مِنْ دِرْعِ الْحَدِيدِ . لَقَدْ أَهْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ دَمَ ابْنِ خَطْلٍ ، لِأَنَّهُ ارْتَكَبَ جَرَائِمَ كَثِيرَةً ، مِنْ أَقْبَحِهَا الْإِرْتِدَادُ عَنِ الْإِسْلَامِ . لِذَلِكَ لَمْ يَسْتَحِقِ الْعَفْوَ وَالتَّسَامُحَ .

وَقَدْ يَظْهَرُ وَهْمٌ فِي بَعْضِ الْأَذْهَانِ ، بِأَنَّ هَذِهِ قَسْوَةٌ بِالْغَةِ ، وَأَنَّهَا تَتَعَارَضُ مَعَ التَّسَامُحِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَكَانَ الْأَوَّلَى الْعَفْوَ عَنْهُ .

إِنَّ الْإِسْلَامَ مُصَحَّفٌ وَسَيِّفٌ . مَنْ اسْتَعْدَمَ لُغَةَ الْحِوَارِ ، فَإِنَّهُ يُخَاوِرُ بِأَدَبٍ وَهُدُوءٍ . وَمَنْ اسْتَعْدَمَ السَّلَاحَ ، فَإِنَّهُ يُقَتَّلُ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَقُمْ بِالْإِعْتِدَاءِ عَلَى شَخْصٍ بَرِيءٍ أَوْ مُسْكِينٍ . فَابْنُ خَطْلٍ مِنْ كِبَارِ الْمُجْرِمِينَ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ . وَالْحَلُّ الْوَحِيدُ لِلتَّعَامُلِ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ هُوَ الْقَتْلُ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ نَظِيرَ أَفْعَالِهِ الشَّيْنَةِ . وَفِي ذَوْلِ الْعَالَمِ الَّتِي تَتَشَدَّقُ بِالْحُبِّ وَالتَّسَامُحِ وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ ، يُحَكِّمُ عَلَى مَنْ يَرْتَكِبُ جَرِيمَةَ الْخِيَانَةِ الْعُظْمَى بِالْإِعْدَامِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ مُتَعَطِّشًا لِلدَّمَاءِ ، وَلَيْسَ طَاغِيَةً سَفَاحًا . وَلَكِنَّهُ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ ، يَحْمِي الْمَجْتَمَعَ الْإِسْلَامِيَّ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْمُجْرِمِينَ .

وَفِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٩ / ١٣٢) : ((قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّمَا قُتِلَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَقُتِلَ مُسْلِمًا كَانَ يَخْدُمُهُ ، وَكَانَ يَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ وَيَسُبُّهُ ، وَكَانَتْ لَهُ فَيْنَتَانِ تُغَيَّيَانِ بِهَجَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ . فَإِنْ قِيلَ : فَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ " مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ " ، فَكَيْفَ قُتِلَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ . فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْأَمَانِ ، بَلْ اسْتَشْنَاهُ هُوَ وَابْنُ أَبِي سَرْحٍ وَالْقَيْنَتَيْنِ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَإِنْ وَجِدَ مُتَعَلِّقًا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي أَحَادِيثٍ أُخَرِ . وَقِيلَ : لِأَنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَفِ بِالشَّرْطِ ، بَلْ قَاتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ حُجَّةٌ لِمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ

(٣٠) متفق عليه . البخاري (٢ / ٦٥٥) برقم (١٧٤٩) ، ومسلم (٢ / ٩٨٩) برقم (١٣٥٧) .

وموافقيهما في جواز إقامة الحدود والقصاص في حرم مكة. وقال أبو حنيفة: لا يجوز وتأولوا هذا الحديث على أنه قُتِلَ في الساعة التي أُبِيحَتْ له. وأجاب أصحابنا بأنها إنما أُبِيحَتْ ساعة الدخول حتى استولى عليها، وأذعن له أهلها. وإنما قُتِلَ ابْنُ خَطْلٍ بعد ذلك ، والله أعلم . واسم ابن خَطْلٍ عبد العُزَّى ، وقال محمد ابن إسحاق : اسمه عبد الله ((اهـ .

أما مقيس بن ضبابة ، فقد أسلم ، ثُمَّ قُتِلَ رَجُلًا أنصاريًا ، وارتدَّ عن الإسلام . وقال الحافظ في الفتح (٨ / ١١) : ((وأما مقيس بن ضبابة ، فكان أسلم ، ثُمَّ عدا على رجل من الأنصار فقتله ، وكان الأنصاري قُتِلَ أخاه هشامًا خطأ ، فجاء مقيس ، فأخذ الدِّبَّةَ ، ثُمَّ قُتِلَ الأنصاري ، ثُمَّ ارتدَّ ، فقتله نُمَيْلَةُ بن عبد الله يوم الفَتْح (فتح مكة))) اهـ .

لقد مَنَحَ اللهُ السُّلْطَةَ لمحمد ﷺ ، وَسَمَحَ له أن يقتل أو يعفو . فأحلَّ النبي ﷺ دِمَاءَ قَوْمٍ ، وَحَرَّمَ دِمَاءَ قَوْمٍ ، فقال ﷺ : ((مَنْ دَخَلَ دارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ ألقى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ بابَهُ فَهُوَ آمِنٌ)) [صحيح مسلم (٣ / ١٤٠٥)] .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٩٨٧) أَنَّ النبي ﷺ قال : ((إِنَّ مَكَةَ حَرَّمَهَا اللهُ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلَا يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا ، فَقُولُوا له : إِنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ)) .
إِنَّ تحريمَ مكة إلهيًّا لا بشريًّا . ومُحَرَّمٌ شَرْعًا أَنْ يُسْفِكَ فِيهَا دَمٌ ، أَوْ تُقَطَّعَ بِهَا شَجَرَةٌ .
والمؤمنُ هو الذي يلتزم بهذه التعاليم ، لِأَنَّهُ يُعْظَمُ اللهُ ، ويُقَدَّسُ أوامره ، وَيُطَبَّقُ سُنَّةُ النبي ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا .

وَإِذَا أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَأْخُذَ بِالرُّخْصَةِ فَيُقَاتِلَ فِي مَكَةَ ، ويستدل بقتال النبي ﷺ فيها . فنقول له : إِنَّ هَذَا الأمرَ خاصٌّ بالنبي ﷺ وَحْدَهُ ، لِأَنَّ اللهَ أَذِنَ له بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَأْذِنَ لِلنَّاسِ . حتى الإِذْنُ للنبي ﷺ ليس عامًا ، بَلْ هو مُقَيَّدٌ بِسَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ حتى يَفْتَحَ مكة . وقد عادت حُرْمَةُ مكة كما كانت . إنها البلدُ الحرامُ حتى يوم القيامة . وهذا حُكْمٌ ثابت ، لا تبديل فيه ولا نَسْخٌ ، لِأَنَّ النِّسْخَ انتهى بموت النبي ﷺ .

وعلى الحاضرين الذين يسمعون كلامَ النبي ﷺ أَنْ يُبَلِّغُوهُ لِلغَائِبِينَ . وهذا يدل على ضرورة نشر العلم ، وإيصال الأحكام والشرائع والسُّنَنِ لكل الناس في كُلِّ زمانٍ ومكان . وَرِكَاتُ الْعِلْمِ نَشْرُهُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩ / ١٢٧ و ١٢٨) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسَ " ، معناه أَنَّ تحريمها بِوَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا أَنَّهَا اصطَلَحَ النَّاسُ عَلَى تحريمها بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ . قَوْلُهُ ﷺ : " فَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ يَأْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً " . هَذَا قَدْ يَحْتَاجُ بِهِ مَنْ يَقُولُ : الْكُفَّارُ لَيْسُوا بِمُخَاطَبِينَ بِفُرُوعِ الْإِسْلَامِ . وَالصَّحِيحُ عِنْدَنَا وَعِنْدَ آخَرِينَ أَنَّهُمْ مُخَاطَبُونَ بِهَا كَمَا هُمْ مُخَاطَبُونَ بِأَصُولِهِ ، وَإِنَّمَا قَالَ ﷺ : " فَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ يَأْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي يَنْقَادُ لِأَحْكَامِنَا ، وَيَنْزَجِرُ عَنْ مُحَرَّمَاتِ شَرْعِنَا ، وَيَسْتَثْمِرُ أَحْكَامَهُ ، فَجَعَلَ الْكَلَامَ فِيهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ لَيْسَ مُخَاطَبًا بِالْفُرُوعِ . قَوْلُهُ : " يَسْفِكَ " أَي يُسِيلُهُ . قَوْلُهُ ﷺ : " فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " إِلَى آخِرِهِ ، فِيهِ دَلَالَةٌ لِمَنْ يَقُولُ : فَتُحْتَمَلُ مَكَّةُ غَنَوَةً . وَقَدْ سَبَقَ فِي هَذَا الْبَابِ بَيَانُ الْخِلَافِ فِيهِ ، وَتَأْوِيلُ الْحَدِيثِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ : فَتُحْتَمَلُ صَلَاحًا أَنَّ مَعْنَاهُ دَخَلَهَا مُتَأَهِّبًا لِلْقِتَالِ لَوْ احتَاجَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ دَلِيلُ الْجَوَازِ لَهُ تِلْكَ السَّاعَةِ . قَوْلُهُ ﷺ : " وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " . هَذَا اللَّفْظُ قَدْ جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ ، وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِوَجُوبِ نَقْلِ الْعِلْمِ ، وَإِشَاعَةِ السُّنَنِ وَالْأَحْكَامِ)) اهـ .

وقد يَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ : ﴿ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (31) ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ سَاكِنٌ وَمُقِيمٌ بِمَكَّةَ .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٩٢) : ((أَقْسَمُ سُبْحَانَهُ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ ، وَقَيْدَهُ بِخُلُولِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيهِ ، إِظْهَارًا لِمَزِيدِ فَضْلِهِ ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ شَرَفَ الْمَكَانِ بِشَرَفِ أَهْلِهِ)) اهـ .
وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) ﴾ . قَالَ : ((أَحَلَّ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ فِيهِ مَا شَاءَ)) (32) .
وقال الله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضُّحَى : ٣] .

(٣١) أورد ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٢٧) ثلاثة أقوال في تفسير الآية : ((أحدها حَلٌّ لَكَ مَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْبَلَدِ مِنْ قَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ . قَالَ الرَّجَاجُ : يُقَالُ : رَجُلٌ حَلٌّ وَحَلَالٌ وَمُحَلٌّ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَالْمَعْنَى إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ نَبِيِّهِ أَنْ يَفْتَحَ مَكَّةَ عَلَى يَدَيْهِ بِأَنْ يُجْلَهَا لَهُ ، فَيَكُونُ فِيهَا جِلًّا . وَالثَّانِي فَأَنْتَ مُجَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ غَيْرُ مُحَرَّمٍ فِي دُخُولِهِ ، يَعْنِي عَامَ الْفَتْحِ ، قَالَه الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بِهَذَا الْبَلَدِ يَسْتَحِلُّونَ إِخْرَاجَكَ وَقَتْلَكَ ، وَيُحْرِمُونَ قَتْلَ الصَّيِّدِ ، حَكَاهُ الثَّعْلَبِيُّ)) .
(٣٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٦٩) برقم (٣٩٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ما تَرَكَكَ اللهُ يا محمد مُنْذُ اختارك، وما أَبْغَضَكَ مُنْذُ أَحْبَبَكَ. وكان الْوَحْيُ قَدْ تَأَخَّرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فاستغلَّ المشركون هذا الأمرَ للطعن في النبي ﷺ ، ومُحاولة تَحْطِيمِ معنوياته ، وكسرِ إرادته ، وذلك بالقول إِنَّ اللهَ قد تَخَلَّى عن محمد وتَرَكَه وكرِهَه . فنزلت الآية ، وردَّت على المشركين . ولفظُ " التَّوْدِيع " يُشير إلى المُبالغة ، لأنَّ مَنْ ودَّعَكَ مُفَارِقًا ، فقد بالغَ في تَرَكَكَ . وسُمِّيَ الْوَدَاعُ وداعًا ، لأنه مُفارقة ومُتاركة .

وفي تفسير البغوي (١ / ٤٥٣) : ((قال المفسِّرون : سَأَلَت اليهودُ رسولَ الله ﷺ عَنْ ذِي القرنين وأصحاب الكهف وعن الرُّوح . فقال : سأخبركم غَدًا ، وَلَمْ يَقُلْ : إِنْ شاءَ اللهُ . فاحتبس عنه الْوَحْيُ. وقال زيد بن أسلم: كان سبب احتباس جبريل عليه السلام عنه كَوْنُ جَزْوَ فِي بيته . فلَمَّا نزل عاتبه رسول الله ﷺ على إبطائه ، فقال : إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ . واختلفوا فِي مدة احتباس الْوَحْيِ عنه، فقال ابن جُرَيْج : اثنا عشر يومًا. وقال ابن عباس : خمسة عشرة يومًا. وقال مقاتل : أربعون يومًا . قالوا : فقال المشركون : إِنَّ مُحَمَّدًا ودَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلَّاهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى هذه السُّورَةَ ، فقال النبي ﷺ : يا جبريل ، ما جِئْتَ حَتَّى اشْتَقْتُ إِلَيْكَ ، فقال جبريل : إني كُنْتُ أَشَدَّ شَوْقًا ، ولكنني عَبْدٌ مَأْمُورٌ)) اهـ .

وعن جُنْدُب بن سُفْيَانَ _ رضي اللهُ عنه _ قال : اشتكى رسولُ الله ﷺ ، فلم يَقُمْ ليلتين أو ثلاثًا ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكونَ شيطانُكَ قد تركَكَ ، لَمْ أَرَهُ قَرِيبَكَ مُنْذُ ليلتين أو ثلاثًا . فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ والضحى (١) والليل إذا سجي (٢) ما ودَّعَكَ ربك وما قلى (٣) 》 (٣٣).

لقد عانى النبي ﷺ من أذى المشركين الذين يَتَرَبَّصُونَ بِهِ ، وَيَحْسِبُونَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، من أجل الطعن فِيهِ ، واستغلال أيِّ أمرٍ للتَّشْكِيكِ فِيهِ ، وإيذائه ، وتَحْطِيمِ إرادته _ حَسَبَ تفكيرهم القاصر _ . وقد تَأَخَّرَ الْوَحْيُ ، فَلَمْ يَنْزِلْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فجاءت امرأة ، وهي أُم جَمِيل بنت حَرْب (زَوْجَةُ أَبِي لَهَبٍ وَحَمَّالَةُ الْحَطَبِ) ، وآذَت النَّبِيَّ ﷺ بكلامها ، حيث اعتبرت الْوَحْيَ الإلهيَّ شَيْطَانًا قَدْ تَخَلَّى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وتَرَكَه وَحِيدًا. فردَّ اللهُ عَلَيْهَا وعلى المشركين الطاعنين في النبي ﷺ وأفحمهم ، وأخزاهم ، ورفع معنويات النبي ﷺ ، وقَوَّى مَوْقِفَهُ فِي مُوَاجَهَةِ كُفَّار قُرَيْشٍ . والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الآية : ﴿ مَا ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى 》 هِيَ جَوَابُ الْقَسَمِ .

(٣٣) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٨٩٢) برقم (٤٦٦٧) ، ومسلم (٣ / ١٤٢١) برقم (١٧٩٧) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى : ٤] .

وللدار الآخرة الباقية خَيْرٌ لَكَ يا محمد من هذه الدنيا الفانية . فلا تَحْزَنَ على ما فاتَكَ من الدنيا الزائلة ، فقد أعدَّ الله لَكَ في الآخرة نعيمًا لا ينتهي ، ومُتعة لا تَنفَدُ ، وسعادة دائمة بلا انقطاع .
لَمْ يَجِئِ النَّبِيُّ ﷺ لِيَجْمَعَ حُطَامَ الدُّنْيَا الْفَانِي ، أو يُلْهَث وراء مُتعة آنية زائلة ، إنه يَنْظُرُ إلى الخلود ، والنعيم المُقيم . وهذا الزُّهْدُ زُهْدُ الْعَالِمِ الْقَادِر ، لا زُهْدُ الْعَاجِزِ الضَّعِيفِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((ولهذا كان رسولُ الله ﷺ أزهَدَ الناس في الدنيا ، وأعظمَهم لها إطراحًا ، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته . وَلَمَّا خَيْرَ عليه السلام في آخر عُمره بين الخُلْدِ في الدنيا إلى آخرها ثُمَّ الْجَنَّةِ ، وبين الصيرورة إلى الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدُّنْيَةِ)) اهـ .

وقد شَرَّفَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ في الدنيا ، وَمَنَحَهُ النُّبُوَّةَ وَالرَّسَالَةَ ، وأعطاه المكانة الرفيعة ، والمجد العظيم . ولكنَّ الدنيا فانية زائلة ، لذلك كانت الآخرة أعظمَ منها باعتبار أنَّ الآخرة باقية لا تَزُولُ^(٣٤) . والآخرة خالية من الشوائب والمشكلات ، أمَّا الدنيا فهي ممزوجة بالمصائب والكوارث . وقد وَعَدَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ أن يَمُنَحَهُ في الآخرة أعظمَ مِمَّا مَنَحَهُ من الكرامة والمجد في الدنيا ، وَوَعَدَ اللهُ لا يَتَخَلَّفَ . ولا يَزَالُ النَّبِيُّ ﷺ يَرْتَقِي في الرَّفْعَةِ وَالْكَمَالِ ، والآخرة خَيْرٌ له من الدنيا ، لأنَّ الله أعطاه فيها الكراماتِ العظيمة ، والدرجةَ العاليةَ الرَّفِيعَةَ التي لا يَصِلُ إِلَيْهَا مَخْلُوقٌ .

وَلَوْ كَانَتِ الْآخِرَةُ مِنْ حَدِيدٍ ، والدنيا من ذهب ، لاختار العاقلُ الآخرة ، لأنَّ الحديدَ الباقي خَيْرٌ مِنَ الذَّهَبِ الْفَانِي ، فَمَا بِالْكَ وَالْجَنَّةِ هِيَ النِّعَمُ السَّرمُديُّ ، والدنيا هي الْوَهْمُ اللَّحْظِيُّ ؟!

(٣٤) قال الشُّوكَانِي في فتح القدير (٥ / ٦٤٩) : ((﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ اللام جواب قَسَمٍ محذوف : أي الجنة خَيْرٌ لَكَ من الدنيا مع أنه ﷺ قد أُوتِيَ في الدنيا من شَرَفِ النُّبُوَّةِ ما يَصْغُرُ عنده كُلُّ شَرَفٍ ، ويتضاءل بالنسبة إليه كُلُّ مَكْرَمَةٍ في الدنيا . وَلَكِنَّهَا لَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا مَشْهُوبَةً بِالْأَكْدَارِ ، مُنْعَصَةً بِالْعَوَارِضِ الْبَشَرِيَّةِ ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظُل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئًا . وَلَمَّا كَانَتِ طَرِيقًا إِلَى الْآخِرَةِ وَسَبَبًا لِنَيْلِ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادَةِ الصَّالِحِينَ من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة ، كان فيها خير في الجُمْلَةِ من هذه الحيثية)) .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤ / ٣٤٥) : ((﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أي : ما أعدَّ الله لك في الآخرة من المَقام المحمود ، والحوض المورود ، والخير الموعود ، خَيْرٌ مِمَّا أعجبك في الدنيا . وقيل : وَجْه اتِّصاله بما قَبْلَه أنه لَمَّا كان في ضَمْنِ نَفْيِ التَّوَدُّيعِ والقَلْبِ ، أنَّ الله مُواصلُك بالوَحْيِ إليك ، وأنتك حبيب الله ، ولا ترى كرامةً أعظم من ذلك ، أخبرَه أنَّ حاله في الآخرة أعظم من ذلك ، لِتَقْدُمَه على الأنبياء ، وشهادة أُمَّتَه على الأمم ، وَغَيْر ذلك)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : دَخَلَ عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ على النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ على حَصِيرٍ قَدْ أَثَرَ في جَنْبِه ، فقال : يا رسول الله ، لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَؤْتَرُ مِنْ هَذَا ، فقال : ((ما لي وللدُّنيا ، وما للدُّنيا وما لي ، والذي نَفْسِي بيده ما مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنيا إلا كراكِبٍ سَارَ في يوم صائف _ يعني حار _ ، فاستظلَّ تحت شجرة سَاعَةً من نهار ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا))⁽³⁵⁾ .
لقد تَضَاقَقَ عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ حِينَ رَأَى أَثَرَ الحَصِيرِ في جَنْبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وذلك مِنْ شِدَّةِ محبته له ، وَحِرْصِهِ على رَاحته وسلامته ، وَعَرَضَ على النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَّخِذَ فِرَاشًا أَكْثَرَ نَعُومَةً مِنَ الحَصِيرِ .

وحياة النَّبِيِّ ﷺ قائمةً بالكامل على خُشونة العيش . فَلَمْ يَعِشِ النَّبِيُّ ﷺ في القُصور ، وَلَمْ يَغْرُقَ بين الجوّاري والخدم . لقد كانت حياته الشريفة مليئة بالصَّعَاب والمَشَاق والتَّحَدِيَّات الجسيمة .

وجاء الرُّدُّ النبويُّ حاسمًا وواضحًا على شَكلٍ مَثَلٍ لتقريب المعنى إلى السامع ، وتثبيته في الدَّهْن . وهذا التشبيه البليغ يدل على أَنَّ الدنيا زائلة ، وسُرْعان ما تنقضي . ولا بُدَّ للجميع أَنْ يَرَحِلُوا عنها . وهذا الرحيل السريع يجعل الإنسان يُوقِنُ بأن الدنيا ليست دار استقرار وإقامة ، بل هي محطة عابرة . ولو عَرَفَ الإنسانُ الفرقَ الحقيقي بين الدنيا والآخرة لاستعدَّ ليوم الرحيل ، وانشغل ببناء الدار الآخرة وتجهيزها ، وليس جَمْعَ حُطام الدنيا الفاني .

وفي فيض القدير للمُناوي (٥ / ٤٦٤) : ((قال الطيبي : وهذا تشبيه تمثيلي ، ووجه الشَّبه سرعة الرحيل ، وَقِلَّةُ المُكْثِ ، وَمِنْ ثَمَّ خُصَّ الراكب . ومقصوده أَنَّ الدنيا زُيِّنَتْ للعيون والنفوس ، فأخذت بهما استحسانًا ومحبة ، وَلَوْ باشرَ القلبُ معرفة حقيقتها ومُعْتَبَرَهَا لأَبْغَضَهَا ، وَلَمَّا آثَرَهَا على الآجَلِ الدائم)) .

(٣٥) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٤٤) برقم (٧٨٥٨) وصَحَّحَه ، ووافقه الذهبي .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

النَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنْ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرُكُ مَا فِيهَا
وَاللَّهُ مَا قَنَعَتْ نَفْسٌ بِمَا رَزَقَتْ مِنَ الْمَعِيشَةِ إِلَّا سَوْفَ يَكْفِيهَا
أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا وَذُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

وعن عبد الله بن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((غُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ لِأُمَّتِي بَعْدِي فَسَرَّنِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ﴾ . أَعْطَاهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ قَصْرِ مِنْ لَوْلُؤٍ ، تُرَابُهَا الْمِسْكُ ، فِي كُلِّ قَصْرِ مَا يَنْبَغِي لَهُ (36) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضُّحَى : ٥] .

إِنَّ اللَّهَ سَيُعْطِي النَّبِيَّ ﷺ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ الْكَرَامَاتِ الْكَثِيرَةَ حَتَّى يَرْضَى بِمَا يُعْطَى ، مِثْلُ : نَهْرِ الْكَوْثَرِ ، وَالشِّفَاعَةِ الْعُظْمَى ، وَالْقُصُورِ فِي الْجَنَّةِ ... إلخ .

وَيَنْبَغِي حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ ، وَعَدَمُ حَصْرِهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ . وَالْمَعْنَى : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ اللَّهُ النِّصْرَ وَالْفَتْحَ وَالْمَجْدَ وَكَثْرَةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَالْأَجْرَ الْعَظِيمَ فِي الْآخِرَةِ . وَهَذَا وَعْدٌ إِلَهِيٌّ مُتَحَقِّقٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا ، وَوَعْدُ اللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ .

وَقَالَ الْخَازَنُ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٦٠) : ((وَالْأُولَى حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا ، لِيَشْمَلَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا ، فَقَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا النِّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَكَثْرَةَ الْأَتْبَاعِ وَالْفَتْوحَ ، وَأَعْلَى دِينِهِ ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ الْأُمَمِ ، وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ الشِّفَاعَةَ الْعَامَةَ ، وَالْمَقَامَ الْمَحْمُودَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) اهـ .

وعن عبد الله بن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((غُرِضَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ كُفْرًا كُفْرًا ، فَسَرَّ بِذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ، فَأَعْطَاهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ قَصْرِ ، فِي كُلِّ قَصْرِ مَا يَنْبَغِي مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْخَدَمِ)) (37) .

(٣٦) رواه الطبراني في الأوسط (١ / ١٧٩) . وحسنه السيوطي في أبواب النقول (١ / ٢٣٠) .

(٣٧) رواه الطبري في تفسيره (١٢ / ٦٢٤) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : إسناده صحيح

إلى ابن عباس .

وهذا الحديث موقوف لفظاً ، مرفوع حكماً . فهو أمر غيبي ، لا يمكن للصحابي أن يعرفه إلا إذا سمعه من النبي ﷺ . وقد كشف الله للنبي ﷺ النعم التي سيمناها لأُمَّته إكراماً له ، وعرض عليه ما ستفتحهُ أُمَّته من البلاد كُفراً كُفراً (قرية قرية) ، وفرح النبي ﷺ بذلك ، وهذا يدل على محبته لأُمَّته وشدة حرصه عليها . وهذا يعني أن رُعة الدولة الإسلامية ستزداد ، وينتشر الإسلام في أنحاء الأرض . وأعطى الله محمداً ﷺ القصور والأزواج والخدم في الدار الآخرة ، وأعد له من الكرامات والفضائل ما لا يخطر على بال . وسيعطيه الله حتى يرضيه . وهذا هو الكرم الإلهي اللامحدود ، والنعيم الأبدى بلا انقطاع ولا زوال .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩ / ١٧٠) : ((عُدَّة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من كمال النفس، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر، وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام، وفي أيام خلفائه الراشدين، وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفُشُو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادَّخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٤٢٢) : ((وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ قيل: هي أرجى آية في القرآن ، لأنه ﷺ لا يرضى وواحد من أُمَّته في النار . وَرَوِي أَنَّهُ _ عليه السلام _ قال لَمَّا نَزَلَتْ: " إِنْ لَا أَرْضِي وَوَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ " . قال عياض : وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة ، وأنواع السعادة في الدارين)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٩١) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ أُمِّتِي أُمِّتِي ، وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ، فَسَلَّهُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ ، فَاتَاهُ جِبْرِيلُ _ عليه الصلاة والسلام _ فَسَأَلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَقُلْ : إِنَّا سَرَضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُشْفِقٌ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَيُفَكِّرُ فِي مَصِيرِهَا ، وَلَا يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ . وهذا يشير إلى إخلاص النبي ﷺ ورحمته بأُمَّته ، ورأفته بها ، وحبه الشديد لها ، وابتعاده عن الأنانية والمصلحة الشخصية . وفي هذا إشارة واضحة إلى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُجٌ إِيْمَانِيٌّ لِإِنْقَادِ النَّاسِ ، وليس استغلالهم .

و " إِنَّا سَرَضِيكَ " مُتَوَافِقٌ مَعَ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣ / ٧٨ و ٧٩) : ((هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد ، منها : بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أُمَّته ، واعتناؤه بمصالحهم ، واهتمامه

بأمرهم . ومنها : استحباب رفع اليدين في الدعاء ، ومنها : البشارة العظيمة لهذه الأمة _ زادها الله تعالى شرفاً _ بما وعدها الله تعالى بقوله : " سَنَرْضِيكَ فِي أَمْتِكَ وَلَا نَسْوُوكَ " . وهذا مِن أرجى

الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها . ومنها : بيان عِظَمِ مُنْزَلَةِ النَّبِيِّ ﷺ عند الله تعالى ، وعَظِيمُ لُطْفِهِ سُبْحَانَهُ بِهِ ﷺ . والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ إظهارُ شَرَفِ النَّبِيِّ ﷺ ، وأنه بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى فَيُسْتَرْضَى وَيُكْرَمُ بما يُرْضيه ، والله أعلم . وهذا الحديث مُوافق لِقَوْلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى : " وَلَا نَسْوُوكَ " ، فقال صاحب التحرير : هو تأكيد للمعنى ، أي : لا نُحْزِنُكَ ، لأنَّ الإرضاء قد يحصل في حق البعض بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، ويدخل الباقي النار ، فقال تعالى : نَرْضِيكَ وَلَا نُدْخِلُ عَلَيْكَ حُزْنًا ، بَلْ نُنَجِّيَ الْجَمِيعَ ، والله أعلم)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا ، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِّأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ)) (38).

إنَّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ أعظمُ البشرِ ، وسادةُ الناسِ ، ولهم مكانة رَفِيعَةٌ عند الله تعالى . والله قد أَكْرَمَهُمْ وَشَرَّفَهُمْ بِأَنْ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً وَاحِدَةً مُسْتَجَابَةً قَطْعًا ، أَمَّا باقى دَعَوَاتِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ يَسْتَجِيبُ لَهَا اللَّهُ ، وَقَدْ لَا يَسْتَجِيبُ . وَكُلُّ نَبِيٍّ قَدْ دَعَا فِي الدُّنْيَا ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ إِكْرَامًا لَهُ وَتَشْرِيفًا لِمَكَانَتِهِ . أَمَّا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ أَبْقَى دَعْوَتَهُ الْمُسْتَجَابَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ لِأُمَّتِهِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى شَفَاعَةِ النَّبِيِّ لِأُمَّتِهِ . وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ يَنَالُهَا مَنْ مَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١١ / ٩٦ و ٩٧) : ((وَظَاهِرُهُ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةً مُسْتَجَابَةً فَقَطْ . وَالْجَوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِجَابَةِ فِي الدَّعْوَةِ الْمَذْكُورَةِ الْقَطْعَ بِهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ دَعَوَاتِهِمْ فَهُوَ عَلَى رَجَاءِ الْإِجَابَةِ . وَقِيلَ : مَعْنَى قَوْلِهِ : " لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ " أَيُّ أَفْضَلِ دَعَوَاتِهِ ، وَلَهُمْ دَعَوَاتٌ أُخْرَى . وَقِيلَ : لِكُلِّ مِنْهُمْ دَعْوَةٌ عَامَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فِي أُمَّتِهِ ، إِمَّا بِإِهْلَاكِهِمْ وَإِمَّا بِنَجَاتِهِمْ ، وَأَمَّا الدَّعَوَاتُ الْخَاصَّةُ فَمِنْهَا مَا يُسْتَجَابُ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسْتَجَابُ ...)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضُّحَى : ٦] (39).

(٣٨) متفق عليه . البخاري (٢٣٢٣ / ٥) برقم (٥٩٤٥) ، ومسلم (١٨٨ / ١) برقم (١٩٨) .

(٣٩) قال ابن كثير في تفسيره (٦٧٤/٤): ((وذلك أنَّ أباه تُوِّيَّ وهو حَمَلٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ . وَقِيلَ : بَعْدَ أَنْ وُلِدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ تُوفِّيَتْ أُمُّهُ آمَنَةً بِنْتٌ وَهَبَ ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتُّ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ فِي كِفَالَةِ جَدِّهِ عَبْدٍ

إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. ومنها أنه وَجَدَهُ يَتِيمًا فَقِيرًا صَغِيرًا ، لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ ، مَاتَ أَبَوَاهُ وَلَمْ يُخَلِّفْ لَهُ مَالًا وَلَا بَيْتًا ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مَأْوَى يَأْوِي إِلَيْهِ ، وَمَسْكَنًا يَسْكُنُ فِيهِ . فَصَمَّمَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٌ ، وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُ ، وَوَفَّرَ لَهُ الْمَسْكَنَ وَالْغِذَاءَ وَالنَّفَقَةَ .

لَقَدْ هَيَّأَ اللَّهُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ الْمَأْوَى، وَهُوَ الْيَتِيمُ الْفَقِيرُ الَّذِي فَقَدَ أَبَوَيْهِ، وَهُوَ صَغِيرٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ أَيُّ مَخْلُوقٍ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ . لذلك اخْتَارَ لَهُ الْيَتَمَ ، كَيْ يَتَوَلَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَخَذَهَا الرِّعَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَشْمَلُهُ ، وَتَقْوَدُهُ فِي حَيَاتِهِ ، وَتَحْفَظُهُ فِي مَمَاتِهِ . وَكَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمَاضِي وَرَعَاهُ وَاعْتَنَى بِهِ ، سَيُحَسِّنُ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَيَتَوَلَّاهُ ، وَلَا يَتْرُكُهُ .

وَالْحِفْظُ الرَّبَّانِيُّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَنْقُطْ . فَالْيَتَمُ الَّذِي عَانَاهُ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُؤْثَرْ فِيهِ سَلْبًا ، لِأَنَّ تَوْفِيقَ اللَّهِ تَعَالَى نَقَلَ حَالَةَ الْيَتَمِ مِنَ الضِّيَاعِ إِلَى الثِّقَةِ الْكَامِلَةِ بِاللَّهِ وَاللَّجْوَءِ الْمَطْلُوقِ إِلَيْهِ .

وَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْكُنَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَخْلُوقَاتِ لَكِي تُعَوِّضَهُ عَنْ حَالَةِ الْيَتَمِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَحَاطَهُ بِالرِّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ أَوْ الْخَلَلِ الْمَشَاعِرِيِّ اللَّذِينَ يَظْهَرَانِ فِي شَخْصِيَّاتِ الْإِيْتَامِ _ غَالِبًا _ .

وَقَدْ صَارَ الْيَتَمُ فُرْصَةً ذَهَبِيَّةً لَانْقِطَاعِ عِلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّاسِ بِغَضِ النَّظَرِ عَنْ دَرَجَةِ الْقَرَابَةِ _ ، وَاتِّصَالِهِ بِالْوَثِيقِ بِخَالِقِ النَّاسِ . وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْبَنَائِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ الْمَتَمَسِّكَةُ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا أَبْعَادُ الشَّخْصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَذَتْ إِلَى تَنْشِئَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَفَقَّ الْأَخْلَاقَ الْفَاضِلَةَ، وَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ بِرُوحِ مُتَوَهَّجَةٍ، وَمُوَاجَهَةِ الْأَزْمَاتِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ . وَبِدُونِ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَفْقَدُ الثَّبُوءُ مَعْنَاهَا وَشَرْعِيَّتَهَا .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٩ / ١٥٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : جَعَلَ لَكَ مَأْوَى إِذْ ضَمَمَكَ إِلَى عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ ، فَكَفَاكَ الْمُؤُونَةَ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي جَعَلَ لَكَ مَأْوَى لِنَفْسِكَ ، أَغْنَاكَ عَنْ كِفَالَةِ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ)) اهـ .

المطلب إلى أن تُؤَيِّجَ وَهُوَ مِنَ الْعُمُرِ ثَمَانِ سِنِينَ . فَكَفَّلَهُ عُمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَيُوقِّرُهُ وَيَكْفُفُ عَنْهُ أَذَى قَوْمِهِ بَعْدَ أَنْ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمُرِهِ . هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ . وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحُسْنِ تَدْبِيرِهِ إِلَى أَنْ تُؤَيِّجَ أَبُو طَالِبٍ قَبْلَ الْمَجْرَةِ بِقَلِيلٍ ، فَأَقْدَمَ عَلَيْهِ سُفْهَاءُ قُرَيْشٍ وَجُهَّالُهُمْ ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لَهُ الْمَجْرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ إِلَى بَلَدِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزِرَجِ ، كَمَا أَجْرَى اللَّهُ سُنَّتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَحَاطُوهُ ، وَقَاتَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ . وَكُلُّ هَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لَهُ وَكِلَائَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضُّحَى : ٧] .

وَجَدَكَ اللهُ يا محمد غافلاً عن أمر النُّبُوَّة ، ولا تَعْرِفُ أحكامَ الإسلام وتعاليمَ الشريعة ، ولا تَدْرِي ما هُوَ القرآن ، فَهَدَاكَ وَعَلَّمَكَ الْوَحْيَ ، وَمَنْ عَلَيْكَ بِنِعْمَةِ النُّبُوَّة ، وَكَفَّلَكَ بِحَمْلِهَا ، وَشَرَّفَكَ بِتَبْلِغِ رسالة الله إلى الإنس والجن . فَصِرْتَ المتحدث باسمِ الله ، تُبَلِّغُ كَلَامَهُ وَأحكامَهُ إلى الخلق .

وليس معنى : ﴿ ضَالًّا ﴾ كافرًا أو فاسقًا ، لأنَّ الأنبياءَ مَعْصُومُونَ ، اعتنى اللهُ بِهِمْ مُنْذُ ولادَتِهِمْ ، وَرَعَاهُمْ ، وجعلهم أفضلَ الناسِ قبل البِعثَةِ وَبَعْدَهَا . والأنبياءُ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ ما يَقْدَحُ فِي النُّبُوَّة مُنْذُ ولادَتِهِمْ حتَّى مَوْتِهِمْ . فلا يُوجَدُ نبيٌّ كانَ فاسقًا أو مُنْحَرِفًا أخلاقِيًّا قبل البِعثَةِ ، ثُمَّ صارَ نبيًّا يُرْشِدُ الناسَ بعد البِعثَةِ ، لأنَّ هذا الأمرَ يَطْعَنُ فِيهِ ، ويُغْلِي معنى النُّبُوَّة ، ويُشَكِّكُ الناسَ في أمرِهِ . لذلك كان الأنبياءُ جميعًا أصحابَ أخلاقٍ رفيعة ، ومكانة اجتماعية مرموقة ، وَيَنْتَمُونَ إلى العائلات الكريمة . ولا فَرْقَ في هذه الصفات قبل البِعثَةِ وَبَعْدَ البِعثَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٥٨ و ١٥٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾

فيه ستة أقوال : أحدها ضالًّا عن معالم النُّبُوَّة وأحكام الشريعة فهذاكِ إليها ، قاله الجمهور منهم الحسن والضَّحَّاك . والثاني أنه ضلَّ وهو صبيٌّ صغير في شعاب مكة ، فَرَدَّهُ اللهُ إلى جَدِّهِ عبد المطلب رواه أبو الضَّحَى عن ابن عباس . والثالث أنه لَمَّا خَرَجَ مَعَ مَيْسَرَةَ غُلام خديجة أخذ إبليسُ بِرِمام ناقته فَعَدَلَ به عن الطريق ، فجاء جبريلُ فنَفَخَ إبليسُ نَفْخَةً وَقَعَ مِنْهَا إلى الحبشة ، وَرَدَّهُ إلى القافلة فَمَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بذلك ، قاله سعيد بن المسيَّب . والرابع أنَّ المعنى : وَوَجَدَكَ فِي قَوْمٍ ضَلالٍ ، فهذاكِ للتوحيد والنُّبُوَّة ، قاله ابن السائب . والخامس وَوَجَدَكَ نَسِيًّا فهذاكِ إلى الذِّكْرِ ، قاله ثعلب . والسادس وَوَجَدَكَ خاملاً لا تُذَكِّرُ ولا تُعَرِّفُ ، فهدى الناسَ إِلَيْكَ حتَّى عَرَفُوكَ ، قاله عبد العزيز بن يحيى ومحمد بن علي الترمذي)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ [الضُّحَى : ٨] .

وَوَجَدَكَ فَقِيرًا مُحتاجًا ذا عِيالٍ ، لا مالَ لَكَ ، فأغناكَ بِأرباحِ التجارة ، وَرَزَقَكَ القناعة التي هي الغنى الحقيقيُّ . وقد أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ بأنَّ جَمَعَ بين مَنْزِلَتَيِ الفقيرِ الصابرِ والغنيِّ الشاكرِ . وهذه الآيةُ تَدْمُ الْفَقْرَ . وَلَوْ كَانَ الْفَقْرُ خَيْرًا لَمَّا أَغْنَى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، بَلْ تَرَكَهُ فَقِيرًا . إِنَّ الْغِنَى هُوَ الْفَضِيلَةُ ، وَالْفَقْرُ مَذْمُومٌ ، وليس الفقراء .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٥٩ و ١٦٠) : ((قال ابن قتيبة : العائل الفقير ، كان له عيال ، أو لم يكن . يُقال : عَالَ الرَّجُلُ ، إذا افتقر . وأَعَالَ إذا كَثُرَ عِيَالُهُ . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَأَغْنِي ﴾ فِيهِ قَوْلَان : أَحَدُهُمَا رَضَّاكَ بِمَا أَعْطَاكَ مِنَ الرِّزْقِ ، قاله ابن السائب ، واختاره الفراء ، وقال : لم يكن غناه عن كثرة المال ، ولكنَّ الله رَضَّاهُ بِمَا آتَاهُ . والثاني : فَأَغْنَاكَ بِمَالٍ خَدِيجَةٍ عَنْ أَبِي طَالِبٍ ، قاله جماعة من المفسرين)) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (٤ / ٦٧٤) : ((قال قتادة في قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) . قال : كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله - عَزَّ وَجَلَّ - . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم)) اهـ .

والغنى الحقيقي هو القناعة والرِّضا بِرِزْقِ اللَّهِ دُونَ كَسَلٍ وَلَا تَوَاكُلٍ ، وَأَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا فِي الْيَدِ ، وليس في القلب . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ)) (40).

يُوضِّحُ النَّبِيُّ ﷺ التَّعْرِيفَ الْحَقِيقِيَّ لِلْغِنَى . فليس الغنى كثرة الأموال والمتاع والحرص عليها ، والتمسُّكُ بِهَا بِالْأَظْفَارِ وَالْأَسْنَانِ . وَلَكِنَّ الْغِنَى هُوَ الْقَنَاعَةُ وَغُلُوُّ الْهِمَّةِ وَالْأَخْلَاقُ الْحَمِيدَةُ وَالنَّفْسُ الشَّرِيفَةُ الَّتِي تَرْضَى بِرِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَسْخَطُ . وَالْحَرِيصُ دَائِمًا فَقِيرٌ ، حَتَّى لَوْ اِمْتَلَكَ جَبَالًا مِنْ ذَهَبٍ ، لِأَنَّهُ يَلْهَثُ وَرَاءَ الزِّيَادَةِ وَلَا يَقْنَعُ . فَمِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ ، صَارَ كَالْفَقِيرِ اللَّاهِثِ وَرَاءَ أَيِّ مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ . لِذَلِكَ فَالْغِنَى الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْمُسْتَغْنَى (41).

وُسَمِّيَ الْمَالُ وَالْمَتَاعُ عَرَضًا ، لِأَنَّهُ يَأْتِي وَيَذْهَبُ ، وَلَا يَدُومُ . فَالدُّنْيَا دَوَّارَةٌ ، وَكَمٍ مِنْ غِنًى افْتَقَرَ ، وَكَمٍ مِنْ فَقِيرٍ اغْتَنَى . وَالدَّهْرُ يَوْمَان : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٤٠) : ((ومعنى الحديث : الْغِنَى الْمَحْمُودُ غِنَى النَّفْسِ ، وَشَبَعُهَا ، وَقِلَّةُ حِرْصِهَا ، لَا كَثْرَةُ الْمَالِ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى الزِّيَادَةِ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ غِنَى)) اهـ .

(٤٠) متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٣٦٨) برقم (٦٠٨١) ، ومسلم (٢ / ٧٢٦) برقم (١٠٥١) .

(٤١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠ / ١٣٨) في سيرة إبراهيم بن أدهم : ((قال له رجل : هذه جُبَّةٌ (تُوب) أُحِبُّ أَنْ تَقْبِلَهَا مِنِّي ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتُ غَنِيًّا قَبِلْتُهَا ، وَإِنْ كُنْتُ فَقِيرًا لَمْ أَقْبِلْهَا . قَالَ : أَنَا غَنِيٌّ . قَالَ : كَمْ عِنْدَكَ ؟ قَالَ : أَلْفَان . قَالَ : تَوَدُّ أَنْ تَكُونَ أَرْبَعَةَ أَلْفٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَأَنْتَ فَقِيرٌ لَا أَقْبِلُهَا مِنْكَ)) .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٧٣٠) : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : ((قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه)) .

لقد بين النبي ﷺ أركان الفلاح والفوز والنجاة في الدارين : الإسلام ، والرزق الكفاف ، وهو الذي يكون على قدر الحاجة بلا زيادة ولا نقصان (أن يكون عندك ما تكف به الوجهة عن الناس) ، والقناعة بما قسمه الله ، والرضا برزقه . فالرزق مقسوم ، ولن يأخذ الإنسان إلا ما كتب له ، مهما كان ذكياً أو نسياً . وهذا لا يتعارض مع ضرورة السعي والاجتهاد والمثابرة وتحسين الوضع وتطوير المستوى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٤٥) : ((الكفاف الكفاية بلا زيادة ولا نقص . وفيه فضيلة هذه الأوصاف . وقد يحتاج به لمذهب من يقول : الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى)) اهـ . وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٥٠٨) : ((وصاحب هذه الحالة معدود من الفقراء ، لأنه لا يتعرفه في طبقات الدنيا ، بل يجاهد نفسه في الصبر على القدر الزائد على الكفاف ، فلم يفتنه من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الرجال ، ودل المسألة)) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال : ((سألت الله مسألة ودئت أني لم أكن سأله . ذكرت رسل ربي ، فقلت : يا رب ، سخرت لسليمان الريح ، وكلمت موسى ، فقال - تبارك وتعالى - : ألم أجذك يتيماً فأوتيتك ، وضالاً فهديتك ، وعائلاً فأغنيتك ؟)) ، قال : ((فقلت : نعم . فوددت أن لم أسأله)) .

لقد عدد الله نعمه على النبي ﷺ ، وهي نعم كثيرة ، لا تعد ولا تحصى ، منها : إيوأه بعد يئمه ، وهدايته بعد ضلاله ، وإغناؤه بعد فقره . وبعد ذكر هذه النعم الثلاث ، وصي الله محمداً ﷺ بثلاث وصايا مقابله .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩] .

فأما اليتيم يا محمد فلا تظلمه ، ولا تحتقره ، ولا تستغل ضعفه فتأكل ماله وحقوقه . فقد كنت يتيماً فأواك الله تعالى . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((أي : كما كنت يتيماً فأواك الله ، فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذلّه وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه وتلطّف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم)) اهـ . وذكر اليتيم تحديداً ، لأنه إنسان ضعيف ، لا حول له ولا قوة ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا يقدر أن يحافظ على حقوقه . والآية تشير إلى ضرورة العناية

باليتيم ومُساعدته والإحسان إليه . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠ / ٩٠) : ((وَخُصَّ الْيَتِيمُ ، لَأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَغُلِّظَ فِي أَمْرِهِ بِتَغْلِيظِ الْعُقُوبَةِ عَلَى ظَالِمِهِ)) اهـ .
وقد كانت العربُ تستغل الأيتامَ أسوأ استغلال ، وتأكل أموالهم ، وتظلمهم ، وتحتقرهم ، وتُهْمِشهم ، وتعتبرهم فئةً منبوذةً ضعيفة لا وِزْنَ لها في المجتمع ، ولا أهمية لها في الحياة .
خصوصًا في ظل الصراع بين القبائل على المجد والثروة والسيادة ، والتنافس في عالم الحسب والنسب . أما النبي ﷺ فكانَ رحيماً بالأيتام ، يُشْفِقُ عَلَيْهِمْ ، ويُسَاعِدُهُمْ ، وَيُحَسِّنُ إِلَيْهِمْ ، وَيُوصِي بِهِمْ خَيْرًا .

وعن أبي هريرة أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ ، فَقَالَ : ((امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ ، وَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ)) (42) .

لقد قدّم النبي ﷺ حلاً عملياً لتطهير القلب من القسوة ، وتصفية المشاعر من الجمود . وهذا الحل يقوم على ركنين: الأول _ مسح رأس اليتيم ، وذلك بإمرار اليد على شعره ، تطيباً لخاطره ، ومُراعاةً لمشاعره ، وجُبراً لأحاسيسه ، وعطفاً عليه ، ورأفةً به . والثاني _ إطعام المسكين ، والمقصود هنا الفقير المحتاج الذي لا يجد قُوتَ يَوْمِهِ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٨) : ((" امسح رأس اليتيم " ، أي : مِنْ خَلْفٍ إِلَى قُدَامٍ عَكْسَ غَيْرِ الْيَتِيمِ ، أي : افعل به ذلك إيناساً وتلطفاً به ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلْكِنُ الْقَلْبَ ، وَيَرْضِي الرَّبَّ)) .
وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا)) . وقال بإصبعيه السَّابِغَةِ وَالْوُسْطَى (43) .

هذا الحديث يُشير إلى مكانة كافل اليتيم في الجنة ، فهو قريبٌ مِنْ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَدَرَجَتِهِ رَفِيعَةٌ ، بينها وبين درجة النبي ﷺ كِنْسَبَةُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ السَّابِغَةِ وَالْوُسْطَى .
وكافل اليتيم هو الشَّخْصُ الْقَائِمُ عَلَى أُمُورِ الْيَتِيمِ ، وَيُوفِّرُ لَهُ النِّفْقَةَ وَالسَّكْنَ وَالْمَلْبَسَ ، وَيُرْعَى مَصَالِحُهُ ، وَيُرَبِّيهِ ، وَيُعَلِّمُهُ ، وَيُرْشِدُهُ . وهذه الفضيلةُ تَحَقِّقُ لِمَنْ كَفَلَ الْيَتِيمَ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ ، أَوْ كَفَلَهُ بِوَلَايَةِ شَرْعِيَّةٍ . وَقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا لَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ أَجْنَبِيًّا .

(٤٢) رواه أحمد في مسنده (٢ / ٣٨٧) برقم (٩٠٠٦) . وحسنه الحافظ في الفتح (١١ / ١٥١) .
وقال الهيثمي في الجمع (٨ / ٢٩٣) : ((رجاله رجال الصحيح)) .
(٤٣) متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٢٣٧) برقم (٥٦٥٩) ، ومسلم (٤ / ٢٢٨٧) برقم (٢٩٨٣) .

وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٤٣٧) : ((قال شيخنا (العراقي) في شرح الترمذي : لعلَّ الحكمة في كَوْن كافل اليتيم يُشْبِه في دخول الجنة ، أو شُبِّهَتْ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّبِيِّ ، أو مَنْزِلَةُ النَّبِيِّ ، لِكَوْنِ النَّبِيِّ شَأْنُهُ أَنْ يُبْعَثَ إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْقِلُونَ أَمْرَ دِينِهِمْ ، فيكون كافلاً لهم ، ومُعَلِّماً ، ومُرْشِداً ، وكذلك كافل اليتيم ، يقوم بِكَفَالَةِ مَنْ لَا يَعْقِلُ أَمْرَ دِينِهِ ، بل ولا دُنْيَاهُ ، ويُرْشِدُهُ ، ويُعَلِّمُهُ ، ويُحْسِنُ أَدَبَهُ ، فَظَهَرَتْ مُنَاسِبَةُ ذَلِكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضُّحَى : ١٠] .

وأما السائل ، فلا تَرْجُزْهُ ، ولا تُغْلِظْ لَهُ الْقَوْلَ ، بل عَامِلْهُ بِرِفْقٍ وَلِينٍ ، وساعده معنوياً ومادياً ، واقض حاجته ، أو رُدِّهِ بِأَسْلُوبٍ طَيِّبٍ لَا حُشُونَةَ فِيهِ . وقد كُنْتُ فَقِيْرًا محتاجاً يا محمد فأغناكَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَتَذَكَّرَ دَائِمًا الْفُقَرَاءَ وَالْمُحْتَاجِينَ . والمعنى العام : إمَّا أَنْ تُعْطِيَ السَّائِلَ الَّذِي يَطْلُبُ الصَّدَقَةَ ، وإمَّا أَنْ تَرُدَّهُ رَدًّا لَيِّنًا . وقيل : المراد بالسائل طالب الْعِلْمِ الَّذِي يَسْأَلُ عَنْ أُمُورِ الدِّينِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْلَمَ ، فلا تَرْجُزْهُ ، ولا تُؤَيِّزْهُ ، وأَجِبْهُ بِهَدْوٍ وَرَحْمَةٍ . وهذا يدل على ضرورة نشر الْعِلْمِ ، وعدم كتمانهِ ، ومُعَامَلَةِ طُلَّابِ الْعِلْمِ بِهَدْوٍ وَرِفْقٍ وَلِينٍ ، وعدم زَجْرِهِمْ وَلَا تَوْبِيخِهِمْ .

وتقدير الكلام : مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، وَمَهْمَا حَدَثَ ، فلا تَقْهَرِ الْيَتِيمَ ، ولا تَنْهَرْ السَّائِلَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أي : وَكَمَا كُنْتُ صَالاً فَهَذَاكَ اللهُ ، فلا تَنْهَرْ السَّائِلَ فِي الْعِلْمِ الْمُسْتَرْشِدِ . قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾

أي : فلا تَكُنْ جَبَّارًا وَلَا مُتَكَبِّرًا وَلَا فَحَّاشًا وَلَا فَظًّا عَلَى الضَّعَفَاءِ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ . وقال قتادة : يعني رُدَّ الْمَسْكِينِ بِرَحْمَةٍ وَلِينٍ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضُّحَى : ١١] .

حَدَّثَ النَّاسَ يَا مُحَمَّدُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْكَ . وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . وأعظمُها نِعْمَةُ الْقُرْآنِ . والتحديثُ بِالنَّعْمِ هُوَ شُكْرُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، كما أَنَّ الاعترافَ بِهَا شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى . وَكِتْمَانُ النِّعْمَةِ هُوَ جُحُودٌ لَهَا ، وعدم اعتراف بفضل الله الْمُنْعَمِ .

انشر يا محمد بين الناس ما أنعم الله به عَلَيْكَ ، وذلك بالشُّكْرِ والثناء ، وإظهار آثار النِّعْمَةِ وَأَحْكَامِهَا . وقد أنعم الله على محمد ﷺ بِالنُّبُوَّةِ ، والتحديثُ بهذه النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ يَكُونُ بِتَبْلِيغِهَا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٦٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

في النعمة ثلاثة أقوال : أحدهما : التُّبُّوة . والثاني : القرآن . رُويَا عن مجاهد . والثالث أنها عامّة في جميع الخيرات ، وهذا قول مقاتل)) اهـ . وقال عياض في الشُّفا (١ / ٣٣) : ((أمره بإظهار نعمته عليه ، وشكر ما شرفه بنشره ، وإشادة ذكره بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ الْحَدِيثِ بِهَا ، وهذا خاصٌّ له ، عامٌّ لأُمَّته)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((وقال مجاهد : يعني التُّبُّوة التي أعطاك ربُّك . وفي رواية عنه : القرآن . وقال ليث عن رجل عن الحسن بن عليٍّ : _ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

قال : مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ فَحَدِّثْ إِخْوَانَكَ . وقال محمد بن إسحاق : ما جاءكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ مِنَ التُّبُّوة ، فَحَدِّثْ بِهَا ، واذْكُرْهَا ، واذْعُ إِلَيْهَا)) اهـ .

والشُّكْرُ يدل على معرفة قيمة النعمة ، وهذا هو الطريق لمعرفة عَظَمَةِ اللَّهِ الْمُنْعِمِ ، لأنَّ النِّعْمَةَ تدل على المُنْعِمِ . والشُّكْرُ له ثلاثة أنواع : ١ _ شكر اللسان ، وذلك بالتحدث بالنعمة ونشرها ، والثناء على المُنْعِمِ . ٢ _ شكر الجوارح والأعضاء ، وذلك بأداء العبادات على أكمل وجه . ٣ _ شكر القلب ، وذلك بمعرفة أنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ المستحق للشُّكر والثناء الجميل .

وقال الألوسي في رُوح المعاني (٣٠ / ١٦٤) : ((وحاصل المعنى أَنَّكَ كُنْتَ يَتِيماً وضالاً وعائلاً ، فأواكَ وهداك وأغناكَ . فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ، فلا تَنْسَ نِعْمَةَ اللَّهِ تعالى عليك في هذه الثلاث ، واقتدِ بالله تعالى ، فَتَعَطَّفْ على اليتيم ، وَتَرَحَّمْ على السائل ، فقد دُفِتَ اليَتِيمُ والفَقْرُ)) . وقد وَرَدَتْ أهمية شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِهِ في الدُّعاء النبويِّ ، فقد قال النبي ﷺ : ((واجعلنا شاكِرِينَ لِنِعْمِكَ ، مُشِينِينَ بِهَا عَلَيْكَ ، قَابِلِينَ لَهَا ، وَأَتِمِّمِهَا عَلَيْنَا)) . [رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٣٩٧) برقم (٩٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي] .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُعْظِمُ اللَّهَ تعالى ، وَيُمجِّدُهُ ، وَيَشْكُرُهُ على إِنْعامِهِ وَفَضْلِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَيُثْنِي على اللَّهِ الشَّاءَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ ، وَيَقْبَلُ نِعَمَهُ ، وَيُقَدِّرُهَا ، وَلَا يَجْحَدُهَا ، وَيَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُتِمِّمَهَا عَلَيْهِ وعلى المسلمين . وبالشُّكْرِ تدوم النِّعَمُ ، وَجَحْدُ النِّعَمِ يُؤَدِّي إلى زوالها .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (٢ / ١١٨) : ((سَأَلَ التَّوْفِيقَ لِدَوَامِ الشُّكْرِ ، لِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعَمِ . فِيهِ تَدْوَمُ وَتَبْقَى ، وَبِتَرْكِهِ تَزُولُ وَتَحُولُ . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرُّعْد : ١١] . وقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] . فَالْحَقُّ تَقْدَسَ إِذَا رَأَى عَبْدَهُ قَامَ بِحَقِّ نِعْمَتِهِ بِالْإِدْوَامِ عَلَى شُكْرِهَا مَنْ بَأْخَرَى رَأَاهَا أَهْلًا ، وَإِلَّا قَطَعَ عَنْهُ ذَلِكَ)) .

وعن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ : ((مَنْ لَمْ يَشْكُرْ الْقَلِيلَ ، لَمْ يَشْكُرْ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ . وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ)) (44).

هذا الحديثُ سندُه ضعيفٌ ، لكنَّ معناه صحيحٌ ، ويشتمل على فوائد كثيرة :

١_ ضرورة الشُّكْرِ على الشَّيْءِ الصَّغِيرِ وعدم احتقاره ، لأنَّ الشُّكْرَ قضية مبدأ ، ولا تتعلق بحجم النِّعْمَةِ . وَمَنْ جَحَدَ النِّعْمَةَ الْقَلِيلَةَ ، فَسَوْفَ يَجْحَدُ النِّعْمَةَ الْكَبِيرَةَ . وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((فَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِنْسِمَةً)) .

٢_ مَنْ جَحَدَ إِحْسَانَ النَّاسِ ، وَلَمْ يَعْتَرَفْ بِفَضْلِهِمْ وَإِنْعَامِهِمْ ، فَسَوْفَ يَجْحَدُ نِعَمَ اللَّهِ ، وَلَنْ يَعْتَرَفَ بِفَضْلِ خَالِقِهِ ، وَلَنْ يَشْكُرَهُ . فَمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ الْجُحُودُ ، فَسَيُظَلُّ جَاحِدًا سَوَاءً فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ أَمْ تَعَامُلِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى . وهذا يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ شُكْرِ النَّاسِ ، وَالاعْتِرَافِ بِمَعْرُوفِهِمْ وَفَضْلِهِمْ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((أَيُّ : مَنْ كَانَ طَبْعُهُ وَعَادَتُهُ كُفْرَانِ نِعْمَةِ النَّاسِ ، وَتَرْكِ الشُّكْرِ لِمَعْرُوفِهِمْ ، كَانَ عَادَتُهُ كُفْرَانِ نِعَمِ اللَّهِ ، وَتَرْكِ الشُّكْرِ لَهُ . أَوِ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ شُكْرَ الْعَبْدِ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ ، إِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَشْكُرُ إِحْسَانَ النَّاسِ وَيُنْكِرُ مَعْرُوفَهُمْ ، لَا تَتَّصِلُ

أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ بِالْآخَرِ)) .

وعن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ)) . [رواه الترمذي فِي سُنَنِهِ (٤ / ٣٣٩) ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ] .

وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ ، فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ، فَلْيُثْنِ بِهِ ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ)) (45).

إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ شَخْصٌ ، وَأَسَدَى إِلَيْكَ مَعْرُوفًا ، وَكَانَ مَعَكَ مَالٌ ، فَادْفَعْ لَهُ مَالًا مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَحُسْنِ صَنْيعِهِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَكَ مَالٌ ، فَامْدَحْهُ ، وَاشْكُرْهُ ، وَقُلْ لَهُ كَلَامًا

(٤٤) رواه أحمد فِي مَسْنَدِهِ (٤ / ٢٧٨) . وقال الهيثمي فِي الْمَجْمَعِ (٥ / ٣٩٢) : ((رواه عبد الله بن أحمد

والبزار والطبراني ، وَرَجَّاهُمَا ثِقَاتٌ)) . اهـ . وقال ابن كثير فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٦٧٤) : ((إسناده ضعيف)) .

(٤٥) رواه أبو داود فِي سُنَنِهِ (٢ / ٦٧١) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٤ / ٣٧٩) ، وَقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

طَيِّبًا . فَمَنْ أَتَى فَقَدْ شَكَرَ النِّعْمَةَ وَصَاحِبَهَا ، وَمَنْ سَكَتَ فَقَدْ جَحَدَ النِّعْمَةَ ، وَاحْتَقَرَ صَاحِبَهَا ، وَلَمْ يَعْتَرَفْ بِوُجُودِهِ وَلَا فَضْلِهِ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٧٥) : ((وفيه معنى قَوْلُهُ : " الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ ، مَا شَكَرَ اللَّهُ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ " . وَالْفَاءُ فِي (وَجَدَ) عَاطِفَةٌ عَلَى الشَّرْطِ ، وَفِي (فَلْيَجْزِ بِهِ) جَوَابِيَّةٌ . وَفَائِدَةُ التَّعْيِيرِ بِحَرْفِ التَّرْتِيبِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَنْ أُعْطِيَ لَا يُؤَخَّرُ الْجَزَاءُ عَنِ الْإِعْطَاءِ أَيْمًا وَجَدَ الْيَسَارَ)) .

٣_ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِإِشَاعَتِهَا وَنَشْرِهَا بَيْنَ النَّاسِ ، مَعَ تَعْظِيمِ اللَّهِ الْمُنْعَمِ وَالنَّشَاءِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ . وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُوَ اعْتِرَافٌ بِهَا ، وَتَقْدِيرٌ لَهَا ، وَتَعْظِيمٌ لِلْمُنْعَمِ ، لِذَلِكَ كَانَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرًا لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَالشُّكْرُ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ ، مَكَانُهَا الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ وَالْأَعْضَاءُ .

٤_ تَرْكُ النِّعْمَةِ يَكُونُ بِإِخْفَائِهَا وَجَحْدِهَا وَعَدَمِ الاعْتِرَافِ بِوُجُودِهَا . وَهَذَا يَعْنِي رَفْضَ نِعْمَةِ اللَّهِ ، وَعَدَمِ الاعْتِرَافِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِنْعَامِهِ . وَهَذَا هُوَ سَبَبُ زَوَالِ النِّعَمِ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((" وَتَرْكُهَا كُفْرٌ " أَيْ سَتْرٌ وَتَغْطِيَةٌ لِمَا حَقُّهُ الْإِظْهَارُ وَالْإِدَاعَةُ . قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : ذِكْرُ النِّعَمِ يُورِثُ الْحَبَّ فِي اللَّهِ ، ثُمَّ هَذَا الْخَبَرُ مَوْضِعُهُ مَا لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَى التَّحَدُّثِ بِهَا ضَرَرٌ كَحَسَدٍ ، وَإِلَّا فَالْكَتْمَانُ أَوْلَى ، كَمَا يُفِيدُهُ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ : وَإِنَّمَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا إِذَا قَصِدَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ ، وَأَمِنْ عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةُ ، وَإِلَّا فَالَسَّتْرُ أَفْضَلُ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا التَّشْبِيهُ بِأَهْلِ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ لَكَفَى)) .

٥_ اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ رَحْمَةً لِلْجَمِيعِ ، وَسَعَادَةٌ ، وَهَنَاءٌ ، وَتَقَدُّمٌ سِيَاسِيٌّ ، وَازْدِهَارٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَرَخَاءٌ اقْتِصَادِيٌّ . حَيْثُ يَتَعَاوَنُ الْمُسْلِمُونَ مَعًا ، وَيَبْنُونَ مَجْتَمَعَاتِهِمْ ، وَيَقْوِدُونَ مَسِيرَةَ التَّنْمِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَا الشُّعَارَاتِيَّةِ ، وَيُطَوِّرُونَ بِلَادَهُمْ ، وَيُحَسِّنُونَ أَوْضَاعَ النَّاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ . لِذَلِكَ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ بَرَكَةً وَرَحْمَةً . أَمَّا الْفُرْقَةُ وَالتَّنَاحُرُ وَاخْتِلَافُ الْكَلِمَةِ فَتُؤَدِّي إِلَى التَّرَاغُتِ الْمُسْلَحَةِ ، وَالْإِهْيَارِ الْقِصَادِيِّ ، وَالتَّفَكُّكِ الْجَمَاعِيِّ ، وَانْتِشَارِ الْقَتْلِ وَالْجَرِيمَةِ وَالْفَسَادِ وَالْخَرَابِ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((أَيْ : اجْتِمَاعُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْتِظَامُ شَمْلِهِمْ زِيَادَةً خَيْرٍ وَأَجْرٍ . وَتَفَرُّقُهُمْ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَذَابٍ فِي الدُّنْيَا ، وَأَمْرٌ الْآخِرَةُ إِلَى اللَّهِ)) اهـ .

إِنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ يُؤَدِّي إِلَى الاحتفاظ بها وزيادتها ، وَجَحْدُهَا يُؤَدِّي إِلَى زَوَالِهَا ، أَوْ تَحْوُلِهَا إِلَى نِقْمَةٍ . ودائماً ، الأحمق يُحوِّل النِّعْمَةَ إِلَى نِقْمَةٍ بِسُوءِ تصرُّفه ، وَيَصِيرُ الإِحْسَانُ وَالتَّعِيمُ هَالِكًا وَتَعَاسَةً ، لِأَنَّ الْجَاهِلَ عَدُوُّ نَفْسِهِ ، يُدَمِّرُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَقْوِدُهَا إِلَى الْهَاطِيَةِ السَّحِيقَةِ .

وَيَنْبَغِي أَنْ تَظْهَرَ آثَارُ النِّعَمِ الإِلَهِيَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَإِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا ، ارْتَدَى ثِيَابًا جَمِيلَةً ، وَأَكَلَ طَعَامًا شَهِيًّا ، وَسَكَنَ فِي بَيْتٍ وَاسِعٍ وَمُرِيحٍ ، وَأَنْفَقَ وَتَصَدَّقَ . وَإِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا نَشَرَ عِلْمَهُ بَيْنَ النَّاسِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ . وَاللَّهُ أَعْطَى الْعَبْدَ النِّعْمَةَ كَيْ تَتَغَيَّرَ حَيَاتُهُ إِلَى الْأَفْضَلِ ، وَيَظْهَرَ آثَارُهَا عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ كَيْ يَكْتُمَهَا وَيَجْحَدَهَا ، وَيَظْهَرَ كَمْظَهَرُ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ . وَإِظْهَارُ آثَارِ النِّعْمَةِ شُكْرُ اللَّهِ عَلَيْهَا . وَلَنْ تُكُنْ نِيَّتُهُ امْتِثَالُ أَمْرِ اللَّهِ وَتَعْظِيمُهُ وَتَقْدِيرُ نِعْمَتِهِ ، وَلَيْسَ الرِّيَاءُ أَوْ السُّمْعَةُ أَوْ الْمُبَاهَاةُ .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((كُلُوا ، وَاشْرَبُوا ، وَتَصَدَّقُوا ، فِي غَيْرِ سَرْفٍ (تبذير) وَلَا مَخِيلَةٍ (كِبَر) ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ)) (46).

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((" فائدة " أخرج فِي الْحِلْيَةِ عَنْ وَهْبٍ أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ عَنْ سَبَبِ سَلْبِ بُلْعَامَ بَعْدَ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالْكَرَامَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : إِنَّهُ لَمْ يَشْكُرْنِي يَوْمًا عَلَى مَا أُعْطِيْتُهُ ، وَلَوْ شُكِرْنِي عَلَى ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَمَا سَلَبْتُهُ نِعْمَتِي)) اهـ .

و " بُلْعَامُ بْنُ بَاعُورَاءَ " عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا بَعْضُ كُتُبِ اللَّهِ ، لَكِنَّهُ كَفَرَ بِهَا ، وَانْحَرَفَ عَنْ مَنِهْجِ الْحَقِّ ، فَسَلَبَ اللَّهُ مِنْهُ الْكَرَامَاتِ ، وَطَرَدَهُ ، وَذَمَّهُ .
وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : فِي قَوْلِهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ، قَالَ : ((هُوَ بُلْعَامُ بْنُ بَاعُورَاءَ)) (47).

(٤٦) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ١٥٠) برقم (٧١٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٥٥) برقم (٣٢٥٨) ، وصحَّحه الذهبي .

الفصل العاشر

عِصْمَتُهُ وَحِمَايَتُهُ

تمهيد

إنَّ الله تعالى لا يتخلى عن مبعوثيه ، بل يُحيطهم برعايته ، ويدخلهم في كنف حمايته ، ويتولى أمورهم في السَّراء والضَّراء ، والسَّـر والعلانية . والله لا يُرسل الأنبياءَ ثُمَّ يَنسَاهم ، أو يتركهم يضيعون في أوساط الحاقدين . حاشى وكلاً ، بل هُوَ الإله الذي يُدافع عن أوليائه وأحبابه .

لقد دافع الله عن محمد ﷺ ، ودَحَضَ شُبُهَاتِ الكافرين ، وردَّهم خائبين ، لذلك لم يستطيعوا أن ينالوا منه ﷺ ، وكانت كلمته الله هي العليا ، وانتصرَ عليهم النبي ﷺ ، وظَّهر أمره ، وبانت حُجَّجُه . والله حليمٌ صبور ، لا تستفزُّه معاصي الكافرين ، ولا حُشود الأعداء ، فهو سُبْحَانَهُ يُعْطِي الإنسانَ الفرصةَ تَلَوُّ الفرصة ، كي يُعيد حساباته ، ويُصحَّح مساره . والله يُمهِّل ، ولا يُهمِّل .

والنبي ﷺ لا يتحرَّك اعتماداً على قُدراته الشخصية ، ومواهبه الذاتية ، وحُرَّاسه الشخصيين ، وإنما يتحرَّك في ضَوْءِ الوحي ، وهو في حِمَاية الله وحفظه . لذلك كانت الشخصية النبوية ثابتة في أحلك الظروف ، وأصعبِ المواقف . وهذا الأمرُ بالغ الأهمية ، فَلَوْ كَانَ النبي شخصاً مهزوزاً ، لهربَ الناسُ منه ، وعَجَزَ عن هدايتهم إلى الإيمان ، وسَقَطَ أمام بَطْشِ الأعداء ونُفوذهم ، لأنَّ الشخص المهزوز فاقد الثَّقة بنفسه ، فكيفَ يَمْنَحُ الثَّقة للآخرين ؟! . إنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ .

وقد حاولَ أعداءُ الدَّعوة الإسلامية عبر كُلِّ مراحلها قَتْلَ النبي ﷺ ، أو إيذاءه ، أو إيقافه ، أو التَّشكيك فيه ، وذلك من أجل وأد الدَّعوة . وكانوا يُنْفِقُونَ الغالي والنفيسَ لحجب نُور الإسلام عن الناس ، ولكنَّ الشمس لا تُغَطَّى بِغُرْبَالٍ . والله تعالى قد عَصَمَ محمداً مِنَ الأخطار ، وحَفِظَه مِنَ الشُّرور ، كي يُرَكِّزَ في نشر الدَّعوة الإسلامية، وتبليغ الوحي الإلهي ، ولا يَقْلَقَ بشأن سلامته الشخصية . وكأنَّ الله تعالى يقول للنبي ﷺ: لا تَقْلَقْ يا محمد على أَمْنِكَ الشخصيِّ، ولا تَخَفْ مِنْ أعداء الدِّين ، فأنا كافيك وناصرُك ومؤيِّدُك، فَرَكِّزْ في نشر الدَّعوة ، وبلِّغ الوحيَ الإلهيَّ .

ولا شَكَّ أن القلق والخوف إذا سيطرا على الإنسان ، فإنهما يَمْنَعَانِهِ مِنَ التفكير بشكل سليم ، وهذا يُؤثِّرُ سلباً على النظام الحياتي والمنظومة الفكرية . لذلك أراحَ الله محمداً ﷺ مِنْ عِبء التفكير بسلامته والمحافظة على حياته ، وكُلُّ ذلك من أجل التركيز في أداء رسالة السماء على أكْمَلِ وَجْهٍ .

لقد تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بحفظ محمد ﷺ وحمايته مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وهذا ثَبَّتَ قَلْبَهُ، وزادَهُ ثَقَّةً بِاللَّهِ تعالى .

والقلب النبوي المليء بالإيمان والثقة، لا يلين أمام العواصف، ولا ينكسر أمام التحديات الجسيمة، لأنه قلبٌ مُعلّقٌ بالله، وقائمٌ على الشات واليقين . لا مكانَ فيه للوساوس والقلق والخوف .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٣٧].
وإن أعرض الأعداء عن الإيمان ، ورفضوا الحق بعد وضوح الدليل أمامهم ، وقيام الحجّة عليهم ، فإنما هم في فراق وخلاف وعداوة ، فسَيَكْفِيكَ اللَّهُ شَرَّهُمْ ، ويحميك من أذاهم . وهذا ضمان لنصر النبي ﷺ ، فلا معنى للقلق ولا الخوف ، لأن الله ناصرُ النبي ﷺ ومؤيِّدُه .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١١) : ((أي : إن أعرضوا عن الإيمان ، أو عمّا تقولون لهم ، فما هم إلا في شِقَاقِ الحق ، وهو المناوأة والمخالفة ، فإنَّ كُلَّ واحد من المتخالفين في شِقِّ غير شِقِّ الآخر . ﴾ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ تسليّة وتسكين للمؤمنين ، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على مَنْ ناوأهم)) .

وفي البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢ / ٤١٨) : ((قال سيبويه : _ في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ ، معنى السَّيْن : إنّ ذلك كائن لا محالة ، وإن تأخّر إلى حين)) اه .
لقد تكفّل الله بحفظ النبي ﷺ وعصمته من أذى الأعداء وشَرِّهم . وقد حقّق الله وعده ، وهذا ليس غريباً . فوعد الله واقع لا محالة ، ولا يتخلّف .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٣٤) : ((ثُمَّ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ ، فَكَفَاهُ أَمْرَ الْيَهُودِ بِالْقَتْلِ وَالسَّيِّ فِي قُرَيْظَةَ ، وَالْجَلَاءِ وَالنَّفْيِ فِي بَنِي النَّضِيرِ ، وَالْجَزِيَةِ وَالذَّلَّةِ فِي نَصَارَى نَجْرَانَ)) اه .
وقال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ [التوبة : ٧٤] ^(١) .

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٧٠) : ((سَبَبُ قَوْلِهِ : ﴿ وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنها نزلت في ابن أبي، حين قال: لئن رجعنا إلى المدينة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة. والثاني أنها نزلت فيهم حين هُمّوا بقتل رسول الله، رواه مجاهد عن ابن عباس. قال : والذي همّ رجل يُقال له الأسود، وقال مُقاتل: هم خمسة عشر رجلاً هُمّوا بقتله ليلة العقبة. والثالث أنه لَمَّا قال بعض المنافقين: إنّ كان ما يقول محمد حقّاً فنحن شرٌّ من الحمير، وقال له رجل من المؤمنين: لأنتم شرٌّ من الحمير، همّ المنافق بقتله ، فذلك قَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ أُولَاؤُا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ هذا قول مجاهد. والرابع أنهم قالوا في

لقد عصَمَ اللهَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَحَمَاهُ مِنَ الأخطار ، وَحَفِظَهُ مِنَ الشُّرُور . وقد حاولَ المنافقون قتلَ النَّبِيِّ ﷺ ، فهو قائدُ المسلمين ، ورأسُ الدَّولةِ الإسلامية ، ويَقْتُلُهُ سَتْنَتُهُ الدَّعوة الإسلامية ، وَيَنْهَارُ المسلمون ، وَتَتَفَكَّكُ الدَّولة الإسلامية . هكذا كان تفكيرُ المنافقين القاصرُ ، وقد رَدَّ اللهُ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ ، فعادوا بالخِزْي والعار ، ذُوبَ تحقيق أهدافهم الخبيثة . والمعنى العام للآية : هُمُومًا بما لَمْ يُذَكِّرُوهُ . والله قد أَبْطَلَ كَيْدَهُمْ ، وجعل تدميرهم وبالاً عَلَيْهِمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨٨ / ٨) : ((يعني المنافقين، مِنْ قَتَلَ النَّبِيَّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . وكانوا اثني عشر رجلاً)) .

وعن ابن عباس : فِي قَوْلِ اللهِ — عَزَّ وَجَلَّ — : ﴿ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ . قال : هَمَّ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْأَسْوَدُ بِقَتْلِ رَسُولِ اللهِ (٢) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الْحَجَر : ٩٥] .

إِنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَكَ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْكَ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِدَعْوَتِكَ ، فَلَا تَغِبْ بِهَمْ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَامْضِ فِي طَرِيقِ الدَّعوة الإسلامية ، وَبَلِّغِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَلَا تَخْشَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ ، فهو كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ . وَالآيَةُ تُثَبِّتُ قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ . والمعنى : ادْعُ إِلَى رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ ، وَبِكُلِّ ثِقَةٍ ، وَلَا تَخَفْ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ أَذَى الْكَافِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ .

وهؤلاء المستهزون كانوا خمسة من أشرف قُرَيش ، وزعماء أهل مكة ، وكانوا يَمْلِكُونَ المَالَ وَالسُّلْطَةَ وَالْقُوَّةَ . وقد قَتَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى ، وَأَهْلَكَهُمْ ، وَأَزَاحَهُمْ مِنْ طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ . وهؤلاء هُمُ : الوليد بن المغيرة . العاص بن وائل . الأسود بن المطَّلَب . الأسود بن عَبْدِ يَعْنُوث . الحارث بن قيس .

وقد سَلَطَ اللهُ عَلَيْهِمُ جِبْرِيلَ — عَلَيْهِ السَّلَام — حَتَّى قَتَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَفَى اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ شَرَّهُمْ ، وَأَرَاخَهُ مِنْ أَذَاهُمْ . وقد كانوا شديدي الأذى للنبي ﷺ ، وَيَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ

غزوة تبوك: إِذَا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ عَقَدْنَا عَلَى رَأْسِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي تَاجٍ نُبَاهِي بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَلَمْ يَنَالُوا مَا هُمُومًا بِهِ)) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٢ / ٢١١) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٠٧) : ((فيه عطاء ابن السائب ، وقد اختلط)) .

في التخطيط لمحاربة الإسلام، والاستهزاء بالنبي ﷺ، والسخرية منه . وقد تضايق النبي ﷺ منهم ، وعانى منهم أشد المعاناة . وقد أراحه الله منهم .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٠٦) : ((مَعَ كَوْنِهِمْ كَانُوا مِنْ أَكْبَرِ الْكَفَّارِ ، وَأَهْلِ الشُّوْكَةِ فِيهِمْ ، فَإِذَا كَفَاهُ اللَّهُ أَمْرَهُمْ بِقَمْعِهِمْ وَتَدْمِيرِهِمْ ، كَفَاهُ أَمْرَ مَنْ هُوَ ذُوْنَهُمْ بِالْأَوَّلَى)) اهـ.

وفي زاد المسير (٤ / ٤٢٢) : ((ذَكَرَ مَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَكَفَى رَسُولَهُ ﷺ أَمْرَهُمْ . قَالَ الْمَفْسَّرُونَ : أَتَى جَبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَالْمُسْتَهْزِئُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ ، فَمَرَّ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ ، فَقَالَ جَبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ ، كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ . قَالَ : قَدْ كُفِّيتَ . وَأَوْمَأَ إِلَى سَاقِ الْوَلِيدِ ، فَمَرَّ الْوَلِيدُ بِرَجُلٍ يَرِيشُ نَبْلًا لَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ شَظِيئَةٌ مِنْ نَبْلِ بَازَارِهِ ، فَمَنَعَهُ الْكِبَرُ أَنْ يُطَاطَى رَأْسَهُ لِيَنْزِعَهَا ، وَجَعَلَتْ تَضْرِبُ سَاقَهُ ، فَمَرَضَ وَمَاتَ . وَقِيلَ : تَعَلَّقَ سَهْمٌ بِشَوْبِهِ ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ فَمَاتَ . وَمَرَّ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ ، فَقَالَ جَبْرِيلُ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا يَا مُحَمَّدُ ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَأَشَارَ إِلَى أَحْمَصِ رِجْلِهِ ، وَقَالَ : قَدْ كُفِّيتَ ، فَدَخَلَتْ شَوْكَةٌ فِي أَحْمَصِهِ ، فَانْتَفَخَتْ رِجْلُهُ وَمَاتَ . وَمَرَّ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلَبِ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، قَالَ : عَبْدٌ سَوْءٌ ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِيهِ فَعَمِيَ وَهَلَكَ . وَقِيلَ : جَعَلَ يَنْطَحُ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَ ، وَيَضْرِبُ وَجْهَهُ بِالشُّوكِ ، فَاسْتَغَاثَ بِغَلَامِهِ ، فَقَالَ : لَا أَرَى أَحَدًا يَصْنَعُ بِكَ هَذَا غَيْرُ نَفْسِكَ فَمَاتَ ، وَهُوَ يَقُولُ : قَتَلَنِي رَبُّ مُحَمَّدٍ . وَمَرَّ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثٍ فَقَالَ جَبْرِيلُ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَقَالَ : قَدْ كُفِّيتَ ، وَأَشَارَ إِلَى بَطْنِهِ ، فَسَقَى بَطْنَهُ فَمَاتَ ، وَقِيلَ : أَصَابَ عَيْنَهُ شَوْكٌ ، فَسَالَتْ حَدَقَتَاهُ ، وَقِيلَ : خَرَجَ عَنْ أَهْلِهِ فَأَصَابَهُ السَّمُومُ ، فَاسْوَدَّ حَتَّى عَادَ حَبَشِيًّا ، فَلَمَّا أَتَى أَهْلَهُ لَمْ يَعْرِفُوهُ ، فَأَغْلَقُوا دُونَهُ الْأَبْوَابَ حَتَّى مَاتَ .

ومرَّ به الحارث بن قيس ، فقال : كيف تجد هذا ؟ ، قال : عَبْدٌ سَوْءٌ ، فَأَوْمَأَ إِلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ : قَدْ كُفِّيتَ ، فَانْتَفَخَ رَأْسُهُ فَمَاتَ . وَقِيلَ : أَصَابَهُ الْعَطَشُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَشْرِبُ الْمَاءَ حَتَّى انْقَدَّ بَطْنُهُ))

وعن أنس بن مالك قال: مرَّ النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمز جبريل بإصبعه، فوقع مثل الطُّفْرِ في أجسادهم ،

فصارت قُرُوحًا حَتَّى نَتُّنُوا ، فلم يَسْتَطِع أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (3).

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠].
يَحُضُّ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى تَبْلِيغِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لِكُلِّ النَّاسِ ، وعدم القلق بخصوص سلامته الشخصية ، أو مقاومة الكافرين للدعوة الإسلامية ، فَإِنَّ اللَّهَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، فَهُمْ خَاضِعُونَ لِحُكْمِهِ ، مَقْهُورُونَ فِي قَبْضَتِهِ . وَاللَّهُ مَانِعُكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْهُمْ ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ ، وَلَا تَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ، وَامْضِ فِي طَرِيقِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِ رِسَالَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْمَعْنَى : إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَكَ مِنَ النَّاسِ ، فَلَنْ يَفْطَرُوا عَلَى إِذْنِكَ ، وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا إِلْحَاقَ الضَّرْرِ بِكَ . وَاللَّهُ يُثَبِّتْ قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُقَوِّ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، كَيْ يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ بِكُلِّ نَشَاطٍ وَتَرْكِيزٍ ، بِلا خَوْفٍ وَلَا قَلَقٍ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٨) : ((يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُحَرِّضًا عَلَى إِبْلَاجِ رِسَالَتِهِ ، مُخْبِرًا لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَعِظْمَتِهِ .
وقال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أي : عَصَمَكَ مِنْهُمْ)) اهـ .

وقد يكون المعنى : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُفَارِ مَكَّةَ ، أَيْ : سَيُهْلِكُهُمْ . وَذَكَرَ بَلْفِظِ الْمَاضِي لَوْقُوعِهِ لَا مُحَالَةٍ . فَإِهْلَاكُهُمْ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ الْمَلْمُوسِ . وَإِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٥٢ و ٥٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالنَّاسِ ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ . وَقَالَ مَقَاتِلٌ : أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالنَّاسِ ، يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ يَفْتَحَهَا لِرَسُولِهِ ﷺ .
وَالثَّانِي أَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِالنَّاسِ ، فَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَالثَّلَاثُ حَالُ بَيْنِكَ وَبَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَقْتُلُوكَ ، لِتُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَقْتَادَةُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٣] .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٧ / ١٥٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٣٣) : ((فِيهِ يَزِيدُ ابْنَ دَرَّهَمَ ، ضَعَّفَهُ ابْنُ مَعِينٍ ، وَوَثَّقَهُ الْفَلَّاسُ)) .

لقد حاول المشركون جاهدين أن يُربلوا النبي ﷺ عن منهج الوحي الإلهي ، وأن يخدعوه بكلامهم المعسول، وأن يصرفوه عن أحكام القرآن، وما فيه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، ليُكذِبَ على الله ، ويختلق كلاماً من عنده ، وينسبُه إلى الله تعالى ، وَلَوْ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ ، وَاتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَحَقَّقَ مُرَادَهُمْ ، لَاتَّخَذُوهُ صَدِيقًا وَحَبِيبًا وَوَلِيًّا . وهذا يعني أنه صارَ عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَى

وهذا الأمرُ مُحالٌ بسببِ عصمة النبي ﷺ ، فهو مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ . ولا يُمكن أن يكذب النبي ﷺ على الله تعالى ، لذلك رَفَضَ النبي ﷺ كُلَّ إِغْرَاءَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَغَرُوضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةَ مُقَابِلَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . فالنبي ﷺ هو أعلمُ الخلق بالله، وأعظمُ أنبيائه ، وَقَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ كَي يُرْشِدَ النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ خِدَاعِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ . وَاللَّهُ يَعْرِفُ الرِّجَالَ الَّذِينَ يَخْتَارُهُمْ لِحَمَلِ كَلِمَتِهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ. فهو سُبْحَانَهُ لَا يَخْتَارُ الْكَاذِبِينَ وَلَا الْمُخَادِعِينَ، وَإِنَّمَا يَخْتَارُ الصَّادِقِينَ الْأَمْنَاءَ. وَالْآيَةُ تَحْمِلُ تَحْذِيرًا وَاضِحًا مِنْ إِغْرَاءَاتِ الْكُفَّارِ، وَأَفْكَارِهِمُ الشَّيْطَانِيَّةِ، وَوَسَاوِسِهِمُ الدُّنْيَا.

وَالْآيَةُ : ﴿ كَادُوا ﴾ تُفِيدُ الْمُقَارَبَةَ . لَقَدْ قَارَبُوا بِمُبَالَغَتِهِمْ وَكَلَامِهِمُ الْمُخَادِعَ ، وَضَغَطَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُسْقِطُوهُ فِي الْفِتْنَةِ ، وَيُخْرِفُوهُ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ ، وَذَلِكَ بِالتَّخْلِيعِ عَنْ وَحْيِ السَّمَاءِ ، وَالتَّقَوُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِضَافَةِ اقْتِرَاحَاتِ كُفَّارٍ قَرِيشٍ إِلَى كَلَامِ اللَّهِ كَذِبًا وَزُورًا . وَلَكِنَّ اللَّهَ ثَبَّتَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَعَصَمَهُ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَحَمَاهُ مِنَ خِدَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْأَعْيَبِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَصْمَدِ أَمَامَ الْمُشْرِكِينَ بِذِكَاانِهِ الشَّخْصِيِّ وَمَهَارَاتِهِ الدَّائِيَّةِ ، وَإِنَّمَا صَمَدٌ وَثَبَتَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣٥٤) : ((وَإِنَّ الشَّأْنَ قَارَبُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَاتَيْنِ . وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ الْإِخْتِبَارُ . وَمِنْهُ : فَتَنَ الصَّائِغُ الذَّهَبَ . ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ مَنْ أَزَالَ الشَّيْءَ عَنْ حَدِّهِ وَجْهَتَهُ . وَذَلِكَ لِأَنَّ فِي إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوهُ مُخَالَفَةً لِحُكْمِ الْقُرْآنِ ، وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، مِنْ تَبْدِيلِ الْوَعْدِ بِالْوَعِيدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ)) اهـ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ٦٤٢) : ((﴿ لَتَنْفِتِرَيَّ عَلَيْنَا غَيْرُهُ ﴾ أَيُّ : لَتَخْتَلِقَ عَلَيْنَا أَشْيَاءَ غَيْرَ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٦٧ و ٦٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ ﴾

﴿

في سبب نزولها أربعة أقوال: أحدها أنْ وَفَدَ ثَقِيفٌ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فقالوا : مَتَّعْنَا بِاللَّاتِ سَنَةً وَحَرَّمْ وَادِينَا كَمَا حَرَّمْتَ مَكَّةَ، فَأَبَى ذَلِكَ ، فَأَقْبَلُوا يُكْشِرُونَ مَسَآلَتَهُمْ ، وقالوا : إِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَعْرِفَ الْعَرَبُ فَضْلَنَا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ خَشِيتَ أَنْ يَقُولَ الْعَرَبُ: أُعْطِيتُهُمْ مَا لَمْ تُعْطِنَا، فَقُلْ : اللَّهُ أَمَرَنِي بِذَلِكَ ، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ ، وَدَاخَلَهِمُ الطَّمَعُ ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . رواه عطاء عن ابن عباس . وروى عطية عن ابن عباس أنهم قالوا : أَجَلْنَا سَنَةً ثُمَّ نُسْلِمُ وَنَكْسِرُ أَصْنَامَنَا ، فَهَمَّ أَنْ يُؤْجَلَ لَهُمْ ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . والثاني أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : لَا نَكْفُ عَنْكَ إِلَّا بِأَنْ تِلْمَ بِالْهَتَا ، وَلَوْ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا عَلَيَّ لَوْ فَعَلْتُ وَاللَّهِ يَعْلَمُ إِنِّي لَكَارَةٌ ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قاله سعيد بن جبيرة ، وهذا باطل لا يجوز أن يُظَنَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا مَا ذَكَرْنَا عَنْ عطية مِنْ أَنَّهُ هَمَّ أَنْ يُنْظَرَهُمْ سَنَةً . وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ فِي حَقِّهِ ، وَفِي حَقِّ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ رَوَوْا عَنْهُ . والثالث أَنَّ قُرَيْشًا خَلَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ ، يُكَلِّمُونَهُ وَيُفَحِّمُونَهُ وَيَقُولُونَ : أَنْتَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا ، وَمَا زَالُوا بِهِ حَتَّى كَادَ يُقَارِبُهُمْ فِي بَعْضِ مَا يُرِيدُونَ ، ثُمَّ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه قتادة . والرابع أَنَّهُمْ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : اطْرُدْ عَنْكَ سَقَاطَ النَّاسِ وَمَوَالِيَهُمْ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ رَائِحَتُهُمْ رَائِحَةُ الضَّأْنِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَلْبَسُونَ الصُّوفَ ، حَتَّى نُجَالِسَكَ وَنَسْمِعَ مِنْكَ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ إِسْلَامُهُمْ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، حَكَاهُ الرَّجَاجُ. قال : ومعنى الكلام : كَادُوا يَفْتِنُونَكَ . ودخلت إِنْ وَاللَّامُ لِلتَّوَكُّيدِ . قال المفسِّرون : وإنما قال : ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ لِأَنَّ فِي إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا مُخَالَفَةً لِحُكْمِ الْقُرْآنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَتَفْتَرِي ﴾ أَي لَتَخْتَلِقَ ﴿ عَلَيْنَا غَيْرُهُ ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: قُلْ: اللَّهُ أَمَرَنِي بِذَلِكَ. ﴿ وَإِذَا ﴾ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ ﴿ لَا تَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أَي وَالْوَلَاةُ وَصَافُوكَ ((. وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] ^(٤).

(٤) في البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ١٣٧) : ((فالمنعنى على النفي، وأنه ﷺ لم يَرَكُنْ إِلَيْهِمْ، لا قليلاً ولا كثيراً، مِنْ جِهَةِ أَنَّ " لَوْلَا " الامتناعية تَقْتَضِي ذَلِكَ ، وأنه امتنع مُقَارَبَةَ الرُّكُونِ القليل لأجل وجود التثبيت، لينتفي الكثيْرُ مِنْ طريق الأولى. وتأمل كيف جاء "كاد" المقتضية المُقَارَبَةَ للفعل بِقَدْرِ الظاهرة للتقليل. كُلُّ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لَشَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ الرُّكْبَةُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَكَادُ يَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا للتثبيت مَعَ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ((اه. وفي تفسير القرطبي (١٠ / ٢٦٠) : ((قال قتادة : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ ")) اه . وقد روى ابن

ثَبَاتُ النَّبِيِّ ﷺ ليس بذكائه ومهاراته الشخصية ، وإنما هو بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ . ومعنى الآية :
لَوْلَا أَنْ تَبَيَّنْتَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى الْحَقِّ ، وَعَصَمَكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمُشْرِكِينَ وَإِغْرَائِهِمْ ، لَقَدْ قَارَبْتَ أَنْ
تَمِيلَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا . وَالرُّكُونُ هُوَ أَدْنَى مَيْلٍ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ ، وَالآيَةُ تُعَلِّمُ الْمُؤْمِنِينَ وَتُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْخَضُوعِ
لِانْحِرَافَاتِ الْكَافِرِينَ وَالْإِسْتِجَابَةِ لَضَغُوطَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ .

وَقَدْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَقْرَبَ مِمَّا طَلَبُوهُ وَمَا طَلَبُوهُ كُفْرًا؟
هَذَا حَدِيثُ نَفْسٍ ، وَمُجَرَّدُ خَاطِرٍ سَرِيعٍ فِي الصَّدْرِ ، لَمْ يَسْتَقِرْ فِي الْقَلْبِ . وَاللَّهُ يَغْفِرُ حَدِيثَ
النَّفْسِ ، وَلَا يُؤَاخِذُ بِهِ . هَذَا رَأْيٌ . وَالرَّأْيُ الرَّاجِحُ ، هُوَ أَنَّ الْمَعْنَى عَلَى التَّنْفِي التَّامِّ ، أَيِ إِنَّهُ ﷺ لَمْ
يَقْرَبْ مِمَّا طَلَبُوهُ . إِذْ إِنَّ «لَوْلَا» تُفِيدُ انْتِفَاءَ الشَّيْءِ لَوْجُودِ غَيْرِهِ . يَعْنِي : نَفْيُ الرُّكُونِ الْقَلِيلِ
لَوْجُودِ الْعِصْمَةِ . فَلَا يُوجَدُ رُكُونٌ مُطْلَقًا . لَا رُكُونٌ وَلَا مُقَارَبَةٌ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٢٦٠) : ((وَقِيلَ: مَا كَانَ مِنْهُ هَمٌّ بِالرُّكُونِ إِلَيْهِمْ ، بَلِ الْمَعْنَى :
وَلَوْلَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ لَكَانَ مِنْكَ مَيْلٌ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ ، وَلَكِنْ تَمَّ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، ذَكَرَهُ
الْقُشَيْرِيُّ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومًا ، وَلَكِنْ هَذَا تَعْرِيفٌ لِلْأُمَّةِ لئَلَّا يَزْكَنَ أَحَدٌ
مِنْهُمْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرَائِعِهِ)) اهـ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٦٠) : ((«لَوْلَا أَنْ تَبَيَّنْتَ اللَّهُ» وَلَوْلَا تَبَيُّنُنَا إِيَّاكَ . «لَقَدْ
كَدَتِ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا» لَقَارَبْتَ أَنْ تَمِيلَ إِلَى اتِّبَاعِ مُرَادِهِمْ. وَالْمَعْنَى أَنَّكَ كُنْتَ عَلَى صَدَدِ
الرُّكُونِ إِلَيْهِمْ ، لِقُوَّةِ خَدْعِهِمْ ، وَشِدَّةِ احْتِيَالِهِمْ ، لَكِنْ أَذْرَكَكَ عِصْمَتُنَا ، فَمُنِعَتْ أَنْ تَقْرَبَ مِنْ
الرُّكُونِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَرْكُنَ إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — مَا هَمَّ بِاجَابَتِهِمْ
مَعَ قُوَّةِ الدَّوَاعِي إِلَيْهَا ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعِصْمَةَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ)) اهـ .

لَقَدْ كَانَ إِغْرَاءُ الْمُشْرِكِينَ شَدِيدًا ، وَاحْتِيَالُهُمْ وَاضِحًا ، وَإِلْحَاحُهُمْ قَوِيًّا . وَلَوْلَا تَبَيُّنُ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ
عَلَى الْحَقِّ بِالْعِصْمَةِ لَقَارَبَ أَنْ يَمِيلَ إِلَيْهِمْ . وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَزْكَنَ وَلَا قَارَبَ .

وَقَالَ عِيَاضُ فِي الشُّفَا (١ / ٢٨) : ((قَالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ : غَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ بَعْدَ الرِّلَّاتِ ، وَغَاتَبَ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ وَقُوعِهِ ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ انْتِهَاءً وَمَحَافَظَةً

جَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٣ / ٢٥٠) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((اللَّهُمَّ رَحْمَتُكَ أَرْجُو ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةً
عَيْنٍ ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)) .

لشرائط المحبة ، وهذه غاية العناية . ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ بِشَاتِهِ وَسَلَامَتِهِ قَبْلَ ذِكْرِ مَا عَاتَبَهُ عَلَيْهِ ، وَخِيفَ أَنْ يَرْكُنَ إِلَيْهِ ، فَفِي أَثْنَاءِ عَتَبِهِ بَرَاءَتُهُ ، وَفِي طَيِّ تَخْوِيفِهِ تَأْمِينُهُ وَكَرَامَتُهُ ((اهـ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٥] .

لَوْ قَارَبْتَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَرْكُنَ إِلَى الْمَشْرِكِينَ شَيْئًا قَلِيلًا ، لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الدُّنْيَا ، وَضِعْفَ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، يَعْنِي : سَنُضَاعِفُ عَذَابَكَ . إِذْ إِنَّ ذَنْبَ الْعَظِيمِ عَظِيمٌ ، وَعَذَابُهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الشَّخْصِ الْعَادِيِّ ^(٥) . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٢٦١) : ((وَهَذَا غَايَةُ الْوَعِيدِ ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الدَّرَجَةُ أَعْلَى ، كَانَ الْعَذَابُ عِنْدَ الْمُخَالَفَةِ أَعْظَمَ)) اهـ .

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ نَاصِرًا يُنْقِذُكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَيَحْمِيكَ مِنْ غَضَبِهِ .
 وَفِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣٥٤) : ((قَالَ الرَّازِي : حَاصِلُ الْكَلَامِ أَنَّكَ لَوْ مَكَّنْتَ خَوَاطِرَ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِكَ ، وَعَقَّدْتَ عَلَى الرُّكُونِ هَمَّكَ ، لَاسْتَحَقَّقْتَ تَضْعِيفَ الْعَذَابِ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَصَارَ عَذَابُكَ مِثْلِي عَذَابِ الْمَشْرِكِ فِي الدُّنْيَا ، وَمِثْلِي عَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ . ﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾
 يَنْصَرِّقُ فَيَدْفَعُ عَنْكَ هَذَا الْعَذَابَ . قَالَ التَّيْسَابُورِيُّ : أَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْبَ مِنَ الْفِتْنَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ فِيهَا ، وَالتَّهْدِيدُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهَا ، فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْآيَةِ طَعْنٌ فِي الْعِصْمَةِ)) .
 وَقِيلَ : الضَّعْفُ مِنْ أَسْمَاءِ الْعَذَابِ ، سُمِّيَ ضِعْفًا لِتَضَاعُفِ الْأَلَمِ فِيهِ .

(٥) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : ٣٠] . وَهَذَا بِسَبَبِ مَكَانَتِهِنَّ السَّامِيَةِ وَعُلُوِّ دَرَجَتِهِنَّ ، وَوَضْعِهِنَّ الْاجْتِمَاعِي الْمُمَيَّزَ كَزَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَمَهَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَوْنِهِنَّ فِي مَهَبِطِ الْوَحْيِ . فَإِذَا جَاءَتْ إِحْدَاهُنَّ بِكَبِيرَةٍ وَاضِحَةٍ قُبْحِهَا ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُضَاعَفُ لَهَا ضِعْفَيْنِ . أَيْ إِنَّمَا تُعَذَّبُ مِثْلِي عَذَابِ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ إِذَا جَاءَتْ بِمِثْلِ تِلْكَ الْكَبِيرَةِ . إِذْ إِنْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ نِسَاءِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ يَقْتَضِي شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ الْفَاحِشَةِ ، وَهُوَ أَذَى النَّبِيِّ ﷺ . وَهَذَا الْأَمْرُ يُوَثِّرُ سَلْبًا عَلَى الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيُزَلِّزُ إِيْمَانَ النَّاسِ ، وَيَبْعَثُ الشُّكُوكَ فِي قُلُوبِهِمْ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٠) : ((وَذَلِكَ لِشَرَفِ مَنْزِلَتِهِنَّ ، وَإِلَّا فَلَا يُتَصَوَّرُ إِيْتَانُ مِنْهِنَّ صِيَانَةً لَزَوْجِهِنَّ الْمُكْرَمِ الْمُعْظَمِ)) اهـ . إِنَّ التَّشْدِيدَ عَلَيْهِنَّ مُضَاعَفٌ فِي حَالِ إِيْتَانِ الْفَاحِشَةِ لِسُمْوَرُتِهِنَّ . وَعَلَى هَذَا فَالتَّدْقِيقُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَأَصْحَابِ الْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ بَاقِي النَّاسِ .

ومعنى الآية : إِنَّ مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ جَزَاءٌ مَن يَرْتَكِبْ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ ، وَهُوَ جَزَاؤُكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ اقْتَرَفْتَهَا . وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ ، وَلَا يُمَكَّنُ أَنْ يَقْتَرِفَهَا . إِذَنْ ، الْخَطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَالْمَقْصُودُ غَيْرُهُ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٦٩) : ((وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ضِعْفُ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومًا ، وَلَكِنَّهُ تَخْوِيفٌ لِأَمَّتِهِ لئَلَّا يَرْكَنَ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ، فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر : ٣٦] .
 إِنَّ اللَّهَ كَافٍ مُحَمَّدًا ﷺ ، يَكْفِيهِ أَدَى الْمَشْرِكِينَ وَتَهْدِيدَهُمْ ، وَيَحْمِيهِ مِنْ شَرِّهِمْ وَكَيْدِهِمْ ، وَيَعْصِمُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ . وَقَدْ أَضَافَ اللَّهُ مُحَمَّدًا إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ عَبْدَهُ ﴾ تَشْرِيفًا لَهُ ، وَتَنْوِيهًا بِذِكْرِهِ ، وَرَفْعًا لِشَأْنِهِ . فَمُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ وَعِصْمَتِهِ .
 وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٧) : ((﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ اسْتِفْهَامُ انْكَارٍ لِلنَّفْيِ مُبَالَغَةً فِي الْإِثْبَاتِ . وَالْعَبْدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَيُحْتَمَلُ الْجِنْسُ - يَعْنِي كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ تَعَالَى -)) اهـ .
 وَكَانَ الْمَشْرِكُونَ يُخَوِّفُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَصْنَامِهِمْ الَّتِي لَا تَنْصُرُ وَلَا تَنْفَعُ ، وَيَتَوَعَّدُونَهُ بِأَلْهَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ جَهْلًا مِنْهُمْ وَضَلَالًا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٥ / ٢٢٥) : ((وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَوَّفُوا النَّبِيَّ ﷺ مَضَرَّةَ الْأَوْثَانِ ، فَقَالُوا : أَتُسَبُّ آلِهَتُنَا ؟ ، لَئِنْ لَمْ تَكُفَّ عَنْ ذِكْرِهَا لَتُخْلِلَنَّكَ ، أَوْ تُصَيِّبَنَّكَ بِسُوءٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَشَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى الْعُرَى لِيَكْسِرَهَا بِالْفَأْسِ ، فَقَالَ لَهُ سَادُنُهَا : أَحْذَرُكِهَا يَا خَالِدُ ، فَإِنَّ لَهَا شِدَّةً لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ ، فَعَمِدَ خَالِدٌ إِلَى الْعُرَى ، فَهَشَّمَ أَنْفَهَا حَتَّى كَسَرَهَا بِالْفَأْسِ . وَتَخَوَّفَهُمْ لَخَالِدٍ تَخْوِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، لِأَنَّهُ الَّذِي وَجَّهَ خَالِدًا)) (٦) .

(٦) يَخْلِلُ : يُصَيِّبُهُ بِالْجُنُونِ وَيُفْسِدُ عَقْلَهُ . وَالسَّادِنُ : الْخَادِمُ وَالْحَاجِبُ .

الفصل الحادي عشر
مآثره وخصائصه

تمهيد

إِنَّ مَآثِرَ النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، وَخَصَائِصُهُ أَشْهُرُ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ . فَهُوَ الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ الْمُتَكَامِلُ الْخَالِي مِنَ الْغُيُوبِ ، اخْتَارَهُ اللَّهُ خَاتَمًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، كَيْ يُبْلَغَ الْقُرْآنَ (آخِرَ الْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ) لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَى السَّوَاءِ . لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَتَحَلَّى مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ، كَيْ يَقْدِرَ عَلَى إِقْنَاعِ الْخَلْقِ ، وَإِصَالِ كَلِمَةِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ بِأَفْضَلِ أَسْلُوبٍ ، وَأَحْسَنِ وَسِيلَةٍ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ شَخْصًا عَادِيًّا . إِنَّهُ إِنْسَانٌ وَصَلَ إِلَى مَرَحَلَةِ الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ ، لِذَلِكَ اسْتَحَقَّ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ ، وَأَنْ يَقْتَرَنَ اسْمُهُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا شَرَفٌ مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ ، يُشِيرُ إِلَى مَكَانَةِ النَّبِيِّ الْجَلِيلَةِ ، وَمَنْزِلَتِهِ الرَّفِيعَةِ . وَحَيَاةُ النَّبِيِّ عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ تُثَمِّلُ سِيرَةً نَاصِعَةً الْبَيَاضِ ، لَا مَكَانَ فِيهَا لِلثَّغَرَاتِ وَلَا النُّقَاطِ السَّوْدَاءِ أَوْ الْغَامِضَةِ . إِنَّهَا حَيَاةٌ مَكْشُوفَةٌ لِلْجَمِيعِ ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى الشَّرَفِ وَالطَّهَارَةِ وَالْمَجْدِ ، لَا يُوجَدُ فِيهَا شَيْءٌ يَدْعُو إِلَى الْخَجَلِ أَوْ الْاعْتَذَارِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ وَضَعَ تَشْرِيعَاتٍ خَاصَةً بِالنَّبِيِّ ﷺ تَشْرِيفًا لَهُ ، وَإِبْرَارًا لِفَضْلِهِ . وَهَذِهِ التَّشْرِيعَاتُ شَامِلَةٌ لِكُلِّ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ . كَمَا وَعَدَهُ بِأُمُورٍ ، وَتَمَّتْ حَسَبَ الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ فِي الْوَقْتِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَا شَكَّ أَنَّ تَحْقِيقَ الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ يُثَبِّتُ قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَيَزِيدُهُ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِ . وَوَعْدُ اللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ . قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ وَاهِمًا أَنَّ الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّ قَدْ تَأَخَّرَ . وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ هِيَ أَنَّ الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ ، إِنَّمَا يَأْتِي فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُقْتَضَى إِرَادَتِهِ وَحِكْمَتِهِ . وَقَدْ تَظْهَرُ الْحِكْمَةُ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ لَا تَظْهَرُ .

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَحَاطَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحِمَايَةِ وَالرَّعَايَةِ وَالْعِنَايَةِ فِي كُلِّ مَرَاكِلِ حَيَاتِهِ ، فَعَصَمَهُ مِنَ الْقَتْلِ ، مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَاضَ حُرُوبًا كَثِيرَةً ، وَقَاتَلَ فِيهَا ، وَكَانَ يَتَقَدَّمُ الصَّفُوفَ . وَلَمْ يَكُنْ مُخْتَبِئًا فِي غُرْفَةِ الْعَمَلِيَّاتِ . كَمَا أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِمُؤَامَرَاتٍ كَثِيرَةٍ عَلَى أَيْدِي الْيَهُودِ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ . وَقَدْ رَجَعُوا بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ ، وَانْتَصَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ بِهِ ، وَحِفْظِهِ لَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ .

وَتَوْفِيقُ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَامِلٌ لِكُلِّ تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ ، وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَجَالِ دُونَ آخِرٍ . فَقَدْ قَدَّمَ ﷺ إِنْجَازَاتٍ عَظْمَى فِي كُلِّ الْمَجَالَاتِ : السَّلَامِ ، وَالْحَرْبِ ، وَالتَّعْلِيمِ ، وَالْأُسْرَةِ ، وَالْمَجْتَمَعِ ، وَالْاِقْتِصَادِ ، وَالسِّيَاسَةِ ، وَالثَّقَافَةِ ... إلخ . وَيَكْفِيهِ أَنَّهُ حَوَّلَ رُعَاةَ الْغَنَمِ إِلَى رُعَاةٍ لِلْأُمَمِ ، وَحَوَّلَ

العرب المتخلفين المنسيين في الجزيرة العربية إلى سادة للعالم وصنّاع الحضارة ، وخضعت لهم الروم والفرس .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ١١] (1).

يا أيُّها المؤمنون الذين يعبدون الله وحده ، ويصدّقون برسالة محمد ﷺ ، اذكروا فضل الله عليكم ونعمته الجليّة ، حيث حماكم من أعدائكم ، وحفظكم من كلّ شر . فقد حاول قَوْمٌ أَنْ يقتلوكم ويؤذوكم ، فَمَنَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنَعَ أَيْدِيَهُمْ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكُمْ بِالشَّرِّ وَالضَّرِّ وَالسُّوءِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ واجتناب نواهيه، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، فهو الكافي والناصر والقادر على جلب الخير ودفع الشر .

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٠٨ و ٣٠٩) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أَنَّ رجلاً من (مُحَارِب) قال لِقَوْمِهِ : أَلَا أَقْتُلُ لَكُمْ مُحَمَّدًا ، فقالوا : وكيف تَقْتُلُهُ ؟ ، فقال : أَقْتُلُكَ بِهِ . فَأَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَيْفُهُ فِي جِحْرِهِ ، فَأَخَذَهُ وَجَعَلَ يَهْرُؤُهُ بِهِمْ ، فَيَكْبِتُهُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ مَا تَخَافُنِي ؟ ، قَالَ : " لَا " . قَالَ : لَا تَخَافُنِي وَفِي يَدِي السَّيْفُ ؟ ، قَالَ : " يَمْنَعُنِي اللَّهُ مِنْكَ " ، فَأَعْمَدَ السَّيْفَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ . وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ : فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ . وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : فَمَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا وَلَا عَاقِبَهُ . وَاسْمُ هَذَا الرَّجُلِ عَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ (مُحَارِب) خَصَفَةَ . وَالثَّانِي أَنَّ الْيَهُودَ عَزَمُوا عَلَى الْفَتْكِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : صَنَعُوا لَهُ طَعَامًا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ بِشَأْنِهِمْ ، فَلَمْ يَأْتِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ : خَرَجَ إِلَيْهِمْ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَّةٍ ، فَقَالُوا : اجْلِسْ حَتَّى نُعْطِيَكَ ، فَجَلَسَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، فَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَقَالُوا : لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّدًا أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ ، فَمَنْ يَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ ، فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشٍ : أَنَا ، فَجَاءَ إِلَى رَحَى عَظِيمَةٍ لَيَطْرَحُهَا عَلَيْهِ ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ يَدَهُ ، وَجَاءَ جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ ، وَخَرَجَ . وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ وَبَنِي مُحَارِبٍ أَرَادُوا أَنْ يَفْتَكُوا بِالنَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ فِي عَزَاةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السَّابِعَةِ ، فَقَالُوا : إِنَّ لَهُمْ صَلَاةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمّهَاتِهِمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا وَقَعْنَا بِهِمْ ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ صَلَاةَ الْخَوْفِ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ . وَالرَّابِعُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْيَهُودِ حِينَ ظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ)) اهـ .

والله لم يقل : فَكَفَّهَا عَنْكُمْ . بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ . لقد جاءت كلمة ﴿ أَيْدِيَهُمْ ﴾ وهي مُظْهِرُ مَكَانِ الْمُضْمَرِّ ، لزيادة التقرير . والمعنى : إِنَّ اللَّهَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَمَنْعَهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكَ بِسُوءِ بَعْدِ هَمِّهِمْ ، لا أنه سُبْحَانَهُ كَفَّهَا بَعْدَ أَنْ مَدُّوْهَا . وهذا يدل على كمال العناية ، وتمام الرعاية ، والحفظ الإلهي ، والعصمة الربانية . فقد حَمَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ . وعاد الكافرون بالفشل والخزي والعار .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٤٨٥) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَقْرَبُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، ورسالةِ رسوله ﷺ ، وما جاءهم به مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ اذْكُرُوا النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ ، فاشكروه عَلَيْهَا بِالْوَفَاءِ لَهُ بِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ، وَالْعُقُودِ الَّتِي عَاقَدْتُمْ نَبِيِّكُمْ ﷺ عَلَيْهَا . ثُمَّ وَصَفَ نِعْمَتَهُ الَّتِي أَمَرَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا مَعَ سَائِرِ نِعَمِهِ ، فَقَالَ : هِيَ كَفَّ عَنْكُمْ أَيْدِيَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُّوا بِالْبَطْشِ بِكُمْ ، فَصَرَفَهُمْ عَنْكُمْ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا أَرَادُوهُ بِكُمْ ... ﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : وإلى اللَّهِ فَلْيُلْقِ أَرْزَمَةَ أُمُورِهِمْ وَيَسْتَسْلِمَ لِقَضَائِهِ وَيُنْقِ بِنُصْرَتِهِ وَعَوْنِهِ الْمُقْرُونَ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَرِسَالَةِ رَسُولِهِ ، الْعَامِلُونَ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ كِمَالِ دِينِهِمْ ، وَتِمَامِ إِيْمَانِهِمْ ، وَأَنْهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ كَلَّاهُمْ وَرَعَاهُمْ وَحَفِظَهُمْ مِمَّنْ أَرَادَهُمْ بِسُوءٍ كَمَا حَفِظَكُمْ ، وَدَافَعَ عَنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ هُمُّوا بِمَا هُمُّوا بِهِ مِنْ بَسْطِ أَيْدِيهِمْ إِلَيْكُمْ ، كَلَاءَةً مِنْكُمْ لَكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ذُونَ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ غَيْرَهُ لَا يُطِيقُ دَفْعَ سُوءِ أَرَادَهُ بِكُمْ رَبُّكُمْ ، وَلَا اجْتِلَابَ نَفْعٍ لَكُمْ لَمْ يَقْضِهِ لَكُمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١] .

يَسْأَلُ الصَّحَابَةُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ غَنَائِمِ يَوْمِ بَدْرٍ ، لِمَنْ هِيَ ؟ . مَنْ سَيَأْخُذُهَا ؟ . كَيْفَ يَتَمُّ تَوَازُعُهَا ؟ . وقد جاءَ الجوابُ الإلهيُّ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ ، الْغَنَائِمُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ . أي : الْحُكْمُ فِيهَا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، وَلَا عِلَاقَةُ لَكُمْ بِهِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ الْغَنَائِمَ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ ، وَوَفَّقَ أَمْرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٣٠) في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ : ((يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ فِيهَا ، فَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ)) اهـ .

وَسُمِّيَتْ الْغَنِيمَةُ نَفْلًا ، لِأَنَّهَا عَطِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٌ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤ / ٢) : ((التَّفْلُ الْغَنِيمَةُ ، سُمِّيَتْ بِهِ لِأَنَّهَا عَطِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى زَائِدَةٌ عَلَى مَا هُوَ أَصْلُ الْأَجْرِ فِي الْجِهَادِ مِنَ الثَّوَابِ الْأُخْرِيِّ)) اهـ .

أما سبب نزول الآية ، فهو اختلاف الشباب والشيوخ في طريقة تقسيم غنائم بدر . فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم بدر : ((مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا)) ، أما المشيخة فشَبَتوا تحت الرايات ، وأما الشباب فتسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان: أَشْرِكُونَا مَعَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا رِدْءًا (عَوْنًا) لَكُمْ، وَلَوْ كَانَ فِيكُمْ شَيْءٌ لَجِئْتُمْ إِلَيْنَا، فَأَبَوْا، فاخْتَصِمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ، فَقُسِّمَتِ الْغَنَائِمُ بَيْنَهُمْ بِالسُّوْبَةِ (2).

إنَّ الله يُرْشِدُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ضَرُورَةِ إِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي الْجِهَادِ لِلَّهِ تَعَالَى ، دُونَ التَّلَقُّقِ بِالْغَنَائِمِ (عَرَضُ دُنْيَوِي زَائِلٌ) . وَالْمُؤْمِنُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . فَأَمُرُ الْغَنَائِمِ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﷺ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْخُضُوعِ لِلْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يُطَبِّقُهُ النَّبِيُّ ﷺ . وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ التَّرْكِيزُ فِي الْقِتَالِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالِابْتِعَادُ عَنِ التَّنَاحُرِ مِنْ أَجْلِ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي . وَدُخُولُ الْأُمُورِ الْمَادِيَةِ _ الْمُمَثِّلَةِ فِي اقْتِسَامِ الْغَنَائِمِ _ بَيْنَ صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ سَيُؤَدِّي إِلَى تَشْتِيتِ كَلِمَتِهِمْ ، وَبَثِّ الضَّغَائِنِ وَالْأَحْقَادِ فِيهِمَا بَيْنَهُمْ ، وَالِابْتِعَادُ عَنْ جَوْهَرِ الْجِهَادِ الَّذِي يَعْنِي الْإِقْدَامَ عَلَى الْآخِرَةِ ، وَإِعْطَاءُ الظُّهْرِ لِلدُّنْيَا . إِذَنْ ، يَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِالشَّرِيعَةِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَيَتَعَدَّوْا عَنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا.

وعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ قال : جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِسَيْفٍ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ شَفَيْ صَدْرِي الْيَوْمَ مِنَ الْعَدُوِّ ، فَهَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ ، فَقَالَ : ((إِنَّ هَذَا السَّيْفَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ)) ، فَذَهَبْتُ وَأَنَا أَقُولُ : يُعْطَاهُ الْيَوْمَ مَنْ لَمْ يُبَلِّ بِلَاتِي فِيْنَا ، إِذْ جَاءَنِي الرَّسُولُ فَقَالَ : أَجِبْ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِي ، فَجِئْتُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّكَ سَأَلْتَنِي هَذَا السَّيْفَ ، وَلَيْسَ هُوَ لِي وَلَا لَكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُ لِي فَهُوَ لَكَ)) ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (3).

لَقَدْ قَاتَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَغَنِمَ سَيْفًا . وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ سَيْفٌ ثَمِينٌ وَمُتَقَنَّ الصَّنْعِ ، وَلَيْسَ سَيْفًا عَادِيًّا . لِذَلِكَ اسْتَحُوذَ عَلَى إعْجَابِ سَعْدٍ ، وَهُوَ الْخَبِيرُ بِشُؤْنِ الْجِهَادِ وَالْأَسْلِحَةِ . فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ السَّيْفُ كَمَا يَأْذَنُ لَهُ بِأَخْذِهِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى أَمَانَةِ سَعْدٍ وَإِخْلَاصِهِ ، وَرَفْضِهِ لِلْخِيَانَةِ وَالْخِدَاعِ . وَلَوْ كَانَ مُنَافِقًا أَوْ ضَعِيفَ الْإِيمَانِ ، فَرُبَّمَا أَخَذَ

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٤١) برقم (٢٨٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٤٤) برقم (٢٥٩٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

السَّيْفَ إِلَى بَيْتِهِ ذُونَ أَنْ يَرَاهُ النَّاسَ ، وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ . وَفِي الْحُرُوبِ ، تَكُونُ الْخِيَانَةُ فِي الْغَنَائِمِ سَهْلَةً جَدًّا ، لِأَنَّ الْمُقَاتِلِينَ مَشْغُولُونَ بِالْقَتْلِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَيُرِيدُونَ مَعْرِفَةً مَنْ يَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، وَمَنْ قُتِلَ . وَأَيْضًا ، مَشْغُولُونَ بِالْغَنَائِمِ ، وَاجْرَاءَ حَسَابَاتِ الرِّيحِ وَالْخَسَائِرِ ، وَتَكُونُ الْأَجْوَاءُ مُضْطَرِبَةً ، وَالْأَوَاضَاعُ غَيْرَ مُسْتَقَرَّةٍ . وَفِي لَحْظَاتِ الْفَوْضَى ، لَا أَحَدٌ يَنْتَبِهُ إِلَى أَحَدٍ .

لَقَدْ فَرِحَ سَعْدٌ بَانْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَارْتَاحَ قَلْبُهُ ، وَشَفِيَ صَدْرُهُ ، وَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَمْنَحَهُ السَّيْفَ ، فَارْفَضَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الطَّلَبَ ، مَعَ حُبِّهِ لِسَعْدٍ . وَلَا تَخْفَى مَكَانَةُ سَعْدٍ فِي الْإِسْلَامِ ، فَهُوَ خَالُ النَّبِيِّ ﷺ (قَرِيبٌ لِأُمِّهِ وَلَيْسَ أَخًا لَهَا) ، وَأَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ . لَقَدْ رَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجَاعِلَ عَلَى حِسَابِ الدِّينِ ، وَوَضَّحَ لِسَعْدٍ أَنَّ هَذَا السَّيْفَ لَيْسَ مُلْكًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَا مُلْكًا لِسَعْدٍ ، وَكِلَاهُمَا لَا يَمْلِكُ حَقُّ التَّصَرُّفِ فِيهِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَمَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِدْقِهِ فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ ، فَهُوَ مُلتَزِمٌ بِالشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَا يَتَجَاوَزُهَا ، وَلَا يَأْتِي بِأَحْكَامٍ مِنْ أَفْكَارِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، إِنَّمَا يَخْضَعُ لِلْوَحْيِ فِي كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ . وَلَا يُجَاعِلُ وَلَا يُدَاهِنُ عَلَى حِسَابِ الشَّرِيعَةِ ، وَلَا يُقَدِّمُ رَابِطَةَ الدَّمِّ وَالْعِلَاقَاتِ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا دَلِيلٌ بَاهِرٌ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ ، فَهُوَ لَا يَتَصَرَّفُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يُطَبِّقُ مَا يُوحَى إِلَيْهِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ .

وَقَدْ ذَهَبَ سَعْدٌ حَزِينًا وَهُوَ يَقُولُ : سَوْفَ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ رَجُلٌ لَمْ يُقَدِّمَ مَا قَدَّمْتُهُ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ وَإِنْجَازَاتٍ . فَبَيْنَمَا هُوَ فِي أَفْكَارِهِ وَخَوَاطِرِهِ ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، طَالِبًا مِنْهُ الْمَجِيءَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَظَنَّ أَنَّ قُرْآنًا قَدْ نَزَلَ فِيهِ بِسَبَبِ كَلَامِهِ . وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ يَخَافُونَ مِنْ نَزُولِ الْقُرْآنِ فِيهِمْ . فَهَذِهِ فَضِيحَةٌ أَبَدِيَّةٌ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ تَظَلُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَقَدْ جَاءَ سَعْدٌ ، وَسَمِعَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي وَضَّحَ لَهُ قَضِيَّةَ السَّيْفِ ، وَأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِحُكْمٍ إِلَهِيٍّ ، وَلَيْسَتْ قَضِيَّةً بِخُلٍّ أَوْ كِرَاهِيَّةٍ أَوْ مُحِبَّةٍ لِلْسَّيْفِ . لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ السَّيْفَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَصَارَ خَرُّ التَّصَرُّفِ فِيهِ ، فَأَعْطَاهُ لِسَعْدٍ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْكَرَمِ النَّبَوِيِّ ، وَعِلَاقَتِهِ الْوُطَيْدَةِ بِأَصْحَابِهِ . وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ لَيْسَ صَحَابِيًّا عَادِيًّا ، إِنَّهُ مِنْ كِبَارِ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الصَّحَابَةَ بِالتَّقْوَى وَالْإِصْلَاحِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَذَلِكَ بِالنِّزَامِ وَأَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَوَحْدُوا ضُفُوفَكُمْ ، وَاجْمَعُوا كَلِمَتَكُمْ ، وَأَصْلِحُوا الْحَالَ الَّتِي بَيْنَكُمْ

بالمحبة والألفة والاجتماع ، وابتعدوا عن الخلاف والتناحر . وأطيعوا الله ورسوله في أمر الغنائم وغيرها ، واقبلوا ما أمرتكم به في الغنائم وغيرها ، إن كنتم مؤمنين كاملين حقاً وصدقاً .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٧٥) : ((﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي : اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ، ولا تخاصموا ، ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خَيْرٌ مِّمَّا تَخْتَصِمُونَ بِسَبِّهِ ﴾ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي : في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف)) اهـ .

وقال البياضوي في تفسيره (١ / ٨٧) : ((﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي ذَلِكَ ، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ كَامِلِي الْإِيمَانِ ، فَإِنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ : طَاعَةِ الْأُمُورِ ، وَالِاتِّقَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)) اهـ .

وفي مسند أحمد (٥ / ٣٢٢) : عن أبي أمامة الباهلي قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال ، فقال : " فِينَا مَعْشَرُ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا ، فَنَزَعَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْ أَيْدِينَا ، فَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِينَا عَنْ بَوَاءٍ " . يَقُولُ : عَلَى السَّوَاءِ .

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم - حريصين على معرفة أسباب نزول الآيات وأحكام دينهم . فأبو أمامة الباهلي صحابي جليل ، ومع هذا لم يشعر بالحرَج ، ولم يترفع أن يسأل صحابياً آخر عن قضية يجهلها ، لأنَّ العلم كان هدفهم ، ولم يكن هدفهم المباهاة والرياء والتكبر . والسؤال كان عن سبب نزول هذه الآية الموجودة في سورة الأنفال . وقد وضَّح عبادة ابن الصامت - وهو أحد الذين شهدوا بدراً - الأمر بصدق وأمانة وضمن منهج النقد الذاتي ، ذون اختراع بطولات زائفة وذون شعارات وهمية . وقد كان شاهد عيان ، ويتحدث عن علم ومعرفة .

وقد نزلت الآية حين اختلف الصحابة في قضية تقسيم الغنائم ، وظهرت الخلافات الحادة ، والنزاعات الشديدة ، والتناحر على الغنائم . فنزع الله تعالى الغنائم من أيديهم ، وحرَّمهم منها ، كي يتعلموا درساً لا ينسونَه ، وجعل الغنائم بيد النبي ﷺ وخذه ، وليس للصحابة شيء منها مع أنهم الذين قاتلوا وعرضوا حياتهم للخطر ، وذلك من أجل إعادتهم إلى المسار الصحيح ، وإعطائهم درس في الوحدة والأخوة والاجتماع ، والابتعاد عن الصراع على متاع الدنيا الزائل . وبعد أن أذكروا خطأهم ، وأخرجوا حُبَّ الدنيا من قلوبهم ، وصحَّحوا مسارهم ، وصاروا يدًا واحدة ، وفهموا الدرس جيداً ، وعقدوا العزم على الوحدة والألفة ، ورفض الشقاق والنزاع والصراع ،

قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ الْغَنَائِمَ بَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ . وَزَالَ كُلُّ أَثَرٍ لِلْخِلَافِ وَالتَّنَاحُرِ ، كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾
[الأنفال : ٥] .

لَقَدْ أَخْرَجَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَدْرٍ لَطْلُبَ عِيرٍ فُرِيشَ بِالْحَقِّ . أَيِ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ
خَرَجَ وَمَعَهُ الْحَقُّ ، أَوْ أَنَّهُ ﷺ خَرَجَ بِالْحَقِّ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ . وَكَانَ هُنَاكَ قِسْمٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَكْرَهُونَ
الْقِتَالَ بِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْقَتْلِ ، أَوْ عَدَمِ الْإِسْتِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ . وَقَدْ أَذْرَكُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَحْصِلُوا
عَلَى الْغَنِيمَةِ إِلَّا بِالْقِتَالِ ، لِذَلِكَ كَرِهُوا خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْقِتَالِ . وَهَذَا كِرَاهَةُ الطَّبَعِ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالطَّبِيعَةِ
الْإِنْسَانِيَةِ بِسَبَبِ مَشَقَّةِ السَّفَرِ وَالْقِتَالِ ، وَلَيْسَتْ كِرَاهَةً أَمْرٍ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ كِرَاهَةَ أَمْرِ اللَّهِ كُفْرٌ .
وَالصَّحَابَةُ يَحْكُمُونَ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَلَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ، لِذَلِكَ لَمْ يَعْرِفُوا مَصْلَحَتَهُمْ فِي هَذِهِ
الْقَضِيَةِ . وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ مَصْلَحَتَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَمُوَاجَهَةِ الْعَدُوِّ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُهُمْ وَمَا
يُفْسِدُهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ . وَهُنَا ، تَبْرُزُ أَهْمِيَّةُ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ،
لَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ النَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ . وَالْإِنْسَانُ تَخْفَى عَلَيْهِ مَصْلَحَتُهُ الشَّخْصِيَّةُ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْأَحْيَانِ ، وَقَدْ يَكْرَهُ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَقَدْ يُحِبُّ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَهُ . وَرُبَّ امْرِئٍ حَتَفَهُ فِيمَا تَمَنَّاهُ .
وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٣٢١ و ٣٢٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾

فِي مَتَعَلِّقِ هَذِهِ الْكَافِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالْأَنْفَالِ ، ثُمَّ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ
: أَحَدُهَا أَنَّ تَأْوِيلَهُ : امْضِ لِأَمْرِ اللَّهِ فِي الْغَنَائِمِ وَإِنْ كَرِهُوا ، كَمَا مَضَتْ فِي خُرُوجِكَ مِنْ بَيْتِكَ وَهُمْ
كَارِهُونَ ، قَالَه الْفَرَّاءُ . وَالثَّانِي أَنَّ الْأَنْفَالَ لِلَّهِ وَالرَّسُولَ ﷺ بِالْحَقِّ الْوَاجِبِ ، كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
بِالْحَقِّ وَإِنْ كَرِهُوا ذَلِكَ ، قَالَه الرَّجَّاجُ . وَالثَّالِثُ أَنَّ الْمَعْنَى : يَسْأَلُوكَ عَنِ الْأَنْفَالِ مُجَادَلَةً ، كَمَا
جَادَلُوكَ فِي خُرُوجِكَ ، حَكَاهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ ...)) اهـ .

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ : ((إِنِّي
أُخْبِرْتُ عَنْ عِيرِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهَا مُقْبِلَةٌ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ نَخْرُجَ قَبْلَ هَذَا الْعِيرِ ؟ ، لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِمُنَاهَا)) .
فَقُلْنَا : نَعَمْ . فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا ، فَلَمَّا سَرْنَا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ، قَالَ لَنَا : ((مَا تَرَوْنَ فِي الْقَوْمِ فَإِنَّهُمْ قَدْ
أُخْبِرُوا بِمَخْرَجِكُمْ ؟)) ، فَقُلْنَا : لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ ، ثُمَّ قَالَ : ((
مَا تَرَوْنَ فِي قِتَالِ الْقَوْمِ ؟)) ، فَقُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو : إِذْنًا ، لَا نَقُولُ لَكَ يَا رَسُولَ
اللَّهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤]

. قال : فَتَمَنَّيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، لَوْ أَنَّا قُلْنَا كَمَا قَالَ الْمَقْدَادُ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَنَا مَالٌ عَظِيمٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى رَسُولِهِ : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) ﴾ (٤) .

لقد كَانَ تَفْكِيرُ الصَّحَابَةِ مَحْصُورًا فِي الْغَنِيمَةِ دُونَ الْقِتَالِ ، لَكِنَّهُمْ صَحَّحُوا خَطَأَهُمْ ، وَخَلَعُوا أَفْكَارَهُمُ الشَّخْصِيَّةَ ، وَتَرَكُوا حُبَّ ذَوَاتِهِمْ ، وَخَضَعُوا بِشَكْلِ كَامِلٍ لِإِرَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَرُؤْيِيَّتِهِ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٦] .

هَؤُلَاءِ فَرِيقٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَرِهُوا خُرُوجَ النَّبِيِّ ﷺ لِقِتَالِ قُرَيْشٍ ، لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمُ لِلْقِتَالِ أَوْ خَوْفًا مِنَ الْقِتَالِ . إِنَّهُمْ يُجَادِلُونَ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ بَعْدَ أَنْ اتَّضَحَ الْحَقُّ أَمَامَهُمْ وَظَهَرَتِ الْحَقِيقَةُ . وَكَانَ جِدَالُهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : " لَا وَاللَّهِ مَا لَنَا طَاقَةٌ بِقِتَالِ الْعَدُوِّ ، وَلَكِنْ أَرَدْنَا الْعِيرَ " . وَالْمَعْنَى : لَمْ تُعْلِمْنَا أَنَّ هُنَاكَ قِتَالًا فَنَسْتَعِدُّ لَهُ ، وَنُجَهِّزَ أَنْفُسَنَا وَأَسْلِحَتَنَا ، وَإِنَّمَا خَرَجْنَا لِلْعِيرِ وَلَيْسَ الْقِتَالُ . وَقَدْ ظَهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاتَّضَحَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمُ بِالظَّفَرِ بِأَحَدِي الطَّائِفَتَيْنِ ، وَهُمَا الْعِيرُ أَوِ الْجِيْشُ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٣٢٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : فِي الْقِتَالِ يَوْمَ بَدْرٍ ، لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا بِغَيْرِ عُدَّةٍ ، فَقَالُوا : هَلَّا أَخْبَرْتَنَا بِالْقِتَالِ لِنَأْخُذَ الْعُدَّةَ ، فَجَادَلُوهُ طَلَبًا لِلرُّخْصَةِ فِي تَرْكِ الْقِتَالِ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : تَبَيَّنَ لَهُمْ فَرَضُهُ ، وَالثَّانِي : تَبَيَّنَ لَهُمْ صَوَابُهُ . وَالثَّالِثُ : تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ إِلَّا مَا أُمِرْتَ بِهِ)) اهـ . وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ خَائِفِينَ مِنَ الْقِتَالِ لِقِلَّةِ عِدَدِهِمْ وَعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ ، وَيُعَانُونَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَعِ وَالرُّعْبِ ، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الصَّعْبَةِ يُشَبِّهُونَ مَنْ يُسَاقُ إِلَى الْقِتَالِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَسْبَابِ قَتْلِهِ بِعَيْنِيهِ ، وَلَا يَشْكُ فِيهَا . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُجَادِلَتَهُمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِسَبَبِ خَوْفِهِمُ الشَّدِيدِ ، وَالْخَوْفُ صِفَةٌ بَشَرِيَّةٌ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ . وَإِذَا سَيَّطَرَ الْخَوْفُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَنَعَهُ مِنَ التَّفَكِيرِ ، وَقَيَّدَ حَرَكَتَهُ . وَلَمْ تَكُنْ مُجَادِلَتُهُمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عِنَادًا أَوْ سُخْرِيَّةً أَوْ تَكْبِيرًا أَوْ رَفَضًا لِأَوَامِرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

(٤) (رواه الطبراني (٤ / ١٧٤) برقم (٤٠٥٦) . وحسنه الهيثمي في المجمع (٦ / ٩٤) برقم (٩٩٥٠) .

والجدير بالذكر أنَّ أشدَّ حال على الإنسان أن يُساق إلى الموت ، وينظر إليه بألم عينيهِ ، ويعلم أنَّه ميتٌ لا محالة ، ولا يشكُّ في ذلك ، ولا يقدر أن يمنع ذلك . إنها حال رهيبة ومُرعبة . إنَّ المؤمنين أحبُّوا أن تكون لهم العير تجنُّباً للقتال وإهدار الدماء ، فأرادوا نصراً سهلاً دون خوض حرب ، لكنَّ الله تعالى يريد إعلاء كلمته ، وتثبيت دعائم دينه المقدَّس ، واستئصال الكافرين ، فأمر المؤمنين بقتال قُريش . والخيرة فيما اختاره الله تعالى ، لأنه أعلم بالنفوس من أصحابها .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٩١) : ((﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق ، لإيثارهم تلقِّي العير عليه . ﴿ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم أنهم يُنصرون أينما توجَّهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي : يكرهون القتال كراهةً من يُساق إلى الموت وهو يُشاهد أسبابه . وكان ذلك لِقلة عددهم ، وعدم تأهّبهم . إذ رُوي أنهم كانوا رجالة _ ليس لديهم ما يركبون عليه _ ، وما كان فيهم إلا فارسان . وفيه إيماء إلى أنَّ مُجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٧] .

هذه الآية نزلت في قصة بدر . واذكروا يا صحابة النبي ﷺ حين وعدكم الله إحدى الطائفتين (الفرقتين) أنها لكم غنيمة ، تأخذونها وتستفيدون منها . إمَّا العير (مع أبي سفيان) ، وإمَّا النفير (مع أبي جهل) . ووعد الله ثابت لا يتخلف ، وواقع لا محالة .

وقد ذكرهم الله تعالى بوقت الوعد ، مع أنَّ المقصود هو الأحداث التي وقعت فيه ، وذلك لتعظيم الأمر ، والمبالغة التي تُشير إلى أهمية الحدث . وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٤١٩) : ((﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ أنها مُسخرة لكم ، وأنكم تغلبونها ، وتغنمون منها ، وتصنعون بها ما شئتم من قتلٍ وأسْرِ وغنيمة ، لا يُطبقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرّاً ولا نفعاً . وفي هذه الجملة تذكير لهم ببينة من النعم التي أنعم الله بها عليهم)) اهـ .

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ . وتُحبُّون أنَّ الطائفة التي لا سلاح لها تكون لكم ، وهي العير (القافلة) ، لأنها كسبٌ بلا قتال . وهي غنيمة سهلة لا يُوجد من يُدافع عنها . لذلك أحبُّوها ، وكرهوا ملاقاته النفير لكثرة عددهم وأسلحتهم . ومعنى الشوكة : السلاح .

لقد خرج المؤمنون من أجل عير قريش (القافلة) ، على أمل السيطرة عليها وأخذها غنيمةً سهلةً بعد أن استولى المشركون على ممتلكات المؤمنين . واعتقد المؤمنون أنهم سيأخذونها بكل

سهولة ، ودون تعب ولا قتال . وقد علم أبو سفيان (رأس القافلة) بالأمر ، فأرسل من يُخبر قُريشاً بذلك ، فخرج المشركون بأسلحتهم للدفاع عن تجارتهم ، وعلموا بنجاة القافلة ، لكنهم أصرُّوا على قتال المسلمين . فالتقى الطرفان في بدر . وكان عدد أصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، أمّا المشركون فقُرابة الألف .

وقد روى الترمذي في سننه (١٥٢ / ٤) وصحَّحه : عن البراء _ رضي الله عنه _ قال : ((كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَصْحَابَ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ كَعِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ رَجُلًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٢٣ و ٣٢٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ . قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ : أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ فِي عِيرٍ لِقُرَيْشٍ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ بَدْرٍ ، نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ ، فَخَرَجَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُرِيدُهُمْ ، فَلَمَّعَهُمْ ذَلِكَ ، فَبَعَثُوا عَمْرُو بْنَ ضَمَضَمَ الْغِفَارِيَّ إِلَى مَكَّةَ مُسْتَغِيثًا ، فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ لِلْمَنْعِ عَنْهَا ، وَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَفَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ ﴾ ، وَالْمَعْنَى : اذْكُرُوا إِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ . وَالطَّائِفَتَانِ أَبُو سُفْيَانٌ وَمَا مَعَهُ مِنَ الْمَالِ ، وَأَبُو جَهْلٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا سَبَقَ أَبُو سُفْيَانٌ بِمَا مَعَهُ ، كَتَبَ إِلَى قُرَيْشٍ : إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ لِنُحْرُوزِ رَكَائِبِكُمْ فَقَدْ أَخْرَزْتُهَا لَكُمْ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ . وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ الْقَوْمَ ، فَكَرِهَ أَصْحَابُهُ ذَلِكَ ، وَوَدُّوا أَنْ لَوْ نَالُوا الطَّائِفَةَ الَّتِي فِيهَا الْغَنِيمَةُ ذُونَ الْقِتَالِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ ﴾ أَي : ذَاتِ السَّلَاحِ)) اهـ .

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ . وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَ الدِّينَ الْحَقَّ (الْإِسْلَامَ) ، وَيُعْلِي شَأْنَهُ بِكَلِمَاتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ فِي الْأَزْلِ . وَذَلِكَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَإِهْلَاكِ قَادَتِهِمْ ، وَأَسْرِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمُتَمَلِّكَاتِهِمْ ، وَتَحْطِيمِ غُرُورِهِمْ ، وَكُسْرِ إِرَادَتِهِمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٨٠) : ((يُرِيدُ أَيَّ يَجْمَعُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهَا الشُّوْكَ وَالْقِتَالُ ، لِيُظْفِرَكُمْ بِهِمْ ، وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيُظْهِرَ دِينَهُ ، وَيَرْفَعَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ ، وَيَجْعَلَهُ غَالِبًا عَلَى الْأَدْيَانِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ لَكُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْعِبَادُ يُجِبُّونَ خِلَافَ ذَلِكَ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُمْ)) اهـ .

﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ . وَيَسْتَأْصِلُ اللَّهُ كُفَارَ الْعَرَبِ ، بِحَيْثُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْهُمْ . لِذَلِكَ أَمَرَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالْقِتَالِ .

وأنتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُرِيدُونَ الْغَنِيمَةَ وَالْأَمْوَالَ بِلَا قِتَالٍ . وَاللَّهُ اخْتَارَ لَكُمْ الْأَفْضَلَ وَالْأَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْخَيْرَةَ فِي مَا اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٩١) : ((وَالْمَعْنَى : أَنْكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُصِيبُوا مَالًا ، وَلَا تَلْقَوْا مَكْرُوهًا ، وَاللَّهُ يُرِيدُ إِعْلَاءَ الدِّينِ ، وَإِظْهَارَ الْحَقِّ ، وَمَا يُحْصَلُ لَكُمْ فَتُوزَرُ الدَّارَيْنِ)) اهـ . وَقَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي الْبَحْرِ (٤ / ٤٦٤) : ((وَالْمَعْنَى أَنْكُمْ تَرْغَبُونَ فِي الْفَائِدَةِ الْعَاجِلَةِ ، وَسَلَامَةِ الْأَحْوَالِ ، وَتَسْفَافِ الْأُمُورِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ مَعَالِيَ الْأُمُورِ ، وَإِعْلَاءَ الْحَقِّ ، وَالْفَوْزَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَتَّى مَا بَيْنَ الْمُرَادَيْنِ ، وَلِذَلِكَ اخْتَارَ لَكُمْ ذَاتَ الشُّوْكَةِ ، وَأَرَاكَهُمْ عِيَانًا خِذْلًا لِنَهْمٍ ، فَتَصَرَّكُم ، وَهَزَمَهُمْ ، وَأَذَلَّهُمْ ، وَأَعَزَّكُمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الْأَنْفَال : ٨] . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَأْصَلَ الْمُشْرِكِينَ كَيْ يُظْهِرَ الْإِسْلَامَ وَيُعِزَّهُ وَيُعْلِي شَأْنَهُ ، وَيَمْسَحَ الْكُفْرَ وَيُفْنِيَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ إِظْهَارَ الْإِسْلَامِ وَإِبْطَالَ الشُّرْكِ . وَإِحْقَاقُ الْحَقِّ يَعْنِي إِظْهَارَهُ ، وَلَا يَعْنِي جَعْلَهُ حَقًّا بَعْدَ إِذْ لَمْ يَكُنْ . فَالْحَقُّ حَقٌّ دَائِمًا وَأَبَدًا ، لَكِنَّ الْقَضِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بِإِظْهَارِهِ أَوْ إِخْفَائِهِ . وَالْبَاطِلُ بَاطِلٌ دَائِمًا وَأَبَدًا ، لَكِنَّ الْقَضِيَّةَ تَتَعَلَّقُ بِوُجُودِهِ أَوْ عَدَمِ وُجُودِهِ . وَإِبْطَالُ الْبَاطِلِ يَعْنِي إِعْدَامَهُ . وَلَا يُوجَدُ تَكَرَّرُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا ، لِأَنَّ الْأَوَّلَى الْفَرْقَ بَيْنَ مُرَادِ اللَّهِ وَمُرَادِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالتَّفَاوُتَ بَيْنَ الْمُرَادَيْنِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ تُوضِّحُ الْحِكْمَةَ الَّتِي جَعَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَخْتَارُ ذَاتَ الشُّوْكَةِ (الْقِتَالِ) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٤١٩) : ((وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَكْرِيرٌ لِمَا قَبْلَهَا ، لِأَنَّ الْأَوَّلَى لِبَيَانِ التَّفَاوُتِ فِيمَا بَيْنَ الْإِرَادَتَيْنِ ، وَهَذِهِ لِبَيَانِ الْحِكْمَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى ذَلِكَ ، وَالْعِلَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ ، وَالْمَصْلَحَةِ الْمَتَرْتِبَةِ عَلَيْهِ)) اهـ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ وَقْعَةَ بَدْرٍ كَانَتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الْأَنْفَال : ٣٠] .

إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . وَاللَّهُ يُذَكِّرُ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِنِعْمَةٍ خَاصَّةٍ وَجَلِيلَةٍ ، وَهِيَ إِنْقَاذُهُ مِنْ قُرَيْشٍ ، بَعْدَ أَنْ خَطَطُوا لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ ، وَإِنْهَاءِ دَعْوَتِهِ إِلَى الْأَبَدِ . اذْكُرْ يَا مُحَمَّدٌ وَقْتُ مَكْرِ الْكَافِرِينَ بِكَ ، لِيَحْبِسُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ كَيْ يَتَفَرَّقَ دَمُكَ بَيْنَ الْقَبَائِلِ أَوْ يُخْرِجُوكَ مِنْ مَكَّةَ .

والجدير بالذكر أنَّ سورة الأنفال مدنية ، ومَكْرُ قُرَيْش كان في مكة . والله يُدْكَرُهم بِنِعْمِهِ العظيمة في المدينة كي يَظْلُوا ذاكِرِينَ لِنِعْمِ اللَّهِ ، شاكرين له .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٠٣) : ((﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تَذْكَارَ لَمَّا مَكَرَتْ قُرَيْشُ بِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ ، لِيَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي خَلَاصِهِ مِنْ مَكْرِهِمْ وَاسْتِيلَانِهِ عَلَيْهِمْ . والمعنى : واذكر إذ يَمْكُرُونَ بِكَ ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بِالوَثَاقِ ، أو الحبس ، أو الإِثْخَانِ بالجراح ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ضَرْبُهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ لَا حَرَكَ بِهِ وَلَا بَرَّاحَ ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ بِسُيُوفِهِمْ ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ مِنْ مَكَّةَ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٦ و ٣٤٧) : ((قال أهل التفسير : لَمَّا بُوِيعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ، وَأَمَرَ أَصْحَابُهُ أَنْ يَلْحَقُوا بِالْمَدِينَةِ ، أَشْفَقَتْ قُرَيْشُ أَنْ يَغْلُوَ أَمْرُهُ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَكُنَّا بِكُمْ بِهَذَا كَرَّرَ عَلَيْكُمْ بِالرَّجَالِ ، فَاجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ لِيَدْخُلُوا دَارَ النَّدْوَةِ فَيَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ ، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ ، فَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟ ، قَالَ : أَنَا شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، سَمِعْتُ مَا اجْتَمَعْتُمْ لَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَخْضِرُكُمْ ، وَلَنْ تَعْدُمُوا مِنْ رَأْيِي نَصَحًا ، فَقَالُوا : ادْخُلْ ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ ، فَقَالُوا : انظُرُوا فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : احْبِسُوهُ فِي وَثَاقٍ ، وَتَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ ، فَقَالَ إِبْلِيسُ : مَا هَذَا بِرَأْيٍ ، يُوشِكُ أَنْ يَنْتَبِ أَصْحَابُهُ فَيَأْخُذُوهُ مِنْ أَيْدِيكُمْ ، فَقَالَ قَائِلٌ : أَخْرِجُوهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَقَالَ : مَا هَذَا بِرَأْيٍ ، يُوشِكُ أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ يَسِيرُ إِلَيْكُمْ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : نَأْخُذُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ غُلَامًا ، ثُمَّ نَعْطِي كُلَّ غُلَامٍ سَيْفًا ، فَيَضْرِبُونَهُ بِهِ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقُبَائِلِ ، فَمَا أَظُنُّ هَذَا الْحَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ (يَعْنِي بَنِي هَاشِمٍ) يَقْوَى عَلَى ضَرْبِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا ، فَيَقْبَلُونَ الْعَقْلَ (الدِّيَّةَ) وَنَسْتَرِيحُ ، فَقَالَ إِبْلِيسُ : هَذَا وَاللَّهِ الرَّأْيُ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْ ذَلِكَ . وَاتَى جَبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَكْرِ الْقَوْمِ ، فَلَمْ يَبِيتْ فِي مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَأَمَرَ عَلِيًّا ، فَبَاتَ فِي مَكَانِهِ ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَذِنَ لَهُ اللَّهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ لَمَّا أَصْبَحُوا ، فَرَأَوْا عَلِيًّا ، فَقَالُوا : أَيْنَ صَاحِبُكَ ؟ ، قَالَ : لَا أَدْرِي ، فَاقْتَصَّوْا أَثَرَهُ ، حَتَّى بَلَغُوا الْجَبَلَ ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ ، فَرَأَوْا نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ ، فَقَالُوا : لَوْ دَخَلَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ)) اهـ .

إنَّ عداوة قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ ليست ارتجاليةً أو عفوية . إنها عداوة راسخة تستند إلى الحقد الدفين ، والحسد المتجذّر ، والمكر ، والخديعة . إنها عداوة عن سَبَقِ الإِصرار والتَّرسد . لذلك كان أَشْرَافُ قُرَيْشٍ حَرِيصِينَ أَشَدَّ الْحَرَصِ عَلَى التَّخْلِصِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَوَادٍ دَعْوَتَهُ ، وَذَلِكَ

بالتخطيط الخبيث، ووضع الاحتمالات المتعددة ودراستها ، من أجل تطبيق الاحتمال الأكثر إجراماً وخبثاً على أرض الواقع . وقد أبطل الله كَيْدَهُم ، وأرسل جبريل _ عليه السلام _ لإعلام النبي ﷺ بِخُطَةِ قُرَيْش . وأخذ النبي ﷺ بالأسباب ، فَلَمْ يَنْمَ فِي مَضْجَعِهِ ، وأمرَ عَلِيًّا أَنْ ينام مكانه ، وهذا يدل على ثِقَةِ النبي ﷺ المطلقة بعلي _ رضي الله عنه _ ، والعلاقة الخاصة التي تجمع بين النبي ﷺ وابن عمِّه علي . وباتَ عليٌّ مكانه بلا تردُّد ولا خَوْف ، وهذا يدل على ثبات قلبه في الشدائد ، وشجاعته العظيمة . فحياة عليٍّ مُعرَّضة للخطر الحقيقي ، وقد يفقد حياته في آية لحظة ، ومع هذا نام مكان النبي ﷺ ، وعرض حياته للخطر امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، وحمايةً للدعوة الإسلامية . وردَّ الله كَيْدَ المشركين في نُحُورِهِمْ ، وجلَّلَهُم بالخزي والعار ، فانتقلوا من فشل إلى فشل .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنه _ في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ، قال : ((تشاورت قُرَيْشُ لَيْلَةً بِمَكَّةَ ، فقال بعضهم : إذا أصبحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالوَثَاقِ ، يُريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله _ عزَّ وجلَّ _ نبيَّه على ذلك ، فباتَ عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحقَ بالغار ، وباتَ المشركون يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسِبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ ، فلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ ، فلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ ، فقالوا : أينَ صاحبُك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقْتَصُّوا أَثَرَهُ ، فلَمَّا بَلَغُوا الجبلَ خُلِطَ عَلَيْهِمْ ، فصعدوا في الجبل ، فَمَرُّوا بالغار ، فَرَأَوْا على بابهِ نَسَجَ العنكبوت ، فقالوا : لَوْ دَخَلْنا هُنَا لَمْ يَكُنْ نَسَجُ العنكبوت على بابهِ ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ))^(٥).

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٦) . يتآمرُ عَلَيْكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يا محمد ، ويُحْطِطُونَ لِلتَّخْلِصِ مِنْكَ ، وَيَكِيدُونَ لَكَ . والله لهم بالمرصاد ، يَرِعاكَ ، ويَحْفَظُكَ ، ويُدَبِّرُ لَكَ ما

(٥) رواه أحمد في مسنده (٣٤٨ / ١) برقم (٣٢٥١) . وحسنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ١٨١) ، ووافقه الحافظ في الفتح (٢٣٦ / ٧) .

(٦) لا يجوز القول إن الله مَكْرٌ يَمْكُرُ بعباده، ويُريد إضلالهم أو خداعهم . فالمَكْرُ من الله هو استدراج العبد ، وأخذُه بَغْتَةً مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي . وفي تفسير القرطبي (٩٩ / ٤) : ((وقال الرَّجَّاجُ : مَكْرُ اللَّهِ مُجَازَاتُهُ عَلَى مَكْرِهِمْ ، فَسَمِيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ الْإِبْتِدَاءِ)) اهـ .

وكما في قول الشاعر : ألا لا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهِلْ فَوْقَ جَهِلِ الْجَاهِلِينَ

يَفْضَحُ أَمْرَهُمْ، وَيَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ، وَيُبْطِلُ مَكْرَهُمْ، وَيَرُدُّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ. وَاللَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى مَكْرِهِمْ، وَيَقُودُهُمْ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَعَذَابِهِمْ. وَتَدْبِيرُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ تَدْبِيرِ الْمُشْرِكِينَ. إِذْ إِنَّ تَدْبِيرَهُ سُبْحَانَهُ يُبْطِلُ تَدْبِيرَهُمْ، وَيَجْعَلُهُ تَدْمِيرًا عَلَيْهِمْ. وَاللَّهُ أَعْظَمُ الْمُجَازِينَ بِالسَّيِّئَةِ الْعَقُوبَةِ، فَقَدْ أَهْلَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَكِيدُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَرَاخَهُ مِنْهُمْ. وَسَمَّى هَذِهِ الْمُجَازَاةَ مَكْرًا مُشَاكَلَةً. وَالْمَكْرُ هُوَ التَّدْبِيرُ خُفِيَّةً. وَاللَّهُ يُخْفِي مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْهَلَاكِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً. فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَقْوَى مَكْرًا، وَالْأَقْدَرُ عَلَى إِيصَالِ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ الْكَافِرُونَ وَلَا يَحْتَسِبُونَ.

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٠٣) : ((﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ بِرَدِّ مَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَوْ بِمُجَازَاتِهِمْ عَلَيْهِ، أَوْ بِمُعَامَلَةِ الْمَاكِرِينَ مَعَهُمْ، بِأَنْ أَخْرَجَهُمْ إِلَى بَدْرٍ، وَقَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا. ﴾ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إِذْ لَا يُؤْبَهُ بِمَكْرِهِمْ ذُنُوبُ مَكْرِهِ، وَإِسْنَادُ أَمْثَالِ هَذَا مَا يَحْسُنُ لِلْمَرْأَةِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهَا ابْتِدَاءً لِمَا فِيهِ مِنْ إِيْهَامِ الدَّمِ)) اهـ.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْظَمُ الْمُجَازِينَ لِمَكْرِ الْمَاكِرِينَ وَخُبْثِهِمْ، يُوقِعُهُمْ فِي شَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَكُونُ عَذَابُهُمْ وَهْلًا لَهُمْ مُفَاجِئًا وَمُبَاعِثًا وَصَاعِقًا، وَهَذَا أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ، وَأَعْظَمُ بَلَاءً مِنْ مَكْرِهِمْ. إِنَّهُمْ يَدْفَعُونَ ثَمَنَ مَكْرِهِمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً. وَعَنْصَرُ الْمَفَاجِئِ قَاتِلٌ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الْأَنْفَالُ : ٤١]. يُعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفِيَّةَ تَقْسِيمِ الْغَنَائِمِ. وَالْغَنَائِمُ جَمْعُ غَنِيمَةٍ، وَهِيَ مَا يَنَالُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْكُفَّارِ قَهْرًا^(٧). وَإِبَاحَةُ الْغَنَائِمِ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

وهنا تبرز المُشَاكَلَةُ اللفظية. فالمعروف أن التصدي للجهل ليس جهلاً، وإنما هو عين الحزم. كما أن العاقل لا يفتخر بالجهل. وما وجود هذه الألفاظ في كلام الشاعر إلا من باب المُشَاكَلَةِ. وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٢٥٣) : ((فَسَمَّى انتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قاله لِيَزْدَوِجَ الْكَلَامُ فَيَكُونَ أَخْفَ عَلَى اللِّسَانِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَهُمَا. وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا وَضَعُوا لَفْظًا بِإِزَاءِ لَفْظٍ جَوَابًا لَهُ وَجَزَاءً، ذَكَرُوهُ بِمِثْلِ لَفْظِهِ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لَهُ فِي مَعْنَاهُ)) اهـ.

(٧) قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤١٠) : ((وَالْغَنِيمَةُ هِيَ الْمَالُ الْمَأْخُودُ مِنَ الْكُفَّارِ بِإِيْجَافٍ (تحريك) الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ (الْإِبِلِ). وَالْفَيْءُ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ كَالْأَمْوَالِ الَّتِي يُصَالِحُونَ عَلَيْهَا، أَوْ يُتَوَفَّوْنَ

الإسلامية دليلًا على مكانتها الجليلة، وشرفها الرفيع، وتميُّزها عن باقي الأمم السابقة التي كانت الغنائم مُحَرَّمَةً عليهم .

وتقسيمُ الغنائم تقسيمٌ إلهيٌّ ، وليس اجتهاذاً بشرياً . حيث تُقسَّم خمسة أخماس ، فيُعطى الخُمُس للنبي ﷺ وقرابته (بني هاشم وبني المطلب) واليتامى (الصغار الذين مات آباؤهم) والمساكين (الفقراء المحتاجين) وابن السبيل (المنقطع في سفره من المسلمين) .

أما الأربعة أخماس فتُعطى للمجاهدين الغانمين الذين وضعوا أرواحهم على أكفهم من أجل إعلاء كلمة الله تعالى . ويجب تخميس كلِّ قليل وكثير . والله تعالى قد أضاف الغنيمة إلى الغانمين ، فقال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، وهذا يعني أنها صارت مُلكاً لهم .

وذكر " الله " في الآية: ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ استفتاح كلامٍ للتبرُّك والتعظيم . والله الدنيا والآخرة بكل ما فيهما ، والله غنيٌّ عن كلِّ شيء . والآية تشير إلى أنَّ سَهْمَ الله وسَهْمَ رسوله ﷺ واحدٌ . وقد قال النبي ﷺ لَمَّا سُئِلَ عن الغنيمة : ((لِلَّهِ خُمُسُهَا ، وأربعة أخماسٍ للجيش))^(٨) .

وقال البغوي في تفسيره (٣٥٧ / ١) : ((ذهب أكثر المفسرين والفقهاء إلى أنَّ قوله: ﴿ لِلَّهِ ﴾ افتتاحُ كلامٍ على سبيل التبرُّك . وإضافته هذا المال إلى نفسه لشرفه ، وليس المراد منه أنَّ سَهْمًا من الغنيمة لله مُفَرَّدًا ، فإنَّ الدنيا والآخرة كُلُّها لله _ عَزَّ وَجَلَّ _ . وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشَّعبي ، قالوا : سَهْمُ الله وسَهْمُ الرسولِ واحدٌ . والغنيمة تُقسَّم خمسة أخماس . أربعة أخماسها لِمَن قَاتَلَ عَلَيْهَا . والخُمُسُ لخمسة أصناف ، ذَكَرَهُمَ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾)) اهـ .

وروى التَّسائيُّ في سننه (١٣٢ / ٧) عن عطاء : في قوله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ ، قال : خُمُسُ الله وخُمُسُ رسوله واحدٌ . كان رسول الله ﷺ يَحْمِلُ مِنْهُ ، ويُعْطِي مِنْهُ ، وَيُضْعُهُ حَيْثُ شَاءَ ، وَيَصْنَعُ بِهِ مَا شَاءَ .

والمقصودُ بالقرابة في الآية الذين يُعْطَوْنَ مِنَ الْخُمُسِ _ بنو هاشم وبنو المطلب حَصْرِيًّا ، لأنهما متلازمان ووحدَةٌ واحدة .

عنها ولا وَّارث لهم ، والجزية ، والخُراج ، ونحو ذلك . هذا مذهب الإمام الشافعيِّ في طائفة من علماء السلف والخلف . ومن العلماء مَنْ يُطْلِقُ الْقِيَّءَ على ما تُطْلَقُ عليه الغنيمة ، وبالعكس أيضًا)) .

(٨) رواه البيهقي في سننه (٦٢ / ٩) برقم (١٧٧٩١) . وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٤١٠ / ٢) .

عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال : لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْمَ الْقُرْبَى مِنْ خَيْبَر بَيْنَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ ، جِئْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُمْ لِمَكَانِكَ الَّذِي وَصَفَكَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِهِ مِنْهُمْ ، أَرَأَيْتَ إِخْوَانَنَا مِنْ بَنِي الْمُطَلِّبِ ، أُعْطِيَتْهُمْ وَتَرَكْنَا ، وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ مِنْكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، قَالَ : ((إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونِي فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّمَا هُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَلِّبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ)) ، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ (9) .

لَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ سَبَبَ إِعْطَاءِ بَنِي الْمُطَلِّبِ مِنَ الْخُمْسِ عَدَمَ مُفَارَقَتِهِمْ لَهُ ، وَلَيْسَ دَرَجَةُ قَرَابَتِهِمْ . فَالْعَبْرَةُ هُنَا فِي التَّمَاثُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَقْدِيمِ الدَّعَمِ ، وَلَيْسَ رَابِطَةُ الدَّمِ (10) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٤١٠) : ((وَأَمَّا سَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى فَإِنَّهُ يُصْرَفُ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَلِّبِ ، لِأَنَّ بَنِي الْمُطَلِّبِ وَازَرُوا - أَعَانُوا - بَنِي هَاشِمٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي الشَّعْبِ غَضَبًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِمَايَةً لَهُ ، مُسْلِمُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَكَافَرُهُمْ حِمِيَّةً لِلْعَشِيرَةِ وَأَنْفَةً وَطَاعَةً لِأَبِي طَالِبٍ عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنُو نَوْفَلٍ - وَإِنْ كَانُوا بَنِي عَمِّهِمْ - فَلَمْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، بَلْ حَارَبُوهُمْ وَنَابَذُوهُمْ ، وَمَالُؤُوا بُطُونَ قُرَيْشٍ عَلَى حَرْبِ الرَّسُولِ)) اهـ .

لَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ : أَيْنَ يَذْهَبُ السَّهْمَانِ (سَهْمُ النَّبِيِّ وَسَهْمُ قَرَابَتِهِ) بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ؟ . وَقَدْ خَاضَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ .

(٩) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٤ / ٨١) بِرَقْمِ (١٦٧٨٧) . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي نَيْلِ الْأَوْطَارِ (٨ / ١٤٧) : رَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ وَذَكَرَ أَنَّهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ .

(١٠) قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٥٧) : ((وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى ، هَلْ هُوَ ثَابِتُ الْيَوْمِ ؟ ، فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُ ثَابِتٌ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ إِلَى أَنَّهُ غَيْرُ ثَابِتٍ ، وَقَالُوا : سَهْمُ رَسُولِ اللَّهِ وَسَهْمُ ذَوِي الْقُرْبَى مَرْدُودَانِ فِي الْخُمْسِ ، وَخُمْسُ الْغَنِيمَةِ لِثَلَاثِ أَصْنَافٍ : الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ دُونَ الْأَغْنِيَاءِ . وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يُدْلَانِ عَلَى ثُبُوتِهِ . وَالْخُلَفَاءُ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ كَانُوا يُعْطَوْنَ ، وَلَا يُفْضَلُ فَقِيرٌ عَلَى غَنِيٍّ = لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَالْخُلَفَاءَ بَعْدَهُ ، كَانُوا يُعْطَوْنَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ مَعَ كَثْرَةِ مَالِهِ ، فَأَلْحَقَهُ الشَّافِعِيُّ بِالْمِيرَاثِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِاسْمِ الْقَرَابَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُعْطَى الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ . وَقَالَ : يُفْضَلُ الذَّكَرُ عَلَى الْأُنْثَى ، فَيُعْطَى الرَّجُلُ سَهْمَيْنِ ، وَالْأُنْثَى سَهْمًا وَاحِدًا)) .

وفي مُستدرَك الحاكم (٢ / ١٤٠): عن الحسن بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، قال: ((
اختلفَ الناس في هَذين السَّهْمَيْنِ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال قائلون : سَهُمُ الْقُرْبَى لِقَرَابَةِ النَّبِيِّ
ﷺ ، وقال قائلون : لِقَرَابَةِ الْخَلِيفَةِ ، وقال قائلون : سَهُمُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ ، فاجتمعَ
رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا هَذين السَّهْمَيْنِ فِي الْخَيْلِ وَالْعُدَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَكَانَا عَلَى ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ
أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -)) .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾ . التَّزِمُوا بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْخُمْسِ فِي الْغَنَائِمِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمَا
أَنْزَلْنَا عَلَى مُحَمَّدٍ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّصْرِ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ
وَالْبَاطِلِ ، يَوْمَ التَّقَى الْمُؤْمِنُونَ (حِزْبُ اللَّهِ) وَالْكَافِرُونَ (حِزْبُ الشَّيْطَانِ) . وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ١٧
رَمَضَانَ ، السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهَجْرَةِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَهُوَ الَّذِي نَصَرَكُمْ مَعَ
قِلَّتِكُمْ وَكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ .

وروى الطبري في تفسيره (٦ / ٢٤٨) أَنَّ الْحَسْنَ بْنَ عَلِيٍّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
قال : ((كَانَتْ لَيْلَةُ الْفُرْقَانِ ، يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ ، لِسَبْعِ عَشْرَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ)) .
وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤١٠) : إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ قَوِي .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرَحَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ ، فَقَالَ : ((شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدَّوا خُمْسَ مَا غَنِمْتُمْ))^(١١) .

وهذا دليلٌ واضحٌ على إيجاب الْخُمْسِ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى .
إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُذَكِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِنِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، حَيْثُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ،
لِذَلِكَ يُسَمَّى يَوْمَ الْفُرْقَانِ . وَقَدْ أَعْلَى اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ عَلَى الْكُفْرِ ، وَنَصَرَ مُحَمَّدًا ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ .
وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ ، يَعْنِي بِالْفُرْقَانِ يَوْمَ بَدْرٍ ، يَوْمَ فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ^(١٢) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤١٠) : ((وَهُوَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
وَكَانَ رَأْسُ الْمُشْرِكِينَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَالتَقُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِتَسْعِ عَشْرَةٍ أَوْ سَبْعِ عَشْرَةٍ ، مَضَتْ مِنْ

(١١) متفق عليه . مسلم (١ / ٤٦) برقم (١٧) ، والبخاري (١ / ١٩٥) برقم (٥٠٠) .

(١٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٣ / ٢٥) برقم (٤٣٠٧) وصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فَهَزَمَ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ زِيَادَةُ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَأُسِرَ مِنْهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ)) اهـ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٤٠] .
 لَقَدْ تَعَاهَدَ اللَّهُ بِحِفْظِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَكْفُلَ بِنَصْرِهِ ، سِوَاءَ أَعَانَهُ الْمُؤْمِنُونَ أَمْ لَمْ يُعِينُوهُ . وَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَظْهَرَ دِينَهُ ، فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ ، حَيْثُ قَلَّةُ الْأَتْبَاعِ وَكَثْرَةُ الْعَدُوِّ . وَأَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فَصَارَ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَارْتَفَعَتِ كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ إِلَى الْأَبَدِ .

لَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عِنْدَ قَلَّةِ الْأَوْلِيَاءِ وَكَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ ، فَكَيْفَ بِهِ الْيَوْمَ وَهُوَ فِي كَثْرَةِ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ؟ ! . وَاللَّهُ سَوْفَ يَنْصُرُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَمَا نَصَرَهُ فِي الْمَاضِي .
 إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا مُحَمَّدًا ﷺ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَتُعِينُوهُ ، وَتُسَاعِدُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ ، فَقَدْ نَصَرَهُ فِي مَوَاضِعِ الضَّعْفِ وَالْقِلَّةِ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ بِالْعِزِّ وَالْمَجْدِ وَالْقَهْرِ .
 وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ١٣١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ يَقُولُ : تُعِينُوهُ بِالنَّفَرِ مَعَهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . عَاتَبَهُمُ اللَّهُ بَعْدَ انْصِرَافِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَبُوكَ . قَالَ النَّقَاشُ : هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ سُورَةِ " بَرَاءة " . وَالْمَعْنَى : إِنْ تَرَكْتُمْ نَصْرَهُ فَاللَّهُ يَتَكْفَلُ بِهِ ، إِذْ قَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنِ الْقِلَّةِ ، وَأَظْهَرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ بِالْغَلْبَةِ وَالْعِزَّةِ . وَقِيلَ : فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ بِصَاحِبِهِ فِي الْغَارِ بِتَأْنِيْسِهِ لَهُ ، وَحَمَلَهُ عَلَى عُتْقِهِ ، وَبَوْفَانِهِ ، وَوَقَاتِيَتِهِ لَهُ بِنَفْسِهِ ، وَمُؤَاسَاتِهِ لَهُ بِمَالِهِ . قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ : مَا صَحِبَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْمُعَاتَبَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾)) اهـ .

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ . أَخْرَجَهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ مِنْ مَكَّةَ (وَطَنِهِ) ، حِينَ مَكَّرُوا بِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ . وَهُوَ أَحَدُ الْاِثْنَيْنِ . الْأَوَّلُ : النَّبِيُّ ﷺ ، وَالثَّانِي : أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَقَدْ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ هَارِبَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْهَجْرَةِ ، حَيْثُ هَمَّ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ . وَالْمَعْنَى : لَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْقَاسِيَةِ ، فَلَنْ يَخْذُلَهُ فِي غَيْرِهَا .

وَتَمَّ إِسْنَادُ الْإِخْرَاجِ إِلَى الْكَافِرِينَ، تَسْجِيلاً عَلَيْهِمْ وَإِدَانَةً لَهُمْ . فَهُمْ يَتَحَمَّلُونَ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً، لِأَنَّهُمْ كَانُوا السَّبَبَ فِي خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ وَطْنِهِ وَدَارِهِ ، إِذْ إِنَّهُمْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ أَوْ قَتْلِهِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ تَسَبَّبَ بِحُدُوثِ شَيْءٍ، نُسِبَ إِلَيْهِ فِعْلُ ذَلِكَ الشَّيْءِ ، وَكَانَ مِثْلَ الْفَاعِلِ تَمَامًا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ١٣١) : ((وَهُوَ (النَّبِيُّ ﷺ) خَرَجَ بِنَفْسِهِ فَارًّا ، لَكِنْ بِالْجَائِثِ إِلَى ذَلِكَ حَتَّى فَعَلَهُ ، فَنُسِبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ ، وَرَتَّبَ الْحُكْمَ فِيهِ عَلَيْهِمْ ، فَلِهَذَا يُقْتَلُ الْمُكْرَهُ عَلَى الْقَتْلِ ، وَيُضْمَنُ الْمَالُ الْمُتْلِفُ بِالْإِكْرَاهِ ، لِلْجَائِثِ الْقَاتِلِ وَالْمُتْلِفِ إِلَى الْقَتْلِ وَالْإِتْلَافِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٤٣٩) : ((قَالَ الرَّجَاجُ : وَقَوْلُهُ : « ثَانِي اثْنَيْنِ » مَنصُوبٌ عَلَى الْحَالِ . الْمَعْنَى : قَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ أَحَدَ اثْنَيْنِ ، أَيِ نَصَرَهُ مُنْفَرِدًا إِلَّا مِنْ أَبِي بَكْرٍ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الشَّعْبِيِّ : عَاتَبَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْمَعْنَى : أَخْرَجُوهُ وَهُوَ أَحَدُ الْاثْنَيْنِ ، وَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ)) اهـ .

« إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ » . لَجَأَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ . وَالْغَارُ ثُقْبٌ فِي أَعْلَى ثَوْرٍ ، وَهُوَ جَبَلٌ فِي مَكَّةَ . وَقَدْ مَكَّنَّا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ١٣١) : ((وَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارُوا إِلَى الْمَدِينَةِ قَالُوا : هَذَا شَرٌّ شَاغَلَ لَا يُطَاقُ ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَبَيَّتُوهُ وَرَصَدُوهُ عَلَى بَابِ مَنْزِلٍ طَوَّلَ لَيْلَتَهُمْ لِيَقْتُلُوهُ إِذَا خَرَجَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يَنَامَ عَلَى فِرَاشِهِ ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُعَمِّيَ عَلَيْهِمْ أَثَرَهُ ، فَطَمَسَ اللَّهُ عَلَى أَبْصَارِهِمْ ، فَخَرَجَ وَقَدْ غَشِيَهُمُ النَّوْمُ ، فَوَضَعَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ تَرَابًا ، وَنَهَضَ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا خَرَجَ عَلَيْهِمْ عَلِيٌّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ لَيْسَ فِي الدَّارِ أَحَدٌ ، فَعَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَاتَ وَنَجَا ، وَتَوَاعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ لِلْهَجْرَةِ ، فَدَفَعَا رَاِحَتَيْهِمَا إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْقَطٍ ، وَيُقَالُ ابْنُ أَرْقَطٍ ، وَكَانَ كَافِرًا ، لَكِنَّهُمَا وَثَقَا بِهِ ، وَكَانَ دَلِيلًا بِالطَّرِيقِ فَاسْتَأْجَرَاهُ لِيُذِلَّ بِهِمَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَوْخَةٍ فِي ظَهْرِ دَارِ أَبِي بَكْرٍ الَّتِي فِي بَنِي جُمَحٍ ، وَنَهَضَا نَحْوَ الْغَارِ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، وَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَتَهُ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَسْتَمَعَ مَا يَقُولُ النَّاسُ ، وَأَمَرَ مَوْلَاهُ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ أَنْ يَرْعَى غَنَمَهُ ، وَيُرِيحَهَا عَلَيْهِمَا لَيْلًا ، فَيَأْخُذَ مِنْهَا حَاجَتَهُمَا ، ثُمَّ نَهَضَا فَدَخَلَا الْغَارَ ، وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ تَأْتِيهِمَا بِالطَّعَامِ ، وَيَأْتِيهِمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِالْأَخْبَارِ ، ثُمَّ يَتْلُوهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِالْغَنَمِ فَيُعْفِي آثَارَهُمَا ، فَلَمَّا فَتَدَتْهُ قُرَيْشٌ جَعَلَتْ تَطْلُبُهُ بِقَائِفٍ مَعْرُوفٍ بِقَفَاءِ الْأَثَرِ ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى الْغَارِ فَقَالَ : هُنَا

انقطع الأثر ، فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتله ، فلما رأوا نسج العنكبوت أيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة لمن رده عليهم)) .

لقد ضرب النبي ﷺ وأبو بكر أروع الأمثلة في التضحية والتخطيط والاستعداد . لم تكن أفعالهم ارتجالية أو فوضوية. وإنما كانت أفعال موزونة ، وخطوات مدروسة ، وقرارات واقعية . ويتجلى الأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله تعالى . وهذا الأمر يتضح في تفاصيل الهجرة من البداية إلى النهاية . لذلك ينبغي على المؤمن أن يخطط لمسار حياته ، وأن يرسم كل خطوة بدقة ، ويعرف ماذا يفعل ، وما هي نقطة البداية ، وما هي نقطة النهاية . ينبغي معرفة المسار والمصير ، والاستعانة بالمخلصين من أصحاب الخبرة . ولا يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٧٩٠) أن عائشة _ رضي الله عنها _ زوج النبي ﷺ قالت : ((واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل، هَادِيًا خَرِيَّتًا، وهو على دين كفار قُرَيْش ، فدفعاه إليه راحلتيهما ، وواعداه غَارَ ثَوْر ، بعد ثلاث ليال ، فاتاهما براحتيهما صُبْحَ ثَلاث)) .

وهذا يدل على ضرورة الأخذ بالأسباب بعد التوكل على الله تعالى ، فالنبي ﷺ وأبو بكر استأجرا رجلاً خبيراً بطُرُق الصحراء ، يهديهما إلى الطريق الصحيح الذي يقضي إلى الهدف المنشود . وكان خَرِيَّتًا ، يعني : ماهراً يهتدي لأخترت المفاوز (الصحاري) ، وهي طُرُقها الخفية ومضايقتها . وقيل : إنه يهتدي لمثل خَرْت (ثقب) الإبرة من الطريق .

وهذا الرجل هو عبد الله بن أريقط ، وهو دليل رسول الله ﷺ إلى المدينة في الهجرة . وكان مُشْرِكًا . وهذا دليل على جواز الاستعانة بالمشركون ، وائتمانهم على الأسرار ، إذا كانوا مخلصين وأوفياء وأصحاب خبرة .

وفي تفسير القرطبي (٨ / ١٣١) : ((قال المهلب : فيه من الفقه ائتمان أهل الشرك على السر والمال ، إذا علم منهم وفاء ومروءة ، كما ائتمن النبي ﷺ هذا المشرك على سره في الخروج من مكة ، وعلى الناقتين . وقال ابن المنذر : فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق . وقال البخاري في ترجمته : (باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) قال ابن بطل : إنما قال البخاري في ترجمته (أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) من أجل أن النبي ﷺ إنما عامل أهل خيبر على العمل في أرضها ، إذ لم يوجد من المسلمين من ينوب منابهم في عمل الأرض ، حتى قوي الإسلام ، واستغني عنهم ، أجلاهم عمر . وعامة الفقهاء يجيزون استئجارهم

عند الضرورة وغيرها . وفيه : استتجار الرجلين الرجل الواحد على عمل واحد لهما، وفيه : دليل على جواز الفرار بالذين خَوْفًا من العدو ، والاستخفاء في الغيران (جَمْع غار) وغيرها، وألا يُلقَى الإنسان بيده إلى العدو تَوَكُّلاً على الله ، واستسلاماً له . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكُمْ لَعَصَمَهُ مَعَ كَوْنِهِ مَعَهُمْ ، ولكنها سُنَّةُ اللَّهِ في الأنبياء وغيرهم ، ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . وهذا أدل دليل على فساد مَنْ مَنَعَ ذلك ، وقال : مَنْ خَافَ مَعَ اللَّهِ سِوَاهُ كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي تَوَكُّلِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ . وهذا كُلُّهُ في معنى الآية ، ولله الحمد والهداية)) اهـ .

﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . كان أبو بكر الصديق _ رضي الله عنه _ خائفًا على النبي ﷺ ، وخشي أن تَعْلَمَ قُرَيْشٌ بمكانهما ، فيقتل النبي ﷺ ، وتزول الدعوة الإسلامية . وقد أصاب أبا بكر الحزن والجزع، فقال له النبي ﷺ: "لا تحزن إن الله معنا". يعني : دَعْ حُزْنَكَ يَا أبا بكر لِأَنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، وهو سُبْحَانَهُ نَاصِرُنَا وَمُؤَيَّدُنَا ، يَرْعَانَا وَيَحْفَظُنَا، فَلَنْ يَصِلَ الْمُشْرِكُونَ إِلَيْنَا، وَلَنْ يُؤْذُونَا . وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ فَلَنْ يُغْلَبَ ، وَمَنْ لَا يُغْلَبُ يَحِقُّ لَهُ أَنْ لَا يَحْزَنَ ، فلا معنى للحزن . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٧٤) : ((يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ : فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَهُوَ بهذه الحال مِنَ الْخَوْفِ وَقِلَّةِ الْعَدَدِ ، فَكَيْفَ يَخْذُلُهُ وَيُخَوِّجُهُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ كَثَرَ اللَّهُ أَنْصَارُهُ وَعَدَدَ جُنُودِهِ ؟)) اهـ .

والآية تُبْرِزُ فضائل أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ ، وإخلاصه لله تعالى، ووفائه للنبي ﷺ، وقد أثبت الله في كتابه صُحْبَةَ أَبِي بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فهو صاحِبُ الْمُخْلِصِ الْأَمِينِ . وَمَنْ أَنْكَرَ هذه الصُّحْبَةَ فهو كَافِرٌ ، لِأَنَّهُ كَذَّبَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ . وفضائل أبي بكر أكثر شهرة من الشمس في رابعة النهار . ولا عِبرة بِطَعْنِ الشَّيْخَةِ الرَّوَافِضِ ، لِأَنَّهُمْ يَطْعَنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ اسْتِنَادًا إِلَى الْعِنَادِ وَالْحَقْدِ الْمَجُوسِيِّ وَالْحَسَدِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ . وَالْمُسْلِمُونَ مُجْمِعُونَ عَلَى أَفْضَلِيَّةِ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ نَبِيِّهَا .

وفي تفسير القرطبي (٨ / ١٣١) : ((قال بعض العلماء : مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ عُمر وَعُثْمان أَوْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فهو كَذَّابٌ مُبْتَدِعٌ . وَمَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ _ رضي الله عنه _ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فهو كَافِرٌ ، لِأَنَّهُ رَدَّ نَصَّ الْقُرْآنِ)) .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَأَى، قَالَ: ((مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالُثُهُمَا ؟)) (١٣).

إِنَّ اللَّهَ مَعَهُمَا بِالْحِفْظِ وَالرَّعَايَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّيْدِ، يُدَافِعُ عَنْهُمَا، وَيَحْمِيهِمَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى الْمَعِيَّةِ الْعَامَّةِ، فَاللَّهُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ، يَسْمَعُهُمْ وَيَرَاهُمْ، وَيَعْلَمُ أحوَالَهُمْ.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥٠ / ١٤٩ و ١٥٠): ((معناه: تَالُثُهُمَا بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ وَالْحِفْظِ وَالتَّسْدِيدِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [التَّحَلُّ: ١٢٨]. وَفِيهِ بَيَانٌ عَظِيمٌ تَوَكَّلْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَفِيهِ فَضِيلَةٌ لِأَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَهِيَ مِنْ أَجْلِ مَنَاقِبِهِ. وَالْفَضِيلَةُ مِنْ أَوْجُهٍ، مِنْهَا: هَذَا اللَّفْظُ، وَمِنْهَا بَذْلُهُ نَفْسَهُ وَمُفَارَقَتُهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَرِيَاسَتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، وَمُلازِمَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُعَاذَاةُ النَّاسِ فِيهِ، وَمِنْهَا: جَعَلَهُ نَفْسَهُ وَقَايَةً عَنْهُ ﷺ، وَغَيْرَ ذَلِكَ)) اهـ.

وَمِنْ غَرَائِبِ الشَّيْعَةِ الرُّوَافِضِ أَنَّهُمْ حَوَّلُوا فَضَائِلَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى غُيُوبٍ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى جَهْلِهِمْ وَحَسَدِهِمْ وَحَقْدِهِمُ الدِّفِينِ وَاتِّبَاعَهُمُ لِلْأَهْوَاءِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ. فَقَالُوا إِنَّ حُزْنَ أَبِي بَكْرٍ فِي الْغَارِ دَلِيلٌ عَلَى جَهْلِهِ وَنَقْصِهِ وَضَعْفِ قَلْبِهِ.

وَقَدْ أَجَابَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذِهِ الشُّبْهَةِ الْبَاطِلَةِ فَقَالُوا إِنَّ إِضَافَةَ الْحُزَنِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ لَيْسَتْ عَيْبًا وَلَا طَعْنًا فِيهِ. فَالْقُرْآنُ بَيَّنَّ أَنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ قَدْ خَافَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هُود: ٧٠]. وَبَيَّنَّ أَنَّ النَّبِيَّ مُوسَى ﷺ قَدْ خَافَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٦٧]. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِلنَّبِيِّ لُوطُ ﷺ: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]. وَهَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ الْكَرَامُ وَالسَّادَةُ الْعُظَمَاءُ، لَا يَطْعَنُ فِيهِمْ أَنْ يَشْعُرُوا بِالْخَوْفِ أَوْ الْحُزَنِ، لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ لَدَيْهِمْ مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ، وَلَيْسُوا رِجَالًا آلِيَيْنَ أَوْ جَمَادَاتٍ. وَالْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - غَيْرُ مَعْصُومِينَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحُزَنِ.

وَحُزْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّمَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ جُبْنًا أَوْ ضَعْفًا. وَأَبُو بَكْرٍ إِذَا قُتِلَ فَهُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ. أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قُتِلَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ سَيَزُولُ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَنْتَشِرُ

(١٣) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤ / ١٧١٢) برقم (٤٣٨٦). ومسلم (٤ / ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١).

الكُفْرُ في كُلِّ مَكَانٍ ، ولا فُرْصَةَ لِلنَّجَاةِ ولا الْخِلاصَ . والنَّبِيُّ ﷺ في ذلك الوقت لَمْ يَكُنْ مَعْصُومًا مِنَ النَّاسِ ، لِأَنَّ الْآيَةَ: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] نزلت بالمدينة .

وكانَ بإمكانِ أبي بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ أن يعتذر للنبي ﷺ عن الهجرة معه ، ويظل نائمًا في بيته بين زوجته وأبنائه بكل هُدوء وراحة . ولكنَّه ضَحَّى بكل شيء من أجل الله ورسوله ﷺ وعَرَّضَ حياته للخطر الحقيقي من أجل نشر الدَّعوة الإسلامية . وهذا الأمر يُعَدُّ شَجَاعَةً وقُوَّةً ، ولا يُمكن وصف أبي بكر بالضَّعْف بعد هذا الموقف المشرف .

وفي تفسير القرطبي (٨ / ١٣١) : ((قال ابن العربي : قال لنا أبو الفضائل العدل : قال لنا جمال الإسلام أبو القاسم : قال موسى ﷺ : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] . وقال في محمد ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ . لا جَرَمَ لَمَّا كانَ اللهُ مَعَ موسى وَخَدَهُ ارتدَّ أصحابُه بَعْدَهُ ، فرجع من عند ربِّه ، ووَجَدَهُمْ يَعْبُدُونَ الْعِجْلَ ، وَلَمَّا قال في محمد ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بقي أبو بكر مُهْتَدِيًا ، مُوَحِّدًا ، عَالِمًا ، جَازِمًا ، قائمًا بالأمر ، وَلَمْ يَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ اختلال)) .

وفي الحديث _ بعد وفاة النبي ﷺ _ : واجتمع المهاجرون يتشاورون ، فقالوا : انطلقوا إلى إخواننا من الأنصار ، فإنَّ لهم في هذا الأمر نصيبًا ، فانطلقوا ، فقال رجل من الأنصار : مِنَّا أميرٌ ، ومِنكُمْ أميرٌ ، فأخذَ عُمرُ بيدَ أبي بكر _ رضي الله عنهما _ ، فقال : أخبروني من له هذه الثلاثة : ﴿ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ مَنْ هُمَا ؟ . ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ ﴾ مَنْ صَاحِبُهُ ؟ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؟ . فأخذَ بيدَ أبو بكر _ رضي الله عنه _ فَضْرَبَ عَلَيْهَا ، وقال للناس : بَايَعُوهُ فَبَايَعُوهُ بَيْعَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً (14) .

كَادَ الصَّحَابَةُ أَنْ يَخْتَلِفُوا وَيَتَنَازَعُوا ، وَتَتَفَرَّقَ كَلِمَتُهُمْ ، بعد وفاة النبي ﷺ . ولكنَّ الله جَمَعَهُمْ على أبي بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ . ونلاحظ قيامَ عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ بالاستدلال بالآية ، واستنباط فضائل أبي بكر منها . وهو استنباط دقيق .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٣١) : ((ولهذا قال بعض العلماء : في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ ما يدل على أَنَّ الخليفةَ بعد النبي ﷺ أبو بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ ، لِأَنَّ الخليفةَ لا يكون أبدًا إلا ثانيًا . وَسَمِعْتُ شيخنا الإمامَ أبا العباس أحمد بن عمر ،

(١٤) رواه الطبراني (٧ / ٥٦) برقم (٦٣٦٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٥ / ٣٣١) : رجاله ثقات .

يقول : إنما استحقَّ الصديق أن يُقال له : " ثاني اثنين " لقيامه بعد النبي ﷺ بالأمر كقيام النبي ﷺ به أولاً . وذلك أن النبي ﷺ لَمَّا مات ، ارتدَّت العربُ كُلُّها ، ولم يَبْقَ الإسلامُ إلا بالمدينة ومكة وجُوثا _ اسم حصن بالبحرين _ ، فقام أبو بكر يدعو الناسَ إلى الإسلام ، ويُقاتلهم على الدخول في الدين ، كما فعل النبي ﷺ ، فاستحقَّ من هذه الجهة أن يُقال في حقِّه : " ثاني اثنين " ((اهـ .

وصحبةُ أبي بكر _ رضي الله عنه _ للنبي ﷺ في الغار فضيلةٌ تميَّزَ بها عن سائر الصحابة ، ولم يُشاركه فيها أحد . وأجمع العلماء على أن المقصود بصاحبه هو أبو بكر الصديق ، ومن أنكر صحبته فهو كافرٌ لكذبه القرآن ، بخلاف صحبة غيره كعمر وعثمان وعليٍّ _ رضي الله عنهم _ . ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ طَمَأْنِينَتَهُ وَسُكُونَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ . وقيل : على أبي بكر . والذين قالوا : على أبي بكر ، ذكروا أن أبا بكر هو الذي كان خائفًا ومُنزَعَجًا . أمَّا النبي ﷺ فكان هادئًا ، وعليه السَّكينة والوقار . وما ذكروه لا يَنفِي تَجَدُّدَ سَكِينَةِ خَاصَّةً بتلك الحال . ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ . وَقَوَّى اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ بِجُنُودٍ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَمْ تَرَوْهُمْ . وقد أنزلَ الله الملائكةَ كي يخرُسوه في الغار ، أو ليعينوه على العدوَّ يَوْمَ بَدْرٍ وفي مواطن أخرى . ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . وجعل الله كلمةَ الشُّركِ هي السُّفلى ، فقد أذلَّها الله وقَهَرها ، فهي الكلمة الدليلة الوضيعة إلى يوم القيامة . وكُلُّ مَقْهُورٍ مَغْلُوبٍ يَكُونُ أَسْفَلَ مِنَ الْغَالِبِ . وَالْغَالِبُ هُوَ الْأَعْلَى . وكلمةُ الله هي كلمة التَّوْحِيدِ : لا إلهَ إلا الله . وهي العُلْيَا ، لأنها القاهرةُ الغالبةُ إلى يوم القيامة . والله عزيرٌ في انتقامه من الكافرين ، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وتدييره .

وقد قال النبي ﷺ : ((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) (١٥) . إذن ، مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَدَعَاةُ الْإِسْلَامِ فَوْقَ كُلِّ مِلَّةٍ وَمَذْهَبٍ ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . والحديثُ دليل على أن الأعمال إنما تُحَسَّبُ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٠٤ و ٤٤٤) : ((وفي السَّكِينَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا الرَّحْمَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : الْوَقَارُ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ : السُّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ ، قَالَه ابْنُ قُتَيْبَةَ ، وَهُوَ أَصَحُّ . وَفِي هَاءِ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ

(١٥) متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٣٤) برقم (٢٦٥٥) ، ومسلم (٣ / ١٥١٢) برقم (١٩٠٤) .

قول علي بن أبي طالب وابن عباس وحبيب بن أبي ثابت . واحتج من نصر هذا القول بأن النبي ﷺ كان مُطْمَئِنًّا . والثاني أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، قاله مقاتل . والثالث أن الهاء هاهنا في معنى تنزية . والتقدير: فأنزل الله سكينته عليهما ، فاكفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما كقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] . ذكره ابن الأنباري . قوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُ ﴾ أي : قوّاه ، يعني النبي ﷺ بلا خلاف . ﴿ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة . ومتى كان ذلك ؟ . فيه قولان : أحدهما يوم بدر ويوم الأحزاب ويوم حنين ، قاله ابن عباس . والثاني : لما كان في الغار صرقت الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته ، قاله الزجاج . فإن قيل : إذا وقع الاتفاق أن هاء الكناية في ﴿ أَيَّدَهُ ﴾ ترجع إلى النبي ﷺ ، فكيف تُفارقها هاء ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وهما مُتَّفَقَتان في نظم الكلام . فالجواب : إنَّ كُلَّ حَرْفٍ يُرَدُّ إِلَى الْأَلْيَقِ بِهِ . والسكينة إنما يحتاج إليها المُنْزَعَج ، ولم يكن النبي ﷺ مُنْزَعَجًا . فأما التأييد بالملائكة فلم يكن إلا للنبي ﷺ . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعني: النبي ﷺ . ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ يعني : الله عزَّ وجلَّ .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴾ فيها قولان: أحدهما أن كلمة الكافرين الشُّرْك جعلها الله السفلى ، لأنها مقهورة . ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ وهي التوحيد ، ﴿ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ لأنها ظهرت . هذا قول الأكثرين . والثاني أن كلمة الكافرين ما قَدَّرُوا بَيْنَهُمْ فِي الْكَيْدِ بِهِ لِيَقْتُلُوهُ ، وكلمة الله أنه ناصره ، رواه عطاء عن ابن عباس ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] . لقد أنزل الله على النبي ﷺ سورة الفاتحة (السَّبْعُ المَثَانِي) وسائر القرآن . وامتَنَّ على رسوله ﷺ بِسُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وخصَّها بالذكر لإظهار عظميتها وفضيلتها ، ولكونها تشتمل على أصول الإسلام ، فقد وُضعت في كَفَّةٍ وسائر القرآن في كَفَّةٍ . كما امتَنَّ الله على رسوله بجميع القرآن العظيم . وسُمِّيَتْ سورة الفاتحة " مثنائي " لأنها تُثْنَى ، يعني تُكْرَرُ في كل صلاة ، حيث إنها تُقرأ في كل ركعة .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٦٢٣) أن النبي ﷺ قال عن أعظم سورة في القرآن : ((﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ)) . والسَّبْعُ المَثَانِي هي سورة الفاتحة ، حيث إنَّ عددَ آياتها سَبْعُ آيَاتٍ ، تُثْنَى قراءتها (تُكْرَرُ) في كل ركعة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤١٣ - ٤١٥) : ((وفي المراد بالسَّبع المثاني أربعة أقوال : أحدها أنها فاتحة الكتاب ، قاله عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود في رواية وابن عباس في رواية الأكثرين عنه وأبو هريرة والحسن وسعيد بن جبيرة في رواية ومجاهد في رواية وعطاء وقتادة في آخرين ، فعلى هذا إنما سُمِّيَت بالسَّبع لأنها سبع آيات. وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال : أحدها لأن الله استثنىها لأُمَّة محمد ﷺ ، فلم يُعْطِها أُمَّةٌ قَبْلَهم ، رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس . والثاني لأنها تُثْنَى في كل ركعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، قال ابن الأنباري : والمعنى : آتيانك السَّبع الآيات التي تُثْنَى في كُلِّ ركعة ، وإنما دَخَلت " مِنْ " للتوكيد ... وقال ابن قُتيبة : سُمِّيَت " الحمد " مثاني ، لأنها تُثْنَى في كل صلاة . والثالث لأنها ما أُثْنِيَ بِهِ على الله تعالى ، لأن فيها حَمْدُ الله وتوحيده وذكر مملكته ، ذكره الرَّجَّاج . والرابع لأن فيها الرحمن الرحيم مَرَّتَيْن ، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين ، وهذا على قول مَنْ يَرى التَّسْمِيَةَ منها . والخامس لأنها مَقْسُومَةٌ بَيْنَ الله تعالى وبين عَبْدِهِ (16) ، ... والسادس لأنها نزلت مَرَّتَيْن ، ذكره الحسين ابن الفضل ، والسابع لأنَّ كلماتها مُثْنَاة ، مثل : الرحمن الرحيم ، إِيَّاكَ ، الصراط صراط ، عليهم عليهم ، ذكره بعض المفسرين . ومن أعظم فضائلها أَنَّ الله تعالى جَعَلَهَا فِي حَيْزٍ ، والقرآن كُلُّهُ فِي حَيْزٍ ، وَاَمْتَنَ عَلَيْهِ بِهَا ، وَاَمْتَنَ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ (...)) اهـ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما _ : _ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ ، قال : ((فاتحة الكتاب)) (17) .

(١٦) في صحيح مسلم (١ / ٢٩٦) : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ((مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَتَقَرَّ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ ، فَهِيَ خِدَاجٌ _ ثَلَاثًا _ غَيْرُ تَمَامٍ)) ، فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ : إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ ، فَقَالَ : أَقْرَأُ بِهَا فِي نَفْسِي ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمَدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، قَالَ : بِحَمْدِي عَبْدِي ، (وَقَالَ مَرَّةً : قَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي) ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ) .

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٨٢) برقم (٣٠١٨) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

ووفق هذا التفسير ، يكون سبب تسمية سورة الفاتحة بالمشاني ، لأنها تُثنى ، أي تُكرَّر في كل صلاة .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالطُّوْل ، وَأُوتِيَ مُوسَى سِتًّا)) (18) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قَوْلِهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ، قال : ((البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، وسُورَةُ الْكَهْفِ)) (19) .

وهذه السُّورُ هي السَّبْعُ الطُّوْل ، لِطُولِهَا عَلَى سَائِرِ سُورِ الْقُرْآن . ووفق هذا التفسير يكون سبب تسمية هذه السُّور بالمشاني ، لأن العِبَرَ والأحكام والحدود تُثَبَّتُ فِيهَا ، يعني كُرِّرت . وقيل : السَّبْعُ الْمَثَانِي هي أقسام القرآن : الأمر ، والنهي ، والبشارة ، والإنذار ، وضرب الأمثال ، وتعداد النعم ، وأخبار الأمم ، قاله زياد بن أبي مريم [انظر زاد المسير (٤ / ٤١٤)] .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤١٤ و ٤١٥) : ((... المثنائي القرآن كُلُّهُ ، قاله طاووس والضَّحَّاك وأبو مالك ، فعلى هذا في تسمية القرآن بالمشاني أربعة أقوال : أحدها لأن بعض الآيات يتلو بعضًا فتُثَنَّى الآخرة على الأولى ، ولها مقاطع تَفْصِلُ الآيةَ بعد الآية حتى تنقضي السورة ، قاله أبو عبيدة . والثاني أنه سُمِّيَ بالمشاني لِمَا يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنَ الشَّاءِ عَلَى اللَّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ والثالث : لِمَا يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، والرابع : لأن الأَقْصِيصَ والأخبارَ والمواعظ والآداب تُثَبَّتُ فِيهِ ، ذَكَرَهُنَّ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . وقال ابنُ قُتَيْبَةَ : قد يكون المثنائي سُورَ الْقُرْآنِ كُلُّهُ قِصَارُهَا وَطَوَالُهَا ، وإنما سُمِّيَ " مثنائي " لأن الأنباء والقَصَصَ تُثَنَّى فِيهِ ، فعلى هذا القول ، المراد بالسَّبْعِ سَبْعَةُ أَصْبَاعِ الْقُرْآن ، ويكون في الكلام إضمار تقديره ، وهي القرآن العظيم ، فَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْمَثَانِي ، ففي " مِنْ " قَوْلَان : أحدهما أنها للتَّبَعِيض ، فيكون المعنى : آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي يُثَنَّى بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَآتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ ، والثاني أنها لِلصِّفَةِ فَيَكُونُ السَّبْعُ هِيَ الْمَثَانِي)) اهـ .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٦) برقم (٣٣٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٦) برقم (٣٣٥٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

استغني يا محمد بالقرآن الكريم ، ولا تلتفت إلى متاع الدنيا الزائل الموجود في أيدي الأغنياء من قومك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن زخارف الدنيا فانية ، ويستظرهم عذاب شديد . والقرآن هو النعمة العظمى ، أما خطام الدنيا فهو لذات زائلة ، ومُتعة فانية ، وعرض لا يدوم . والله يذكر النبي ﷺ بِنعمة القرآن التي لا يُعادِلُها نعمة ، وينهاه عن النظر إلى متاع الدنيا الفاني . والمعنى : استغني يا محمد بالقرآن عن الدنيا وما فيها من زخارف بَرَاقَة ، وشهوات فانية . لا تلتفت يا محمد إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَصْنافًا (أزواجًا) من الكفار ، من الأموال والأولاد والمساكن ونعيم الدنيا الزائل . والله ينهى النبي ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومُنَافَسَة أهلها عليها . وقد حَظَرَ عَلَيْهِ أَنْ يُمَدَّ عَيْنُهُ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً فِيهَا . ويجب على النبي ﷺ أَنْ يَسْتَغْنِيَ بِالْقُرْآنِ عَنْ جَمِيعِ زِينَةِ الدُّنْيَا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٢) : ((يُقَالُ : إِنَّهُ وَافَى سَبْعَ قَوَافِلٍ مِنْ بُصْرَى وَأَذْرَعَاتٍ — مُؤَضِّعِينَ بِالشَّامِ — لِيَهُودٍ قَرِيظَةً وَالنَّصِيرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فِيهَا الْبَزُّ (نوع من الثياب) ، وَالطَّيِّبُ ، وَالْجَوْهَرُ ، وَأَمْتَعَةُ الْبَحْرِ . فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ لَنَا لَتَقَوَّيْنَا بِهَا ، وَأَنْفَقْنَاهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ ، أَي : فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْقَوَافِلِ السَّبْعِ ، فَلَا تَمُدَّنَّ أَعْيُنَكُمْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى هَذَا صَارَ ابْنُ عُيَيْنَةَ)) اهـ .

وقال الغزالي في المستصفى (١ / ٢٠٤) : ((وَأَمَّا صِيغَةُ النَّهْيِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : لَا تَفْعَلْ ، فَقَدْ تَكُونُ لِلتَّحْرِيمِ وَلِلْكَرَاهِيَةِ وَالتَّحْقِيرِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾)) اهـ .

وفي فيض القدير (٦ / ٧٥) : ((قَالَ الْغَزَالِيُّ : كُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ حَقٌّ لَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظْرَةً بِالْإِسْتِحْلَاءِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ ، وَلِيَلْزَمَ الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ الْكَرَامَةُ الْعُظْمَى)) اهـ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٠٣) : ((أَي : لَا تَطْمَحْ بِبَصْرِكَ إِلَى زَخَارِفِ الدُّنْيَا طَمُوحَ رَغْبَةٍ فِيهَا ، وَتَمَنٍّ لَهَا . وَالْأَزْوَاجُ الْأَصْنَافُ ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْأَزْوَاجُ الْقُرْنَاءُ . قَالَ الْوَاحِدِيُّ : إِنَّمَا يَكُونُ مَاذَا عَيْنِيهِ إِلَى الشَّيْءِ إِذَا أَدَامَ النَّظَرَ نَحْوَهُ ، وَإِدَامَةُ النَّظَرِ إِلَيْهِ تَدُلُّ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ وَتَمَنِّيِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَحْسُدَنَّ أَحَدًا عَلَى مَا أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا . وَرَدَّ بِأَنَّ الْحَسَدَ مَبْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ . لَا يَنْبَغِي لِمَاذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجَدَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَعَ مَنْ جَهِلَ ، وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى)) (20).

تَنْضَحُ فَضِيلَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمَةِ . فَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَحَفِظَهُ ، وَأَصْبَحَ فِي صَدْرِهِ مَحْفُوظًا ، فَقَدْ جَمَعَ النُّبُوَّةَ فِي صَدْرِهِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَنْ اعْتَنَى بِالْقُرْآنِ قِرَاءَةً وَحِفْظًا صَارَ شَبِيهَاً بِالنَّبِيِّ ﷺ ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا وَلَا يُوحَى إِلَيْهِ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَلَا يَنْبَغِي لِمَاذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَغْضَبَ مَعَ مَنْ غَضِبَ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ثَابِتَ الْقَلْبِ وَالْأَرْكَانِ ، لَا يَهْتَزُّ أَمَامَ الصَّعُوبَاتِ وَلَا يَنْهَارُ . وَلَا يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ كَالْجَاهِلِينَ ، لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَسَوَادٌ فِي الصَّدْرِ ، وَصَاحِبُ الْقُرْآنِ فِي قَلْبِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى . فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعَظَّمَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ . وَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا مَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةِ الدِّينِ ، فَلْيَحْذَرِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى خُطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَيَتَمَنَّاهُ . فَالَّذِينَ هُوَ الْكَرَامَةُ الْمُقَدَّسَةُ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْقُصُورِ .

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنْ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ ، فَقَدْ عَظَّمَ خُطَامَ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ ، وَصَغَّرَ كَلَامَ اللَّهِ الْعَظِيمِ . فَالْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَلَا تُوجَدُ مُقَارَنَةٌ بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ . وَلَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ، أَوْ : لَا تَغْتَمِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَلَا تَتَمَنَّ أَمْوَالَهُمْ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلُهَا . فَاللَّهُ لَمَّا مَنَّ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْقُرْآنِ ، نَهَاهُ عَنِ الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٥٢) : ((أَي : وَلَا تَحْزَنْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا . وَقِيلَ : الْمَعْنَى لَا تَحْزَنْ عَلَى مَا مُتَّعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَلَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ مِنْهُ . وَقِيلَ : لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ إِنْ صَارُوا إِلَى الْعَذَابِ ، فَهُمْ أَهْلُ الْعَذَابِ)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٢٧٥) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ)) . فِي أُمُورِ الدِّينِ ، عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ . وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ وَالْعِبَادُ الْأَتْقِيَاءُ ، وَيَحَاوِلُ جَاهِدًا أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ ، وَيَسِيرَ عَلَى خُطَاهُمْ .

(٢٠) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١ / ٧٣٨) بِرَقْمِ (٢٠٢٨) وَصَحَّحَهُ .

أَمَّا فِي أُمُور الدُّنْيَا ، فليَنظُرْ إِلَى مَنْ هُمْ ذُوْنَهُ ، كالفُقَرَاء والمساكين والمُتَبَوِّذِينَ والضعفاء ، فعندئذٍ سيعرف نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَيُقَدِّرُهَا ، فَاللَّهُ فَضَّلَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَالِ وَالْمَسْكَنِ وَالْمَلِيسِ . وَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ هُمْ فَوْقَهُ ، كالملوك والأمرء والأثرياء . فعندئذٍ سَيَحْتَقِرُ نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، وَيَسْتَصْغِرُهَا . وَقَدْ يَذْهَبُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِيَاذِ بِاللَّهِ _ فَيَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ ظَلَمَهُ ، وَأَعْطَى الْآخَرِينَ . وَقَدْ يَطْعَنُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ ، فيقول إنَّ اللَّهَ أَعْطَى الْفَاسِقِينَ وَالْعَصَاةَ وَحَرَّمَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ . وَالْإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ غَيُورٌ وَخَسُودٌ ، حِينَ يَرَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ ، فَإِنَّهُ يَشْعُرُ بِالْغِيْرَةِ وَالْحَسَدِ وَالسَّخَطِ ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَهُ ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَجْعَلُهُ رَافِضًا لِلنَّعْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا ، وَحَافِدًا عَلَى النَّاسِ ، وَكَارِهًا لِلْمَجْتَمَعِ .

وهذا الإنسانُ يَنْبَغِي أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ الدُّنْيَا حَقِيرَةٌ يُعْطِيهَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عَلَى السَّوَاءِ ، وَلَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ . أَمَّا الدِّينُ ، فَإِنَّهَا النِّعْمَةُ الْعُظْمَى ، لَا يُعْطِيهَا اللَّهُ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّهُ . وَالتَّفَاوُتُ الْحَقِيقِيُّ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ فِي الدِّينِ وَالتَّقْوَى ، وَلَيْسَ فِي الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْحَسَبِ وَالتَّنَسُّبِ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٨ / ٩٧) : ((معنى أجدد أحق ، وتزدردوا تَحَقَّرُوا . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ : هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْرِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، طَلَبَتْ نَفْسُهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَرِصَ عَلَى الْإِزْدِيَادِ لِيَلْحَقَ بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبَهُ ، هَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِي غَالِبِ النَّاسِ . وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ ذُوْنَهُ فِيهَا ، ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَشَكَرَهَا ، وَتَوَاضَعَ ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْرَ)) اهـ .

وفي فيض القدير (٢ / ٧٣) : ((قَالَ ابْنُ عَوْنٍ : صَحِبْتُ الْأَغْنِيَاءَ فَلَمْ أَرْ أَحَدًا أَكْثَرَ هَمًّا مِنِّي . أَرَى ذَابَةً خَيْرًا مِنْ دَابَّتِي ، وَثَوْبًا خَيْرًا مِنْ ثَوْبِي . وَصَحِبْتُ الْفُقَرَاءَ فَاسْتَرَحْتُ وَمِنْ مَفَاسِدِ مُخَالَطَةِ الْأَغْنِيَاءِ الْإِسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالتَّشَبُّهُ بِهِمْ فِي جَمْعِ الْخَطَامِ ، وَالِاشْتِغَالُ بِذَلِكَ عَنْ عِبَادَةِ الرَّبِّ الْمَالِكِ)) اهـ .

إِنَّ الْغِنَى أَشَدُّ خُطُورَةً مِنَ الْفَقْرِ ، لِأَنَّ ضَرَرَ الْغِنَى يُصِيبُ الدِّينَ غَالِبًا ، أَمَّا ضَرَرُ الْفَقْرِ فَيُصِيبُ الدُّنْيَا غَالِبًا . وَالْغِنَى يُحَاسِبُ عَلَى مَالِهِ ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ . أَمَّا الْفَقِيرُ ، فَلَيْسَ لَدَيْهِ مَالٌ كَيْ يُحَاسَبَ عَلَيْهِ . وَمَعَ هَذَا نَقُولُ ، إِنَّ الْمَالَ ضَرُورِيٌّ ، وَهُوَ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِلْاِقْتِصَادِ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَرِّكُ الْمَجْتَمَعَ . وَلَكِنْ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَالُ فِي الْيَدِ لَا الْقَلْبِ ، وَأَنْ يُكْتَسَبَ بِشَكْلِ شَرْعِيٍّ ، وَلَا يُصْبَحَ الْإِنْسَانُ خَادِمًا لِلْمَالِ ، بَلْ يَكُونَ الْمَالُ خَادِمًا لِلْحَقِّ وَمُشَارِيعَ الْخَيْرِ فِي

المجتمع . فالمال وسيلة لنشر الحق والخير والسعادة والأمل في المجتمع ، وليس غاية ولا مقصوداً بذاته .

وقال النبي ﷺ: ((إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا)) (21) . وَضَحَّ النَّبِيُّ ﷺ الْخَطَرَ الْحَقِيقِيَّ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَحَذَّرَ مِنْهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَانَتِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى إِنْقَازِ أُمَّتِهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ . فَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ أَنَانِيًّا وَلَا كَاتِمًا لِلْحَقِّ . بَلْ أَدَّى أَمَانَةَ التَّبْلِيغِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، وَقَدَّمَ النِّصِيحَةَ الصَّادِقَةَ لِأُمَّتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِلْمًا وَلَا وَحْيًا .

وهذا الخطر كما وَضَحَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَنَّ تُفْتَحَ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ ، فَيَنْتَشِرُ حُسْنُهَا وَبَهْجَتُهَا ، وَيَكْثُرَ الْمَالُ ، وَيَزْدَادَ نَعِيمُهَا . وَفِي الْحَدِيثِ تَحْذِيرٌ وَاضِحٌ مِنَ الْاِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا ، وَالْمُفَاخَرَةِ بِهَا ، وَالْمُنَافَسَةِ عَلَى جَمْعِ حُطَامِهَا ، وَالْغُرُقِ فِي زُخْرَفِهَا وَزِينَتِهَا الْفَانِيَةِ .

وَحَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ نَابِعٌ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّ الدُّنْيَا سَوْفَ تُفْتَحُ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَتَزْدَادُ الْأَمْوَالُ ، وَيَنْتَشِرُ الْغِنَى . وَهَذَا مِنْ أَعْلَامِ النَّبُوءَةِ ، حَيْثُ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ قَبْلَ وَقُوعِهِ ، وَوَقَعَ كَمَا قَالَ .

وفي فتح الباري (١١ / ٢٤٥) : ((قَالَ ابْنُ بَطَالٍ : فِيهِ أَنَّ زَهْرَةَ الدُّنْيَا يَبْغِي لِمَنْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهَا ، وَشَرِّ فِتْنَتِهَا ، فَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَى زُخْرَفِهَا ، وَلَا يُنَافِسُ غَيْرَهُ فِيهَا . وَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ مِنَ الْغِنَى ، لِأَنَّ فِتْنَةَ الدُّنْيَا مَقْرُونَةٌ بِالْغِنَى ، وَالْغِنَى مَطْنَةٌ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ ، الَّتِي قَدْ تَجَرَّ إِلَى هَلَاكِ النَّفْسِ غَالِبًا ، وَالْفَقِيرُ آمِنٌ مِنْ ذَلِكَ)) اهـ .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَأَلِنْ جَانِبَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَتَكَبَّرْ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَامَلْ مَعَهُمْ بِتَوَاضُعٍ وَأَدَبٍ ، وَكُنْ رَحِيمًا بِهِمْ ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ . وَخَفِضْ الْجَنَاحَ كِنَايَةً عَنِ التَّوَاضُعِ وَلِينِ الْجَانِبِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٥٢) : ((وَأَصْلُهُ : إِنَّ الطَّائِرَ إِذَا ضَمَّ فَرْخَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، بَسَطَ جَنَاحَهُ ، ثُمَّ قَبَضَ عَلَى الْفَرْخِ . فَجُعِلَ ذَلِكَ وَصْفًا لِتَقَرُّبِ الْإِنْسَانِ أَتْبَاعِهِ . وَيُقَالُ : فَلَانٌ خَافِضُ الْجَنَاحِ ، أَوْ وَقُورٌ سَاكِنٌ . وَالْجَنَاحَانِ مِنْ ابْنِ آدَمَ جَانِبَاهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الْحَجَرُ : ٩٧] . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ تَتَضَايَقُ بِسَبَبِ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِكَ ، وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، وَتُصَابُ بِانْقِبَاضٍ وَضِيقٍ صَدْرٍ بِسَبَبِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ لَكَ ، فَلَا تَغْبَأُ بِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلُهُمْ يُؤَثِّرُونَ عَلَيْكَ سَلْبًا . بَلْ امْضِ لِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّاسِ ، وَانْشُرِ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، وَلَا تَلْتَفِتْ لَهُمْ .

(٢١) متفق عليه . البخاري (٢ / ٥٣٢) برقم (١٣٩٦) ، ومسلم (٢ / ٧٢٧) برقم (١٠٥٢) .

فَاللَّهُ نَاصِرُكَ وَكَافِيكَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنْسَانٌ لَهُ مَشَاعِرٌ وَأَحَاسِيْسٌ ، وَلَيْسَ كُتْلَةً حَجَرِيَّةً . وَكَانَ يَشْعُرُ بِالْأَلَمِ وَالضَّيْقِ وَالْحَرَجِ ، لِأَنَّ قَوْمَهُ يُكَذِّبُونَهُ ، وَيَرْمُونَهُ بِأَشْعَثِ التُّهَمِ كَالسَّحَرِ وَالْجُنُونِ وَالْكِهَانَةِ .
وَاللَّهُ تَعَالَى يُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَيُشَجِّعُهُ عَلَى الْمَضِيِّ قُدَمًا فِي سَبِيلِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ لَطَعَنِ الْكَافِرِينَ وَسُخْرِيَّتِهِمْ . فَكَلَامُهُمْ لَا يَنْتَهِي ، وَأَفْعَالُهُمْ السَّيِّئَةُ مُسْتَمِرَّةٌ . فَلَا تَشْعُرْ بِالْقَلْقِ يَا مُحَمَّدُ ، وَلَا تَعَبًا بِهِمْ . وَالآيَةُ تَأْنِيسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٥٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أَي : قَلْبُكَ ، لِأَنَّ الصَّدْرَ مَحَلَّ الْقَلْبِ . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أَي : بِمَا تَسْمَعُهُ مِنْ تَكْذِيبِكَ ، وَرَدِّ قَوْلِكَ ، وَتَنَالِهِ وَبِنَالِهِ أَصْحَابُكَ مِنْ أَعْدَائِكَ)) اهـ .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٩٦) : ((وَقِيلَ : اسْتَهْزَأُوهُمْ وَاقْتَسَامَهُمْ : هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، وَسُورَةَ النَّحْلِ ، وَسُورَةَ النَّملِ ، وَسُورَةَ الْعَنْكَبُوتِ ، كَانُوا يَجْتَمِعُونَ وَيَقُولُونَ اسْتَهْزَأَ : هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَيَقُولُ : هَذَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ ، وَيَقُولُ : هَذَا فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحَجَر : ٩٨] .
وَجَّهَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ - إِذَا شَعَرَ بِأَيِّ ضَيْقٍ - إِلَى تَسْبِيحِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ . فَيَذْكُرُ اللَّهُ يُزِيلُ الْهَمَّ ، وَيُريحُ الْقَلْبَ ، وَيُنْقِي الصَّدْرَ مِنَ الضَّيْقِ وَالْحَرَجِ ، وَكُنْ يَا مُحَمَّدُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ، أَزَالَ اللَّهُ ضَيْقَ صَدْرِكَ ، وَكَفَاكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَجَعَلَ السَّكِينَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي قَلْبِكَ .
وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٨٣) : ((﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فَافْزَعْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا نَابَكَ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ يَكْفِكَ ، وَيَكْشِفُ الْغَمَّ عَنْكَ . أَوْ : فَتَرَهُ عَمَّا يَقُولُونَ ، حَامِدًا لَهُ عَلَى أَنْ هَذَاكَ لِلْحَقِّ . ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ مِنَ الْمُصَلِّينَ)) اهـ .

وَيَتَجَلَّى الْفَرْغُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، وَكَثْرَةِ السُّجُودِ لَهُ . وَهَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ تَنْقِلَانِ الْإِنْسَانَ مِنَ الْقَلْقِ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَمِنْ ضَيْقِ الصَّدْرِ إِلَى انْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، وَمِنْ الْأَلَمِ إِلَى السَّعَادَةِ .
وَالْإِضَافَةُ إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَتُشِيرُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعِنَايَتِهِ بِهِ . وَفِي الْآيَةِ ، يَتَجَلَّى اللَّطْفُ الْإِلَهِيُّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَتَضَحُّ الرِّعَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٤٢٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : قُلْ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ . وَالثَّانِي

: فَصَلَ بِأَمْرِ رَبِّكَ ، قاله مقاتل . وفي قوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ قولان : أحدهما من الْمُصَلِّين . والثاني : من المتواضعين . رُويَا عن ابن عباس ((اه .

وعن عائشة_ رضي الله عنها _ أنها قالت : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : ((سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)) . يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ (22) .

لقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُمَثِّلُ أَوَامِرَ اللَّهِ ، وَيَجْعَلُ آيَاتِ اللَّهِ وَاقِعًا مَلْمُوسًا فِي حَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَحَيَاةِ النَّاسِ . ومعنى " يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ " يَفْعَلُ مَا أُمِرَ بِهِ فِيهِ ، أي : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النَّصْر : ٣] .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤ / ٢٠١ و ٢٠٢) : ((وَكَانَ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ ، الْمُسْتَوْفَى مَا أُمِرَ بِهِ فِي الْآيَةِ . وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا ، فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِأَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أُمِرَ بِهِ ، لِيَكُونَ أَكْمَلَ . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرُهُمْ : التَّسْبِيحُ التَّنْزِيهِ . وَقَوْلُهُمْ : " سُبْحَانَ اللَّهِ " مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ . يُقَالُ : سَبَّحْتُ اللَّهَ تَسْبِيحًا وَسُبْحَانًا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَعْنَاهُ : بَرَاءَةٌ وَتَنْزِيهًا لَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَصِفَةٍ لِلْمُحَدَّثِ . قَالُوا : وَقَوْلُهُمْ : " وَبِحَمْدِكَ " أي وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ . وَمَعْنَاهُ : بِتَوْفِيقِكَ لِي وَهُدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي . فَفِيهِ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَالاعْتِرَافُ بِهَا ، وَالتَّفَوُّيْضُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اه .

والصَّلَاةُ هِيَ عَمُودُ الدِّينِ ، وَأَعْظَمُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ . وَالصَّلَاةُ رَاحَةُ الْمُؤْمِنِ ، وَمَنْبَعُ السَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ . فَالْعِبَادَةُ أَتْنَاءَ الصَّلَاةِ ، يُكَلِّمُ اللَّهُ ، وَيَدْعُوهُ . وَهِيَ الصَّلَةُ الْوَثِيقَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ . وَالشَّخْصُ الَّذِي لَا يُصَلِّي ، يَكُونُ قَدْ قَطَعَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ إِذَا تَضَاقَقَ مِنْ أَمْرٍ ، أَوْ أُصِيبَ بِالْحُزْنِ وَالْغَمِّ ، لَجَأَ إِلَى الصَّلَاةِ . فَعَنْ حَذِيفَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى (23) .

وقال الزُّبَيْدِيُّ فِي تَاجِ الْعُرُوسِ (١ / ٤٠٦) : ((حَزَبَهُ الْأَمْرُ يَحْزُنُهُ حَزَبًا : نَابَهُ أَيْ أَصَابَهُ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ، أَوْ ضَعَطَهُ فَجَاءَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : " كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى " ، أَيْ : إِذَا نَزَلَ بِهِ مُهِمٌّ وَأَصَابَهُ غَمٌّ)) اه .

(٢٢) متفق عليه . البخاري (١ / ٢٨١) برقم (٧٨٤) . ومسلم (١ / ٣٥٠) برقم (٤٨٤) .

(٢٣) رواه أبو داود في سننه (١ / ٤٢٠) برقم (١٣١٩) . وحسنه الحافظ في الفتح (٣ / ١٧٢) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الْحَجَر : ٩٩] .

واعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت ، لأنه مُوقِن به . والمعنى : اعبد ربك يا محمد طيلة فترة حياتك بشكل مُتواصل دون كَسَل ولا مَلَل . والله لم يَقُلْ : " واعبد ربك " فقط . فَلَو عَبَدَ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً واحدةً في العُمُر لكان كافيًا . ولكنَّ الله تعالى قال : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ، يعني: إنَّ فترة العبادة هي حياة الإنسان كُلُّها بلا انقطاع . فَدَاوِم يا محمد على عبادة ربك بشكل مُتواصل ومستمر بلا انقطاع حتى الموت .

واسناد الإتيان إلى الموت في قَوْلِه تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ يُشير إلى استحالة الهروب من الموت ، فهو آتٍ إلى كُلِّ حَيٍّ ، ومُتَوَجِّهٌ إِلَيْهِ ، وَسَيَصِلُ إِلَيْهِ لا مَحَالَةَ . والموتُ لا يُخْطِئُ هَدَفَهُ .

وقد قال النَّبِيُّ ﷺ بعد وفاة عُثْمَانَ بنِ مَطْعُونٍ رضي الله عنه : ((أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ)) [سبق تخريبُه] . يعني : جاءه الموتُ . والموتُ هو اليقين الذي لا شَكَّ فِيهِ . والإنسانُ قَدْ تنهار عقيدته فَيَجْحد وُجُودَ اللَّهِ تعالى . ولكن لا يُمْكِنه أن يَجْحد وُجُودَ الموت . والملاحدة يُكْبرون وُجُودَ اللَّهِ تعالى ، لكنَّهُم يُؤْمِنون بالموت ، ولا يُنْكِرُونَهُ . وهكذا ، صارَ التصديقُ بالموت في نفوسهم أعظمَ مِنَ التصديق بوجودِ اللَّهِ تعالى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٩) : ((وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيتُ يقينًا أشبه بالشكِّ مِنْ يَقِينِ الناسِ بالموتِ ثُمَّ لا يَسْتَعِدُّونَ لَهُ . يعني : كأنهم فيه شاكُّون . وقد قيل : إنَّ اليقين هنا الحق الذي لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ نَصْرِكَ على أعدائك ، قاله ابن شجرة . والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن ، والله أعلم)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٣٧) : ((وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ على أَنَّ العبادة كالصلاة وَنَحْوَهَا واجبة على الإنسان ، ما دام عقلُه ثابتًا ، فَيُصَلِّي بِحَسَبِ حاله)) اهـ .

ورُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قال : ((ما أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ ، وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ ، وَلَكِنْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَتَكُنَ مِنَ السَّاجِدِينَ)) (٩٨) وَاَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴿ (24) .

(٢٤) قال العراقي في تخریج الإحياء (٢ / ٧٧) : ((رواه ابن مَرْكُوبٍ في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين)) .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِظُ ﴾ [الحج : ١٥] (25).

مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ يَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْصُرَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فليمدد بِحَبْلِ إِلَى سَمَاءِ بَيْتِهِ (سَقْفَ بَيْتِهِ) ، ثُمَّ لِيَحْتَنِقْ بِهِ حَتَّى يَمُوتَ . فليَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبُ اخْتِنَاقُهُ مَا يَجِدُ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْغَيْظِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٧٠) : ((معناه : فليَحْتَنِقْ غَيْظًا حَتَّى يَمُوتَ ، وليس هذا على سبيل الْحُتْمِ ، أي : أَنْ يَفْعَلَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُ الْقَطْعُ وَالنَّظَرُ بَعْدَ الْاِخْتِنَاقِ وَالْمَوْتِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا يُقَالُ لِلْحَاسِدِ : إِنْ لَمْ تَرَضْ هَذَا ، فَاحْتَنِقْ وَتُتْ غَيْظًا)) اهـ .

وهذه الآية تَحْمِلُ مَعْنَى التَّهَكُّمِ بِالْكَافِرِينَ ، وَالشُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ ، وَبَيَانِ جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَحِقْدِهِمْ . فَمَنْ كَانَ مُنْزَعَجًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَمُغْتَاظًا مِنْهُ ، وَحَاسِدًا لَهُ ، وَحَاقِدًا عَلَيْهِ ، وَكَارِهًا لِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِ ، فَلْيَمْتُ غَيْظًا . فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ مُحَمَّدًا فِي الدَّارَيْنِ رَغْمَ أَنْوَافِ الْكَافِرِينَ . وَالْآيَةُ تُؤَكِّدُ نَصْرَ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ . وَهَذَا النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ ثَابِتٌ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ ، وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَيَقِينٌ لَا يَقْبَلُ الشَّكَّ . وَلَا أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ اللَّهَ مِنْ نَصْرِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ . فَإِرَادَةُ اللَّهِ لَا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٨٣) : ((فَإِنَّ الْمَعْنَى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابَهُ وَدِينَهُ ، فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُلْ نَفْسَهُ ، إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظُهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ لَا مَحَالَةَ)) . وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٩٨) : ((وَسُمِّيَ الْاِخْتِنَاقُ قَطْعًا ، لِأَنَّ الْمُحْتَنِقَ يَقْطَعُ نَفْسَهُ بِحَبْسٍ مَجَارِيهِ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٢) : ((قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ : مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِيهَا (فِي الْآيَةِ) أَنَّ الْمَعْنَى : مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَأَنَّهُ يَتَّهِيءُ لَهُ أَنْ يَقْطَعَ النَّصْرَ

(٢٥) قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٧٠) : ((رُويَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَسَدٍ وَعَطَفَانٍ ، دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ حِلْفٌ ، وَقَالُوا : لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نُسْلِمَ ، لِأَنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يُنْصَرَ مُحَمَّدٌ ، وَلَا يَظْهَرُ أَمْرُهُ ، فَيَنْقَطِعُ الْحِلْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَهُودِ ، فَلَا يَمِيرُونَنَا ، وَلَا يُؤُونَنَا فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ)) اهـ .

الذي أوتيهِ ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي : فَلْيَطْلُبْ حِيلَةً يَصِلُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾
أي: ثُمَّ لْيَقْطَعْ النِّصْرَ إِنْ تَهَيَّأَ لَهُ ﴿ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ وَحِيلَتُهُ مَا يُغِيظُهُ مِنْ نَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ .
والفائدة في الكلام أنه إذا لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهُ الْكَيْدُ وَالْحِيلَةُ بَأَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا ، لَمْ يَصِلْ إِلَى قَطْعِ النِّصْرِ .
((.

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ ﴾ ،
قال : أَي مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ (26) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٢] .
الشَّيْطَانُ يُحَاوِلُ جَاهِدًا خِدَاعَ النَّاسِ ، وَذَلِكَ بِالنَّبْلِيسِ عَلَيْهِمْ ، وَخِدَاعُهُمْ بِأَنْ كَلَامَهُ الْبَاطِلُ هُوَ وَخَيِّ إِلَهِي . وَكُلُّ رَسُولٍ أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ ، كَانَ إِذَا تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ ، أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ وَقِرَاءَتِهِ الْكَلَامَ الْبَاطِلَ ، وَذَلِكَ عَلَى مَسَامِعِ الْكَافِرِينَ ، دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ الرَّسُولُ أَوْ النَّبِيُّ ، وَلَا يَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ . فَالْأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ فِي النَّبْلِيسِ ، وَلَا سُلْطَةَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ .
وَالْآيَةُ تُخَفِّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . وَالْمَعْنَى : لَا تَخْزَنُ يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ إلقاءِ الشَّيْطَانِ ، وَمَحَاوَلَتِهِ التَّشْوِيشِ عَلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي تَقْرُؤُهُ ، فَقَدْ حَدَثَ هَذَا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ . وَهَذَا أَقْصَى مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَفْعَلَ الشَّيْطَانُ . إِنَّهُ يُحَاوِلُ تَشْكِيكَ النَّاسِ بِالْوَحْيِ وَمُضَايَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ ، لَكِنَّ مَحَاوَلَاتِهِ دَائِمًا تَبْوُءُ بِالْفُشْلِ .

وفي تفسير القرطبي (١٢ / ٧٥) قال القاضي ابن العربي : ((فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مِنْ سُنَنِهِ فِي رُسُلِهِ وَسِيرَتِهِ فِي أَنْبِيَائِهِ ، إِذَا قَالُوا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا ، زَادَ الشَّيْطَانُ فِيهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ ، كَمَا يَفْعَلُ سَائِرُ الْمَعَاصِي . تَقُولُ : أَلْقَيْتُ فِي الدَّارِ كَذَا ، وَأَلْقَيْتُ فِي الْكَيْسِ كَذَا ، فَهَذَا نَصٌّ فِي الشَّيْطَانِ أَنَّهُ زَادَ فِي الَّذِي قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ لَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَكَلَّمَ بِهِ ... إِلَى أَنْ قَالَ : وَمَا هُدِيْ لِهَذَا إِلَّا الطَّبْرِي ، لَجَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَصَفَاءِ فِكْرِهِ ، وَسَعَةِ بَاعِهِ فِي الْعِلْمِ ، وَشِدَّةِ سَاعِدِهِ فِي النَّظَرِ)) اهـ .
وَالرُّسُولُ هُوَ نَبِيٌّ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ . أَمَّا النَّبِيُّ فَلَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّبْلِيغِ . وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا . وَقِيلَ : الرَّسُولُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى الْخَلْقِ بِإِرْسَالِ جِبْرِيلَ إِلَيْهِ عِيَانًا ، وَمُحَاوَرَتِهِ لَفْظِيًّا . وَالنَّبِيُّ

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤١٨) برقم (٣٤٥٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَكُونُ بِالْإِلْهَامِ أَوْ الْمَنَامِ . وَقِيلَ : الرِّسُولُ مَنْ بُعِثَ بِشَرَعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ ، وَالنَّبِيُّ مَنْ أُمِرَ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى شَرِيعَةٍ مِنْ قَبْلِهِ ، وَلَمْ يَنْزَلْ عَلَيْهِ كِتَابٌ . وَالرِّسُولُ وَالنَّبِيُّ كِلَاهُمَا مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجَزَةِ الْوَاضِحَةِ .

وفي زاد المسير (٥ / ٤٤١) : ((قال المفسرون : سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ النَّجْمِ قَرَأَهَا حَتَّى بَلَغَ قَوْلَهُ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) ﴾ ، فَأَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ " تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى . وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى " ، فَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ بِذَلِكَ فَرَحُوا ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ ، تَلَوْتَ عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ آتِكَ بِهِ عَنْ اللَّهِ ، فَحَزَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُزْنًا شَدِيدًا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَطْيِيبًا لِقَلْبِهِ ، وَإِعْلَامًا لَهُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ جَرَى لَهُمْ مِثْلُ هَذَا)) اهـ .

هذه القصة باطلة. فالنبي ﷺ في التبليغ معصومٌ ومُنَزَّهٌ عَنِ الْخَطَا وَالسَّهْوِ وَالنَّسْيَانِ . وَلَا يَقْدِرُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُغَيِّرَ حَرْفًا وَاحِدًا مِنَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ قَادِرًا عَلَى تَغْيِيرِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، لَبْطَلَتِ الْأُلُوهِيَّةُ وَالنُّبُوَّةُ ، وَصَارَ الشَّيْطَانُ أَقْوَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَمْلِكُ سُلْطَةً عَلَى اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ . وَهَذَا لَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ .

وهذه القصة الباطلة تحتل أمرين لا ثالث لهما : الأول _ أن يكون النبي ﷺ تكلم بهذه الكلمات عمدًا . وهذا مرفوض ، لأنه كُفْرٌ . والنبي ﷺ معصوم ، وقد بُعِثَ لِإِزَالَةِ الشَّرِّكَ وَتَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ ، وَلَمْ يُبْعَثْ لِتَعْظِيمِ الْأَصْنَامِ وَمَدْحِهَا . الثاني _ أن يكون النبي ﷺ تكلم بهذه الكلمات سهوًا وَغَفْلَةً . وهذا مرفوض أيضًا ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ معصوم ، وَلَا يُخْطِئُ وَلَا يَسْهَوُ فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَلَوْ جَارَ الْخَطَا أَوْ السَّهْوُ فِي تَبْلِيغِ الْوَحْيِ ، لَصَارَ الْقُرْآنُ مَحَلَّ شَكٍّ ، وَصَارَتِ النُّبُوَّةُ بَاطِلَةً ، وَهَذَا مَرْفُوضٌ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا لِتَعَارُضِهِ مَعَ الثَّقَلِ وَالْعَقْلِ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْوَحْيَ (الْقُرْآنَ) بِأَنَّهُ : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فَصَّلَتْ : ٤٢] . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الْحَجَر : ٩] . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الْحَاقَّة : ٤٦] . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النَّجْم : ٣] . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الْإِسْرَاء : ٧٤] . فَتَنَى اللَّهُ مُقَارَبَةَ الرُّكُونِ فَضْلًا عَنِ الرُّكُونِ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١٠٩) : ((فَلَمَّا بَطَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مُتَّصِلًا بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ))

فوقع عند بعضهم أنه عليه السلام هو الذي تكلم بها ، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي ﷺ . وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ، ويُسمَعُ كلامه ، فقد رُوِيَ أنه نادى يَوْمَ أُحُدٍ ألا إن محمداً قد قُتِلَ . وقال يَوْمَ بَدْرٍ : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جَارٌّ لكم)) اهـ .
والغرائيق هي الأصنام⁽²⁷⁾ . ووفق هذه القصة الباطلة فإن النبي ﷺ قد مدَحَ الأصنامَ، ومَجَّدَهَا وأثبتَ لها الشِّفَاعَةَ . وهذا باطل ، ويتعارض مع النُّقْل والعقل معاً . وتعظيمُ الأصنامِ هَدْمٌ للإسلام . ولا يُمكن للنبي ﷺ أن يقوم بهذا ، وهو الذي أرسله الله لهدم الشُّرك ونشر دَعْوَةِ التَّوْحِيد .
وإليك أقوال العلماء عن هذه القصة الباطلة :

١_ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٤١) : ((قال العلماء المحققون : وهذا لا يصحُّ لأنَّ رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا . وَلَوْ صَحَّ ، كان المعنى أنَّ بعض شياطين الإنس قال تلك الكلمات، فإنهم كانوا إذا تلا لَعَطُوا، كما قال الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ [فُصِّلَتْ : ٢٦])) اهـ .

٢_ قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٠٨) : ((قد ذَكَرَ كثيرٌ من المفسرين ههنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أنَّ مُشْرِكِي فُريش قد أسلموا ، ولكنها من طُرُق ، كُلُّها مُرسلة ، ولم أرها مُسندَةً من وجه صحيح ، والله أعلم)) اهـ .

٣_ قال الشُّوكاني في فتح القدير (٣ / ٦٦٠) : ((وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النُّقْل ، ثُمَّ أخذ يتكلم أنَّ رِوَاةَ هذه القصة مطعون فيهم . وقال إمام الأئمة ابن خزيمة : إنَّ هذه القصة من وَضْع الزنادقة)) اهـ .

٤_ قال عياض في الشِّفا (٢ / ١٠٩) : ((وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه ﷺ معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قَصْداً وعَمْدًا، ولا سَهْواً وغلطاً)) اهـ .
﴿ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . فَيَبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ شُبُهَاتٍ وَوَسَاوِسٍ وَأَكَاذِبٍ، وَيُزِيلُ اللَّبْسَ، وَيُخَيِّرُ أَهْلَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ. ثُمَّ يُثَبِّتُ آيَاتِهِ ،

(٢٧) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٣ / ٦٧٠) : ((تِلْكَ الْغَرَائِيقُ الْعُلَى [الغرائيق ها هنا : الأصنام . وهي في الأصل الذكور من طَيْرِ الْمَاءِ . واجدُها: غُرْنُوقٌ وَغُرْنَيْقٌ ، سُمِّيَ بِهِ لَبِياضِهِ . وقيل : هو الْكُرْكِيُّ . والغُرْنُوقُ أيضًا : الشَّابُّ النَّاعِمُ الْأَبْيَضُ . وكانوا يَزْعُمُونَ أنَّ الأصنامَ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ وَتَشْفَعُ لَهُمْ ، فَشَبَّهَتْ بِالطَّيُورِ الَّتِي تَعْلُو فِي السَّمَاءِ وَتَرْتَفِعُ)) .

فلا يَقْدِرُ مخلوق على تغييرها ولا التلاعب بها . والله عليم بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، حكيم في أقواله وأفعاله وتدبيره ، مُنَزَّهٌ عن العبث . له الحكمة الكاملة ، والحجة البالغة . وقال التفسيره (٣ / ١٠٩) : ((**﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾** أي : يُثَبِّتُهَا وَيَحْفَظُهَا مِنْ لُحُوقِ الزِّيَادَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، **﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾** بما أَوْحَى إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَيَقْصِدُ الشَّيْطَانُ . **﴿ حَكِيمٌ ﴾** لَا يَدَعُهُ حَتَّى يَكْشِفَهُ وَيُزِيلَهُ)) اهـ .

والتَّسْخُحُ في اللغة يعني الإزالة والمحو . يُقَالُ نَسَخْتُ الشَّمْسُ ظِلَّهَا ، يعني أزالته وَمَحَتُهُ ، وَأَحَلَّتِ الصُّوَّةَ مَحَلَّهُ . وقد أشارَ الشاعرُ إلى هذا المعنى عندما قال :

نَسَخْتُ بِحُبِّي آيَةَ الْعِشْقِ مِنْ قَبْلِي

فأهلُ الهوى جُنْدِي وَحُكْمِي عَلَى الْكُلِّ

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الفِعْلَيْنِ المضارعَيْنِ في الآية : **﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾** يُفيدان الاستمرارَ التَّجَدُّدِي. والمعنى أَنَّ اللهَ لَا يَسْهُو وَلَا يَغْفُلُ عَنِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَتَلْبِيسِهِ ، فَاللهُ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، وَلَا يَتْرُكُ أَثَرًا لِلشَّيْطَانِ فِي الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . ووجودُ لفظِ الجلالة " الله " في مَوْضِعِ الضميرِ للتقريرِ وتأكيدُ أَنَّ اللهَ يُبْطِلُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ ، وَثُبُتُ آيَاتِهِ . وَلَا مَعْنَى لِلأُلُوهِيَةِ إِذَا لَمْ يُوضَّحْ اللهُ آيَاتِهِ وَيَعْصِمَهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ . لذلك ، كانتُ أُلُوهِيَةُ اللهِ حَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ ، وَمِنْ مُقْتَضِيَّاتِ الأُلُوهِيَةِ أَنَّ اللهَ يَحْفَظُ آيَاتِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ . وقال عِيَاضُ فِي الشَّفَا (٢ / ١٠٤) : ((وَأَوَّلَى مَا يُقَالُ فِيهَا مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ : إِنَّ التَّمَنِّيَ هَا هُنَا التَّلَاوَةُ ، وإلقاءُ الشَّيْطَانِ فِيهَا شَغْلُهُ بِخَوَاطِرٍ وَأَذْكَارٍ مِنَ الدُّنْيَا لِلتَّالِي حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ الْوَهْمُ وَالتَّنْسِيَانُ فِيمَا تَلَاهَ ، أَوْ يَدْخُلَ غَيْرُ ذَلِكَ عَلَى أَفْهَامِ السَّامِعِينَ ، مِنَ التَّحْرِيفِ وَسُوءِ التَّأْوِيلِ ، مَا يُزِيلُهُ اللهُ وَيَنْسَخُهُ ، وَيَكْشِفُ لَبْسَهُ ، وَيُحْكِمُ آيَاتِهِ)) اهـ .

وقال اللهُ تَعَالَى : **﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾** [الحج : ٥٣] .

الآيَةُ تُقَدِّمُ تَعْلِيلًا لِعَمَلِيَةِ إلقاءِ الشَّيْطَانِ ، وَتُبْرِزُ حِكْمَةَ اللهِ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَةِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَنْعِهَا . لِيَجْعَلَ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ مِنْ شُبُهَاتٍ وَوَسَاوِسٍ وَأَكَاذِيبٍ ضَلَالَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ

وَشُرْكَ وَنِفَاق ، والمُشْرِكِينَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا تَخْضَعُ لِعَظَمَتِهِ وَحُكْمَتِهِ ، وَلَا تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ ، وَلَا تَعْتَرِفُ بِالصَّوَابِ (28).

وهذان الفريقان (الذين في قلوبهم مَرَضٌ ، وَأَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ) ظالمون . وإن الظالمين لَفِي ضَلَالٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ كُلُّ الْبُعْدِ عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ . إنهم لَفِي خِلَافٍ طَوِيلٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ .

وتقدير الآية : وإنهم لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . فَوَضَعَ الظَّاهِرُ ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ ، إِدَانَةً لَهُمْ ، وَقَضَاءً عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ .

وَالشَّقَاقُ هُوَ غَايَةُ الْعِدَاوَةِ . وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٦٦٢) : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أَي : عِدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ . وَوُصِفَ الشَّقَاقُ بِالْبُعْدِ مُبَالِغَةً ، وَالْمُوصُوفُ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْ قَامَ بِهِ ((اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٠٨) : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أَي : شَكٌّ وَشُرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَالْمُشْرِكِينَ حِينَ فَرَحُوا بِذَلِكَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَحِيحٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هُمُ الْمُشْرِكُونَ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : هُمُ الْيَهُودُ ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] . هذه الآية مُتَعَلِّقَةٌ بِالسَّيِّدَةِ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، حَيْثُ رَمَاهَا أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْمُنَافِقُونَ بِالْفَاحِشَةِ كَذِبًا وَزُورًا . وَقَدْ بَرَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَصَانَ عَرَضَ النَّبِيِّ ﷺ .

(٢٨) فِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١٢ / ٨١) : ((قَالَ الثَّعْلَبِيُّ : وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ السَّهْوُ وَالتَّنْسِيَانُ وَالْغَلَطُ بِوَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ ، أَوْ عِنْدَ شُغْلِ الْقَلْبِ حَتَّى يَغْلُطَ ، ثُمَّ يُبَيِّنُهُ ، وَيَرْجِعُ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَكُونُ الْغَلَطُ عَلَى حَسَبِ مَا يَغْلُطُ أَحَدُنَا ، فَأَمَّا مَا يُضَافُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِمْ : تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى ، فَكَذِبٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، لِأَنَّ فِيهِ تَعْظِيمَ الْأَصْنَامِ ، وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْرَأَ بَعْضَ الْقُرْآنِ ثُمَّ يُنْشِدَ شِعْرًا ، وَيَقُولَ : غَلِطْتُ وَطَنَنْتُهُ قُرْآنًا)) .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ . لَا تَظُنُّوا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، حَيْثُ أَظْهَرَ اللَّهُ الْحَقَّ ، وَفَضَحَ الْبَاطِلَ وَأَهْلَهُ ، وَأَنْزَلَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةَ ، وَأَثَبَتِ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ ، وَمَنَحَ الْأَجْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَظْهَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ وَعِفَّتَهَا ، وَأَبْرَزَ طَهَارَةَ آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَآلِ أَبِي بَكْرٍ ، وَمَدَحَ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعْطَلِ ، وَهُوَ الصَّحَابِيُّ الشَّرِيفُ الَّذِي أُتْهِمَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ الطَّاهِرَةُ بِهِ . وَهَكَذَا ، تَفَوَّقَ الْخَيْرُ وَالنَّفْعُ عَلَى الشَّرِّ وَالضَّرَرِ (29).

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٥٩) : ((« إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ » أي : جماعة منكم . يعني : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة . فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوثقيه (يستخرجه) ، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وجوزوه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ((اه .

وَكُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي عَرَضِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — ، وَخَاضَ فِي هَذِهِ التُّهْمَةِ الْبَاطِلَةِ ، قَدْ وَقَعَ فِي الْإِثْمِ وَالْخَطِيئَةِ . وَقَدْ أَصَابَ ذَنْبًا عَلَى قَدَرٍ مَا خَاضَ فِيهِ . أَي : إِنَّهُ عَلَى قَدَرِ جَرِيْمَتِهِ ، وَلَهُ نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَابِ . وَدَائِمًا ، تَكُونُ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدَرِ الْإِثْمِ ، وَهَذَا يَتَجَلَّى عَدْلُ اللَّهِ الْمُنَزَّهَ عَنِ الظُّلْمِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٦) : ((« عُصْبَةٌ مِنْكُمْ » جَمَاعَةٌ مِنْكُمْ ، وَهِيَ مِنَ الْعَشَرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ ، وَكَذَلِكَ الْعُصْبَاءُ ، يُرِيدُ : عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، وَزَيْدَ بْنَ رِفَاعَةَ ، وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَمِسْطَاحَ بْنَ أَثَاثَةَ ، وَحَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ ، وَمَنْ سَاعَدَهُمْ ، وَهِيَ خَبْرٌ " إِنَّ " . وَقَوْلُهُ : « لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ » مُسْتَأْنَفٌ . وَالْخَطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ ، وَأَبِي بَكْرٍ ، وَعَائِشَةُ ، وَصَفْوَانُ — رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ — وَالْهَاءُ لِلْإِفْكِ . « بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » لَاقْتِسَابِكُمْ بِهِ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ ، وَظُهُورَ كِرَامَتِكُمْ

(٢٩) قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٥٩) : ((« لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ » أي : يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ . « بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » ، أي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِسَانِ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا ، وَرِفْعَةِ مَنَازِلٍ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِظْهَارِ شَرَفٍ لَهُمْ بِاعْتِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — ، حَيْثُ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » — الْآيَةُ — . وَلِهَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — ، وَهِيَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ ، قَالَ لَهَا : أَبْشِرِي ، فَإِنَّكِ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ يُجْبَأُ ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ بِكَرٍّ غَيْرِكَ ، وَأَنْزَلَ بَرَاءَتَكَ مِنَ السَّمَاءِ)) اه .

على الله يأنزال (الآيات القرآنية) في براءتكم وتعظيم شأنكم ، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم ،
والثناء على من ظنَّ بكم خَيْرًا)) اهـ .

والذي تَحَمَّلَ مُعْظَمَهُ " كِبَرَهُ " (وهو عبد الله بن أبي رأس المنافقين) ، حيث كان يجمعه ،
ويَنشره بين الناس ، عداوةً للنبي ﷺ وطمعًا فيه ، وحقدًا على الإسلام والمسلمين. ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من
الخائضين في قضية الإفك، ويشمل عبد الله بن أبي، وحسان ومسطح، لهم عذابٌ عظيمٌ في
الآخرة أو في الدنيا ، بأن جُلِدوا، وصار ابن أبي مطرودًا مشهورًا بالنفاق ، وحسان أعمى ،
ومسطح مكفوف البصر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٩): ((وفي المَتَوَلَّى لذلك قولان: أحدهما أنه عبد الله
ابن أبي رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وغرورة عن عائشة ، وبه قال مجاهد والسُّدي ومقاتل . قال
المفسِّرون : هو الذي أشاعَ الحديثَ ، فله عذاب عظيم بالنار ، وقال الضَّحَّاك : هو الذي بدأ
بذلك . والثاني أنه حَسَّان. رَوَى الشَّعْبِيُّ أَنَّ عائشةَ قالت : ما سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْ شِعْرِ حَسَّان ، وما
تَمَثَّلْتُ بِهِ إِلَّا رَجَوْتُ لَهُ الْجَنَّةَ. فَقِيلَ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ
لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، فقالت : أَلَيْسَ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ . وروى عنها مسروق أنها قالت : وأيُّ عذابٍ
أشدُّ مِنَ الْعَمَى ، ولعلَّ الله أن يجعل ذلك العذابَ الْعَظِيمَ ذَهَابَ بَصَرِهِ ، تعني حسان بن ثابت)) .
وأكثرُ العلماء على أنَّ المقصود هو عبد الله بن أبيِّ بن سلول (رأس المنافقين) . أمَّا حَسَّان
ابن ثابت فهو صحابي جليل قد أخطأ ، وارْتَكَبَ هذه الكبيرة ، فهو غَيْرُ مَعْصُوم ، ولكن لا ينبغي
نسيان فضائله ومناقبه ، ولا يُمكن شطب تاريخه بسبب هذه الخطيئة التي وقع فيها . فقد كان
يُدافع عن النبي ﷺ بِشِعْرِهِ. فهو شاعر الرسول ﷺ ، والذي قال له الرسول ﷺ كما في صحيح
مسلم (٤ / ١٩٣٥) : ((إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٤ / ١٥٢٣) ومسلم (٤ / ١٩٣٤) : عن مسروق
قال: دخلنا على عائشة رضي الله عنها وعندها حسان بن ثابت يُنشدُها شِعْرًا يُشَبِّبُ بِأبيات له ،
وقال : حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ (30)

(٣٠) المعنى العام : مُحَصَّنَةٌ عَفِيفَةٌ ثَابِتَةٌ كَامِلَةٌ الْعَقْلُ لَا تُتَّهَمُ بِشَيْءٍ، تُصْبِحُ وَتُمْسِي جَائِعَةً مِنْ لُحُومِ النَّاسِ ،
فلا تغتاب أحدًا ولا تَدُمُّهُ . وكان حسان ممن تكلَّم في عِرْضِ عائشة في حادثة الإفك، لذلك قالت له :
لكنك لست كذلك .

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: ((لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ)) ، قَالَ مَسْرُوقٌ : فَقُلْتُ لَهَا : لِمَ تَأْذِنِينَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] ؟ ، فَقَالَتْ : وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى ؟ . قَالَتْ لَهُ : إِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ أَوْ يُهَاجِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
 وَقَدْ اعْتَرَفَ حَسَّانٌ بِذَنْبِهِ ، وَأَرَادَ التَّكْفِيرَ عَنْهُ ، وَالْإِعْتِذَارَ إِلَى السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ ، فَمَدَحَهَا بِأَبْيَاتٍ فِي غَايَةِ الرُّوعَةِ ، فَقَالَ :

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرَبِيَّةٍ	وَتُصْبِحُ غَرْثِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِينًا وَمَنْصِبًا	نَبِيِّ الْهَدَى وَالْمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ
عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ	كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلٍ
مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا	وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلٍ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ	فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَا مِلِي
فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِّتُ وَنُصْرَتِي	لَا إِلَاهَ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ زَيْنَ الْمَحَافِلِ
لَهُ رَتَّبَ عَالٍ عَلَى النَّاسِ فَضْلُهَا	تَقَاصَرَ عَنْهَا سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ
رَأَيْتُكَ وَلْيَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ حُرَّةً	مِنْ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ

[(النخيم) الطبع بلا تكلف (لا رفعت سوطي إلي أناملتي) يُصاب بالشَّلَل (السُّورَةُ) الوثبة (الغوائل) الدواهي] .
 وَقَالَ عُروَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ : ((كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عَنْدَهَا حَسَّانٌ ، وَتَقُولُ : إِنَّهُ الَّذِي قَالَ :
 فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرُضِي ، لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءً)) [البخاري (١٥١٧ / ٤) ومسلم (٢١٢٩ / ٤)] .
 وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٧٦ / ١٢) : ((الْمَشْهُورُ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْمَعْرُوفِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ
 الَّذِي حُذِّ (تَمَّ تَطْبِيقَ حَدِّ الْقَذْفِ عَلَيْهِ) : حَسَّانٌ وَمِسْطَحٌ وَحَمْنَةُ ، وَلَمْ يُسْمَعْ بِحَدِّ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ
 أَبِي . رَوَى أَبُو دَاوُدَ : " عَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي ، قَامَ النَّبِيُّ ﷺ ،
 فَذَكَرَ ذَلِكَ ، وَتَلَا الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمِنْبَرِ أَمَرَ بِالرَّجُلَيْنِ وَالْمَرْأَةِ ، فَضْرَبُوا حَدَّهُمْ ، وَسَمَّاهُمْ :
 حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ وَمِسْطَحَ بْنَ أَثَاثَةَ وَحَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ " . وَفِي كِتَابِ الطُّحَاوِيِّ (ثَمَانِينَ ثَمَانِينَ) .
 قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَإِنَّمَا لَمْ يُحَدِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا عَظِيمًا ،
 فَلَوْ حُدِّ فِي الدُّنْيَا لَكَانَ ذَلِكَ نَقْصًا مِنْ عَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَتَخْفِيفًا عَنْهُ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
 شَهِدَ بِبِرَاءَةِ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ وَبِكَذِبِ كُلِّ مَنْ رَمَاهَا ، فَقَدْ حَصَلَتْ فَائِدَةُ الْحَدِّ ، إِذْ

مَقْصُودُهُ إِظْهَارُ كَذِبِ الْقَاذِفِ ، وَبِرَاءَةُ الْمَقْدُوفِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهُدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . وَإِنَّمَا خُذَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ لِيُكَفَّرَ عَنْهُمْ إِثْمُ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْقَذْفِ حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَيْهِمْ تَبِعَةٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ . وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي الْحُدُودِ : " إِنَّهَا كَفَّارَةٌ لِمَنْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِ " .

كَمَا فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّمَا تَرَكَ حَدَّثَ ابْنِ أَبِي اسْتِثْلَافًا لِقَوْمِهِ ، وَاحْتِرَافًا لِابْنِهِ ، وَإِطْفَاءً لثَائِرَةِ الْفِتْنَةِ الْمَتَوَقَّعَةِ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ ظَهَرَ مِبَادئُهَا مِنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَمِنْ قَوْمِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

وَلَنَأْتِ إِلَى تَفَاصِيلِ حَادِثَةِ الْإِفْكِ ، وَالدَّرُوسِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْهَا . وَهِيَ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ وَمَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرَةِ . وَقَدْ وَضَّحَتْهَا السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، حَيْثُ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أقرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا ، خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا ، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي ، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي ، وَأُنْزَلَ فِيهِ ، فَسَرْنَا حَتَّى إِذَا قَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ ، وَقَفَلْ ، وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي ، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَّارٍ ، قَدْ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي ، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ . وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي ، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أُرْكَبُ عَلَيْهِ ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا ، لَمْ يُهَبَّلْنَ ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ مِنَ الطَّعَامِ ، فَلَمْ يَسْتَكِرَّ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ ، فَبِعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارَوْا ، وَوُجِدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ ، وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعْطَلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذُّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَانِي ، وَكَانَ رَأَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ ، فَاسْتَيْقِظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي ، فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي ، وَاللَّهُ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ ، وَهُوَ حَتَّى أَنَاخَ رَاكِلَتَهُ ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا ، فَرَكِبْتُهَا ، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ ، وَهُمْ نُزُولٌ . فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سَلُولٍ ... قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ

قَدِمْتُ شَهْرًا ، والناس يَفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَرِيْنِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي ، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَيُسَلِّمُ ، ثُمَّ يَقُولُ : ((كَيْفَ تَيْكُم ؟)) . ثُمَّ يَنْصَرِفُ ، فَذَلِكَ يَرِيْنِي ، وَلَا أَشْعُرُ بِالْشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَعْتُ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مُسْطَحٍ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُحْمِ بْنِ الْمُطَّلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرَ بْنِ عَامِرٍ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَابْنُهَا مُسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلَبِ ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مُسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي ، حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا ، فَعَنَتْنِي أُمُّ مُسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا ، فَقَالَتْ : تَعَسَ مُسْطَحُ ، فَقُلْتُ لَهَا : يَسَسَ مَا قُلْتُ ، أَتَسْبِيَنَّ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا ؟ ، فَقَالَتْ : أَيُّ هُنْتَاهُ ، أَوْ لَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ ؟ ، وَقُلْتُ : وَمَا قَالَ ؟ ، فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : ((كَيْفَ تَيْكُم ؟)) . فَقُلْتُ لَهُ : أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ ، قَالَتْ : وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا ، قَالَتْ : فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لَأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ ، قَالَتْ : يَا بَنِيَّةُ ، هَوْنِي عَلَيْكَ ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا ، لَهَا ضُرَائِرُ ، إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا . قَالَتْ : فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَوْ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ ، قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ ، لَا يَرِقًا لِي دَمْعٌ ، وَلَا أَكْتَجِلُ بَنَوْمٍ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي . قَالَتْ : وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ، حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ ، قَالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ أَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ ، فَقَالَ أُسَامَةُ : أَهْلُكَ ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا . وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصُدِّقْكَ . قَالَتْ : فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ ، فَقَالَ : ((أَيُّ بَرِيرَةٍ ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ ؟)) . قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ . قَالَتْ : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ، فَاسْتَعْدَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، وَهُوَ عَلَى الْمَنَبَرِ ، فَقَالَ : ((يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي ؟ ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا . وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)) . قَالَتْ : فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْذِرُكَ ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرِيْتُ عَنْقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ ، أَمَرْتُنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ . قَالَتْ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتُ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُבَادَةَ ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ . قَالَتْ : وَكَانَ

قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا ، وَلَكِنْ اخْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ ، فَقَالَ لِسَعْدٍ : كَذَبْتَ ، لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتُ أَنْ يُقْتَلَ . فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : كَذَبْتَ ، لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقُتِلَنَّكَ ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ . قَالَتْ : فَتَارَ الْخَبَّانَ ، الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجَ ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتُلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا عَلَى الْمِنْبَرِ ، قَالَتْ : فَلَمَّ يَزُلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا ، وَسَكَتَ ، فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ ، لَا يَزُقُّ لِي دَمْعٌ ، وَلَا أَكْتَحِلُ بَنَوْمٍ ، قَالَتْ : وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي ، قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا ، وَلَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، لَا أَكْتَحِلُ بَنَوْمٍ ، حَتَّى إِنِّي لَأُظُنُّ أَنَّ الْبَكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي ، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَذِنْتُ لَهَا ، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِيَ ، قَالَتْ : فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا ، فَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَلَسَ ، قَالَتْ : لَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلُهَا ، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ . قَالَتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ ، ثُمَّ قَالَ : ((أَمَّا بَعْدُ ، يَا عَائِشَةُ ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسَيُبرِّكُ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ ، وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ)) . قَالَتْ : عَائِشَةُ : فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً ، فَقُلْتُ لِأَبِي : أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ ، فَقَالَ أَبِي : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ لِأُمِّي : أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ ، قَالَتْ أُمِّي : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ _ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا _ : إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ، فَلَمَّا قُلْتُ لَكُمْ : إِنِّي بَرِيئَةٌ ، لَا تُصَدِّقُونِي . وَلَمَّا اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي ، فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ ، حِينَ قَالَ : ﴿ فَصَبَّرَ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يُوسُفُ : ١٨] . ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِرَاءَتِي ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلُ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى ، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَرُ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا ، يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْخَاءِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ الْعَرَقُ مِثْلَ الْجُمَانِ ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، قَالَتْ : فَسَرَّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ يَضْحَكُ . فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ : ((يَا عَائِشَةُ ، أَمَّا وَاللَّهِ فَقَدْ بَرَأَكَ) . فَقَالَتْ لِي أُمِّي : قُومِي إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ ، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ _ عَزَّ

وَجَلَّ . قالت : وأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ العَشْرَ الآيات ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ _ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحَ بْنِ أَثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقَرَهُ : وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ _ الْآيَةَ ... فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي ، فَقَالَ لَزَيْنَبَ : ((مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ ؟)) . فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا . قَالَتْ عَائِشَةُ : وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ . قَالَتْ : وَطَفَّقْتُ أُخْتُهَا تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكْتُ فِيمَنْ هَلَكَ (31) .

هناك عشرات الدروس المستفادة من هذه القصة ، نحاول اختصارها على النحو التالي :

- ١ _ إجراء القرعة بين الزوجات حين السفر ، لتطيب قلوبهن ، ولئلا يشعرن بالظلم والحسد .
- ٢ _ شدة الحرص على المال مشؤومة ، فعقد عائشة لم يكن ذهباً ولا فضة ، ومع هذا كان سبباً في كل هذه المشكلات .
- ٣ _ صفوان بن المعطل _ رضي الله عنه _ صحابي جليل . وضعه النبي ﷺ على الساقة ،

(٣١) متفق عليه . البخاري (١٥١٧ / ٤) برقم (٣٩١٠) ، ومسلم (٢١٢٩ / ٤) برقم (٢٧٧٠) .
(أقرع) أجرى القرعة (غزوة غزاها) هي غزوة بني المصطلق . (الهودج) مركب من مراكب النساء له قبة . (جرع ظفار) خرز يماي ، و ظفار مدينة باليمن . (الرمط) من ثلاثة إلى عشرة . (يرحلون) يجعلون الرحل على البعير . (لم يهبلن) لم يكثر اللحم في أجسامهن . (العلقه) ما يسد الرمق .
حديثه السنن (صغيرة " ١٥ سنة " . (موعرين في نحر الظهيرة) نازلين في وقت الوغرة وهي شدة الحر .
(تيكم) من أسماء الإشارة للمؤنث (نفهت) قمت من مرضي وما رجعت إلي تمام صحي . (هنتاه) هذه . (المريط) كساء من صوف . (أعمصه) أعيبه . (الداجن) الشاة التي تألف البيت . (استعذر) طلب العذرة أو من يتصره . (يرقأ) يقطع . (قلص) ارتفع وذهب . (البرحاء) الشدة .
(الجمان) الدر . (سري) أزيل الهم . (تساميني) تعادلني في المنزلة الرفيعة .

وذلك لشجاعته . يعني أنه يتأخر عن الجيش ، ويكون آخر العسكر ، ويمشط أرض المعركة بعد انتهائها، فمن سقط منه شيء أتى به . وقد كان رجلاً شريفاً ومؤدباً ، فحين رأى عائشة ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ولم يكلمها بأية كلمة ، ولم يفتح معها أي حديث .

٤ _ طهارة عائشة _ رضي الله عنها _ وشرفها ، حيث خمرت وجهها (غطت) حين رأت صفوان ، وكان يعرفها قبل نزول آية الحجاب .

٥ _ المنافقون _ دائماً _ يصطادون في ماء أفكارهم العكر . فعبد الله بن أبي رأس المنافقين ، استغل هذه الحادثة ، كي يؤلف قصصاً ومغامرات ، ويخترع أوهاماً وأكاذيب ، عداوة للنبي ﷺ وكُرهاً للإسلام والمسلمين .

٦ _ لم تُجامل أم مسطح ابنها ، ولم تتعاطف معه ، بل أدانتها، وفضحت فغله السيئ . وهكذا يتضح أن رابطة الدين أقوى من رابطة الدم ، وأن الحق أكبر من علاقات القرابة .

٧ _ استنكار عائشة أن يُشتم رجل شهد بدرًا ، وهو مسطح ، يدل على عظمة أهل بدر ، فقد قام الإسلام على أكناهم . وفي الحديث المتفق عليه ، البخاري (١٨٥٥ / ٤) ومسلم (١٩٤١ / ٤) أن النبي ﷺ قال : ((لعل الله - عز وجل - أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)) . وفي رواية عند البخاري (٢٣٠٩ / ٥) : ((فقد وجبت لكم الجنة)) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٥٦ و ٥٧) : ((قال العلماء : معناه الغفران لهم في الآخرة ، وإلا فإن توجب على أحد منهم حد أو غيره أقيم عليه في الدنيا . ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد ، وأقامه عمر على بعضهم . قال : وضرب النبي ﷺ مسطحاً الحد وكان بدرياً)) اهـ .

٨ _ قول أم مسطح لعائشة : " أي هنتاه " ، يشير إلى غفلة عائشة وعدم معرفتها بكيد الناس وشؤونهم لقلة خبرتها في الحياة . وهذا متوقع من جارية صغيرة السن لا تعرف الناس على حقيقتهم .

٩ _ طلبت عائشة زيارة أبويهما للتأكد من الخبر ، وهذا يدل على أهمية التثبت من الأخبار ، والتأكد منها قبل اتخاذ القرارات أو الأحكام .

١٠ _ الغيرة بين الصرائر حقيقة واقعية . خصوصاً إذا كانت إحدى الزوجات جميلة وصغيرة وذات خطوة ومكانة عند زوجها . وهذا يتجلى في كلام أم عائشة : " فوالله لقلما كانت امرأة قط وضية عند رجل يحبها لها صرائر ، إلا أكثرن عليها " . وتسمية زوجات الرجل بالصرائر ، لأن كل واحدة تنزهر بالأخرى بالغيرة وغيرها .

١١_ لله حكمة بالغة في تأخير نزول الوحي ، وذلك كي يكشف كُلاً إنسان على حقيقته ، ويتضح الصادق من الكاذب. والنبى ﷺ لا يعلم الغيب إلا إذا أخبره الوحي . لذلك دعا النبى ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة ابن زيد ، وهما معروفان بالإيمان والتقوى ورجاحة العقل ، من أجل استشارتهما ، وهنا تتجلى أهمية أخذ المشورة من أهل الصلاح والعقل. وقد قدما المشورة بإخلاص وأمانة وتجرد . وقد يستشكل البعض قول علي : " لم يضيّق الله عليك ، والنساء سواها كثير " . لقد أراد علي التخفيف عن النبى ﷺ وإزالة همّه ، ولم يرد علي الطعن في عائشة . ولو أراد الطعن فيها لاتهمها مباشرة ، ولما قال : " وسَل الجارية تصدّقك " . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ١٠٨) : ((هذا الذي قاله علي رضي الله عنه _ هو الصواب في حقه ، لأنه رآه مصلحةً ونصيحةً للنبى ﷺ في اعتقاده ، ولم يكن ذلك في نفس الأمر ، لأنه رأى انزعاج النبى ﷺ بهذا الأمر وقلقه ، فأراد راحة خاطره ، وكان ذلك أهم من غيره)) اهـ .

١٢_ الجارية بريرة قدّمت شهادتها بصدق وأمانة ، فهي تعرف عائشة معرفة شخصية ، ومطلعة على تفاصيل حياتها. وعيبت عائشة الوحيد _ وفق رأي بريرة _ أنها تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الشاة وتأكله . وهذا يدل على سلامة قلب عائشة وغفلتها ، وتعاملها مع الأمور ببساطة . وهذا ينفي عنها التهمة بشكل واضح ، لأنّ الخيانة الزوجية قائمة على الخُبث والمكر والتخطيط . أمّا عائشة فهي فتاة غافلة تأكل الشاة عجينها . والمعنى : ليس فيها شيء مما تسألون عنه أصلاً . وفي فتح الباري (٨ / ٤٧٠) : ((قال ابن المنبر في الحاشية : هذا من الاستثناء البديع الذي يُراد به المُبالغة في نفي العيب ، فعُفِلَتْها عن عجينها أبعد لها من مثل الذي رُميت به ، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات)) اهـ .

١٣_ طَلَب النبى ﷺ وهو على المنبر مَنْ يُنصِفُه وَيُنصُرُه مِنْ عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، الذي طعن في عرض النبى ﷺ حقداً وحسداً . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ١٠٩) : ((ومعنى : " مَنْ يَعْدِرُنِي " مَنْ يَقُوم بِعَدْرِي إِنْ كَافَأْتُهُ عَلَى قَبِيحِ فِعَالِهِ وَلَا يَلُومُنِي)) .

١٤_ خطورة الدخول على المرأة ، والخلو بها . وهذا يتضح في قول النبى ﷺ عَنْ صَفْوَانَ ابْنِ الْمُعْطَل : ((وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)) . والمعنى أنه لا يدخل بيت النبى ﷺ في غيابه ، لأنه حينئذ سيختلي بزوجته . فهذا الصحابي الجليل لا يدخل على أهل النبى ﷺ إلا مع النبى ﷺ ، وبالتالي ، من المُحال أن يتحقق معنى الخلو ، أو تدور الشكوك والشبهات حوله .

١٥_ قَوْلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ (سَيِّدِ الْأَوْسِ) لِلنَّبِيِّ ﷺ : " أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْدِرُكَ " يَدُلُّ عَلَى دَوْرِ الْأَنْصَارِ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالِدِفَاعِ عَنْهُ ، وَعَدَمِ السَّمَاكِ لِأَيِّ شَخْصٍ بِالْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى دَوْرِهِمْ فِي نُصْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالِدِفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ . وَفِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧ / ١٠٩) : ((قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ : هَذَا مُشْكِلٌ ، لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ أَحَدٌ ، وَهُوَ قَوْلُهَا : " فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ : أَنَا أَعْدِرُكَ مِنْهُ " . وَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي غَزْوَةِ الْمُرَيْسِيِّعِ ، وَهِيَ غَزْوَةُ بَنِي الْمَصْطَلِقِ سَنَةِ سِتٍّ ، فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ مَاتَ فِي إِثْرِ غَزَاةِ الْخَنْدَقِ مِنَ الرَّمِيَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ ، وَذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعٍ بِإِجْمَاعِ أَصْحَابِ السِّيَرِ إِلَّا شَيْئًا قَالَهُ الْوَاقِدِيُّ

وَحْدَهُ . قَالَ الْقَاضِي : قَالَ بَعْضُ شَيْوَخِنَا : ذَكَرَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي هَذَا وَهُمْ ، وَالْأَشْبَهُ أَنَّهُ غَيْرُهُ ، وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرِ ، وَإِنَّمَا قَالَ إِنَّ الْمَتَكَلَّمَ أَوَّلًا وَآخِرًا أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ . قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ أَنَّ غَزْوَةَ الْمُرَيْسِيِّعِ كَانَتْ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَهِيَ سَنَةُ الْخَنْدَقِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ اخْتِلَافَ ابْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ عُقْبَةَ . قَالَ الْقَاضِي : فَيَحْتَمِلُ أَنَّ غَزَاةَ الْمُرَيْسِيِّعِ وَحَدِيثَ الْإِفْكِ كَانَا فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ قَبْلَ قِصَّةِ الْخَنْدَقِ ، قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ ذَكَرَ الطَّبْرِيُّ عَنِ الْوَاقِدِيِّ أَنَّ الْمُرَيْسِيِّعَ كَانَتْ سَنَةَ خَمْسٍ . قَالَ : وَكَانَتْ الْخَنْدَقُ وَقُرَيْظَةُ بَعْدَهَا . وَذَكَرَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ الْخِلَافَ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ : الْأَوَّلَى أَنَّ يَكُونُ الْمُرَيْسِيِّعُ قَبْلَ الْخَنْدَقِ . قَالَ الْقَاضِي : وَهَذَا لِيَذْكُرَ سَعْدُ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ ، وَكَانَتْ فِي الْمُرَيْسِيِّعِ ، فَعَلَى هَذَا يَسْتَقِيمُ فِيهِ ذِكْرُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَهُوَ الَّذِي فِي الصَّحِيحِينَ ، وَقَوْلُ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي غَيْرِ وَقْتِ الْمُرَيْسِيِّعِ أَصَحُّ ، هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي . وَهُوَ صَحِيحٌ)) اهـ .

١٦_ خُطُورَةُ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصْبِيَّةِ الْقَبْلِيَّةِ اللَّتَيْنِ تَحْمِلَانِ عَلَى الْجَهْلِ وَالْفُسَادِ ، وَهَذَا يَتَجَلَّى فِي قَوْلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ (سَيِّدِ الْخَزَرَجِ) ، وَهُوَ صَحَابِي جَلِيلٌ . لَكِنَّهُ قَدْ تَهَوَّرَ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ .

١٧_ نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَانَ شَدِيدًا لَا سَهْلًا ، وَذَلِكَ لَتَعْظِيمِ الْوَحْيِ . وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا حَتَّى فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ . وَقَدْ شَبَّهَتْ عَائِشَةُ فَطْرَاتِ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ بِحَبَّاتِ اللَّوْلُؤِ لَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَحَبَّةِ عَائِشَةَ لَهُ .

١٨_ لَمْ تَقُمْ عَائِشَةُ بِحَمْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، لِأَنَّهَا أَرَادَتْ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي بَرَّأَهَا . وَأَيْضًا مِنْ أَجْلِ إِظْهَارِ دَلَالِهَا وَعَتَبِهَا . حَيْثُ إِنَّهُمْ تَوَقَّفُوا فِي أَمْرِهَا ، وَلَمْ يَخْسِمُوا أَمْرَهُمْ بِخُصُوصِ بَرَاءَتِهَا . وَهَذَا يَتَجَلَّى فِي قَوْلِهَا : " وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ " . وَقَالَ النَّوَوِيُّ

في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ١١٢) : ((فقالت عائشة ما قالت إدلالاً عليه، وعتباً لكونهم شكوا في حالها ، مع علمهم بحسن طرائقها ، وجميل أحوالها ، وارتفاعها عن هذا الباطل الذي

افتراه قوم ظالمون ، ولا حجة لهم ، ولا شبهة فيه)) اهـ .

وبشكل عام ، إن زوجات الأنبياء مُنزَّهات عن الزنا والخيانة الزوجية . وزوجة النبي _ أي نبي _ قد تكفر ، ولكنها لا تزني ، لأن الزنا تلويث لسمعة النبي ، وطعن في نسب عائلته . أما كُفْرُ زوجة النبي فهو حُرْيَة شخصية ورأي فكري ، لا يطعن في النبي ، والكافر يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا والآخرة .

أما الخيانة الواردة في الآية : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحریم : ١٠] . فليست بمعنى الخيانة الزوجية، بل بمعنى خيانة الكفر ، لأن الكفر هو الخيانة العظمى التي ما بعدها خيانة . وزوجة النبي نوح ، وزوجة النبي لوط ، كانتا كافرتين ، وهذا لا يطعن في نوح ولوط _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وإنما يُشير إلى حُرْيَة اختيار العقيدة ، ولا يُجبر أحد على اعتناق الإسلام . وقال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ [النور : ١٢] .

يُعَاتِبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَى أَمِيَّةِ حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وعدم إساءة الظن بهم . والمؤمنون كُلُّهُمْ يَدٌ واحدة ، وبمنزلة نفس واحدة ، لأنهم يَنتمون إلى دين واحد . وهذا المعنى يتجلى في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ . إذن ، لا بُدَّ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِالْمُؤْمِنِينَ . وإذا سَمِعَ المسلمون رجلاً يَقْدِفُ أحداً ، وَيَتَّهِمُهُ بدون دليل ولا بَيِّنَة ، فيجب عَلَيْهِمْ تكذيبه ، وإيقافه عند حذِّه .

و ﴿ لَوْلَا ﴾ لِلْحَصِّ ، وَالتَّوْبِيخِ الشَّدِيدِ ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْعِتَابِ . والمعنى : كان ينبغي على المؤمنين حينَ سَمِعُوا هذا الكذب أن يقيسوا ذلك على أنفسهم وأعراضهم ، فإن كان ذلك بعيداً عنهم ، فهو في حق أم المؤمنين أبعد .

كَانَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، حِينَ سَمِعْتُمْ ذَلِكَ الْكَلَامَ الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ عَائِشَةُ ، وَيَتَّهِمُهَا بِالْفَاحِشَةِ ، أَنْ تُنْكِرُوا الْأَمْرَ ، وَتُنَزَّهُوهَا عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا تُنَزَّهُونَ نِسَاءَكُمْ وَنِسَاتِكُمْ عَنْ ارْتِكَابِ

الفواحش . وأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى وَأَفْضَلُ مِنْ نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ ، وَهِيَ أَوَّلَى بِالْبِرَاءَةِ مِنَ الْفَاحِشَةِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى .

كَانَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُحْسِنُوا الظَّنَّ بِأَمْكُمُ عَائِشَةَ ، وَتَقُولُوا بِكُلِّ يَقِينٍ وَتَأْكِيدِ كَالْمُطَّلَعِ عَلَى الْحَالِ : هَذَا كَذِبٌ وَاضِحٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَهِيَ الطَّاهِرَةُ الشَّرِيفَةُ . وَالْمُؤْمِنُ لَا يَفْجُرُ بِأَمِّهِ . وَقَدْ انْتَقَلَ الْكَلَامُ مِنْ صِيغَةِ الْمُخَاطَبِ ﴿ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ ، إِلَى صِيغَةِ الْغَائِبِ ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ﴾ مِنْ أَجْلِ تَوْبِيخِهِمْ الشَّدِيدِ ، وَتَحْمِيلِهِمُ الْمَسْئُولِيَّةَ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٧٧) : ((وَإِنَّمَا عَدَلَ فِيهِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ مُبَالَغَةً فِي التَّوْبِيخِ ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي ظَنَّ الْخَيْرِ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَالْكَفَّ عَنْ الطَّعْنِ فِيهِمْ ، وَذَبَّ الطَّاعِنِينَ عَنْهُمْ كَمَا يَذُبُّونَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ)) اهـ .

وَالْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِ أَنَّهُ عَدَلَ حَتَّى يَثْبُتَ الْعَكْسُ . وَأَيْضًا ، الْأَصْلُ بَقَاءُ مَا كَانَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ ، وَطَرَحَ الشَّكُّ . وَإِنَّ الشَّكَّ لَا يَرْفَعُ الْيَقِينَ . وَأَسْوَأُ شَخْصٍ هُوَ الَّذِي يَتْرُكُ الْيَقِينَ الَّذِي عِنْدَهُ مِنْ أَجْلِ الشَّكِّ الَّذِي عِنْدَ النَّاسِ . وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١٢ / ١٨١) : ((قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ الْآيَةَ أَصْلًا فِي أَنَّ دَرَجَةَ الْإِيمَانِ الَّتِي حَازَهَا الْإِنْسَانُ ، وَمَنْزِلَةُ الصَّلَاحِ الَّتِي حَلَّهَا الْمُؤْمِنُ ، وَلِبَسَةُ الْعِفَافِ الَّتِي يَسْتَتِرُ بِهَا الْمُسْلِمُ ، لَا يُزِيلُهَا عَنْهُ خَيْرٌ مُحْتَمَلٌ وَإِنْ شَاعَ ، إِذَا كَانَ أَصْلُهُ فَاسِدًا أَوْ مَجْهُولًا)) اهـ .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّهَمُوا عَائِشَةَ بِالْفَاحِشَةِ ، لَمْ يَقْدَمُوا أَيُّ دَلِيلٍ ، وَلَمْ يَأْتُوا بِالشُّهُودِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهِمْ . كَمَا أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ الْمُعْطَلِّ كَانَ يَقُودُ الرَّاحِلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا عَائِشَةُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ ، وَأَمَامَ النَّاسِ . وَلَوْ كَانَ بَيْنَهُمَا عِلَاقَةٌ أَوْ اشْتَرَكَ فِي خِيَانَةٍ ، لَأَخْفَا الْأَمْرَ عَنِ النَّاسِ ، وَقَامَا بِهِ بِسَرِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣٦٥) : ((هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — . فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيْبَةً ، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيءَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاكِلَةِ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعْطَلِّ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ ، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ . وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رِيْبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا جَهْرَةً ، وَلَا كَانَا يُقْدِمَانِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، بَلْ كَانَ يَكُونُ هَذَا لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتَوْرًا ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الْإِفْكِ مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ ، وَالْقَوْلُ الزُّورُ ، وَالرُّعُونَةُ الْفَاحِشَةُ الْفَاجِرَةُ ، وَالصَّفَقَةُ الْخَاسِرَةُ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٠ / ٦) : ((وجاء في التفسير أنَّ أبا أيوب الأنصاريَّ قالت له أمُّه : ألا تسمع ما يقول الناس في أمر عائشة ؟ ، فقال : هذا إفك مُبين ، أكنْتُ يا أمَّاه فأعلتُهُ ، قالت : معاذُ الله ، قال : فعائشة والله خيرٌ منك ، فنزلت هذه الآية)) اهـ .
وعن قتادة: في قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ كَذَّبْتُمْ وَقُلْتُمْ: هَذَا كَذِبٌ مِّبِينٌ. وَلَعَمْرِي أَنْ لَا تَكْذِبَ عَنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ بِالشَّرِّ إِذَا سَمِعْتَهُ ، خَيْرٌ لَكَ وَأَسْلَمُ مِنْ أَنْ تُذَيِّعَهُ ، وَتُفْشِيَهُ، وَتُصَدِّقَ بِهِ (32)

وقال الله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور : ١٣] .

لَوْ كَانَ أَهْلُ الْإِفْكِ صَادِقِينَ فِي اتِّهَامِهِمْ عَائِشَةَ بِالْفَاحِشَةِ لَجَاءُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، يُؤَيِّدُونَ كَلَامَهُمْ ، وَيَشْهَدُونَ بِصِحَّةِ اتِّهَامِهِمْ ، وَقَامُوا بِإثبات الواقعة بالدليل والبرهان . وهذا توبيخٌ شديدٌ لأهل الإفك . إذ إنَّ اتِّهَامَهُمْ مِنبًى عَلَى الْأَهْوَاءِ وَالشُّكُوكِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَلَيْسَ مِنبًى عَلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ . وَأَيْضًا ، تَوْبِيخٌ شَدِيدٌ لِلَّذِينَ سَمِعُوا اتِّهَامَ أَهْلِ الْإِفْكِ لِعَائِشَةَ بِلا دَليْلٍ ، وَلَمْ يَقُومُوا بِالِدِفَاعِ عَنْ عَرِضِهَا ، وَتَنْزِيهِ شَرَفِهَا عَنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَإِحْسَانِ الظَّنِّ بِهَا ، وَالنَّشَاءِ عَلَيْهَا . فَاتِّهَامُهَا بِالْفَاحِشَةِ لَا بُرْهَانَ عَلَيْهِ وَلَا حُجَّةَ . كَمَا أَنَّ الطَّعْنَ فِي إِحْدَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ طَعْنٌ مُبَاشِرٌ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَلْوِثٌ لَشَرَفِهِ وَسُمُعَتِهِ ، وَهَذَا يُشَكِّكُ النَّاسَ فِيهِ . وَالشُّكُّ فِي النَّبِيِّ ﷺ هَدْمٌ لِلْإِسْلَامِ وَالِدَّعْوَةِ .

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ الْقَادِرِينَ عَلَى إِثْبَاتِ الْوَاقِعَةِ ، فَأُولَئِكَ فِي حُكْمِ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ الْفَاسِقُونَ . وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِالْأَدْلَى فَهُوَ كَاذِبٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَقَدْ تَرْتَّبَ الْحُدُّ عَلَيْهِ (33) .

وقال الزمخشري في الكشاف (١ / ٨٣٢) : ((جَعَلَ اللَّهُ التَّفْصِيلَ بَيْنَ الرَّمِيِّ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ : ثُبُوتَ شَهَادَةِ الشُّهُودِ الْأَرْبَعَةِ وَانْتِفَاءَهَا . وَالَّذِينَ رَمَوْا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ بَيِّنَةٌ عَلَى قَوْلِهِمْ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ، وَكَانُوا "عِنْدَ اللَّهِ" أَي : فِي حُكْمِهِ وَشَرِيعَتِهِ كَاذِبِينَ . وَهَذَا

(٣٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٣ / ١٣٩) برقم (١٨٨) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٨١) : إسناده جيّد .

(٣٣) قال البغوي في تفسيره (١ / ٢٤) : ((فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَصِيرُونَ عِنْدَ اللَّهِ كَاذِبِينَ إِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ وَمَنْ كَذَبَ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ كَاذِبٌ سِوَاءَ أَتَى بِالشُّهَدَاءِ أَوْ لَمْ يَأْتِ ؟ قِيلَ : عِنْدَ اللَّهِ ، فِي حُكْمِ اللَّهِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ كَذَّبُوهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ . وَقِيلَ : هَذَا فِي حَقِّ عَائِشَةَ وَمَعْنَاهُ : أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ فِي غَيْبِي وَعِلْمِي)) .

تَوْبِيخٍ وَتَعْنِيفٍ لِلَّذِينَ سَمِعُوا الْإِفْكَ ، فَلَمْ يَجِدُوا فِي دَفْعِهِ وَإِنْكَارِهِ ، وَاحْتِجَاجٍ عَلَيْهِمْ بِمَا هُوَ ظَاهِرٌ مُكَشَّوفٌ فِي الشَّرْعِ ، مِنْ وَجوبِ تَكْذِيبِ الْقَاذِفِ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ ، وَالتَّكْيِيلِ بِهِ إِذَا قَذَفَ امْرَأَةً مُحْصَنَةً مِنْ عِرْضِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَيْفَ بِأَمِّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّدِيقَةِ بِنْتِ الصَّدِيقِ حُرْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَحُبِّيَّةِ حَبِيبِ اللَّهِ ؟)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ١٨١) : ((وقد يَعْجَزُ الرَّجُلُ عَنْ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ وَهُوَ صَادِقٌ فِي قَذْفِهِ ، وَلَكِنَّهُ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ وَظَاهِرِ الْأَمْرِ كَاذِبٌ ، لَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا رَتَّبَ الْحُدُودَ عَلَى حُكْمِهِ الَّذِي شَرَعَهُ فِي الدُّنْيَا ، لَا عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِالْإِنْسَانِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّمَا يُبْنَى عَلَى ذَلِكَ حُكْمُ الْآخِرَةِ)) اهـ .

وقد أجمع العلماء على أَنَّ أَحْكَامَ الدُّنْيَا تَتِمُّ وَفَقَّ الظَّاهِرِ ، وَالسَّرَائِرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .
وفي صحيح البخاري (٢ / ٩٣٤) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : إِنَّ أَنْاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ .
معنى " يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ " أي إِنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيُخْبِرُهُ بِحَقِيقَتِهِمْ ، وَيَكْشِفُ صِدْقَهُمْ أَوْ كَذِبَهُمْ . وقد انقطع الوحي بعد وفاة النبي ﷺ . فصارت الأحكام تُجْرَى حَسَبَ الظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْقُلُوبِ .

وَمَنْ أَظْهَرَ خَيْرًا صَارَ أَمِينًا عِنْدَنَا وَمُقَرَّبًا ، وَلَا نَبْحَثُ عَنْ سَرِيرَتِهِ ، وَلَا نَعْرِفُ مَا فِي قَلْبِهِ ، وَاللَّهُ يُحَاسِبُهُ عَلَى سَرِيرَتِهِ (بِطَانَتِهِ) . وَمَنْ أَظْهَرَ سُوءًا صَارَ عِنْدَنَا خَائِنًا وَكَاذِبًا ، حَتَّى لَوْ قَالَ إِنَّ نِيَّتَهُ حَسَنَةٌ وَقَصْدُهُ شَرِيفٌ . فَأَحْكَامُ الدُّنْيَا تُجْرَى عَلَى الظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْأَشْيَاءِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [التور : ١٤] .

"لَوْ لَا" حرف امتناع لوجود ، يُفِيدُ امْتِنَاعَ الشَّيْءِ لوجودِ غَيْرِهِ . وَالْخَطَابُ لِلْعُصْبَةِ الَّتِي تَكَلَّمْتُ فِي الْإِفْكِ . وَالْمَعْنَى : لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَيْهَا الْخَائِضُونَ فِي عِرْضِ عَائِشَةَ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ ، بَأَنْ أَمْهَلَكُمْ ، وَلَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَكُمْ ، ﴿ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وَذَلِكَ بِالْعَفْوِ عَنْكُمْ وَقَبُولِ تَوْبَتِكُمْ ، لِأَصَابِكُمْ بِسَبَبِ مَقَالَتِكُمْ فِي عَائِشَةَ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَهَذَا خَطَابٌ إِلَهِيٌّ عَظِيمٌ ، يَحْمِلُ مَعْنَى الزَّجْرِ وَالْعِتَابِ . وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَظِيمَةٌ ، فَهُوَ يَسْتُرُ عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَيَرْحَمُ فِي الْآخِرَةِ

التائبين. والإفاضة في الحديث هي الخوض فيه. ويمكن القول أيضًا إنَّ معنى الآية: لَوْلَا أَنِّي قَضَيْتُ بِالتَّفَضُّلِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَنْوَاعِ النَّعْمِ ، ومنها الإمهال للتوبة ، وأن أرحمكم في الآخرة بالعفو والمغفرة ، لعاجلتكم بالعقاب على خَوْضِكُمْ فِي عِرْضِ عَائِشَةَ بِلا دَليْل ولا بَيِّنَةٍ (حديث الإفك) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٦٦) : ((وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) أيها الخائضون في شأن عائشة بِأَنَّ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ وَإِنَابَتِكُمْ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، وَعَفَا عَنْكُمْ لِإِيْمَانِكُمْ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ. لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ)) من قضية الإفك)) عَذَابٌ عَظِيمٌ))

وهذا فِيمَنْ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ ، رَزَقَهُ اللَّهُ بِسَبِيهِ التَّوْبَةَ إِلَيْهِ كَمِسْطَحَ ، وَحَسَّانَ ، وَحَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشِ أَخْتِ رَئِيسِ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سَلُولٍ وَأَضْرَابِهِ ، فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَنْدهُمْ مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَا يُعَادِلُ هَذَا ، وَلَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَهَكَذَا شَأْنُ مَا يَرُدُّ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى فِعْلٍ مُعَيَّنٍ ، يَكُونُ مُطْلَقًا مَشْرُوعًا بِعَدَمِ التَّوْبَةِ ، أَوْ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ عَمَلٍ صَالِحٍ يُوزَنُهُ أَوْ يَرْجِعُ عَلَيْهِ)) اهـ .

وعن قتادة : فِي قَوْلِهِ : ((وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) ، قَالَ : هَذَا فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَفِيمَا قِيلَ . كَادَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَهْلِكُوا فِيهِ (34) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ((إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)) [التَّوْرَة : ١٥] .

الآية تكشف عن حُطُور الإشاعات فِي الْمَجْتَمَعِ . فَأَهْلُ الْإِفْكِ اتَّهَمُوا عَائِشَةَ كَذِبًا وَزُورًا . وَصَارَ الْبَعْضُ يَتَلَقَّى الْكَلَامَ الْبَاطِلَ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ ، وَيَنْشُرُهُ بَيْنَ النَّاسِ . وَصَارَ الْإِتِّهَامُ بِالْفَاحِشَةِ رِوَايَةً يَتَدَاوِلُهَا بَعْضُ النَّاسِ . فَيَلْقَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ ، وَيَقُولُ لَهُ : هَلْ بَلَغَكَ عَنْ عَائِشَةَ كَذَا وَكَذَا ؟ . وَذَلِكَ لِيَنْشُرَ الْمَوْضُوعَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيُشِيعَ عَلَيْهَا الْفَاحِشَةَ ، وَتُصْبِحَ أَمْرًا ثَابِتًا مِنْ كَثْرَةِ التَّدَاوُلِ .

(٣٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٣ / ١٤١) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٨٢) : ((إسناده جيّد)) .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٣٦٦): ((إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)). قال مجاهد وسعيد بن جبیر: أي: يرويه بعضكم عن بعض. يقول هذا: سَمِعْتُهُ مِنْ فُلَانٍ، وقال فُلَانٌ كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ كَذَا))

﴿وتقولون بأفواهكم﴾ . هذا تأكيد والزام وتسجيل عليهم . أي : تقولون ما لا تعلمون . إنكم تُردّدون كلامًا بحق أم المؤمنين عائشة ، لا دليل عليه ولا بُرهان . وتحسبون هذا الأمر سهلاً وعادياً ولا إثم فيه، وهو كارثة حقيقية، وذنبٌ شنيعٌ ، وعقابه شديد . فهو اتّهامٌ لزوجَةِ النبي ﷺ بالفاحشة ، وهذا طعنٌ مُباشر في النبي ﷺ ، وتلويتٌ لشرفه ، وتحطيمٌ لسمعته ، وتشكيكٌ فيه ، وهدمٌ للدعوة الإسلامية . واتّهامٌ امرأةٍ عاديةٍ من المسلمين بالفاحشة ذنبٌ عظيمٌ ، فما بالكم بعائشة الصديقة بنت الصديق ، زوجة النبي ﷺ أعظم الأنبياء والمرسلين ؟!

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٨): ((وتقولون بأفواهكم﴾ أي: وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿ما ليس لكم به علم﴾ إنه ليس تعبيراً عن علمٍ به في قلوبكم)). لقد وضّحت الآية ثلاثة دُنبٍ تُؤدّي إلى العذاب تمّ الوقوع فيها: ١- تَلَقَّى الإفك بالأسنة . ٢- التحدث به بلا دليل . ٣- استصغار هذا الذنب (القذف) واعتباره عادياً، وهو عند الله عظيم . وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٣٧٧) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، لَا يُلْقِي لَهَا بِالاً ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) . إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُغْضِبُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَلَا يُبَالِي بِهَا ، لِأَنَّهُ يَعتَبَرُهَا شَيْئاً سَهْلاً وبسيطاً وعادياً ، لَا يُفَكِّرُ بِهَا ، وَلَا يَعرِضُهَا عَلَى قَلْبِهِ . وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَقُودُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ، فَيَسْقُطُ فِي جَهَنَّمَ بِسَبِيحِهَا . وَالْمَقْصُودُ بِالْكَلِمَةِ هُوَ الْكَلَامُ _ بِشَكْلِ عَامٍ _ .

وينبغي على العبد أن يفكر بالكلمة قبل أن يقولها ، فإن كانت خيراً قالها . وإن كانت شراً صمت ولم يقلها . وقد قيل : لسانُ العاقل وراء قلبه ، ولسانُ الأحمق أمام قلبه . والمعنى : إنَّ العاقل يفكر بالكلمة قبل أن يقولها ، ويعرضها على قلبه ، فإن كانت خيراً ذكرها ، وإن كانت شراً لم يقلها . أمّا الأحمق فيُلقي الكلمة دون أن يفكر بها ، وَلَا يَعرِضُهَا عَلَى قَلْبِهِ . لذلك ، فإنَّ لسانَ الأحمق يقوده إلى الهلاك الأكيد . والكلمة كالرّصاصة ، إذا خرجت لا يُمكن إرجاعها ، وَلَا بُدَّ أَنْ تُصِيبَ شَيْئاً مَا . وَلَوْ افترضنا أنها لَنْ تُصِيبَ أَيَّ شَيْءٍ، فَسَوْفَ تُحَدِّثُ ضَجِيجاً . وكما قيل في المثل الشعبي : " العيار اللي ما يصيب يدوش " .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [التور : ١٦] .

عتابٌ للمؤمنين، وتأديبٌ ثانٍ لهم بعد التأديب الأول الذي يتجلى في الآية: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ . فهذا التأديب متعلق بضرورة حسن الظن بين أفراد الجماعة المؤمنة رجالاً ونساءً ، ورفض الباطل . أمّا التأديب الثاني فيتجلى في الآية : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ . والمعنى : إذا سمعتم هذا الكلام الباطل ، فينبغي ألا تتكلموا به ، ولا يجوز أن يجري على ألسنتكم . والقاعدة : أميئوا الباطل بعدم ذكره . الواجب أن تهملوه ، وتعاملوا معه كحديث نفسٍ عابر ، ولا تُعيروه أيّة أهمية ولا تتحدثوا به . وقد قال النبي ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمْتِي عَمَّا وَسَّوَسَتْ أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ)) (35) . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى الْوَسَاوِسِ وَأَحَادِيثِ النَّفْسِ ، وَلَا يُؤَاخِذُ عَلَيْهَا ، شَرِيطَةُ عَدَمِ الْعَمَلِ بِهَا ، وَلَا التَّكَلُّمُ بِهَا ، وَأَلَّا تَسْتَقِرَّ فِي الْقَلْبِ ، لِأَنَّ الْإِسْتِقْرَارَ فِي الْقَلْبِ يَعْنِي أَنَّهَا صَارَتْ عَقِيدَةً . والعقيدة يُحَاسِبُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ ، وَمُؤَاخِذُ بِهَا .

وكانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا : سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ هَذَا الْكَلَامُ الْبَاطِلُ عَنْ زَوْجَةِ أَعْظَمِ الْأَنْبِيَاءِ .
يعني : تنزيهاً لك يا الله ، وبراءةً إليك من هذا الاتهام الباطل وأصحابه (أهل الإفك) ، وكان عليكم أيضاً أَنْ تَحْكُمُوا عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ الشَّنِيعَةِ بِأَنَّهَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . فإنها كلامٌ لا دليلٌ عليه ولا حُجَّةٌ ، وهذا يعني بطلانه . فَلَوْ كَانَ صِدْقًا وَحَقًّا لَتَمَّ تَقْدِيمُ الدَّلِيلِ ، وَهَذَا لَمْ يَحْدُثْ .
وقَدْفُ امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ مِنْ آحَادِ النَّاسِ حَرَامٌ شَرْعًا ، فَكَيْفَ يَقْذِفُ عَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ ، زَوْجَةَ أَعْظَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ؟ ! . نُنَزِّهُهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَكُونَ زَوْجَةُ رَسُولِهِ ﷺ فَاجِرَةً ، فَإِنْ هَذَا يَطْعَنُ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُهْدَمُ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَيُدْمَرُ مَوْسَسَةُ الزَّوْجِ ، وَيَجْعَلُ الْعِلَاقَاتِ الزَّوْجِيَّةَ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةَ فِي دَائِرَةِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ وَالْأَبَاطِيلِ .
والبُهْتَانُ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ فِيهِ . وَالْغَيْبَةُ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا فِيهِ . وكلاهما حرام .

(٣٥) متفق عليه . البخاري (٦ / ٢٤٥٤) برقم (٦٢٨٧) ، ومسلم (١ / ١١٦) برقم (١٢٧) .

وهذا التعريف مُستمد من الحديث النبوي . ففي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٠١) : عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((أَتَدْرُونَ مَا الْغِيْبَةُ ؟)) ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ((ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)) . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : ((إن كان فيه ما تقول فقد اغْتَبْتَهُ ، وإن لم يكن فيه فقد بَهْتَهُ)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٢١) : ((﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ . هذا عتابٌ لجميع المؤمنين . أي : هَلَّا إِذْ سَمِعْتُمْ حَدِيثَ الْإِفْكِ قُلْتُمْ تَكْذِيبًا لِلْخَائِضِينَ فِيهِ ، الْمُفْتَرِينَ لَهُ : ما ينبغي لنا ولا يُمكننا أن نتكلم بهذا الحديث ، ولا يصدر ذلك مِنَّا بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ . ومعنى قوله : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ التَّعَجُّبُ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ . وأصله التَّنْزِيهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ مُتَعَجِّبٍ مِنْهُ . والْبُهْتَانُ هُوَ أَنْ يُقَالَ فِي الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ فِيهِ . أي : هذا كَذِبٌ عَظِيمٌ لِكُنْه قِيلَ فِي أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ، وَصُدُورُهُ مُسْتَحِيلٌ شَرْعًا مِنْ مِثْلِهَا)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٨) : ((﴿ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ لِعَظَمَةِ الْمَبْهُوتِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ حَقَارَةَ الذُّنُوبِ وَعِظَمَهَا بِاعْتِبَارِ مُتَعَلِّقَاتِهَا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٢) : ((وَرَوَتْ عَائِشَةُ أَنَّ امْرَأَةً أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَتْ لَهُ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ . فقال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا - الآية - ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ : سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . فَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلَّا قُلْتُمْ كَمَا قَالَ سَعْدٌ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التور : ٦٣] .

يجب احترام الرسول محمد ﷺ وتعظيمه، ومُخاطبته بعبارات التوقير والتبجيل والتفخيم، مثل : يا نبي الله ، أو : يا رسول الله ، في لين وتواضع وأدب وخَفَضُ صَوْتٍ . ولا يجوز مخاطبته باسمه المجرد " يا محمد " ، أو بكنيته : يا أبا القاسم .

وقال السيوطي في لُبَابِ الثُّقُولِ (١ / ١٥٢) : ((أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضَّحَّاك عن ابن عباس قال : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ ، فقالوا : يا نبي الله ، يا رسول الله)) .

لقد أمر الله المؤمنين أن يُعَظِّمُوا النَّبِيَّ ﷺ، ويُسَرِّفُوهُ فِي الْخِطَابِ وَالنِّدَاءِ، ويتعاملوا معه بأدبٍ واحترام. فهو أعظمُ الأنبياء والمرسلين، ويجب أن يُهاب ويُعَظَّم. وينبغي إثباتُ الثبوت له والسيادة والمجد والرفعة (36).

وقال التَّنَافِي فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١٥٩) : ((إِذَا احتَاجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى اجْتِمَاعِكُمْ عِنْدَهُ لِأَمْرِ فِدْعَاكُمْ ، فَلَا تَقْرَبُوا مِنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَلَا تَقْيِسُوا دُعَاءَهُ إِيَّاكُمْ عَلَى دُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، وَرَجُوعِكُمْ عَنِ الْمَجْمَعِ بِغَيْرِ إِذْنِ الدَّاعِي ، أَوْ لَا تَجْعَلُوا تَسْمِيَتَهُ وَنِدَاءَهُ بَيْنَكُمْ كَمَا يُسَمِّي بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَيُنَادِيهِ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَبَوَاهُ ، فَلَا تَقُولُوا : يَا مُحَمَّد ، وَلَكِنْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، يَا رَسولَ اللَّهِ ، مَعَ التَّوْقِيرِ وَالتَّعْظِيمِ وَالصَّوْتِ الْمَخْفُوضِ)) اهـ .

وهناك قَوْلٌ ثَانٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَهُوَ : اخْذَرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُغْضِبُوا رَسولَ اللَّهِ ، فَيَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ ، وَلَيْسَ كَدُعَاءِ غَيْرِهِ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ لَيْسَ شَخْصًا عَادِيًّا . وَبِالنَّالِي ، لَهُ وَضْعٌ خَاصٌ ، وَبِمَتَمَعٍ بِخُصُوصِيَّةٍ مُقَدَّسَةٍ . فَيَجِبُ إِجَابَتُهُ فَوْرًا ، وَعَدَمُ مُغَادَرَةِ مَجْلِسِهِ بِدُونِ إِذْنٍ ، وَعَدَمُ رَفْعِ الصَّوْتِ أَثْنَاءَ مُخَاطَبَتِهِ أَوْ فِي حَضْرَتِهِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦ / ٦٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ نَهَى عَنِ التَّعَرُّضِ لِإِسْخَاطِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَعَا عَلَى شَخْصٍ فِدْعَوْتُهُ مُوجِبَةٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ أَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا : يَا رَسولَ اللَّهِ ، وَنُهَاوُ أَنْ يَقُولُوا : يَا مُحَمَّد ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَلْقَمَةُ وَالْأَسودُ وَعِكْرَمَةُ وَمَجَاهِدٌ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُ نَهَى لَهُمْ عَنِ الْإِبْطَاءِ إِذَا أَمَرَهُمْ ، وَالتَّأَخُّرِ إِذَا دَعَاهُمْ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِيُّ)) اهـ .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِدُونِ إِذْنِهِ ، حَيْثُ يَخْرُجُونَ تَسْتُرًا وَخُفْيَةً . وَإِنْ خَفِيَ الْأَمْرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَالْآيَةُ تَحْمِلُ مَعْنَى التَّهْدِيدِ وَالْمُعَاقَبَةِ .

(٣٦) فِي الشُّفَا لِعِيَاض (٢ / ١٨٥) : ((قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : قَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مَا يَجِبُ مِنَ الْحَقُوقِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَمَا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِنْ بِرٍّ ، وَتَوْقِيرٍ ، وَتَعْظِيمٍ ، وَإِكْرَامٍ ، وَيَحْسَبُ هَذَا حَرَمَ اللَّهِ تَعَالَى أَذَاهُ فِي كِتَابِهِ ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى قَتْلِ مُنْتَقِصِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِبِهِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْمُنْذَرِ فِي الْإِجْمَاعِ (ص ١٢٢) : ((وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ لَهُ الْقَتْلَ)) .

لقد كانوا يخرجون من المسجد في الخطبة بلا استئذان . يخرجون خفية من بين الناس . ومعنى : ﴿لَوْأَدَّا﴾ يستتر الشخص بغيره فيخرج محتفياً . و ﴿قَدْ﴾ تفيد التحقيق وليس الشك . فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . يعلم السر والجهر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٠٩): ((وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان يتقل عليهم الحديث في يوم الجمعة . ويعني بالحديث الخطبة ، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد . وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب بطلت جمعته . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذب بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم)) اهـ .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . إن الأمر شديد الخطورة ، فلينتبه وليحذر وليخش الذين يخالفون منهاج النبي ﷺ وشريعته باطناً أو ظاهراً ، أن يطع الله على قلوبهم ، فيسقطون في هاوية الكفر ، وقد يظهر في قلوبهم الكفر أو النفاق أو البدعة . أو يصيبهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة . وعذاب الدنيا هو القتل أو الحد أو الحبس . وعذاب الآخرة هو النار الشديدة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٩٤): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

بهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب . ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فتحرم مخالفته ، فيجب امتثال أمره . والفتنة هنا القتل ، قاله ابن عباس . عطاء : الزلازل والأهوال . جعفر بن محمد : سلطان جائر يسلط عليهم . وقيل : الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . والضمير في ﴿أَمْرِهِ﴾ . قيل : هو عائد إلى أمر الله تعالى ، قاله يحيى بن سلام . وقيل : إلى أمر رسوله عليه السلام ، قاله قتادة . ومعنى : ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي : يعرضون عن أمره)) . يجب الالتزام بسنة النبي ﷺ ، والسير وفق منهاجه وشريعته ، وتحويل أقواله وأفعاله إلى واقع ملموس . ومن خالف سنة النبي ﷺ ، فمخالفته مرفوضة ، ومردودة عليه ، كائناً من كان .

وفي صحيح مسلم (١٣٤٣ / ٣) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَمِلَ عَمَلًا لَمْ يَعْمَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَمَلُهُ (بِدْعَتُهُ) باطل ومردود ولا يُعْتَدُّ بِهِ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١٦) : ((وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ ، فإنه صريح في رَدِّ كُلِّ الْبِدْعِ والمخترعات)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] .
التَّزِمُ بأوامر الله يا محمد ، وارْتِضَ كَلَامَ الْكَافِرِينَ حِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى الشِّرْكِ وعبادة آلهتهم الباطلة . أطع الله الذي يأمر بالتَّوْحِيدِ ومكارم الأخلاق ، ولا تُطِعِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَيَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ ، وَيَدْعُونَكَ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ ، وَاتَّبَاعِ دِينِ آبَائِهِمْ ، فَتَخْسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، وَتُورِدَ نَفْسَكَ الْمَهَالِكَ ، وَتَقُودَهَا إِلَى الْعَذَابِ ، وَاجْتَهِدْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُنْ ثَابِتًا عَلَيْهَا ، وَوَاتِّقًا بِاللَّهِ تَعَالَى .

وَجَاهِدْهُمْ بِالْقُرْآنِ جِهَادًا شَدِيدًا ، لَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ وَلَا ضَعْفٌ . اقْرَأْ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالتَّخْوِيفِ وَالْوَعِيدِ ، حَتَّى يَخْضَعُوا لِلْحَقِّ ، وَيَتْرَكُوا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَيُؤْمِنُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقد قيل : جاهدوهم بالسَّيْفِ . وهذا معنى بعيد ، لأنَّ هذه السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ ، نَزَلَتْ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ . فالأمرُ بالقتال إنما كان بعد الهجرة . إذن ، فالجهدُ المقصود في الآية هو التبليغ والدَّعْوَةُ وتقديم الْحُجَجِ والبراهين ، وليس الجهاد بالسَّيْفِ والقوة العسكرية .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢٢٤ / ١) : ((﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ فيما يُريدونك عَلَيْهِ ، وهو تهيج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين . ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ بِالْقُرْآنِ ، أَوْ بِتَرْكِ طَاعَتِهِمْ ، الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ﴾ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي إِبْطَالِ حَقِّكَ ، فَقَابِلْهُمْ بِالْاجْتِهَادِ فِي مُخَالَفَتِهِمْ وَإِزَاحَةِ بَاطِلِهِمْ . ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ لِأَنَّ مُجَاهَدَةَ السُّفَهَاءِ بِالْحُجَجِ أَكْبَرُ مِنْ مُجَاهَدَةِ الْأَعْدَاءِ بِالسَّيْفِ ، أَوْ : لِأَنَّ مُخَالَفَتَهُمْ وَمُعَادَاةَهُمْ فِيمَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مَعَ عُتُوِّهِمْ وَظُهُورِهِمْ ، أَوْ : لِأَنَّهُ جِهَادٌ مَعَ كُلِّ الْكُفْرَةِ ، لِأَنَّهُ مَبْعُوثٌ إِلَى كَافَةِ الْقُرَى)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

لا إثم ولا عتاب على النبي ﷺ في قضية تعدد الزوجات. فقد أباح الله له ذلك، وهذا لا يطعن في النبي ﷺ ولا يُسيء إليه، فهو يُمارس حقه الطبيعي بالحلال. فلا يعتدي على حُرْمَاتِ الله، ولا يُقيم علاقة مع امرأة بالحرام. لقد تزوّج النبي ﷺ النساء، وكلُّ امرأة تزوّجها لحكمة، وكون عائلاتٍ صالحة، وعامل المرأة باحترام، وأقام العلاقات الزوجية وفق أحكام الشريعة، وكانت حياته قائمة على الشرف والإخلاص والأخلاق الفاضلة. كما أنّ قضية جماع النساء لا تطعن في النبي ﷺ، فهو إنسان لديه طاقة جنسية ومشاعر وأحاسيس كأَيِّ رجل آخر، وليس رجلاً آلياً، ولا ملكاً.

والمنافقون واليهودُ يحاولون جاهدين الطعن في النبي ﷺ بسبب تعدد زوجاته، وكثرة النكاح. وهذه محاولة بائسة لتشويه صورة النبي ﷺ، وتقديمه كرجل شهواني لا هم له إلا النساء. لقد كانت حياة النبي ﷺ شديدة الخشونة، ولم يكن ملكاً عائشاً في القصور بن الخدم والجواري. قضى حياته في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، والجهاد بالكلمة والسيف لإعلاء راية التوحيد. وهذا لا يتعارض مع كونه رجلاً مكتمل الرجولة، وزوّجاً صالحاً وقوياً وقادراً على إشباع زوجاته عاطفياً وجسدياً. فلم يكن زوّجاً عاجزاً جنسياً أو أباً ضعيف الشخصية. لقد كان المثل الأعلى والقدوة السامية في الرجولة والفحولة، واحترام المرأة، وتكوين العائلات الصالحة، وتربية الأبناء بشكل سليم.

والنبي ﷺ لم يَجِء بشيء غريب، ولم يكن حالة شاذة. فهذه سنة الله في الأنبياء السابقين، حيث وسّع الله عليهم في قضية النكاح. والحرَجُ منفي عن الأنبياء فيما أباح الله لهم. وكان أمرُ الله قضاءً مقضياً، وحكماً قطعياً، وواقعاً لا محالة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٧٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أنّ هذا ونحوه هو السُنَنُ الأقدم في الأنبياء، أن ينالوا ما أحلَّ لهم، أي سنَّ لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان، فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سُرّة، وسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سُرّة)) اهـ.

وهذان النبيان العظيمان (داود وسليمان) من أنبياء بني إسرائيل. فإذا كان اليهود يطعنون في النبي محمد ﷺ بسبب كثرة نسائه، مُحاولين التشكيك فيه، وهدم الدعوة الإسلامية. فليُدْرَسوا حياة أنبياء بني إسرائيل، الذين ينسب اليهود أنفسهم إليهم كذباً وزوراً.

وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

لقد مدح الله هؤلاء الأنبياء السابقين وأثنى عليهم، فافتد بهم يا محمد. إنهم يُبلِّغون رسالات الله بصدق وأمانة، ويوصلونها إلى الناس بأسلوب طيب، بلا زيادة ولا نقصان، ويخافون الله، ولا يخافون أحدًا إلا الله .

إنهم سائرون في طريق الله، وقلوبهم مُعلَّقة بالله، وأقوالهم وأفعالهم كُلُّها قائمة على الإخلاص لله تعالى، لذلك لا يخافون أحدًا إلا الله، ولا يُيالون بكلام الناس، لأن تركيزهم مُنصبٌ بشكل كامل على نيل رضا الله وحده .

اتَّخذهم قُدوةً لك يا محمد، وبلَّغ رسالة الله كاملةً بصدق وأمانة، ولا تخف من أي مخلوق . لا تخش أحدًا إلا الله . والله ناصرُك ومؤيِّدُك . وكفى بالله ناصرًا ومُعِينًا . وهو وحده يُحاسب الناس على أقوالهم وأفعالهم .

لذلك، لا تخش الناس يا محمد، لأنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، واخش الله خالق الناس المسيطر على كل شيء، فهو أحق أن تخشاه، ويتبغى أن لا يخشى إلا منه . فهو حافظ لأعمال خلقه، ومُحاسبهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٠) : ((وسيّد الناس في هذا المقام، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ، فإنه قام بأداء الرسالة، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم . وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرّعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يُبعث إلى قومه خاصّةً، وأمّا هو ﷺ فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم . ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] . ثُمَّ وَرِثَ مَقَامَ الْبَلَاغِ عَنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَكَانَ أَعْلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعْدَهُ أَصْحَابُهُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ —، بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَخَصْرِهِ وَسَفَرِهِ، وَسِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، ثُمَّ وَرِثَهُ كُلُّ خَلَفٍ عَنْ سَلَفِهِمْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا، فَبَنَوْا عَنْهُمْ يَتَّقِدِي الْمُهْتَدُونَ، وَعَلَى مَنْهَجِهِمْ يَسْلُكُ الْمُؤَفَّقُونَ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْكَرِيمُ الْمَنَّانُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ خَلْفِهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيُبَارِكُهُ ، وَيُعَظِّمُهُ ، وَتَدْعُو لَهُ الْمَلَائِكَةُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ . ومعنى الصلاة لُغَةً : الدُّعَاءُ . وصلاةُ اللَّهِ هي الرَّحْمَةُ ، وصلاةُ الملائكة هي الاستغفار .
واللَّهُ يُخَبِّرُ النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ مُحَمَّدٍ الرَّفِيعَةِ فِي السَّمَاءِ ، وَمَكَانَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَاللَّهُ يُشْنِي عَلَيْهِ وَيَمْدَحُهُ وَيُعَظِّمُهُ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُ وَيَسْتَغْفِرُونَ . ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْأَرْضِ أَنْ يُعَظِّمُوهُ ، وَذَلِكَ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ . وبذلك ، يكون النبي ﷺ مُعَظَّمًا وَمُمَجَّدًا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
وهذه الآيةُ تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ ، وَتَعْظِيمٌ لِقُدْرِهِ ، وَتَمْجِيدٌ لِمَكَانَتِهِ ، وَإِعْلَامٌ بِفَضْلِهِ وَخَصَائِصِهِ ، وَتَفَوُّقُهُ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٠٥) : ((والصلاة مِنَ اللَّهِ رَحْمَتُهُ وَرِضْوَانُهُ ، وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغْفَارُ ، وَمِنَ الْأُمَّةِ الدُّعَاءُ وَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِهِ)) اهـ .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالين (٣ / ٢٨٧) : ((وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أَنَّهُ ﷺ مَهْبِطُ الرَّحْمَاتِ ، وَأَفْضَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، إِذِ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ رَحْمَتُهُ الْمُقَرُونَةُ بِالتَّعْظِيمِ ، وَمِنَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ مُطْلَقُ الرَّحْمَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٤٣] . فانظر الفرق بين الصلاتين ، والفضل بين المَقَامَيْنِ ، وبذلك صار مَنَبَعُ الرَّحْمَاتِ ، وَمَنَبَعُ التَّجَلِّيَّاتِ)) اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . يا أيها المؤمنون ، أَكثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّسْلِيمِ ، وَعَظَّمُوهُ ، وَشَرَّفُوهُ ، وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ . فَحَقُّهُ عَلَيْكُمْ عَظِيمٌ ، فَقَدْ أَخْرَجَكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَأَرْشَدَكُمْ إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنْقَذَكُمْ مِنَ النَّارِ ، وَهَدَاكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . وَقُولُوا كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُهُ الشَّرِيفُ : "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا " (37) .

وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى وَجُوبِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجُمْلَةِ ، وَقِيلَ : تَجِبُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كُلَّمَا ذُكِرَ ﷺ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ)) (38) .
وفي الحديث أَنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : ((وَمَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ ، فَدَخَلَ النَّارَ ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ . قُلْ : آمِينَ)) ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((آمِينَ)) (39) .

(٣٧) قال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٥) : ((وتجاوز الصلاة على غيره تَبَعًا ، وَتُكْرَهُ اسْتِقْلَالًا ، لِأَنَّهُ فِي الْعَرَفِ شِعَارٌ لِذِكْرِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَلِذَلِكَ كُرِّهَ أَنْ يُقَالَ : مُحَمَّدٌ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا وَجَلِيلًا)) .
(٣٨) رواه ابن حبان في صحيحه (٣ / ١٨٩) ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٥ / ٥٥٠) وَقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٠٥) : ((أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريقاً له . ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه)) اهـ .
وعن كعب بن عُجرة _ رضي الله عنه _ قال : إن النبي ﷺ خرج علينا ، فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا كيف نُسَلِّم عليك ، فكيف نُصَلِّي عليك ؟ . قال : ((قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد)) (40) .
والأحاديث الواردة في الصلاة على النبي ﷺ وفضلها كثيرة جداً ، وهناك مؤلفات خاصة بها .
وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١] .

هذه الآية تُعَلِّمُ المؤمنين الأدب في التعامل مع النبي ﷺ ، واحترامه ، وتعظيمه . وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٥٥) : ((قال العلماء : كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس ، فالسُّورة (الحجرات) في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب)) اهـ .
يا أَيُّهَا الَّذِينَ أَقْرَبُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَصَدَّقُوا بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَا تَقْدُمُوا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَسْبِقُوهُ ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ ، فَهُوَ الْقَائِدُ الَّذِي يَسِيرُ النَّاسُ خَلْفَهُ لَا أَمَامَهُ . وَهُوَ الرَّعِيْمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ ، وَلَا أَحَدٌ يَسْبِقُهُ فِي الْكَلَامِ أَوْ يُنَازِعُهُ الْحَدِيثَ . وَهُوَ الْقَاضِي الَّذِي يُصْدِرُ الْأَحْكَامَ ، وَلَا أَحَدٌ يَحْكُمُ فِي حَضْرَتِهِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ مُعَلِّمُ النَّاسِ ، وَلَيْسَ تَلْمِيزًا لَهُمْ . لَقَدْ جَاءَ لِيُعَلِّمَهُمْ ، وَلَمْ يَجِئْ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُمْ .

(٣٩) رواه ابن حبان في صحيحه (٣ / ١٨٨) برقم (٩٠٧) .

(٤٠) متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٣٣٨) برقم (٥٩٩٦) . ومسلم (١ / ٣٠٥) برقم (٤٠٦) .

وقال الصاوي في حاشيته على الجلالين (٣ / ٢٨٧) : ((وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشريئهم بذلك ، حيث افتدوا بالله جلَّ وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه ، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق ، لأنه الواسطة العظيمة في كلِّ نعمة وصلت لهم ، وحقٌّ على مَنْ وصل له نعمة من شخص أن يكافئه . ولَمَّا كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ ، طلبوا من القادر الملك أن يكافئه ، وهذا هو السرُّ في قولهم : " اللهم صل على محمد " .

والمعنى العام : وجوب التزام الكتاب والسنة، وتقديمهما على كل شيء. فهما مَصْدَرَا التشريع اللذان يَعلَوَان ، ولا يُعلَى عليهما ، وهما فوق كل شيء ، ولا شيء فوقهما .
وعن أناس من أهل حِمَص من أصحاب مُعَاذ بن جَبَل أَنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ : ((كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟)) ، قَالَ : أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ ، قَالَ : ((فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟)) ، قَالَ : فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : ((فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟)) ، قَالَ : أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو (لَا أَقْصِرُ فِي الْاجْتِهَادِ) ، فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدْرَهُ ، وَقَالَ : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ)) (41)

هذا الحديثُ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ ، لَكِنَّ سَنَدَهُ ضَعِيفٌ . فَقَدْ أَخَّرَ رَأْيَهُ وَاجْتِهَادَهُ إِلَى مَا بَعْدَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَلَوْ قَدَّمَ رَأْيَهُ وَاجْتِهَادَهُ قَبْلَ الْبَحْثِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمَفْعُولَ قَدْ حُذِفَ بَعْدَ الْآيَةِ: ﴿ لَا تَقْدُمُوا ﴾ مِنْ أَجْلِ التَّعْمِيمِ. أَي: لَا تَقْدُمُوا أَيَّ شَيْءٍ يَخْطُرُ عَلَى بَالِكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . لَا تَتَكَلَّمُوا قَبْلَهُ ، وَلَا تَجْلِسُوا فِي الْمَجَالِسِ قَبْلَهُ ، وَإِذَا حَضَرَ الطَّعَامُ ، فَلَا تَأْكُلُوا قَبْلَهُ ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَلَا تُجِيبُوا قَبْلَهُ ... إلخ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢١١) : ((﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ... وَالْمَعْنَى: لَا تَقْطَعُوا أَمْرًا قَبْلَ أَنْ يَحْكُمَا بِهِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ : بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَذِكْرُ اللَّهِ تَعْظِيمٌ لَهُ ، وَإِشْعَارٌ بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ يُوجِبُ إِجْلَالَهُ)) اهـ .
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وَخَافُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالتَّزَامِ أَوَامِرَهُ وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ . إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ أَقْوَالَ النَّاسِ ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ : إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . بَلْ

(٤١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٢ / ٣٢٧) وَغَيْرُهُ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤) : ((وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْعِلَلِ الْمُنْتَاهِيَةِ (٢ / ٧٥٨) : ((هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ ، وَإِنْ كَانَ الْفَقْهَاءُ كُلُّهُمْ يَذْكُرُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ ، وَلَعَمْرِي إِنْ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا ، إِنَّمَا ثَبُوتُهُ لَا يُعْرَفُ ، لِأَنَّ الْحَارِثَ بْنَ عَمْرٍو (أَحَدَ رَوَاةِ الْحَدِيثِ) مَجْهُولٌ ، وَأَصْحَابُ مُعَاذٍ مِنْ أَهْلِ حِمَصٍ لَا يُعْرَفُونَ ، وَمَا هَذَا طَرِيقُهُ ، فَلَا وَجْهَ لثَبُوتِهِ)) .

ذَكَرَ لفظ الجلالة " الله " : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لتربية النفوس على تعظيم الله وتقديسه ، والخوف منه ، فهو السميع العليم ، الذي يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ ، ولا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ .

أما سبب نزول الآية . ففي صحيح البخاري (٤ / ١٥٨٧) : قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فقال أبو بكر : أَمَرَ الْقَعْقَاعُ بْنُ مَعْبُدٍ بْنُ زُرَّارَةَ . قال عُمرُ : بَلْ أَمَرَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ . قال أبو بكر : ما أردتَ إلا خلافي . قال عُمرُ : ما أردتُ خلافاً ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت .

لقد حصل نزاعٌ كلامي بين أبي بكر وعمر _ رضي الله عنهما _ حول اختيار الأمير . واعتبر أبو بكر أنَّ عُمرَ يُخَالِفُ قَوْلَهُ عَمْدًا ، ونفى عُمرُ ذلك . وقد تجادلا ، وارتفعت أصواتهما في حضرة النبي ﷺ ، فنزلت الآية تأديبًا لهما ، وتنبيهًا على عدم جواز إصدار الأحكام في حضرة النبي ﷺ . حتى انقضت الآيات الأولى من سورة الحُجُرَات .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٥٤ و ٤٥٥) ثلاثة أقوال أخرى في سبب نزول الآية : ((الثاني) أَنَّ قَوْمًا ذَبَحُوا قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ ، فأمرهم رسول الله ﷺ أَنْ يُعِيدُوا الذَّبْحَ ، فنزلت الآية ، قاله الحسن . والثالث أنها نزلت في قوم كانوا يقولون : لو أنزل الله في كذا وكذا ، فكره الله ذلك ، وقدم فيه ، قاله قتادة . والرابع أنها نزلت في عمرو بن أمية الضمري وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله ﷺ ، قاله ابن السائب . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وروى العوفي عنه قال : نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه . وروى عن عائشة _ رضي الله عنها _ في هذه الآية قالت : لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم . ومعنى الآية على جميع الأقوال : لا تَعْجَلُوا بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْ يَفْعَلَ . قال ابن قتيبة : يقال : فلان يُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْإِمَامِ وَبَيْنَ يَدَيِ أَبِيهِ ، أي : يَعْجَلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ دُونَهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحُجُرَات : ٢] .

هذه الآية تأديبٌ للمؤمنين ، وتعلمهم أسلوب الحوار مع النبي ﷺ ، وكيفية التخاطب في حضرته الشريفة . فلا يجوز رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ ، ولا مخاطبة النبي ﷺ بغلظة وجفاء .

يا أيُّها الذين صدَّقْتُم بَوحدانية الله ونُبُوَّة محمد ﷺ ، إذا كَلَّمْتُم النبي ﷺ فاخفِضُوا أصواتكم ، ولا ترفعوها فوق صَوْت النبي ﷺ .

وعَلُّوُ الصوت يدل على سُوء الأدب وقلة الاحترام ، أمَّا الصَّوْت المعتدل الهادئ فيدل على التعظيم والاحترام . والمراد من الآية تعظيم النبي ﷺ ، واحترامه ، وعدم مُعاملته كشخص عادي .
والجدير بالذكر أنَّ حُرمة النبي ﷺ حيًّا كَحُرْمَتِهِ مَيِّتًا . وكلامه المأثور بعد موته مُثل كلامه الخارج من فمه ، فكلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ . فيجب الاستماع إلى كلام النبي ﷺ ، وعدم رفع الصَّوْت عليه .

ورفعُ الصوت المقصود في الآية هو التَّحدُّث بصوت مُرتفع أعلى من صَوْت النبي ﷺ ، وليس المعنى الاستخفاف بالنبي ﷺ أو عدم احترامه ، فهذا كُفْرٌ . والمخاطَبون في الآية مؤمنون .
وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٥٧) : ((معنى الآية : الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ ، وتوقيره وخفض الصوت بِحَضْرَتِهِ وعند مُخاطبته ، أي : إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تَبْلُغُوا بأصواتكم وراء الحد الذي يَبْلُغُهُ بِصَوْتِهِ ، وأن تَغْضُوا مِنْهَا بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم ، وَجَهْرُهُ باهرًا لِحَجْرِكُمْ ، حتى تكون مَرِيئُهُ عليكم لائحةً ، وسابقتها واضحة ... وقد كَرِهَ بعضُ العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام ، وكَرِهَ بعضُ العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم ، إِذْ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ)) اهـ .

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ . وَلَا تَجْهَرُوا بِالصَّوْتِ فِي الْمُخَاطَبَةِ ، كالجهر الذي يدور بينكم ، بل اخفِضُوا أصواتكم تعظيمًا له ، ليظل صَوْتُهُ يَعْلُو ولا يُعْلَى عَلَيْهِ . وَلَا تُخَاطِبُوا النَّبِيَّ ﷺ بِاسْمِهِ الْمَجْرَدِ : يا محمد ، يا أحمد . بَلْ قُولُوا : يا نبيَّ الله ، أو يا رسولَ الله ، بهدوء وسَكينة ، تَعْظِيمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وتوقيرًا له ، وَرَفْعًا لِشَأْنِهِ . وَالْآيَةُ لَا تَنْهَى عَنِ الْجَهْرِ مُطْلَقًا ، وَإِنَّمَا تَنْهَى عَنِ الْجَهْرِ مَخْصُوصٍ ، وَهُوَ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، وَهُوَ جَهْرٌ يَخْلُو مِنْ مُرَاعَاةِ عَظَمَةِ النُّبُوَّةِ . إِذَنْ ، لَا بُدَّ مِنَ الْجَهْرِ الْمَعْتَدِلِ حَتَّى يَتِمَّ إِسْمَاعُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَا يَتَحَوَّلَ الْكَلَامُ إِلَى هَمْسٍ أَوْ تَحْرِيكِ شَفَتَيْنِ فَقَطْ .

وتكريرُ النَّهْيِ في الآيتين : ﴿ لَا تَرْفَعُوا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا ﴾ ، يدل على المُبالغة والتَّشديد في هذه القضية من أجل الاتِّعَاض ، وتعظيم النبي ﷺ ، والاهتمام بِشَأْنِهِ ، وَتَشْرِيفِ مَكَانَتِهِ .
وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٥٧) : ((وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبي ﷺ لِيَقْتَدِيَ بِهِمْ ضَعْفَةُ الْمُسْلِمِينَ ، فَنَهَى الْمُسْلِمُونَ عَنْ ذَلِكَ)) اهـ .

﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . لقد نهاكم الله أيها المؤمنون عن الجهر (بمعناه السيئ) لئلا تفسد أعمالكم وتبطل حسناتكم من حيث لا تشعرون . فإن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول استخفافاً بالنبي ﷺ وعدم احترام له . وهذا كفر واضح إذا كان القصد الإهانة والتحقير . وقد قيل : المقصود بالإحباط هنا نقص المنزلة لا بطلان العمل كما يبطل بالكفر . والآية تحمل معنى التهديد والوعيد ، لأنها تتضمن إحباط العمل ، يعني إسقاطه ، وإبطال الحسنات ، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة ، وأساء ما يمكن أن يحدث .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٥٧ / ١٦) : ((وَلَيْسَ قَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم ، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر ، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره ، بإجماع كذلك ، لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم)) اهـ .

أما سبب نزول الآية ، ففي صحيح البخاري (٢٦٦٢ / ٦) : عن ابن أبي مُليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر وعمر . لما قَدِمَ على النبي ﷺ وفد بني تميم أشار أحدهما بالأقرع ابن حابس الحنظلي أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر بغيره . فقال أبو بكر لعمر : إنما أردت خلافي ، فقال عمر : ما أردت خلافتك ، فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ ، فنزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ ...)) .

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (١٤٢ / ٣) : ((ولا يجوز لأحد رفع صوته فوق صوته _ أي صوت النبي ﷺ _ ... وجه الدلالة أنه تَوَعَّدَ على ذلك بإحباط العمل ، فدل على التحريم ، بل على أنه من أغلظ التحريم)) اهـ .

وروى أحمد في مسنده (١٣٧ / ٣) : عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . وكان ثابت بن قيس بن الشَّمس رفيع الصوت ، فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ . حبط عملي ، أنا من أهل النار ، وجلس في أهله حزناً . فتفقده رسول الله ﷺ ، فانطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ ، ما لك ؟ فقال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ، وأجهر بالقول ، حبط عملي ، وأنا من أهل النار . فَأَتَا النبي ﷺ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ ، فقال : ((لا ، بل هو من أهل الجنة)) ، قال أنس : وكُنَّا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض

الانكشاف. فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تَحَنَّطَ وَلَيْسَ كَفَنَهُ، فقال: بِسْمَا تُعَوِّدُونَ أقرانكم، فقاتلهم حتى قُتِلَ.

والصحابي الجليل ثابت بن قيس _ رضي الله عنه _ كان جَهِيرَ الصَّوْتِ (نبرة صوته عالية) . وكانت هذه طبيعته ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ إِعْلَاءَ صَوْتِهِ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ استخفافاً أو استهانةً . وقد اعتَبَرَ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، مِنْ شِدَّةِ تَعْظِيمِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، الَّذِي أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الْحُجُرَات : ٣] .

إِنَّ الَّذِينَ يَخْفِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي حَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعْظِيمًا لَهُ، هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ ، وَنَقَّى قُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ الشَّوَابِ ، وَأَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى ، وَذَلِكَ بِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ ، وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي . لَقَدْ اخْتَبَرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَخْلَصَهَا ، كَمَا يُمْتَحَنُ الذَّهَبُ بِالنَّارِ فَيَخْرُجُ خَالِصُهُ .
لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَغْفِرَةٌ ، حَيْثُ يَتَجَاوَزُ اللَّهُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَيَعْفُو عَنْهُمْ ، وَيَمْنَحُهُمُ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ فِي الْجَنَّةِ . وَالتَّنْكِيرُ فِي ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لِلتَّعْظِيمِ ، وَإِشَارَةٌ إِلَى وَصُولِهِمْ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (٢١٢ / ١) : ((﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ جَرَّبَهَا لِلتَّقْوَى ، وَمَرَّنَهَا عَلَيْهَا ، أَوْ عَرَّفَهَا كَانَّةً لِلتَّقْوَى خَالِصَةً لَهَا ، فَإِنَّ الْامْتِحَانَ سَبَبُ الْمَعْرِفَةِ ... أَوْ صَرَّبَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمِحْنِ وَالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ لِأَجْلِ التَّقْوَى ، فَإِنَّهَا لَا تَظْهَرُ إِلَّا بِالْأَصْطِبَارِ عَلَيْهَا ، أَوْ أَخْلَصَهَا لِلتَّقْوَى ، مِنْ : امْتِحَنِ الذَّهَبِ ، إِذَا أَذَابَهُ وَمَيَّرَ إِبْرِيْزَهُ مِنْ خَبَثِهِ)) اهـ .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : ((لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا أَكَلِّمُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ (يعني: كَالْمُنَاجِي سِرًّا بِصَوْتٍ مَنْخَفِضٍ) حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ))^(٤٢) .
هَذَا يَدُلُّ عَلَى جِرْصِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ عَلَى الْإِلْتِزَامِ بِكَلَامِ اللَّهِ ، وَتَطْبِيقِهِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ . كَمَا يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ أَبِي بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَاحْتِرَامِهِ الشَّدِيدِ لَهُ ، وَمُخَاطَبَتِهِ بِأَدَبٍ وَوَقَارٍ وَاحْتِرَامٍ وَإِجْلَالٍ ، وَذَلِكَ خُضُوعًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ .

(٤٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٠١) برقم (٣٧٢٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٢ / ٩١٢) : ((السَّرار : المُسَارَرَّة : أي كصاحب السَّرار ، أو : كَمَثَلِ المُسَارَرَّةِ لِخَفَضِ صَوْتِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْحُجُرَات: ٤] .
لقد ذمَّ الله الذين يُنادون على النبي ﷺ من وراء بُيوتِ نِسائه . فهؤلاء قَوْمٌ من الأعراب ، جُفَاءً أَجلاف غِلاظ ، يعيشون في الصحراء القاسية ، وبعيدون كُلِّ البُعد عن الحضارة والمدنية . قلوبهم قاسية ، وطباعهم خشنة ، وتَصَرُّفهم وَقِح ، وأفعالهم بعيدة عن الأدب والاحترام . إنهم أعراب يَنتمون إلى بيئة بدائية وقاسية . وأكثرهم جُهال بالإسلام ، ولا يَعْرِفون مكانة النبي ﷺ العظيمة . فالجهلُ يَغلبُ عَلَيْهِم ، والجفاء مستقر في طباعهم . وليس لديهم عقول ، لأنَّ العقلَ يَفْرُضُ على صاحبه أن يُخاطب الناسَ بأسلوب طَيِّب ، وأن يُقدِّر المكانة الاجتماعية للشخص . والعظيم لا يُخاطَبُ بأسلوب هَمَجِيٍّ ، وإنما يُخاطَبُ باحترام وتقدير . فما بالكَ بِمُخاطبة النبي ﷺ أعظم الأنبياء والمرسلين ؟ .

ومن الواضح أنَّ كُلَّ واحد نادى خلف حُجرة ، لأنهم لَمْ يَعْلَمُوا في أيَّة حُجرة يوجد النبي ﷺ . وهذا النداء القَطْ يدل على قسوة طِباع الأعراب ، وغلظتهم ، وجفائهم . وهم بالتأكيد لا يُدركون مكانة النبي ﷺ ، وما يستحقه من التعظيم والإجلال . لقد تَعَامَلُوا مَعَ النبي ﷺ كشخصٍ عاديٍّ من العوام ، وهذا يدل على جهلهم وقِلَّة عقولهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢١٣) : ((إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ من خارجها ، خَلْفَهَا أو قُدَّامَهَا . و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية ، فَإِنَّ الْمُنَادَاةَ نَشَأَتْ مِنْ جِهَةِ الْوَرَاءِ . وفائدتها الدلالة على أنَّ الْمُنَادَى داخل الْحُجْرَةَ ، إذ لا بُدَّ وأن يختلف المبتدأ والمنتهى بالجهة ، وقُرئ " الحجرات " بفتح الجيم وسكونها ، وثلاثتها جمع حُجرة ، وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط ، ولذلك يُقال لحظيرة الإبل : حُجرة ، وهي فَعْلَةٌ بمعنى مَفْعُول كَالْغُرْفَةِ وَالْقَبْضَةِ . والمراد حُجرات نساء النبي _ عليه الصلاة والسلام _ . وفيها كناية عن خلوته بالنساء ، ومُنَادَاتِهِنَّ مِنْ ورائهِنَّ ، إمَّا بأنَّهِنَّ أَتَوَّهْنَ حُجْرَةَ حُجْرَةً ، فَنَادَوْا مِنْ ورائِهَا ، أو بأنَّهِنَّ تَفَرَّقُوا على الحجرات مُتَطَلِّبِينَ له ، فَاسْتَدَ فَعَلَ الْأَبْعَاضَ إِلَى الْكُلِّ . وقيل : إِنَّ الَّذِي نَادَاهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَفَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَقَتِ الظَّهِيرَةِ ، وَهُوَ رَاقِدٌ ، فَقَالَا : يَا مُحَمَّدُ ، اخْرُجْ إِلَيْنَا . وإنما أَسْنَدَ إِلَى جَمِيعِهِمْ لِأَنَّهُمْ رَضُوا بِذَلِكَ ، أو أَمَرُوا بِهِ ، أو لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيمَا

بينهم. ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إِذِ الْعَقْلُ يَقْتَضِي حُسْنَ الْأَدَبِ، وَتُرَاعَاةَ الْحِشْمَةِ سَيِّمًا لِمَنْ كَانَ بهذا المنصب)) اهـ.

وعن زيد بن أرقم ، قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيًّا فنحن أسعدُ الناس به ، وإن يك ملكًا نعيش بخناحه، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالُوا ، فَجَاءُوا إِلَى حُجْرَتِهِ فَجَعَلُوا يُنَادُونَهُ : يَا مُحَمَّدُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِي ، وَجَعَلَ يَقُولُ : ((لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يَا زَيْد ، لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ))⁽⁴³⁾.

تظهر بساطة هؤلاء الناس ، وقلة عقولهم ، وجهلهم الواضح . فأفعالهم قائمة على ردود الأفعال، ويغيب عنها اليقين . وتفكيرهم محصور في إطار دنيوي مغلق . وقيامهم بالنداء على النبي ﷺ باسمه المجرد وبأسلوب سيئ يخلو من التعظيم والاحترام ، يشير إلى جفائهم وغلظتهم . وعن البراء بن عازب: في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ قال: فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَإِنَّ دَمِي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((ذَاكَ اللَّهُ))⁽⁴⁴⁾.

المقصود هُـم وفد بني تميم ، حيث جاؤوا إلى النبي ﷺ ، وهُم واقعون تحت سيطرة الأعراف القبلية ، والتقاليد العشائرية ، والعصبية العرقية ، فأرادوا مُفَاخَرَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، حيث قالوا إِنَّ حَمْدَهُمْ أَمْرٌ جَمِيلٌ وَرَائِعٌ ، وَذَمُّهُمْ أَمْرٌ سَيِّئٌ وَقَبِيحٌ . وهذا يدل على جهلهم . ولو كانوا عاقلين لَمَا فَآخَرُوا النَّبِيَّ ﷺ الَّذِينَ يَنْتَمِي إِلَى أَشْرَفِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ قَاطِبَةً ، وَهُوَ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَسْلُوبٍ طَيِّبٍ ، وَصَحَّحَ خَطَأَهُمْ ، وَقَدَّمَ الْحُجَّةَ وَالْبُرْهَانَ . حيث أخبرهم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ ، وَلَيْسَ النَّاسُ . فَاللَّهُ إِذَا مَدَحَ شَخْصًا ، فَقَدْ كَرَّمَهُ وَخَلَّدَ اسْمَهُ ، وَإِذَا ذَمَّ شَخْصًا فَقَدْ أَهَانَهُ ، وَأَسْقَطَهُ فِي الْخِزْيِ وَالْعَارِ إِلَى الْأَبَدِ . وَاللَّهُ هُوَ الْحَكَمُ الْحَاكِمُ ، وَخَدَهُ يَحْكُمُ لِلْإِنْسَانِ أَوْ يَحْكُمُ عَلَيْهِ ، وَلَا يُوجَدُ مَخْلُوقٌ يُنَازِعُ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[الْحُجُرَات : ٥] .

(٤٣) الدر المنثور (٧ / ٥٥٢ و ٥٥٣) . وقال السيوطي : أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن .

(٤٤) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٣٨٧) برقم (٣٢٦٧) . وقال : حسن غريب .

وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابَ الْجَهَّالِ الْأَجْلَافِ الَّذِينَ يُنَادُونَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ لَمْ يُزْعِجُوكَ بِصُراخِهِمْ،
وَانْتَظَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ، لَكَانَ انْتِظَارُهُمْ وَصَبْرُهُمْ أَفْضَلَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَإِنَّهُمْ فِي
الدُّنْيَا، يُعَامِلُونَ النَّبِيَّ ﷺ بِتَعْظِيمٍ وَاحْتِرَامٍ خَاضِعِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ . وَفِي الْآخِرَةِ ، يَمُنُّهُمْ اللَّهُ الْأَجْرَ
الْعَظِيمَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، بِسَبَبِ تَطْبِيقِهِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَعَدَمِ مَعْصِيَتِهِ . لَقَدْ كَانَ الصَّبْرُ أَفْضَلَ
لَهُمْ مِنَ الاسْتِعْجَالِ .

وَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ بِهَذَا الذَّنْبِ . لَقَدْ وَبَّخَهُمْ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ
فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ آيَةً عَقُوبَةً . وَهَذَا تَجَلَّى الْمَغْفِرَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَالرَّحْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ .
وَهَذَا لَيْسَ غَرِيبًا ، فَاللَّهُ كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، تَجَاوَزَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْبِدَائِيِّينَ ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ
عَلَى جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقُولِهِمْ . لَقَدْ عَلَّمَهُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦ / ٢٦٤) : ((أَي : لَوْ أَنْتَظَرُوا خُرُوجَكَ لَكَانَ أَصْلَحَ لَهُمْ فِي
دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . وَكَانَ ﷺ لَا يَحْتَجِبُ عَنِ النَّاسِ إِلَّا فِي أَوْقَاتٍ يَشْتَغِلُ فِيهَا بِمَهْمَاتِ نَفْسِهِ ، فَكَانَ
إِزْعَاجُهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ . وَقِيلَ : كَانُوا جَاؤُوا شُفْعَاءَ فِي أُسَارَى بَنِي عَنَبَرٍ ، فَأَعْتَقَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِصْفَهُمْ ، وَفَادَى عَلَى النَّصْفِ ، وَلَوْ صَبَرُوا لَأَعْتَقَ جَمِيعَهُمْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الْحَشْرُ : ٦] .
الْفَيْءُ هُوَ الْمَالُ الَّذِي أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ بِدُونِ قِتَالٍ وَلَا تَحْرِيكِ خَيْلٍ .

وَالَّذِي رَدَّهَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْوَالِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، فَهُوَ مَحْضُ فَضْلٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ،
حَيْثُ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُحَارِبُوا ، وَلَمْ يُعَانُوا مِنْ آيَةٍ مَشَقَّةٍ ، وَإِنَّمَا سَارُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، وَلَمْ يَرْكَبُوا
خَيْلًا وَلَا إِبِلًا ، لِأَنَّهُ عَلَى بُعْدِ مِيلَيْنِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، لِذَلِكَ لَا حَقَّ لِلْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْأَمْوَالِ ، فَهِيَ
خَالِصَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَاصَّةٌ بِهِ ، وَلَيْسَتْ كَالْغَنِيمَةِ الَّتِي تُؤْخَذُ غَنُوءًا وَفَهْرًا حَتَّى يَتِمَّ تَوْزِيعُهَا عَلَى
الْغَانِمِينَ . وَمَعْنَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ وَمَا أَعَادَ اللَّهُ وَرَدَّهَ ، فَهَذِهِ الْأَمْوَالُ مُلْكٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ
عَادَتُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ النَّاسَ ، وَمَنْحَهُمُ الْأَمْوَالَ ، لِيَسْتَخْدِمُوها فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، لِذَلِكَ كَانَتْ
هَذِهِ الْأَمْوَالُ حَقًّا لِلْمُطِيعِينَ ، وَهُمْ أَصْحَابُهَا الْحَقِيقِيُّونَ وَالْجَدِيدُونَ بِهَا . وَسَيِّدُ الطَّائِعِينَ وَالْعَابِدِينَ
هُوَ النَّبِيُّ ﷺ . وَالْآيَةُ تَوْضَحُ فَضْلَ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ أَخَذُوا أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ بِلَا
قِتَالٍ وَلَا مَشَقَّةٍ . فَلَمْ يُقَاتِلُوا الْكَافِرِينَ بِالسَّيْفِ ، وَلَا حَرَّكَوا خَيْلَهُمْ . لَقَدْ بَثَّ اللَّهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِ
أَعْدَائِهِ الْكَافِرِينَ فَانْكَسَرُوا وَاسْتَسَلَّمُوا ، وَاللَّهُ قَاهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٠٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أَي : مَا رَدَّ عَلَيْهِ ﴾ مِنْهُمْ ﴾ يعني : مِنْ بَنِي النَّضِير . ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ ، قال أبو عُبَيْدَةَ : الإِيضَاعُ : الإِيضَاعُ ، وَالرِّكَابُ الْإِبِلُ . قال ابن قُتَيْبَةَ : يُقَالُ : وَجَفَ الْفَرَسُ وَالْبَعِيرُ وَأَوْجَفْتُهُ وَمِثْلُهُ الْإِيضَاعُ ، وَهُوَ الْإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ . وقال الرَّجَاجُ : معنى الآية أنه لا شيء لكم في هذا ، إنما هو لرسول الله ﷺ خاصة . قال المفسِّرون : طَلَبَ المسلمون من رسول الله ﷺ أن يُخَمِّسَ أموالَ بني النضير لَمَّا أُجْلُوا ، فَتَزَلَّتْ هذه الآية تُبَيِّنُ أنها فَيءٌ ، لَمْ تحصل لهم بمحاربتهم ، وإنما هو بتسليط رسول الله ﷺ ، فهو له خاصة ، يفعل فيه ما يشاء ، فقسَّمه رسول الله ﷺ بين المهاجرين ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ منه شيئاً إِلَّا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ كانت بهم حاجة ، وَهُمْ : أَبُو دُجَانَةَ ، وَسَهْلُ ابْنِ حُنَيْفٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ الصَّمَّةِ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٤٧٩) عن مالك بن أَوْس بن الْحَدَثَانِ النَّضْرِيِّ أَنَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ دَعَاهُ ، إِذْ جَاءَهُ حَاجِبُهُ يَرْفَأُ ، فَقَالَ : هَلْ لَكَ فِي عَثْمَانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدَ يَسْتَأْذِنُونَ ؟ ، فَقَالَ : نَعَمْ فَأَدْخِلْهُمْ ، فَلَبِثَ قَلِيلًا ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ : هَلْ لَكَ فِي عَبَّاسٍ وَعَلِيٍّ يَسْتَأْذِنَانِ ؟ ، قَالَ : نَعَمْ ، فَلَمَّا دَخَلَا ، قَالَ عَبَّاسٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا ، وَهُمَا يَخْتَصِمَانِ فِي الَّذِي أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، فَاسْتَبَّ عَلَيٌّ وَعَبَّاسٌ ، فَقَالَ الرَّهْطُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَقْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرْجُ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخِرِ ، فَقَالَ عُمَرُ : اتَّيَدُوا ، أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي يَأْذَنُهُ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا نُورِثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً)) . يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْسَهُ ؟ ، قَالُوا : قَدْ قَالَ ذَلِكَ ، فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَبَّاسٍ وَعَلِيٍّ ، فَقَالَ : أَنْشِدْكُمْ بِاللَّهِ ، هَلْ تَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ ذَلِكَ ؟ ، قَالَا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَانَ خَصَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذَا الْفَيءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ ، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ وَاللَّهِ مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ ، وَلَا اسْتَأْثَرَهَا عَلَيْكُمْ ، لَقَدْ أَعْطَاكُمْوهَا ، وَقَسَمَهَا فِيكُمْ حَتَّى بَقِيَ هَذَا الْمَالُ مِنْهَا ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَتَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلًا مَالِ اللَّهِ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيَاتِهِ ،

لَقَدْ حَدَّثَ خِلَافَ بَيْنِ عَلِيٍّ وَعَمَّةِ الْعَبَّاسِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ حَوْلَ تَوْزِيعِ الْأَمْوَالِ الَّتِي أَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ . وَعَلِيٌّ وَالْعَبَّاسُ أَقْرَبُ الصَّحَابَةِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ نَسَبًا . فَالْعَبَّاسُ

عُمّه ، وعليّ ابن عمّه ، لذلك اعتقدا أنّهما الأحق بالأموال التي أخذها النبي ﷺ . فطلب عمر الصبر والهدوء والانتظار ، وذكر قول النبي ﷺ : ((لا نُورَث ، ما تَرَكَنا صدقة)) . وهذه قاعدة جليلة ، فالنبي ﷺ لم يُرسله الله لجمع الأموال له ولورثته . وإنما أرسله بالوحي ، وكلّ الأنبياء كذلك ، لذلك كان العلماء _ تحديداً _ هم ورثة الأنبياء ، لأنهم يحملون الوحي والتبوء بعد الأنبياء ، وينشرونها بين الناس مع أنّهم ليسوا أنبياء .

وقد ذكر عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قضية أموال يهود بني النضير ، وأنها كانت خاصة بالنبي ﷺ ، وقد ورّعها النبي ﷺ على المؤمنين تكريماً منه وفضلاً ، ولم يكن أنانياً ولا بخيلاً . ومعروف أنّ حياة النبي ﷺ كانت قاسيةً وشديدة التّقصّف ، فلم يعيش في القصور بين الخدم والجواري ، ويستعبد أصحابه ، ويُجوعهم كي يُسيطر عليهم . لقد عانى النبي ﷺ أكثر من كلّ أصحابه ، وقاسى الجوع الحقيقي ، ولم يكن يغرق في أشهى أنواع الطعام مع الزوجات والجواري ، كما يفعل الملوك .

والجدير بالذكر أن لفظة " فاستبّ عليّ وعباس " تعني وقوع نزاع وخلاف بينهما ، ولا تعني وقوع شتائم وسباب ، لأن هذه القصة جرت في وجود الخليفة وأصحابه ، ولو وقع مُنكر في الجلسة لقاموا بالإنكار ، خصوصاً عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ المعروف بشدّة إنكاره للمُنكر . لكنّ هذا لم يحدث . ممّا يدل على أن كلمة " فاستبّ " إمّا أن تكون مُبالغة من أحد الرّواة ، أو وصفاً لحالة الخلاف والنزاع .

وقال الله تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

جميع البلدان التي تُفتح بلا قتال ولا تحريك خيل ، حُكمها حُكم أموال يهود بني النضير . والآية تُوضّح مصارف الفّيء (الأموال التي تُؤخذ من الكافرين بلا قتال) ، والتكرار للتأكيد والتقرير . وحُكم الفّيء ليس خاصاً ببني النضير ، بل هو شامل لكل قرية يفتحها النبي ﷺ صلحاً ، بلا قتال ولا مشقة ، ولم يُحرّك المسلمون خيلهم ولا إبلهم ، ولم يُحاربوا .

وفي تفسير القرطبي (١٨ / ١٢) : ((قال ابن عباس : هي فريضة والنضير ، وهما بالمدينة ، وفدك وهي على ثلاثة أيام من المدينة ، وخيبر وقرى غرينة وينبع ، جعلها الله لرسوله)) اهـ .

وعن عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : ((كانت أموال بني النضير مِمَّا أفاء الله على رسوله ﷺ، مِمَّا لَمْ يُوجِفْ المسلمون عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصةً ، وكان يُنْفِقُ على أهله نفقةً سنَّته ، ثُمَّ يجعل ما بقي في السِّلَاح والكِرَاعِ عُدَّةً في سبيل الله)) (45).

لقد رَدَّ الله أموالَ يهود بني النضير على النبي ﷺ، وأعادها إِلَيْهِ فَضْلاً مِنْهُ، بلا قتال ولا مَشَقَّةٍ، فالنبي ﷺ هو الأحقُّ بِهَا مِنْ هؤلاء الكافرين المحاربين للإسلام . وَلَمْ يُحَرِّكْ المسلمون خَيْلَهُمْ وَلَا إِبِلَهُمْ في تحصيل هذه الأموال . والإيجافُ هو الإسراع . وكانت هذه الأموال للنبي ﷺ خاصةً ، ولا حق للمسلمين فيها ، وكان النبي ﷺ يَغْزِلُ لأهله نَفَقَةً سنَّة ، ثُمَّ يجعل ما بقي في السِّلَاح والكِرَاعِ ، وهي الدُّوَاب التي تَصْلُح للحرب ، استعداداً للجهاد في سبيل الله تعالى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٧٠) : ((أمَّا الكِرَاع فهو الخيل ، وقَوْلُهُ : " يُنْفِقُ على أهله نفقة سنَّة " (رواية مسلم) ، أي : يَغْزِلُ لَهُمْ نفقة سنَّة ، ولكنه كان يُنْفِقُهُ قبل انقضاء السنَّة في وجوه الخير ، فلا تَتَمُّ عليه السنَّة ، ولهذا تُؤْفَى ﷺ وَدَرْعُهُ مَرهُونَةٌ على شعير استدانةً لأهله ، وَلَمْ يَشْبَعِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تَبَاعًا ، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بكثرة جُوعه ﷺ ، وَجُوعِ عِيَالِهِ . وقَوْلُهُ : " كانت للنبي ﷺ خاصةً " ، هذا يُؤَيِّدُ مذهب الجمهور أنه لا خُمْسَ في الفَيْءِ ... وفي هذا الحديث جواز ادِّخَار قُوتِ سنَّة ، وجواز الادِّخَار لِلْعِيَالِ ، وأن هذا لا يَقْدَحُ في التَّوَكُّلِ ، وأجمع العلماء على جواز الادِّخَار فيما يستغله الإنسان من قريته ...)) اهـ .

ما رَدَّ الله على رسوله ﷺ مِنْ أموال كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرَى ، فَحُكْمُ هذه الأموال لله ورسوله ﷺ ، يَصْرِفُهَا على نَفْسِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، ولأقرباء الرسول ﷺ (بني هاشم وبني الْمُطَّلِب) ، واليتامى (الصَّغَار الذين مات آباؤهم) والمساكين (الفقراء المحتاجين) وابنِ السَّبِيلِ (المنقطع في سَفَرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

ولا يُوجد تعارض ولا نَسْخٌ بين هذه الآية : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ ، والآية الموجودة في سُورَةِ الْأَنْفَالِ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : ٤١] . فَإِنَّهُ الْأَنْفَالُ تَحَدَّثَ عَنْ حُكْمِ الْغَنِيمَةِ (المال الذي يُؤْخَذُ مِنَ الْكَافِرِينَ بِالْقِتَالِ وتحريك الخيل) ، حيث يتم تقسيمه إلى خمسة أخماس ، يُؤْخَذُ مِنْهَا الْخُمْسُ، وَيُعْطَى الْبَاقِي لِلْغَنَامِينَ . أمَّا الْفَيْءُ (المال الذي يُؤْخَذُ مِنَ الْكَافِرِينَ صُلْحًا) فهو للنبي ﷺ خاصةً ، ولا يتم تخميسه . والفرق بين الغنيمة

(٤٥) متفق عليه . البخاري (٣ / ١٠٦٣) ، ومسلم (٣ / ١٣٧٦) .

وَالْفَيءُ يَتَجَلَّى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةِ الْأَنْفَالِ : ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْحَشْرِ : ﴿ مَا أَفَاء ﴾ .

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ . إِنَّ الْهَدَفَ مِنْ هَذَا التَّقْسِيمِ الْإِلَهِيِّ الْحَكِيمِ لِلْفَيءِ

هُوَ مَنَعُ الْأَغْنِيَاءِ مِنْ احْتِكَارِ الْمَالِ ، وَالْإِسْتِحْوَاذِ عَلَيْهِ دُونَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ . فَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ الْمَصَارِفَ لِلْفَيءِ لئَلَّا يُسَيِّطِرَ الْأَغْنِيَاءُ عَلَيْهِ ، وَيَتَحَكَّمُوا فِيهِ بِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ، وَيَحْرِمُوا الْفُقَرَاءَ وَالْمُحْتَاجِينَ . وَالدُّوْلَةُ مَا يَتَدَاوَلُهُ الْأَغْنِيَاءُ وَيَدُورُ بَيْنَهُمْ حَصْرِيًّا كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَالْفُقَرَاءُ أَحَقُّ بِمَالِ الْفَيءِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ، بِسَبَبِ فَقْرِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ الشَّدِيدَةِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٨ / ١٢) : ((وَمَعْنَى الْآيَةِ : فَعَلْنَا ذَلِكَ فِي هَذَا الْفَيءِ ، كَيْ لَا تَقْسِمَهُ الرُّؤَسَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ بَيْنَهُمْ دُونَ الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ، لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا إِذَا غَنِمُوا ، أَخَذَ الرَّئِيسُ رُبْعَهَا لِنَفْسِهِ ، وَهُوَ الْمِرْبَاعُ ، ثُمَّ يَصْطَفِي مِنْهَا أَيْضًا بَعْدَ الْمِرْبَاعِ مَا شَاءَ ، وَفِيهَا قَالَ شَاعِرُهُمْ : " لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا " . يَقُولُ : كَيْ لَا يُعْمَلَ فِيهِ كَمَا كَانَ يُعْمَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ هَذَا لِرَسُولِهِ ﷺ يَقْسِمُهُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي أُمِرَ بِهَا)) اهـ .

لَقَدْ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ الْفَيءَ (أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ) عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ تَرَكَوا دِيَارَهُمْ وَمَمْلَكَاتِهِمْ ، وَكَانُوا فِي أَمْسٍ الْحَاجَةَ إِلَى الْمَالِ ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ . فَقَالَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ : لَنَا سَهْمُنَا مِنْ هَذَا الْفَيءِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سِيَاقِ الْفَيءِ . لَكِنَّ مَعْنَاهَا شَامِلٌ وَعَامٌ ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِمُغْمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . فَيُجِبُ اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ . فَمَا أَمَرَ بِهِ فَافْعَلُوهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَصَلَاحٍ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، لِأَنَّهُ لَا يَنْهَى إِلَّا عَنِ شَرٍّ وَفَسَادٍ . وَأَوَامِرُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَوَاهِيهِ ، إِنَّمَا هِيَ أَوَامِرُ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ . وَهِيَ أَحْكَامٌ وَاجِبَةُ الْإِتِّبَاعِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٢١١) : ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ مِنَ الْفَيءِ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْ أَخْذِهِ فَانْتَهُوا ، وَهَذَا نَزَلَ فِي أَمْرِ الْفَيءِ ، وَهُوَ عَامٌ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ)) اهـ .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ)) (46).

إذا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِشَيْءٍ فَيَجِبُ فِعْلُهُ عَلَى قَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ دُونَ تَقْصِيرٍ ، وَإِذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَيَجِبُ تَرْكُهُ . وَالضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ . وَالضَّرُورَةُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ ، وَالْمُتَوَشِّمَاتِ ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ ، الْمُغَيَّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ)) . فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ ، فَجَاءَتْ ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَقَالَ : ((وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ)) ، فَقَالَتْ : لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللُّوحَيْنِ ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ . قَالَ : ((لَكِنْ كُنْتُ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ . أَمَا قَرَأْتَ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾)) (47) .

الْقُرْآنُ وَحْيٌ إلهِيٌّ ، وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ وَحْيٌ إلهيٌّ أَيْضًا . فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِالْوَحْيَيْنِ ، وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا بَدُونَ الْآخَرِ . وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ هِيَ تَوْضِيحٌ وَتَفْسِيرٌ لِلْقُرْآنِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُشَرِّعٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ، لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ . إِذَنْ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَعًا ، وَمَنْ أَسْقَطَ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَهُوَ كَافِرٌ .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . وَخَافُوا اللَّهَ ، وَذَلِكَ بِالْإِلْتِزَامِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ . إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ ، وَارْتَكَبَ الْمَحْرَمَاتِ . عِقَابُهُ شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهُ أَلِيمٌ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ الْمُرْمَلُ ﴾ [الْمُرْمَلُ : ١] .

(٤٦) متفق عليه. واللفظ لمسلم (٢/ ٩٧٥) برقم (١٣٣٧). والبخاري (٦/ ٢٦٥٨) برقم (٦٨٥٨) .
(٤٧) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٥٣) برقم (٤٦٠٤) ، ومسلم (٣/ ١٦٧٨) برقم (٢١٢٥) .
الواشِمَاتُ (جمع واشمة اسم فاعلة من الوَشِمَ ، وهو عَزَزَ إِبْرَةً أَوْ نَحَّوْهَا فِي الْجِلْدِ حَتَّى يَسِيلَ مِنْهُ الدَّمُ ثُمَّ يُحَشَّى الْمَوْضِعُ بِكُحْلٍ أَوْ نَحْوِهِ ، فَيَتَلَوَّنَ الْجِلْدُ وَلَا يَزُولُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا) (الْمُتَوَشِّمَاتُ) جمع مُتَوَشِّمَةٍ ، وهي التي يُفْعَلُ فِيهَا الْوَشْمُ (الْمُتَنَمِّصَاتُ) جمع مُتَنَمِّصَةٍ ، وهي التي تَطْلُبُ إِزَالََةَ شَعْرِ وَجْهِهَا وَتَنْتَفِهِ = والتي تُزِيلُهُ وَتَنْتَفِهِ تُسَمَّى نَامِصَةً (الْمُتَفَلِّجَاتُ لِلْحُسْنِ) جمع مُتَفَلِّجَةٍ وهي التي تَبْرُدُ أَسْنَانَهَا لِتَفْتَرِّقَ عَنْ بَعْضِهَا لِأَجْلِ الْجَمَالِ (الْمُغَيَّرَاتُ خَلْقَ اللَّهِ) بما سبق ذِكْرُهُ لِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ وَتَرْوِيرٌ . (اللُّوحَيْنِ) أي الْقُرْآنَ الْمَكْتُوبَ مَا بَيْنَ دَفْئِي الْمَصْحَفِ .

يا أيها الْمُتَلَفِّفُ بثيابه . وهذا الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ فيه مُلاطَفةٌ له ومُؤانسةٌ . ولم يُخاطَبْ باسمه " محمد " لئلا يَشعر بالخوف أو الرَّهبة أو الوحشة . وهذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ كان في أول الوحي قبل التبليغ ، ثُمَّ خُوطِبَ بعد ذلك بالنبيِّ والرسول .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ _ رضي الله عنهما _ قال: قال رسول الله ﷺ _ وهو يُحدِّث عن فترة الوحي _ قال في حديثه : ((بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفَرَّقْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)) (48).

عندما رأى النبيُّ ﷺ الملكَ جبريل _ عليه السلام _ أُصِيبَ بخوفٍ شديدٍ ، لأن جبريلَ عظيم الخَلقة ، وذو هَيْبَةٍ تَخْلَعُ الْقُلُوبَ ، فرجعَ فقال لأهله : لُفُونِي وَغَطُّونِي بِالثَّيَابِ ، حَتَّى يَهْدَأَ وَيَذْهَبَ عَنْهُ الْخَوْفُ ، فقاموا بِتَغْطِيته .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ((يَا أَيُّهَا الْمُرَّمَّلُ)) . قال: ((زُمَّلْتُ هَذَا الْأَمْرَ فَقُمْتُ بِهِ)) (49) .
لقد حمَلَ ابن عباس المعنى على الْمَجَازِ . والمقصود أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قد اختاره الله نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَحَمَلَهُ أَعْبَاءَ النَّبُوءَةِ ، وَأَمَانَةَ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ إِلَى النَّاسِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا الدَّورِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ .
وفي تفسير القرطبي (١٩ / ٣١) : ((قَالَ السُّهَيْلِيُّ : لَيْسَ " الْمُرَّمَّلُ " بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ،

وَلَمْ يُعْرَفْ بِهِ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ ، وَعَدَّوْهُ فِي أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَا الْمُرَّمَّلُ اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنْ حَالَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا حِينَ الْخُطَابِ ، وَكَذَلِكَ الْمُدَّثِّرُ ، وَفِي خُطَابِهِ بِهَذَا الْاسْمِ فَائِدَتَانِ : إِحْدَاهُمَا الْمُلَاطَفَةُ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ إِذَا قَصَدَتْ مُلَاطَفَةَ الْمُخَاطَبِ وَتَرَكَ الْمُعَاتَبَةَ سَمَّوْهُ بِاسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنْ حَالَتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ، كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَعَلِّي حِينَ غَاضِبٍ فَاطِمَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ فَاتَاهُ وَهُوَ نَائِمٌ ، وَقَدْ لَصِقَ بِحَنْبِهِ التَّرَابُ ، فَقَالَ لَهُ : " قُمْ أَبَا تَرَابٍ " ، إِشْعَارًا لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ عَاتِبٍ عَلَيْهِ ، وَمُلَاطَفَةً لَهُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحَدِيفَةٍ : " قُمْ يَا نَوْمَانُ " ، وَكَانَ نَائِمًا ، مُلَاطَفَةً لَهُ وَإِشْعَارًا لِتَرْكِ الْعَتَبِ وَالتَّأْنِيبِ . فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ : ((يَا أَيُّهَا الْمُرَّمَّلُ)) فِيهِ تَأْنِيسٌ وَمُلَاطَفَةٌ لِيَسْتَشْعِرَ أَنَّهُ غَيْرُ عَاتِبٍ عَلَيْهِ . وَالفائدة الثانية: التَّنبِيهُ لِكُلِّ مُتَزَمِّلٍ رَاقِدٍ لَيْلَهُ لِيَتَنَبَّهَ إِلَى قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَذِكْرِ اللَّهِ

(٤٨) متفق عليه . البخاري (١٨٩٥ / ٤) برقم (٤٦٧١) ، ومسلم (١ / ١٤٣) برقم (١٦١) .

(٤٩) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٨) برقم (٣٨٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

تعالى فيه لأنَّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المُخاطَب كُلُّ مَنْ عَمِلَ ذلك العمل،
وَاتَّصَفَ بتلك الصِّفة)).

وقال الله تعالى : ﴿ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الْمُزَّمِّل : ٢] .

يا أيها الْمُتَغَطِّي بِثِيَابِهِ خَوْفًا وَفَرَعًا ، وكأنه يُريد الرِّاحَةَ والسَّكِينَةَ والهدوء ، والتخلص من هذا
الحِمل الثقيل (أعباء الرِّسالة) ، لا تَتَغَطَّ بِثِيَابِكَ بحثًا عن الراحة ، وقُمْ للصلاة في الليل كُلِّهِ إِلَّا
قَدْرًا يسيرًا منه تنام فيه، كي تَقْدِر على تَحْمِلِ أعباء النُّبُوَّة، وتبليغ رسالة رَبِّكَ ، وتستطيع مُواجهة
الخصوم والأعداء .

وصلاة الليل هي تقوية للروح ، وتثبيت للقلب ، وبناء للجسم ، ممَّا يجعل النبي ﷺ قَوِيًّا
ومتماسكًا في وجه الأزمات والشدائد ، وقادرًا على مُواجهة أصعب الظروف والتحديات .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : لَمَّا نَزَلَتْ أَوَّلُ المَزْمَلِ ، كانوا يَقُومُونَ نَحْوًا مِنْ
قِيَامِهِمْ في شهر رمضان ، حتى نزل آخِرُهَا . وكان بين أَوَّلِهَا وآخِرِهَا نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ (50).

وقال الله تعالى : ﴿ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴿ [الْمُزَّمِّل : ٣] .

يَبَيِّنُ الله مقدار العبادة . قُمْ يا محمد نِصْفَ الليل بزيادة قليلة أو نُقْصان قليل . لا لَوْمَ عليك
في هذا ولا حَرَجَ .

والمقصود أن تكون ساعات الصلاة في الليل طويلةً ، لا نُقْص فيها ولا تَهَاوُن . بحيث لا تقل
عن ثُلث الليل ، ولا تزيد على الثلثين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٨٨ و ٣٨٩) : ((قال المفسِّرون : انْقُصْ مِنْ
النِّصْفِ إِلَى الثَّلْثِ ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ إِلَى الثَّلْثَيْنِ ، فَجَعَلَ لَهُ سَعَةً فِي مَدَّةِ قِيَامِهِ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ مَحْدُودَةً ،
فَكَانَ يَقُومُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ، فَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى ،
وَكَمْ بَقِيَ مِنَ اللَّيْلِ ، فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ مَخَافَةً أَنْ لَا يَحْفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ ، فَنُسِخَ ذَلِكَ عَنْهُ
وَعَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ ﴾ _ الْآيَةُ _ . هذا مذهب
جماعة من المفسِّرين ، وقالوا : ليس في القرآن سُورَةٌ نُسِخَ آخِرُهَا أَوَّلُهَا سِوَى هَذِهِ السُّورَةِ .
وذهب قوم إلى أَنَّهُ نُسِخَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي حَقِّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [
الإِسْرَاء : ٧٩] .

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٨) برقم (٣٨٦٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وُنُسَخَ في حق المؤمنين بالصلوات الخمس . وقيل : نُسَخَ عن الأمة ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ فَرَضُهُ أَبَدًا . وقيل : إنما كان مفروضاً عَلَيْهِ ذُونَهُمْ . وفي مُدَّة فَرَضِهِ قَوْلَان : أحدهما سَنَة ، قال ابن عباس : كان بين أول المزمَّل وآخرها سنة . والثاني ستة عشر شهراً ، حكاه الماوردي ((اه .

وروى أبو داود في سننه (١ / ٤١٦) : عن ابن عباس قال : في المزمَّل ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٢) نِصْفَهُ ﴿ نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي فِيهَا : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَافْرُؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ [المزمَّل : ٢٠] .

والمعنى : عَلِمَ اللَّهُ أَنْ لَنْ تُطِيقُوا قِيَامَ ثُلثِي اللَّيْلِ وَلَا ثُلُثَهُ وَلَا نِصْفَهُ ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ فَرَضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ . وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ نَسَخَتْ كُلَّ صَلَاةٍ ، كَمَا نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ ، وَنَسَخَ صَوْمُ رَمَضَانَ كُلَّ صَوْمٍ .

لقد أمرَ اللَّهُ نَبِيَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ، فَكَانَ هَذَا الْأَمْرُ شَدِيدًا عَلَيْهِمْ ، وَوَجَدُوا فِيهِ مَشَقَّةً بَالِغَةً وَصَعُوبَةً هَائِلَةً ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ ، وَخَفَّفَ عَنْهُمْ بِهَذَا النَّسْخِ . وَالشَّرِيعَةُ لَمْ تَجِئْ لِلتَّضْيِيقِ عَلَى النَّاسِ وَتَدْمِيرِ حَيَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ لِلتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَإِزَالَةِ الْحَرَجِ . وَالْأَمْرُ كُلَّمَا ضَاقَ اتَّسَعَ . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ سُورَةَ الْمَزْمَلِ هِيَ السُّورَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَسَخَ آخِرُهَا أَوَّلُهَا .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣٠ / ١٧١) : ((وَإِنَّمَا كُتِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِقِيَامِ اللَّيْلِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ حَافِزًا لَهُمْ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ الْكَامِلِ لِمُجَابَهَةِ خُصُومِ الدَّعْوَةِ ، وَتَرْبِيَتِهِمُ التَّرْبِيَةَ الْجَسْمِيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ عَلَى أَكْمَلِ الْوَجْهِ ، حَتَّى يَصْبِرُوا عَلَى تَحْمُلِ الْمَشَاقِّ وَالْمَصَاعِبِ ، وَتَجَسُّمِ الْأَهْوَالِ وَالْأَخْطَارِ ، وَيَسْتَفِيدُوا مِنْ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ الْكَرِيمَةِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ عَسِيرٍ يَعْزِضُ لَهُمْ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَثَرِ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ أَنَّ مَلَكَ الْمُسْلِمُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا بِجَهَادِهِمْ وَصَبْرِهِمْ وَتَحْمُلِهِمْ لِلْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) اه .

وقالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [الْمَزْمَل : ٤] .

يَأْمُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ بِهَدْوٍ وَتَمَهُلُ وَتَرْكِيزٍ ، مِنْ أَجْلِ فَهْمِ الْقُرْآنِ وَالْوُقُوفِ عَلَى أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَمَوَاعِظِهِ وَأَخْبَارِهِ ، وَالْعَمَلِ بِهِ . فَعَلَى الْمَرْءِ أَلَّا يَعْجَلَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، بَلْ يَقْرَؤَهُ بِرَوِيَّةٍ مَعَ فَهْمِ مَعَانِيهِ ، وَيُعْطِي لِكُلِّ حَرْفٍ حَقَّهُ مِنَ النُّطْقِ وَالْبَيَانِ مَعَ إِشْبَاعِ الْحَرَكَاتِ ، مَعَ أَهْمِيَّةِ تَحْسِينِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ٣٦): ((أي : لا تَعْجَلْ بقراءة القرآن ، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبُّر المعاني . وقال الضَّحَّاك : اقرأه حَرْفًا حَرْفًا . وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنزيذ والتنسيق وحسن النظام)) اهـ .

وقد كانت قراءة النبي ﷺ للقرآن كما أمره الله تعالى ، حيث التَّرتيل والخشوع والتدبُّر ، وليست قراءة سريعة بلا تفكير ولا فُهم .

ففي صحيح مسلم (١ / ٥٠٧) : عن حَفْصَةَ رضي الله عنها _ قالت : ((وكان يقرأ بالسُّورة فَيُرْتِّلُها حتى تَكُونُ أطولُ مِن أطولِ مِنْها)) .

لقد كانت قراءة النبي ﷺ هادئةً وشديدة التركيز ، يُرْتِّلُ السُّورة ، ويُعطي لكلِّ حَرْفٍ حَقَّهُ ، وَيُعرفُ مَخارجَ الحروف ، وَيُفهمُ الألفاظَ والمعاني ، وَيَتدبَّرُ في قراءته ، وَيَصِلُ إلى أَقصى درجات الخشوع . وفي تحفة الأحوذى (٢ / ٣١١) : ((" حتى تكون أطولُ مِن أطولِ مِنْها " يعني أنَّ مُدَّةَ قراءته لها أطولُ مِن قراءة سُورة أخرى أطول مِنْها إذا قُرئتَ غيرَ مُرتِّلة)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٩٢٥) أنَّ أنسَ بن مالك _ رضي الله عنه _ سُئِلَ عن قراءة النبي ﷺ ، فقال : ((كانت مَدًّا)) ، ثُمَّ قرأ : ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) ، يَمُدُّ بِسْمِ اللَّهِ ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ)) .

وهذا يدل على عناية النبي ﷺ بقراءة القرآن ، وإعطاء الألفاظ حَقَّها ، وتفهُمَ معانيها . وقد استدلَّ بالحديث القائِلون باستحباب الجهر بالبسملة في الصلاة ، وقالوا إِنَّ طَريقَةَ نطق أنس تُشير إلى أنه قد سمع ذلك مِنَ النبي ﷺ ، أي إن النبي ﷺ قد جَهَرَ بالبسملة . وحَمَلُوا الحديثَ على العموم (داخل الصلاة وخارجها) ، لأنهم اعتبروا أنَّ أنسًا قد أَخْبَرَ عن مُطلق قراءة النبي ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (٩ / ٩١) : ((لا يُلْزَمُ مِن وَصْفِهِ بأنه كان إذا قرأ البسملة يَمُدُّ فيها أن يكون قرأ البسملة في أول الفاتحة في كل ركعة ، ولأنه إنما وَرَدَ بصورة المِثال فلا تتعيَّن البسملة . والعِلْمُ عند الله تعالى)) .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((يُقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْتَق ، وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدنيا ، فَإِنَّ مَنزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بها)) (51) .

(٥١) رواه الترمذي في سننه (٥ / ١٧٧) برقم (٢٩١٤) . وقال : ((حسن صحيح)) .

إن الجزاء وَفَّقَ الأعمال . فصاحبُ القرآنِ الحريصُ على قراءته بتدبُّرٍ وتفسيره ، يجد جزاءَ عمله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حيث يُقال له : اقرأ واصعدْ في درجات الجنة ، فإن درجته في الجنة عند آخر آيةٍ يَقْرؤها . وبالتالي ، فإن قراءته للقرآن تُحدِّدُ مُستواه في الجنة .

وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٢٢٨) : ((قال الخطابي : جاء في الأثر أن عدد آي القرآن على قَدَرِ دَرَج الجنة ⁽⁵²⁾ ، فيُقال للقارئ : ازقْ في الدَّرَج على قَدَرِ ما كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ آي القرآن ، فَمَنْ استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة ، وَمَنْ قرأ جزءًا مِنْه كان رُقْبُهُ في الدَّرَج على قَدَرِ ذلك ، فيكون مُنتهى الثواب عند منتهى القراءة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ٥٤٥) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنه سَمِعَ رسول الله ﷺ يقول : ((ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لِنبيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ ، يَجْهَرُ بِهِ)) .
يعني : يُحَسِّنُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ٧٩) : ((وقال الشافعي وموافقه : معناه تحزين القراءة وترقيقها)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)) ⁽⁵³⁾ .
وهذا يدل على استحباب الترتيل ، وتحسين الصوت بالقراءة . وعملية التزيين تكون بإتقان الحفظ ، وتحسين التلاوة ، وعدم التلعثم .

وهذا يدل على أهمية الصوت الحسن في قراءة القرآن . فالصَّوْتُ الْحَسَنُ يَبْعَثُ الْخُشُوعَ فِي الْقَلْبِ ، مما يُؤدِّي إلى التفكير في معاني الآيات والتعمق في فهمها .

وعن البراء بن عازب _ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((حَسَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ، فَإِنَّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا)) ⁽⁵⁴⁾ .

(٥٢) في شُعَب الإيمان للبيهقي (٢ / ٣٤٧) : ((عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : قال رسول الله ﷺ : " عَدَدُ دَرَجِ الجنة عَدَدُ آيِ الْقُرْآنِ ، فَمَنْ دَخَلَ الجنةَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ فَلَيْسَ فَوْقَهُ دَرَجَةٌ " . قال الحاكم : هذا إسناد صحيح ، وَلَمْ يُكْتَبْ هذا المتن إلا بهذا الإسناد ، وهو من الشواذ)) .

(٥٣) رواه ابنُ جَبَّانٍ في صحيحه (٣ / ٢٧) برقم (٧٥٠) . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١ / ٢٢٨) : ((أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جَبَّانٍ والحاكم وصحَّحه من حديث البراء بن عازب)) .

(٥٤) رواه الدارمي في سننه (٢ / ٥٦٥) برقم (٣٥٠١) .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٦٨) : ((قال التوربشتي : هذا إذا لم يُخرجه التَّغني عن التجويد ، ولم يَصْرِفْهُ عن مُراعاة النَّظْم في الكلمات والحروف ، فإن انتهى إلى ذلك ، عاد الاستحباب كراهةً ، وأما ما أحدثه الْمُتَكَلِّفُونَ بمعرفة الأوزان والموسيقى ، فيأخذون في كلام الله مأخذهم في التشبيب والغزل ، فإنه مِنْ أسوأ البِدَع ، فيجب على السامع الكبير ، وعلى التالي التعزير ، وأخذَ جمعٌ من الصوفية مِنْهُ نَدْبُ السَّماع مِنْ حُسْن الصوت . وتُعَقَّبُ بأنه قياس فاسد وتشبيه للشيء بما ليس مثله ، وكيف يُشَبَّه ما أمر الله بِهِ بِما نَهَى عنه ؟!)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٧٣٧) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لَيْسَ مِنْنا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)) .

هذا يُشير إلى ضرورة تحسين الصَّوت بقراءة القرآن ، الأمر الذي يُدخل القرآن إلى القلب . ومن كان صَوْتُهُ قَبِيحًا ، فليحاول قَدْرَ المُسْتَطاع تحسينَ صَوْتِهِ ، وتَجْوِيدَ أدائه . والأجرُ على قَدْر المشقة .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٨٧) : (((لَيْسَ مِنْنا) أي مِنْ العاملين بِسُنَّتِنَا الجارين على طريقتنا (مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ) يعني لَمْ يُحَسِّنْ صَوْتَهُ بِهِ ، لأن التطريب بِهِ أَوْقَعَ في النفوس وأدعى للاستماع والإصغاء ، وهي كالحلاوة التي تُجَعِّلُ في الدواء لتفزيده إلى أمانة الدواء)) اهـ .

وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال له : ((يا أبا موسى ، لقد أُوتيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ)) (55) .

والمِزْمَارُ هو الصَّوتُ الحَسَنُ . وقد كان النبي ﷺ داوُدُ ﷺ حَسَنَ الصَّوتِ ، وهو الْمُنتَهَى في ذلك . وقد كان أبو موسى _ رضي الله عنه _ حَسَنَ الصَّوتِ في قراءة القرآن ، لذلك شَبَّهَ النبي ﷺ صَوْتَهُ بصوت النبي ﷺ داوُدَ ﷺ . وهذه فضيلة لأبي موسى _ رضي الله عنه _ .

وروى الطبري في تفسيره (١٠ / ٥٦٩) عن وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ الْيَمَانِيِّ أَنَّهُ قَالَ عَنِ النَّبِيِّ دَاوُدَ ﷺ : ((كَانَ إِذَا قَرَأَ الزُّبُورَ فِيمَا يَذْكُرُونَ تَدْنُو لَهُ الْوَحُوشُ ، حَتَّى يَأْخُذَ بِأَعْنَاقِهَا ، وَإِنِهَا لَمُصِخَّةٌ) يعني مُسْتَمِعَةٌ مُنْصِتَةٌ) ، تسمع لصوته . وما صَنَعَتِ الشَّيَاطِينُ الْمِزَامِيرَ وَالْبِرَابِطَ وَالصُّنُوجَ (وهي آلات موسيقية) ، إِلَّا عَلَى أَصْنَافِ صَوْتِهِ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْجَهْدِ ، دَائِبَ الْعِبَادَةِ)) اهـ .

(٥٥) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٩٢٥) برقم (٤٧٦١) ، ومسلم (١ / ٥٤٦) برقم (٧٩٣) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ٨٠) : ((قال القاضي : أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها . قال أبو عبيد : والأحاديث الواردة في ذلك محمولة على التحزين والتشويق . قال : واختلفوا في القراءة بالألحان ، فكرهها مالك والجمهور لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم ، وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث ، ولأن ذلك سبب للرفقة ، وإثارة الخشية ، وإقبال النفوس على استماعه . قلت : قال الشافعي في موضع : أكره القراءة بالألحان ، وقال في موضع : لا أكرهها ، قال أصحابنا (يعني الشافعية) : ليس له فيها خلاف ، وإنما هو اختلاف حالين ، فحيث كرهها أراد إذا مَطَّطَ وأخرج الكلام عن موضعه بزيادة أو نقص ، أو مد غير ممدود وإدغام ما لا يجوز إدغامه ، ونحو ذلك ، وحيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغير لموضوع الكلام ، والله أعلم)) اهـ .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنه _ قال : ((لقد عشنا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا ، وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ ، وَتُنَزَّلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَتَعَلَّمُ خِلَافَهَا وَحَرَامَهَا ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا ، كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُم الْقُرْآنَ ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ ، مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ ، يَنْشُرُهُ نَشْرَ الدَّقْلِ (رَدِيءُ الثَّمَرِ))) (56).

إِنَّ الصَّحَابَةَ _ رضي الله عنهم _ كَانُوا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِتَمَهُّلٍ وَعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ ، مَعَ التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِي الْآيَاتِ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ مُسْتَقَرٌّ فِي قُلُوبِهِمْ قَبْلَ الْقُرْآنِ . لِذَلِكَ كَانُوا يَتَعْلَمُونَ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَكَانُوا وَقَّافِينَ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ ظَهَرَ فِيمَا بَعْدَ أَشْخَاصٍ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ كَالشَّعْرِ ، أَوْ كَالْجَرِيدَةِ _ فِي عَصْرِنَا _ ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ كَامِلًا بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ ، فَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ شَيْئًا ، أَلَسَنَتُهُمْ تَتَحَرَّكُ بِالْقِرَاءَةِ ، وَقُلُوبُهُمْ غَائِبَةٌ عَنِ الْوَعْيِ .

وهنا تبرز أهمية حضور القلب ، والتفكير في ألفاظ الآيات ومعانيها . فعندما تمرُّ الآيات التي فيها ذِكْرُ اللَّهِ ، يَسْتَشْعِرُ الْقَلْبُ الْمُؤْمِنُ عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى . وعندما تمرُّ آياتُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، يَظْهَرُ فِي الْقَلْبِ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ ، الرَّجَاءُ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَالْخَوْفُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ . وعندما تمرُّ الْأَمْثَالُ وَقَصَصُ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ ، تبرز أهمية أخذ الْعِبْرَةِ وَالْعِظَّةِ . وعندئذٍ يُشْرِقُ الْقَلْبُ بِالْإِيمَانِ ، وَيَذُوقُ الْإِنْسَانُ حَلَاوَةَ الْقُرْآنِ .

(٥٦) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٩١) برقم (١٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أَمَّا الإسراعُ بالقراءة بلا تفكير ، وإلقاء الكلمات كما يُلْقَى التَّمَر الرديء ، فإشارة واضحة إلى غياب القلب ، وانعدام الخشوع . فلا بُدَّ مِنَ الوقوف عند أحكام القرآن ، ومعرفة ألفاظه ومعانيه ، وتحريك القلوب به .

ولا ينبغي أن يكون هدف القارئ أن يُنهي قراءة السُّورة بأسرع وقت ممكن ، أو أن يُفكر في آخر السُّورة ، ومتى يصل إليها . ولا ينبغي أن يكون هدفه الإكثار من عدد مرَّات ختم القرآن بلا تدبُّر ولا تفكير .

وفي الحديث : جاء رجلٌ إلى ابن مسعود ، فقال : قرأتُ المُفَصَّلَ الليلة في ركعة ، فقال : ((هَذَا كَهَذَا الشَّعْر)) (57).

هذا الرجلُ قرأ القرآن بسرعة ، وبلا تفكير . لقد أسرع فيه كما يُسرِع في الشَّعر . والهُدُّ هو السُّرعة . والمُفَصَّلُ من سُورة ق إلى آخر القرآن، وسُمِّيَ مُفَصَّلًا لكثرة الفصل بين سُوره بالبسملة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦ / ١٠٥) : ((وهو شِدَّة الإسراع والإفراط في العَجَلَة ، ففيه النهي عن الهُدِّ ، والحثُّ على الترتيل والتدبر ، وبه قال جمهور العلماء . قال القاضي : وأباح طائفة قليلة الهُدِّ . قَوْلُهُ : " كَهَذَا الشَّعْر " معناه في تحفظه وروايته لا في إسناده وترنُّمه ، لأنه يُرْتَل في الإنشاد والترنُّم في العادة)) اهـ .

ومن " حق التلاوة " أن يتوقف القارئ عند آية الرَّحمة ، ويسأل الله أن يَرْحَمَهُ ، وأن يتوقف عند آية العذاب ، ويتعوَّذ بالله مِنَ العذاب . فعن حُذَيْفَةَ _ رضي الله عنه _ قال : ((صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَمَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ عِنْدَهَا وَسَأَلَ ، وَلَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ عِنْدَهَا وَتَعَوَّذَ)) (58).

(٥٧) متفق عليه . البخاري (١ / ٢٦٩) برقم (٧٤٢) ، ومسلم (١ / ٥٦٣) برقم (٨٢٢) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦ / ١٠٧) : ((قال العلماء : أَوَّلُ الْقُرْآنِ السَّبْعُ الطَّوَالُ ، ثُمَّ دَوَاتِ الْمُحِينَ ، وهو ما كان في السورة منها مائة آية وَخَوُّهَا ، ثُمَّ الْمُثَانِي ، ثُمَّ الْمُفَصَّلُ . وقد سبق بيان الخلاف في أول المُفَصَّل ، فَيُقِيل مِنَ الْقِتَالِ (سُورة محمد) ، وَيُقِيل : مِنَ الْحُجَرَاتِ . وَيُقِيل : مِنْ ق)) .

(٥٨) رواه ابنُ جَبَّان في صحيحه (٦ / ٣٣٨) برقم (٢٦٠٤) .

وقال النووي في التبيين في آداب حملة القرآن (ص ٣٧) : ((ويُسْتَحَبُّ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ أَنْ يَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ مِنَ الشَّرِّ وَمِنَ الْعَذَابِ ، أَوْ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ ، أَوْ أَسْأَلُكَ الْمُعَافَاةَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى نَزَّهَ)) اهـ .

لقد أمر الله محمدًا ﷺ بترك النوم ، وقيام الليل ، وتدبر القرآن ، لحكمة إلهية بالغة ، وهي تحضير النبي ﷺ روحياً وجسدياً لحمل أعباء الرسالة العظيمة ، وتحمل مسؤولية التبليغ الثقيلة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المُرَّمَل : ٥] ⁽⁵⁹⁾ .

إِنَّا سَنُنْزِلُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ كَلَامًا عَظِيمًا مُقَدَّسًا مُبَارَكًا ، هو كلام الله (القرآن) ، والعمل به ثَقِيلٌ ، وليس سَهْلًا إِلَّا عَلَى مَنْ سَهَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ . فالقرآن هو القول الثقيل لاشتماله على الفرائض والحدود ، والأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والوعد والوعيد . فالأمر كله جِد ، ولا يَحْتَمِلُ الْهَزْلَ أَوْ اللَّعِبَ . والقرآن يحتوي على تكاليف شاقة وأحكام شديدة ، فهو كلام الخالق العظيم . وعلم معانيه شاق ، والعمل به والقيام بحقوقه ثَقِيلٌ . والناس دائماً يميلون إلى السهولة والخفة . والقرآن هو القول الثقيل معنويًا وماديًا . يعني أنه ثَقِيلٌ عَلَى الْجَهْتَيْنِ مَعًا . لقد كَانَ الْوَحْيُ شَدِيدًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، لذلك كَانَ ﷺ يَعَانِي الشَّدَّةَ وَالْمَشَقَّةَ . فكلام الله لَيْسَ شَيْئًا بَسِيطًا أَوْ هَيِّنًا . وكانت الشَّدَّةُ تَحْصُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ بِسَبَبِ عَظَمَةِ كَلَامِ اللَّهِ ، وَكَيْ يَسْتَقَرُّ هَذَا الْكَلَامُ الْعَظِيمُ فِي قَلْبِهِ ﷺ ، وَيَسْتَوْعِبُهُ بِشَكْلِ كَامِلٍ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْكَلَامَ الْعَظِيمَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ مِنْ أَجْلِ تَعْظِيمِهِ وَالْاهْتِمَامِ بِهِ .

والجدير بالذكر أن أثر هذه الشَّدَّةِ التي يُسَبِّحُهَا مَجِيءُ الْوَحْيِ ، كانت تظهر على وجه النبي ﷺ وجسده الشريف ، وهي ظاهرة للعيان .

(٥٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٨٩ و ٣٩٠) : ((وفي معنى ثَقْلِهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ كَانَ يُثْقَلُ عَلَيْهِ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : " وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْفِصِمُ عَنْهُ (يَعْنِي يَتَخَلَّصُ عَنْهُ) وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَقَّصُ عَرَقًا " . وَالثَّانِي أَنَّ الْعَمَلَ بِهِ ثَقِيلٌ فِي فُرُوضِهِ وَأَحْكَامِهِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَتَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُ يُثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ الْمَهْيَبُ ، كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ الْعَاقِلِ هُوَ رَزِينٌ رَاجِحٌ ، قَالَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَى . وَالْخَامِسُ أَنَّهُ لَيْسَ بِالْخَفِيفِ وَلَا السَّفْسَافِ ، لِأَنَّهُ كَلَامُ الرَّبِّ — عَزَّ وَجَلَّ — ، قَالَهُ الْفَرَّاءُ . وَالسَّادِسُ أَنَّهُ قَوْلٌ لَهُ وَزَنٌ فِي صِحَّتِهِ وَبَيَانِهِ وَنُفَعِهِ ، كَمَا تَقُولُ هَذَا كَلَامَ رَصِينٍ ... دَكَرَهُ الرَّجَاجُ)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤ / ١٦٦) : ((سَبَبُ الشَّدَةِ هَيْبَةُ الْمَلِكِ ، وما جاء به ، وثَقُلَ الْوَحْيُ)) اه .

وفي الحديث أن الحارث بن هشام _ رضي الله عنه _ سأل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : ((أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني ، فأعي ما يقول)) (60) . قالت عائشة _ رضي الله عنها _ : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

أحياناً يكون صوت الملك بالوحي مثل وقع الحديد إذا حرك ، وهذه أشد حالة ، فيقلع عن النبي ﷺ ، ويكون النبي ﷺ قد استوعب الوحي كاملاً ، حفظاً وفهماً ، واستقر في قلبه ، وأحياناً يتمثل الملك على شكل رجل ، فيكلم النبي ﷺ وجهاً لوجه ، ويفهم النبي ﷺ كلامه .

وقد ذكرت السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ أنها كانت ترى النبي ﷺ في اليوم البارد جداً ، _ بعد أن ينزل عليه الوحي _ يسيل العرق من جبينه بكثرة . وهذا دليل على شدة الوحي ، والحمل الثقيل على كاهل النبي ﷺ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ٨٨) : ((وأما الصلصلة... وهي الصوت المتدارك . قال الخطابي : معناه أنه صوت متدارك يسمعه ولا يثبت أول ما يقرع سمعه ، حتى يفهمه من بعد ذلك . قال العلماء : والحكمة في ذلك أن يتفرغ سمعه ﷺ ، ولا يبقى فيه ، ولا في قلبه مكان لغير صوت الملك)) اه .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه ، وهو على ناقته ، وضعت جرائنها ، فلم تستطع أن تتحرك . وتلت قول الله _ عز وجل _ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (61)

هذا يدل على عظمة كلام الله ، وثقل الوحي . فالنبي ﷺ إذا أوحى إليه ، وهو على ناقته ، لم تستطع أن تحمله ، ولا أن تقف على أقدامها ، فتضع باطن عنقها (جرائنها) على الأرض ، بسبب

(٦٠) متفق عليه . البخاري (١ / ٤) برقم (٢) ، ومسلم (٤ / ١٨١٦) برقم (٢٣٣٣) .

(٦١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٩) برقم (٣٨٦٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

الحِمل الثقيل، ولم تستطع أن تتحرك. وهذا يعني أنَّ الناقَةَ تشعر بِثَقَلِ الوَحْيِ، ممَّا يدل بوضوح على أنَّ الوَحْيَ الإلهيَّ له ثِقَلٌ ماديٌّ محسوس. إذن، ثَقُلَ كلامُ الله يشمل الجانبَ المعنوي والمادي معًا.

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٣٠ / ١٧٤) : ((والمراد من كونه ثَقِيلاً هو عِظَمُ قَدْرِهِ ، وَجَلالَةِ خَطَرِهِ ، وَكُلُّ شيءٍ نَفْسٍ وَعِظَمُ خَطَرُهُ فهو ثَقِيلٌ ، وهذا معنى قول ابن عباس : ﴿ قَوْلًا ثَقِيلاً ﴾ يعني كلامًا عَظِيماً . وقيل : المراد ما في القرآن من الأوامر والنواهي ، التي هي تكاليف شاقّة ثقيلة على المُكَلَّفِينَ . وَوَجْهُ النَّظْمِ عندي أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِصلاة الليل فكأنه قال : إنما أَمَرْتُكَ بِصلاة الليل ، لأنَّنا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا عَظِيماً ، ولا بُدَّ وَأَنْ تُصَيِّرَ نَفْسَكَ مُسْتَعِدَّةً لذلِكَ القَوْلِ العَظِيمِ ، وذلك بِصلاة الليل ، فَإِنَّ الإنسان إذا اشْتَغَلَ بِعبادة الله في الليلة الظلماء ، وأَقْبَلَ على ذِكْرِهِ والتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، اسْتَعَدَّتْ نَفْسُهُ لِإِشْرَاقِ وَجَلالِ اللَّهِ فِيهَا)) اهـ .

إِنَّ الرِّبْطَ بَيْنَ قِيَامِ اللَّيْلِ وتلاوة القرآن واضحٌ . فالله اخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيًّا ورسولاً لحمل آخرِ رِسالات السماء ، وتبليغِ الوَحْيِ إلى الإنس والجن . وهذه المهمة المصيرية الشاقّة تحتاج إلى جُهود جَبَّارَةٍ . ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ النَبِيُّ ﷺ جَاهِزًا لِحَمْلِهَا ، وَمُسْتَعِدًّا لِلْقِيَامِ بِهَا على أَكْمَلِ وَجْهِ .

والنَبِيُّ ﷺ سَيُواجه تحدياتٍ كثيرة ، وَيُجابه عقباتٍ عديدة ، وَيَخوض معارك على كافة الأصعدة، إِذْ إِنَّهُ سَيَدْعُو إلى دين الإسلام القائم على توحيد الله ، وَيَهْدِمُ الشِّرْكَ والأَصْنَامَ ، وهذا يعني أَنَّهُ سَيَخوض حربًا مفتوحةً مع المشركين . سَيُواجههم بالكلام والحُجَّة والمنطق ، وأيضًا سَيُواجههم بالسِّيف والقتال .

وَكُلُّ هذا التَّحَدِّياتِ الجسيمة تتطلب أَنْ يَكُونَ النَبِيُّ ﷺ قَوِيًّا رُوحِيًّا وماديًّا . إذن ، ليس الحل في النَّوم ولا التَّغَطِّي بالثياب ، إنما الحل في قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَتَدَبُّرِ القرآن وفهم ألفاظ ومعانيه ، ومعرفة أحكامه ، ومُواجهة شهوات النَّفْسِ ، وتطهير القلب والجسم . وَكُلُّ هذه العبادات العظيمة تَهْدَفُ إلى بناء شخصية النَبِيِّ ﷺ على الصَّعِيدَيْنِ الرُّوحِيِّ والماديِّ ، كي يَتِمَّكَّنَ من مُواجهة التَّحَدِّياتِ ، والثبات أمام الشَّدائد والمصائب ، والانتصار على أعدائه معنويًّا وماديًّا .

إِنَّ اللَّهَ تعالى كان يُهَيِّئُ النَبِيَّ ﷺ لحمل الوَحْيِ الإلهيِّ ، والاضطلاع بمسؤولية تبليغه ، ونشر الدعوة الإسلامية. والشخصُ الضعيف لا يَقْدِرُ على فعل هذا. إذن، لا بُدَّ مِنْ بناء شخصية النَبِيِّ ﷺ وتقويته بالإيمان وكثرة العبادة والصبر عَلَيْهَا . وَمَنْ يَصْبِر على العبادة الشاقّة ، وَيُصارع شهواته ، وَيَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا ، سَيَصْبِر في ظروف الحياة الصَّعبة ، وَيَقْدِرُ على مُواجهة أقسى الظروف ، وألَدِّ الأعداء ، وَيَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا وَعَلَيْهِمْ .

إن كثرة العبادة هي الطريق لبناء شخصية النبي ﷺ ، وتأهيله للقيام بتبليغ الوحي الإلهي . أمّا النوم والاختباء تحت الثياب ، فلا فائدة منهما ، ولَنْ يَصْنَعَا قَائِدًا عَظِيمًا .

وقد قام النبي ﷺ بتبليغ رسالة السماء على أكمل وجه ، وأوصل الوحي الإلهي إلى الإنس والجن بلا زيادة ولا نقصان ، وطَبَّقَ أوامر الله على أرض الواقع . وكانت أقوال النبي ﷺ وأفعاله خاضعة للوحي . وكان منهج الدعوة المحمدية الإسلامية وَسْطِيًّا بلا إفراط ولا تفريط . لقد أدى النبي ﷺ أمانة التبليغ بلا كسل ولا تقصير . فاستحق أن يكون أعظم الأنبياء والمرسلين .

وصدّق الشاعر إذ يقول :

لَا تَحْسَبِ الْمَجْدَ تَمَرًا أَنْتَ آكِلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَا

وما أجمل قول المتنبّي :

لَا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ لِمَا يَشُقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالُ

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [الْمُزَّمِّل : ٦] .

ناشئة الليل هي ساعات الليل وأوقاته ، لأن أوقاته تنشأ أولاً فأولاً . والمقصود قيام الليل (القيام بعد النوم) حيث التفرغ للعبادة والهدوء والسكينة بلا ضجيج ولا إزعاج . هذا الأمر يُساعد على التوفيق بين اللسان والقلب . فاللسان الذاكر يرتبط بشكل وثيق مع حضور القلب ، ممّا يُساعد على قراءة القرآن بخشوع ، وتدبّر معانيه .

والنفس البشرية في الليل الهادي الساكن ، تنشأ (تنهض) من مضجعتها للعبادة ، وهذا الوقت أفضل من النهار الممتلئ بالضجيج وحركة الناس .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٩٠ و ٣٩١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ ، قال ابن مسعود وابن عباس : هي قيام الليل بلسان الحبشة . وهل هي في وقت مخصوص من الليل أم في جميعه ، فيه قولان : أحدهما أنها في جميع الليل ، وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال : الليل كُلُّه ناشئة . وإلى هذا ذهب اللغويون . قال ابن قتيبة : ناشئة الليل ساعاته الناشئة ، مِنْ نَشَأَتْ إِذَا ابْتَدَأَتْ . وقال الرَّجَاج : ناشئة الليل ساعات الليل ، كُلُّ ما نشأ منه ، أي : كُلُّ ما حَدَثَ . وقال أبو علي الفارسي : كأن المعنى إِنَّ صَلَاةَ ناشئة أو عمل ناشئة الليل . والثاني

أنها في وقت مخصوص من الليل ، ثُمَّ فيه خمسة أقوال : أحدها أنها ما بين المغرب والعشاء ، قاله أنس ابن مالك . والثاني أنها القيام بعد النوم ، وهذا قول عائشة وابن الأعرابي ، وقد نصَّ عليه أحمد في رواية المروزي . والثالث أنها ما بعد العشاء ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة وأبو معجلز . والرابع أنها بدء الليل ، قاله عطاء وعكرمة . والخامس أنها القيام من آخر الليل ، قاله يمان وابن كيسان)) اهـ .

وروى أبو داود في سننه (١ / ٤١٦) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((...))
 ﴿ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ ﴾ أَوَّلُهُ . وكانت صلاتهم لأول الليل)) .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ قال : ((هِيَ بِالْحَبَشِيَّةِ قِيَامُ اللَّيْلِ)) (62) .

أراد أن الكلمة عربية ، ولكنها شائعة في كلام أهل الحبشة ، ومُنْتَشِرَةٌ بينهم . والجدير بالذكر أن كُلَّ ما في القرآن موجود في لغة العرب . ومن المُحَال أن يُخَاطَبَ الله العرب بكلام غير عَرَبِيٍّ ، فحينئذٍ ، لَن يَفْهَمُوا شَيْئًا ، وَيُصْبِحَ الْوَحْيُ عَبَثًا بِلَا مَعْنَى . كما أَنَّ الْمَشْرِكِينَ سَيَطْعَنُونَ فِي الْقُرْآنِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَهُ بِسَبَبِ وَجُودِ كَلِمَاتٍ لَا تَنْتَمِي إِلَى لُغَتِهِمْ . وهذا لَم يَحْدُثْ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْقُرْآنِ هُوَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ فَهَمُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهِمْ بِدُونِ مُشْكَلَاتٍ وَلَا عَوَاقِقٍ وَلَا تَرْجُمَةٍ .

﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ . صلاة الليل أشدُّ على الْمُصَلِّيِّ وأثقل من صلاة النهار ، لأنَّ الليل جُعِلَ لِلرَّاحَةِ وَالْهَدْوِ وَالنَّوْمِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ صَلَاةَ اللَّيْلِ تَحْتَاجُ إِلَى جُهْدٍ جَبَّارٍ ، وَإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَيَقِينٍ ثَابِتٍ . لِذَلِكَ مِنْ ثَمَرَاتِ صَلَاةِ اللَّيْلِ أَنَّهَا تُقَوِّي الرُّوحَ وَالْجِسْمَ . وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِمُوَاجَهَةِ أَعْدَاءِ الْحَقِّ . وَالآيَةُ تُبَيِّنُ فَضْلَ صَلَاةِ اللَّيْلِ عَلَى صَلَاةِ النَّهَارِ ، وَأَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ قَدْرَ الْإِسْطَاعَةِ ، لِأَنَّ فَضْلَهَا أَعْظَمَ ، وَأَجْرُهَا أَكْبَرُ .

﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ . إِنَّ النَّهَارَ يَمْتَلِي بِالْإِزْعَاجِ وَالضَّجِيجِ وَحَرَكَةِ النَّاسِ . أَمَّا اللَّيْلُ ، فَتَهْدَأُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ ، وَيَزُولُ الضَّجِيجُ ، وَتَعُمُّ السَّكِينَةُ . فَالْإِيلُ هُوَ وَقْتُ الْفَرَاغِ عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِالْمَعَاشِ ، لِذَلِكَ عِبَادَةُ اللَّيْلِ تَدُومُ وَلَا تَنْقُطُ ، وَهِيَ أَثْبَتُ وَأَبْنَى قَوْلًا ، وَأَفْضَلُ لِحَضُورِ الْقَلْبِ ، وَالتَّرْكِيزِ ،

(٦٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٩) برقم (٣٨٦٦) وصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

وقراءة القرآن بخشوع وتدبر دون تشويش على الحواس ولا تشتيت للذهن . فالليل هادئ وساكن ، ولا شيء يُشوّش على المُصلي ، أو يُعكّر صفاء ذهنه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٩٢) : ((أي أخلص للقول وأسمع له ، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات ، فتخلص القراءة ويفرغ القلب لفهم التلاوة فلا يكون دُون سَمْعِهِ وَتَفْهَمِهِ حائل)) . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ [المزمل : ٧] .

إنَّ لك يا محمد في النهار تصرفاً في شؤونك ، واشتغلاً بحوائجك ، وذهاباً ومجيئاً . فالنهار يُشير إلى النشاط والحركة وقضاء الحوائج وتلبية الطلبات . فعليك يا محمد أن تملأ الليل بالعبادة والصلاة وقراءة القرآن ، لأنك في النهار لن تتفرغ للقيام بأداء هذه العبادات .

وبعبارة أخرى ، اجعل النهار للتصرف في أعمالك ، وقضاء حوائجك ، واجعل الليل لعبادة الله تعالى . فالليل محل الفراغ والهدوء ، حيث يهدأ الناس ، وتسكن الأصوات .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥٦) : ((تَقَلُّبًا فِي مُهِمَّاتِكَ ، واشتغلاً بها ، فعليك بالتَّهَجُّدِ فَإِنَّ مُنَاجَاةَ الْحَقِّ تَسْتَدْعِي فِرَاقًا)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٩٢) : ((أي فراغاً لتومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك . قاله ابن عباس وعطاء)) اهـ .

لقد وضَّح الله مُقَدِّمَاتِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، والأركان التي يقوم عليها التبليغ . وكُلُّ التوجيهات الإلهية هي تمهيد ، كي يحمل النبي ﷺ أعباء الرسالة بقوة واقتدار ، ويضطلع بمسؤولية نشر الدعوة بكفاءة وثبات ويقين .

قال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٨] .

أَكْثَرُ يا محمد مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ مَعَ التَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وانقطع إليه انقطاعاً بالاشتغال بعبادته ، ولا تُشْرِكْ بِهِ ، وَكُنْ مُخْلِصًا لَهُ ، وَتَفَرَّغْ لَطَاعَتِهِ ، واجتهد في العبادات والطاعات بدون كسل ولا ملل ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ بِشَكْلِ كَامِلٍ ، ولا تعتمد على غيره . فالله كافيك ومؤيدك .

والتَّبَتُّلُ هو الانقطاع . لذلك قِيلَ لِلسَّيِّدَةِ مَرْيَمَ — عَلَيْهَا السَّلَامُ — الْبَتُولَ ، لأنها انقطعت عن الزواج إلى عبادة الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٥٨) : ((أي : أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِهِ ، وانقطع إليه ، وَتَفَرَّغْ لعبادته إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ أَشْغَالِكَ ، وما تحتاج إليه مِنْ أُمُور دُنْيَاكَ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٦) : ((« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ » وَدُمْ عَلَى ذِكْرِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا . وَذِكْرُ اللَّهِ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يُذَكَّرُ بِهِ : تَسْبِيحٌ ، وَتَهْلِيلٌ ، وَتَمْجِيدٌ ، وَتَحْمِيدٌ ، وَصَلَاةٌ ، وَقِرَاءَةُ قُرْآنٍ ، وَدِرَاسَةٌ عِلْمٌ . « وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » وَانْقَطِعْ إِلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ وَجَرَّدْ نَفْسَكَ عَمَّا سِوَاهُ)) .

وقال الله تعالى : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » [الْمُرَّمَل : ٩] .
 الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، الْمُتَصَرِّفُ وَخَدَهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ . لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْبَدَ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ ، فَهُوَ وَخَدَهُ الْمَعْبُودُ بِحَقِّ . فَاعْتَمِدْ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ فِي كُلِّ شَأْنٍ وَأَحْوَالِكَ ، وَسَلِّمْ أَمُورَكَ لَهُ ، فَهُوَ الْقَائِمُ بِهَا ، الْكَافِي بِمَا وَعَدَكَ . وَمَنْ صَدَّقَ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، خَضَعَ لَهُ ، وَانْقَطَعَ بِعَمَلِهِ إِلَيْهِ . وَتَفَرَّدَ اللَّهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ يَقْتَضِي أَنْ تُوَكَّلَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ . فَهُوَ الْمَسِيطِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ . وَاللَّهُ هُوَ الْقَيِّمُ بِأُمُورِكَ يَا مُحَمَّدُ ، فَفَوِّضْ إِلَيْهِ شَأْنَكَ ، وَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى غَيْرِهِ .
 وَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا قَالَ فَعَلْ ، صَادَقَ مُنْزَرَةً عَنِ الْكَذِبِ وَالْعَجْزِ ، لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ، وَلَا يُغَيِّرُ كَلَامَهُ .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٥٨) : ((أَيُّهُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . وَكَمَا أَفْرَدَتْهُ بِالْعِبَادَةِ فَأَفْرَدَهُ بِالتَّوَكُّلِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » [الْمُرَّمَل : ١٠] .
 اصبر يا محمد على أذى المشركين (كفار مكة) وسُخْرِيَتِهِمْ وَشَتْمِهِمْ ، وَاتَّهَامَاتِهِمُ الْبَاطِلَةَ لَكَ (ساحر ، كاهن ، مجنون ، شاعر) ، وَلَا تَيَأَسْ مِنْ دَعْوَتِهِمْ ، وَلَا تَمْتَنِعْ عَنْ إِرْشَادِهِمْ ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ بِأَذَى وَلَا شَتِيمَةٍ ، وَجَانِبُهُمْ بِقَلْبِكَ ، وَقُمْ بِمُدَارَاتِهِمْ ، وَاتْرُكْ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ . وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ .

والهَجْرُ الْجَمِيلُ هُوَ الَّذِي لَا جَزَعَ فِيهِ وَلَا عِتَابَ . وَفِي الْهَجْرِ الْجَمِيلِ تَجَلَّى الْمُدَارَاةُ ، وَاللَّيْنُ ، وَعَدَمُ الصَّدَامِ .

وفي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (١٩ / ٥٨) : ((قَالَ الْمَفْسُورُونَ : ... وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » [الْأَنْعَام : ٦٨] . ثُمَّ أُمِرَ ﷺ بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ . وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ قَلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ ، فَأُمِرُوا بِالصَّبْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ اللَّيْلِيَّةِ ، حَتَّى يُعِدُّوا أَنْفُسَهُمْ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَحَتَّى يَكْثُرَ عَدَدُهُمْ فَيَقْفُوا فِي وَجْهِ الطَّغْيَانِ ، أَمَّا قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ فَيَنْبَغِي الصَّبْرُ وَالِاقْتِصَارُ عَلَى الدَّعْوَةِ بِاللِّسَانِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [الْمُرُؤَل : ٢٠] .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ يَا مُحَمَّد أَنَّكَ تَمَثَّلُ أَمْرَهُ ، وَتُصَلِّي وَأَصْحَابُكَ فِي اللَّيْلِ بِكُلِّ نَشَاطٍ وَاجْتِهَادٍ . يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ أَنَّكَ يَا مُحَمَّد تَقُومُ مَعَ أَصْحَابِكَ لِلصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ أَقْلَ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ ، وَتَارَةً نِصْفَهُ ، وَتَارَةً ثُلُثَهُ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٦٤) : ((وذلك كُلُّهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْمُواظَبَةِ عَلَى مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، لِأَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ)) اهـ . وكلمة " أدنى " تعني أقل ، لأن الأقرب إلى الشيء أقل منه .

والمؤمنون كانوا يقومون مع النبي ﷺ خضوعاً لأمر الله تعالى ، وهذا يدل على قُوَّةِ إيمانهم ، وحِرْصهم الشديد على تطبيق أوامر الله ، وعدم تَرْكِ النبي ﷺ وحيداً . فَهُمْ أَصْحَابُهُ وَتَلَامِيذُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ ، السَّائِرُونَ عَلَى مِثْلِهِ ، الَّذِينَ لَا يُخَالِفُونَهُ فِي صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ . فالنبي هو المَثَلُ الْأَعْلَى ، وَالْقُدْوَةُ السَّامِيَّةُ ، وَأَصْحَابُهُ يَسِيرُونَ عَلَى خُطَاهُ ، وَيَقْتَدُونَ بِهِ ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ لِلتَّأْسِي بِهِ . وكثيرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَمْ صَلَّى مِنَ اللَّيْلِ ، فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ احتياطاً ، وَخَوْفاً مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ كَانَ شَدِيداً عَلَيْهِمْ ، خُصُوصاً أَنَّهُمْ يَقْضُونَ النَّهَارَ فِي السَّعْيِ وَالْعَمَلِ وَتَحْصِيلِ الرِّزْقِ . وَالآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ كَانَ فَرْضاً عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ . وَقَدْ قَامُوا بِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ .

وَقِيَامُ اللَّيْلِ يُعَلِّمُ الْإِنْسَانَ الْقُوَّةَ وَرِبَاطَةَ الْجَأَشِ وَالصَّلَابَةِ ، وَيَزْرَعُ الْبَقِيَّةَ فِي الْقَلْبِ ، وَيُقَوِّي الْبَدَنَ . فَالْإِنْسَانُ يَتْرِكُ حَيَاةَ الرَّفَاهِيَةِ وَالنُّعُومَةِ ، لِيَعِيشَ حَيَاةَ الصَّلَابَةِ وَالْخَشُونَةِ ، وَهَذَا يَصْنَعُ الْقَادَةَ الْأَقْوِيَاءَ ، الْوَاتِقِينَ بِاللَّهِ ، وَالْقَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ فِي أَقْسَى الظُّرُوفِ ، وَالْقِيَامِ بِأَصْعَبِ الْمِهْمَاتِ ، وَالْوُقُوفِ فِي وَجْهِ الصَّعُوبَاتِ وَالتَّحْدِيَّاتِ الْجَسِيمَةِ .

وقال الصابوني في صفوة التفسير (١٩ / ٦٠) : ((الْآيَةُ نَصٌّ صَرِيحٌ عَلَى أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِباً عَلَى الرَّسُولِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ ، وَقَدْ كُتِبُوا أَنْ يَقُومُوا سَاعَاتٍ مِنَ اللَّيْلِ طَوِيلَةً ، لَا تَقِلُّ عَلَى ثُلُثِهِ ، وَلَا تَزِيدُ عَلَى ثُلُثَيْهِ ، فَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ وَإِحْيَاءَهُ بِأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، مِنْ ذِكْرِ ، وَصَلَاةٍ ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، يَقْوِي أَبْدَانَهُمْ ، وَيُزَكِّي أَرْوَاحَهُمْ ، وَيُعَوِّدُهُمُ الْخَشُونَةَ فِي الْعَيْشِ ، وَاجْتِنَابَ مَا عَلَيْهِ الْمُتَرَفُّونَ مِنَ الرَّاحَةِ وَالرَّخَاوَةِ وَالْإِنْعِمَاسِ فِي الْمَلَذَّاتِ . كَلَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ لِيُعِدَّهُمْ إِعْدَاداً رُوحِيّاً وَجِسْمِيّاً ، لِلْقِيَامِ بِأَعْيَاضِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ فِي سَبِيلِ نَشْرِ هَذَا الدِّينِ ، وَبِإِلَهِهَا مِنْ تَرْبِيَةِ كَرِيمَةٍ مُجِيدَةٍ ، تُنْشِئُ الرِّجَالَ وَالْأَبْطَالَ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ٥١٢) أن سعد بن هشام قال : فقلتُ : يا أُمّ المؤمنين أنبئيني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ ، قالت : ((أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟)) ، قلتُ : بلى . قالت : ((فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)) ، قال : فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ وَلَا أَسْأَلَ أَحَدًا عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَمُوتَ ، ثُمَّ بَدَأَ لِي فَقُلْتُ : أَنْبِئِي عَنِ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقالت : ((أَلَسْتَ تَقْرَأُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمَلُ ﴾ ؟)) ، قلتُ : بلى ، قالت : ((فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتِمَتَهَا اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ)) .

لقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، وَيَعْرِفُ أَحْكَامَهُ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْقُرْآنِ وَلَا يَتَجَاوِزُهَا ، وَهَذَا مَعْنَى أَنَّ خُلُقَهُ كَانَ الْقُرْآنَ .

وَكَانَ قِيَامُ اللَّيْلِ فَرَضًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَقَامُوا سَنَةً امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ ، وَجَعَلَ قِيَامَ اللَّيْلِ فَرَضًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَحْدَهُ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرِبَاطَةِ جَاشِهِ ، وَشِدَّةِ بَاسِهِ ، وَقُوَّةِ تَحَمُّلِهِ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٦ / ٢٦) : ((قَوْلُهَا : " فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ " مَعْنَاهُ : الْعَمَلُ بِهِ ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِهِ ، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ، وَالاعْتِبَارُ بِأَمْثَالِهِ وَقَصَصِهِ ، وَتَدَبُّرُهُ ، وَحُسْنُ تِلَاوَتِهِ . قَوْلُهَا : " فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ " هَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ صَارَ تَطَوُّعًا فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْأُمَّةِ . فَأَمَّا الْأُمَّةُ فَهِيَ تَطَوُّعٌ فِي حَقِّهِمْ بِالْإِجْمَاعِ . وَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَاخْتَلَفُوا فِي نَسْخِهِ فِي حَقِّهِ ، وَالْأَصَحُّ عِنْدَنَا نَسْخُهُ . وَأَمَّا مَا حَكَاهُ الْقَاضِي عِيَّاضُ مِنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِسْمُ وَلَوْ قَدَّرَ حَلَبُ شَاةٍ ، فَعَلَطَ ، وَمَرْدُودُ الْإِجْمَاعِ مَنْ قَبْلَهُ مَعَ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُ لَا وَاجِبَ إِلَّا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ)) اهـ .



الفصل الثاني عشر
جَزَاء مَنْ يُشَاقِقُ الرَّسُولَ

تمهيد

الرسول محمد ﷺ ليس شخصاً عادياً . إنه أعظمُ الأنبياء والمرسلين . وهو لا يُمثلُ نفسه ، ولا يتحدَّثُ بآرائه الشخصية . إنه المتحدِّثُ باسمِ الله تعالى . وأقوالُ الرسول ﷺ وأفعاله خاضعةٌ للوحي الإلهي ، وهو ﷺ لا يأتي بشيء من عنده . لذلك من ردِّ كلامِ الرسول ﷺ ، هو في الحقيقة يَرُدُّ على الله ويرفض أوامره . ومن يُنازع الرسول ﷺ ، إنما يتمرَّد على الخالقِ - سبحانه وتعالى - . إذن ، فالأمرُ غايةً في الخطورة ، وكُلُّه جد ، ولا يحتملُ الهزل ولا المزاح ولا اللعب .

والرسول ﷺ لا يأمر إلا بالخير والصالح ، ولا ينهى إلا عن الشر والفساد . فلا معنى لمعارضته أو مخالفته . ولو كان الرسول ﷺ - وحاشاه - يدعو إلى الشر أو مساوئ الأخلاق ، لقلنا إنَّ الناسَ حريصون على الهدى والاستقامة ، لذلك يُعارضون كلامه ، ويقفون ضِدَّه ، ويحدِّثون الناسَ منه . وهذا غير منطقي ولا واقعي .

فالرسول ﷺ يدعو إلى الطريق المستقيم ، والخير ، ومكارم الأخلاق ، والمجد ، والرِّفعة ، والنجاح في الدنيا ، والفلاح في الآخرة . ولا يوجد شخص عاقل يُعارض هذه المفاهيم ، ويُخالِفها .

لقد جاء الرسول ﷺ لإنقاذ الناس من النار ، وقيادتهم إلى الجنة (النعيم الأبدي) . فالواجبُ على الناس أن يشكروه ، ويتمسكوا بتعاليمه ، لأنه مُنقذهم من العذاب ، ومُخلِّصهم من الهلاك . إنَّ الرسول ﷺ قد أحسنَ إلى الناس ، فهو النعمةُ الإلهية العظيمة . والنُّفوسُ مَجبولةٌ على حُبِّ مَنْ أحسنَ إليها . وينبغي أن يُترجم الحب إلى اتباع على الصَّعيدين القَوْلِي والفِعْلِي .

ولو أساء الرسول ﷺ إلى الناس - وحاشاه - لقلنا إنَّ الناسَ يكرهونه ويَهْرَبون منه ، ويُعادونه . وهذا لم يحدث . لقد أحسنَ الرسول ﷺ إلى الناس ، وساعدهم ، وأنقذهم ، وأرشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة . فيجب عليهم أن يُحبُّوه بالقول والفعل . وحُبُّ الرسول ﷺ لا يتجلى إلا في الالتزام بِسُنَّتِه كاملةً . وسوى ذلك فهو حُبٌّ باللسان فقط ، وهو حُجَّةٌ على صاحبه لا حُجَّةٌ له .

وبعد قيام الحُجَّة ووضوح الدليل ، لا تُقبَلُ مُعارضة الرسول ﷺ ، ولا مُخالفته . وكُلُّ مَنْ يُشاقِقُ الرسول ﷺ ، فالحُجَّةُ مُقامةٌ عليه ، وهو كافرٌ خالد في النار ، لأنه رافضٌ للوحي الإلهي ، وغارقٌ في العناد والجحود ، ومُتَّبِعٌ لأهوائه الذاتية ومصالحه الشخصية . وتاريخُ الرسول ﷺ واضحٌ

للجميع، لا تُوجد فيه مناطق غامضة، وهو تاريخٌ ناصعُ البياض ، لا تُوجد فيه أيُّ نقطة سوداء ، حتى يشكُّ الناسُ فيه أو يرتابوا في أمره . ولا يَرْفُضُ نُورَ الشمسِ إلا أعمى البصر والبصيرة .
 قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

ومن يخالف الرسول ﷺ ويُعَادِيهِ ، ويُفَارِقُهُ ، مِنْ بَعْدِ وَضُوحِ الْحُجَجِ ، ويُروِزُ البراهين ، وقيام الأدلة ، واتّضاحِ الحق والهدى أمام عَيْنِيهِ (تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله وأنه يدعو إلى الطريق المستقيم) ، وَيَتَّبِعْ طريقَ الضلال والكفر المعاكس لطريق المؤمنين (الإسلام) ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَرْيِيَنَ لَهُ هذا الانحرافَ استدراجًا لَهُ ، وَيَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ واختياره الفاسد ، وَيُخَذِّلُهُ وَلَا يَنْصُرُهُ ، وَيَتْرُكُهُ وما يَعْبُدُ ، فَيَشْقَى ، وَيَهْلِكُ ، وَيُدْخِلُهُ اللَّهُ نَارَ جَهَنَّمَ ، وساءت مَرْجَعًا وَمَوْضِعًا يَصِيرُ إِلَيْهِ مَنْ صَارَ إِلَيْهِ .

وهذا الشخصُ ليس جاهلاً . إذ إنه عارضَ الرسولَ ﷺ ، وأَبْغَضَهُ ، وعاداه ، بعد قيامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، ووضوحِ الأدلة والبراهين أمامه . فلا عُذْرَ لَهُ ، لَأَنَّ مُعَارَضَتَهُ للرسول ﷺ عَنْ عَمْدٍ مِنْهُ ، وليس عَنْ جَهْلٍ أَوْ حُسْنِ نِيَّةٍ .

وفي الدر المنثور (٢ / ٦٧٤) : ((وأخرج ابن المنذر عن الحسن " أن رجلاً على عهد رسول الله ﷺ اختانَ دِرْعًا من حديد ، فلما خَشِيَ أَنْ تُوجَدَ عِنْدَهُ أَلْقَاهَا فِي بَيْتٍ جَارٍ لَهُ مِنَ الْيَهُودِ وقال : تَزْعُمُونَ إِنِّي اخْتَنَنْتُ الدَّرْعَ _ فوالله _ لقد أُنبِئْتُ أَنَّهَا عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، فَرَفَعَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وجاء أصحابُهُ يَعْذِرُونَهُ ، فَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَذَرَهُ حِينَ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِ بَيِّنَةً ، وَوَجَدُوا الدَّرْعَ فِي بَيْتِ الْيَهُودِيِّ ... ، فَأُبرِئَ الْيَهُودِيُّ وَأُخْبِرَ بِصَاحِبِ الدَّرْعِ ، قال : قد افْتُضِحَتْ الْآنَ فِي الْمُسْلِمِينَ وَعَلِمُوا أَنِّي صَاحِبُ الدَّرْعِ ، ما لي إِقَامَةٌ ببلد ، فتراغم ، فَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾)) اهـ .

هذا الخائنُ هو طُعْمَةُ بن أُبَيْرِق . وقد حاولَ خِدَاعَ النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين والتلييسَ عَلَيْهِمْ ، لكنَّ اللَّهَ فَصَحَّهُ وَأَخْرَازَهُ . وقد قضى حياته مُنَافِقًا ، وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وماتَ كَافِرًا . والخِيانَةُ عَاقِبَتُهَا وَخِيْمَةٌ وَسَيِّئَةٌ لِلْغَايَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَكْذِيبِ طُعْمَةَ بن أُبَيْرِق ، وَبَيَانِ ظُلْمِهِ ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْقَطْعِ وَالْفُضِيحَةِ ، هَرَبَ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَحِقَ بِأَهْلِ الشَّرْكِ ، فَتَرَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ . هَذَا

قول ابن عباس وقتادة وابن زيد والسُّدي ... والقول الثاني أَنَّ قَوْمًا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَسْلَمُوا ، ثُمَّ ارْتَدُوا ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ . (رُوي عن ابن عباس)) اهـ .

وهذه الآية دليلٌ واضحٌ على حُجِّيَةِ الإجماع ، وحرمة مُخَالَفَتِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ رَتَّبَ الوعيدَ الشديدَ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ . وبما أَنَّ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِهِمْ مُحَرَّمٌ ، كَانَ اتِّبَاعُ سَبِيلِهِمْ وَاجِبًا . كما لا تجوز مُخَالَفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمَعَ بَيْنَ اتِّبَاعِ غَيْرِ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ مُشَاقَّةِ (مُعَادَاةِ) الرَّسُولِ ﷺ فِي الشَّرْطِ ، وَجَعَلَ الْجَزَاءَ عَلَى ذَلِكَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . وهكذا ، يَجِبُ اتِّبَاعُ الْمُؤْمِنِينَ كَاتِبِ الرَّسُولِ ﷺ .

وعلى المرء أن يلزم طريقَ النبوة لا يَتَنَكَّبُهَا ، وَيَتَمَسَّكُ بِكَلِمَةِ الْجَمَاعَةِ ، وَلَا يَشُقُّ عَصَا الطَّاعَةِ ، فَمَنْ شَدَّ شَدًّا فِي النَّارِ ، وَمَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً . فَلَأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَى ضَلَالَةٍ ، فَهِيَ مَعْصُومَةٌ عِصْمَةٌ عَامَةٌ ، وَهَذَا بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي شَرَّفَ أُمَّةَ رَسُولِهِ ﷺ تَكْرِيمًا لَهُ . وَبِالطَّبَعِ فَمُؤَافَقَةُ الْجَمَاعَةِ لَا تَنْفِي إِعْمَالَ الْعَقْلِ ، وَإِبْدَاءَ الرَّأْيِ ، وَالنَّقْدَ الْبَنَاءَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٣٦) : ((وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْإِحْتِجَاجِ عَلَى كَوْنِ الْإِجْمَاعِ حُجَّةً تَحْرُمُ مُخَالَفَتَهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، بَعْدَ التَّرْوِي وَالْفِكْرِ الطَّوِيلِ . وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَسْتِنْبَاطَاتِ وَأَقْوَاهَا ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ اسْتَشْكَلَ ذَلِكَ ، فَاسْتَعَدَّ الدَّلَالََةَ مِنْهَا عَلَى ذَلِكَ)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرک (٤ / ٥٥٢) وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ : عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : ((عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلِزُومِ جَمَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَجْمَعَ جَمَاعَةً مُحَمَّدٌ عَلَى ضَلَالَةٍ)) .

وهكذا تظهر أهمية لزوم الجماعة، وعدم الخروج عليها. وهذا لا يعني بحال من الأحوال تعطيل عقول الأفراد وتحولهم إلى أرقام لا وزن لها ضمن قطيع يسير بلا تفكير. بل يعني أهمية انخراط الفرد في الجماعة والالتحام بها خوفاً من سقوطه في الخطأ والخطيئة وانحرافه . فالجماعة هي الحاضنة التي تصون أبنائها وتحميهم من الفرقة والضياع . ومهما كان الفرد قوياً وواثقاً من نفسه فلا يقدر بمفرده أن يحقق أحلامه ، فلا بُدَّ مِنْ جَمَاعَةٍ يَنْتَمِي إِلَيْهَا ، وَتُدَافِعُ عَنْهُ .

وروى الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٢٤) وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ الْقَاصِيَةَ)) .

فالجماعة هي القوة المركزية التي تُوفّر الملاذ الآمن لأبنائها . وإذا ابتعد المرء عنها فلا بد أن يسقط ضحية نفسه والأطراف المترتبة به . فالذئب لا يتجرأ إلا على القاصية التي ابتعدت عن القطيع ، وصارت هائمةً بمفردها بدون حماية ولا إسناد .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ١٣] .

ذلك العذاب الرهيب واقع عليهم بسبب عداوتهم لله ورسوله ﷺ ، ورفض أوامرهما ، وكفرهم ، وجحودهم وعنادهم .

ومن يرفض أوامر الله ورسوله ﷺ ، فإن الله سيُعاقبه بعذابٍ شديدٍ لا طاقة له به ، في الدنيا والآخرة معاً . وعذاب الدنيا يتجلى في المصائب والكوارث ، وغياب النعم ، وكثرة النقم . وعذاب الآخرة هو الخلود في نار جهنم .

والآية ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إظهار في موضع الإضمار لتعظيم الله ، واحترام رسوله ﷺ ، وضرورة تقديس أوامرهما والالتزام بها ، وبيان فُبح الجريمة التي أقدم عليها المشركون ، وهي مُعاداة الله ورسوله ﷺ ، ومُخالفتهم ، ومُعَارضة أوامرهما .

والعذاب المقصود في هذا السياق يتضح في الآية السابقة: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

فالأمر الإلهي جاء للملائكة _ يوم بدر _ بأن يُثَبِّتُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَيُكَثِّرُوا سَوَادَهُمْ ، وَيَشُدُّوا مِنْ عَزِيمَتِهِمْ . والله تعالى سَيُلْقِي الْخَوْفَ وَالتَّرَدُّدَ وَالْارْتِبَاكَ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، فَتَنْهَارَ مَعْنَوِيَاتِهِمْ ، وَتَتَسَاقَطَ عَزِيمَتُهُمْ .

وقد أمر الله الملائكة أن يضربوا على أعناق الكافرين وعلى أطراف الأصابع ، حتى تسقط السيوف . فالمقاتل إذا خسر أصابعه توقف عن القتال وخسر حياته ، إمَّا قَتْلًا أَوْ أُسْرًا . فالأطراف هي العنصر الأساسي في الأداء القتالي في كل المعارك ، فإذا زالت زال خطر العدو ، وانكسر جيشه .

والمعنى: هذا العذاب الواقع على الكافرين (الضَّرْبُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ، وَضَرْبُ كُلِّ بَنَانٍ مِنْهُمْ) ، جزاء لهم بسبب عداوتهم لله ورسوله ﷺ ، وعقوبة لهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٩٣) : ((**﴿ ذَلِك ﴾** إشارة إلى الضَرْب أو الأمر به ، والخطابُ للرسول ﷺ ، أو لكل أحد من المخاطبين . **﴿ بَأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾** بسبب مُشَاقَّتِهِمْ لهما . واشتقاقه من الشَّق ، لأنَّ كُلاً من المُتَعَادِينَ في شَقِّ خِلافِ شَقِّ الْآخَرِ ، كَالْمُعَادَاةِ مِنَ الْعُدُوِّ ، وَالْمُخَاصَمَةِ مِنَ الْخُصْمِ وهو الجانب . **﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾** تقرير للتعليل ، أو وعيد بما أعدَّ لهم في الآخرة بعد ما حاقَّ بهم في الدنيا)) اهـ

وقال الله تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾** [مُحَمَّد : ٣٢] .

إنَّ الذين جحدوا آياتِ الله ، وأنكروا التوحيد ، ورفضوا أوامر الله ، ومنعوا الناس من دخول الإسلام ، وعادوا الرسول ﷺ ، وخالفوه ، وحاربوه من بعد قيام الحُجَجِ عَلَيْهِمْ ، ووضح الأدلة والبراهين أمامهم ، ويَقِينُهُم التام وعلمهم الأكيد بأنَّ محمداً رسولُ الله حقاً وصدقاً ، بما شاهدوا من المعجزات الظاهرة ، ويدعو إلى الهدى والطريق المستقيم ، لَنْ يُلْحِقُوا الأذى بالله تعالى ، وَلَنْ يُسَبِّبُوا له أيَّ ضرر . فالله ناصرُ رسوله ﷺ ، ومؤيِّده على أعدائه . والله تعالى لا تضرُّه المعاصي والكفر ، ولا يتأثر بآثام الناس وضلالهم . والكافر يضرُّ نفسه بتركه الإيمان وإصراره على الكفر ، ولا يضرُّ خالقه . فالله أعلى وأجل وأعظم من المخلوق العاجز الضعيف . **﴿ وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾** وسيُطِلُّ الله أَعْمَالَهُمْ ، وَلَنْ يَمْنَحَهُم الأجرَ عَلَيْهَا في الآخرة . والكافر سيأتي يوم القيامة صِفْرَ اليَدَيْنِ . وَلَنْ يَسْتَفِيدَ من أعماله التي ظاهرها الصلاح كإطعام الطعام ، ومساعدة الناس ، وإغاثة الملهوف ، وإكرام الضيف ... إلخ ، لأنها أعمال قائمة على نيَّة باطلة ، وقائمة على الكفر لا الإيمان . وما بُنيَ على باطل فهو باطل .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٩) : ((**﴿ وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾** أي : يُبْطَلُها . والمراد بهذه الأعمال ما صُوِّرتْه صورة أعمال الخير ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير ، وإن كانت باطلة من الأصل ، لأنَّ الكفر مانع . وقيل : المراد بالأعمال المكائد التي نصبوها لإبطال دين الله ، والغوائل (الدواهي) التي كانوا ييغونها برسول الله ﷺ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٩٦) : ((**﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾** هم قُرَيْظَةُ والنَّضِير ، أو الْمُطْعِمُونَ يوم بدر . **﴿ لَنْ يَضُرُّوا**

اللَّهُ شَيْئًا ﴿ يَكْفُرُهُمْ وَصَدَّهُمْ ، أَوْ : لَنْ يَضُرُّوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِمُشَاقَّتِهِ . وَحُذِفَ الْمُضَافُ لِتَعْظِيمِهِ
وَتَفْظِيعِ مُشَاقَّتِهِ . ﴿ وَسِيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ثَوَابَ حَسَنَاتِ أَعْمَالِهِمْ بِذَلِكَ ، أَوْ مَكَايِدِهِمُ الَّتِي نَصَبُوهَا
فِي مُشَاقَّتِهِ ، فَلَا يَصِلُونَ بِهَا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ ، وَلَا تُثْمِرُ لَهُمْ إِلَّا الْقَتْلَ وَالْجَلَاءَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ)) اهـ .

الفصل الثالث عشر أدبُ المؤمنين معه

تمهيد

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ليس زَمِيلَكَ في العمل ، أو أستاذكَ في الجامعة ، أو واحد من الجيران في منطقة سكنك ، أو صديقكَ الذي تَسهر معه . فهو يَمْلِكُ وضعًا خاصًا للغاية . واعتمادًا على هذا الوضع المختلف عن الناس يجب التعامل معه بدقة شديدة، وأدبٍ جَم ، وانتباه إلى الأفعال والأقوال . فصاحبُ المكانة الرفيعة ينبغي أن يكون له احترامٌ خاص ، ليس بدافع التكبر ، بل التأدب .

وَلَوْ كَانَ الإنسانُ أمامَ مَلِكٍ من ملوك الدنيا ، أو وزير ، أو رئيس جامعة ، أو مدير في دائرة حكومية ، لَفَكَّرَ ألفَ مرة قبل أن يقول آيَّةَ كلمة، وأحصى سَكَناته وحركاته بكل انتباه ودقَّة ، وخافَ أن تُحسَبَ عليه آيَّةُ كلمة ليست في موضعها . فما بَالُكَ بالنبيِّ ﷺ أعظم الأنبياء والمرسلين ، الذي يُنزلُ عَلَيْهِ أعظمُ الملائكة جبريل _ عليه السلام _ بأمرِ الله مَلِكِ الملوك ؟ .

فلا بُدَّ من التأدب في خُصْرَتِهِ ، ومعرفة أسلوب الخطاب اللائق أمام هذا الرسول الخاتم مبعوث العناية الإلهية ، وينبغي التعامل معه بتعظيمٍ وأدبٍ واحترامٍ .

وقد شَدَّدَ الخطابُ القرآنيُّ على أهمية أدب التعاملات مع النبيِّ ﷺ ، لِمَا في ذلك من تَوْقِيرٍ لأوامر الله تعالى ، واحترامٍ للرسالة المحمَّدية .

وتعظيمُ النبيِّ ﷺ إنما هو تعظيمُ الله تعالى ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَتَحَدَّثُ باسمه ، بل يَتَحَدَّثُ باسمِ الله . والنبيُّ ﷺ لا يأتي بشيء من عنده . لقد جاءَ حاملًا كلمةَ الله لنشر الوحي الإلهي بين الناس . وهذا يدل على أنَّ الأمر كُلَّهُ جد ، ولا يَحْتَمِلُ المزاح أو الهُزْل .

والأدبُ مع النبيِّ ﷺ ليس مُجَامَلَةً اجتماعيةً، وإنما دينٌ وأخلاقٌ، والتزامٌ بالشرعية الإسلامية . والعلاقة التي تربط المؤمنين بالنبيِّ ﷺ ليست علاقةً اجتماعيةً رُوتينيةً عابرةً . إنها عقيدةٌ ومنهاجُ حياة ، ومسارٌ وُجوديٌّ ، ومَصِيرٌ حتميٌّ .

لذلك ينبغي التأدبُ مَعَ النبيِّ ﷺ حَيًّا وَمَيِّتًا ، لأنَّ حُرْمَةَ النبيِّ ﷺ بعد موته كَحُرْمَتِهِ حَيًّا . لا فَرْقَ بينهما . والأدبُ مَعَ النبيِّ ﷺ مجالٌ واسعٌ ومُتَشَعِّبٌ . فعلى سبيل المثال لا الحصر . يَجِبُ خفضُ الصَّوْتِ في خُصْرَتِهِ ، وعدم الانصراف بدون إذنه . ولا بُدَّ من الخضوع لكلامه ، وتنفيذ أحكامه ، لأنَّه المُبَلِّغُ عن الله تعالى . والنبيُّ ﷺ هو القائد الأمين ، والزعيم المُخْلِصُ ، جاءَ لإنقاذ الناس ، ولم يَجِئْ لتحقيق مصالح شخصية أو تحقيق أرباح مادية . لذلك ، تجب الثقة به ، واحترامه ، والسَّيرُ على خُطاه . فهو على الطريق المستقيم ، يدعو إلى الخير وسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٦٢] ^(١).

هنا تظهر حقيقة الإيمان وتطبيقاته العملية . فالمؤمنون الحقيقيون الذين عَرَفُوا حَقَّ الإيمان ، هم الذين أَقْرَبُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَصَدَّقُوا بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وإذا كانوا مَعَ الرسول ﷺ على أمرٍ يَجْمَعُهُمْ كَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ والعِيدَيْنِ ، أو حَرْبٍ ، أو مَشُورَةٍ ، لَمْ يَتْرَكُوهُ وَحِيدًا ، وَلَمْ يَنْصَرَفُوا إِلَّا بَعْدَ اخْتِيارِ الإِذْنِ مِنْهُ . لقد أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الانْصِرَافِ ، وهنا يتجلى احترامُ الرسول ﷺ وتقديرُهُ ، والاعترافُ بِهِ قَائِدًا وَمَرْجِعًا وَقُدُوةً سَامِيَةً وَمَثَلًا أَعْلَى . و ﴿ إِنَّمَا ﴾ تُفِيدُ الْحَصْرَ . يعني : لَا يَكْتَمِلُ إِيمَانُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِالْخُضُوعِ التَّامِّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا .

قال ابن كثير في تفسيره (٤٠٩ / ٣) : ((وهذا أيضًا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أَمَرَهُمُ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الدُّخُولِ ، كَذَلِكَ أَمَرَهُمُ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْدَ الانْصِرَافِ ، لَا سِيَّما إِذَا كَانُوا فِي أَمْرٍ جَامِعٍ مَعَ الرَّسُولِ _ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ _ مِنْ صَلَاةِ جُمُعَةٍ أَوْ عِيدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ أَوْ اجْتِمَاعٍ فِي مَشُورَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِئْذَانِهِ وَمَشَاوَرَتِهِ ، وَإِنْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ)) اهـ .

(١) في فتح الباري (١٢١ / ٦) : ((قال ابن التين : هذه الآية احتج بها الحسن على أنه ليس لأحد أن يذهب من العسكر حتى يستأذن الأمير . وهذا عند سائر الفقهاء كان خاصًا بالنبي ﷺ ، كذا قال . والذي يظهر أنَّ الخصوصية في عموم وجوب الاستئذان ، وإلا فَلَوْ كَانَ بِمَنْ عَيَّنَهُ الْإِمَامُ ، فَطَرَأَ لَهُ مَا يَقْتَضِي التَّخَلُّفَ أَوْ الرَّجُوعَ ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْاسْتِئْذَانِ)) اهـ . أمَّا سببُ نزول الآية ، ففي الدر المنثور (٢٢٩ / ٦) : ((أخرج ابن إسحق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي قالا : لَمَّا أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ عَامَ الْأَحْزَابِ ، نَزَلُوا بِمَجْمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ بَثْرِ رُومَةَ بِالْمَدِينَةِ ، قَائِدُهَا أَبُو سُفْيَانَ . وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ حَتَّى نَزَلُوا بِتَغْمِيمٍ إِلَى جَانِبِ الْأُحُدِ . وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَبْرُ ، وَضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَعَمِلَ فِيهِ ، وَعَمِلَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ ، وَأَبْطَأَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَجَعَلُوا يُؤْزِرُونَ بِالضَّعِيفِ مِنَ الْعَمَلِ ، فَيَتَسَلَّلُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا إِذْنٍ ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا نَابَتْهُ النَّائِبَةُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللَّحُوقِ لِحَاجَتِهِ فَيَأْذِنَ لَهُ ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ)) .

واستئذان الرسول ﷺ عند الانصراف دليل على كمال الإيمان ، لأنه تعظيم للرسول ﷺ واحترام له ، وتصديق بما جاء به . كما أن عملية الاستئذان تُميّز المؤمنين من المنافقين الذين كانوا يتسلّلون ويفرّون من مجلس الرسول ﷺ . ولا شك أن الخروج بدون استئذان الرسول ﷺ جريمة شنيعة وذنب عظيم ، لذلك جعل الله عملية الاستئذان في المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله ﷺ .

وهكذا تتضح أهمية الاستئذان من الرسول ﷺ عند الانصراف ، وهذه الخصلة الحميدة تدل على تماسك الجماعة الإسلامية ، ودور قائدها في ضبط أمورها ، وولاء الأتباع لإمامهم والالتفاف حول قيادته ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

وَلَوْ حَضَرَ النَّاسُ وَغَادَرُوا بِلَا اسْتِئْذَانٍ لَعَمَّتِ الْفُوضَى ، وفقدت القيادة مركزية الانضباط والتوجيه ، واختلط المؤمنون بالمنافقين ، وانتشرت الظنون السيئة ، والإشاعات المغرضة . وقد تظهر حاجة ملحة إلى وجود شخص ما ، وفي حال غيابه بلا استئذان فإن ذلك سيخلق فراغاً يؤثر سلباً على المنظومة الاجتماعية. إذن، فالقضية شديدة الأهمية، وليست مُجَامَلَةً اجتماعية، أو عملية روتينية بسيطة. إنَّ استئذان الرسول ﷺ منظومة دينية وأخلاقية واجتماعية في غاية الأهمية.

وقال البغوي في تفسيره (٦٦ / ١) : ((قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عُذر لم يخرج حتى يقوم بحياض رسول الله ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام يستأذن ، فيأذن لمن شاء منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يُشير بيده . قال أهل العلم : وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام ، لا يُخالفونه ، ولا يرجعون عنه إلا بإذن . وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له ، وإن شاء لم يأذن ، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام ، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحريض منهم امرأة ، أو يُجنب رجل ، أو يُعرض له مَرَض ، فلا يحتاج إلى الاستئذان)) اهـ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إن الذين يأخذون الإذن من الرسول ﷺ قبل انصرافهم ، طاعة لله ، واحتراماً للرسول ﷺ ، أولئك المؤمنون الحقيقيون الذين أقرّوا بوحداية الله وصدقوا بنبوّة محمد ﷺ قولاً وفِعْلاً ، وليس الذين يُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَيَنْصَرِفُونَ بِلَا إِذْنِ الرَّسُولِ ﷺ . ولا يكتمل ولا يَتِمُّ إيمانُ الشخص إلا إذا جَمَعَ بين الإيمان بالله

ورسوله ﷺ وبين الاستئذان . وهذا يدل على أن الاستئذان هو الركن الثالث من أركان الإيمان . وهكذا ، صار الاستئذان مصداقاً لصحة الإيمان ، وتمييزاً للمؤمنين عن المنافقين . و ﴿أُولَئِكَ﴾ تشير إلى تعظيم المستأذنين وتفخيم شأنهم ، فهم المؤمنون الحقيقيون الكاملون في إيمانهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٠٣) : ((فإنه يُفِيد أنَّ المُسْتَأْذِنَ مُؤْمِنٌ لَا مُحَالَةَ ، وَأَنَّ الذَّهَابَ بِغَيْرِ إِذْنٍ لَيْسَ كَذَلِكَ)) اهـ .

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ . إذا استأذن المؤمنون رسول الله ﷺ من أجل الانصراف لقضاء حوائجهم ، فمن حق الرسول ﷺ أن يأذن لمن شاء ، ويمنع من شاء ، وفق ما يراه مناسباً ، وحسب ما تقتضيه المصلحة التي يقدرها الرسول ﷺ . وهذا رفع لمكانة الرسول ﷺ ، وتعظيم لشأنه ، وإحالة الأمور إلى تقديره ﷺ ورأيه وحكمه . والآية تدل على تضيق الأمر ، وأن الانصراف عن الرسول ﷺ - ولو كان بعذر قوي - ليس سهلاً ولا بسيطاً .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . أرشد الله الرسول ﷺ إلى طلب المغفرة للمؤمنين ، لخروجهم عن الجماعة ، فالله كثير المغفرة ، عظيم الرحمة . والآية تشير إلى أن الاستئذان ولو كان بعذر قوي ، فهو أمر ذنبوي يؤثر على الآخرة ، لذلك يحتاج إلى استغفار . فالاستئذان - أولاً وأخيراً - تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين .

وقال النسفي في تفسيره (٣ / ١٥٨) : ((﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ ﴾ في الانصراف ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أمرهم . ﴿ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فيه رفع شأنه - عليه الصلاة والسلام - . ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الله إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذن . قالوا : وينبغي أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم مقدّمهم في الدين والعلم ، يُظاهرونهم ، ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن . قيل : نزلت يوم الخندق . كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان))

وقال الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الْحُجُرَات : ٧] .

يُخاطب الله الصحابة - رضي الله عنهم - : واعلموا أيها المؤمنون أن بينكم الرسول الكريم المعصوم الذي ينزل عليه الوحي ، ويُخبره بما في القلوب ، فعظّموه ، وأطيعوه في كل كبيرة

وصغيرة ، واحذروا أن تُخالفوا أمره فَتَهْلِكُوا ، ولا تَكْذِبُوا ولا تقولوا الباطل ، فَيُخْبِرَهُ اللهُ بحالكم ويفضحكم أمام الناس . والرسول ﷺ أعلم منكم ، ويعرف مصلحتكم أكثر منكم .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٦) : ((أي : اعلّموا أن بين أظهركم رسول الله ، فعظّموه ، ووقّروه ، وتادّبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم)) اهـ .

﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴾ . لَوْ يَسْتَجِيبُ الرَّسُولُ ﷺ لِأَهْوَائِكُمْ ، وَيَعْمَلُ بِآرَائِكُمْ ، وَيَقْبَلُ أَقْوَالَكُمْ ، لَوْفَعْتُمْ فِي الْمَشَقَّةِ وَالْإِثْمِ وَالْهَلَاكِ . فالرسول ﷺ معصومٌ مُؤَيَّدٌ بِالْوَحْيِ الإِلَهِيِّ الذي لا يُخْطِئُ ، أمّا أنتم فَبَشَرٌ غَيْرُ مَعْصُومِينَ ، تُخْطِئُونَ وتُصَيِّبُونَ ، لأن عقولكم محدودة ، وتفكيركم قاصر ومَحْصُورٌ ضمن الزمان والمكان ، ولا تُدْرِكُونَ حقائق الأمور ، ولا تَعْلَمُونَ الْغَيْبَ . وَلَوْ عَمِلَ الرَّسُولُ ﷺ بِآرَائِكُمْ وأفكاركم الشخصية ، لَوَقَعَ فِي الْأَخْطَاءِ وَالْخَطَايَا ، وانحرفَ عَنِ الْمَنْهَجِ الإِلَهِيِّ . والرسول ﷺ هو القائد المعصوم ، والزعيم الذي لا يُخْطِئُ ، وهو المعلم المتبوع لا التلميذ التابع .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٨٥) : ((... كما لَوْ قَبِلَ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ قَوْلَهُ فِي بَنِي الْمُصْطَلِقِ : إِنَّهُمْ قَدْ ارْتَدَوْا وَمَنَعُوا الصَّدَقَةَ ، وَجَمَعُوا الْجُمُوعَ لَغَزَاوِ الْمُسْلِمِينَ ، فَغَزَاهُمْ فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَأَصَابَ مِنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، كَانَ قَدْ قَتَلَ وَقَتَلْتُمْ مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ وَلَا لَكُمْ قَتْلُهُ ، وَأَخَذَ وَأَخَذْتُمْ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ وَلَكُمْ أَخْذُهُ مِنْ أَمْوَالِ قَوْمٍ مُسْلِمِينَ ، فَنَالَكُمْ مِنَ اللَّهِ بِذَلِكَ عَنَتٌ (فساد وإثم)) .

وعن أبي نضرة قال : قرأ أبو سعيد الخدري : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴾ . قال : ((هذا نبيكم ﷺ يُوحى إليه ، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ؟)) (٢) . وهذه حقيقة واقعية . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَوْ أَطَاعَ الصَّحَابَةَ (الجيل الذهبي الذي قام الإسلام على أكتافهم) لَوَقَعُوا فِي الْإِثْمِ وَالْهَلَاكِ . فكيف لَوْ يُطِيعُ النَّبِيَّ ﷺ الْأَشْخَاصَ الْعَادِيينَ وَالْعَوَامِ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَةِ ؟ ! ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . ولكن الله أيها المؤمنون المخلصون _ بفضله وكرمه _ هداكم إلى الحق ، ونور بصائركم ، وَحَبَّبَ الْإِيمَانَ إِلَى نَفُوسِكُمْ بالتيسير والتسهيل ، وَحَسَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ . وجعل الإسلام أحب

(٢) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٣٨٨) برقم (٣٢٦٩) . وقال : ((حسن صحيح غريب)) .

الأديان إليكم ، وأعلى شيء في حياتكم. ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ . وَبَغَضَ إِلَيْكُمُ الذُّنُوبَ الْكَبِيرَةَ (الكفر والفُسوق) وَجَمِيعَ الْمَعَاصِي (العِصْيَان) . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢١٤) : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ استدراك ببيان عُذْرِهِمْ وهو أنه مِنْ فَرَطِ حُبِّهِمْ لِلْإِيمَانِ وَكَرَاهَتِهِمْ لِلْكَفْرِ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ الْوَلِيدِ ، أَوْ بِصِفَةِ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، إِحْمَادًا لِفِعْلِهِمْ ، وَتَعْرِيفًا بِذَمِّ مَنْ فَعَلَ)) اهـ. ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ . إِنَّ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ هُمُ الْمُتَّهْتُونَ الَّذِينَ رَزَقَهُمُ اللَّهُ الْإِسْقَامَةَ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ . وَالْآيَةُ تُفِيدُ الْحَصْرَ ، أَيِ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الرَّاشِدُونَ لَا غَيْرُهُمْ .

الفصل الرابع عشر أقوال الكافرين

تمهيد

إنَّ الكُفر يقوم على خمسة أركان : الجهل ، والعناد ، واتباع الهوى ، وتقليد الآباء ، والحرص على المصالح الشخصية .

والكافرون الذين طعنوا في الإسلام ، ورفضوا نبوة محمد ﷺ ، لم يقارعوا الحجة بالحجة ، ولم يقدموا الأدلة والبراهين على صدق دعواهم ، ولم يثبتوا كلامهم واتهاماتهم بالمنهج العلمي التأصيلي ، حيث الدليل والبرهان والحجة .

وكلُّ ما فعلوه هو الشتائم والسخرية والاستهزاء والتكذيب ، وهذا الانهيار الفكري الشامل حجة عليهم لا لهم ، كما يدل على قلة عقولهم ، وعجزهم التام ، وعدم امتلاكهم للدليل . وبذلك ، يكونون قد فضحوا أنفسهم بأنفسهم .

ولو كان الكافرون صادقين في اتهاماتهم للإسلام ، لقدّموا الأدلة الملموسة لتحذير الناس من هذا الدين الجديد . ولو كانوا صادقين في طعنهم بالنبي ﷺ لواجهوه بالحجة والبرهان ، وكشفوا أمره للناس كي يحذروا منه . لكن هذا لم يحدث . لذلك نرى طعنهم في النبي ﷺ يأخذ شكل الشتائم الجاهزة والتهم المعلّبة : ساحر ، مجنون ، كذاب ، كاهن . وهذه اتّهامات باطلة ، لأنه لا دليل عليها ، وقد عجزوا عن إثباتها بالمنطق والدليل . وصدق القائل :

والدعاوى إن لم تقيموا عليها
بيّنات أبناؤها أدياء

ومشكلة الكافرين أنهم ينطلقون من موقف مُسبق . فهم يعتبرون الإسلام ديناً باطلاً ، والقرآن كلاماً بشرياً ، ومحمدًا ﷺ كاذباً . والتمسك بهذا الموقف المسبق يُشكّل حاجزاً يمنعهم من فتح قلوبهم للحق والهدى .

وعلى الكافر أن يستمر في البحث عن الحق ، ويكرّس وقته للتفتيش عن حقيقة الأشياء ، ولا يغرق في مُسلّمات جاهزة ومُتوارثة ، وعليه أن يسأل نفسه باستمرار ، لأن الأسئلة والبحث عن إجابات منطقية يُؤدّيان إلى التفكير والبحث عن الصواب . فمثلاً عليه أن يسأل عن الإسلام ، ويقوم بدراسته بالتفصيل ، وهل هو دين يدعو إلى الخير أو الشر ؟ . هل يدعو إلى مكارم الأخلاق أو مساوئ الأخلاق ؟ . هل القرآن كلام الله أو كلام الإنسان ؟ . وكيف استطاع إنسان أمّي أن يأتي بالقرآن الذي أعجز العلماء والفُصحاء ؟ . وهل محمد معروف بالصدق والأمانة أو الكذب والخيانة ؟ . هذه الأسئلة لا بُدّ لها من إجابات شافية تقود إلى الحق . والشمس لا تغطّي بغربال .

قال الله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ [يُونُس : ٢] .
 إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ . أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ كَمَا أَوْحَى لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ ، فَلَا مُرَّ لَيْسَ غَرِيبًا ، وَلَا يَدْعُو لِلْعَجَبِ وَالذَّهْشَةِ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَجِئْ بِشَيْءٍ شَاذٍ أَوْ مُسْتَنَكِرٍ . فَلَا مَعْنَى لَتَعْجَبَ الْكَافِرِينَ وَإِنْكَارِهِمْ لِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ لِلْكَافِرِينَ . وَالْمَعْنَى : أَكَانَ إِحَاوُنًا عَجَبًا لِلنَّاسِ . وَالْعَجَبُ حَالَةٌ تُصِيبُ الْإِنْسَانَ مِنْ رُؤْيَا شَيْءٍ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ .

لَقَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ جِنْسِهِمْ ، يَتَكَلَّمُ بِلُغَتِهِمْ ، وَيَعْرِفُونَ تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ ، وَلَيْسَ مَلَكًا وَلَا جِنِّيًّا . وَلَوْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِمْ ، لَانْتَفَى مَعْنَى الرِّسَالَةِ ، لَغِيَابِ التَّجَانُسِ وَالتَّوَافُقِ .

وَتَعْجَبُ الْكَافِرِينَ مِنْ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَعُودُ إِلَى سَبَبَيْنِ : الْأَوَّلُ _ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنْسَانٌ ، فَكَيْفَ يَخْتَارُ اللَّهُ لِلنُّبُوءَةِ إِنْسَانًا وَلَا يَخْتَارُ مَلَكًا ؟ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ ، فَمُحَمَّدٌ بَشَرٌ جَاءَ لِدَعْوَةِ الْبَشَرِ ، وَلَوْ كَانَ مَلَكًا لَمَا حَصَلَتْ الْأَلْفَةُ وَالِانْسِجَامُ وَالْأُنْسُ ، لِاخْتِلَافِ طَبِيعَةِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ . وَعِنْدُنَا ، تَحْصُلُ الْوَحْشَةُ وَالتَّنَافُرُ ، وَتَفْقَدُ الرِّسَالَةُ مَعْنَاهَا .
 وَالسَّبَبُ الثَّانِي _ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَتِيمٌ وَفَقِيرٌ . فَلِمَاذَا لَمْ يَنْزِلِ الْوَحْيُ عَلَى رَجُلٍ غَنِيٍّ أَوْ شَيْخٍ قَبِيلَةٍ _ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ ؟ . الْيَتَمُ وَالْفَقْرُ لَا يُشْكَلَانِ عَائِقًا ، وَلَا يُعْتَبِرَانِ عَارًا وَلَا إِهَانَةً . لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ صَادِقًا أَمِينًا يَتَحَلَّى بِقِيمِ الشَّرَفِ وَالْمَرْوَةِ ، كَمَا أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ شَرِيفٍ وَمَكَانَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ رَاقِيَةٍ ، حَيْثُ إِنَّهُ يَنْتَمِي إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ، وَهُمْ سَادَةُ قُرَيْشٍ (أَشْرَفُ قَبِيلَةٍ عَرَبِيَّةٍ) .

لَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ إِلَى النَّاسِ ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . وَالْأَمْرُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْإِنْذَارِ . فَالرِّسَالَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِنْذَارِ وَالتَّبَشِيرِ . يُنْذِرُ النَّاسَ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَمْنَحُهُمُ النِّعَمَ الْأَبَدِيَّ .

وَعَنْ أَبِي بَنْتِ بْنِ كَعْبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ : ((سَلَفَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ)) (1) .

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٨) برقم (٣٢٩٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والكافرون العاجزون عن مُقارعة الحُجَّة بالحُجَّة، وتقديم الأدلة والبراهين، لَم يجدوا غير الشتائم والاتِّهامات الباطلة ، ووصفوا محمداً ﷺ بأنه ساحر ظاهر ، وسحَّره واضح . وهذه حُجَّة العاجز، وتُهمة باطلة لأنها لا تقوم على دليل. واتِّهام الكافرين للنبي ﷺ بأنه ساحر يدل على أنهم رَأَوْا مِنْهُ مُعْجَزَاتٍ خارقةً للعادة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٦٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ سبب نزولها أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْكَرَ الْكُفَّارَ ذَلِكَ ، وَقَالُوا : اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا مِثْلَ مُحَمَّدٍ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ هَاهُنَا أَهْلُ مَكَّةَ ، وَالْمُرَادُ بِالرَّجُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ . وَمَعْنَى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . فَأَمَّا الْأَلْفُ فِي ﴿ أَكَانَ ﴾ فَهِيَ لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَالْإِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ فِي كَوْنِهِمْ عَجَبُوا مِنْ إِسْرَالِ مُحَمَّدٍ مَحْذُوفٍ هَاهُنَا ، وَهُوَ مُبَيَّنٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ ﴾ [الزُّحُرْفُ : ٣٢] . أَيْ : فَكَمَا وَضَّحَ لَكُمْ هَذَا التَّفَاضُلَ بِالْمُشَاهَدَةِ ، فَلَا تُنْكِرُوا تَفْضِيلَ اللَّهِ مَنْ شَاءَ بِالْبُيُوتَةِ ، وَإِنَّمَا حَذَفَهُ هَاهُنَا اعْتِمَادًا عَلَى مَا بَيَّنَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . قَالَ وَقِيلَ : إِنَّمَا عَجَبُوا مِنْ ذِكْرِ الْبَعْثِ وَالتُّشُورِ ، لِأَنَّ الْإِنْذَارَ وَالتَّبَشِيرَ يَتَصَلَّانِ بِهِمَا ، فَكَانَ جَوَائِبُهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الرُّومُ : ٢٧] . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا ﴾ [يَس : ٧٩] . وَفِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَدَّمَ صِدْقٍ ﴾ سَبْعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الثَّوَابُ الْحَسَنُ بِمَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَرَوَى عَنْهُ أَبُو صَالِحٍ قَالَ : عَمِلَ صَالِحٌ يَقْدُمُونَ عَلَيْهِ . وَالثَّانِي أَنَّهُ مَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : سَابِقَةُ صِدْقٍ . وَالثَّلَاثُ شَفِيعَ صِدْقٍ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَشْفَعُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَالرَّابِعُ سَلَفَ صِدْقٍ تَقَدَّمُوهُمْ بِالْإِيمَانِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . وَالْخَامِسُ مَقَامَ صِدْقٍ لَا زَوَالَ عَنْهُ ، قَالَهُ عَطَاءٌ . وَالسَّادِسُ أَنَّ قَدَّمَ الصَّدَقَ الْمَنْزِلَةَ الرَّفِيعَةَ ، قَالَهُ الرَّجَاجُ . وَالسَّابِعُ أَنَّ الْقَدَّمَ هَاهُنَا مُصِيبَةٌ الْمُسْلِمِينَ بِنَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَمَا يُلْحَقُهُمْ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ عِنْدَ أَسْفِهِمْ عَلَى فَقْدِهِ ، وَمَحَبَّتِهِمْ لِمُشَاهَدَتِهِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . فَإِنْ قِيلَ : لِمَ آثَرَ الْقَدَّمَ هَاهُنَا عَلَى الْيَدِ ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الْيَدَ فِي مَوْضِعِ الْإِحْسَانِ . فَالْجَوَابُ أَنَّ الْقَدَّمَ ذُكِرَتْ هَاهُنَا لِلتَّقَدُّمِ ، لِأَنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِتَقَدُّمِ السَّاعِي عَلَى قَدَمِيهِ ، وَالْعَرَبُ تَجْعَلُهَا كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ فِيهِ ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ تَأَخُّرٌ . قَالَ ذُو الرُّمَّةِ : لَكُمْ قَدَّمَ لَا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّهَا ... مَعَ الْحَسَبِ الْعَادِيِّ طَمَّتْ عَلَى الْبَحْرِ . فَإِنْ قِيلَ : مَا وَجْهُ إِضَافَةِ الْقَدَّمَ إِلَى الصَّدَقِ ؟ ، فَالْجَوَابُ أَنَّ ذَلِكَ مَدْحٌ لِلْقَدَّمَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَضَفْتَهُ إِلَى الصَّدَقِ فَقَدْ مَدَحْتَهُ ، وَمِثْلُهُ : ﴿

أَدْخَلَنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجَنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴿ [الإسراء : ٨٠] . وَقَوْلُهُ : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : ٥٥] . وفي الكلام مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ الْوَحْيُ ، قَالَ الْكَافِرُونَ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لَيْسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] .

تَتَضَحُّ فِي الْآيَةِ عِدَاوَةُ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَكَرْهُهُمْ لِلْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَحَقْدُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ . وَالْمُشْرِكُونَ _ مِنْ قَرْطَ جَهْلُهُمْ _ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحْوَالَهُمْ خَافِيَةٌ عَلَى اللَّهِ . وَقَدْ فَضَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَشَفَ بَاطِلَهُمْ .

لَقَدْ كَانُوا يَطُؤُونَ صُدُورَهُمْ عَلَى عِدَاوَةِ الْمُسْلِمِينَ . أَي : يُخْفُونَ فِي صُدُورِهِمْ عِدَاوَةَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُظْهِرُونَ خِلَافَ ذَلِكَ ، لَيْسْتَخْفُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حِمَاqَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ . فَاللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ . أَلَا حِينَ يُغَطُّونَ رُؤُوسَهُمْ بِثِيَابِهِمْ وَيَسْتَخْفُونَ ، يَعْلَمُ اللَّهُ سِرَّهُمْ وَعَلَانِيَتَهُمْ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَحْوَالِهِمُ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ . فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْإِسْتِتَارِ وَالنَّخْفِ . فَالسِّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ عِنْدَ اللَّهِ سَوَاءٌ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِأَحْوَالِ الْقُلُوبِ وَأَسْرَارِ الضَّمَائِرِ .

وَالْمَعْنَى الْعَامُ لِلآيَةِ : إِنَّ الَّذِينَ أَضْمَرُوا عِدَاوَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ حَالُهُمْ . وفي تفسير القرطبي (٨ / ٩) : ((قَالَ قَتَادَةُ : أَخْفَى مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِذَا خَنَى ظَهْرَهُ ، وَاسْتَغْشَى ثَوْبَهُ ، وَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ هَمَّهُ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٧٦ و ٧٧) : ((فِي سَبَبِ نَزُولِهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ ، وَكَانَ يُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَيَحْلِفُ إِنَّهُ لَيُجِبُّهُ وَيُضْمِرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ لَهُ ، فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَاسٍ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ أَنْ يُفَضُّوا إِلَى السَّمَاءِ فِي الْخِلَاءِ وَمُجَامَعَةِ النِّسَاءِ ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ ، كَانَ إِذَا مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ وَظَهْرَهُ ، وَطَاطَأَ رَأْسَهُ ، وَغَطَّى وَجْهَهُ ، لِئَلَّا يَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا : إِذَا أَغْلَقْنَا أَبْوَابَنَا ، وَأَرْخَيْنَا سُبُورَنَا ، وَاسْتَغْشَيْنَا ثِيَابَنَا ، وَثَنَيْنَا صُدُورَنَا عَلَى عِدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَيْفَ يَعْلَمُ بِنَا ؟ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَمَّا كَتَمُوا ، ذَكَرَهُ الرَّجَاجُ . وَالخَامِسُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا لَشِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعُوا مِنْهُ الْقُرْآنَ خَنَوْا

صُدُّوهُمْ وَنَكِّسُوا رُؤُوسَهُمْ ، وَتَغَشَّوْا ثِيَابَهُمْ لِيُبْعَدَ عَنْهُمْ صَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا يَدْخُلَ أَسْمَاعُهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يُقَالُ : ثَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا عَطَفْتُهُ وَطَوَيْتُهُ . وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا يَكْتُمُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْعَدَاوَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ)) اهـ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [هُود : ٧] .

وَلَنْ قُلْتُ يَا مُحَمَّدَ لِلْمُشْرِكِينَ إِنَّ اللَّهَ سَيُخَيِّبُكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ ، وَقَدَّمْتُ الْأَدْلَةَ النَّقْلِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ عَلَى الْبَعْثِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا غُرُورٌ وَخَدِيعَةٌ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ أَنَّ الْبَعْثَ أَوْ الْقُرْآنَ الْمَتَضَمِّنَ لِذِكْرِهِ كَالسَّحْرِ فِي الْخَدِيعَةِ وَالْبُطْلَانِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٥٧٤) : ((يَقُولُ تَعَالَى : وَلَنْ أَخْبَرْتَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ اللَّهَ سَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ كَمَا بَدَأَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ [الزُّخْرُفُ : ٨٧] . ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وَهُمْ مَعَ هَذَا يُكِيرُونَ الْبَعْثَ وَالْمَعَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُدْرَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْبِدَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الرُّومُ : ٢٧] . وَقَالَ تَعَالَى :

﴿ مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنْفَسٍ وَاحِدَةً ﴾ [لقمان : ٢٨] . وَقَوْلُهُمْ : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي يَقُولُونَ كُفْرًا وَعِنَادًا : مَا نُصَدِّقُكَ عَلَى وَقُوعِ الْبَعْثِ ، وَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ سَخَّرْتَهُ ، فَهُوَ يَتَّبِعُكَ عَلَى مَا تَقُولُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَلْفِي خَلْقٌ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرُّعْدُ : ٥] .
إِنْ تَعْجَبَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ لَكَ ، وَطَعْنِهِمْ فِي رِسَالَتِكَ ، وَعِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَنْضُرُ وَلَا تَنْفَعُ ، فَأَعْجَبْ مِنْهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ . وَهَذَا الْأَمْرُ يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ وَالتَّعْجَبِ ، فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالْبَعْثُ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا .

والله خَلَقَ الإنسانَ من العدم ، والكافرون يُقِرُّونَ بابتداء الخَلْقِ من الله تعالى ، ومن الواضح في العقول أَنَّ الإعادة أسهل من الابتداء . وَلَنْ يَعْجزَ اللهُ أَنْ يُحييَ الناسَ بعد موتهم . فالقادرُ على إنشاء الخَلْقِ مِنَ العدمِ (بلا مثال سابق) قادر على إعادتهم .

والله تعالى لا يَتَعَجَّبُ ، لأنَّ التَّعَجُّبَ تَغْيِيرٌ فِي النَّفْسِ بِسَبَبِ شَيْءٍ تَخْفَى أَسْبَابُهُ . والله يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيُغَيِّرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ . والمقصود أن يَتَعَجَّبَ النَّبِيُّ ﷺ والمؤمنون من إنكار المشركين للبعث

﴿ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ . هذا قول الكافرين: إِذَا مِتْنَا وَصِرْنَا زُفَاتًا ، وَتَحَلَّلْتَ أَجْسَادُنَا فِي التُّرَابِ ، هل سَيَتَمُّ بَعَثُنَا مِنْ جَدِيدٍ ؟ ، هل سَنُبْعَثُ بعد الموت والفناء ؟ . والاستفهامُ مِنْهُمْ لِلإنكار الذي يدل على الاستبعاد التام . فَأمرُ بالبعث مرفوض ومُسْتَبْعَدٌ تَمَامًا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ .

هؤلاء الذين يُكِرُّونَ قُدْرَةَ اللهِ عَلَى البعث ، هُم الكافرون الغارقون في العناد، الكاملون في الجحود والكفر . سَيُعْلَوْنَ بالسلاسل يوم القيامة . والأغلالُ جَمْعُ غُلٍ ، وهو طَوْقٌ تُقَيَّدُ بِهِ اليَدُ إِلَى العُنُقِ .

وَيَدْخُلُونَ النَّارَ وَلَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أَبَدًا . إنه العذابُ الأبدِيُّ إلى ما لا نهاية . وَضميرُ الفَصْلِ "هُم" في الآية: ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لتخصيص الخلود بالكفار مُنْكَرِي البعث .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٥٨) : ((يَقُولُ تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ ﴾ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَعَادِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَدَلَالِهِ فِي خَلْقِهِ عَلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، وَمَعَ مَا يَعْتَرِفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَ الْأَشْيَاءِ ، فَكَوْنُهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ هَذَا يُكْذِبُونَ خَبْرَهُ فِي أَنَّهُ سَيُعِيدُ الْعَالَمَ خَلْقًا جَدِيدًا ، وَقَدْ اعْتَرَفُوا وَشَاهَدُوا مَا هُوَ أَعْجَبُ مِمَّا كَذَّبُوا بِهِ ، فَالْعَجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ عَالِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَأَنَّ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ فَإِلَاعَادَةُ عَلَيْهِ أَسْهَلُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْْيِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] . ثُمَّ نَعَتْ الْمُكْذِبِينَ بِهَذَا فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أَيِ يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ . ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أَيِ : مَآكُثُونَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَخُولُونَ عَنْهَا ، وَلَا يَزُولُونَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيُّها الذي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر : ٦] .
يُتَّصَحُّ جَهْلُ المشركين وعنادهم وكُفْرهم . لقد قال كفار مكة للنبي ﷺ : يا أيُّها الذي نَزَّلَ
عليه القرآن حَسَبَ زَعْمِهِ إِنَّكَ بِلَا عَقْلٍ وَلَا مَنْطِقٍ . وهنا يظهر استهزاؤهم ، إذ إنهم لا يَعْتَرِفُونَ
بِنُزُولِ القرآن على محمد ﷺ ، لكنهم أثبتوا ذلك سُخْرِيَّةً وَتَهَكُّمًا وعلى سبيل الاستهزاء . وَسُمِّيَ
القرآن ذِكْرًا لِمَا فِيهِ مِنَ الموعظ الحسنه ، والتذكير ، والاعتبار .
إنهم يَعْتَبِرُونَ أَنَّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ نَبِيٌّ جَاءَ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ السماوية مجنونًا . وقد اعتَبَرُوا النَّبِيَّ
محمدًا ﷺ فاقْدًا لِقُوَاهُ العقلية ، لأنه جاءهم بالتوحيد وترك عبادة الأصنام (عبادة الآباء والأجداد)

وهذه التَّهْمَةُ ساقطةٌ وباطلة . فالمجنونُ له صفات معروفة ، حيث يكون كلامه غير مفهوم ،
وحركاته تكون فوضوية وعشبية ، وتصرفاته غير منطقية . أمَّا النَّبِيُّ محمد ﷺ ، فهو يتكلم بالحكمة
والموعظة الحسنة ، ويُخَاطِبُ النَّاسَ بِأَسْلُوبٍ بليغٍ مُؤَثِّرٍ . كلامه متماسك في أعلى درجات الوَعْيِ
، ويتميز بالأخلاق الحميدة ، وسلوكه حسن ، وسيرته عَطْرَةٌ . وَمَنْ كَانَ هَذَا خَالَهُ ، لَا يُمَكِّنُ أَنَّ
يكون مجنونًا . والكفار اتَّهَمُوا النَّبِيَّ ﷺ حَقْدًا وَحَسَدًا ، وبسبب عجزهم عن مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ،
وهم أكثر الناس عِلْمًا بمحمد ﷺ ورجاحة عقله ، وصدقته ، وأمانته ، ونسبه الشريف ، فقد نشأ
بينهم ، وعاش معهم . ولكنَّ الكُفَرَ عِنَادٌ . وما أسهل إلقاء التَّهْمِ والأكاذيب بلا أدلة .

وقال البَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٦٢ / ١) : ((﴿ وقالوا يا أيُّها الذي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ نَادَوْا
بِهِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى التَّهَكُّمِ . أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَادَوْهُ لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ . وَنَظِيرُ ذَلِكَ
قَوْلُ فِرْعَوْنَ : ﴿ إِنَّ رَسُولَكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] . وَالْمَعْنَى إِنَّكَ لَتَقُولُ
قَوْلَ الْمُجَانِينِ حِينَ تَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَّلَ عَلَيْكَ الذِّكْرَ ، أَيْ الْقُرْآنَ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٨٣ / ٤) : ((قَالَ مُقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي
أُمَيَّةَ ، وَالتَّضَرُّعِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَنَوْفَلِ بْنِ خُوَيْلِدٍ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالدُّكْرُ
الْقُرْآنُ . وَإِنَّمَا قَالُوا هَذَا اسْتِهْزَاءً . لَوْ أَيْقَنُوا أَنَّهُ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مَا قَالُوا إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ
الْفَارِسِيُّ : وَجَوَابُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ أُخْرَى ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ﴾ [القلم
: ٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر : ٧] .

لقد طلب المشركون أن يأتي محمد ﷺ بالملائكة شاهدة على صحة كلامه. والمعنى: هالاً جئنا بالملائكة تشهد لك بصدق كلامك ، وأن الله أرسلك . فإن كنت يا محمد رسلاً من عند الله ، فإن الله قادر على إرسال الملائكة لتشهد لك بصحة نبوتك ، وأن القرآن كلام الله . و " لوما " و " لولا " معناهما واحد . وكلاهما تعني امتناع الشيء لوجود غيره والتحريض . وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٩٢) : ((« إن كنت من الصادقين » يعني : إن كنت صادقاً في أن الله تعالى بعثك إلينا رسلاً ، وأنزل عليك كتاباً ، فإن الرب الذي فعل ما تقول بك ، لا يتعذر عليه إرسال ملك من ملائكته معك حجة لك علينا ، وآية لك على نبوتك وصدق مقالتك)) .

وقال الله تعالى : « ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » [الحجر : ٨] . رد الله على المشركين في اقتراحهم أن يأتي محمد بالملائكة تشهد له وتؤيده . ما ننزل الملائكة إلا بالرسالة إلى رسلنا ، أو بالعذاب في حال كفرهم . وإنزال الملائكة يتم وفق الحكمة الإلهية ، والمشينة الربانية ، وليس وفق اقتراحات الكفار وآرائهم الشخصية . والله تعالى هو الذي يحدد طبيعة الآية ومكان نزولها وزمان نزولها . ولا يوجد مخلوق يملك هذه السلطة ، لا الأنبياء ، ولا الملائكة ، ولا الإنس ، ولا الجن . ولو نزل الله الملائكة بإهلاكهم ، لما أعطوا مهلة ولا فرصة ، ولا قبلت لهم توبة . إذن ، لقد رحمهم الله بعدم إنزال الملائكة عليهم ، وأعطاهم الفرصة بعد الفرصة ، وأمهّلهم كي يعيدوا حساباتهم ، ويصححوا مسارهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة والعذاب . وسنة الله ثابتة ، لا تتغير ولا تبدل ، وهي أن كل قوم إذا طلبوا آية ، وكفروا بعد إنزال الآية عليهم ، فإنهم يعدّون قوفاً ، بدون مهلة ، ولا يمنحون فرصة أخرى . والمشركون الذين طلبوا إنزال الملائكة ، لا يعلمون أنهم يدّمرون أنفسهم بأنفسهم ، ويسيرون إلى الهاوية والهلاك . وقد رحمهم الله ، وأمهّلهم ، فهو سبحانه أعلم بهم من أنفسهم . وهنا تتجلى الرحمة الإلهية ، ويظهر جهل المشركين . والجاهل عدو نفسه ، يطلب ما فيه هلاكه من حيث لا يدري . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٩) : ((« وما كانوا إذا منظرين » ، أي : مؤخرين . وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عياناً ، فأجابهم الله تعالى بهذا . ومعناه : إنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال ، وغدّبوا في الحال)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] (٢).

لقد نَزَّلَ اللهُ الْقُرْآنَ وَحَفِظَهُ مِنْ أَنْ يُرَادَ فِيهِ ، أَوْ يُنْقَصَ مِنْهُ . وقد رَدَّ اللهُ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا كَوْنَ الْقُرْآنِ وَحَيًّا سَمَويًّا ، وَسَخَرُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ قَضِيَّةَ حِفْظِ الْقُرْآنِ لِلْمُسْلِمِينَ . لَقَدْ تَوَلَّى اللهُ حِفْظَهُ بِنَفْسِهِ ، وَهَذَا تَجَلَّى الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ ، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ نَزُولًا ، وَلَا كِتَابَ بَعْدَهُ . وَإِذَا خُرِفَ فَإِنَّ الْبَاطِلَ سَيَسْتَمِرُّ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَغْرُقَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِي الْكُفْرِ ، وَهَكَذَا يَضِيعُ دِينُ اللَّهِ إِلَى الْأَبَدِ ، فَلَنْ يَأْتِيَ نَبِيٌّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَنْ يَجِيءَ كِتَابٌ سَمَويٌّ بَعْدَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . لِذَلِكَ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَحْفُوظًا بِشَكْلٍ كَامِلٍ ، لِأَنَّهُ سَيَقُودُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الذِّكْرَ يَشْمَلُ الشَّرِيعَةَ كُلَّهَا : قُرْآنًا وَسُنَّةً . وَكَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ ، فَقَدْ تَكَفَّلَ بِحِفْظِ السُّنَّةِ لِأَنَّهَا تَفْسِيرٌ لِلْقُرْآنِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ هَيَأُهَا عُلَمَاءُ مُخْلِصِينَ مَيَّزُوا الصَّحِيحَ مِنَ الضَّعِيفِ ، وَخَرَّسُوا الشَّرِيعَةَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَأَبَادُوا الْأَحَادِيثَ الْمَكْذُوبَةَ ، وَفَضَحُوا أَصْحَابَهَا .

وَقَدْ تَمَيَّزَتِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ عَنْ بَاقِي الْأُمَمِ بِالْأَسَانِيدِ وَعُلُومِهَا ، فَهِيَ تَمْلِكُ إِسْنَادًا مُتَّصِلًا إِلَى رَسُولِهَا ﷺ وَأَلِ بَيْتِهِ وَصَحَابَتِهِ وَالتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءَ جَمِيعًا . وَهَذِهِ الْمَيِّزَةُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ عِنْدَ بَاقِي الْأُمَمِ . بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ رَوَتْ الشَّعْرَ بِالْأَسَانِيدِ . وَعَلَى الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تَفْخَرَ بِهَذَا أَمَامَ بَاقِي الْأُمَمِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١ / ١٢) أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ قَالَ : ((الْإِسْنَادُ مِنَ الدِّينِ ، وَلَوْلَا الْإِسْنَادُ ، لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ)) .

(٢) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٣٨٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ . مِنْ عَادَةِ الْمُلُوكِ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا قَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ فَعَلْنَا ، يُرِيدُ نَفْسَهُ وَاتِّبَاعَهُ ، ثُمَّ صَارَ هَذَا عَادَةً لِلْمَلِكِ فِي خِطَابِهِ وَإِنْ انْفَرَدَ بِفَعْلِ الشَّيْءِ ، فَخُوطِبَتِ الْعَرَبُ بِمَا تَعَقَّلَ مِنْ كَلَامِهَا . ﴿ الذِّكْرُ ﴾ الْقُرْآنُ فِي قَوْلِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ . وَفِي هَاءِ ﴿ لَهُ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الذِّكْرِ ، قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ . قَالَ قَتَادَةُ : أَنْزَلَهُ اللَّهُ ثُمَّ حَفِظَهُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِبْلِيسُ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ بَاطِلًا وَلَا يُنْقِصُ مِنْهُ حَقًّا . وَالثَّانِي أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَالْمَعْنَى : وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْأَعْدَاءِ لِقَوْلِهِمْ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ السَّائِبِ وَمُقَاتِلٍ)) .

ولا يخفى أن اليهود لا يملكون إسناداً مُتصلاً إلى النبي موسى ﷺ، وتَوَرَّاثَهُمُ الْمُحَرَّفَةُ بلا سند. والنصارى لا يملكون إسناداً مُتصلاً إلى النبي عيسى ﷺ، وإنجيلهم المُحَرَّفُ بلا سند . وقد قال أحد كبار المستشرقين (مَرْجُلِيُوث) (3): ((على المسلمين أن يفخروا بعلم الحديث .))

وقد حاولت قوى عظمى من أعداء الإسلام أن يُبدِّلوا القرآنَ ، ويتلاعبوا بآياته ، ويزيدوا عليه ، ويُقصوا منه ، لكنهم فشَلُوا ، وردَّ الله كيدهم في نُحُورِهِمْ . وحسبك أن تعرف أن كثيراً من أطفال المسلمين يحفظون القرآن كاملاً ، في حين أن كبار علماء اليهود والنصارى لا يحفظون سوى مقاطع قصيرة مُنتقاة من التَّوراة والإنجيل . وفي هذا دلالة عظيمة . واللييب من الإشارة يفهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦٢) : ((« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » رَدٌّ لِنِكَارِهِمْ واستهزائهم ، ولذلك أكَّده من وجوه ، وقرَّره بقوله : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، أي : من التحريف والزيادة والنقص ، بأن جعلناه مُعْجِزاً مُبَايِناً لكلام البشر ، بحيث لا يخفى تغييرُ نَظْمِهِ على أهل اللسان ، أو نفى تطرُّق الخلل إليه في الدوام بِضَمَانِ الحِفظ له ، كما نفى أن يُطعن فيه بأنه المُنَزَّلُ له . وقيل : الضمير في « لَهُ » للنبي ﷺ)) اهـ .

وقال الله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ » [الحجر : ١٠] . ولقد أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يا محمد رُسلًا في الأمم والقرون الماضية . والشَّيْخُ الأُمَّةُ المجتمعة على كلمة واحدة. وهذا يعني أنَّ محمداً ﷺ رسول كالرُّسل السابقين، وَلَمْ يَجِئْ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ وَلَا شاذٍ . فلا معنى للتعجب والدهشة من كونه ﷺ نَبِيًّا ورسولاً .

والأنبياء والرُّسلُ كُلُّهُمْ سائرون وَفَقَّ مِنْهُمْ واحد ، وهو الدَّعوة إلى توحيد الله تعالى . ودينُ كُلِّ الأنبياء واحد ، وهو الإسلام . أمَّا شرائعُهم فمختلفة ، لاختلاف طبائع الناس والأمم ، واختلاف طبيعة الزمان والمكان .

(٣) ديفيد صمويل مرجليوث (١٨٥٨م - ١٩٤٠م). مستشرق بريطاني حاقده على الإسلام. عَمِلَ قِسًّا في كنيسة إنجلترا لفترة قصيرة . كانَ أستاذًا للعربية في جامعة أكسفورد (١٨٨٩م - ١٩٣٧م) . أثار قضية الانتحال في الشعر الجاهلي . وقد قلَّده الكاتب المصري طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ١٧٥) : ((﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي رُسلًا .
وُحُذِفَ لدلالة الإرسال عليه : أي رُسلًا كائنة مِنْ قَبْلِكَ ﴾ في شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴾ في أُمَمِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ
، وسائر فِرْقَتِهِمْ وطوائِفِهِمْ. قال الْفَرَّاءُ: الشَّيْعُ الْأُمَّةُ النَّابِغَةُ بَعْضُهَا فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ)) اهـ.
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الْحَجَر : ١١] .
كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ كَانَتْ إِذَا جَاءَهَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ ، تُكَذِّبُهُ وَتَسْتَهْزِئُ بِهِ وَتَسْخَرُ مِنْهُ .
كما يَفْعَلُ كُفَّارُ مَكَّةَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ . وَالْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ وَتَعْزِيَةٌ . وَتُخَفِّفُ عَنْهُ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ .
وَالْمَعْنَى الْعَامُ : لَا تَتَضَاقِقُ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ ، فَقَدْ كَذَّبَتْ الْأُمَمُ
السَّابِقَةُ رُسُلَهَا ، وَاسْتَهْزَأَتْ بِهِمْ . وَكُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ كَانَ مُبْتَلًى بِقَوْمِهِ كَمَا ابْتُلِيتَ .
وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٩٤) : ((يقول : وَمَا يَأْتِي شَيْعَ الْأَوَّلِينَ مِنْ رَسُولٍ مِنَ اللَّهِ ،
يُرْسِلُهُ إِلَيْهِمْ بِالْإِذْعَانِ إِلَى تَوْحِيدِهِ ، وَالْإِذْعَانُ بَطَاعَتُهُ ، إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . يَقُولُ : إِلَّا كَانُوا
يَسْخَرُونَ بِالرُّسُولِ الَّذِي يُرْسِلُهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، عُتُوًّا مِنْهُمْ ، وَتَمَرُّدًا عَلَى رَبِّهِمْ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ [الْحَجَر : ١٢] .
كما أَدْخَلَ اللَّهُ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ وَالْإِسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ فِي قُلُوبِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، كَذَلِكَ نُدْخِلُهُ
فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ مِنْ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ، حَتَّى لَا يُؤْمِنُوا بِكَ كَمَا لَمْ تُؤْمِنِ الْأُمَمُ
السَّابِقَةُ بِرُسُلِهَا . لَقَدْ أَضَلَّاهُمُ اللَّهُ وَمَنَعَهُمُ الْإِيمَانَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَحْقُونَ شَرْفَ
الْهُدَايَةِ وَالْإِيمَانِ . وَفِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ (نُفَاةُ الْقَدَرِ) . وَالسَّلْكُ إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ .
وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٢٣٨) : ((وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ فِي الْأَصْلَحِ وَخَلْقِ الْأَفْعَالِ
.))

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٨٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ فِي
الْمُشَارِ إِلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الشَّرْكُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ
الْإِسْتِهْزَاءُ ، قَالَ قَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ التَّكْذِيبُ ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَالْفَرَّاءُ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : كَمَا سَلَكْنَا فِي
قُلُوبِ شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ، نُدْخِلُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ التَّكْذِيبَ ، فَلَا يُؤْمِنُوا)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الْحَجَر : ١٣] .
لَا يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَهُمْ يُكْذِّبُونَهُ
وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ . وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ثَابِتَةٌ وَوَاضِحَةٌ ، فَقَدْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ ، وَسَلَكَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْكُفْرَ . أَوْ : سُنَّةُ اللَّهِ بِأَنَّهُ أَهْلَكَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ .

وهذا تهديدٌ ووعيدٌ شديد لأهل مكة . أي : اخذروا أن تسيروا يا أهل مكة على خطي الأمم السابقة التي كُفرت فَعُدَّتْ . اخذروا أن تُكْرَرُوا نَفْسَ أخطائهم ، فَثَلَاقُوا نَفْسَ مصيرهم . ولا شك أن مُشركي مكة يَقْتَفُونَ آثَارَ كُفَارِ الأمم السابقة . والمعنى العام : لقد مَضَتْ سُنَّةُ (طريقة) الله في إهلاك المكذِّبين ، وإنقاذ الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة . أو : مَضَتْ سُنَّتُهُم بتكذيب الأنبياء .

وقال التَّسْفِي فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٢٣٨) : ((وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ مَضَتْ طَرِيقَتُهُمُ الَّتِي سَنَّهَا اللَّهُ فِي إِهْلَاكِهِمْ حِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَهُوَ وَعِيدٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ)) اهـ . وفي الدُّرِّ الْمُنْتَشَرِ لِلشُّيُوطِيِّ (٥ / ٦٧ و ٦٨) : ((وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ قَالَ : إِذَا كَذَّبُوا سَلَكَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهِ . ﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ قَالَ : وَقَانَعِ اللَّهُ فِيمَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ [الْحَجَرُ : ١٤] . الْكُفَّارُ يَنْطَلِقُونَ مِنْ مَوْقِفٍ مُّسَبِّقٍ رَافِضٍ لِلْإِيمَانِ ، سَوَاءً ظَهَرَتِ الْآيَاتُ أَمَامَهُمْ أَمْ لَمْ تَظْهَرْ . وَسَوَاءً جَاءَهُمْ رَسُولٌ أَمْ لَمْ يَجِئْهُمْ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى جَهْلِ الْكُفَّارِ ، وَعِنَادِهِمْ ، وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ .

لَوْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَظَلَّ الْمَلَائِكَةُ يَصْعَدُونَ فِيهِ أَمَامَ أَعْيُنِ الْكُفَّارِ ، وَالْكَفَّارُ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ عِيَانًا ، وَيُشَاهِدُونَهُمْ بِلَا حِجَابٍ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٣٨٦) : ((وَفِي الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ بِهَذَا الصُّعُودِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ . فَالْمَعْنَى : لَوْ كُشِفَ عَنْ أَبْصَارِ هَؤُلَاءِ فَرَأَوْا بَابًا مَّفْتُوحًا فِي السَّمَاءِ ، وَالْمَلَائِكَةُ تَصْعَدُ فِيهِ لَمَّا آمَنُوا بِهِ . وَالثَّانِي أَنَّهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، قَالَه الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : لَوْ وَصَلْنَاهُمْ إِلَى صُعُودِ السَّمَاءِ لَمْ يَسْتَشْعِرُوا إِلَّا الْكُفْرَ لِعِنَادِهِمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الْحَجَرُ : ١٥] . الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مُكَابَرَةِ الْمُشْرِكِينَ لِلْحَقِّ ، وَعِنَادِهِمُ الشَّدِيدِ ، وَصَلَابَةِ كُفْرِهِمْ ، وَقُلُوبِهِمُ الْقَاسِيَةِ . لَوْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، وَرَأَوْا الْمَلَائِكَةَ يَصْعَدُونَ فِيهِ رَأْيَ الْعَيْنِ ، لَقَالَ الْمُشْرِكُونَ إِنَّمَا سُدَّتْ أَبْصَارُنَا بِالسَّحَرِ ، وَحُبِسَتْ عَنِ النَّظَرِ ، ثُمَّ اخْتَارُوا رَأْيًا آخَرَ : بَلْ سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ ، وَنَحْنُ وَاقِعُونَ تَحْتَ تَأْثِيرِ سِحْرِهِ فَلَا نُبْصِرُ . وَمَنْ وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ

إرشاده، ولا جدوى من موعظته. ولَنْ يَنْتَفِعَ بِآيَةِ آيَةٍ مَهْمَا كَانَتْ عَظِيمَةً ، وَلَنْ يَتَأَثَّرَ بِآيَةٍ مُعْجَزَةٍ مَهْمَا كَانَتْ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ . وَكَلِمَةُ الْحَصْرِ ﴿ إِنَّمَا ﴾ وَكَلِمَةُ الْإِضْرَابِ ﴿ بَلْ ﴾ تُشِيرَانِ إِلَى يَقِينِ الْمَشْرِكِينَ بِأَنْ مَا يُشَاهِدُونَهُ غَيْرُ حَقِيقِي ، بَلْ هُوَ بَاطِلٌ خُيِّلَ إِلَيْهِمْ بِتَأْثِيرِ السَّحْرِ .

وفي فتح القدير للشوكاني (٣ / ١٧٦) : ((﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ أَضْرَبُوا عَنْ قَوْلِهِمْ : سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا . ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مَسْحُورُونَ : أَيِ سَحَرَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ . وفي هذا بيان لِإِعْنَادِهِم الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يُقْلِعُهُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، كَانَتْ مَا كَانَ . فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا آيَةً تُوجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، نَسَبُوا إِلَى أَبْصَارِهِمْ أَنَّ إدْرَاكَهَا غَيْرُ حَقِيقِي لِإِعْرَاضِ السُّكْرِ ، أَوْ أَنَّ عُقُولَهُمْ قَدْ سُحِرَتْ ، فَصَارَ إدْرَاكُهُمْ غَيْرَ صَحِيحٍ . وَمَنْ بَلَغَ فِي التَّعَنُّتِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ ، فَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ ، وَلَا يَهْتَدِي بِآيَةٍ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التَّحْلُ : ١٠١] (٤).

إِذَا نَسَخَ اللَّهُ حُكْمَ آيَةٍ ، وَغَيَّرَهُ إِلَى حُكْمٍ آخَرَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لِعِبَادِهِ ، قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّكَ كَاذِبٌ تَخْتَلِقُ الْقُرْآنَ وَتَنْسُبُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَذَلِكَ لَمَّا رَأَوْا تَبْدِيلَ الْأَحْكَامِ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى صِغَرِ عُقُولِهِمْ ، وَانْهِيَارِ عَقِيدَتِهِمْ ، وَضَعْفِ يَقِينِهِمْ ، وَعَدَمِ ثَبَاتِهِمْ ، وَغَرْقِهِمْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْجَهْلِ وَالْوَهْمِ . وَمَنْ كَانَ سَائِرًا فِي هَذِهِ الْمَتَاهَةِ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى اعْتِنَاقِ الْحَقِّ، وَالسَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْإِيمَانِ .

وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ جَلْبَ الْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ وَتَحْقِيقَ مَصَالِحِهِمْ بِتَغْيِيرِ الْأَحْكَامِ ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَأَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يُرِيدُ مُسَاعَدَتَهُمْ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ .

وَالْمَشْرِكُونَ اعْتَبَرُوا تَغْيِيرَ الْأَحْكَامِ دَلِيلًا عَلَى التَّنَاقُضِ وَالسُّخْرِيَةِ ، حَيْثُ اعْتَقَدُوا _ بِكُلِّ جَهْلٍ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَسْخَرُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، يَأْمُرُهُمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ ، ثُمَّ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ غَدًا . وَهَذَا دَلِيلٌ _ وَفَقِ نَظَرَتِهِمُ الْقَاصِرَةِ _ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ مُحَمَّدٍ ، وَلَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا يَأْتِي بِالْقُرْآنِ

(٤) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٤٩١) : ((سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يُنْزِلُ الْآيَةَ فَيَعْمَلُ بِهَا مُدَّةً ثُمَّ يَنْسَخُهَا ، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ : وَاللَّهِ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا يَسْخَرُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، يَأْمُرُهُمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ ، وَيَأْتِيهِمْ غَدًا بِمَا هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ)) اهـ .

من عند نفسه . وأكثر المشركين لا يعرفون حقيقة القرآن ، ولا يفقهون قضية تبديل الأحكام ، والناس أعداء ما يجهلون ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٩) : ((« والله أعلم بما ينزل » من المصالح ، فلعل ما يكون مصلحة في وقت ، يصير مفسدة بعده فينسخه ، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبت مكانه ... » قالوا « أي الكفرة » إنما أنت مفتر » متقول على الله ، تأمر بشيء ، ثم يبدو لك فتنه عنه... « والله أعلم بما ينزل » اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم ، والتنبيه على فساد سندهم ، ويجوز أن يكون حالاً ، « بل أكثرهم لا يعلمون » حكمة الأحكام ، ولا يميزون الخطأ من الصواب)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قوله : « ما نسخ من آية أو نسيها نأت بخير منها أو مثلها » . وقال : « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل » الآية . وقال : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » [الرعد : ٣٩] . فأول ما نسخ من القرآن القبلية . وقال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » إلى قوله : « إن أرادوا إصلاحاً » [البقرة : ٢٢٨] . وذلك بأن الرجل كان إذا طلق امرأته ، فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك ، وقال : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » [البقرة : ٢٢٩] (٥) .

وقال الله تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » [النحل : ١٠٣] .

إن الله يعلم أن المشركين يقولون _ كذباً وجهلاً _ عن النبي ﷺ : إنما يعلمه بشر . وهم يقصدون أن القرآن كلام بشري لا علاقة له بالسماء ، وأن النبي ﷺ يأخذ كلامه من آدمي ، ثم ينسبه إلى الله ، ويفتري على الله الكذب . وهدفهم من هذا الاتهام الطعن في القرآن والنبوة . وهذا الاتهام باطل ، لأنه بلا دليل . مجرد تهمة وأكذوبة تلقى هنا وهناك .

أما المقصود بهذا البشر الذي يعلم النبي ﷺ _ حسب كلام المشركين _ ، فاختلف العلماء في تحديده . قال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٠) : ((يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي . وقيل : جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ، ويقرآن التوراة والإنجيل ، وكان

(٥) رواه النسائي في سننه (٦ / ٢١٢) برقم (٣٥٥٤) .

الرسول ﷺ يمرُّ عليهما ، ويسمع ما يقرّانه . وقيل : عائشاً غلام خويط بن عبد العزى ، قد أسلم ، وكان صاحب كُتُب . وقيل : سلمان الفارسي)) اه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((قالوا : إِنَّمَا يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا عَبْدُ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْكُتُبِ ، فَقَالَ اللَّهُ : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ ﴾)) (6) .

وهذه التُّهْمَةُ الباطلة التي اخترعها المشركون ، لا دليل عليها ، وهي ضد المنطق والعقل ، وهي كذبة مكشوفة بدافع الهوى والحقد والعناد . فكيف يتعلَّم النبي ﷺ اللغة العربية من شخص أعجمي ، لا علاقة له بالعربية ؟ (7) . فلسان الشخص الذي يميل إليه المشركون (يلحدون إليه) أعجمي لا يحسن العربية ، فكيف يُعلِّمُ محمداً العربية ؟! والإلحاد هو الميل عن القصد . والقرآن باللغة العربية الفصحى الذي أعجز فصحاء العرب وخطباءهم ، وفحول شعرائهم . فكيف يأتي بالقرآن العربي شخص غير عربي ؟! لا يقول بهذا عاقل . وسُمِّيَ القرآن لِسَانًا ، لأنَّ العرب تقول : اللغة لِسَان . أو المقصود باللسان البلاغة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٧٤) : ((فكيف يتعلَّم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبيٍّ أرسل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟)) اه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٠) : ((وهذا)) وهذا القرآن ، ﴿ لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة . والجملتان مُستأنفتان لإبطال طعنهم ، وتقديره يحتمل وجهين ، أحدهما : أنَّ ما سمعه منه كلام أعجمي ، لا يفهمه هو ولا أنتم ، والقرآن عربيٌّ تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٩) برقم (٣٣٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ١٥٨) : ((أي : كيف يُعلِّمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يُعارضوا منه سورة واحدة فما فَوْقَهَا ؟ . ودَكَرَ النَّقَّاشُ أَنَّ مَوْلَى جَبْرِ كَانَ يَضْرِبُهُ ويقول له : أَنْتَ تُعَلِّمُ مُحَمَّدًا ، فيقول : لا والله ، بل هو يُعَلِّمُنِي وَيَهْدِينِي . وقال ابن إسحاق : كان النبي ﷺ فيما بَلَغَنِي ، كثيرًا ما يجلس عند المَرْوَةِ إلى غلام نصرانيٍّ ، يُقال له جَبْرُ عبد بني الحضرميِّ ، وكان يقرأ الكُتُبَ ، فقال المشركون : والله ما يُعَلِّمُ مُحَمَّدًا ما يأتي به إلا جَبْرُ النصرانيِّ)) اه .

(٧) في زاد المسير (٤ / ٤٩٤) : ((قال ابن قُتَيْبَةَ : لا يكاد عَوَامُ النَّاسِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْعَجَمِيِّ وَالْأَعْجَمِيِّ وَالْعَرَبِيِّ وَالْأَعْرَابِيِّ . فالأعجمي الذي لا يُفصِّح وإن كان نازلًا بالبادية ، والعجميُّ منسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا . والأعرابي هو البدوي ، والعربي منسوب إلى العرب ، وإن لم يكن بدويًا)) .

ما تَلَقَّفه منه ؟. وثانيهما: هَبْ أَنَّهُ تَعَلَّمَ مِنْهُ المعنى باستماع كلامه ، لكن لَمْ يَتَلَقَّفْ مِنْهُ اللفظ ، لأنَّ ذلك أعجمي ، وهذا عربيٌّ ، والقرآنُ كما هُوَ مُعْجَزٌ باعتبار المعنى ، فهو مُعْجَزٌ مِنْ حيث اللفظ ، مع أَنَّ العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تَعَلُّمُها إلا بِمُلازِمَةِ مُعَلِّمٍ فائقٍ في تلك العلوم مُدَّةً مُتَطَوِّلةً . فكيفَ تَعَلَّمَ جميعَ ذلك مِنْ غُلَامٍ سَوَاقِيٍّ ، سَمِعَ مِنْهُ في بعض أوقات مُروره عَلَيْهِ كلماتٍ أعجمية ، لَعَلَّهما لَمْ يَعْرِفَا معناها ؟! . وطَعْنُهُم في القرآن بِأَمْثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عَجْزِهِم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَّ فِي الْقُرْآنِ وَخَذَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٦] .

لقد جَعَلَ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ أَغْطِيَةً تَمْنَعُهُمْ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ ، واستيعابِ معانيه . فَقُلُوبُهُمْ غارقة في الظلام ، لا يَصِلُ إِلَيْهَا نُورُ الْقُرْآنِ . وَالْأَكِنَّةُ جَمْعُ كِنَانٍ ، وهو الْغِطَاءُ . فَالْكَافِرُونَ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ لَكِنْهُمْ لَا يَفْهَمُونَهُ . وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْبَهَائِمِ تَسْمَعُ النَّدَاءَ ، لَكِنْهَا لَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ . وَهَذَا مُنْتَهَى الْخِذْلَانِ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٣٦) : ((﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي : لِئَلَّا يَفْقَهُوهُ ، أَوْ كَرَاهِيَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ، أَي أَنْ يَفْهَمُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي وَالْحُكْمِ وَالْمَعَانِي ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ (نُفَاةُ الْقَدَرِ))) اهـ .

وفي آذَانِهِمْ صَمَمٌ وَثِقَلٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقُرْآنِ وَالانْتِفَاعِ بِهِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥٠) : ((وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجَزًا مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى ، أَثْبَتَ لِمُنْكَرِهِ مَا يَمْنَعُ عَنْ فَهْمِ الْمَعْنَى وَإِدْرَاكِ اللَّفْظِ)) اهـ .

وَإِذَا وَحَّدَ النَّبِيُّ ﷺ اللهُ تَعَالَى فِي تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، انزَعَجَ الْكَافِرُونَ أَشَدَّ الانزِعَاجِ ، وَتَضَاقَعُوا بِشَكْلِ وَاضِحٍ ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ تُذَكَّرَ آلِهَتُهُمْ كَمَا يُذَكَّرُ اللهُ تَعَالَى . فَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ غَيَّرَ مَشْفُوعَ بِهِ آلِهَتُهُمْ ، أَعْرَضُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهَرَبُوا مِنْ اسْتِمَاعِ التَّوْحِيدِ . وقال ابنُ الْقَيِّمِ فِي رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ (ص ٣٠٥) : ((وَمِنْ غَيْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْرَتُهُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَدِينِهِ وَكَلَامِهِ أَنْ يَحْظَى بِهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، بَلْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ غَيْرَةٌ عَلَيْهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾)) اهـ .

وقال السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَنْشُورِ (٥ / ٢٩٨) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَكَّ فِي الْقُرْآنِ وَخَذَهُ وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ نُفُورًا ﴾

، قال : بُغْضًا لِمَا تَتَكَلَّمُ بِهِ لِنَلَّا يَسْمَعُوهُ ، كما كان قَوْمُ نُوحٍ يجعلون أصابعهم في آذانهم لِنَلَّا يَسْمَعُوا مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ)) اه .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ، قال : ((الشَّيَاطِينِ)) (8) .

وقال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٧] .

كان المشركون يستمعون من النبي ﷺ القرآن ، ذُون أن يدخل إلى قلوبهم . واستماعهم كان ممزوجًا بالاستخفاف بالقرآن والاستهزاء بالنبي ﷺ ، ولم يكن استماعًا من أجل معرفة الحق والحرص على الإيمان . وبعد استماعهم يقولون : هو ساحرٌ ومسحور . وكانوا يَتَنَاجَوْنَ في أمر النبي ﷺ ، وكانت نجواهم هي اتِّهام النبي ﷺ بالسَّحر والجنون . وقد أخبر الله تعالى أنه أعلم بما يستمعون به في حال استماعهم للقرآن من النبي ﷺ . وهذا وعيدٌ شديد لهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤١ و ٤٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾

﴿

قال المفسِّرون : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا _ عَلَيْهِ السَّلَام _ أَنْ يَتَّخِذَ طَعَامًا ، وَيَدْعُوَ إِلَيْهِ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ . وَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ : هُوَ سَاحِرٌ ، هُوَ مَسْحُورٌ . فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ :

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ ، أي : يَسْتَمِعُونَهُ . وَالباءُ زائدة . ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ . قال أبو عُبَيْدَةَ : هِيَ مَصْدَرٌ مِنْ نَاجَيْتُ ، وَاسْمٌ مِنْهَا ، فَوُصِفَ الْقَوْمُ بِهَا ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ : إِنَّمَا هُوَ عَذَابٌ ، وَأَنْتُمْ غَمٌّ ، فَجَاءَتْ فِي مَوْضِعِ مُتَنَاجِيْنَ ، وَقَالَ الرَّجَاجُ : وَالْمَعْنَى : وَإِذْ هُمْ ذَوُّو نَجْوَى . وَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَيَقُولُونَ بَيْنَهُمْ : هُوَ سَاحِرٌ وَهُوَ مَسْحُورٌ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ)) اه .

(٨) رواه الطبراني في الكبير (١٢ / ١٧٥) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٣٩) : ((وفيه رَوْحُ ابْنِ الْمُسَيَّبِ . قَالَ ابْنُ مَعِينٍ : صُوَيْلِحٌ ، وَضَعَفَهُ غَيْرُهُ ، وَقَالَ ابْنُ جَبَّانٍ : لَا تَحِلُّ الرِّوَايَةُ عَنْهُ ، وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ ثِقَاتٌ)) اه .

﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ . حِينَ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ ، أَبُو جَهْل ، والوليد بن المغيرة وغيرهما : إنكم أيها الناس تتبعون رجلاً واقفاً تحت تأثير السحر ، وقد أثر على قواه العقلية، وهم يقصدون النبي ﷺ. والهدف من هذه التهمة الباطلة تشويه صورة النبي ﷺ، وتلويت سمعته ، وإبعاد الناس عنه وعن دعوته .

وَوُضِعَ ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ للدلالة على أَنَّ نَجْوَى الْمُشْرِكِينَ وَاتِّهَامَهُمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالسَّحَرِ وَالْجَنُونِ إِنَّمَا هُوَ ظُلْمٌ ، وَلَيْسَ حُكْمًا عَادِلًا .

والكافرون _ في كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ _ هُمُ الظالمون . ظالمون لأنفسهم وظالمون لغيرهم . لقد اختاروا الكُفْرَ على الإيمان ، وهذا سَيَقُودُهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ اللَّانِهَائِيِّ ، وبالتالي ، أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ . وهذا هو ظُلْمُهُمْ لأنفسهم . أَمَّا ظُلْمُهُمْ لِلْآخَرِينَ ، فَهُوَ رَمْيُهُمْ بِاتِّهَامِ الْبَاطِلَةِ ، وَإِصْدَارِ أَحْكَامٍ ظَالِمَةٍ عَلَيْهِمْ ، لَا تَسْتَنِدُ إِلَى الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٢) : ((﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾) ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه الذي سحر فذهب بعقله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : مخدوعاً مغروراً ، قاله مجاهد)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩] . هذه الآية تكشف لنا طريقة تفكير مُشْرِكِي قُرَيْش الذين لا يؤمنون باليوم الآخر . قالوا مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ : إِذَا كُنَّا عِظَامًا بَعْدَ الْمَوْتِ وَتُرَابًا فِي قُبُورِنَا أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ .

وهذا الاستفهام بمعنى الْجَحْدِ وَالْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ . لَقَدْ اسْتَبْعَدُوا وَقَوَّعَ الْبَعْثِ . وَشُبَّهَتْهُمْ هِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ ، تَحَلَّلَتْ جُثَّتُهُ ، وَتَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ ، وَتَنَاقَرَتْ عَنَاصِرُهُ ، وَصَارَ تُرَابًا فِي التُّرَابِ . فَكَيْفَ يُمَكِّنُ جَمْعُهُ مِنْ جَدِيدٍ وَبَعْثُهُ مِنْ قَبْرِهِ ؟ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٣٨) : ((قال ابن عباس : الرُّفَاتُ الْغُبَارُ . مجاهد : التُّرَابُ ، وَالرُّفَاتُ : مَا تَكْسَرُ وَبَلَيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَالْفُتَاتِ وَالْخُطَامِ)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥٠) : ((﴿ أَوَلَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ عَلَى الْإِنْكَارِ، وَالِاسْتِبْعَادِ لِمَا بَيْنَ غَضَاضَةِ الْحَيِّ وَبُيُوسَةِ الرَّمِيمِ مِنَ الْمُبَاعَدَةِ وَالْمُنَافَاةِ)) . وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦] .

وإن كَادَ كُفَّارُ مَكَّةَ لَيَزْعَجُونَكَ وَيُضَاقِقُونَكَ بِمَكَرِهِمْ وَحِقْدِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ، لِيُخْرِجُوكَ مِنْ مَكَّةَ . وَلَوْ أَخْرَجُوكَ لَا يَبْقَوْنَ بَعْدَ خُرُوجِكَ إِلَّا مُدَّةً قَصِيرَةً ، لِأَنَّ اللَّهَ سَيُهْلِكُهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ ،

وَيَسْتَأْصِلُهُمْ جَمِيعًا ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ . وقد أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ ، لَتَمَّ إِهْلَاكُهُمْ بِعَذَابٍ لَا يَسْتَنْتِي أَحَدًا . وهذه سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي كَذَّبَتْ أَنْبِيََاءَهَا .

وَالْآيَةُ : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ تدل على سَعْيِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَعَجِيزِ النَّبِيِّ ﷺ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٦٩ و ٧٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَسَدَتْهُ الْيَهُودُ عَلَى مُقَامِهِ بِالْمَدِينَةِ ، وَكَرِهُوا قُرْبَهُ ، فَأَتَوْهُ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّد ، أَنْبِیَّ أَنْتَ ، قَالَ : " نَعَمْ " . قَالُوا : فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَذِهِ بَارِضُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنْ أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ الشَّامُ ، فَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا ، فَائِثِ الشَّامِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَشْخَصَ عَنِ الْمَدِينَةِ (يُعَادِرُهَا) ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنَمٍ : لَمَّا قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ هَذَا ، صَدَّقَ مَا قَالُوا ، وَغَزَا غَزْوَةَ تَبُوكَ ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الشَّامَ ، فَلَمَّا بَلَغَ تَبُوكَ ، نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

وَالثَّانِي أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ أَهْلَ مَكَّةَ ، هَمُّوا بِإِخْرَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالْخُرُوجِ ، وَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ إِخْبَارًا عَمَّا هَمُّوا بِهِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ ، وَلَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ مَا نُظِرُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَفَّهُمْ عَنْ إِخْرَاجِهِ ، حَتَّى أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ ، وَقِيلَ : مَا لَبِثُوا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ بِنَدْرٍ . فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمُ الْيَهُودُ ، وَالْأَرْضُ الْمَدِينَةُ . وَعَلَى الثَّانِي : هُمْ الْمُشْرِكُونَ ، وَالْأَرْضُ مَكَّةَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ... قَالَ الْأَخْفَشُ : خِلَافَكَ فِي مَعْنَى خِلْفِكَ ، وَالْمَعْنَى : لَا يَلْبِثُونَ بَعْدَ خُرُوجِكَ إِلَّا قَلِيلًا ، أَيْ : لَوْ أَخْرَجُوكَ لَأَسْتَأْصِلَنَاهُمْ بَعْدَ خُرُوجِكَ بِقَلِيلٍ ، وَقَدْ جَازَاهُمُ اللَّهُ عَلَى مَا هَمُّوا بِهِ ، فَقَتَلَ صِنَادِيدَ الْمُشْرِكِينَ بِنَدْرٍ ، وَقَتَلَ مِنَ الْيَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَأَجْلَى النُّضِيرِ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٤) : ((قِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ ، إِذْ أَشَارُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسُكْنَى الشَّامِ بِلَادِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَرَكَ سُكْنَى الْمَدِينَةِ . وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَسُكْنَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ بِتَبُوكَ وَفِي صِحَّتِهِ نَظَرٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَغْزُ تَبُوكَ عَنْ قَوْلِ الْيَهُودِ ، وَإِنَّمَا غَزَاهَا امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التَّوْبَةُ : ١٢٣] . وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ

وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿ [التوبة: ٢٩] . وَغَزَاهَا لِيَقْتَصَّ ، وَيَنْتَقِمَ مِمَّنْ قَتَلَ أَهْلَ مُؤْتَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : ٩٠] .
وقال المشركون للنبي ﷺ : لَنْ نُصَدِّقَكَ يَا مُحَمَّد ، وَلَنْ نُؤْمِنَ بِمَا جِئْتَ بِهِ ، حَتَّى تُخْرِجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ عَيْنًا يَنْبُعُ الْمَاءُ مِنْهَا وَلَا يَجِفُّ . وَهُمْ إِنَّمَا يَطْلُبُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا بَعْدَ عَجْزِهِمُ التَّامِ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ . فَالْحُجَّةُ قَدْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِمْ بِمُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ وَبِاقِي الْمُعْجَزَاتِ ، فَحَاسِلُ الْهَرُوبِ مِنْ هَذَا الْإِلْزَامِ ، وَذَلِكَ بِطَلَبِ هَذِهِ الْآيَةِ . وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ عِنَادًا ، وَمِنْ أَجْلِ السُّخْرِيَّةِ وَالِاسْتَهْزَاءِ وَإِضَاعَةِ الْوَقْتِ ، وَلَا يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ ، وَحِرْصًا عَلَى الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ . وَلَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى الْإِيمَانِ ، لَفَعَلَ اللَّهُ مَا طَلَبُوهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٨٧) : ((الْيَنْبُوعُ : الْعَيْنُ الْجَارِيَّةُ . سَأَلُوهُ أَنْ يُجْرِيَ لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْضِ الْحِجَازِ ، هَهُنَا وَهَهُنَا ، وَذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَسِيرٌ ، لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ ، وَلَأَجَابَهُمْ عَلَى جَمِيعِ مَا سَأَلُوهُ وَطَلَبُوا ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٨٦) : ((﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ الْآيَةُ . نَزَلَتْ فِي رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ ، مِثْلُ : عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ ، وَأَبِي سَفْيَانَ وَالنَّضَرَ ابْنَ الْحَارِثِ ، وَأَبِي جَهْلٍ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خُلْفٍ ، وَأَبِي الْبَخْتَرِيِّ ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ ، وَغَيْرِهِمْ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَرْضَوْا بِهِ مُعْجَزَةً ، اجْتَمَعُوا فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ابْعَثُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

فَكَلِّمُوهُ حَتَّى تُعْذَرُوا فِيهِ ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ إِنْ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْكَ لِيُكَلِّمُوكَ فَأَتَهُمْ ، فَجَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ قَدْ بَدَأَ لَهُمْ فِيمَا كَلَّمَهُمْ فِيهِ بَدْوٌ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَرِيصًا يَحِبُّ رُشْدَهُمْ ، وَيَعُزُّ عَلَيْهِ عَنَّتُهُمْ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا مُحَمَّدُ !، إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنُكَلِّمَكَ وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَى قَوْمِهِ مَا أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمِكَ . لَقَدْ شَتَمَتِ الْآبَاءُ ، وَشَتَمَتِ الْآلِهَةُ ، وَسَفَّهَتِ الْأَحْلَامَ ، وَفَرَّقَتِ الْجَمَاعَةَ ، فَمَا بَقِيَ أَمْرٌ قَبِيحٌ إِلَّا قَدْ جِئْتَهُ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُ . فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَطْلُبُ بِهِ مَالًا ، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِينَا فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ

كنت تريد به مُلْكًا مَلَكْنَاكَ عَلَيْنَا ، وإن كان هذا الذي يَأْتِيكَ رَئِيًّا تَرَاهُ قد غَلَبَ عَلَيْكَ ، وكانوا يُسَمُّونَ التَّابِعَ مِنَ الْجَنِّ رَئِيًّا ، فربما كان ذلك ، بَذَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي طَلَبِ الطَّبِّ لَكَ ، حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ ، أو نُعَذِّرَ فِيكَ . فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما بي ما تقولون ، ما جِئْتُ بِمَا جِئْتُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ ، ولا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، ولا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ ، ولكنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ، وأنزل عليَّ كِتَابًا ، وأمرني أن أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، ونصحتُ لَكُمْ ، فإن تقبلوا مِنِّي ما جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حِطَّتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وإن تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " ، أو كما قال ﷺ . قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل مِنَّا شَيْئًا مِمَّا عَرْضْنَاهُ عَلَيْكَ ، فإنكَ قد عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَضْيَقُ بَلَدًا ، ولا أَقَلُّ مَاءً ، ولا أَشَدُّ عَيْشًا مِنَّا ، فَسَلْ لَنَا رَئِيكَ الَّذِي بَعَثْتَ بِمَا بَعَثْتَ بِهِ ، فَلْيُسِّرْ عَنَّا هَذِهِ الْجِبَالَ الَّتِي قَدْ صَيَّقَتْ عَلَيْنَا ، وَلْيَسِطْ لَنَا بِلَادُنَا ، وَلْيُخْرِقْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا كَأَنْهَارِ الشَّامِ ، وَلْيَبْعَثْ لَنَا مَن مَضَى مِنْ آبَائِنَا ، وَلْيَكُنْ فِيمَنْ يُبْعَثُ لَنَا قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ ، فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صِدْقٍ ، فَنَسْأَلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ : أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ ، فَإِنْ صَدَّقُوا وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ صَدَقْنَاكَ ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزَلَتَكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ ، فَقَالَ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ : " ما بهذا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا بَعَثَنِي بِهِ ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوهُ فَهُوَ حِطَّتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " . قالوا : فإذا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ ! ، سَلْ رَئِيكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكًا يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ وَيُرَاجِعُنَا عَنْكَ ، وَاسْأَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جَنَانًا وَقُصُورًا وَكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ يُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي ، فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُهُ ، حَتَّى نَعْرِفَ فَضْلَكَ وَمَنَزَلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا كَمَا تَزْعُمُ . فقال لهم رسول الله ﷺ : " ما أنا بفَاعِلٍ ، وما أنا الَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا ، وما بُعِثْتُ بِهَذَا إِلَيْكُمْ ، ولكنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بَشِيرًا وَنَذِيرًا " ، أو كما قال . " فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حِطَّتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوه عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ " . قالوا : فَاسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسْفًا كَمَا زَعَمْتَ أَنَّ رَئِيكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَعَلَ ، فَإِنَّا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ . فقال رسول الله ﷺ : " ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ " . قالوا : يا محمد ، فما عَلِمَ رَئِيكَ أَنَّا سَنَجْلِسُ مَعَكَ وَنَسْأَلُكَ عَمَّا سَأَلْنَاكَ عَنْهُ ، وَنَطْلُبُ مِنْكَ مَا نَطْلُبُ ، فَيَتَقَدَّمَ إِلَيْكَ فَيُعَلِّمُكَ بِمَا تُرَاجِعُنَا بِهِ ، وَيُخْبِرُكَ مَا هُوَ صَانِعٌ فِي ذَلِكَ بِنَاءً ، إِذْ لَمْ نَقْبَلْ مِنْكَ مَا جِئْتَنَا بِهِ . إِنَّهُ قَدْ بَلَغْنَا أَنَّكَ إِنَّمَا يُعَلِّمُكَ هَذَا رَجُلٌ مِنَ الْيَمَامَةِ يُقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِالرَّحْمَنِ أَبَدًا . فَقَدْ أَعَذَرْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَتْرُكَكَ وَمَا بَلَغْتَ

مَتَا حَتَّى تُهْلِكَ أَوْ تُهْلِكَ. وقال قائلهم : نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَهِيَ بَنَاتُ اللَّهِ. وقال قائلهم: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، قَامَ عَنْهُمْ ، وَقَامَ مَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ ، وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِهِ وَهُوَ لِعَاتِكَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا مُحَمَّدُ ! ، عَرَضَ عَلَيْكَ قَوْمُكَ مَا عَرَضُوا فَلَمْ تَقْبَلْهُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوكَ لِأَنْفُسِهِمْ أُمُورًا لِيَعْرِفُوا بِهَا مَنْزِلَتَكَ مِنَ اللَّهِ ، كَمَا تَقُولُ وَيُصَدِّقُوكَ وَيَتَّبِعُوكَ فَلَمْ تَفْعَلْ !، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَأْخُذَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَضْلِكَ عَلَيْهِمْ، وَمَنْزِلَتِكَ مِنَ اللَّهِ ، فَلَمْ تَفْعَلْ ! ، ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تُعَجِّلَ لَهُمْ بَعْضَ مَا تُخَوِّفُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ، فَلَمْ تَفْعَلْ ! ، أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ ، فَوَاللَّهِ لَا أَوْمِنُ بِكَ أَبَدًا حَتَّى تَنْتَحِدَ إِلَى السَّمَاءِ سُلَّمًا ، ثُمَّ تَرْقَى فِيهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ ، حَتَّى تَأْتِيَهَا ، ثُمَّ تَأْتِي مَعَكَ بِصَكَ مَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، يَشْهَدُونَ لَكَ أَنَّكَ كَمَا تَقُولُ . وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُصَدِّقُكَ !. ثُمَّ انصرفت عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ

إِلَى أَهْلِهِ حَزِينًا أَسِفًا لِمَا فَاتَهُ مِمَّا كَانَ يَطْمَعُ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ حِينَ دَعَاؤُهُ ، وَلَمَّا رَأَى مِنْ مُبَاعَدَتِهِمْ إِيَّاهُ. كُنْهُ لَفْظُ ابْنِ إِسْحَاقَ . وَذَكَرَ الْوَاحِدِيُّ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ((اهـ .

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا بِقَوْمِهِ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ ، رَغِمَ عِدَاوَتُهُمْ لَهُ ، وَحَرْبُهُمْ عَلَيْهِ . فَقَدْ بَلَغَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ بِأَمَانَةٍ وَإِخْلَاصٍ ، وَنَصَحَ لَهُمْ ، وَحَاوَلَ جَاهِدًا هِدَايَتَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يَقْصُرْ . لَكِنِ الْمَشْكَالَةُ كَامِنَةٌ فِي عَقُولِ الْمُشْرِكِينَ وَقُلُوبِهِمْ . فَهُمْ يَنْطَلِقُونَ مِنْ مَوْقِفٍ مَسْبُوقٍ رَافِضٍ لِلْإِيمَانِ ، لِذَلِكَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ عِنَادًا وَتَعَنُّتًا وَإِضَاعَةً لِلْوَقْتِ ، وَلَا يَطْلُبُونَهَا بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ ، وَحِرْصًا عَلَى الْإِيمَانِ. وَقَدْ جَاءَهُمْ أَعْظَمُ مُعْجِزَةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. وَهُوَ كِتَابٌ بَلَّغَهُمْ، وَهُمْ فَصَحَاءُ الْعَرَبِ أَهْلُ الْبَلَاغَةِ وَالشَّعْرِ وَالْخُطَابَةِ وَالْبَيَانِ . وَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْقُرْآنِ الَّذِي تَحَدَّاهُمْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ . فَلَمَّا ذَا لَمْ يُعَارِضُوا الْقُرْآنَ وَيُؤَلِّفُوا كَلَامًا يَتَفَوْقَ عَلَى الْقُرْآنِ، إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ؟ . وَعِنْدُنَا سَيُفْجِمُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَيَقْضَحُونَ أَمْرَهُ بَيْنَ النَّاسِ . لَقَدْ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، فَصَارُوا يَخْتَرِعُونَ آراءَ شَخْصِيَّةٍ مِنْ بَنَاتِ أَفْكَارِهِمْ، وَيَطْلُبُونَ آيَاتٍ وَفُقَ أَهْوَائِهِمْ وَأَمْزَجَتُهُمُ الْفَاسِدَةُ . لَقَدْ أُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، وَظَهَرَ عَجْزُهُمْ عَنْ مُقَارَعَةِ الدَّلِيلِ بِالْأَدْلِيلِ . لِذَلِكَ اعْتَمَدُوا سِلَاحَ الْإِغْرَاءِ مُحَاوِلِينَ خِدَاعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَذَلِكَ بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِتَقْدِيمِ خُطَامِ الدُّنْيَا لَهُ، مِنْ مَالٍ وَشَرَفٍ وَمُلْكٍ وَجَاهٍ وَسُلْطَانٍ . وَهَذَا يَدُلُّ بوضوح على أن تفكير المشركين محصور في متاع الدنيا الزائل، ولا ينظرون إلى أبعد من هذا. فالدنيا بالنسبة للمشركين هي البداية والنهاية، مجرد

أموال ومُلك وسيادة وشرف وافتخار بين القبائل واستمتاع بالأولاد والنساء . ولا يُوجد شيء بعد الموت . وهذا يدل بوضوح على أن المشركين لا يبحثون عن الحق . إنما رَضُوا بالحياة الدنيا ، وهي مُنتهى عِلْمهم ، وأقصى أحلامهم ، ولا شيء آخر .

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَايَةِ وَالْإِيمَانِ ، لَفَعَلَهَا لَهُمْ . وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَنْ يَعْجَزَ عَنِ إِخْرَاجِ عَيْنِ مَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ . وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ عِنَادًا وَسُخْرِيَّةً . لِذَلِكَ لَمْ يُظْهِرِ اللَّهُ لَهُمْ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبُوهَا . وَلَوْ أَظْهَرَ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ لَمَّا آمَنَ الْمَشْرِكُونَ ، وَأَصْرُوا عَلَى شُرَكَاهُمْ وَبَاطِلِهِمْ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) ﴾ [يُونُس] . ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَعْجِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الأنعام : ٩١] .

هذا قول المشركين للنبي ﷺ . حيث طلبوا أن يكون للنبي ﷺ بستان يشتمل على النخيل والعنب ، ويجري الأنهار بقوة في وسط البستان (الجنة) .

وكأن المشركين يقولون : إذا لم تُفَجَّر الأنهار من أجلك يا محمد ، فَفَجَّرْها من أجلك ، ولتكن مُلْكًا لَكَ ، لا يُشَارِكُكَ فِيهَا أَحَدٌ ، كي نعرف فَضْلَكَ عَلَيْنَا ، وَتَمَيُّزَكَ عَنَّا ، وتستغني عن المشي في الأسواق ، والسَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، وتصبح غَنِيًّا ، وَلَدَيْكَ مُمْتَلَكَاتٌ أَكْثَرُ مِنَّا .

وقال الطبري في تفسيره (٨ / ١٤٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وقال لك يا محمد مُشْرِكُو قَوْمِكَ : لَنْ نُصَدِّقَكَ حَتَّى تَسْتَبِطَ لَنَا عَيْنًا مِنْ أَرْضِنَا ، تَذْفُقُ بِالماءِ أَوْ تَقُورَ ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بُسْتَانٌ وَهُوَ الْجَنَّةُ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ، فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا بِأَرْضِنَا هَذِهِ الَّتِي نَحْنُ بِهَا . خِلَالَهَا يَعْنِي : خِلَالَ النَخِيلِ وَالْكُرُومِ . وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ : ﴿ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ بَيْنَهَا فِي أُصُولِهَا تَفْجِيرًا بِسَبَبِ أُنْبِيئِهَا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

يستمرُّ المشركون في عِنَادِهِمْ وَغُرُورِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ وَرَفْضِهِمْ لِلْإِيمَانِ .

أو تُسْقِطَ السماءَ على حَدِّ زَعْمِكَ يا محمد عَلَيْنَا قِطْعًا (كما زَعَمْتَ يا محمد أَنَّ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ فَعَلَ ذَلِكَ) أو تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ كَيْ نَرَاهُمْ مُقَابِلَةً وَعِيَانًا ، لنعرف أنك صادق ، ونؤمن بِكَ . وقال ابن كثير في تفسيره (٨٧ / ٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ ﴾ ، أَي : إِنَّكَ وَعَدْتَنَا أَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ ، وَتَهْوِي ، وَتُذَلِّي أَطْرَافَهَا ، فَاجْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَأُسْقِطْهَا كِسْفًا ، أَي قِطْعًا ، كَقَوْلِهِ حِكَايَةً عَنِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ اَللّٰهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢] . وكذلك سَأَلَ قَوْمٌ شُعَيْبَ مِنْهُ ، فَقَالُوا : ﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] . فعاقبهم اللهُ بِعَذَابٍ يَوْمَ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . وَأَمَّا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، فَسَأَلَ إِنْظَارَهُمْ وَتَأْجِيلَهُمْ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ ، فَإِنْ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ، حَتَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أُمَيَّةَ الَّذِي تَبَعَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ ، أَسْلَمَ إِسْلَامًا تَامًا ، وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

يُواصل الكافرون اقتراحاتهم النابعة من العناد والتعنُّت والجحود : أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب ، أي : نحنُ لا نُؤْمِنُ بِكَ يا محمد مَعَ هَذَا الْفَقْرِ الَّذِي نَرَاهُ ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فَاحِشَ الشَّرِّاءِ حَتَّى نُصَدِّقَكَ . أو تَصْعَدُ فِي سُلَّمٍ إِلَى السَّمَاءِ ، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ، وَلَنْ نُصَدِّقَكَ مِنْ أَجْلِ صُعُودِكَ إِلَى السَّمَاءِ ، حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مَنْشُورًا يُصَدِّقُكَ ، وَيَدُلُّ عَلَى نُبُوتِكَ . نَقْرُؤُهُ جَمِيعًا ، أَوْ يَقْرُؤُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا .

وقد جاءَ الرُّدُّ الإلهيُّ الْمُحْكَمُ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ ، تَنْزَرَهُ اللَّهُ وَتَعَالَى وَتَقْدَسُ ، هَلْ أَنَا إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، اخْتَارَنِي لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ . فَكَيْفَ أَسْتَطِيعُ فِعْلَ مَا تُرِيدُونَ وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ؟ . أو : تَنْزِيلُهَا لِلَّهِ أَنْ يَعْجِزَ عَنْ شَيْءٍ ، إِنِّي بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَسْتُ مُلْكًا حَتَّى أَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ . إِنِّي رَسُولٌ أَبْلَغُ رِسَالَةَ اللَّهِ ، وَلَا أَفْرِضُ شُرُوطِي عَلَى اللَّهِ ، وَلَا سُلْطَةٌ لِي عَلَى الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ . وَلَا يُوجَدُ مَخْلُوقٌ جَاءَ بِهِذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي طَلَبْتُمُوهَا . وَالرَّسُولُ إِذَا جَاءَ بِمُعْجِزَةٍ وَاحِدَةٍ فَهِيَ كَافِيَةٌ ، وَقَدْ أُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ . وَلَوْ طَلَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ مُعْجِزَةً حَسَبَ هَوَاهُ وَرَأْيِهِ الشَّخْصِيِّ ، لَعَمَّتِ الْفَوْضَى ، وَفَقَدَ الْإِيمَانُ مَعْنَاهُ . وَصَارَ النَّاسُ يَقْرِضُونَ شُرُوطَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ . فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْآيَاتِ وَفَقَّ حِكْمَتُهُ فِي الزَّمَانِ

الذي يُريد ، والمكان الذي يُريد . والمخلوق لا يفرض شروطه على الخالق . وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَفْعَلَ
الآيَاتِ الَّتِي طَلِبَهَا الْكَافِرُونَ لَفَعَلَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ الْآيَاتِ حَسَبَ اقْتِرَاحَاتِ النَّاسِ وَأَهْوَائِهِمْ .
فَلَا أَحَدٌ يَتَحَكَّمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا أَحَدٌ يُشَارِكُهُ فِي الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى رَدَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ، لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ ، وَلَا يَسْعَوْنَ إِلَى مَعْرِفَةِ الدَّلِيلِ
وَطَلَبِ الْحَقِّ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْطَى مُحَمَّدًا ﷺ مُعْجَزَاتٍ تُغْنِي عَمَّا طَلَبُوهُ . وَأَعْظَمُ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ .
وَهُنَاكَ مُعْجَزَاتٌ أُخْرَى عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرَ : انشقاق القمر ، ونَبْعُ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ
ﷺ .

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْكَافِرِينَ يُحَاوِلُونَ تَعْجِيزَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَفَرْضَ الشُّرُوطِ عَلَيْهِ ، وَاخْتِرَاعَ أَشْيَاءَ مِنْ
بَنَاتِ أَفْكَارِهِمْ . وَهَذَا الْأَسْلُوبُ لَيْسَ أَسْلُوبُ الْبَاحِثِينَ عَنِ الْحَقِّ ، الْحَرِيصِينَ عَلَى الْإِيمَانِ .
وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٨٧) : ((« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا »)) أَيُ:
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ سُلْطَانِهِ وَمُلْكُوته ، بَلْ هُوَ الْفَعَالُ
لِمَا يَشَاءُ . إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلَى مَا سَأَلْتُمْ ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُجِبْكُمْ . وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ إِلَيْكُمْ أُبَلِّغُكُمْ
رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأَمُرُّكُمْ فِيمَا سَأَلْتُمْ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -)) اهـ .
وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ٢٨٨) : ((« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي »)) وَقَرَأَ أَهْلُ مَكَّةَ وَالشَّامِ : "
قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي " يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ ، أَيُ : قَالَ ذَلِكَ تَنْزِيهًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَعْجَزَ عَنْ شَيْءٍ ،
وَعَنْ أَنْ يُعْتَرِضَ عَلَيْهِ فِي فِعْلٍ . وَقِيلَ : هَذَا كُلُّهُ تَعَجُّبٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَعْجَزَ عَنْ شَيْءٍ ، وَعَنْ
أَنْ يُعْتَرِضَ عَلَيْهِ فِي فِعْلٍ . وَقِيلَ : هَذَا كُلُّهُ تَعَجُّبٌ عَنْ فَرْطِ كُفْرِهِمْ وَاقْتِرَاحَاتِهِمْ . الْبَاقُونَ : « قُلْ »

عَلَى الْأَمْرِ . أَيُ : قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : « هَلْ كُنْتُ » أَيُ مَا أَنَا « إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » أَتَبِعْ مَا يُوحَى
إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ، وَيَفْعَلِ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ ، فَهَلْ سَمِعْتُمْ أَحَدًا
مِنَ الْبَشَرِ أَتَى بِهِذِهِ الْآيَاتِ ؟ ! . وَقَالَ بَعْضُ الْمُلْحِدِينَ : لَيْسَ هَذَا جَوَابًا مُقْنِعًا ، وَغَلَطُوا ، لِأَنَّهُ
أَجَابَهُمْ فَقَالَ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ لَا أَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا سَأَلْتُمُونِي ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَتَخَيَّرَ عَلَى رَبِّي ، وَلَمْ
تَكُنِ الرُّسُلُ قَبْلِي يَأْتُونَ أُمَّمَهُمْ بِكُلِّ مَا يُرِيدُونَهُ وَيَغْوُونَهُ ، وَسَبِيلِي سَبِيلُهُمْ ، وَكَانُوا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوتِهِمْ ، فِإِذَا أَقَامُوا عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، لَمْ يَجِبْ لِقَوْمِهِمْ أَنْ
يَقْتَرَحُوا غَيْرَهَا . وَلَوْ وَجَبَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِكُلِّ مَا يَقْتَرَحُونَهُ مِنَ الْآيَاتِ ، لَوَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

بِمَنْ يَخْتَارُونَهُ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَوْ جَبَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَقُولَ : لَا أُوْمِنُ حَتَّى أُوتَى بَآيَةٍ خِلَافَ مَا طَلَبَ غَيْرِي ، وَهَذَا يُوَوِّلُ إِلَى أَنْ يَكُونَ التَّدْبِيرُ إِلَى النَّاسِ ، وَإِنَّمَا التَّدْبِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى)) اهـ .
وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَجِئْ لَجَمْعِ خُطَامِ الدُّنْيَا ، وَالْعَيْشِ فِي قُصُورِ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ بَيْنَ الْجَوَارِي وَالْخُدَمِ ، وَلَمْ يَجِئْ لِلْمُتَاجِرَةِ بِالْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ . إِنَّهُ ﷺ يُبَلِّغُ رِسَالَةَ اللَّهِ بِأَمَانَةٍ وَصِدْقٍ بَلَا زِيَادَةَ وَلَا نَقْصَانٍ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا عَائِشَةُ ، لَوْ شِئْتُ لَسَارَتَ مَعِيَ جِبَالُ الذَّهَبِ . جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْرَتَهُ لَتَسَاوِي الْكَعْبَةَ ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : إِنَّ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا ، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلَكًا)) . قَالَ : ((فَظَنَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ)) ، قَالَ : ((فَأَشَارَ عَلَيَّ أَنْ ضَعَّ نَفْسَكَ)) ، قَالَ : ((فَقُلْتُ : نَبِيًّا عَبْدًا)) . قَالَتْ : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مُتَكِنًا ، يَقُولُ : ((آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ)) [سَبَقَ تَخْرِيجُهُ وَشَرْحُهُ]

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] .

امْتِنَاعُ أَكْثَرِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ كَانَ بِسَبَبِ تَعَجُّبِهِمْ وَاسْتِغْرَابِهِمْ مِنْ بَعَثَةِ الْبَشَرِ رَسُولًا . وَوَقَفَ تَفَكِيرُهُمُ الْقَاصِرُ : كَيْفَ يَكُونُ الرَّسُولُ إِنْسَانًا مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ ؟ . يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَلَكًا ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَعْظَمُ مِنَ الْبَشَرِ وَأَكْثَرُ طَهَارَةً مِنْهُمْ . هَذِهِ هِيَ وَجْهَةٌ نَظَرِ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .
وَمَا مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ حِينَ جَاءَهُمُ الْبَيَانُ وَالْإِرْشَادُ فِي الْقُرْآنِ ، إِلَّا قَوْلُهُمْ بِكُلِّ تَعَجُّبٍ وَإِنْكَارٍ :

﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : هَلَّا بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا رَسُولًا .

وَقِيلَ : الْمَقْصُودُ بِالنَّاسِ هُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ تَحْدِيدًا . أَيْ : مَا مَنَعَهُمُ الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ وَنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا قَوْلُهُمْ : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ . وَالْهَمْزَةُ لِلِاسْتِنْكَارِ وَالِاسْتِغْبَادِ . وَمَعْنَى كَلَامِهِمْ : مِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ (مِنْ جِنْسِنَا) ، فَاللَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ مِنَ الْبَشَرِ . وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ بَعَثَ رَسُولَ لَجَعَلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَهَذَا مُجَرَّدُ قَوْلٍ قَالُوهُ بِأَفْوَاهِهِمْ ، نَابِعٌ مِنْ جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَيدل على تَعَجُّبِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَلَا بُرْهَانَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَّضِحُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا ﴾ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٨٩) : ((فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فَرْطَ عِنَادِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا : أَنْتَ مِثْلُنَا ، فَلَا يَلْزِمُنَا الْإِنْقِيَادَ ، وَغَفِلُوا عَنِ الْمَعْجَزَةِ)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٦٧) : ((﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أي : وما مَنَعَهُمُ الْإِيمَانَ بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ وَظُهُورِ الْحَقِّ ، ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ إِلَّا قَوْلُهُمْ هَذَا . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ شُبْهَةٌ تَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ إِلَّا إِنْكَارُهُمْ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ بَشَرًا)) اهـ .

لقد مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ بَعَثَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولَ مِنْ جِنْسِهِمْ ، إِنْسانَ مِثْلَهُمْ ، كي يسهل التعامل معه ومُخاطبته ومُجالسته . وَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ إِلَى الْبَشَرِ مَلَكًا ، لَمَا حَدَّثَتْ الْأَلْفَةُ وَالْإِنْسِجَامَ لاختلاف الطبيعة الْخَلْقِيَّةِ ، وَلَمَا اسْتَطَاعَ النَّاسُ مُوَاجَهَتَهُ وَالِاسْتِفَادَةَ مِنْ عِلْمِهِ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

أَرشَدَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى طَرِيقَةِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَرَهُ بِالْإِجَابَةِ عَنْ شُبْهَتِهِمُ الَّتِي تَعَلَّقُوا بِهَا .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الَّذِي تَعَجَّبُوا وَاسْتَنْكَرُوا أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا : لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ بَدَلُ الْبَشَرِ مَلَائِكَةٌ مُسْتَوْتُونَ مُقِيمُونَ ، وَيُمَارِسُونَ حَيَاتَهُمْ بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا مِنْ جِنْسِهِمْ ، لِأَنَّ كُلَّ كَائِنٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ . وَلَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمٍ رَسُولٌ إِلَّا مِنْ جِنْسِهِمْ ، كَيْ يَسْتَطِيعُوا مُخَاطَبَتَهُ وَفَهْمَ كَلَامِهِ . وَبِمَا أَنْكُمْ بَشَرٌ ، فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ رَحْمَةً بِكُمْ ، وَلُطْفًا بِحَالِكُمْ . لَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ عَنْ شُبْهَتِهِمْ ، وَفَنَدَ كَلَامَهُمُ الْبَاطِلَ . وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّ رَسُولَ كُلِّ جِنْسٍ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣٧٢) : ((أَي : لَوْ وَجَدَ وَثَبَتْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ بَدَلًا مِنْ فِيهَا مِنَ الْبَشَرِ مَلَائِكَةٌ ، يَمْشُونَ عَلَى الْأَقْدَامِ ، كَمَا يَمْشِي الْإِنْسُ مُطْمَئِنِّينَ ، مُسْتَقَرِّينَ فِيهَا ، سَاكِنِينَ بِهَا . قَالَ الرَّجَاجُ : مُطْمَئِنِّينَ مُسْتَوْتِينَ فِي الْأَرْضِ . وَمَعْنَى الطُّمَأْنِينَةِ السُّكُونُ . فَالْمُرَادُ هَا هُنَا الْمَقَامُ وَالِاسْتِيطَانُ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : سَكَنَ الْبَلَدَ فُلَانٌ ، إِذَا أَقَامَ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَ مَاشِيًا مُتَقَلِّبًا فِي حَاجَاتِهِ .

﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ حَتَّى يَكُونَ مِنْ جِنْسِهِمْ . وَفِيهِ إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الرُّسُلَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ ، فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ اعْتَبَرَ فِي تَنْزِيلِ الرَّسُولِ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ أَمْرَيْنِ : الْأَوَّلُ - كَوْنُ سُكَّانِ الْأَرْضِ مَلَائِكَةً ، وَالثَّانِي - كَوْنُهُمْ مَاشِينَ عَلَى الْأَقْدَامِ غَيْرِ

قادرين على الطيران بأجنحتهم إلى السماء ، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لطاروا إليها ، وسمِعوا من أهلها ما يجب معرفته وسماعه ، فلا يكون في بعثة الملائكة إليهم فائدة)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] .

لقد طلب المشركون _ تَعَنُّتًا وَعِنَادًا _ أن يأتيَ محمد بِمُعْجَزة تدل على صدقه وصحة رسالته ، مثل ناقة صالح ، أو عصا موسى . إنهم يقترحون الآيات ، ويطلبون من النبي ﷺ أن يأتي بها ، كما جاء الأنبياء من قبله بالآيات والمعجزات .

وقد ردَّ الله عليهم ، وبَيَّنَ لهم أنَّ القرآن هو المعجزة الخالدة ، والآية الباهرة ، التي لا تقنى ولا تزول ، وهي باقية إلى يوم القيامة . والقرآن هو أعظم المعجزات على الإطلاق ، لأن كل المعجزات انتهت واختفت وزالت من الوجود ، إلا القرآن ، فهو باقٍ إلى يوم القيامة ، لا يختفي ولا يغيب .

لقد جاء محمد ﷺ بالقرآن ، وهو الأُمِّي الذي لا يقرأ ولا يكتب . وقد عَجَزَ فُصحاء العرب وشُعراؤهم وخطبائهم أن يعارضوا القرآن . وهذا دليلٌ واضح على صدق محمد ﷺ . والقرآن يحتوي على أحوال الدنيا والآخرة ، وأخبار الأمم السابقة ، والوعد والوعيد ، والبشارة والإنذار . وقد بَشَّرَت الكتب الإلهية السابقة بالقرآن وبمحمد ﷺ ، وهذا دليلٌ على أن القرآن كلامُ الله ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله . والاستفهام في الآية : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ لتوبيخ المشركين وتفريعهم .
والأمم السابقة طلبت الآيات ثم كفرت بها ، فعُذِّبُوا قَوْرًا ، ولم يتم إمهالهم . وقد يكون حال مُشركي العرب كحال الأمم السابقة ، فيتم إهلاكهم ذون آية مهلة ولا فرصة . وقد رحِمَ الله العرب بأن أمهلهم ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ، وأعطاهم الفرصة تَلَوُ الفرصة ، كي يُصَحِّحُوا مسارهم ، ويُعيدوا حساباتهم ، وهذا إكرامٌ لنبيِّ العرب محمد ﷺ ، ورفعًا لشأنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣١) : ((يقول تعالى مُخْبِرًا عن الكفار في قولهم : ﴿ لَوْلَا ﴾ أي : هَلَّا يَأْتِينَا محمد بآيةٍ مِنْ رَبِّهِ ، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ؟ . قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يعني : القرآن الذي أنزله عليه الله ، وهو أُمِّي لا يُحَسِّن الكتابة ، ولم يُدَارِس أهل الكتاب . وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف

الدُّهُور ، بما يُوافقه عليه الكتب المتقدّمة ، الصحيحة منها ، فإنَّ القرآنَ مُهيمنٌ عليها ، يُصدّق الصحيح ، ويُبين خطأ المكذوب فيها وعليها)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٣٣٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَيِّنْهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾

أي : أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ فِي الْقُرْآنِ بَيَانٌ مَا فِي الْكُتُبِ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا لَمَّا سَأَلُوا الْآيَاتِ ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهَا ، فَمَا يُؤْمِنُهُمْ أَنْ تَكُونَ حَالُهُمْ فِي سُؤَالِ الْآيَاتِ كَحَالِ أَوْلَئِكَ)) اهـ .
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَا مِنْ أَنْبِيَاءٍ مِنْ نَبِيِّ ، إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ ، آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْي ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) (٩) .

كُلُّ نَبِيٍّ أَعْطَاهُ اللَّهُ مُعْجَزَةً (آيَةً خَارِقَةً لِلْعَادَةِ) أَوْ أَكْثَرَ ، تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ بُرْهَانِهِ .
أَمَّا مُعْجَزَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهِيَ الْقُرْآنُ (كَلَامُ اللَّهِ) . وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْخَالِدَةُ الْبَاقِيَةُ حَتَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَمَّا مُعْجَزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ فَانْتَهَتْ وَزَالَتْ ، وَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ . وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ لَهُ مُعْجَزَاتٌ كَثِيرَةٌ ، لَكِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ مُعْجَزَتُهُ الْعَظْمَى الْبَاقِيَةُ ، الَّتِي تَحْدَى بِهَا الْإِنْسَ وَالْجِنَ .

وقال الحافظ في الفتح (٩ / ٧٠٦) : ((أَيُّ أَنَّ مُعْجَزَتِي الَّتِي تَحْدَتْ بِهَا الْوَحْيُ ، الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيَّ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، لَمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الْوَاضِحِ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ حَضْرَ مُعْجَزَاتِهِ فِيهِ ، وَلَا أَنَّهُ لَمْ يُؤْتِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا أُوتِيَ مِنْ تَقْدَمِهِ ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ الْمُعْجَزَةُ الْعَظْمَى الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ ، لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مُعْجَزَةً خَاصَةً بِهِ ، لَمْ يُعْطَ بِعَيْنِهَا غَيْرُهُ ، تَحْدَى بِهَا قَوْمُهُ ، وَكَانَتْ مُعْجَزَةُ كُلِّ نَبِيٍّ تَقَعُ مُنَاسِبَةً لِحَالِ قَوْمِهِ ، كَمَا كَانَ السَّحَرُ فَاشِيًا عِنْدَ فِرْعَوْنَ ، فَجَاءَهُ مُوسَى بِالْعَصَا عَلَى صُورَةٍ مَا يَصْنَعُ السَّحَرَةُ ، لَكِنَّا تَلَقَّفَتْ مَا صَنَعُوا ، وَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ لَغَيْرِهِ ، وَكَذَلِكَ إِحْيَاءُ عِيسَى الْمَوْتَى وَإِبْرَاءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ ، لِكُونَ الْأَطْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ كَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ ، فَأَتَاهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ بِمَا لَمْ تَصِلْ قُدْرَتُهُمْ إِلَيْهِ ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْعَرَبُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْغَايَةِ مِنَ الْبَلَاغَةِ ، جَاءَهُمْ بِالْقُرْآنِ الَّذِي تَحْدَاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ لَا صُورَةَ وَلَا حَقِيقَةَ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنْ

(٩) متفق عليه . مسلم (١ / ١٣٤) برقم (١٥٢) ، والبخاري (٦ / ٢٦٥٤) برقم (٦٨٤٦) .

المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل . وقيل : المراد أن كل نبي أُعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله صورة أو حقيقة ، والقرآن لم يؤت أحد قبله مثله ، فلهذا أردفه بقوله : " فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا " . وقيل : المراد أن الذي أُوتيته لا يتطرق إليه تخيل ، وإنما هو كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بما يُتخيل منه التشبيه به بخلاف غيره ، فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يُخيل شَبَهه ، فيحتاج من يُمَيِّز بينهما إلى نظر ، والنظر عُرضة للخطأ ، فقد يُخطئ الناظر فيظن تساويهما وقيل : المراد أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم ، فلم يُشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخزقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمُعجَّيات ، فلا يمرُّ عصر من الأعصار ، إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دَعْوَاهُ وهذا أقوى المحتملات ، وتكميله في الذي بعده . وقيل : المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسيَّة تُشاهد بالابصار كنافذة صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تُشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذي يُشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مُشاهدته ، والذي يُشاهد بعين العقل باقٍ ، يُشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا . قلتُ : ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد ، فإن مُحصِّلها لا يُنافي بَعْضَه بَعْضا . قوله : " فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " رتب هذا الكلام على ما تقدَّم من معجزة القرآن المستمرة ، لكثرة فائدته ، وعموم نفعه لاشتماله على الدَّعوة والحُجَّة والإخبار بما سيكون ، فعمَّ نفعه من حضر ومن غاب ، ومن وجد ومن سيُوجد ، فحسن ترتيب الرجوى المذكورة على ذلك ، وهذه الرجوى قد تحققت ، فإنه أكثر الأنبياء تبعا . وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء : أحدها حُسْنُ تأليفه ، والثام كَلِمَه مع الإيجاز والبلاغة . ثانيها صورة سياقه وأسلوبه المُخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظما ونثرا ، حتى حارت فيه عقولهم ، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفُّر دواعيهم على تحصيل ذلك ، وتقريعه لهم على العجز عنه . ثالثها ما اشتمل عليه من الإخبار عمَّا مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة ، ممَّا كان لا يعلم منه بَعْضَه إلا النادر من أهل الكتاب . رابعها الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي ، وبعضها بَعْدَه . ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها ، فعجزوا عنها مع توفُّر دواعيهم على تكذيبه ، كتمني اليهود الموت ، ومنها الرُّوعة التي تحصل لسامعه ، ومنها أن قارئه لا يملُّ من تردادده ، وسامعه لا يملُّه ، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا

طراوة ولذاذة ، ومنها أنه آية باقية لا تُعَدَم ما بَقِيَت الدنيا ، ومنها جَمْعُهُ لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها ولا تنتهي فوائدها، اهـ مُلَخَّصًا من كلام عِيَاض وغيره)).
وقال الله تعالى: ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣] .

وتناجى المشركون فيما بينهم سِرًّا (يقولون فيما بينهم خُفِيَّةً): هل هذا الذي يَزْعُم أنه رسول الله يقصدون النبي ﷺ - إلا إنسان مِثْلُكُمْ، مِن لحم ودم، على صُورتكم ، ومن جنسكم ، لا يَتَمَيَّز عنكم بشيء، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق . فكيف تَتَّبِعُونَ محمداً وهو ساحر ، وما جاء به هو السَّحَر ؟.

والمعنى: أَفَتَقْبَلُونَ السَّحَرَ وتُصَدِّقُونَ به وأنتم تَعْلَمُونَ أنه سَحَر؟. والهمزة في ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ ﴾ للإنكار. لقد اسْتَبْعَدُوا تمامًا وجود رسول من البشر، فَهُمْ مُقْتَنِعُونَ أن الرسول يَنْبَغِي أن يكون مَلَكًا. وأي إنسان يَأْتِي بِمُعْجَزَات خارقة للعادة فهو ساحر يتعاطى السَّحَرَ. لذلك اعتبروا النبي ﷺ ساحرًا ، والقرآن سِحْرًا ، فقط لأنَّ النبي ﷺ إنسان ، وليس مَلَكًا . وهذه حُجَّةُ العاجز الضعيف .
وَلَوْ كان المشركون صادقين في دَعْوَاهُمْ لَوَاجَهُوا النبي ﷺ ، وقَدَّمُوا الأدلة والبراهين على صِحَّة ادِّعَائِهِمْ ، وأَبْطَلُوا أَمْرَ النبي ﷺ بِالْحُجَّةِ الواضحة . ولكنَّهُمْ عاجزون عن فِعْل ذلك ، فهربوا من الحق . وصاروا يَتَّهِمُونَ الحقَّ بأنه سَحَر دون دليل .

والكذب وسيلة سهلة ورخيصة ، كُلُّ شخص يستطيع أن يَسْتَخْدِمَهَا ، وَيَرْمِي الاتِّهَامَات في كُلِّ الجهات. لكنَّ العالمَ المَتَمَكِّن هو الذي يَقَارِعِ الحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ، ويُقَدِّم الأدلة العقلية والبراهين العقلية على صِحَّة كلامه .

والدَّعَاوَى إِنْ لَمْ تُقَيِّمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

والله تعالى لا يُرْسِل إلى البشر إلا بَشَرًا مِثْلَهُمْ، كَي يَسْهُلَ التَّعَامُلُ مع الرسول، ومُخَاطَبَتُهُ، والجلوس معه ، والاستفادة منه ، والأخذ عنه . وَكُلُّ جِنْسٍ يَمِيلُ إلى جِنْسِهِ. والآية أثبتت أنهم ظالمون ، ووضَّحت أن فِعْلَهُمْ ظُلْمٌ ، تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ ، وَذَمًّا لَهُمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٨٢): ((كأنهم استدلوا بِكَوْنِهِ بَشَرًا على كَذِبِهِ في ادِّعَاءِ الرسالة ، لاعتقادهم أن الرسول لا يَكُونُ إِلَّا مَلَكًا ، واستلزموا منه أنَّ ما جاء به من الخوارق

كالقرآن سحر ، فأنكروا حضوره ، وإنما أسروا به ، تشاورًا في استنباط ما يهدم أمره ، ويظهر فسادَه للناس عامةً)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤] .
قال النبي ﷺ للمشركين : رَبِّي يَعْلَمُ قَوْلَ كُلِّ قَائِلٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا أَسْرَرْتُمْ وَتَنَاجَيْتُمْ بِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ بِالْمِرْصَادِ فِي الْمُجَازَاةِ عَلَيْهَا .

وهو السميع لأقوالكم ، والعليم بأحوالكم وأفعالكم . وهذا تهديدٌ ووعدٌ لهم .
وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦ / ٥٥) : ((حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوجي إليه أحوالهم وأقوالهم ، بيانًا لظهور أمرهم ، وانكشاف سرهم . وإيثار القول المنتظم للسِّر والجهر على السِّر ، لإثبات علمه تعالى بالسِّر على النهج البرهاني ، مع ما فيه من الإيدان بأن علمه تعالى بالسِّر والجهر على وتيرة واحدة ، لا تفاوت بينهما بالجلال والخفاء قطعًا كما في علوم الخلق)) .

وقال الله تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ [الأنبياء : ٥] .

يَكْشِفُ اللَّهُ عِنَادَ الْكَافِرِينَ وَتَنَاقُضَهُمْ وَضَلَالَهُمْ . فَهُمْ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، تَائِهُونَ بِلا بوصلة ، ضائعون في متاهة أهوائهم وأفكارهم الْمُتَضَارِبَةِ . أَذْهَانُهُمْ مُشْتَتَةٌ ، وَلَيْسَ لَهُمْ رَأْيٌ وَاحِدٌ . فَقَدْ قَالُوا عَنِ الْقُرْآنِ إِنَّهُ أَحْلَاطُ أَحْلَامٍ كَالَّتِي تَأْتِي فِي الْمَنَامِ ، وَأَبَاطِيلُ وَهْمِيَّةٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا . وَلَمْ يَسْتَقِرُّوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ، وَانْتَقَلُوا إِلَى رَأْيٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ مُخْتَلَقٌ جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَأَيْضًا عَارِضُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَانْتَقَلُوا إِلَى رَأْيٍ جَدِيدٍ ، وَهُوَ أَنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ ، وَالْقُرْآنَ شِعْرٌ يُخَيَّلُ لِلْسَامِعِ أَنَّهُ كَلَامٌ حَقِيقِيٌّ ، وَإِنَّمَا هُوَ خِيَالَاتٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا . لَقَدْ كَذَّبُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَاحْتَارُوا فِي أَمْرِ الْقُرْآنِ ، فَاضْطَرَّتْ أَقْوَالُهُمُ الْوَاهِيَّةُ ، وَتَعَارَضَتْ أَفْكَارُهُمُ الْبَاطِلَةُ . وَحَتَّى الْكُفْرُ لَمْ يَتَّفَقُوا عَلَيْهِ . لَقَدْ اعْتَبَرُوا الْقُرْآنَ تَخَالِيطَ أَحْلَامٍ ، وَمُقْتَرَى ، وَشِعْرًا . وَلَا رَابِطَ مَنْطَقِيًّا بَيْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَلَمْ يَعْتَرِفُوا بِأَنَّ الْقُرْآنَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ أَنْزَلَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ . وَزَعَمَ الْكَافِرِينَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، كَلَامٌ سَاقِطٌ ، لِأَنَّ الْأَحْلَامَ الْمُخْتَلِطَةَ فِي الْمَنَامِ خَلِيطٌ مِنَ الْخِيَالَاتِ وَالْأَوْهَامِ وَالْكَوَابِيسِ وَلَا رَابِطَ بَيْنَهَا . أَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ كَلَامٌ وَاضِحٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْحُجَجِ الْمَنْطَقِيَّةِ الَّتِي تُخَاطَبُ الْعَقْلُ ، وَيُقَدِّمُ الْبَرَاهِينَ الْمَتَمَاسِكَةَ الَّتِي تُصِيبُ كِبَدَ الْحَقِيقَةِ . وَزَعَمَ الْكَافِرِينَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ تَأْلِيفِ

محمد ، كلام لا وزن له ، فالنبي ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يعرف أنه كان طالب علم . والنبي ﷺ معروف في الجاهلية بصدق وأمانته ، حتى لقّب بالصادق الأمين ، ولا يُعقل أن يترك الكذب على الناس ، ثم يذهب ليكذب على الله تعالى . وزعم الكافرين أن محمداً شاعر وأن القرآن شعر ، كلام واه . إذ إن محمداً ﷺ لا يعرف أوزان الشعر ، ولم يؤلف بيت شعر واحد في حياته كلها . ونظم القرآن يختلف تماماً عن نظم الشعر ، والعرب هم أهل الفصاحة والبيان ، وفيهم نبغ الشعراء الفحول . فلماذا عجزوا جميعاً عن تأليف كتاب كالقرآن ما دام شعراً — حسب زعمهم — ؟!

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٢) : ((هذا إخبار عن تعنت الكفار ، وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وخيرتهم فيه ، وضلالهم عنه . فتارة يجعلونه سحراً ، وتارة يجعلونه شعراً ، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام ، وتارة يجعلونه مُفترى)) اهـ .
﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ . يُمَثِّل الكافرون دور الحريص على الآيات والإيمان . فقالوا عناداً وتعنتاً : فليجئنا محمد إن كان صادقاً بمُعجزة مثل : ناقة صالح ، وعصا موسى . وهذا الأمر يُشير إلى معرفتهم بالرُّسل السابقين وآياتهم الباهرة .

والجدير بالذكر أن المُعجزة هي أمر خارق للعادة ، يأتي بها نبي مُرسل ، كي يُقام الدليل على صدق رسالته . وسميت المُعجزة بهذا الاسم لأنها تُعجز العقل عن تفسيرها . وتكون المُعجزة فوق قدرات البشر في المجال الذي يُتقنونه ، ويشتهرون به . فقد كان السحر مشهوراً في زمن موسى ﷺ فكانت مُعجزته هي العصا ، حيث تحوّلت إلى حية تسعى . وكان الطب مشهوراً في زمن عيسى ﷺ ، فكانت مُعجزته إبراء الأكمه (الأعمى) والأبرص وإحياء الموتى . وكل ذلك بإذن الله تعالى . وكان العرب مشهورين بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطابة ، فكانت مُعجزة محمد ﷺ هي القرآن ، الذي أفحم فحول الشعراء ، وأعجز الخطباء البلغاء . وقد عجز الإنس والجن عن مواجهة القرآن الذي تحداهم جميعاً .

وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٢٣٩) : ((﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ ، أي : كما أُرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ، ومثل ناقة صالح ، وكانوا عالِمين بأن القرآن ليس يسحر ولا رؤيا ، ولكن قالوا : ينبغي أن يأتي بآية نقترحها ، ولم يكن لهم الاقتراح بعدما رأوا آية واحدة ، وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآية هي من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها . فكيف يؤمنون بآية غيرها ؟ ، ولو أبرأ (محمد ﷺ) الأكمة والأبرص ، لقالوا : هذا من باب الطب ،

وليس ذلك من صناعتنا ، وإنما كان سؤالهم تَعْتَنَّا ، إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية ، وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ — أنهم لو كانوا يُؤمنون لأعطاهم ما سألوه ، لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣])) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨] .

ويقول المشركون على سبيل السُّخْرِيَّة والاستهزاء : متى يَجِيئُنَا الْعَذَابُ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ مُحَمَّدٌ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . والخطابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ — رضي الله عنهم — . إنهم يَسْتَعْجِلُونَ بِالْآيَاتِ وَالْعَذَابِ جَهْلًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَسُخْرِيَّةً وَكُفْرًا . والعاقِلُ يَهْرَبُ مِنَ الْعَذَابِ وَلَا يَتَمَنَّاهُ . والله تعالى لَا تَسْتَفْزُهُ حِمَاقَاتُ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا يَتَأَثَّرُ بِسُخْرِيَّتِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِمَعَاصِيهِمْ وَكُفْرِهِمْ .

ولو شاءَ اللهُ لَعَذَّبَهُمْ فِي الْحَالِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رَحِمَهُمْ وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْهَلَهُمْ ، وَأَعْطَاهُمْ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةِ، كي يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيُصَحِّحُوا مَسَارَهُمْ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ. والله هو خالقُ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَالرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَشْمَلُهُمْ جَمِيعًا .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٢٦) : ((وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُهُ : ويقول هؤلاء المستعجلون رَبِّهِمْ بِالْآيَاتِ وَالْعَذَابِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: متى هذا الوعد ؟. يقول: متى يَجِيئُنَا هَذَا الَّذِي تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فيما تَعِدُونَنَا بِهِ مِنْ ذَلِكَ. وقيل : هذا الوعد ، والمعنى الموعود ، لمعرفة السامعين معناه . وقيل : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كأنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به. و﴿ مَتَى ﴾ في موضع نصب ، لأن معناه : أي وقت هذا الوعد، وأيَّ يَوْمٍ هُوَ ، فَهُوَ نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِ ، لِأَنَّهُ وَقْتُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] (10).

لَوْ فَعَلَ اللهُ كَمَا يَشْتَهِي الْمُشْرِكُونَ ، وَأَجْرَى الْأَحْكَامَ حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ ، لَانْهَارَ نِظَامُ الْكَوْنِ ، وَسَقَطَ مَعْنَى الْوُجُودِ ، وَانْتَشَرَ الْفَسَادُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَفَقَدَ كُلُّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ .

(١٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٨٤) : ((في المراد بالحق قولان: أحدهما أنه الله عَزَّ وَجَلَّ قاله مجاهد وابن جُرَيْج والسُّدِّي . والثاني أنه القرآن ، ذَكَرَهُ الْقَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ . فعلى القول الأول يكون المعنى: لَوْ جَعَلَ اللهُ لِنَفْسِهِ شَرِيكًا كَمَا يُحِبُّونَ. وعلى الثاني: لَوْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ جَعَلِ شَرِيكَ لَهِ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)) اهـ .

وذلك لفساد أهوائهم ، وتضارب آرائهم . وأهواء الناس مختلفة ومتضاربة ومتعددة ، أما طريق الحق فهو طريق مستقيم واحد ، لا اعوجاج فيه ولا تضاد . والسموات والأرض خلقت دلالة على وحدانية الله تعالى . وَلَوْ رَضِيَ اللَّهُ بِشْرِكِ الْكَافِرِينَ ، لصارت السماوات والأرض خراباً .

وقال الطبري في تفسيره (٢٣٣ / ٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَلَوْ عَمِلَ الرَّبُّ تَعَالَى ذِكْرَهُ بِمَا يَهْوَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ ، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم ، وترك الحق الذي هم له كارهون ، لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور ، والصحيح من التدبير والفاسد ، فَلَوْ كَانَتِ الْأُمُورُ جَارِيَةً عَلَى مَشِيئَتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ مَعَ إِثَارِ أَكْثَرِهِمُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ ، لَمْ تَقَرَّ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، لَأَنَّ ذَلِكَ قَامَ بِالْحَقِّ)) اهـ .

﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ . يعني : ملائكة السماء ، والإنس والجن (الثقلان) في الأرض . وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ٧٢] . أم تسأل يا محمد المشركين أجراً على تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة الإسلامية ، فيرفضون الإيمان بسبب ذلك .

وهذا توبيخ لهم وتشنيع عليهم ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُبَلِّغُ الرِّسَالَةَ لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْلُبُ مِنْهُمْ مَالًا وَلَا أَجْرًا وَلَا مُكَافَأَةً . فما هو المانع من إيمانهم والتصديق بمحمد ﷺ وما جاء به ؟! . والآية توضح أنَّ الرِّسَالَةَ المَحْمُودِيَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ مُنْزَهَةٌ عَنْ أَطْمَاعِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا الزَّائِلِ . ولو كانت الرِّسَالَةُ مُرْتَبِطَةً بِالمَالِ ، لَشَكَّ الْكَثِيرُونَ فِيهَا ، وقالوا إِنَّ مُحَمَّدًا حَوَّلَ الرِّسَالَةَ إِلَى مَشْرُوعِ تِجَارِي لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ ، وابتزازهم باسم الله تعالى . وعندئذٍ ، سَتُصْبِحُ سِيرَةُ مُحَمَّدٍ فِي دَائِرَةِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ ، وتُصْبِحُ الرِّسَالَةُ صَفَقَةً مَادِيَّةً . وهذا سَيَمْنَعُ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْإِيمَانِ . وكل عقيدة تدور حول المال ومتاع الدنيا الزائل هي عقيدة فاسدة .

ورزقُ الله الذي يَرْزُقُكَ فِي الدُّنْيَا خَيْرٌ لَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَأَجْرُهُ الْعَظِيمُ لَكَ فِي الْآخِرَةِ لَا يُعَادِلُهُ أَجْرٌ . والله تعالى هو أعظم من أعطى ومنح ، لا أحد يَرْزُقُكَ مِثْلَ رِزْقِهِ ، ولا أحد يُنْعِمُ مِثْلَ إِنْعَامِهِ . والله يُعْطِي لا لِحَاجَةٍ ، أمَّا النَّاسُ فَيُعْطُونَ لِحَاجَةٍ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١٦٣ / ١) : ((﴿ خَرْجًا ﴾ أَجْرًا عَلَى أَدَاءِ الرِّسَالَةِ . ﴿ فَخَرَّاجُ رَبِّكَ ﴾ رِزْقُهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ ثَوَابُهُ فِي الْعُقْبَى (الْآخِرَةِ) . ﴿ خَيْرٌ ﴾ لِسَعْتِهِ وَدَوَامِهِ ، فففيه مَنَدُوحَةٌ لَكَ عَنْ عَطَائِهِمْ . والخَرْجُ بِإِزَاءِ الدَّخْلِ ، يُقَالُ لِكُلِّ مَا تُخْرِجُهُ إِلَى غَيْرِكَ ، والخَرَجُ غَالِبٌ فِي الضَّرِيَّةِ

على الأرض، ففيه إشعار بالكثرة واللزوم ، فيكون أبلغ ، ولذلك عَبَّرَ بِهِ عن عطاء الله إِيَّاه . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ تقرير لخيرية خراجه تعالى)) اه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٨٥) : ((وَمَعْنَى ﴿ خَرَجًا ﴾ أَجْرًا وَمَالًا . ﴿ فَخَرَجَ رَبُّكَ ﴾ أَي : فَمَا يُعْطِيكَ رَبُّكَ مِنْ أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ . ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أَي : أَفْضَلُ مَنْ أَعْطَى . وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّنْبِيهِ لَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُمْ أَجْرًا ، لَا أَنَّهُ قَدْ سَأَلَهُمْ)) اه .
وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان : ٤] .

يفضح الله جهل المشركين ، ويبيِّن قِلَّةَ عقولهم . فقد قالوا عن القرآن إِنَّهُ كَذِبٌ اخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وساعده على الاختلاق قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ وبعض الأعاجم ، حيث إنهم يُخْبِرُونَ مُحَمَّدًا بِأخبار الأمم ، وهو يُعَبِّرُ عن مقالتهِم بِلُغَتِهِ . فقد جَاءُوا بِقَوْلٍ باطلٍ مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَذِبِهِمْ وَبُطْلَانِ قَوْلِهِمْ . وقد نسبوا إلى النَّبِيِّ ﷺ مَا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ ، وهذا هُوَ الزُّور .
والمشركون لَمْ يُقَدِّمُوا دليلاً على هذه التُّهْمَةِ الباطلة . وكلامهم غير منطقي نهائياً ، فكيف يتلقَّى مُحَمَّدٌ الْعَرَبِيُّ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ كَلاماً عَرَبِيّاً فَصيحاً أعجزَ شعراء العرب وفُصَحَاءَهُمْ ؟ . إِنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١٦١) : ((﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ ، أَي : الْيَهُودُ ، وَعَدَّاسُ ، وَيَسَارُ ، وَأَبُو فُكَيْهَةَ الرُّومِيُّ . قَالَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ)) اه .
وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] (١١) .

(١١) قال الطبري في تفسيره (٩ / ٣٦٥) : ((ذُكِرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَأَنَّهُ الْمَعْنِيُّ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ... عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ ابْنِ عُلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ قُصَيٍّ ، مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ ، وَكَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَيَنْصُبُ لَهُ الْعَدَاوَةَ ، وَكَانَ قَدِ امْتَدَّ الْحَيَرَةُ ، تَعَلَّمَ بِهَا أَحَادِيثَ مَلُوكِ فَارِسَ ، وَأَحَادِيثَ رُسْتَمَ وَ أَسْفَنْدِيَارَ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسًا فَذَكَرَ بِاللَّهِ وَحَدَّثَ قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ ، خَلَفَهُ فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَحْسَنَ حَدِيثًا مِنْهُ ، فَهَلُمُّوا فَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ عَنْ مَلُوكِ فَارِسَ وَرُسْتَمَ وَ أَسْفَنْدِيَارَ ، ثُمَّ يَقُولُ : مَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنَ حَدِيثًا مِنِّي)) .

وقال المشركون عن القرآن إِنَّهُ أَحَادِيثُ الْأَوَّلِينَ ، وما سَطَرُوهُ مِنَ الْأَخْبَارِ ، استنسخها محمد من كُتُبِ الْأَوَّلِينَ ، وطلب أن تُكْتَبَ لَهُ ، لَأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، فهي تُلْقَى عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهَا أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ . وهذا كلام يفتقد إلى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ وَالْمَنْطِقِ ، فمعروفٌ لدى القاصي والداني أن النبي ﷺ ليس له علاقة بالكتابة منذ ولادته حتى وفاته، ولم يُعرف عنه هذا الأمر.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤١٢) : ((وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نَحْوًا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ وَصِدْقَهُ وَنَزَاهَتَهُ وَبِرَّهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَبُعْدَهُ عَنِ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَسَائِرِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، حتى إنهم كانوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَرِهِ وَإِلَى أَنْ بُعِثَ الْأَمِينُ ، لَمَّا يَعْلَمُونَ مِنْ صِدْقِهِ وَبِرِّهِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ ، نَصَبُوا لَهُ الْعِدَاوَةَ ، وَرَمَوْهُ بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي يَعْلَمُ كُلُّ عَاقِلٍ بَرَاءَتَهُ مِنْهَا ، وَحَارُوا فِيهَا يَقْذِفُونَهُ بِهِ ، فَتَارَةً مِنْ إِفْكَهِمْ يَقُولُونَ : ساحر ، وتَارَةً يَقُولُونَ : شاعر ، وتَارَةً يَقُولُونَ : مجنون ، وتَارَةً يَقُولُونَ : كذاب)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] .

ليس القرآن أساطير الأولين ، ولم يأت به النبي ﷺ من تلقاء نفسه . إِنَّهُ كِتَابٌ سَمَاقِيٌّ ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَلِّمٍ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعِدٍ ، وَلَأنَّهُ كِتَابٌ سَمَاقِيٌّ عَجَزَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْهُ . لقد أعجز القرآن فُصَحَاءَ الْعَرَبِ وَهُوَ يُلْغَتُهُمْ ، لَمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَلْفَاظٍ عَظِيمَةٍ ، وَمَعَانٍ جَلِيلَةٍ ، وَأَخْبَارٍ صَادِقَةٍ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ ، وَأَشْيَاءٍ مَكْنُونَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا عَالِمُ الْأَسْرَارِ وَخَفَايَا الْأُمُورِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْغَيْبَ ، يَعْلَمُ الْجَهْرَ أَيْضًا ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، يَقْبَلُ الْعَائِدِينَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ ، يُعْطِي الْإِنْسَانَ الْفُرْصَةَ تَلَوَّ الْفُرْصَةَ مِنْ أَجْلِ تَصْحِيحِ مَسَارِهِ ، رَحْمَةً بِهِ ، وَلَيْسَ عَجْزًا أَوْ خَوْفًا . وَهَذِهِ دَعْوَةٌ لِلتَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ الذُّنُوبِ ، وَرَحْمَتُهُ وَاسِعَةٌ ، وَكَرَمُهُ عَظِيمٌ . فَهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ ، وَطَعَنُوا فِي الْقُرْآنِ ، وَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، يَدْعُوهُمْ اللَّهُ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ لَنْ يَطْرُدَهُمْ ، وَهَذَا قِمَّةُ الْكَرَمِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٧) : ((وَذِكْرُ ﴿ السِّرِّ ﴾ دُونَ الْجَهْرِ ، لِأَنَّهُ مَنْ عَلِمَ السِّرَّ ، فَهُوَ فِي الْجَهْرِ أَعْلَمُ . وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ مَأْخُودًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ لَمَّا زَادَ عَلَيْهِمَا ، وَقَدْ جَاءَ

يُفْنُونَ تَخْرُجَ عَنْهَا ، فَلَيْسَ مَأْخُودًا مِنْهَا . وَأَيْضًا ، لَوْ كَانَ مَأْخُودًا مِنْ هَؤُلَاءِ ، لَتَمَكَّنَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُ أَيْضًا كَمَا تَمَكَّنَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَهَلَّا عَارَضُوهُ ، فَبَطُلَ اعْتِرَاضُهُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ، يُرِيدُ : غَفُورًا لِأَوْلِيَائِهِ ، رَحِيمًا بِهِمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان : ٤١] . وَإِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدٌ ، مَا يَنْخَضُونَكَ إِلَّا سُخْرِيَةً . يَسْخَرُونَ مِنْكَ ، وَيَجْحَدُونَ نُبُوتَكَ . وَالْأَلْفَ فِي ﴿ أَهَذَا ﴾ لِلْإِسْتِفْهَامِ عَلَى مَعْنَى التَّقْرِيرِ وَالْإِحْتِقَارِ وَالسُّخْرِيَةِ . وَ ﴿ رَسُولًا ﴾ تَدُلُّ عَلَى سُخْرِيَةِ الْمُشْرِكِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَهْكُومُهُمْ بِرِسَالَتِهِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهَا . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٢٦) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ اسْتِهْزَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا ﴾ [الأنبياء : ٣٦] . يَعْنُونَهُ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ . وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ أَيِ عَلَى سَبِيلِ التَّنْقِصِ وَالْإِزْدِرَاءِ ، فَقَبَّحَهُمُ اللَّهُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٢] .

يَقُولُونَ الْمُشْرِكُونَ إِنَّ مُحَمَّدًا كَادَ أَنْ يُشْنِيَهُمْ وَيُصْرِفَهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَيُخْرِجَهُمْ مِنْهَا ، لَوْلَا أَنْ صَبَرُوا ، وَثَبَّتُوا عَلَى عِبَادَتِهَا ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهَا . وَسَوْفَ يَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ حِينَ يُشَاهِدُونَ الْعَذَابَ رَأْيَ الْعَيْنِ مَنْ أَضَلَّ دِينًا : هُمْ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ . وَقَدْ رَأَى الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَأَيْضًا سَيَرَوْهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ . وَسَوْفَ يَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ مَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ . وَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى قُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَاجْتِهَادِهِ فِي الْقَضَاءِ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَنَشْرِ التَّوْحِيدِ . وَالآيَةُ ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ فِيهَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَتَوْضُحٌ أَنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ وَلَا يُهْمِلُ . لَقَدْ أَمَهَّلَهُمْ ، وَلَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْهُمْ ، وَلَنْ يَتْرَكَهُمْ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٩ / ٣٩٣) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَهْزَأُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِذَا رَأَوْهُ : قَدْ كَادَ هَذَا يُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا الَّتِي نَعْبُدُهَا ، فَيَصُدُّنَا عَنْ عِبَادَتِهَا ، لَوْلَا صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَثَبَّتْنَا عَلَى عِبَادَتِهَا . ﴾ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ . يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : سَيَبَيِّنُ لَهُمْ حِينَ يُعَانِنُونَ عَذَابَ اللَّهِ قَدْ حَلَّ بِهِمْ عَلَى عِبَادَتِهِمُ الْآلِهَةَ ﴿ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴾ يَقُولُ : مَنْ الرََّاكِبِ غَيْرَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالسَّالِكِ سَبِيلِ الرَّدَى ، أَنْتَ أَوْ هُمْ)) .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿ [القَصَص : ٤٨] .
لَمَّا أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى كَفَارِ مَكَّةَ لِهَدَايَتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ، قَالُوا _ تَعْنَتَا وَعِنَادًا _ : هَلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى كَالْعَصَا وَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَالْتَّوْرَةِ . إِنَّهُمْ يَقْتَرِحُونَ الْآيَاتِ مِنْ عِنْدِهِمْ تَعْنَتًا ، وَإِضَاعَةً لِلْوَقْتِ ، وَجِدَالًا بِالْبَاطِلِ ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ .

وفي زاد المسير (٢٢٧ / ٦) : ((قال المفسرون : أَمَرَتِ الْيَهُودُ قُرَيْشًا أَنْ تَسْأَلَ مُحَمَّدًا مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى . فقال الله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ أي : فَقَدْ كَفَرُوا بِآيَاتِ مُوسَى . وقالوا في المشار إليهم قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا الْيَهُودُ ، وَالثَّانِي قُرَيْشٌ)) اهـ .

إِنَّ الْيَهُودَ أَهْلُ الْمَكْرِ وَالْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ أَمَرُوا قُرَيْشًا أَنْ تَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ آيَاتِ كَايَاتِ مُوسَى ﷺ ، وَذَلِكَ مِنْ بَابِ التَّحْدِي وَالْعِنَادِ ، وَمَحَاوَلَةِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَإِفْحَامِهِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى أَيْدِي الْيَهُودِ الْخَفِيَّةِ فِي تَحْرِيكِ الْمَوَازِمِ الْفَعْلِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ . فَالْعَرَبُ أُمَّةٌ وَثْنِيَّةٌ جَاهِلَةٌ كَانَتْ أَلْعُوبَةَ فِي أَيْدِي الْيَهُودِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، وَالْعَرَبُ يُرَدِّدُونَ مَا يُمْلَى عَلَيْهِمْ كَالْحَمَقِ .

وَالْيَهُودُ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ كُتُبِهِمْ وَعُلُومِهِمِ الدِّينِيَّةِ ، فَقَدْ كَفَرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى ﷺ ، وَمَعَ هَذَا يَظْهَرُونَ بِمُظْهَرِ الْحَرِيصِ عَلَى مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . وَهَذَا التَّنَاقُضُ الصَّارِحُ يُشِيرُ إِلَى طُغْيَانِ الْيَهُودِ وَتَمَرُّدِهِمْ وَتَلَاعِبِهِمْ بِالْحَقَائِقِ ، وَفَصْلِهِمُ الْعَمَلَ عَنِ الْعِلْمِ ، فَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ بِعُلُومِهِمِ الدِّينِيَّةِ . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ السَّيِّئَةُ حَاوَلُوا نَقْلَهَا إِلَى الْعَرَبِ الْوَثْنِيِّينَ الْمُنْقَطِعِينَ تَمَامًا عَنِ السَّمَاءِ . وَقَدْ يَكُونُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا ﴾ يَعُودُ إِلَى كَفَارِ مَكَّةَ ، إِذْ إِنَّ كُفْرَهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كُفْرٌ بِمُوسَى ﷺ ، لِأَنَّ طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ ، وَوَحْيُهُمْ مَصْدَرُهُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ السَّمَاءُ . فَمَنْ كَذَّبَ نَبِيًّا ، فَقَدْ كَذَّبَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَذَّبَ الَّذِي أَرْسَلَهُمْ ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

﴿ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ . هَذَا تَقْرِيرٌ لِكُفْرِهِمْ وَتَسْجِيلٌ عَلَيْهِمْ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ أَنَّهُمَا سِحْرَانِ يُقَوِّي كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا وَمُوسَى سَاحِرَانِ تَعَاوَنَا عَلَى السِّحْرِ .
وقال البغوي في تفسيره (٢١٢ / ١) : ((قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ : " سِحْرَانِ " ، أَيْ : التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ ، " تَظَاهَرَا " يَعْنِي : كُلُّ سِحْرٍ يُقَوِّي الْآخَرَ . نَسَبَ التَّظَاهَرَ إِلَى السَّحْرَيْنِ عَلَى الْإِتْسَاعِ .

قال الكلبي : كانت مقاتلتهم تلك حين بعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة ، فسألوهم عن محمد ، فأخبروهم أنَّ نَعْتَهُ في كتابهم التَّوراة ، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا : سِحْران تظاهرا .
وقرأ الآخرون : ساحران ، يَعْنُونَ محمداً وموسى _ عليهما السلام _)) اه .

والجدير بالذكر أنَّ اليهود لا يصفون موسى ﷺ بالسَّحَر . إذن، فالراجح أنَّ الضمير يعود إلى كفار مكة. ويمكن أن يكون الضمير عائداً إلى الكافرين بموسى ﷺ حيث وَصَفُوهُ بالسَّحَر ، وإلى الكافرين بمحمد ﷺ ، حيث وَصَفُوهُ بالسَّحَر أيضاً .

﴿ وقالوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴾ . وقد كفروا بالقرآن والتَّوراة، أو بمحمد وموسى _ عليهما الصلاة والسلام _ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٩٦) : ((أي : بِكُلِّ مِنْهُمَا ، أو بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الْقَصَص : ٤٩] .

هذا الأمر للتَّعْجِيز . قُلْ يَا مُحَمَّدٌ للكافرين الذي قالوا إِنَّ الْقُرْآنَ وَالتَّورَةَ سِحْران تظاهرا : فَأْتُوا بِكِتَابٍ سَمَويٍّ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالتَّورَةِ وأهدى مِنْهُمَا لطريق الإيمان والحقِّ أَتَّبِعُهُ ، وَلَيَكُونَ ذَلِكَ عُذْرًا لَكُمْ فِي الْكُفْرِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي وَصْفِكُمُ الْقُرْآنَ وَالتَّورَةَ بِأَنَّهُمَا سِحْران .
وبالتأكيد ، إِنَّ وَصْفَ الْقُرْآنِ وَالتَّورَةِ بِأَنَّهُمَا سِحْران يعني بالضرورة أنَّ محمداً وموسى ساحران ، لِأَنَّ السَّحَرَ لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا السَّاحِر . وقد بَيَّنَّ اللَّهُ بَطْلانَ قَوْلِهِمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٩٦) : ((﴿ أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ... وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزام والتَّبْكِيت، ولعل مجيء حرف الشَّكِّ (﴿ إِنْ ﴾) لِلتَّهْكِيمِ بِهِمْ)) اه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٢٠) : ((وقد عُلم بالضرورة لِذَوِي الْأَلْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَعَدِّدَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، أَكْمَلَ وَلَا أَشْمَلَ وَلَا أَفْصَحَ وَلَا أَعْظَمَ وَلَا أَشْرَفَ، مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ . وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْعِظَمَةِ ، الْكِتَابُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٤] . وَالْإِنْجِيلُ إِنَّمَا أُنْزِلَ مُتَمِّمًا لِلتَّورَةِ ، وَمُحِلًّا لِبَعْضِ مَا حُرِّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ)) اه .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الْقَصَص : ٥٧] .

وقال كُفَار قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنْ تَتَّبِعِ الْحَقَّ مَعَكَ يَا مُحَمَّدُ وَتُؤْمِنُ بِكَ ، وَتَتْرَكَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ، يَتَخَطَّفُنَا النَّاسُ مِنْ أَرْضِنَا . يَجْتَمِعُ الْعَرَبُ (الْمُشْرِكُونَ) عَلَى حَرْبِنَا وَقِتَالِنَا ، وَيَطْرُدُونَنَا مِنْ أَرْضِنَا ، وَيُسَيِّطُونَ عَلَى مُمْتَلِكَاتِنَا ، لِأَنَّنَا خَالَفْنَا دِينَهُمْ وَدِينَنَا (دِينَ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ) . وَهَذِهِ حُجَّةُ الْكَافِرِينَ الدَّاحِضَةِ ، وَغُذْرُهُمُ الْوَاهِي فِي عَدَمِ اتِّبَاعِ الْهُدَى . وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ أَعْدَارِهِمُ الْبَاطِلَةِ .

وهذا كلامٌ باطلٌ نابعٌ من الهوى والكذب والوهم . فاللهُ تعالى جعلهم في مكة (البلد الأمين) ، والعربُ يتقاتلون حولهم ، كما أنَّ مكةَ وادٍ ضيقٌ ومحصورٌ بين جبالٍ عاليةٍ ، بلا زرعٍ ولا ثمارٍ . ومعَ هذا تأتيهم الثمراتُ من كُلِّ مكانٍ ، ولا يجوعون ولا يعطشون . واللهُ تعالى حمَّاهم ومنَّحهم هذه النِّعمَ العظيمةَ ، وهم كُفَار يعبدون الأصنامَ . فكيفَ لا يحميهم ولا يُنعمَ عليهم في حال إيمانهم واتباعهم للنبي ﷺ؟! ولكنَّ أكثرهم جهالٌ ، لا يتفكرون في هذا الأمرِ ، ولا يُدركون أبعادهَ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٢٦٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ . هَذَا قَوْلُ مُشْرِكِي مَكَّةَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَائِلُ ذَلِكَ مِنْ قُرَيْشِ الْحَارِثِ بْنِ عِثْمَانَ بْنِ نَوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ الْقُرَيْشِيِّ ، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَكَ حَقٌّ ، وَلَكِنْ يَمْنَعُنَا أَنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ وَتُؤْمِنَ بِكَ ، مَخَافَةً أَنْ يَتَخَطَّفَنَا الْعَرَبُ مِنْ أَرْضِنَا — يَعْنِي مَكَّةَ — ، لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيَّ خِلَافِنَا ، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا مِنْ تَعْلِيلَاتِهِمْ ، فَأَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا اعْتَلَّ بِهِ فَقَالَ : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ أَي : ذَا أَمْنٍ . وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُغَيِّرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَيَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَأَهْلُ مَكَّةَ آمِنُونَ ، بِحَيْثُ كَانُوا بِحُرْمَةِ الْحَرَمِ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ أَمَّنَّهُمْ بِحُرْمَةِ الْبَيْتِ ، وَمَنَعَ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ ، فَلَا يَخَافُونَ أَنْ تَسْتَحِلَّ الْعَرَبُ حُرْمَةً فِي قِتَالِهِمْ . وَالتَّخَطُّفُ الْإِنْتِرَاعُ بِسُرْعَةٍ . قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ ، يَقُولُ : كُنْتُمْ آمِنِينَ فِي حَرَمِي ، تَأْكُلُونَ رِزْقِي ، وَتَعْبُدُونَ غَيْرِي ، أَفَتَخَافُونَ إِذْ عَبَدْتُمُونِي وَآمَنْتُمْ بِي . ﴿ يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَي : يُجْمَعُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ أَرْضٍ وَبَلَدٍ ... ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ أَي : مِنْ عِنْدِنَا . ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أَي لَا يَعْقِلُونَ أَي : هُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ ، وَأَنَّ مَنْ رَزَقَهُمْ وَأَمَّنَّهُمْ فِيمَا مَضَى حَالِ كُفْرِهِمْ ، يَرْزُقُهُمْ لَوْ أَسْلَمُوا ، وَيَمْنَعُ الْكَفَارَ عَنْهُمْ فِي إِسْلَامِهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبا : ٧] .

وقال الكافرون الذين لا يؤمنون بالبعث (الحياة بعد الموت) ، ويتعجبون من هذا الأمر : هل نُرشدكم أيها الناس إلى رجلٍ (يقصدون النبي ﷺ) ، يُخبركم بأمرٍ غريبٍ ونبأٍ عجيبٍ ، وهو أنكم

إذا قُطِّعَتْ كُلُّ تَقْطِيعٍ ، وَفُرِّقَتْ كُلُّ تَفْرِيقٍ ، وَتَحَلَّلَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي التُّرَابِ ، وَصِرْتُمْ رُفَاتًا ، إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَسَتَعُودُونَ أَحْيَاءَ كَمَا كُنْتُمْ . وهذا استبعادٌ مِنْهُمْ للبعث ، واستهزاءٌ بالنبي ﷺ . وقد كان النبي ﷺ معروفًا عندهم ، وكان يدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومع هذا اعتبروا النبي ﷺ شخصًا مجهولًا ونكِرَةً ، لذلك قالوا : ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ ﴾ . لقد نَكَّرُوهُ سُخْرِيَةً مِنْهُ ، واستهزاءً بِهِ ، وَرَفَضُوا لِمَا جَاءَ بِهِ . وقد صَوَّرُوا النبي ﷺ كشخصٍ مجهولٍ وغامضٍ وجاهلٍ ، يأتي بالألغاز والأمور غير المفهومة . لذلك جَعَلُوا كلامهم في سياق السُّخْرِيَةِ والاستهزاء والإنكار والتضاحك واللعب . وهذا يدل على قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَعِنَادِهِمْ الشَّدِيدِ ، وَإِنْكَارِهِمُ التَّامَ للبعث .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٩٤) : ((هذا إخبارٌ مِنَ اللَّهِ — عَزَّ وَجَلَّ — عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَذَهَبَتْ فِيهَا كُلُّ مَذْهَبٍ ، وَتَمَزَّقَتْ كُلُّ مُمَزَّقٍ . ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي : تَعُودُونَ أَحْيَاءَ تُرْزَقُونَ بَعْدَ ذَلِكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ [سبأ : ٨] .

يواصل الكافرون الذي أَنْكَرُوا البعثَ وَتَعَجَّبُوا مِنْهُ كَلَامَهُمُ الْبَاطِلَ : أَفْتَرَى هذا الذي يدعوننا إلى اعتناق عقيدة البعث (يقصدون النبي ﷺ) على الله كَذِبًا ، حِينَ زَعَمَ أَنَا نُبْعَثُ . وَالْأَلْفُ فِي ﴿ أَفْتَرَى ﴾ للاستفهام ، وهو استفهام للإنكار والتعجب . أَمْ بِهِ جُنُونٌ فَيَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَدْرِي . والمعنى — وَفَقَّ تَفْكِيرُ الْكَافِرِينَ — أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ واقع بين أمرين لا ثالث لهما : إمَّا أَنَّهُ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَيَخْتَرِعُ عَقَائِدَ مِنْ أَفْكَارِهِ الشَّخْصِيَّةِ ثُمَّ يَنْسُبُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ، وَلَكِنَّهُ مُصَابٌ بِالْجُنُونِ ، فَصَارَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ ، وَيَقُولُ كَلَامًا عَبَثِيًّا وَغَيْرَ مُنطِقِي .

وقد جاء الرَّدُّ الإلهيُّ على الكافرين مُنْكَرِي البعث : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَاتَّهَمُوهُ بِاطْلَالٍ وَزُورًا . إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ صَاحِبُ الْعَقْلِ الرَّاجِحِ ، وَالْكَلَامِ الْمَوْزُونِ ، لَكِنَّ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، هُمُ الَّذِينَ ضَلُّوا الطَّرِيقَ ، وَعَجَزُوا عَنِ الْفَهْمِ وَإِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ ، فَمَصِيرُهُمْ هُوَ عَذَابُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِالْبَعْثِ وَتَكْذِيبِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ . وَهُمْ فِي الدُّنْيَا ضَائِعُونَ تَائِهُونَ بَعِيدُونَ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِمْ ، وَلَا يُرْجَى الْخَلَاصُ مِنْ ضَلَالِهِمُ الْبَعِيدِ ، لِأَنَّهُمْ يَغْرَقُونَ فِي مُسْتَنْقَعِ

الكفر شيئاً فشيئاً . وقال النسفي في تفسيره (٣ / ٣٢١) : ((« أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » أَوْ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فِيمَا يَنْسُبُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، والهمزة للاستفهام ، وهمزة الوصل حُذفت استغناء عنها . « أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » جُنُون . يُوهِمُهُ ذَلِكَ وَيُلْقِيهِ عَلَى لِسَانِهِ . « بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ » . ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء ، وهو مُبَرِّأٌ مِنْهُمَا ، بَلْ هَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ الْكَافِرُونَ بِالْبَعْثِ وَقَاعُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ ، وَفِيمَا يُؤَدِّبُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ عَنِ الْحَقِّ ، وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ أَجَنُّ الْجَنُونِ . جَعَلَ وَقُوعَهُمْ فِي الْعَذَابِ رَسُولًا لَوْقُوعِهِمْ فِي الضَّلَالِ . كَأَنَّهُمَا كَانَتَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، لِأَنَّ الضَّلَالَةَ لَمَّا كَانَ الْعَذَابُ مِنْ لَوَازِمِهِ ، جُعِلَا كَأَنَّهُمَا مُقْتَرِنَانِ ، وَوُصِفَ الضَّلَالُ بِالْبَعِيدِ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ ، لِأَنَّ الْبَعِيدَ صِفَةُ الضَّلَالِ إِذَا بَعُدَ عَنِ الْجَادَّةِ)) .

وقال الله تعالى : « وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » [سبأ : ٤٣] .

وَإِذَا تُلَىٰ عَلَى الْمَشْرِكِينَ آيَاتُ اللَّهِ الْوَاضِحَاتُ أَنَّهَا الْحَقُّ وَالْهُدَى ، دَلَالَتُهَا وَاضِحَةٌ ، وَمَعَانِيهَا ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ آيَاتُ الْقُرْآنِ ، قَالَ الْمَشْرِكُونَ : لَا تَتَّبِعُوا مُحَمَّدًا ، فَمَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَمْنَعَكُمْ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الْإِلَهَةِ (عِبَادَةِ الْآبَاءِ) ، وَيُغَيِّرَ دِينَكُمْ . وَهُمْ يَعْتَبِرُونَ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ هِيَ الدِّينُ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَاطِلٌ . وَقَالُوا : مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ ، افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ ، وَنَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ لِأَمْرِ الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ .

وَالْآيَةُ تُشِيرُ بوضوح إِلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ يُنْكِرُونَ الْحَقَّ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ أَشَدَّ التَّعَجُّبِ . كَمَا أَنَّ تَكَرُّرَ الْفِعْلِ : « قَالُوا » ، « وَقَالُوا » ، « وَقَالَ » إِنَّمَا هُوَ لِبَيَانِ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ ، وَالتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمْ ، وَإِدَانَتِهِمْ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٠٥) : ((« وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا » يَعْنُونَ مُحَمَّدًا _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ « إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ » ، فَيَسْتَبْعِمُكُمْ بِمَا يَسْتَبْدِعُهُ . « وَقَالُوا مَا هَذَا » يَعْنُونَ الْقُرْآنَ . « إِلَّا إِفْكٌ » لِعَدَمِ مُطَابَقَةِ مَا فِيهِ الْوَاقِعُ « مُفْتَرَى » بِإِضَافَتِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ » لِأَمْرِ التَّبَوُّةِ ، أَوْ لِلْإِسْلَامِ ، أَوْ لِلْقُرْآنِ ، وَالْأَوَّلُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ ، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ وَإِعْجَازِهِ . « إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » ظَاهِرٌ سِحْرِيَّتُهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤].
 ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً ينذرهم ويخوفهم عذاب الله قبل محمد ﷺ. وقد كان العرب يَتَمَنُّونَ أن يظهر فيهم نبي، ليتخلصوا من عقدة النقص التي كانوا يشعرون بها أمام اليهود والنصارى، ويصبح لهم شأن عظيم بين الأمم. فلما جاءهم محمد ﷺ نبياً ورسولاً، بشيراً ونذيراً، منهم، وبلسانهم، كفروا به، وجحدوا نبوته، وهو الذي صنع شرف العرب، وبنى مجدهم، وحولهم من أمة متخلفة منسية في الصحراء إلى سادة العالم، ويحسب لهم ألف حساب. ولا حجة لمشركي العرب في تكذيب النبي ﷺ، فهم جهال ليس لديهم كتاب سماوي، ولم يجنهم نبي قبل محمد. فمن أين كذبوك يا محمد؟. كيف يحكمون على محمد بالكذب وهم جاهلون متخلفون لا علم لهم بالشرائع والأحكام؟! كيف يحكم الجاهلون (مُشركو العرب) على النبي الكريم محمد الذي ينزل عليه الوحي؟! كيف يحكم الجاهل على العالم؟!.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٧٣): ((﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ ، أي ما أنزلنا على العرب كتباً سماوية يدرسون فيها . ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الحق ، وينذرهم بالعذاب ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها . قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ . قال الفراء : أي: من أين كذبوك ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه)) اهـ . وقول قتادة محمول على الذين أنذرهم النبي محمد ﷺ . والعرب قد وصلتهم دعوة إبراهيم ﷺ وكان إسماعيل ﷺ نذيراً للعرب . وقال الله تعالى : ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥] .

وكذبت الأقوام والأمم السابقة رسل الله تعالى ، وما بلغ قومك يا محمد (أهل مكة والعرب عموماً) عشر ما أعطينا الأمم السابقة من القوة الدنيوية والنعم والتقدم والحضارة والأموال والأولاد وطول العمر . فكذبوا رُسلي ، فعاقبتهم بتغيير النعم ، والتشديد عليهم ، وتعذيبهم ، وإهلاكهم كعاد وثمود . فكيف كان عقابي وانتصاري لِرُسلي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٥): ((﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فَحِينَ كَذَّبُوا رُسُلِي جاءهم إنكاري بالتدمير ، فكيف كان نكيري لهم ، فليحذر هؤلاء من مثله . ولا تكرير في " كَذَّبَ " لأن الأول للتكثير ، والثاني للتكذيب . أو الأول مطلق والثاني مُقَيَّد ، ولذلك عطف

عليه بالفاء)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٦٤) : ((ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَاقِبَةِ الْمَكْذِبِينَ قَبْلَهُمْ مُخَوِّفًا لَهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني الأمم الكافرة ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها ما بَلَغَ كُفَارَ مَكَّةَ مِعْشَارَ مَا آتَيْنَا الْأُمَمَ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ وَطُولِ الْعُمُرِ، قاله الجمهور . والثاني ما بَلَغَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِعْشَارَ مَا أُعْطِينَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْخُبَّةِ وَالْبُرْهَانِ. والثالث ما بَلَغَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِعْشَارَ شُكْرِ مَا أُعْطِينَاهُمْ، حكاها الماوردي . والمِعْشَارُ الْعُشْرُ . والنكير اسم بمعنى الإنكار . قال الرَّجَاجُ : والمعنى فكيف كان نكيري ، وإنما حُذِفَتِ الْيَاءُ ، لأنه آخر آية)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] .
وَعَجِبَ كُفَارُ مَكَّةَ أَنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنَ الْبَشَرِ ، يُخَوِّفُهُمْ عَذَابَ النَّارِ إِنْ اسْتَمَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ ،
وَأَسْتَبْعَدُوا ذَلِكَ ، لِمَا اسْتَقَرَّ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَتْمِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَلَكًا لَا بَشَرًا .
وَقَالَ الْكَافِرُونَ لَمَّا رَأَوْا الْمَعْجَزَاتِ الْخَارِقَةَ لِلْعَادَةِ ، وَالَّتِي هِيَ فَوْقَ قُدْرَاتِ الْبَشَرِ : هَذَا الَّذِي
يَدَّعِي الرِّسَالَةَ سَاحِرٌ يَخْدَعُ النَّاسَ ، وَكَذَّابٌ فِي ادِّعَاءِ النَّبُوءَةِ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ النَّبِيَّ ﷺ .
وَوَضَعَ الظَّاهِرُ ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ فِي مَوْضِعِ الْمُضْمَرِ " وَقَالُوا " لِإِظْهَارِ الْغَضَبِ عَلَيْهِمْ ،
وَإِدَانَتِهِمْ ، وَذَمِّهِمْ ، وَإِشْعَارًا بِأَنْ هَذَا الْقَوْلُ لَا يَجْرُؤُ عَلَيْهِ إِلَّا الْغَارِقُونَ فِي الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ .
وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٣٢) : ((﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾ مِنْ أَنْ جَاءَهُمْ ﴿ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾

رَسُولٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يُنْذِرُهُمْ . يَعْنِي اسْتَبْعَدُوا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ مِنَ الْبَشَرِ . ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ . وَلَمْ يَقُلْ : وَقَالُوا ، إِظْهَارًا لِلْغَضَبِ عَلَيْهِمْ ، وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَجْسُرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ الْمُتَوَعِّلُونَ فِي الْكُفْرِ ، الْمُنْهَمِكُونَ فِي الْغَيِّ ، إِذْ لَا كُفْرَ أْبْلَغَ مِنْ أَنْ يُسْمُوا مَنْ صَدَّقَهُ اللَّهُ كَاذِبًا سَاحِرًا)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .
عَجِبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَاسْتَعْرَبُوا أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ تَعَوَّدُوا عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ ، وَوَرِثُوا هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الْفَاسِدَةَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ،
حَتَّى اسْتَقَرَّتْ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَسَيَّطَرَتْ عَلَى عَقُولِهِمْ ، وَانْعَكَسَ تَأْثِيرُهَا عَلَى سُلُوكِهِمْ . فَصَارَ التَّوْحِيدُ
بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ أَمْرًا غَرِيبًا وَعَجِيبًا وَشَاذًا ، وَصَارَ الشِّرْكُ هُوَ الْأَمْرَ الْمُنْطَقِيَّ وَالْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ .

وهذا يدل على عنادهم ، وجهلهم ، وانتكاس فطرتهم ، وتقليدهم الأعمى للآباء والأجداد ، والتعصب لعقائدهم الموروثة دون فحصها أو عرضها على العقل .

والآية تُشير إلى استغراب المشركين ودهشتهم وتعجبهم وإنكارهم الشديد ، والمعنى : كيف جعل محمد الآلهة إلهًا واحدًا لا شريك له ، إنَّ هذا لأمرٌ في غاية العَجَب . وهذه المُبالغة في العَجَب والتَّعَجُّب تُشير إلى إنكارهم التام للتَّوحيد ، واستبعاد وجود إله واحد لا شريك له . ووفقَ تفكير المشركين : كيف يستطيع إله واحد أن يسمع كُلَّ الناس ، ويُسيطر على كُلِّ المخلوقات ؟ . لا بُدَّ من آلهة كثيرة ، فيختص كُلُّ إلهٍ بأمرٍ مُعيَّن من أمور الناس . وهذه عقيدة باطلة . فالله هو الإله الواحد ، لا شريك له ولا ند . خلق السماوات والأرض والشمس والقمر من العدم ، وخلق الإنسان من لا شيء . وهذا الإله العظيم صاحب القدرة المطلقة لن يعجز عن سماع الناس أو رؤيتهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٦) : ((أي : أرغم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ . أنكر المشركون ذلك ، قَبَّحَهُم الله تعالى ، وتَعَجَّبُوا مِنْ تَرْكِ الشُّرْكَ بالله ، فإنهم كانوا قد تَلَفَّظُوا عَنْ آبَائِهِمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبُهُمْ ، فَلَمَّا دَعَاهُم الرَّسُولُ ﷺ إِلَى خَلْعِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، وَإِفْرَادِ الْإِلَهِ بِالْوَحْدَانِيَةِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ وَتَعَجَّبُوا ، وَقَالُوا : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مرَّضَ أَبُو طَالِبٍ ، فَجَاءَتْ قُرَيْشٌ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَعِنْدَ رَأْسِ أَبِي طَالِبٍ مَجْلِسُ رَجُلٍ ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كِي يَمْنَعُهُ ذَاكَ ، وَشَكَّوهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ ؟ ، قَالَ : ((يَا عَمَّ ، إِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً تَذِلُّ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ ، وَتُوَدِّدُ إِلَيْهِمْ بِهَا جَزِيَّةُ الْعَجَمِ ، قَالَ : كَلِمَةً وَاحِدَةً ؟ ، قَالَ : ((كَلِمَةً وَاحِدَةً)) ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ . قَالَ : ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)) . قَالَ : فَقَالُوا : أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (12) .

أبو طالب هو شيخ بني هاشم ، وعلى دين المشركين ، الذين كانوا يأتون إليه ليشكوا النبي ﷺ باعتبار أن أبا طالب هو عم النبي ﷺ وزعيم بني هاشم . والمشركون محكومون برابطة الدَّم والقرباة لا رابطة الدين والإيمان . وقد كان عند رأس أبي طالب مكان فارغ يتسع لرجل ، فقام أبو جهل كي يَمْنَعُ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ الْجُلُوسِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، خَوْفًا مِنَ التَّأْثِيرِ عَلَى عَمِّهِ ، وَأَيْضًا لَا يُرِيدُ الْمَشْرِكُونَ إعطاء النبي ﷺ مكان الصدارة ، أو أن يكون قريبًا من عَمِّهِ . وقد شكوا المشركون النبي

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٦٩) برقم (٣٦١٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ﷺ إلى عَمِّه، بأنه يَقَع في آلِهِم، ويُكِر عليهم عبادة الأصنام، ويُسَفِّه أحلامهم ، ويُضَلِّل آباءهم الغابرين.

وكان الحوار صريحًا وواضحًا . سأل أبو طالب النبي ﷺ : ما تُريد من قَوْمِكَ ؟ . وهو سؤال منطقي وواضح . وكان النبي ﷺ واضحًا وصادقًا ، ولم يُجامل ، ولم يُداهن ، ولم يتحايل على الإجابة . إنما قال بكل وضوح إنه يُريد من قَوْمه كلمة واحدة ، تخضع لهم بها العرب ، ويُصبحون سادة على العرب وزُعماء لهم ، ويخضع لهم العَجَم (غير العرب) ويدفعون الجزية صاغرين . ومن الواضح أن أبا طالب قد استصغَرَ هذه الكلمة، وشعر أن الموضوع غاية في البساطة والسهولة، لذلك قال : كلمة واحدة ؟ . وكأن الأمر لا يستحق العناء ، فالموضوع مُجرَّد كلمة واحدة عابرة وبسيطة . وقد أجابه النبي ﷺ إنها كلمة واحدة ، وهي كلمة التَّوْحِيد الخالدة : " لا إِلَهَ إلا الله " . فتعجَّب المشركون من توحيد الله ، لأنهم غارقون في عقيدة تعدُّد الآلهة الباطلة، التي ورثوها عن آبائهم . وقد رَفَضُوا توحيدَ الله ، لأنهم يَعْرِفُونَ أن التَّوْحِيد يَنْسِفُ تاريخَ آبائهم الوثني ، ويُهدِّد مصالحهم الشخصية ، ويُعيد صياغة المجتمع من منظور الإيمان والحق والعدل والمساواة ، وهذا أكبر تهديد للطواغيت الحاكمين على رِقاب الناس ، المتحكِّمين في مسارهم ومصيرهم .

والقضية ليست كلمة أو كلمتين أو أكثر . إنَّ " لا إِلَهَ إلا الله " منهج كامل ومتكامل ، يشمل الدنيا والآخرة معًا . وإفراؤُ الله بالعبادة يعني القضاء على الآلهة الباطلة المعبودة من دُون الله تعالى . والشَّرْكُ مشروع تجاري قائم على سيطرة السادة على الناس ، ويسط نفوذ الأقوياء على الضعفاء ، واستعبادهم واستغلالهم .

والمشركون كانوا يُدْرِكُونَ أنَّ توحيد الله سَيُجَرِّدُهم من سُلْطَتِهم الباطلة ، ونفوذهم الاستغلالي، ومكانتهم الاجتماعية المزعومة ، ويقضي على تاريخ آبائهم الوثني المقدَّس ، لذلك، رَفَضُوا التَّوْحِيدَ حفاظًا على مصالحهم الشخصية، وسُلْطَتِهم، ونفوذهم، ومُكتسباتهم المادية. وآثروا الدنيا على الآخرة ، فَخَسَرُوا الدنيا والآخرة معًا .

وتوحيدُ الله أكبر تهديد لعروش الطواغيت، لأنه يَرَفُض تحوُّل الإنسان إلى إِلَه على أخيه الإنسان ، ويرفض استغلال الإنسان لأخيه الإنسان تحت أي شعار. فالْبَشَرُ كُلُّهم مُتساوون في العبودية، فَكُلُّهم عبيدُ الله تعالى. ولا مَعْبُود بحق إلا الله . وهذا أمرٌ مرفُوض جُمْلَةً وتفصيلاً بالنسبة للطواغيت ، الذين أَلْهَوْا أَنْفُسَهم ، وَتَحَكَّمُوا بمصائر الناس ، وقاموا باستعبادهم واستغلالهم . وَسَوَّفَ يَقَاتِلُونَ للحفاظ على سُلْطَتِهم وعروشهم ومصالحهم المادية حتى النهاية .

وقال الله تعالى : ﴿ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يُراد ﴾ [ص : ٦] .

وانطلق الأشراف من كفار قريش وقادتهم وسادتهم قائلين : استمروا على دينكم ، وانبتوا على عبادة الأصنام آلهتكم وآلهة آبائكم ، وارفضوا دعوة محمد إلى توحيد الله ، إن هذا الذي يدعوكم إليه محمد من التوحيد ، يريد به زيادة أتباعه ، والسيطرة عليكم ، والاستيلاء على ممتلكاتكم ، والحصول على الشرف والرفعة والسيادة والزعامة ، فيتحكم فيكم ، ويفرض نفوذه على العرب والعجم ، فاحذروا أن يصرفكم عن دينكم ، ولا تطيعوه في دعوته إلى توحيد الله .

والآية تشير بوضوح إلى أن كفار قريش يعتبرون الدعوة الإسلامية مشروعاً سياسياً للسيطرة ، والزعامة ، وبسط النفوذ ، والتحكم بقراب الناس ، والاستيلاء على ممتلكاتهم . وهذا الأمر نابع من انحصارهم في العقلية القبلية ، حيث قيم الشرف والسيادة والزعامة والصراع بين القبائل . إذن ، الدعوة الإسلامية _ بالنسبة للمشركون _ هي مشروع دنيوي بحث ، لتحقيق مكاسب شخصية ، ومصالح ضيقة ، ولا يمتد للآخرة بصله . وهذا أمر متوقع ، لأن المشركون يؤمنون بالدنيا فقط ، ولا يؤمنون بالبعث ولا اليوم الآخر . وقال النسفي في تفسيره (٣٣ / ٤) : ((وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض : أن امشوا ، وأن بمعنى أي ، لأن المنطلقين عن مجلس التناول ، لا بُدَّ لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم متضمناً معنى القول . واصبروا على عبادة آلهتكم ، إن هذا الأمر لشيء يُراد ، أي : يريد الله تعالى ، ويحكم بامضائه ، فلا مردَّ له ، ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يُراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ [ص : ٧] .

قال المشركون : ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في النصرانية ، التي هي آخر الملل (قبل ملة الإسلام) ، فإنهم يقولون بالتثليث لا التوحيد ، فمن أين جاء محمد بعقيدة التوحيد ؟ . إن ما جاء به محمد كذب اختلقه وافتراه . ومعنى كلام المشركون : لو كان التوحيد الذي جاء به محمد حقاً ، لأخبرتنا به النصارى ، أو رأيناه في عقائدهم ، وعرفنا به .

وقد يكون المقصود بالملة الآخرة هي دين قريش (عبادة الأصنام الآلهة) . وعندئذ ، يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملة التي أدرَكنا عليها آباءنا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠٣ / ٧) : ((ما سَمِعْنَا بهذا الذي جاء به محمد من التَّوْحِيدِ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، وفيها ثلاثة أقوال : أحدها النصرانية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد ، وبه قال محمد بن كَعْبِ الْقُرَظِيُّ ومقاتل . والثاني أنها مِلَّةُ قُرَيْشٍ رواه ابن أبي نَجِيحٍ عن مجاهد ، وبه قال قتادة . والثالث اليهودية والنصرانية ، قاله الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ والمعنى أن اليهود أشركت بِعُزَيْرٍ ، والنصارى قالت : ثالث ثلاثة ، فلهذا أنكرت التَّوْحِيدَ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [ص : ٨] .

الهمزة للإنكار والاستبعاد . يُنْكِرُ المشركون وَيَسْتَبْعِدُونَ أَنْ يَنْزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى مُحَمَّدٍ مِنْ بَيْنِهِمْ كُلِّهِمْ، وفيهم مَنْ هُوَ أَغْنَى مِنْهُ، وَأَعْلَى رِئَاسَةً، وَأَعْظَمَ زَعَامَةً. وكأنهم يقولون: أَلَمْ يَجِدِ اللَّهُ إِلَّا مُحَمَّدًا يُنْزِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وهو الذي عاشَ فقيرًا ویتیمًا ونحن أكبرُ منه سنًا وأعظمَ شرفًا منه وأكثرَ أموالًا وأولادًا؟! . لقد أنكروا اختصاصه بِالْوَحْيِ مِنْ بَيْنِهِمْ. وهذا يدل على أَنَّ كُفْرَهُمْ نابعٌ مِنْ حَسَدِهِم الشديد له ، وَغَيْرَتِهِمْ مِنْهُ ، وَحَقْدِهِمْ عَلَيْهِ ، واقتصار نظرهم على خُطَامِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا الزَّائِلِ .

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْتَجَى إِمَاتَتُهَا إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ

وقال الزمخشري في الكشاف (١٠٨٠ / ١) : ((أنكروا أن يَخْتَصَّ بِالشَّرَفِ مِنْ بَيْنِ أَشْرَافِهِمْ ورؤسائِهِمْ ، وَيَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، كما قالوا : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الرَّحُفُ : ٣١] ، وهذا الإنكار ترجمة عَمَّا كَانَتْ تَغْلِي بِهِ صَدُورُهُمْ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى مَا أُوتِيَ مِنْ شَرَفِ النَّبُوَّةِ مِنْ بَيْنِهِمْ)) اهـ .

والمشركون يَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، وَإِنَّمَا شَكُّوا فِي الْقُرْآنِ ، هَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمْ لَا ؟. فَقَدْ مَالُوا إِلَى التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَتَرَكَ الدَّلِيلَ . إِذَنْ، كُفْرَهُمْ لَمْ يَكُنْ مَبْنِيًّا عَلَى الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ وَالْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى الشَّكِّ وَالْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَالْجَهْلِ وَتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ بِشَكْلِ أَعْمَى ، وَعَجْزِهِمْ عَنِ مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ . وَسَبَبُ شَكِّهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَذُوقُوا عَذَابَ اللَّهِ ، وَلَوْ ذَاقُوهُ لَزَالَ عَنْهُمْ الشَّكُّ وَالْحَسَدُ، وَحَلَّ الْيَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَصَدَّقُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ الرِّسَالَةَ حَقٌّ، وَلَا يَنْفَعُهُمُ التَّصَدِيقُ حِينَئِذٍ. والمعنى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُعَذِّبُوا . لَقَدْ اغْتَرَبُوا بِطُولِ الْإِمْهَالِ . فَقَدْ مَنَحَهُمُ اللَّهُ الْفُرْصَةَ تَلَوُّ الْفُرْصَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ إِكْرَامًا

لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَرَحْمَةً بِهِمْ . وَلَوْ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ لَمَا قَالُوا ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ حِينَئِذٍ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٠٤) : ((أي : كَيْفَ خُصَّ مُحَمَّدٌ بِهَذَا دُونَنَا ، وَلَيْسَ بِأَعْلَانَا نَسَبًا ، وَلَا أَعْظَمَنَا شَرَفًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أَي مِنَ الْقُرْآنِ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِمَّا يَقُولُونَ ، إِنَّمَا هُمْ شَاكُّونَ . ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ . قَالَ مُقَاتِلٌ : لَمَّا بِمَعْنَى لَمْ . وَقَالَ غَيْرُهُ : هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ عَلِمُوا أَنَّ مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ حَقٌّ)) .

وقال ابن الوزير في إشار الحق على الخلق (١ / ٥٩) : ((فافزعْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّضَرُّعِ ، وَالتَّذَلُّلِ ، وَطَلِبِ أَسْبَابِ الرَّقَّةِ ، وَالتَّخْوِيفِ الْعَظِيمِ لِنَفْسِكَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّقْوَةِ الْكُبْرَى بِعَذَابِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ مِنْ طَبَائِعِ النُّفُوسِ الْإِيمَانَ عِنْدَ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَلِذَلِكَ آمَنَ قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ، وَآمَنَ فِرْعَوْنُ حِينَ شَاهَدَ الْغَرَقَ . وَقَدْ نَبَّهَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ ، وَلِذَلِكَ يَرْجِعُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ عَنْ عَقَائِدَ وَقَبَائِحَ وَشُبُهَاتٍ كَانُوا مُصَرِّينَ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِتَجَلِّي بُرْهَانٍ حِينَئِذٍ ، بَلْ لِأَنَّ الطَّبِيعَ الْقَاسِيَّ كَانَ كَالْمُعَارِضِ لِلْبُرْهَانِ ، فَلَمَّا لَانَ بَقِيَّ الْبُرْهَانُ بِلَا مُعَارِضٍ ، وَكَذَلِكَ لَوْ شَاهَدَ فِرْعَوْنُ وَغَيْرُهُ أَعْظَمَ بُرْهَانٍ بِغَيْرِ خَوْفٍ مَا آمَنُوا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٥] ^(١٣) .

إِنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ إِذَا دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ ، تَذَرَعُوا بِخُجَجٍ وَاهِيَةٍ ، قَالُوا إِنَّ قُلُوبَهُمْ فِي أَغْطِيَةٍ تَحْجِبُهُمْ عَنِ الدَّعْوَةِ ، وَفِي آذَانِهِمْ ثِقَلٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ، اسْتِثْقَالًا لِلدَّعْوَةِ ،

(١٣) فِي الدُّرِّ الْمُنْشُورِ (٧ / ٣١٢) : ((عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ ، الْآيَةِ . قَالَ : أَقْبَلْتُ قُرَيْشٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : " مَا يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ فَتَسْتُودُوا الْعَرَبَ ؟ " ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ مَا نَفْقَهُ مَا تَقُولُ وَلَا نَسْمَعُهُ ، وَإِنْ عَلَى قُلُوبِنَا لَعْلُفًا . وَأَخَذَ أَبُو جَهْلٍ ثَوْبًا ، فَمَدَّهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ)) .

وكراهيةً للحق. فكلامُ النبي ﷺ لا يدخلُ أسماعَهُمْ، وقلوبُهُمْ مَحْجُوبَةٌ عَنْ استيعابه. وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٩٥١) : ((أي : نحن في ترك القبول منك بِمَنْزِلَةِ مَنْ لا يَفْقَهُ ولا يَسْمَعُ)) اهـ .
ويبرز في الآية وجهٌ من وجوه البيان ، وهو الاستعارة التصريحية ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ﴾ ، وهذه تمثيلات لامتناع قلوبهم عن قبول الإيمان ، وكأنها في أغطية تمنعها من التواصل مع العالم الخارجي .

وقال الصابوني في صفوة التفسير (١٥ / ١٨) : ((ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه ، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعون من قوارع القرآن ، وجوامع البيان ، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صمّت أسماعُهُم عن فهمه ، وقلوبُهُم عن علمه)) اهـ .
﴿ ومن بيننا وبينك حجابٌ ﴾ . يقولون إِنَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ حاجزًا مانعًا ، يحجبهم عن التواصل ، فلا يصلُ إليهم شيء من كلام النبي ﷺ . وهذا الحجاب هو اختلاف الدِّين، لأن دينهم عبادة الأصنام ، أمّا دينُ النبي ﷺ فهو الإسلام القائم على التوحيد . وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٨٥) : ((يقولون : ومن بيننا وبينك يا محمد ساتر ، لا نجتمع من أجله نحن وأنت ، فيرى بعضنا بعضًا ، وذلك الحجاب هو اختلافهم في الدِّين، لأن دينهم كان عبادة الأوثان ، ودين محمد ﷺ عبادة الله وحده لا شريك له ، وذلك هو الحجاب الذي زعموا أنه بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَبِيِّ اللَّهِ)) اهـ .
وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٢٩٧) : ((وقيل : إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبًا وقال : يا محمد
محمّد
بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ، استهزاءً منه ، حكاية النقاش وذكره القشيري . فالحجاب هنا الثوب)) .

﴿ فاعملْ إننا عاملون ﴾ . اعْمَلْ يا محمد على دينك وما تعتقده حقًا ، وهو توحيد الله تعالى ، ونحن نعمل على ديننا وما نعتقد حقًا ، وهو عبادة الأصنام . وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٢٩٧) : ((أي : اعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك ، قاله الكلبي . وقال مقاتل : اعْمَلْ لإلهك الذي أرسلك ، فإننا نعمل لآلهتنا التي نعبد . وقيل : اعمل بما يقتضيه دينك فإننا عاملون بما يقتضيه ديننا . ويحتمل رابعًا : فاعملْ لآخرتك فإننا نعمل لدُنْيانا ، ذكره الماوردي)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾ [الدُّخَان : ١٣] .
استبعادٌ لإيمانهم . من أين لهم التذكُّر والاتِّعاض والإيمان ، وقد جاءهم رسولٌ بيّن الرسالة ، وواضح التّدارة ، وظاهر الصّدق ، ومؤيّدًا بالمعجزات ، يُبَيِّن لهم أحكام الدِّين ، وأمور الدُّنيا وأحوال الآخرة ، وهو محمد ﷺ . ومع هذا ، كدّبوه ، ورّمَوْهُ بأبشع التّهم ، وجحدوا بُبُوته ، وكفروا به .

وفي تفسير الجلالين (١ / ٦٥٧) : ((**﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾** أي: لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب)) اهـ . لقد طلب الكفار من الله تعالى أن يكشف عنهم العذاب ، فجاءهم الرد الإلهي : **﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾** . ((أي : كيف يتذكرون ويتعظون بهذه الحالة **﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴾** معناه : وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة ، وهو ما ظهر على يد رسول الله ﷺ من الآيات البينات والمعجزات الظاهرات)) [تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي (٩ / ٩٦)] .

وقال الله تعالى : **﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾** [الدخان : ١٤] .

ثم أعرض الكافرون عن النبي ﷺ ، وقالوا: إن محمداً يعلمه بشر، أو يعلمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون بادعائه النبوة، وليس رسولا. والذين يقولون بهذا كيف يتعظون ويتذكرون ويؤمنون؟ وهل يرجى منهم خير وصلاح؟، وقد طردهم الله وأبعدهم عن الاتعاظ والتذكر، وحجب عنهم الإيمان، عقوبة لهم، بعد تكذيبهم للنبي ﷺ ، ورميه بأسوأ التهم ، بلا دليل ولا برهان .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٧ / ٢٤٤) : ((إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان ، منهم من كان يقول : إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس

ومنهم من كان يقول : إنه مجنون والجن تلقى عليه هذا الكلام حال تحبُّطه)) اهـ .

وقال الله تعالى : **﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾** [الأحقاف : ٧] .

إذا تُقرأ على المشركين آيات القرآن واضحات الألفاظ ظاهرات المعاني، قالوا عن القرآن الحق

لَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : هذا سحر لا شك فيه ، ظاهر البطلان . ومن الملاحظ أن اتِّهام المشركين للقرآن بأنه سحر بلا دليل ولا نظر . فهم لم يدرسوا القرآن ثم يطلقوا عليه حكمهم . وإنما بادروا إلى الجحود أول سماعهم للقرآن ، واتَّهموه بالسحر عناداً وتكبُّراً وظُلماً . واتَّهام القرآن بالسحر لا تقوم له قائمة ، لأنه اتِّهام بدافع الهوى والعناد ، بدون حجة ولا برهان . وهذه مرجعه إلى قرارهم المسبق برفض الإيمان مهما كانت الظروف والبراهين . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٧) : ((**﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾** لأجله وفي شأنه، والمراد به الآيات ، ووَضَعُه موضع ضميرها ، ووَضَعَ **﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾** موضع ضمير المتلَوِّ عليهم للتسجيل عليها بالحق ، وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة . **﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾** حينما جاءهم من غير نظر وتأمل)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف]:

[٨].

لقد زعمَ المشركون أنَّ محمدًا ﷺ اختلق القرآن، وأتى به من عند نفسه. و﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ معناها: بل يقولون افترى القرآن، وهذا إنكارٌ توبيخيٌّ. ومعلومٌ أنَّ محمدًا ﷺ أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يُعرف عنه أنَّه كان يتردد على العلماء. فكيف سيأتي بهذا القرآن المُعجز المشتمل على أخبار الماضي والحاضر والمستقبل؟! . ومعلومٌ كذلك أنَّ محمدًا ﷺ هو الصادق الأمين، فمن غير المعقول أن يترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وأيضاً، آياتُ القرآن تدعو إلى توحيد الله وتعظيمه، ولا تدعو إلى عبادة محمد ﷺ، أو تحقيق مصالح شخصية له. وهناك آيات تُعاتب النبي ﷺ وتكشف بعض الأمور الشخصية في حياته، ولو كان محمد هو مؤلف القرآن لأخفى هذه القضايا عن الناس. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. هذا على سبيل الفرض. فإن افترى محمد القرآن، ثُمَّ نسبَه إلى الله تعالى، فلا يُقدِّر المشركون على حمايته من عذاب الله. فكيف يُعرض نفسه للعذاب الإلهي من أجلهم وهم عاجزون عن حمايته؟! . ولا يوجد مخلوق يستطيع أن يردَّ العقوبة الإلهية، ولا يُقدِّر أحدٌ على حماية نفسه من غضب الله، فكيف يحمي الآخريين؟! . والآية تحمل تهديداً أكيداً، ووعيداً شديداً.

وقال ابن كثير في تفسيره (١٩٧ / ٤): ((أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني وليس كذلك، لعاقبني أشدَّ العقوبة، ولم يُقدِّر أحدٌ من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يُجيرني منه)). وقال القرطبي في تفسيره (١٥٨ / ١٦): ((قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الميم صلة، التقدير: يقولون افتراه، أي تقوله محمد، وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في ﴿أَمْ﴾ الإنكار والتعجب. كأنه قال: دَعُ هذا، واسمع قولهم المُستنكر المقضي منه العجب. وذلك أنَّ محمدًا كان لا يُقدِّر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله، ولو قدِّر عليه ذون أمة العرب، لكانت قدرته عليه مُعجزة لخرقها العادة، وإذا كانت مُعجزة كان تصديقاً من الله له، والحكيم لا يُصدِّق الكاذب، فلا يكون مُفترياً، والضمير للحق، والمراد به الآيات)) اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

أي: إنَّ مُبغضَكَ يا محمد هو الأذل الذي ليس له عقبٌ (وَلَدٌ).

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٢١ / ٤) : ((الأبتَر الذي إذا مات انقطع ذِكْرُهُ ، فَتَوَهَّمُوا لجهلهم أنه إذا مات بَنُوهُ انقطع ذِكْرُهُ . وحاشا وكلا ، بل قد أبقي الله ذِكْرَهُ على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شَرْعَهُ على رِقَاب العباد ، مستمرًّا على دوام الآباد إلى يوم المحشر والمعاد)) اهـ .

ونلاحظ من خلال سياق الاعتداء اللفظي من قِبَل الكفار على المقام النبوي الشريف أنهم يحاولون بكل وسيلة الطعن في النبي ﷺ عن طريق التَّيْل من تاريخه الأسري، ووضعه العائلي . وهذا يدل على عجزهم عن مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، وتقديم البراهين العقلانية المنطقية ، لذلك تناولوا وضعه الأسري بالانتقاص لأنه ﷺ قد مات أبناؤه الذكور في حياته .

ووجود الأبناء بالغ الأهمية، وذو مركزية عشائرية في المجتمع الجاهلي، وقد اعتقدوا — لجهلهم — أنهم ناجحون في طعنهم ، لكنَّ الأمر ارتدَّ عليهم خُسْرَانًا ، وَلَمْ يتأثر المقام النبوي السَّامي بهذه التصرفات الطائشة الحاقدة التي لا منطق لها .

وعن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : لَمَّا قَدِمَ كَعْب بن الأشرف مكة أَتَوْهُ ، فقالوا : نحنُ أهلُ السَّقَايَةِ والسَّدَانَةِ ، وأنتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ ، فنحنُ خَيْرُ أُمَّةٍ هذا الصُّنْبِيرُ الْمُنتَبِرُ مِنْ قَوْمِهِ يزعم أنه خَيْرُ مَنَّا؟، فقال : أنتم خَيْرُ مَنْهُ . فَتَزَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿إِنْ شَانَنكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (14) .

لقد سأل المشركون كَعْب بن الأشرف (طاغوت اليهود) أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، مَنْ سَابَحَ الْخَيْرَ وَالْفَضْلَ . المشركون قَدَّمُوا أَنْفُسَهُمْ بِاعتبارهم أَهْلُ سِقَايَةِ الْحَجَّاجِ ، وَخِدْمَةِ الْكَعْبَةِ ، وقد كانت السَّقَايَةُ لبني هاشم ، والسَّدَانَةُ (خِدْمَةُ الْكَعْبَةِ) لبني عبد الدار . واعتَبَرُوا النَّبِيَّ ﷺ أَتْبَرُ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا أُخَ ، وَإِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ . فَحَكَّمَ كَعْب بن الأشرف اليهوديُّ الحاقِدُ على الإسلام والكاره للنبي ﷺ بأنَّ المشركين عُبادُ الأصنام أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وهذا يدل على حقد اليهود على الإسلام، وكُرْهِهم للحق ، وتلاعِبهم بالعرب الوثنيين الجاهلين .

(١٤) رواه ابن جَبَّان في صحيحه (١٤ / ٥٣٤) برقم (٦٥٧٢) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ /

٧٢١) : ((رواه البَزَّار ، وهو إسناده صحيح)) .

الفصل الخامس عشر
صِدْقُهُ وَاسْتِحَالَةُ تَقْوِيلِهِ عَلَى اللَّهِ

تمهيد

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَجِئْ إِلَى كِفَارِ مَكَّةَ فَارِغَ الْيَدَيْنِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوهُ. لَقَدْ جَاءَ بِالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي تَحَدَّاهُمْ ، وَفَشَلُوا أَنْ يُعَارِضُوهُ وَهُوَ بُلْغَتُهُمْ ، وَهُمْ أَهْلُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ . وَإِذَا كَانُوا عَاجِزِينَ ، فَغَيَّرَهُمْ أَكْثَرَ عَجْزًا .

لَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبُرْهَانِ النَّقْلِيِّ وَالِدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ عَلَى صِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوتِهِ ، وَلَمْ يَتْرَكِ النَّاسَ حَائِرِينَ فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ يُجْبِرِ النَّاسَ عَلَى اعْتِنَاقِ الْحَقِّ ، بَلْ حَاوَرَهُمْ وَنَاقَشَهُمْ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ . وَالتُّبُوءُ لَيْسَتْ مَشْرُوعًا شَخْصِيًّا لِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلَا وَرَاثَةً عَائِلِيَّةً ، وَلَا صَفْقَةً تِجَارِيَّةً ، وَلَا أَفْكَارًا شَخْصِيَّةً . إِنَّ التُّبُوءَ مِنْهُجٌ إِلَهِيٌّ كَامِلٌ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا .

لَقَدْ اخْتَارَ اللَّهُ مُحَمَّدًا نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَحَمَلَهُ هَذِهِ الْأَمَانَةَ الْإِلَهِيَّةَ، وَأَمْرَهُ بِتَبْلِيغِهَا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْفُضَ أَوْ أَنْ يَعْتَذِرَ . وَقَدْ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَدَاءِ أَمَانَةِ التَّبْلِيغِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، بِلَا كَسَلٍ وَلَا تَقْصِيرٍ . وَلَمْ يَتَرَجَّعْ عَنِ الْحَقِّ ، وَإِنَّمَا اسْتَمَرَّ مُجَاهِدًا بِالْكَلِمَةِ وَالسَّيْفِ ، الْكَلِمَةُ وَالْحَوَارِ وَالْتِسَامُحُ فِي الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ ، وَالسَّيْفُ وَالْقُوَّةُ فِي الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ .

وَالْإِسْلَامُ مُصْحَفٌ وَسَيْفٌ . لَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا بِدُونِ الْآخَرِ . مَنْ كَانَ مُسَالِمًا وَيَعْتَمِدُ عَلَى لُغَةِ الْحَوَارِ وَالْمَنْطِقِ، تَمَّتْ مُحَاوَرَتُهُ وَالتَّسَامُحُ مَعَهُ ، وَتَفْنِيدُ شُبُهَاتِهِ بِالْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ . وَمَنْ كَانَ مُجَرِّمًا حَرِيْبًا يَعْتَمِدُ عَلَى مَنْطِقِ الْقُوَّةِ ، تَمَّتْ مُحَارَبَتُهُ ، وَالتَّعَامُلُ مَعَهُ بِاللُّغَةِ الَّتِي يَفْهَمُهَا ، وَهِيَ السَّيْفُ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ ، وَيَعْرِفُ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَخْتَارُهُمْ لِحَمْلِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . فَاللَّهُ لَا يَخْتَارُ الْكَاذِبِينَ وَلَا الْمَشْبُوهِينَ لِحَمْلِ كَلِمَتِهِ إِلَى النَّاسِ ، لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِيهِ إِسَاءَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَطَعْنٌ فِي حِكْمَتِهِ ، وَتَنْفِيرٌ لِلنَّاسِ مِنَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

إِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ الصَّادِقِينَ الْأَمْنَاءَ الشُّرَفَاءَ لِحَمْلِ الْوَحْيِ، كَيْ يَقُودُوا النَّاسَ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ . لِذَلِكَ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا صَادِقِينَ وَأَمْنَاءَ ، وَمِنْ عَائِلَاتٍ شَرِيفَةٍ وَكَرِيمَةٍ ، لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ تُؤَثِّرُ بِشَكْلِ إِيْجَابِيٍّ فِي النَّاسِ ، وَتُسَهِّلُ انْتِشَارَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَالنَّاسُ لَيْسُوا مُغْفَلِينَ ، فَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى تَمْيِيزِ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ . كَمَا أَنَّ الْمَوَاقِفَ الْحَيَاتِيَّةَ الْمُتَعَدِّدَةَ تَكْشِفُ حَقِيقَةَ النَّاسِ، وَأَخْلَاقَهُمْ، وَطِبَاعَهُمْ . وَالْعَقْلُ الْجَمْعِيُّ يَحْكُمُ عَلَى الشَّخْصِ بِمَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ سِيرَتُهُ مَكْشُوفَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ عَلَى السَّوَاءِ ، فَهُمْ

يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ ، وتفاصيل حياته ، ولا تُوجد في سيرته نقاط سوداء أو مجهولة ، تُثير الشُّكوك والشُّبهات .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ﴾ [الحاقة] . لا يمكن للنبي ﷺ أن يفترى على الله تعالى ، فيُغيّر في الرسالة الإلهية زيادةً أو نقصاناً ، أو ينسب كلاماً بشرياً إلى الله تعالى . ولو فعل ذلك _ حاشاه _ لعرض نفسه للعقوبة الإلهية ، وسوف يُقضى عليه . فالله سينتقم منه أشد الانتقام بسرعة ، ولن يُمهله . وهذا يدل على أن القرآن وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ ، أنزله على محمد ﷺ ، الذي قام بتبليغه كما هو ، دون زيادة أو نقصان .

واليمينُ مقامُ القوة الباهرة والبطش الشديد . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٥٥ / ٨) : ((قال ابن قُتيبة : إنما أقام اليمينَ مقامَ القوة ، لأنَّ قُوَّةَ كُلِّ شيءٍ في مِيَامِنِهِ)) اهـ . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١١٣٠) : ((يعني النبي ﷺ . لو قال ما لم يُؤمر به ، وأتى بشيء من قبل نفسه لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ ... والمعنى : لأخذناه بالقوة والقدرة)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (٣٨٤ / ١) : ((سُمِّيَ الافتراء تَقْوُلًا ، لأنه قولٌ مُتَكَلِّفٌ . والأقوال المُفتراة أقاويل ، تحقيرًا لها)) . وعن يزيد بن عامر السُّوائي أنهم بيّنوا أنهم يطوفون بالطاغية _ صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية _ إذ سَمِعُوا مُتَكَلِّمًا يقول: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ... ﴾ ، فَفَزَعْنَا لَذَلِكَ ، فَقُلْنَا : ما هذا الكلام الذي لا نعرفه ؟ ، فَنَظَرْنَا فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ مُنْطَلِقًا (١) .

والجدير بالذكر أن الذي يكذب على الله له صفات واضحة تفضحه ، فلا يمكن لشخص مثل محمد ﷺ معروف بالصدق والأمانة في الجاهلية والإسلام أن يقوم بهذا الفعل الدنيء . فما كان له أن يدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى . ولو كان محمد ﷺ كاذبًا لوافق المشركين ونسب كلامهم الباطل إلى الله تعالى وجنى ثروة هائلة ، واكتسب نفوذًا بين القبائل العربية ، وصار سيّدًا على المشركين ، يُزيّن باطلهم، ويُعادي الحق، ولَمَّا تم إعلان الحرب عليه من القريب والبعيد . وبالتالي سيراتح من المعاناة . لكن شيئًا من هذا لم يحدث ، ممّا يُشير بكل وضوح إلى ثباته على الدعوة الإسلامية الإلهية ، وأن الأمر أكبر من محمد ﷺ نفسه . إذ إنَّ الأمر الإلهي لا يَغْلوه أمرٌ .

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣٧٦ / ٨) . وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٢ / ٧) : ((فيه السائب ابن يسار الطائفي ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

وقد تَنَبَّه هِرْقُلُ إِلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ، فقال عنه : ((لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ))^(٢).

وهذه حقيقة واضحة تعتمد على منطق لا لَبْسَ فيه . فالإنسان الذي يمتنع عن الكذب على المخلوق ، لا يمكنه أن يكذب على الخالق . فلا يمكن للصادق في تعامله مع الناس والمشهود له بالأمانة والاستقامة أن ينسب كلامًا زائفًا إلى الله تعالى . ولا يخفى أن ألسنة الخلق أقلام الحق ، فلا يُعْقَلُ أن يَتَّفِقَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ أَحَدِهِمْ وَيَكُونُ كَاذِبًا . وكما قال الشاعر :

شَهِدَ الْأَنَامُ بِفَضْلِهِ حَتَّى الْعِدَى وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٤٦] .

ثُمَّ لَقَطْنَا نِيَاطَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ حَتَّى يَمُوتَ . وهو عِرْقٌ فِي الْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ . والمعنى أَنَّ اللَّهَ يُعَاجِلُهُ بِالْعُقُوبَةِ ، وَلَا يُؤْهِلُهُ ، إِذَا نَسَبَ إِلَى اللَّهِ كَلَامًا غَيْرَ صَحِيحٍ ، مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا . وتسمية الأقوال المُفْتَرَاةَ بِالْأَقَاوِيلِ لِلتَّصْغِيرِ وَالتَّحْقِيرِ .

وقال البِضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٨٤) : ((﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ أَي : نِيَاطُ ، بِضَرْبِ عُنُقِهِ . هُوَ تَصْوِيرٌ لِإِهْلَاكِهِ بِأَفْطَحَ مَا يَفْعَلُهُ الْمُلُوكُ بِمَنْ يَغْضَبُونَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ الْمَقْتُولَ بِيَمِينِهِ ، وَيَكْفُخُهُ (يُوَاجِهُهُ) بِالسَّيْفِ ، وَيَضْرِبُ بِهِ جِدَّهُ (عُنُقَهُ) . وَقِيلَ : الْيَمِينُ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ)) اهـ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما _ : ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ، قال : ((نِيَاطُ الْقَلْبِ))^(٣).

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ، قَالَ : ((هُوَ حَبْلُ الْقَلْبِ الَّذِي فِي الظُّهْرِ))^(٤).

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الْحَاقَّةُ : ٤٧] .

لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ مُعَاقِبَةَ مُحَمَّدٍ وَتَعْدِيَهُ ، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ دَفْعَ الْعَذَابِ عَنْ مُحَمَّدٍ . فَكَيْفَ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ لِأَجْلِكُمْ ؟ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَعَاقَبَهُ اللَّهُ ، وَلَا أَحَدٌ سَيِّحِمِيهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ لِأَنَّ أَحَدًا يَقَعُ عَلَى الْجَمْعِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٥٣٧) : ((وَالْمَعْنَى فِي هَذَا : بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٍ رَاشِدٌ لِأَنَّ اللَّهَ

(٢) متفق عليه . البخاري (٤ / ١٦٥٧) برقم (٤٢٧٨) ، ومسلم (٣ / ١٣٩٣) برقم (١٧٧٣) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٤) برقم (٣٨٥١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٤) برقم (٣٨٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

عَزَّ وَجَلَّ مُقَرَّرَ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ ، وَمُؤَيَّدَ لَهُ بِالْمَعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَالِدَلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ)) اهـ . وقال
الخازن في تفسيره (٤ / ١٤٨) : ((المعنى إِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَتَكَلَّمُ الْكَذِبَ عَلَيْنَا لِأَجْلِكُمْ ، مَعَ عِلْمِهِ
أَنَّهُ لَوْ تَكَلَّمَ لَعَاقَبْنَاهُ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى دَفْعِ عُقُوبَتِنَا عَنْهُ)) اهـ .

الفصل السادس عشر

تَنْزِيهُهُ عَنِ الشَّعْرِ

تمهيد

القرآن كلامُ الله تعالى ، لا يُشبهه كلامُ البشر ، ولا يُشبهه أيُّ كلام . وما طعنُ المشركين في القرآن ورَميه بالشعر إلا دليل عَجَز . فقد فشلوا في مُعارضة القرآن أو التفوق عليه ، ممَّا جعلهم يَحْتَبِنون خلف التشكيك في القرآن ، وإلقاء التُّهم التي لا يسندُها أي دليل . لذلك فقد وَصفوا القرآن بالشعر مع إيمانهم ، بأنه مُخالفٌ للشعر في طريقة نَظْمه .

والقرآن فوق مستوى البشر، فقد اشتمل على الغيبيات، وأحكام الحلال والحرام ، والوعد والوعيد، والبشارة والنذارة، والفصاحة الساطعة، والقوة البيانية الباهرة، والنظم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فهو متفوق على كلام العرب ، يلهثون وراء أسلوبه دون أن يدركوه مع أنهم أهل الفصاحة والبيان ، ومنبع الشعراء العباقرة . وإذا كان العربُ _ أهل البلاغة والفصاحة _ قد عَجَزوا عن مُعارضة القرآن أو التفوق عليه ، وهو بلغتهم ، فَغَيْرُهُم سيكون أكثر عَجْزًا ، وَهُم الأعاجم .

واتَّهامُ القرآن بأنه شعر يعني بالضرورة اتِّهام محمد ﷺ بأنه شاعر . وهذا الأمر واضح البطلان . فمحمد ﷺ أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعرف عنه أنه كان يُجالس العلماء والحُكَماء ، أو يتلقى العلم في مجالس علماء اليهود والنصارى ، أو في مجالس حُكَماء العرب وشعرائهم .

وقد عاشَ محمد ﷺ فقيرًا يَتِيْمًا أُمِّيًّا ، يَرعى الأغنام كي يكسب قُوتَ يومه . ولم يُعرف أنه شاعر ، إذ إنه لم يَقُل الشعر ، ولم يُؤَلِّف القصائد كما يفعل الشعراء . وهذا الأمر يُعرفه مُشركو مكة الذين اتَّهموه بأنه شاعر كَذِبًا وزُورًا . فقد عاشَ معهم ، ونشأ بينهم ، ويعرفون تفاصيل حياته الشخصية منذ الولادة ، ويعرفون حَسَبه ونَسَبه ، ويعرفون البيئَةَ التي عاش فيها .

إنَّ محمدًا ﷺ لم تكن له علاقة بالعلم والعلماء والشعر والشعراء . لم يكن شاعرًا حتى يَشْكُوا في أمره ، كما أن القرآن يَحْتَلِف عن الشعر وأوزانه وطريقة نَظْمه . ولم يكن عالِمًا مُتبحِّرًا في العقائد والأديان حتى يُثير الشُّكوك والشُّبهات بأنه قام بتأليف القرآن .

وإذا كان محمد ﷺ قد أَلْفَ القرآن، فلماذا عَجَز فحولُ الشعراء، وزُعماء الفصاحة والبلاغة أن يُؤَلِّفوا كتابًا مثل القرآن ، ويُنَبِّتوا تَفَوُّقَهُم على محمد ، ويُفَحِّمُوهُ أمام الناس ؟!

إنَّ اتِّهام محمد ﷺ بأنه شاعر تُهمة باطلة ، لا دليل عليها ، ولا بُرْهان يُؤَيِّدُها . إنها تُهمة نابعة من جهل المشركين وحسدِهم له ، وحقدِهم عَلَيْهِ ، وعَجْزِهِم عن مُواجهة الدليل بالدليل .

قال الله تعالى : ﴿ وما عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وما ينبغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩].
الله لَمْ يُعَلِّمَ النَّبِيَّ ﷺ الشَّعْرَ ، وما ينبغي لَهُ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا . فالشَّعْرُ لَيْسَ فِي طَبْعِهِ ﷺ ، وَلَا يُتَقَنُّهُ وَلَا يُحِبُّهُ . والقرآنُ لَيْسَ شِعْرًا ، وإنما عِظَّةٌ وتذكيرٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، لكي يَخْرُجُوا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، فَيَفُوزُوا بِالْدارَيْنِ . والقرآنُ خَاتِمُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ يشتمل على أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَيْسَ قِصَائِدَ شِعْرِيَّةٍ ممزوجة بالخيالات والعواطف . والله عَلَّمَ مُحَمَّدًا ﷺ الْقُرْآنَ ، وَلَمْ يُعَلِّمْهُ الشَّعْرَ . وفي هذا تَكْذِيبٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ قالوا إِنَّ مُحَمَّدًا شاعرٌ ، وما يَقُولُهُ شِعْرٌ .

والنبي ﷺ لَا يَعْرِفُ أَوْزَانَ الشَّعْرِ . وكثيرًا ما ذَكَرَ أَيْبَاتًا لشُعراء ، فَكَسَرَ وَزَنَهَا . وهذا دَلِيلٌ على عَدَمِ إتْقَانِهِ الشَّعْرَ . وأحيانًا ، قَدْ يُصِيبُ النَّبِيَّ ﷺ الْوِزْنَ فِي كَلَامِهِ بَلَا قَصْدٍ ، وَلَا مَعْرِفَةَ بِأَوْزَانِ الشَّعْرِ ، كَقَوْلِهِ ﷺ : ((هَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ . وفي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ))^(١) .

وهذا الْكَلَامُ لَيْسَ شِعْرًا ، لِأَنَّهُ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ بِحُكْمِ الْكَلَامِ ، وَلَيْسَ بِحُكْمِ الشَّعْرِ الْكَلَامُ الْمُقْفَى الْمَوْزُونُ ، الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنَ الْقَصْدِ وَالتَّصْمِيمِ وَالتَّيَّةِ الْمُبَيِّنَةِ . وكثيرٌ مِنَ الْعَوَامِ يَنْطَلِقُونَ بِكَلَامٍ مَوْزُونٍ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْوِزْنَ . ومع هذا لَا يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُمْ شُعراء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٤٨) : ((رُوي أَنَّ الْمَأْمُونُ قال لأبي علي المنقري : بَلَّغْنِي أَنَّكَ أُمِّيٌّ ، وَأَنَّكَ لَا تُقِيمُ الشَّعْرَ ، وَأَنَّكَ تَلْحَنُ ، فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَّا اللَّحْنُ فَرُبَّمَا سَبَقَ لِسَانِي مِنْهُ بَشْيَاءٌ ، وَأَمَّا الْأُمِّيَّةُ وَكُسْرُ الشَّعْرِ ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَكْتُبُ وَلَا يُقِيمُ الشَّعْرَ . فقال له : سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثَةِ عَيُوبٍ فِيكَ فَزِدْتَنِي رَابِعًا ، وَهُوَ الْجَهْلُ . يا جَاهِلُ ! ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَضِيلَةً ، وَهُوَ فِيكَ وَفِي أَمْثَالِكَ نَقِصَةٌ . وإنما مُنِعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ لِئَنَّهُ لِنَفْسِهِ الطَّنَّةُ عَنْهُ ، لَا لِغَيْبٍ فِي الشَّعْرِ وَالْكِتَابَةِ)) اهـ .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أُمِّيًّا ، لَا يُحْسِنُ الشَّعْرَ ، وَذَلِكَ لِإِبْعَادِ الشُّبْهَةِ عَنْهُ ، وَتَنْزِيهِ الْقُرْآنِ عَنِ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ . فَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَارِئًا وَكَاتِبًا ، أَوْ شَاعِرًا ، لَشَكَّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهَالِ ، وَقَالُوا : لَقَدْ أَلَفَ الْقُرْآنَ كَمَا يُؤَلِّفُ قِصَائِدَهُ ، وَلَقَالُوا : لَقَدْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِهِ ، فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَقَوْلِ الشَّعْرِ ، وَنَظَمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ كَمَا يَنْظُمُ أَيْبَاتَ قِصَائِدِهِ . وقد أَغْلَقَ اللَّهُ هَذَا الْبَابَ ، وَجَعَلَ مُحَمَّدًا ﷺ أُمِّيًّا لَا يَقْدِرُ عَلَى قَوْلِ الشَّعْرِ ، إِظْهَارًا لِدَلِيلِ صِدْقِهِ ، وَدُخْضًا لِلشُّبْهَاتِ وَالشُّكُوكِ .

(١) متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٢٧٦) برقم (٥٧٩٤) ، ومسلم (٣ / ١٤٢١) برقم (١٧٩٦) .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٧٦٣) : ((وقال أبو زرعة الرازي : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُجَالِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : مَا وَلَدَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى إِلَّا يَقُولُ الشَّعْرُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . ذَكَرَهُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجُمَةِ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ الَّذِي أَكَلَهُ الْأَسَدُ بِالزَّرْقَاءِ)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٤٠) : ((﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ ﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ إِنَّ مُحَمَّدًا شَاعِرٌ ، أَي : مَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ بِتَعْلِيمِ الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ لَا يُمَاتِلُهُ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُقْفَى ، وَلَا مَوْزُونٍ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ مَا يَتَوَخَّاهُ الشُّعْرَاءُ مِنَ التَّخَيُّلاتِ الْمُرْغَبَةِ وَالْمُنْفَرَةِ وَنَحْوِهَا . ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ وَمَا يَصِحُّ لَهُ الشَّعْرُ ، وَلَا يَتَأْتِي لَهُ إِنْ أَرَادَ قَرْضَهُ ، عَلَى مَا خَبَرْتُمْ طَبَعَهُ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً)) اهـ .

واختلاف القرآن عن الشعر واضح للجميع . فَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى عَالِمٍ بِاللُّغَةِ لِكَيْ يَكْتَشِفَ الْمَوْضُوعَ . وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ كَانَتْ مَعْرُوفَةً لَدَى الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ . لَكِنَّ الْأَهْوَاءَ الشَّخْصِيَّةَ تُعْتَبِرُ أَكْبَرَ تَشْوِيشٍ عَلَى الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ . كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يُعْرِفْ طِيلَةَ حَيَاتِهِ بِأَنَّهُ شَاعِرٌ أَوْ يُجَالِسُ الشُّعْرَاءَ . وَحَيَاتُهُ مَكْشُوفَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ ، لَا تُوجَدُ فِيهَا أَسْرَارٌ وَخَفَايَا . حَيْثُ إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَمِهْنَتَهُ وَتَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٩١٩) : قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : ((لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهْنَةِ فَمَا هُوَ يَقُولُهُمْ ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشَّعْرِ _ قَوَافِيهِ _ ، فَمَا يَلْتَمِسُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)) .

هَذَا هُوَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي رَحْلَةِ بَحْثِهِ عَنِ الْحَقِيقَةِ ، وَبَعْدَ سَمَاعِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، يَدْرِكُ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ الْكُهْنَةِ ، وَلَيْسَ بِالشَّعْرِ ، وَيَخْتَلِفُ عَنْ أَسَالِيبِ الشُّعْرَاءِ ، وَقَدْ شَهِدَ بِصَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَهُ بِالْكُهَانَةِ وَالشَّعْرِ كَاذِبُونَ . وَهَذَا كَلَامٌ مَنْ يَطْرَحُ التَّعَصُّبَ جَانِبًا ، وَيَسْعَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ بِقَلْبٍ صَادِقٍ خَالٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ ، وَالْأَفْكَارِ السَّيِّئَةِ الْمَسْبُوقَةِ ، وَالنَّزَوَاتِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْبَحْتَةِ . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ (رَأْسَ الْكُفْرِ) قَالَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ : ((فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ مِنْ رَجُلٍ أَعْلَمَ بِالشُّعْرِ مِنِّْي ، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلَا بِقَصِيدَةٍ مِنِّْي ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّهُ لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ ، مُغْدِقٌ أَسْفَلَهُ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى ، وَإِنَّهُ لَيَخْطُمُ مَا تَحْتَهُ)) (٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٥٠) برقم (٣٨٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

[الرَّجَزُ : بَحْرٌ مِنْ بُحُورِ الشَّعْرِ . الطَّلَاوَةُ : الرُّونْقُ وَالْحُسْنُ . الْمُغْدِقُ : الْكَثِيرُ الْمَطَرُ . يَخْطُمُ : يَكْسِرُ] .

وهذا الاعتراف الصريح من الوليد بن المغيرة يُشير إلى تَمَيُّز القرآن عن الشعر . والحق ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداء . وهذا الاعتراف لم يَجِئْ مِنْ شخص جاهلٍ لا يَعْرِفُ اللغةَ العربيةَ، بل جاء من خبير بها ، مُتبحِّر فيها . فالوليد كان عالِمًا بالأشعار ، والرَّجَز ، والقصيدة ، وأشعار الجن . وقد عَقَدَ في ذهنه مقارنةً بين القرآن وهذه الأشياء ، فلم يجد أدنى تشابه . ممَّا يدل على أَنَّ مَصْدَرَ القرآن سَمَويٌّ عُلُويٌّ ، وَمَصْدَرَ الشعرِ بَشَرِيٌّ أَرْضِيٌّ .

وقد سُئِلَت السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ : هل كان النبي ﷺ يَتَمَثَّلُ بشيءٍ مِنَ الشعر ؟ ، قالت : ((كان يَتَمَثَّلُ بِشعرِ ابْنِ رَواحة ، ويتمثل ويقول : وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ))^(٣).

وهذا دليلٌ على جَوازِ تَمَثُّلِ النبي ﷺ بشيءٍ مِنَ الشعر . ولا تعارض بين الآية النافية لِكَوْنِ النبي ﷺ تَعَلَّمَ الشعرَ ، وبين هذا الحديث الذي يُوَضِّحُ أَنَّهُ ﷺ كان يتمثل بشيءٍ مِنَ الشعرِ . فالتمثُّلُ بالشعر يستند إلى التقاط الشعر من البيئة المحيطة ، وترداده في حادثة مناسبة ، وهذا الأمرُ يختلف عن تعلُّمِ أوزان الشعر وتأليف القصائد كما يفعل الشعراء . فالشاعرُ يقصد أن يَأْتِيَ بكلامه موزونًا مُفَقِّئًا مُشْتَمَلًا على الخيالات . أمَّا مَنْ تَمَثَّلَ بِشعرِ الآخرين فليس بشاعر .

وقال الحافظ في فتح الباري (١٠ / ٥٤١) : ((وقد اُخْتُلِفَ في جَوازِ تَمَثُّلِ النبي ﷺ بشيءٍ من الشعر وإنشاده حاكياً عن غَيْرِهِ ، فالصحيح جَوازه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارْكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصَّافَّات : ٣٦] .

يقول مُشْرِكُو قُرَيْشٍ إذا دُعُوا إلى تَوْحِيدِ اللَّهِ : أَنْتَرَكُ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا وَدِينَ آبَائِنَا لِقَوْلِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ النَّبِيَّ ﷺ . وقد كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تعالى، فقالَ : ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصَّافَّات : ٣٧] .

القرآنُ كلامُ اللَّهِ ، وَلَيْسَ شِعْرًا . ومحمد ﷺ ليس شاعراً . إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، جاءَ بالحق الواضح (القرآن) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَهُ بِرِسَالَةِ التَّوْحِيدِ ، وَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ . وكلامُ المشركين متناقض ، لأنَّ الشاعِرَ شَخْصٌ مُفَكِّرٌ قَادِرٌ على ابتكار الخيالات واختيار الألفاظ الجميلة والمعاني المدهشة ، والمجنونَ شَخْصٌ فاقِدٌ لِقُواه العقلية لا يَقْدِرُ على قَوْلِ الشعرِ .

(٣) رواه الترمذي في سننه (١٣٩ / ٥) برقم (٢٨٤٨) وصَحَّحه .

فكيف يكون الشاعرُ المُبدعُ مجنوناً عاجزاً وفاقداً لِقَواه العقلية ؟! . إنها تُهمّة باطلة ومتناقضة في ذاتها ، وهي تدل على التّشويش الهائل في أذهان المشركين الناتج عن الأهواء والعناد والمُكابرة . وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٧ / ٣٥٧) : ((جمع المشركون بين إنكار الوحدانية ، وإنكار الرسالة ، ثُمَّ خَلَطُوا في كلامهم بِقَوْلهم " شاعر مجنون " فَإِنَّ الشاعرَ عِنْدَه مِنَ الفَهم والحِذْق ما يُنظّم به المعاني الغريبة ، ويَصُوغها في قالب الألفاظ البديعة ، وَمَنْ كانَ مجنوناً لا يَصِل إلى شيء من ذلك ، فكلامُهم تخليط وهذيان)) اهـ .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٤ / ٥٥٧) : ((﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني القرآن المشتمل على التّوحيد والوعد والوعيد . ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: صدّقهم فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد وإثبات الدار الآخرة ، وَلَمْ يُخَالِفْهم ، ولا جاء بشيء لَمْ تَأْتِ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ)) اهـ . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة] .

القرآن كلام الله يَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ مُنْزَرٌّ عن الكذب ، وهو محمد ﷺ . وقد أُضيفَ القَوْل إلى النبي ﷺ لِأَنَّهُ هُوَ مُبَلِّغُ كَلَامِ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ (4) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٣٩) : ((وَلَيْسَ الْقُرْآنُ قَوْلَ الرِّسُولِ ﷺ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَنُسِبَ الْقَوْلُ إِلَى الرِّسُولِ ، لِأَنَّهُ تَالِيهِ وَمُبَلِّغُهُ)) اهـ . ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ .

لَيْسَ الْقُرْآنُ شِعْرًا ، لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِأَوْزَانِ الشَّعْرِ وَأَنْوَاعِهِ ، وَلَيْسَ مُحَمَّدٌ شَاعِرًا ، لِأَنَّهُ لَا يُحْسِنُ نَظْمَ الشَّعْرِ ، وَلَا يُتَقَنُ كِتَابَةَ الْقَصَائِدِ . وَأَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَعْرِفُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْوَاضِحَةَ . وَالْقُرْآنُ لَيْسَ شِعْرًا وَلَا نَثْرًا .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٣٣٦) : ((نَفَى سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْ قَوْلِ شَاعِرٍ ، كَمَا زَعَمَتْ قُرَيْشٌ . وَ﴿ قَلِيلًا ﴾ نُسِبَ بِفِعْلِ مُضْمَرٍ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ ، وَ﴿ مَا ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٥٤) : ((﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني القرآن . ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : مُحَمَّدٌ ﷺ ، قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ . وَالثَّانِي : جَبْرِيلُ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ وَمَقَاتِلُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ قَوْلُ الرِّسُولِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ قَوْلُ الرِّسُولِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَفِي الرِّسُولِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، فَانْكَفَى بِهِ مِنْ أَنْ يَقُولَ : عَنْ اللَّهِ)) اهـ .

تكون نافيةً ، فينتفي إيمانهم البتّة. ويُحتمل أن تكون مصدرية ، فيتّصف إيمانهم بالقلّة، ويكون إيماناً لُغوياً ، لأنهم قد صدّقوا بأشياء يسيرة ، لا تُغني عنهم شيئاً ((اهـ .

الفصل السابع عشر

تَسْلِيَّتُهُ وَتَثْبِيَّتُهُ

تمهيد

تسليّة الله للنبي ﷺ تعني التخفيف عنه ورفع معنوياته . وتثبيت الله للنبي ﷺ يعني منحه القوة والإرادة الصلبة كي يثبت على الطريق المستقيم ولا ينحرف .

والله لا يتخلى عن أنبيائه . فما بالك بسيد الأنبياء على الإطلاق ، محمد ﷺ ؟ ! . إن الله يُخَفِّف عنه ، ويُقَوِّيه في مواجهة الأعداء ، ويرفع معنوياته ، ويأمره بعدم الحزن على الكافرين ، فقد رفضوا الهداية الإلهية ، وجحدوا نُبُوَّة محمد ﷺ ، الذي دَعَاهم إلى الحق بكل أمانة وصدق وإخلاص وقوة، وكان حريصاً على إسلامهم لإنقاذهم ، وهو لا يحتاج إليهم ، وكان حزيناً بسبب كفرهم، وهذا يدل على إخلاص النبي ﷺ ورحمته بالناس، وإرادة الخير لهم . فالتُّبُوَّة ليست مشروعاً شخصياً يتمحور حول الأنا والأنانية . إنَّ التُّبُوَّة مَنهج إلهي لإنقاذ الإنس والجن بلا استثناء . والله لَمْ يَخْلُق الإنسَ والجنَّ لِيُعَذِّبَهُمْ . بَلْ خَلَقَهُمْ لِيَرْحَمَهُمْ . وَمَنْ يَرْفُضِ الرَّحْمَةَ الإلهية ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّةَ قَرَارِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ، وَلَا يَضَعُ تَقْصِيرَهُ عَلَى الْآخَرِينَ .

والنبي ﷺ قويٌّ في الحق ، وليس ضعيفاً ولا مهزوزاً . ومع هذا ، فهو إنسان لديه مشاعر وأحاسيس وليس رجلاً آلياً، ولا كُتْلَةً حَجَرِيَّةً . إنه ﷺ يفرح، ويحزن، ويتعب ، ويتألم ، ويمرض ، ويشفي ، ويتأثر بالعوامل البيئية والعناصر الاجتماعية، ويتفاعل مع الناس ، ويحرص على إنقاذهم، وإرشادهم إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، ويحزن ويتألم بسبب كفر الكافرين ، ومعاصي العُصاة . وهو بحاجة إلى تسليّة الله وتثبيتته . فالإنسان مهما بلغ من القوة والشرف والمكانة ، لا يستغني عن الله تعالى ، وإنما يظل خاضعاً له ، ومُحتَاجاً إليه . والنبي ﷺ هو أعلم المخلوقات بالله تعالى ، يَتَوَجَّهُ إليه في السَّراءِ والضَّرَّاءِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَقْطَعَ عِلَاقَتَهُ بِالْخَالِقِ الْعَظِيمِ .

ومحمد ﷺ نبيٌّ ورسول ، والرسولُ ليس حُرَّ التصرف ، وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئاً ، لِأَنَّهُ يُنْفَذُ أَوْامِرَ مَنْ أَرْسَلَهُ ، وَيُوصَلُ رِسَالَتُهُ بِلا زيادة ولا نُقْصَان . وما على الرسول إلا البلاغ . والله تعالى هو الذي اختارَ محمداً ﷺ ، وأرسله إلى الإنس والجن ، وثبَّته على الطريق المستقيم ، وقَوَّاه في مُوَاجَهَةِ التَّحْدِيَّاتِ الكثيرة ، والأعداء أصحاب القوة والمال والسيادة والنفوذ . والنبي ﷺ له أُسُوةٌ حَسَنَةٌ فِي الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كُذِّبُوا، وَعَانُوا أَشَدَّ الْمَعَانَا، وَوَاجَهُوا التَّحْدِيَّاتِ الْخَطِيرَةَ، وَعَالَجُوا

طِباع الناس القاسية ، وتَعَامَلُوا مع شَتَّى طبقات المجتمع في أصعب الظروف ، وأقصى المراحل .
والتُّبُوَّةُ منهاجٌ متكامل ، وكُلُّ الأنبياء سائرون في طريق واحد، وهو الدَّعوة إلى عبادة الله وَحْدَهُ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٦] .

إنَّ النبي ﷺ كان رحيماً بالناس ، مُشْفِقاً عَلَيْهِمْ ، يُريد إنقاذهم من النار بكل الوسائل. وبعضُ
الناسِ لَمْ يَكُونُوا معنيين بهذا الأمر. قد اتَّخَذُوا الْكُفْرَ منهجاً في حياتهم، وأضاعوا الدنيا والآخرة
معاً.

والنبي ﷺ كان يَرْجُو لَهُم الْخَيْرَ وَالْإِيمَانَ ، وَيَحْزَنُ وَيَتَأَلَّم بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى
إِنقاذ الناس. وقد جاءت التَّسْلِيَةُ الإلهيَّةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : لَا تَحْزَنْ وَلَا تَتَأَلَّم يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ مُبَادَرَةِ
المنافقين إلى الكفر بأقوالهم وأفعالهم، وَلَا تَهْتَم بِكُفْرِهِمْ، وَلَا تَعْبَأْ بِعِدَاوَتِهِمْ لِلْحَقِّ. إِنَّ كُفْرَهُمْ لَن
يُعِيق الدَّعوةَ الإِسْلامِيَّةَ ، كما أَنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا بِتَفْضِيلِهِم الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ . إِنَّهُمْ يَضُرُّونَ
أَنْفُسَهُمْ ، لأنَّهُمْ قَادُواهَا إِلَى الْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ وَالْعَذَابِ الْحَتَمِيِّ . وَضَرُرُ الْكَافِرِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَوَبَالُ
كُفْرِهِ عَلَيْهِ ، لَا يَتَعَدَّى إِلَى الْآخَرِينَ. والمخلوق لَا يَقْدِرُ عَلَى إلْحَاقِ الْأَذَى وَالضَّرْرَ بِالْخَالِقِ الْعَظِيمِ
. وَاللَّهُ تَعَالَى لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ الْغَاصَّةِ .

يُرِيدُ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ وَمَشِئَتِهِ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُوْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُعَادُونَ الْإِسْلَامَ وَالنَّبِيَّ ﷺ نَصِيبًا
مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ . وَاللَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَحِقُوا شَرَفَ الْإِيمَانِ .
وَالْأَمْرُ لَا يَقِفُ عِنْدَ حِرْمَانِهِمْ مِنَ الثَّوَابِ الْآخِرِيِّ ، وَلَهُمْ أَيْضًا عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وقال البِضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١١٨) : ((﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ ،
يَقْعُونَ فِيهِ سَرِيعًا حِرْصًا عَلَيْهِ ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ، أَوْ قَوْمٌ ارْتَدَوْا عَنِ الْإِسْلَامِ .
وَالْمَعْنَى : لَا يَحْزُنُكَ خَوْفُ أَنْ يَضُرُّوكَ وَيُعِينُوا عَلَيْكَ لِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أَي : لَن
يَضُرُّوا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ شَيْئًا بِمُسَارَعَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ ، وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ ... ﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ
لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ ﴾ نَصِيبًا مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى تَمَادِي طُغْيَانِهِمْ وَمَوْتِهِمْ عَلَى
الْكُفْرِ . وَفِي ذِكْرِ الْإِرَادَةِ إِشْعَارُ بِأَنْ كُفْرَهُمْ بَلَغَ الْغَايَةَ حَتَّى أَرَادَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ
حِطٌّ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَإِنَّ مُسَارَعَتَهُمْ فِي الْكُفْرِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُرِدْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حِطٌّ فِي الْآخِرَةِ . ﴾
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

مَعَ الْحِرْمَانِ عَنِ الثَّوَابِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥٠٨) : ((وفي الذين يُسارعون في الكفر أربعة أقوال :

أحدها أنهم المنافقون ورؤساء اليهود ، قاله ابن عباس . والثاني المنافقون ، قاله مجاهد . والثالث كفار قُرَيْش ، قاله الضَّحَّاك . والرابع قوم ارتدوا عن الإسلام ، ذكره الماوردي . وقيل : معنى مُسارعَتهم في الكفر مُظاهرتهم للكفار ونَصْرهم إيَّاهم . فإن قيل : كيف لا يَحْزَنُه المُسارعة في الكفر ؟ ، فالجواب : لا يَحْزَنُكَ فِعْلُهُمْ ، فَإِنَّكَ منصور عليهم . قَوْلُه تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ فيه قولان : أحدهما لَن يُنْقِصُوا اللَّهَ شَيْئًا بكفرهم ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني لَن يَصْرُوا أولياءَ اللَّهِ شَيْئًا ، قاله عطاء . قال ابن عباس : وَالْحَظُّ النَّصِيبُ ، وَالْآخِرَةُ الْجَنَّةُ ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في النار)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

يُحَاطَبُ اللَّهُ النَّبِيُّ ﷺ : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ بِالْعَدْلِ وَالصِّدْقِ ، فَلَا شَكَّ فِيهِ وَلَا شُبْهة ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا ، يُصَدِّقُ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ السَّابِقَةَ ، وَأَمِينًا وَشَاهِدًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا . وَالْقُرْآنُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا .

إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمَرْجِعُ الْعُلْيَا ، وَهُوَ الْحَكْمُ الْحَاكِمُ الَّذِي يَحْكُمُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ ، وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ مُؤْتَمَنٌ عَلَى الْقُرْآنِ . وَمَا وَافَقَ الْقُرْآنَ كَانَ حَقًّا ، وَمَا خَالَفَهُ كَانَ بَاطِلًا . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ الْوَاحِدُ الْمَحْفُوظُ مِنَ التَّغْيِيرِ ، زِيَادَةً أَوْ نَقْصَانًا ، وَهُوَ الْكِتَابُ السَّمَاوِيُّ الْوَاحِدُ الْبَاقِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، حَيْثُ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ ، وَالْبَشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ ، وَأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَدْعُو إِلَى كُلِّ خَيْرٍ ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ . وَبِفَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَانَتِ الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ نَاسِخَةً لِمَا قَبْلَهَا . وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

إِنَّ الْكِتَابَ مُهَيِّمٌ لِنَبِيِّنَا
وَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الْأَلْبَابِ

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٦٠٦) : ((﴿ وَهُمْ مِمَّا عَلَيْهِ ﴾ ، يقول : أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا مُحَمَّد ، مُصَدِّقًا لِلْكِتَابِ قَبْلَهُ ، وَشَهِيدًا عَلَيْهَا أَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، آمِينًا عَلَيْهَا ، حَافِظًا لَهَا)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٩٠) : ((فَإِنَّ اسْمَ الْمَهِيِّمِ يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ ، فَهُوَ أَمِينٌ وَشَهِيدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ . جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الْكِتَابِ ، وَخَاتِمَهَا ، وَأَشْمَلَهَا ، وَأَعْظَمَهَا ، وَأَكْمَلَهَا ، حَيْثُ جُمِعَ فِيهِ مَحَاسِنُ مَا قَبْلَهُ ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَهِيدًا وَآمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا ، وَتَكَفَّلَ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الْحَجَرُ : ٩])) اهـ .

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ . فَاحْكُم يَا مُحَمَّد بَيْنَ النَّاسِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي الْقُرْآنِ ، فَهُوَ الْكِتَابُ الْخَالِدُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَحْكَامِ النَّافِعَةِ ، وَالتَّعَالِيمِ الرَّاقِيَةِ ، وَمَصَالِحِ الْعِبَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ كِتَابٌ سَمَويٌّ مَعْصُومٌ وَكَامِلٌ ، لَا خَطَأَ فِيهِ ، وَلَا زِيَادَةَ فِيهِ ، وَلَا نُقْصَانَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٩٠) : ((أَي : فَاحْكُم يَا مُحَمَّد بَيْنَ النَّاسِ عَرَبِيَّهُمْ وَعَجَمِيَّهُمْ ، أُمِّيَّهُمْ وَكِنَانِيَّهُمْ ، بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ ، وَبِمَا قَرَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ فِي شَرْعِكَ ، هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِمَعْنَاهُ)) اهـ .

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . لَا تَعْمَلْ بِأَهْوَاءِ الْكَافِرِينَ وَأَفْكَارِهِمُ الْمُنْحَرِفَةَ . وَالْمَعْنَى : لَا تَتْرُكْ أَحْكَامَ اللَّهِ وَهِيَ الْحَقُّ الْوَاضِحُ ، وَتَعْمَلْ بِأَحْكَامِ الْكَافِرِينَ الْبَاطِلَةِ النَّابِعَةِ مِنَ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْجَهْلِ وَالْعِنَادِ وَالْمَصَالِحِ الْمَادِيَةِ الضَّيِّقَةِ . لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ مَانِلًا عَنِ الْحَقِّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٩٠) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَي : آرَاءَهُمُ الَّتِي اصْطَلَحُوا عَلَيْهَا ، وَتَرَكُوا بِسَبِيلِهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَي : لَا تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ)) اهـ .

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ^(١) . لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ الرُّسُلَ بِشَرَائِعَ مُخْتَلِفَةٍ لِاخْتِلَافِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَطَبَائِعِ النَّاسِ ، وَهَذِهِ الشَّرَائِعُ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْفُرُوعِ ، وَتَمْتَقَّةٌ فِي الْأَصُولِ كَتَوْحِيدِ اللَّهِ ،

(١) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢ / ٣٧٢) : ((قَالَ مُجَاهِدٌ : الشَّرْعَةُ السُّنَّةُ ، وَالْمِنْهَاجُ الطَّرِيقُ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الشَّرْعَةُ وَالشَّرِيعَةُ وَاحِدٌ ، وَالْمِنْهَاجُ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ . فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ نَسَقَ الْمِنْهَاجُ عَلَى الشَّرْعَةِ ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ . فَعَنَى جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الشَّرْعَةَ ابْتِدَاءٌ

والبعث ، والجنة ، والنار . وقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثُمَّ يُصَحِّح في الشريعة الأخرى حالاً ، وبالعكس . وهذا الأمر يجري على مقتضى حكمة الله البليغة . والشريعة المحمدية الإسلامية قد نَسَخَتْ كُلَّ الشرائع قَبْلُهَا . ولا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ . والآية دليل على أن المسلمين غير مُتَعَبِّدين بسرائع الأنبياء السابقين .

إنَّ الآية تتحدث عن اختلاف الأمم والشعوب دينياً . والله جعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً . والشريعة هي ما شرع الله لعباده من الدين . وهذه البنية الدينية تتناسب مع إمكانيات كل أمة وثقافتها وبُنيته الاجتماعية . ولا شك أن الأمم مُتفاوتة في الإمكانيات الجسمية والعقلية ، ومختلفة في القدرات الروحية والمادية . وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ١٩٨) : ((يدل على عدم التعلق بسرائع الأولين . الشريعة والطريقة الظاهرة التي يُتوصَّل بها إلى النجاة)) اهـ .

وأمة موسى ﷺ لها شريعة ، وأمة عيسى ﷺ لها شريعة ، وأمة محمد ﷺ لها شريعة . أمَّا الدين فواحد . لقد جعل الله التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهلها ، والقرآن لأهلها ، مع أن الأصل واحد ، وهو توحيد الله تعالى . والقرآن آخر الكتب السماوية نزولاً ، وهو ناسخ لما قبله . فالشرائع مُتعددة ، لكنَّ الدين واحد وهو الإسلام (دين جميع الأنبياء بلا استثناء) . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وهذا يُشير إلى وَحْدَانِيَةِ الخالق تعالى ، ووحدانية الدين الصحيح (الإسلام) . وما سواه هي إسهامات بشرية تم تجميعها على شكل أديان في الشرق والغرب ، وهذه الأديان البشرية كالنصرانية واليهودية والبوذية والهندوسية ... إلخ ، هي تيارات فكرية وفلسفية اختلط فيها الحابل بالنابل دون وجهة صحيحة لأن البُوصلة مفقودة . ومن الخطأ الشنيع استخدام عبارة " الأديان

الطريق ، والمنهاج الطريق المستمر ، قاله المُبرِّد . والثاني أن الشريعة الطريق الذي ربما كان واضحاً وربما كان غير واضح ، والمنهاج الطريق الذي لا يكون إلا واضحاً ، ذكره ابن الأنباري . فلمَّا وَقَعَ الاختلاف بين الشريعة والمنهاج حُسِّنَ نسق أحدهما على الآخر . والثاني أن الشريعة والمنهاج بمعنى واحد ، وإنما نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين . قال الحُطَيْئَةُ : ألا حَبَّذَا هند وأرض بما هند ... وهند أتى من دونها النأي والبُعْدُ . فنسَقَ البُعْدَ على النأي لِمَا خالفه في اللفظ ، وإن كان مُوافقاً له في المعنى ، ذكره ابن الأنباري . وأجاب عنه أرباب القول الأول ، فقالوا : النأي كل ما قَلَّ بُعْدُهُ أو كَثُرَ كَأَنَّهُ المُفَارَقَةُ ، والبُعْدُ إنما يُسْتَعْمَلُ فيما كَثُرَتْ مسافة مُفَارَقَتِهِ)) اهـ .

السماوية". فالإسلام هو الدِّينُ السماوي الأَوحَد. وباقي الأديان أرضية وَضعية . أمَّا الشَّرائع فمتعددة ومختلفة باختلاف الزمان والمكان. قال الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ . فهناك شرائع سماوية وَكُتِبَ سماوية ، ولكن لا توجد أديان سماوية .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((أنا أُولَى الناس بعيسى ابن مَرْيَمَ في الدنيا والآخرة ، والأنبياءُ أُخوةٌ لِعَلَّاتٍ ، أمهاتهم شَتَّى ، ودينهم واحد))^(٢).

فالأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ينطلقون من مَصْدَر واحد (الوَحْي السماوي) وفق منهج واحد (التوحيد) ، يُبَلِّغُونَ دِينًا واحدًا (الإسلام) . وبالتالي فلا تعارض بينهم ولا تضاد . فهم أُخوةٌ متحابون يتصدرون الوجودَ البشري ، إذ إنهم القادة الذين اختارهم الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. لكنَّ شرائعهم مختلفة بسبب اختلاف الزمان والمكان وطبيعة الأمم المتلقية للبلاغ الإلهي المشتمل على الترغيب (البشارة) والترهيب (الإنذار) .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ الْأُمَمَ وَالشُعُوبَ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ (الإسلام) ، وَشَرِيعَةً وَاحِدَةً غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلنَّسْخِ . والمعنى : لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَجَبَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى اعتناق الإسلام . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٩٠) : ((هذا خطاب لجميع الأمم ، وإخبار عن قُدْرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجمعَ الناسَ كُلَّهُمْ عَلَى دِينٍ واحد ، وشريعة واحدة ، لا يُنسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرعَ لكل رسول شريعة على حدة ، ثُمَّ نَسَخَهَا أو بَعْضَهَا برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخَ الجميعَ بما بعث به عبده ورسوله محمدًا ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خَاتَمَ الأنبياء كُلِّهِمْ)) اه .

(٢) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣/ ١٢٧٠) برقم (٣٢٥٩). ومسلم (٤/ ١٨٣٧) برقم (٢٣٦٥). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ١١٩): ((قال العلماء: أولاد العَلَّاتِ _ بفتح العين = الْمُهِمَلَةُ وتشديد اللام _ هُمُ الأخوة لأبٍ مِنْ أمهات شَتَّى ، وأمَّا الأخوة من الأبوين ، فيقال لهم أولاد الأعيان)) اه . وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٨٩) : ((هو أُولَى الناس بعيسى ، وذاك من جهة قوة الاقتداء به ، وهذا من جهة قوة قُرب العهد به... والعَلَّاتِ _ بفتح المهملة _ الضرائر ، وأصله أن مَنْ تزَوَّج امرأةً ثم تزَوَّجَ أخرى كأنه عَلَّ مِنْهَا ، والعَلْلُ الشُّرب بعد الشرب . وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهم شَتَّى ... ومعنى الحديث: أن أصلَ دينهم واحد ، وهو التوحيد ، وإن اختلفت فروع الشرائع)) اه .

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ . إِنَّ الْحِكْمَةَ الإِلَهِيَّةَ فِي جَعْلِ الشَّرَائِعِ مُخْتَلِفَةً وَمُتَعَدِّدَةً ، هُوَ اخْتِبَارُ النَّاسِ وَامْتِحَانُهُمْ ، هَلْ يُطِيعُونَ اللَّهَ أَمْ يَعْصُونَهُ؟ . لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى اخْتِبَارَ النَّاسِ فِيمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٣١) : ((﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَخْتَلِفَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِكُلِّ عَصْرٍ وَقَرْنٍ ، هَلْ تَعْمَلُونَ بِهَا مُدْعَيْنَ لَهَا ، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ اخْتِلَافَهَا بِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الإِلَهِيَّةِ أَمْ تَرْيَغُونَ عَنِ الْحَقِّ وَتُفَرِّطُونَ فِي الْعَمَلِ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢ / ٣٧٤) : ((فَإِنْ قِيلَ : إِذَا كَانَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ ، نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا مَعَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ ، فَمَنْ الْمُخَاطَبُ بِقَوْلِهِ : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ خُطَابُ لِنَبِيِّنَا وَالْمُرَادُ بِهِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْعَرَبُ مِنْ شَأْنِهَا إِذَا خَاطَبَتْ غَائِبًا فَأَرَادَتْ الْخَبَرَ عَنْهُ أَنْ تُغْلِبَ الْمُخَاطَبُ ، فَتُخْرِجَ الْخَبَرَ عَنْهُمَا عَلَى وَجْهِ الْخُطَابِ)) اهـ .

﴿ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ . سَارِعُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالِاتِّزَامِ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّاسِخَةِ لِمَا قَبْلَهَا ، وَسَابِقُوا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنْ تَقْدِيمُ الْوَاجِبَاتِ أَفْضَلُ مِنْ تَأْخِيرِهَا . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٣١) : ((﴿ فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ فَابْتَدَرُوهَا انْتِهَازًا لِلْفُرْصَةِ ، وَحِيَاةً لِفَضْلِ السَّبْقِ وَالتَّوَقُّعِ)) اهـ .

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ . مَصِيرُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، فَيُظْهِرُ الْيَقِينَ ، وَيَزُولُ الشُّكَّ ، وَيَجْزِي كُلًّا مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٩٠) : ((أَيُّ : فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ ، الْمُكَذِّبِينَ بِالْحَقِّ ، الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، بَلَا دَلِيلٍ وَلَا بَرَهَانٍ ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ ، وَالْأَدْلَةِ الدَّامِغَةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ٣٣] .

يُخَفِّفُ اللَّهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُكْذِّبُونَ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيَطْعَنُونَ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَشْعُرُ بِالْحُزْنِ وَالْأَلَمِ وَالضَّيْقِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، وَاتِّهَامِهِمْ لَهُ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ... إِلَى آخِرِ هَذِهِ التُّهْمِ الْبَاطِلَةِ الْجَاهِزَةِ .

وَالْمُشْرِكُونَ _ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ _ يَعْرِفُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، لَا يَكْذِبُ وَلَا يَخُونُ ، وَلَكِنَّ عِنَادَهُمْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، وَالطَّعْنِ فِيهِ ، وَإِنْكَارِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ .

والله قال : ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ، ولم يقل : ولكنهم . ووضع الظاهر ﴿ الظالمين ﴾ موضع المضمَر لتقريعهم ، وتوبيخهم ، وإدانتهم ، وذمهم ، والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون ، وأحكامهم باطلة ونابعة من الجهل والعناد والأهواء الشخصية والمصالح الذاتية .
وفي واقع الأمر إنَّ إنكار الوحي الإلهي هو تكذيب للنبي ﷺ ، وتكذيب للنبي ﷺ هو تكذيب لله الذي أرسله ، وجحد بآيات الله تعالى .

وتأتي الآية لتسلية النبي ﷺ ، وتخفيف الأعباء الثقيلة عن كاهله ، وإزالة همّه وغمّه وحزنه ، وذلك بإخباره بأن الكافرين يَعْلَمُونَ أنه صادق وأمين ، ومُنَزَّه عن الكذب والخيانة ، لكنَّ العناد دفعهم إلى التكذيب بآيات الله تعالى . والكُفْرُ عناد . وفي الشفا للقاضي عياض (١ / ٢٨) :
((ففي هذه الآية مَنْزَعٌ لطيف المأخذ مِنْ تسليته تعالى له عليه السلام ، وإطافه به في القول بأن قَرَّرَ عنده أنه صادق عندهم ، وأنهم غير مُكذِّبين له ، مُعترفون بِصِدْقِهِ قَوْلًا واعتقادًا . وقد كانوا يُسَمُّونه _ قبل النبوة _ الأمين ، فدفع بهذا التقرير ارتماض (احتراق) نَفْسِهِ بِسِمة الكذب ، ثم جعل الِذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين... فحاشاه من الوَصْم (النقص والعيب) ، وطَوَّقَهُم (ألزمهم) بالمُعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم ، إذ الجحد إنما يكون مِمَّنْ عَلِمَ الشيءَ ثم أنكره ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [التَّمْل : ١٤]) .

وعن عليٍّ _ رضي الله عنه _ قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ : قد نَعَلَمَ يا محمد أنك تَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، ولا نُكذِّبُكَ ، ولكن نُكذِّبُ الذي جِئْتَ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (٣) .
وهذا يدل على جهل المشركين ، وقسوة قلوبهم ، وأنَّ كُفْرَهُمْ لا يَنبُع من الدليل والبرهان ، وإنما يَنبُع من الجهل والعناد . وقولُ أبي جهل _ لعنه الله تعالى _ يشتمل على تناقض صارخ ، فكيف يَكُونُ محمد صادقًا ويأتي بالكذب ؟! . الصادق لا يأتي إلا بالصدق . وإنكار الوحي الإلهي هو تكذيبٌ مُباشر للنبي ﷺ . وفي هذا إشارة إلى أنَّ كُفْرَهُمْ مبنيٌّ على التناقض والوهم والتخليط .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٥) برقم (٣٢٣٠) وصَحَّحه .

قال أبو جهل : تَنَارَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ ، أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا ، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا ، وَأَعْطُوا فَأَعْطَيْنَا ، حتى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ ، وَكُنَّا كَقَرَسِي رِهَانٍ ، قالوا : مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ ؟ ، وَاللَّهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا وَلَا نُصَدِّقُهُ ^(٤) .

هذا يُشير إلى العقلية القَبَلِيَّة الجاهلية ، حيث التفاخر بالأموال والأولاد والآباء والشرف والسيادة والرَّعامة. فأبو جهل يعتبر أَنَّ هُنَاكَ صِرَاعًا مع بني عبد مَنَافٍ ، الذين ظَهَرَتِ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ . فبنو هاشم بن عبد مَنَافٍ ، ومن نَسَلِ هاشم بن عبد مَنَافٍ ، وُلِدَ عبد المطلب بن هاشم ، ومن عبد المطلب بن هاشم ، خَرَجَ العباس وحمزة بن عبد المطلب وأبو طالب وعبد الله والد النبي ﷺ . لذلك اعتبر أبو جهل أَنَّ النُّبُوَّةَ تَزِيدُ شَرَفَ بني عبد مَنَافٍ على باقي القبائل ، فيجب تكذيب النبي ﷺ وإنكار نُبُوَّتِهِ ، للحفاظ على التفاخر القَبَلِيَّ والسيادة والرَّعامة . وهذا مُنتهى الكفر والضلال .

وأبو جَهْلٌ هو عَمْرُو بن هشام بن المغيرة المخزومي القُرَشِي الكِنَانِي . كَانَ سَيِّدًا من سادات قُرَيْشٍ مِن قَبِيلَةِ كِنَانَةَ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ ﷺ . وَكُنِيَّتُهُ أَبُو الْحَكَمِ ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَّاهُ "أَبُو جَهْلٍ" لَقَتْلِهِ سَمِيَّةَ وَالِدَةَ عَمَارِ بْنِ يَاسِرٍ كِي تَرْجِعَ عَنِ الْإِسْلَامِ . وَهِيَ أَوَّلُ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ . وَنَلَا حَظَّ أَنَّ كُفْرَ أَبِي جَهْلٍ يَعُودُ إِلَى مَبَادِئِ الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ وَالتَّفَاخُرِ الْعِشَائِرِيِّ وَالصِّرَاعِ الْقَبَلِيِّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ ، فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ : الْحَارِثُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ : وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ مَا كَذَبْتَنَا قَطُّ فَتَنَّتْهُمْكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنَّا إِن نَتَّبِعَكَ نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ مِقَاتٌ : كَانَ الْحَارِثُ بْنُ عَامِرٍ يُكَذِّبُ النَّبِيَّ فِي الْعِلَانِيَةِ ، فَإِذَا خَلَا مَعَ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ : مَا مُحَمَّدٌ مِنْ أَهْلِ الْكَذِبِ ، فَنَزَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : إِنَّهُ لَنَبِيٌّ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إِنَّا لَا نُكْذِبُكَ وَلَكِنْ نُكْذِّبُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ نَاجِيَةُ بْنُ كَعْبٍ . وَقَالَ أَبُو يَزِيدَ الْمَدَنِيُّ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا جَهْلٍ ، فَصَافَحَهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَصَافِحُ هَذَا الصَّابِي ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَلَكِنْ مَتَى كُنَّا تَبَعًا لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَالرَّابِعُ أَنَّ الْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ لَقِيَ أَبَا جَهْلٍ ، فَقَالَ

(٤) تفسير ابن كثير (٢ / ١٧٦) . وانظر الدر المنثور للسيوطي (٥ / ٢٩٩) ، وسيرة ابن إسحاق (١٦٩ / ١) ، وتاريخ الإسلام (١ / ٣٩) ، وسيرة ابن هشام (٢ / ١٥٧) .

الأخنس : يا أبا الحَكَم أخبرني عن محمد ، أصادقُ هو أم كاذب ؟ ، فليس هاهنا مَنْ يَسْمَعُ كلامَكَ غَيْرِي ، فقال أبو جهل: والله إنَّ محمدًا لَصَادِقٌ، وما كَذَبَ قَطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء والسَّقاية والحِجَابة والنُّبُوَّة ، فماذا يكون لسائر قُرَيْش ؟ ، فنزلت هذه الآية ، قاله السُّدي . فأما الذي يقولون فهو التكذيب للنبي ﷺ والكفر بالله . وفي الآية تسليّة للنبي ﷺ وتعزيةً عَمَّا يُواجهون به ... ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ ، وفي معناها خمسة أقوال: أحدها لا يُكذِّبونكَ بِحُجَّةٍ ، وإنما هو تكذيب عِناد وبَهْت ، قاله قتادة والسُّدي . والثاني لا يقولون لك إنَّكَ كاذب لِيَعْلَمَهُمْ بِصِدْقِكَ ، ولكن يُكذِّبون ما جِئْتَ بِهِ ، قاله ناجية بن كعب . والثالث لا يُكذِّبونكَ في السِّرِّ ، ولكن يُكذِّبونكَ في العلانية عداوةً لَكَ ، قاله ابن السائب ومقاتل . والرابع لا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقُولُوا لَكَ فِيمَا أَنْبَأْتَ بِهِ مِمَّا فِي كُتُبِهِمْ كَذِبًا . والخامس لا يُكذِّبونكَ بقلوبهم لأنهم يَعْلَمُونَ أَنَّكَ صَادِقٌ، ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ الرَّجَاحُ. ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ بالسنتهم ما يَعْلَمُونَهُ يَقِينًا لِعِنَادِهِمْ . وفي آيات الله هَاهُنَا ثلاثة أقوال : أحدها أنها محمد ﷺ ، قاله السُّدي . والثاني محمد والقرآن ، قاله ابن السائب . والثالث القرآن ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

هذه تسليّة إلهية للنبي ﷺ، وتخفيفٌ عنه، وتعزيةٌ له، وَرَفَعَ لمعنوياته، بسبب تكذيب المشركين له ، وَطَعْنَهُمْ في رسالته .

ولقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ يا محمد ، كُذِّبَتْهُمْ أَقْوَامُهُمْ ، وَطَعَنُوا فِيهِمْ ، فَلَمْ يَبْأَسُوا ، وَلَمْ يَنْهَارُوا ، وَلَمْ تَنْكَسِرْ إِرَادَتُهُمْ ، وَلَمْ تَضْعُفْ مَعْنَوِيَاتُهُمْ . بَلْ صَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَكَانَ صَبْرُهُمْ خَالصًا لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَاسْتَمَرُوا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ بِلا كَسَلٍ وَلَا مَلَلٍ وَلَا يَأْسٍ، وَوَجَّهُوا الصَّعُوبَاتِ بِيَقِينٍ ثَابِتٍ، وَإِرَادَةِ صَلْبَةٍ، وَصَبْرٍ عَظِيمٍ ، فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ كَمَا صَبَرُوا ، فَلَكَ فِي الرُّسُلِ السَّابِقِينَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . وَلَا تَحْزَنْ ، وَلَا تَشْعُرْ بِالضَّيْقِ وَالْأَلَمِ ، وَاسْتَمِرْ فِي الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْهَادِفَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ بِكُلِّ إِصْرَارٍ وَثَبَاتٍ. وَتَنْكِيرُ ﴿ رُسُلٌ ﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ . وَتَوْنُ الْعَظَمَةِ فِي ﴿ نَصْرُنَا ﴾ لِتَعْظِيمِ اللَّهِ ، وَإِثْبَاتِ قُدْرَتِهِ عَلَى النَّصْرِ ، وَأَنَّ النَّصْرَ قَادِمٌ لَا مَحَالَةَ ، فِي الْمَوْعِدِ الَّذِي يُحَدِّدُهُ اللَّهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٧٦) : ((هذه تسليّة للنبي ﷺ ، وتعزيةٌ له فِيمَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالصَّبْرِ ، كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ، وَوَعْدٌ لَهُ بِالنَّصْرِ كَمَا نَصَرُوا وَبِالظَّفَرِ ،

حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم ، والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ... وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : من خبرهم ، كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة ، وبهم قدوة)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٤) : ((﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ . وفيه دليل على أن قوله : ﴿ لَا يُكْذِبُونَكَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] . ليس تكذيبه مطلقاً)) اهـ .

وتكذيبك يا محمد من قبل قومك (قریش) ليس شيئاً جديداً ، ولا أمراً غريباً ، فالكافرون كذبوا الرسل السابقين ، وأعلنوا عليهم الحرب . فاثبت على الحق يا محمد ، واقصد بالرسل السابقين في الصبر والإصرار . وقال أبو السعود في تفسيره (٣ / ١٢٧) : ((... فَإِنَّ عُمُومَ الْبَلِيَّةِ ربما يهون أمرها بعض تهوين ، وإرشاد له عليه الصلاة والسلام إلى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ في الصبر على ما أصابهم من أمهم من فنون الأذية ... وتصدير

الكلام بالقسم لتأكيد التسلية ، وتنوين ﴿ رُسُلٌ ﴾ للتفخيم والتكثير)) اهـ . وأودوا في الله حتى أتاهم النصر الإلهي المؤيد لهم ، فنصر الله رسله ، وعذب الكافرين . والآية تشير إلى ضرورة الصبر وحتمية النصر .

وفي تفسير الجلالين (١ / ١٦٧) : ((﴿ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ بإهلاك قومهم ، فاصبر حتى يأتيك النصر بإهلاك قومك)) اهـ .

وفي زاد المسير (٣ / ٣٠) : ((قال ابن عباس : فصبروا على ما كذبوا رجاء ثوابي ، وأودوا حتى نشروا بالمناشير وخرقوا بالنار ، حتى أتاهم نصرنا بتعذيب من كذبهم)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٠٤) : ((﴿ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فيه إيماء بوعده النصر للصابرين)) اهـ .

ولا مبدل لوعده الله بنصر رسله وتأيدهم . وعده الله واقع لا محالة ، لا يتخلف ، ولا أحد يفقد على منع وقوعه . لقد حكّم الله بنصر رسله ، ولا مغير لحكم الله ، والله لا يخلف الميعاد . وفي صفوة التفاسير (٣ / ٦٦) : ((﴿ وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد)) اهـ .

ولقد جاءك يا محمد بعض أخبار الرسل السابقين ، ومعاناتهم مع أقوامهم ، وصبرهم على التكذيب والسخرية ، وكيف نصرهم الله وعذب أقوامهم الكافرة ، وهذه الأخبار ترفع معنوياتك ،

وَتُثِّبَ الْيَقِينَ فِي قَلْبِكَ ، وَتَزِيدَ قُوَّتَكَ ، وَتُقَوِّيَ إِرَادَتَكَ . فَاتَّبِعْ كَمَا تَبَتُّوا ، وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ،
وَوَاصِلِ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ كَمَا وَاصَلُوا دَعْوَتَهُمْ . فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ كَمَا نَصَرَهُمْ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يُونُسُ: ٦٥] .
وَلَا يَحْزُنْكَ يَا مُحَمَّدُ افْتِرَاءُ الْمَشْرِكِينَ عَلَيْكَ وَتَكْذِيبُهُمْ لَكَ ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ الْكَامِلَةَ ، وَالْقُدْرَةَ
الْمُطْلَقَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ .

وَلَا تَعَارِضُ بَيْنَ الْآيَتِينَ : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وَ ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
[الْمُنَافِقُونَ : ٨] . فَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْأَعَزُّ ، أَعَزَّ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ . وَعَزَّتْهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا عِزَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

،
إِذَنْ ، فَالْعِزَّةُ كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى . وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ، الْعَلِيمُ بِأَعْمَالِهِمْ ، يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا .
وَالْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَرَفْعٌ لِمَعْنَوِيَّاتِهِ . وَالْمَعْنَى : لَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِ الْمَشْرِكِينَ
لَكَ ، وَطَعْنِهِمْ فِي رِسَالَتِكَ ، وَحَيَاكَةِ الْمُؤَامِرَاتِ ضِدَّكَ . فَإِنَّ الْعِزَّةَ وَالْقُوَّةَ وَالْغَلْبَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْعِزَّةَ لِلَّهِ
وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهُوَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ . وَاللَّهُ مَعَكَ ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ ، وَلَا تَعْبَأْ
بِهِمْ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٤٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ قَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ : تَكْذِيبُهُمْ . وَقَالَ غَيْرُهُ : تَظَاهَرُهُمْ عَلَيْكَ بِالْعَدَاوَةِ وَإِنْكَارِهِمْ وَأَذَاهُمْ . وَتَمَّ الْكَلَامُ هَاهُنَا
ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَيُ : الْغَلْبَةُ لَهُ ، فَهُوَ نَاصِرُكَ وَنَاصِرُ دِينِكَ . ﴿ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴾ يَاضْمَارُهُمْ ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ)) اهـ .

وَقَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٦٦٥) : ((﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ نَهْيٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَنْ
الْحُزْنِ مِنْ قَوْلِ الْكُفَّارِ ، الْمَتَضَمِّنِ لِلطَّعْنِ عَلَيْهِ ، وَتَكْذِيبِهِ ، وَالْقَدْحِ فِي دِينِهِ . وَالْمَقْصُودُ التَّسْلِيَةُ لَهُ
وَالنَّبَشِيرُ . ثُمَّ اسْتَأْنَفَ سُبْحَانَهُ الْكَلَامَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعْلَلًا لِمَا ذَكَرَهُ مِنَ النَّهْيِ لِرَسُولِهِ ﷺ ،
فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَيُ الْغَلْبَةُ وَالْقَهْرُ لَهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ ،
وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ لَهُ ، فَكَيْفَ يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ حَتَّى تَحْزَنَ لِأَقْوَالِهِمْ الْكَاذِبَةِ وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ
الْغَلْبَةِ شَيْئًا ؟)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ
نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يُوسُفُ : ١١٠] .

حتى إذا يَسَّ الرُّسُلُ مِنْ إِيْمَانِ قَوْمِهِمْ لَغْرَقِهِمْ فِي الْكُفْرِ ، وَأَيَّقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ ، أَتَاهُمُ النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، وَفَقَّ حِكْمَةُ اللَّهِ الْبَلِيغَةِ ، وَمَشِيئَتُهُ الَّتِي لَا يُعَارِضُهَا شَيْءٌ . أَتَاهُمُ النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْكَرْبِ ، وَضِيقِ الْحَالِ ، وَفُقْدَانِ الْأَمَلِ بِالنَّاسِ ، وَغِيَابِ الثَّقَةِ بِهِمْ .

وفي هذا إشارة واضحة إلى أَنَّ قِمَّةَ الشَّدَّةِ هِيَ بَدَايَةُ الْفَرَجِ . وفي أصعب اللحظات، يأتي النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ وَاضِحًا وَحَاسِمًا . وأشدُّ ساعات الليل ظلامًا هِيَ الَّتِي تَسْبِقُ الْفَجْرَ . وكما قيل : اشْتَدَّيْ أَرْمَةُ تَنْفَرِجِي . وَالْأَرْمَةُ هِيَ السَّنَةُ الْمُجْدِبَةُ . وَالشَّدَّةُ إِذَا تَتَابَعَتْ انْفَرَجَتْ ، وَإِذَا تَوَالَتْ تَوَلَّتْ .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
صَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكَانَ يَطْنُهَا لَا تُفْرَجُ

فَنَجَّى اللَّهُ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ، وَأَهْلَكَ الْكَافِرِينَ ، وَلَا يُرَدُّ عَذَابُ اللَّهِ عَنِ الْكَافِرِينَ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِيَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ .

وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَهْلَ الْأَمَمِ السَّابِقَةِ ، وَمَنْحَهَا الْفُرْصَةَ تَلَوَّ الْفُرْصَةَ ، كَيْ يُعِيدُوا حِسَابَاتِهِمْ ، وَيَتْرَكُوا الْكُفْرَ ، وَيَعْتَنِقُوا الْإِسْلَامَ ، حَتَّى اغْتَرَوْا بِهَذِهِ الْمُهْلَةِ ، وَازْدَادُوا غُرُورًا وَكُفْرًا وَوَقَاحَةً وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا حَتَّى يَسَّ الرُّسُلُ مِنْ إِيْمَانِهِمْ ، بِسَبَبِ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَغَرَقِهِمْ فِي الْكُفْرِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (٣١٢ / ١) : ((« حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » غَايَةُ مَحْذُوفٌ ذَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ ، أَيْ : لَا يَغْرُزُهُمْ تَمَادِي أَيَامِهِمْ ، فَإِنَّ مَنْ قَبْلَهُمْ أَهْلُوا حَتَّى أَيْسَسَ الرُّسُلُ عَنِ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا ، أَوْ عَنِ إِيْمَانِهِمْ لَانْهَمَاكِهِمْ فِي الْكُفْرِ ، مُتَرَفِّهِينَ مُتَمَادِينَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ وَازِعٍ « جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا لَمْ يُعَيِّنْهُمْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمُ الَّذِينَ يَسْتَأْهِلُونَ أَنْ يَشَاءَ نَجَاتِهِمْ ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢٩٦ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » الْمَعْنَى مُتَعَلِّقٌ بِالْآيَةِ الْأُولَى ، فَتَقْدِيرُهُ : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا » [يُوسُفُ : ١٠٩] . فَدَعَا قَوْمَهُمْ فَكَذَّبُوهُمْ ، وَصَبَرُوا ، وَطَالَ دَعَاؤُهُمْ وَتَكْذِيبُ قَوْمِهِمْ . « حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ »

وفيه قولان: أحدهما استيأسوا من تصديق قومهم ، قاله ابن عباس . والثاني : من أن نُعَذَّب قَوْمَهُمْ ، قاله مجاهد . ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " كُذِّبُوا " مُشَدَّدةً الذال مضمومة الكاف . والمعنى : وتيقَّن الرُّسُلُ أَنَّ قَوْمَهُمْ قد كَذَّبُوهم ، فيكون الظن هَاهُنَا بمعنى اليقين ، هذا قول الحسن وعطاء وقتادة . وقرأ عاصم وحزمة والكِسائي: " كُذِّبُوا " خفيفة والمعنى: ظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قد كُذِّبُوا فيما وُعدوا به من النصر ، لأنَّ الرُّسُلَ لا يَظُنُّونَ ذلك)) .

وفي صحيح البخاري (١٧٣١ / ٤) عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ . قال: قلت: أَكُذِّبُوا أم كُذِّبُوا ؟ . قالت عائشة : ((كُذِّبُوا)) ، قلت : فقد استيقنوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : ((أجل ، لَعَمْرِي لقد استيقنوا بذلك)) ، فقلتُ لها : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ ، قالت : ((معاذَ الله ، لم تكن الرُّسُلُ تظن ذلك بِرَبِّهَا)) ، قلتُ : فما هذه الآية ؟ ، قالت : ((هُم أَتباع الرُّسُل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخَّر عنهم النصرُ ، حتى إذا استيأسَ الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتباعَهُمْ قد كَذَّبُوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك)) .

لقد أنكرت عائشة _ رضي الله عنها _ قراءة ﴿ كُذِّبُوا ﴾ بالتخفيف ، لأن هذه القراءة لم تصلِّها ، وهما قراءتان مُتواترتان : " كُذِّبُوا " و " كُذِّبُوا " .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرَّعْد : ١٩] .

الهمزة للاستفهام الإنكاري . هل يستوي المؤمن الذي صدَّق النبي ﷺ وخضع للوحي الإلهي الذي أنزله الله على النبي ﷺ ، مع الكافر الذي كَذَّبَ النبي ﷺ ورفض الوحي الإلهي ؟ . لا يستويان . والفرق بينهما كالفرق بين الثريِّ والفقير . ولا مُقارَنة بين المؤمن المُبصر الذي يرى الحقَّ ويتَّبِعُه وبين الكافر الأعمى الذي لا يرى الحقَّ ولا يتَّبِعُه . والكافر أعمى البصيرة ، لا يرى الحقَّ ولا يخضع له ، لذلك يتخبط في متاهة الضلال والكفر . إنما يتعظ بآياتِ الله ويلتزم بأوامره ويجتنب نواهيه أصحابُ العقول المستنيرة الواعية التي تُفكِّر ، وتعرِّف المسارَ والمصيرَ ، وتخضع للأدلة والبراهين ، وترفض الأوهامَ والعنادَ والمكابرةَ والتقليدَ الأعمى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٢٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ . قال ابن عباس : نَزَلَتْ فِي حِمْرَةٍ وَأَبَى جَهْل . ﴾ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَتَعَطَّ ذَوُو الْعُقُول ، وَالتَّذَكُّرُ الْإِنْعَاطُ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٧٠) : ((يَقُولُ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْلَمُ مِنَ النَّاسِ أَنْ الَّذِي ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ، وَلَا مِرْيَةَ ، وَلَا لَبْسَ فِيهِ ، وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، لَا يُضَادُّ شَيْءٌ مِنْهُ شَيْئًا آخَرَ ، فَأَخْبَارُهُ كُلُّهَا حَقٌّ ، وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ عَدْلٌ ، فَلَا يَسْتَوِي مَنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّد ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَى لَا يَهْتَدِي إِلَى خَيْرٍ ، وَلَا يَفْهَمُهُ ، وَلَوْ فَهَمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢] .

هذه الآية تسلية للنبي ﷺ ، وتخفيف عنه ، ورفع لمعنوياته ، ووعد شديد للكافرين المستهزين . لا تحزن يا محمد بسبب تكذيب قومك لك ، واستهزائهم بك . فقد استهزأ الكافرون برسل من قبلك يا محمد ، ولست أول رسول يكذبه قومه ، ويستهزئون به ، ويطعنون في رسالته . فاثبت على الحق ، ولا تتألم ، ولا تتضايق . ولك في الرسل السابقين أسوة حسنة . وتنكير ﴿ برسل ﴾ للتعظيم والتكثير . يعني : ولقد استهزئ برسل عظام وكثيرين من قبلك يا محمد . وقد أمهل الله الأقوام الكافرة ، وأعطاهم الفرصة تلو الفرصة ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ، ومنحهم النعم الكثيرة ، كالأموال والأولاد والرخاء الاجتماعي والازدهار الاقتصادي ، فاعتبروا بالنعيم ، والراحة ، والرفاهية ، وكثرة الأموال والأولاد ، فأخذهم الله بالعذاب الشديد ، ومسحهم من الوجود . لقد عذبهم في الدنيا ، وينتظرهم عذاب أشد في الآخرة ، وهو عذاب النار . فكيف كان العقاب الإلهي لهم على الكفر والتكذيب ؟ . والاستفهام للتوبيخ والتهديد .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥ / ٢٤) : ((وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عما لقي من المشركين من التكذيب ، والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ، ووعد لهم . والمعنى إن ذلك ليس مختصاً بك ، بل هو أمر مكرر ، قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك ، فأمهلت الذين فعلوه بهم . والعُدول في الصلة إلى وصف الكفر ، ليس لأن المملى لهم غير المستهزين ، بل لإرادة الجمع بين الوصفين ، أي فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم فقط . ﴾ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

أي عقابي إيّاهم . وفيه من الدلالة على تناهي كفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى)) اه .
وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)) (٥).

إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الظَّالِمَ فُرْصًا زمنية عديدة ، فيُطِيلُ له في المدة ، ويُمهلُه ولا يُهمله ، وإذا أخذه لَمْ يُطْلِقْهُ ، لأنَّ أَخَذَهُ _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى _ أليم شديد . فإذا رَأَيْتَ ظَالِمًا يزداد تكبرًا وغطرسةً ونفوذًا وسَطْوَةً فاعلم أن الله تعالى يَسْتَدْرِجُهُ . والعاقِلُ مَنْ يقرأ حركة التاريخ جِدًّا . فالقويُّ لا يظل قَويًّا حتى النهاية ، والضعيفُ لن يبقى ضعيفًا للأبد . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٧) : ((معنى يُمْلِي يُمهل ويؤخِّر ويُطِيلُ له في المدة ، وهو مشتق من الملوَّة وهي المدة والزمان ، بضم الميم وكسرهما وفتحها . ومعنى لَمْ يُفْلِتْهُ لَمْ يُطْلِقْهُ)) اه .

وقال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [التحل : ١٢٧] .

الآية تسليّة للنبي ﷺ . واصْبِرْ يا محمد على أذى قومك لك، وحزبهم عليك . وهذا يُشير إلى أهمية الصبر في الأمور كُلِّها، خصوصًا في طريق الدَّعوة الشَّاق. وَصَبْرُكَ يا محمد لا ينبع من ذكائك ومهاراتك الشخصية، ومواهبك الذاتية . ما صَبْرُكَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وإِعَانَتِهِ ، فهو سُبْحَانَهُ الَّذِي يُثَبِّتُكَ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى تَثْبِيتِ نَفْسِكَ . وَلَا تَحْزَنُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وتكذيبهم لَكَ ، واتِّهَامِكَ بِأَسْوَأِ التُّهَمِ ، وطعنهم في رسالتك. وهذا يدل على شِدَّةِ حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى إِيْمَانِ قَوْمِهِ ، وإخلاصه التام في دَعْوَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ ، وحُزْنِهِ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وضلالهم . وَحُزْنُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بِسَبَبِ حِرْصِهِ عَلَى مَصْلَحَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، وإنما بِسَبَبِ حِرْصِهِ عَلَى إِيْمَانِ النَّاسِ وَمَصَالِحِهِمْ وسعادتهم . وَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعداوتهم وعنادهم والكَيْدَ لَكَ ، والتَّخْطِيطَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْكَ ، وإنهاء دَعْوَتِكَ . فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ ، وَمُؤَيِّدُكَ فِي مُوَاجَهَتِهِمْ . وَلَنْ يَقْدِرُوا عَلَى إلْحَاقِ الضَّرَرِ بِكَ ، فلا تقلق ، وَلَا تَعَبْ بِهِمْ ، وَلَا تَهْتَمْ لِمَكْرِهِمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٥٠٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

(٥) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٧٢٦) برقم (٤٤٠٩) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

أي : بتوفيقه ومعونته ، وهذا أمر بالعزيمة . وفي قوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ قولان : أحدهما على كفار مكة إن لم يُسلموا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : ولا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم أفضوا إلى رحمة الله ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ [طه : ١٣٠] .

فاصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واتهامك بأشيع التهم (ساحر ومجنون وشاعر) ، ولا تغبأ بأكاذيبهم ، ولا تهتم لحقدهم وعنادهم وعداوتهم ، فإن الله ناصرُك ومؤيدُك .

وصلَّ حامداً ربَّكَ ومُثَنِّياً عليه صلاةَ الفجر (قبل طلوع الشمس) وصلاةَ العصر (قبل غروبها) ، وصلَّ لله تعالى في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره . والمقصود بآناء الليل صلاةُ العشاء ، أمَّا المقصود بأطراف النهار فصلاةُ المغرب والظهر (أطراف النهار) . لَعَلَّكَ تُعْطَى مِنَ الْأَجْرِ والثواب ما يُرضيك . والترجي في كلام الله واقع لا محالة . إذن ، محمد ﷺ سيُعْطَى حتى يَرْضَى . وهذا هو الفضلُ الإلهي العظيم .

وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٢٣١) : ((﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر ، إنه كاهن ، إنه كذاب ، إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ، فإنَّ لعذابهم وقتاً مضروباً ، لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخاً ، إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال ، بل بقي المُعْظَم منهم . قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ ، قال أكثر المتأولين : هذه إشارة إلى الصلوات الخمس . ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾

صلاة الصُّبْح . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر . ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العَتَمَة (صلاة العشاء) . ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر ، لأنَّ الظهر في آخر طَرَفِ النهار الأول وأول طرفِ النهار الآخر ، فهي في طَرَفَيْنِ منه ، والطرف الثالث غروب الشمس ، وهو وقت المغرب ((اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٧٦) : ((﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، وَصَلَّ وَأَنْتَ حَامِدٌ لِرَبِّكَ على هدايته وتوفيقه ، أو نَزَّهَهُ عَنِ الشَّرْكِ وسائر ما يُضَيِّفُونَ إليه من النقائص ، حامداً له على ما مَيَّزَكَ بالهدى ، مُعْتَرِفاً بأنه المولى للنعم كُلِّهَا . ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾

يعنى الفجر . ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعني الظهر والعصر ، لأنهما في آخرِ النهار ، أو العصر وخده .

﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ ومن ساعاته ، جمع إنا بالكسر والقصر ، أو آناء بالفتح والمد . ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ يعني المغرب والعشاء ، وإنما قَدَّمَ زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل ، فإن القلب فيه أجمع ، والنفس أميل إلى الاستراحة ، فكانت العبادة فيه أحزم ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [الْمُزَّمِّل : ٦] . ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ تكرير لصَلَاتِي الصُّبْح والمغرب إرادة الاختصاص . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ... أو أمر بصلاة الظهر ، فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الآخر ، وجمعه باعتبار النصفين ، أو لأنَّ النهار جنس ، أو بالتطوع في أجزاء النهار . ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ مُتَعَلِّق بِـ ﴿ سَبِّحْ ﴾ أي : سَبِّحْ في هذه الأوقات طَمَعًا أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ((اهـ .

وعن جرير بن عبد الله _ رضي الله عنه _ قال : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَقَالَ : ((أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تَصَامُونَ فِي رُؤَيْتِهِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)) ، يعني العصر والفجر . ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ (٦) .

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَيَرَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ . و" كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ " لا تعني أن الله تعالى يُشَبِّه الْقَمَرَ ، والعياذُ بالله . ولكن المعنى أَنَّ الرُّؤْيَا تكون واضحةً و يقينية بلا شك ولا لبس ولا غَبَش ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ بوضوح ، ولا تَشْتَبِهَ عَلَيْكُمُ الرُّؤْيَا ، ولا تَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ . و" لَا تَصَامُونَ فِي رُؤَيْتِهِ " تنفي الازدحام عند الرؤية ، والمعنى : لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَتَزْدَحِمُونَ وَقْتَ النَّظَرِ إِلَيْهِ . فاعملوا جاهدين أَلَا يَشْغَلْكُمْ شَيْءٌ مِثْلُ النَّوْمِ وَغَيْرِهِ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ (قبل طلوع الشمس) ، وصلاة العصر (قبل غروبها) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣٤ / ٥) : ((والرؤية مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَقِيلَ : يَرَاهُ مُنَافِقُو هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ . وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَرَوْنَهُ ، كَمَا لَا يَرَاهُ بَاقِي الْكُفَّارِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ)) اهـ . وفي صحيح مسلم (١ / ٤٤٠) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((لَنْ يَلْجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا)) يعني : الفجر والعصر .

(٦) متفق عليه . مسلم (١ / ٤٣٩) برقم (٦٣٣) ، والبحاري (١ / ٢٠٩) برقم (٥٤٧) .

وهذه فضيلة عظمى للذين يُصَلُّونَ الفجرَ والعصرَ . فالنبي ﷺ نفى بشكل قطعي أن يدخلوا النارَ ، وهذه إشارة لهم بأنهم يموتون على الإسلام ، ويدخلون الجنةَ ، بلا عذابٍ سابق . وقد خُصَّ هذا الوقتان ، لأنَّ صلاةَ الفجر تعني التضحية بِلَدَّةِ النَّوْمِ ومُتَعْنَتِهِ من أجل الله تعالى . وصلاةُ العَصْرِ تعني التضحية بالتجارة والأشغال والسَّعي في الدنيا من أجل الله تعالى .

وفي فيض القدير (٣٠٣ / ٥) : ((قال الطيبي : " لن " لتأكيد النَّفْيِ وتقديره في المستقبل . وفيه دليل على أن الورود في ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] . ليس بمعنى الدخول . وهذا أبلغ من لو قيل : يدخل الجنة . وخُصَّ الصلاتين ، لأنَّ وقتَ الصبح وقت لَدَّةِ الكَرَى (النَّوْمِ) فالقيام أشق على النَّفْسِ منه في غيره ، والعصر وقت قوة الاشتغال بالتجارة ، فما يتلهى عن ذلك إلا مَنْ كَمَلَ دِينُهُ ، ولأنَّ الوقتين مشهودان تشهدهما ملائكة الليل والنهار ، وتُرفَعُ فيهما الأعمال ، فإذا حافظ عليهما مَعَ ما فيهما من الشاغل والتشاغل ، فمحافظة على غيرهما أشد ، وما عسى أن يقع منه تفريط ، فبالحرى أن يقع مُكْفَرًا ، فَلَنْ يَلِجَ النَّارَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١] .

الهمزة للاستفهام ، والمعنى : الإنكار والتعجب والتوبيخ . والله يُنْكِرُ على الكافرين عبادتهم للأصنام والآلهة من دونه . وهذه الآلهة هل تُحيي الموتى وتبعثهم ؟ . والأصنام من الأرض سواء كانت من الذهب أو الحجارة . إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هو الذي يُحيي ويُميت ، فكيف صارت هذه الآلهة الباطلة التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك إحياء الناس ولا إماتتهم ، أندادًا لله تعالى وشريكة له في العبادة والألوهية ؟! . ولا يستحق الألوهية إلا مَنْ كان قادرًا على الإيجاد من العدم ، والإحياء بعد الموت ، وهو الله وَحْدَهُ . وقال البيضاوي في تفسيره (٨٧ / ١) : ((﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً ﴾ بَلَّ اتَّخَذُوا ، والهمزة لإنكار اتخاذهم . ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ صفة لآلهة ، أو مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفِعْلِ على معنى الابتداء ، وفائدتها التحقير دون التخصيص . ﴿ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴾ الموتى ، وهم وإن لم يُصْرِّحُوا بِهِ ، لكن لَزِمَ ادِّعَاؤُهُمْ لها الإلهية ، فإنَّ من لوازمها الاقتدار على جميع المُمكنات ، والمراد به تجهيلهم ، والتَّهْكُمُ بِهِمْ ، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير ﴿ هُمْ ﴾ الموهوم لاختصاص الإنشار بِهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [

الأنبياء : ٢٢] .

لَوْ كَانَ في السماوات والأرض آلهة غَيْرُ اللَّهِ لَفَسَدَ نظامُ الكَوْنِ ، واختلَّ الوجودُ ، وذلك لما يحدث بينها من تنازع وتضاد ومناقسة . فالشركاء يتنافسون بأهوائهم وإراداتهم . وَلَوْ كَانَ هناك

إلهان لانهار النظام ، وسَقَطَ التَّدْبِير . فإذا أَرَادَ الأوَّلُ أمراً ما ، وأَرَادَ الثاني أمراً غَيْرَهُ ، لكان أحدهما عاجزاً. والعاجز لا يَكُونُ إلهًا. ولا يوجد مَلِكٌ في دولة واحدة، ولا يوجد جسدٌ برأسين^(٧). والله وَحْدَهُ له الألوهية والرُّبُوبية . والآية تُبْطِلُ عقيدةَ تعدُّدِ الآلهة بالدليل الواضح المُوجِز ، فلا فلسفة فيه ولا تَعْقِيد . وبما أَنَّ السماوات والأرض لَمْ تَفْسَدَا ، فهذا دليلٌ على عدم وجود آلهة مُتَعَدِّدة ، بل هُوَ إلهٌ واحد. والآية تُثَبِّت وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ بالدليل القاطع والبرهان المتوافق مَعَ العقل. وقال البغوي في تفسيره (٣١٤ / ١) : ((لَخَرَيْتَا وهلك مَنْ فِيهِمَا بوجود التمانع مِنَ الآلهة ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر ، لَمْ يَجْرِ على النظام)) .

والكَوْنُ مَبْنِيٌّ وَفَقَّ نظامٍ واحدٍ مُتَنَاسِقٍ لا خَلَلَ فِيهِ . والنظام الواحدُ يُشير إلى وَحْدَانِيَّةِ الصانع سُبحانه وتعالى . وقال المناوي في فَيْضِ القدير (٥٠٦ / ١) : ((وَلَوْلَا الْوَحْدَانِيَّةُ لَمَا تَكَوَّنَتِ السماواتُ والأَرْضُ على هذا الوجه الْمُحْكَمِ الْمُتَقَنِّ ، وَلَكَانَتْ فاسدةً كبناءٍ بغيرِ أساس)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (٢٤٦ / ١١) : ((قال الكِسَائِيُّ وَسَيَوْنُهُ : ﴿إِلَّا﴾ بمعنى " غَيْرَ " ، فَلَمَّا جُعِلَتْ "إِلَّا" في موضع " غَيْرَ " أُعْرِبَ الاسم الذي بَعْدَهَا بإعراب " غَيْرَ " ، كما قال :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانُ)) اهـ .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . فَتَقَدَّسَ اللَّهُ وَتَنَزَّهَ وتعالى أن يكون له شريك أو ولد. وهذا أمرٌ للعباد بِتَنْزِيهِهِ اللَّهِ تعالى عَنْ كُلِّ ما لا يليق بِهِ .

(٧) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٧ / ٩) : ((قال المفسرون : في الآية دليلٌ على التمانع الذي أورده الأصوليون ، وذلك أَنَّ لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخرُ نقيضه ، فإنَّما أن تُنْفَذَ إرادة كُلٍّ منهما، وذلك مُحال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإنَّما أن تُنْفَذَ إرادة واحد منهما دون = الآخر، فيكون الأوَّلُ الذي تُنْفَذُ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلهًا)) اهـ. وقال القنوجي في أبجد العلوم (١٩٣ / ٢) : ((واعتنى الأصوليون بما فيه (أي القرآن) من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قَوْلِهِ تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إلى غَيْرِ ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ، ووجوده ، وبقائه ، وقَدَمِهِ ، وقُدْرَتِهِ ، وعِلْمِهِ ، وتَنْزِيهِهِ عَمَّا لا يليق بِهِ ، وَتَمَيَّنُوا هذا الْعِلْمَ بِ : أصول الدِّين)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٩] .

فإن أعرض المشركون عن الإسلام، ورفضوا الإقرار بوحداية الله تعالى، وطعنوا في النبوة. فقل لهم يا محمد: أعلمتكم بالحرب وأن لا صلح بيننا، وإعلامي لكم شامل وعام، لم أخص به بعضكم دون بعض، كي تتأهبوا وتستعدوا، فلا غدر ولا خيانة. ولا أعرف متى موعد العذاب ولا موعد يوم القيامة. لكنه واقع لا محالة ، ولا يعلم الموعد نبي مرسل ولا ملك مقرب . الله وحده يعلم ذلك .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٣٩٩) : ((قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرضوا ، ولم يؤمنوا . ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ في معنى الكلام قولان : أحدهما نابذتكم وعاديتكم وأعلمتكم ذلك ، فصرث أنا وأنتم على سواء ، قد استوتينا في العلم بذلك ، وهذا من الكلام المختصر ، قاله ابن قتيبة . والثاني : أعلمتكم بالوحي إلي لتستوتوا في الإيمان به ، قال الزجاج . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أُدْرِيَ ﴾ أي : وما أدري ﴿ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ ينزل العذاب بكم)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴾ [الحج : ٤٢] . الآية تسليية للنبي ﷺ ، ووعد شديد للمشركين. وإن يكذبك المشركون من قومك (أهل مكة) يا محمد ، فلست أول رسول يتم تكذيبه والطعن في نبوته، فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد (قوم هود) وثمود (قوم صالح) ، فأهلكهم الله بعذاب شديد، فاصبر كما صبر الأنبياء من قبلك ، حتى يأتي وعد الله بإهلاك الكافرين . ولك بالأنبياء السابقين أسوة حسنة .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٦٥٦) : ((هذه تسليية لرسول الله ﷺ ، وتعزية له ، متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له ، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله، وفيه إرشاد له ﷺ إلى الصبر على قومه ، والافتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك)) اه . وفي تفسير الجلالين (١ / ٤٣٩) : ((﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ تأنيث قوم باعتبار المعنى)) اه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣١] .

الآية تسليية للنبي ﷺ ، والله تعالى يهين محمدا ﷺ نفسياً من أجل الاستعداد لمواجهة الأعداء، وأخذ الحيلة والحذر . لا تتفاجأ يا محمد ولا تتعجب ولا تستغرب ، فإن الله قد جعل لكل نبي من الأنبياء الذين يدعون إلى عبادة الله وحده ، عدواً مجرمًا من قومه ، يُعاديهِ ويُحارِبُهُ

قَوْلًا وَفِعْلًا . فَلَا تَخَفْ وَلَا تَقْلُقْ ، فَهَذِهِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ ، وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ . وَلَكَ بِالْأَنْبِيَاءِ أُسُوةٌ حَسَنَةٌ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (٢١٦ / ١) : ((وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الشَّرِّ . وَالْعَدُوُّ يَحْتَمِلُ الْوَاحِدَ وَالْجَمْعَ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٢٣ / ٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ ﴾ ، أَيُ : كَمَا حَصَلَ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي قَوْمِكَ مِنَ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآنَ ، كَذَلِكَ كَانَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِينَ ، لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ ، يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ١١٢] . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَاهُنَا : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أَيُ : لِمَنْ اتَّبَعَ رَسُولَهُ وَآمَنَ بِكِتَابِهِ ، وَصَدَّقَهُ ، وَاتَّبَعَهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ هَادِيَهُ وَنَاصِرُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ، لِئَلَّا يَهْتَدِيَ أَحَدٌ بِهِ ، وَلِتَغْلِبَ طَرِيقَتُهُمْ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ ﴾ [الْآيَةُ] اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الرُّومُ : ٦٠] . فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ ، وَبَلِّغِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ بِلا كَسَلٍ وَلَا مَلَلٍ ، فَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ لَكَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَإِظْهَارِ دِينِكَ رَغْمَ أَنْوْفِ الْمُشْرِكِينَ ، وَاقْعُ لَا مَحَالَةَ ، وَكَائِنْ لَا شَكَّ فِيهِ . وَلَا يَحْمِلَنَّكَ الْمُشْرِكُونَ الضَّالُّونَ عَلَى الْخِفَّةِ وَالطُّيْشِ وَالْجَهْلِ ، وَلَا تَتْرَكَ الصَّبْرَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .

وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٩ / ٣) : ((فَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ أَوْ عِدَاوَتِهِمْ . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بُنْصَرْتِكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَإِظْهَارِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَى كُلِّ دِينٍ ﴿ حَقٌّ ﴾ لَا بُدَّ مِنْ إِنْجَازِهِ وَالْوَفَاءِ بِهِ . ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أَيُ : لَا يَحْمِلَنَّكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَلَى الْخِفَّةِ وَالْعَجَلَةِ فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ ، أَوْ لَا يَحْمِلَنَّكَ عَلَى الْخِفَّةِ وَالْقَلْقِ جَزْعًا مِمَّا يَقُولُونَ وَيَفْعَلُونَ ، فَإِنَّهُمْ ضَلَالٌ شَاكُونَ ، لَا يُسْتَبَدَعُ مِنْهُمْ ذَلِكَ)) اهـ .

وَعَنْ أَبِي يَحْيَى قَالَ : نَادَى رَجُلٌ مِنَ الْغَالِينَ عَلِيًّا ، وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْفَجْرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [

الرُّمَر : ٦٥]. فأجابه عليّ وهو في الصلاة: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (8).

هذا الحديث باطلٌ . ومعناه أنَّ رجلاً من الخوارج نادى عليّاً وهو في صلاة الفجر . والخوارج يُكفِّرون عليّاً _ رضي الله عنه _ ، ويعتبرونه كافراً خالداً في جهنم ، لأنَّه لم يحكم بما أنزل الله _ حسبَ زعمهم وافترائهم _ . وهذه تهمته باطلة تُشير إلى غُلُوِّ الخوارج ومُروقهم من الدِّين . لذلك قرأ هذا الرَّجل من الخوارج هذه الآية ، لأنَّه يعتبر عليّاً كافراً ، وبالتالي فعبادته فاسدة . وقد فهم عليّ مقصود الرَّجل ، فردَّ عليه بهذه الآية .

وُطلان الحديث واضحٌ ، لأنَّ مَنْ فعل هذا في صلاته يُريد الجواب، فصلاته باطلة، لأنَّه أدخل في الصلاة عملاً خارجاً عنها . وعليّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ هو الإمام الفقيه العالم الكبير ، لا يقع في مُبطلات الصلاة عن جهلٍ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [لقمان : ٢٣] .

الآية تسليّة للنبي ﷺ ، ورفع لمعنوياته . ومن كفر بالله تعالى ، فلا يحزنك كُفْرُهُ يا محمد ، فإنَّ كُفْرَهُ لَنْ يَضُرَّكَ ، ولا تتضايق، ولا تعباً به، ولا تهتم بأمره، فإنَّهم عائدون إلى الله رَغَمَ أنوفهم، ومَرَجِعُهُمْ إِلَيْهِ يوم القيامة، فيُخبرهم بأعمالهم السيئة التي قاموا بها في الدنيا، ويُجازيهم عليها. إنَّ الله يَعْلَم ما في قلوبهم من الكفر والضلال. وهو سبحانه يَعْلَم السِّرَّ والعلانية، ولا يخفى عليه شيء.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٢٥/٦): ((وَذَكَرَ الْمَفْسَّرُونَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ، وَلَا يَصِحُّ ، لأنَّه تسليّة عن الحزن، وذلك لا يُنافي الأمر بالقتال)) .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : ٨] .

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (١٥٨ / ٣) برقم (٤٧٠٤)، وحذفه الذهبي لضعفه .

لا تأسف يا محمد بسبب كفرهم، ولا تحزن عليهم، ولا تتضايق من أجلهم، ولا تغتم بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا، فإن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. والهداية والضلال إنما هما وفق علم الله وحكمته البليغة. إن الله يعلم أعمالهم القبيحة، وسوف يجازيهم عليها.

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١١) : ((ومعناه : فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم ، وإصرارهم على التكذيب ... وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم ، أو كثرة مساوئ أفعالهم المقتضية للتأسف)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن الله _ عز وجل _ خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل)) (٩).

وهذا يدل على أن الإيمان لا يكتسب بعقوبة الإنسان وقدراته الذاتية ، بل هو فضل رباني محض ، يعطيه الله لمن يشاء، ويحجبه عن من يشاء. ومع هذا فالإنسان يتحمل مسؤولية اختياره، لأن الله تعالى لم يجبر المؤمن على الإيمان ، ولم يرغم الكافر على الكفر. فكل من أسير لما خلق له . فإن هدى الله العبد إلى الإيمان ففضل الله وله المنّة. وإن هداه إلى الكفر فبِعَدْلِهِ، والله على العبد الحجة.

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٢٣٠) : ((" إن الله _ عز وجل _ خلق خلقه " أي : الثقلين ، فإن الملائكة ما خلقوا إلا من نور ، ولم يخلقوا من ظلمة الطبيعة ، والميل إلى الشهوة والغفلة عن معالم الغيب. " في ظلمة " أي : كائنين في ظلمة الطبيعة ، فالتنفس الأمارة بالسوء المجبولة بالشهوات المردية ، والأهواء المضلة ، والركون إلى المحسوسات ، والغفلة عن معالم الغيب ، وأسرار عالم القدس. " فألقى " ، والإلقاء في الأصل طرح الشيء حيث يلقيه ، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح. " عليهم من نوره " أي شيئاً من نوره. ومن إمّا للتبيين أو للتبعيض أو زائدة. وكذا في من ذلك النور ، وهو ما نصب من الشواهد والبراهين ، وأنزل من الآيات والنذر . " فمن شاء الله هدايته " أصابه من ذلك النور يومئذ " ، فخلص من تلك الظلمة . و " اهتدى "

(٩) رواه الترمذي (٥ / ٢٦) برقم (٢٦٤٢) وحسنه، وابن حبان في صحيحه (٤٣ / ١٤) برقم (٦١٦٩) . وقال الهيثمي في الجمع (٧ / ٣٩٨) : ((رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات)) .

إلى إصابة طُرق السُّعداء. " وَمَنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ الثُّورُ " أي: جَاوَزَهُ وَتَعَدَّاهُ لعدم مُشاهدة تلك الآيات وإبصاره تلك البراهين الجَلِيَّات . " ضَلَّ " أي بَقِيَ في ظُلْمة الطبيعة مُتَحِيرًا كالأَنْعام ، كما هو حال الفَجْرة المُتَهَمِكين في الشَّهوات، المُعْرِضين عن الآيات والتَّنْذُر، أو المُراد خَلْق الذَّر المُسْتَخْرَج من صُلْب آدم ، فَعَبَّرَ بالثُّور عن الأُلطاف التي هي تباشير صُبْح الهداية ، وإشراق لَمَع بَرَق العِناية، ثُمَّ أَشارَ بِقوله: أَصاب وأخطأ، إلى ظهور أثر تلك العِناية في الإنزال، من هداية بَعْض، وضلال بعض ، أو معنى في ظُلْمته جُهِالًا عن معرفة الله ، لأنَّ العُبودية لا تُدرك الرُّبُوبية إلا بإحداث المعرفة مِنها لها، وهو معنى ألقى عليهم مِن نُوره ، أي: هَدَى مَنْ شَاءَ، فَعَبَّرَ عن الهُدَى بالثُّور، فلا يُعْرِفُ الله إلا بالله ، فالذَّلَّاتِل لِلإِزام الحُجَّة لا سبب للهداية بِمُجَرَّدِها ، وإلا لاهتدى بها كُل ناظر، وَكَمْ نَظَرَ فيها ذُو عقل سليم، وفَهَم قويم، وفَكَّر مستقيم، وَلَمْ يَزِدْهُ ذلك إلا ضَلالًا).

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس : ١٠] .

لقد ختم الله على قلوبهم بالكفر والضلال بما كَسَبَتْ أيديهم ، ومنعهم من الإيمان لأنهم لا يَسْتَحِقُّون شَرَفَ الإيمان . فلا فائدة من إنذارهم ، لأنهم لَنْ يَتَأَثَّرُوا بِهِ . والآية تُرَدُّ على القَدَرية .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (١٥ / ١٣) : ((أي : إنذارك إِيَّاهم وَعَدُّهُ سَوَاء . قال الزَّجاج : أي مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ هذا الإِضْلال ، لَمْ يَنْفَعِهُ الإِندَار)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

[يس : ١١] .

إنما يَنْفَعُ إنذارك يا محمد المؤمنَ الذي صَدَّقَ بالقرآن ، وَعَمِلَ بأحكامه ، وصار دُستورًا لحياته قولاً وفِعْلاً ، وخافَ الله تعالى في خُلُوته وانفراده بِنَفْسِهِ ، حيث لا يَراهُ إلا اللهُ تعالى ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ ، وأَجْرٍ عَظِيمٍ حَسَنٍ ودائِمٍ (الجنة) . والآية : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ تدل على عَظَمَةِ اللهِ تعالى، وَقُوَّةِ إيمان العبد. فهذا المؤمن يَخافُ الله الرَّحْمَنَ الذي هو واسع الرحمة ، فكيف سَيَكُونُ خَوْفُهُ في حال وَصَفِ اللهِ بالجَبَّارِ المنتَقِمِ القَهَّارِ المتكَبِّرِ ؟. وهذا يدل على عَظَمَةِ اللهِ تعالى ، وَخُطُورة ارتكاب المعاصي بِحُجَّةِ أَنَّ الله غفور رحيم . والآية تشير إلى أهمية التوازن بين الرجاء والخوف ، فلا ييأس العبدُ من الرحمة الإلهية التي وَسِعَتْ كُلَّ شيء ، وفي نَفْسِ الوقت ، لا يَأْمَنُ العذابَ الإلهيَّ الشديدَ . إِنَّ الله هو الرحمن الرحيم ، وهو الجَبَّارُ المنتَقِمُ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٢٧) : ((﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ وَخَافَ عِقَابَهُ قَبْلَ خُلُوله وَمُعَايَنَةِ أهواله ، أو في سِرِّيرته ، ولا يَغْتَرُّ بِرحمته ، فإنه كما هو رحمن ، مُنتَقِمٌ قَهَّارٌ)) اهـ .

وفي تفسير الثعالبي (٢ / ٢٩٦) : ((قال الغزالي رحمه الله في منهاجه : ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الرجاء والخوف ... قوله تعالى : ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾ فَعَلَّقَ الْخَشْيَةَ بِاسْمِ الرَّحْمَنِ دُونَ اسْمِ الْجَبَّارِ أَوْ الْمُنْتَقِمِ أَوْ الْمُتَكَبِّرِ وَنَحْوِهِ ، لِيَكُونَ تَخْوِيفًا فِي تَأْمِينٍ ، وَتَحْرِيكًا فِي تَسْكِينٍ ، كَمَا تَقُولُ : أَمَّا تَخَشَى الْوَالِدَةَ الرَّحِيمَةَ ، أَمَّا تَخَشَى الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الطَّرِيقَ عَدْلًا ، فَلَا تَذْهَبُ إِلَى أَمْنٍ وَفُتُوتٍ)) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٧٢٩) : ((وقال سعيد ابن جُبَيْر : الْخَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ — عَزَّ وَجَلَّ — وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : الْعَالِمُ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ، وَرَغَّبَ فِيمَا رَغَّبَ اللَّهُ فِيهِ ، وَرَهَدَ فِيمَا سَخَطَ اللَّهُ فِيهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس : ٧٦] .
فلا يَخْزُنْكَ يَا مُحَمَّدُ تَكْذِيبُ الْمُشْرِكِينَ (كفار مكة) لَكَ ، وَطَعْنُهُمْ فِي رِسَالَتِكَ ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ جَمِيعَ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، سَوَاءً كَانَتْ سِرِّيَّةً أَمْ عَلَنِيَّةً ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالتَّكْذِيبِ ، وَيَعْلَمُ كَذَلِكَ مَا يُعْلِنُونَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَشَتَمِ النَّبِيِّ ﷺ . وَتَقْدِيمُ السِّرِّ عَلَى الْعَلَنِ ، لِتَقْرِيرِ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ . وَمَنْ كَانَ يَعْلَمُ السِّرَّ ، فَهُوَ — بِالْأَوَّلَى — يَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ .

وَالْآيَةُ : ﴿ فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَنْبِيْهُ لَهٗ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .
وَالْآيَةُ : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وَعِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَتَهْدِيدٌ لَهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٤٦٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ : فَلَا يَخْزُنْكَ يَا مُحَمَّدُ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ مِنْ قَوْلِكَ لَكَ : إِنَّكَ شَاعِرٌ ، وَمَا جِئْنَا بِهِ شِعْرٌ ، وَلَا تَكْذِيبُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَجُحُودُهُمْ نُبُوتَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى قَبْلِ ذَلِكَ الْحَسَدِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي جِئْتَهُمْ بِهِ لَيْسَ بِشِعْرٍ ، وَلَا يُشَبِّهِ الشَّعْرَ ، وَأَنَّكَ لَسْتَ بِكَذَّابٍ ، فَتَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَمَا يُعْلِنُونَ مِنْ جُحُودِهِمْ ذَلِكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ عَلَانِيَةً)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٧١] .
لَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُرْسَلِينَ (صَفْوَةَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ) بِالثَبَاتِ وَالتَّمْكِينِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ . وَهَذَا الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ ثَابِتٌ ، وَوَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَكَائِنْ بَلَا شَكَّ ، لَا يَتَخَلَّفُ وَلَا يَتَأَخَّرُ . وَإِنَّمَا يَجِيءُ فِي

الوقت المناسب وَفَقَّ إِرَادَةَ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ الْبَلِيغَةَ . لَقَدْ سَبَقَ الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ بِنَصْرِ الرُّسُلِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ١٢٣) : ((قال الفراء : أي بالسعادة . وقيل : أرادَ بالكلمة قَوْلُهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [الْمُجَادِلَةُ : ٢١] . قال الحسن : لَمْ يُقْتَلْ مِنْ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ قَطُّ أَحَدٌ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٢] .
لقد مضى القضاء الإلهي بأنَّ رُسُلَ اللَّهِ لَهُمُ النِّصْرُ وَالْغَلْبَةُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَهُمْ الْمَنْصُورُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ . وفي تفسير البغوي (١ / ٦٢) : ((قال الرَّجَّاجُ : غَلَبَةُ الرُّسُلِ عَلَى تَوَعُّيْنِ : مَنْ بُعِثَ مِنْهُمْ بِالْحَرْبِ ، فَهُوَ غَالِبٌ بِالْحَرْبِ . وَمَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِالْحَرْبِ ، فَهُوَ غَالِبٌ بِالْحُجَّةِ)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٣] .
وَإِنْ حِزْبُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ (الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ) لَهُمُ الْغَالِبُونَ الْمَنْصُورُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ .
لَهُمُ النِّصْرُ فِي الدُّنْيَا بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَفِي الْآخِرَةِ لَهُمُ نَعِيمُ الْجَنَّةِ الْأَبَدِيِّ .

والعاقبةُ الحسنةُ للمؤمنين ، رَغِمَ أَنْهَزَامُهُمْ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِمْ وَارْتِكَابِهِمْ لِلْأَخْطَاءِ . وَهَذَا امْتِحَانٌ إِلَهِيٌّ لَهُمْ . وَفِي الْأَغْلَبِ الْأَعْمِ ، يَكُونُ النِّصْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَعَارِكِ . أَمَّا هَزَائِمُهُمْ فَهِيَ نَادِرَةٌ ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٣٠ و ٣١) : ((﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الْكَلِمَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣))) ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا كَلِمَةً ، وَهِيَ كَلِمَاتٌ ، لِأَنَّهَا لَمَّا انْتَضَمَتْ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، كَانَتْ فِي حُكْمِ كَلِمَةٍ مُفْرَدَةٍ ، وَالْمَرَادُ الْوَعْدُ بِغُلُوبِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي مَقَامِ الْحِجَاجِ ، وَمَلَا حِمِّ الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا ، وَعُلُوبِهِمْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ . وَعَنِ الْحَسَنِ : مَا غُلِبَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : إِنْ لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا ، نُصِرُوا فِي الْعُقْبَى (الْآخِرَةِ) . وَالْحَاصِلُ أَنَّ قَاعِدَةَ أَمْرِهِمْ وَأَسَاسَهُ ، وَالْغَالِبُ مِنْهُ ، الظَّفَرُ وَالنُّصْرَةُ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي تَضَاعُيفِ ذَلِكَ شَوْبٌ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْمِحْنَةِ ، وَالْعِبْرَةُ لِلْغَالِبِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٤] .
فَأَعْرِضْ عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ يَا مُحَمَّدَ ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ لِمُدَّةٍ قَصِيرَةٍ (مُدَّةُ الْإِمْهَالِ) ، حَتَّى تُؤْمَرَ بِقِتَالِهِمْ ، فَإِنَّ النِّصْرَ وَالتَّمَكِينَ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩٣ / ٧) : ((﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : أَعْرِضْ عَنِ كِفَارِ
مكة

﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، أي حتى تَنْقُضِي مُدَّةَ إِمهالهم . وقال مجاهد : حتى نَأْمُرَكَ بِالْقِتَالِ . فعلى هذا
الآية مُحْكَمَةٌ . وقال _ في رواية _ : حتى الموت ، وكذلك قال قتادة . وقال ابن زَيْد : حتى
القيامة ، فعلى هذا يَنْطَرُقُ نَسْخُهَا ، وقال مُقاتِل بن حَيَّان : نسختها آيةُ القتال)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧٥] .

الآيةُ تسليَةٌ للنبي ﷺ ، ووَعْدٌ له بالنَّصْرِ والغَلَبَةِ والتمكين ، ووَعْدٌ شديدٌ للمُشْرِكِينَ وتهديدٌ لهم .
انتظر يا محمد ماذا سَيَحِلُّ بالكافرين مِنَ العذاب . أَبْصِرْهُمْ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ، فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ ، حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِبْصَارُ وَلَا التَّدَمُّ . وَتَعَذِّبُهُمْ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، وَهُوَ قَرِيبٌ ،
لِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْإِبْصَارِ . وقيل : هو العذاب بِبَدْرٍ . وقيل : هو العذاب يوم القيامة .

وقال البِضَاوِيُّ في تفسيره (٣١ / ١) : ((﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ على ما يَنَالُهُمْ حِينَئِذٍ . والمراد
بالأمر الدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه قُدَّامُهُ . ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما قَضَيْنَا لَكَ مِنَ التَّأْيِيدِ
والتَّوْبَةِ والثَّوَابِ في الآخِرَةِ . و ﴿ فَسَوْفَ ﴾ للوعيد لا للتبديد)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] .

اصْبِرْ يا محمد على تكذيب قومك لك ، وطعنهم فيك ، واستهزائهم بك ، فَإِنَّ هَذَا اخْتِبَارٌ لَكَ كَمَا
اخْتَبَرْنَا الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ ، وَلَكَ بِهِمْ أَسْوَأُ حَسَنَةٍ ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ، وَاثْبُتْ عَلَى الْحَقِّ كَمَا ثَبَتُوا . فَإِنَّ
اللَّهَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ ، كَمَا نَصَرَهُمْ وَأَيَّدَهُمْ . والآيةُ تسليَةٌ للنبي ﷺ ، وتثبيتٌ له ، وتهديدٌ للمُشْرِكِينَ .

واذْكُرْ يا محمد قصةَ النبيِّ داودَ ، وصفاته الحميدة . فقد كَانَ قَوِيًّا فِي الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ ، ثَابِتًا
عَلَى الْحَقِّ ، رَابِطَ الْجَأَشِ فِي مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ . والنبيُّ داودُ ﷺ كَانَ قَوِيًّا فِي الْعِبَادَةِ ، يَصُومُ يَوْمًا ،
وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَهَذَا أَفْضَلُ الصِّيَامِ وَأَشَدُّهُ ، وَكَانَ يُصَلِّي نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيُوَاجِهُ الْأَعْدَاءَ بِكُلِّ قُوَّةٍ
وَنَبَاتٍ ، وَلَا يَهْرَبُ مِنْهُمْ . وَكَانَ دَائِمَ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ .

وَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ صَبَرُوا حَتَّى جَاءَهُمُ النَّصْرُ الْإِلَهِيُّ ، فَكَانَ الْعَاقِبَةُ لَهُمُ وَالنَّصْرُ وَالْغَلَبَةُ وَالتَّمَكُّنُ ،
فَاصْبِرْ يا محمد كَمَا صَبَرُوا حَتَّى تَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَكَ ، كَمَا كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ١٣٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ ،

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْكُفَّارِ ، وَشِقَاقِهِمْ ، وَتَقْرِيعِهِمْ بِأَهْلَاكِ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَمَرَ نَبِيَّهِ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ ، وَسَلَّاهُ بِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي ذِكْرِ دَاوُدَ وَقَصَصَ

الأنبياء لِيَتَسَلَى بِصَبْرٍ مَنْ صَبَرَ مِنْهُمْ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ أَضْعَافَ مَا أُعْطِيَهِ دَاوُدَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى اصْبِرْ عَلَى قَوْلِهِمْ ، وَادْكُرْ لَهُمْ أَقَاصِيصَ الْأَنْبِيَاءِ لَتَكُونَ بُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوتِكَ . ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذَا الْقُوَّةِ فِي الْعِبَادَةِ . وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا ، وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَذَلِكَ أَشَدُّ الصَّوْمِ وَأَفْضَلُهُ . وَكَانَ يُصَلِّي نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَكَانَ لَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى الْعَدُوَّ ، وَكَانَ قَوِيًّا فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَقَوْلُهُ : ﴿عَبَدْنَا﴾ إِظْهَارًا لِشَرَفِهِ بِهَذِهِ الْإِضَافَةِ . ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : أَيِ تَوَّابٍ . وَعَنْ غَيْرِهِ أَنَّهُ كَلَّمَا ذَكَرَ ذَنْبَهُ أَوْ خَطَرَ عَلَى بَالِهِ اسْتَغْفَرَ مِنْهُ ، فَكَانَ دَاوُدَ رَجَّاعًا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضَاهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، فَهُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يُقْتَدَى بِهِ ((اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١١٠) : ((في وجه المناسبة بين قَوْلِهِ : ﴿اصْبِرْ﴾ وبين قَوْلِهِ : ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يَتَّقَى عَلَى الصَّبْرِ بِذِكْرِ قُوَّةِ دَاوُدَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمَعْنَى : عَرَفْنَاهُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعَ طَاعَتِهِمْ كَانُوا خَائِفِينَ مَنِي . هَذَا دَاوُدَ مَعَ قُوَّتِهِ عَلَى الْعِبَادَةِ ، لَمْ يَزَلْ بَاكِيًا مُسْتَغْفِرًا ، فَكَيْفَ حَالُهُمْ مَعَ أَفْعَالِهِمْ ؟ ((اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : ((أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا)) (١٠) .

هَذَا الْحَدِيثُ يُشِيرُ بوضوح إِلَى قُوَّةِ النَّبِيِّ دَاوُدَ ﷺ فِي الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ . فَأَحَبُّ الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ صَلَاةُ دَاوُدَ ﷺ ، حَيْثُ كَانَ يُقَسِّمُ اللَّيْلَ ، فَيَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ لِيَرْتَاحَ ، وَيُعْطِيَ جِسْمَهُ حَقَّهُ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْهَدْوِ ، ثُمَّ يَقُومُ ثُلُثَ اللَّيْلِ (مِنْ أَوَّلِ النَّصْفِ الثَّانِي) لِأَنَّهُ وَقْتُ التَّجَلِّيِ الْإِلَهِيِّ ، وَأَعْظَمُ أَوْقَاتِ الْعِبَادَةِ ، وَيَنَامُ سُدُسَ اللَّيْلِ الْآخِرِ ، كَيْ يَحْصَلَ عَلَى الرَّاحَةِ ، وَيَسْتَقْبِلَ الصَّبَاحَ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ لِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْقِيَامِ بِأُمُورِ حَيَاتِهِ . وَأَحَبُّ صِيَامِ التَّطَوُّعِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ﷺ ، حَيْثُ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا ، وَيُفْطِرُ يَوْمًا . وَهَذَا أَفْضَلُ مِنْ صِيَامِ الدَّهْرِ وَأَشَدُّ صَعُوبَةً ، لِأَنَّهُ يَكْسِرُ شَهْوَةَ النَّفْسِ ، فَتَجُوعٌ وَتَشْبَعٌ . وَهَذَا يَمْنَعُ تَحَوُّلَ الصِّيَامِ إِلَى عِبَادَةٍ رَوْتِينِيَّةٍ ، وَعَادَةٍ يَوْمِيَّةٍ بَلَا إِحْسَاسٍ وَلَا تَأْثِيرٍ .

وَمِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الْعِبَادَةِ : الرَّفْقُ بِالنَّفْسِ ، وَعَدَمُ تَحْمِيلِهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، وَالتَّوَازُنُ بَيْنَ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْعِبَادَةِ ، وَكُسْرُ الْمَلَلِ وَالسَّامَةِ وَالرُّوتِينِ ، وَعَدَمُ تَحْوِيلِ الْعِبَادَةِ إِلَى عَادَةٍ .

(١٠) متفق عليه . البخاري (١ / ٣٨٠) برقم (١٠٧٩) . ومسلم (٢ / ٨١٢) برقم (١١٥٩) .

وفي فيض القدير (١ / ١٧١) : ((قال الغزالي : وسِرُّهُ أَنَّ مَنْ صَامَ الدَّهْرَ صَارَ الصَّوْمَ لَهُ عَادَةً ، فَلَا يَحْسُ وَقَعَهُ فِي نَفْسِهِ بِالْإِنْكَسَارِ ، وَفِي قَلْبِهِ بِالصَّفَاءِ ، وَفِي شَهَوَاتِهِ بِالضَّعْفِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِنَّمَا تَتَأَثَّرُ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهَا لَا بِمَا تَمَرَّنَتْ عَلَيْهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَطْبَاءَ نَهَوْا عَنْ اعْتِيَادِ شُرْبِ الدَّوَاءِ وَقَالُوا : مَنْ تَعَوَّدَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِذَا مَرِضَ لِإِلْفِ مِزَاجِهِ لَهُ ، فَلَا يَتَأَثَّرُ بِهِ ، وَطَبَّ الْقُلُوبِ قَرِيبٌ مِنْ طَبِّ الْأَبْدَانِ . انْتَهَى . وَهَذَا أَوْضَحُ فِي الْبَيَانِ وَأَبْلَغُ فِي الْبُرْهَانِ مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ : صَوْمُ الدَّهْرِ قَدْ يُفَوِّتُ بَعْضَ الْحَقُوقِ ... وَقَالَ أَبُو شَامَةَ : يَصُومُ وَقْتًا وَيُفْطِرُ وَقْتًا ، أَيْ لَا يُدِيمُ الصِّيَامَ خَوْفَ الضَّعْفِ عَنِ الْجِهَادِ . قَالَ : وَقَدْ جَمَعْتُ الْأَيَّامَ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا الْأَخْبَارُ أَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ كَانَ يَصُومُهَا فَقَارِبْتُ أَنْ تَكُونَ شَطْرَ (نِصْفِ) الدَّهْرِ فَهُوَ بِمِثَابَةِ صَوْمِ دَاوُدَ ﷺ . قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ : كَانَ دَاوُدُ يُقَسِّمُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ لِحَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ نَفْسِهِ ، فَأَمَّا اللَّيْلُ فَاسْتَقَامَ لَهُ ذَلِكَ فِي لَيْلِهِ ، وَأَمَّا النَّهَارُ فَيَتَعَذَّرُ تَجَرُّنُهُ لِعَدَمِ تَبْعِيضِ الصِّيَامِ ، فَتَنَزَّلُ صَوْمَ يَوْمٍ وَفُطْرَ يَوْمٍ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾

[غَافِرٍ : ٥٥] .

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، لَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ، وَوَعَدَ اللَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، لَا يَتَخَلَّفُ . وَكَمَا نَصَرَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ ، سَيَنْصُرُكَ يَا مُحَمَّدُ . وَاطْلُبْ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَكَ وَيَعْفُو عَنْكَ . وَالْمَقْصُودُ بِالذَّنْبِ هُوَ خِلَافُ الْأَوَّلَى ، وَمَا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّغَائِرِ بِدُونِ قَصْدٍ . وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ، لَكِنَّهُ ارْتَكَبَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ خِلَافَ الْأَوَّلَى بِتَأْوِيلٍ مِنْهُ ، مَعَ غِيَابِ الْوَحْيِ . وَقَدْ عَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ عِتَابَ الْحَبِيبِ لِلْحَبِيبِ ، وَعَفَا عَنْهُ . وَحَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ .

وَاسْتَغْفِرُ النَّبِيُّ ﷺ لِرَفْعِ مَقَامِهِ وَإِعْلَاءِ دَرَجَتِهِ ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ عَاصٍ أَوْ مُذْنِبٌ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَعْظَمُ الْأَنْبِيَاءِ ، مَعْصُومٌ — مِثْلُ كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ — مِنْ كُلِّ مَنْقِصَةٍ وَعَيْبٍ وَإِثْمٍ قَبْلَ الْبِعْثَةِ وَبَعْدَهَا . وَحَثُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ كَيْ تَقْتَدِيَ بِهِ أُمَّتُهُ ، وَيُصْبِحَ الْإِسْتِغْفَارُ سُنَّةً ثَابِتَةً فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ . وَنَزَّ اللَّهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، شَاكِرًا لَهُ ، وَثُمْنِيًّا عَلَيْهِ ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْمَسَاءِ وَالصَّبَاحِ . وَالْمَقْصُودُ الْمَحَافَظَةُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، وَالْإِبْتِعَادُ عَنِ الْغَفْلَةِ وَالْكَسَلِ وَالْمَلَلِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ١٠٦) : ((وَقَوْلُهُ — عَزَّ وَجَلَّ — : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أَيُّ يَا مُحَمَّدُ

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أَيُّ : وَعَدْنَاكَ أَنَّا سَنُعْلِي كَلِمَتَكَ ، وَنَجْعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ ، وَلَمَنْ اتَّبَعَكَ ، وَاللَّهُ

لا يُخْلِفُ الميعادَ ، وهذا الذي أخبرناك به حق ، لا مِرية فيه ، ولا شك . وَقَوْلُهُ _ تبارك وتعالى _:

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ هَذَا تَهْيِيجٌ لِلْأُمَّةِ عَلَى الاستغفار . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل ((اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٣٢ و ٢٣٣) : ((ومعنى : ﴿ سَبِّحْ ﴾ صَلِّ . وفي المراد بصلاة الْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ثلاثة أقوال : أحدها أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس . والثاني : صلاة الغداة (صلاة الفجر) وصلاة الْعَصْرِ ، قاله قتادة . والثالث أنها صلاة كانت قبل أن تُفَرَضَ الصلوات ، ركعتان عُذُوة ، وركعتان عَشِيَّةٌ ، قاله الحسن ((اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤٣] .

ما يقول هؤلاء المشركون لك يا محمد ، إلا كما قالت الأمم السابقة لأنبيائها من الكلام السيئ المشتمل على الكفر ، والضلال ، والتكذيب ، والظعن ، والشتم ، والاستهزاء ، والسخرية . وكما كُذِّبَتْ يا محمد كُذِّبَ الأنبياء السابقون ، فصبروا ، وتحملوا المشاق والصعوبات ، حتى جاءهم النصر الإلهي ، فاصبر كما صبروا ، فإن الله ناصرُك ومؤيِّدُك ، كما نصرهم وأيدهم . وتوَكَّلْ على الله ، وقَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ ، فهو يَكْفِيكَ وَيَحْمِيكَ ، كما كَفَى الأنبياء السابقين ، وحماهم من كُلِّ شَرٍّ . والله يُعْزِي النَبِيَّ ﷺ ، وَيُسَلِّيه ، وَيُصَبِّرُهُ ، وَيُثَبِّتُهُ عَلَى الْحَقِّ ، وَيُرْشِدُهُ إِلَى التَّائِسِي وَالْإِقْتِدَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . تَجْمَعُ الْآيَةُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ . إِنَّ اللَّهَ عَظِيمُ الْمَغْفِرَةِ ، يَغْفِرُ لِمَنْ تَابَ وَعَادَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِكَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ . وَاللَّهُ ذُو عِقَابٍ شَدِيدٍ لِلْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ ، الَّذِينَ عَاشُوا حَيَاتِهِمْ مُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، فَاسْتَحَقُوا الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَوْلَا مَغْفِرَةُ اللَّهِ لَصَارَتِ الْحَيَاةُ بَائِسَةً وَتَعِيسَةً ، وَلَوْلَا عَذَابُ اللَّهِ لَاسْتَمْتَعَ النَّاسُ بِالْمَعَاصِي ، وَاتَّكَلَوْا ، وَلَمْ يَزِدْهُمْ شَيْءٌ . وَمَنْ أَمِنَ الْعَقُوبَةَ أَسَاءَ الْأَدَبَ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٣٢٠) : ((وقيل : أي ما يُقال لك مِنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ إِلَّا مَا قَدْ أُوحِيَ إِلَى مَنْ قَبْلِكَ ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَ الشَّرَائِعِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّوْحِيدِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٦٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِيْمَنْ أُرْسِلَ قَبْلَكَ : سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ ، وَكُذِّبُوا كَمَا كُذِّبَتْ ، هَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَقِتَادَةَ وَالْجَمْهُورِ . وَالثَّانِي : مَا تُخْبَرُ إِلَّا بِمَا أُخْبِرَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَكَ مِنْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ، وَأَنَّهُ ذُو عِقَابٍ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِيُّ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ جَاؤُوا بِالتَّوْحِيدِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، وَدَعَوْا أَقْوَامَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَيْسَ شَاذًا عَنْ مَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالدَّعْوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَيْسَتْ بِدَعَاةٍ، وَلَا أَمْرًا غَرِيبًا حَتَّى يَتِمَّ التَّعَجُّبُ مِنْهَا . وَالْآيَةُ تُؤَيِّضُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَتُعَلِّمُهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِلْأَصْنَامِ الْآلِهَةِ بَاطِلَةٌ نَقْلًا وَعَقْلًا، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ الْوُثْنِيَّةُ لَمْ تَجِئْ فِي آيَةٍ شَرِيعَةٍ سَمَاوِيَّةٍ . فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ بِهَا ؟ . إِنَّ كُلَّ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ جَاءَتْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، بِلَا شَرِيكَ ، وَلَا نِدٍ ، وَلَا ابْنٍ ، وَلَا صَاحِبَةٍ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَشْكُ وَلَمْ يُصَبِّ بِالْأَرْتِيَابِ . وَالْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ : الْاسْتِشْهَادُ بِاجْتِمَاعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى التَّوْحِيدِ ، لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالْمُشْرِكِينَ زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ خَالَفَ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ ، وَجَاءَ بِدَعْوَةٍ غَرِيبَةٍ عَنْ مَنْهَجِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣١٩) : ((إِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَسْأَلُ الرُّسُلَ وَقَدْ مَاتُوا قَبْلَهُ ؟ ، فَعَنهُ ثَلَاثَةٌ أَجْوَبَةٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ ، جُمِعَ لَهُ الْأَنْبِيَاءُ ، فَصَلَّى بِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : سَلْ

﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، الْآيَةُ . فَقَالَ : لَا أَسْأَلُ ، قَدْ اكْتَفَيْتُ ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالثُّرَيْيِّ وَابْنِ زَيْدٍ ، قَالُوا : جُمِعَ لَهُ الرُّسُلُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ ، فَلَقِيَهُمْ ، وَأَمَرَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ فَمَا شَكَّ وَلَا سَأَلَ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ اسْأَلُ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمُ الْأَنْبِيَاءُ ، رُويَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَقِتَادَةَ وَالصَّحَّاحِ وَالسُّدِّيِّ فِي آخِرِينَ . قَالَ ابْنُ الْأَثْبَارِيِّ : وَالْمَعْنَى سَلَ أَتْبَاعَ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ، كَمَا تَقُولُ : السَّخَاءُ حَاتِمٌ ، أَيُ : سَخَاءُ حَاتِمٍ ، وَالشَّعْرُ زُهَيْرٌ ، أَيُ : شَعْرُ زُهَيْرٍ . وَعِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ عَلَى الْقَوْلَيْنِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : هَذَا سُؤَالُ تَقْرِيرٍ ، فَإِذَا سَأَلَ جَمِيعَ الْأُمَمِ لَمْ يَأْتُوا بِأَنْ فِي كُتُبِهِمْ أَنْ اعْبُدُوا غَيْرِي . وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْمُرَادَ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ خِطَابَ أُمَّتِهِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : سَلُّوا ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿فَدَرَّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣] .

اترك كفار مكة يا محمد ، يخوضوا في باطلهم وكفرهم وضلالهم ، ويلعبوا في هذه الدنيا ، حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة الذي ينتظروهم ، وعندئذ سوف يعلمون مصيرهم وحالهم .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٥٥) : ((وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى ، وإنهم مطبوع على قلوبهم ، مُعَذَّبُونَ في الآخرة)) اهـ .
والآية وعيد لكفار مكة وتهديد شديد لهم .

وقال ابن الأثير في المثل السائر (٢ / ٩٠) : ((وأما حذف جواب الفعل ، فإنه لا يكون في الأمر المحتوم كقوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ ، فَجَزَمَ ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ لأنهما جواب أمر ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ . وحذف الجواب في هذا لا يدخل في باب الإيجاز ، لأننا إذا قلنا : ذَرَهُمْ ، أي : اتركهم ، لا يحتاج ذلك إلى جواب)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ [الدخان : ٥٩] .

فانتظر يا محمد تعذيب قومك ، ونصرك عليهم ، كما وعدك الله ، ووعدته واقع لا محالة . إن المشركين ينتظرون موتك ، والتخلص منك ، والقضاء على دعوتك . وسيعلمون لمن يكون الفتح والنصر والغلبة والتمكن . والآية وعد أكيد للنبي ﷺ ، ووعد شديد للمشركين .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٨٢٤) : ((أي : فانتظر ما وعدناك من النصر عليهم ، وإهلاكهم على يدك ، فإنهم منتظرون ما ينزل بك من موت أو غيره . وقيل : انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم ، فإنهم منتظرون بك نوائب الدهر ، والمعنى متقارب)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

فاصبر يا محمد على أذى المشركين لك ، كما صبر سادة الرسل (إبراهيم وموسى وعيسى ونوح) على أذى الكافرين لهم . والآية تثبت النبي ﷺ على الحق ، وتُرشدته إلى التأسّي والافتداء بهؤلاء الرسل الكرام الذين وصلوا إلى قمة الصبر والتحمل والقوة في الدين والعبادة والدعوة ، وهم أصحاب الشرائع . ومحمد ﷺ هو أولهم وأعظمهم . وكل الرسل أصحاب عزم واجتهاد ، لكنهم يتفاوتون في الصبر والتقوى والإيمان والرتبة والمكانة والأفضلية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨٦) : ((﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ، أُولُو الثبات والجِد منهم ، فإنك من جملتهم ، و﴿ مِنْ ﴾ للتبيين ، وقيل : للتبعض . و﴿ أُولُو الْعَزْمِ ﴾

منهم أصحاب الشرائع ، اجتهدوا في تأسيسها وتقريبها ، وصبروا على تحمّل مشاقّها ، ومُعَاذَة الطاعين فيها ، ومشاهيرهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى _عليهم السلام_. وقيل : الصابرون على بلاء الله كَنُوح، صَبِر على أذى قومه ، كانوا يضربونه حتى يُغشى عليه ، وإبراهيم على النار، وذَبِیح ولده، والذبيح على الذَّبِیح ، ويعقوب على فَقْد الولد والبَصَر ، ويوسف على الجُبِّ (البئر) والسَّجَن ، وأيوب على الضَّر ، وموسى قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴿ [الشعراء] . وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لَبْنَةً على لَبْنَةٍ ((اه .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ . لَا تَدْعُ يَا مُحَمَّد على كفار قُرَيْش بتعجيل العذاب . والمعنى : اصْبِرْ يَا مُحَمَّد، وَلَا تستعجل العذاب للكفار ، فهو نازلٌ بهم في وقته لَا محالة ، لَا شَكَّ في ذلك وَلَا رَيْب .

وفي زاد المسير (٧ / ٣٩٣) : ((قال بعض المفسرين : كان النبي ﷺ ضَجِرَ بَعْضُ الضَّجَرِ ، وأحب أن ينزل العذاب بمن أبى من قومه ، فَأَمَرَ بالصبر)) اه .
والله تعالى لم يُعَاجِلْ كفار قُرَيْش بالعقوبة والعذاب ، رَحْمَةً بِهِمْ ، وَرَجَاءً أَن يُؤْمِنُوا ، أو أَن يخرج من أصلابهم مَنْ يُؤَحِّد الله تعالى . لذلك أعطاهم الفرصة تَلَوُ الفرصة، وأمهّلهم ولم يُهْمِلْهم .
﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ . كَأَنَّ الكفار يَوْمَ يَرَوْنَ العذاب رَأْيَ الْعَيْنِ (يُعَايِنُونَهُ) يوم القيامة ، لَمْ يَلْبَثُوا في الدنيا إِلَّا سَاعَةً ، وذلك لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِ الآخرة وطوله . فَمِنْ هَؤُلَاءِ العذابِ، يَنْسَوْنَ مُدَّةَ بَقَائِهِمْ في الدنيا، حتى يعتبروها مُجَرَّدَ ساعة عابرة .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٩٣) : ((قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ لأنَّ ما مضى كأنه لَمْ يَكُنْ ، وإن كان طويلاً . وقيل: لأنَّ مقدار مُكْثِهِمْ في الدُّنْيَا قليل في جَنَبِ مُكْثِهِمْ في عَذَابِ الآخرة، وهَاهُنَا تَمَّ الكلام)).

﴿ بَلَاغٌ ﴾ . هذا القرآنُ إنذارٌ وبَلَاغٌ . أي : تَبْلِيغٌ مِنَ اللَّهِ على لسان رسوله محمد ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٩٣) : ((وفي معنى وَصَفَ القرآنُ بالبلاغ قولان : أحدهما أنَّ البلاغَ بمعنى التبليغ . والثاني أنَّ معناه الكفاية ، فيكون المعنى : ما أخبرناهم بِهِ لهم فيه كفايةً وَغْنَى . وذكر ابن جرير وَجْهًا آخَرَ ، وهو أَنَّ المعنى : لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ذلك لُبْثُ بلاغ ، أي ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم)) اه .

﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . لا يكون العذاب والهلاك إلا للكافرين ، الذين رَفَضُوا أَمْرَ اللَّهِ ، وَخَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ ، وَغَرَقُوا فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَظْلَمْهُمْ ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَقَادُوا إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ . وَمِنْ عَذْلِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧١ / ١) : ((﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ ﴾ بِالْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الْخَارِجُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . قَالَ الرَّجَاجُ : تَأْوِيلُهُ : لَا يُهْلَكُ مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ قَوْمٌ : مَا فِي الرَّجَاءِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ آيَةٌ أَقْوَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

يُسَلِّي اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَيُعْزِيهِ ، وَيُثَبِّتَهُ عَلَى مِنْهَاجِ الْحَقِّ ، وَطَرِيقِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . كَمَا كَذَّبَكَ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّد ، وَطَعَنُوا فِي رِسَالَتِكَ ، وَاتَّهَمُوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ، فَقَدْ كَذَّبْتَ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ أَنْبِيَاءَهَا ، وَاتَّهَمُوهُمْ بِذَلِكَ . فَالْأَمْرُ لَيْسَ جَدِيدًا ، وَلَا غَرِيبًا . فَاتَّبَتْ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَا تَحْزَنُ ، وَلَا تَعْبَأُ بِكَلَامِهِمْ وَاتِّهَامَاتِهِمْ . فَهَذَا دَيْدُنُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . إِنَّهُمْ يَعْجِزُونَ عَنْ مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، فَيَلْجَأُونَ إِلَى الشَّتَائِمِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْقَاءِ التُّهْمِ بِلا أدلة ولا براهين . وَهَذِهِ حُجَّةُ الْعَاجِزِ دَائِمًا . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١٣٠ / ٥) : ((فِي هَذَا تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . بَيَانُ أَنَّ هَذَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَأَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الْعَرَبِ مِنَ التَّكْذِيبِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَوَصْفِهِ بِالسَّحَرِ وَالْجُنُونِ ، قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِرُسُلِهِمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّوَاصُوا بِهِ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٣] . هَلْ أَوْصَى أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ ؟ . هَلْ أَوْصَتْ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ بِالتَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ ؟ . وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِبِ مِنْ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى مَقَالَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ (سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ) . وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ ، فَالسَّاحِرُ وَالْمُجْنُونُ لُهُمَا صِفَاتٌ مُعَيَّنَةٌ تَكْشِفُ شَخْصِيَّتَهُمَا ، وَهَذَا الصَّفَاتُ بَعِيدَةٌ كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ صِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

لَمْ يَوْصِ أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ ، وَذَلِكَ لِإِعْدِ الْمُدَّةِ الزَّمْنِيَّةِ بَيْنَهُمْ . لَكِنَّهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي الطَّغْيَانِ ، وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْكَفْرِ . تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمُ الْفَاسِدَةُ ، فَقَالَ الْمُتَأَخَّرُونَ كَمَا قَالَ

المتقدمون . لقد جمعهم الكفر والعناد ، فصارت مقاتلتهم الفاسدة واحدة ، وليسوا بحاجة إلى الوصية بالكفر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٤٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ أَي : أَوْصَى أَوْلَهُمْ آخِرَهُمْ بِالْكَذِبِ ؟ . وهذا استفهام توبيخ ، وقال أبو عبيدة : أتواطؤوا عليه فأخذه بعضهم من بعض ؟ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أَي : يَحْمِلُهُم الطغيان فيما أُعْطُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى التَّكْذِيبِ ، وَالْمُشَارِ إِلَيْهِمْ أَهْلُ مَكَّةَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : ٥٤] .

فأعرض عن هؤلاء المشركين يا محمد واتركهم ، حتى يأتي الأمر الإلهي . ولا لوم عليك ولا عتاب ، لأنك بلغت الوحي الإلهي كاملاً ، وأدبت الرسالة بلا زيادة ولا نقصان ، ولم تقصر في ذلك ، وبذلت كل طاقتك في الدعوة والنصيحة والإرشاد ، وكنت أميناً ومخلصاً في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، فأبوا إلا العناد والكفر والضلال .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٤٢) : ((ومذهب أكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة ولهم في ناسخها قولان : أحدهما أنه قَوْلُهُ : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والثاني : آية السيف)) اهـ .

وفي لباب النقول للسُّيوطي (١ / ٢٠٠) : ((وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أنه لما نزلت : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ ، اشتدَّ على أصحاب رسول الله ﷺ ، وَرَأَوْا أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ ، وَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَضَرَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

لا تتترك الموعظة والنصيحة والإرشاد والتوجيه والدعوة إلى الحق يا محمد ، وعِظْ ، فَإِنَّ الْمَوْعِظَةَ تَنْفَعُ أَصْحَابَ الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ . فَهُمْ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا دُونَ غَيْرِهِمْ ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ عَامِرَةٌ بِنُورِ الْإِيمَانِ . وَالْمُؤْمِنُونَ وَخَدَهُمْ هُمْ الْمُتَنَفِعُونَ بِالْمَوْعِظَةِ ، لِذَلِكَ خُصُّوا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ .

ومهمة النبي ﷺ تنحصر في الموعظة الحسنة ، والتذكير ، والدعوة . أمَّا القلوب فهي بيد الله وَخَدَهُ ، وهو القادر على هدايتها إلى الإيمان . والنبي ﷺ لا يَقْدِرُ عَلَى إِدْخَالِ الْإِيمَانِ إِلَى الْقُلُوبِ

وقال الشَّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ١٣٠) : ((ثُمَّ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ، أَمَرَ أَنْ لَا يَتْرَكَ التَّذْكَيرَ وَالْمَوْعِظَةَ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَقَالَ : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قَالَ

الكلبي: المعنى: عِظْ بالقرآن مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ، فإن الذكرى تنفعهم. وقال مقاتل: عِظْ كُفَّارَ مكة، فإن الذكرى تنفع مَنْ كان في عِلْمِ الله أنه يُؤْمِن. وقيل: ذَكَّرْهُمْ بالعقوبة وأيام الله. وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بالتذكير، لأنهم المنتفعون به ((اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] .

فاصْبِرْ يا محمد على أذى المشركين لك، وتكذيبهم بما جئت به، وَبَلِّغِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ بكل اجتهادٍ وثباتٍ، وَلَا تَعْبَأْ بِتَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ إِيَّاكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَيَجْعَلِ الْغَلَبَةَ لَكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِكَ. وَلَا تَكُنْ كَالنَّبِيِّ يُونُسَ ﷺ فِي الْغَضَبِ وَالضَّجْرِ وَالْعَجَلَةِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، إِذْ نَادَى رَبَّهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَهُوَ مَمْلُوءٌ غَمًّا وَهَمًّا وَخُزْنًا، فَتُبْتَلَى بِبَلَاءِهِ. وَالنَّبِيُّ يُونُسَ ﷺ غَضِبَ مِنْ قَوْمِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، فَتَرَكَهُمْ دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللَّهِ، وَرَكِبَ الْبَحْرَ، وَابْتَلَعَهُ الْحُوتُ، وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، وَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ عَلَى فِعْلِهِ، وَتَابَ مِنْ خَطِيئَتِهِ، وَدَعَا اللَّهَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَهُوَ مَمْلُوءٌ غَمًّا وَغِيظًا، فَقَالَ: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .
والله يُسَلِّي نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَيُعْزِيهِ، وَيُعَلِّمُهُ الصَّبْرَ وَالتَّحَمُّلَ وَرِبَاطَةَ الْجَأْشِ وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٤٢ و ٣٤٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾

أي: اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ لِقَضَاءِ رَبِّكَ الَّذِي هُوَ آتٍ. وقيل: معنى الأمر بالصبر منسوخ بآية السيف.
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ وهو يُونُس، وفيماذا نُهِيَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ قَوْلَانِ :
أحدهما أنه العَجَلَةُ والغَضَبُ، قاله قتادة. والثاني: الضَّعْفُ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، قاله ابن جرير .
قال ابن الأنباري: وهذا لَا يُخْرِجُ يُونُسَ مِنْ أُولَى الْعِزِّ، لِأَنَّهَا خَطِيئَةٌ. وَلَوْ قُلْنَا إِنَّ كُلَّ مُخْطِئٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ مِنْ أُولَى الْعِزِّ، خَرَجُوا كُلُّهُمْ إِلَّا يَحْيَى، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عُقُوبَتِهِ إِذْ لَمْ يَصْبِر، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾، قَالَ الرَّجَاجُ: مَمْلُوءٌ غَمًّا وَكَرْبًا ((اهـ .

وعن وَهَبِ بْنِ مُنْبِهٍ أَنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى كَانَ عَبْدًا صَالِحًا، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ ضَيْقٌ، فَلَمَّا حُمِلَتْ عَلَيْهِ أَثْقَالُ الثُّبُوتِ، وَلَهَا أَثْقَالُ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا قَلِيلٌ، فَتَفَسَّخَ تَحْتَهَا تَفَسُّخَ الرَّبْعِ تَحْتَ الْحِمْلِ، فَقَدَفَهَا مِنْ بَدَنِهِ، وَخَرَجَ هَارِبًا مِنْهَا. يَقُولُ — عَزَّ وَجَلَّ — لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ﴾، وَ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾،

أي : لا تُلقِ أُخرى كما ألقاه (11) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج : ٥] .

فاصْبِرْ يا محمد على أذى المشركين وتكذيبهم لك ، واستمر في تبليغ رسالة ربك ، فإن الله ناصرُك ومؤيِّدُك . والآيةُ تسليَةٌ للنبي ﷺ وتشبُّتٌ له . والصَّبْرُ الجميلُ هو الذي لا يُخالِطُه استعجال ولا شك ولا ضَجَر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٤٧) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أي : على أذى قَوْمِكَ . والصبر الجميل : هو الذي لا جَزَعَ فيه ولا شكوى لغير الله . وقيل : هُوَ أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرى مَنْ هُوَ ، والمعنى مُتقارب)) .

(١١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٦٣٩) برقم (٤١٢٨) ، وسكت عنه الذهبي . وقال الزبيدي في تاج العروس (١ / ١٨٣٨) : ((وَتَفَسَّخَ الرُّبْعُ ، وهو الفَصِيلُ تَحْتَ الحِمْلِ الثقيل : ضَعْفٌ وَعَجَزٌ وذلك إِذَا لَمْ يُطْفَئْ)) .

الفصل الثامن عشر

مُخَاطَبَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ

تمهيد

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَخَلَّى عَنْ رُسُلِهِ — عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — ، وَإِنَّمَا يُعَلِّمُهُمْ ، وَيُؤَدِّبُهُمْ ، وَيُوجِّهُهُمْ ، وَيَأْمُرُهُمْ ، وَيَنْهَاهُمْ . فَهُوَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — مُرْسِلُ الرُّسُلِ ، وَمُنْزِلُ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَلَيْسَ أَمَامَ الرُّسُلِ إِلَّا الْخُضُوعُ لَخَالِقِهِمْ ، وَالْإِتِمَاعُ بِأَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابُ نَوَاهِيهِ . وَدَائِمًا ، لَا يَتَصَرَّفُ الرُّسُلُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَتَصَرَّفُونَ وَفَقَ مُرَادٍ مِنْ أَرْسَلَهُمْ ، وَيُنْفَعُونَ مَشِيئَتَهُ ، وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا تَبْلِيغُ رِسَالَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِلاَ اعْتِرَاضٍ وَلَا نِقَاشٍ .

وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَعْظَمُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ . اخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَةِ الْآخِرَةِ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . لِذَلِكَ ، لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يُخَاطَبَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَيُوجَّهَ ، وَيُرْشَدَ ، وَيُعْطِيَهِ التَّعْلِيمَاتِ .

وَلَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ رَسُولٍ — مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالذِّكَاةِ وَالتَّقْوَى وَالْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ — أَنْ يَتَخَلَّى عَنْ مُرْسَلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّ الرُّسُلَ بِالْإِيمَانِ وَالْقُوَّةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ وَالرَّحْمَةِ . وَيُدُونُ الْعَنَاءَ الْإِلَهِيَّ وَالرَّعَايَةَ الرَّبَّانِيَّةَ ، سَوَفَ يَسْقُطُ الرُّسُلُ ، وَيَهْزَمُونَ أَمَامَ أَعْدَائِهِمْ .

إِذَنْ ، ثَبَاتُ الرُّسُلِ لَيْسَ نَابِعًا مِنْ قُوَّتِهِمُ الذَّاتِيَّةِ ، وَمَهَارَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ . وَإِنَّمَا يَنْبَغُ مِنْ عَنَاءِ اللَّهِ بِهِمْ وَرِعَايَتِهِ لَهُمْ .

وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ لَيْسَ شَاذًا عَنْ مَنْهَجِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَلَمْ يَجِئْ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ أَوْ عَجِيبٍ ، حَتَّى يُثِيرَ الشُّكُوكَ وَالشُّبُهَاتِ . لَقَدْ جَاءَ بِكَلِمَةٍ " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " الَّتِي جَاءَ بِهَا كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِلاَ اسْتِثْنَاءٍ . وَكُلُّ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَةِ إِنَّمَا هِيَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدِّهِ .

وَمُخَاطَبَةُ اللَّهِ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَشْرِيفٌ لِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَكْرِيمٌ لَهُ ، وَتَعْظِيمٌ لِقَدْرِهِ ، وَرَفْعٌ لِمَنْزِلَتِهِ . وَالخِطَابُ الْإِلَهِيُّ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَيْسَ عَشْيًا أَوْ صُدْفَةً أَوْ مَضِيعَةً لِلْوَقْتِ . إِنَّهُ خِطَابٌ إِلَهِيٌّ عَظِيمٌ يَجِيءُ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ ، الَّذِي يُحَدِّدُهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَأَقْوَالُ اللَّهِ وَأَفْعَالُهُ ، كُلُّهَا حَكِيمَةٌ وَكَامِلَةٌ وَمُقَدَّسَةٌ ، وَمُنَزَّهَةٌ عَنِ الْعَبَثِ أَوْ الْقَوْضَى . وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْخِطَابِ الْإِلَهِيِّ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، إِرْشَادُهُ إِلَى مَنْهَجِ الْحَقِّ ، وَتَثْبِيتُهُ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَوْجِيهِهِ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَإِرْشَادُهُ إِلَى كَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي الْمَوَاقِفِ وَالتَّفَاصِيلِ الْحَيَاتِيَّةِ .

لِذَلِكَ ، لَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَامِلًا وَمُتَكَامِلًا وَشَرِيفًا وَصَادِقًا وَأَمِينًا وَمَعْصُومًا ،

وحياته صفحة بيضاء نقية، لا نقطة سوداء فيها. فالله تعالى يسدّد خطي محمد ﷺ على طريق الخير والرشاد .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] (1).

قُلْ يا محمد: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ حَقًّا وَصِدْقًا ، فَاتَّبِعُونِي ، فَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكُمْ . اتَّبِعُوا سُنَّتِي ، وَتَمَسَّكُوا بِأَقْوَالِي وَأَفْعَالِي ، وَاتَّزِمُوا بِالشَّرِيعَةِ الْمَحْمُودَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَطَبَّقُوهَا عَلَى أَرْضِ الْوَقَائِعِ يُحِبِّكُمْ اللَّهُ ، وَيَرْضَ عَنْكُمْ بِاتِّبَاعِكُمُ الرَّسُولَ ﷺ ، وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ بِبَرَكَاتِ شَرِيعَتِهِ ، وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَمُنِّحَ خَطَايَاكُمْ وَأَثَامَكُمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٧٧) : ((هذه الآية الكريمة حاكمة على كُلِّ مَنْ ادَّعى محبة الله ، وليس هو على الطريقة المحمّدية ، فإنه كاذب في دَعْوَاهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمَحْمُودِيَّ وَالَّذِينَ النَّبِيُّ ، فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٤٣) : عَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، فَهُوَ رَدٌّ)) .

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مُخَالِفًا لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمُعَارِضًا لِلسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَهُوَ بَاطِلٌ وَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ .
إِنَّ الْآيَةَ تُوضِّحُ أَنَّ الْحُبَّ الْحَقِيقِيَّ لِلَّهِ تَعَالَى يَتَجَلَّى فِي اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَلَيْسَ الْكَلَامُ الْمَجْرُودُ ، أَوْ الشُّعَارَاتُ الْمَفْرَغَةُ مِنْ مَعْنَاهَا . وَالطَّرِيقُ الْوَحِيدُ الْمَوْصِلُ إِلَى مُحَبَّةِ اللَّهِ هُوَ حُبُّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالْعَلَامَةُ الْوَحِيدَةُ لِحُبِّ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ وَالتَّزَامُ شَرِيعَتِهِ ، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِهِ

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٧٣) : ((فِي سَبَبِ نَزْوِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ عَلَى قُرَيْشٍ ، وَقَدْ نَصَبُوا أَصْنَامَهُمْ يَسْجُدُونَ لَهَا ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ خَالَفْتُمْ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّمَا نَعْبُدُ هَذِهِ حُبًّا لِلَّهِ لِيُقَرَّبَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَعَرَضَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَقْبَلُوهَا ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّالِثُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا : إِنَّا لَنُحِبُّ رَبَّنَا حُبًّا شَدِيدًا ، فَأَحَبُّ إِلَيْنَا أَنْ يَجْعَلَ لِحُبِّهِ عِلْمًا ، فَانْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَابْنُ جُرَيْجٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّ نَصَارَى بَجْرَانَ قَالُوا : إِنَّمَا نَقُولُ هَذَا فِي عِيسَى حُبًّا لِلَّهِ وَتَعْظِيمًا لَهُ ، فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَاخْتَارَهُ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ)) .

واجتناب نواهيه . ومحبة العبد لله تتجلى في طاعته في السر والعلانية ، والنزاهة وأوامره ، واجتناب نواهيه . ومحبة الله للعبد تتجلى في مغفرة ذنوبه ، والعفو عنه ، والإعانة عليه . ولا يكفي أن تحب الله ، وإن كان أمراً هاماً . لكن الأهم والأعظم أن يحبك الله تعالى ، وهنا العبرة . وطاعة الله هي عنوان محبته . والحب من الله عصمة وهداية وتوفيق ، ومن العباد طاعة . وما أجمل قول الشاعر :

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال البيضاوي في تفسيره (٢٧ / ١) : ((المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه ، بحيث يحملها على ما يقربها إليه . والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا الله ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره ، فهو من الله ، وبالله ، وإلى الله ، لم يكن حبه إلا الله ، وفي الله . وذلك يقتضي إرادة طاعته ، والرغبة فيما يقربه إليه ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة ، وجعلت مستلزماً لتباعد الرسول ﷺ في عبادته ، والحرص على مطاوعته)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (٤ / ٦٤) : ((قال ابن عرفة : المحبة عند العرب إرادة الشيء على قصد له ، وقال الأزهري : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] . أي : لا يغير لهم . وقال سهل بن عبد الله : علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة)) اهـ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله - تبارك وتعالى - إذا أحب عبداً ، نادى جبريل إن الله قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في

السماء إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَجِبُوهُ ، فَيُجِبْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعَ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ ((2)).

إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ، وَفَقَّهَ لَطَاعَتَهُ ، وَمَنَحَهُ التَّوْفِيقَ . وَهَذَا الْعَبْدُ قَدْ هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى الْخَيْرِ ، فَصَارَ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا إِنْسَانًا مَحْبُوبًا مِنَ النَّاسِ ، يَمِيلُونَ إِلَيْهِ ، وَيَطْمَحُونَ إِلَى مُخَالَطَتِهِ . وَفِي الْآخِرَةِ ، يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ بِلَا سَابِقِ عَذَابٍ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٨٣/١٦): ((قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ ، هِيَ إِرَادَتُهُ الْخَيْرَ لَهُ وَهَدَايَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ. وَحُبُّ جَبْرِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا اسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ وَثَنَائُهُمْ عَلَيْهِ وَدَعَاؤُهُمْ. وَالثَّانِي أَنَّ مَحَبَّتَهُمْ عَلَى ظَاهِرِهَا الْمَعْرُوفُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، وَاشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَائِهِ، وَسَبَبُ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى مَحْبُوبًا لَهُ. وَمَعْنَى يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، أَي: الْحُبُّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ فَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ وَتَرْضَى عَنْهُ)).

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣٢] (3).

قُلْ يَا مُحَمَّدُ : التَّزِمُوا بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُمَا ، وَهَذِهِ هِيَ عَلَامَةُ الْمَحَبَّةِ . فَإِنْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ ، وَأَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُغْضِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِهِ ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، وَلَا يَرْضَى فِعْلَهُمْ ، وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ . وَسَوْفَ يُعَاقِبُهُمْ ، وَيُعَذِّبُهُمْ ، وَيُخْزِيهِمْ . وَالآيَةُ تُشِيرُ بوضوح إِلَى أَنَّ التَّوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ كُفْرٌ ، وَأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ مَخْصُوصَةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ .

(٢) متفق عليه . البخاري (٢٧٢١ / ٦) برقم (٧٠٤٧) ، ومسلم (٤ / ٢٠٣٠) برقم (٢٦٣٧) .
(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٧٣ و٣٧٤): ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ أَبِي قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَجْعَلُ طَاعَتَهُ كَطَاعَةِ اللَّهِ، وَيَأْمُرُنَا أَنْ نُحِبَّهَ كَمَا أَحَبَّتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا الْيَهُودَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالُوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، وَنَحْنُ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، هَذَا قَوْلُ مُقَاتِلٍ. وَالثَّالِثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي نَصَارَى بَجْرَانٍ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ)).

والله تعالى قال : ﴿ وَالرَّسُولَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : " ومحمدًا " . وفي هذا دلالة على أَنَّ الطاعة الواجبة له ﷺ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، لَا مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِ . فالرسول ﷺ حامل الرسالة الإلهية ، والمُتَحَدِّثُ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ نَفْسِهِ ، وَلَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِهِ . وقال أبو السعود في تفسيره (٢ / ٢٥) : ((وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ عِنْوَانَ الرِّسَالَةِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِطَاعَةِ وَدَوَاعِيهَا)) اهـ .

والله تعالى قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : " فَإِنَّهُ " تعظيمًا لله . وقال القرطبي في تفسيره (٤ / ٦٤) : ((قَالَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " فَإِنَّهُ " ، لِأَنَّ الْعَرَبَ إِذَا عَظَّمَتِ الشَّيْءَ أَعَادَتْ ذِكْرَهُ)) اهـ . والله تعالى قال : ﴿ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : " لَا يُحِبُّهُمْ " ، لِلتَّعْمِيمِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٧٧) : ((﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ، وَإِنْ ادَّعَى وَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُحِبٌّ لِلَّهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ ، حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ ، وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ : الْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ ، بَلَّ الْمُرْسَلُونَ ، بَلَّ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ ، مَا وَسِعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعُهُ وَالدُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعُ شَرِيعَتِهِ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٦٥٥) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى)) . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ ، قَالَ : ((مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)) .

مَنْ التَزَمَ أَوْامِرَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيهِ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ رَفَضَ الدَّعْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، أَوْ امْتَنَعَ عَنْ طَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ النَّارَ . وَمَنْ تَرَكَ التَّسَبُّبَ إِلَى شَيْءٍ ، لَا يُوجَدُ بغيرِهِ ، فَقَدْ أَبَاهُ .

والإِبَاءُ أَشَدُّ الْامْتِنَاعِ . وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ١٢) : ((" كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى " بامتناعه عن قبول الدعوة ، أو بتركه الطاعة التي هي سبب لدخولها ، لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ مَا هُوَ سَبَبُ شَيْءٍ لَا يُوجَدُ بغيرِهِ فَقَدْ أَبَى ، أَيْ : امْتَنَعَ . والمراد أُمَّة الدعوة ، فالآبِي هُوَ الْكَافِرُ بامتناعه عن قبول الدعوة ، وَقِيلَ : أُمَّة الإِجَابَةِ ، فَالآبِي هُوَ الْعَاصِي مِنْهُمْ ، اسْتِثْنَاهُمْ تَغْلِيظًا وَزَجْرًا عَنْ الْمَعَاصِي ... " مَنْ أَطَاعَنِي " أَيْ : انْقَادَ وَأَذَعَنَ لِمَا جِئْتُ بِهِ ، " دَخَلَ الْجَنَّةَ " ، وَفَازَ بِنِعْمَتِهَا الْأَبَدِيَّةِ . بَيَّنَّ أَنَّ إِسْنَادَ الْامْتِنَاعِ عَنِ الدُّخُولِ إِلَيْهِمْ مَجَازٌ عَنِ الْامْتِنَاعِ لِسَبَبِهِ وَهُوَ عِصْيَانُهُ ، يَقُولُهُ : " وَمَنْ "

عصاني " بعدم التصديق أو بفعل المنهي، " فقد أبى " ، فله سوء المُنقلب بإبائه ، والموصوف بالإباء إن كان كافراً لا يدخل الجنة أصلاً ، أو مُسلمًا لم يدخلها مع السابقين الأولين)) اهـ .
وعن أبي رافع رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((لا أُلْفَيْنَ _ أي لا أجد وألقى _ أحدكم مُتَكِنًا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : ما أدرى ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)) (4) .

إنَّ السُّنة النبوية مفسّرة للقرآن ، فَمَنْ أَخَذَ بِالْقُرْآنِ دُونَ السُّنة ، فقد انحرف وهلك . ولم يعرف القرآن ، ولم يعرف السُّنة . ومن أسقط السُّنة فهو كافّر ، ولا ينفعه التمسك بالقرآن _ على حدّ زعمه _ ، لأنَّ القرآن أمر بطاعة الرسول ﷺ ، وطاعة الرسول هي اتباع سنّته .
وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

اللام لتأكيد القسم ، والله تعالى يقسم بذاته العلية ، فَوَرَبِّكَ يا محمد لا يكونون مُؤمنين حتى يتخذوك حَكَمًا بينهم تفصيل في النزاع والخلاف بينهم ، ويقبلوا بِحُكْمِكَ قَبُولًا تَامًا ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي صُدُورِهِمْ ضِيقًا مِنْ حُكْمِكَ ، ولا شَكًّا فِيهِ . وإنما يتقبلون حُكْمَكَ بصدق رُخْب ، ويخضعون لقضائك ظاهرًا وباطنًا ، دُونَ مُعَارَضَةٍ ولا مُنَازَعَةٍ . وحقيقة الإيمان هي الرضا والتسليم والانقياد الكامل والخضوع التام .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٦٩١) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ . يُقَسِّمُ تعالى بِنَفْسِهِ الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ

في جميع الأمور ، فما حَكَمَ به فهو الحق ، الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، أي : إذا حَكَمْتُكَ يُطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حَرَجًا مِمَّا حَكَمْتُ بِهِ ، وينقادون له في الظاهر والباطن ، فَيُسَلِّمُونَ لذلك تسليماً كُلِّيًّا ، مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ ، ولا مُدَافَعَةٍ ، ولا مُنَازَعَةٍ)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ)) (5) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ١٩٠) برقم (٣٦٨) ، وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن الشخص حتى يخضع بشكل كامل للشرعية المحمدية الإسلامية ، ويُذعن لأحكام الله ورسوله ﷺ ، بصدور رُحْب ، ذُون مُعَارَضَة ، ولا مُنَازَعَة . وما يَهْوَاهُ الشخص هو ما يُحِبُّهُ وتَمِيلُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ ، وينبغي أن يكون خاضعاً لِمَا جَاءَ بِهِ النبي ﷺ . والنبي ﷺ جاء بِوَحْيَيْنِ (القرآن والسنة) ، كِلَاهُمَا وَحْيٌ إلهيٌّ ، مَنْ أَسْقَطَهُمَا ، أو أَسْقَطَ أَحَدَهُمَا ، فهو كافر هالك . والقرآن والسنة يُوجَدَانِ مَعًا ، ولا يُمكن الفصل بينهما ، لأنَّ السنة هي الشارحة والمفسرة للقرآن الكريم . وَمَنْ تَرَكَ السنة وَزَعَمَ أَنَّهُ مُتَمَسِّكٌ بِالقرآن فهو كافر بالقرآن والسنة معًا . والقرآن والسنة كِلَاهُمَا مَحْفُوظٌ بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى . أَمَّا القرآن فقد تَكَفَّلَ اللَّهُ بِحِفْظِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ الأمر للناس ، فقالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . أَمَّا السنة فقد حَفِظَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وذلك بِأَن هِيَ لَهَا عُلَمَاءُ أَجَلَاءُ مُخْلِصِينَ قَضَوْا حَيَاتَهُمْ يَدْرُسُونَ الْأَسَانِيدَ وَالْمُتُونِ ، وَيُمَيِّزُونَ الصَّحِيحَ مِنَ الضَّعِيفِ ، وَيَكْشِفُونَ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُحَدِّثُونَ النَّاسَ مِنْهُ .

وعن عبد الله بن الزُّبَيْرِ _ رضي الله عنهما _ أنه حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ _ مَسَائِلَ الْمَاءِ _ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : سَرَّحَ الْمَاءَ يَمُرُّ ، فَأَبَى عَلَيْهِ ، فَاخْتَصَمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ : ((اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ)) . فغضب الأنصاريُّ فقال : أَن كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ ؟ ، فَتَلَوْنَ وَجْهَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : ((اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ اخْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ)) . فقال الزُّبَيْرُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٦) .

لقد أمر النبي ﷺ الزُّبَيْرَ أَنْ يَسْقِيَ ، ثُمَّ يُرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِهِ . لَكِنَّ الْأَنْصَارِيَّ قَدْ تَلَفَظَ بِكَلَامٍ بِالْغُلْبَةِ ، فَقَدْ طَعَنَ فِي حُكْمِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَاتَّهَمَهُ بِالْمُحَابَاةِ مَعَ أَقْرَبَائِهِ . إِذِ إِنَّ وَالِدَةَ الزُّبَيْرِ هِيَ السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ عَمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ تَلَوْنَ وَجْهَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبَبِ انْتِهَاكِ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَمْ يَكُنْ لِيَغْضَبَ لِنَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ، لِأَنَّ قَدَاسَةَ الشَّرِيعَةِ فَوْقَ مَكَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَهَذَا هُوَ

(٥) رواه النووي في الأربعين (١/ ١٠٧) . وقال : ((حديث حسن صحيح ، رويناه في كتاب الحجَّة بإسناد صحيح)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ٢٨٩) : ((أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ، ورجاله ثقات ، وقد صحَّحه النووي في آخر الأربعين)) .

(٦) متفق عليه . البخاري (٢ / ٨٣٢) برقم (٢٢٣١) ، ومسلم (٤ / ١٨٢٩) برقم (٢٣٥٧) .

قمة السُّمو الأخلاقي ، وتقديم الشريعة الإلهية على الشخصية النبوية . فأمر ﷺ الزبير أن يحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر (الحواجز التي تحبس الماء) ، أي حتى تبلغ تمام الشرب . وهذه هي العدالة النبوية في الحُكم بين الناس بغض النظر عن درجة القرابة .
وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ((وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم الله بها))^(٧).

هذا الكلام من الأنصاري جهلٌ وتهوُّرٌ ، وقد أخطأ في التعبير ، ولم يُرد أن يطعن في حكم النبي ﷺ . فكلُّ من يطعن في النبي ﷺ شخصياً ، أو يطعن في أحكامه وتعاليمه ، كافرٌ بالإجماع . وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس ، ويصبر على أذاهم ، ويُرشدهم إلى الخير . فهُم خارجون للتو من الجاهلية الصحراوية القاسية ، وكثيرٌ منهم بلا أدب ولا أخلاق .
والنبي ﷺ لم يظلم الأنصاري ، لأن أولوية السَّقي كانت للزبير - رضي الله عنه - بحكم موقع أرضه . فلا يجوز الاعتراض على الحُكم النبوي المعصوم ، ولا يؤمن أحدٌ حتى يُحكم الرسول ﷺ في النزاعات والخلافات ، ويخضع لحُكمه دون اعتراض ، فلا يمكن أن يتساوى الحُكم النبوي المؤبد بالوحي المعصوم مع الحُكم البشري القاصر الذي قد يسقط في الخطأ أو المجاملات أو الرثوة .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ١٠٧ و ١٠٨) : ((وَقَوْلُهُ : تَلَوْنَ وَجْهَهُ ، أَي تَغَيَّرَ مِنَ الْغَضَبِ لانتهاك حُرْمَاتِ التُّبُوَّةِ ، وَقُبِحَ كَلَامُ هَذَا الْإِنْسَانِ ... وَمَعْنَى " يَرْجِعُ إِلَى الْجَدْرِ " أَي يَصِيرُ إِلَيْهِ ، وَالْمُرَادُ بِالْجَدْرِ أَصْلُ الْحَائِطِ ، وَقِيلَ : أَصُولُ الشَّجَرِ . وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَقَدَّرَهُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ يَرْتَفِعَ الْمَاءُ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا حَتَّى يَتَبَلَّ كَعْبُ رَجُلِ الْإِنْسَانِ ، فَلصاحب الأرض الأولى التي تلي الماء أن يحبس الماء في الأرض إلى هذا الحد ، ثُمَّ يُرْسِلَهُ إِلَى جَارِهِ الَّذِي وَرَاءَهُ ، وَكَانَ الزَّبِيرُ صَاحِبَ الْأَرْضِ الْأُولَى ، فَأَدَّلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَقَالَ : " اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ " ، أَي : اسْقِ شَيْئًا يَسِيرًا دُونَ قَدَرِ حَقِّكَ ، ثُمَّ أَرْسِلْهُ إِلَى جَارِكَ إِدْلَالًا عَلَى الزَّبِيرِ ، وَلِعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ يَرْضَى بِذَلِكَ ، وَيُؤَثِّرُ الْإِحْسَانَ إِلَى جَارِهِ ، فَلَمَّا قَالَ الْجَارُ مَا قَالَ ، أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ جَمِيعَ حَقِّهِ .
قال العلماء : ولو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاري اليوم من إنسان من نسبته ﷺ إلى هَوَى كان كُفْرًا ، وجرت على قائله أحكام المرتدين ، فيجب قتله بشرطه . قالوا : وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس ، ويدفع بالتالي هي أحسن ، ويصبر على أذى

(٧) متفق عليه . البخاري (٣ / ١٣٠٦) برقم (٣٣٦٧) ، ومسلم (٤ / ١٨١٣) برقم (٢٣٢٧) .

المنافقين ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَيَقُولُ : " يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا " ، ويقول : " لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " ، وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] . قَالَ القاضي وحكى الداودي أَنَّ هذا الرَّجُلَ الَّذِي خَاصَمَ الزبيرَ كَانَ مُنَافِقًا ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ إِنَّهُ أَنْصَارِيٌّ ، لَا يُخَالِفُ هَذَا ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ ، لَا مِنْ الْأَنْصَارِ الْمُسْلِمِينَ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] .

الآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ ، وَتَخْفِيفٌ عَنْهُ ، وَتَثْبِيتٌ لَهُ عَلَى مَنْهَجِ الْحَقِّ . لَا تَحْزَنُ يَا مُحَمَّدُ وَلَا تَتَضَايِقُ وَلَا تَتَأَثَّرُ ، بِسَبَبِ مُسَارَعَةِ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الْكُفْرِ ، وَالْوُقُوعِ فِيهِ سَرِيعًا حَرْصًا عَلَيْهِ . إِنَّهُمْ كُلَّمَا وَجَدُوا فُرْصَةً أَظْهَرُوا الْكُفْرَ . وَهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمُ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُمْ يَقُودُونَهَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ ، وَلَنْ يَضُرُّوكَ ، وَلَنْ يَقْدِرُوا عَلَى إِذْثَاكِ .

وهؤلاء المنافقون إيمانهم ظاهريٌّ ، لَا يُجَاوِزُ أَفْوَاهَهُمْ . يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ آمَنَّا لِخِدَاعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالطَّعْنِ الْخَفِيِّ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْكِيدِ لَهُ . وَقُلُوبُهُمْ كَافِرَةٌ ، تَغْرَقُ فِي ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ وَالْانْحِرَافِ . وقال الطبري في تفسيره (٥٧٢ / ٤) : ((يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ تَسْرِعُ مَنْ تَسْرِعَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ — الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ تَصْدِيقَكَ وَهُمْ مُعْتَقِدُونَ تَكْذِيبَكَ — إِلَى الْكُفْرِ بِكَ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١٣٢٧ / ٣) : عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا — مُسَوِّدَ الْوَجْهِ — مَجْلُودًا ، فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ : ((هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالُوا : نَعَمْ ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عِلْمَانِهِمْ ، فَقَالَ : ((أُنْشِدْكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالَ : لَا ، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا ، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرْكِنَاهُ ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقْمَنَّا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نَقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ . فقال رسول الله ﷺ : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ)) ، فَأَمَرَ بِهِ ، فَرُجِمَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ . يقول : اثْنُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنْ أَمَرَكُمُ بِالْتَّحْمِيمِ وَالْجَلْدِ فَخُذُوهُ ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاخْذَرُوا .

هذا الحديث يكشف ألعيب اليهود ، وتحايلهم على النصوص الدينية ، وتحريفها ، من أجل تحقيق مصالح شخصية ذات أبعاد دينية وسياسية واجتماعية .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

احْكُم يا محمد بين اليهود بحُكْمِ اللَّهِ الذي أنزله إِلَيْكَ في القرآن ، ولا تَتَّبِعْ أهواءهم الفاسدة ، وآراءهم المنحرفة ، وأمزجتهم المتضاربة ، وعقائدهم الباطلة . واحذَرْ يا محمد أعداءك اليهود أن يَصُدُّوكَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ تعالى ، أو يُضِلُّوكَ ، أو يَخْدَعُوكَ ، فإنهم أهلُ خيانة وكذب وكُفر . والنبي ﷺ معصومٌ وأمينٌ على الأحكام الإلهية، يُبَلِّغُها كما هي، بلا زيادة ولا نقصان . وهذا التحذير الإلهي للنبي ﷺ لتعظيم شأن الأحكام الإلهية ، وبيان أهمية الحرص عليها ، وقطع أطماع اليهود ، وإغلاق الطريق أمامهم ، وإرشاد الأمة المحمّدية إلى ضرورة الاقتداء بالنبي ﷺ في الثبات على المنهج الإلهي ، وتبليغ الأحكام الإلهية كاملةً ، بلا زيادة ولا نقصان .

وقال أبو السعود في تفسيره (٣ / ٤٦) : ((﴿ واحذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (8) . أي: يَصْرِفُوكَ عَنْ بَعْضِهِ ، وَلَوْ كَانَ أَقَلَّ قَلِيلٍ ، بتصوير الباطل بصورة الحق . وإظهار الاسم الجليل ﴿ الله ﴾ لتأكيد الأمر بتهويل الخطب)) اهـ .

فإن أعرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْحُكْمِ بِالْقُرْآنِ ، وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَخْضَعُوا لِلْحَقِّ ، وَأَبَوْا إِلَّا اتِّبَاعَ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِبَعْضِ جَرَائِمِهِمْ وَأَثَامِهِمْ . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَجِّلَ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ . وَكَانَ عَذَابُهُمُ الدُّنْيَوِيُّ هُوَ الْجَلَاءُ .

(٨) قال الحافظ في الفتح (١٣ / ٣) : ((قال الراغب: أَصْلُ الْفَتْنِ إِدْخَالُ الذَّهَبِ فِي النَّارِ لِتَظْهَرِ جُودَتُهُ مِنْ رِءَايَتِهِ ... وقال أيضًا: الْفِتْنَةُ تَكُونُ مِنَ الْأَفْعَالِ الصَّادِرَةِ مِنَ اللَّهِ ، وَمِنَ الْعَبْدِ كَالْبَلِيَّةِ وَالْمَصِيبَةِ وَالْقَتْلِ وَالْعَذَابِ وَالْمَعْصِيَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ ، فَإِنْ كَانَتْ مِنَ اللَّهِ فَهِيَ عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْإِنْسَانِ بَعِيرٌ أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ مَذْمُومَةً ، فَقَدْ دَمَّ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِإِقْنَاعِ الْفِتْنَةِ كَقَوْلِهِ: ﴿ واحذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾ وقال غيره: أَصْلُ الْفِتْنَةِ الْإِخْتِبَارُ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ فِيمَا أَخْرَجَتْهُ الْمِحْنَةُ وَالْإِخْتِبَارُ إِلَى الْمَكْرُوهِ ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى كُلِّ مَكْرُوهٍ ، أَوْ آيِلٍ إِلَيْهِ ، كَالْكُفْرِ وَالْإِثْمِ وَالتَّحْرِيقِ وَالْفُضِيحَةِ وَالْفُجُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ)) اهـ .

وَالنَّفْيِ . وفي الآخرة ، يُعَاقِبُهُمُ اللَّهُ بِكُلِّ ذُنُوبِهِمْ ، وَيُعَذِّبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ . وَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ تَارِكُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ ، وَخَارَجُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَتَمْتَرُّونَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٣٢/١) : ((« فَإِنْ تَوَلَّوْا » عَنْ الْحُكْمِ الْمُنْزَلِ ، وَأَرَادُوا غَيْرَهُ « فَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيدَ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » يَعْنِي : ذَنْبَ التَّوَلَّى عَنْ حُكْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِذَلِكَ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ لَهُمْ ذُنُوبًا كَثِيرَةً ، وَهَذَا مَعَ عَظَمَةِ وَاحِدٍ مِنْهَا ، مَعْدُودٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى التَّعْظِيمِ كَمَا فِي التَّنْكِيرِ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠٠ / ٦) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَإِنْ تَوَلَّوْا » أَي : فَإِنْ أَبَوْا حُكْمَكَ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ . « فَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيدَ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » أَي : يُعَذِّبُهُمْ بِالْجَلَاءِ وَالْجَزَاةِ وَالْقَتْلِ ، وَكَذَلِكَ كَانَ . وَإِنَّمَا قَالَ : « بِبَعْضِ » لِأَنَّ الْمُجَازَاةَ بِالْبَعْضِ كَانَتْ كَافِيَةً فِي التَّدْمِيرِ عَلَيْهِمْ . « وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » يَعْنِي الْيَهُودَ)) .

أَمَّا سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ . فَقَدْ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣٧٤ / ٢) : ((إِنْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْهُمْ كَعْبُ بْنُ أُسَيْدٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صُورِيَا ، وَشَأْسُ بْنُ قَيْسٍ ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : اذْهَبُوا بِنَا إِلَى مُحَمَّدٍ لَعَلَّنَا نَقْتَبِهَ عَنْ دِينِهِ ، فَأَتَوْهُ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ وَأَشْرَافَهُمْ ، وَأَنَّا إِنْ تَبِعْنَاكَ اتَّبَعَكَ الْيَهُودُ ، وَإِنَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ خُصُومَةٍ ، فَتُحَاكِمُهُمْ إِلَيْكَ ، فَتَقْضِي لَنَا عَلَيْهِمْ ، وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِكَ ، فَأَبَى ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَذَكَرَ مُقَاتِلُ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قَالُوا لَهُ : هَلْ لَكَ أَنْ تَحْكُمَ لَنَا عَلَى أَصْحَابِنَا أَهْلِ قَرْيَظَةَ فِي أَمْرِ الدِّمَاءِ كَمَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ وَتُبَايَعُكَ ؟ ، فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ » أَي : يَصْرِفُوكَ « عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ » ، وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الرَّجْمُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : شَأْنُ الْقِصَاصِ وَالدِّمَاءِ ، قَالَهُ مُقَاتِلُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَإِنْ تَوَلَّوْا » فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا عَنْ حُكْمِكَ ، وَالثَّانِي عَنْ الْإِيمَانِ . « فَأَعْلَمَ » أَنَّ إِعْرَاضَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ

« بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ » . وَفِي ذِكْرِ الْبَعْضِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، وَإِنَّمَا يُصِيبُهُمْ بَعْضُ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْكُلُّ ، كَمَا يُذَكَّرُ لَفْظُ الْوَاحِدِ ، وَيُرَادُ بِهِ الْجَمَاعَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ » [الطلاق: ١] . وَالْمُرَادُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ . وَقَالَ الْحَسَنُ : أَرَادَ مَا عَجَّلَهُ مِنْ إِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَقَتْلَ بَنِي قَرْيَظَةَ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٧] .

أَعْرِضْ عن هؤلاء المشركين يا محمد . لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ إِلَى الْإِسْلَام لَهْدَاهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ هَذَا الشَّرْفَ ، لِذَلِكَ تَرَكَّهُمُ اللَّهُ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ . وَأَفْعَالُ اللَّهِ حَكِيمَةٌ ، وَمُنَزَّهَةٌ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعَبَثِ وَالصُّدْفَةِ . ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشِّرْكَ بِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٤٠) : ((﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ تَوْحِيدُهُمْ وَعَدَمُ إِشْرَاكِهِمْ ﴿ مَا أَشْرَكُوا ﴾ وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يُرِيدُ إِيْمَانَ الْكَافِرِينَ ، وَأَنَّ مُرَادَهُ وَاجِبُ الْوُقُوعِ)) اهـ .

وَقَدْ أَرْسَلَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدَ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ رَقِيبًا عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، تُحْصِيهَا ، وَتُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا . فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْعِبَادِ ، يُحْصِي أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ ، وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا . وَلَسْتُ مُوَكَّلًا يَا مُحَمَّدَ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ ، وَلَا تَقُومُ بِأُمُورِهِمْ ، إِنَّ مَهْمَتَكَ مَحْصُورَةٌ فِي التَّبْلِيغِ ، وَلَيْسَ مَطْلُوبًا مِنْكَ أَنْ تُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيْمَانِ . وَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِدْخَالِ الْإِيْمَانِ إِلَى الْقُلُوبِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُ: إِنَّمَا بُعِثْتُ مُبَلِّغًا يَا مُحَمَّدَ ، وَلَمْ تُبْعَثْ حَفِظًا عَلَيْهِمْ وَلَا وَكِيلًا . فَلَا تَهْتَمُ بِكُفْرِهِمْ ، وَلَا تَعْبَأُ بِشِرْكِهِمْ ، فَإِنَّ شِرْكَهُمْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَا يَقَعُ فِي مُلْكِ اللَّهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٥٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ نَصٌّ عَلَى أَنَّ الشِّرْكَ بِمَشِئَتِهِ ، وَهُوَ إِبْطَالُ لِمَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أَي : لَا يُمَكِّنُكَ حِفْظُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَي قِيَمَ بِأُمُورِهِمْ فِي مَصَالِحِهِمْ لِإِدِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ ، حَتَّى تَلْطَفَ لَهُمْ فِي تَنَاوُلِ مَا يَجِبُ لَهُمْ ، فَلَسْتَ بِحَفِيزٍ فِي ذَلِكَ ، وَلَا وَكِيلٌ فِي هَذَا ، إِنَّمَا أَنْتَ مُبَلِّغٌ . وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ١٠٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ حَكَاهَا الرَّجَاجُ : أَحَدُهَا : لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَالثَّانِي : لَوْ شَاءَ لَأَنْزَلَ آيَةً تُضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ ، وَالثَّالِثُ : لَوْ شَاءَ لَأَسْتَأْصَلَهُمْ ، فَقُطِعَ سَبَبُ شِرْكِهِمْ)) اهـ .

وَهُنَاكَ قِصَّةٌ أَوْرَدَهَا الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١٣ / ٤٥١) نُورِدَهَا لِتَحْقِيقِ الْفَائِدَةِ: ((يُقَالُ إِنَّ بَعْضَ أُمَّةِ السُّنَّةِ أَحْضَرَ لِلْمُنَظَرَةِ مَعَ بَعْضِ أُمَّةِ الْمَعْتَزِلَةِ ، فَلَمَّا جَلَسَ الْمَعْتَزِلِيُّ قَالَ : سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّاهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ ، فَقَالَ السُّنِّيُّ : سُبْحَانَ مَنْ لَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ ، فَقَالَ الْمَعْتَزِلِيُّ : أَيْشَاءُ رَبُّنَا

أَنْ يُعْصَى ، فقال السُّنِّي : أَفِيُعْصَى رَبُّنَا قَهْرًا ؟ ، فقال المعتزلي : أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَنِي الْهُدَى ، وَقَضَى عَلَيَّ بِالرَّدَى ، أَحَسَنَ إِلَيَّ أَوْ أَسَاءَ ؟ ، فقال السُّنِّي : إِنْ كَانَ مَنَعَكَ مَا هُوَ لَكَ فَقَدْ أَسَاءَ ، وَإِنْ كَانَ مَنَعَكَ مَا هُوَ لَهُ ، فَإِنَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَانْقَطِعْ)) اهـ .

إِنَّ قَوْلَ الْمُعْتَزَلِيِّ : ((سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّاهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ)) كَلِمَةٌ حَقٌّ أُريدَ بِهَا بَاطِلٌ . فَمِنْ عَقَائِدِ الْمُعْتَزَلَةِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ الشَّرَّ وَلَا يُرِيدُهُ ، وَلَمْ يَقْدِرْ الْمُعْصِي عَلَى الْعِبَادِ ، وَلَكِنَّهُمْ هُمْ يَخْلُقُونَ أَعْمَالَهُمْ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُرِيدُ اللَّهُ فِعْلَهُ وَلَمْ يَقْدِرْهُ ، وَهَذِهِ هِيَ فَلْسَفَتُهُمْ فِي الْقَدَرِ .

وَأَصْلُ شُبْهَتِهِمْ عَدَمَ تَفْرِيقِهِمْ بَيْنَ نَوْعِي الْإِرَادَةِ : أ _ الْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ : الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ ، فَلَا يَكُونُ فِي الْكَوْنِ إِلَّا مَا يَشَاءُهُ اللَّهُ وَيُرِيدُ وَقُوعَهُ ، سَوَاءً كَانَ يُجِبُّهُ أَمْ يَكْرَهُهُ . ب _ الْإِرَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ : وَهِيَ بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ ، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَشَرَعَهُ ، فَإِنَّهُ يَجِبُ فِعْلُهُ ، سَوَاءً أَطَاعَهُ الْعِبَادُ فِيهِ أَمْ عَصَوْهُ . وَطَاعَتُهُمْ أَوْ مَعْصِيَتُهُمْ لَا تَخْرُجُ عَنْ إِرَادَتِهِ الْكُونِيَّةِ الشَّامِلَةِ . فَإِذَا قَالَ الْمُعْتَزَلِيُّ : ((هَلْ يُرِيدُ اللَّهُ الْكُفْرَ ؟)) . فَالْجَوَابُ ذُو شَقَيْنِ : ١ _ إِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ يَشَاءُ الْكُفْرَ وَيَقْدِرُهُ . فَالْجَوَابُ : نَعَمْ ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَالْإِيمَانُ وَالْكَفْرُ خَاضِعَانِ لِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ . وَالْكَافِرُ كَثِيرُونَ ، وَلَا يَقَعُ فِي مُلْكِ اللَّهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتِمُّ وَفَقَ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْمَشِيئَةُ الرَّبَّانِيَّةُ . وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . ٢ _ إِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْكُفْرَ ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِاعْتِنَاقِهِ . فَالْجَوَابُ : لَا . فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزُّمَرُ : ٧] . وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَكَيْ يَعْتَنِقَ النَّاسُ الْإِسْلَامَ ، وَيَلْتَزِمُوا الْإِيمَانَ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِشَأْنٍ بِهِ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْأَعْرَافُ : ٢] .

لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَهْدَايَةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَهَذَا الْكِتَابُ حَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ ، وَصِدْقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ ، وَبَيِّنٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، فَلَا تَشْكُ يَا مُحَمَّدُ فِي أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا تَحَرَّجْ فِي إِبْلَاغِهِ ، وَالْإِنْذَارِ بِهِ ، وَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ ضَيْقٌ مِنْ تَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ ، خَوْفًا مِنْ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ ، أَوْ خَوْفًا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّهِ . فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَتْرُكَكَ ، وَلَنْ يَتَخَلَّى عَنْكَ ، فَهُوَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ . فَلَا تَتَضَايِقْ إِذَا كَفَرُوا بِكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ . وَاللَّهُ هُوَ الْهَادِي .

وتوجيه النَّهْيِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُبَالَغَةِ وَالتَّشْدِيدِ ، وَإِظْهَارًا لِعَظَمَةِ الْأَمْرِ . وَمَعَ أَنَّ الْخَطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، إِلَّا أَنَّ الْمَقْصُودَ أُمَّتُهُ . وَالْمَعْنَى : لَا يَشْكُ أَحَدٌ مِنْكُمْ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ وَحْيًا سَمَاوِيًّا . وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَجْعَلُ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُبَالِي بِالصَّعَابِ وَالْمَشَاقِّ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ ، وَهَكَذَا يُقَدِّمُ عَلَى الْإِنْذَارِ بِالْقُرْآنِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ ، لِإِيمَانِهِ بِأَنَّهُ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ الْحَقُّ .

وَيَعْدُ أَنْ نَفَى اللَّهُ الشَّكَّ عَنِ الْقُرْآنِ (الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ الْمَعْصُومُ) ، وَثَبَّتَ الْيَقِينَ فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَمْرَهُ أَنْ يُنْذِرَ بِالْقُرْآنِ ((لِأَنَّ انْتِفَاءَ الشَّكِّ فِي كَوْنِهِ مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، أَوْ انْتِفَاءُ الْخَوْفِ مِنْ قُوَّمِهِ ، يُقَوِّيه عَلَى الْإِنْذَارِ ، وَيُشَجِّعُهُ ، لِأَنَّ الْمُتَيَقِّنَ يُقَدِّمُ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَيُبَاشِرُ بِقُوَّةِ نَفْسٍ))^(٩) .

﴿ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . تَذَكُّرًا مُبَارَكَةً لِلْمُؤْمِنِينَ تُطَهِّرُ الْقُلُوبَ مِنَ الشَّكِّ ، وَتُثَبِّتُ الْإِيمَانَ فِيهَا ، وَمَوْعِظَةً لَهُمْ ، يَأْخُذُونَ الدُّرُوسَ وَالْعِبَرَ مِنْ أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَقَصَصِهِ . وَخُصَّ الْمُؤْمِنُونَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمْ وَحَدَّاهُمْ الْمُتَنَفِّعُونَ بِالْقُرْآنِ . أَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَخْصِيسِ الْإِنْذَارِ بِالْكَفَّارِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الْحَجَرُ : ٣] . اِتْرَكَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ يَغْرِقُوا فِي الْحَيَاةِ الْاسْتِهْلَاقِيَّةِ الدُّنْيَا ، يَأْكُلُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَشْهَى أَنْوَاعِ الطَّعَامِ ، وَيَتَمَتَّعُوا بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ ، وَيَخْدَعُهُمُ الْأَمَلُ (طُولُ الْأَعْمَارِ ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ ، وَكَثْرَةُ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) ، وَيُلْهِهِمُ عَنِ التَّوْبَةِ ، وَيَشْغَلُهُمُ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ ، حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ، فَيُدْرِكُونَ أَنَّ الدُّنْيَا كَانَتْ سَرَابًا ، وَأَنَّ حَيَاتَهُمْ كَانَتْ تِجَارَةً خَاسِرَةً . وَعِنْدَئِذٍ ، يَنْدَمُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ عِنْدَ الْمَفْسَّرِينَ .

وَالْآيَةُ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ . كَمَا أَنَّ الْآيَةَ تَنْهَى عَنِ الْإِنْتِهَاكِ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا .

دَعَا يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ يَأْخُذُوا حَظَّهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيَشْغَلُهُمُ الْأَمَلُ عَنْ أَخْذِ حَظِّهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَاتِ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حِينَ يُشَاهِدُونَ عَذَابَ النَّارِ رَأْيَ الْعَيْنِ نَتِيجَةَ عَمَلِهِمْ .

(٩) فتح القدير للشَّوْكَانِي (٢ / ٢٧٣) .

إنهم كالأنعام، يحرصون على الشهوات واللذات ، ولا يُدركون أهمية الإيمان ، لذلك يرفضون الحق، ويتمسكون بالباطل. فاتركهم يا محمد، ودَعَكَ مِنْهُمْ، فلا فائدة من دَعوتهم، ولا أمل فيهم

إذ إن دَعوتهم إلى الحق، تُشَوِّش أفكارهم، وتُغَصِّص حياتهم ، وتُفْسِد عليهم الشهوات واللذات والاستمتاع بها . لذلك ، يعتبرون الحق هو عُدُوَّهم الأول ، فيحاربونه بكل الوسائل .

وتقديم ﴿ يَأْكُلُوا ﴾ دليل على أَنَّ تَمَتُّعَهُمْ مُرَكَّز على الطعام والشراب ، مثل البهائم والدواب . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦١) : ((والغرض إقناط الرسول ﷺ من ارعوائهم ، وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان ، وإنَّ نُصَحَهُمْ يُعَدُّ اشتغالا بما لا طائل تحته . وفيه إلزام للحُجَّة ، وتحذير عن إثارة التَّنَعُّم ، وما يُؤدِّي إليه طُولُ الأمل)) اهـ . وقال ابن القيم في غُدَّة الصابرين (١ / ١٦٤) : ((وقال الله لِنَبِيِّهِ : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِيهِمُ الْأُمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . وفي هذا تعزية لما منعه أوليائه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها ، وتأديب لمن بُسَطَ له فيها ألا يطغى فيها ، ولا يُعْطِي نَفْسَهُ شهواتها ، ولا يتمتع بها ، ولا م سُبْحَانَهُ مُجَبِّبِهَا المفتخرين بها، المكاثرين بها ، الظانين أن الفضل والكرامة في سَعَتِهَا وبَسْطِهَا ، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٣٦٠) أنَّ أبا هريرة _ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : ((لا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ ، فِي حُبِّ الدُّنْيَا ، وَطُولِ الْأَمَلِ)) .

لا يَزَالُ قَلْبُ الشَّيْخِ الطَّاعِنِ فِي السَّنِّ قَوِيًّا فِي حُبِّ الدُّنْيَا ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا ، وَطُولِ الْعُمُرِ . وَسَمَّاهُ شَابًّا ، فِي إِشَارَةٍ إِلَى قُوَّةِ حُبِّهِ لِلدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا ، وَشِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى طُولِ عُمُرِهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٦) : ((وطُولُ الْأَمَلِ ذَاءُ غُضَالٍ ، وَمَرَضُ مُزْمِنٍ ، وَمَتَى تَمَكَّنَ مِنَ الْقَلْبِ فَسَدَ مِزَاجُهُ ، وَاشْتَدَّ عِلَاجُهُ ، وَلَمْ يُفَارِقْهُ دَاءٌ ، وَلَا نَجَعَ فِيهِ دَوَاءٌ ، بَلْ أَعْيَا الْأَطْبَاءُ وَبَيَّسَ مِنْ بُرْئِهِ الْحُكَمَاءُ وَالْعُلَمَاءُ . وَحَقِيقَةُ الْأَمَلِ : الْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا وَالْانْكِبَابُ عَلَيْهَا ، وَالْحُبُّ لَهَا ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْآخِرَةِ)) اهـ .

وفي الترغيب والترهيب للمنذري (٤ / ١٢١) : روى ابن أبي الدنيا والأصبهاني كلاهما من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال : قال رسول الله ﷺ : ((نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ ، وَيَهْلِكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٦) : ((وقال الحسن : ما أَطَالَ عَبْدٌ الْأَمَلَ ، إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَلَ . وَصَدَقَ _ رضي الله عنه _ ، فَالْأَمَلُ يُكْسِلُ عَنِ الْعَمَلِ ، وَيُورِثُ التَّرَاحِي وَالْتَوَانِي ، وَيُعَقِّبُ

التشاغل والتفاسد ، ويُخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان ، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطلب صاحبه برهان، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة ، ويحثُّ على المسابقة)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [التخل : ٣٧] .

إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء المشركين إلى الإيمان بالله وتوحيده ، وتبذل جهدك لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، فلست بقادرٍ على ذلك ، فالله لا يرشد من حكم عليه بالضلال، بل يتركه تائهاً ضائعاً في ضلاله وكفره، لأنه لا يستحق الهداية، ولا يستحق أن ينال شرف الإيمان. فلا تُتعب نفسك في أمره، وتبلغ الرسالة الإلهية لتقوم عليه الحجة ، وينقطع غدوره .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ . وما لهؤلاء المشركين من ناصرين ، يُنقذونهم من العذاب الإلهي ، أو يُعينونهم على الهداية ، فمن أضله الله ، لا يُقدر أحدٌ على هدايته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٤٦) : ((أَكَّدَ اللَّهُ أَنَّ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ لَا يَهْتَدِي ، فقال : ﴿ إِن تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ ، أي : إن تطلب هدايتهم بجهدك ، فإنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ . قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر : لا يَهْدَى (برفع الياء وفتح الدال) والمعنى : مَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : يَهْدِي (بفتح الياء وكسر الدال) ، وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي " يُضِلُّ " أَنَّهَا بِضَمِّ الْيَاءِ وَكُسْرِ الضَّادِ . وهذه القراءة تحتل معنيين ، ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : لا يَهْدِي مَنْ طَبَعَهُ ضَالًّا وَخَلَقَهُ شَقِيًّا . والثاني : لا يَهْدِي ، أي لا يَهْتَدِي مَنْ أَضَلَّهُ ، أي : مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ لَا يَهْتَدِي)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [التخل : ١٢٥] .

ادعُ يا محمد الناس إلى الشريعة الإلهية (الإسلام) بالبراهين القطعية والأدلة الحاسمة الموجودة في القرآن والسنة ﴿ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ ﴾ ، وهي الدُّعاء إلى الله بالترغيب والترهيب ، وذكر العبر الجميلة التي تؤثر في نفس السامع ، وتدخل إلى قلبه، وتُغيِّر سلوكه. والحكمة والموعظة الحسنة هما الركنان اللذان تقوم عليهما الدعوة الإسلامية .

وهناك أفراد لا يقبلون بهذين الركنين، ولا يخضعون للحق، ولا يُسلمون له. وهؤلاء يحتاجون إلى جدال ومناظرة ومقارعة الحجّة بالحجّة، فجادلهم يا محمد وخاصمهم بأسلوب جميل وهادئ ومؤيّد بالنصوص الدينية والحجج العقلية. وأعرض عن أذاهم، وواصل تبليغ الرسالة بكل نشاط وقوة. والهدف من الجدال بالأسلوب الحسن الطيب هو إظهار الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وكشف الباطل الموجود عند الخصم. ولا شك أنّ المُجادلة الحسنة توفّق القلوب من غفلتها، وتؤثّر في النفوس بشكل إيجابي، وتُنقي العقل من الشوائب.

والآية: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ردّ على الرافضين للمناظرة في الدين . وقال تعالى في تفسيره (٣٢٧ / ٢) : ((وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ هذه الآية نزلت بمكة . أَمَرَ _ عليه السلام _ أن يدعوا إلى دين الله وشرعه يتلطّف ، وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٤٢٦ / ١) : ((﴿ اذْعُ ﴾ مَن يُعِثُّ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إلى الإسلام ﴾ بالحكمة ﴾ بالمقالة المُحكّمة، وهو الدليل المُوضّح للحق المُزيج للشبهة والموعظة الحسنة ﴾ الخطابات المُقنعة والعبر النافعة ، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم . ﴿ وَجَادِلْهُمْ ﴾ وَجَادِلْ مُعَانِدِيهِمْ ﴾ بالتّي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المُجادلة ، من الرّفق واللين ، وإِشارِ الوجّه الأيسر ، والمقدّمات التي هي أشهر ، فإن ذلك أنفع في تسكين لُهِبِهِمْ وتبيين شُغْبِهِمْ)) اهـ .

وقال النّسفي في تفسيره (٢٧٦ / ٢) : ((﴿ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنّك تُنصّحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها ، أو بالقرآن ، أي: ادْعُهُم بِالكِتَابِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ حَسَنَةٌ ، والحكمة المعرفة بمراتب الافعال ، والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرّغبة والإنذار بالبشارة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٠٦ / ٤) : ((فَأَمَّا السَّبِيلُ، فَقَالَ مَقَاتِلُ: هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ. وَفِي الْمَرَادِ بِالْحِكْمَةِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهَا الْقُرْآنُ، وَالثَّانِي الْفَقْهُ، وَالثَّالِثُ النَّبُوءَةُ .. وَفِي الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ، وَالثَّانِي الْأَدَبُ الْجَمِيلُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ ﴾ فِي الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَالثَّانِي أَهْلُ الْكِتَابِ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ بِالتّي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ أَحَدُهَا جَادِلْهُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَالثَّانِي بِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَالثَّالِثُ جَادِلْهُمْ غَيْرَ قَظَ وَلَا غَلِيظَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٦] .

لقد منَّ الله على محمد ﷺ، وتَفَضَّلَ عليه، بأن ثَبَّتَ الوَحْيَ الإلهيَّ في قلبه الشريف . وهذه نعمة إلهية عظيمة يذكرها الله في الآية ، ليزداد محمد ﷺ خُشوعًا لله ، وطاعةً له ، وشُكْرًا على إحسانه .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَزَالَ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ . وكما أنَّ الله أنزل القرآن ، قادرٌ على إزالته حتى ينساه محمد ﷺ، وينساه الناسُ . وعندئذٍ ، لَن يَجِدَ محمد ﷺ ناصراً يُعيد إليه القرآن . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٦٧) : ((قال الرَّجَّاجُ : معناه لو شِئْنَا لَمَحْوُنَاهُ مِنَ الْقُلُوبِ وَمِنَ الْكُتُبِ ، حتى لا يُوجَدَ له أثر . اهـ . وَعَبَّرَ عَنِ الْقُرْآنِ بِالْمَوْصُولِ ﴾ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴾ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي : لا تَجِدُ مَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْنَا فِي رَدِّ شَيْءٍ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ ذَهَبْنَا بِهِ)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه _ قال : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ ، قالوا : وكيف يُرْفَعُ وقد أثبتته الله في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ؟ ، قال : يُسْرَى عليه ليلة ، فيذهب ما في قلوبكم وما في مصاحفكم ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (10) . إِنَّ الْعِلْمَ يَضْمَحَلُ تَدْرِيجًا ، ويختفي شيئًا فشيئًا ، حتى يَكُونَ رَفَعُ الْقُرْآنِ آخِرَ الْأَمْرِ . وهذا لا يَكُونُ إِلَّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، قبل يوم القيامة .

وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٧] . إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَمْحَوْ الْقُرْآنَ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ رَحْمَةً بِهِ ، وَتَفَضُّلاً عَلَيْهِ . لقد أثبت الله القرآن في قلبك يا محمد وقلوب المؤمنين . وهذه المِنَّةُ الإلهيةُ الثانية بعد المِنَّةِ الإلهيةِ الأولى المتمثلة في تنزيل القرآن . وقد اختار الله محمدًا ﷺ رسولاً ، وجعله أعظم رُسله ، وأنزل عليه أعظم كُتبه ، وهذا هو الفضلُ الإلهيُّ العظيم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٨٣) : ((﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ هذا استثناء ليس من الأول . والمعنى : لكنَّ اللَّهَ رَحِمَكَ ، فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين . وقال ابن الأنباري : المعنى لكنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَمْنَعُ مِنْ أَنْ تُسَلَبَ الْقُرْآنُ .

(١٠) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٥٤٩) برقم (٨٥٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وكان المشركون قد خاطبوا نساءهم من المسلمين في الرجوع إلى دين آبائهم ، فَهَدَّاهُمُ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ بِسَلْبِ النِّعَمَةِ ، فكان ظاهر الخطاب للرسول ، ومعنى التَّهْدُّدِ لِلْأُمَّةِ ((اه .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣٦٨) : ((وَالِاسْتِثْنَاءُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ إِنْ كَانَ مُتَّصِلًا ، فَمَعْنَاهُ : إِلَّا أَنْ يَرْحَمَكَ رَبُّكَ ، فَلَا نَذْهَبُ بِهِ . وَإِنْ كَانَ مُنْقَطِعًا ، فَمَعْنَاهُ : لَكِنْ لَا يَشَأْ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، أَوْ لَكِنَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرَكْتَهُ غَيْرَ مَذْهُوبٍ بِهِ . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ حَيْثُ جَعَلَكَ رَسُولًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، وَصَيَّرَكَ سَيِّدًا وَلَدَ آدَمَ ، وَأَعْطَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ)) اه .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ [الْكَهْفُ : ٢٨] (١١) .

وَاحْصِنِ نَفْسَكَ يَا مُحَمَّدٌ مَعَ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفَائِهِمْ ، الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ ، وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي الدُّعَاءِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ . يَتَّبِعُونَ بِدُعَائِهِمْ رِضَا اللَّهَ وَطَاعَتَهُ وَلَا يُرِيدُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا الزَّائِلِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى إِخْلَاصِهِمْ وَابْتِعَادِهِمْ عَنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ . وَلَا تَصْرِفْ بَصَرَكَ عَنْهُمْ إِلَى أَصْحَابِ الْغِنَى وَالشَّرَفِ ، تَبْتَغِي بِمَجَالِسَتِهِمُ الرَّفْعَةَ وَالْمَجْدَ وَالثَّرْوَةَ وَالشَّرَفَ وَالسِّيَادَةَ .

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ حَرِيصًا عَلَى إِسْلَامِ زَعَمَاءِ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافِهَا ، لِأَنَّ إِسْلَامَهُمْ يَعْنِي إِسْلَامَ أَقْوَامِهِمْ . فَالنَّاسُ تَبَعَ لَهُؤُلَاءِ الْقَادَةَ وَالزُّعَمَاءَ أَصْحَابِ الْغِنَى وَالشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ . وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يُرِيدُ جَمْعَ حُطَامِ الدُّنْيَا ، أَوْ تَحْقِيقَ مَكَاسِبِ شَخْصِيَّةٍ ، أَوْ إِقَامَةَ عِلَاقَاتٍ مُصْلِحِيَّةٍ مَعَ الْقَادَةِ وَالزُّعَمَاءِ لِبَسْطِ نَفُوذِهِ ، وَالحصول على الثروة والشرف . لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُخْلِصًا فِي دَعْوَةِ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ ، وَإِسْلَامِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ

(١١) [عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ فِي بَعْضِ أَيْيَاتِهِ : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ . خَرَجَ يَلْتَمِسُ ، فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ، مِنْهُمْ ثَائِرُ الرَّأْسِ ، وَخَافِ الْجُلْدِ ، وَذُو الثُّوبِ الْوَاحِدِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ ، فَقَالَ : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ)) . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ ، وَرَجَّاهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ] . جَمْعُ الزَّوَادِ لِلْهَيْثَمِيِّ (٧ / ٨٨) .

وقادتها الغارقين في الكفر والضلال ، والإقبال على فقراء المسلمين وضُعفائهم الذين يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَخَدَهُ .

ولا تُطِيع الكافرين الذين خَتَمَ اللَّهُ على قلوبهم ، فصارت مليئةً بالشك والضلال والكفر ، وخاليةً من الإيمان . إنهم غافلون عن ذِكْرِ اللَّهِ والإيمانِ بِهِ ، وتعظيمه ، ومتَّبِعُونَ لأهوائهم الباطلة وآرائهم الشخصية المنحرفة ، ويلهثون وراء الشهوات واللذات . وكان أمرهم ضياعًا ودمارًا وهلاكًا ، بسبب تركهم للإيمان ، وإصرارهم على الكفر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ١٣٢ و ١٣٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ ، سبب نزولها أَنَّ الْمُؤَلَّفَةَ قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ، عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَذَوُوهِم ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّكَ جَلَسْتَ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ ، وَنَحَيْتَ هَؤُلَاءِ عَنَّا ، يَغْنُوثُ سَلْمَانَ وَأَبَا ذَرٍّ وَفُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِمْ حِجَابُ الصَّوْفِ ، جَلَسْنَا إِلَيْكَ ، وَأَخَذْنَا عَنْكَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ... ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْتَمِسُهُمْ حَتَّى إِذَا أَصَابَهُمْ فِي مُؤَخَّرِ الْمَسْجِدِ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ، قَالَ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُمِئْتَنِي حَتَّى أَمَرَنِي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَ رِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، مَعَكُمْ الْمُحْيَا ، وَمَعَكُمْ الْمَمَات " . هَذَا قَوْلُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أَي : أَحْبِسْهَا مَعَهُمْ عَلَى آدَاءِ الصَّلَاةِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أَي : لَا تَصْرِفْ بَصَرَكَ إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الْغِنَى وَالشَّرَفِ . وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرِيصًا عَلَى إِيْمَانِ الرُّؤَسَاءِ لِيُؤْمِنَ أَتْبَاعُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لَزِينَةِ الدُّنْيَا قَطُّ ، فَأَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ إِقْبَالُهُ عَلَى فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ سَبَبُ نَزُولِهَا أَنَّ أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ الْجُمَحِيَّ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى طَرْدِ الْفُقَرَاءِ عَنْهُ ، وَتَقْرِيبِ صَنَادِيدِ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : هُوَ عُيَيْنَةُ وَأَشْبَاهُهُ . وَمَعْنَى : ﴿ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ ﴾ جَعَلْنَاهُ غَافِلًا عَنْ ذِكْرِنَا عَنْ التَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ ، ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فِي الشَّرْكِ . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ أَفْرَطَ فِي قَوْلِهِ ، لِأَنَّهُ قَالَ إِنَّهُمْ زُؤُوسُ مُضَرٍّ ، وَإِنْ نُسِلِمَ يُسَلِّمُ النَّاسُ بَعْدَنَا ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : ضَيَاعًا ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : سَرَفًا وَتَضْيِيعًا . وَالثَّلَاثُ : نَدَمًا ، حَكَاهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ . وَالرَّابِعُ كَانَ أَمْرُهُ التَّفْرِيطُ ، وَالتَّفْرِيطُ تَقْدِيمُ الْعِجْزِ ، قَالَهُ الزُّجَاجُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ٢] (12).

لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُذَمَّرَ حَيَاتِهِ ، وَيَقْوَدَهُ إِلَى التَّعَبِ وَالشَّقَاءِ وَالْهَلَاكِ . فَالْقُرْآنُ مَصْدَرُ الرَّحْمَةِ ، وَأَسَاسُ السَّعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى اجْتِهَادِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْعِبَادَةِ ، وَشِدَّةِ صَبْرِهِ ، وَقُوَّةِ احْتِمَالِهِ ، فَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ سَبَبُ تَعَبِ مُحَمَّدٍ وَشَقَائِهِ . وَقَدْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى . فَالْقُرْآنُ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِيُسَعِّدَ ، وَيَحْصُلَ هُوَ وَأُمَّتُهُ عَلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ . وَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : ((كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَآوُحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ ، يَقُومُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ ، حَتَّى نَزَلَ : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾)) (13).

لَقَدْ رَفَعَ الْقُرْآنُ قَدْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَجَعَلَهُ قَائِدًا لِلْبَشَرِيَّةِ ، وَجَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ سَادَةً النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالْقُرْآنُ هُوَ مَنَبِعُ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ ، وَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) (14).

هَذَا يُشِيرُ إِلَى فَضِيلَةِ الْعِلْمِ ، وَأَهْمِيَّةِ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ ، وَضُرُورَةِ طَلَبِ الْعِلْمِ (مَنَبِعُ التَّقْوَى) . وَقَالَ الْبِيضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٩ / ١) : ((وَالْمَعْنَى : مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَتَّعِبَ بِقِرْطِ تَأْسُفِكَ عَلَى كُفْرِ قُرَيْشٍ إِذْ مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُبَلِّغَ ، أَوْ بِكَثْرَةِ الرِّيَاضَةِ وَكَثْرَةِ التَّهَجُّدِ وَالْقِيَامِ عَلَى سَاقٍ وَالشَّقَاءِ شَائِعٍ بِمَعْنَى التَّعَبِ... وَقِيلَ : رَدَّ وَتَكْذِيبَ لِلْكَفَرَةِ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَثْرَةَ عِبَادَتِهِ قَالُوا : إِنَّكَ لَتَشْقَى بِتَرْكِ دِينِنَا ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيْكَ لِتَشْقَى بِهِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه : ١١٤] . إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَلِّمُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ كَيْفَ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ . وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ أَثْنَاءَ قِرَاءَةِ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ ، وَخَوْفًا مِنْ نِسْيَانِهِ ، فَنَهَاهُ اللَّهُ

(١٢) فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٢٦٨ وَ ٢٦٩) ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا : ((أَحَدُهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرَآوُحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ ، يَقُومُ عَلَى رِجْلٍ ، حَتَّى نَزَلَ هَذِهِ الْآيَةُ . قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَالثَّانِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ صَلَّى هُوَ وَأَصْحَابُهُ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلَّا لِيَشْقَى ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ الضَّحَّاكُ . وَالثَّالِثُ أَنَّ أَبَا جَهْلَ ، وَالتَّضَرَّ بْنَ الْحَارِثِ ، وَالْمُطْعَمَ بْنَ عَدِيٍّ ، قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّكَ لَتَشْقَى بِتَرْكِ دِينِنَا ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ)) .

(١٣) رَوَاهُ الْبَزَّازُ فِي مَسْنَدِهِ (٣ / ١٣٦) . وَحَسَنَةُ السُّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٥ / ٥٤٩) .

(١٤) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . الْبُخَارِيُّ (١ / ٣٩) بِرَقْمِ (٧١) ، وَمُسْلِمٌ (٢ / ٧١٨) بِرَقْمِ (١٠٣٧) .

عن الاستعجال ، وأَعْلَمَهُ بضرورة الإنصات حتى يَنْتَهِيَ جبريلُ — عليه السلام — من القراءة . فإذا فَرَّغَ جبريلُ — عليه السلام — من قراءة القرآن على النبي ﷺ ، فعندئذٍ يقرؤه النبي ﷺ ، وهكذا يَرُودُ التعارض والمقاطعة ، ويترسخ فهُمُ القرآن وحِفْظُهُ في قلب النبي ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٣٢٥ و ٣٢٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ فِي سَبَبِ نَزْلِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ بِالسُّورَةِ الْآيِ فَيَتْلُوها عَلَيْهِ ، فَلَا يَفْرُغُ جَبْرِيلُ مِنْ آخِرِهَا حَتَّى يَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَوَّلِهَا مَخَافَةَ أَنْ يَنْسَاهَا ، فَتَنَزَّلَ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ رَجُلًا لَطَمَ امْرَأَتَهُ فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَطْلُبُ الْقِصَاصَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا الْقِصَاصَ ، فَتَنَزَّلَ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣٤] ، قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ . وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : لَا تَعْجَلْ بِتِلَاوَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ جَبْرِيلُ مِنْ تِلَاوَتِهِ تَخَافُ نِسْيَانَهُ ، هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ . وَالثَّانِي : لَا تُقْرِئْ أَصْحَابَكَ حَتَّى تُبَيِّنَ لَكَ مُعَايِنَتَهُ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ : لَا تَسْأَلْ إِنْزَالَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الْوَحْيُ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] (15) .

لَا تَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ الْمُتَرَفِّينَ الَّذِي يَتَمَتَّعُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَزِينَتِهَا الْوَهْمِيَّةِ ، اسْتَحْسَانًا لِمَا هُمْ فِيهِ ، وَتَمَنِّيًّا أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُهُ . فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ ، وَزِينَةٌ فَانِيَّةٌ ، وَنِعْمَةٌ مُوقَّتَةٌ ، لِنَخْتَبِرَهُمْ بِهَذَا النِّعَمِ وَنَبْتَلِيَهُمْ بِهِ ، حَتَّى يَسْتَحِقُّوا الْعَذَابَ بِكُفْرِهِمْ .

(١٥) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٣٣٥) : ((سَبَبُ نَزْلِهَا مَا رَوَى أَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : نَزَلَ ضَيْفٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَانِي فَأَرْسَلَنِي إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يَبِيعُ طَعَامًا ، فَقَالَ : " قُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : بَعْثِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّقِيقِ ، أَوْ أَسْلِفِي إِلَى هَلَالِ رَجَبٍ " ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ . فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : وَاللَّهِ لَا أُبِيعُهُ وَلَا أُسَلِّفُهُ إِلَّا بِرَهْنٍ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : " وَاللَّهِ لَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَفَضَيْتُهُ ، وَإِنِّي لِأَمِينٌ فِي السَّمَاءِ ، أَمِينٌ فِي الْأَرْضِ . أَذْهَبَ بِدِرْعِي الْحَدِيدِ إِلَيْهِ " . فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَعْزِيَةً لَهُ عَنِ الدُّنْيَا . قَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ : مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعِزِّ اللَّهِ ، تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ عَلَى الدُّنْيَا)) .

وقال النسفي في تفسيره (٣ / ٧٢) : ((زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ زينتها وبهجتها . وانتصب على الذم)) اهـ .

وقال التعالي في تفسيره (٣ / ٤٤) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ شَبَّهَ سُبْحَانَهُ نَعَمَ هؤلاء الكفار بالزَّهْرِ ، وهو ما اصْفَرَّ مِنَ التَّوَر . وقيل : الزَّهْرُ التَّوَرُ جُمْلَةً ، لِأَنَّ الزَّهْرَ لَهُ مَنْظَرٌ ، ثُمَّ يَضْمَحِلُّ عَنْ قُرْبٍ ، فَكَذَلِكَ مَا هَؤُلَاءِ)) اهـ .

إِنَّ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَرَغْدِ الْعَيْشِ فِتْنَةٌ لَهُمْ ، فَيَزِدَادُونَ كُفْرًا وَضَلَالًا وَطُغْيَانًا ، وَيُسِيرُونَ إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ بِأَرْجُلِهِمْ . وَالنَّعِيمُ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا الزَّائِلَةِ ، فَهُوَ نَعِيمٌ أَبَدِيٌّ دَائِمٌ بَلَا انْقِطَاعٍ ، لَا يَفْنَى وَلَا يَزُولُ . وَالْمُخَاطَبُ فِي الْآيَةِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أُمَّتَهُ ، لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَكَانَ تَرْكِيزُهُ عَلَى رِضَا اللَّهِ وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ الْأَبَدِيِّ (الْجَنَّةِ) .

وينبغي على المؤمن ألا ينظر إلى زينة الدنيا ونعيم أهلها ، لأن ذلك يُحَرِّكُ فِيهِ الرِّغْبَةَ إِلَى مُنَافَسَتِهِمْ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ . وَإِذَا دَخَلَ فِي مُنَافَسَةٍ مَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْحِطَامِ ، سَيَخْرُجُ خَاسِرًا لَا مَحَالَةَ . وَتَكُونُ خَسَارَتُهُ هَائِلَةً ، لِأَنَّهُ تَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَعًا . وَصَدَقَ الشَّاعِرُ :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقِ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالِ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَنَاءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ

وفي إحياء علوم الدِّين (٣ / ٢٠٨) : ((قَالَ لِقَمَانُ لَابَنِهِ : يَا بُنَيَّ بَعْدَ دُنْيَاكَ بَآخِرَتُكَ تَرْبَحُهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبَعُ آخِرَتُكَ بِدُنْيَاكَ تَخْسِرُهُمَا جَمِيعًا ، وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ الشَّخِيرِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى خَفْضِ عَيْشِ الْمُلُوكِ وَلِينِ رِيَاشِهِمْ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى سُرْعَةِ ظَعْنِهِمْ وَسُوءِ مُنْقَلَبِهِمْ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءَ : جِزَاءَ لِلْمُؤْمِنِ ، وَجِزَاءَ لِلْمُنَافِقِ ، وَجِزَاءَ لِلْكَافِرِ . فَالْمُؤْمِنُ يَتَزَوَّدُ ، وَالْمُنَافِقُ يَتَزَيَّنُ ، وَالْكَافِرُ يَتَمَتَّعُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الدُّنْيَا جِيفَةٌ ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَلْيَصْبِرْ عَلَى مُعَاشَرَةِ الْكَلَابِ . وَفِي ذَلِكَ قِيلَ : يَا خَاطِبُ الدُّنْيَا إِلَى نَفْسِهَا ... تَنَحَّ عَنْ خِطْبَتِهَا تَسْلَمْ ... إِنَّ النَّاسَ تَخْطُبُ غَدَارَةً ... قَرِيبَةُ الْعُرْسِ مِنَ الْمَأْتَمِ . وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : مَنْ هَوَانَ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُعَصَى إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا . وَفِي ذَلِكَ قِيلَ : إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكْشَفَتْ ... لَهُ عَنْ عَدُوٍّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ)) اهـ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٢٣١) : ((لِنَفْسَتِهِمْ فِيهِ ﴾ أَي لِنَبْتَلِيَتِهِمْ . وَقِيلَ : لِنَجْعَلْ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ وَضَلَالًا . وَمَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَجْعَلْ يَا مُحَمَّدُ لَزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَنًا ، فَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لَهَا . ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ ﴾ أَبْلَغُ مِنْ " لَا تَنْظُرَنَّ " لِأَنَّ الَّذِي يَمُدُّ

بَصَرَهُ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ حِرْصُ مُقْتَرِنٍ ، وَالَّذِي يَنْظُرُ قَدْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مَعَهُ ... ﴿ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَبْقَى ﴾ أي: ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أُولَى ، لِأَنَّهُ يَبْقَى ، وَالدُّنْيَا تَفْنَى . وَقِيلَ : يَعْنِي بِهَذَا الرِّزْقُ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْبِلَادِ وَالْغَنَائِمِ)) اهـ .

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٢ / ٢٩٨) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي غُرْفَةٍ عَلَى حَصِيرٍ ، قَدْ أَثَّرَ الْحَصِيرُ بِظَهْرِهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَسَرَى يَشْرَبُونَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَنْتَ هَكَذَا . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((إِنَّهُمْ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ الدُّنْيَا)) . إِنَّ اللَّهَ يَمُقَّتُ الْكَافِرِينَ ، لَكِنَّهُ لَا يَظْلِمُهُمْ . أَعْطَاهُم الدُّنْيَا كَيْ يَتِمَّتَعُوا فِيهَا ، وَيَعْرِقُوا فِي الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ ، وَيَلْتَهُوا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ . وَذَلِكَ لِكَيْ لَا يَكُونَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْآخِرَةِ . إِنَّهُمْ يَتِمَتَّعُونَ بِالدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، وَيَنْتَظِرُهُمُ الْعَذَابُ الْأَبَدِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٢٣٠) : ((فَكَانَ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، إِذَا حُصِّلَتْ لَهُ يُنْفِقُهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَادِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا لَعْدَ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ فَإِنْ تَوَلَّوْا أَهْذَى الْأَهْذَى الَّتِي يَدُّرُ الْهَيْكَلُ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٣٦] (١٦) .

إِذَا رَأَى كَفَّارٌ قُرَيْشٍ _ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَمثالَهُ _ النَّبِيَّ ﷺ ، فَإِنَّهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ . يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : أَهَذَا الَّذِي يَعِيبُ آلِهَتَكُمْ ، وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ ؟ . وَالْإِسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ يَحْمِلُ مَعْنَى التَّعَجُّبِ وَالتَّعَجُّبِ . وَهُمْ كَافِرُونَ بِاللَّهِ ، وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . لَقَدْ تَعَجَّبُوا مِنْ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ (أَصْنَامِهِمْ) بِسُوءٍ ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، فِي حِينٍ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِخَالِقِهِمُ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ . أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ . وَبَيَّدهُ مَصِيرُهُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ .

(١٦) قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَشْهُورِ (٥ / ٦٣٠) : ((أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي سَفْيَانَ وَأَبِي جَهْلٍ وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو جَهْلٍ ضَجْحَكَ ، وَقَالَ لِأَبِي سَفْيَانَ : هَذَا نَبِيُّ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَغَضِبَ أَبُو سَفْيَانَ ، فَقَالَ : مَا تُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ نَبِيٌّ ؟ ! ، فَسَمِعَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَرَجَعَ إِلَى أَبِي جَهْلٍ ، فَوَقَّعَ بِهِ وَخَوَّفَهُ ، وَقَالَ : " مَا أَرَاكَ مُنْتَهِيًا حَتَّى يُصِيبَكَ مَا أَصَابَ عَمَّكَ _ يَعْنِي الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ - وَقَالَ لِأَبِي سَفْيَانَ : " أَمَا إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ مَا قُلْتَ إِلَّا حِمِيَّةً " . فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ)) .

والمعنى : إِنَّ المشركين يَتَعَجَّبُونَ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَأَلْهَتَهُمْ بِسُوءٍ ، فِي حِينٍ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللَّهَ بِسُوءٍ ، وَذَلِكَ بِالشَّرْكِ بِهِ ، وَإِنْكَارِ تَوْحِيدِهِ ، وَإِضَافَةِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ إِلَيْهِ . إِذَنْ ، فَالْمُشْرِكُونَ هُمْ أَحَقُّ بِالْعَيْبِ لَهُمْ ، وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ . فَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْحَقِّ . وَتَكَرُّرُ الضَّمِيرِ فِي الْآيَةِ : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّخْصِيسِ . وَ ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ تَأْكِيدٌ لِكُفْرِهِمْ ، وَمُبَالَغَةٌ فِي وَصْفِهِمْ بِالْكَفْرِ . إِنَّهُمْ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى أَسْوَأِ مَرَاكِلِ الْكَفْرِ . لَقَدْ قَالُوا : مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ ، فَكَفَرُوا بِالرَّحْمَنِ . وَفِي الدَّرِ الْمُنْتَوِرِ (٢٦٨ / ٦) : ((أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ، قَالَ : قَالُوا : مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ)) اهـ . وَهُمْ يَقْصِدُونَ مُسِيلَةَ الْكَذَابِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٢٥٣) : ((كَانُوا يَعْبُدُونَ مَنْ جَعَلَ إِلَهِيَّةَ أَصْنَامِهِمْ ، وَهُمْ جَاحِدُونَ لِإِلَهِيَّةِ الرَّحْمَنِ ، وَهَذَا غَايَةُ الْجَهْلِ)) اهـ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٤٢] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ : مَنْ يَحْفَظُكُمْ وَيَحْرُسُكُمْ بِاللَّيْلِ إِذَا نِمْتُمْ وَبِالنَّهَارِ إِذَا قُمْتُمْ وَتَصَرَّفْتُمْ فِي أُمُورِكُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ ؟ . وَالْمَعْنَى : مَنْ يَحْفَظُكُمْ مِنَ الْعَقُوبَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّونَهَا فِي أَوْقَاتِكُمْ ؟ . مَنْ يَحْمِيكُمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْزَالَهُ بِكُمْ ؟ . وَالسُّؤَالُ لِلتَّفَرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ كَيْ يَتَذَكَّرُوا وَلَا يَغْتَرُّوا بِالْإِمْهَالِ وَالتَّعَمُّدِ الْإِلَهِيِّ . وَمَا دَامُوا يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ ، وَيُقَرُّونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ . إِذَنْ ، فَهُوَ الْقَادِرُ أَنْ يُنْزِلَ الْعَذَابَ بِهِمْ ، وَيُعَاقِبَهُمْ أَشَدَّ الْعَقُوبَةِ .

بَلْ هُمْ عَنْ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ لَاهُونَ غَافِلُونَ . لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ ، جَهْلًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَسَفَهًا . وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهِمْ ، فَكَيْفَ يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ وَذِكْرُهُ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِمْ ؟ . وَتَقْدِيمُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ ، لِأَنَّ الْمَصَائِبَ فِي اللَّيْلِ أَشَدُّ خُطُورَةً ، وَأَعْظَمُ تَأْثِيرًا . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٩٥) : ((وَفِي لَفْظِ ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ لَا كَالِي) حَارَسَ وَحَافِظَ (غَيْرَ رَحْمَتِهِ الْعَامَةِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٣٥٣) : ((قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْعَذَابِ : مَنْ يَحْفَظُكُمْ مِنْ بَأْسِ الرَّحْمَنِ إِنْ أَرَادَ أَنْزَالَهُ بِكُمْ ؟ . وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ ، أَيْ : لَا أَحَدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ .

﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ ، أي: عن كلامه ومواعظه ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ ، لا يفكرون ، ولا يعتبرون)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٣] .

استفهام إنكار وتوبيخ. أَلَهُمْ آلِهَةٌ تحفظهم وتحرسهم وتحميهم من العذاب غَيْرُنَا ؟ . والآلهة الباطلة المعبودة مِنْ دُونِ اللَّهِ تعالى ، لا تستطيع حماية نفسها ، فكيف تحمي المؤمنين بها ؟ . لا تستطيع نصر نفسها ، فكيف تنصر عابديها ؟ . وهذه الآلهة الباطلة لا تستطيع أن تُجِيرَ نَفْسَهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، لأنها في غاية الضَّعْفِ والعَجْزِ والمهانة . وقال البيضاوي في تفسيره (٩٥ / ١) : ((فَإِنَّ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ نَفْسِهِ ، وَلَا يَصْحَبُهُ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ يَنْصُرُ غَيْرَهُ ؟)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٥٣ / ٥) : ((﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ فيه تقديم وتأخير . وتقديره : أم لهم آلهة مِنْ دُونِنَا تمنعهم . وهَاهُنَا تَمَّ الكلام ، ثُمَّ وَصَفَ آلِهَتَهُمْ بالضعف ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، والمعنى : مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِ نَفْسِهِ عَمَّا يُرَادُ بِهِ ، فَكَيْفَ يَنْصُرُ غَيْرَهُ ؟ . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ ﴾ . في الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ قَوْلَانِ : أحدهما أنهم الكفار

وهو قول ابن عباس ، والثاني أنهم الأصنام ، قاله قتادة . وفي معنى ﴿ يُصْحَبُونَ ﴾ أربعة أقوال : أحدها : يُجَارُونَ ، رواه العوفي عن ابن عباس . قال ابن قُتَيْبَةَ : والمعنى : لَا يُجِيرُهُمْ مِنْ أَحَدٍ ، لأنَّ الْمُجِيرَ صاحب لجاره ، والثاني : يُمْنَعُونَ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، والثالث : يُنْصَرُونَ ، قاله مجاهد ، والرابع : لَا يُصْحَبُونَ بخير ، قاله قتادة)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٤] .

لقد أنعم الله على هَؤُلَاءِ المشركين (أهل مكة) وآبائهم ، وأعطاهم الأموال والأولادَ ، فعاشوا في رفاة ونعيم ، فاغترؤوا بهذه النِّعمِ الإلهية الكثيرة ، وغرقوا في خُطامِ الدُّنيا الزائل ، دُونَ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ .

وقد امتدَّ بهم الزمانُ ، وطالت أعمارهم في الراحة ورغد العيش والنِّعمِ الكثيرة ، فقست قلوبهم ، واعتقدوا وأهمين أنهم على الحق ، وأنَّ النِّعمَ باقية لا تَزُولُ ، وذلك بسبب الأمن والأمان واغترارهم بالإمهال وعدم وجود العذاب . وَكُلُّ هَذَا أَدَّى إِلَى غُرُورِهِمْ واغترارهم ووقاحتهم ،

وإعراضهم عن آياتِ الله تعالى . لقد سَقَطُوا في الأمل الكاذب ، ووقعوا في الوهم القاتل . وغرقتهم في النَّعَم ، مَنْعَهُم مِنَ الإِيْمَانِ باللهِ الْمُنْعِمِ ، فقد انشغلوا بالنَّعَمِ عن آياتِ اللهِ وَحُجَجِهِ ومواعظه .
أفلا يَنْظُرُونَ فَيَرَوْنَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَفْتَحُ بِلَادَ الشَّرْكِ بِلَدًا بِلَدًا ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَنْتَصِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ ، وَيُسَيِّطُونَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَتَزْدَادُ رُقْعَةُ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيَتَقَلَّصُ الْكُفْرُ ، وَيَخْسِرُ الْكَافِرُونَ أَرْضِيهِمْ وَمَمْلَكَاتِهِمْ . ينبغي أن يعتبروا بهذا الأمر ، ويأخذوا مِنْهُ عِبْرَةً وموعظةً .
وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٢٤٢) : ((وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظُهور الإسلام على الكفر ، والمعنى : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأُمم المُكذِّبة والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين)) اهـ .

﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ مَعَ هَذَا الْوَضْعِ أَمْ الْمَغْلُوبُونَ؟. إنهم المغلوبون المهزومون الخاسرون في الدنيا والآخرة . أَمَّا الْغَالِبُونَ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ .

وقال البياضوي في تفسيره (١ / ٩٥) : ((﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ إضراب عما تَوَهَّمُوا بيان ما هو الداعي إلى حفظهم ، وهو الاستدراج والتَّمتُّع بما قُدِّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَعْمَارِ ، أو عن الدلالة على بطلانه بيان ما أُوْهِمَهُمْ ذَلِكَ ، وهو أنه تعالى مَتَّعَهُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ ، فَحَسِبُوا أَنَّ لَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ ، وَأَنَّهُ بِسَبَبِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمَلُ كَاذِبٍ فَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أَرْضَ الْكُفْرَةِ . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بتسليط المسلمين عليها ، وهو تصوير لِمَا يُجْرِيهِ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .
﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ رسول الله والمؤمنين)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ: إِنَّمَا أُحَذِّرُكُمْ وَأُخَوِّفُكُمْ بِالْقُرْآنِ (الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ) الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيَّ، وَلَا آتِي بِشَيْءٍ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي. وَلَكِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الْمُشْرِكُونَ _ لِكُفْرِكُمْ وَضَلَالِكُمْ وَجَهْلِكُمْ _ كَالصُّمِّ، لَا تَسْمَعُونَ الْمَوَاعِظَ ، وَلَا تَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا . إِنَّهُمْ كَالصُّمِّ لَتَرْكُهُمُ الْعَمَلُ بِمَا سَمِعُوهُ مِنَ الْإِنْذَارِ .

ووجهُ الشَّبهِ بين الكافرين والصُّمِّ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا سَمِعُوا ، تَمَاماً كَالصُّمِّ الَّذِينَ لَا يُفِيدُهُمْ صَوْتُ مُنَادِيهِمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٤٢ / ٣) : ((أي : إنما أنا مُبَلِّغ عن الله ما أُنذرتكم به من العذاب والتَّكَال ، ليس ذلك إلا عَمَّا أوحاه الله إِلَيَّ ، ولكن لا يُجدي هذا عَمَّن أَعْمَى الله بصيرته ، وَخَتَم على سَمْعِه وقلبه)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (٩٥ / ١) : ((وإنما سَمَّاهم ﴿ الصُّم ﴾ ووضعه موضع ضميرهم للدلالة على تَصَامُّهم ، وعدم انتفاعهم بما يسمعون . ﴿ إذا ما يُنذَرُونَ ﴾ منصوب بـ ﴿ يَسْمَعُ ﴾ أو بـ ﴿ الدُّعَاء ﴾ ، والتقييد به ، لأن الكلام في الإنذار ، أو للمبالغة في تَصَامُّهم وتجاهلهم)) اهـ . وقال السيوطي في الدر المنثور (٦٣٢ / ٥) : ((يقول الله : إن الكافر أَصَم عن كتاب الله ، لا يسمعه ، ولا ينتفع به ، ولا يعقله ، كما يسمعه أهل الإيمان)) . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٦] .

ولئن أصابَ المشركين شيء قليل من العذاب الإلهي ، لَيَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ وآثَامِهِمْ ، وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الحياة الدنيا ، بتكذيبهم للنبي ﷺ وما جاء به . سَيَعْتَرِفُونَ بكل جرائمهم ويندمون ، حين لا ينفع الاعتراف ، ولا يُفِيد الندم . وهذا يُشير إلى شِدَّة ضعفهم وذُلَّهم وعجزهم أمام قُدرة الله المطلقة ، وعذابه الأليم . وقال البيضاوي في تفسيره (٩٦ / ١) : ((﴿ وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ ﴾ أدنى شيء ، وفيه مبالغات ، ذِكر المَسِّ ، وما في النَفْحَة من معنى القِلَّة ، فإن أصل النَفْح هبوب رائحة الشيء ، والبناء الدال على المَرَّة . ﴿ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ من الذي يُنذَرُونَ به . ﴿ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لدَعْوَا على أنفسهم بالويل ، واعتَرَفُوا عليها بالظلم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٣] . هذا تَوْجِيهٌ إلهيٌّ للنبي ﷺ بالدعاء عند النَّقَم والمصائب : إن كان ولا بُدَّ أن أشاهد ما يُوعَدُونَ من العذاب الأليم المُستأصل لهم في الدنيا . ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٩٤] .

تكرير ﴿ رَبِّ ﴾ مبالغة في الدُّعاء والتَّضَرع إلى الله تعالى . رَبِّ إن عاقبتهم وأنا أشاهد عَذَابَكَ لهم ، فلا تجعلني فيهم ، ولا تُهْلِكْني معهم ، وَتَجْنِي مِنْ عَذَابِكَ وَغَضَبِكَ ، وارْضَ عَنِّي . والمعنى : إذا أردت تعذيبهم وإنزال النَّقْمَة بهم ، فاجعلي خارجًا منهم ، بعيدًا عنهم ، لِكَيْلَا أَهْلِكَ بهلاكهم .

ومعلوم أنَّ النبي ﷺ معصوم ، ومُحال أن يقع في العذاب والهلاك ، وكذلك الأنبياء جميعًا ، لا يكونون مع القوم الظالمين . وَمَعَ هذا ، أمر الله محمدًا ﷺ بهذا الدعاء إظهارًا للعبودية والخضوع لله

، والتواضع له، وذَكَرَه في كُلِّ الحالات، أو: لَأَنَّ شُؤْمَ الكُفْرِ قَدْ يُصِيبُ الصَّالِحَ والطَّالِحَ على السَّوَاءِ.

وهذه يدل على بشاعة جرائم الكافرين ، وشِدَّةُ العذاب الإلهيِّ ، وضرورة الاستعاذة مِنْهُ .
وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ١٣٢) : ((أي : إذا أَرَدْتَ بِهِمْ عَقُوبَةً ، فَأَخْرِجْنِي مِنْهُمْ .
وكان عليه السلام_ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تعالى لا يَجْعَلُهُ في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب ، ومع
هذا أَمَرَهُ الرَّبُّ بهذا الدعاء والسؤال لِيُعْظَمَ أَجْرُهُ، وليكون في كُلِّ الأوقات ذاكراً لِرَبِّهِ تعالى)) اهـ

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: ((وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً، فَتَوَقَّيْ إِلَيْكَ وَأَنَا غَيْرُ مَفْتُونٍ))⁽¹⁷⁾.
إذا أَرَدْتَ يَا اللهَ بعبادك ضَلَالَةً أو عَذَابًا (عَقُوبَةً دُنْيَوِيَّةً) فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ، وَأَنَا فِي أَحْسَنِ حَالٍ،
غَيْرُ ضَالٍّ ، وَلَا مُعَاقَبٍ ، وَلَا مُعَذَّبٍ .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (١ / ١٥١) : ((قال الراغب : والفِتْنَةُ من الأفعال التي تكون
من الله تعالى كالبليَّةِ والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة . اهـ . وقد تكون
الفِتْنَةُ في الدِّين كالارتداد والمعاصي وإكراه الغير على المعاصي ، وإليه أشار المصطفى ﷺ)) اهـ

وقَالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٥] .
اللهُ قَادِرٌ أَن يُرِيكَ يَا مُحَمَّدُ العذاب الذي وَعَدَ المُشْرِكِينَ بِهِ ، وهو سُبحَانَهُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ،
فلا تَحْزَنُ بسبب استعجالهم العذاب ، وتكذيبهم لَكَ ، ولا تتضايق بسبب كُفْرِهِمْ ، فَإِنَّ اللهَ يُؤَخِّرُ
العذابَ لحكمةٍ . وهو سُبحَانَهُ يُهْمِلُ ولا يُهْمِلُ . ولو أَرَادَ اللهُ لَأَرَاكَ عَذَابَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، ولكن
يُؤَخِّرُهُ لِعِلْمِهِ أَنَّ بَعْضَهُمْ سَيُؤْمِنُونَ ، أو سَيَخْرُجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤَخِّدَ اللهُ تعالى .

كان المُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ مَوْعِدَ العذاب ، وَيَضْحَكُونَ مِنْهُ ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَتَّهِمُونَهُ
بِالْكَذِبِ . وقد أَخْبَرَ اللهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ ، فلا معنى لِإنْكَارِهِمْ وَسُخْرِيَّتِهِمْ .
وقال الشُّوكَانِي في فتح القدير (٣ / ٧١١) : ((ثُمَّ لَمَّا كَانَ المُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ العذابَ ،
وَيَسْخَرُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ ، أَكَّدَ سُبحَانَهُ وَقُوَّةَ بَقُولِهِ : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيكَ مَا
نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ أَي أَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَن يُرِيَ رَسُولَهُ عَذَابَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ يُؤَخِّرُهُ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٠٨) ، وقال : ((حديث صحيح على شرط البخاري)) .

بَعْضُهُمْ سَيُؤْمِنُ ، أَوْ لَكُنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعَذِّبُهُمُ وَالرَّسُولُ فِيهِمْ ، وَقِيلَ : قَدْ أَرَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرَ ، وَيَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٨٨) : ((والمعنى (العام) : إِنْ أُرَيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ مِنَ الْقَتْلِ وَالْعَذَابِ ، فَاجْعَلْنِي خَارِجًا عَنْهُمْ ، وَلَا تُهْلِكْنِي بِهِمْ ، فَأَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَعَدَهُمْ بِبَدْرَ وَغَيْرِهَا ، وَنَجَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ اذْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] (18).

هذا تَوْجِيهٌ إلهيٌّ جليلٌ للنبي ﷺ أَنْ يتحلَّى بمكارم الأخلاق ، وَأَنْ يُقَابِلَ السَّيِّئَةَ بِالْإِحْسَانِ وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ . اصفح عن المشركين الجُهَّال يا محمد ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم لك ، وعاملهم بالأخلاق الحسنة ، والقيم النبيلة .

وقد ذهب بعضُ المفسرين إلى أَنَّ الآيةَ منسوخة ، ولا معنى لكلامهم . فالْمُعَامَلَةُ الحسنةُ مطلوبةٌ مَعَ الكفار ما لَمْ تكن على حساب الدين . وقال ابن الجوزي في مُصَفَّى الناسخ والمنسوخ (١ / ٤٥) : ((ادَّعى بعضهم نَسْخَهَا بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَى ، لِأَنَّ الْمُدَارَاةَ مَحْمُودَةٌ ، مَا لَمْ تَضُرَّ بِالْدِّينِ ، أَوْ تُؤَدَّ إِلَى إِثْبَاتِ بَاطِلٍ ، أَوْ إِبْطَالِ حَقٍّ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٤١) : ((أرشده الله إلى التَّرياقِ النافعِ في مُخَالَطَةِ النَّاسِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ ، لَيْسَتْ جَلْبَ خَاطِرِهِ ، فَتَعُودَ عِدَاوَتِهِ صَدَاقَةً ، وَيُغَضُّهُ مَحَبَّةً)) اهـ .
نَحْنُ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ ، وَسَوْفَ نُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَنُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ . وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦٦) : ((﴿ اذْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ ، وَهُوَ الصَّفْحُ عَنْهَا ، وَالْإِحْسَانُ فِي مُقَابَلَتِهَا ، لَكِنْ بَحِثْ لَمْ يُؤَدَّ إِلَى وَهْنٍ فِي الدِّينِ . وَقِيلَ : هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ، وَالسَّيِّئَةُ الشُّرْكُ . وَقِيلَ : هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالسَّيِّئَةُ الْمُنْكَرُ . وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ " اذْفَعْ

(١٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٨٩) : ((فيه أربعة أقوال : أحدها اذْفَعْ إِسَاءَةَ الْمُسِيءِ بِالصَّفْحِ ، قاله الحسن . والثاني : اذْفَعْ الْفُحْشَ بِالسَّلامِ ، قاله عطاء والضَّحَّاك . والثالث اذْفَعْ الشُّرْكَ بِالتَّوْحِيدِ ، قاله ابن السائب . والرابع اذْفَعْ الْمُنْكَرَ بِالْمَوْعِظَةِ ، حكاه الماوردي)) .

بالحسنة السيئة " لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْصِصِ عَلَى التَّفْضِيلِ . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بِمَا يَصِفُونَكَ
 به ، أو يوصفهم إِيَّاكَ عَلَى خِلَافِ حَالِكَ ، وَأَقْدَرُ عَلَى جَزَائِهِمْ ، فَوَكَّلْ إِلَيْنَا أَمْرَهُمْ)) اهـ .
 والتعاملُ الحسنُ مع الناس ، وَبَثُّ المعاني الطَّيِّبَةِ الهادئة في النَّفُوسِ بأسلوبٍ ناعمٍ وسَلِسٍ ،
 مِنْ شأنه أن يُلِين قُلُوبَ الناس ، وَيَعْمَل على استقطابهم إلى الإيمان بالله تعالى ، لِأَنَّ النَّفُوسَ
 مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَقَدَّمَ لَهَا المساعدةَ بطريقة جميلة . والإحسانُ إلى الناس
 يجعل المرءَ يُسيطر على قلوبهم ، فتتقاد جوارحهم إليه ، وَتَخضع له ، وَتَسْمَعُ لكلامه ، وكأنها
 تحت تأثير السَّحَرِ . فالكلمة الطَّيِّبَةُ لها وَقْعٌ عميق في النفوس . وكما قال الشاعر :

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدَ قُلُوبَهُمْ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وكما قال شاعر آخر :

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجِدَ الْعَدُوَّ وَقَدْ عَدَا لَكَ صَاحِبًا يُؤَلِي الْجَمِيلَ وَيُحْسِنُ
 فَاعْمَلْ كَمَا قَالَ الْخَبِيرُ بِخَلْقِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ اذْفَعْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧] .
 قُلْ يَا مُحَمَّد : رَبِّ أَلْجَأُ إِلَيْكَ ، وَأَسْتَجِيرُ بِكَ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَنَزَغَاتِهِمِ الشَّاغِلَةِ عَنْ
 ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَحْتَمِي بِكَ مِنْ دَفْعِهِمِ بِالْإِغْوَاءِ إِلَى الْمَعَاصِي . وفي تحفة الأحوذِي (٩ / ٣٥٦) :
 ((أَي : نَزَغَاتِهِمْ ، وَخَطَرَاتِهِمْ ، وَوَسَاوِسِهِمْ ، وَالْقَائِمَةُ الْفِتْنَةُ وَالْعَقَائِدُ الْفَاسِدَةُ فِي الْقَلْبِ)) اهـ .
 وفي الآيَةِ إِرْشَادٌ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إِلَى ضَرُورَةِ الاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ . وفي الحديث أَنَّ
 النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ)) (١٩) .
 والاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (المَطْرُودُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) لَهَا فَوَائِدُ جَمَّةٌ . والمُسلِمُ يَلْجَأُ
 فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِ إِلَى خَالِقِهِ الْعَظِيمِ لِكَيْ يَحْمِيَهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَيُدْفِعَ عَنْهُ كُلَّ مَكْرُوهٍ .

(١٩) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٣٦٠) برقم (٨٥٨) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .
 هَمَزُهُ : المَوْتَةُ . نَفْثُهُ : الشَّعْرُ . نَفْخُهُ : الكِبَرُ . وقال القرطبي في تفسيره (١ / ١٢١) : ((وقال ابن ماجه
 : المَوْتَةُ يعني الجنون ، والنَّفْثُ : نَفْخُ الرَّجُلِ مِنْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْرُجَ رِيْقُهُ ، وَالْكَبَرُ : التَّيَهُ)) .

وقال ابن الجوزي في تلبس إبليس (ص ٤٩) : ((وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ لِتَلْمِيزِهِ: مَا تَصْنَعُ بِالشَّيْطَانِ إِذَا سَوَّلَ لَكَ الْخَطَايَا ؟ ، قَالَ : أَجَاهِدُهُ . قَالَ : فَإِنْ عَادَ ؟ ، قَالَ : أَجَاهِدُهُ . قَالَ : فَإِنْ عَادَ ؟ ، قَالَ : أَجَاهِدُهُ . قَالَ : هَذَا يَطُولُ ، أَرَأَيْتَ إِنْ مَرَرْتَ بِغَنَمٍ ، فَتَبَحَّحَكَ كُلُّهَا ، أَوْ مَنَعَكَ مِنَ الْعُبُورِ ، مَا تَصْنَعُ ؟ ، قَالَ : أَكَابِدُهُ وَأَرْذُهُ جُهْدِي ، قَالَ : هَذَا يَطُولُ عَلَيْكَ ، وَلَكِنْ اسْتَعِزْ بِصَاحِبِ الْغَنَمِ يَكْفُفْهُ عَنْكَ)) اهـ . وهذه القصة تُوضِّحُ فائدة الاستعاذة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٨] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ : أَلْجَأَ إِلَيْكَ رَبِّ ، وَأَسْتَجِيرُ بِكَ أَنْ يَكُونَ الشَّيَاطِينُ مَعِيَ فِي أُمُورِي ، أَوْ أَنْ يُضَيِّعُونِي بِسُوءٍ ، وَالشَّيْطَانُ لَا يَحْضُرُ الْإِنْسَانَ إِلَّا بِسُوءٍ . فَإِذَا حَضَرَ وَسَّوَسَ إِلَيْهِ ، وَزَيَّنَ لَهُ الْمَعَاصِيَ ، وَأَغْرَاهُ بِالشَّرِّ وَالْفُسَادِ ، وَأَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَالرَّشَادِ .

وتكرار ﴿ أَعُوذُ بِكَ ﴾ للمبالغة ، والتشديد على أهمية الاستعاذة والعناية بها . وقال النسفي في تفسيره (٣ / ١٣٠) : ((أَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ نَحْسَاتِهِمْ ، بَلْفَظِ الْمُتَبَهِّلِ إِلَى رَبِّهِ ، الْمُكْرَّرِ لِنَدَائِهِ ، وَبِالتَّعَوُّذِ مِنْ أَنْ يَحْضُرُوهُ أَصْلًا ، أَوْ عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، أَوْ عِنْدَ النَّزْعِ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٤١) : ((﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أي : فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي ، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي ابْتِدَاءِ الْأُمُورِ ، وَذَلِكَ لَطَرْدِ الشَّيْطَانِ ، عِنْدَ الْأَكْلِ وَالْجَمَاعِ وَالذَّبْحِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦٧) : ((﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ يَحُومُوا حَوْلِي فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَتَخْصِيصُ حَالِ الصَّلَاةِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، وَخُلُوقِ الْأَجَلِ ، لِأَنَّهَا أُخْرَى الْأَحْوَالِ بِأَنْ يَخَافَ عَلَيْهِ)) اهـ .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ ، مِنْ غَضَبِهِ ، وَمِنْ عِقَابِهِ ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ)) (٢٠).

والمعنى : أحتمي بكلمات الله الكاملات الكافيات النافعات الشافيات ، التي لا يدخل فيها نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ ، كَمَا يَدْخُلُ فِي كَلَامِ النَّاسِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ الْقُرْآنُ . وَوُصِفُ الْكَلِمَاتِ بِالتَّامَّاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا تَمْتَازُ بِالْكَمَالِ وَالْعِصْمَةِ ، وَمُنْزَهَةٌ عَنِ الْخَطَا وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ .

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣٣) برقم (٢٠١٠) وصحَّحه .

وقد كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَدْمِ ، وَالتَّرَدِّي ، وَالْهَرَمِ ، وَالْغَمِّ ، وَالْعَرَقِ ، وَالْحَرَقِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ لَدِيغًا)) (21).

إنَّ هذه الصَّيَغَ النبوية من الاستعاذة تدل على العبودية الخالصة للنبي ﷺ ، وخُضوعه لله تعالى في كُلِّ الأمور . ومهما ارتفعت مكانة الإنسان ، سيظل عبداً خاضعاً ذليلاً لله ، يحتاج إليه في كُلِّ وقتٍ وحين ، ولا يُمكن للمخلوق أن يستغني عن الخالق ، لأنَّ الخالق مُتَحَكِّمٌ بحياة الإنسان منذ الولادة حتى الموت ، ومُسيطر على الجزئيات والكليات . وكُلُّ ما سوى الله ، فهو عَبْدٌ خاضع لله . وفي شرح السُّيوطي لسنن النَّسائي (٢٨١/٨) : (("وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت" قال الخطابي : هو أن يستولي عليه عند مفارقة الدنيا ، فيُضِلَّهُ ويحول بينه وبين التوبة ، أو يُعَوِّقَهُ عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله ، أو يُؤَيِّسَهُ من رحمة الله ، أو يُكَرِّهَ له الموت ويؤسِّفه على حياة الدنيا ، فلا يرضى بما قضاه الله عليه من الفناء ، والثقل إلى الدار الآخرة ، فيُخْتَمَ له بالسوء ، ويلقى الله وهو ساخط عليه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التور : ٥٤] .
قُلْ يا محمد : أطيعوا الله في أمره ونهيه ، وأطيعوا الرسول ، فإنَّ طاعته طاعة لله تعالى ، فالرسول لا يأتي بشيء من عنده ، إنَّه المُتَحَدِّثُ بِاسْمِ اللَّهِ ، يَحْمِلُ الشَّرِيعَةَ الإلهية ، وأقواله وأفعاله وَحْيٌ إلهيٌّ معصوم . والطاعة تتجلى في اتِّباع القرآن والسنة . وتكرير " أطيعوا " في الآية : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ للتشديد على وجوب الطاعة عليهم .

وكان الخطاب الإلهي للنبي ﷺ ، وانتقل لهم : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ للتشديد عليهم في وجوب الطاعة والخضوع لله ولرسوله ﷺ ، وخُطورة الإعراض وترك ما جاء به محمد ﷺ . وقال أبو السعود في تفسيره (١٨٩ / ٦) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى ، وَارِدَ لِتَأْكِيدِ الْأَمْرِ بِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي إِجْبَابِ الْامْتِثَالِ بِهِ ، وَالْحَمْلِ عَلَيْهِ بِالْتَرْهيبِ وَالتَّرْغِيبِ)) اهـ .

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧١٣) برقم (١٩٤٨) وصحَّحه .

فإن تُعرضوا عن الشريعة المحمدية الإسلامية، وتركوا الوحي الإلهي الذي جاء به محمد ﷺ، فإنما على النبي ﷺ تبليغ الرسالة، وقد أدى أمانة التبليغ كاملة على أحسن وجه، وعليكم الاستجابة له ، والقبول بالرسالة ، والعمل بمقتضاها. وهذا وعيدٌ لهم وتهديد. والمعنى : إنكم مُلزَمون بالإيمان بالرسالة والعمل بها. وقد قامت عليكم الحجة، وانقطع عُذْرُكم . فإن أدَّيْتُمْ فلَكم ، وإن أعرضْتُمْ فعليكم . إن آمنْتُمْ بما جاء به محمد ﷺ وعملْتُمْ به ، فقد فُزْتُمْ بالدَّارين ، والفائدة تعود إليكم ،

وإن أعرضْتُمْ عنه ، فالضرر يعود إليكم ، فقد ضررْتُمْ أنفسكم وعرضتموها لغضب الله وعذابه ، لأنكم لم تحملوا الشريعة . ولم تضرُّوا النبي ﷺ، لأنه أدى أمانة التبليغ كاملة على أحسن وجه .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ ﴾ ولم يقل : وعليهم . والمعنى : يجب عليكم القبول ، وليس على النبي ﷺ أن تقبلوا، لأن النبي ﷺ مُبلِّغ، وليس رقيباً على الناس، فهو ﷺ لا يُجبرهم على الإيمان ، ولا يُحاسِبهم على أقوالهم وأعمالهم . والنبي ﷺ لم يحمل إيمانكم ، وإنما حمَلَ تبليغكم ، وقد أدى بلا كسل ولا تقصير. والمعنى العام: يجب على كل شخص ما كُلفَ به. والله لا يحُمِّل الناس فوق طاقتهم ، ولا يظلمهم . والشريعة جاءت لرفع الحرج .

وقال أبو السعود في تفسيره (٦ / ١٨٩) : ((ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله ، وكونه مُؤنة باقية في عهدتهم بُعد ، كأنه قيل : وحيث تولَّيْتُمْ عن ذلك ، فقد بقيت تحت ذلك الحمل الثقيل)) اهـ .

وإن تُطيعوا النبي ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، تُرشدوا ، وتُصيبوا الحق ، وتهتدوا إلى الخير ، وتفوزوا بالسعادة الدنيوية ، وتنالوا النعيم الأبدي (الجنة)، لأن النبي ﷺ يدعو إلى الإيمان والحق والأخلاق الحميدة والقيم النبيلة ، وهو على صراط مستقيم ، لا ينحرف ولا يزيغ . والهداية مُقتترنة بطاعة النبي ﷺ . ومهمته الرسول محصورة في تبليغ الرسالة بشكل كامل وواضح ، لا نقص فيه ولا غموض .

وفي زاد المسير (٦ / ٥٦) : ((وكان بعض السلف يقول: مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، وَمَنْ أَمَرَ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله: ﴿وإن تُطيعوه تَهْتَدُوا﴾)) .

وفي مسند أحمد (٢٧٨ / ٤) عن أبي أمانة الباهلي _ رضي الله عنه _ قال : ((عَلَيْكُمْ بالسَّوَادِ الأعظم)) ، قال رجل : ما السَّوَادُ الأعظم ؟ ، فقال أبو أمانة : ((هذه الآية في سورة التَّوْر : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾)) (22) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] .
إنَّ المشركين يُحاولون جاهدين الاصطيادَ في ماء أفكارهم العكِر ، فَهُمْ يَطْعَنُونَ فِي الْقُرْآنِ والنُّبُوَّةَ بالباطل ، وَيَحْتَنُونَ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ عَنْ عَيْبٍ فِي الْقُرْآنِ أَوْ نَقِصَةٍ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَكُلَّمَا بَحَثُوا عَادُوا بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ وَالْفُشْلِ . فالْقُرْآنُ كَامِلٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومٌ لَا نَقِصَةَ فِيهِ . وَالْمَشْرُكُونَ كُلُّهُمْ جَاءُوا بِمَثَلٍ يَضْرِبُونَهُ لِإِبْطَالِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَبْطَلَ اللَّهُ مَثَلَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَائِبِينَ . فالْقُرْآنُ هُوَ الْكَلَامُ الْأُسْمَى وَالْأَجَلُّ يَدْحُضُ أَمْثَالَ الْمَشْرُكِينَ ، وَيَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ ، وَيَجِيءُ بِالْأَمْثَالِ الْبَاهِرَةِ وَالْبَرَاهِينَ السَّاطِعَةِ وَالْحُجَجَ الدَّامِغَةَ . وَالْقُرْآنُ يَجِيءُ بِأَحْسَنِ مِنْ مَثَلِ الْمَشْرُكِينَ بَيَانًا وَتَفْسِيرًا . وَلَا قُدْرَةَ لِمَخْلُوقٍ مَعَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ . وَكَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَصْمَدُ أَمَامَ كَلَامِ الْخَالِقِ تَعَالَى (23) .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١٠٧ / ٤) : ((فالمراد بالمَثَلِ هُنَا : السُّؤَالُ وَالْاِفْتِرَاحُ ، وبالحق : جَوَابُهُ الَّذِي يَقْطَعُ ذَرِيعَتَهُ ، وَيُبْطِلُ شُبْهَتَهُ ، وَيُخْصِمُ مَادَّتَهُ)) اهـ .

(٢٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٢ / ٥) : ((رواه عبد الله بن أحمد ، والبَزَّاز ، والطبراني ، ورجالهما ثقات)) .

(٢٣) قال ابن كثير في تفسيره (٤٢٤ / ٣) : ((قال سعيد بن جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أَيُّ بِمَا يَلْتَمِسُونَ بِهِ عَيْبَ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ الآية . أَيُّ إِلَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِجَوَابِهِمْ ، وَمَا هَذَا إِلَّا اعْتِنَاءٌ وَكَبِيرُ شَرَفٍ لِلرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ كَانَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاءً ، وَلَيْلًا وَنَهَارًا ، سَفَرًا وَحَضْرًا . وَكُلَّ مَرَّةٍ كَانَ يَأْتِيهِ الْمَلَكُ بِالْقُرْآنِ لَا كإِنْزَالِ كِتَابٍ مِمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَهَذَا الْمَقَامُ أَعْلَى وَأَجَلُّ وَأَعْظَمُ مَكَانَةً مِنْ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَعْظَمُ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لِلْقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا : فِيهِ الْمَاءُ الْأَعْلَى أَنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْخَفُوزِ ، إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ أَنْزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَرْضِ مُنْجَمًا (مُفَرَّقًا) بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٨٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ ﴾ يعني
المشركين

﴿ بِمَثَلٍ ﴾ يَضْرِبُونَهُ لَكَ فِي مُخَاصَمَتِكَ وَبِطَالِ أَمْرِكَ ، ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالذي هو الحق
لِتَرُدَّ بِهِ كَيْدَهُمْ ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ مِنْ مَثَلِهِمْ . والتفسيرُ البيان والكشف)) اهـ .

إِنَّ كُلَّ شُبْهَةٍ يَطْرَحُهَا الْمُشْرِكُونَ ، يَأْتِي الرَّدُّ الإِلَهِيُّ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ ، وَكُلُّ سُؤَالٍ يَطْرَحُهُ
الْمُشْرِكُونَ يَأْتِي الْجَوَابُ الإِلَهِيُّ عَنْهُ فِي الْقُرْآنِ . وبالتالي يَرْجِعُ الْمُشْرِكُونَ بِالْخِزْيِ وَالْخُسْرَانِ بَعْدَمَا
أَفْحَمَهُمُ الْقُرْآنُ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ . وهذا دليلٌ على صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِحَّةِ نُبُوءَتِهِ ، إِذْ إِنَّهُ
مُؤَيَّدٌ بِالْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ ، فَكُلُّ سُؤَالٍ يَطْرَحُهُ الْمُشْرِكُونَ _ سَوَاءٌ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْمَاضِي أَوْ الْحَاضِرِ أَوْ
الْمُسْتَقْبَلِ _ يَأْتِيهِمُ الْجَوَابُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ نَبِيِّ مُرْسَلٍ . وهنا تظهر الْحِكْمَةُ
الإِلَهِيَّةُ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُفَرَّقًا حَسَبَ الْأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ ، فَلَوْ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ مَرَّةً وَاحِدَةً ، لَمْ يَكُنْ
لدى النَّبِيِّ ﷺ جَوَابٌ عَنْ أَسْئَلَةِ الْمُشْرِكِينَ . وأيضًا ، لَثَقُلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ تَطْبِيقُ أَحْكَامِهِ بِسَبَبِ
كَثْرَتِهَا وَقُوَّتِهَا . لقد كَانَ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ مُفَرَّقًا تَشْيِيتًا لِقَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وَقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٣٠) : ((وَعَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الصَّلَاحَ فِي إِنْزَالِهِ مُتَفَرِّقًا
لأنَّهُمْ يُنَبِّهُونَ بِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَلَوْ نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً لَزَالَ مَعْنَى التَّنْبِيهِ ، وَفِيهِ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ ،
فَكَانُوا يَتَعَبَّدُونَ بِالشَّيْءِ إِلَى وَقْتٍ بَعَيْنِهِ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الصَّلَاحَ ، ثُمَّ يَنْزِلُ النَّسْخُ بَعْدَ
ذَلِكَ ، فَمَحَالٌ أَنْ يَنْزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ
ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً . وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾)) (24) .

وقال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .
الآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعْجِيبٌ لَهُ مِنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ السَّيِّئِ . فالوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ بِلا
بَصِيرَةٍ ، وَيَعْبُدُ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ . وَأَيُّ شَيْءٍ يَتَوَافَقُ مَعَ هَوَاهُ وَرَأْيِهِ وَمِزَاجِهِ ، يَصِيرُ دِينًا لَهُ لَا مَحِيدَ عَنْهُ .
لقد أَطَاعَ هَوَاهُ طَاعَةً كَطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ يَا مُحَمَّدٌ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ ضَلَالِهِ وَتَقُودَهُ إِلَى
الإِيمَانِ ؟ . أَفَأَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ تَكُونُ عَلَيْهِ حَفِيطًا وَوَكِيلًا ، تَمْنَعُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْهَوَى ، وَتُرُدُّهُ إِلَى الإِيمَانِ
. لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّ وَظِيفَتَكَ تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ ، أَمَّا الْهَدَايَةُ فَهِيَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ . وَمَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ

(٢٤) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٣٩٩) بِرَقْمِ (٣٣٩٠) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

فَلَنْ يَقْدِرَ أَحَدٌ عَلَى هِدَايَتِهِ . اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْمُضِلُّ وَالْهَادِي . وَالْآيَةُ : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ لِلْإِنْكَارِ وَاسْتِبْعَادِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ رَقِيبًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَحَفِيزًا عَلَيْهِمْ ، وَقَادِرًا عَلَى إِجْبَارِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٢٦) : ((﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أَي : مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْءٍ وَرَأَاهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسِهِ كَانَ دِينَهُ وَمَذْهَبَهُ)) اهـ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢١٩) : ((﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ بِأَنْ أَطَاعَهُ ، وَبَنَى عَلَيْهِ دِينَهُ ، لَا يَسْمَعُ حُجَّةً ، وَلَا يُبْصِرُ دَلِيلًا ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْمَفْعُولَ الثَّانِي لِلْعَنَاءِ بِهِ . ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ حَفِيزًا تَمْنَعُهُ عَنِ الشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي ، وَحَالَهُ هَذَا . فَلَا سَفْهَامَ الْأَوَّلَ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّعْجِيبِ ، وَالثَّانِي لِلْإِنْكَارِ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦ / ٩٢) : ((عَجَّبَ اللَّهُ نَبِيَّهِ مِنْ جَهْلِهِمْ حِينَ عَبْدُوا مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الْهَوَى ، فَقَالَ : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ أَحَدُهُمْ يَعْبُدُ الْحَجَرَ ، فَإِذَا رَأَى مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ رَمَى بِهِ ، وَعَبَدَ الْآخَرَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هُوَ الْكَافِرُ لَا يَهْوِي شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْمَعْنَى يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَيَدْعُ الْحَقُّ ، فَهُوَ لَهُ كَالْإِلَهِ . قَوْلُهُ : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴾ أَي : حَفِيزًا يَحْفَظُهُ مِنْ اتِّبَاعِ هَوَاهُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

أَمْ تَحْسَبُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ (أَهْلَ مَكَّةَ) يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ فَيَفْهَمُونَهُ ، أَوْ يَعْقِلُونَ حُجَجَ اللَّهِ وَبِرَاهِينَهُ فَيَخْضَعُونَ لَهَا . إِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ ، وَلَا يُدْرِكُونَ مَعَانِيهَا وَأَبْعَادَهَا وَلَا يَفْهَمُونَهَا . فَلَا تَتَضَاقِقُ مِنْ كُفْرِهِمْ ، وَلَا تَهْتِمُ لَشَأْنِهِمْ . إِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا سَمِعُوا ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا أَصْلًا . مَا هُمْ إِلَّا كَالْبَهَائِمِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَعْقِلُ . وَتَفَكِيرُهُمْ مُحْصُورٌ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَا يُفَكِّرُونَ بِالْآخِرَةِ . فَلَا تَطْمَعُ يَا مُحَمَّدُ فِي إِسْلَامِهِمْ .

وَالْمَقْصُودُ بِالسَّمَاعِ سَمَاعُ التَّفْقُّهِمِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ الصَّوْتِ . فَالْبَهَائِمُ تَسْمَعُ الصَّوْتَ ، لَكِنَّا لَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ . وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ يَسْمَعُونَ آيَاتِ اللَّهِ لَكِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَهَا ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا . بَلْ إِنَّهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْبَهَائِمِ ، لِأَنَّ الْبَهَائِمَ تَهْتَدِي إِلَى الْمُرَاعِي ، وَتَخْضَعُ لِأَصْحَابِهَا الَّذِينَ يَعْتَنُونَ بِهَا وَتَنْقَادُ لَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَا يَخْضَعُونَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَهُوَ الْمُنْعَمُ الْمَتَفَضِّلُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَشْكُرُونَ نِعَمَهُ الْكَثِيرَةَ . وَالْبَهَائِمُ تَعْرِفُ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهَا ، وَتُمَارِسُ وَظِيفَتَهَا فِي الْحَيَاةِ بِلَا انْحِرَافٍ وَلَا تَقْصِيرٍ . أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ خَلَقُوا لِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، مَعَ

قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسول إليهم . لقد أدركت البهائم الغاية من وجودها ، أمّا المشركون فلم يدركوا الغاية من وجودهم . كما أن البهائم لا تتحدّى الله ، ولا تطعن في التوحيد والثبوت ، أمّا المشركون فقد كفروا بالله ووجدوا التوحيد والثبوت عناداً ومكابرة .

والجدير بالذكر أن البهائم تعبد الله وتُسبّحه بصورة لا نعرفها ولا ندرِكها، لأنها بغير لغتنا . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . أمّا المشركون فلا يعبدون الله ولا يُسبِّحونه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩ / ١٤٠) : ((والصحيح في معنى هذه الآية أن كل شيء يُسبِّح حقيقة بحسب حاله ، ولكن لا نفقهه)) اهـ .

وقوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يدل على أن فيهم عقلاء ليسوا كالبهائم . عقلوا الحق ، وأدركوا الطريق الصحيح . وهؤلاء العقلاء قسمان : قسم آمن بالله ورسوله ﷺ ، وقسم كفر مكابرة وخوفاً على الزعامة والرئاسة ومصالحه الشخصية ، مع إدراكه التام للحق ، ومعرفة بالصواب . وكفّر العالم أشد سوءاً من كفر الجاهل . وصدق القائل :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَبِئْسَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٢٠) : ((« إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ » في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم ، وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات . « بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » من الأنعام ، لأنها تنقاد لمن يتعهدها ، وتُميّز من يُحسن إليها ممن يُسيء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرّها . وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشد المضار ، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً ، لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً ، بخلاف هؤلاء ، ولأن جهالتها لا تضرّ بأحد ، وجهالة هؤلاء تؤدّي إلى هيج الفتن ، وصدّ الناس عن الحق ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال ، فلا تقصير منها ولا ذم ، وهؤلاء مُقَصِّرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم .))

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ٣٦) : ((« بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام . وقال مقاتل : البهائم تعرف ربّها ، وتهتدي إلى مراعيها ، وتنقاد لأربابها التي تعقلها

، وهؤلاء لا يَنقادون ، ولا يَعرفون رَبَّهُم الذي خلقهم ورزقهم . وقيل : لأنَّ البهائم إن لم تَعْقِل صِحَّة التَّوْحِيد والتَّوْبَةِ ، لم تعتقد بطلان ذلك أيضًا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥١] .

لَوْ شَاءَ اللَّهُ لأرسل رسولاً إلى كُلِّ قَرْيَةٍ يُنذِرهم ، ويُخَوِّفهم من العذاب الإلهيِّ إن اختاروا الكفر على الإيمان ، ويدعوهم إلى عبادة اللَّهِ وَحْدَهُ ، لِيَخِفَّ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ (أعباء التَّوْبَةِ) على كاهلك يا محمد ، ولكنَّ اللَّهَ _ بِمَنَّةٍ وَكَرَمٍ _ أرسلَكَ إلى القُرَى كُلِّهَا ، وأمرَكَ بتبليغ القرآن ، لِيُعْظَمَ أَجْرُكَ ، وترتفع درجتك ، وتنال المجد والكرامة في الدنيا والآخرة ، فاشكر نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٢٣) : ((﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ نَبِيًّا يُنذِر أهلها ، فَيَخِفُّ عَلَيْكَ أعباء التَّوْبَةِ ، لكن قَصَرْنَا الأمرَ عَلَيْكَ ، إجلالاً لَكَ ، وتعظيماً لشأنك ، وتفضيلاً لَكَ على سائر الرُّسل ، فَقَابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدَّعوة ، وإظهارِ الحق)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] .

لَعَلَّكَ قَاتِلٌ نَفْسَكَ يا محمد ومُهْلِكُهَا ، بسبب تركهم الإيمان . وذلك حين كَذَّبَهُ أَهلُ مَكَّةَ ، فتضايقَ بشكلٍ كبيرٍ ، وتألَّم أشدَّ الألمِ ، وشَقَّ ذلكَ عَلَيْهِ . وهذا يدل على شِدَّةِ حِرْصِ النَّبِيِّ ﷺ على إيمان قَوْمِهِ ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ ، وإخلاصه في دَعْوَتِهِمْ إلى الإيمان والجنة ، وإنقاذهم من الكفر والنار .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٣١) : ((﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ قَاتِلٌ نَفْسَكَ . وأصلُ الْبَخْعِ أن يَبْلُغَ بالذبح النَّخَاعَ ، وهو عِرْقُ مُسْتَبِطِنِ الْفَقَارِ (فِقرات الظُّهْرِ) ، وذلك أَقصى حَدِّ الذبح . وقُرئ " باخِعُ نَفْسِكَ " بالإضافة . و " لعل " للإشفاق ، أي : أَشْفَقُ على نَفْسِكَ أن تقتلها حَسْرَةً . ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لئلا يُؤْمِنُوا ، أو خِيفَةَ أن لا يُؤْمِنُوا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] .

لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأُنْزِلَ على المشركين من السماء مُعْجِزَةٌ ظاهرةٌ ، وآيَةٌ باهرةٌ ، فتظل أَعْنَاقُهُمْ خاضعةً لهذه الآية من الدُّلِّ ، وانقادوا لها رَغْمًا عنهم . أو : يَخْضَعُونَ لِلآيَةِ فلا يَلْوِي أَحَدٌ مِنْهُمْ عُقْبَهُ إلى معصية اللَّهِ تعالى .

والمعنى : لَوْ شاءَ اللهُ لأَجبرهم على الإيمان رَغَمَ أنوفهم ، ولكنَّ اللهُ لا يُريدُ مِنَ الناسِ إلا الإيمانَ الاختياريَّ . ولو كان هناك إجبار على الإيمان ، لَبَطَلَ الثوابُ والعقاب ، وبالتالي ، لا معنى للجنة والنار .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٤ / ١٣٦) : ((﴿ إِن نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ مُستأنفة مَسوقة لتعليل ما سَبَقَ مِنَ التَّسْلِيَةِ . والمعنى : إِن نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً تُلْجِنُهُمْ إِلَى الإيمان ، ولكن قد سَبَقَ القضاء بَأَنَّا لا نُنْزِلُ ذَلِكَ . ومعنى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾

أنهم صاروا مُناقدين لها ... قيل : وأصله : فَظَلُّوا لها خاضعين ، فَأُقْحِمَتِ الأَعْنَاقُ لزيادة التقرير والتصوير ، لأن الأَعْنَاقَ موضع الخضوع . وقيل : إنها لَمَّا وُضِعَتِ الأَعْنَاقُ بصفات العقلاء ، أُجْرِيتْ مَجْراهم ، ووُصِفَتْ بما يُوصَفُونَ بِهِ ... والمعنى أنها إذا ذَلَّتْ رِقَابُهُمْ ذُلُّوا ، فالإخبار عن الرِّقَابِ إخبار عن أصحابها .. وقال أبو عُبيد والكِسائي : إِنَّ المعنى خاضعها هُم ، وَضَعَفَهُ النَّحَاسُ . وقال مجاهد : أَعْنَاقُهُمْ كُبراًؤُهُمْ . قال النَّحَاسُ : وهذا معروف في اللغة يُقال : جاءني عُقُقٌ مِنَ الناسِ : أي رؤساء منهم . وقال أبو زيد والأخفش : أَعْنَاقُهُمْ جماعاتهم يُقال : جاءني عُقُقٌ مِنَ الناسِ : أي جماعة)) .

وعن ابن عباس قال : إِنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يَحْرِصُ أن يُؤْمِنَ جميعُ الناسِ ، ويُتَابِعُوهُ على الهدى ، فأخبره اللهُ أنه لا يُؤْمِنُ إلا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الذِّكْرِ الأولِ ، ولا يَضِلُّ إلا مَنْ سَبَقَ لَهُ مِنَ الشَّقَاءِ فِي الذِّكْرِ الأولِ ، ثُمَّ قالَ عَزَّ وَجَلَّ لَنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ . يقول : ﴿ إِن نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (25) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] . فلا تُشْرِكْ باللهِ يا محمد ، ولا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، فَيُنْزِلَ بِكَ الْعَذَابَ ، وتُخْسِرَ الدُّنْيَا والآخرة . والخطابُ للنبي ﷺ والمراد غَيْرُهُ ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ ، ومُحَالٌ أن يُشْرِكَ باللهِ تعالى . والآية تُشير إلى أهمية التَّوْحِيدِ ، وضرورة الإخلاص لله ، وأنَّ الشُّرْكَ يُؤدِّي إلى العذاب الأبدي ، وأنَّ المشركَ خاسِرٌ في الدَّارَيْنِ ، حتى لو تَمَتَّعَ بِالْمَكَانَةِ الاجتماعية والنَّسَبِ الشريف .

(٢٥) رواه الطبراني (١٢ / ٢٥٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٩٦) : ((رجاله وثقوا ، إلا أنَّ عليَّ بن أبي طلحة قيل لم يَسْمَعْ من ابن عباس)) .

ومحمد ﷺ هو أعظم مخلوق ، وأكرم الخلق على الله ، ومع هذا ، لو أشرك محمد لعذبه الله وأهانته ، فما بالك بالآخرين ؟ ! .

والآية تشير إلى بشاعة الشرك وقبحه الشديد ، بحيث نهى عنه النبي ﷺ ، وهو الكامل المعصوم ، وتم تحذيره منه . إذن ، فالآخرون (وكلهم دون النبي ﷺ وتحتَه) أحق بالخوف من الشرك ، والتحذير منه .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١٧١ / ٤) : ((وخطاب النبي ﷺ بهذا مع كونه منزهاً عنه ، معصوماً منه ، لحث العباد على التوحيد ، ونهيهم عن شوائب الشرك . وكأنه قال : أنت أكرم الخلق عليّ وأعزهم عندي ، ولو اتخذت معي إلهاً لعذبته ، فكيف بغيرك من العباد)) اهـ . وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

حذر قرابتك يا محمد من عذاب الله إن اختاروا الكفر ، وخوفهم من بطشه الشديد ، وعذابه الأليم ، وليحذروا أن يتركوا الإيمان أكالاً على نسبهم وقرابتهم . وخذه الإيمان هو الذي ينجي العبد من العذاب الإلهي . وتم تخصيص ﴿ الأقربين ﴾ لأن الاهتمام بهم أولى ، وهدايتهم إلى الحق أهم . كما أن الآية تنفي التهمة عن النبي ﷺ ، لأن الإنسان قد يحابي قرابته ويجمالهم . والنبي ﷺ بدأ بدعوة قرابته وعشيرته ، ولم يجمالهم على حساب الدين ، ولم يمنحهم صكوك غفران لدخول الجنة . إن النبي ﷺ كان صريحاً وواضحاً ومخلصاً في دعوته . بلغ الوحي الإلهي كاملاً للقريب والبعيد على حد سواء ، ولم يخص عشيرته بشيء من الوحي ، ولم يجمالهم أو يزفعهم فوق قدرهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٤٨٠) : ((وأنذر عشيرتك الأقربين إليك قرابةً ، وحذرهم من عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم . وذكر أن هذه الآية لما نزلت ، بدأ بني جدّه عبد المطلب وولده ، فحذرهم وأنذرهم)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ١٢٩) : ((أي : لا يتكلمون على نسبهم وقرابتهم ، فيدعون ما يجب عليهم)) اهـ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قال : ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ _ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا _ اسْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك

من الله شيئاً ، ويا صَفِيَّةُ ، عَمَّةُ رسول الله ، لا أُغني عنكَ من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ، سَلِّبِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي ، لا أُغني عنكَ من الله شيئاً)) (26).

لقد عَمَّ النبي ﷺ فبدأ بِقُرَيْشٍ ، ثم خَصَّصَ بِذِكْرِ بني عبد مَنَافٍ ، ثُمَّ ذَكَرَ عَمَّةَ وَعَمَّتَهُ وابنته (تخصيص التخصيص) . وفي الحديث دليل على أَنَّ جميع مَنْ ناداهم النبي ﷺ يُطْلَق عليهم لفظ " الأقربين "، لأنَّ النبي ﷺ قام بهذا العمل امتثالاً لأمر الله وتطبيقاً له: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

وشراء النَّفْسِ يكون بتخليصها من النار ، وذلك باعتناق الإسلام الذي فيه السلامة والنجاة . والنبي ﷺ لا يملك الجنة ولا النار . فلا يَقْدِر على إدخال الناس الجنة أو إخراجهم من النار . فلا فائدة من الاتكال على قرابة النبي ﷺ ، لأنه ليس له من الأمر شيء .

وذكر النبي ﷺ هؤلاء لِشِدَّةِ قرابتهم . فإذا كان النبي ﷺ لا يُغني عن قرابته من الله شيئاً ، ولا يَقْدِر على إنقاذهم ، فهذا يَعني أنه لا يُغني عن الناس من الله شيئاً . وَمَنْ كان لا يَقْدِر على مساعدة قَرِيبه ، فطبعاً لن يُساعدَ البعيدَ عنه . وقد أحسنَ القائل :

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَلَا تَتْرَكَ التَّقْوَى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبِ
فَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسَ وَقَدْ وَضَعَ الْكُفْرُ الشَّرِيفَ أَبَا لَهَبٍ

وقد لَعَنَ النبي ﷺ عِدَّةَ أَصْنَافٍ مِنْ بَيْنِهِمْ : ((وَالْمُسْتَحِلُّ مِنْ عِزَّتِي مَا حَرَّمَ اللَّهُ)) (27).
يعني : مَنْ فَعَلَ مِنْ أَقْرَابِ النبي ﷺ مَا لَا يَجُوزُ ، وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِيَ ، وَانْتَهَكَ حُرْمَاتِ اللَّهِ تعالى .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٦] .
فإن خَالَفُوا أَمْرَكَ يا محمد ، وَرَفَضُوا اتِّبَاعَكَ ، فَتَبَرَّأ مِنْ عَمَلِهِمُ الْبَاطِل ، وَهُوَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٤٨) : ((﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ يعني العشيرة ، ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر)) اهـ .

(٢٦) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤ / ١٧٨٧) برقم (٤٤٩٣). ومسلم (١ / ١٩٢) برقم (٢٠٦).

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٩١) برقم (١٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: " فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ " مُرَاعَاةً لِحَقِّ الْقَرَابَةِ ، وَحِفْظًا لِلنَّسَبِ وَالرُّوَاطِ الْأُسْرِيَةِ وَالْعَلَاqَاتِ الْاجْتِمَاعِيَةِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ٢١٧] .

واعتمد يا محمد على الله في كُلِّ أُمُورِكَ وَشُؤُونِكَ ، وَثِقْ بِهِ ثِقَةً مُطْلَقَةً مُبْصِرَةً ، فَهُوَ نَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ وَحَافِظُكَ . فَاللَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى قَهْرِ أَعْدَائِهِ بِعِزَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ ، عَزِيزٌ فِي انتِقَامِهِ ، رَحِيمٌ بِخَلْقِهِ، يَرْحَمُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ رَحْمَةً خَاصَّةً، وَيَرْحَمُ الْكَافِرِينَ رَحْمَةً عَامَّةً، وَذَلِكَ بَعْدَ تَعَجُّلِ عُقُوبَتِهِمْ.

وقال القرطبي في تفسيره (١٣ / ١٣٠) : ((أَي: فَوَضَّ أَمْرَكَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُعَالَبُ، الرَّحِيمُ الَّذِي لَا يَخْذُلُ أَوْلِيَائِهِ)) اهـ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٢٠٠) : ((﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ عَلَى الَّذِي يَقْهَرُ أَعْدَاءَكَ بِعِزَّتِهِ، وَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ بِرَحْمَتِهِ، يَكْفِيكَ شَرَّ مَنْ يَعْصِيكَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ. وَالتَّوَكَّلْ تَفْوِيضُ الرَّجُلِ أَمْرَهُ إِلَى مَنْ يَمْلِكُ أَمْرَهُ ، وَيَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ، وَقَالُوا : الْمُتَوَكَّلُ مَنْ إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ لَمْ يُحَاوِلْ دَفْعَهُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا هُوَ مَعْصِيَةُ اللَّهِ، وَقَالَ الْجَنِيدُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : التَّوَكَّلُ أَنْ تُقْبِلَ بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى رَبِّكَ ، وَتُعْرِضَ بِالْكُلِّيَّةِ عَمَّا دُونَهُ ، فَإِنَّ حَاجَتَكَ إِلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النَّمل : ٦] .

وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَتَأْخُذُ الْقُرْآنَ وَيُلْقِي إِلَيْكَ وَحْيًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْحَكِيمِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، الْعَلِيمِ بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَفَسَادُهُمْ .

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ كَلَامُهُ الصَّادِرُ وَفَقَّ حِكْمَةُ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، لِذَلِكَ كَانَ حَقًّا وَصِدْقًا وَنُورًا وَإِرْشَادًا وَتَوْجِيهًا . وَإِخْبَارُ اللَّهِ صِدْقٌ كَامِلٌ ، وَحُكْمُهُ عَدْلٌ تَامٌ .

وَالْآيَةُ تَمْهِيدٌ لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَهُ بَعْدَهَا مِنَ الْقَصَصِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ دَلَائِلِ حِكْمَتِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ . وَأَيْضًا ، الْآيَةُ تَرُدُّ عَلَى كِفَارِ قُرَيْشِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ .

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٢٧٣) : ((﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ ﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ ، قَدْ

سَبَقَ بَعْدَ بَيَانِ بَعْضِ شُؤُونِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، تَمْهِيدًا لِمَا يَعْقُبُهُ مِنَ الْأَقَاصِيصِ ، وَتَصْدِيرَهُ بِحَرْفِي

التَّأْكِيدِ لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْعِنَايَةِ بِمُضْمُونِهِ ، أَي: لَتُؤْتَاهُ بِطَرِيقِ التَّلْقِيَةِ وَالتَّلْقِينِ ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

أي : أيّ حكيم وأيّ عليم ، وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن ، وتنصيب على علوّ طبقته ﷺ في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق ، فإنّ مَنْ تَلَقَّى العلوم والحكم من الحكيم العليم ،

يكون علماً في رصانة العلم والحكمة ، والجمع بينهما مع دخول العلم في الحكمة لعموم العلم ، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، وللإشعار بأنّ ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة، كالعقائد والشرائع ، ومنها ما ليس كذلك ، كالقصاص والأخبار الغيبية)) اهـ .
وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

﴿

[القَصص : ٥٦] .

إِنَّكَ يَا محمد لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ أَوْ أَحْبَبْتَهُ لِقَرَابَتِهِ ، ولا تَقْدِر على إدخال الإيمان في قلبه ، مَهْمَا حاولتَ وبذلتَ مِنْ جُهود . ومهمتك مَحْصورة في تبليغ الرسالة الإلهية . وَحَدَهُ اللهُ هو القادر على هداية الناس ، فاعتمدْ عليه في كُلِّ شُؤْنِكَ ، وَتَوَكَّلْ عليه ، فهو أعلم بأهل الإيمان والسعادة ، وأهل الكفر والشقاء . يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وله الحكمة البالغة والحجة الواضحة . والله أعلم بالقابلين للهداية المستعدين لها . يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . والله تعالى أعلم بِمَنْ يختار الهداية وَيَقْبَلُهَا، وَيَتَعَطَّى بِالْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظِ، وَيَخْضَعُ لِلْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ .

وقال النسفي في تفسيره (٣ / ٢٤١) : ((والآية حُجَّة على المعتزلة ، لأنهم يقولون : الهدى هو البيان ، قَدْ هَدَى النَّاسَ أَجْمَعَ ، ولكنهم لَمْ يَهْتَدُوا بِسُوءِ اخْتِيَارِهِمْ ، فَدَلَّ أَنَّ وراءَ البيان ما يُسَمَّى هِدَايَةً ، وهو خَلْقُ الاهْتِدَاءِ ، وإعطاء التوفيق والقُدرة)) اهـ .

وقد نزلت الآية في أبي طالب . فقد كان النبي ﷺ حريصاً على إسلام عمّه ، لكنه لَمْ يُسَلِّمْ ، وماتَ على الكُفْرِ . وَقَدَّرَ اللهُ وما شَاءَ فَعَلَ . ومع أَنَّ الآية نزلت في أبي طالب إلا أنها عامّة شاملة ، لأنَّ العبرة بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب .

وفي صحيح مسلم (١ / ٥٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ : ((قُلْ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . قال : لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ ، يَقُولُونَ : إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ ، لِأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

لقد كان أبو طالب يُحب النبي ﷺ لأنه ابن أخيه ، ويدافع عنه ويحميه لاعتبارات عائلية ، ويدافع الحميّة والعصبية القبليّة. وقد حاول النبي ﷺ بكل ما أُوتِيَ من قُوّة أن يهدي عمّه أبا طالب إلى الإسلام ، لكنّه لم يستطع ، ومات أبو طالب كافراً ، ورفض الإسلام عند موته ، خوفاً أن تُعيّره قُرَيْش بذلك ، وتقول إنه جبان ، خاف من الموت ، وأصابه الرُّعب والجَزَع ، فأسلم بدافع الخوف ، وليس عن قناعة و يقين ، وتُصبح قصّته منتشرة بين قبائل العرب ، وتصير فضيحةً على كلّ لسان ،

ووصمة عار في تاريخه الشخصيّـ حَسَبَ تفكيره ورؤيتهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٢٣) : ((وقد كان يَحُوطُهُ ، وَيَنْصُرُهُ ، وَيَقُومُ فِي صَفِّهِ ، وَيُجِبُّهُ حُبّاً شَدِيداً طَبِيعياً لَا شَرْعياً ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ ، وَحَانَ أَجْلُهُ ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ وَالِدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَسَبَقَ الْقَدَرُ فِيهِ ، وَاخْتُطِفَ مِنْ يَدِهِ ، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ النَّامَةُ)) اهـ .

ولا تعارض بين هذه الآية والآية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] . فالنبي ﷺ يهدي إلى الحق ، ويُرشد إلى طريق الإيمان ، ويدلُّ الناس على سعادة الدنيا والآخرة . لكنّه لا يَقْدِرُ أَنْ يَخْلُقَ الْهَدَايَةَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْخِلَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ . إذ إن مهمة النبي ﷺ محصورة في تبليغ الرسالة الإلهية ، واللّه يهدي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ . فإن هدى الله العبدَ إلى الإيمان فَيَفْضُلِ اللهُ تَعَالَى وَلَهُ الْمِنَّةُ . وإن هداه إلى الكفر فَيَعْدِلُهُ ، وَلِلَّهِ عَلَى الْعَبْدِ الْحُجَّةُ . والإيمان شَرَفٌ عَظِيمٌ لَا يَسْتَحِقُّهُ غَالِبِيَّةُ النَّاسِ ، لِذَلِكَ مَنَعَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لَهُ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ [السجدة : ٣٠] . فأعرض عن المشركين يا محمد ، وَلَا تَعَبَأْ بِسُخْرِيَّتِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، واستمر في تبليغ الرسالة الإلهية ، وانتظر الوعدَ الإلهيَّ لك بالنصر ، وإنزالِ العذابِ بهم . إنهم مُنْتَظَرُونَ مُؤْتَكَّ أَوْ قَتْلُكَ فَيَسْتَرِيحُونَ مِنْكَ ، وتنتهي الدّعوة الإسلامية .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٠٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قِيلَ : معناه فَأَعْرِضْ عَنْ سَفْهِهِمْ ، وَلَا تُجِبْهُمْ إِلَّا بِمَا أُمِرْتَ بِهِ ﴾ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أَي : انتظر يومَ الْفَتْحِ يَوْمَ يَحْكُمُ اللَّهُ لَكَ عَلَيْهِمْ . ابن عباس : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، أَي : عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشِ مَكَّةَ ، وَأَنَّ هَذَا مَنَسُوخٌ بِالسَّيْفِ فِي " بَرَاءة " فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

﴿وَانْتَظِرْ﴾ أي : مَوْعِدِي لَكَ . قِيلَ : يَعْنِي يَوْمَ بَدْر . ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ أي : يَنْتَظِرُونَ بِكُمْ حَوَادِثَ الزَّمَانِ . وَقِيلَ : الْآيَةُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، إِذْ قَدْ يَقَعُ الْإِعْرَاضُ مَعَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ كَالْهَدَنَةِ وَغَيْرِهَا وَقِيلَ : أَعْرَضَ عَنْهُمْ بَعْدَمَا بَلَغَتْ الْحُجَّةَ . ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ . إِنْ قِيلَ : كَيْفَ يَنْتَظِرُونَ الْقِيَامَةَ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ ، فَفِي هَذَا جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الْمَوْتَ ، وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ الْقِيَامَةِ ، فَيَكُونُ هَذَا مَجَازًا . وَالْآخَرُ : إِنَّ فِيهِمْ مَنْ يَشْكُ ، وَفِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْقِيَامَةِ ، فَيَكُونُ هَذَا جَوَابًا لِهَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الْأَحْزَابُ : ١] . يُخَاطَبُ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِعِبَارَةِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ، وَلَمْ يُخَاطَبْهُ بِاسْمِهِ الْمَجْرَدِ . وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَرَفَعَ لِمَكَانَتِهِ ، وَتَعْظِيمٌ لِقَدْرِهِ . وَلَفْظَةُ ﴿النَّبِيُّ﴾ تَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالتَّشْرِيفِ ، وَتُشِيرُ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ . كَمَا أَنَّ لَفْظَةَ ﴿النَّبِيُّ﴾ تَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ وَعَدَمِ الْخَشُونَةِ وَالْقَسْوَةِ ، لِأَنَّ بَعْدَهَا أَمْرًا إِلَهِيًّا عَظِيمًا بِاتِّقَاءِ اللَّهِ .

وَلَوْ قَالَ اللَّهُ : " يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ " لَكَانَ الْخِطَابُ شَدِيدًا عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ . وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَلَطِيفٌ بِهِ ، لَا يُعَامِلُهُ بِالْقَسْوَةِ . وَإِنَّمَا يُعَامِلُهُ بِالرَّفَقِ وَالرَّحْمَةِ وَاللِّطْفِ .

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ يَأْمُرُ النَّبِيَّ ﷺ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَأَكْرَمُهَا ، وَأَشْرَفُهَا ، وَأَكْثَرُهَا تَقْوَى وَإِحْلَاصًا . فَيَنْبَغِي عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى _ اتِّقَاءِ اللَّهِ ، وَهُمْ دُونَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْتَهُ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، التَّزَمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَافْعَلْ أَوْامِرَهُ ، وَاجْتَنِبْ نَوَاهِيَهُ ، وَلَا تَنْتَهِكْ حُرْمَاتِهِ وَحُدُودَهُ . وَاثْبُتْ عَلَى مَنْهَاجِهِ ، وَدُمَّ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَأَكْثِرْ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، وَارْزُقْ مِنَ التَّقْوَى . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِيْمَانَ النَّبِيِّ ﷺ يَزْدَادُ وَلَا يَنْقُصُ ، وَأَنَّهُ يَعْلُو فِي الْمَرْتَبَةِ أَكْثَرَ فَاكْثَرُ ، وَفِي صُعُودٍ مُسْتَمِرٍّ .

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٣ / ٦١٤) : ((وَقَدْ قَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ : النَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ ، تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ ، وَأَنْ تَتْرَكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ ، عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ ، مَخَافَةَ عَذَابِ اللَّهِ))

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ . وَلَا تَسْمَعْ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْوَحْدَانِيَّةَ ، وَجَحَدُوا النُّبُوَّةَ ، وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ فِي شُؤْنِكَ ، وَلَا تَمِلْ إِلَيْهِمْ ، وَلَا تُطْعِمُهُمْ فِي صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ . وَأَيْضًا ، لَا تُطِعِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيْمَانَ وَيُخْفُونَ الْكُفْرَ .

والآية لا تعني أَنَّ النبي ﷺ أطاعهم أو استجاب لرغباتهم أو خضع لكلامهم . والله تعالى ينهى النبي ﷺ عَمَّا يَشَاءُ ، وَيَأْمُرُهُ بِمَا يَشَاءُ . والله يُوجِّهُ النبي ﷺ ، وَيُؤَدِّبُهُ ، وَيُعَلِّمُهُ . وهذا لا يعني أَنَّ النبي ﷺ انحرفَ أو ضَلَّ طريقَه . وكُلُّ الأنبياء خاضعون لله وأوامره ، ولا أحد يملك أن يرفضها أو يعلّق عليها . فالله صاحب السُّلطة العُلْيا ، ولا سُلطة فوقها .

ولا تُطع أهل الكُفر والنِّفاق ، ولا تُجامِلُهُم ، ولا تَسْتَجِبْ لأهوائهم المنحرفة ، ولا تلتفت لِدَعْوَتهم لك بترك ذِكر آلِهِتِهم بِسُوء ، ولا تَسْمَعْ لأقوالهم التي يُقَدِّمونها على شكل نصائح ، فإنهم خَوْنَةٌ ومُخَادِعُونَ وأعداء لله ورسوله ، يُريدون خِدَاعَكَ بكلامهم المعسول ، وأكاذيبهم البرّاقة ، وشعاراتهم الفارغة . بَلِّغِ الرسالة الإلهية كاملةً لهم ، وأنذِرْهم بشكل واضح لا لبس فيه ولا مُحَابَاةً ، ولا تُجامِلُهُم على حساب الدَّعوة والدين .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦٢) : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)) ناداه بالنبي ، وأمره بالتقوى ، تعظيماً له ، وتفخيماً لشأن التقوى . والمراد به الأمر بالثبات عليه ، ليكون مانعاً له عَمَّا نهى عنه بِقَوْلِهِ : « لَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » فيما يعود بَوْهَن في الدين)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٤٧ و ٣٤٨) : ((سبب نزولها أَنَّ أبا سُفيان بن حرب وعِكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السُّلَمي ، قَدِمُوا على رسول الله ﷺ في المُوَادَعَةِ التي كانت بينهم ، فَنَزَلُوا على عبد الله بن أُبَي ، ومُتَعِب بن قُشَيْر ، والجَد بن قَيْس ، فتكلموا فيما بينهم وأَتَوْا رسولَ الله ﷺ ، فدَعَوْهُ إلى أمرهم ، وعَرَضُوا عليه أشياء كَرِهَهَا ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال مُقاتل : سألوا رسولَ الله ﷺ أن يَرَفُضَ ذِكرَ اللات والعُزَّى ، ويقول إنَّ لها شفاعَةَ ، فَكَرِهَ ذلك ، ونزلت هذه الآية . وقال ابن جرير : ولا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ اطْرُدْ عَنَّا أَتْبَاعَكَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُنَافِقِينَ فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمْ رَأْيًا . فَإِنْ قِيلَ مَا الْفَائِدَةُ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولَهُ بِالْتَقْوَى ، وَهُوَ سَيِّدُ الْمُتَّقِينَ ، فَعَنَهُ ثَلَاثَةٌ أَجُوبَةٌ : أَحَدُهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ اسْتِدَامَةُ مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَالثَّانِي الْإِكْثَارُ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، وَالثَّالِثُ أَنَّهُ خُطَابٌ ، وَوُجْهٌ بِهِ ، وَالْمُرَادُ أُمَّتُهُ . قال المفسرون : وأراد بالكافرين في هذه الآية أبا سُفيان وعِكرمة وأبا الأعور ، وبالمُنافقين عبد الله بن أُبَي وعبد الله ابن سعد بن أبي سَرَحٍ وطُعْمَةُ بن أُبَيْرِق)) اهـ .

وقال الله تعالى : « قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي » [الزُّمَرُ : ١٤] .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ : اللَّهُ أَعْبُدُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، مُخْلِصًا لَهُ عِبَادَتِي وَطَاعَتِي . أَفَرُدُّهُ بِالْعِبَادَةِ ، وَلَا أَجْعَلُ لَهُ شَرِيكًا ، وَأُنْزِلُهُ عَنِ الْأَنْدَادِ ، وَدِينِي يَكُونُ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى ، بِلَا شَرِّكَ أَكْبَرِ (عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ) وَلَا شَرِّكَ أَصْغَرَ (رِبَاءِ) .

وَالْآيَةُ تُفِيدُ الْحَصَرَ وَالِاخْتِصَاصَ ، وَالْمَعْنَى : أَعْبُدُ اللَّهَ ، وَلَا أَعْبُدُ أَحَدًا مَعَهُ . وَهَذَا الْحَصَرُ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللَّهِ ، وَيَعْبُدُونَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَيْضًا الْأَصْنَامَ كَمَا تُقَرَّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ — وَفَقَّ عَقِيدَتُهُمْ — . لَقَدْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ بِوَصْفِهِ الْمَعْبُودِ الْأَعْلَى ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْأَصْنَامِ وَيَعْبُدُونَهَا بِاعْتِبَارِهَا آلِهَةً أَرْضِيَّةً تُقَرَّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ الْإِلَهِ الْأَعْظَمِ وَالْأَعْلَى .

لِذَلِكَ ، لَا يَكْفِي أَنْ يَعْبُدَ الْإِنْسَانُ اللَّهَ . يَجِبُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْعَقِيدَةُ السَّلِيمَةُ ، وَغَيْرُهَا عِبَارَةٌ عَنْ عَقَائِدِ شَرَكِيَّةٍ وَمُنْحَرِفَةٍ . وَالْإِنْسَانُ أَمَامَ خِيَارَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا : التَّوْحِيدُ أَوْ الشَّرْكَ . وَلَا تُوجَدُ مَنْطِقَةٌ وَسَطَى بَيْنَهُمَا ، وَلَا يُوجَدُ حُلٌّ وَسَطٌ . وَمَنْ كَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَحْدَهُ فَقَدْ نَجَا . وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ خُرًّا ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَبْدًا . إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، أَوْ عَبْدًا لِغَيْرِهِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦١) : ((أُمِرَ بِالْإِخْلَاصِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ ، بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِخْلَاصِ عَنْ كَوْنِهِ مَأْمُورًا بِالْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، خَائِفًا عَنِ الْمُخَالَفَةِ مِنَ الْعِقَابِ قَطْعًا لِأَطْمَاعِهِمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [الْقَمَر : ٢] . وَإِنْ بَرَّ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ عِلَامَةً وَاضِحَةً ، وَمُعْجِزَةً ظَاهِرَةً ، تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِحَّةِ نُبُوتِهِ ، يُعْرِضُوا عَنْهَا ، وَيَرْفُضُوا الْإِيمَانَ ، وَيَقُولُوا : هَذَا سِحْرٌ دَائِمٌ ، وَقَدْ سَحَرَ مُحَمَّدٌ أَعْيُنَنَا . وَالْمَقْصُودُ بِـ ﴿ آيَةً ﴾ مُعْجِزَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَشُقَّ لَهُمُ الْقَمَرُ ، وَأَخْبَرُوهُمُ بِأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ أَنْ يَشُقَّ الْقَمَرُ ، فَانْشَقَّ فَرَقَتَيْنِ . فَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ الْمُعْجِزَةَ الْبَاهِرَةَ اتَّهَمُوا النَّبِيَّ ﷺ بِالسَّحَرِ ، وَأَنَّهُ سَحَرَ أَعْيُنَهُمْ ، فَكَذَّبُوهُ ، وَأَعْرِضُوا عَنِ الْإِيمَانِ . وَالْآيَةُ : ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ رَأَوْا آيَاتٍ مُتَتَابِعَةً وَمُعْجِزَاتٍ مُتَتَابِعَةً ، وَوَصَفُوهَا بِأَنَّهُ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَشَدِيدٌ وَدَائِمٌ وَبَاقٍ بِلَا انْقِطَاعٍ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى عِنَادِهِمْ ، وَطُغْيَانِهِمْ ، وَقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٨٧ و ٨٨) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ، فَشُقِّ لَنَا الْقَمَرُ فَرَقَتَيْنِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنْ

فَعَلْتُ تُوْمِنُوا " ، قالوا : نعم . فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَبَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا قَالُوا ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ ،
ورَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنَادِي : " يَا فُلَانُ ، يَا فُلَانُ ، اشْهَدُوا " . وذلك بمكة قبل الهجرة)) اهـ .
وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : انشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَقَّتَيْنِ ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((اشْهَدُوا)) (28) .

وفي مسند أحمد (٣ / ١٦٥) عن أنس : سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ
مَرَّتَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) ﴾ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [الْقَمَر : ٣] .
وَكَذَّبَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ بآيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ ، وَمُعْجَزَاتِهِ الظَّاهِرَةِ ، فَقَدْ أَنْكَرُوا آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ ،
وَكَذَّبُوا الْحَقَّ ، وَاتَّبَعُوا ضَلَالَاتِهِمْ ، وَاخْتَارُوا لَهُمُ الْبَاطِلَةَ ، وَأَهْوَاءَهُمُ الْفَاسِدَةَ ، وَآرَاءَهُمُ الْمُنْحَرِفَةَ ،
وَكُلُّ عَمَلٍ يَسْتَقَرُّ بِعَامِلِهِ ، فَالْخَيْرُ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالشَّرُّ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِهِ فِي النَّارِ .
وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٢٦) : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَي : كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَمَا
عَايَنُوا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، وَاتَّبَعُوا مَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْبَاطِلِ . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾
قال الكلبي : لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ ، مَا كَانَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا فَسَيَظْهَرُ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ
فَسَيُعْرَفُ . وقال قتادة : كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ، فَالْخَيْرُ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ ، وَالشَّرُّ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِ الشَّرِّ .
وقيل : كُلُّ أَمْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ يَسْتَقَرُّ قَرَارَهُ ، فَالْخَيْرُ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ ، وَالشَّرُّ يَسْتَقَرُّ بِأَهْلِهِ
فِي النَّارِ . وقيل : يَسْتَقَرُّ قَوْلُ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ ، حَتَّى يَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ بِالثَّوَابِ ، وَقَالَ مَقَاتِلُ :
لِكُلِّ حَدِيثٍ مُنْتَهَى . وقيل : كُلُّ مَا قُدِّرَ كَائِنْ وَاقِعٍ لَا مَحَالَةَ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [الْقَمَر : ٤] .
ولقد جاء هؤلاء المشركين مِنْ قُرَيْشٍ ، الَّذِينَ كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وَجَحَدُوا بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْكَرُوا
الْمُعْجَزَاتِ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَآرَاءَهُمْ ، مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ ، وَالَّتِي كَذَّبَتْ
أَنْبِيََاءُهَا ، فَعُوقِبَتْ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ ، مَا فِيهِ وَاعِظٌ لَهُمْ وَزَاجِرٌ ، يَرُدُّهُمْ عَنِ الشَّرِّ وَالْكَذِبِ .
فَالْعَذَابُ أَوْ الْوَعِيدُ مَانِعَانِ مِنَ الْكُفْرِ . وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ ، وَأَخَذَ الدَّرْسَ وَالْعِبْرَةَ مِنَ الْأُمَمِ
السَّابِقَةِ ، وَالْجَاهِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَسْتَقِدْ مِنْ أَحْوَالِ الْآخِرِينَ .

(٢٨) متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٣٠) برقم (٣٤٣٧) ، ومسلم (٤ / ٢١٥٨) برقم (٢٨٠٠) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ١١٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أَي : مِنْ بَعْضِ الْأَنْبَاءِ ، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّ لَهُمْ فِيهِ شِفَاءً ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ أُمُورٌ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَيْنَا مَا عَلِمَ أَنَّ بِنَا إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، وَسَكَتَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أَي جَاءَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ مِنَ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أَي : مَا يَزُجِّرُهُمْ عَنِ الْكُفْرِ لَوْ قَبِلُوهُ)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٧ / ٦٧٣) : ((وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ عُمَرَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ خَطَبَ بِالْمَدِينَةِ ، فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ . قَالَ : أَحَلَّ فِيهِ (فِي الْقُرْآنِ) الْحَلَالَ ، وَحَرَّمَ فِيهِ الْحَرَامَ ، وَأَنْبَأَكُمْ فِيهِ مَا تَأْتُونَ ، وَمَا تَدْعُونَ ، لَمْ يَدْعُكُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ دِينِكُمْ ، كَرَامَةً أَكْرَمَكُمْ بِهَا ، وَنِعْمَةً أَتَمَّ بِهَا عَلَيْكُمْ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّنْذِرُ ﴾ [الْقَمَر : ٥] .

هَذَا الْقُرْآنُ حِكْمَةٌ تَامَّةٌ ، فِي قِمَّةِ الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْهُدَايَةِ ، فَمَاذَا تَنْفَعُ الْمَوَاعِظُ وَالْإِنْذَارَاتُ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ وَالتَّعَاسَةَ ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ؟ .

إِنَّمَا لَا تَنْفَعُ الْقَوْمَ الَّذِينَ رَفَضُوا الْإِيمَانَ ، وَكَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وَطَعَنُوا فِي رَسُولِهِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٩٠) : ((وَ " مَا " فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَا تُغْنِ التَّنْذِرُ ﴾ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا بِمَعْنَى التَّوْبِيخِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي التَّنْذِرُ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ نَفْيًا عَلَى مَعْنَى : فَلَيْسَتْ تُغْنِي التَّنْذِرُ . قَالَ الْمَفْسَّرُونَ : وَالْمَعْنَى جَاءَهُمُ الْقُرْآنُ وَهُوَ حِكْمَةٌ تَامَّةٌ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ ، فَمَا تُغْنِي التَّنْذِرُ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الْمُمتَحَنَةِ : ١٢] .

هَذِهِ الشُّرُوطُ السَّتَةُ هِيَ شُرُوطُ بَيْعَةِ النِّسَاءِ ، وَهِيَ بَيْعَةُ بِالْكَلامِ مِنْ غَيْرِ مُصَافَحَةٍ . فَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَمَسُّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٦ / ٢٦٣٧) : عَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : ((وَمَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ إِلَّا امْرَأَةٌ يَمْلِكُهَا)) .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، إِذَا جَاءَكَ النِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ بِاللَّهِ لِلْبَيْعَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَبَايِعْهُنَّ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ السَّتَةِ ، وَأَوَّلُ هَذِهِ الشُّرُوطِ وَأَعْظَمُهَا عَدَمُ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَالْشُّرْكُ بِاللَّهِ أَعْظَمُ الْكِبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ فَهُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا .

﴿ وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾ . وَلَا يَسْرِقَنَّ أَمْوَالَ النَّاسِ ، أَمَّا إِنْ كَانَ زَوْجُهَا مُقْصَرًّا فِي الْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا ، فَلَهَا أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ بِدُونِ عِلْمِهِ عَلَى قَدَرِ حَاجَتِهَا ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهَا .

وعن عائشة قالت : دخلتُ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ امرأةَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، لَا يُعْطِينِي مِنَ النِّفْقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ ، إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ ، فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكَ وَيَكْفِي بَنِيكَ)) (29) .

إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ بَخِيلٌ ، لَا يُنْفِقُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ بِالشَّكْلِ الْكَافِي ، فَتَضْطَرُّ زَوْجَتُهُ إِلَى الْأَخْذِ مِنْ مَالِهِ بِدُونِ عِلْمِهِ ، وَقَدْ سَأَلَتْ هَلْ يَنَالُهَا إِثْمٌ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ . فَأَرْشَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ زَوْجِهَا بِالْمَعْرُوفِ ، عَلَى قَدَرِ حَاجَتِهَا وَحَاجَةِ وَلَدِهَا (مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أَمْثَالِهَا) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٧) : ((في هذا الحديث فوائد : ١ _ وجوب نفقة الزوجة . ٢ _ وجوب نفقة الأولاد الفقراء الصغار . ٣ _ النفقة مُقَدَّرَةٌ بِالْكَفَايَةِ ... ٤ _ جواز سماع كلام الأجنبية عند الإفتاء والحكم وكذا ما في معناه . ٥ _ جواز ذكر الإنسان بما يكرهه إذا كان للاستفتاء والشكوى ونحوهما . ٦ _ مَنْ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ حَقٌّ وَهُوَ عاجز عن استيفائه ، يجوز له أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ قَدْرَ حَقِّهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، وَهَذَا مَذْهَبُنَا ، وَمُنَعَ ذَلِكَ)) اهـ .

﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ . وَلَا يَزْنِيَنَّ جَرِيمَةُ الزَّنا ، فَهِيَ مِنْ أَسْوَأِ الْفَوَاحِشِ ، وَعَقُوبَتُهَا شَدِيدَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَعَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : جَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عُتْبَةَ بِنَ رِبْعَةَ ثُبَايِعِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ، الْآيَةَ . قَالَتْ : فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً ، فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْهَا . فَقَالَتْ عَائِشَةُ : أَقْرَى أَيْتِهَا الْمَرْأَةُ ، فَوَاللَّهِ مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا ، قَالَتْ : فَنَعَمْ إِذَا ، فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ (30) .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ أَنْ تَزْنِيَ الْمَرْأَةُ الْخُرَّةُ . فَالزَّنا مِنْ خِصَائِصِ الْإِمَاءِ صَاحِبَاتِ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ . أَمَّا الْحَرَائِرُ الْمُنْتَمِيَاتُ إِلَى الْعَائِلَاتِ الْمُحْتَرَمَةِ ، وَالْقَبَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ ، فَهِنَّ بَعِيدَاتُ كُلِّ الْبُعْدِ عَنِ الزَّنا . فَهَذِهِ الْجَرِيمَةُ سَتَجْلِبُ الْعَارَ إِلَى عَائِلَاتِهِنَّ ، وَهَذَا الْعَارُ لَا يُمْكِنُ غَسْلُهُ ، وَلَا يُمْكِنُ نَسْيَانُهُ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ ، وَسَيُظِلُّ الْخِزْيَ وَالْعَارَ وَالتَّعْيِيرَ طِيلَةَ الْحَيَاةِ .

(٢٩) رواه مسلم (٣ / ١٣٣٨) برقم (١٧١٤) ، والبخاري (٥ / ٢٠٥٢) برقم (٥٠٤٩) .

(٣٠) رواه أحمد في مسنده (٦ / ١٥١) واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه (١٠ / ٤١٨) .

ولهذا لَمَّا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ (امرأة أبي سفيان) على ألا تزني ، قالت : ((وهل تزني الحرة ؟!))⁽³¹⁾ . وهذا يُشير إلى أن الزَّنا لم يكن من خصائص الحرائر صاحبات المكانة الرفيعة ، بل هو أمرٌ قدر تختص به الإماء المحصورات في قاع المجتمع .

﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ . المقصود هو وأد البنات . ففي الجاهلية كانوا يدفنون البنات أحياء ، خوفاً من العار أو الفقر . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٥٢) : ((وهذا يشمل قتلَه بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق (الافتقار) ، ويعمُّ قتلَه وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح أنفسها لئلا تحبل ، إمّا لغرض فاسد أو ما أشبهه)) اهـ .

﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَانٍ يُفْتَرِيْنِهِ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ ﴾ . ولا يكذبن في مولود بين أيديهن وأرجلهن . وكانت المرأة في الجاهلية إذا خافت أن يتركها زوجها لعدم الحمل ، أو أرادت المحافظة على مال زوجها الذي ليس له ولد ، تلتقط ولدًا ، وتزعم أنها قد ولدته . ومعنى الآية : ولا تنسب إلى زوجها ولدًا لقيطًا ليس منه ، وتقول له : هذا ولدي منك . وليس المراد في هذا السياق أنها تنسب ولدًا من الزَّنا إلى زوجها ، لأن ذلك دخل تحت التَّهْي عن الزَّنا : ﴿ وَلَا يَزْنِيْنَ ﴾ .

وهذا يدل على ضرورة نقاء الأنساب من الشك والاحتمال، لما في ذلك من تدعيم للوحدة المجتمعية ، والروابط الأسرية والعشائرية ، والمحافظة على الطهارة الإنسانية ، ومكارم الأخلاق ، بعيداً عن الكذب والخيانة والخداع . خصوصاً أن قضية الأنساب شديدة الحساسية لأنها تتعلق بالقيم والمبادئ والشرف الذي له قدسيته في كل المجتمعات على اختلاف أديانها وأعراقها .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٠٠) : ((ليس المراد منه نهيه عن الزَّنا ... بل المراد منه أن تلتقط مولودًا ، وتقول لزوجها: هذا ولدي منك . فهو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها)) اهـ . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٤٣٣) : ((في حديث بيعة النساء ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَانٍ يُفْتَرِيْنِهِ ﴾ هو الباطل الذي يُتَحَيَّر منه ، وهو من البُهْت التحير ، والألف والنون زائدتان . يقال بَهْتَه يَبْهَتْه . والمعنى : لا يأتين بولد من غير أزواجهن فينسبونه إليهم . والبُهْتُ : الكذب والافتراء)) اهـ .

(٣١) قال ابن حجر في الإصابة (٨ / ١٥٥) : ((من طرق ما أخرجه ابن سعد بسند صحيح مُرْسَل عن الشعبي، وعن ميمون بن مهران، ففي رواية الشعبي: " ولا يزْنين "، قالت هند: وهل تزني الحرة ؟!)) .

وفي تفسير ابن كثير (٤ / ٤٥٢) : ((قال ابن عباس : يعني لا يُلْحَقْنَ بأزواجهنَّ غير أولادهنَّ ، وكذا قال مقاتل)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنَّ النبي ﷺ قال : ((أيُّما امرأة أدخلت على قومٍ من ليس منهم ، فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته)) (32).

إنَّ المرأة التي تُدخل على القوم ولدًا ليس منهم (تنسب إلى زوجها ولدًا ليس منه) ، قد عرَّضت نفسها للعذاب الإلهي الشديد ، فهي امرأة خائنة ، لا علاقة بينها وبين الله تعالى ، وليست مَعْنِيَّةً بأحكام الله وتعاليمه ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللهُ جَنَّتَهُ مع السابقين ، وإنما يُؤَخِّرُهَا ويُعَذِّبُهَا . وهذه المرأة قد ساهمت في اختلاط الأنساب ، ونشر الرذيلة . وقد خانت زوجها ، وجلبت العارَ لمؤسسة الزواج ، ولم تحفظ حُرمة فراش الزوجية .

وَوَفَّقَ مفهوم المُخَالَفة ، فَإِنَّ مَنْ حَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وحافظت على نَسَب زوجها ، فهي مِنَ اللهِ في شيء ، وسوف يرحمها الله ويغفر لها ، لأنها امرأة شريفة عفيفة ، التزمت بتعاليم القرآن التي تدعو إلى الإخلاص والشرف ومكارم الأخلاق ، وسيُدْخِلُهَا اللهُ جَنَّتَهُ .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (١ / ٥١٥) : ((المراد أنها حَمَلَتْ مِنْ زِنَا أو نَحْوِهِ ، فأنت بولد ، فنسبته لصاحب الفِرَاش ، فصار ولدُه في الظاهر ، يَطَّلَع على باطن أمره ، ويعوله ما دام حيًّا ، ويرثه إذا مات ، وإنما اشتد غضبُ اللهِ عَلَيْهَا ، لأن هذه الخيانة منها تَعُود بفساد فِرَاش الزَّوْج وفساد النَّسَب ، الذي جعله اللهُ بين الناس لتمام مصالحهم ، وَعَدَّهُ مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ . فالزَّنا يُفْضِي إلى اختلاط المياه ، واشتباه الأنساب ، فهي جديرة بغضب ربِّ الأرباب)) اهـ .

﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ . وَلَا يُخَالِفَنَّ أَمْرَكَ فيما أمرتهنَّ بِهِ مِنْ مَعْرُوفٍ ، أو نهيتهنَّ عنه مِنْ مُنْكَرٍ . وإنما يَسْمَعْنَ وَيُطِيعْنَ . والمعروفُ هو ما وافق طاعةَ اللهِ تعالى . والآية دليل على أنَّ طاعة وِلَاة الأمر مَحْصُورَةٌ في المعروف ، ولا طاعة لهم في المُنْكَر .

وفي سنن ابن ماجه (١ / ٥٠٣) عن أمِّ سَلَمَةَ: عن النبي ﷺ : _ ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾

قال : ((التَّوْح)) .

(٣٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٢٠) برقم (٢٨١٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٣٠ / ١) : ((والتقييد بالمعروف مع أنَّ الرسول ﷺ لا يأمر إلا به ، تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٤٧ / ٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ التَّوْحُّ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَرُويَ مَرْفُوعًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ . وَالثَّانِي أَنَّهُ لَا يَدْعِينَ وَيَلًا ، وَلَا يَخْدُشْنَ وَجْهَهَا ، وَلَا يَنْشُرْنَ شَعْرًا ، وَلَا يَشْقُقْنَ ثَوْبًا ، قَالَه زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ . وَالثَّالِثُ جَمِيعُ مَا يَأْمُرُهُنَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ ، قَالَه أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ الْوَلَاةِ إِنَّمَا تَلْزَمُ فِي الْمَبَاحِ دُونَ الْمَحْظُورِ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١٨٥٧ / ٤) : عن ابن عباس في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾

قال : ((إِنَّمَا هُوَ شَرْطُ شَرْطِهِ اللَّهُ لِلنِّسَاءِ)) . والمعنى : إِنَّهُ شَرْطٌ عَلَى النِّسَاءِ ، نَزَلَ فِي شَأْنِهِنَّ . وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الرِّجَالَ غَيْرَ مُطَالِبِينَ بِذَلِكَ . ﴿ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ ﴾ . إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى هَذِهِ الشُّرُوطِ كَامِلَةً ، فَبَايِعْنَهُنَّ ، وَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُنَّ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ ، وَيَسْتَرْهَا عَلَيْهِنَّ بِعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣٠٣ / ٥) : ((﴿ فَبَايِعْنَهُنَّ ﴾ هَذَا جَوَابٌ ﴿ إِذَا ﴾ . وَالْمَعْنَى : إِذَا بَايَعْتَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ فَبَايِعْنَهُنَّ . وَلَمْ يَذْكُرْ فِي بَيْعَتِهِنَّ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ ، لَوْضُوحِ كَوْنِ هَذِهِ الْأُمُورِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ وَشُعَائِرِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْأُمُورَ الْمَذْكُورَةَ لِكَثْرَةِ وَقُوعِهَا مِنَ النِّسَاءِ)) اهـ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ ، عَظِيمَ الرَّحْمَةِ . يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَيَرْحَمُهُمْ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ قَالَ : شَهِدْتُ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْفِطْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ، فَكُلُّهُمْ يُصَلِّيهِمَا قَبْلَ الْخُطْبَةِ ثُمَّ يَخْطُبُ بَعْدَ ، فَنَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ حِينَ يَجْلِسُ الرِّجَالُ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَشْقُقُهُمْ حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ مَعَ بِلَالٍ ، فَقَالَ : ((﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾)) . حَتَّى قَرَعَ مِنَ الْآيَةِ كُلِّهَا ثُمَّ قَالَ حِينَ قَرَعَ : ((أَتُنَّتْ عَلَى ذَلِكَ ؟)) . وَقَالَتْ امْرَأَةٌ وَاحِدَةً _ لَمْ يُجِبْهُ غَيْرُهَا _ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ (33) .

والحديث يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ وَعُظِّ النِّسَاءِ ، وَإِرْشَادِهِنَّ ، وَتَعْلِيمِهِنَّ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ .

(٣٣) متفق عليه . البخاري (١٨٥٧ / ٤) برقم (٤٦١٣) ، ومسلم (٦٠٢ / ٢) برقم (٨٨٤) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦ / ١٧٢) : ((وهذا إذا لم يترتب على ذلك مفسدة ، وخوف على الواعظ أو الموعوظ أو غيرهما ، وفيه أن النساء إذا خَصَرْنَ صلاة الرجال ومجامعهم يَكُنَّ بِمَعْزِلٍ عنهم ، خَوْفًا مِنْ فِتْنَةٍ أو نظرة أو فِكْرٍ ، وَنَحْوِهِ)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (٢ / ٤٦٧) : ((وفيه دلالة على الاكتفاء في الجواب بنعم ، وتَنزِيلُهَا مَنْزِلَةَ الإقرار، وأنَّ جواب الواحد عن الجماعة كافٍ، إذا لم يُنكَرُوا ولم يَمْنَعْ مانع مِنْ إنكارهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٦٣) : ((قال المهدوي : أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهنَّ هذا ، والأمر بذلك نَدْب لا إزام . وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المِحنة من أجل تباعد الدار ، كان على إمام المسلمين إقامة المِحنة)) اهـ .

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٨ / ٢٥٨) : ((كانت بَيْعَةُ النساء في ثاني يوم الفَتْح على جبل الصَّفَا ، بعدما فَرَّغَ مِنْ بَيْعَةِ الرجال ، وكان رسول الله ﷺ على الصَّفَا ، وعُمَرُ أسفل منه ، يُبَايِعُهُنَّ بأمره ، ويُلْغِهِنَّ عنه ، وما مَسَّتْ يَدُهُ عليه الصلاة والسلام يَدَ امرأة أجنبية قَطْ، وقالت أسماء بنت يزيد : كُنْتُ فِي النَّسوةِ الْمُبَايَعَاتِ ، فَقُلْتُ : يا رسول الله ، أَبْسُطْ يَدَكَ بُبَايَعَكَ . فقال لي عليه الصلاة والسلام : " إني لا أَصَافِحُ النساءَ ، لكن آخِذٌ عَلَيْهِنَّ ما أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِنَّ " . وكانت هِنْدُ بنت عُتْبَةَ _ وهي التي شَقَّتْ بَطْنَ حَمْزَةَ يوم أُخِذَ _ مُتَنَكِّرةً في النساء ، فَلَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِنَّ الآيَةَ :

﴿ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾ قالت وهي مُتَنَكِّرة : يا رسول الله ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ ، وَإِنِّي لَأُصِيبُ الْهَنَةَ _ أَيِ الْقَلِيلِ وَبَعْضُ الشَّيْءِ _ مِنْ مَالِهِ ، لَا أَدْرِي أَيْجَلُّ لِي ذَلِكَ أَمْ لَا ؟ . فقال أبو سُفْيَانَ : ما أَصَبْتَ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا عَبَرَ فَهُوَ لَكَ حَلَالٌ ، فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَرَفَهَا فَقَالَ لَهَا : " وَإِنَّكَ لِهِنْدُ بنت عُتْبَةَ ؟ " ، قالت : نعم ، فَاغْفُ عَمَّا سَلَفَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، عَفَا اللَّهُ عَنْكَ . فَلَمَّا قَرَأَ ﴿ وَلَا يَزْنِيَنَّ ﴾ قالت : أَوْ تَزْنِي الْحُرَّةُ ؟ . فَلَمَّا قَرَأَ ﴿ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ قالت : رَبِّنَاهُمْ صِغَارًا وَقَتَلْتَهُمْ كِبَارًا ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ أَعْلَمُ _ وَكَانَ ابْنُهَا حَنْظَلَةُ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ _ فَضَحَكَ عُمَرُ حَتَّى اسْتَلْقَى ، وَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَلَمَّا قَرَأَ ﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قالت هند : وَاللَّهِ إِنَّ الْبُهْتَانَ لَأَمْرٌ قَبِيحٌ ، وَلَا يَأْمُرُ اللَّهُ إِلَّا بِالرُّشْدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . فَلَمَّا قَرَأَ ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قالت : وَاللَّهِ مَا جَلَسْنَا مَجْلِسَنَا هَذَا ، وَفِي أَنْفُسِنَا أَنْ نَعْصِيَنَّكَ فِي شَيْءٍ)) اهـ .

وعن أميمة بنت رقيقة_وهي أخت خديجة أم المؤمنين وخالة فاطمة الزهراء _ أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة يُبايعنه، فقلن: نُبَاعِكَ يا رسول الله على أن لا نُشْرِكَ بالله شيئاً، ولا نَسْرِقَ، ولا نَزْنِي ، ولا نَقْتُلَ أولادنا ، ولا نَأْتِي بُهْتَان نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا ، ولا نَعْصِيكَ فِي مَعْرُوف . فقال رسول الله ﷺ : ((فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ)) . قالت: فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا ، هَلَمْ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال رسول الله ﷺ : ((إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمَثَرَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ)) (34) .

تتضح المنهجية الإسلامية التي طبّقها النبي ﷺ في بيعه النساء . فالنبي ﷺ كان يمتحن المؤمنات المهاجرات إليه ويختبر إيمانهن . ولما فتح النبي ﷺ مكة، جاءت نساء أهل مكة يُبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن الشروط الستة، فمن أقرت بهذه الشروط كاملة، بايعها النبي ﷺ كلاماً دون أن يُصافحها .

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمْتَحَنَنَّ بِقَوْلِ اللَّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ إلى آخر الآية . قالت عائشة : فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالميعة . وكان رسول الله ﷺ إذا أقرن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ : ((انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُنَّ)) . ولا والله ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، غير أنه يُبايعهن بالكلام . قالت عائشة : والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط ، إلا بما أمره الله تعالى ، وما مسّت كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : ((قَدْ بَايَعْتُنَّ)) كلاماً (35) .

كان النبي ﷺ _ إذا جاءه المؤمنات مهاجرات إليه _ ، يختبرهن بما يتعلق بإيمانهن ، ويحكم على الظاهر دون الاطلاع على القلوب . والبيعة الشرعية تقوم على إقرارهن بالشروط الستة الواردة في الآية . وكان النبي ﷺ يقرؤها على مسامعهن كي يعرفن شروط البيعة ، ويكون إيمانهن على نور وبصيرة ، وليس تسليماً أعمى بلا معرفة . وبيعة النساء تكون بالكلام بلا مُصافحة . والإسلام قد سدّ الدرائع، وأغلق طريق الفتنة، وحمى الناس من الشهوات المحرمة والخواطر السيئة.

(٣٤) رواه ابن حبان في صحيحه (١٠ / ٤١٧) برقم (٤٥٥٣) .

(٣٥) متفق عليه، واللفظ لمسلم (٣ / ١٤٨٩) برقم (١٨٦٦) . والبحاري (٥ / ٢٠٢٥) برقم (٤٩٨٣) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ١٠) : ((معنى " يُمْتَحَن " يُبَايِعُهُنَّ عَلَى هذا المذكور في الآية الكريمة . وَقَوْلُهَا : " فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمُحَنَةِ " معناه فقد بَايَعَ الْبَيْعَةَ الشَّرْعِيَّةَ . قَوْلُهَا : " وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلَامِ " ، فِيهِ أَنَّ بَيْعَةَ النِّسَاءِ بِالْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ أَخْذِ كَفِّ ، وَفِيهِ أَنَّ بَيْعَةَ الرِّجَالِ بِأَخْذِ الْكَفِّ مَعَ الْكَلَامِ . وَفِيهِ أَنَّ كَلَامَ الْأَجْنِيَّةِ يُبَاحُ سَمَاعُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَأَنَّ صَوْتَهَا لَيْسَ بِعَوْرَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا يُلْمَسُ بَشَرَةُ الْأَجْنِيَّةِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ ، كَتَطَيُّبِ وَفَصْدِ (قَطْعِ عِرْقِ) ، وَحِجَامَةٍ ، وَقَلْعِ ضِرْسٍ ، وَكُحْلِ عَيْنٍ وَنَحْوِهَا ، مِمَّا لَا تَوْجِدُ امْرَأَةً تَفْعَلُهُ ، جَازَ لِلرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ فِعْلُهُ لِلضَّرُورَةِ)) اهـ .

وعن عبادة بن الصامت قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ ، فَقَالَ : ((تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ)) (36).

وَالْعُقُوبَةُ هِيَ الْحَدُّ ، فَمَنْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً وَأُفِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، فَهُوَ تَطْهِيرٌ لَهُ ، وَالْحَدُّ يُكْفِّرُ ذَنْبَ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُصُوصِ هَذَا الذَّنْبِ . وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ قَاطِبَةً عَلَى أَنَّ إِثْمَ الْمَعَاصِي الْكِبَائِرِ يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ . وَمَنْ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً ، وَسَتَرَهُ اللَّهُ ، وَلَمْ يُقَمِّ عَلَيْهِ الْحَدُّ ، فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَلَهُ بِفَضْلِهِ ، وَعَفَا عَنْهُ ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ الْمِنَّةُ الْعَظِيمَةُ ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَلَهُ بِعَذْلِهِ ، وَعَذَّبَهُ ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ الْخُجَّةُ الْبَالِغَةُ . وَعَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ أَصَابَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا ، فَعُوقِبَ بِهِ ، فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّي عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَسَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَعَفَا عَنْهُ ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ عَفَا عَنْهُ)) (37).

(٣٦) متفق عليه. مسلم (١٣٣٣ / ٣) برقم (١٧٠٩) ، والبخاري (٢٤٩٠ / ٦) برقم (٦٤٠٢) .

(٣٧) رواه الحاكم في المستدرک (٤٨٣ / ٢) برقم (٣٦٦٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الفصل التاسع عشر
مُعَاتَبَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ

تمهيد

إِنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ عِتَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ هِيَ مُعَاتِبَةُ الْحَبِيبِ لِلْحَبِيبِ . فلا ينبغي الاعتقاد بأنها إهانة لِمَقَامِ النَّبُوَّةِ ، أو خفض درجة حامل الرسالة ، أو رُسُوب في الامتحان أمام الحضرة الإلهية . فهذه المعاني غير واردة البتة . لكنَّ الله تعالى يُرَبِّي أَنْبِيَاءَهُ ، ويُحْصِي عَلَيْهِمْ حَرَكَاتِهِمْ وَسَكَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ سَادَةُ الْبَشَرِيَّةِ ، وقادة الوجود الإنسانيِّ، وليسوا بَشَرًا عَادِيَّين. والقاعدة العامة تقول إِنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُفْرِّينِ. وكلما ارتفع مقامُ الْعَبْدِ عند الله ، ازدادَ التَّدْقِيقُ عَلَيْهِ .

وبما أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وسادة البشرية ، كان التدقيق عليهم شديدًا، لأنَّ الله يُحِبُّهُمْ ، ويُريدُ أَنْ يُوصِلَهُمْ إِلَى الْكَمَالِ الْبَشَرِيِّ عبر تَطْهِيرِهِمْ مِنْ كُلِّ مُخَالَفَةٍ، وتنقيتهم بالبلاء والامتحانات الشديدة. وكُلُّ الامتحانات التي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا، إنما هي لزيادة إيمانهم، ورفع درجاتهم. والجدير بالذكر أن إيمان الناس يَزِيدُ بالطاعات ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعَاصِي . أمَّا إيمانُ الْأَنْبِيَاءِ فَيَزِدُّ وَلَا يَنْقُصُ . يزداد بكثرة العبادة مَعَ الْإِحْلَاصِ الشَّدِيدِ الَّذِي لَا تَشْوِبُهُ شَائِبَةٌ . لذلك ، كانت قُلُوبُ الْأَنْبِيَاءِ فِي قِمَّةِ الصَّفَاءِ وَالطَّهَارَةِ . وهذا يَعْنِي أَنَّهَا بِيئَةٌ نَظِيفَةٌ لاحتضان الإيمان والأسرار الإلهية .

وعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً؟، قَالَ: ((النَّبِيُّونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، إِنْ كَانَ صَلَبَ الدِّينِ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَدَّعَى يَمَشِي عَلَى الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ)) [رواه الحاكم في المستدرک (١ / ١٠٠) وصَحَّحَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٥٣٦)].

ومن خلال هذا الفكر الشُّمولي ، يتأسَّس الوجودُ الْبَشَرِيُّ فِي مَرْكَزِ الْاِخْتِبَارِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَرْمِي إِلَى تَنْقِيَةِ الْبَشَرِ مِنَ الشَّوَائِبِ ، وتخليصهم مِنْ عِبَاءِ الْخَطَايَا ، مِنْ أَجْلِ رَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ ، وقيادتهم إِلَى النِّجَاحِ بِتَفُوقٍ فِي الدَّارَيْنِ . فلا بُدَّ مِنْ تَجَاوُزِ الْامْتِحَانِ لِلْحَصُولِ عَلَى دُرْجَةِ عُلْيَا ، وَنَيْلِ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ. كما أَنَّ الْعِتَابَ الْإِلَهِيَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ لَا كَلَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فلا يُمْكِنُ لِمُؤَلِّفِ كِتَابٍ أَنْ يَزُدَّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعَاتِبَ نَفْسَهُ، وَيُكْشِفُ بَعْضَ أُمُورِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْحَسَّاسَةِ أَمَامَ النَّاسِ ، وَهَذِهِ الرُّؤْيَا قَلَمًا يَنْتَبِهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي

وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ أَضَاعَ الْعُمْرَ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ
 قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا
 وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ^(١).

الآية عتابٌ للنبي ﷺ ولأصحابه بسبب أخذهم الفداء من أسرى بدر ، مقابل إطلاق سراحهم .
 لا يحقُّ لنبيٍّ من الأنبياء ولا ينبغي له أن يكون له أسرى من المشركين ، يأخذ مقابلهم فديةً ،
 أو يمنُّ عليهم بإطلاق سراحهم ، حتى يُبالغ في قتل المشركين الذين رَفَضُوا كُلَّ آيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ،
 واختاروا أن يكونوا أعداءً للدعوة الإسلامية بكل الوسائل . والهدف من الإكثار من قتل المشركين
 والمُبالغة فيه ، هو سَحْقُ الكُفْرِ وتقليل أعداد الكافرين ، ورفع راية الإسلام ، وزيادة قوة المسلمين .
 وهؤلاء الكافرون لا يمكن التعامل معهم إلا بالسَّيف ، فهي اللغة الوحيدة التي يفهمونها ،
 باعتبارهم كُفَرًا مُحَارِبِينَ يَحْمِلُونَ السَّلَاحَ ، وأيديهم مُلَطَّخَةٌ بِالدِّمَاءِ ، وَلَيْسُوا أَهْلًا أَوْ مَدِينِينَ أَوْ
 مُؤْمِنِينَ بِالْحَوَارِ . تُرِيدُونَ أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ مَتَاعَ الدُّنْيَا الزَّائِلَ وَخَطَامَهَا الْفَانِي بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءِ ، وَاللَّهُ
 يُرِيدُ لَكُمْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَزُولُ (الجنة) ، وذلك بِإِعْزَازِ دِينِهِ وَقَمْعِ أَعْدَائِهِ . وَاللَّهُ عَزِيزٌ
 فِي مُلْكِهِ لَا يُقْهَرُ وَلَا يُغْلَبُ ، وَيَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، يَعْرِفُ مَا يُصْلِحُ
 النَّاسَ وَمَا يُفْسِدُهُمْ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ ، وَهَذَا يَتَجَلَّى فِي الْإِكْثَارِ مِنْ قَتْلِ الْأَعْدَاءِ
 وَمَتَاعِ الْفِدَاءِ . وَيجب تقديم مُرَادِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ الْمُؤْمِنِينَ ، وتقديم الآخرة على متاع الدنيا الْفَانِي .

(١) هذه الآية تتحدَّث عن غزوة بدر ، وكان المسلمون ضِعْفَاءَ وَقَلَّةً ، لذلك كان التَّوَجِيهِ الْإِلَهِيُّ بِعَدَمِ
 أَخْذِ الْفِدَاءِ أَوْ الْمَنْ قَبْلَ الْإِثْحَانِ فِي الْأَرْضِ (الْمُبَالِغَةُ فِي قَتْلِ الْمَشْرِكِينَ) . وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ قِتَالِ
 قَاتِلِهِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَتُخَنَ فِي الْأَرْضِ . فَلَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَازْدَادَتْ قُوَّتُهُمْ ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ [محمد : ٤] . أَيِ إِنْ الْمُؤْمِنِينَ مُحْيَرُونَ بَيْنَ إِطْلَاقِ سَرَاخِهِمْ بِدُونِ مُقَابِلٍ أَوْ أَخْذِ
 الْأَمْوَالِ مِنْهُمْ لِقَاءِ إِطْلَاقِ سَرَاخِهِمْ . وَفِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (١ / ٣٧٥) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا : كَانَ هَذَا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، فَلَمَّا كَثُرُوا ، وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ ، أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْأُسْرَى :
 ﴿ فَإِذَا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ ، فَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِ الْأُسْرَى بِالْخِيَارِ ، إِنْ شَاءُوا
 قَتْلَهُمْ ، وَإِنْ شَاءُوا اسْتَعْبَدُوهُمْ ، وَإِنْ شَاءُوا فَادُّوهُمْ ، وَإِنْ شَاءُوا أَعْتَقَوْهُمْ)) .

والآية دليل على أنَّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ يجتهدون ، وقد يكون هناك خطأ (خلاف الأولى) ، ولكن لا يُقَرُّون عليه ، وإنما يُنبِّههم الله ، ويُعلِّمهم ، ويُرشدهم إلى الصواب . وبالتأكيد ، اجتهاد الأنبياء يكون في غياب الوحي . أمَّا إن وُجِدَ الوحي ، فلا اجتهاد ولا خطأ . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٢٨٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : ما كان لَنبيٍّ أن يحتسب كافرًا قَدِرَ عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمَنِّ ... وإنما قال الله جلَّ ثناؤه ذلك لِنبيِّه محمد ﷺ يُعرِّفه أن قتل المشركين _ الذين أسَرهم ﷺ يوم بدرُ ثمَّ فادى بهم _ كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم . وقوله : ﴿ حتى يُثخن في الأرض ﴾ ، حتى يُبالغ في قتل المشركين فيها ، ويقهرهم غلبةً وقَسْرًا ... يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ : تريدون أيها المؤمنون عَرَضَ الدنيا بأُسْرِكُم المشركين وهو ما عرض للمرء منها من مال ومتاع ... والله يُريد لكم زينة الآخرة ، وما أعدَّ للمؤمنين وأهل ولايته في جنَّاته بقتلكم إِيَّاهم ، وإثخانكم في الأرض)) اهـ . ولا يدل معنى الآية على أن الإسلام دين سَفَك الدماء كما يعتقد بعض المغرضين ، وإنما تُفْهَم الآية في سياق رَدِّ المشركين الذين يرفعون السلاح في وجه المسلمين ، ويُحاربون الدَّعوة الإسلامية معنويًا وماديًا . لذلك فهم ليسوا أبرياء أو مدنيين ، بل إنهم قَتَلَةُ حريصون كل الحرص على إيقاع أكبر الخسائر بالمسلمين ، وبالتالي وجب رَدُّعُهم وإيقافهم عند حدِّهم . تمامًا كما يتم استئصال العضو الفاسد في جسد الإنسان حفاظًا على حياة باقي أجزاء الجسد ، وكذلك المجتمع الإنساني يستأصل العناصر الفاسدة للحفاظ على حياة المجموع الكُلِّي ، وتوجيهه إلى الحق والخير .

لذلك كان لزامًا على الجماعة المسلمة أن تستأصل شوكة المشركين المحاربين ، وتردِّهم على أعقابهم خاسرين من أجل ضمان صلاح المنظومة الاجتماعية ، وإنهاء كل العوائق التي تقف في طريق النقاء الإنسان بإنسانيته . والقتال في الإسلام له ضوابط واضحة ، وليس محكومًا بمزاج القادة أو أهوائهم الشخصية . فالقتال عبادة منضبطة بقواعدها الشرعية ، وليس أسلوبًا همجيًا للإبادة الجماعية ، والتطهير العرقي ، وقهر الآخرين ، ومحو ثقافتهم ، وسَطْب هويتهم . ولا يمكن التعامل مع العدو المحارب الحريص على قتلك بالورود والمفاوضات ، بل ينبغي قتله ليكون عبرة لمن خلفه ، ولئلا يصبح المجتمع كومة من زكام الفوضى ، وملعبًا للمجرمين الذين لا يجدون من يُعاقبهم .

وينبغي الأخذ على يد الظالم ، وإيقافه عند حدّه لئلا يعظم خطره وتأثيره السلبي . وكل الأمم عبر الحقب الزمنية المختلفة مُتَّفَقَةٌ على قتال المحاربين رافعي الأسلحة ، ولم نسمع في التاريخ عن مُقابلة الأعداء المدجّجين بالسلاح بالورود أو القُبَلات أو الحوار .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٨٣) : فَلَمَّا أُسْرُوا الْأَسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ : ((مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى ؟)) ، فقال أبو بكر : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ ، فقال رسول الله ﷺ : ((مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَابِ ؟)) ، قلتُ : لَا وَاللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ، فَتُمَكِّنَ عَلَيْنَا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنِي مِنْ فُلَانٍ (نَسِيئًا لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَإِنْ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا ، فَهَوَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهْوُ مَا قُلْتُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ جُنْتُ إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ ، قلتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي ، أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ، فَإِنْ وَجَدْتُ بَكَاءَ بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا ، فقال رسول الله ﷺ : ((أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)) _ شَجَرَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

لقد اجتهد النبي ﷺ بِدُونِ تَوْجِيهِ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ ، وَآثَرَ أَخَذَ الْفِدْيَةَ مُفَضَّلًا رَأَى أَبِي بَكْرٍ ، لِمَا فِي ذَلِكَ حَسَبَ الرُّوْيَةِ النَّبَوِيَّةِ _ مِنْ تَقْرِيبِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَحِفْظِ أَوَاصِرِ الْقَرَابَةِ ، وَتَعْزِيزِ الرُّوَابِطِ الْأَسْرِيَّةِ ، وَتَوْفِيرِ الْقُوَّةِ الْمَالِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ الْكُفَّارِ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٧٣) : ((وَفِيمَا ذُكِرَ مِنَ الْإِسْتِشَارَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْجَهَادِ فَيَكُونُ حُجَّةً عَلَى مُنْكَرِي الْقِيَاسِ)) اهـ .

وفي الشَّفا لِلْقَاضِي عِيَاضِ (٢ / ١٣٦) : ((فَلَيْسَ فِيهِ إِلْزَامٌ ذَنْبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَلْ فِيهِ بَيَانٌ مَا خُصَّ بِهِ وَفُضِّلَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : مَا كَانَ هَذَا لِنَبِيِّ غَيْرِكَ ... فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، قِيلَ : الْمَعْنَى بِالْخُطَابِ لِمَنْ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَتَجَرَّدَ غَرَضُهُ لِعَرَضِ الدُّنْيَا وَخَدَهُ ، وَالِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَا أَصْحَابَهُ . بَلْ قَدْ رُوِيَ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَاشْتَغَلَ النَّاسُ بِالسَّلْبِ وَجَمْعِ الْغَنَائِمِ عَنِ الْقِتَالِ ، حَتَّى خَشِيَ عُمَرُ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١٥٢ / ٦) : ((فقد حكى ابن القيم في الهدى اختلافاً أي الأمرين أرجح ، ما أشار به أبو بكر من أخذ الفداء ، أو ما أشار به عُمر من القتل ، فرجحت طائفة رأي عمر لظاهر الآية ، ولما في القصة من حديث عُمر من قول النبي ﷺ : " أبكي لما عُرِضَ على أصحابك من العذاب لأخذهم الفداء " . ورجحت طائفة رأي أبي بكر لأنه الذي استقرَّ عليه الحال حينئذ ، ولموافقة رأيه الكتاب الذي سَبَقَ ، ولموافقة حديث : ((سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي)) [صحيح مسلم] ، ولحصول الخير العظيم بَعْدَ مِنْ دخول كثير منهم في الإسلام والصُّحبة ، وَمَنْ وُلِدَ لَهُمْ ، مَنْ كَانَ ، وَمَنْ تَجَدَّدَ ، إِلَى غير ذلك مِمَّا يُعْرَفُ بِالتَّأَمُّلِ ، وَحَمَلُوا التهديد بالعذاب عَلَى مَنْ اخْتَارَ الْفِدَاءَ فَيُحْصَلُ عَرَضَ الدُّنْيَا مُجَرَّدًا ، وَعَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ)) اهـ .

لذلك ، مَنْ يَحَاوِلُ أَنْ يَطْعَنَ فِي الثُّبُوتِ مُسْتَغْلًا اجتهاداتِ النَّبِيِّ ﷺ الْمُخَالَفَةَ لِلأَوَّلَى ، سَوْفَ تَبْوءُ مَحَاوَلَاتِهِ بِالْفَشْلِ ، لِأَنَّ اللَّهَ يُعَاتِبُ أَنْبِيََاءَهُ لِحُبِّهِ لَهُمْ لَا كُرْهَهُ لَهُمْ ، وَمَنْ أَجَلَ رَفَعَ دَرَجَاتِهِمْ لَا طَرْدَهُمْ ، وَلَكِي يَظَلُّ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ هُمْ سَادَةُ الْبَشَرِيَّةِ فِي الْمَسْتَوَى الْإِيمَانِيِّ الْكَامِلِ بِدُونِ آيَةِ ثَغَرَاتٍ ، أَوْ اجتهاداتٍ مُخَالَفَةٍ لِلأَوَّلَى . وَهَذَا مُنْتَهَى الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِهِمْ ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَتْرَكْهُمْ لِعَقُولِهِمْ وَتَفْسِيرَاتِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ ، وَإِنَّمَا أَيْدَهُمْ بِالْحَقِّ فِي كُلِّ حَالَاتِهِمْ ، وَسَدَّدَ خَطَاهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَاعْتَنَى بِهِمْ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ ، وَصَوَّبَ اجتهاداتِهِمْ الْبَشَرِيَّةَ النَّاقِصَةَ ، وَلَمْ يَتْرَكْهُمْ لَأَنْفُسِهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ ، فَاللَّهُ يُنَبِّهُهُمْ ، وَيُوجِّهُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ . وَهَكَذَا ، تَكْتَمِلُ عَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَلَا ثَغَرَاتٍ فِيهَا ، وَلَا أخطاء .

وقال الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] .
لَوْلَا الْحُكْمُ الْإِلَهِيُّ الثَّابِتُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، بَأَن لَا يُعَاقِبُ الْمُجْتَهِدَ إِذَا أَخْطَأَ ، وَبَأَن أَهْلَ بَدْرٍ مَغْفُورٍ لَهُمْ ، لِأَصَابِكُمْ فِي أَخْذِ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى عَذَابٌ شَدِيدٌ .

وقد كان الصحابةُ مُجْتَهِدِينَ وَمُتَأَوِّينَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، فَقَدْ اعْتَقَدُوا أَنَّ أَخْذَ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى، وَإِطْلَاقَ سَرَاحِهِمْ، سَيَكُونُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِهِمْ، وَيَحْصِلُونَ عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي تُسَاهِمُ فِي الْجِهَادِ وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. وَلَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَى أَنَّ قَتْلَهُمْ أَعَزُّ لِلْإِسْلَامِ ، وَيُخَوِّفُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٨١ و ٣٨٢): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ



في معناه خمسة أقوال : أحدها لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ أَنَّهُ سَيُحِلُّ لَكُمْ الْغَنَائِمَ لَمْ سَكُمَ فِيمَا تَعَجَّلْتُمْ مِنَ الْمَغَانِمِ وَالْفِدَاءِ يَوْمَ بَدْرَ قَبْلَ أَنْ تُؤْمَرُوا بِذَلِكَ عَذَابٌ عَظِيمٌ . روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل . وقال أبو هريرة : تَعَجَّلَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَصَابُوا الْغَنَائِمَ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . والثاني لَوْلَا كِتَابَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ مَنْ أَتَى ذَنْبًا عَلَى جَهَالَةٍ لَعُوقِبْتُمْ . روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وابن جريج عن مجاهد . وقال ابن إسحاق : سَبَقَ أَنْ لَا أُعَذَّبَ إِلَّا بَعْدَ التَّهْيِ ، وَلَمْ يَكُنْ نَهَاهُمْ . والثالث لَوْلَا مَا سَبَقَ لِأَهْلِ بَدْرٍ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُهُمْ لَعَذَّبْتُمْ ، قاله الحسن وابن جبير وابن أبي نجيح عن مجاهد . والرابع لَوْلَا كِتَابَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ مِنْ أَنَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ عَمِلَ الْخَطَايَا ، ثُمَّ عَلِمَ مَا عَلَيْهِ فَتَابَ ، ذَكَرَهُ الرَّجَاحُ . والخامس لَوْلَا الْقُرْآنُ الَّذِي اقْتَضَى غُفْرَانَ الصَّغَائِرِ لَعَذَّبْتُمْ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِي . فيخرج في الْكِتَابِ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّهُ كِتَابٌ مَكْتُوبٌ حَقِيقَةٌ ، ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّهُ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، والثاني أَنَّهُ الْقُرْآنُ . والثاني أَنَّهُ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ)) اهـ .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ((لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ سُودِ الرُّؤُوسِ قَبْلَكُمْ . كَانَتْ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ نَارٌ فَتَأْكُلُهَا)) ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَعَ النَّاسُ فِي الْغَنَائِمِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمْ سَكُمَ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (2) .

المقصود بِسُودِ الرُّؤُوسِ هُمُ بَنُو آدَمَ (الْبَشَرُ) ، لِأَنَّ رُؤُوسَهُمْ سُودٌ . وَالْغَنَائِمُ كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى الْأُمَمِ السَّابِقَةِ . وَتَحْلِيلُهَا خَاصٌّ بِالْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى تَمَيُّزِهَا وَمَكَانَتِهَا الْجَلِيلَةِ . وَعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ : كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَقَرٍ ، فَذَكَرُوا عَلَيْهِ فِشْتَمُوهُ . فَقَالَ سَعْدٌ : مَهْلًا عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّا أَصَبْنَا دُنْيَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمْ سَكُمَ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . فَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ رَحْمَةً مِنَ عِنْدِ اللَّهِ سَبَقَتْ لَنَا (3) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٤٣] .

(٢) رواه ابن جَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (١١ / ١٣٤) .

(٣) رواه الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٣٥٩) بِرَقْمِ (٣٢٧١) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

هذا عتابٌ إلهيٌّ رقيقٌ للنبي ﷺ . فقد سمح للبعض بأن يتخلفوا عنه في غزوة تبوك . وهذا خلافُ الأولى ، وهو اجتهداً نبويٌّ لم يُصبِ المرادُ الإلهيُّ . فقد وقع من النبي إذْنٌ لمن استأذنه في القعود دون أن يتبين مَنْ هو الصادق في عُذره ، وَمَنْ هو الكاذب الذي يختلق الأعذار للتهرب من مسؤولية الجهاد .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٨٠) : ((وهذا عتابٌ من الله تعالى ذكْرُه : عَاتَبَ بِهِ نَبِيَّه ﷺ في إذْنِه لِمَنْ أَذِنَ لَهُ في التخلف عنه _ حين شَخَصَ إلى تبوك لِعَزْوِ الرُّومِ _ من المنافقين)) اهـ . هذا عتابٌ إلهيٌّ لطيف جاء بعد العفو . لقد أخبر الله محمداً ﷺ بالعفو قبل الذنب (خلاف الأولى) تَطْمِينًا لقلبه . وهذا يُشير إلى مكانة النبي محمد ﷺ ، وتميُّزه عن باقي الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وفضله عليهم . إذ إنهم لم يُذكر لهم مثلُ ذلك .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٥٤) : ((قال عمرو بن ميمون : اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ، وَلَمْ يُؤْمَرْ بِهِمَا : إذْنُه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر ، فعاتبه الله كما تسمعون . قال سُفيان بن عُيينة : انظروا إلى هذا اللطف ، بدأ بالعفو قبل أن يُعَيِّرَه بالذنب . وقيل : إن الله عَزَّ وَجَلَّ وَقَرَّه ، ورفع مَحَلَّه بفتح الكلام بالدعاء له ، كما يقول الرجل لمن يُخاطبه إذا كان كريماً عنده : عفا الله عَنْكَ ما صَنَعْتَ في حاجتي ؟ ، ورضي الله عَنْكَ ألا زُرْتَنِي . وقيل معناه : أدام الله لَكَ العفو . ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ أي : في التَّخَلُّفِ عَنْكَ . ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في أَعْدَارِهِمْ . ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيها . أي : تَعْلَمَ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ . قال ابن عباس _ رضي الله عنه _ : لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذٍ)) اهـ .

إنَّ اجتهاداتِ النبي ﷺ _ التي تستلزم العتابَ اللطيف _ نابعة من رؤيته الشخصية للأمور بِحُكْمِ خبراته الحياتية لا بِحُكْمِ الوحي المقدس المعصوم . والنبي ﷺ _ في حال غياب الوحي _ يستند إلى نظراته الشخصية للأمور ، انطلاقاً من حُرْصِه على الآخرين ، والرحمة بهم ، والشَّفقة عليهم ، والأخذ بأيديهم ، وهذا ليس غريباً عن أخلاق الثبوة الهادفة إلى مساعدة الناس ، ورفع الحرج عنهم .

ولا يَخْفَى أَنَّ النبي ﷺ لم يكن يسعى لتحقيق مصلحة شخصية أو منفعة مادية ذاتية من وراء هذه الاجتهادات غير المُصيبة ، بل كان يسعى إلى تعزيز الخير ، وتفريج الهموم على الناس . خاصةً وَأَنَّ النبي ﷺ يحكم بالظاهر ، ولا يعلم الغيب إلا إذا أطلعه الوحي على الغيب . وهؤلاء الذين سمح لهم النبي ﷺ بالتخلف ، لا بد أنهم قدَّموا أعذاراً قوية مُقنِعة ، فلم يُرد

النبي ﷺ أن يُضَيَّقَ عَلَيْهِمْ ، أو يُحْمَلَهُمْ فوق طاقتهم . وهو لا يَعْلَمُ صِدْقَ هذه الأعداء أو كَذِبَهَا ، لأنَّ الحُكْمَ تَمَّ إجراؤه على الظاهر ، دون التفتيش في النوايا ، والنبي ﷺ لا يَقْدِرُ أن يَكْشِفَ ما في قلب الإنسان إلا بِوَحْيِ السماء . والرحمةُ النبويةُ _ الخاضعة للرحمة الإلهية _ قَدْ أَسَّستُ مُجْتَمَعَ العدالة والتضامن الاجتماعي، حيث تتكرَّسُ مُساعدة الناس بعضهم بعضًا ، لكنَّ المنافقين يستغلون الأخلاق النبوية السَّامية من أجل مصالحهم الشخصية الدنيئة . وعندئذ يتدخل الوحي الإلهي لِيُرَدِّدَ الأمورَ إلى نصابها الصحيح بكل قوة وصدق وعدالة .

وعن أُمِّ سَلَمَةَ _ رضي الله عنها _ أنَّ رسول الله ﷺ قال : ((إنما أنا بشرٌ ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكونَ ألحنَ بحجته من بعض ، فأقضي له على نحوِّ ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار))^(٤).

إنَّ النبي ﷺ إنسان يحكم _ إذا لَمْ يَنْزِلِ الوحي _ وَفَقَ رُؤيته الشخصية ، وخبراته الحياتية ، ويُجْري الأحكامَ على الظاهر . والنبي ﷺ يَقْضِي بين المتخاصمين الذين يَحْتَكُمُونَ إليه ، والبعضُ يكون أظنَّ وأذكى وأكثر فصاحةً وعِلْمًا ، ولَدَيْهِ القُدرة على التعبير والبيان والإقناع ، وتقديم الحُجج والبراهين ، وإظهار أن الحقَّ له . والبعض الآخر لا يَمْلِكُ هذه القُدرات والمؤهلات ، وقد يكون الحقُّ معه . والنبيُّ القاضي يحكم حَسَبَ ما سَمِعَ ، ويُصدِرُ الحُكْمَ حَسَبَ الظاهر ، وقد يحكم للظالم لأنَّه أكثر قُدرة على الفصاحة والبيان والإقناع وتقديم الأدلة . وإذا قضى النبي ﷺ بظاهرٍ يُخَالِفُ الباطنَ ، فهو حَرَامٌ على الظالم ، يَقوده إلى النار ، وعليه ألا يأخذ حقَّ أخيه .

والحديث يدل على أنَّ النبي ﷺ يُجْري الأحكامَ على الظاهر، وهو غير مُطَّلِع على بواطن الأمور . فالنبي ﷺ لا يَعْرِفُ الغَيْبَ إلا عن طريق الوحي الإلهي الكامل المعصوم ، وإذا تأخَّرَ الوحيُّ أو لَمْ يَأْتِ ، فإنَّ الأمور سوف تَسِيرُ وَفَقَ الظاهر ، وحَسَابُ العباد على رَبِّ العباد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٥ و ٦) : ((وَقَوْلُهُ ﷺ : " إنما أنا بشر " ، معناه التنبيه على حالة البشرية ، وأنَّ البشر لا يَعْلَمُونَ من الغيب وبواطن الأمور شيئًا ، إلا أن يُطْلِعَهُمُ اللهُ تعالى على شيءٍ من ذلك ، وأنه يجوزُ عليه في أمور الأحكام ما يجوزُ عليهم ، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر ، والله يتولى السرائر . فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ وباليَمينِ وَنَحْوِ ذلك من أحكام الظاهر مع إمكان كَوْنِهِ في الباطن خلاف ذلك ، ولكنه إنما كُلِّفَ الحُكْمَ بالظاهر ... وَلَوْ

(٤) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٦ / ٢٦٢٢) برقم (٦٧٤٨). ومسلم (٣ / ١٣٣٧) برقم (١٧١٣).

شاء الله تعالى لأطلعه ﷺ على باطن أمر الخصمَيْن ، فحكم بيقين نفسه من غير حاجة إلى شهادة أو يمين ، لكنْ _ لَمَّا أَمَرَ اللهُ تعالى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ _ أَجْرَى لَهُ حُكْمَهُمْ فِي عَدَمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُور ، لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ حُكْمَهُ ، فَأَجْرَى اللهُ تعالى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ ، الَّذِي يَسْتَوِي فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ لِيَصِحَّ الْإِقْتِدَاءُ بِهِ ، وَتَطْيِبَ نَفُوسُ الْعِبَادِ لِلانْقِيَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الْحَدِيثُ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ مِنْهُ ﷺ فِي الظَّاهِرِ مُخَالَفٌ لِلْبَاطِنِ ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْأَصُولِيُّونَ عَلَى أَنَّهُ ﷺ لَا يُقَرَّرُ عَلَى خَطَأٍ فِي الْأَحْكَامِ . فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَقَاعِدَةِ الْأَصُولِيِّينَ ، لِأَنَّ مُرَادَ الْأَصُولِيِّينَ فِيمَا حَكَمَ فِيهِ بِاجْتِهَادِهِ ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعُ فِيهِ خَطَأٌ ؟ ، فِيهِ خِلَافٌ . الْأَكْثَرُونَ عَلَى جَوَازِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَنَعَهُ ، فَالَّذِينَ جَوَّزُوهُ قَالُوا : لَا يُقَرَّرُ عَلَى إِمْضَائِهِ ، بَلْ يُعْلِمُهُ اللهُ تعالى بِهِ وَيَتَذَكَّرُهُ . وَأَمَّا الَّذِي فِي الْحَدِيثِ فَمَعْنَاهُ : إِذَا حَكَمَ بِغَيْرِ اجْتِهَادٍ كَالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ ، فَهَذَا إِذَا وَقَعَ مِنْهُ مَا يُخَالَفُ ظَاهِرُهُ بَاطِنُهُ ، لَا يُسَمَّى الْحُكْمُ خَطَأً ، بَلِ الْحُكْمُ صَحِيحٌ بِنَاءً عَلَى مَا اسْتَقَرَّ بِهِ التَّكْلِيفُ ، وَهُوَ وَجُوبُ الْعَمَلِ بِشَاهِدَيْنِ مَثَلًا ، فَإِنْ كَانَا شَاهِدَيْنِ زُورٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، فَالتَّقْصِيرُ مِنْهُمَا ، وَمِمَّنْ سَاعَدَهُمَا . وَأَمَّا الْحُكْمُ فَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا غَيْبٌ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ ، بِخِلَافِ مَا إِذَا أَخْطَأَ فِي الْاجْتِهَادِ ، فَإِنْ هَذَا الَّذِي حَكَمَ بِهِ لَيْسَ هُوَ حُكْمُ الشَّرْعِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُحِيلُ الْبَاطِنَ وَلَا يُحِلُّ حَرَامًا ، فَإِذَا شَهِدَ شَاهِدًا زُورًا لِإِنْسَانٍ بِمَالٍ ، فَحَكَمَ بِهِ الْحَاكِمُ لَمْ يَحِلَّ لِلْمَحْكُومِ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ ، وَلَوْ شَهِدَا عَلَيْهِ بِقَتْلِ ، لَمْ يَحِلَّ لِلْوَلِيِّ قَتْلُهُ مَعَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمَا ، وَإِنْ شَهِدَا بِالزُّورِ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ، لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ عَلِمَ بِكَذِبِهِمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ حُكْمِ الْقَاضِي بِالطَّلَاقِ)) اهـ .

إِنَّ أَسْلُوبَ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ يَحْمِلُ عِتَابًا لَطِيفًا ، لئَلَا يَتَسَبَّبَ ذَلِكَ فِي كَسْرِ مَشَاعِرِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَحْطِيمِ قَلْبِهِ ، وَتَمْزِيقِ أَفْكَارِهِ ، وَبِثِّ الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ فِي نَفْسِهِ . فَالْثَّبُوتُ مَقَامٌ رَفِيعٌ لَهَا أَخْلَاقٌ سَامِيَةٌ حَسَّاسَةٌ ، وَالْأَنْبِيَاءُ مُنَزَّهُونَ عَنِ الْبِلَادَةِ وَقَسْوَةِ الْقَلْبِ . وَأَيُّ عِتَابٍ إِلَهِيٍّ يُؤَثِّرُ فِيهِمْ بِشَدَّةٍ ، لِذَلِكَ يُخَاطَبُ اللهُ أَنْبِيََاءَهُ بِالْعِبَارَةِ الْوَاضِحَةِ اللَّطِيفَةِ ، مِنْ أَجْلِ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ لِرَفْعِ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ ، وَلَيْسَ التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ لِتَنْدَمِيرِهِمْ . فَاللهُ تعالى لَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لِيُهِنَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ ، أَوْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ .

وفي الشَّفا للقاضي عياض (٢٨ / ١) : ((قال السمرقندي : ولو بدأ النبي ﷺ بقوله : لِمَ أذنتَ لهم ، لَخِيفَ عليه أن يَشقَّ قلبُه مِن هَيْبَةِ هذا الكلام ، لكنَّ الله تعالى برحمته أخبره بالعَفْوِ حتى سكن قلبه ، ثم قال له : لِمَ أذنتَ لهم بالتخلف حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الصادق في عُذْرِهِ مِنَ الكاذب. وفي هذا مِن عَظِيمِ مَنزِلَتِهِ عند الله ما لا يَخْفَى على ذِي لُب ، وَمِنَ إِكْرَامِهِ إِيَّاهُ وَبِرِّهِ بِهِ ما ينقطع دُونُ معرفة غايته نياط القلب)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التَّوْبَةِ : ١١٣] .

ما كان ينبغي للنبي ﷺ والمؤمنين أن يدعوا بالمغفرة للمشركين ، ولو كانوا مِن أَقَارِبِهِمْ أو عَشِيرَتِهِمْ ، مِن بَعْدِ مَوْتِهِمْ على الشَّرْكِ ، واتَّضاح أمرهم بأنهم خالدون في النار . فالله لا يَغْفِرُ لِمَن مات كافراً . لذلك لا يجوز أن يدعوا الله بِشَيْءٍ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَفْعَلُهُ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٤٨ / ٨) : ((هذه الآية تَضَمَّنَتْ قَطْعَ مَوَالَاةِ الْكَافِرِ حَيْثُ وَجَّهَتْهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، فَطَلَبَ الْغُفْرَانَ لِلْمُشْرِكِ مِمَّا لَا يَجُوزُ)) اهـ .

والجدير بالذكر أَنَّ الدُّعَاءَ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْمَغْفِرَةِ جَائِزٌ مَا دَامُوا على قَيْدِ الْحَيَاةِ ، لأنَّ الاستغفار للأحياء يَجُوزُ ، لِأَنَّهُ مَرْجُوٌّ إِيْمَانُهُمْ . وهذا الأمر يُرَقِّقُ قُلُوبَهُمْ ، وَيُرَغِّبُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ . أمَّا إِنْ مَاتُوا ، فلا يجوز طلب المغفرة لهم ، فقد انقطع الرجاء ، وأغلق الموضوع . وليس لديهم أَيَّةُ فُرْصَةٍ فِي النِّجَاةِ . والله لا يَغْفِرُ لِمَن مات كافراً . وهذا أمرٌ ثابت وعام ، لا يَتَغَيَّرُ ، ولا توجد حالات استثنائية .

إنَّ الكافرين خالدون في النار ، فلا ينبغي الاستغفار لهم ، مهما بلغت درجة القرابة ، لأنَّ الإسلام ليس دِينًا قَبِيلِيًّا عَشَائِرِيًّا ، أو مَسَارًا إِقْطَاعِيًّا يعتمد في أحكامه على درجة القرابة ورابطة الدَّم ، وقوة العلاقات الاجتماعية والمصلحية والواسطات والمحسوبيات . فهو الدِّينُ السَّمَاوِيُّ الوحيد المقبول عند الله تعالى . ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وقد أقام الإسلامُ الأواصرَ بين الناس على أساس مرجعية الدِّينِ (الانتماء إلى الله تعالى) ، وليس مرجعية الدم أو أية مرجعية أخرى . إذ إنَّ رابطة الإيمان أقوى مِن كُلِّ الروابط . فهي الرابطة الدائمة في الدنيا والآخرة على حَدِّ سَوَاءٍ .

وعن ابن المسيب عن أبيه أَنَّ أبا طالبَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل ، فقال : ((أَيُّ عَمٍّ ، قُلْ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، كلمة أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ)) . فقال أبو جهل

وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ، فلم يزالا يُكَلِّمانه ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : ((لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحَ عَنْهُ _ يعني عن الاستغفار _)) . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٥).

هذا الحديث يدل على دور العلاقات الاجتماعية السلبية في إحلال تقليد الآباء مكان العقيدة الدينية، فتصبح القبيلة هي الدين ، والعصبية العائلية هي العقيدة الدافعة التي تقف خلف السلوك . وقد رأينا كيف أن أبا طالب قد رضخ للعقلية الجاهلية الأسرية ، وأثر متابعة آبائه بدافع الانتماء السلبي للقبيلة ، وكل هذا نابع من اتخاذ التقاليد الأبوية صنماً متوارثاً يحجب النور ، ويُفسح المجال لانتشار الظلمات . وهنا تكمن خطورة اتباع الآباء بلا بصيرة (التقليد الأعمى) ، وتقديم رابطة الدم على رابطة الدين .

والعقلية العشائرية الجاهلية تتضح بصورة مباشرة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١ / ٥٥) برقم (٢٥) : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لِعَمِّهِ : ((قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، قال : لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ ، يَقُولُونَ : إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لَأَقَرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ .

ومن هنا تنبع خطورة الإفرازات السلبية للقبيلة وسلطانها المقدسة في توجيه مسار الأفراد نحو الالتزام بالمظاهر الزائفة ، والعصبية للعائلة بغض النظر عن الصواب أو الخطأ . وفي واقع الأمر إنَّ القبيلة تُمارس سلطةً كهنوتية على الأفراد بحيث تغسل أدمغتهم ، وتقودهم إلى حيث شاءت ، ولا أحد يملك شرعية السؤال أو النقد ، لأنَّ قداسة القبيلة (الصنم) أكثر أهمية من قداسة الحق . وهذه الفلسفة الجاهلية لخصها أحد الشعراء حين قال :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَرِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَرِيَّةُ أَرَشُدِ

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

(٥) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣ / ١٤٠٩) برقم (٣٦٧١) . ومسلم (١ / ٥٤) برقم (٢٤) .

إِنَّ النَّبِيَّ إِبْرَاهِيمَ   قَدْ وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَجَاءَ إِسْلَامِهِ، وَعَلَى أَمَلٍ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ _ بِاسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ _ إِلَى الْإِسْلَامِ . فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ كَافِرًا ، تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَقَطَعَ اسْتِغْفَارَهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَثِيرُ التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ (أَوَاه) ، صَبُورٌ عَلَى الْأَذَى (حَلِيم) . وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ   كَثِيرُ الدُّعَاءِ ، وَالْعَفْوِ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، عَابِدًا تَقِيًّا حَلِيمًا ، لِذَلِكَ اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ مَعَ كُفْرِهِ وَشِدَّةِ أَذَاهُ لَهُ .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٢٤٩) : ((والمعنى : لا حُجَّةَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ . وقال ابن عباس : كان أبو إِبْرَاهِيمَ وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَيَخْلَعَ الْأَنْدَادَ ، فَلَمَّا مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ، فَتَرَكَ الدُّعَاءَ لَهُ)) اهـ .

إِنَّ اسْتَغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ   لِأَبِيهِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ الْاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ . إِذْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ   اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ تَحْقِيقًا لَوْعْدِ شَخْصِيٍّ ضَمِنَ ظَرْفُ مُعَيَّنٍ (حَالَةٍ خَاصَّةٍ) ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ كَافِرًا تَبَرَّأَ مِنْهُ ، وَامْتَنَعَ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ لَهُ . وَهَذَا رِسَالَةُ إِلَهِيَّةٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ   : كَيْفَ تَسْتَغْفِرُ لِعَمَلِكَ الَّذِي مَاتَ كَافِرًا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِلَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ ؟ . وَلَا حُجَّةَ فِي قَضِيَّةِ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ   لِأَبِيهِ ، فَهِيَ حَالَةٌ اسْتِثْنَائِيَّةٌ ضَمِنَ ظَرْفٍ خَاصٍ ، وَقَدْ انْتَهَتْ ، وَلَا يَنْبَغِي تَعْمِيمُهَا أَوْ الْاِحْتِجَاجُ بِهَا .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْأَحْكَامَ عِنْدَ الْمَوْتِ تُجْرَى عَلَى الظَّاهِرِ ، وَيُحْكَمُ لِلشَّخْصِ بِمَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ حَالِهِ . فَمَنْ مَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، حُكِمَ لَهُ بِالْإِسْلَامِ . وَمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ ، حُكِمَ لَهُ بِالْكَفْرِ . أَمَّا السَّرَائِرُ وَالْبَوَاطِنُ فَاللَّهُ هُوَ الْعَالِمُ بِهَا . وَقَدْ يَكُونُ الظَّاهِرُ يُخَالِفُ الْبَاطِنَ . وَمَعَ هَذَا ، يَتِمُّ الْحُكْمُ عَلَى الشَّخْصِ بِظَاهِرِ حَالِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ . وَلَا أَحَدٌ يَهْرَبُ مِنَ اللَّهِ ، وَلَا أَحَدٌ يَخْدَعُهُ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ١١٢) : ((ذَكَرَ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ أَي : وَعَدَ أَبُوهُ إِيَّاهُ أَنْ يُسْلِمَ ، أَوْ هُوَ وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ ... وَمَعْنَى اسْتَغْفَارِهِ سُؤَالَهُ الْمَغْفِرَةَ لَهُ بَعْدَ مَا يُسْلِمُ ، أَوْ سُؤَالَهُ إِعْطَاءِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بِهِ يُغْفَرُ لَهُ .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ ﴾ لَهُ ﴾ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ أَنَّهُ ﴾ أَنْ أَبَاهُ ﴾ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ بِأَنْ يَمُوتَ كَافِرًا ، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ عَنْهُ ﴾ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وَقَطَعَ اسْتَغْفَارَهُ ﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاه ﴾ وَهُوَ الْمُتَأَوِّهُ شَفَقًا وَفَرَقًا (خَوْفًا) ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لِفَرْطِ تَرْحُمِهِ وَرِقَّتِهِ ، كَانَ يَتَعَطَّفُ عَلَى أَبِيهِ الْكَافِرِ ﴾ حَلِيم ﴾ هُوَ الصَّبُورُ عَلَى الْبَلَاءِ ، الصَّفُوحُ عَنِ الْأَذَى ، لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : لِأَرْجَمَتَكَ)) اهـ .

وعن عليٍّ - رضي الله عنه - قال : سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لَأَبَوَيْهِ ، وَهُمَا مُشْرِكَانِ ، فَقُلْتُ : لَا تَسْتَغْفِرُ لَأَبَوَيْكَ وَهُمَا مُشْرِكَانِ ، فَقَالَ : أَلَيْسَ قَدْ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ ؟ ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ . فَنَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَرَمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ (٦) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

هذه الآية عتابٌ إلهيٌّ للنبي ﷺ . اذْكُرْ يا محمد إِذْ تَقُولُ لِمَوْلَاكَ زَيْدَ بْنِ حَارِثَةَ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ ، وَمُتَابِعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بِالْإِعْتِقَادِ مِنَ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ : أَمْسِكْ زَوْجَكَ زَيْنَبَ فِي عِصْمَتِكَ ، وَلَا تُطَلِّقْهَا مُتَعَلِّلاً بِتَكْبَرِهَا أَوْ تَرْفَعِهَا ، وَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَمْرِهَا ، وَحَافِظْ عَلَيْهَا ، وَلَا تُلْحِقِ الصَّرَرَ وَالْأَذَى بِهَا . وَتُخْفِي يَا مُحَمَّدُ فِي نَفْسِكَ إِرَادَةَ الزَّوْاجِ بِهَا ، وَهُوَ مَا سَيُظْهِرُهُ اللَّهُ وَيَكْشِفُهُ أَمَامَ كُلِّ النَّاسِ . وَتَخْشَى أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ابْنَهُ ، وَتَخَافُ مِنْ تَعْيِيرِهِمْ لَكَ بِذَلِكَ ، وَتَسْتَحْيِي مِنْهُمْ . وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ وَتَخَافَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا تَغْبَأُ بِكَلَامِ النَّاسِ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَتَزَوَّجْهَا ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ ، وَلَا شَيْءَ يَدْعُو إِلَى الْخَجَلِ أَوْ الْعَارِ . وَكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ سَبْيِ الْجَاهِلِيَّةِ . اشْتَرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ الْبِعْثَةِ ، وَأَعْتَقَهُ ، وَتَبَنَّاهُ ، وَصَارَ يُدْعَى زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ التَّبَنِّيِّ . وَكَانَ صَحَابِيًّا جَلِيلًا حَبِيبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، أَعْتَقَهُ ، وَزَوَّجَهُ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ (ابنة عَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ) .

وهذا يدل على المكانة الرفيعة لزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَعِنَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ ، وَحِرْصِهِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ زَوَّجَهُ بِأَحَدِ قَرِيبَاتِهِ ، وَهِيَ الشَّرِيفَةُ الْقُرَشِيَّةُ ، ذَاتُ الْحَسَبِ الشَّامِخِ وَالنَّسَبِ الرَّفِيعِ ، فِي حِينِ أَنْ زَيْدًا كَانَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يُعْتِقَهُ النَّبِيُّ ﷺ .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٥) برقم (٣٢٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٥٠٠) : ((... أهل التفسير اختلفوا في الوقت الذي تَبَرَّأَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَبِيهِ فَقِيلَ : كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمَّا مَاتَ آزَرُ مُشْرِكًا . وَهَذَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ)) .

وفي صفوة التفاسير للصابوني (١٢ / ٦٢ و ٦٣) : ((قال ابن جُزَي في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مُباح ، لا إثم فيه ولا عتَب ، ولكنه خاف أن يقول الناس : تزوّج امرأة ابنه إذ كان قد تبنّاه ، فأخفاه حياءً وحشمةً وصيانةً لِعَرْضِهِ مِنَ ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوّجها لِيُطْلَ حُكْم التَّبْنِي ، فأبدى الله ذلك بأن قضى له بِتَزْوُجِهَا)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٨٧ و ٣٨٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ فِيهِ قَوْلَان : أحدهما أَنَّهُ خَشِيَ الْيَهُودَ أَنْ يَقُولُوا : تَزَوَّجَ مُحَمَّدَ امْرَأَةً ابْنَهُ ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني أَنَّهُ خَشِيَ لَوْمَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا : أَمَرَ رَجُلًا بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ نَكَحَهَا . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ، أي : أَوْلَى أَنْ تَخْشَى اللَّهَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، وليس المراد أَنَّهُ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، ولكن لَمَّا كَانَ لَخْشِيَّتِهِ بِالْخَلْقِ نَوْعَ تَعَلُّقٍ ، قِيلَ لَهُ : اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَى مِنْهُ . قالت عائشة : " ما نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آيَةٌ ، هِيَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ " وقد ذهب بعضُ العلماء إلى تَنْزِيهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ حُبِّهَا ، وإِثْبَارِهِ طَلَاقِهَا ، وإن كَانَ ذَلِكَ شَائِعًا فِي التفسير ، قالوا : وإنما عُوْتُبَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى شَيْئَيْن : أحدهما أَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهَا سَتَكُونُ زَوْجَةً لَهُ ، فقال لِزَيْدٍ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، فَكُتِمَ مَا أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرِهَا حَيَاءً مِنْ زَيْدٍ ، أَن يَقُولَ لَهُ : إِنَّ زَوْجَتَكَ سَتَكُونُ امْرَأَتِي .

والثاني أَنَّهُ لَمَّا رَأَى اتِّصَالَ الْخَصُومَةِ بَيْنَ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ ، ظَنَّ أَنَّهُمَا لَا يَتَّفِقَانِ ، وَأَنَّهُ سَيُفَارِقُهَا ، وَأَضْمَرَ أَنَّهُ إِنْ طَلَّقَهَا تَزَوَّجْتُهَا صِلَةً لِرَحْمَتِهَا ، وإِشْفَاقًا عَلَيْهَا ، لأنها كانت ابنةَ عَمَّتِهِ أُمَيْمَةَ بنتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى إِضْمَارِ ذَلِكَ وإِخْفَائِهِ ، حِينَ قَالَ لِزَيْدٍ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَأَرَادَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ عِنْدَ النَّاسِ سَوَاءً)) اهـ .

وفي سنن الترمذي (٥ / ٣٥٤) وَصَحَّحَهُ : عن أنس قال : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ بنتِ جَحْشٍ ، جاءَ زَيْدٌ يَشْكُو ، فَهَمَّ بِطَلَاقِهَا ، فَاسْتَأْمَرَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾)) .

السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بنتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ كانت شريفةً قُرَشِيَّةً . ومن الواضح أنها كانت مُتَرَفِّعةً عَنْ زَوْجِهَا زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ الذي كان عَبْدًا قَبْلَ إِعْتَاقِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ تُحِبُّهُ ، بسبب غياب التَّكَاثُفِ فِي النَّسَبِ وَالْمَكَانَةِ الاجتماعية . وهذا أَدَّى إِلَى اختلاط مشاعرهما ، والتَّشْوِيشِ عَلَى أَفْكَارِهَا ، فحدثت المشكلات بين الزَّوْجَيْنِ . فجاءَ زَيْدٌ يَشْكُو زَوْجَتَهُ ، وكانَ عَلَى وَشَكِّ فِرَاقِهَا بِالطَّلَاقِ كَي تَنْتَهِيَ الْمَشْكَلاتُ ، وَيَذْهَبَ كُلُّ طَرَفٍ إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ ، وَلَا تَصْبِحَ الْحَيَاةُ

الزَّوجِيَّة عَذَابًا يَوْمِيًّا لَا يُطَاق وَلَا يُحْتَمَل ، وهذا الأمر شديد الخطورة لأنَّه يُؤَثِّر سَلْبًا عَلَى الدِّين والدُّنْيَا . فَطَلَبَ زَيْدٌ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّة ، فَالْنَّبِيُّ ﷺ هُوَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ الَّذِي اشْتَرَى زَيْدًا وَأَعْتَقَهُ وَزَوَّجَهُ ، كَمَا أَنَّ زَيْدًا كَانَ ابْنًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَفَقَّ مَنْظُومَةُ التَّبَنِي قَبْلَ إِغَاثِهِ . فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُمَسِكَ زَوْجَتَهُ فِي عِصْمَتِهِ ، وَلَا يُطْلَقَهَا ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ فِيهَا .

وهذه القصة لَمْ تَسْلَمْ مِنْ طَعْنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَذْنَابِهِمْ ، فَاخْتَرَعُوا مُغَامِرَاتٍ رُومَانِيَّةً أَلْصَقُوهَا بِالْمَقَامِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الْمُنَزَّهِ عَنِ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَطْعَنُونَ فِي الْمَقَامِ النَّبَوِيِّ ، فَيُشَوِّهُونَ صُورَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُشَكِّكُونَ فِي شَخْصِيَّتِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَيَزْمُونِ الرِّسَالَةَ السَّمَاوِيَّةَ بِالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ . وَهَذَا كُلُّهُ بَعِيدٌ عَنْ مَنَالِهِمْ ، وَهُوَ اصْطِيَادٌ فِي مَاءِ أَفْكَارِهِمْ الْعَكْرِ .

((وَالَّذِي صَحَّ مِنْهَا _ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّة _ أَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ بِنْتُ أُمَيْمَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ جَدِّ رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَمَّا بَعْلُهَا فَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ وَمُعْتَقُهُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ رَبَّاهُ وَتَبَنَّاهُ ، وَكَانَ يُسَمَّى ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ [الْأَحْزَاب : ٤] ، فَنفى الْبُتُوَّةَ بِالْدَّعْوَةِ _ (هُوَ أَنْ يَنْتَسِبَ الْإِنْسَانُ إِلَى غَيْرِ آبَائِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَأَبْطَلَ الْإِسْلَامُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَجَعَلَ الْوَلَدَ لِلْفِرَاشِ) _ . وَقَالَ : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الْأَحْزَاب : ٥] الْآيَةِ . فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجَهُ رَسُولُ اللَّهِ زَيْنَبَ الْمَذْكُورَةَ وَبَقِيَ مَعَهَا حَتَّى أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا أَوْ أَخْبَرَهُ بِهِ ... وَمَا تَقَوْلُهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَهْلَةُ الْمُجَازِفُونَ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَاهَا وَأَحَبَّهَا وَشَغِفَ بِحُبِّهَا ، حَتَّى كَانَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَيَقُولُ : يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ، ثَبَّتْ قَلْبَ نَبِيِّكَ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ زَيْدُ الْمَسْجِدِ وَيَقُولُ : اذْنُ مَنِّي يَا زَيْدَ شَوْقًا إِلَيْهَا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذَيَانَاتٍ ، لَا يَرْضَاهَا صَلَحَاءُ الْمُسْلِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ ، فَكَيْفَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ؟ ! ، فَكُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ مُتَقَوِّلٌ)) (٧).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يَتَصَيَّدُونَ فِي مَاءِ أَفْكَارِهِمْ الْعَكْرِ ، فَيَخْتَرَعُونَ قِصَصًا وَهْمِيَّةً لِلطَّعْنِ فِي سُلُوكِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْعَلَاqَةِ مَعَ النِّسَاءِ تُؤَثِّرُ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّجُلِ إِيْجَابًا أَوْ سَلْبًا ، لِذَلِكَ وَجَدْنَا بَعْضَ النَّاسِ يَخْتَرَعُ قِصَصَ الْعِشْقِ الْمُحَرَّمِ ، وَيُلْصِقُهَا بِالْأَنْبِيَاءِ سَعْيًا وَرَاءَ تَعْرِيتِهِمْ مِنْ

(٧) تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ عَمَّا نَسَبَ إِلَيْهِمْ خُثَالَةُ الْأَغْيَاءِ (١ / ٥٠ و ٥١) ، لِابْنِ حَمِيرٍ .

الأخلاقية والمصدقية ، وذلك لكي يفقد الناس ثقتهم بأنبيائهم، ويصبح الأنبياء موضوعًا للتسلية والظعن واللمز .

وهذا يؤثر سلبًا على الدَّعوة الإسلامية، لكنَّ الله حَفِظَ أنبياءه من كُلِّ سوء ، وعَصَمَهُم من الوقوع في الفواحش ، وكُلَّ ما يُخِلُّ بِمُرُوءَةِ الرِّجَالِ وشَرَفِهِمْ . وكُلُّ نبيٍّ يَتَحَرَّكُ وَفَقَ سُمْعَتُهُ الطاهرة ، ومصدقيته ، وشرفه . وإذا زالت هذه العناصر فإن الرسالة الإلهية تَفْقَدُ مَعْنَاهَا ، ويصبح وجود الأنبياء عبثًا ، ومَضِيعَةً للوقت .

وَلَوْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ غَيْرَ صَادِقٍ فِي الدَّعوة الإسلامية ، لَكَتَمَ الآيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ قِصَّةَ زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ ، وَأَخْفَى أَمْرَهَا لئَلَّا يَنْتَبِهَ إِلَيْهَا أَحَدٌ . وبما أنه أظهرها فهذا يدل على أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بل كَلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَيُّ نَبِيٍّ عَلَى إِخْفَاءِ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ تَغْيِيرِهِ . فلا توجد قُوَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى حَجْبِ الثُّورِ الإِلَهِيِّ ، أَوْ كِتْمَانِ الْحَقِّ الَّذِي يَرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى إِصْالَهُ إِلَى الْخَلَائِقِ . كما أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مُتَزَهِّونَ عَنِ الْخِيَانَةِ وَالْخَطَا فِي التَّبْلِيغِ . وعن أنس بن مالك _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : ((لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا ، لَكَتَمَ هَذِهِ _ يَعْنِي آيَةَ الْعِتَابِ _))^(٨).

قال الحافظ في الفتح (٨ / ٥٢٤) : ((وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السُّدِّيِّ ، فساقها سياقًا واضحًا حسنًا . وَلَفْظُهُ : بَلَّغْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَكَانَتْ أُمُّهَا أُمِّمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَهَا زَيْدَ ابْنِ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ ، فَكَرِهَتْ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَنَّهَا رَضِيَتْ بِمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ ، ثُمَّ أَعْلَمَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ نَبِيَّهَ ﷺ بَعْدَ أَنَّهَا مِنْ أَزْوَاجِهِ ، فَكَانَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَأْمُرَ بِطَلَاقِهَا ، وَكَانَ لَا يَزَالُ يَكُونُ بَيْنَ زَيْدٍ وَزَيْنَبَ مَا يَكُونُ مِنَ النَّاسِ ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُمَسِكَ عَلَيْهِ زَوْجَهُ ، وَأَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ ، وَكَانَ يَخْشَى النَّاسَ أَنْ يَعْيَبُوا عَلَيْهِ ، وَيَقُولُوا : تَزَوَّجَ امْرَأَةً ابْنَهُ ، وَكَانَ قَدْ تَبَيَّنَ زَيْدًا)) اهـ .

وقال عياض في الشفا (٢ / ١٦٥) : ((وَأَصَحُّ مَا فِي هَذَا مَا حَكَاهُ أَهْلُ التفسير عَنْ عَلِيِّ ابْنِ الْحُسَيْنِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ أَعْلَمَ نَبِيَّهَ أَنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ ، فَلَمَّا شَكَاهَا إِلَيْهِ زَيْدٌ ، قَالَ

(٨) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٦ / ٢٦٩٩) برقم (٦٩٨٤) . ومسلم (١ / ١٥٩) برقم (١٧٧) .

له : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ۚ ﴾ ، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سَيَتَزَوَّجُهَا مِمَّا
الله مُبْدِيهِ ومُظْهِرِهِ بتمام التَّزْوِيجِ ، وتَطْلِيقِ زَيْدٍ لَهَا)) (9).

من خلال سياق القصة ، يتضح حرصُ النبي ﷺ على تقوية العلاقات الاجتماعية عن طريق
المُصَاهَرَةِ في المجتمع المؤمن العابر للطبقة الفجّة . فقد زَوَّجَ النبي ﷺ ابنةَ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بنت
جَحْشٍ الشريفة القرشية ذات المكانة الاجتماعية من زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ الذي كَانَ عَبْدًا (مؤلًى للنبي) .
وفي ذلك دلالة باهرة على عَظَمَةِ الإسلام الذي ألقى الفوارقَ الطبقيّة ، وجعل التقوى هي
المقياس . وهذا يَرُدُّ على مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الإسلامَ دينٌ طبقيٌّ أو نظامٌ إقطاعي . كما يَرُدُّ على مَنْ
ينظر إلى النبي ﷺ كزعيم قبليٍّ يهدف إلى تعزيز مكانة قبيلته وعائلته ضمن العصبية الجاهلية .
ولا تخفى قُوَّةُ إيمان السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ _ رضي الله عنها _ التي قَدَّمتَ الإرادةَ النبويةَ على إرادتها
، فخضعت لاختيار النبي ﷺ ، وقبِلَتَ بالزواج من زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ _ رضي الله عنه _ على الرغم من
مستواه الاجتماعي المُتَدَنِّي .

وقد أعلمَ الله النبي ﷺ بأنها ستكون من أزواجه مستقبلًا ، والعِلْمُ الإلهيُّ مُحِيطٌ بكل شيء ،
ولا يتوقف عند الحواجز الزمنية (الماضي ، الحاضر ، المستقبل) . مِمَّا جَعَلَ النبي ﷺ يَسْتَحِي
أَنْ يُطْلَقَهَا ، لأنَّ بعضَ الأفراد قد لا يَقْبَلُونَ الأمرَ لِضَعْفِ طاقَتِهِم العقلية عن الاستيعاب ،
خصوصًا في ظل وجود اليهود والمنافقين الذين يُريدون أيَّ أمرٍ ، أو شُبْهَةٍ في عقولهم ، لكي
يَسْجُوا حَوْلَهَا مؤامراتهم الرامية إلى الطعن بالنُّبُوَّةِ ، والتشكيك بالنبي ﷺ عن طريق رُمِيهِ بالأخلاق
الدنيئة والتصرفات المُخِلَّةَ بِالْآدَابِ _ كما يعتقدون في عقولهم المريضة _ . لذلك خَشِيَ النبي ﷺ
أَنْ يَقُولَ الناسُ إنه تَزَوَّجَ امرأةَ ابنه ، حيث إنَّ زَيْدًا قد تَبَيَّنَ النبي ﷺ قبل إبطال حُكْمِ التَّبْنِي . فأَرَادَ
اللهُ تعالى أَنْ يُزِيلَ مِنَ الْأَذْهَانِ البشريةِ فِكْرَ التَّبْنِي وما يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ، فَرَزِدَ لَيْسَ ابْنًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ ،
وَلَمْ يَتَزَوَّجِ النبي ﷺ بامرأة ابنه كما يَزْعُمُ المنافقون والجهَّال الذين لا يملكون حصيلةً إيمانية
متماسكة .

وقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) ﴾ [عَبَسَ] .

(٩) هذه القصة أوردها الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٠٢) ، وابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٤٧) ، والشُّيُوطِي في
الدُّرِّ الْمَشْهُور (٦ / ٦١٥) . وفي سندها عليُّ بن زَيْدِ بن جُدْعَانَ ، وهو ضعيف . انظر تلخيص الحبير لابن
حجر (١ / ٢٨) ، ومجمع الزوائد للهيتمي (١ / ٤١٩) ، وَفَتْحُ الْقَدِيرِ لِلشُّوكَانِي (٤ / ٥٧٧) .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَشْغُولًا بِدَعْوَةِ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَزُعَمَائِهَا عَلَى أَمَلٍ أَنْ يُسَلِّمُوا ، فَيُسَلِّمَ أَقْوَامَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ ، جَاءَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ (الْأَعْمَى) ، وَهُوَ صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ أَسْلَمَ قَدِيمًا ، وَرَاحَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَمْرِ مَا ، وَيُلِحُّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ مَعَ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ . فَظَهَرَتِ الْكَرَاهَةُ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ بِسَبَبِ قَطْعِهِ لِكَلَامِهِ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ يُكَلِّمُهُمْ ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ .

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٩ / ١٠٧) : ((وَالتَّعَرُّضُ لِعِنْوَانِ عَمَاهُ ، إِمَّا لِمَهْيِدِ عُنْدِهِ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى قَطْعِ كَلَامِهِ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ بِالْقَوْمِ ، وَالْإِيذَانُ بِاسْتِحْقَاقِهِ بِالرَّفَقِ وَالرَّأْفَةِ ، وَإِمَّا لَزِيَادَةِ الْإِنْكَارِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : تَوَلَّى لِكُؤْنِهِ أَعْمَى)) اهـ .

وَعَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : أَنْزَلَتْ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ، فَقَالَتْ : أَتَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ : أَرْشِدْنِي ، قَالَتْ : وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالَتْ : فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ ، وَيُقِيلُ عَلَى الْآخِرِ ، وَيَقُولُ : ((أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟)) ، فَيَقُولُ : لَا . فَفِي هَذَا أَنْزَلَتْ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ^(١٠) .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ حَرِيصًا عَلَى إِسْلَامِ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ إِسْلَامَ أَقْوَامِهِمْ . وَلَمْ يُعْرِضِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ لِحَاجَةِ شَخْصِيَّةٍ أَوْ تَكْبُرٍ أَوْ إِهَانَةٍ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ حَرَصَ عَلَى إِسْلَامِ سَادَةِ الْمُشْرِكِينَ بُغْيَةً اتَّبَاعِ أَقْوَامِهِمْ لَهُمْ فِي اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ النَّاسَ يَتَّبِعُونَ زُعَمَاءَهُمُ الدِّينِيِّينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

وَلَوْ كَانَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يَرَى الْمَشْهَدَ أَمَامَهُ لَكَانَ ذَلِكَ سُوءَ أَدَبٍ مِنْهُ ، إِذْ يَقْطَعُ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ . لَكِنَّ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ مَعْدُورٌ بِسَبَبِ عَمَاهُ ، وَعَدَمُ تَمَكُّنِهِ مِنَ الرَّؤْيَةِ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَحْدِيدِ أَبْعَادِ الْمَشْهَدِ وَمَلَابَسَاتِهِ . وَقَدْ عَاتَبَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ ، لِأَنَّهُ ارْتَكَبَ خِلَافَ الْأَوَّلَى ، إِذْ انْصَبَّ تَرْكِيزُهُ عَلَى عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يُعْرِ انْتِبَاهًا لِابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ، وَهَذَا الْأَمْرُ فِيهِ رَفْعٌ لِمَعْنَوِيَّاتِ الضُّعْفَاءِ وَالْفُقَرَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَثَلَا تَنْكُسَرُ قُلُوبُهُمْ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ : عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ ، وَذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَرَفْعًا لِشَأْنِهِ ، وَتَنْوِيهًا بِمَكَانَتِهِ ^(١١) .

(١٠) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٥٨) بِرَقْمِ (٣٨٩٦) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

(١١) قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٩ / ١٨٤) : ((أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَالنَّبِيَّ ﷺ مُشْتَغِلَ بِمَنْ حَضَرَهُ =

وقال الصاوي في حاشيته (٤ / ٢٩١): ((إنما أتى بضمائر الغيبة ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ تَلَطُّفاً به ﷺ وإجلالاً له ، لِمَا فِي الْمُشَافَهَةِ بَتَاءِ الْخِطَابِ مَا لَا يَخْفَى مِنَ الشَّدَّةِ وَالصَّعُوبَةِ)) اهـ .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ [عَبَسَ : ٣] .

وما يُعَلِّمُكَ وَيُخْبِرُكَ يَا مُحَمَّدَ لَعَلَّ هَذَا الْأَعْمَى الَّذِي عَبَسْتَ فِي وَجْهِهِ يَتَطَهَّرُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَمَا يَتَعَلَّمُهُ مِنْكَ مِنْ أَحْكَامٍ وَمَوَاعِظٍ وَحُكْمٍ وَمَعَارِفٍ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٥١): ((وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره)) اهـ . والالتفات إلى خطاب النبي ﷺ ، لِأَنَّ الْمُشَافَهَةَ أَشَدُّ فِي الْعِتَابِ . والمعنى : أَيُّ شَيْءٍ يَجْعَلُكَ عَالِمًا بِحَالِهِ حَتَّى تُعْرِضَ عَنْهُ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٣٩) : ((وَجُمْلَةُ ﴿ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ ، لِبَيَانِ أَنَّ لَهُ شَأْنًا يُنَافِي الْإِعْرَاضَ عَنْهُ . أَي : لَعَلَّهُ يَتَطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، بِسَبَبِ مَا يَتَعَلَّمُهُ مِنْكَ . فالضمير في ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ راجع إلى الأعمى . وقيل : هو راجع إلى الكافر : أَي وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَا طَمِعْتَ فِيهِ مِمَّنْ اشْتَغَلْتَ بِالْكَلامِ مَعَهُ عَنِ الْأَعْمَى أَنَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذْكُرُ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى . وكلمة التَّرَجِّي باعتبار مَنْ وَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابَ ، لِلتَّبْيِيهِ عَلَى أَنَّ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ مَعَ كَوْنِهِ مَرْجُوًّا التَّزَكِّي مِمَّا لَا يَجُوزُ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَوْ يَذْكُرْ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ [عَبَسَ : ٤] .

أَوْ يَتَعَطَّ بِمَا تَقُولُ يَا مُحَمَّدَ ﷺ فَيَنْتَفِعَ بِمَوْعِظَتِكَ ، وَيَسْتَفِيدَ مِنْهَا ، وَيَحْصُلَ لَهُ اعْتِبَارٌ وَاتِّعَازٌ وَابْتِعَادٌ عَنِ الْمَحَارِمِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ٢٧) : ((﴿ أَوْ يَذْكُرْ ﴾ أَي يَتَعَطَّ بِمَا يَتَعَلَّمُهُ مِنَ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ ﴿ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) ﴾ [عَبَسَ] .

= مِنْ وَجْهِهِ قَرِيشَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ قَوِيَ طَمَعُهُ فِي إِسْلَامِهِمْ ، وَكَانَ فِي إِسْلَامِهِمْ إِسْلَامٌ مِّنْ وَرَاءِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ أَعْمَى ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلَّمَنِي بِمَا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، وَجَعَلَ يُنَادِيهِ وَيُكْثِرُ النِّدَاءَ ، وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغَلٌ بغيره ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهَةُ فِي وَجْهِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامِهِ . وقال في نفسه : " يَقُولُ هَؤُلَاءِ : إِنَّمَا أَتْبَاعُهُ الْعُمَيَّانِ وَالسُّفُلَةُ وَالْعَبِيدُ " ، فَعَبَسَ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . قال الثوري : فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا رَأَى ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ يَبْسُطُ لَهُ رِدَاءَهُ ، وَيَقُولُ : " مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي " ويقول : " هَلْ مِنْ حَاجَةٍ ؟ " واستخلفه على المدينة مَرَّتَيْنِ فِي غَزَوَتَيْنِ غَزَاهُمَا)) .

أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى عَنْ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِمَا لَهُ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ وَجَاهٍ وَرِعَامَةٍ، فَأَنْتَ تُقْبَلُ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّد، وَتُصْنَعِي لِكَلَامِهِ لَعْلَهُ يَهْتَدِي، وَتَحْرَصِ عَلَى تَبْلِيغِهِ الدَّعْوَةَ. وَهَذَا تَوْجِيهٌ إِلَهِيٌّ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِعَدَمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِصْغَاءِ لِكَلَامِهِمْ. فَهُمْ كُفَّارُ قُسَاةِ الْقُلُوبِ، مَغْرُورُونَ، مُتَكَبِّرُونَ، مُتَعَجَّرُونَ، مُتَغَطَّرُونَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَوَارِ، وَالنَّقَاشِ الْهَادِي، وَمُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ. وَعَقِيدَتُهُمُ الْبَاطِلَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ بِشَكْلِ أَعْمَى، وَالطَّعْنِ فِي النَّبِيِّ ﷺ بِلَا دَلِيلٍ، وَالتَّطَاوُلِ عَلَيْهِ بِالشَّتَائِمِ وَالتُّهْمِ غَيْرِ الْمُنْطَقِيَّةِ، مِثْلُ: سَاحِرٌ وَمَجْنُونٌ وَكَاهِنٌ ... إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْقَائِمَةِ الْجَاهِرَةِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَمِيلُ إِلَى أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَزَعَمَائِهِمْ، وَيُعَامِلُهُمْ بِلُطْفٍ، وَيُقْبَلُ عَلَيْهِمْ، وَيُصْنَعِي لِكَلَامِهِمْ، طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ، لِأَنَّ إِسْلَامَهُمْ يَعْنِي إِسْلَامَ أَقْوَامِهِمْ. وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ، أَوْ تَحْقِيقِ مَصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ، أَوْ الْحَصُولِ عَلَى أَمْوَالٍ وَمَنَاصِبٍ وَجَاهٍ وَسَيَادَةِ وَرِعَامَةٍ.

وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠٨ / ٩) : ((« أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى » أَي : عَنْ الْإِيمَانِ وَعَمَّا عِنْدَكَ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ الَّتِي يَنْطَوِي عَلَيْهَا الْقُرْآنُ. « فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقِي » أَي : تَتَصَدَّقِي وَتَعْرَضِي بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالْإِهْتِمَامِ بِإِرْشَادِهِ وَاسْتِصْلَاحِهِ. وَفِيهِ مَزِيدٌ تَنْفِيرٌ لَهُ — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — عَنْ مُصَاحِبَتِهِمْ، فَإِنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى الْمُدْبِرِ لَيْسَ مِنْ شِيمِ الْكِبَارِ)) اهـ. وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الْإِتْقَانِ (٣٩٤ / ٢) : ((« أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى » هُوَ أُمِّيَّةٌ بَنَ خَلْفَ. وَقِيلَ : هُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ)) اهـ.

وَفِي الدَّرِّ الْمَنْثُورِ لِلْسُّيُوطِيِّ (٤١٧ / ٨) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْحَكَمِ قَالَ : مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مُتَصَدِّيًا لَغَنًى، وَلَا مُعْرِضًا عَنْ فَقِيرٍ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنَ الْوَحْيِ، كَتَمَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ)) اهـ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُكَ ﴾ [عَبَسَ : ٧] .

وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَا ذَنْبَ أَنْ لَا يَهْتَدِيَ هَذَا الْكَافِرُ، وَلَا يَتَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَلَا يُؤْمِنُ، إِنَّمَا أَنْتَ رَسُولٌ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَلَسْتَ مُطَالِبًا بِهَدَايَتِهِمْ. أَيُّ شَيْءٍ عَلَيْكَ فِي أَنْ لَا يُسْلِمَ ؟. لَا شَيْءَ عَلَيْكَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِسْلَامُهُمْ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَغُ.

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٥٥٢ / ١) : ((وَلَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ فِي أَنْ لَا يَتَزَكَّى بِالْإِسْلَامِ، حَتَّى يَبْعَثَكَ الْحَرَصُ عَلَى إِسْلَامِهِ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَمَّنْ أَسْلَمَ ﴾ [إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَغُ] [الشُّورَى : ٤٨])) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٣٩) : ((﴿ وما عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكِّي ﴾ أي : أيُّ شيء عَلَيْكَ في أن لا يُسَلِّم ولا يَهْتَدِي ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تَهْتَمَّ بأمرٍ مَنْ كان هكذا مِنَ الكفار . ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية . أي : لَيْسَ عَلَيْكَ بأس في أن لا يَتَزَكَّى مَنْ تَصَدَّقَتْ لَهُ ، وأقبلتَ عَلَيْهِ)) اهـ .

والجديرُ بالذكر أنَّ الإقبالَ على الشَّخص المُدْبِر ، فيه إهانةٌ ودُلٌّ ، ويُخِلُّ بالمروءة ، وليس من صفات الكرام .
وكما قال الشاعرُ :

لَوْ كَرِهْتَ كَفِّي مُنَادَمَتِي لَقُلْتُ إِذْ كَرِهْتَ كَفِّي لَهَا بَيْنِي
لا أَبْتَغِي وَصَلَ مَنْ لا يَبْتَغِي صَلَاتِي ولا أُبَالِي حَبِيبًا لا يُبَالِينِي

وما أجملَ قَوْلَ الإمام الشَّافعي :

إِذَا الْمَرْءُ لَا يَرَعَاكَ إِلَّا تَكَلُّفًا فَدَعُهُ وَلَا تُكْنِزْ عَلَيْهِ التَّأْسُفَا
فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي التَّرْكِ رَاحَةٌ وَفِي الْقَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَوْ جَفَا
فَمَا كُلُّ مَنْ تَهَوَّاهُ يَهْوَاكَ قَلْبُهُ وَلَا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَهُ لَكَ قَدْ صَفَا

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) ﴾ [عَبَسَ] .
وأما مَنْ جَاءَكَ مُسْرِعًا (ابنُ أم مكتوم الأعمى) ، ويَحْرِصُ على طلبِ العِلْمِ لَوَجْهِ اللهِ تعالى ، وهو يَقْصِدُكَ لِيَسْتَفِيدَ مِنْ كَلَامِكَ ، وَيَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تُرْشِدَهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَتَعِظَهُ بِالْمَوَاعِظِ الإِلَهِيَّةِ ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ .

وقال النَّسَفي في تفسيره (٤ / ٣١٧) : ((﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ يُسْرِعُ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ .
﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ اللهُ ، أَوِ الْكَفَّارَ أَوْ إِتْيَانَكَ ، أَوِ الْكِبْوَةَ كَعَادَةِ الْعُمَيَّانِ _ إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ قَائِدٌ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ٢٨) : ((﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ فيه قَوْلَان : أَحَدُهُمَا يَمْشِي ، والثاني : يَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ ، وهو ابنُ أم مكتوم)) اهـ .
وقال الله تعالى : ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ [عَبَسَ : ١٠] .

فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ تَتَشَاغَلُ عَنْهُ ، وَتُعْرِضُ عَنْهُ بِوَجْهِكَ ، وَتَتَلَهَّى بِالْانْصِرَافِ عَنْهُ إِلَى أَشْرَافِ قُرَيْشٍ وَزَعَمَائِهِمْ ، وَهُمْ رُؤُوسُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ .

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى إِيْمَانِ الْأَغْنِيَاءِ وَالسَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ وَالزُّعَمَاءِ ، فَكَانَ مَشْغُولًا بِدَعْوَتِهِمْ ، وَمُرَكِّزًا عَلَيْهِمْ ، وَمُهِتَمًّا بِالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ وَالِاخْتِلَاطِ بِهِمْ ، مِنْ أَجْلِ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيْمَانِ ، لِأَنَّ إِيْمَانَهُمْ يَعْنِي بِالضَّرُورَةِ إِيْمَانُ أَقْوَامِهِمْ . فَهُمْ رُؤُوسُ النَّاسِ ، وَشُيُوخُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ ، أَصْحَابُ الْمَالِ وَالنَّفُودِ وَالسُّلْطَةِ . فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ . وَالْمَعْنَى : لَا يَنْبَغِي لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تَهْتَمَّ بِالْأَغْنِيَاءِ وَالزُّعَمَاءِ ، وَتُعْرِضَ عَنِ الْفُقَرَاءِ وَالضَّعْفَاءِ . وَبَعْدَ هَذَا الْعِتَابِ الْإِلَهِيِّ ، مَا عَبَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ فَقِيرٌ قَطُّ ، وَلَا تَصَدَّى لَغْنِيٍّ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٦٠٤) : ((وَمِنْ هَهُنَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَخْصَصَ بِالْإِنْذَارِ أَحَدًا ، بَلْ يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالضَّعِيفِ ، وَالْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ ، وَالسَّادَةِ وَالْعَبِيدِ ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَالصَّغَارِ وَالْكِبَارِ ، ثُمَّ اللَّهُ تَعَالَى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ)) اهـ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ التَّلَهِّيَّ فِي الْآيَةِ هُوَ التَّشَاغُلُ ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ . فَالْنَبِيُّ ﷺ لَا يَلْعَبُ ، وَلَا يُضَيِّعُ وَقْتَهُ ، إِذْ إِنَّ حَيَاتِهِ كَامِلَةٌ مُسَخَّرَةٌ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَقَالَ عِيَاضُ فِي الشُّفَا (٢ / ١٣٦) : ((فَلَيْسَ (فِي الْآيَاتِ) إِثْبَاتُ ذَنْبٍ لَهُ ﷺ ، بَلْ إِعْلَامُ اللَّهِ أَنَّ ذَلِكَ الْمُتَصَدَّى لَهُ مِمَّنْ لَا يَتَزَكَّى ، وَأَنَّ الصَّوَابَ وَالْأَوَّلَى _ لَوْ كُشِفَ لَكَ حَالُ الرَّجُلَيْنِ _ الْإِقْبَالُ عَلَى الْأَعْمَى . وَفَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا فَعَلَ ، وَتَصَدَّيْهِ لَذَلِكَ الْكَافِرُ ، كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَتَبْلِيغًا عَنْهُ ، وَاسْتِثْلَافًا لَهُ ، كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ ، لَا مَعْصِيَةَ وَلَا مُخَالَفَةَ لَهُ . وَمَا قَصَّه اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ إِعْلَامُ بِحَالِ الرَّجُلَيْنِ ، وَتَوْهِينُ أَمْرِ الْكَافِرِ عِنْدَهُ ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَتَزَكَّى ﴾)) اهـ .

لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَقْبَلَ عَلَى مَنْ جَاءَهُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ فَقِيرًا وَضَعِيفًا ، وَأَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْأَشْرَافِ وَالزُّعَمَاءِ إِذَا كَانُوا بِلَا عِلْمٍ وَلَا أَخْلَاقٍ ، وَلَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْهَدَايَةِ .

وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٣٨٦) : ((فَحَمَلَةُ الشَّرْعِ وَالْعِلْمِ مُخَاطَبُونَ بِتَقْرِيبِ الضَّعِيفِ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى الشَّرِيفِ الْعَارِي مِنَ الْخَيْرِ)) اهـ .

الفصل العشرون الإِسْرَاءُ وَالْمِغْرَاجُ

تمهيد

الإسراء : الرحلة الأرضية والانتقال العجيب _ حسب مقاييس البشر _ الذي تم بقُدرة الله، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، والوصول إليه بسرعة لا يتخيّلها العقل البشري .
المِعراج : الرحلة السماوية والارتفاع والارتقاء من عالم الأرض إلى عالم السماء ، حيث سُدرة المنتهى . ثم الرجوع بعد ذلك إلى المسجد الحرام .

إنَّ " الإسراء والمعراج " حَدَثًا في نفس الليلة (ليلة السابع والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة بعام واحد) . وقد تَمَّت هذه الرحلة المقدسة بالروح والجسد معًا .

لقد فقد النبي محمد ﷺ عمّه " أبو طالب " الذي كان يؤانسه ويدافع عنه ويحميه ، فضاقت عليه الأرض ، بسبب تكذيب المشركين له ، وكُفّرهم به ، ومقاومتهم لدعوته . وبعد وفاة عمّه ، تُوفيت زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، التي كانت نعم الزّوج . وقد تضايّق النبي ﷺ وشعر بحزن عميق . والنبي ﷺ إنسان من لحم ودم ، يشعر ويتألم . ولذّيه مشاعر وأحاسيس . فأراد الله أن يُكرّمه ، ويؤنس وحشته وغربته في قومه . فأرسل الله جبريل _ عليه السلام _ إلى النبي ﷺ ليصحبه في رحلة الإسراء والمعراج .

و " الإسراء والمعراج " من المَكْرُمَات الإلهية للنبي ﷺ . وهي مُعْجِزة خالدة ، تدل على عَظَمَةِ الله ، وعنايته بمحمد ﷺ ، ورعايته له . وأيضًا، تدل على عَظَمَةِ النبي محمد ﷺ الذي نال هذا التكريم الإلهي الخارق للعادة .

وإذا كانت أبواب الأرض قد أُغْلِقَتْ في وجه النبي ﷺ ، فإنَّ أبواب السماء مفتوحة له . يدخل منها لينال الشرف الإلهي ، والمكانة الرفيعة ، والمنزلة الجليلة . وإذا كان أهل الأرض لم يعرفوا مكانة النبي ﷺ (لا كرامة لنبي في وطنه) ، فإنَّ أهل السماء يُدركون مكانة النبي ﷺ العالية .

لقد أسرى الله بمحمد ﷺ لَيْلًا من المسجد الحرام في بلده مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس . وهي رحلة عظيمة ، لم تُصدّق قُرَيْش حُدُوثها ، وقد اتَّخذها المشركون قِصَّةً للسُّخْرية والاستهزاء والتَّندر . ولكنَّ النبي ﷺ أكَّدها بالدليل والبرهان ، وقَدَّمَ البرهان على رحلته الأرضية ورحلته السماوية بصُحبة جبريل _ عليه السلام _ . وقد عُرِجَ به إلى المأى الأعلى عند سُدرة المنتهى (أقصى مكان يمكن الوصول إليه في السماء) ، أي : الحد الذي تنقطع عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن . وعاد بعد ذلك في نفس الليلة .

قال الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .
تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ ، الذي سَيَّرَ عَبْدَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ . وَسَمِّيَ أَقْصَى لِأَنَّهُ أَبْعَدُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي تُزَارُ . أَوْ : لِإِبْعَادِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤) : ((وفي معنى التسييح هاهنا قولان : أحدهما أَنَّ الْعَرَبَ تُسَبِّحُ عِنْدَ الْأَمْرِ الْمُعْجَبِ ، فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَجَبَ الْعِبَادِ مِمَّا أَسَدَى إِلَى رَسُولِهِ مِنَ النِّعْمَةِ . وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ خَرَجَ مَخْرَجَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُ لَمَّا حَدَّثَهُمْ بِالْإِسْرَاءِ كَذَّبُوهُ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : تَنَزَّهَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ رَسُولًا كَذَّابًا)) اهـ .

وقد سَمَّى اللَّهُ مُحَمَّدًا عَبْدًا لَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : بِرَسُولِهِ أَوْ بِنَبِيِّهِ أَوْ بِمُحَمَّدٍ ، وَذَلِكَ تَشْرِيفًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِهِ ، وَتَنْوِيهًا بِمَكَانَتِهِ ، فَهُوَ الْعَبْدُ الْخَالِصُ ، كُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ خَاضِعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى . وَلَوْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اسْمٌ أَشْرَفُ مِنْهُ لَسَمَّاهُ اللَّهُ بِهِ .

وفي تفسير القرطبي (١٠ / ١٨٠) : ((قال العلماء : لَوْ كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اسْمٌ أَشْرَفُ مِنْهُ لَسَمَّاهُ بِهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَلِيَّةِ . قَالَ الْقُشَيْرِيُّ : لَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ ، وَأَرْقَاهُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ الْعُلَوِّيَّةِ ، أَلَزَمَهُ اسْمُ الْعِبُودِيَّةِ تَوَاضُعًا لِلْأُمَّةِ ، وَاجْلَالًا لِلْأُلُوهِيَّةِ)) اهـ .

وَالْعِبُودِيَّةُ أَشْرَفُ الْخِصَالِ ، وَالتَّسْمِيُّ بِهَا أَعْظَمُ الْمَنَازِلِ ، وَأَعْلَى الْحَالَاتِ . وَالفَخْرُ الْحَقِيقِيُّ إِنَّمَا هُوَ بِالْعِبُودِيَّةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَشْرَفُ الْأَسْمَاءِ مَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَأَعْظَمُ الْأَوْصَافِ هُوَ الْوَصْفُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى اللَّهِ . وَهَذَا يَتَحَقَّقُ فِي الْآيَةِ : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ . كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

يَا قَوْمُ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي
لَا تَدْعُنِي إِلَّا بَيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

وَالْإِسْرَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ . فَمَا فَائِدَةُ كَلِمَةِ ﴿لَيْلًا﴾ ؟ . هَذِهِ الْكَلِمَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْإِسْرَاءَ تَمَّ فِي مَدَّةٍ زَمْنِيَّةٍ قَصِيرَةٍ لِلْغَايَةِ . لَقَدْ تَمَّ فِي جُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٢٩) : ((وَ ﴿لَيْلًا﴾ نَصَبَ عَلَى الظَّرْفِ . وَفَائِدَتُهُ الدَّلَالَةُ بِتَنْكِيرِهِ عَلَى تَقْلِيلِ مَدَّةِ الْإِسْرَاءِ)) اهـ .

وقد اختلف العلماء : هل أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ نَفْسُهُ أَمْ لَا ؟ . وَفِي فَتْحِ الْقَدِيرِ لِلشُّوكَانِيِّ (٣ / ٢٩٥) : ((قَالَ الْحَسَنُ وَقْتَادَةُ : يَعْنِي الْمَسْجِدَ نَفْسَهُ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ

. وقال عَامَّةُ المفسِّرين: أُسْرِيَ برسول الله ﷺ من دار أم هانئ. فَحَمَلُوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم ، لإحاطة كُل واحد منهما بالمسجد الحرام ، أو لأن الحرم كُلَّهُ مسجد)) .

وقد ثَبَتَ في الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ [البخاري (٣ / ١١٧٣) ، ومسلم (١ / ١٤٩)] أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ مِنْ نَفْسِ المسجد الحرام .

﴿ الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ . أي : في الزُّرُوعِ وَالشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ . وَأَيْضًا ، بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وقد بَارَكَ اللهُ تَعَالَى حَوْلَ المسجد الأقصى بركات الدنيا والآخرة .

وفي تفسير البغوي (١ / ٥٧) : ((وقال مجاهد : سَمَّاهُ مُبَارَكًا ، لِأَنَّهُ مَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَهْبِطُ الْمَلَائِكَةِ وَالْوَحْيِ ، وَمِنْهُ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) اهـ .

﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ . هذه هي الحكمة من الإسراء والمعراج . لقد أرادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ آيَاتِهِ الْبَاهِرَاتِ . وقد رأى محمد ﷺ الْأَنْبِيَاءَ الْكَرَامَ ، وَعَجَائِبَ قُدْرَةِ اللهِ ، وَمِنْهَا قَطَعَ هذه المسافة الطويلة في جزء من الليل . وَصَرَّفَ الْكَلَامَ مِنَ الْغَيْبَةِ ﴿ أُسْرَى ﴾ إِلَى التَّكَلُّمِ ﴿ لِنُرِيَهُ ﴾ لِتَعْظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ الْمُطْلَقَةِ ، وَالتَّنْوِيهِ بِعَظَمَةِ الْبَرَكَاتِ الْكَثِيرَةِ ، وَالْآيَاتِ الْجَلِيلَةِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ١٨٠) : ((﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا مِنْ بَابِ تَلْوِينِ الْخِطَابِ . وَالْآيَاتُ الَّتِي أَرَاهُ اللهُ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا النَّاسَ ، وَإِسْرَائِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المسجد الأقصى فِي لَيْلَةٍ ، وَهُوَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، وَغُرُوجِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَوَصْفِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ)) اهـ .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كُلَّ الْأَصْوَاتِ ، وَيُبْصِرُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ . فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِأَقْوَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِسْرَاءِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى اجْتِمَاعِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَغُرُوجِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَمُشَاهَدَةِ عَجَائِبِ قُدْرَةِ اللهِ ، وَالْحَدِيثِ مَعَ اللهِ تَعَالَى . وَهَذَا شَرَفٌ مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ ، وَيَدُلُّ بوضوح على المنزلة الرفيعة للنبي ﷺ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٥٧) : ((ذَكَرَ ﴿ السَّمِيعُ ﴾ لِئِنَّهُ عَلَى أَنَّهُ الْمُجِيبُ لِذَعَائِهِ ، وَذَكَرَ ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ لِئِنَّهُ عَلَى أَنَّهُ الْحَافِظُ لَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ)) اهـ .

واختلفَ الْعُلَمَاءُ: هَلْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ أَمْ لَا؟ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٥) : ((فروى أبو هريرة أنه دخل بيت المقدس ، وصلى فيه بالأنبياء ثُمَّ غَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ . وقال حذيفة بن اليمان: لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ ، وَلَا نَزَلَ عَنِ الْبُرَاقِ حَتَّى غَرَجَ بِهِ)) .

وعن زُرِّ بن حُبَيْش قال : كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، فَقُلْتُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،
 حَيْثُ أُسْرِيَ بِهِ ، دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى . قَالَ : فَقَالَ حُذَيْفَةُ : وَكَيْفَ عَلِمْتَ ذَلِكَ يَا أَصْلَحَ ، فَإِنِّي
 أَعْرِفُ وَجْهَكَ ، وَلَا أَدْرِي مَا اسْمُكَ ، فَمَا اسْمُكَ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا زُرُّ بْنُ حُبَيْشِ الْأَسَدِيِّ . قَالَ :
 ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ؟ ، قَالَ : فَقُلْتُ : بِالْقُرْآنِ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ : فَمَنْ أَخَذَ بِالْقُرْآنِ
 فَلَحَّ . قَالَ : فَقَرَأْتُ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
 الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ : هَلْ تَرَاهُ أَنَّهُ دَخَلَهُ ؟ ، فَقُلْتُ : أَجَلْ . فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا دَخَلَهُ ،
 وَلَوْ دَخَلَهُ لَكُنْتُ عَلَيْكُمْ الصَّلَاةَ فِيهِ . قَالَ : ثُمَّ قَالَ : وَلَمْ يُفَارِقْ ظَهَرَ الْبُرَاقِ حَتَّى رَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ
 (1)

وَالْبُرَاقُ دَابَّةٌ . أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفة .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٥) : ((فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿ إلى المسجد
 الأقصى ﴾

وأنتم تقولون : صعد إلى السماء . فالجواب : إن الإسراء كان إلى هُناك ، والمِعْرَاج كان من هُناك
 . والحكمة في ذكر ذلك أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث لاشتد إنكارهم ، فلمَّا
 أخبر ببيت المقدس ، وبأن لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة ، أخبر بمِعْرَاجِهِ))
 اهـ .

إنَّ الرُّبْطَ الواضح بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى لم يأتِ بمحض الصدفة ، أو يحكم
 الطبيعة الجغرافية . إنما هو رُبطٌ مقصود ، لأنَّ المساجد بيوت الله تعالى لا تنفصل ، خاصة أنَّ
 هذين المسجدين لهما وضع بالغ الخصوصية ، فهما قِبْلَتَا المسلمين لا تنفصلان .
 والمسجد الأقصى كان قِبْلَةَ المسلمين الأولى التي يتوجهون إليها ، وهي عهدهم الأول نحو
 اتِّصالهم بالسماء ، وتوجيه أرواحهم وأجسامهم نحو تطبيق شعيرة الصلاة التي هي الجبل المتين
 بين المخلوق والخالق . وكل ذلك يعكس أهمية المسجد الأقصى باعتباره القِبْلَةَ الأولى ، وثالث
 المسجدين العظيمين .

وفي صحيح البخاري (١ / ١٥٥) : عن البراء بن عازب _ رضي الله عنهما _ قال : كان
 رسولُ الله ﷺ صلى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٩١) برقم (٣٣٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أن يُوجَّه إلى الكعبة ، فأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة : ١٤٤] . فَتَوَجَّهَ نَحْوَ الكعبة . وقال السُّفهاء من الناس وهُم اليهود : ﴿ما ولَّاهم عن قِبَلَتِهِم التي كانوا عليها﴾ . ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [البقرة : ١٤٢] . فصلى مع النبي ﷺ رَجُل ، ثُمَّ خَرَجَ بعدما صلى ، فَمَرَّ على قَوْم من الأنصار في صلاة العصر ، نَحْوَ بيت المقدس ، فقال وهو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه تَوَجَّهَ نَحْوَ الكعبة، فَتَحَرَّفَ الْقَوْمُ ، حتى تَوَجَّهُوا نَحْوَ الكعبة .

والله تعالى قادِرٌ على جعل الكعبة هي القِبْلَةُ الأولى مُباشرةً ، دون الحاجة للتَّوجُّه إلى بيت المقدس ، لكنَّه _ تعالى _ أراد ترسيخ الترابط الحتمي والمصري بين هذين المسجدين ، من أجل توجيه رسالة إلى المسلمين باستحالة فكِّ الارتباط بين القِبْلَتَيْنِ مهما حصل ، ومَنْ يُفَرِّطَ بالمسجد الأقصى فهو مُفَرِّطٌ بالكعبة ، خالِعًا الانتماء للإسلام ، وراميًا قداسة القِبْلَةِ وراء ظَهْرِهِ .

ومن خلال هذا التأصيل لا ينبغي النظر إلى فلسطين كبلد مُحْتَلٍّ ، وانتهى الأمر . بل يُنْظَرُ إليها كَوَقْفٍ عربي إسلامي حاضن للقِبْلَةِ الأولى ، والمُسَرَّى النبوي الشريف ، ومكان العُروج إلى السماوات العُلى . وهذه الطبيعة الإيمانية الخالصة والخاصة بفلسطين تجعل منها جزءًا من العقيدة ، وقضية إسلامية عالمية ، وليست أرضًا ولا جنين وقرارات الأمم المتحدة . وبالتالي ينبغي الانتباه إلى مكانة فلسطين في العقيدة الإسلامية ، لا قرارات شرعية الوهم الدولية .

وقد رَكِبَ النبي ﷺ البُرَاقَ _ دَابَّةً أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرَفِهِ _ ، حتى أتى بيت المقدس ، ورَبَطَهُ بِالْحَلْقَةِ التي يَرِيطُ به الأنبياء ، ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج ، فجاءه جبريل _ عليه السلام _ بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختر اللبَنَ (الفِطْرَةَ) ، ثم عُرج بهما إلى السموات العُلى ، ثم ذهب بالنبي ﷺ إلى سُدرَةِ المُنْتَهَى ، حيث أوحى اللهُ تعالى إليه ، ففَرَضَ عليه خمسين صلاة في كُلِّ يوم وليلة ، ثُمَّ خَفَّفَهَا اللهُ تعالى إلى خمس صلوات رحمةً بالأُمَّة (2) .

إنَّ حادثة الإسراء كَرَّست الترابطَ الأبديَّ بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، بحيث يصبح فصلهما تكذيبًا للقرآن الكريم، وتهديدًا لعقيدة المسلم التي هي شرفه وخلاصه الدُّنيوي والأخروي.

(٢) راجع صحيح مسلم (١ / ١٤٥) . وانظر القصة بالتفصيل في الصحيحين .

وحادثة المعراج كُرست علاقة المسلمين بالسماء عبر فتح أبوابها للنبي الخاتم ﷺ حامل الشريعة الإلهية ، وقائد أمة المسلمين . وكل تكريم للنبي ﷺ هو بالضرورة تكريم لأُمته التي ينبغي أن تظل موصولة بالسماء مرجعيتها الوحيدة الأبدية . وقد كان الله تعالى قادراً على فرض الصلاة على النبي ﷺ وهو جالس في بيته ، لكن دلالة فرض الصلاة في السماء يدل على مكانتها الخاصة التي هي عمود الدِّين، حتى تُؤخذ بعين الاعتبار هي وباقي العبادات التي تنبثق عن الصلاة (الأساس) .

ولم تكن حادثة الإسراء والمعراج رحلة سياحية أو نزهة في آخر الأسبوع لتغيير الجو . بل إن دلالتها الإيمانية التي تُشكّل خارطة القلب المسلم في كل أطوار وجوده ، هي الدستور الرباني الذي أسس العلاقة بين الخالق (السيد) والمخلوق (العبد) . أمّا الذين ينظرون إلى هذه الحادثة كمُعجزة مُفرّغة من دلالاتها العميقة ، وأبعادها الروحية والمادية، فهم يُنقصونها حقّها ، ولا ينظرون إلى ما وراء هذه المعجزة الخالدة من العبر المركزية . إذ إنهم يتركزون في قيمة المعجزة كعمل خارق ، ثم ينسون أو يتناسون لوازم هذه المعجزة ، وانعكاساتها على الحياة العملية ، وروابطها الوجودية الحاسمة في الذات الإنسانية الشخصية ، والمنظومة الاجتماعية العامة .

وكما هي العادة فإن المشركين ومن شاركهم يحاولون استغلال أية حادثة للطعن في الرسالة ، والالتفاف على الحق ، ظناً منهم أنهم بذلك يهدمون أسس الدعوة ، ويجتثون البعثة النبوية من جذورها . لذلك حاولوا جاهدين التشكيك في حادثة الإسراء والمعراج ومحاولة إقامة الحجة على النبي ﷺ وإفحامه ، وذلك بسؤاله عن وصف بيت المقدس . والنبي ﷺ في أثناء هذه الرحلة ، لم يدرُ بخَلده أن يُركّز في أوصاف بيت المقدس بالتفصيل، لذلك كان موقفه ضعيفاً لولا أن من الله عليه بالنبات ، فأبرز له بيت المقدس بلا حجاب ، كي يصفه رأي العين .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول : ((لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ ، فَجَلَّى اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدَسِ ، فَطَفَّقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ)) (٣)

لقد كَشَفَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَيْتَ الْمَقْدَسِ . أي : كَشَفَ الْحُجُبَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَهُ ، حَتَّى رَأَاهُ رَأْيَ الْعَيْنِ ، فَرَاحَ يَصِفُهُ بِدَقَّةٍ ، وَيُخْبِرُهُمْ عَنْ عِلَامَاتِهِ . وهذه مُعْجِزَةٌ بَاهِرَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وهي أمر

(٣) متفق عليه . البخاري (١٧٤٣ / ٤) برقم (٤٤٣٣) ، ومسلم (١ / ١٥٦) برقم (١٧٠) .

غير مستحيل ، فقد أُخْضِرَ عَرشُ بَلْقِيسَ لِلنَّبِيِّ سَلِيمَانَ ﷺ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ . وقد أَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ الْحُجَّةَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ ، وَسَخَرُوا مِنْ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ، وَطَعَنُوا فِي صِحَّتِهَا .

وَأَسْلُوبُ الْمُشْرِكِينَ الْهَمْجِيُّ ، وَكَلَامُهُمُ الْقَاسِي ، وَعِنَادُهُمْ ، وَاسْتِكْبَارُهُمْ ، وَحُجَّتُهُمُ الدَّاحِضَةُ ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَدُلُّ عَلَى قُلُوبٍ مُتَعَطِّشَةٍ لِلْحَقِّ . وَلَوْ كَانُوا بَاحِثِينَ عَنِ الْهَدَايَةِ لَاسْتَفْسَرُوا عَنْ طَبِيعَةِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ (الْمُعْجِزَةِ) ، وَإِمْكَانِيَةِ حَدُوثِهَا ، وَمَا الْأَدْلَةُ عَلَيْهَا . وَبَعْدَهَا يُصْدِرُونَ حُكْمَهُمْ وَقَرَارَهُمْ ، أَمَّا أَنْ يَأْتُوا بِخَلْفِيَّةٍ مُسَبِّقَةٍ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلتَّغْيِيرِ ، سَوَاءً ظَهَرَ الْحَقُّ أَمْ لَمْ يَظْهَرْ ، فَهَذَا لَيْسَ شَأْنُ أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمُتَنَصِّفَةِ الْبَاحِثَةِ عَنِ الْحَقِيقَةِ مُجَرَّدَةً مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ ، وَسَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فَقَالُوا : هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ؟ ، قَالَ : أَوْ قَالَ ذَلِكَ ؟ ، قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : لَنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَّقَ . قَالُوا : أَوْ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ ؟ ، قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي لِأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ ، فِي غُدُوءَةٍ أَوْ رُوحَةٍ ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ^(٤) .

الْمُعْجِزَةُ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، وَلَيْسَ كُلُّ الْعُقُولِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَمَّلَهَا . لِذَلِكَ ، ارْتَدَّ بَعْضُ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِعَابِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ ، فَاعْتَبَرُوا النَّبِيَّ ﷺ كَاذِبًا ، أَوْ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْأَحْلَامِ وَالْخَيَالَاتِ .

وَقَدْ سَعَى الْكَافِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ لِيَأْخُذُوا رَأْيَهُ الشَّخْصِيَّ فِيمَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ . وَقَدْ فُوجِنُوا بِجَوَابِ أَبِي بَكْرٍ ، وَصَعَفَهُمْ ثَبَاتُ قَلْبِهِ ، وَقُوَّةُ إِيْمَانِهِ . وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ صَدَّقَ . وَقَدْ قَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ دَلِيلًا عَقْلَانِيًّا قَائِمًا عَلَى الْإِيمَانِ الْخَالِصِ وَالْيَقِينِ الرَّاسِخِ ، وَهُوَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ يُصَدِّقُ النَّبِيَّ ﷺ فِي نَزُولِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ لَا يُصَدِّقُ حَادِثَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ؟ ! . وَبِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَشْهُودٌ لَهُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . إِذَنْ ، لَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ .

(٤) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٣ / ٦٥) بِرَقْمِ (٤٤٠٧) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

ولا شك أنَّ نُزول الوَحْيِ الإلهيِّ على النبيِّ ﷺ أعظم من الإسراء والمعراج . ولا يُمكن المقارنة بينهما . والغدوة أوَّل النهار ، والرَّوْحَةُ آخر النهار . والمعنى أنَّ أبا بكر يُصدِّق النبيَّ ﷺ في نُزول الوَحْيِ الإلهيِّ عليه في أوقات اليوم المختلفة ، وهذا أعظم من حادثة الإسراء والمعراج ، لذلك فهو يُصدِّقها بدون أدنى حَرَج ، لذلك سُمِّي بالصدِّيق ، لأنَّه آمنَ بالنبيِّ ﷺ وصدِّقه في الوقت الذي كذَّبه الناسُ وطعنوا فيه ، وشكَّكوا في صدِّقه أو عقله .

وقال الله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النَّجْم : ٥] .

عَلَّمَ محمداً ﷺ هذا القرآنَ مَلَكٌ شَدِيدٌ قُوَاه ، وهو جبريل أمين الوَحْيِ _ عليه السلام _ ،

وهو الوساطة بين الله وأنبيائه _ عليهم السلام _ .

وقُوَّةُ جبريل لا يُمكن للعقل البشريِّ أن يتخيَّلها . قال أبو السُّعود في تفسيره (١٥٥ / ٨) :
((قَلَعَ قُرَى قَوْمٍ لُوطٍ مِنَ الْمَاءِ الْأَسْوَدِ الَّذِي هُوَ تَحْتَ الشَّرَى ، وَحَمَلَهَا عَلَى جَنَاحِهِ ، وَرَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَلَبَهَا ، وَصَاحَ بِشُمُودٍ صَاحَةً فَأَصْبَحُوا جَائِمِينَ ، وَكَانَ هُبُوطُهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَصُعُودُهُ فِي أَسْرَعٍ مِنْ رَجْعَةِ الطَّرْفِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ [النَّجْم : ٦] .

جبريل _ عليه السلام _ ذُو منظر حَسَن ، وقُوَّة شديدة . فاستقامَ على صُورته الحقيقية التي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (١٥٥ / ٨) : ((ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي : حَصَافَةٌ فِي عَقْلِهِ وَرَأْيِهِ ، وَمَتَانَةٌ فِي دِينِهِ)) اهـ .

وقال التَّسْفِي في تفسيره (١٨٨ / ٤) : ((فَاسْتَوَى ﴾ فاستقامَ على صُورَةِ نَفْسِهِ الحقيقية دون الصورة التي كان يَتِمَثَّلُ بِهَا كُلَّمَا هَبَطَ بِالْوَحْيِ)) اهـ .

والجدير بالذكر أنَّ جبريل _ عليه السلام _ كان يَأْتِي إلى النبيِّ ﷺ في صُورة الصَّحَابِيِّ الجليل دُخِيَّة الكَلْبِيِّ _ رضي الله عنه _ . ففي مُسند أحمد (١٠٧ / ٢) عن ابن عُمر _ رضي الله عنهما _ قال : ((وَكَانَ جَبْرِيلُ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دُخِيَّةٍ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ [النَّجْم : ٧] ^(٥).

فاستوى جبريل _ عليه السلام _ في أفق السماء ، عند مطلع الشمس ، على صورته الحقيقية. وقد كان جبريل _ عليه السلام _ يأتي إلى النبي ﷺ على صورة رجل ، فأحب النبي ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ١٥٥) : ((وذلك أن رسول الله ﷺ أحب أن يراه في صورته التي خلق عليها . وكان رسول الله ﷺ بحراء ، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسَدَّ ما بين المشرق والمغرب ، ومَلَأَ الأفق ، فَخَرَّ رسولُ الله ﷺ ، فنزل جبريل _ عليه السلام _ في صورة آدميين ، فَضَمَّهُ إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. قيل: ما رآه أحدٌ من الأنبياء في صورته غير النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ، فإنه رآه مرتين، مرَّةً في الأرض، ومرَّةً في السماء)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٤ و ٦٥) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحدهما : فاستوى جبريل وهو يعني النبي ﷺ . والمعنى أَنهما استويا بالأفق الأعلى لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ . قاله الفراء. والثاني: فاستوى جبريل، وهو يعني جبريل بالأفق الأعلى على صورته الحقيقية، لأنه كان يَتَمَثَّلُ لرسول الله ﷺ إذا هَبَطَ عليه بالوحي في صورة رجل، وأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته، فاستوى في أفق المشرق ، فمَلَأَ الأفق فيكون المعنى : فاستوى جبريل بالأفق الأعلى في صورته. هذا قول الزَّجاج . قال مجاهد: والأفق الأعلى هو مطلع الشمس. وقال غَيْرُهُ: إنما قيل له الأعلى لأنه فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء)) .

إِنَّ الْمَلَكَ جِبْرِيلَ _ عليه السلام _ هو أعظم الملائكة على الإطلاق .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أَنَّ النبي ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ ^(٦).

(٥) قال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣١٦) : ((قال ابن جرير هَهُنَا قَوْلًا لَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ، وَلَا حَكَاهُ هُوَ عَنْ أَحَدٍ. وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: فَاسْتَوَى ، أَي هَذَا الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ ذُو الْمِرَّةِ هُوَ وَمُحَمَّدٌ ﷺ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، أَي اسْتَوَى جَمِيعًا بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى، وَذَلِكَ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ. كَذَا قَالَ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ)) .

(٦) متفق عليه . البخاري (٣ / ١١٨١) برقم (٣٠٦٠) ، ومسلم (١ / ١٥٨) برقم (١٧٤) .

وهذا الأمر الغيبي لا يمكن للصحابي أن يعرفه إلا إذا سمعه من النبي ﷺ . لذلك ، فالحديث له حُكم المرفوع . وهو يُشير إلى عَظَمَة هذا المَلَك ومكانته الجليلة وقُوته الكبيرة ، التي لا يمكن للعقل البشري أن يجسدها أو يتصورها، لأنها فوق قدرته على التَّحْمُل أو التَّخِيل . فالملائكة أعظم مخلوقات الله تعالى من ناحية القوة الجسمانية التي لا تنهار مُطلقًا ، ولا يعترها التعب والإرهاق ، ولا تُصاب بالملل . فهم كائنات مخلوقة من النور ، أي إنهم يَمَيِّزون عن البشر المخلوقين من التراب ، والجنّ المخلوقين من النار .

وقد ورد في صحيح البخاري (٣ / ١١٨١) عن عائشة _ رضي الله عنه _ أن جبريل جاء النبي ﷺ في صورته الحقيقية فَسَدَّ الأفق .

وجبريل _ عليه السلام _ هو رُوح القدس الأمين المختص بالنزول على الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لإخبارهم بالوحي ، فهو أمين الوحي . وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [النجم : ٨] .

نزل جبريل _ عليه السلام _ من السماء ، واقترب من محمد ﷺ ، وزاد في القُرب منه . والتَدَلَّى في الأصل هو الامتداد إلى جهة الأسفل ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ في القُرب . وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٧٩) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ ، أي دَنَا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ ، فنَزَلَ على النبي ﷺ بالوحي . المعنى أنه لَمَّا رَأَى النبي ﷺ مِنْ عَظَمَتِهِ مَا رَأَى ، وهَالَهُ ذَلِكَ ، رَدَّهُ اللهُ إِلَى صورة آدمي حِينَ قُرْبٍ مِنَ النبي ﷺ بالوحي)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٥ و٦٦) : ((وفي المُشار إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنه الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ . روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث شريك بن أبي نمر عن أنس بن مالك قال : دَنَا الجبارُ رَبَّ العِزَّة ، فَتَدَلَّى حتى كان مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى . وروى أبو سَلَمَة عن ابن عباس : _ ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ . قال : دَنَا رَبُّهُ فَتَدَلَّى . وهذا اختيار مُقاتل . قال : دَنَا الرَّبُّ من محمد ليلة أُسْرِيَ بِهِ ، فكان مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى . وقد كشفتُ هذا الوجه في كتاب المغني ، وَبَيَّنْتُ أنه ليس كما يَحْطَرُّ بالبال من قُرب الأجسام وقطع المسافة ، لأنَّ ذلك يَخْتَصُّ بالأجسام ، والله مُنَزَّهٌ عن ذلك . والثاني أنه محمد ، دَنَا مِنْ رَبِّهِ ، قاله ابن عباس والقرطبي . والثالث أنه جبريل ، ثُمَّ في الكلام قولان : أحدهما : دَنَا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض ، فنَزَلَ إلى رسول الله ﷺ ، قاله الحسن وقتادة . والثاني : دَنَا جبريل مِنْ رَبِّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ فكان مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ، قاله مجاهد)) اهـ .

قال جمهور العلماء : المعنى : دنا جبريل إلى محمد في الأرض عند حراء ، وهذا هو الصحيح . وجميع الأوصاف في هذه الآيات تتحدث عن العلاقة بين محمد ﷺ وجبريل _ عليه السلام _ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النَّجْم : ٩] .

لقد اقترب جبريل _ عليه السلام _ من النبي ﷺ ، فكان منه على بُعد قَوْسَيْنِ أو أقل . والمقصود هو بيان شدة القرب . وبالتالي ، سيكون الاتصال بينهما أكيداً ووثيقاً ، واستماع محمد للوحي من جبريل ثابت وواضح ، لأنَّ بُعد المسافة قد تُثير في الأذهان عدم القدرة على الاستماع . وقيل : معنى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ أنه كان منه حيث الوتر من القوس . وهذا يدل على شدة القرب والاتصال . وإنما ضرب المثل بالقوس لأنها لا تختلف في القاب (القدر) . والمعنى أنها وحدة قياس ثابتة ومعروفة لدى الجميع . وبالتالي ، لا مجال للاختلاف فيها أو حدوث لبس . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٧) : ((وفي المراد بالقوسين قولان : أحدهما أنها القوس التي يرمى بها ، قاله ابن عباس . واختاره ابن قتيبة ، فقال : قدر قَوْسَيْنِ . وقال الكسائي : أراد بالقوسين قوساً واحداً . والثاني أنَّ القوس الذراع ، فالمعنى : كان بينهما قدر ذراعين ، حكاه ابن قتيبة ، وهو قول ابن مسعود وسعيد بن جبيرة والسدي . قال ابن مسعود : دنا جبريل منه حتى كان قدر ذراع أو ذراعين . قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ فيه قولان : أحدهما أنها بمعنى (بل) قاله مقاتل . والثاني أنهم خوطبوا على لغتهم . والمعنى : كان على ما تُقدرونه أنتم قدر قَوْسَيْنِ أو أقل ، هذا اختيار الزجاج)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٣ / ١١٨١) : عن مسروق قال : قلت لعائشة _ رضي الله عنها _ فأين قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ (٨) فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) . قالت : ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل ، وإن أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسَدَّ الأفق . وقال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النَّجْم : ١٠] .

فأوحى الله إلى عبده ورسوله محمد ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل _ عليه السلام _ . ومعنى الوحي هو إلقاء الشيء بسرعة . ولم يُذكر الموحى تعظيماً لشأنه . وكما يُقال : المَعْرِفُ لا يُعْرِفُ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٨١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحي الذي أَوْحَى إِلَيْهِ)) (٧).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ كِفَاحًا بِلَا وَاسْطَةٍ ، وهذا على قَوْل مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ كَانَ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ . والثاني : أَوْحَى جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى جِبْرِيلَ مَا يُوحِيهِ . رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [التَّجْم : ١١] .
ما كَذَبَ قَلْبُ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا رَأَى بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ الْحَقِيقِيَّةِ . والمعنى : كَانَ أَمْرًا حَقِيقِيًّا ، وَلَمْ يَكُنْ خِيَالًا كَاذِبًا أَوْ وَهْمًا عَابِرًا . إِنَّ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يُوهِمُهُ وَلَمْ يَخْدَعِهِ . لَقَدْ صَدَّقَ الْقَلْبُ رُؤْيَاهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٨) : ((وفي الذي رأى ، قَوْلَان : أحدهما أنه رأى رَبَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — ، قاله ابن عباس وأنس والحسن وعكرمة . والثاني أنه رأى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا ، قاله ابن مسعود وعائشة)) اهـ .
وعن عبد الله بن مسعود — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — : فِي قَوْلِهِ — عَزَّ وَجَلَّ — : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ . قال : ((رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي حُلَّةٍ زُفْرَفَ ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) (٨).

(٧) قال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٨١) : ((قِيلَ : هَذَا الْوَحْيُ هَلْ هُوَ مُبْهَمٌ ؟ لَا نَطَّلَعُ عَلَيْهِ نَحْنُ ، وَتَعَبَدْنَا بِالْإِيمَانِ بِهِ عَلَى الْجُمْلَةِ أَوْ هُوَ مَعْلُومٌ مُفَسَّرٌ ؟ . قَوْلَان : وبالثاني قال سعيد بن جُبَيْر . قال : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ : أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَأَوْثَيْتُكَ . أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ . أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَعْنَيْتُكَ . ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ . وقيل : أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ الْجَنَّةَ حَرَامٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى تَدْخُلَهَا يَا مُحَمَّدُ ، وَعَلَى الْأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ)) .

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٠٩) برقم (٣٧٤٦) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .
(الحُلَّةُ) : ثَوْبَانِ إِذَا زَارَ وَرَدَّاهُ ، وَلَا تَكُونُ حُلَّةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ جَدِيدَةً . (الزُّفْرَفُ) : ثِيَابٌ خُضْرُ ، وَهُوَ الرَّقِيقُ الْحَسَنُ مِنْ ثِيَابِ الدِّيَابِجِ .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٥٨) أنَّ عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال: في قوله تعالى:

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ : ((رأى جبريل عليه السلام ، له ستمائة جناح)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣ / ٦) : ((هذا الذي قاله عبد الله _ رضي الله عنه _ هو مذهبه في هذه الآية . وذهب الجمهور من المفسرين إلى أنَّ المراد أنه رأى ربَّه سبحانه وتعالى . ثُمَّ اختلف هؤلاء ، فذهب جماعة إلى أنه ﷺ رأى ربَّه بفؤاده دون عينيه ، وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه . قال الإمام أبو الحسن الواحدي: قال المفسرون : هذا إخبار عن رؤية النبي ﷺ ربَّه ،

_ عَزَّ وَجَلَّ _ ليلة المعراج . قال ابن عباس وأبو ذر وإبراهيم التيمي : رآه بقلبه . قال: وعلى هذا رأى بقلبه ربَّه رؤيةً صحيحة ، وهو أنَّ الله تعالى جعل بصره في فؤاده ، أو خلَّق لفؤاده بصراً حتى رأى ربَّه رؤيةً صحيحة كما يرى بالعين . قال: وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس وعكرمة والحسن والربيع)) اهـ .

وروى الترمذي في سننه (٥ / ٣٩٦) وحسنه عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قوله تعالى

:

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، قال : ((رآه بقلبه)) .

والمعنى أنَّ النبي ﷺ رأى الله بقلبه (رؤية قلبية لا عينية) .

وفي صحيح ابن حبان (١ / ٢٥٥) : عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ . قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في حُلَّةٍ مِنْ يَاقُوتٍ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . قال أبو حاتم : قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرِيلَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ أَنْ يُعَلِّمَ مُحَمَّدًا ﷺ مَا يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَهُ ، كما قال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ . ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ . ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ يُريد به جبريل . ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ يُريد به جبريل . ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ يُريد به جبريل . ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ بِجِبْرِيل . ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ يُريد به ربُّه بقلبه في ذلك الموضع الشريف . ورأى جبريل في حُلَّةٍ مِنْ يَاقُوتٍ ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، على ما في خبر ابن مسعود الذي ذكرناه .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفْتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ [النجم : ١٢] .

الخطابُ لكفار قريش : أَفْتَجَادِلُونِ مُحَمَّدًا ﷺ على ما رأى ليلة الإسراء والمعراج ؟ .

لقد كَذَّبَتْ قُرَيْشُ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ أَخْبَرَهُمْ بِحَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ ، وَسَخَرُوا مِنْهُ ، وَاسْتَخَفُّوا بِكَلَامِهِ حَتَّى وَصَفَ لَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدَسِ . وَجَدَالُ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا يَهْدَفُ إِلَى التَّشْكِيكِ فِيهِ ، وَالتَّغْلِبِ عَلَيْهِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ رَأَى أَعْلَمُ مِمَّنْ لَمْ يَرَ ، وَمَنْ يَعْلَمُ حُجَّةً عَلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٠٤) : ((وذلك أنهم جادلوه حين أُسْرِيَ بِهِ ، فقالوا : صِفْ لَنَا بَيْتَ الْمَقْدَسِ ، وَأَخْبِرْنَا عَنْ عِيرِنَا فِي الطَّرِيقِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا جَادَلُوهُ . والمعنى : أفتجادلونه جدالاً تَزُومُونَ بِهِ دَفْعَهُ عَمَّا رَأَاهُ وَعَلِمَهُ)) اهـ .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النَّجْم : ١٣] .

ولقد رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ _ عليه السلام _ في صورته الحقيقية (الْمَلَكِيَّة) مَرَّةً أُخْرَى . وهذه الآية دليل على أن سياق الآيات يتحدث عن العلاقة بين محمد وجبريل ، لأنَّ الآية : ﴿ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ تقتضي مَرَّةً مُتَقَدِّمَةً .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٠٤) : ((يعني : رأى جبريلَ في صورته التي خُلِقَ عَلَيْهَا ، نازلاً مِنَ السَّمَاءِ نَزْلَةً أُخْرَى ، وذلك أنه رآه في صورته مَرَّتَيْنِ ، مَرَّةً فِي الْأَرْضِ ، وَمَرَّةً فِي السَّمَاءِ)) .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٥٩) عن مسروق قال: كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ ، فَقَالَتْ : يَا أَبَا عَائِشَةَ ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ ، قَالَتْ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، قَالَ : وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ ، فَقُلْتُ : يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْظِرْنِي وَلَا تُعْجِلْنِي (يعني طَلَبَ التَّأْخِيرَ وَالْإِمْهَالَ حَتَّى يَقْدِرَ عَلَى الْإِسْتِيعَابِ) ، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [التَّكْوِير : ٢٣] . ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ . فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : ((إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ . رَأَيْتُهُ مُنْهَيْطًا مِنَ السَّمَاءِ ، سَادًّا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)) ، فَقَالَتْ : أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ [الشُّورَى : ٥١] ...

وَفَقَّ كَلَامَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، فَإِنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى اللَّهَ ، فَقَدْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَسَبَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ . وهذه القضية خلافة بين الصحابة . وَلَا شَكَّ أَنَّ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ مُتَقَنَّةً تَمَامًا بِاسْتِحَالَةِ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/٣): ((وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء ؟ . قال القاضي عياض _ رحمه الله _ : اختلف السلف والخلف ، هل رأى نبينا ﷺ ربه ليلة الإسراء ؟ ، فأنكرته عائشة _ رضي الله عنها _ كما وقع هنا في صحيح مسلم . وجاء مثله عن أبي هريرة وجماعة وهو المشهور عن ابن مسعود ، وإليه ذهب جماعة من المحدثين والمتكلمين ، وروى عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه رآه بعينه ، ومثله عن أبي ذر وكعب _ رضي الله عنهما _ والحسن رحمه الله . وكان يحلف على ذلك ، وحكي مثله عن ابن مسعود وأبي هريرة وأحمد بن حنبل . وحكى أصحاب المقالات عن أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه أنه رآه ، ووقف بعض مشايخنا في هذا . وقال : ليس عليه دليل واضح ، ولكنه جائز ، ورؤيته الله تعالى في الدنيا جائزة ، وسؤال موسى إياها دليل على جوازها ، إذ لا يجهل نبي ما يجوز أو يمتنع على ربه ، وقد اختلفوا في رؤية موسى ﷺ ربه ، وفي مقتضى الآية ، ورؤية الجبل . ففي جواب القاضي أبي بكر ما يقتضي أنهما رأياه ، وكذلك اختلفوا في أن نبينا محمدا ﷺ هل كلم ربه _ سبحانه وتعالى _ ليلة الإسراء بغير واسطة أم لا . فحكى عن الأشعري وقوم من المتكلمين أنه كلمه ، وعزا بعضهم هذا إلى جعفر بن محمد وابن مسعود وابن عباس _ رضي الله عنهما _)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [التَّجْم : ١٤] .

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى التي في السماء السابعة عن يمين العرش . وهي شجرة النَّبِق (السَّدر) في أقصى الجنة ، وتنبع من أصل هذه الشجرة الأنهار ، وينتهي إليها علم الأولين والآخرين ولا يتعداها . ولا يتجاوزها أحد من الملائكة ولا الرُّسل . والله وحده يعلم ما وراءها (٩) .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٥٥) : ((وَلَعَلَّهَا شُبَّهَتْ بِالسَّدْرَةِ ، وهي شجرة النَّبِق ، لأنهم يجتمعون في ظلِّها)) اهـ .

(٩) في الحديث النبوي : ((ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ، فإذا نَبَقها مثل قِلال هَجَر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة)) [جزء من حديث رواه البخاري (٣/١٤١٠) واللفظ له ، ومسلم (١/١٤٥)] . ومعنى " قِلال هَجَر " : جِرَار هَجَر ، وهي قرية قريبة من المدينة المنورة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٩) : ((قال المفسرون : وإنما سُمِّيت سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى ، لأنه إليها مُنْتَهَى ما يُصْعَد به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يُهْبَط به من قَوْقِها ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي علم جميع الملائكة)) .

والآية تُوضِّح المَرَّة الثانية التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل _ عليه السلام _ على صورته الحقيقية (المَلَكِيَّة) ، وكانت هذه الرؤية عند سِدرة المنتهى .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢٢٥ / ٤) : ((فجمهور العلماء أنَّ المرئي هو جبريل عليه السلام في المرَّتين ، مَرَّة في الأرض بِحِراء ، ومَرَّة عند سِدرة المُنْتَهَى ليلة الإسراء . رآه على صورته التي خُلِقَ عَلَيْهَا)) اهـ .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ : في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) ﴾ ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((رَأَيْتُ جَبْرِيلَ ﷺ وَلَهُ سِتْمِائَةُ جَنَاحٍ ، يَنْتَشِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقُوتُ : الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ)) (10).

وعن أنس _ رضي الله عنه _ : في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((رُفِعَتْ لِي سِدْرَةٌ ، مُنْتَهَاهَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجْرٍ ، وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلِ ، يَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ)) . قال : ((قُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ ، مَا هَذَانِ ؟ ، قَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ : فَالْنِيلُ وَالْفُرَاتُ)) (11).

وقال الله تعالى : ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ [التَّجْم : ١٥] .

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى تَقَعُ جَنَّةُ الْمَأْوَى الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالْأَتْقِيَاءُ . فَهِيَ مَنْزِلُهُمْ وَمُسْتَقَرُّهُمْ . وَالْآيَةُ تَعْظِيْمُ لِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَمَكَانِهَا ، فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعْظِمَ مَكَانَ السِّدْرَةِ ، وَيُشْرِفَهُ بِأَنَّ جَنَّةَ الْمَأْوَى عِنْدَهَا .

قال الشوكاني في فتح القدير (١٥٢ / ٥) : ((أي عند تلك السِّدْرَةِ جَنَّةٌ تُعْرَفُ بِجَنَّةِ الْمَأْوَى ، وَسُمِّيَتْ جَنَّةَ الْمَأْوَى لِأَنَّهُ آوَى إِلَيْهَا آدَمُ ، وَقِيلَ إِنَّهَا أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ تَأْوِي إِلَيْهَا)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٤ / ٨) : ((قال ابن عباس : هِيَ جَنَّةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا جَبْرِيلُ

(١٠) رواه أحمد في مُسْنَدِهِ (٤٦٠ / ١) بِرَقْم (٤٣٩٦) . وقال ابن كثير في تفسيره (٣١٦ / ٤) : إسناده جيّد قوي . اهـ . وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (٥٠٥ / ٢) : ((الْأَزْهَرِيُّ التَّهَاقُوتُ جَمَاعَةُ التَّهَوُّيلِ ، وَهُوَ مَا هَالَ ، وَالتَّهَاقُوتُ زِينَةُ الْوَشْيِ ، وَزِينَةُ التَّصَاوِيرِ . قَالَ : وَأَرَادَ زِينَةَ رِيَشِ جَبْرِيلَ ، وَمَا فِيهِ صُفْرَةٌ وَحُمْرَةٌ وَخُضْرَةٌ مِثْلُ تَهَاقُوتِ الرِّيَاضِ)) .

(١١) رواه الحاكم في المستدرک (١٥٤ / ١) بِرَقْم (٢٧١) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

والملائكة . وقال الحسن : هِيَ التي يصير إليها أهل الجنة . وقال مقاتل : هِيَ جَنَّةٌ إليها تأتي أرواح الشهداء)) .

وقد رأى النبي ﷺ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى ، ورأى عِنْدَهَا جَنَّةَ المَأْوَى . وفي حديث قصة الإسراء ، قال النبي ﷺ : ((ثُمَّ انطلقَ بي جبريلُ حتى نأتِي سِدْرَةَ الْمُنتَهَى ، فَعَشِيهَا ألوانٌ لا أدري ما هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجنةَ ، فإذا فيها جَنَابُذُ اللؤلؤِ ، وإذا ثُرَائِبُهَا المِسْكُ)) (12).

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٨٢٠): ((الجَنَابُذُ جَمْعُ جُنْبُذَةٍ: وَهِيَ القُبَّةُ)) . وقال الثعالبي في ثمار القلوب (١/ ٦٩٥): ((قال بعضُ المفسرين: أَخَصُّ الجنانِ وأعلاها جَنَّةُ المَأْوَى، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى (١٥) ، فَلَمَّا كانت السِّدْرَةُ غايةً لتلك المواطنِ ، وَعِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى ، عَلِمْنَا أنها أَخَصُّ الجنانِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [التَّجْم : ١٦] .

لقد رأى النبي ﷺ جبريلَ _ عَلَيْهِ السلام _ نَزْلَةً أُخْرَى وَقَفَ ما يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى مِنَ الحُسْنِ والبهاء والجمال والعجائب . والإبهامُ في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ ما يَغْشَى ﴾ يُشير إلى التعظيم والتفخيم . فالله تعالى لَمْ يَذْكُرْ في الآيةِ ما الذي يَغْشَى السِّدْرَةَ (يُغْطِيها وَيَسْتَرها)، وذلك لتعظيم شأنها، وتفخيم أمرها، وتكثير ما يَغْشاها، بحيث لا يُحصيه عد . وهذا يُشير إلى أَنَّ ما يَغْشاها مِنَ المخلوقات الدَّالَّة على عَظَمَةِ اللهِ ، لا يُحِيطُ بِهِ وَصْف ، ولا يُمكن لمخلوق أن يَتَخَيَّلَهُ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥ / ١٥٢) : ((والمجيء بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، استحضرًا للصورة البديعة ، أو للدلالة على الاستمرار التَّجدي)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ١٥٧) : ((قِيلَ : يَغْشاها الْجَمُّ الغفير من الملائكة، يَعْبُدون الله تعالى عِنْدَهَا . وقِيلَ : يَزورونها مُتَبَرِّكينَ بِها ، كما يَزور الناسُ الكعبةَ . وقِيلَ : يَغْشاها سُبُحاتُ أنوار الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ حِينَ يتجلى لها كما يتجلى للجبل ، لَكِنَّها أقوى مِنَ الجبلِ وأثبت ، حيث لَمْ يُصِبْها ما أَصابه مِنَ الدَّكِّ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٥٧) : عن عبد الله بن مسعود قال : لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله ﷺ ، انْتَهَى بِهِ إلى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، وهي في السماء السادسة ، إِلَيْها ينتهي ما يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأرضِ ،

(١٢) متفق عليه. واللفظ لمسلم (١/ ١٤٨) برقم (١٦٣). والبخاري (٣/ ١٢١٧) برقم (٣١٦٤) .

فَيَقْبِضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا ، فَيَقْبِضُ مِنْهَا . قال : ﴿ إِذْ يَعْشَى السَّدْرَةُ مَا يَعْشَى ﴾ . قال : فَرَأَتْ مِنْ ذَهَبٍ (13) . قال : فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا : أُعْطِيَ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُفْجَحَاتُ .
الْمُفْجَحَاتُ هِيَ الْكِبَائِرُ الَّتِي تَقُودُ صَاحِبَهَا إِلَى الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ ، فَإِنَّ الْكِبَائِرَ الَّتِي ارْتَكَبَهَا مَغْفُورَةٌ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مِثْلَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/٣) : ((الْمُفْجَحَاتُ ، وَمَعْنَاهَا الذُّنُوبُ الْعِظَامُ الْكِبَائِرُ ، الَّتِي تُهْلِكُ أَصْحَابَهَا ، وَتُورِدُهُمُ النَّارَ ، وَتُفْجِحُهُمْ إِيَّاهَا . وَالتَّقَحُّمُ الْوُقُوعُ فِي الْمَهَالِكِ . وَمَعْنَى الْكَلَامِ : مَنْ مَاتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِاللَّهِ ، غُفِرَ لَهُ الْمُفْجَحَاتُ . وَالْمُرَادُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِغُفْرَانِهَا ، أَنَّهُ لَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ بِخِلَافِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يُعَذَّبُ أَصْلًا ، فَقَدْ تَقَرَّرَتْ نُصُوصُ الشَّرْعِ وَاجْتِمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ عَذَابِ بَعْضِ الْعُصَاةِ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ)) اهـ .
وعن أسماء بنت أبي بكر _ رضي الله عنهما _ قالت : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَصِفُ سِدْرَةَ الْمُنتَهَى . قال : ((يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي الْفَنَنِ مِنْهَا مِائَةَ سَنَةٍ ، يَسْتَظِلُّ بِالْفَنَنِ مِنْهَا مِائَةَ رَاكِبٍ ، فِيهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ)) (14) .

وهذا يُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقُدْرَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ .
وفي الحديث النبوي الذي رواه مسلم في صحيحه (١ / ١٤٥) : ((فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا)) .

(١٣) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢١٣): ((قال البيضاوي: وَذَكَرُ الْفَرَّاشِ وَقَعَ عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الشَّجَرِ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الْجَرَادُ وَشَبَّهَهُ ، وَجَعَلَهَا مِنَ الذَّهَبِ لَصَفَاءِ لَوْنِهَا وَإِضَاءَتِهَا فِي نَفْسِهَا . انْتَهَى . وَجَوُزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الذَّهَبِ حَقِيقَةً ، وَيُخْلَقُ فِيهِ الطَّيْرَانُ ، وَالْقُدْرَةُ صَالِحَةٌ لَذَلِكَ)) .
(١٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٥١٠) برقم (٣٧٤٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . اهـ . وقال الفراهيدي في كتابه العين (٨/ ٣٧٢): ((الْفَنَنْ الْغُصْنُ ، وَجَمْعُهُ أَفْنَانٌ)) اهـ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّكَّابَ يَسِيرُ فِي ظِلِّ غُصْنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ (سِدْرَةِ الْمُنتَهَى) مِائَةَ سَنَةٍ ، وَيَسْتَظِلُّ بِالْغُصْنِ مِنْهَا مِائَةَ رَاكِبٍ ، وَفِيهَا فَرَّاشٌ مِنْ ذَهَبٍ . وَالْفَرَّاشُ جَمْعُ فَرَّاشَةٍ ، وَهُوَ جِنْسُ حَشَرَاتٍ مِنَ الْفَصِيلَةِ الْفَرَّاشِيَّةِ ، وَهُوَ الطَّوْرُ الْكَامِلُ الْوَاضِعُ لِلْبَيْضِ ، تَتَعَدَّدُ أَنْوَاغُهُ وَأَصْنَافُهُ ، مَعَ تَعَدُّدِ أَلْوَانِ أَجْنَحَتِهِ وَأَشْكَالِهَا ، يَطِيرُ وَيَتَهَاوَفُ حَوْلَ النَّارِ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم : ١٧] .

ما مَالَ بَصَرُ النَّبِيِّ ﷺ في ذلك الْمَقَامِ الشَّرِيفِ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا عَمَّا رَأَى ، وما جَاوَزَ الْحَدَّ الذي رَأَى . لقد رَكَزَ في لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ بَصَرَهُ على الْعَجَائِبِ التي أَمَرَ بِرُؤُوسِهَا وما جَاوَزَهَا . وهذا يدل على شِدَّةِ التَّرَابُطِ بين القلب والبَصَرِ ، وثباتُ البَصَرِ مُسْتَمَدٌّ من ثبات القلب وبقينه التام .

وهذا يُشير إلى أدب النَّبِيِّ ﷺ وأخلاقه الرفيعة ، إذ إنه ﷺ لَمْ يَلْتَفِتْ جانبًا في تلك الحَضْرَةِ المقدَّسَةِ . كما يُشير إلى التزام النَّبِيِّ ﷺ بالأمر الإلهيِّ ، ممَّا يَنْفِي عنه الشُّكُوكَ واستراق النظر . وفي الآية يتجلى الثَّباتُ المحمديُّ العَظِيمُ ، والأدبُ النبويُّ الكَرِيمُ .

والجديرُ بالذكرُ أنَّ الله قال : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ الْفَوَادُ ، كما في الآية : ﴿ مَا كَذَبَ الْفَوَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ممَّا يدل على أنها رُؤْيَا عَيْنٍ وَبَصَرٍ في التَّزَلُّةِ الأُخْرَى .

وعن ابن عباسٍ _ رضي الله عنهما _ : في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ قال : ((مَا ذَهَبَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا)) . ﴿ وما طَغَى ﴾ ، قال : ((مَا جَاوَزَ)) (15).

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٨٧) : ((قال ابن عباس : أي ما عدَلَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، ولا تَجَاوَزَ الحد الذي رَأَى . وقيل : ما جَاوَزَ ما أَمَرَ به . وقيل : لَمْ يَمُدَّ بَصَرَهُ إلى غَيْرِ ما رَأَى مِنْ الآيَاتِ . وهذا وَصَفَ أدبَ النَّبِيِّ ﷺ في ذلك الْمَقَامِ ، إذ لَمْ يَلْتَفِتْ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا)) اهـ .

وقال الخازن في تفسيره (٤ / ٢١٦) : ((لَمَّا تَجَلَّى رَبُّ الْعِزَّةِ وَظَهَرَ نُورُهُ ، ثَبَتَ ﷺ في ذلك الْمَقَامِ الْعَظِيمِ ، الذي تَحَارَى فِيهِ الْعُقُولُ ، وَتَرَلَّ فِيهِ الْأَقْدَامُ ، وَتَمِيلُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)) اهـ .

وقال ابن القَيِّم في رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ (١ / ٢٦٣) : ((قال الله تعالى مُخْبِرًا عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ، وهذا غاية الأدب ، فَإِنَّ الْبَصَرَ لَمْ يَزِغْ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، ولا طَمَحَ مُتَجَاوِزًا إلى ما هو رائيهِ ، ومُقْبِلٌ عليه كَالْمُتَشَارِفِ إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشْتَدَّ نَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُصَلِّي أَنْ يَزِغَ بَصَرَهُ إلى السماء ، وَتَوَعَّدَهُمْ على ذلك بِخَطْفِ أَبْصَارِهِمْ ، إذ هَذَا مِنْ كَمَالِ الْأَدَبِ مَعَ مَنْ الْمُصَلِّي واقف بين يديه ، بل ينبغي له أن يقف ناكسَ الرأسِ ، مُطَرِّقًا إلى الأرض)) اهـ . وقال ابن القَيِّم في التَّيْبَانِ في أقسام القرآن (١ / ١٦٢) : ((فَتَفَى عَنْ نَبِيِّهِ مَا يَغْرِضُ لِلرَّائِي الذي لا أدب له بين يَدَيِ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ مِنَ التَّفَاتِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَمُجَاوِزَةً بَصَرَهُ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ بِكَمَالِ الْأَدَبِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ ، وفي تلك الحَضْرَةِ ، إذ لَمْ يَلْتَفِتْ جانبًا

(١٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥١٠) برقم (٣٧٤٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

، ولم يَمُدَّ بَصَرَهُ إِلَى غَيْرِ مَا أُرِيَ مِنَ الْآيَاتِ ، وما هناك مِنَ الْعَجَائِبِ ، بَلْ قَامَ مَقَامَ الْعَبْدِ الَّذِي أَوْجَبَ أَدْبُهُ إِطْرَاقَهُ وَإِقْبَالَهُ عَلَى مَا رَأَى دُونَ التَّفَاتِهِ إِلَى غَيْرِهِ ، ودُونَ تَطَلُّعِهِ إِلَى مَا لَمْ يَرَهُ ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ ثَبَاتِ الْجَأَشِ ، وَسُكُونِ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتِهِ ، وهذا غاية الكمال . وَزَيْغُ الْبَصَرِ التَّفَاتِهِ جَانِبًا ، وَطُغْيَانُهُ مَدَّةُ أَمَامِهِ إِلَى حَيْثُ يَنْتَهِي)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النَّجْمُ : ١٨] .

أي : وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَى مُحَمَّدٌ فِي لَيْلَةِ الْمِعْرَاجِ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةَ ، وَالْأَدْلَةَ الْكُبْرَى ، وَالْعَلَامَاتِ الْعَظِيمَةَ ، وَعَجَائِبَ الْمَلَكُوتِ ، وَآثَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ الْمَظْلُومَةِ ، مَا لَا يُحِيطُ بِهِ وَصْفٌ ، وَلَا يَتَصَوَّرُهُ مَخْلُوقٌ .

رَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى ، وَالْبَيْتَ الْمَعْمُورَ ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، وَرَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ ، لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ وَصْفُهَا الْوَاصِفُونَ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٧٠) : ((وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الْمِرَادِ بِمَا رَأَى مِنَ الْآيَاتِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ مِنَ الْجَنَّةِ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ ، قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاوَاتِ ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُ رَأَى مِنْ أَعْلَامِ رَبِّهِ وَأَدْلَتِهِ الْأَعْلَامَ وَالْأَدْلَةَ الْكُبْرَى ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ)) اهـ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٣ / ١١٨١) : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : _ ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ، قَالَ : ((رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أُنْفُقَ السَّمَاءِ)) .

يَعْنِي : رَأَى ثِيَابًا خَضِرَاءَ مَبْسُوطَةً ، تُغَطِّيْ أَطْرَافَ السَّمَاءِ بِشَكْلِ كَامِلٍ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١ / ١٥٨) أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ :

﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ : ((رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ ، لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ)) (١٦) .

(١٦) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٣ / ٧) : ((هَذَا الَّذِي قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ هُوَ قَوْلُ كَثِيرِينَ مِنَ السَّلَفِ ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ وَابْنِ زَيْدٍ وَمُحَمَّدِ ابْنِ كَعْبٍ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : الْمُرَادُ أَنَّهُ رَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى . وَقِيلَ : رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ . وَفِي الْكُبْرَى ﴿ قَوْلَانِ لِلْسَّلَفِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ هُوَ نَعْتُ لِلْآيَاتِ ، وَيَجُوزُ نَعْتُ الْجَمَاعَةِ بِنَعْتِ الْوَاحِدَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ صِفَةٌ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى)) .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٧/٧٤٠): ((وفي الآية دليل على أنَّ النبي ﷺ رأى
لَبَلَةَ الْمِعْرَاجِ آيَاتِ اللَّهِ، وَلَمْ يَرَ اللَّهَ كَمَا قَالَ الْبَعْضُ، وَوَجَّهَهُ أَنَّ اللَّهَ خَتَمَ قِصَّةَ الْمِعْرَاجِ بِرُؤْيَا آيَاتِ،
وقال في الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولو كان رأى رَبَّهُ لَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مَا يُمَكِّنُ، ولَأَخْبَرَ تَعَالَى
بِهِ)).

إنَّ حادثة " الإسراء والمعراج " ثابتة في القرآن والسُّنة ، بحيث إنَّ مُنْكِرَهَا كافر . وقد كانت
بالرُّوح والجسد مَعًا . ولو كانت مَنَامًا لَمَا كانت مُعْجِزَةً ولا آية باهرة ، وَلَمَّا كَذَّبَهَا الْمُشْرِكُونَ .
وقال القاضي عياض في الشُّفا (١ / ١٤٧) : ((والحقُّ مِنْ هَذَا ، والصحيح إن شاء الله، إنه
إِسْرَاءُ بِالْجَسَدِ وَالرُّوحِ فِي الْقِصَّةِ كُلِّهَا، وعليه تدلُّ الآية وصحيح الأخبار والاعتبار . ولا يُعَدَّلُ عَنْ
الظاهر والحقيقة إلى التأويل ، إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة
، إِذْ لَوْ كَانَ مَنَامًا لَقَالَ : بِرُوحِ عَبْدِهِ ، وَلَمْ يَقُلْ : ﴿بِعَبْدِهِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا
طَغَى ﴾ . وَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمَا كَانَتْ فِيهِ آيَةٌ ، ولا مُعْجِزَةٌ ، وَلَمَّا اسْتَبْعَدَهُ الْكُفَّارُ ، ولا كَذَّبُوهُ فِيهِ ،
ولا ارتدَّ بِهِ ضَعْفَاءٌ مَنْ أَسْلَمَ وَافْتَتَنُوا بِهِ ، إِذْ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمَنَامَاتِ لَا يُنْكَرُ)) .

الفصل الحادي والعشرون
هَجرته ومَنزلة المهاجرين

تمهيد

إنَّ الدَّعوة الإسلامية تقوم على أساس التَّضحية، وبذل الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى . والتَّضحية تتجلى أسمى معانيها في الهجرة، حيث ترك المؤمنون ديارهم وأعز ما لديهم ، من أجل المحافظة على إيمانهم ، وثبتت اليقين في قلوبهم .

وكلُّ التَّضحيات التي يقوم بها المؤمن ، أجرها محفوظ عند الله تعالى ، لا تضيع ، ولا تذهب إلى النسيان . وقد أعدَّ الله للمؤمنين الذين هاجروا الأجر العظيم ، ووعدهم بالمغفرة والرحمة .

والهجرة النبوية حَدَثٌ عظيمٌ غيَّرَ مَجْرى التاريخ ، وذكُرَى ذات مكانة عند المسلمين . فقد هاجرَ النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى يَثْرِب (التي سُمِّيَتْ بعد ذلك بالمدينة المنورة) ، بسبب ما كانوا يلاقونه من إيذاء ومُضايقات من زُعماء قُرَيْش وأشرافها ، خاصَّةً بعد وفاة أبي طالب .

وحدثت الهجرة في عام ١ هـ ، الموافق لـ ٦٢٢ م . وتَمَّ اتِّخاذ الهجرة النبوية بدايةً للتقويم الهجريّ بأمر الخليفة عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، بعد استشارة بقيَّة الصحابة في زمن خلافته ، وصارَ هذا التقويم مُعْتَمَداً عند المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

واستمرَّت هجرةٌ من يدخل في الإسلام إلى المدينة المنورة ، حيث كانت الهجرة إلى المدينة واجبةً على المسلمين ، ونزلت الكثير من الآيات ، تحثُّ المسلمين على الهجرة ، حتى فُتِح مكة عام ٨ هـ . فلمَّا فُتحت مكة أصبحت دار إسلام ، وزالَ وجوبُ الهجرة من مكة إلى المدينة .

ويمكن تقديم خط سير زمني للهجرة على النحو التالي :

أ _ ليلة الجمعة ٢٧ صفر ، ١ هـ (١٣ سبتمبر ٦٢٢ م) : غادرَ النبي ﷺ مكة ، ومكث ثلاثة أيام في غار ثُور ، بالقرب من مكة .

ب _ الاثنين ١ ربيع الأول ، ١ هـ (١٦ سبتمبر ٦٢٢ م) : غادرَ النبي ﷺ جَبَل ثُور ، مُتَوَجِّهاً إلى منطقة يَثْرِب .

ج _ الاثنين ٨ ربيع الأول ، ١ هـ (٢٣ سبتمبر ٦٢٢ م) : وَصَلَ النبي ﷺ إلى قُبَاء ، بالقرب من المدينة المنورة ، ومكث فيها عدَّة أيام .

د _ الجمعة ١٢ ربيع الأول ، ١ هـ (٢٧ سبتمبر ٦٢٢ م) : وَصَلَ النبي ﷺ إلى المدينة المنورة . [وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢ / ٦) : ((قالوا : وقَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة،

حِينَ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْاَوَّلِ، وَهُوَ الْمَجْتَمَعُ عَلَيْهِ
[٢١٨].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالَّذِينَ رَفَضُوا مُسَاكِنَةَ الْمُشْرِكِينَ ، وَهَاجَرُوا
مِنْ دَارِ الْكُفْرِ (مَكَّةَ) إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ (الْمَدِينَةِ) ، وَفَارَقُوا عَشَائِرَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَقَاتَلُوا
وَحَارَبُوا الْمُشْرِكِينَ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمِنْ أَجْلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٠٣) : ((كَرَّرَ الْمَوْصُولُ " الَّذِينَ " لِتَعْظِيمِ الْهَجْرَةِ
وَالْجِهَادِ كَانَهُمَا مُسْتَقْلَانِ فِي تَحْقِيقِ الرِّجَاءِ)) اهـ .

أُولَئِكَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَرْحَمَهُمُ اللَّهُ فَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِهِ وَتَوْفِيقِهِ. إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ
عَلَى رَجَاءِ الرَّحْمَةِ . إِنَّهُمْ أَهْلُ الرِّجَاءِ لَا الظَّالِمُونَ وَالْفَاسِقُونَ . وَالرِّجَاءُ وَحُسْنُ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونَانِ
مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَفَقِّ حِكْمَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ . فَالْعَبْدُ يَلْتَزِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْجُوهُ وَيُحْسِنُ الظَّنَّ بِهِ .
أَمَّا الْعُصَاةُ وَالْفَاسِقُونَ فَيَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى الرِّجَاءِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى . وَمَنْ
رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ وَرَغِبَ فِيهِ ، وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ . وَالرِّجَاءُ دَائِمًا يَقْتَرِنُ بِالْخَوْفِ . وَاللَّهُ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ وَالْأَخْطَاءَ، وَيَرْحَمُ بِتَعْظِيمِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ. إِنَّهُ سُبْحَانَهُ غَفُورٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، رَحِيمٌ بِهِمْ. وَالْآيَةُ
مَدِيحٌ عَظِيمٌ لَهُمْ ، بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمُ الرَّاخِ ، وَتَضَحِيَّاتِهِمُ الْعَظِيمَةِ .

وَفِي إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ (٣ / ٣٨٥) : ((قِيلَ لِلْحَسَنِ : قَوْمٌ يَقُولُونَ : نَرْجُو اللَّهَ ، وَيُضَيِّعُونَ
الْعَمَلَ ، فَقَالَ : هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ ، تِلْكَ أَمَانِيَّتُهُمْ يَتَرَجَّحُونَ فِيهَا)) اهـ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٩) : ((وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وَقَدْ مَدَحَهُمْ ، لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ
أَحَدٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنَّهُ صَائِرٌ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَوْ بَلَغَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ كُلَّ مَبْلَغٍ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا _ لَا
يُدْرِي بِمَا يُخْتَمُ لَهُ ، وَالثَّانِي _ لَيْلًا يَتَّكِلُ عَلَى عَمَلِهِ)) اهـ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّاجِينَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ جَمَعُوا الْمَجْدَ مِنْ كُلِّ أَطْرَافِهِ ، إِذْ إِنَّهُمْ جَمَعُوا
الْإِيْمَانَ وَالْهَجْرَةَ وَالْجِهَادَ ، وَحَقَّقُوا الثَّلَاثَةَ مَعًا . وَلَا مَعْنَى لِلْجِهَادِ إِلَّا بِالْهَجْرَةِ ، وَلَا مَعْنَى لِلْهَجْرَةِ
وَالْجِهَادِ إِلَّا بِالْإِيْمَانِ . وَهَنَّاكَ هِجْرَتَانِ وَاجِبَتَانِ عَلَى الْمُؤْمِنِ : الْهَجْرَةُ الْأُولَى ، هِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ
بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَالْهَجْرَةُ الثَّانِيَّةُ ، هِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَصَدِيقِهِ وَالتَّزَامِ سُنَّتِهِ وَالسَّيْرِ عَلَى
خُطَاهُ .

أما سبب نزول الآية ، فقد قتل المؤمنون رجالاً من المشركين ، في أحد الأشهر الحرم دون أن يعرفوا أنه شهر حرام ، فغفر الله لهم ذلك الخطأ ، ورحمهم ، وأشاد بإنجازاتهم في سبيل نشر الدعوة الإسلامية . حيث إنهم مؤمنون صادقون ، وأثبتوا إيمانهم بالهجرة والجهاد ، وقد مدحهم الله تعالى .

وعن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه بعث رَهْطاً _ يعني ما دون العشرة من الرجال _ ، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح أو عبيدة [ابن الحارث] ، فلما ذهب لينطلق بكى صباةً _ يعني شوقاً _ إلى رسول الله ﷺ ، فجلس ، فبعث عليهم عبد الله بن جحش مكانه ، وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : ((لا تكبرهنَّ أحدًا من أصحابك على المسير معك)) . فلما قرأ الكتاب استرجع ، ثم قال : سمعُ وطاعةً لله ورسوله ، فخبرهم الخبر ، وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجالان ، ومضى بقيتُهم ، فلحقوا ابنَ الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أنَّ ذلك اليوم من رجب أو جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ؟! . فأنزل الله _ عزَّ وجلَّ _ : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ الآية . [البقرة : ٢١٧] . فقال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا ورزاً ، فليس لهم أجر . فأنزل الله _ عزَّ وجلَّ _ : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (١) .

هذا الحديث يُشير إلى حُبِّ الصحابة للنبي ﷺ ، والشوق إليه ، والتزام أوامره في كل صغيرة وكبيرة . كما يدل على تعظيم الأشهر الحرم (ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم ، رجب) . فيحرم فيها القتال ، وهذا الأمر ثابت في الجاهلية والإسلام بلا اختلاف . ولكن يجوز القتال للدفاع عن النفس .

وقد كان ابن الحضرمي أول قتيلٍ من المشركين ، فعيرَ المشركون المسلمين ، وقالوا لهم : قتلتم في الشهر الحرام ؟! . والمشركون كانوا يعلمون أنَّ المسلمين يُحرِّمون الأشهر الحرم . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٦٤) : ((والإجماع اليوم مُنعقد على أنَّ قتال المشركين يجوز في جميع الأشهر ، خلالها وحرامها)) اهـ .

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢ / ١٦٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ٢٩٤) : ((رجاله ثقات)) اهـ . وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٣٣٣) : أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننه بسند صحيح .

وقال الله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

فالذين هَجَرُوا أوطانهم ، وهاجروا من مكة إلى المدينة ، فَارَّينَ إلى الله بِدينهم ، وتركوا دارَ الشَّرْكِ ، وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا أحبابهم وإخوانهم، وأجبرهم المشركون على ترك ديارهم التي وُلِدُوا فيها ونَشِئُوا فيها، وذلك بالتضييق عَلَيْهِم، وَتَحَمَّلُوا الأذى والصَّعَاب من أجل التَّوْحِيد، وَقَاتَلُوا أعداءَ اللَّهِ ، وقُتِلُوا في سبيلِ اللَّهِ ، من أجل إعلاء كلمة التَّوْحِيد . فالنتيجةُ الحتميةُ لهذه التضحيات العظيمة هي تكفير ذنوبهم . إِنَّ اللَّهَ سَيَمْحُو ذُنُوبَهُمْ بِرحمته ومغفرته ، ويُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِ النعيم التي تجري في خلالها الأنهار مِن لَبَنٍ وعسل وخمر وماء غَيْرِ آسِن ، جزاءً مِن عِنْدِ اللَّهِ على أعمالهم الصالحة . وإضافةً الثواب إلى اللَّهِ يَدُلُّ على عَظَمَةِ الثواب، فالعظيمُ الكريمُ لَا يُعْطِي إِلَّا عَظِيمًا . وأيضًا ، هذا الأجرُ العظيمُ لَا يَقْدِرُ على إعطائه إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (الجنة) ، التي فيها مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ على قلب بشر .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٣٤) : ((﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلخ ، وتفصيل لأعمال الْعَمَال ، وما أعدَّ لَهُم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم ، والمعنى : فالذين هَاجَرُوا الشَّرْكَ أو الأوطان والعشائر للدين ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ الكفار ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ في الجهاد ، وقرأ حمزة والكسائي بالعكس ، لأن الواو لَا تُوجِبُ ترتيبيًا ، أو لأنَّ المراد لَمَّا قُتِلَ مِنْهُمْ قَوْمٌ ، قَاتَلَ الْبَاقُونَ وَلَمْ يَضَعُفُوا ، وَشَدَّدَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ " وَقُتِلُوا " للتكثير . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ لَأَمْحُوْنَهَا ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ . أي : أُثَبِّهُم بِذلك إثابةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَفَضُّلاً مِنْهُ ، فهو مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ على الطاعات ، قادرٌ عَلَيْهِ)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضي الله عنه — قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ ، الَّذِينَ تُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ ، إِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا ، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ ، لَمْ تُقْضَ لَهُ حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا فَيَقُولُ : أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي ؟ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ . فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ

حساب ولا عذاب ، فتأتي الملائكة فيقولون : رَبَّنَا نحن نُسَبِّحُ لك الليل والنهار ، ونُقَدِّسُ لك ، مَنْ هؤلاء الذين آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا ؟ ، فيقول الرَّبُّ _ تبارك وتعالى _ : هؤلاء الذين قَاتَلُوا في سبيلي ، وأودُّوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة مِنْ كُلِّ باب ، سلام عليكم بما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدار ((2).

إنَّ أَوَّلَ جماعة من الناس (ثَلَاثَةٌ) يدخلون الجنة ، هُم الفقراء المهاجرون ، بسبب تضحياتهم العظيمة من أجل رفع كلمة التوحيد الخالدة، فهؤلاء أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجنة مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِنْجَازَاتِهِمْ الْجَلِيلَةِ ، وَتَحْمُلُهُمْ لِلْعَذَابِ وَالصَّعَابِ ، وَتَضَحِيَّتِهِمْ بِالْغَالِي وَالنَفِيسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون (الفقراء المهاجرون) دائماً في الصفوف الأمامية (المقدمة) ، يدفعون ويدافعون عن الإسلام . إنهم الجنود في الخطوط الأمامية ، الذين يَحْمُونَ الآخرين . وهذا معنى " تَتَقَى بِهِمُ الْمَكَارَهَ " . والواحد مِنْ هؤلاء إِذَا أُمِرَ أَنْ يَخْرُجَ لِلْجِهَادِ أَوْ أَنْ يُسَافِرَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، سَمِعَ وَأَطَاعَ بِلَا نِقَاشٍ ، وَخَضَعَ لِلْأَمْرِ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اسْكُتْ ، سَكَتَ . فهو فقير ليس من القادة العسكريين ولا أصحاب الرأي ، ولا مِنْ كِبَارِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُصْدِرُونَ الْأَوَامِرَ . إِنَّهُ مِنْ صِغَارِ الْقَوْمِ ، يَتَلَقَّى الْأَوَامِرَ ، وَيَخْضَعُ لَهَا ، سِوَاءٍ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ . وهذا الفقير تَكُونُ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى الْأَمِيرِ أَوْ الْحَاكِمِ ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ فَقْرِهِ أَوْ مَكَانَتِهِ الاجتماعية المُتَدَنِّيَّةِ ، لَا يُعْبَأُ بِهِ ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْضَى حَاجَتُهُ ، فَيَمُوتُ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ الْحَصُولَ عَلَيْهَا .

وتأتي المكافأة العظيمة لهؤلاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَدْعُو اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَتَأْتِي بِزِينَتِهَا الْخَالِدَةِ وَجَمَالِهَا الْأَخَازِيرِ (حَالِهَا الْحَسَنَةِ) ، وَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، وَقَدْ قَدَّمَ لَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _ قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : ((أَتَعْلَمُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي ؟)) ، قال : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فقال : ((المهاجرون ، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، وَيَسْتَفْتِحُونَ ، فَيَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ : أَوْ قَدْ حُوسِبْتُمْ ؟ ، فيقولون : بَأَيِّ شَيْءٍ

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٨١) برقم (٢٣٩٣) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

نُحَاسَب ، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى مُتْنَا على ذلك ؟)) . قال : ((
فِيُفْتَحْ لَهُمْ فَيَقِيلُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ عَامًا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا النَّاسُ)) (3).
إنَّ المهاجرين هُم أَوَّلُ النَّاسِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ . فيأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ، وَيَطْلُبُونَ
فَتَحَّ الباب كي يدخلوا ، فيقول لهم خَزَنَةُ الْجَنَّةِ (الملائكة) : " أَوْ قَدْ خُوسِبْتُمْ ؟ " . والمعنى :
هل حَاسَبَكُمُ اللهُ ، وانتهى الحسابُ ، وَحَكَمَ بِأَنكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ . فَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ،
ويتساءلون عن أَيِّ شَيْءٍ يُحَاسَبُونَ ، وقد قَضَوْا حَيَاتَهُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، حتى ماتوا على
ذلك . لقد كانت سيوفُهم على عواتقهم لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ حتى ماتوا شُهَدَاءَ . والعَوَاتِقُ جَمْعُ عَاتِقٍ ،
وهو ما بين المَنْكَبِ والعُنُقِ . وَيَقِيلُونَ مِنَ الْقِيَلُولَةِ ، وهي النَّوْمُ نِصْفَ النَّهَارِ .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَذُؤُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [النساء : ٨٩] (4) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٨٠) برقم (٢٣٨٩) وصَحَّحه ، ووافقه الذهبي .
(٤) للهجرة أنواع، منها: ١_ الهجرة إلى المدينة لحماية النبي ﷺ ونُصْرَتِهِ. وكانت هذه واجبة في بداية
الإسلام. وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا هجرة بعد الفتح _ أي
فتح مكة _ ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استنفرتم فأنفروا)) [متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٢٥) ، ومسلم (٣ / ٤٨٨)] .
فوجوبُ الهجرة من مكة قد انقطع بفتحها لأنها صارت دارَ إسلام. ولكن بقي الجهادُ
حَسَبَ الأَوْضَاعِ المختلفة، وإذا تَمَّت الدعوةُ إلى الجهاد فلا بد من الإجابة وعدم القعود . فإذا طلب
الإمامُ النَّاسَ للجهاد فعليهم الخروج. وإذا فات النَّاسَ تحصيلُ ثوابِ الهجرة بسبب انقطاعها، فما زال بابُ
الخيرِ وتحصيل الأجر مفتوحًا بالجهاد والنية الصالحة . والجدير بالذكر أن في الحديث بشارة تتعلق باستمرار
مكة دارَ إسلام حتى يوم القيامة . وقد نقل النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٨) تأويلين
للحديث: ((أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دارَ إسلام، فلا تُتَصَوَّرُ منها الهجرة.
والثاني: _ وهو الأصح _ أن معناه أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازًا ظاهرًا
انقطعت بفتح مكة ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة لأن الإسلام قَوِيَ وعَزَّ بعد فتح مكة عِزًّا
ظاهرًا بخلاف ما قَبْلَهُ)) اهـ. ٢_ هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات، وهجرة الذين أسلموا في دار
الحرب، وهي هجرة واجبة. ٣_ هجرة المسلم الخرمات والذنوب . كما قال النبي ﷺ : ((والمهاجرُ مَنْ
هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ)) [صحيح البخاري (١ / ١٣)] . وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٣١٩) : ((قيل: خُصَّ

تَمَنَّى هؤلاء المنافقون أن تكفروا أيها المؤمنون كما كفروا ، فتصبحوا مُستويين أنتم وُهم في الكفر والضلال . وهذا يُشير إلى كُفرهم وغلُوهم وعنادهم وتبجُّحهم . لقد كَشَفَ اللهُ ما في قلوبهم، كي يَحَذِرَ المؤمنون مِنْهُمْ، ويأخذوا الحِيطَةَ والحذر في التعامل معهم، ويكونوا مُنتبهين ، ومُستعدين لكل الظروف والاحتمالات . ودائمًا ، غُصِرُ المفاجأة قَاتِلٌ .

لقد أمرَ اللهُ بالبراءة مِنْهم . لا تَعْتَبِرُوهم أَصْدِقَاءَ ولا إِخْوَانًا ، ولا تُؤَالِوهم ، حتى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ، ويُهَاجِرُوا في سبيله ابتغاء مرضاته لا طلبًا لمتاع الدنيا . ولا شَكَّ أن تحقيق إيمانهم يكون بالهجرة ، فهي الدليل العمليُّ الصادقُ على صِحَّةِ الإيمان .

إِنَّ اللَّهَ مَنَعَ مُؤَالَاتِهِمْ — وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ — حَتَّى يُهَاجِرُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ هَجْرَةً خَالِصَةً لِلَّهِ ، تُحَقِّقُ إِيْمَانَهُمْ ، لا لَغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ . وعندئذٍ ، يَصِيرُونَ مِثْلَ الْمُؤْمِنِينَ ، وعلى قَدَمِ المساواة مَعَهُمْ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٥٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ﴾ أَخْبَرَ اللَّهَ — عَزَّ وَجَلَّ — الْمُؤْمِنِينَ بِمَا فِي ضَمَائِرِ تِلْكَ الطَّائِفَةِ ، لِنَلَا يُحَسِّنُوا الظَّنَّ بِهِمْ ، وَلَا يُجَادِلُوا عَنْهُمْ ، وَلِيَعْتَقِدُوا عداوتَهُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أَي : لَا تُؤَالِوَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ لَكُمْ ﴾ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ أَي : يَرْجِعُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ١٩٨) : ((حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ دَارِ الشَّرْكِ ، وَيُفَارِقُوا أَهْلَهَا الَّذِينَ هُمْ بِاللَّهِ مُشْرِكُونَ ، إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهَا . ﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ يَعْنِي : فِي ابْتِغَاءِ دِينِ اللَّهِ ، وَهُوَ سَبِيلُهُ ، فَيَصِيرُوا عِنْدَ ذَلِكَ مِثْلَكُمْ ، وَيَكُونُ لَهُمْ حِينَئِذٍ حُكْمُكُمْ)) اهـ .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] .

المهاجر بالذكر تطييبًا لقلب مَنْ لَمْ يهاجر من المسلمين لفوات ذلك بفتح مكة، فأعلمهم أن مَنْ هجر ما نهى الله عنه كان هو المهاجر الكامل، ويَحْتَمِلُ أن يكون ذلك تنبيهًا للمهاجرين أن لا يَتَكَلَّفُوا على الهجرة فَيَقْصُرُوا في العمل. وهذا الحديث من جوامع الكلم التي أُوتِيَهَا ﷺ، والله أعلم)) . ٤ — هجرة العُصاة تأديبًا لهم ، فلا يتم التعامل معهم بأي شكل حتى يتوبوا . كما فعل النبي ﷺ مع الذين تخلفوا عن غزوة تبوك (كَعْب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية) .

إِنَّ الَّذِينَ تَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ وفاتهم بالقتل أو غَيْرِهِ (مَلَكُ الْمَوْتِ وأَعوانُهُ أو مَلَكُ الموت وَخَذَهُ ، والعرب قد تُخاطَب الواحد بلفظ الجمع) حال كَوْنِهِمْ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ وَمُسْتَحْقِقِينَ لِعُصْبِ اللَّهِ ، بالإقامة مع المشركين في دار الكُفْرِ (مكة) وترك الهجرة إلى دار الإيمان (المدينة) . تقول لهم الملائكة : في أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ مِنْ دِينِكُمْ ؟ ، أو : لِمَ بَقِيتُمْ في دار الكُفْرِ وتركْتُمْ الهجرة إلى دار الإيمان ؟ . وهو سؤال تَوْبِيخٍ وَتَقْرِيعٍ . وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٢٨) : ((أي : أَكُنْتُمْ في أصحاب النَّبِيِّ ﷺ أم كُنْتُمْ مُشْرِكِينَ)) اهـ .

قالوا مُعْتَذِرِينَ بِالضَّعْفِ عَنْ مُقَاوَمَةِ أَهْلِ الشَّرْكِ : كُنَّا ضَعْفَاءَ وَفُقَرَاءَ وَمَقْهُورِينَ ، لا نَقْدِرُ على إقامة شعائر الدِّينِ في مكة (دار الكُفْرِ) ، ولا نستطيع الخروج مِنْهَا . وهذا الْعُذْرُ باطلٌ وَغَيْرُ مقبول ، فقد كانوا قادرين على الهجرة ، وقد كَذَّبَهُمُ اللَّهُ ، وَكَشَفَ لَنَا كَذِبَهُمْ . وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٢٨) : ((اعتذار غير صحيح ، إِذْ كانوا يستطيعون الحِيلَ ، وَيَهْتَدُونَ السَّبِيلَ)) اهـ .

ثُمَّ أَوْفَقَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، وَالزَّمَتْهُمْ الْحُجَّةَ ، وَقَطَعَتْ عُذْرَهُمُ الْوَاهِي ، وقالت لهم تَوْبِيحًا : أَلَيْسَتْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ، فَتُهاجِرُونَ مِنْ دار الكُفْرِ إلى دارٍ تستطيعون فيها إقامة الدِّينِ ، وعبادة اللَّهِ دُونَ مُضايقات ؟ . (كما هاجرَ الْمُؤْمِنُونَ إلى المدينة وإلى الحبشة) . وقيل : المقصود بهذه الأرض المدينة . والعبرة بِعُمُومِ اللَّفْظِ لا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . فالمقصودُ بِالْأَرْضِ كُلِّ مكانٍ يَصْلُحُ للهجرة وإقامة شعائر الدِّينِ دُونَ تَضْيِيقٍ ولا حَرَجٍ . وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ يدل على أَنَّهُمْ كانوا يستطيعون الهجرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٢٨) : ((أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً)) ويُفِيد هذا السؤال والجواب أَنَّهُمْ ماتوا مُسْلِمِينَ ظالِمِينَ لأنفسهم في تَرْكِهِمُ الهجرة ، وإلا فَلَوْ ماتوا كافرين لَمْ يَقُلْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هذا . وإنما أَضْرَبَ عَنْ ذِكْرِهِمْ في الصحابة لِشِدَّةِ ما وَقَعَهُ ، ولعدم تَعَيُّنِ أَحدهم بالإيمان ، واحتمال رَدِّتِهِ ، واللَّهِ أَعْلَمُ)) اهـ .

﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ . لقد وَضَحَ اللَّهُ جَزَاءَهُمْ وَنَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ ، وهو استقرارهم في نار جهنم ، وساءت مكانًا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ . وذلك لتركهم واجب الهجرة ، ومُساعدتهم للكفار . والآية تدل على وجوب الهجرة من المكان الذي لا يُمكن إقامة شعائر الدِّينِ فيه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٤٢) : ((وفي الآية دليل على وجوب الهجرة مِنْ مَوْضِعٍ لا يتمكن الرَّجُلُ فيه مِنْ إقامة دينه)) اهـ .

أما سبب نزول الآية ، فقد قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٧٦ و ١٧٧) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن أناساً كانوا بمكة قد أقرؤوا بالإسلام ، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر ، لم تدع فريش أحدًا إلا أخرجوه معهم ، فقتل أولئك الذين أقرؤوا بالإسلام ، فنزلت فيهم هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس . وقال قتادة : نزلت في أناس تكلموا بالإسلام ، فخرجوا مع أبي جهل ، فقتلوا يوم بدر ، واعتدروا بغير عذر ، فأبى الله أن يقبل منهم . والثاني أن قومًا نافقوا يوم بدر ، وارتابوا ، وقالوا : غر هؤلاء دينهم ، وأقاموا مع المشركين حتى قتلوا ، فنزلت فيهم هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث أنها نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ولم يخرجوا معه ، فمن مات منهم قبل أن يلحق بالنبي ، ضربت الملائكة وجهه وذُبره ، رواه العوفي عن ابن عباس)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٥٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما _ أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين ، يُكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ ، فيأتي السهم ، فيرمى ، فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضربه فيقتله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ .

إن هؤلاء مجموعة من المسلمين كانوا في دار الكفر ، يعيشون مع المشركين ويخالطونهم . ومع أنهم لا يوافقونهم في قلوبهم ، إلا أنهم كانوا ظالمين ، لأنهم أفادوا المشركين بالقوة ، وكثروا عددهم بوجودهم معهم . والسواد هو العدد الكثير ، وسواد الناس أكثرهم ومُعظمهم . لقد فعلوا المحرم مع قدرتهم على تركه ، فاستحقوا العذاب . ولَوْ كانوا غير قادرين على تركه ، بعد اتخاذ جميع الإجراءات الممكنة ، فلا شيء عليهم . والجدير بالذكر أن إقامة شعائر الدين واجبة ، ولا يمكن أن تتم إلا بالهجرة . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٣٨) : ((قال الخطابي وغيره : كانت الهجرة فرضًا في أول الإسلام على من أسلم ، لقلّة المسلمين بالمدينة ، وحاجتهم إلى الاجتماع ، فلما فتح الله مكة ، دخل الناس في دين الله أفواجًا ، فسقط فرض الهجرة إلى المدينة ، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو . انتهى . وكانت الحكمة أيضًا في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار ، فإنهم كانوا يُعدّون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي

الأرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴿٥٨﴾ الآية . وهذه الهجرة باقية الحُكْم في حق مَنْ أَسْلَمَ في دار الكُفر ، وقَدِرَ على الخروج منها)) اهـ .

((وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : كان ناس من أهل مكة قد أسلموا ، وكانوا مُسْتَخْفِينَ بالإسلام ، فلَمَّا خَرَجَ المشركون إلى بَدْر أَخْرَجُوهُمْ مُكْرِهِينَ ، فَأَصِيبَ بَعْضُهُمْ يَوْمَ بَدْرَ مَعَ المشركين ، فقال المسلمون : أصحابنا هؤلاء مُسْلِمُونَ ، أَخْرَجُوهُمْ مُكْرِهِينَ ، فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ . فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ _ الآية _))^(٥).

إِنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ ، لأنهم تركوا الهجرة مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا . وَتَرَكُّهُمْ لِلْهَجْرَةِ جَعَلَهُمْ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى إِقَامَةِ شَعَائِرِ الدِّينِ . وبالتالي سَقَطُوا فِي الْإِثْمِ ، واستحقوا العذاب . وكانت الهجرة واجبةً عَلَيْهِمْ ، فهي تَمْنَحُهُمْ فُرْصَةً جَدِيدَةً لِلْعِيشِ بِهَدْوٍ وَسَلَامٍ وَطُمَأْنِينَةٍ ، دُونَ خَوْفٍ وَلَا تَضْيِيقٍ . وبالتالي ، يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِقُلُوبٍ مُخْلِصَةٍ وَمُطْمَئِنَّةٍ ، وَيُقِيمُونَ شَعَائِرَ الدِّينِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ . وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .

الاستثناء مُنْقَطِعٌ . لقد استثنى الله الضعفاء والعاجزين عن الهجرة من العقوبة والعذاب . وقد قِيلَ لِلَّهِ غُذْرُهُمْ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ . فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِفْلَاتِ مِنْ أَيْدِي الْمَشْرِكِينَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَالًا وَلَا قُوَّةً ، وَلَا يَجِدُونَ حِيلَةً لِلخروج من مكة ، وَلَا يَعْرِفُونَ طَرِيقَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَدْ يَضِيعُونَ فِي الصَّحَرَاءِ الشَّاسِعَةِ ، وَيَمُوتُونَ بَيْنَ كُتُبَانِ الرَّمَالِ .

وَذَكَرَ الْوِلْدَانَ مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ ، لِلإشعار بضرورة الهجرة وأهميتها . وكأن المعنى : إِنَّ الْهَجْرَةَ واجبة على الْوِلْدَانِ فِي حال الاستطاعة مَعَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ ، فكيف بِمَنْ كَانَ مُكَلَّفًا ؟ ! . وقال البَيْضاوي في تفسيره (١ / ٢٤٣) : ((وَذَكَرَ الْوَلَدَ إِنْ أُريدَ بِهِ الْمَالِيكَ فَظَاهِرٌ ، وَإِنْ أُريدَ بِهِ الصَّبِيَّانِ فَلِلْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْرِ ، وَالإشعار بِأَنَّهُمْ عَلَى صَدَدِ وُجُوبِ الْهَجْرَةِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا بَلَغُوا وَقَدِرُوا عَلَى الْهَجْرَةِ فَلَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَإِنْ قُورَأَ بِهِمْ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُهَاجِرُوا بِهِمْ مَتَى أَمَكُنْتَ .)) لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿ صِفَةُ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ ، إِذْ لَا تَوَقَّيْتُ فِيهِ ... وَاسْتَطَاعَةُ الْحِيلَةِ وَجَدَانِ أَسْبَابِ الْهَجْرَةِ وَمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ ، وَاهْتِدَاءِ السَّبِيلِ مَعْرِفَةَ الطَّرِيقِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِدَلِيلٍ)) اهـ .

(٥) مجمع الزوائد (٧ / ٦٨) . وقال الهيثمي : ((رواه البَرَزَّازُ ، وَرِجَالُهُ الصَّحِيحُ ، غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ شَرِيكَ ، وَهُوَ ثِقَةٌ)) .

وفي صحيح البخاري (١ / ٤٥٥) أَنَّ ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، أَنَا مِنَ الْوُلْدَانِ ، وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ)) .

لقد عَذَّرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ مِنَ الْوُلْدَانِ ، وَأُمُّهُ امْرَأَةٌ لَا حَوْلَ لَهَا وَلَا قُوَّةَ ، وَهِيَ لِبَابَةِ الْكُبْرَى أُمِّ الْفَضْلِ ، وَتُسَمَّى الْكُبْرَى تَمِيَّزًا لَهَا عَنْ أُخْتِ لَهَا لِأَبِيهَا تُعْرَفُ بِالصُّغْرَى .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النِّسَاءُ : ٩٩] .
هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفُونَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ ، وَيَعْفُوَ عَنْهُمْ لِلْعَذْرِ الَّذِي هُمْ فِيهِ . فَقَدْ تَرَكَوا الْهَجْرَةَ اضْطِرَارًّا لَا اخْتِيَارًا . وَهُمْ مُؤْمِنُونَ صَادِقُونَ ، يُرِيدُونَ الْهَجْرَةَ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ (مَكَّة) إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ (الْمَدِينَةِ) ، وَلَكِنَّ الضَّعْفَ وَالْفَقْرَ وَالْعَجْزَ مَنَعَهُمْ مِنَ الْهَجْرَةِ . وَاللَّهُ عَفُوٌّ _ كَانَ وَمَا زَالَ _ يَقْبَلُ أَعْدَارَ عِبَادِهِ الصَّادِقَةِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَلَا يُعَاقِبُهُمْ ، وَيَسْتَرُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ " عَسَى " مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تُفِيدُ التَّحْقِيقَ التَّامَّ ، وَلَا شَكَّ فِيهَا . وَهِيَ لِلإِطْمَاعِ ، وَالْكَرِيمِ إِذَا أَطْمَعَ أَنْجَزَ ، وَلَمْ يُخْلِفْ كَلَامَهُ ، وَلَمْ يَتَهَرَّبْ مِنْهُ .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٧٣) : ((وَ " عَسَى " مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ ، لِأَنَّهُ لِلإِطْمَاعِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا أَطْمَعَ عَبْدًا وَصَلَّهُ إِلَيْهِ)) اهـ .

وَجِيءَ بِكَلِمَةِ الإِطْمَاعِ "عَسَى" لِلتَّأْكِيدِ عَلَى أَمْرِ الْهَجْرَةِ ، وَأَنَّهَا قَضِيَّةٌ فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ وَالْخَطُورَةِ

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٧٦٢) : ((حَتَّى يُظَنَّ أَنَّ تَرْكَهَا مِمَّنْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ ، يَكُونُ ذَنْبًا يَجِبُ طَلَبُ الْعَفْوِ عَنْهُ)) اهـ .

كَمَا أَنَّ الْعَفْوَ فِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ الْهَجْرَةِ أَمْرٌ شَدِيدُ الْخَطُورَةِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْحَذَرِ وَالْخَوْفِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٤٣) : ((وَلَفْظُ الْعَفْوِ إِذَا نَأَى بِأَنَّ تَرْكَ الْهَجْرَةِ أَمْرٌ خَطِيرٌ ، حَتَّى إِنَّ الْمُضْطَرَّ مِنْ حَقِّهِ أَنْ لَا يَأْمَنَ ، وَيَتَرَصَّدَ الْفُرْصَةَ ، وَيُعَلِّقَ بِهَا قَلْبَهُ)) اهـ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو فِي الْقُنُوتِ : ((اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ ابْنِ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ سَنِّينَ كَسَنِيَّيُ يُوسُفَ)) (٦) .

(٦) متفق عليه . البخاري (٣ / ١٠٧٢) برقم (٢٧٧٤) ، ومسلم (١ / ٤٦٦) برقم (٦٧٥) .

والمعنى : اللهم ضَيِّقْ عَلَى مُضَرِّ (والمراد قُرَيْش) واشْدُدْ عَلَيْهِمْ، واجعلها سِنِينَ مُؤَلِّمَةً وشديدة، ذوات قَحْطٍ وَغَلَاءٍ، تَمَامًا كَسَنِيِّ الْقَحْطِ السَّبع التي حَدَّثَتْ فِي زمنِ النَّبِيِّ يُوسُفَ ﷺ. وقد ابْتَلَوْا بِالْقَحْطِ حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ وَالْمَيْتَةَ . والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الْوَطْأَةَ هِيَ الشَّدَّةُ وَالْعَقُوبَةُ .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥ / ١٧٦) : ((فيه استحباب القنوت والجهر به ... وفيه جواز الدعاء لإنسان مُعَيَّن ، وعلى مُعَيَّن)) اهـ .

وقال عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : ((... لأن قُرَيْشًا لَمَّا اسْتَعَصَوْا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، دعا عليهم بسنين كَسَنِيِّ يُوسُفَ ، فأصابهم قَحْطٌ وَجَهْدٌ ، حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ ، فجعل الرجلُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ، فيرى مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ مِنَ الْجَهْدِ))^(٧).

وقال المقدسي في العُدَّة شرح العُمدة (١ / ٥٩٢) : ((فالناس في الهجرة على ثلاثة أَصْرُب : أحدها مَنْ تَجَبَّ عَلَيْهِ ، وهو مَنْ لَا يُمَكِّنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ ، وَلَا عُذْرٌ لَهُ مِنْ مَرَضٍ وَلَا عَجْزٌ عَنْ الهِجْرَةِ فهذا تَجَبَّ عَلَيْهِ لِلآيَةِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ، وَلأنَّ الْقِيَامَ بِوَأَجِبِ الدِّينِ وَاجِبٌ ، وَلَا يُتِمَّكَ مِنْهُ إِلَّا بِالْهِجْرَةِ ، وَمَا لَا يُتِمَّكَ مِنَ الْوَاجِبِ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ ، لِكُونِهِ مِنْ ضَرُورَةِ الْوَاجِبِ . الثَّانِي مَنْ تُسْتَحَبُّ لَهُ الْهِجْرَةُ ، وهو مَنْ يَتِمَّكَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَالْقِيَامِ بِوَأَجِبِهِ ، إمَّا لِقُوَّةٍ عَشِيرَتِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فهذا لَا تَجَبُّ عَلَيْهِ لِإِمْكَانِ إِقَامَةِ وَاجِبِ دِينِهِ ، وَتُسْتَحَبُّ لَهُ لِأَنَّهُ فِي إِقَامَتِهِ عِنْدَهُمْ تَكْثِيرًا لِعَدَدِهِمْ ، وَاخْتِلَافًا بِهِمْ ، وَرُؤْيَا الْمُنْكَرِ بَيْنَهُمْ . الثَّالِثُ مَنْ تَسْقُطُ عَنْهُ الْهِجْرَةُ وَهُوَ مَنْ يَعْجُزُ عَنْهَا ، إمَّا لِمَرَضٍ ، أَوْ إِكْرَاهٍ عَلَى الْإِقَامَةِ ، أَوْ ضَعْفٍ ، فهذا لَا تَجَبُّ عَلَيْهِ وَلَا يُوصَفُ بِاسْتِحْبَابٍ ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا))^(٩٩) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

(٧) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٨٢٣) برقم (٤٥٤٤) ، ومسلم (٤ / ٢١٥٥) برقم (٢٧٩٨) .

هذا ترغيبٌ إلهيٌّ في الهجرة . وَمَنْ يُفَارِقِ دَارَ الْكُفْرِ ، وَيَتْرَكَ أَهْلَهَا ، فِرَارًا بِدِينِهِ ، إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، يَجِدْ هَذَا الْمُهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَرْضًا وَمَلْجَأً يَعْيشُ فِيهِ بِأَمَانٍ ، وَيَعْبُدُ اللَّهَ بِلَا خَوْفٍ وَلَا مُضَاقَاتٍ ، وَيَجِدْ أَيْضًا سَعَةً فِي الرِّزْقِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٣٣٠/٥): ((قال مالك: هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المَقَامُ بأرضٍ يُسَبُّ فيها السَّلَفُ ، ويُعْمَلُ فيها بِغَيْرِ الْحَقِّ)) اهـ .

إذن ، لا دَاعِي لِلْخَوْفِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، فهي سبب للأمن والأمان والرخاء والازدهار والعيش الرَّغِيدِ . إِنَّ الْهَجْرَةَ خَيْرٌ وَنِعْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ الْحَرِيصِ عَلَى دِينِهِ ، السَّائِرِ وَفَقَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ . فالْمُؤْمِنُ إِنَّمَا يُهَاجِرُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وإقامة شعائر الدِّينِ ، مُلتَزِمًا بِالسَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ ، وَهَجْرَتُهُ لَيْسَتْ نَزْهَةً سِيَاحِيَّةً ، وَلَا رَحْلَةً تَرْفِيهِيَّةً لِتَغْيِيرِ الْجَوِّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢٤٣ / ١) : ((﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاقِمًا كَثِيرًا ﴾ مُتَحَوِّلًا ، مِنَ الرِّغَامِ وَهُوَ التُّرَابُ . وَقِيلَ : طَرِيقٌ يُرَاقِمُ قَوْمَهُ بِسُلُوكِهِ ، أَيْ : يُفَارِقُهُمْ عَلَى رَغَمِ أَنْوْفِهِمْ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الرِّغَامِ . ﴿ وَسَعَةً ﴾ فِي الرِّزْقِ وَإِظْهَارِ الدِّينِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٧٩ / ٢) : ((قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ : مُتَزَحِّزًا عَمَّا يَكْرَهُ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْمُرَاقِمُ وَالْمُهَاجِرُ وَاحِدٌ . يُقَالُ : رَاقِمْتُ وَهَاجَرْتُ . وَأَصْلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَسْلَمَ خَرَجَ عَنْ قَوْمِهِ مُرَاقِمًا ، أَيْ : مُغَاضِبًا لَهُمْ ، وَمُهَاجِرًا أَيْ : مُقَاطِعًا ، مِنَ الْهَجْرَانِ . فَقِيلَ لِلْمَذْهَبِ مُرَاقِمٌ ، وَلِلْمَصِيرِ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هِجْرَةٌ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ بِهَجْرَةِ الرَّجُلِ قَوْمَهُ)) اهـ .

والآية : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دليل على أَنَّ الْهَجْرَةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ نَابِعَةً مِنْ نِيَّةٍ خَالِصَةٍ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَيْسَتْ مُلَوَّنَةً بِأَغْرَاضٍ شَخْصِيَّةٍ أَوْ مَصَالِحِ دُنْيَوِيَّةٍ . فَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَوَفَقَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ .

وعن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا لِمَرِيٍّ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)) (٨).

" إِنَّمَا " تَفِيدُ الْحَصْرَ ، تُفِيدُ إِثْبَاتَ الْمَذْكُورِ وَتَنْفِي مَا عَدَاهُ . لَا بُدَّ مِنْ تَصْحِيحِ نِيَّةِ الْعَبْدِ ، وَأَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَالْأَعْمَالُ حَسَبَ النِّيَّاتِ . فَمَنْ كَانَ قَصْدُهُ مِنَ الْهَجْرَةِ رَفْعَ كَلِمَةِ اللَّهِ

(٨) متفق عليه . البخاري (٢٤٦١ / ٦) برقم (٦٣١١) ، ومسلم (١٥١٥ / ٣) برقم (١٩٠٧) .

وإقامة شعائر الإسلام ودعم النبي ﷺ ومُساندته ، فهو على خير عظيم ، وسوف يَمُنحه الله الأجر والسعادة في الدنيا والآخرة ، ومن كان قَصْدُه دُنْيَوِيًّا ، ومن أجل تحقيق مصالح شخصية مثل تجارة أو زواج أو علاقات اجتماعية ، فلا أجر له ، وهو خاسرٌ قَطْعًا ، لأنَّ أبطلَ ثواب هجرته ، وضَيِّعَ وقته لجمع خُطام الدنيا الفاني . وهذا يدل على الخِسة والدَّناءة .

وقولُ النبي ﷺ : ((فَهَجَرْتَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) يدل على تعظيم الله ورسوله ، فهذا المؤمن قد تَحَلَّى بالثقة وعلوَّ الهمة والإخلاص ، وهاجرَ تعظيمًا لله ورسوله ، وَرَفَعًا لِشَأْنِ الإسلام ، وَتَكْثِيرًا للمسلمين . وهذا يعني أنَّ هجرته قضية وجودية ومصيرية رفيعة الشأن ، وعظيمة القدر .

وفي الجهة المقابلة ، نجد أنَّ قول النبي ﷺ : ((فَهَجَرْتَهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)) ، يدل على تفاهة العَرَضِ الدُّنْيَوِيِّ ، وحقارة متاع الدُّنْيَا الزائل ، لذلك لا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ النَّبِيُّ ﷺ . كما يدل أيضًا على الخِسة ، والدَّناءة ، وانحطاط الهمة ، والنِّية الفاسدة ، والأخلاق الهابطة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٥٣ و ٥٤ و ٥٥) : ((أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَصِحَّتِهِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ : هُوَ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفَقْهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ رُبُعُ الْإِسْلَامِ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ وَغَيْرُهُ : يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، تَنْبِيْهًا لِلطَّالِبِ عَلَى تَصْحِيحِ النَّيَّةِ . وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا عَنِ الْأَئِمَّةِ مُطْلَقًا . وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، فَابْتَدَءُوا بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ . وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ . قَالَ الْخُفَّازُ : وَلَمْ يَصِحَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَلَا عَنْ عُمَرَ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَاصٍ ، وَلَا عَنْ عَلْقَمَةَ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ ، وَلَا عَنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْ رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْأَنْصَارِيِّ . وَعَنْ يَحْيَى انْتَشَرَ ، فَرَوَاهُ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ مِائَتِي إِنْسَانٍ ، أَكْثَرُهُمْ أَئِمَّةٌ ، وَلِهَذَا قَالَ الْأَئِمَّةُ : لَيْسَ هُوَ مُتَوَاتِرًا ، وَإِنْ كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ، لِأَنَّهُ فَقَدْ شَرَطَ التَّوَاتُرَ فِي أَوَّلِهِ ، وَفِيهِ طُرْفَةٌ مِنْ طَرَفِ الْإِسْنَادِ ، فَإِنَّهُ رَوَاهُ ثَلَاثَةُ تَابِعِيَّيْنِ ، بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، يَحْيَى وَمُحَمَّدٌ وَعَلْقَمَةُ . قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَصُولِ وَغَيْرِهِمْ : لَفْظَةُ " إِنَّمَا " مَوْضُوعَةٌ لِلْخَصْرِ تُثَبِّتُ الْمَذْكُورَ ، وَتَنْفِي مَا سِوَاهُ ، فَتَقْدِيرُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْأَعْمَالَ تُحَسَّبُ بِنِيَّةٍ ، وَلَا تُحَسَّبُ إِذَا كَانَتْ بِلَا نِيَّةٍ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّهَارَةَ وَهِيَ الْوُضُوءُ وَالْغُسْلُ وَالتَّيْمُمُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِالنِّيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ وَالْاعْتِكَافُ وَسَائِرُ الْعِبَادَاتِ . وَأَمَّا إِزَالَةُ النِّجَاسَةِ فَالْمَشْهُورُ عِنْدَنَا أَنَّهَا لَا تَفْتَقِرُ إِلَى نِيَّةٍ ، لِأَنَّهَا مِنْ بَابِ الثُّرُوكِ ، وَالتَّرْكُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّةٍ ، وَقَدْ نَقَلُوا الْإِجْمَاعَ فِيهَا ، وَشَدَّدَ

بعض أصحابنا فأوجبها وهو باطل . وتدخل النية في الطلاق والعِتاق والقَذْف ، ومعنى دخولها أنها إذا قارنت كنايةً صارت كالصریح ، وإن أتى بصریح طلاق ونوى طلقين أو ثلاثاً ، وَقَعَ ما نوى قَوْلُهُ ﷺ : " وإنما لامرئٍ ما نوى " . قالوا : فائدة ذكره بعد : " إنما الأعمال بالنية " بيان أنَّ تعيين المَنَوِيَّ شَرَطٌ ، فَلَوْ كان على إنسان صلاة مقضية لا يكفيه أن ينوي الصلاة الفائتة ، بل يُشترط أن ينوي كونها ظَهْرًا أو غَيْرَها ، وَلَوْلَا اللفظ الثاني لاقتضى الأول صحَّة النية بلا تعيين أو أوهم ذلك . قَوْلُهُ ﷺ : " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله " . معناه : مَنْ قَصَدَ بهجرته وَجْهَ الله ، وَقَعَ أَجْرُهُ على الله ، وَمَنْ قَصَدَ بها دُنْيَا أو امرأة فهي حَظُّه ، ولا نصيب له في الآخرة بسبب هذه الهجرة . وأصل الهجرة التَّركُ ، والمراد هنا ترك الوطن . وذكرُ المرأة مَعَ الدنيا يحتمل وجهين : أحدهما أنه جاء أنَّ سَبَبَ هذا الحديث أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ لِيَتَزَوَّجَ امرأة يُقال لها أُم قَيْس ، فَقِيلَ له : مُهاجِرٌ أُم قَيْس ، والثاني أَنَّهُ للتنبية على زيادة التحذير من ذلك ، وهو من باب ذِكر الخاص بعد العام ، تَنبِيْهاً على مَزِيَّتِهِ ، والله أَعْلَمُ)) اهـ .

﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

إِنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ أبلغُ مِنْ عَمَلِهِ . والآية توضح أَنَّ مَنْ خَرَجَ مُهاجِرًا مِنْ دار الكفر إلى دار الإسلام ، وفارق الأهل والعشيرة والوطنَ ، وَفَرَّ بِدِينِهِ إلى الله ورسوله ، ثُمَّ مات في الطريق دُونَ أَنْ يَبْلُغَ دارَ الإسلام ، فقد استحقَّ الأجرَ الإلهيَّ كاملاً غيرَ منقوصٍ بِوَعْدِ اللَّهِ ، وَوَعْدُ اللَّهِ لا يَتَخَلَّفُ . وقال الحافظ في الفتح (٦ / ١٨) : ((وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِرًا ﴾ _ الآية _ . أي : يَحْصُلُ الثَّوابُ بِقَصْدِ الجهاد إذا خَلَصَتِ النِّيَّةُ ، فَحَالَ بَيْنَ القاصِدِ وبين الفعل مانع ، فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ ﴾ أَعْمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِقَتْلٍ أو وَقُوعٍ مِنْ دَابَّتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ)) .

ومعنى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ وَجَبَ ثَوَابُهُ على الله . ولا شيء يَجِبُ على الله لأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْفَضِّلُ على مَنْ يَشَاءُ ، وَيَعْدُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُلْزِمُ ذَاتَهُ الْعَلِيَّةَ بما شاء ، تَفَضُّلاً مِنْهُ ، وَرَحْمَةً بِخَلْقِهِ ، وَوَعْدُهُ حقٌ وَصِدْقٌ ، وواقع لا مَحَالَةَ . والآية نزلت في رَجُلٍ خَرَجَ مُهاجِرًا في سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، مِنْ دار الكفر إلى دار الإسلام ، فماتَ في الطريق . وفي تفسير القرطبي (٥ / ٣٣٠) : ((قال عِكْرَمَةُ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ : طَلَبْتُ اسْمَ هَذَا الرَّجُلِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى وَجَدْتُهُ . وَفِي قَوْلِ عِكْرَمَةَ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْعِلْمِ قَدِيمًا ، وَأَنَّ الْاِعْتِنَاءَ بِهِ حَسَنٌ ، وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ فَضْلٌ)) اهـ .

وقال النَّسفي في تفسيره (١ / ٢٤٤) : ((قالوا (يعني العلماء) : كُل هِجْرَة لطلب علم، أو حَج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة أو زُهْدًا ، أو ابتغاء رِزق طَيِّب ، فهي هِجْرَة إلى الله ورسوله ، وإن أدركه الموت في طريقه ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على الله)) اهـ .
والآية تُبَيِّن أهمية النية الحسنة القائمة على الإخلاص لله تعالى. كما تُشير إلى سعة الرحمة الإلهية، وعظيم الفضل الإلهي . والله كثير المغفرة ، يستر ذُنُوب عباده ، ويعفو عنهم ، ولا يُعَذِّبهم ، وهو سبحانه كثيرة الرحمة ، يشملهم برحمته التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .
وقد استدلَّ بهذه الآية على وجوب الهجرة من دار الكُفر إلى دار الإسلام ، وكان الشخص قاصرًا على الهجرة . ومع أنَّ سبب الآية خاص إلا أن دلالتها عامَّة في كُل زمان ومكان، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعن ابن عباس قال : ((خَرَجَ صَمْرَةَ بن جُنْدُبٍ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا ، فقال لأهله : احْمِلُونِي ، فَأَخْرَجُونِي مِنْ أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَتَنَزَّلَ الْوَحْيُ : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾)) (9).

لقد كانت نِيَّتُهُ خالصةً لوجه الله ، وأرادَ الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان امتثالاً لأمر الله ، مع أنه شيخ طاعن في السن ، لا يَمْتَلِك الصَّحَّة والعافية والقُوَّة. وقد مات في الطريق قبل الوصول إلى دار الإيمان (المدينة) ، ولم يَصِل إلى النبي ﷺ . وقد منحه الله الأجر كاملاً ، وخَلَّد ذِكْرَهُ في القرآن إلى يوم القيامة. وهذا مَدِيحٌ إلهيٌّ عظيم، وشَرَفٌ ما بعده شرف. ولا شيء يَضِيع عِنْدَ اللَّهِ .

وعن عبد الله بن عَتِيكَ _ رضي الله عنه _ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : ((مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، _ وَأَيَّنَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ _ ، فَخَرَّ عَنْ دَابَّتِهِ فَمَاتَ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنْ لَدَغَتْهُ دَابَّةٌ فَمَاتَ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ قُتِلَ قَعَصًا فَقَدْ اسْتَوْجِبَ الْجَنَّةَ)) (10).

(٩) رواه أبو يعلى في مسنده (٥ / ٨١) برقم (٢٦٧٩). وقال السُّيوطي في بُيَافِ التُّقُول (١ / ٦٤) :
سنده جيّد . اهـ . وقال الهيثمي في الجمع (٧ / ٦٩) : ((رجاله ثقات)) .
(١٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٩٧) برقم (٢٤٤٥) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

لقد وضَّح النبي ﷺ أربع حالات لاستحقاق الأجر الإلهي ، وذلك بسبب النية الصادقة الصافية للجهاد في سبيل الله تعالى :

١_ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِدًا لِرَفْعِ كَلِمَةِ اللَّهِ . نِيَّتُهُ صَادِقَةٌ وَخَالِصَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَاسْتَعَدَّ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ ، لَكُنْهُ وَقَعَ عَنْ ذَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَرْكِبُهَا فَمَاتَ مِنْ شِدَّةِ ارْتِطَامِهِ بِالْأَرْضِ . وَهَذَا الْمَانِعُ حَالٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوَاجَهَةِ الْأَعْدَاءِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ : " وَأَيُّ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ " يَدُلُّ عَلَى انْتِشَارِ الضَّعْفِ وَحُبِّ الدُّنْيَا بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَلَّ عِدَدُ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَ لِرَفْعِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَنَشْرِ التَّوْحِيدِ ، وَهَزِيمَةِ الْأَعْدَاءِ . وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ دَعْوَةٌ إِلَى الْجِهَادِ وَتَشْجِيعٌ عَلَيْهِ ، وَرَفْعٌ لِلْمَعْنَوِيَّاتِ ، وَإِثَارَةٌ لِلْعَوَاطِفِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَشَحَذٌ لِلْهَمَمِ ، وَتَقْوِيَةٌ لِلنَّفُوسِ .

٢_ مَنْ مَاتَ لَدَيْغًا بَعْدَ أَنْ تَلَقَّى لَدَغَةً قَاتِلَةً أَوْ مَسْمُومَةً ، مِنْ إِحْدَى ذَوَابِّ الْأَرْضِ .

٣_ مَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ ، يَعْنِي : مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ مِنْ غَيْرِ قَتْلِ وَلَا ضَرْبٍ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ (١ / ١٩١) : ((وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ نَفْسَهُ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ وَأَنْفِهِ ، فَغُلِبَ أَحَدُ الْأَسْمَيْنِ)) اهـ .

٤_ مَنْ قُتِلَ قَعْصًا . يَعْنِي أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَتْ فَمَاتَ ، فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْجَنَّةَ ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ لَهُ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَرَكُوا أَهْلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَبِلَادَهُمْ حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَرَفَعَا لِسَانَ الْإِسْلَامِ ، وَنَصَرُوا لَهُ ، وَجَاهَدُوا الْأَعْدَاءَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ . وَالَّذِينَ آوَوْا الْمُهَاجِرِينَ ، وَأَسْكَنُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ (فِي الْمَدِينَةِ) بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ (فِي مَكَّةَ) ، وَنَصَرُوهُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ (الْمُشْرِكِينَ) . هَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ (الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ) ، بَعْضُهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ ، وَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي النَّصْرَةِ وَالْمِيرَاثِ ، وَهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَالآيَةُ تَحْضُّ عَلَى الْهَجْرَةِ ، وَتُعْلِي مِنْ شَأْنِهَا .

وَقَدْ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، كُلِّ اثْنَيْنِ أَخَوَانِ ، وَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالْهَجْرَةِ إِرْثًا مُقَدَّمًا عَلَى الْقَرَابَةِ وَرَابِطَةً الدَّمِّ ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ

في كتاب الله ﴿ [الأنفال : ٧٥] . وصار الميراث لذوي الأرحام من المؤمنين ، ولا يتوارث أهل ملتين شيئا ، يعني المؤمن لا يرث قريبه الكافر ، والكافر لا يرث قريبه المؤمن . وقال البغوي في تفسيره (٣٧٩/١): ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ دون أقبائهم من الكفار . قيل : في العون والنصرة . وقال ابن عباس : في الميراث . وكانوا يتوارثون بالهجرة ، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام ، وكان من آمن ولم يهاجر ، لا يرث من قريبه المهاجر ، حتى كان فتح مكة ، وانقطعت الهجرة ، وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا ، وصار ذلك منسوخا)) اهـ .

وعن أسامة بن زيد _ رضي الله عنهما _ أنه قال : يا رسول الله ، أين تنزل في دارك بمكة ؟ ، فقال : ((وهل ترك عقيل من ربيع أو دؤب ؟)) . وكان عقيل ورث أبا طالب ، هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا علي _ رضي الله عنهما شيئا ، لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرين ، فكان عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ يقول : لا يرث المؤمن الكافر . قال ابن شهاب : وكانوا يتأولون قول الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصرؤا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ الآية (١١) .

لقد عاش النبي ﷺ في دار عمه أبي طالب ، فاعتبرها دارا له . وبعد وفاة أبي طالب على الكفر ، ورثه ابنه الكافران عقيل وطالب ، وأخذ كل ممتلكاته ، أما جعفر وعلي _ رضي الله عنهما _ ، فلم يحصلوا على شيء ، لأنهما كانا مؤمنين ، وكان أبوهما كافرا . والمؤمن لا يرث الكافر .

أما قول عمر _ رضي الله عنه _ : لا يرث المؤمن الكافر . فقد أخذه من قول النبي ﷺ : ((لا يرث المؤمن الكافر ، ولا يرث الكافر المؤمن)) (١٢) .

أما قول ابن شهاب عن تأويل الآية . فالمعنى : كانوا يُفسرون الولاية في هذه الآية بولاية الميراث .

(١١) متفق عليه . البخاري (٥٧٥ / ٢) برقم (١٥١١) ، ومسلم (٩٨٤ / ٢) برقم (١٣٥١) . والمقصود بالرباع المنزل ودار الإقامة .

(١٢) متفق عليه . البخاري (١٥٦٠ / ٤) برقم (٤٠٣٢) ، ومسلم (١٢٣٣ / ٣) برقم (١٦١٤) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/١٢٠ و ١٢١): ((وكان عقيل وَرِثَ أبا طالب هو وطالب، وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيٌّ شَيْئًا، لَأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ . وكان عقيل وطالب كافِرَيْنِ . قال القاضي عياض : لَعَلَّهُ أَضَافَ الدَّارَ إِلَيْهِ ﷺ لِسُكْنَاهُ إِيَّاهَا مَعَ أَنَّ أَصْلَهَا كَانَ لِأَبِي طَالِبٍ، لِأَنَّهُ الَّذِي كَفَّلَهُ، وَلأنَّهُ أَكْبَرُ وَلَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَاحْتَوَى عَلَى أَمْلَاكَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَحَازَهَا وَخَذَهُ لِسُنَّةٍ عَلَى عَادَةِ الْجَاهِلِيَّةِ. قال: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَقِيلٌ بَاعَ جَمِيعَهَا وَأَخْرَجَهَا عَنْ أَمْلَاكِهِمْ ، كَمَا فَعَلَ أَبُو سَفِيَانَ وَغَيْرُهُ بِدُورٍ مِّنْ هَاجِرٍ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ. قال الداودي: فَبَاعَ عَقِيلٌ جَمِيعَ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَلَمَنْ هَاجَرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَقَوْلُهُ ﷺ : " وَهَلْ تَرَكَ عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أَوْ دُورٍ ؟ " ، فِيهِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَتُؤَيِّدُهُ أَنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ صُلْحًا، وَأَنَّ دُورَهَا مَمْلُوكَةٌ لِأَهْلِهَا، لَهَا حُكْمُ سَائِرِ الْبُلْدَانِ فِي ذَلِكَ ، فَتَوَرَّثَ عَنْهُمْ، وَيَجُوزُ لَهُمْ بَيْعُهَا وَزَهْنُهَا وَإِجَارَتُهَا وَهَبَتُهَا وَالْوَصِيَّةُ بِهَا وَسَائِرُ التَّصَرُّفَاتِ. وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَآخَرُونَ: فُتِحَتْ عَنْوَةً ، وَلَا يَجُوزُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ . وَفِيهِ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَرِثُ الْكَافِرَ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْعُلَمَاءِ كَافَّةً ، إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوِيَةَ وَبَعْضِ السَّلَفِ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَرِثُ الْكَافِرَ ، وَأَجْمَعُوا أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَرِثُ الْمُسْلِمَ)) اهـ .

وعن جرير بن عبد الله _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قُرَيْشٍ والعَتَقَاءُ مِنْ ثَقِيفٍ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) (١٣).

لَقَدْ مَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ قُرَيْشًا ، وَسَمَّاهُمُ الطُّلُقَاءَ ، فَقَدْ خَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، فَلَمْ يَسْتَرْقَهُمْ . أَمَّا ثَقِيفٌ ، فَقَدْ أَعْتَقَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَادَهُمْ بَعْدَ اسْتِرْقَاقِهِمْ ، وَسَمَّاهُمُ الْعَتَقَاءَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ اسْمَ " الطُّلُقَاءِ " أَحْسَنُ مِنْ اسْمِ " الْعَتَقَاءِ " .

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٧ / ٤٩٢) : ((فَلَمَّا كَفَّ جُمْهُورُهُمْ عَنْ قِتَالِهِ ﷺ ، وَعَرَفَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ، أَطْلَقَهُمْ ، وَلَمْ يَغْنَمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا حَرِيمَهُمْ ، وَلَمْ يَضْرِبِ الرِّقَّ ، لَا عَلَيْهِمْ ، وَلَا عَلَى أَوْلَادِهِمْ ، بَلْ سَمَّاهُمُ الطُّلُقَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ بِخِلَافِ ثَقِيفٍ ، فَإِنَّهُمْ سَمُّوا الْعَتَقَاءَ ، فَإِنَّهُ أَعْتَقَ أَوْلَادَهُمْ بَعْدَ الْإِسْتِرْقَاقِ وَالْقِسْمَةِ . وَكَانَ فِي هَذَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَفْعَلُ بِالْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ وَالْعَقَارِ وَالْمَنْقُولِ مَا هُوَ أَصْلَحُ)) اهـ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ .

(١٣) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٩١) برقم (٦٩٧٨) وصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

إِنَّ الْغَزْوَ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَ قِتَالًا هَمَجِيًّا أَوْ قِتَالًا عَشِيًّا ، إِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ إِنْسَانِي ذُو تَأْثِيرَاتٍ إيجابية قريبة المدى وبعيدة المدى فِي آنٍ مَعًا . فالغزو يجيء لإخراج العباد من الظلمات إلى النور ، ومنع الطغاة من التحكم بمصائر شعوبهم واستعبادهم ، وَحَجَبِ النُّورِ عَنْهُمْ . فالغزو نظامٌ متكامل يكونُ بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ فِي سَبِيلِ اسْتِعْبَادِ الشُّعُوبِ وَسَرْقَتِهَا . وهذه القوةُ الضاربةُ إِنَّمَا تُسْتَحْدَمُ لِصَالِحِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّهَا تَجْعَلُهُ ذَا سِيَادَةٍ عَلَى كِيَانِهِ الْإِنْسَانِي ، يَمْلِكُ كَلِمَتَهُ ، وَيُقَرَّرُ مَصِيرُهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَتَحَدَّثُ بِاسْمِهِ ، فَلَا يُقَرَّرُ الْآخَرُونَ مَصِيرَهُ ، وَلَا يَتَحَدَّثُونَ نِيَابَةً عَنْهُ .

ومع أن القتال مُوجَّهٌ ضد الكافرين ، إلا أنه قِتَالٌ مَنْضُبٌّ لَا فَوْضُوِي . ووفق هذه الرؤية ، ليس غريباً أن يتمَّ تحريمُ الغُلُولِ (وهو الخيانة في الغنيمة) ، والغدرِ (وهو نقض العهد) ، والتمثيل بالجنث (وهو تشويهها أو قطع أجزاء منها أو ما شابه) . كما تمَّ تحريمُ قتل الوليد (وهو الطفل الصغير) لأنه ليس له علاقةُ بِأُمُورِ القتال .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٣٨) : ((معنى هذا الحديث أنهم إذا أسلموا اسْتُحِبَّ لَهُمْ أَنْ يُهَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ كَانُوا كَالْمُهَاجِرِينَ قَبْلَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَهُمْ أَغْرَابُ كَسَائِرِ أَغْرَابِ الْمُسْلِمِينَ السَّاكِنِينَ فِي الْبَادِيَةِ مِنْ غَيْرِ هِجْرَةٍ وَلَا غَزْوٍ ، فَتُجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ ، وَلَا حَقُّ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الزَّكَاةِ ، إِنْ كَانُوا بِصِفَةِ اسْتِحْقَاقِهَا)) اهـ .

﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وإن طلب منكم هؤلاء المساعدة والنصر لإعلاء كلمة الله ، فيجب عليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم في الإسلام، إلا إذا استنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم هُدنة مؤقتة ، وعندئذٍ لا تُعينوهم ولا تُساعدوهم ، لأن ذلك غَدْرٌ وَخِيَانَةٌ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْعَهْدَ حَتَّى تَتِمَّ مُدَّتُهُ . وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ ، وَرَقِيبٌ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَالْتَزِمُوا أَمْرَهُ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تُخَالَفُوهُمَا فَيُعَاقِبَكُم .

وقال النسفي في تفسيره (٢ / ٧٥) : ((أي: إِنْ وَقَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ قِتَالٌ ، وَطَلَبُوا مَعُونَةَ ، فَوَاجِبٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْصُرُوهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ ، إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَكُمْ نَصْرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَا يُبْتَدَوْنَ بِالْقِتَالِ ، إِذِ الْمِيثَاقُ مَانِعٌ مِنْ ذَلِكَ . ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ تحذيرٌ عَنِ تَعَدِّي حَدِّ الشَّرْعِ)) اهـ .

لقد ذَكَرَ اللهُ أصناف المؤمنين ، وقَسَّمَهُم إلى ثلاث طوائف :

- ١_ المهاجرون : بدأ اللهُ بِهِم ، لأنهم أصلُ الإسلام ، وأعظمُ المسلمين . خَرَجُوا مِنْ ديارِهِم وأوطانِهِم، وَتَرَكُوا أموالَهُم وممتلكاتهم، من أجل رفع كلمة الله، ومُساندة النبي ﷺ، ونشر الإسلام.
- ٢_ الأنصار : هُم المسلمون مِنْ أهل المدينة ، اسْتَقْبَلُوا إخوانَهُم المهاجرين أحسنَ استقبال ، وأسكنوهم في بُيوتِهِم ، ودَعَمُوهم مَعْنَوِيًّا ومادِيًّا ، ونصروا الله ورسوله ﷺ ، وجَاهَدُوا الأعداءَ بأموالِهِم وأنفسِهِم لرفع كلمة الله ، ونشر الإسلام . وقد جَعَلَ اللهُ الْوَلَايَةَ والنُّصْرَةَ بين المهاجرين والأنصار ، وآخَى النبي ﷺ بينهم ، كُلُّ اثنين أخوان .
- ٣_ المؤمنون الذين لَمْ يُهاجروا : وهؤلاء شَكَّلَتْ عَدَمُ هِجْرَتِهِم مانعًا مِنْ وِلايَتِهِم ، فَحَرِّمُوا الْوَلَايَةَ حتى يُهاجروا .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

بعد أن وَضَّحَ اللهُ أقسامَ المؤمنين ، وَذَكَرَ طُرُوفَهُم وأحكامَهُم ، وَبَيَّنَّ أَنَّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وَضَّحَ حُكْمَ الكافرين ، وقطع المُوَالاةَ بينهم وبين المؤمنين .
الكُفْرُ مِلَّةٌ واحدة ، والكفار يَدُّ واحدة، يُعِينُونَ بَعْضُهُم البعض في الكفر والضلال. يَتَنَاصَرُونَ بدينِهِم ، ويتعاملون بشريعتِهِم . وأَيُّ شَخْصٍ يَتَوَلَّى الكافرين فهو مِنْهُمْ . والآيَةُ تُثَبِّتُ المُوَالاةَ بين الكافرين ، وتَنْهَى المسلمين عن مُوَالاةِ الكافرين ومُؤَارَئَتِهِم ، وتأمُرُهُم بقطع العلاقات معهم ، حتى لَوْ كانوا أقارب ، لِأَنَّ الانتساب إلى الإسلام أعظم وأعلى مِنْ الانتساب العائلي (القَرابة) .
إِنَّ الكافرين بعضهم يَنْصُرُ بعضًا ، وَيَتَوَلَّاهُ ، وَيَرْثُهُ إذا مات . والكافرون بَعْضُهُم أولياء بعض في النُّصْرَةِ والإرث، ولا إرث بين المؤمنين والكافرين. وفي الآية إشارة واضحة للمؤمنين بألا يَنْصُرُوا الكافرين، ولا يَتَّخِذُوهم أولياء. فلا وِلَايَةَ بين المؤمن والكافر، حتى لو كانت رابطةُ الدم تجمعُهُما، لِأَنَّ رابطةَ الدِّينِ هي الرِّابطةُ الحَقِيقِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ شَرْعًا ، وهي أعلى مِنْ كُلِّ الروابط .
وفي تفسير القرطبي (٨ / ٥٦) : ((قال غُلَمائُنَا _ في الكافرة يكون لها الأخ المسلم _ : لا يُزَوِّجُهَا ، إِذْ لا وِلَايَةَ بينهما ، وَيُزَوِّجُهَا أَهْلُ مِلَّتِهَا ، فكما لا يُزَوِّجُ المسلمة إلا مسلم ، فكذلك الكافرة لا يُزَوِّجُهَا إلا كافر ، قريب لها أو أَسَقُف)) اهـ .

وإذا لَمْ يَقُمْ المؤمنون بامتنال الأمر الإلهي (مُوَالاةِ المؤمنين وعدم مُوَالاةِ الكافرين) ، تَحْصُلُ في الأرض فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ ومُفَسِّدَةٌ كَبِيرَةٌ في الدِّينِ والدُّنْيَا، حيث يَخْتَلِطُ المؤمنون بالكافرين، وَيَضْعُفُ

المؤمنون ، وترداد قُوَّة الكافرين . وبالتالي ، يُصبح الكُفْرُ أعلى شَأْنًا مِنَ الإسلام . والمسلمُ إذا هَجَرَ قَرِيْبَهُ الكافر ، كان ذلك تَقْوِيَةً للإسلام ودعوة لَه . وإذا لَمْ يَهْجُرْهُ بَقِيَ الكافر على كُفْرِهِ . ويمكن القولُ إِنَّ الفِتْنَةَ في الأرض قُوَّة الكفر ، والفساد الكبير ضَعْفُ الإسلام .

لقد وَضَحَ اللهُ قُوَّةَ الكافرين واجتماعهم وتعاونهم فيما بينهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ . وهذا تحذيرٌ شديدٌ للمؤمنين وتنبيةٌ لهم، كي يأخذوا الحِيطَةَ والحذر، إذ إِنَّ بيان قُوَّة العدو تدعو إلى الاستعداد التَّامَ لِمُواجَهَتِهِ ، فهو عدُوٌّ قوِيٌّ يَمْتَلِكُ الأسبابَ المادية ، وليس سَهْلًا . وهذه دَعْوَةُ إلهية للمؤمنين كي يَتَوَخَّدُوا ويأخذوا بالأسباب لِمُواجهة الكافرين وهزيمتهم . وإذا لَمْ يَتَوَخَّدِ المؤمنون في مُواجهة الكافرين، فَإِنَّ الكُفْرَ سَيَعْلُو شَأْنُهُ ، وَيَظْهَرُ أَمْرُهُ ، وَيَضْعُفُ أَمْرُ الإسلام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٨٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا فِي الْمِيرَاثِ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي فِي التَّنَصُّرَةِ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَفِي قَوْلِهِ :

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْمِيرَاثِ ، فَالْمَعْنَى : إِلَّا تَأْخُذُوا فِي الْمِيرَاثِ بِمَا أَمَرْتُكُمْ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى التَّنَاصُرِ . فَالْمَعْنَى : إِلَّا تَتَعَاوَنُوا وَتَتَنَاصَرُوا فِي الدِّينِ ، قَالَه ابْنُ جُرَيْجٍ . وَبَيَّانُهُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَوَلَّ الْمُؤْمِنُ الْمُؤْمِنَ تَوَلَّى حَقًّا ، وَتَبَرَّأَ مِنَ الْكَافِرِ حَقًّا ، أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ فِي الدِّينِ ، فَإِذَا هَجَرَ الْمُسْلِمُ أَقَارِبَهُ الْكَافِرَ ، وَنَصَرَ الْمُسْلِمِينَ ، كَانَ ذَلِكَ أَدْعَى لِأَقَارِبِهِ الْكَافِرِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَتَرَكَ الشِّرْكَ)) اهـ .

وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ ، وَلَا يَرِثُ مُسْلِمٌ كَافِرًا ، وَلَا كَافِرٌ مُسْلِمًا)) ، ثُمَّ قَرَأَ : ((﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾)) (14) .

المراد بِهِ الإسلام والكفر . فاختلافُ الدِّينِ مانعٌ مِنَ المِيرَاثِ . وقد وَضَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ المسلم لا يَرِثُ الكافر ، وأن الكافر لا يَرِثُ المسلم ، مهما كانت درجة القرابة ، ومهما كانت رابطة الدَّمِ قوية ، لأنَّ رابطة الإسلام أعظم من كُلِّ الروابط . وهي الرابطةُ العُلَيَا والمُعْتَمَدَةُ .

(١٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٦٢) برقم (٢٩٤٤) وصَحَّحَهُ .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٦ / ٢٤١ و ٢٤٢) : ((قَوْلُهُ: " لَا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ

"

قال ابن المَلِك : يدل بظاهره على أن اختلاف المِلَل في الكُفر يمنع التوارث ، كاليهود والنصارى والمجوس وعَبْدَةُ الأوثان ، وإليه ذهب الشافعي . قلنا المراد هُنا الإسلام والكفر ، فإن الكُفْرَةَ كُلَّهم مِلَّة واحدة عند مُقابلتهم بالمسلمين ، وإن كانوا أهل مِلَل فيما يعتقدون . انتهى . والكفر مِلَّة واحدة يتوارثون به ، وإن اختلفت مِلَلُهم ، فَيَرِثَ اليهوديُّ مِنَ النصراني ، والنصراني من اليهودي ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله ، والعامَّة من فقهاءنا ((اه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

والَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهَاجَرُوا مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ ، وَبَدَّلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ أَصْحَابُ السَّبَقِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَنَصَرُوا الْإِسْلَامَ ، وَهُمْ الْأَنْصَارُ أَهْلُ الْإِيوَاءِ وَالْإِيْثَارِ . أُولَئِكَ أَهْلُ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيُّونَ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ فِي إِيْمَانِهِمْ . إِنَّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا وَصِدْقًا ، الْكَامِلُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ ، الْوَاصِلُونَ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ التَّقْوَى . وَهَؤُلَاءِ الْكَامِلُونَ فِي الْإِيمَانِ ، حَقَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِهَجْرَةِ الْوِطَنِ ، وَفُتَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالسَّكَنِ ، وَتَرَكَ الدُّنْيَا مِنْ أَجْلِ الدِّينِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَبَذَلَ الْمَالِ ، وَنُصْرَةَ الْحَقِّ ، وَلَيْسُوا مِثْلَ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُهَاجِرْ مِنْ دَارِ الشُّرْكِ ، وَبَقِيَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْكَافِرِ ، وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْهُ .

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لِذُنُوبِهِمْ ، وَرِزْقٌ حَسَنٌ (بِلَا مَنَّةٍ وَلَا كَدَرٍ) فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ ، وَالْمَقْصُودُ هُوَ مَا كَلِ الْجَنَّةِ وَمَشَارِبُهَا . وَهَذَا الْوَعْدُ الْإِلَهِيُّ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَأَخَّرُ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْآيَةَ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ تدل على أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً ، وَلَا بُدَّ مِنْ اتِّفَاقِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، بِلَا تَنَاقُضٍ وَلَا نِفَاقٍ . أَمَّا التَّغَنِّيُّ بِالشُّعَارَاتِ وَالْعِبَارَاتِ الرَّنَّانَةِ دُونَ وَجُودِ حَقِيقَةِ لَهَا ، فَلَا يُجْدِي نَفْعًا ، وَلَا فَائِدَةً مِنْهُ . وَالْإِيْمَانُ هُوَ مَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ ، وَصَدَّقَهُ اللِّسَانُ ، وَظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٣٨٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أَي : هُمُ الَّذِينَ حَقَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْهَجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ ، بِخِلَافِ مَنْ أَقَامَ بَدَارَ الشُّرْكِ . وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ هُوَ الْحَسَنُ ، وَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ)) اه .

ولا يُوجد تكرار في هذه الآية . فهذه الآية مدحٌ للمهاجرين والأنصار وثناء عليهم ، وتوضيح لمصيرهم ومآلهم ، وهو مغفرة ذنوبهم والثواب العظيم في جنات النعيم ، وهنا يظهر الوعدُ الإلهيُّ لهم . والآيات السابقة واردة في إيجاب المُوالاة والنُّصرة بين المؤمنين .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٨٠) : ((فَإِنْ قِيلَ : أَيُّ معنى في تكرار هذه الآية ؟ ، قيل : المهاجرون كانوا على طبقات: فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحُدَيْيَّة، وبعضهم أهل الهجرة الثانية ، وهم الذين هاجروا بعد صلح الحُدَيْيَّة قبل فتح مكة ، وكان بعضهم ذا هجرتين ، هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة . فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية)) اهـ .

إن هذه التركيبة الإلهية لصحابة النبي ﷺ لم تأت من فراغ . فالجهود الجبارة التي قدَّمها هذا الجيل المبارك من الرجال الأشداء الذين حَمَلُوا الرسالة النبوية على أكتافهم ، ونشروها في أصقاع الأرض ، متحملين في سبيل ذلك شَتَّى الصَّعَاب والتضييق والعذاب والحصار والرفض والسخرية والاضطهاد ، لَهَيَّ جهود سامية جبارة لم تذهب سُدى ، لأن الله تعالى سَجَّلَهَا لهم عنده في ميزان حسناتهم ، فارتفعت درجاتهم في الدارين . وقد صارت إنجازات الصحابة _ رضي الله عنهم _ قرآنًا يُتلى حتى يوم القيامة لأنهم صَدَقُوا الله فَصَدَّقَهُمُ اللهُ. لقد قَدَّمُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ في سبيل الله، وهذه التَّضحية العظيمة جَعَلَتْهُمْ يَسْتَحِقُّونَ رِضْوَانَ اللهِ ، فصاروا بحقَّ سادةً للناس وقُدوةً لهم .

وهذه الدَّرَجَاتُ العُلْيَا التي حصل عليها الصحابة _ رضي الله عنهم _، كانت بسبب نَيْلِهِم التوفيق الإلهيَّ في أعمالهم الصالحة ، وإنجازاتهم الكبيرة المدهشة ، حيث فتحوا العالمَ في مدة زمنية قصيرة ، وأدخلوا الإسلام إلى ممالك الجهل والظلام ، فنقلوها من الخضوع للطواغيت المرتقة إلى الخضوع للخالق العظيم مالك الجنة والنار. فأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، فتحرَّرَ الإنسانُ مِنْ خَوْفِهِ وَجَهِلِهِ وظلمات رُوحِهِ، وأضحى عنصرًا فعالاً في البناء الحضاري العالمي.

والمنهج الإسلامي الدعوي هو مصباح ينير الطريقَ أمام الأفراد والجماعات ، كي يلتقي الإنسان بإنسانيته، ويعرف إجابات الأسئلة المصيرية الحاسمة : مَنْ هُوَ ؟ ، وَمِنْ أين جاء ؟ ، ولماذا جاء ؟ ، وأين سيذهب بعد الموت ؟ . ولا يخفى أن زوال الحَيْرَةِ والتشويش في الذهن البشري سيدفع باتجاه تحرُّر الإنسان من وساوسه وخَوْفِهِ من المستقبل ، فيتحول الفرد إلى شُعلةٍ

نشاط ، ووجود تحريري ، فتوضع الطاقات البشرية في أقصى مداها ، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من الإنجازات ، وتحقيق خلافة الله في الأرض ، إخلاصًا وإعمارًا وتحديثًا .
وعن سهل بن سعد الساعدي _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة))⁽¹⁵⁾.

والمعنى : إن عيش الآخرة هو العيش الحقيقي لأنه في دار الخلود ، بعكس عيش الدنيا الفانية . فلا يوجد عيش باقٍ ولا عيش مطلوب إلا في الدار الآخرة دار الحق التي لا تفتنى ولا تزول

والمغفرة ثابتة للأنصار والمهاجرة لأن دعاء النبي ﷺ مستجاب . وهذا الفضل الإلهي يدل على سمو رتبة الصحابة الذين ضحوا بكل شيء في سبيل الدعوة . فهم الرعيل الأول ، والجيل الذهبي ، والآباء المؤسسون لمجد الحضارة العربية الإسلامية . وآثارهم ماثلة للعيان ، ومنهجهم الفكري ذو معالم واضحة في الشرق والغرب ، وقد أوصلوا الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ووضعوا بذور حضارة إنسانية كونية أنارت الطريق للبشرية ، فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية صاحبة المرتبة الأولى عالميًا لمدة ألف سنة تقريبًا . وتفوقها في شتى المجالات اعترف به الشرق والغرب معًا .

لكن سقوط هذه الحضارة العالمية المجيدة كان متوقعًا في يوم من الأيام ، لأن سنن الله تعالى ثابتة لا تتغير ، فتداول الحضارات التي تمر بأطوار تشبه أطوار الإنسان (الولادة ، الطفولة ، الشباب ، الكهولة ، الشيخوخة ، الموت) ، ذو نزعة استمرارية على مدار التاريخ . فلا يوجد حضارة تستمر إلى ما لا نهاية . بل لها أطوار مرحلية تتضمن الميلاد والقوة والضعف والتلاشي .
والفرد يقف بكل احترام وإجلال لجيل الصحابة _ رضي الله عنهم _ الذين خرجوا من رمال الصحراء الملتبثة حيث الحياة القاسية في دهاليز النسيان ، ليؤسسوا حضارة الرفعة البشرية ، والسمو الأخلاقي ، والنهضة العلمية الراقية ، والتكريس الوجداني للماهية الإنسانية لفظًا ومعنى . وبالطبع فما كان ليتم هذا لولا الإخلاص ، والتفاني ، والعمل بالعلم من أجل سعادة البشرية في الدارين .

(١٥) متفق عليه. البخاري (٢٣٥٧ / ٥) برقم (٦٠٥١)، ومسلم (١٤٣١ / ٣) برقم (١٨٠٥).

ووفق هذه المعطيات يمكننا رسم صورة نفسية للصحابة رضي الله عنهم _ تعتمد على الفكر المنهجي الصافي ، والتطبيق العقلاني الدقيق ، والتأصيل الحياتي اعتماداً على النقل والعقل . وبذلك يكونون خارجين على قانون التقليد الأعمى ، وترديد الأقوال كالبيغاء دون فهم أو شعور . فهم يحملون الفكر الإسلامي المنهجي واقعاً في الذهن ، وعلى الأرض . كما أنهم يقومون بواجبات الدعوة على أكمل وجه انطلاقاً من اقتناع تام ، وصمود تاريخي ، وتطبيق سليم .

وبالتالي فهم يؤسسون لواقعية التطبيق العملي النابع من التصور الإسلامي الوسطي بلا إفراط أو تفريط . مما يدل على صفاء في الفهم ، ووضوح في الرؤية ، وتقدير لأحوال الناس النفسية ، والأوضاع البيئية المتباينة حسب اختلاف الأزمنة والأمكنة وطبائع الناس والأمم . وما كان هذا ليتم لولا الإخلاص في تلقي الثور النبوي ، والاستناد إلى منهجية علمية واضحة في فهم دلالات النصوص بمقتضى فقه اللغة العربية والأحكام الشرعية . لذلك بذل الصحابة أنفسهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، وقدموا أموالهم في سبيل الدعوة . ومع هذا ، فالصحابة بشر غير معصومين .

واليك هذا المشهد في يوم بدر ، والذي يدل على التضحية بأعز ما يملك المرء ، وهو نفسه التي بين جنبيه . ففي صحيح مسلم (٣ / ١٥٠٩) أن رسول الله ﷺ قال : ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)) ، فقال عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ ، قال : ((نعم)) ، قال : بَخِ بَخِ ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ : بَخِ بَخِ ؟)) ، قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : ((فإنك من أهلها)) ، فأخرج تمراتٍ من قرنه _ يعني جعبة الشباب _ ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكلَ تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل حتى قُتل .

إن هذا المشهد يُذهل العقول بسبب حجم التضحية الكامنة فيه . فالصحابي الجليل ما إن سمع قول النبي ﷺ حتى تحركت أركانه خرقاً وشوقاً إلى رضا الله تعالى ونيل جنته . فأطلق كلمته "بَخِ بَخِ" ، وهي كلمة تُطلق لتعظيم الأمر في الخير . فهو يرجو أن يكون من أهل هذه الجنة الرائعة ، مما يشير إلى غُلُوِّ همته ، وعدم زُكونه إلى متاع الدنيا الفاني . وقد بشره النبي ﷺ بأنه من أهلها . وبالطبع فإن النبي ﷺ لا يعلم الأمور الغيبية إلا إذا أطلعه الله عليها . وهذا الصحابي لم ينتظر حتى يأكل تمراته ، فالجنة تنتظره وهو يتحرق شوقاً إليه مُعرضاً عن زينة الدنيا الزائلة . فما كان منه إلا أن ألقى التمرات ، أي إنه ألقى الدنيا وراء ظهره ، راعباً فيما عند الله تعالى من الثواب

الجليل ، وقاتل حتى قُتل مُصَدِّقًا بكلام الله تعالى ورُسوله ﷺ ، لا رياء ولا سُمة ، وكان له ما أراد

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٤٦) : ((فِيهِ جَوَازُ الْانْغِمَارِ فِي الْكُفَّارِ وَالتَّعَرُّضِ لِلشَّهَادَةِ ، وَهُوَ جَائِزٌ بِلَا كِرَاهَةٍ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .
هذا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . إِنَّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ (اللاحقون) الَّذِينَ هَاجَرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ الْأُولَى .
يعني: الَّذِينَ هَاجَرُوا بَعْدَ الْخُدَيْيَّةِ ، وَهِيَ الْهَجْرَةُ الثَّانِيَّةُ . وَجَاهَدُوا مَعَ الْمُجَاهِدِينَ السَّابِقِينَ (الْأُولِينَ) .

فأُولَئِكَ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مِنْ جُمْلَتِكُمْ . إِنَّهُمْ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ . وَحُكْمُ الْلاحِقِينَ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ كَحُكْمِ السَّابِقِينَ إِلَى الْهَجْرَةِ .

وقد جعل الله حُكْمَ الْمُؤْمِنِينَ الْلاحِقِينَ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ كَحُكْمِ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ ، تَفْضُلًا مِنْهُ ، وَتَرْغِيًّا فِي الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ . وَهَذَا يَتَّضِحُ الْفَضْلُ الْإِلَهِيُّ وَالْكَرَمُ الرَّبَّانِيُّ . كَمَا أَنَّ تَوْجِيهَ الْخُطَابِ لَهُمْ : ﴿ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ تَشْرِيفٌ لَهُمْ ، وَتَعْظِيمٌ لِقُدْرَتِهِمْ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤ / ٣٨) : ((وَفِي تَوْجِيهِ الْخُطَابِ إِلَيْهِمْ بِطَرِيقِ الْإِلْتِفَاتِ مِنْ تَشْرِيفِهِمْ وَرَفْعِ مَحَلَّتِهِمْ مَا لَا يَخْفَى)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٥٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا ﴾ يُرِيدُ مِنَ بَعْدِ الْخُدَيْيَّةِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْهَجْرَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كَانَتْ أَقْلَ رُتْبَةٍ مِنَ الْهَجْرَةِ الْأُولَى . وَالْهَجْرَةُ الثَّانِيَّةُ هِيَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الصُّلْحُ ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوَارِزَهَا نَحْوَ عَامِينَ ، ثُمَّ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ " ، فَبَيَّنَ اللَّهُ أَنَّ مَنْ آمَنَ وَهَاجَرَ مِنْ بَعْدُ ، يَلْتَحِقُ بِهِمْ ، وَمَعْنَى : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أَي : مِثْلُكُمْ فِي النَّصْرِ وَالْمُؤَالَاةِ)) اهـ .
﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ .

أَصْحَابُ الْقَرَابَاتِ بَعْضُهُمْ أَحَقُّ بِمِيرَاثِ بَعْضٍ مِنَ الْأَجَانِبِ ، فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُحَالِفُ الرَّجُلَ (يُعَاهِدُهُ عَلَى الْأُخُوَّةِ وَالتُّصَرَّةِ وَالْإِرْثِ) فَيَحْصِلُ عَلَى نَصِيبٍ مِنْ مِيرَاثِهِ . كَمَا أَنَّ الْمُؤَاخَاةَ كَانَتْ سَبَبًا فِي التَّوَارِثِ ، وَقَدْ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ التَّوَارِثَ بِالْجِلْفِ وَالمُؤَاخَاةِ ، وَحَصَرَ التَّوَارِثَ بِالنَّسَبِ فَقَطْ . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، إِنَّ رَابِطَةَ الدَّمِ — وَخُدَهَا — هِيَ

المعتمدة في عملية الميراث . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٥٠) : ((نسخَ الله الميراث بالهجرة والحلف بعد فتح مكة . ردَّ الله الميراثَ إلى ذوي الأرحام : ابن الأخ والعَم وغيرهما)) اهـ .

وعن جُبَيْر بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: ((لا حِلْفَ في الإسلام))^(١٦) .
لقد منَعَ الإسلامُ حِلْفَ التَّوَارِثِ إلى الأبد ، وحَظَرَ التعاقدَ بين الناس كما كان معمولاً به في الجاهلية ، ممَّا يُخَالِفُ الإسلامَ . أمَّا التحالفُ على طاعة الله ، والتعاون على الخير ، ونشر القيم الفاضلة ، فهذا تحالفٌ مرغوبٌ فيه .

وهدفُ الحِلْفِ في الجاهلية هو جَمْعُ الناس على الغزو والقتال ، ومُواجهَةِ القبائل ، وإثارة التُّغَرَات العشائرية ، وبعث الأحقاد بين الأفراد ، وتأجيج الصِّراعات بين الجماعات . وفي الإسلام لا معنى لهذا الحِلْفِ ، لأن معانيه تتعارض _ جُمْلَةً وتفصيلاً _ مع الإسلام . فالإسلامُ قد جَمَعَ الناسَ على كلمة التوحيد ، وأمرهم بالالتزام بالقرآن والسُّنة ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وتعميق ثقافة السلام والمحبة ، وإزالة العصبية القَبَلِيَّة والصراعات والأحقاد ، واجتثاث مبدأ الحروب العبيثة ، وإلغاء فكرة الغزو والغزو المضاد .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ١٠٧) : ((أَصْلُ الحِلْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَعَاقدُونَ وَيَتَحَالَفُونَ عَلَى نَصْرِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ جَمِيعًا فِي جَفْنَةٍ فِيهَا طِيبٌ أَوْ غَيْرُهُ)) اهـ .
وفي الدر المنثور (٢ / ٥١٠) عن قتادة أنه قال : ((كَانَ الرَّجُلُ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَيَقُولُ : دَمِي دَمُكَ ، وَهَدْمِي هَدْمُكَ ، وَتَرِثْنِي وَأَرِثُكَ ، وَتُطَلِّبْ بِي وَأُطَلِّبْ بِكَ)) اهـ .
وهذه العباراتُ معروفةٌ عند العرب ، وهي تعني التحالف التام بين الرجلين ، ونُصرة كُلِّ منهما للآخر . وقال ابن منظور في لسان العرب (١٢ / ٥٣٩) : ((فَإِنْ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ : الْعَرَبُ تَقُولُ : دَمِي دَمُكَ وَهَدْمِي هَدْمُكَ فِي النُّصْرَةِ ، أَيْ إِنْ ظَلِمْتُ فَقَدْ ظَلِمْتُ)) اهـ .

وعن الزُّبَيْر بن العَوَّامِ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ قد آخَى بين رجلٍ من المهاجرين، ورجلٍ من الأنصار ، فلمْ نَشْكُ أَنَّا نَتَوَارِثُ لَوْ هَلَكَ كَعْبٌ ، وَلَيْسَ لَهُ مَنْ يَرِثُهُ ، فَظَنَنْتُ أَنِّي أَرِثُهُ، وَلَوْ هَلَكَتْ كَذَلِكَ يَرِثُنِي ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾^(١٧) .

(١٦) متفق عليه . مسلم (٤ / ١٩٦١) برقم (٢٥٣٠) ، والبخاري (٢ / ٨٠٣) برقم (٢١٧٢) .

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٨٣) برقم (٨٠٠٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد اعتقدَ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ بأنه سَيَرِثُ كَعْبُ بنُ مالك ، في حال عدم وجود وارث له ، وكذلك العَكْسُ . وذلك بسبب المُؤاخاة بينهما ، حتى نزلت الآيةُ مُقرِّرةً مبدأ "التوارث بالنَّسَبِ" .
أي إنّ الموارِثَ صارت للقرابات (الأرحام) ، وانتهت الموارِثُ في المؤاخاة .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : كان رَجُلٌ يُحَالِفُ الرَّجُلَ ليس بينهما نَسَبٌ لِيَرِثَ أحدهما الآخرَ ، فَنَسَخَ اللهُ ذلك بالأنفال : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (18) .
﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . إنّ الله أحاطَ بكل شيء عِلْمًا ، فلا يَخْفَى عليه شيء . يعلم ما يُصلح الناسَ وما يُفسدُهم ، ويعلم حِكْمَةَ الميراث ، وذلك بجعل التوارث بالقرابة الدينية (رابطة الدين) ، ثُمَّ جَعَلَ التوارث بالقرابة النَّسَبِيَّةِ (رابطة الدَّم) دُونَ غَيْرِهَا . وحِكْمَةُ اللهِ عَظِيمَةٌ . عَرَفَهَا مَنْ عَرَفَهَا ، وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَهَا .

وَكُلُّ مَا شَرَعَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ إنما هو لمصلحتهم في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . والله تعالى لا تَنْفَعُهُ الطاعاتُ ، ولا تَضُرُّهُ المعاصي . وهو سُبحانَهُ لا يَحْتَاجُ إلى الشريعة ، إنّ العبادَ هُمُ الذين يَحْتَاجُونَ إلى الشريعة ، والنفعُ يعود عليهم ، والله لا يَنْتَفِعُ مِنْ ذلك بشيء ، فهو الغنيُّ عن كُلِّ شيء .
وقال الطبري في تفسيره (٢٩٩ / ٦) : ((إنّ الله عَالِمٌ بما يُصْلِحُ عِبَادَهُ في تَوْرِيثِهِ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ فِي الْقَرَابَةِ وَالنَّسَبِ ، دُونَ الْحِلْفِ بِالْعَقْدِ وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ كُلِّهَا . لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٢٠] .

الذين صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللهِ وَتَبَوَّأُوا مُحَمَّدًا ﷺ ، وَهَاجَرُوا مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ ، وَجَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ ، أَرْفَعَ مَنْزِلَةً وَأَعْظَمَ شَأْنًا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُفْتَخِرِينَ بِأَعْمَالِهِمُ الْبَاطِلَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الشَّرْكِ وَالرِّبَا وَالسُّمْعَةِ وَتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَخَرُوا بِسِقَايَةِ الْحَاجِّ وَعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَكُونُونَ قَدْ تَفَوَّقُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَسَبَقُوهُمْ ، فَحَكَّمَ اللهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَبَيَّنَّ عَدَمَ وُجُودِ مُقَارَنَةِ بَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَنَّهُمَا لَا

(١٨) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٨٤) برقم (٨٠١١) وسكت عنه الذهبي ، وأبو داود في سننه (

٢ / ١٤٢) برقم (٢٩٢١) بسندٍ حسنٍ الحافظ في الفتح (١٢ / ٣٠) .

يَسْتَوِيَان . وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى رُتْبَةً وَأَعْظَمَ كِرَامَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَتَعْظِيمٌ لِقَدْرِهِمْ

وَأُولَئِكَ الْمُتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ هُمْ أَعْظَمُ الْخَلْقِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ ، وَالْفَائِزُونَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ النَّاجُونَ مِنَ عَذَابِ النَّارِ . إِنَّهُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَامِلُونَ الْجَامِعُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ ، لَا يُمَكِّنُ مَقَارِنَتَهُمْ مَعَ آيَةٍ طَائِفَةٍ أُخْرَى ، مَهْمَا اتَّصَفَتْ مِنْ صِفَاتٍ ، بِمَا فِيهَا السَّقَايَةُ وَالْعِمَارَةُ .

وَأَسْمُ الْإِشَارَةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ يَحْمِلُ مَعْنَى الْبُعْدِ ، لِلْإِشَارَةِ إِلَى بُعْدِ مَنْزِلَتِهِمْ فِي الشَّرَفِ وَالْمَجْدِ وَالرَّفْعَةِ . وَ﴿هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ تُفِيدُ الْاِخْتِصَاصَ . وَكَأَنَّ الْمَعْنَى : إِنَّهُمْ الْمُخْتَصُّونَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ (الْفَوْزِ الْأَعْظَمِ الْمُنْطَلِقِ) ، وَوَحَّدَهُمُ الْفَائِزُونَ الَّذِينَ يَسْتَحَقُّونَهَا ، وَكَأَنَّ فَوْزَ غَيْرِهِمْ لَيْسَ فَوْزًا ، أَوْ لَا يُمَكِّنُ مَقَارِنَتَهُ مَعَ فَوْزِهِمْ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٨٥) : ((وَلَيْسَ لِلْكَافِرِينَ دَرَجَةٌ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى يُقَالَ : الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ دَرَجَةً . وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ قَدَّرُوا لَأَنْفُسِهِمُ الدَّرَجَةَ بِالْعِمَارَةِ وَالسَّقْيِ ، فَخَاطَبَهُمْ عَلَى مَا قَدَّرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ خَطَأً ... وَقِيلَ : أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ كُلِّ ذِي دَرَجَةٍ ، أَيْ لَهُمُ الْمَرْيَةُ وَالْمُرْتَبَةُ الْعَلِيَّةُ)) اهـ .

وَفِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ لِلْسُّيُوطِيِّ (٤ / ١٤٦) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلْعَبَّاسِ : لَوْ هَاجَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ . قَالَ : أَوْلَسْتُ فِي أَفْضَلٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ؟ ، أَلَسْتُ أَسْقِي الْحَاجَّ وَأَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ؟ . فَتَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، يَعْنِي قَوْلُهُ : ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التَّوْبَةُ : ١٠٠] .

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ رَحِمَهُمْ ، وَأَحَاطَهُمْ بِرِضْوَانِهِ ، وَرَضَاهُمْ عَنْهُ بِأَنْ مَنَحَهُمُ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا ، يَتَنَعَّمُونَ بِهَا نَهَائِيَةً وَلَا مَلَلَ وَلَا ضَجَرَ . وَالْآيَةُ بَيَانٌ لِفَضَائِلِ قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَشْرَافِهِمْ .

لَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الصَّحَابَةَ الْكَرَامَ الَّذِينَ امْتَاذُوا بِالسَّبْقِ وَالْمُسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَعَدِمَ التَّقَاعُسَ وَالزُّكُونَ إِلَى الدُّنْيَا ، فَكَانُوا سَادَةً لِلنَّاسِ وَقُدُوةً لَهُمْ ، وَمَثَلًا أَعْلَى يُحْتَذَى .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤٥٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : والذين سَبَقُوا النَّاسَ أَوَّلًا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ ، وَفَارَقُوا مَنَازِلَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ ، وَالْأَنْصَارَ)) الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،)) وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ)) ، يقول : والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله ، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام طَلَبَ رِضَا اللَّهِ ،)) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)) اهـ .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٩٠ و ٤٩١) ستة أقوال في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ _ :)) أَحَدُهَا أَنَّهُم الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وَالثَّانِي أَنَّهُم الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ... وَالثَّالِثُ أَنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ ... وَالرَّابِعُ أَنَّهُمْ جَمِيعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَصَلَ لَهُمُ السَّيِّقُ بِصُحْبَتِهِ ... وَالْخَامِسُ أَنَّهُمُ السَّابِقُونَ بِالْمَوْتِ وَالشَّهَادَةِ سَبَقُوا إِلَى ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى ... وَالسَّادِسُ أَنَّهُمُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا قَبْلَ الْهَجْرَةِ)) اهـ .

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ الْمُسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَالْحَرَصِ عَلَى مُسَابَقَةِ الْأَقْرَانِ إِلَى الْأُمُورِ الطَّيِّبَةِ .

وعلى المرء أن يكون حريصًا أن لا يَسْقِطَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحَدٌ . فهذا هو مجال التسابق والتنافس والإصرار والعزيمة . فالإيمان حينما يملأ الكيان البشري فإن الفرد يتحول إلى شعلة نشاط ، ويؤوّل المجتمع إلى خلية نحل لا تتوقف عن العمل الجاد .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١٣٧٦) أن غَيْلَانَ بن جَرِيرٍ قَالَ : قُلْتُ لَأَنْسٍ : أَرَأَيْتَ اسْمَ الْأَنْصَارِ ، كُنْتُمْ تَسْمَوْنَ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمْ اللَّهُ ؟ ، قَالَ : بَلْ سَمَّانا اللَّهُ . كُنَّا نَدْخُلُ عَلَى أَنْسٍ ، فَيُحَدِّثُنَا مَنَاقِبَ الْأَنْصَارِ وَمَشَاهِدَهُمْ ، وَيُقْبِلُ عَلَيَّ ، أَوْ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ ، فَيَقُولُ : فَعَلَ قَوْمُكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا .

لَقَدْ كَانَ الصَّحَابِيُّ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ فِي الْبَصْرَةِ ، يُحَدِّثُهُمْ عَنْ فُضَائِلِ الْأَنْصَارِ وَأَمْجَادِهِمْ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مَوَاقِفَهُمُ النَّبِيلَةَ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ . وَالْأَزْدُ هُمُ الْأَنْصَارُ ، وَهُوَ اسْمُ أَبِيهِمْ .

وقال العيني في عمدة القاري (١٦ / ٢٥٤) : ((قَوْلُهُ : أَوْ عَلَى رَجُلٍ . شَكٌّ مِنَ الرَّاوي أَي : أَوْ يُقْبِلُ أَنْسُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ غَيْلَانَ الْمَذْكُورَ ، لِأَنَّهُ مِنَ الْأَزْدِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَزْدِ ، فَإِنْ قُلْتَ : فَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ قَالَ أَنْسُ : " فَعَلَ قَوْمُكَ " بِالْخَطَابِ إِلَى غَيْلَانَ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْدِ ، بِقَوْلِهِ : " قَوْمُكَ " وَلَيْسَ قَوْمُهُ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قُلْتَ : هَذَا بِاعْتِبَارِ النَّسْبَةِ

الأعمية إلى الأزد ، فإن الأزد يجمعهم قَوْلُهُ : فَعَلَ قَوْلُكَ كَذَا ، أي يحكي ما كان من مآثرهم في المغازي ونصر الإسلام)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

لقد عفا الله وتجاوزَ عن النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبَعُوهُ في زمان الشدة (ساعة العُسرة). والمقصود غزوة تبوك التي جاءت في ظروف صعبة للغاية، فقد كانت السنة مُجْدِبَةً، والحرُّ شديدًا، والطعام والماء قَلِيلَيْن . وقال الطبري في تفسيره (٥٠١ / ٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : لقد رَزَقَ اللهُ الإنابةَ إلى أمره وطاعته نبيَّه محمدًا ﷺ ، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام ، وأنصارَ رسوله في الله الذين اتَّبَعُوا رَسُولَ اللهِ في ساعة العُسرة)) اهـ . ولا تعني التَّوْبَةُ وجودَ ذَنْبٍ مُسَبِّقٍ ، لأنَّ كلَّ العباد يَحْتَاجُونَ إلى التوبة والاستغفار ورضا الله . وقال المفسِّرون : تابَ عليه من إِذْنِهِ للمنافقين في التَّخَلُّفِ . وقيل : افْتُتِحَ الكلامُ بِهِ ، لأنه كان سَبَبَ تَوْبَتِهِمْ ، فَذَكَرَهُ اللهُ معهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥١١ / ٣) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ . قال الرَّجَّاح : هُم الذين اتَّبَعُوهُ في غزوة تبوك . والمراد بساعة العُسرة وَقْتُ العُسرة ، لأن الساعة تقع على كل الزمان . وكان في ذلك الوقت حر شديد ، والقوم في ضيقة شديدة ، كان الجمل بين جماعة يَعْتَقِبُونَ عليه ، وكانوا في فَقْر ، فربما اقتسم التَّمْرَةَ اثنان ، وربما مَصَّ التَّمْرَةَ الجماعةُ ليشربوا عليها الماء ، وربما نَحَرُوا الإِبِلَ فشربوا من ماء كُرُوشِهَا مِنَ الْحَرِّ)) اهـ . وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب بن مالك قال : سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ : فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ أَحْسَنَ مِنِّي أَبْلَانِي ، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا . وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (19) .

(١٩) متفق عليه واللفظ للبخاري (١٧١٩/٤) برقم (٤٤٠١)، ومسلم (٢١٢٠/٤) برقم (٢٧٦٩) .

وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَدْ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ نَدِمَ أَشَدَّ النَّدَمِ . وَهُوَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخِيرُنَا بِأَنَّهُ صَادِقُ الْحَدِيثِ يَرْفُضُ الْكَذِبَ . وَقَدْ كَانَ صَادِقًا عِنْدَمَا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ سَبَبَ تَخَلُّفِهِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَلَمْ يَكْذِبْ كَمَا كَذَّبَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا أَعْدَارًا وَاهِيَةً . لَقَدْ اعْتَرَفَ بِتَقْصِيرِهِ وَذَنْبِهِ ، وَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧ / ٩٧) : ((أَيُّ: أَنْعَمَ عَلَيْهِ ، وَالْبَلَاءُ وَالْإِبْلَاءُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، لَكِنْ إِذَا أُطْلِقَ كَانَ لِلشَّرِّ غَالِبًا ، فَإِذَا أُريدَ الْخَيْرُ قُيِّدَ كَمَا قُيِّدَ هُنَا ، فَقَالَ : أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي)) اهـ .

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَمِيلُ قُلُوبُ بَعْضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَيَشْكُ فِي دِينِهِ ، وَيَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، بِسَبَبِ مَا نَالَهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْتِعَابِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ . ثُمَّ رَزَقَهُمُ اللَّهُ الْإِنَابَةَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ ، وَالثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْعَنَاءِ الْإِلَهِيِّ بِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ إِلَى الْخَيْرِ وَالْحَقِّ ، وَاللَّهُ لَمْ يَتْرَكْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ . وَ" كَادَ " مِنْ أَفْعَالِ الْمُقَارَبَةِ . فَإِذَا قُلْتَ : كَادَ زَيْدٌ يَقُومُ ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ قَارَبَ الْقِيَامَ وَلَمْ يَقُمْ . وَمَعْنَى " كَادَ " فِي الْآيَةِ أَنَّ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ قَارَبَتِ الزَّيْغَ ، وَلَمْ تَزِغْ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى الْمَعَانَاةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَقُّوْهَا . وَلَوْلَا تَثْبِيتُ اللَّهِ لِقُلُوبِهِمْ لَهَلَكُوا .

وَالْآيَةُ : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ تَكْرِيرٌ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى الْعَنَاءِ الْإِلَهِيِّ بِهِمْ ، وَالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ كَرَّرَ اللَّهُ ذِكْرَ التَّوْبَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي بَدَايَةِ الْآيَةِ ذِكْرُ ذَنْبِهِمْ ، فَقَدْ دَمَّ ذِكْرُ التَّوْبَةِ فَضْلًا مِنْهُ ، وَرَحْمَةً بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ ذَنْبَهُمْ ، وَأَعَادَ التَّوْبَةَ ، تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَبِيلُ تَوْبَتِهِمْ ، وَعَفَا عَنْهُمْ . وَاللَّهُ رَفِيقٌ بِعِبَادِهِ ، لَا يُحْمِلُهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ . وَمَنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَنْ يُعَذِّبَهُ أَبَدًا .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الرَّؤُوفِ وَالرَّحِيمِ . فَفِي تَحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ (٨ / ٤٠٤) : ((قَالَ الْخَطَّابِيُّ : قَدْ تَكُونُ الرَّحْمَةُ مَعَ الْكَرَاهَةِ ، وَلَا تَكَادُ الرَّأْفَةُ تَكُونُ مَعَهَا . وَقِيلَ : الرَّأْفَةُ عِبَارَةٌ عَنِ السَّعْيِ فِي إِزَالَةِ الضَّرَرِّ ، وَالرَّحْمَةُ عِبَارَةٌ عَنِ السَّعْيِ فِي إِصْلَاحِ النَّفْعِ)) اهـ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٥١٢) : ((وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا تَمِيلُ إِلَى التَّخَلُّفِ عَنْهُ ، وَهُمْ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَمُّوا بِذَلِكَ ، ثُمَّ لَحِقُوهُ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ الْقُلُوبَ مَالَتْ إِلَى الرَّجُوعِ لِلشَّدَّةِ الَّتِي لَقُّوْهَا ، وَلَمْ تَزِغْ عَنِ الْإِيمَانِ ، قَالَه الرَّجَّاجُ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْقُلُوبَ كَادَتْ تَزِيغُ تَلَفًا بِالْجُهْدِ وَالشَّدَّةِ ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ ؑ ، كَرَّرَ ذِكْرَ التَّوْبَةِ ، لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي ابْتِدَاءِ الْآيَةِ ذِكْرُ ذُنُوبِهِمْ ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ التَّوْبَةِ فَضْلاً مِنْهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ ذُنُوبَهُمْ ، ثُمَّ أَعَادَ ذِكْرَ التَّوْبَةِ)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٥٣ / ٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ . قِيلَ : تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ تَدَارِكَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى لَمْ تَزِغْ ، وَكَذَلِكَ سُنَّةُ الْحَقِّ مَعَ أَوْلِيَائِهِ إِذَا أَشْرَفُوا عَلَى الْعَطَبِ ، وَوُطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ ، أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ سَحَابَ الْجُودِ ، فَأَحْيَا قُلُوبَهُمْ . وَيَنْشُدُ :

مِنْكَ أَرْجُو وَلَسْتُ أَعْرِفُ رَبًّا	يُرْتَجَى مِنْهُ بَعْضُ مَا مِنْكَ أَرْجُو
وَإِذَا اشْتَدَّتْ الشَّدَائِدُ فِي الْأَرْضِ	عَلَى الْخَلْقِ فَاسْتَغَاثُوا وَعَجُّوا
وَابْتَلَيْتَ الْعِبَادَ بِالْخَوْفِ وَالْجُوعِ	وَصَرُّوا عَلَى الذُّنُوبِ وَلَجُّوا
لَمْ يَكُنْ لِي سِوَاكَ رَبِّي مَلَاذٍ	فَتَبَيَّنْتُ أَنِّي بِكَ أَنْجُو)) اهـ .

وقال الشعالي في تفسيره (١٦١ / ٢) : ((التَّوْبَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ رُجُوعُهُ بَعْدَهُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى أَرْفَعِ مِنْهَا ، فَقَدْ تَكُونُ مِنَ الْأَكْثَرِ رُجُوعًا مِنْ حَالَةٍ طَاعَةٍ إِلَى أَكْمَلِ مِنْهَا ، وَهَذِهِ تَوْبَتُهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى نَبِيِّهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — . وَأَمَّا تَوْبَتُهُ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَمُعْرَضَةٌ لِأَن تَكُونَ مِنْ تَقْصِيرٍ إِلَى طَاعَةٍ وَجَدَ فِي الْغَزْوِ وَنُصْرَةِ الدِّينِ ، وَأَمَّا تَوْبَتُهُ عَلَى الْفَرِيقِ الَّذِي كَادَ يَزِيغُ فَرُجُوعَ مِنْ حَالَةٍ مَحْطُوطَةٍ إِلَى حَالِ غُفْرَانٍ وَرِضَى . وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ — رَحِمَهُ اللَّهُ — فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَوْبَةً مَنْ لَمْ يُذْنِبْ لِقَلَّا يَسْتَوْحِشُ مَنْ أَذْنَبَ ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ ، وَلَمْ يُذْنِبُوا)) اهـ .

وقال ابن القيم في زاد المعاد (٥١٦ / ٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعْرِفُ الْعَبْدَ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَفَضْلِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّهَا غَايَةُ كَمَالِ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَاهُمْ هَذَا الْكَمَالَ بَعْدَ آخِرِ الْغَزَوَاتِ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا نَحْبَهُمْ ، وَبَدَلُوا نَفُوسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ لِلَّهِ ، وَكَانَ غَايَةَ أَمْرِهِمْ أَنْ تَابَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ تَوْبَةِ كَعْبِ خَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْهِ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا حَقَّ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ حَقُّوقَهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَفَ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عُبودِيَّتِهِ ، وَعَرَفَ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالَهَا ، وَأَنَّ الَّذِي

قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربّه عليه كَقَطْرَةٌ فِي بَحْرٍ ، هذا إِذَا سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ الظَّاهِرَةِ والباطنة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [التَّحَلُّ : ٤١] .

والَّذِينَ فَارَقُوا أَوطَانَهُمْ وَأَهْلَهُمْ ، وَتَرَكَوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، حُبًّا لِلَّهِ ، وَاسْتِجَابَةً لِأَمْرِهِ ، وَطَلَبًا لِرِضَاهُ ، وَرَفْعًا لِكَلِمَتِهِ ، وَطَمَعًا فِي أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ ، مِنْ بَعْدِ مَا عُدُّبُوا وَأُهِنُّوا وَعَانُوا أَشَدَّ الْمَعَانَا ، فَإِنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ قَدْ شَنُّوا حَمْلَةً عَنيفَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَدُّبُوا جَمَاعَةً مِنْهُمْ ، لِكَسْرِ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ وَتَحْطِيمِهِمْ ، وَإِضْعَافِ الْإِسْلَامِ ، فَهَاجَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْحَبْشَةِ ، ثُمَّ إِلَى الْمَدِينَةِ . ﴿ لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَهُمُ الْمَدِينَةَ (الدَّارَ الْحَسَنَةَ) ، وَهِيَ الْمَكَانُ الطَّيِّبُ ، حَيْثُ الْأَمْنُ وَالْإِيمَانُ ، وَقَدْ آوَاهُمْ أَهْلُهَا (الْأَنْصَارُ) وَنَصَرُوهُمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ (نَعِيمَ الْجَنَّةِ) أَعْظَمُ مِمَّا يُعْجَلُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا . فَالدُّنْيَا فَانِيَةٌ ، وَالْآخِرَةُ بَاقِيَةٌ . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . أَي : لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ الْجَزَاءَ الْإِلَهِيَّ الْعَظِيمَ لِلْمُهَاجِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَأَمَنُوا ، وَانْضَمُّوا إِلَيْهِمْ . أَوْ : لَوْ عَلِمَ الْمُهَاجِرُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالنَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، لَارْزَدُوا إِيمَانًا وَعِبَادَةً وَصَبَرُوا عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْآلَامِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٤٤) عن سبب نزول الآية : ((اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال : أحدها أنها نزلت في سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : بِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ وَخَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ ، وَعَايِشَ وَجَبْرِ مَوْلِيَانِ لِقُرَيْشٍ ، أَخَذَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَجَعَلُوا يُعَذِّبُونَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . والثاني أنها نزلت في أَبِي جَنْدَلٍ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ . والثالث أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، قَالَ قَتَادَةُ . وَمَعْنَى : ﴿ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾ أَي : فِي طَلَبِ رِضَاهُ وَثَوَابِهِ . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ بِمَا نَالِ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ . ﴿ لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ وَفِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أحدها لَنُنْزِلَنَّهُمْ الْمَدِينَةَ ، رَوَى هَذَا الْمَعْنَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَقَتَادَةُ . فَيَكُونُ الْمَعْنَى : لَنُبَوِّئَهُمْ دَارًا حَسَنَةً وَبِلَدَةً حَسَنَةً . والثاني لَنُرْزُقَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا الرِّزْقَ الْحَسَنَ ، قَالَه مُجَاهِدٌ . والثالث : النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ ، قَالَه الضَّحَّاكُ . والرابع أَنَّهُ مَا بَقِيَ بَعْدَهُمْ مِنَ الشَّأْنِ الْحَسَنِ ، وَصَارَ لِأَوْلَادِهِمْ مِنَ الشَّرَفِ ، ذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ . وَقَدْ رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ ، فَرَوَى عَنْهُ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ ، قَالَ : لِسَانَ صَادِقٍ . والخامس أَنَّ الْمَعْنَى :

لنُحَسِّنَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي : فَتَكُونُ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ ﴿ لُبُّوْنَهُمْ ﴾ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ إِلَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي الْجَنَّةَ . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ . وَنُقِلَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ إِذَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عَطَاءً ، قَالَ : خُذْ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهِ ، هَذَا مَا وَعَدَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَمَا ذَخَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ . ثُمَّ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ ((اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النَّحْلُ : ١١٠] (20) .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ ، وَهَاجَرُوا مِنْ دَارِ الْكُفْرِ ، وَتَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ ، وَانْتَقَلُوا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ فَتَنَهُمُ الْمُشْرِكُونَ بِتَعْذِيبِهِمْ ، كَيْ يَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، فَتَلَفَّظُوا بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ مَعَ اطمئنان قلوبهم بالإيمان ، ثُمَّ جَاهَدُوا بِأَيْدِيهِمْ (بِالسَّيْفِ) وَأَلَسْنَهُمْ بِقَوْلِ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَصَبَرُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ ، إِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ وَالْغَفْلَةِ كَثِيرُ الْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ . يَغْفِرُ لَهُمْ مَا تَلَفَّظُوا بِهِ مِنَ الْكُفْرِ تَقِيَّةً . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ كَلِمَةَ " رَبَّكَ " قَدْ جَاءَتْ فِي مَوْضِعَيْنِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اللَّطْفِ الْإِلَهِيِّ بِهِمْ ، وَأَنَّ هَذَا اللَّطْفَ الْإِلَهِيُّ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ إِكْرَامٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَلَأَنَّهُمْ صَحَابَتُهُ . وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَجَلَّى فِي إِضَافَةِ " الرَّبِّ " إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيِّ ﷺ .

(٢٠) قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٤٩٧ و ٤٩٨) : ((اخْتَلَفُوا فِيَمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيَمَنْ كَانَ يُفْتَنُ بِمَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَرَجُوا لِلْهَجْرَةِ ، فَلَحَقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ ، فَأَعْطَوْهُمْ الْفِتْنَةَ ، فَنَزَلَ فِيهِمْ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [الْعنكبوت : ١٠] ، فَكَتَبَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، فَخَرَجُوا ، وَأَدْرَكَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ، فَقَاتَلُوهُمْ ، حَتَّى نَجَا مِنْ نَجَا ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ ، فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ ، كَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَرْزَلَهُ حَتَّى لَحِقَ بِالْكَفَارِ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ ، فَاسْتَحَارَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرَمَةَ ، وَمِنْهُ بُعْدُ ، لِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّ الْهَجْرَةَ انْقَطَعَتْ بِالْفَتْحِ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رِبْعَةَ وَأَبِي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ عَمْرُو وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَسِيدٍ التَّقْفِي ، قَالَهُ مَقَاتِلُ)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥ / ١٤٤) : ((وفي التَّعَرُّض لعنوان الرُّبُوبية في الموضوعين إيماء إلى عِلَّةِ الْحُكْم . في إضافة " الرَّب " إلى ضَميره عليه السلام مع ظهور الأثر في الطائفة المذكورة ، إظهار لكمال اللطف به عليه السلام ، وإشعار بأن إفاضة آثار الرُّبُوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه السلام ، وَلِكَوْنِهِمْ أَتْبَاعًا لَهُ)) اهـ .

وكان المشركون قَدْ عَدُّوهُمْ ، وأجبروهم على التلفظ بكلمة الكفر ، لكنَّ قلوبهم كانت مطمئنة بالإيمان، وصدورهم لم تنشرح بالكفر. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٨٣) : ((فالمعنى أنَّ هؤلاء المفتونين الذين تَكَلَّمُوا بكلمة الكفر مُكْرَهِينَ ، وصدورهم غير مُنْشِرِحَةٍ للكفر، إِذَا صَلَحَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وجَاهَدُوا في الله ، وصبروا على الْمَكَارِهِ ، لَعَفُورٌ لَهُمْ ، رحيم بهم)) اهـ .
وقد وَرَدَ أن المقصود بالآية هو عبد الله بن أبي سَرْح ، وَكَانَ قد ارتدَّ ، ثُمَّ رَجَعَ إلى الإسلام ، فيكون المعنى : هذا المفتون في دينه بِالرَّدَّةِ ، إِذَا أَسْلَمَ وَهَاجَرَ وَجَاهَدَ وَصَبَرَ عَلَى الْمَشَاقِّ ، فَاللهُ غَفُورٌ لَهُ ، رحيم به .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٦٥٢) : ((﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يقول : إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِ فَعَلْتَهُمْ هَذِهِ ، لَهُمْ لَعَفُورٌ . يقول : لَذُو سِتْرٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الْمُشْرِكِينَ مَا أَرَادُوا مِنْهُمْ مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، وَهُمْ لَغَيْرِهَا مُضْمِرُونَ ، وَلِلْإِيمَانِ مُعْتَقِدُونَ ، رحيم بهم أن يُعَاقِبَهُمْ عَلَيْهَا مَعَ إِنَابَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَتَوْبَتِهِمْ)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ الآية . قال : ((هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ أَوْ غَيْرُهُ ، الَّذِي كَانَ وَالِيًا بِمِصْرَ ، يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَرَلَّ ، فَلَحِقَ بِالْكَفَرِ ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ ، فَاسْتَجَارَ لَهُ عُثْمَانُ ابْنُ عَفَّانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَجَارَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)) (٢١).

وَمِنْ الْمُسْتَبَعَدِ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ . صَحِيحٌ أَنَّهُ عَادَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ رَدَّتِهِ ، وَلَكِنَّ الْهَجْرَةَ انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، فَصَارَتْ مَكَّةُ دَارَ الْإِيمَانِ لَا دَارَ الْكُفْرِ ، فَلَا مَعْنَى لِلْهَجْرَةِ مِنْهَا . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ)) [سَبَقَ تَخْرِيجُهُ] . أَيِ إِنَّ الْهَجْرَةَ انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ . وَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِالْآيَةِ ابْنُ أَبِي سَرْحٍ ، فَلَا مَعْنَى لِكَلِمَةِ ﴿ هَاجَرُوا ﴾ الَّتِي

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٨) برقم (٣٣٦١) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي

وَرَدَتْ فِي الْآيَةِ . وَهَذَا يَدُلُّ بوضوح على أَنَّ الْآيَةَ لَا تَتَحَدَّثُ عَنْ ابْنِ أَبِي سَرْحٍ ، وَلَا عِلَاقَةَ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الْآيَةِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الْحَجَّ : ٥٨] .

وَالَّذِينَ فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَتَرَكُوا أَهْلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ (هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ) ، ابْتِغَاءَ رِضَا اللَّهِ ، وَطَمَعًا فِي أَجْرِهِ وَثَوَابِهِ ، وَجَاهِدُوا الْأَعْدَاءَ ، ثُمَّ قُتِلُوا فِي الْجِهَادِ ، أَوْ مَاتُوا عَلَى فُرْشِهِمْ ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَنَّتِهِ رِزْقًا كَرِيمًا دَائِمًا بِلَا انْقِطَاعٍ . وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ هُوَ الَّذِي لَا يَنْقُطِعُ أَبَدًا ، وَهُوَ رِزْقُ الْجَنَّةِ . وَالْآيَةُ تُظْهِرُ أَنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ بِإِخْلَاصِهِ وَنِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، لِذَلِكَ سَوَّى اللَّهُ بَيْنَ مَنْ قُتِلَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَمَنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ . وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٣٧) : ((وَإِنَّمَا سَوَّى بَيْنَ مَنْ قُتِلَ فِي الْجِهَادِ ، وَمَنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ فِي الْوَعْدِ ، لِاسْتَوَائِهِمَا فِي الْقَصْدِ وَأَصْلِ الْعَمَلِ)) اهـ .

وَاللَّهُ أَكْبَرُ مَنْ أَعْطَى وَخَيْرٌ مَنْ مَنَحَ وَتَفَضَّلَ ، فَهُوَ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ ، يُعْطِي بِلَا حِسَابٍ ، وَيَرْزُقُ بِلَا خَوْفٍ مِنَ الْفَقْرِ ، فَخَزَائِنُهُ سُبْحَانَهُ لَا تَنْفَدُ . وَلَا رَازِقٌ سِوَاهُ . وَمَا يُعْطِيهِ اللَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ . وَقَدْ تَمَّ ذِكْرُ الْمُهَاجِرِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ ، تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ ، وَتَشْرِيفًا لِقُدْرَتِهِمْ ، وَإِظْهَارًا لِمَكَانَتِهِمْ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣١١) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدَهُ ، وَتَرْكُ الْأَوْطَانِ وَالْأَهْلِ وَالْإِلَاحِ ، وَفَارَقَ بِلَادَهُ فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُصْرَةِ لَدِينِ اللَّهِ ، ثُمَّ قُتِلُوا ، أَوْ مَاتُوا ، أَوْ حَتَفَ أَنْفَهُمْ ، أَوْ مَاتَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ عَلَى فُرْشِهِمْ ، فَقَدْ حَصَلُوا عَلَى الْأَجْرِ الْجَزِيلِ وَالنَّشَاءِ الْجَمِيلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ . وَقَوْلُهُ: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أَيُ : لَيُجْزِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ مَا تَقَرَّرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ)) اهـ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٣ / ١٥٢٠) : عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الْقَتْلَانِ)) .

إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ وَهُوَ مُلَازِمٌ تُغَرِّمُ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ ، لِحِمَايَتِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، فَإِنَّ أَجْرَهُ مُسْتَمِرٌّ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ فِي حَيَاتِهِ . وَهَذَا الْمُرَاطُ إِذَا مَاتَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ صِدْقُهُ وَإِخْلَاصُهُ ، وَيُجْرِي اللَّهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ثَوَابَ مُرَابِطَتِهِ

يَنمو وَيَتَضَاعَف. وفي صحيح مسلم (٣ / ١٥١٧) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((مَن سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ)) .

وهذا يدل على أهمية النية الصادقة ، وَأَنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ أُبْلَغَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَنَّ النِّيَّةَ الصَّادِقَةَ تُوصِلُ الْمُؤْمِنَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَرْفَعَ الدَّرَجَاتِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ذُوْنُ أَنْ يَقُومَ بِأَيِّ عَمَلٍ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٥٥) : ((وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قَالَ : ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ شَهِيدٌ)) (22) .

إِنَّ نِيَّةَ هَذَا الرَّجُلِ هِيَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى . وَكَانَ مُخْلِصًا فِي نِيَّتِهِ بِلَا رِبَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، فَإِذَا مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ ، وَهُوَ بِهَذِهِ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ ، فَهُوَ شَهِيدٌ ، تَمَامًا كَالَّذِي اسْتُشْهِدَ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ ، وَهُوَ يُقَاتِلُ الْأَعْدَاءَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ النِّيَّةِ الصَّالِحَةِ ، وَضَرُورَةِ أَنْ يَنْوِيَ الْمُؤْمِنُ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَيْ يُؤَجَّرَ عَلَى نِيَّتِهِ ، حَتَّى وَإِنْ عَجَزَ عَنْ تَطْيِيقِهَا عَلَى أَرْضِ الْوَقَاعِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النُّور : ٢٢] .

وَلَا يَخْلِفُ أَصْحَابُ الْغِنَى وَالْإِحْسَانِ وَالسَّعَةِ فِي الْمَالِ عَلَى أَنْ لَا يُعْطُوا أَقَارِبَهُمْ ، وَلَا يَصِلُوا أَرْحَامَهُمْ كَمِسْطَحَ بْنِ أَثَاثَةَ ، وَهُوَ ابْنُ خَالَةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ _ رضي الله عنه _ . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ وَأَصْحَابُ الْحَاجَةِ ، وَكَانَ مِسْطَحٌ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ فَقِيرٌ مُحْتَاجٌ . ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ رِضَا اللَّهِ ، وَكَانَ مِسْطَحٌ مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُ هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَشَهِدَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَدْرًا . وَالآيَةُ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

وهذه دَعْوَةٌ إِلَهِيَّةٌ كَرِيمَةٌ إِلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقْرَبَاءِ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَعَدَمِ قَطْعِ مَعُونَتِهِمْ . وَبِدُونِ هَذِهِ النِّفْقَةِ سَيَغْرَقُونَ فِي مُعَانَاةِ كِبَرَى ، إِذْ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ مَكَانَةٍ

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٢١) . وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٢٤٥) : صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ .

اجتماعية مُتدنية، وبحاجة إلى أدنى مساعدة لكي تستمر حياتهم ، ويواصلوا مشوارهم في هذه الدنيا . وإذا لم يُنفق الأغنياء على الفقراء ، فكيف يتسنى للفقراء أن يأكلوا ويشربوا ويعيشوا بكرامة ؟!

أما سبب نزول الآية الكريمة، فذو علاقة بحادثة الإفك. حيث تم اتهام السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالفاحشة . ومن الذين خاضوا في هذا الكلام مسطح بن أثاثه ، وكان مسكيناً مهاجراً بدرياً . وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يُنفق عليه لقربته وفقره . فلما برأ الله عائشة ، خلف أبو بكر ألا يُنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد كلامه عن عائشة . فأُنزل الله تعالى: ﴿ ولا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (23).

وقال النسفي في تفسيره (١٤٠ / ٣) : ﴿ (ولا يَأْتِلْ) ولا يَخْلِفُ ﴾ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ في الدِّينِ وَالسَّعَةِ في الدنيا ﴿ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أي : لا يَخْلِفُوا على أن لا يُحسنوا إلى المستحقين للإحسان ، وإن كانت بينهم وبينهم شَحْناء لجنابة اقترفوها)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. يُخَاطَبُ اللهُ عباده المؤمنين : يا عِبَادِيَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَّتِي وَبُنُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ، فَاخْرُجُوا مِنْ مَكَّةَ (دار الكفر) إِلَى الْمَدِينَةِ (دار الإيمان) ، وَلا تَقِيمُوا فِي مَكَانٍ تَعْجَزُونَ فِيهِ عَنْ إِقَامَةِ شَعَائِرِ دِينِكُمْ . وَهَذَا خِطَابٌ تَشْرِيفٍ لَهُمْ ، حَيْثُ أَضَافَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيِّ : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ ، وَالآيَةُ تَحْرِيزٌ لَهُمْ عَلَى الْهَجْرَةِ . وَالْمُؤْمِنُ لَا يَظَلُّ مَعَ الْكُفَّارِ ، وَلَا يَعِيشُ بَيْنَهُمْ ، إِنْ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَدَاءَ عِبَادَاتِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ ، وَإِنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ أَرْضٍ يَعْبُدُ اللهُ فِيهَا مَعَ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ . وَكَذَلِكَ كُلُّ أَرْضٍ فِيهَا مُنْكَرَاتٌ وَيُعْمَلُ فِيهَا بِالْمَعَاصِي ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ تَغْيِيرَ ذَلِكَ ، فَيَجِبُ الْهَجْرَةُ مِنْهَا إِلَى مَكَانٍ يَسْتَطِيعُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَعْبُدَ اللهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٥٦ / ٣) : ((هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَجْرَةِ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، إِلَى أَرْضِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، حَيْثُ يُمَكِّنُ إِقَامَةَ الدِّينِ بِأَنْ يُؤَحِّدُوا اللهُ ، وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ)) اهـ .

(٢٣) انظر القصة كاملة في صحيح البخاري (١٧٧٤ / ٤) ، وصحيح مسلم (٢١٢٩ / ٤) .

ومعنى الآية : إن كُنْتُمْ عاجزين عن إقامة شعائر دينكم في مكة (دار الكفر) ، فهاجروا إلى المدينة (دار الإيمان) فهي مكان مناسب لعبادة الله وَخَذَهُ ، بلا خوف ولا قلق .
﴿فَيَأْيِ فَاغْبُدُونِ﴾ فَخُصُّونِي بِالْعِبَادَةِ ، ولا تَعْبُدُوا مَعِيَ أَحَدًا . وهذا الأمر لا يُمكن تطبيقه على أرض الواقع إلا بالهجرة إلى مكان يُمكن فيه عبادة الله وَخَذَهُ بلا عوائق ولا عقبات .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٨١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ ... وفيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه خطاب لِمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ . قيل لهم : إِنَّ أَرْضِي ، يعني المدينة، واسعة. فلا تُجاوِروا الظِّلْمَةَ في أرض مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وكذلك قال مُقاتل : نزلت في ضُعفاء مُسلمي مكة، أي : إن كُنْتُمْ في ضيق بمكة من إظهار الإيمان ، فأَرْضُ المدينة واسعة . والثاني أَنَّ المعنى إذا عُمِلَ بالمعاصي في أرض فاخْرُجُوا مِنْهَا ، رواه سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس ، وبه قال عطاء. والثالث إِنَّ رِزْقِي لَكُمْ وَاسِعٌ، قاله مُطَرِّف بن عبد الله. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَيَأْيِ فَاغْبُدُونِ﴾ ... قال الرَّجَاج: أَمَرَهُم بِالْهَجْرَةِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُمكنُهُمْ فِيهِ عِبَادَةُ اللَّهِ إِلَى حَيْثُ تَنْتَهِي لَهُمُ الْعِبَادَةُ)) .

وعن الزُّبَيْر بن العَوَّام _ رضي الله عنه _ قال: قال رسول الله ﷺ : ((الْبِلَادُ بِأَدْنَى اللَّهِ ، وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا أَصَبَتْ خَيْرًا فَأَقِم)) (24) .

(٢٤) رواه أحمد في مسنده (١ / ١٦٦) . وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (١ / ٢٠٣) . وقال الهيثمي في الجمع (٤ / ١٢٦) : ((فيه جماعة لم أعرفهم)) اهـ . وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٢٢٣) : ((وهذا معنى قَوْلِهِ : ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَيَأْيِ فَاغْبُدُونِ﴾ . وظاهره أنه لا فضل للزُّوم الوطن والإقامة به على الإقامة بغيره ، لكنَّ الأولى بالمُرِيد أن يُلَازِم مكانه إذا لم يكن قَصْدُهُ مِنَ السَّفَر استفادة عِلْمٍ، مهما سَلِمَ له حاله في وطنه، وإلا فليطلب موضعًا أقرب إلى الخمول، وأسلم للدين، وأفرغ للقلب، وأيسر للعبادة، فهو أفضل . اهـ . وجرى على نَحْوِهِ في الكَشَّاف فقال : معنى الآية أَنَّهُ إذا لم يَتَسَهَّلْ له العبادة في بلد هو فيه، ولم يَتَمَشَّ أمرٌ دينه كما يجب، فليهاجر لبلد آخر يُقَدَّرُ أنه فيه أسلم قلبًا، وأصح دينًا، وأكثر عبادة، وأحسن خُشوعًا. قال: وقد جَرَّبْنَا فلم نجد أعْوَنَ على ذلك من مكة . (نكتة) قال ابن الربيع : قال سفيان الثوري: ما أدري أي البلاد أسكن، قيل له: خُرَّاسان، قال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة. قيل: فالشام. قال: يُشار إليك بالأصابع. قيل: فالعراق، قال: بلد الجبابة. قيل : فمكة، قال : تُذِيبُ الكبد والبدن)) .

هذا الحديث معناه صحيح ، لكنَّ سنده ضعيف . فعلى المؤمن أن يُهاجر من بلده إذا كان لا يستطيع أن يعبد الله فيه براحة وطمأنينة . وأرضُ الله واسعة . فلا معنى أن يخسر المؤمن دينه من أجل حُب الوطن والأهل والعشيرة . لذلك ، لَمَّا ضاق الخناق على ضُعفاء المسلمين في مكة ، وتَمَّ التشديد عليهم ومُحاصرتهم من قِبَل الكفار ، هَاجَرُوا إلى الحبشة ، على أمل أن يَجِدُوا مكانًا يعبدون الله فيه بلا خوف ولا تضيق ، وقد آواهم النجاشي مَلِك الحبشة _ رضي الله عنه _ ، وسمح لهم بالإقامة في بلده ، وأن يُمارِسوا شعائر دينهم بكل حُرِّية ، ضمن مجتمع الأمن والأمان . ثُمَّ بعد ذلك ، هاجر النبي ﷺ والصحابة من مكة (دار الكفر) إلى المدينة (دار الإيمان) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب : ٦] .

الأقارب أَوْلَىٰ بالتَّوارث من المهاجرين والأنصار في حُكْمِ الله وَشَرْعِهِ وَدِينِهِ ، وهذه الآية ناسخة لَمَّا كَانَ قَبْلُهَا ، حيث كان المؤمنون يَرِثُونَ بَعْضُهُم البعض بِالْحَلْفِ والهجرة والمُؤاخاة . وقد بيَّنَ الله أن التَّوارث قائم على رابطة الدَّم لا رابطة الدِّين . وقد انتهى موضوع الميراث ، وبقي الإحسان بين المؤمنين والنُّصرة والمساعدة والوَصِيَّة . فالإحسانُ إلى المؤمنين والمهاجرين في الحياة ، والوصية إليهم عند الموت ، كلاهما جائز . والله تعالى لَمَّا نَسَخَ التَّوارث بِالْحَلْفِ والهجرة ، أَبَاحَ أن يُوصِيَ الرَّجُلُ لِمَنْ يُحِبُّ . إذن ، انتقال المال ممنوع بواسطة الميراث ، ومسموح بواسطة الوصية . والمجتمع الإسلاميُّ مجتمع متماسك ومُتَكَافِل ، والمؤمنون يُسَاعِدُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا ، معنويًّا وماديًّا .

والْحُكْمُ الإلهيُّ (نَسَخَ الإرث بالإيمان والهجرة يارث الأقارب ذَوِي الْأَرْحَامِ) مُقَدَّر ومكتوب في القرآن (الكتاب العزيز) ، لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر .

والله تعالى شَرَعَ الميراث بالإيمان والهجرة ، لأنَّ ذلك يُحَقِّقُ مصالح المؤمنين ، ويُغْلِي من شأن الإسلام . فَلَمَّا تَمَّت المصلحة ، نَسَخَ اللهُ هَذَا الْحُكْمَ ، وجعل الميراث باعتبار القرابة فقط . والله تعالى يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْسَخُ الْحُكْمَ ، وهو سُبْحَانَهُ يُحَقِّقُ مَصَالِحَ عِبَادِهِ بما يُفِيدُهُمْ في الدنيا والآخرة ، والله تعالى لا يَحْتَاجُ مِيرَاثًا ولا وصية ، ولا يَسْتَفِيدُ من أموال الناس ، فهو خَالِقُهُمْ ورَازِقُهُمْ . وحِكْمَةُ النَّسْخِ تُفَهِّمُ في سياق مصلحة المجتمع المسلم . وَكُلُّ الْأُمُورِ تَجْرِي وفق قَدَرِ اللهِ وقضائه . والله الحَكِيمُ الْبَالِغَةُ النَّافَةُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٥٤): ((والمعنى أنَّ ذَوِي الْقَرَابَاتِ بعضهم أَوْلَى بميراث بعض من أن يرثوا بالإيمان والهجرة ، كما كانوا يفعلون قبل النَّسخ . ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ . وهذا استثناء ليس مِنَ الْأَوَّلِ ، والمعنى: لَكِنَّ فِعْلَكُمْ إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا جائز ، وذلك أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا نَسَخَ التَّوَارِثَ بِالْحَلْفِ وَالْهَجْرَةِ ، أَبَاحَ الْوَصِيَّةَ لِلْمُعَاقِدِينَ ، فَلِلْإِنْسَانِ أَنْ يُوصِيَ لِمَنْ يَتَوَلَّاهُ بِمَا أَحَبَّ مِنْ ثُلُثِهِ ، فالمعروف ها هنا الوصية . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ يعني نَسَخَ الميراث بالهجرة ، وَرَدَّهُ إِلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ . ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوبًا)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرک (٤/ ٣٨٢) وصحَّحه ووافقه الذهبي: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما كان المهاجرون يتوارثون ذَوْنَ الْأَعْرَابِ ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾.

وهذا يعني أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ (ساكن البادية) لَا يَرِثُ الْمُهَاجِرَ ، وَلَا يَرِثُهُ الْمُهَاجِرُ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آخَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، فَجَعَلُوا يَتَوَارَثُونَ لَذَلِكَ ، حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فَتَوَارَثُوا بِالنَّسَبِ (25) . وينبغي الانتباه إلى أَنَّ الْآيَةَ : ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال : ٧٥] . وأيضاً: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب : ٦] . نَفْسُ الْآيَةِ موجودة في سُوْرَتَيْنِ . والآية في الأنفال نَزَلَتْ قَبْلَ الْآيَةِ فِي الْأَحْزَابِ . وعلى هذا تُحْمَلُ الْأَحَادِيثُ الَّتِي ذَكَرَتْ هَذِهِ الْآيَةَ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَّاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد : ١٣] .

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة الذين كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وَخَارَبُوهُ ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَهْلَكَ أَقْوَامًا وَأُمَمًا ، كَفَرُوا بِأَنْبِيَائِهِمْ ، وَرَفَضُوا الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَكَانُوا أَقْوَى مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا . وَقَدْ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَهْلَكَهُمْ ، وَاسْتَأْصَلَهُمْ ، فَصَارُوا أَثَرًا إِنْ تَرَى عَيْنَ ، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ لِمُسَاعَدَتِهِمْ وَلَا لِنِقَادِهِمْ ، وَلَمْ يَدْفَعْ أَحَدٌ عَنْهُمْ الْعَذَابَ . وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَشَدُّ وَدَائِمٌ لَا يَزُولُ ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ . وَإِذَا اسْتَمَرَّ أَهْلُ مَكَّةَ فِي كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ سَيَلْقَوْنَ نَفْسَ مُصِيرِ الْأُمَمِ الْمُجْرِمَةِ السَّابِقَةِ . وَلَنْ يُنْقِذَهُمْ أَحَدٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

(٢٥) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤) . وقال الهيثمي في الجمع (٧/ ١٠٢): ((رجاله رجال الصحيح)) .

ووصفُ أهل القرية بالقوة للإشارة إلى صَعْف أهل مكة بالمُقارَنة معهم. وكلمة: ﴿أَخْرَجْتُكَ﴾ تُوضِّح جريمة أهل مكة ، وذَنبهم العظيم ، فقد أَخْرَجُوا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ مكة ، وهي وَطَنه وَحَرَّمَ اللهُ . ولا شَكَّ أَنَّ الكافرين _ في كل زمان ومكان _ عاجزون عن حماية أنفسهم من العذاب الإلهي، وأيضًا لا يستطيعون طلب النجدة من الأتباع والأعوان، فالجميع عاجزون عن دَفْع العذاب الإلهي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٠٠) : ((والمراد بقريته مكة. وأضاف القوة والإخراج إليها ، والمراد أهلها ، ولذلك قال : ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٢٣) : ((فإذا كان الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ قد أهلك الأمم الذين كَذَّبُوا الرُّسُلَ قَبْلَهُ بسببهم ، وقد كانوا أشدَّ قوة من هؤلاء ، فماذا ظَنُّ هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟ ، فَإِنْ رُفِعَ عن كثير منهم العقوبة في الدنيا ، لِبَرَكَةِ وُجُودِ الرُّسُولِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُوقَرُ (يُضَاعَفُ) على الكافرين به في معادهم)) اهـ .

وقد قال رسول الله ﷺ مخاطبًا مكة المكرمة ، قريته العزيزة المُحِبَّة إلى نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ : ((وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجُكَ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ)) (26) . وهذا يدل على أَنَّ مكة هي أفضل بقعة على وجه الأرض، ويدل أيضًا على مكانة مكة الدينية والحضارية والتاريخية والجغرافية، ومركزيتها العظيمة ذات القداسة في الأرض والسماء ، وأهمية الوطن في حياة الإنسان .

وقال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الْحَشْرُ : ٨] .

هؤلاء هُمُ الفقراء المستحقُّون لِمَالِ الْفَيِّءِ والغنائم ، أَخْرَجَهُمْ كَفَارُ مكة ، وأخذوا أموالهم. لقد خَرَجُوا مِنْ ديارهم رَغْمًا عنهم وليس بإرادتهم . تركوا ديارهم وأموالهم وممتلكاتهم ، وَرَفَضُوا دِينَ قَوْمِهِمْ عِبَادِ الْأَصْنَامِ ، واعتنقوا الإسلامَ رَغْمَ عداوة المحيطين بهم ، كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ نَيْلِ رِضَا اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ .

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٨) برقم (٤٢٧٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي .

لقد ضَحُّوا بالغالي والنفيس من أجل الله تعالى، ونُصْرَة دِينِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم ، الكاملون في تقواهم . والمدح في هذه الآية مرتبط بالهجرة والتضحية في سبيل الله ، أي إن المدح متعلق بهذا الموقف المُشْرِف الذي وَقَّفه الصحابة _ رضي الله عنهم _ .
وفي تفسير البغوي (١ / ٧٥) : ((قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والعشائر ، وخرجوا حباً لله ولرسوله ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدّة ، حتى ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحَجَرَ على بطنه، ليقيم به ضلّبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثارٌ غيرُها)) اهـ .

وعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ قال : ((الناسُ على ثلاث منازل ، فمضت منهم اثنتان ، وبقيت واحدة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ، ثم قرأ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ [الحشر : ٨] _ الآية _ ، ثم قال : هؤلاء المهاجرون وهذه منزلة وقد مضت ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الحشر : ٩] _ الآية _ ثم قال : هؤلاء الأنصار وهذه منزلة وقد مضت ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] _ الآية _ . وقال : فقد مضت هاتان المنزلتان ، وبقيت هذه المنزلة ، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت)) (27).

وقال ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢ / ٩٧) : ((وعن محمد بن حاطب عن علي بن الحسين أنه أتاه نفرٌ من أهل العراق ، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان _ رضي الله عنهم _) يعني طعنوا فيهم) ، فلما فرغوا ، فقال : ألا تخبروني ، أنتم المهاجرون الأولون ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ، قالوا : لا . قال : فأنتم ﴿ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ؟ ، قالوا : لا . قال : أمّا أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين ، ثم قال : أشهد أنكم لستم من الذين قال الله _ عز وجل _ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، أخرجوا ، فعَلَّ اللهُ بِكُمْ)) اهـ .

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٢٦) برقم (٣٨٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

هؤلاء الأنصار الذين سكنوا المدينة (دار الهجرة) قبل المهاجرين ، يُحِبُّونَ المهاجرين ، ويُقدِّمونَ لهم كلَّ أشكال المساعدة المعنوية والمادية . وقد شاركوهم في منازلهم وأموالهم . وهذا يدل على إيمانهم الراسخ ، ومكانتهم الشريفة ، وكرمهم العظيم ، وأنفسهم السامية ، وأصلهم الطيب .

والآية تمدحُ الأنصارَ وتثني عليهم . والتَّبَوُّءُ هو التَّمَكُّنُ الشديد والاستقرار . والجدير بالذكر أن الأنصار آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، فقد ظَهَرَ صِدْقُهُمْ ، واستَوْطَنُوا المدينة ، وبنوا المساجد فيها ، وآثروا الإيمان . وليس المقصود أنهم آمنوا قبل المهاجرين . وقال القرطبي في تفسيره (٢١ / ١٨) : ((قال ابن وهب : سمعتُ مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق ، فقال : إن المدينة تبوأَت بالإيمان والهجرة ، وإنَّ غيرها مِنَ الْقُرَى افْتِيَحَتْ بالسَّيْفِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢١٢ / ٨) : ((فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ ﴾ يعني دار الهجرة ، وهي المدينة . ﴿ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فيها تقديم وتأخير ، تقديره : والذين تبوَّؤوا الدارَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أي : مِنْ قَبْلِ المهاجرين ، والإيمان غُطِفَ على الدار في الظاهر لا في المعنى ، لأن الإيمان ليس بمكان يُتَبَوَّأُ ، وإنما تقديره : وآثروا الإيمان . وإسلام المهاجرين قبل الأنصار ، وسكنى الأنصار المدينة قبل المهاجرين . وقيل : الكلام على ظاهره ، والمعنى : تبوَّؤوا الدارَ وَالْإِيمَانَ قبل الهجرة)) اهـ .

وقد مدَحَ النبي ﷺ الأنصارَ في مواطن كثيرة . فقال ﷺ : ((الأنصارُ كَرِشي وَعَيْيَتي ، والناسُ سَيَكْثُرُونَ وَيَقْلُونَ ، فاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ))⁽²⁸⁾ .
إنَّ الأنصارَ خاصَّةُ النبي ﷺ وبطانته . وهذا الكلامُ المُوجِزُ دليلٌ على فصاحة النبي ﷺ ، وأن الكلامَ قد جُمِعَ له جَمْعًا . وفي الحديثِ مُعْجِزَةٌ للنبي ﷺ ، حيث أخبر أن الأنصار سَيَقْلُونَ بينما

(٢٨) متفق عليه . البخاري (١٣٨٣ / ٣) برقم (٣٥٩٠) ، ومسلم (١٩٤٩ / ٤) برقم (٢٥١٠) .

يَكْثُرُ غَيْرُهُمْ⁽²⁹⁾. وقد أوصى بهم النبي ﷺ خَيْرًا ، وذلك بأن يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ فِي غَيْرِ الْحُدُودِ وَحَقُوقِ النَّاسِ . وهنا تَبْرُزُ مَكَانَةُ الْأَنْصَارِ وَفَضَائِلُهُمْ ، وما كانوا لِينَالُوا هَذِهِ الرُّتَبَةَ السَّامِيَةَ لَوْلَا حَمْلُهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَنُصْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٦٨) : ((قال العلماء : معناه : جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمد بهم في أموري . قال الخطابي : ضَرَبَ مَثَلًا بِالْكَرْشِ ، لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون به بقاءه ، والعَيْبَةُ وعاء معروف أكبر من المِخْلَاة ، يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ فِيهَا ثِيَابَهُ وَفَاخِرَ مَتَاعِهِ ، وَيَصُونُهَا . ضَرَبَهَا مَثَلًا لِأَنَّهُمْ أَهْلُ سِرِّهِ وَخَفِيِّ أَحْوَالِهِ)) اهـ .

وعن عبد الله بن زيد عن النبي ﷺ قال : ((لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا ، لَسَلَكَتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا))⁽³⁰⁾ .

أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ تَأْلِيفَ قُلُوبِ الْأَنْصَارِ ، وَإِعْلَاءَ شَأْنِهِمْ ، وَمَدَحَهُمْ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ . وَلَوْلَا الْهَجْرَةُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَبْدِيلُهَا ، لَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَاحِدًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَقَدْ رَضِيَ ﷺ لِنَفْسِهِ هَذَا الْأَمْرَ بِلاَ حَرَجٍ . أَيِ يَتَسَمَّى بِاسْمِهِمْ ، وَيَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ ، لَكِنَّ الْهَجْرَةَ أَعْلَى وَأَشْرَفَ ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهَا . وَلَوْ اخْتَارَ النَّاسُ أَمْرًا ، وَاخْتَارَ الْأَنْصَارُ أَمْرًا آخَرَ ، لَاعْتَمَدَ النَّبِيُّ ﷺ اخْتِيَارَ الْأَنْصَارِ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٨ / ٥١) : ((قَالَ الْخَطَّابِيُّ : ... وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ دَارَ الْأَنْصَارِ ، وَالْهَجْرَةُ إِلَيْهَا أَمْرًا وَاجِبًا ، أَيِ : لَوْلَا أَنَّ النَّسَبَ الْهَجْرِيَّ لَا يَسْعُنِي تَرْكُهَا ، لَانْتَسَبْتُ إِلَى دَارِكُمْ . قَالَ : وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمَّا كَانُوا أَحْوَالَهُ ، لِكَوْنِ أُمِّ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْهُمْ ، أَرَادَ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْوِلَادَةِ لَوْلَا مَانِعُ الْهَجْرَةِ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : لَمْ يُرَدْ ﷺ تَغْيِيرُ نَسَبِهِ وَلَا مَحْوُ هِجْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ لَوْلَا مَا سَبَقَ مِنْ كَوْنِهِ هَاجِرًا ، لَانْتَسَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِلَى نُصْرَةِ الدِّينِ . فَالْتَقْدِيرُ : لَوْلَا أَنَّ النَّسَبَ إِلَى الْهَجْرَةِ نِسْبَةٌ دِينِيَّةٌ لَا يَسْعُ تَرْكُهَا لَانْتَسَبْتُ إِلَى دَارِكُمْ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : مَعْنَاهُ لَتَسَمَّيْتُ بِاسْمِكُمْ وَانْتَسَبْتُ إِلَيْكُمْ كَمَا كَانُوا يَنْتَسِبُونَ بِالْحِلْفِ ، لَكِنَّ خُصُوصِيَّةَ الْهَجْرَةِ وَتَرْتِيبَهَا سَبَقَتْ ،

(٢٩) قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٧ / ١٢٢) : ((وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى دُخُولِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُمْ أَضْعَافُ أَضْعَافِ قَبِيلَةِ الْأَنْصَارِ ، فَهَمَّا فُرِضَ فِي الْأَنْصَارِ مِنَ الْكَثْرَةِ كَالْتَنَاسُلِ ، فُرِضَ فِي كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَوْلَئِكَ ، فَهُمْ أَبَدًا بِالنَّسَبِ إِلَى غَيْرِهِمْ قَلِيلٌ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﷺ أَطْلَعَ عَلَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مُطْلَقًا ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ، فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ)) اهـ .

(٣٠) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . الْبُخَارِيُّ (٦ / ٢٦٤٦) بِرَقْمِ (٦٨١٨) ، وَمُسْلِمٌ (٢ / ٧٣٨) بِرَقْمِ (١٠٦١) .

فَمُنِعْتُ مِنْ ذَلِكَ، وهي أعلى وأشرف، فلا تتبدل بغيرها. وقيل: معناه لكنتُ من الأنصار في الأحكام والعداد. وقيل: التقدير لولا أن ثواب الهجرة أعظم لاخترتُ أن يكون ثوابي ثواب الأنصار، ولم يُرد ظاهر النسب أصلاً. وقيل: لولا التزامي بشروط الهجرة، ومنها ترك الإقامة بمكة فوق ثلاث، لاخترتُ أن أكون من الأنصار فيباح لي ذلك ((اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٨٥٤): قال عُمرُ -رضي الله عنه- عند وفاته: ((أوصي الخليفة بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي ﷺ، أن يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم)) .

وقال الله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ . إن الأنصار يُحِبُّونَ المهاجرين الذين تركوا ديارهم وانتقلوا إليهم، ويؤاسونهم بأموالهم . ولا يشغل عليهم هذا الأمر . وهذه المحبة تتجلى قولاً وفِعْلاً، وليست مجرد شعارات للاستعراض والتغني بها .

﴿وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ . لا يشعر الأنصار بالحسد والحقد والغِيظ تجاه المهاجرين الذين فضلهم الله في الرتبة والشرف والذكر . وهم لا يحسدون المهاجرين على ما خُصُّوا به من مال الفَيء . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢١٢): ((وفيما أوتوه قَوْلَان: أحدهما مال الفَيء، قاله الحسن، وقد ذكرنا آنفاً أنَّ النبي ﷺ قَسَمَ أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يُعْطَ من الأنصار غير ثلاثة نفر، والثاني: الفضل والتقدم، ذكره الماوردي)) اهـ .

وعن الزُّهري قال: أخبرني أنس بن مالك قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ))، فطلع رجلٌ من الأنصار، تَنَطَّفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ، قد تعلق نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَال، فلمَّا كان الغدُ، قال النبي ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، فطلع ذلك الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فلمَّا كان اليومُ الثالث، قال النبي ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا، فطلع ذلك الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى، فلمَّا قام النبي ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ، فقال: إني لَأَحِبُّتُ أَبِي (يعني خَاصَمَتُهُ) فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤَوِّبَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ، فلم يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَى (يعني استيقظ) وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ - عز وجل - وَكَبَّرَ، حَتَّى يَقُومُ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ، قال عبد الله: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا، فلمَّا مَضَتْ الثَّلَاثَ لَيَالٍ، وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ، قلتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إني لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ (يعني

تباعد) ثم ، ولكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لك ثلاث مَرار : ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) ، فطلعتُ أنتَ الثلاثَ مَرار ، فأردتُ أن آوِيَّ إِلَيْكَ لِأَنْظَرَ مَا عَمَلْتُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ ، فلم أَرَكَ تعملَ كثيرَ عمل ، فما الذي بَلَغَ بِكَ ما قال رسولُ الله ﷺ . فقال : ما هُوَ إِلَّا ما رَأَيْتُ . قال : فلمَّا وُلِّيتُ دَعَانِي ، فقال : ما هُوَ إِلَّا ما رَأَيْتُ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، فقال عبد الله : هذه التي بَلَغَتْ بِكَ ، وهي التي لَا تُطِيقُ (31) .

﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . يُعْطُونَ المهاجرين أموالهم إِيْثَارًا لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ . وهذا دَلِيلٌ أَنْ إِيْثَارَهُمْ لَمْ يَكُنْ عَنْ غِنًى ، وهذا قِمْةُ الْإِيْثَارِ . كما يُشِيرُ إِلَى قِيَمَةِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالْاعْتِمَادِ عَلَى كَرَمِهِ ، وَأَنْ الرِّزْقَ مُحْفُوظٌ . وَأَيْضًا ، يدل على أَهْمِيَةِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَعَدَمِ التَّكَالُفِ عَلَى حُطَامِهَا الزَّائِلِ ، وَالتَّفَاخُرِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٢٠) : ((وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى إِنْ كَانَ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ ، نَزَلَ عَنْ وَاحِدَةٍ ، وَزَوَّجَهَا مِنْ أَحَدِهِمْ)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٣٩) : ((وَالْخَصَاصَةُ مَصْدَرٌ ، وَهِيَ أَيْضًا اسْمٌ ، وَهُوَ كُلُّ مَا تَخَلَّلَتْهُ بِبَصْرِكَ كَالْكُوَّةِ وَالْفُرْجَةِ فِي الْحَائِطِ ، تُجْمَعُ خَصَاصَاتٌ وَخَصَاصٌ)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ (يعني المشقة من الجوع) ، فَأَرْسَلْ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ)) . فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ : ضَيِّفِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا ، قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوْتُ الصَّبِيَّةِ . قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ الْعِشَاءَ ، فَتَوَمِّمِيهِمْ ، وَتَعَالِي فَأُطْفِئِي السَّرَاجَ ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ . ففعلتُ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : ((لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - ، أَوْ

(٣١) رواه أحمد في مسنده (٣ / ١٦٦) برقم (١٢٧٢٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ١٥٠) : ((وَرَجَالَ أَحْمَدَ رَجَالَ الصَّحِيحِ)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٣٢) : ((وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَنْ سُؤَيْدِ بْنِ نَصْرٍ ، عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ ، عَنْ مَعْمَرٍ بِهِ ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ ، لَكِنْ رَوَاهُ عَقِيلٌ وَغَيْرُهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَنَسٍ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

صَحَّكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ)). فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (32).

لَقَدْ ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُطْعِمَهُ وَيُنْقِذَهُ مِنَ الْجُوعِ ، لِعَلَّمَهُ بِكَرَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ هُوَ قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ وَالرَّاعِي الْأَمِينُ لِمَصَالِحِ الرَّعِيَّةِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ إِطْعَامَهُ ، لَكِنَّ بُيُوتَهُ خَالِيَةٌ مِنَ الطَّعَامِ. وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى قَسْوَةِ الْعَيْشِ الَّتِي يُعَانِيهَا النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وَأَزْوَاجُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فَلَمْ يَبْنِ مَجْدَهُ عَلَى سَرَقَةِ النَّاسِ ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مَمْلُوكَاتِهِمْ ، وَبِنَاءِ الْقُصُورِ عَلَى جَمَاعَتِهِمْ . وَلَمْ يَشْبَعْ عَلَى حِسَابِ جُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَغْلِ مَكَانَتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الرَّفِيعَةَ لِنَكْدِيسِ الْأَمْوَالِ ، وَزِيَادَةِ النُّفُوزِ ، وَاسْتِعْبَادِ النَّاسِ ، وَالصُّعُودِ عَلَى ظُهُورِهِمْ . لَقَدْ عَانَى أَكْثَرُ مِنْهُمْ ، وَهُوَ النَّبِيُّ الْقَائِدُ الْمُؤَيَّدُ بِالْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ ، وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُمَطِّرَ عَلَيْهِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَمَا لَدَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، لِأَنَّهُ قُدُوءٌ لِلنَّاسِ ، وَمَثَلٌ أَعْلَى ، يَطْلُبُ الْآخِرَةَ الْبَاقِيَةَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ . وَلَمْ يَتْرُكْ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الرَّجُلَ يُوَاجِهَ مَصِيرَهُ وَحِيدًا ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ فَرِيسَةً لِلْجُوعِ الْقَاتِلِ ، وَإِنَّمَا وَجَّهَ أَصْحَابَهُ لِضِيَاةِ الرَّجُلِ وَإِطْعَامِهِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَاسْتَجَابَ فَوْرًا لَطَلَبِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَبَادَرَ وَسَارَعَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ رَغْمَ ضَيْقِ ذَاتِ الْيَدِ . ثُمَّ كَانَتْ قِصَّتُهُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى احْتِرَامِ ضَيْفِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَقْدِيرِهِ ، لِأَنَّ احْتِرَامَ ضَيْفِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ احْتِرَامٌ لِلنَّبِيِّ شَخْصِيًّا . كَمَا ظَهَرَتْ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِثَارِ ، الَّذِي كَانَ سَبَبًا لِرِضَا اللَّهِ تَعَالَى الْمُطَّلَعِ عَلَى خَفَايَا السُّيُوتِ ، وَأَسْرَارِ الْقُلُوبِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الصَّيِّبَةَ لَمْ يَكُونُوا جَائِعِينَ بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ عَلَى عَادَةِ الصَّيِّبَةِ فِي طَلَبِ الطَّعَامِ . وَلَوْ كَانُوا جَائِعِينَ ، لَوَجَبَ إِطْعَامُهُمْ وَجُوبًا شَرْعِيًّا . وَلَكِنْ تَرَكُّهُمْ جِيَاعًا أَمْرًا مُحَرَّمًا شَرْعًا . وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَضِيَ عَنِ الْأَنْصَارِيِّ وَزَوْجَتِهِ ، وَرَضِيَ عَنْ فِعْلِهِمَا ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي دَائِرَةِ الطَّاعَةِ لَا الْمَعْصِيَةِ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٤ / ١٢) : ((هَذَا الْحَدِيثُ مُشْتَمِلٌ عَلَى فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ : مِنْهَا مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مِنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْجُوعِ ، وَضَيْقِ حَالِ الدُّنْيَا . وَمِنْهَا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكَبِيرِ الْقَوْمِ أَنْ يَبْدَأَ فِي مُوَاسَاةِ الضَّيْفِ وَمَنْ يَطْرُقُهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَيُؤَاسِيهِ مِنْ مَالِهِ أَوَّلًا بِمَا يَتيسَّرُ إِنْ أُمِكَنَهُ ، ثُمَّ يَطْلُبُ لَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَمِنْهَا الْمُوَاسَاةُ فِي حَالِ الشَّدَائِدِ ، وَمِنْهَا فَضِيلَةُ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَإِثَارِهِ . وَمِنْهَا مَنَقِبَةُ لِهَذَا الْأَنْصَارِيِّ

(٣٢) متفق عليه واللفظ للبخاري (٤ / ١٨٥٤) برقم (٤٦٠٧). ومسلم (٣ / ١٦٢٤) برقم (٢٠٥٤) .

وامراته _ رضي الله عنهما _ ومنها الاحتيال في إكرام الضيف ... فإنه لو رأى قلة الطعام وأنهما لا يأكلان معه لا تمتنع من الأكل... ففيه فضيلة الإيثار والحث عليه. وقد أجمع العلماء على فضيلة الإيثار بالطعام ونحوه من أمور الدنيا وحُطوطِ النفوس ، أمّا القُرْبَات فالأفضل أن لا يؤثر بها ، لأن الحق فيها لله تعالى)) اهـ . ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (33). مَنْ حماه الله من البخل فقد أفلح في الدنيا، وفازَ بالجنة يوم القيامة. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٨٣): ((مَنْ حَفِظَ مِنَ الْحِرْصِ الْمُهِلِكَ عَلَى الْمَالِ، وَهُوَ حِرْصٌ يَحْمِلُهُ عَلَى إِسْكَاتِ الْمَالِ عَنْ الْحَقِّوْقِ وَالْحَسَدِ)) .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٦): عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((وَأَتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ)) .

والشخصُ الشحيحُ حريصٌ على المال بشكل جنوني ، وهذا يدفعه إلى التفكير بكل الوسائل للحصول عليه وتخزينه ، دون التمييز بين الطريق الشرعي وغير الشرعي . وقد يحمله هذا الهوس المادي على ارتكاب جرائم القتل واستحلال المحارم ، من أجل تنفيذ أحلامه المدمرة ، وتحقيق طموحاته القتالة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٤) : ((قال القاضي : يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْهَلَاكَ هُوَ الْهَلَاكَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكَ الْآخِرَةِ وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) اهـ .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ١٣٤) : ((قال بعض العارفين : الشُّحُّ مُسَابِقَةٌ قَدَرَ اللَّهُ ، وَمَنْ سَابَقَ قَدَرَ اللَّهُ سُبِقَ ، وَمُعَالَبَةٌ لِلَّهِ ، وَمَنْ غَالَبَ الْحَقَّ غُلِبَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرِيصَ يَرِيدُ أَنْ يِنَالَ مَا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ ، فَعُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا الْحَرَمَانُ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْخُسْرَانُ)) اهـ .

(٣٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢١٥): ((وقد اختلف العلماء في الشُّحِّ والبخل، هل بينهما فرق أم لا. فقال ابن جرير: الشُّحُّ في كلام العرب، هو مَنع الفضل من المال. وقال أبو سليمان الخطابي : الشُّحُّ أبلغ في المنع من البخل، وإنما الشُّحُّ بمنزلة الجنس، والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يُقال في البخل إنما هو في أفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشُّحُّ عام فهو كالوصف اللازم للإنسان ، من قِل الطبع والجيلة، وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: البخل أن يَضِنَّ بماله ، والشُّحُّ أن يَبْخُلَ بماله ومعروفه)) .

وعن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وإني امرؤ ما قَدِرْتُ ، ولا يخرج من يدي شيء ، وقد خَشِيتُ أن يكون قد أصابني هذه الآية ، فقال عبد الله : ((ذَكَرْتَ الْبُخْلَ ، وَبُسَ الشَّيْءِ الْبُخْلُ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَيْسَ كَمَا قُلْتَ ، ذَلِكَ أَنْ تَعْمَدَ إِلَى مَالٍ غَيْرِكَ أَوْ مَالِ أَخِيكَ ، فَتَأْكُلَهُ)) (34).

لقد اعتبر ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أنَّ الْبُخْلَ ليس هو المقصود بالآية ، وإنما المقصود أكل أموال الناس بالباطل (أخذ أموالهم بالطُّرُقِ غير المشروعة) . وهذا تفريق بين الشُّحِّ والبُخْلِ . وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الْحَشْرُ : ١٠] .

هؤلاء هم القسم الثالث الذين يستحق فُقَرَاؤُهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيِّءِ ، وهم التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسانٍ إلى يوم القيامة (وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة) . وتبَّاعُهُمْ بإحسانٍ يعني اتِّباع آثارهم الحسنة وأخلاقهم الحميدة وصفاتهم الجميلة ، والسَّير على خُطاهم في الدَّعوة إلى الله في السِّرِّ والعلانية . والقسم الأول هم المهاجرون : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾ ، والقسم الثاني هم الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . والقسم الثالث هم التابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ . وهذه هي المنازل الثلاث ، ويتبغى على المؤمن ألا يخرج منها . وهؤلاء التابعون يدعون لأنفسهم ، ولمن سَبَقَهُمْ بالإيمان بالمغفرة . وفي هذا دليلٌ على أنَّ الشخص يبدأ بالدعاء لنفسه أولاً ، وبعدها يدعو للآخرين .

إنهم يدعون لهم قائلين : يا رَبَّنَا ، اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وهم السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار ، ولا تجعل في قلوبنا غِلًّا وَحَسَدًا لأحدٍ من المؤمنين ، إِنَّكَ عَظِيمُ الرَّأْفَةِ وَوَاسِعُ الرَّحْمَةِ ، لِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِكَ ، فَاسْتَجِبْ لَنَا ، فَإِنَّكَ جَدِيرٌ بِأَنْ تُجِيبَ دُعَاءَنَا . والآية استوعبت جميع المؤمنين (المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين) .

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣٢) برقم (٣٨١٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي تفسير النسفي (٤ / ٢٣٢) : ((قال عُمر _ رضي الله عنه _ : دَخَلَ فِي هَذَا الْفَيْءِ كُلُّ مَنْ هُوَ مَوْلُودٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْإِسْلَامِ)) اهـ .

وَالْأُخُوَّةُ الْمَقْصُودَةُ فِي الْآيَةِ هِيَ أُخُوَّةُ الدِّينِ لَا أُخُوَّةُ النَّسَبِ . وَقَدْ وَصَفُوهُمْ بِالسَّبْقِ بِالْإِيمَانِ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِمْ وَشَرَفِهِمْ ، وَإِشَادَةً بِمَكَانَتِهِمُ الرَّفِيعَةِ ، وَتَعْظِيمًا لِدَوْرِهِمُ الْحَاسِمِ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ .
وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٢٣٠) : ((وَالْجُمْلَةُ مَسْئُوقَةٌ لِمَدْحِهِمْ بِمَحَبَّتِهِمْ لِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُرَاعَاتِهِمْ لِحَقُوقِ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ وَالسَّبْقِ بِالْإِيمَانِ ...)) ﴿ وَإِلَّا خَوَانَا ﴾ أَي: فِي الدِّينِ الَّذِي هُوَ أَعَزُّ وَأَشْرَفُ عِنْدَهُمْ مِنَ النَّسَبِ)) اهـ .

وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَأَنْ يَطْلُبُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَنْزِعَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الْحَقْدَ وَالْحَسَدَ لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَالصَّحَابَةُ دَاخِلُونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، لِأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْظَمُهُمْ وَأَشْرَفُهُمْ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ لِلصَّحَابَةِ ، وَيَطْلُبَ رِضْوَانَ اللَّهِ لَهُمْ ، فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلأَمْرِ الْإِلَهِيِّ فِي الْآيَةِ .

وَمَنْ تَرَحَّمْ عَلَى صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرْضَى عَنْهُمْ ، وَلَمْ يَحْمِلْ فِي قَلْبِهِ حَقْدًا عَلَيْهِمْ ، وَلَا حَسَدًا لَهُمْ ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ . وَمَنْ يَشْتُمُ وَاحِدًا مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَتَرَحَّمْ عَلَيْهِ ، لَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ ، وَكَانَ خَارِجًا مِنْ جُمْلَةِ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ (الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ) . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٧٩) : ((فَكُلُّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَمْ يَتَرَحَّمْ عَلَى جَمِيعِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ عَنَاهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَتَّبَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ : الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ الْمُوصُوفِينَ بِمَا ذَكَرَ اللَّهُ . فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ التَّابِعِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، كَانَ خَارِجًا مِنْ أَقْسَامِ الْمُؤْمِنِينَ)) اهـ .

وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (١٨ / ٣٠) : ((وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُنْ شَمْسًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَكُنْ قَمَرًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَكُنْ كَوْكَبًا مُضِيئًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَكُنْ كَوْكَبًا صَغِيرًا ، وَمِنْ جِهَةِ الثُّورِ لَا تَنْقُطِعْ . وَمَعْنَى هَذَا : كُنْ مُهَاجِرِيًّا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَإِنْ قُلْتَ : لَا أَجِدُ ، فَكُنْ أَنْصَارِيًّا ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ، فَاعْمَلْ كَأَعْمَالِهِمْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ ، فَأَجِبْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ)) اهـ .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِمَنْ يَعْدَهُمْ نَصِيبًا مِنْ مَالِ الْفَيْءِ ، بِشَرَطِ أَنْ يُحِبُّوهُمْ وَيُؤَالُوهُمْ وَيَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ، وَأَنْ مَنْ سَبَّهِمْ أَوْ كَرِهَهُمْ ، أَوْ اعْتَقَدَ فِيهِمْ شَرًّا ، فَلَا نَصِيبَ لَهُ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٤٣٢) : ((وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَنْبَطَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الرَّافِضِيَّ الَّذِي يَسُبُّ الصَّحَابَةَ ،

ليس له في مال القِيء نصيب ، لعدم اتّصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .
وفي تفسير القرطبي (١٨ / ٣٠) : ((قال الشعبي : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة . سئلت اليهود : مَنْ خَيْرَ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ ، فقالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى : مَنْ خَيْرَ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ ، فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة : مَنْ شَرُّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ ؟ ، فقالوا : أصحاب محمد . أُمِرُوا بالاستغفار لهم ، فَسَبُّوهُمْ . فالسيف عليهم مَسْلُوكٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا تَقُومُ لَهُمْ رَايَةٌ ، وَلَا تَثْبُتُ لَهُمْ قَدَمٌ ، وَلَا تَجْتَمِعُ لَهُمْ كَلِمَةٌ ، كُلُّهَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ بِسَيْفِ دِمَائِهِمْ ، وَإِدْحَاضِ حُجَّتِهِمْ . أعاذنا الله وإياكم من الأهوال الْمُضِلَّةِ)) اهـ .
وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٣١٧) أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : ((أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَسَبُّوهُمْ)) .

وهذه مُخَالَفَةٌ واضحة للأمر الإلهي ، وانحراف يَقُودُ صاحِبَهُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٨ / ١٥٨) : ((قال القاضي : الظاهر أنها قالت هذا عندما سَمِعَتْ أَهْلَ مِصْرَ يَقُولُونَ فِي عُثْمَانَ مَا قَالُوا ، وَأَهْلَ الشَّامِ فِي عَلِيٍّ مَا قَالُوا ، وَالْحَرْوَرِيَّةُ فِي الْجَمِيعِ مَا قَالُوا ^(٣٥) ، وَأَمَّا الْأَمْرُ بِالِاسْتِغْفَارِ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ . وبهذا احتجَّ مالك في أَنَّهُ لَا حَقَّ فِي الْقِيءِ لِمَنْ سَبَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا جَعَلَهُ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

(٣٥) الحرورية فِرْقَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ (خَرَجُوا عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ) ، تُسَبِّتُ إِلَى حَرْوَرَاءَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ قُرْبَ الْكُوفَةِ ، كَانَ أَوَّلُ اجْتِمَاعِهِمْ بِهَا ، وَتَعَمَّقُوا فِي الدِّينِ حَتَّى خَرَجُوا مِنْهُ . وَكَانُوا يُوجِبُونَ قِضَاءَ الصَّلَاةِ عَلَى الْحَائِضِ مُخَالَفِينَ بِذَلِكَ إِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١٢ / ٢٨٦) : [فِي مَسْنَدِ عَلِيٍّ مِنْ تَهْذِيبِ الْآثَارِ مِنْ طَرِيقِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ أَنَّهُ سَأَلَ نَافِعًا : كَيْفَ كَانَ رَأْيُ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَرْوَرِيَّةِ ؟ ، قَالَ : ((كَانَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللَّهِ ، انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتِ الْكُفَرِ ، فَجَعَلُوهَا فِي الْمُؤْمِنِينَ)) ، قُلْتُ - أَيُّ ابْنِ حَجَرٍ - : وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ] اهـ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١٢ / ٢٨٦) : [وَعِنْدَ الْبَزَارِ مِنْ طَرِيقِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْخَوَارِجَ ، فَقَالَ : ((هُمْ شِرَارُ أُمَّتِي ، يَقْتُلُهُمْ خِيَارُ أُمَّتِي)) ، وَسَنَدُهُ حَسَنٌ] اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاثْبُتْنَهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَاتُّوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ كُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [١٠] .

يُخاطب الله المؤمنين (صحابة النبي ﷺ) ، والمراد هو النبي ﷺ لأنه الذي تَوَلَّى بنفسه اختبار المؤمنات ، وإذا غاب النبي ﷺ قام الصحابة مقام النبي ﷺ ، واختبروا المؤمنات . أما طبيعة الامتحان والاختبار ففيه ثلاثة أقوال : الأول _ الإقرار بالشهادتين (الإقرار بالإسلام) . الثاني _ الاستحلاف لهنَّ : ما خَرَجْنَ مِنْ بَغْضِ زَوْجٍ ، ولا رَغْبَةٍ عَنْ أَرْضٍ ، ولا طَلَبِ دُنْيَا ، وما خَرَجْنَ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . الثالث _ الشُّرُوطُ السَّتَّةُ المذكورة في الآية : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ ﴾ .

إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ من دار الكفر إلى دار الإيمان، فاختبروهنَّ لِتَعْلَمُوا صِدْقَ إيمانهنَّ، وذلك بكشف حالهنَّ ، ومعرفة أنَّ قلوبهنَّ موافقة لألسنتهنَّ . فيجب على المؤمنة المهاجرة أن تكون نِيَّتُهَا خَالِصَةً لوجه الله في الهجرة ، وأن تكون قد هاجرت حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وليس من أجل مالٍ أو زواجٍ أو منفعة دُنْيَوِيَّة . والآية تدل على أن الكلام باللسان لا يكفي للحُكْم بالإيمان .

والله تعالى أمر المؤمنين بترك موالاة الكافرين ، لذلك كان لا بُدَّ من الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وكان الزواج من أقوى أسباب الموالاة، فبيَّن الله أحكام المؤمنات المهاجرات بالتحديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٣٨ - ٢٤١) : ((قال ابن عباس : إنَّ مُشْرِكِي مكة صَلَّحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عام الْخُدَيْيَةِ على أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنْ أَهْلِ مكة رَدَّه إِلَيْهِمْ ، وَمَنْ أَتَى أَهْلَ مكة مِنْ أَصْحَابِهِ فَهُوَ لَهُمْ ، وَكُتِبُوا بِذَلِكَ الْكِتَابُ وَخْتَمُوهُ ، فَجَاءَتْ سُبَيْعَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةُ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَالنَّبِيُّ بِالْخُدَيْيَةِ ، فَأَقْبَلَ زَوْجُهَا وَكَانَ كَافِرًا ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْجُدْ عَلَيَّ امْرَأَتِي ، فَإِنَّكَ قَدْ شَرَطْتَ لَنَا أَنْ تَرُدَّ عَلَيْنَا مَنْ أَتَاكَ مِنَّا ، وَهَذِهِ طِينَةُ الْكِتَابِ لَمْ تَجِفْ بَعْدَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ كَاتِبُ الْوَقَائِدِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أُمِّ كَلْثُومَ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

ﷺ ، فَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ فِي هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، فَخَرَجَ فِي أَثَرِهَا أَخَوَاهَا الْوَلِيدُ وَعُمَارَةُ ابْنَا عُقْبَةَ ، فَقَالَا : يَا مُحَمَّدُ أَوْفِ لَنَا بِشَرَطِنَا ، وَقَالَتْ أُمُّ كَلْثُومٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا امْرَأَةٌ ، وَحَالُ النِّسَاءِ إِلَى الضَّعْفِ مَا قَدْ عَلِمْتُ ، فَتَرُدُّنِي إِلَى الْكُفَّارِ يَفْتَنُونِي عَنْ دِينِي ، وَلَا صَبْرَ لِي ، فَتَنْقُضَ (أَبْطَلِ) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَهْدَ فِي

النِّسَاءِ ، وَأَنْزَلَ فِيهِنَّ الْمِخْنَةَ ، وَحَكَمَ فِيهِنَّ بِحُكْمِ رَضْوِهِ كُلُّهُمْ ، وَنَزَلَ فِي أُمِّ كَلْثُومٍ : ﴿ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ فَاْمْتَحِنَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَامْتَحَنَ النِّسَاءَ بَعْدَهَا ، يَقُولُ : " وَاللَّهِ مَا أَخْرَجَكُنَّ إِلَّا حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَا خَرَجْتُنَّ لِزَوْجٍ وَلَا مَالٍ " . فَإِذَا قُلْنَ ذَلِكَ تُرْكَنَ فَلَمْ يُرَدِّدَنَّ إِلَى أَهْلِيهِنَّ . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا سُبَيْعَةُ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أُمُّ كَلْثُومَ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ .

وَالثَّلَاثُ أُمَيْمَةُ بِنْتُ بَشْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، ذَكَرَهُ أَبُو نَعِيمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ . قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ : هَلْ دَخَلَ رَدُّ النِّسَاءِ فِي عَقْدِ الْهُدْنَةِ لَفْظًا أَوْ عُمُومًا . فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : قَدْ كَانَ شَرْطُ رَدِّهِنَّ فِي لَفْظِ الْهُدْنَةِ لَفْظًا صَرِيحًا ، فَنَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى رَدَّهُنَّ مِنَ الْعَقْدِ ، وَمَنَعَ مِنْهُ ، وَأَبْقَاهَا فِي الرِّجَالِ عَلَى مَا كَانَ . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لَمْ يَشَرْطُ رَدَّهُنَّ فِي الْعَقْدِ صَرِيحًا ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَ الْعَقْدَ وَكَانَ ظَاهِرَ الْعُمُومِ اشْتِمَالَهُ مَعَ الرِّجَالِ ، فَبَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ — خُرُوجَهُنَّ عَنْ عُمُومِهِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ الرِّجَالِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُنَّ ذَوَاتُ فُرُوجٍ تَخْرُجْنَ عَلَيْهِمْ ، وَالثَّانِي أَنَّهُنَّ أَرْقَ قُلُوبًا وَأَسْرَعَ تَقَلُّبًا مِنْهُمْ . فَأَمَّا الْمُقِيمَةُ عَلَى شِرْكِهَا فَمَرْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ قَالَ الْمَفْسِّرُونَ : وَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى امْتِحَانَهُنَّ ، وَيُرَادُّ بِهِ سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ غَيْبَتِهِ ﷺ . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : وَإِنَّمَا أُمِرْنَا بِامْتِحَانِهِنَّ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ إِذَا غَضِبَتْ عَلَى زَوْجِهَا بِمَكَّةَ قَالَتْ لِأَلْحَقَنَّ بِمُحَمَّدٍ . وَفِيمَا كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِرِ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ كَانَ يَسْتَحْلِفُ الْمَرْأَةَ بِاللَّهِ مَا خَرَجَتْ مِنْ بَعْضِ زَوْجٍ ، وَلَا رَغْبَةَ عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ ، وَلَا التَّمَاسَّ دُنْيَا ، وَمَا خَرَجَتْ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ . رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ ، فَمَنْ أَقَرَّتْ بِهَذَا الشَّرْطِ ، قَالَ : قَدْ بَايَعْتُكَ . هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ ((اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٩٦٧) : عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمِسُور بن مخرمة رضي الله عنهما _ يُخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ . قال : لَمَّا كَاتَبَ سُهِيل بن عمرو يومئذٍ كان فيما اشترط سُهِيل بن عمرو على النبي ﷺ أنه لا يَأْتِيكَ مِنَّا أَحَدٌ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ ، إِلَّا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا ، وَخَلَيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ . فَكَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ ، وَامْتَعَضُوا مِنْهُ ، وَأَبَى سُهِيل إِلَّا ذَلِكَ ، فَكَاتَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ، فَرَدَّ يَوْمئِذٍ أَبَا جَنْدَلٍ إِلَى أَبِيهِ سُهِيل بن عمرو ، وَلَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَّا رَدَّهُ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا ، وَجَاءَ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ ، وَكَانَتْ أُمُّ كَلثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بن أَبِي مُعَيْطٍ مِمَّنْ خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يَوْمئِذٍ ، وَهِيَ عَاتِقٌ - يَعْنِي الْأَنْثَى الشَّابَّةَ الَّتِي بَلَغَتْ - فَجَاءَ أَهْلُهَا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُرْجِعَهَا إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يُرْجِعْهَا إِلَيْهِمْ ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِنَّ : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٠٢٥) عن عائشة _ رضي الله عنها _ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَتْ : كَانَتْ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَمْتَحِنُهُنَّ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . قَالَتْ عَائِشَةُ : فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِخْنَةِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَرَّ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ ، قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((انْطَلِقْنَ فَقَدْ بَايَعْتُنَّ)) . لَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ ، غَيْرَ أَنَّهُ بَايَعُهُنَّ بِالْكَلَامِ . وَاللَّهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ : ((قَدْ بَايَعْتُنَّ)) كَلَامًا .

ومعنى " أَقَرَّ بِالْمِخْنَةِ " : حَصَلَ لَهَا الْإِمْتِحَانُ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ . وَبِشَكْلِ عَامٍ ، فَإِنَّ امْتِحَانَهُنَّ يَكْشِفُ عَمَّا فِي قُلُوبِهِنَّ . وَمَعَ هَذَا ، فَالْحُكْمُ عَلَى الظَّاهِرِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ .

وروى الترمذي في سننه (٥ / ٤١٢) وقال حديث غريب : عن ابن عباس في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ . قَالَ : ((كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا جَاءَتْ النَّبِيَّ ﷺ ، حَلَفَهَا بِاللَّهِ ، مَا خَرَجْتُ مِنْ بَغْضِ زَوْجِي ، مَا خَرَجْتُ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)) .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ . اللَّهُ أَعْلَمُ بِصِدْقِهِنَّ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُطَّلَعٌ عَلَى قُلُوبِهِنَّ . وَهَذَا الْإِمْتِحَانُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِنَّ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى نَتِيجَةِ امْتِحَانٍ أَوْ تَفَاصِيلِ اخْتِبَارٍ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى الشَّكِّ بَعْضُهُنَّ وَالْإِسْتِرَابَةِ بِشَأْنِهِنَّ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٠١) : ((ﷻ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ)) هذه الجملة مُعْتَرِضَةٌ لبيان أنَّ حقيقة حالهنَّ لا يَعْلَمُها إلا اللهُ سُبْحَانَهُ ، وَلَمْ يَتَعَبَّدْكُمْ بِذَلِكَ ، وإنما تَعَبَّدْكُمْ بِامْتِحَانِهِنَّ حتى يَظْهَر لَكُمْ ما يدل على صِدْق دَعَوَاهُنَّ في الرُّغُوب في الإسلام)) اهـ .

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ . الخطابُ للمؤمنين . فَإِنْ تَحَقَّقْتُمْ مِنْ إِيْمَانِهِنَّ بعد امتحانِهِنَّ ، وَظَهَرَ لَكُمْ صِدْقُهُنَّ ، فَلَا تَرْدُوهُنَّ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّارِ ، لأنَّ اللهَ لَمْ يُحِلَّ مُؤْمِنَةً لِمُشْرِكٍ . وفي الآية دليل أنَّ الإِيْمَانَ يُمكن الإِطْلَاع عَلَيْهِ بِشكل مُؤَكَّد وبقيني ، وذلك بالتدقيق والاختبار . والعِلْمُ يَظْهَر بِغَلْبَةِ الظنِّ أو الإِقرار أو الأُمَارات ، وَسَمَّاهُ اللهُ عِلْمًا في قَوْلِهِ : ﴿ عَلِمْتُمُوهُنَّ ﴾ لأنَّ غَلْبَةَ الظنِّ مِثْلُ الْعِلْمِ في وُجُوب الْعَمَلِ بِهِ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٦٤) : ((فَإِنْ أَقْرَزَ عِنْدَ الْمِحْنَةِ بِمَا يَصِحُّ بِهِ عَقْدُ الْإِيْمَانِ لَهُنَّ والدخول في الإسلام ، فَلَا تَرْدُوهُنَّ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الْكُفَّارِ ، وإنما قِيلَ ذَلِكَ للمؤمنين ، لأنَّ الْعَهْدَ كَانَ جَرَى بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَبَيْنَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِي صَلَاحِ الْحُدُوبِ أَنَّ يَرُدَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَشْرِكِينَ مَنْ جَاءَهُمْ مُسْلِمًا ، فَأَبْطَلَ ذَلِكَ الشَّرْطَ فِي النِّسَاءِ إِذَا جِئْنَ مُؤْمِنَاتٍ مُهَاجِرَاتٍ ، فَامْتَحَنَ فَوَجَدَهُنَّ الْمُسْلِمُونَ مُؤْمِنَاتٍ ، وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ ، وَأَمَرُوا أَنْ لَا يَرُدُّوهنَّ إِلَى الْمَشْرِكِينَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٨ / ١٣٤) : ((وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ قَالَ : خَرَجَتْ امْرَأَةٌ مُهَاجِرَةً إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَقِيلَ لَهَا : مَا أَخْرَجَكَ بُغْضُكَ لِرُؤُوسِكَ أَمْ أَرَدْتَ اللهُ وَرَسُولَهُ ؟ ، قَالَتْ : بَلَى اللهُ وَرَسُولَهُ . فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ ، فَإِنْ تَزَوَّجَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلْيَرُدَّ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا)) .

﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ . لَمْ يُحِلَّ اللهُ مُؤْمِنَةً لِمُشْرِكٍ ، وَلَا نِكَاحَ مُؤْمِنٍ لِمُشْرِكَةٍ . وَالْحِلُّ هُوَ الْحَالِلُ . أَوْ : لَا الْمُؤْمِنَاتُ حِلٌّ لِلْكَفَّارِ ، وَلَا الْكُفَّارُ يَحِلُّونَ لِلْمُؤْمِنَاتِ .

والتكريرُ في الآية لتأكيد الحُرْمَةِ ، والقَطْعُ التام لعلاقات المصاهرة والنكاح بين المؤمنين والمشركين . وَلَا شَكَّ أَنَّ الزَّوَاجَ مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ الْمُؤَالَةِ . وبما أَنَّهُ لَا مُؤَالَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، تَمَّ إِغْلَاقُ بَابِ الزَّوَاجِ ، وَإِنْهَاءُ عِلَاقَاتِ الْمُصَاهَرَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْأَبَدِ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي أَوْجَبَ فِرَاقَ الْمُسْلِمَةِ مِنْ زَوْجِهَا إِنَّمَا هُوَ إِسْلَامُهَا لَا هِجْرَتُهَا . وَلَا عِبْرَةٌ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ (دار الإِيْمَانِ وَدار الْكُفْرِ) ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِاخْتِلَافِ الدِّينِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٤٤٩) : ((هَذِهِ الْآيَةُ ، هِيَ الَّتِي حَرَّمَتِ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى الْمَشْرِكِينَ ، وَقَدْ كَانَ جَائِزًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ

يَتَزَوَّجُ الْمُشْرِكُ الْمُؤْمِنَةَ، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زَوْجَ ابنة النَّبِيِّ ﷺ زَيْنَبُ—رضي الله عنها — قد كانت مسلمة، وهو على دين قومه ، فلَمَّا وقع في الأسارى يوم بَدْرَ ، بعثت امرأته زَيْنَبُ في فدائه بِقِلَادَةٍ لها كانت لَأُمِّهَا خديجة، فلَمَّا رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّةً شديدة، وقال للمسلمين: " إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فافعلوا "، ففعلوا. فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إِلَيْهِ ، فَوَفَّى له بذلك وَصَدَقَهُ فيما وَعَدَهُ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ—رضي الله عنه — ، فأقامت بالمدينة مِنْ بَعْدِ وَقْعَةِ بَدْرَ ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فَرَدَّهَا عَلَيْهِ بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ ، وَلَمْ يُحْدِثْ لَهَا صَدَاقًا)) اهـ .

وروى أحمد في مسنده (٢٦١/١) عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ رَدَّ ابنته زَيْنَبَ عَلَى أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ إِسْلَامُهَا قَبْلَ إِسْلَامِهِ بِسِتِّ سِنِينَ عَلَى النِّكَاحِ الْأَوَّلِ، وَلَمْ يُحْدِثْ شَهَادَةً وَلَا صَدَاقًا.

﴿ وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا ﴾ . أَعْطُوا أَزْوَاجَهُنَّ الْكَفَّارَ مَا أَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَهْرِ . وَهَذَا يَتَجَلَّى الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ ، وَتَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ . فَاللَّهُ تَعَالَى قَطَعَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْمُشْرِكِ وَزَوْجَتِهِ الْمُؤْمِنَةِ ، وَأَمَرَ بِرَدِّ الْمَالِ إِلَيْهِ، حَتَّى لَا يَخْسَرَ مَرَّتَيْنِ: خَسَارَةَ الزَّوْجَةِ، وَخَسَارَةَ الْمَالِ. فَالْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ ابْتِزَازًا لِلْمُشْرِكِ ، وَلَا اسْتِغْلَالًا لَهُ ، وَلَا تَحَايِلًا عَلَيْهِ . وَهَكَذَا تَتَجَلَّى عَظَمَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَإِنْصَافُهَا، حَتَّى فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْكَافِرِينَ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢ / ٦٤) : ((يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : وَأَعْطُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَاءَكُمْ نِسَاؤُهُمْ مُؤْمِنَاتٍ، إِذَا عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ، فَلَمْ تُرْجِعُوهُنَّ إِلَيْهِمْ ، مَا أَنْفَقُوا فِي نِكَاحِهِمْ إِيَّاهُنَّ مِنَ الصَّدَاقِ)) اهـ .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ . وَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَلَا إِثْمٌ، أَنْ تَتَزَوَّجُوا الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ إِلَيْكُمْ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ، إِذَا دَفَعْتُمْ لَهُنَّ مُهُورَهُنَّ . وَالزَّوْاجُ إِنَّمَا يَتِمُّ بِشُرُوطِهِ مِثْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ وَالْوَلِيِّ ... إلخ . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الزَّوْاجَ بَيْنَهُمَا جَائِزٌ ، حَتَّى لَوْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْكُفْرِ ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ الْكَافِرَاتِ . وَالْآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ الْمَالَ الَّذِي أَعْطَاهُ الْمُؤْمِنُونَ لِأَزْوَاجِهِنَّ الْكَافِرَاتِ، لَا يَقُومُ مَقَامَ الْمَهْرِ، بَلْ هُوَ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ تَمَامًا.

وقال الخازن في تفسيره (٧٩ / ٤) : ((أَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ نِكَاحَ الْمُهَاجِرَاتِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ كُفَرَاءَ ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ الْكَافِرَاتِ ، وَتَقَعُ الْفُرْقَةُ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٢٤٢) : ((عِنْدَنَا (يَعْنِي الْحَنَابِلَةُ) إِذَا هَاجَرَتِ الْخُرَّةُ بَعْدَ دُخُولِ زَوْجِهَا بِهَا ، وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ عَلَى انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا ، فَإِنْ

أَسْلَمَ الزَّوْجُ قَبْلَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهَا ، فَهِيَ امْرَأَتُهُ . وَهَذَا قَوْلُ الْأَوْزَاعِيِّ وَاللِّيثِ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ تَقَعُ الْفُرْقَةُ بِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ _ يَعْنِي دَارَ الْإِيمَانِ وَدَارَ الْكُفْرِ _)) اهـ .

﴿ وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ . وَلَا تَتَمَسَّكُوا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ بِعُقُودِ زَوْجَاتِكُمُ الْكَافِرَاتِ ، فَلَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُنَّ عَصَمَةٌ وَلَا عِلَاقَةٌ زَوْجِيَّةٌ . وَهَذَا نَهْيٌ إِلَهِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنِ نِكَاحِ النِّسَاءِ الْمُشْرَكَاتِ الْوَثْنِيَّاتِ ، وَأَمْرٌ بِفِرَاقِهِنَّ . وَالْعِصْمُ جَمْعُ الْعِصْمَةِ ، وَهِيَ مَا يُعْتَصَمُ بِهِ مِنَ الْعَقْدِ وَالنَّسَبِ . وَالْكَوَافِرُ جَمْعُ كَافِرَةٍ ، وَهِيَ الَّتِي بَقِيَتْ فِي دَارِ الْحَرْبِ ، أَوْ لَحِقَتْ بِدَارِ الْحَرْبِ مُرْتَدَّةً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٥٥) : ((والمراد بالعصمة هنا النكاح . يقول : مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ بِمَكَةٍ فَلَا يَعْتَدُ بِهَا ، فَلَيْسَتْ لَهُ امْرَأَةً ، فَقَدْ انْقَطَعَتْ عِصْمَتُهَا لِاخْتِلَافِ الدَّارَيْنِ . وَعَنِ النَّخَعِيِّ : هِيَ الْمُسْلِمَةُ تَلَحَّقَ بِدَارِ الْحَرْبِ فَتَكْفُرُ . وَكَانَ الْكَافِرُ يَتَزَوَّجُونَ الْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُسْلِمُونَ يَتَزَوَّجُونَ الْمُشْرَكَاتِ ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ)) اهـ .
﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ .

وَاطْلُبُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا ذَهَبَ أَزْوَاجُكُمْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنَ الْمَهْرِ ، وَلْيُطْلَبِ الْمُشْرِكُونَ إِذَا هَاجَرَتْ أَزْوَاجُهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْمَهْرِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالْإِنْصَافِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ . وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضُوا بِحُكْمِ اللَّهِ ، لَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ امْتَنَعُوا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٥٥) : ((قال المفسرون : كَانَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ مُرْتَدَّةً إِلَى الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ ، يُقَالُ لِلْكَافِرِ : هَاتُوا مَهْرَهَا . وَيُقَالُ لِلْمُسْلِمِينَ إِذَا جَاءَ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرَاتِ مُسْلِمَةً مُهَاجِرَةً : رُدُّوا إِلَى الْكُفْرِ مَهْرَهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ نَصَفًا وَعَدْلًا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ . وَكَانَ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ مَخْصُوصًا بِذَلِكَ الزَّمَانِ فِي تِلْكَ النَّازِلَةِ خَاصَّةً بِاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ ، قَالَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ .))

وفي زاد المسير (٨ / ٢٤٣) : ((قَالَ أَهْلُ السِّيَرِ : وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ حِينَ هَاجَرَتْ عَاتِقًا ، لَمْ يَكُنْ لَهَا زَوْجٌ ، فَيُنْبَعَثُ إِلَيْهِ قَدْرُ مَهْرَهَا ، فَلَمَّا هَاجَرَتْ تَزَوَّجَتْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ .))

﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ . ذَلِكُمْ شَرْعُ اللَّهِ الْمَعْصُومِ ، وَحُكْمُهُ الْعَادِلُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ . وَهَذَا الْحُكْمُ الْإِلَهِيُّ (إِرْجَاعُ الْمَهْرِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ) هُوَ الْحَقُّ الْكَامِلُ وَالْيَقِينُ التَّامُّ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٦٤) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي حَكَمْتُ بَيْنَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، بِمَسْأَلَةِ الْمُشْرِكِينَ مَا أَنْفَقْتُمْ عَلَى أَزْوَاجِكُمْ ، اللَّاتِي لِحَقْنِ بِهِمْ ،

وأمرهم بمسألتكم مثل ذلك في أزواجهنَّ اللاتي لَحِقْنَ بكم ، حُكْمُ اللَّهِ بينكم ، فلا تعتدوه ، فإنَّه الحق الذي لا يُسْمَعُ غَيْرُهُ، فانتَهَى المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فيما ذُكر إلى أمر الله وحُكْمه، وامتنع المشركون منه، وطلبوا الوفاء بالشروط، التي كانوا شارطوها بينهم في ذلك الصُّلح ((اهـ.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ الْعِبَاد ، يَعْلَمُ مَا يُصْلِحُهُمْ وَمَا يُفْسِدُهُمْ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَشْرِيعِهِ . وَلِلَّهِ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ ، وَالْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ .
وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُّوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ [الْمُتَحَنَّنُ : ١١] .

إِنْ هَرَبَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَزْوَاجِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكُفَّارِ (لَحِقَتْ بِهِمْ مُرْتَدَّةً)، وَفَضَّلَتْ الْكُفَّارَ عَلَى الْبَقَاءِ مَعَ زَوْجِهَا الْمُسْلِمِ ، وَتَمَّ غَرْوُ الْكُفَّارِ ، فَيَجِبُ إِعْطَاءُ الزَّوْجِ الْمُسْلِمِ الَّذِي هَرَبَتْ زَوْجَتُهُ مِثْلَ مَا أَنْفَقَ مِنَ الْمَهْرِ ، وَذَلِكَ مِنَ الْغَنِيمَةِ . وَهَذَا الْأَمْرُ هُوَ تَعْوِضٌ لِلْمُسْلِمِ الَّذِي خَسِرَ أَمْوَالَهُ فِي قَضِيَّةٍ خَاسِرَةٍ لَمْ تَعُدْ عَلَيْهِ بَأَيَّةٍ مَنْفَعَةٍ .

وفي تفسير القرطبي (١٨ / ٦٢) : ((قال ابن عباس : يقول : إِنْ لَحِقَتْ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةً بِكُفَّارٍ أَهْلَ مَكَّةَ ، وَلَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ ، وَلَهَا زَوْجٌ مُسْلِمٌ قَبْلَكُمْ فَغَنِمْتُمْ ، فَأَعْطُوا هَذَا الزَّوْجَ الْمُسْلِمَ مَهْرَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٩٨٠) : وقال عُقَيْلُ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ غُرُوةٌ فَأَخْبَرْتَنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ . وَبَلَّغَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْمَشْرِكِينَ مَا أَنْفَقُوا عَلَى مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ ، وَحَكَمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَارِ ، أَنْ عُمِرَ طَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ ، قَرِيبَةً بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَابْنَةً جَزُولَ الْخُزَاعِيِّ ، فَتَزَوَّجَ قَرِيبَةً مَعَاوِيَةَ ، وَتَزَوَّجَ الْآخَرَى أَبُو جَهْمٌ ، فَلَمَّا أَبَى الْكُفَّارُ أَنْ يَقْرَءُوا بِأَدَاءِ مَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ (36).

(٣٦) في تفسير البغوي (١ / ٩٩) : ((وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — قَالَ: لَحِقَ بِالْمَشْرِكِينَ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ سِتُّ نِسَوَاتٍ : أُمُّ الْحَكَمِ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ وَكَانَتْ تَحْتَ عِيَاضِ بْنِ شَدَّادِ الْفُهْرِيِّ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ أُخْتُ أُمِّ سَلَمَةَ كَانَتْ تَحْتَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَلَمَّا أَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَهَاجِرَ أَبَتْ وَارْتَدَّتْ ، وَبَرَّوْعُ بِنْتُ عُقْبَةَ كَانَتْ تَحْتَ شَمَّاسِ بْنِ عَثْمَانَ ، وَعَزَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ابْنِ نَضْلَةَ وَزَوْجُهَا

لقد تزوّج معاوية بن أبي سُفيان قريبة بنت أبي أُمَيَّة ، وهما على شِرْكهما في مكة . وتزوَّج أبو جَهْم بن حُذافة أُمَ كُلثوم بنت عمرو بن جَرُول الخُزاعي ، وهما على شِرْكهما . وقد رَفَضَ المشركون أن يُعْطُوا المؤمنين مَهْرَ المرأة التي تَرْتَدُّ وَتَهْرُبُ مِنْ زَوْجِهَا المسلم إلى المشركين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٤٤) : ((ذَكَرَ بعضُ المفسِّرين أنَّ هذه الآية نَزَلَتْ في عِيَاض بن عَنَم ، كانت زوجته مُسلمة ، وهي أُمُ الحَكَم بنت أبي سُفيان ، فارتدَّت ، فَلَحِقَتْ بمكة ، فأمرَ اللهُ المسلمين أن يُعْطُوا زَوْجَهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ بِقَدْرِ مَا سَاقَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَهْرِ ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ . قال القاضي أبو يعلى: وهذه الأحكام في أداء الْمَهْرِ ، وأخذه من الكفار ، وتعويض الزَّوْج من الغنيمة، أو مِنْ صَدَاقٍ قد وَجِبَ رَدُّهُ على أهل الحرب مَنْسُوخَةٌ عند جماعة من أهل الْعِلْمِ . وقد نصَّ أحمد على هذا . قُلْتُ : وكذا قال مقاتل : كُلُّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ)) اهـ

عمرو بن عبد وُد ، وهند بنت أبي جهل بن هشام كانت تحت هشام بن العاص ابن وائل ، وأم كلثوم بنت جَرُول ، كانت تحت عمر بن الخطاب ، فكلهنَّ رَجَعْنَ عن الإسلام ، فأعطى رسولُ الله ﷺ أزواجهنَّ مَهْرَ نِسَائِهِمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ)) اهـ .

الفصل الثاني والعشرون أزواجه وبناته

تمهيد

إنَّ النبيَّ ﷺ هو الزَّوجُ الصَّالح ، والأبُ الحنون . كَوْنُ الأسرة الطاهرة النَّقيَّة ، وقادها إلى بَرِّ الأمان ، في ظلِّ التحدياتِ المصيرية ، وتشابكِ العلاقاتِ الاجتماعية .

وقد وَضَحَ القرآنُ الشَّخصيةَ المحمَّديةَ مِنْ كُلِّ جوانبها . فمحمَّدٌ ﷺ مثُلُ الأبِّ لأُمَّته ، وأزواجه هُنَّ أُمَّهاتُ المؤمنين الشريفاتِ الطاهرات . لا يجوزُ نِكَاحُهُنَّ بعدَ النبيِّ ﷺ ، وهذه الحُرْمَةُ للتأييد . والحكمةُ من ذلك هو صيانةُ عِرْضِ النبيِّ ﷺ ، وحمايةُ شَرَفِهِ ، وجَعْلُهُ في مكانةٍ مُقدَّسةٍ لا تُخَدَّشُ .

وزَوَجاتُ النبيِّ ﷺ (أُمَّهاتُ المؤمنين) كُنَّ أعظَمَ النساءِ ، سَانَدْنَ النبيَّ ﷺ في أَخْلَاقِهِ الطُّرُوفِ ، وأصعبِ المواقِفِ ، وَقِيلَ أَنْ يَعِشْنَ حياةَ التَّقْشِفِ والزُّهْدِ ، وكُلَّ ذلك ابتغاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، وامْتِثالاً لأوامرِ اللَّهِ ورسوله ﷺ . وقد رَفَضْنَ التَّخَلِّيَ عَنِ النبيِّ ﷺ رَغْمَ صُعُوبَةِ حَيَاتِهِ ، وَقَسْوَةِ مَعِيشَتِهِ . وكانَ بإمكانَهُنَّ طَلَبُ الطَّلاقِ ، والبحثِ عَنِ أَزْوَاجٍ أَثْرِياءَ يَمْلِكُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ، والبيوتِ الفخمةِ ، والأموالِ الطائلةِ ، وَيَقْدِرُونَ على تَوْفِيرِ أَشْهَى أنواعِ الطَّعامِ والشرابِ . ولكنَّهُنَّ اخْتَرْنَ العِيشَ القاسيَ مَعَ النبيِّ ﷺ ، ابتغاءَ رِضا اللَّهِ ، وَطَمَعًا في جَنَّتِهِ . لقد اخْتَرْنَ الآخِرَةَ على الدُّنْيَا .

ولا شَكَّ أَنَّ زَوَجاتِ النبيِّ ﷺ لَسُنَّ نساءً عاديَّاتٍ ، إنَّهُنَّ زَوَجاتُ أعظَمِ الخَلْقِ ، لذلك تَمَّ التشديدُ عليهنَّ ، وإحاطتُهُنَّ بِسُورِ عَالٍ مِنَ الشَّرَفِ والإخلاصِ والوفاءِ . وقد تَوَعَّدَهُنَّ اللَّهُ بِمُضَاعَفَةِ العذابِ لَهُنَّ إِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ ، لِمَا في ذلك مِنْ طَعْنٍ مُباشِرٍ في زَوْجِهِنَّ الأَكْرَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وزَوَجاتُ النبيِّ ﷺ لا يُمَثِّلْنَ أَنْفُسَهُنَّ فَحَسَبَ ، بَلْ أَيْضًا يُمَثِّلْنَ بَيْتَ النَّبِوةِ ، وَمَهَبِطَ الْوَحْيِ الإلهيِّ . وأيُّ ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ ، سَيُؤَثِّرُ سَلْبًا على الدَّعوةِ الإسلاميةِ ، ويُعْطِي فرصةً لأعداءِ الإسلامِ أَنْ يَطْعَنُوا في النبيِّ ﷺ ، وَيُشَكِّكُوا النَّاسَ فِيهِ .

وفي المِقابِلِ ، وَعَدَهُنَّ اللَّهُ بِمُضَاعَفَةِ الأجرِ لَهُنَّ ، إِنْ التَزَمْنَ بأوامرِ اللَّهِ ورسوله ﷺ . وقد كُنَّ نِعَمَ النساءِ ، والتاريخُ يَشْهَدُ بذلك ، فَقَدْ كُنَّ الشَّريفاتِ الطاهراتِ النَّقيَّاتِ في حياةِ النبيِّ ﷺ وبعدَ مَوْتِهِ . ولا يوجدُ في تاريخهنَّ نقطةٌ سَوْداءُ أو أمرٌ غامِضٌ أو شُبْهَةٌ أو خُلُقٌ سَيِّئٌ .

وقد أَمَرَهُنَّ اللَّهُ بأوامرٍ عديدةٍ مِنْ شَأْنِها صيانةُ شَرَفِهِنَّ وشَرَفِ النبيِّ ﷺ ، وسَدِّ الذرائعِ التي قد يَسْتَغْلِها أعداءُ الدَّعوةِ الإسلاميةِ . وَمِنْ هذه الأوامرِ الإلهيةِ العظيمةِ : عَدَمُ الخُضُوعِ بالقَوْلِ ،

والبقاء في البيوت، وعدم التبرُّج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة... إلخ . وينبغي ألا ننسى فرض الحجاب، الذي هو شرف المرأة المسلمة ، ووقايتها من أصحاب القلوب المريضة .

قال الله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] .

النبي ﷺ أرحمُ بهم ، وأعطف عليهم ، وأنفع لهم ، وأحقُّ بهم من أنفسهم في كلِّ شؤون الدِّين والدُّنيا . وحُكْمُه ﷺ ماضٍ عليهم، واتباعُ أمره أَوْلَىٰ من اتباعهم لأرائهم ، وطاعته مُقدِّمة على طاعتهم لأنفسهم وطاعة كلِّ مخلوق . وهذه خاصية مُتميِّزة للنبي ﷺ لا يُشاركه فيها أحد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦١٧) : ((قد علِمَ اللهُ تعالى شفقة رسوله على أُمَّته، ونُصحه لهم ، فجعله أَوْلَىٰ بهم من أنفسهم ، وحُكْمه فيهم كان مُقدِّماً على اختيارهم لأنفسهم)) اهـ .

ولا عَجَب ولا غَرابة أن يكون النبي ﷺ أَوْلَىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ، لأنَّ أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك والضياع ، أمَّا النبي ﷺ فيدعوهم إلى النَّجاة في الدنيا والآخرة . والنبي ﷺ لا يأمرهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاتهم وفلاحهم ، لذلك يجب أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم ، وحُكْمه أنفذ عليهم من حُكْم أنفسهم ، وحقُّه أعظم من حق أنفسهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٥٢) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، أي : أحقُّ ، فله أن يحكم فيهم بما يشاء . قال ابن عباس : " إذا دَعَاهُمْ إلى شيء ، ودَعَتْهُمْ أَنفُسُهُمْ إلى شيء ، كانت طاعته أَوْلَىٰ من طاعة أنفسهم " . وهذا صحيح ، فإنَّ أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، والرسول يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم)) اهـ .

وقد قال النبي ﷺ : ((فَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَفَحِّمُونَ فِيهَا)) (١) .

النبي ﷺ هو الرحيم بأُمَّته، وشفقته عليها واضحة، ورأفته بها بالغة. يُريد لهم النجاة من النار، ويبدل قُصارى جُهدِهِ لإبعادهم عنها ، أمَّا هُم فيغرقون في المعاصي ، ويقتربون الذنوب والآثام ، وهذا هو طريق النار . إنهم يُلْقُونَ بأنفسهم إلى الهلاك والعذاب ، جهلاً منهم ، واتباعاً لشهواتهم وحُظوظ النَّفْس ، والنبي ﷺ يسعى جاهداً لإنقاذهم .

(١) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٥ / ٢٣٧٩) برقم (٦١١٨). ومسلم (٤ / ١٧٨٩) برقم (٢٢٨٤) .

(بِحُجْرِكُمْ) جمع حُجْرَة : مَعْقِد السراويل والإزار . (تَفَحِّمُونَ) وَتَفَحَّمَهُ : إذا رَمَى نَفْسَهُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا تَثْبِيتٍ .

وفي تفسير القرطبي (١٤ / ١١٠): ((قال العلماء: الحُجْزَةُ للسَّراويل، والمَعْقِدُ للإزار ، فإذا أَرَادَ الرَّجُلُ إمساكَ مَنْ يخافُ سُقُوطَهُ، أخذَ بذلكَ الموضعَ مِنْهُ. وهذا مَثَلٌ لاجتهادِ نَبِيِّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحِرْصِهِ على تَخَلُّصنا مِنَ الْهَلَكاتِ التي بين أيدينا، فهو أَوْلَى بنا مِنْ أَنْفُسنا)).

وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : ((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ ، وَوَلَدِهِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ))^(٢).

وهذا يدل على وُجُوب أن تكون محبة النبي ﷺ مُقَدِّمَةً على محبة جميع المخلوقات بلا استثناء. وَمَنْ لَمْ يَصِلْ إلى هذا الأمر ، فهو ليس بمؤمن ، وإيمانه مُجَرَّدُ شعار كلامي. وعلى أن يَتَذَكَّرَ نَفْسَهُ قبل فوات الأوان، وذلك بإخلاص النِّية لله تعالى، وجعل حُبِّ الله ورسوله ﷺ في قلبه أعلى وأسمى مِنْ حُبِّ كُلِّ شَيْءٍ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٢ / ١٥١٥) : ((قال الإمام أبو سليمان الخطابي : لَمْ يُرِدْ به حُبُّ الطَّبع ، بل أَرَادَ به حُبُّ الاختيار ، لِأَنَّ حُبَّ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ طَبْعٌ ، وَلَا سَبِيلَ إلى قلبه . قال : فمعناه لَا تَصُدِّقْ في حُبِّي حَتَّى تُفْنِيَّ في طاعتي نَفْسِكَ ، وتُؤَثِّرَ رِضايَ على هَوَاكَ، وإن كان فيه هلاكُكَ . هذا كلام الخطابي . وقال ابن بطل والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم : المحبة ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة ، كمحبة الولد ، ومحبة مُشَاكَلَةٍ واستحسان كمحبة سائر الناس. فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته. قال ابن بطل رحمه الله: ومعنى الحديث أَنَّ مَنْ استكمل الإيمان عِلِمَ أَنَّ حَقَّ النَّبِيِّ ﷺ أَكَّدَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ أَبِيهِ وَابْنِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لِأَنَّ بِهِ ﷺ اسْتُنْفِذْنَا مِنَ النَّارِ، وَهُدِينَا مِنَ الضَّلَالِ. قال القاضي عياض رحمه الله: وَمِنْ مَحَبَّتِهِ ﷺ نُصْرَةٌ سُنَّتُهُ ، وَالذَّبُّ عَنْ شَرِيعَتِهِ ، وَتَمَنِّي خُضُورِ حَيَاتِهِ ، فَيَبْدُلُ مَالَهُ وَنَفْسَهُ دُونَهُ . قال : وَإِذَا تَبَيَّنَ ما ذَكَرْنَاهُ ، تَبَيَّنَ أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِذَلِكَ ، وَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِتَحْقِيقِ إِعْلَاءِ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْزِلَتِهِ على كُلِّ والد وولد ، وَمُحَسِّنِ وَمُفْضِلِ. وَمَنْ لَمْ يَعْتَقِدْ هذا ، واعتقد سِوَاهُ ، فليس بمؤمن . هذا كلام القاضي _ رحمه الله _ ، والله أعلم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٤٤٥) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى

(٢) متفق عليه . البخاري (١ / ١٤) برقم (١٥) ، ومسلم (١ / ٦٧) برقم (٤٤) .

أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)) . فقال له عمر : فَإِنَّهُ الْآنَ ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فقال النبي ﷺ : ((الْآنَ يَا عُمَرُ)) .

إِنَّ إِيْمَانَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ كَانَ نَاقِصًا ، وَفِيهِ خَلَلٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ النَّبِيِّ ﷺ . وَكَانَ عُمَرُ صَرِيحًا فِي كَلَامِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمْ يُنَافِقْ ، وَلَمْ يُجَامِلْ ، وَلَمْ يَكْذِبْ ، وَلَمْ يَدَّعِ مَنْزِلَهُ مَا وَصَلَ إِلَيْهَا . وَبَيَّنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَطُورَةَ هَذَا الْأَمْرِ ، وَأَنَّهُ إِيْمَانُهُ لَيْسَ كَامِلًا . وَقَدْ أَدْرَكَ عُمَرُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْظَمُ مِنْ نَفْسِهِ ، فَالْبَيْتُ ﷺ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالصَّالِحِ وَالتَّقْوَى ، أَمَّا النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ فَأَمَّارَةٌ بِالسَّوْءِ . كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ النِّفْعَ إِلَى عُمَرَ ، وَيَمْنَحُهُ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَيْسَ نَفْسُ عُمَرَ . وَحِينَ اتَّضَحَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي نَفْسِ عُمَرَ ، صَارَ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ الْآنَ يَا عُمَرُ كَمُلَ إِيْمَانُكَ ، وَصِرْتَ مُؤْمِنًا حَقًّا وَصِدْقًا . وَالحديثُ يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ التَّفَكُّرِ وَالتَّفَكُّيرِ ، فَعُمَرَ فَكَّرَ فِي الْأَمْرِ ، وَعَرَفَ مَا يُصْلِحُهُ ، وَمَا يَنْفَعُهُ ، فَاتَّخَذَ قَرَارًا حَاسِمًا ، وَأَخْلَصَ نِيَّتَهُ لِلَّهِ ، وَأَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ لَا تَعْنِي التَّعْظِيمَ فَقَطْ . فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ مُعَظَّمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ أَعْظَمُ مَخْلُوقٍ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ تَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْظِيمِ ، وَتَقْدِيمِ أَوَامِرِ النَّبِيِّ ﷺ وَطَاعَتِهِ عَلَى أَهْوَاءِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا وَمُيُولِهَا . وَمَنْ انْتَصَرَ عَلَى نَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، فَقَدْ وَصَلَ إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ . فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا ، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ)) (3) .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُصَلِّي عَلَى الشَّخْصِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْبِلَادَ ، وَازْدَادَتْ الْأَمْوَالُ ، وَعَمَّ الْخَيْرُ ، تَكَفَّلَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَدَادِ دُيُونِ أَيِّ مُؤْمِنٍ مَاتَ .

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري (٢/ ٨٤٥) برقم (٢٢٦٩) . ومسلم (٢/ ٥٩٢) برقم (٨٦٧) .
ولفظ مسلم : ((أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلْأَهْلُهُ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا ، فَلْيَأْتِنِي وَعَلَيَّ)) .

هذه الآية دليل على قول النبي ﷺ . وأيُّ مؤمن مات وترك مالا ، فَلْيَرِّثْهُ قَرَابَتُهُ الْوَارِثُونَ (الْعَصْبَةُ) . وهذا يدل على أنَّ هذا المؤمن كان غنياً . أمَّا إن كان المؤمن فقيراً ومات وعليه دين أو ترك عيالاً محتاجين يضيعون إن تركوا ، فَلْيَأْتِ الصَّيَّاعُ أو صاحبُ الدِّينِ إلى النبي ﷺ ، فهو مُتَكَفِّلٌ بِإِنْقَاذِ الصَّيَّاعِ وتوفير حاجاتهم وإعطائهم المال ، كما أنَّه ﷺ سَيُعْطِي صاحبَ الدِّينِ دينَه كاملاً غير منقوص . فالنبي ﷺ هو وَلِيُّ الْمُتَوَفَّى ، يتولى أموره ، فيوفي دينه ، ويكفل عياله .

وفي تفسير القرطبي (١٤ / ١١٠) : ((قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دينَ الفقراء اقتداءً بالنبي ﷺ ، فإنه قد صرَّح بِوُجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِ)) اهـ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ١٥٥) : ((قال أصحابنا _ يعني الشافعية _ : وكان النبي ﷺ لا يُصَلِّي على مَنْ مات وعليه دين ، لم يُخْلَفْ بِهِ وَفَاءً ، لِئَلَّا يَتَسَاهَلَ النَّاسُ فِي الاستدانة ويُهْمِلُوا الْوَفَاءَ ، فَزَجَرَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِتَرْكِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَبَادِئَ الْفَتْوحِ ، قَالَ ﷺ : " مَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيْ " ، أي قضاؤه . فكان يقضيه . واختلف أصحابنا هل كان النبي ﷺ يجب عليه قضاء ذلك الدين ، أم كان يقضيه تَكْرُماً . والأصح عندهم أنه كان واجبا عليه ﷺ . واختلف أصحابنا: هل هذه من الخصائص أم لا ، فقال بعضهم : هو من خصائص رسول الله ﷺ ، ولا يلزم الإمام أن يقضي من بيت المال دينَ مَنْ مات وعليه دين ، إذا لم يُخْلَفْ وفاءً ، وكان في بيت المال سعة ، ولم يكن هناك أهمُّ منه)) اهـ .

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ . زَوَاجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ الشَّرِيفَاتُ الطَّاهِرَاتُ هُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ . ويجب تعظيمهن واحترامهن ، ويَحْرُمُ نِكَاحُهُنَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، كما يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ نِكَاحُ أُمَّهَاتِهِمُ اللَّوَاتِي وَلَدْنَهُمْ . وهذا تكريم إلهي للنبي ﷺ ، وصيانة لشرفه ، وخصوصية له ، ولأنهن أزواجه في الآخرة . وهذه الأمومة لا تُوجِبُ مِيرَاثًا ، ويجوز تزويج بناتهن وأخواتهن للناس . والجدير بالذكر أنَّ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ هُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ لَا أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنَاتِ .

إنهنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَعْظِيمِ حَقِّهِنَّ ، وَتَحْرِيمِ نِكَاحِهِنَّ عَلَى التَّأْيِيدِ ، أمَّا فيما عدا ذلك فَهِنَّ كَالْأَجْنِبِيَّاتِ . فَيَحْرُمُ الْخُلُوعُ بِهِنَّ ، وَالنَّظَرُ إِلَيْهِنَّ . ولا يُقَالُ لِبَنَاتِهِنَّ أَخَوَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا لِأَخَوَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ أَخْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ وَخَالَاتِهِمْ . وقد تَزَوَّجَ الرَّبِيرُ بْنُ الْعَوَّامِ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهِيَ أُخْتُ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يُقَلَّ لَهَا خَالَةُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يُصْبَحِ الرَّبِيرُ زَوْجَ خَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ . !

والنبي ﷺ هو الأب للمؤمنين . فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ :
((إنما أنا لكم مثلُ الوالد))^(٤) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦١٧) : ((وقال تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي في الحُرمة والاحترام والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سُمِّي بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين ، كما هو منصوص الشافعي رضي الله عنه في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ... وهل يُقال لهنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغييباً ؟ ، وفيه قولان . صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يُقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١ / ٢٧١) أنَّ أبا موسى استأذن على عائشة فأذن له ، فقال لها : يا أُمّاه _ أو يا أم المؤمنين _ إني أريد أن أسألك عن شيء ، وإني أَسْتَحْيِيكَ ، فقالت : لا تستحيي أن تسألني عمّا كُنْتُ سائلاً عنه أُمّك التي وَلَدْتُكَ ، فإنما أنا أُمّك .

وهذا دليل على أنَّ " لا حياءَ في العلم " ، (والحياء هنا بمعناه السلبي) . فلا ينبغي الخجل من عرض المسائل العلمية بأسلوب راقٍ ومحترم ، والبحث عن إجابات شافية عند أهل الاختصاص . ولا شك أن السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ كانت عالمةً وفقية كبيرة ، ولم تكن مُجَرَّدُ أم المؤمنين . وقد بيَّنت أنها أم لأبي موسى ، فلا داعي أن يخجل منها ، أو يُعاملها كامرأة غريبة .

وفي الحديث أنَّ ابن عباس ناظرَ الحُرورية (الخوارج) في المسائل التي نَقَمُوها على عليّ ابن أبي طالب _ رضي الله عنه _ . قال لهم ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : وأما قولُكم : قَاتِلْ وَلَمْ يَسِبْ ، وَلَمْ يَغْمَ . أَتَسُبُّونَ أُمَّكُمْ عائشة ، ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا ؟ ! ، فَلَيْنَ

(٤) رواه النسائي في المجتبى (١ / ٣٨) برقم (٤٠) ، وأحمد في مسنده (٢ / ٢٥٠) برقم (٧٤٠٣) ، وابن حبان في صحيحه (٤ / ٢٧٩) برقم (١٤٣١) . وصحَّحه أبو عَوَانَةَ [قاله ابن حجر في تلخيص الحبير (١ / ١٠٢)] . ورواه ابن خزيمة في صحيحه (١ / ٤٣) برقم (٨٠) بلفظ " إنما أنا لكم مثلُ الوالد لولده " .

فعلتُم لقد كفرتُم ، وهي أُمُكُم ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ : لَيْسَتْ أُمَّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٥) .

وهذا يُشير إلى أهمية تعظيم أُمّهات المؤمنين واحترامهن ، وحرمة نكاحهن على التأبید . وَمَنْ قال إِنَّ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ لَسَنَّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فهو كافر ، لتكذيبه القرآن . وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] .

قُلْ يا محمد لِزَوَاجَاتِكَ اللواتي تَضايقتُ مِنْهُنَّ بسبب طلبهنَّ الزيادة في النَّفَقَةِ : إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ مَتَاعَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا الْفانية ونعيمها الزائل ، وكثرة الأموال ، والعيش الرغيد ، فَتَعَالَيْنَ حتى أدفعَ لَكُنَّ مُتْعَةَ الطلاق ، وَأُعْطِيَكُنَّ حقوقَكُنَّ كاملةً ، وَأُطْلَقَكُنَّ ، بِدُونِ مشكلات ولا ضِرَارٍ ، فتذهب كُل واحدة إلى حال سبيلها . والسَّرَاحُ الجميلُ هو الطلاق مِنْ غَيْرِ ضِرَارٍ ، ولا مَنعِ حقوق .

وفي الآية إشارة إلى خُطورة إيذاء النَّبِيِّ ﷺ بالقول أو الفعل ، أو جَرَحِ مشاعره ، أو الضغط عَلَيْهِ ، أو مُضايقته بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشكال . والنَّبِيُّ ﷺ حاله مكشوفة للناس ، وحياته شديدة التَّشَفُّفِ ، وظروفه المعيشية صعبة وقاسية ، ولا يُجبر أحداً أن يعيش معه ضمن هذه الظروف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٧٦ و ٣٧٧) : ((ذَكَرَ أَهْلُ التفسير أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلْنَهُ شَيْئاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا ، وَطَلَبْنَ مِنْهُ زِيَادَةَ النَّفَقَةِ ، وَآذَيْنَهُ بِغَيْرَةِ بَعْضِهِنَّ عَلَى بَعْضٍ ، فَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُنَّ شَهْراً ، وَصَعِدَ إِلَى غُرْفَةٍ لَهُ ، فَمَكَثَ فِيهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ... فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَضَ الْآيَةَ عَلَيْهِنَّ ، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَاخْتَارَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا تُخَيِّرْ أَزْوَاجَكَ أَنِّي اخْتَرْتُكَ ، فَقَالَ : " إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي مُبَلِّغاً وَلَمْ يَبْعَثْنِي مُتَعَتِّتاً " وفي ما خَيَّرَهُنَّ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ خَيَّرَهُنَّ بَيْنَ الطَّلَاقِ وَالْمُقَامِ مَعَهُ ، هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ _ عَلَيْهَا السَّلَامُ _ . وَالثَّانِي أَنَّهُ خَيَّرَهُنَّ بَيْنَ اخْتِيَارِ الدُّنْيَا فَيُفَارِقَهُنَّ ، أَوْ اخْتِيَارِ الْآخِرَةِ فَيُمَسِكُهُنَّ ، وَلَمْ يُخَيِّرَهُنَّ فِي الطَّلَاقِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَتَعَادَةً . وَفِي سَبَبِ تَخْيِيرِهِ إِيَّاهُنَّ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُنَّ سَأَلْنَهُ زِيَادَةَ النَّفَقَةِ ، وَالثَّانِي أَنَّهُنَّ آذَيْنَهُ بِالْغَيْرَةِ ، وَالْقَوْلَانِ مَشْهُورَانِ فِي التفسير . وَالثَّالِثُ أَنَّهُ لَمَّا خَيَّرَ بَيْنَ مُلْكِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ ، أَمَرَ بِتَخْيِيرِ نِسَائِهِ لِيَكُنَّ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ ، حَكَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ الصِّمَرِيُّ . وَالمَرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ مُتْعَةَ الطَّلَاقِ ، وَالمَرَادُ بِالسَّرَاحِ الطَّلَاقُ)) اهـ .

(٥) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٦٤) برقم (٢٦٥٦) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

وكانَ تحت النبي ﷺ يومئذٍ تسع زَوَجات (عائشة بنت أبي بكر ، وحَفْصة بنت عُمر ، وأم حبيبة رَمْلَة بنت أبي سُفيان ، وسَوْدَة بنت زَمْعَة ، وأم سَلَمَة ، وصَفِيَة بنت حُبي ، وميمونة بنت الحارث ، وزَيْنب بنت جَحْش ، وجُويرية بنت الحارث ، _ رضي الله عنهم _) .

وقد طَلَبَ من النبي ﷺ من زينة الدنيا ما ليس عنده ، وآذَيْنَهُ بطلب زيادة الثَّغَّة . وهذه طبيعة النساء ، حيث تُريد كُل واحدة أن تعيش مُرفَّهةً ، ضِمن أفضل الظروف ، حيث الزَّينة ، والغنى ، والنياب الفاخرة ، والأثاث الفخم ، والعيش الرغيد . وحياة النبي ﷺ قائمة على التَّقشُّف والخشونة . فهو ﷺ ينظر إلى الآخرة ، ولا ينظر إلى الدنيا إلا بِقَدَر ما تُوصله إلى الآخرة . وقد تَضايقُ النبي ﷺ من طَلبات زَوَجاته ، فأمره الله أن يُخَيِّرَهُنَّ بين البقاء معه ضِمن الظروف المعيشية القاسية ، وبين مُفارقتِه ، وتذهب كُل واحدة لِتعيش حياتها بما يُناسبها ، وقد تجد زَوْجًا غَنِيًّا ، فتعيش معه في بيت فخم ، ويُحضِر لها كُل ما تشتهيهِ نَفْسُها من مَتاع الدنيا .

قال ابن كثير في تفسيره (٦٣٣ / ٣) : ((هذا أمرٌ من الله _ تبارك وتعالى _ لرسوله ﷺ بأن يُخَيِّرَ نساءه بين أن يُفارقَهُنَّ فيذهبنَ إلى غَيره ، مِمَّن يحصل لهنَّ عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهنَّ عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فَاخْتَرْنَ _ رضي الله عنهم وأرضاهنَّ _ الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهنَّ بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة ... وقد اختلف العلماء في جواز تَزَوُّج غَيره لهنَّ لو طَلَّقَهُنَّ على قَوْلَيْن : أصحهما نعم لو وقع ، لِيحصل المقصود من السَّراح ، والله أَعْلَم)) اهـ .

وهذا يدل على رَجاحة عُقول نساء النبي ﷺ ، وحرصهنَّ على الثواب الإلهي دون النظر إلى زُخْرَف الحياة الدنيا وزينتها ، وما تطمح إليه النساء من الحُلِيِّ ، والملابس الغالية ، ومستحضرات التجميل ، وتَصَدَّر المجالس النسائية للتفاخر بالمظاهر الخادعة ، والشكليات الاجتماعية الفارغة . وفي ذلك دليل باهر على المكانة السامية لأمهات المؤمنين ، وقوة عقيدتهنَّ ، وتماسك مستواهنَّ الإيمانِي ، وسعة عِلْمهنَّ بأحوال الدنيا والآخرة . وهذا ليس بمستغرب على نساء بيت النُّبوة الطاهرات العالمات ، اللواتي لَم يَلهثنَ وراء زينة الحياة الدنيا الظاهرية ، بل نَظَرْنَ إلى ما وراء هذه الدار الفانية . وهو النعيم الإلهي الأبدي في الآخرة .

وفي صحيح مسلم (١١٠٤ / ٢) : عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يَسْتَأْذِن على رسول الله ﷺ ، فوجد الناسَ جُلوسًا ببابه ، لَم يُؤْذَن لأحدٍ منهم ، قال : فَأَذِنَ لأبي بكر ، فَدخل ، ثُمَّ أَقبل عُمر فاستأذِن ، فَأَذِنَ له ، فَوَجَد النبي ﷺ جالسًا ، حَوْلَهُ نِساءهُ ، وَاجِمًا ساكِنًا . قال : فقال :

لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أَضْحَكَ النَّبِيَّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ ، سَأَلْتَنِي النَّفَقَةَ ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا ، فَوَجَّأْتُ عَنْقَهَا ، فضحك رسول الله ﷺ ، وقال : ((هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ)) . فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عَنْقَهَا ، فقام عُمر إلى حفصة يَجَأُ عَنْقَهَا ، كلاهما يقول : تَسْأَلَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَقُلْنَا : وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ اعْتَزَلْنَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) 》 . قال : فبدأ بعائشة ، فقال : ((يا عائشة ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا ، أَحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكَ)) . قالت : وما هُوَ يا رسول الله ؟ . فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أَسْتَشِيرُ أَبَوَيْ ؟ ، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ . قال : ((لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّيًا ، وَلَا مُتَعَنِّيًا ، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا)) .

هذه الحديث يشتمل على فوائد كثيرة ومعانٍ سامية :

- ١_ أدب الصحابة في عدم الدُخول على النبي ﷺ إلا بعد الاستئذان ، وانتظار الرد .
 - ٢_ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ إنسان له مشاعر وأحاسيس ، وَيَشْعُرُ بِالْأَلَمِ وَالْحُزَنِ وَالضَّيْقِ ، وهذا لا يتعارض مع قُوَّتِهِ وَرُجُولَتِهِ وَثَبَاتِهِ عِنْدَ الْأَزْمَاتِ . وَكَوْنُ النَّبِيِّ ﷺ وَاجِمًا سَاكِنًا ، يدل على صُعوبة الموقف ، وحُزْنِهِ الْعَمِيقِ . وَالْوَاجِمُ هُوَ الَّذِي اشْتَدَّ حُزْنُهُ حَتَّى أَمْسَكَ عَنِ الْكَلَامِ .
 - ٣_ حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى إِسْعَادِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّخْفِيفِ عَنْهُ . والصحيح الراجح أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الَّذِي قَرَّرَ إِضْحَاكَ النَّبِيِّ ﷺ ، وليس عُمر بن الخطاب ، وذلك لِأَنَّ " بِنْتَ خَارِجَةَ " هِيَ زَوْجَةُ أَبِي بَكْرٍ ، وَلَيْسَتْ زَوْجَةُ عُمر . وهي حبيبة بنت خارِجَةَ الْخَزْرَجِيَّةِ الْأَنْصَارِيَّةِ ، الزَّوْجَةُ الرَّابِعَةُ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَقَدْ تَزَوَّجَهَا فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ . وهذا الحديث يشتمل على وَهْمٍ أَوْ سَهْوٍ مِنْ أَحَدِ الرُّوَاةِ .
- لقد ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ مَوْقِفًا طَرِيقًا ، وَهُوَ أَنَّ زَوْجَتَهُ (بِنْتَ خَارِجَةَ) سَأَلَتْهُ النَّفَقَةَ ، فَقَامَ إِلَيْهَا ، وَطَعَنَ عَنْقَهَا (وَجَّأَهَا) ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ . وهذا الأمر يُفْهَمُ فِي سِيَاقِ الْعِلَاقَةِ اللَّطِيفَةِ وَالِدَافَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ ، وَلَا يَعْنِي الْمَعْنَى الْحَرْفِيَّ الْمَشْتَمِلَ عَلَى ضَرْبِ النِّسَاءِ أَوْ إِهَانَتِهِنَّ أَوْ إِحْلَاقِ الْأَذَى بِهِنَّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٨١) : ((فيه استحباب مثل هذا ، وأنَّ الإنسان إذا رأى صاحبه مهمومًا حزينا ، يُسْتَحَبُّ له أن يُحَدِّثه بما يُضحكه ، أو يُشغله ويُطَيِّب نفسه ، وفيه فضيلة لأبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _)) اهـ .

٤_ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : ((هُنَّ حَوَالِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنِي الثَّقَفَةُ)) ، يدل على الحزن العميق والألم الشديد . إذ إن زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُنَهُ النِّفْقَةَ التي لَيْسَتْ عِنْدَهُ . وبالتالي ، يُحْمَلْنَ النَّبِيُّ ﷺ فوق طاقته المالية ، وهذا الأمر ضَائِقٌ النَّبِيِّ ﷺ وأزعجه بشكل واضح .

٥_ قيام أبي بكر إلى ابنته عائشة، وقيام عُمر إلى ابنته حَفْصَة ، بدافع التأديب والتَّوْجِيهِ . وهذا الأمر يدل على حرص أبي بكر وعُمر على مشاعر النَّبِيِّ ﷺ ، وألا يُضايقه أحد . وقد وَبَّخَا ابنتيهما ، لأنهما سألا النَّبِيَّ ﷺ ما لَيْسَ عِنْدَهُ . ولأب الحق في توجيه ابنته وتربيتها وإرشادها أمام زوجها ، إذا رأى المصلحة في ذلك ، كخَوْفه من طلاق ابنته من زوجها الصالح ، بشرط ألا يتم إغضاب الزوج أو مُضايقته ، أو التَّسبب بمشكلة عائلية بين المرأة وزوجها . والمرأة كائن عاطفي ، وطبيعتها ناقصة ، وقد تقوم بأشياء تكون سببًا في خراب بيتها ، وطلاقها من زوجها ، وهي بذلك تتَّبِعُ أحاسيسها البدائية ، وعاطفتها البعيدة عن العقلانية . وما حصل من زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ كان شَيْئًا فطريًّا طبيعيًّا ، فكل امرأة تطلب من زوجها السَّعة في النفقة ، والتَّمتُّع بالمُبَاهِجِ ومباهج الحياة .

٦_ رُجُوعُ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ إلى الحق ، ومعرفة الخطأ الذي وَقَعْنَ فِيهِ ، وحرصهنَّ على عدم مُضايقة النَّبِيِّ ﷺ ، ممَّا يدل على كمالهنَّ وفضلهنَّ ورجحان عقولهنَّ . وهذا يتَّضح في قولهنَّ : ((والله لا نسأل رسول الله ﷺ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ)) .

٧_ اعتزال النَّبِيِّ ﷺ لَزَوَاجَاتِهِ يَمْنَحُهُ فُرْصَةً للتفكير والتأمل ، ودراسة الأمور وتحليل المواقف ، بعيدًا عن الضغط الأسري ، وتفصيل الحياة الزوجية شديدة التَّشْعُّبِ .

٨ _ الله تعالى لا يتخلى عن النَّبِيِّ ﷺ ولا يتركه لأفكاره الشخصية ، وخواطره الذاتية ، وإنما يُؤَيِّدُهُ بِالوَحْيِ الإلهيِّ ، ويُرْشِدُهُ إلى طريق الحق والصواب . لذلك أنزلَ اللهُ قُرْآنًا يُعَالِجُ هذه القضية ، ويُقَدِّمُ حَلًّا جذريًّا لها ، وهو تَخْيِيرُ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ بين العيش معه ضمن ظروفه القاسية أو فراقه .

٩_ بدأ النَّبِيُّ ﷺ بتخيير عائشة لأنها أحب زَوَاجَاتِهِ إِلَيْهِ ، ولفضيلتها ، كما أنَّها صغيرة السن ، وَرَبَّمَا تَأَقَّتْ نَفْسُهَا إِلَى الْعَيْشِ الرَّغِيدِ ، وَالْبَيْتِ الْفَخْمِ ، وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

١٠ _ عَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَلَّا تَتَعَجَّلَ فِي الْاِخْتِيَارِ . بَلْ عَلَيْهَا أَنْ تُفَكِّرَ بِهَدْوٍ وَتَمَهَّلْ وَتَدْرُسَ الْمَوْضُوعَ ذُوْنَ عَجَلَةٍ ، وَتَتَّخِذَ الْقَرَارَ بَعْدَ اسْتِشَارَةِ أَبَوَيْهَا ، فَهُمَا أَكْثَرُ مِنْهَا خَبِرَةً فِي شُؤْنِ الْحَيَاةِ وَتَفَاصِيلِ الزَّوْاجِ وَالطَّلَاقِ . وَعَائِشَةُ كَانَتْ صَغِيرَةً السِّنِّ ، وَصِغَرُ السِّنِّ مَظَنَّةٌ لِنَقْصِ الرَّأْيِ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَوَيْهَا سَيَأْمُرَانَهَا بِالْبَقَاءِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَدَمَ مُفَارَقَتِهِ . وَالسِّيَاقُ يُوضِّحُ تَكْرِيمَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمَرْأَةِ وَتَقْدِيرَهَا ، بَعِيدًا عَنْ إِهَانَتِهَا أَوْ إِذْلَالِهَا أَوْ الضَّغْطِ عَلَيْهَا أَوْ وَضْعِهَا أَمَامَ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ . فَهِيَ حُرَّةٌ كَرِيمَةٌ تَخْتَارُ طَرِيقَهَا بِنَفْسِهَا ذُوْنَ ضَغْطٍ .

١١ _ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ كَانَتْ امْرَأَةً عَاقِلَةً وَعَالِمَةً وَفَقِيهَةً ، فَكَيْفَ تَسْتَشِيرُ أَبَوَيْهَا فِي الْبَقَاءِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ ! . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَوْقَ الْاِخْتِيَارَاتِ وَالْقَرَارَاتِ وَالْمَقَارَنَاتِ . لِذَلِكَ اخْتَارَتْ عَائِشَةُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ قَوْرًا ، وَلَمْ تَسْتَشِرْ أَبَوَيْهَا . وَاخْتِيَارُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِشَارَاتٍ وَلَا قَرَارَاتٍ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَقْلِهَا الرَّاجِحِ ، وَأَخْلَاقِهَا الْحَمِيدَةِ ، وَفِكْرِهَا النَّيِّرِ .

١٢ _ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمَرْأَةُ . سَوَاءٌ كَانَتْ زَوْجَةً نَبِيٍّ أَوْ زَوْجَةً رَجُلٍ عَادِيٍّ . فَالطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَاحِدَةٌ ، وَالزَّوْجَةُ تَشْعُرُ بِالْغَيْرَةِ مِنْ ضَرَائِرِهَا ، وَتُرِيدُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُفَضَّلَةُ عِنْدَ زَوْجِهَا ، وَهِيَ الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَيْهِمْ . لِذَلِكَ طَلَبَتْ عَائِشَةُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا يُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ بِمَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ .

١٣ _ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُجَامِلُ عَلَى حِسَابِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَا يُحَابِي أَحَدًا فِي دِينِ اللَّهِ . لِذَلِكَ رَفَضَ طَلَبَ عَائِشَةَ _ مَعَ مُحَبَّتِهِ لَهَا _ . وَقَالَ لَهَا إِنَّهُ سَيُخْبِرُ كُلَّ زَوْجَةٍ إِذَا سَأَلَتْهُ عَنِ الْمَوْضُوعِ . فَاللَّهُ لَمْ يَعْثُ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَنًا ، يَعْنِي : مُشَدِّدًا عَلَى النَّاسِ وَشَقَاءً عَلَيْهِمْ ، وَمُلْزِمًا إِيَّاهُمْ مَا يَصُغُبُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا مُتَعَتِّنًا يَعْنِي : طَالِبًا زَلَّتْهُمْ وَمَشَقَّتْهُمْ . وَلَكِنْ بَعَثَهُ مُعَلِّمًا لَهُمْ ، رَحِيمًا بِهِمْ ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ ، يُبَيِّنُ أُمُورَهُمْ ، وَلَا يُعَقِّدُ حَيَاتَهُمْ .

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٥٢٢) : ((وفي الحديث مُلَاطَفَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ ، وَجَلْمُهُ عَنْهُمْ ، وَصَبْرُهُ عَلَى مَا كَانَ يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنْ إِذْلَالٍ وَغَيْرِهِ ، مِمَّا يَبْعَثُهُ عَلَيْهِنَ الْغَيْرَةُ . وَفِيهِ فَضْلٌ عَائِشَةَ لِبِدَائَتِهِ بِهَا ، كَذَا قَرَّرَهُ النَّوَوِي قَالَ الْعُلَمَاءُ : إِنَّمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَائِشَةَ أَنْ تَسْتَأْمَرَ أَبَوَيْهَا خَشْيَةً أَنْ يَحْمِلَهَا صِغَرُ السِّنِّ عَلَى اخْتِيَارِ الشَّقِّ الْآخَرِ ، لِاحْتِمَالِ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهَا مِنَ الْمَلَكَةِ مَا يَدْفَعُ ذَلِكَ الْعَارِضَ ، فَإِذَا اسْتَشَارَتْ أَبَوَيْهَا أَوْضَحَا لَهَا مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفْسَدَةِ ، وَمَا فِي مُقَابِلِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ . وَلِهَذَا لَمَّا فَطِنَتْ عَائِشَةُ لِذَلِكَ ، قَالَتْ : " قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ " ، وَوَقَعَ فِي رَوَايَةِ عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ : " وَخَشِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدَاثَتِي " ، وَهَذَا شَاهِدٌ لِلتَّوْبِيلِ الْمَذْكُورِ ، وَفِيهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِعَائِشَةَ ، وَبَيَانُ كِمَالِ عَقْلِهَا ، وَصِحَّةِ رَأْيِهَا ، مَعَ

صَغَرَ سِنُّهَا ، وَأَنَّ الْغَيْرَةَ تَحْمِلُ الْمَرْأَةَ الْكَامِلَةَ الرَّأْيَ وَالْعَقْلَ عَلَى ارْتِكَابِ مَا لَا يَلِيقُ بِحَالِهَا ، لِسُؤَالِهَا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ لَا يُخْبِرَ أَحَدًا مِنْ أَزْوَاجِهِ بِفِعْلِهَا ، وَلَكِنَّهُ ﷺ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْحَامِلَ لَهَا عَلَى ذَلِكَ مَا طُبِعَ عَلَيْهِ النِّسَاءُ مِنَ الْغَيْرَةِ وَمَحَبَةِ الْإِسْتِبْدَادِ دُونَ ضَرَائِرِهَا ، لَمْ يُسَعِّفْهَا بِمَا طَلَبَتْ مِنْ ذَلِكَ)) اهـ .

قال القرطبي في تفسيره (١٤٤ / ١٤) : ((اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه ، على قولين : الأول _ أَنَّهُ خَيَّرَهُنَّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَقَاءِ عَلَى الزَّوْجِيَّةِ أَوْ الطَّلَاقِ ، فَاخْتَرْنَ الْبَقَاءَ . قَالَتْ عَائِشَةُ وَمَجَاهِدٌ وَعُكْرَمَةُ وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ شِهَابٍ وَرَبِيعَةُ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّمَا خَيَّرَهُنَّ بَيْنَ الدُّنْيَا فَيُفَارِقَهُنَّ ، وَبَيْنَ الْآخِرَةِ فَيُمَسِّكُهُنَّ لِتَكُونَ لَهُنَّ الْمَنْزِلَةُ الْعُلْيَا كَمَا كَانَتْ لِرُجُوعِهِنَّ ، وَلَمْ يُخَيَّرَهُنَّ فِي الطَّلَاقِ . ذَكَرَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ ، وَمَنْ الصَّحَابَةُ عَلِيٌّ)) اهـ .

قال الحافظ في الفتح (٥٢١ / ٨) : ((والذي يظهر الجمع بين القولين لأن أحد الأمرين ملزوم للآخر ، وكأنهن خيَّرن بين الدنيا فَيُطَلَّقُهُنَّ ، وَبَيْنَ الْآخِرَةِ فَيُمَسِّكُهُنَّ . وَهُوَ مُقْتَضَى سِيَاقِ الْآيَةِ . ثُمَّ ظَهَرَ لِي أَنَّ مَحَلَّ الْقَوْلَيْنِ : هَلْ فُؤِضَ إِلَيْهِنَّ الطَّلَاقُ أَمْ لَا ؟ . وَلِهَذَا أَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : لَمْ يُخَيَّرْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ إِلَّا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) (٦).

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٩] .

وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ رِضَا اللَّهِ وَرِضَا رَسُولِهِ وَنَعِيمَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ هَيَّأَ لِلْعَامِلَاتِ مِنْكُنَّ عَمَلًا صَالِحًا ، ثَوَابًا كَبِيرًا لَا يُوصَفُ ، وَلَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ ، بِسَبَبِ إِحْسَانِكُنَّ وَطَاعَتِكُنَّ . وَهَذَا الثَّوَابُ الْكَبِيرُ هُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي لَا تَفْنَى وَلَا تَزُولُ . فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . وَقَدْ اخْتَارَتْ زَوَاجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا .

(٦) روى الإمام أحمد في مسنده (٧٨ / ١) : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدَّثَنِي سُرَيْجُ بْنُ يُونُسَ ، ثنا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمٍ ، يَعْنِي الْبُرَيْدَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَيَّرَ نِسَاءَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، وَلَمْ يُخَيَّرَهُنَّ الطَّلَاقَ . = [قال ابن كثير في تفسيره (٦٣٣ / ٣) تعليقاً على الحديث السابق : ((وهذا منقطع)) . وقال أحمد شاكر (مسند أحمد ١ / ٧٨ تعليق شُعَيْب الأَرْنَؤُوط) : ((ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ خَطَأً يُخَالِفُ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَيَّرَ أَزْوَاجَهُ الطَّلَاقَ ، فَاخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ _)) [.

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٧٢ / ١) : ((و " من " للتبيين ، لأنهن كلهن كنّ مُحسنات .))

وقال أبو حيان في البحر المحيط (٢٢٧ / ٧) : ((لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ ، وَفَرَّقَ عَنْهُ الْأَحْزَابَ ، وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرَيْظَةَ وَالتَّضْيِيرَ ، ظَنَّ أَزْوَاجَهُ أَنَّهُ اخْتَصَّ بِنَفَائِسِ الْيَهُودِ وَذَخَائِرِهِمْ ، فَقَعَدَنَ حَوْلَهُ وَقُلْنَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَنَاتُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِي الْخَلِيِّ وَالْخُلُلِ ، وَنَحْنُ عَلَى مَا تَرَاهُ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضَّيْقِ ! ، وَآلَمَنَ قَلْبَهُ بِمَطَالِبَتِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِيعَةِ الْحَالِ ، وَأَن يُعَامِلَهُنَّ بِمَا يُعَامِلُ بِهِ الْمُلُوكُ وَالْأَكْبَابُ أَزْوَاجَهُمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِنَّ مَا نَزَّلَ اللَّهُ فِي أَمْرِهِنَّ ، وَأَزْوَاجُهُ إِذْ ذَاكَ تَسْعُ زَوَاجَاتُ)) اهـ .

لقد خُيِّرْنَ فَاخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَنَعِيمَ الْجَنَّةِ الْبَاقِي عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي . وقد أثابهنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : الأول _ التَّفْضِيلُ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٣٢] . والثاني _ جَعْلُهُنَّ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٦] . والثالث _ مَنَعَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ طَلَاقِهِنَّ وَالِاسْتِبْدَالِ بِهِنَّ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٥٢] .

وهذا الفضلُ الإلهيُّ مُقَابِلُ إِحْسَانِهِنَّ وَطَاعَتِهِنَّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . لقد خَلَّدَ اللَّهُ ذِكْرَهُنَّ فِي الدُّنْيَا ، وَشَرَّفَهُنَّ ، وَمَنْحَهُنَّ الْمَكَانَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الرَّفِيعَةَ . وَفِي الْآخِرَةِ ، لَهُنَّ نَعِيمُ الْجَنَّةِ الدَّائِمُ بِلَا انْقِطَاعٍ . وهذا جزاء اختيار الله ورسوله ﷺ . وَلَوْ اخْتَرْنَ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَخَسِرْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ مَعًا . وقال اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٣٠] .

يُوجِّهُ اللَّهُ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَيُرْشِدُهُنَّ وَيَنْصَحُهُنَّ ، وَيَعْظُهُنَّ ، بَعْدَ اخْتِيَارِهِنَّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . وهذا يدل على اعتناء الله بهنَّ ، ورعايته لهنَّ .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ : مَنْ تَرْتَكِبُ مِنْكُنَّ كَبِيرَةً وَاضِحَةً الْقُبْحِ وَالْفُحْشِ ، أَوْ تَقْتَرِفُ إِثْمًا شَنِيعًا _ وَقَدْ عَصَمَهُنَّ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَطَهَّرَهُنَّ _ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ يُضَاعَفُ لَهَا ضِعْفَيْنِ . أَيِ إِنَّهَا تُعَذَّبُ مِثْلِي عَذَابِ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ إِذَا جَاءَتْ بِمِثْلِ تِلْكَ الْكَبِيرَةِ . وَتَغْلِيظُ الْعُقُوبَةِ لِحِمَايَةِ شَرَفِهِنَّ ، وَصَوْنِ كِرَامَتِهِنَّ . وَوُقُوعُ ذَلِكَ مِنْ نِسَاءِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ يَقْتَضِي شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ الْفَاحِشَةِ ، وَهُوَ أَذَى النَّبِيِّ ﷺ . وهذا الأمرُ يُوَثِّرُ سَلْبًا عَلَى الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَيُزَلِّزُ إِيْمَانَ النَّاسِ ، وَيَبْعَثُ الشُّكُوكَ فِي قُلُوبِهِمْ . لذلك ، ضَوِّعَتْ لَهُنَّ الْعُقُوبَةُ ، تَعْظِيمًا لِحَقِّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَحِفْظًا لِمَكَانَتِهِ وَشَرَفِهِ وَكَرَامَتِهِ .

وما قُبِحَ مِنَ النِّسَاءِ (الذنوب والآثام) فهو أكثر قُبْحًا مِنْ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وزيادة قُبْحِ المعصية يَتَّبِعُ زيادةَ الفَضْلِ والمرتبة ، ونساءُ النَّبِيِّ ﷺ هُنَّ أَشْرَفُ النِّسَاءِ وَأَعْظَمُهُنَّ وَأَطْهَرُهُنَّ . وهذا يدل على مكانتهنَّ العظيمة، وشرفهنَّ الرفيع، ويُشير إلى المنزلة الاستثنائية لنساءِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ ، حيث تَمَّ التشديد عليهنَّ في حال إتيانهنَّ بفاحشة واضحة ، وذلك لِرَفْعَةِ قَدْرِهِنَّ بسبب ارتباطهنَّ بالنبي ﷺ ، وهُنَّ أزواجه في الجنة ، والقُرْبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ يَعْنِي القُرْبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وأيُّه فاحشة تُصيب زوجةً مِنْ زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، تُعْتَبَرُ طَعْنًا فِي طَهَارَةِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، وهذا الأمر يجعل حياة النبي والدعوة الإسلامية في محل الشبهات والشُّكوك .

وكانَ عِقَابُهُنَّ وَعَذَابُهُنَّ _ إِذَا أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ _ سَهْلًا هَيِّنًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٧٢) : ((وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)) لَا يَمْنَعُهُ عَنِ التَّضْعِيفِ كَوْنُهُنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ، وكيف وهو سببه)) اهـ .

لقد كانت مُخاطبتهنَّ على لسان النبي ﷺ ، ثُمَّ وَجَّهَ اللَّهُ لَهُنَّ الْخُطَابَ مُبَاشَرَةً بِلا واسطة ، لإظهار مكانتهنَّ العظيمة ، وإبراز فضلهنَّ الجليل وَقَدْرِهِنَّ عِنْدَ اللَّهِ ، ورعايتهنَّ ، والعناية بهنَّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٧٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : « مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ »

﴿

أَي : بِمَعْصِيَةٍ ظَاهِرَةٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي النَّشُوزَ وَسُوءَ الْخُلُقِ . « يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » أَي : يُجْعَلُ عَذَابُ جُرْمِهَا فِي الْآخِرَةِ كَعَذَابِ جُرْمَيْنِ ، كَمَا أَنَّهَا تُؤْتَى أَجْرُهَا عَلَى الطَّاعَةِ مَرَّتَيْنِ . وَإِنَّمَا ضَوْعُفُ عِقَابُهُنَّ لِأَنَّهُنَّ يُشَاهِدْنَ مِنَ الزَّوَاجِرِ الرَّادِعَةِ مَا لَا يُشَاهِدُ غَيْرُهُنَّ ، فَإِذَا لَمْ يَمْتَنِعَنَّ اسْتَحَقَّقْنَ تَضْعِيفَ الْعَذَابِ ، وَلِأَنَّ فِي مَعْصِيَتِهِنَّ أَذَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَجُرْمٌ مِّنْ أَذَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْبَرُ مِنْ جُرْمِ غَيْرِهِ)) اهـ .

والجدير بالذكر أَنَّ الْآيَةَ : « مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ » شَرْطٌ ، وَالشَّرْطُ لَا يَقْتَضِي الْوُقُوعَ . وَالْآيَةُ لَا تَعْنِي أَنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ مُنْحَرِفَاتٌ أَخْلَاقِيًّا ، أَوْ يَرْتَكِبْنَ الْفَوَاحِشَ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ وَوَعْدٌ لَهُنَّ ، وَذَلِكَ لِمَكَانَتِهِنَّ الْعَظِيمَةِ ، فَهُنَّ الشَّرِيفَاتُ الطَّاهِرَاتُ ، زَوَاجَاتُ أَعْظَمِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٥٥) : ((قَالَ الْعُلَمَاءُ : لَمَّا اخْتَارَتْ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، شَكَرَهُنَّ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ تَكْرِمَةً لَهُنَّ : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ » [الْأَحْزَابُ : ٥٢] . وَبَيَّنَّ حُكْمَهُنَّ عَنْ غَيْرِهِنَّ ، فَقَالَ : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا

رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴿ [الأحزاب: ٥٣] . وَجَعَلَ ثَوَابَ طَاعَتِهِمْ وَعِقَابَ مَعْصِيَتِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا لغيرهم ، فقال : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ ، فأخبر تعالى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِفَاحِشَةٍ _ وَاللَّهُ عَاصِمٌ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا مَرَّ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ _ ﴿ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ لِشَرَفِ مَنْزِلَتِهِمْ وَفَضْلِ دَرَجَتِهِمْ ، وَتَقَدُّمِهِمْ عَلَى سَائِرِ النِّسَاءِ أَجْمَعِ ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَّتِ الشَّرِيعَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ أَنَّهُ كَلِمَا تَضَاعَفَتِ الْحُرُمَاتُ فَهُنَّكَ ، تَضَاعَفَتِ الْعُقُوبَاتُ ، وَلِذَلِكَ ضُوِّعَ حَدُّ الْحُرِّ عَلَى الْعَبْدِ ، وَالنَّبِيِّ عَلَى الْبَكْرِ . وَقِيلَ : لَمَّا كَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَهْطِ الْوَحْيِ ، وَفِي مَنْزِلِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ قَوِي الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ ، وَلَزِمَهُمْ بِسَبَبِ مَكَانَتِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ غَيْرَهُمْ ، فَضُوِّعَ لَهُنَّ الْأَجْرُ وَالْعَذَابُ . وَقِيلَ : إِنَّمَا ذَلِكَ لِعِظَمِ الضَّرَرِ فِي جَرَائِمِهِمْ بِإِذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَتِ الْعُقُوبَةُ عَلَى قَدْرِ عِظَمِ الْجَرِيمَةِ فِي إِذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣١] .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْكُنَّ ، وَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِفِعْلِ الْخَيْرِ ، وَعَمَلَ الصَّالِحَاتِ ، يُضَاعَفُ اللَّهُ لَهَا الثَّوَابَ ، أَيُ : يُعْطِيهَا اللَّهُ ثَوَابَ عَمَلِهَا مِثْلِي ثَوَابِ عَمَلِ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ النِّسَاءِ . يُثَبِّهُ اللَّهُ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى ، وَمَرَّةً عَلَى طَلَبِ رِضَا النَّبِيِّ ﷺ ، وَالْعَمَلِ عَلَى إِسْعَادِهِ ، وَعَدَمِ إِزْعَاجِهِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٧٣) : ((مَرَّةً عَلَى الطَّاعَةِ ، وَمَرَّةً عَلَى طَلَبِهَا رِضَا النَّبِيِّ ﷺ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ بِالْقَنَاعَةِ وَحُسْنِ الْمَعَاشَرَةِ)) اهـ .

وَأَعَدَّ اللَّهُ لَهَا فِي الْآخِرَةِ حَيَاةً جَمِيلَةً وَرَائِعَةً وَسَعِيدَةً لَا نَهَايَةَ لَهَا ، وَرِزْقًا كَرِيمًا عَظِيمًا الْقَدْرَ ، لَا يَزُولُ وَلَا يَنْقُطُ . وَالْمَقْصُودُ هُوَ نَعِيمُ الْجَنَّةِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٦٣٥) : ((فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فِي أَعْلَى الْعِلِّيِّينَ فَوْقَ مَنَازِلِ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ، فِي الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

إِنَّ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ لَسَنَ نِسَاءٍ عَادِيَاتٍ. إِنَّهُنَّ أَشْرَفَ النِّسَاءِ ، وَأَعْظَمَهُنَّ قَدْرًا ، وَأَرْفَعَهُنَّ مَنْزِلَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَا يُمَكِّنُ مُقَارَنَتَهُنَّ مَعَ غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ فِي الشَّرَفِ وَالرَّفْعَةِ وَالْفَضْلِ ، بِسَبَبِ كَوْنِهِنَّ زَوَاجَاتِ أَعْظَمِ الْخَلْقِ ، النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَالخِطَابُ الإِلَهِيُّ الْمُبَاشِرُ لَهُنَّ يَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِهِنَّ الْعَظِيمَةِ ، وَقَدَّرِهِنَّ الْجَلِيلِ ، وَشَرَفَهُنَّ الرَّفِيعِ

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٤٨) : ((قال ابن عباس : يُرِيدُ لَيْسَ قَدْرُكَنَّ عِنْدِي مِثْلَ قَدْرِ غَيْرُكَنَّ مِنَ النِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ . أَنْتُنَّ أَكْرَمُ عَلَيَّ ، وَثَوَابُكُنَّ أَعْظَمُ لَدَيَّ . وَلَمْ يَقُلْ : كَوَاحِدَةٍ ، لِأَنَّ " الْوَاحِدَ " عَامٌ يَصْلُحُ لِلوَاحِدِ وَالْاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ)) اهـ .

﴿ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ . إِنِ خِفْتُنَّ اللَّهَ ، وَفُتِمْتُنَّ بِأَدَاءِ الطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنَابِ الْمَعَاصِي . وَقَدْ وَضَّحَ اللَّهُ لَهُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ لَهُنَّ تَتِمُّ بِالتَّقْوَى وَالطَّاعَةِ وَالنِّزَامِ وَأَمْرِ اللَّهِ ، وَاجْتَنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَلَيْسَ بِمُجَرَّدِ اتِّصَالِهِنَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ . وَقَدْ كُنَّ شَرِيفَاتٍ طَاهِرَاتٍ عَابِدَاتٍ مُخْلِصَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَسَائِرَاتٍ وَفَقَّ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى وَفَاتِهِنَّ . وَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ عَلَى هَذَا . وَلَوْ صَدَرَ مِنْهُنَّ فَاحِشَةٌ أَوْ انْحِرَافٌ وَحَاشَاهُنَّ _ لظَهَرَ ذَلِكَ ، وَانْتَشَرَ فِي التَّارِيخِ ، وَتَمَّ تَعْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ ، وَتَلَوِيثُ سُمُعَتِهِ . خُصُوصًا أَنَّ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَصْطَادُونَ فِي مَاءِ أَفْكَارِهِمُ الْعَكْرِ ، وَيَبْحَثُونَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ لِلطَّعْنِ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَشْكِيكِ النَّاسِ بِهِ ، وَالتَّشْوِيشِ عَلَى الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى اسْتِقَامَةِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَطَهَارَتِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ وَحُسْنِ سِيرَتِهِنَّ وَسُلُوكِهِنَّ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِنَّ أَيُّ مَمْسَكٍ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثَرَةِ الْأَعْدَاءِ عِبْرَ كُلِّ مَرَاكِلِ التَّارِيخِ (الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْمُسْتَشْرِقُونَ وَصِيَّانُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٥٧) : ((فَبَيَّنَ أَنَّ الْفَضِيلَةَ إِنَّمَا تَتِمُّ لَهُنَّ بِشَرَطِ التَّقْوَى ، لِمَا مَنَحَهُنَّ اللَّهُ مِنْ صُحْبَةِ الرَّسُولِ ، وَعَظِيمِ الْمَحَلِّ مِنْهُ ، وَنَزُولِ الْقُرْآنِ فِي حَقِّهِ)) اهـ .

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ . هَذَا نَهْيٌ إِلَهِيٌّ لَهُنَّ عَنْ تَرْفِيقِ الْكَلَامِ عِنْدَ مُخَاطَبَةِ الرِّجَالِ ، لِأَنَّهُ يَفُودُ إِلَى مَفَاسِدَ كَبِيرَةٍ ، وَيُدْمِرُ الْعِلَاقَاتِ الْأُسْرِيَّةَ ، وَيُؤَدِّي إِلَى عِلَاقَاتٍ مُحَرَّمَةٍ ، وَخِيَانَاتٍ زَوْجِيَّةٍ ، وَيُنْشِرُ الْفَوَاحِشَ وَالشُّكُوكَ وَالْأَخْلَاقَ الْمَذْمُومَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ .

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُنَّ وَاضِعًا وَمَتَمَاسِكًا ، بَلَا دَلَعٍ وَلَا دَلَالٍ وَلَا غَنَجٍ وَلَا لِينٍ . وَكَانَتْ نِسَاءُ الْعَرَبِ يَعْتَمِدْنَ عَلَى تَرْخِيمِ الصَّوْتِ عِنْدَ مُخَاطَبَةِ الرِّجَالِ ، لِإِظْهَارِ أُنُوثَتِهِنَّ وَنُعُومَتِهِنَّ وَدَلَالِهِنَّ .

فنهأهنَّ اللهُ عن هذا الأمر. والنَّهْيُ لا يَقْتَضِي وُقُوعَ الْفِعْلِ . فمثلاً ، حِينَ تَقُولُ لشخص : لا تَزِن . فهذا لا يعني أنه كان يَزني ، أو : لا تَسْرِق ، فهذا لا يعني أنه كان يسرق ... إلخ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٧٣ / ١) : ((فلا تَجُنَّ بِقَوْلِكَ خاضعاً لَيْنًا مِثْلَ قَوْلِ الْمُرِيَّاتِ)) .
﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ . فيطمع الذي في قلبه مرض الشَّهْوَةِ وَالْفِسْقِ وَالْغَزْلِ وَالْفُجُورِ ، وعشيق النساء ومُحَادَثَتِهِنَّ . والمرأة ناعمة ورقيقة بطبيعتها ، ولكن ينبغي أن يكون صَوْتُهَا خَشِينًا وَصَلْبًا فِي مُحَادَثَةِ الْأَجَانِبِ دُونَ رَفْعِ صَوْتِهَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَقْطَعُ الطَّمَعَ فِيهَا ، وَيُعْلِقُ الْبَابَ أَمَامَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَيَسُدُّ الذَّرَائِعَ الْمَوْصِلَةَ إِلَى الْحَرَامِ . وَالرَّجُلُ إِذَا اسْتَمَعَ إِلَى امْرَأَةٍ تُحَدِّثُهُ بِرِقَّةٍ وَدَلَالٍ وَنَعُومَةٍ ، سَيَطْمَعُ فِيهَا ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ تُحِبُّهُ وَتُرِيدُهُ ، فَيَتَجَرَّأُ عَلَى مُغَازَلَتِهَا ، وَإِقَامَةِ عِلَاقَةٍ مَعَهَا .

وقال البغوي في تفسيره (٣٤٨ / ١) : ((﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أي : فُجُورٍ وَشَهْوَةٍ . وَقِيلَ : نِفَاقٌ . وَالْمَعْنَى : لَا تَقْلُنْ قَوْلًا يَجِدُ مَنَافِقَ أَوْ فَاجِرَ بِهِ سَبِيلًا إِلَى الطَّمَعِ فَيَكُنَّ . وَالْمَرْأَةُ مَنْدُوبَةٌ إِلَى الْغِلْظَةِ فِي الْمَقَالَةِ إِذَا خَاطَبَتِ الْأَجَانِبَ لِقَطْعِ الْأَطْمَاعِ)) اهـ .

﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ . وَقُلْنَ قَوْلًا جَمِيلًا حَسَنًا فِي الْخَيْرِ بوضوح وبيان دون خُضُوعٍ وَلَا تَرْقِيقٍ ، بَعِيدًا عَنِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ وَالرَّيْبَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُحَادَثَةِ الرِّجَالِ ، فَلَا يَطْمَعُ فَيَكُنَّ فَاجِرَةً وَلَا مُنَافِقَةً . وقال القرطبي في تفسيره (١٤٤ / ١٥٧) : ((قال ابن عباس : أَمَرَهُنَّ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْمَرْأَةُ تُنَدِّبُ إِذَا خَاطَبَتِ الْأَجَانِبَ ، وَكَذَا الْمُحَرِّمَاتُ عَلَيْهَا بِالْمُصَاهَرَةِ ، إِلَى الْغِلْظَةِ فِي الْقَوْلِ ، مِنْ غَيْرِ رَفْعِ صَوْتٍ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ مَأْمُورَةٌ بِخَفْضِ الْكَلَامِ . وَعَلَى الْجُمْلَةِ ، فَالْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ : هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لَا تُنْكِرُهُ الشَّرِيعَةُ وَلَا النَّفْسُ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٦٣٦ / ٣) : ((ومعنى هذا أنها تُخَاطَبُ الْأَجَانِبَ بِكَلَامٍ ، لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيمٌ . أَيْ : لَا تُخَاطَبُ الْمَرْأَةُ الْأَجَانِبَ كَمَا تُخَاطَبُ رَوْجُهَا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وَالزَّمْنُ بُيُوتُكُنَّ ، وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ وَتَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ شَرْعِيَّةٍ . وَفِي ذَلِكَ صِيَانَةٌ لَشَرْفِهِنَّ ، وَتَشْرِيفٌ لِهِنَّ . وَالْجَوْهَرَةُ الثَّمِينَةُ تُحَاطُ بِالْحِمَايَةِ ، وَلَا تُرْمَى فِي الشُّوَارِعِ . وَهَذَا خِطَابٌ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ ، فَعَلَيْهَا أَنْ تَلْزِمَ بَيْتَهَا ، وَلَا تَخْرُجَ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ الْمُلِحَّةِ ، وَلَا تُبْعَثِرَ وَقَارَهَا فِي

التَّسَكُّعُ فِي الْأَسْوَاقِ وَالشُّوَارِعِ، وَلَا تُصْبِحُ سِلْعَةً تَنْجَوُلُ فِي الطَّرِيقَاتِ أَمَامَ عَيُونِ النَّاسِ. وَخُرُوجُ الْمَرْأَةِ مِنْ بَيْتِهَا بِلا حَاجَةٍ سَبَبٍ لِلْفِتْنَةِ وَالْإِغْرَاءِ ، وَالْفِتْنَةُ حَرَامٌ ، وَمَا أَدَّى إِلَى حَرَامٍ فَهُوَ حَرَامٌ .
وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٨٦٥): ((وَقَرَنَ فِي يُبَوِّتُكُنَّ)) أَمْرٌ لِهِنَّ مِنَ الْوَقَارِ وَالْقَرَارِ جَمِيعًا .((

ومن الحوائج الشرعية لخروج المرأة ، الصلاة في المسجد وفق الضوابط والشروط . فتخرج غير مُتَعَطِّرة ، ولا لابسة ثوب زينة .

وفي صحيح ابن جَبَّان (٥ / ٥٨٩): عن زيد بن خالد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ ، وَلْيُخْرِجْنَ ثَفَالَاتٍ)) (٧).

أي : غَيْرُ مُتَطَيِّبَاتٍ . وقال ابن الجوزي في غريب الحديث (١ / ١٠٩) : ((المعنى : لِيُخْرِجْنَ كَالْمُنْتِنَاتِ الرِّيحَ لِتُرِكَ الطَّيِّبُ)) اهـ .

وصلاة المرأة في بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي الْمَسْجِدِ .

وقد قال النبي ﷺ : ((صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا)) (٨).

ومَخْدَعُهَا هُوَ غُرْفَتُهَا الَّتِي تَكُونُ دَاخِلَ بَيْتِهَا .

﴿ وَلَا تَبْرُجْنَ تَبْرُجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (٩). التَّبْرُجُ هُوَ إِظْهَارُ الْمَرْأَةِ لَزِينَتِهَا وَمِفَاتِنِهَا وَمَحَاسِنِهَا الَّتِي يَجِبُ سِتْرُهَا ، لاسْتِدْعَاءِ شَهْوَةِ الرَّجُلِ وَإِعْجَابِهِ . وَالتَّبْرُجُ يَشْمَلُ التَّبَخُّثُ وَالتَّكْسُّرُ فِي الْمَشْيِ .

وكانت المرأة في الجاهلية تُظْهِرُ زِينَتَهَا وَمَحَاسِنَهَا أَمَامَ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، فَهِيَ اللَّهُ الْمُسْلِمَاتِ عَنْ ذَلِكَ، وَخَاصَّةً زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ. وَالْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى إِظْهَارِ زِينَتِهَا، وَكَشْفِ مِفَاتِنِهَا لِإِغْرَاءِ الرِّجَالِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى اهْتِمَامِهِمْ وَإِعْجَابِهِمْ ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمْشِي بَيْنَ الرِّجَالِ

(٧) قال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٥٢): ((رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ، وإسناده حسن)) اهـ.
والحديث مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ [البخاري (١ / ٣٠٥) ومسلم (١ / ٣٢٦)] بلفظ : ((لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ)) .

(٨) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣ / ٩٥) برقم (١٦٩٠) .

(٩) يُقَالُ : تَبَرَّجَتِ السَّمَاءُ ، أَي تَزَيَّنَتْ بِالْكَوَاكِبِ . وَتَبَرَّجَتِ الْمَرْأَةُ ، أَي أَظْهَرَتْ زِينَتَهَا وَمَحَاسِنَهَا .
انظر المعجم الوجيز ، ص ٤٣ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

مُتَعَطِّرة مُتَكَشِّفَةً، كما أن مِشْيَتِهَا فِيهَا تَكْشُرُ وَتَبْخُثُرُ. وهذا الأمر شديد الخطورة على الفرد والمجتمع.

لقد نهى الله نساءَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ عَنِ التَّبَرُّجِ وإظهارِ الزينة الواجب سِتْرُهَا، والتَّبَرُّجِ شعار المرأة في الجاهلية . ولَمَّا جاء الإسلام بنظامه الاجتماعي المتناسك، عَزَزَ قِيَمَ الفضيلة، وذلك بمحاربة التبرج وظهور العورات ، ومنع نشر الفواحش والشهوات بين أفراد المجتمع .

وبما أن نساء بيت النَّبُوَّةِ هُنَّ السَّيِّدَاتِ صاحبات الصدارة في المشهد النسائي في المجتمع المسلم، كان عليهنَّ أن يَكُنَّ القُدُوةَ الحسنة لِمَن خَلْفَهُنَّ مِن نساء المؤمنين، لذلك كان التدقيق عليهنَّ لأنهنَّ مركز الطهارة ، ومنبع الفضيلة الخارجة مِن بَيْتِ النَّبُوَّةِ الشريف .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه تلا هذه الآية: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾، قال : ((كانت فيما بين نُوحٍ وإدريسَ ألف سنة ، وإنَّ بَطْنَيْنِ مِن وَلَدِ آدَمَ كان أحدهما يَسْكُنُ السَّهْلَ ، والآخر يَسْكُنُ الْجَبَلَ ، وكان رِجَالُ الْجَبَلِ صِبَاخًا _ يعني جَمِيلِينَ مُشْرِقِينَ _ ، وفي النساء دَمَامَةٌ _ يعني قُبْحًا _ ، وكانت نساء السَّهْلِ صِبَاخًا ، وفي الرجال دَمَامَةٌ ، وإن إبليس أتى رَجُلًا مِن أَهْلِ السَّهْلِ في صورة غلام ، فجاء فيه بصوت لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِثْلَهُ، فاتخذوا عِيْدًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ ، وإن رَجُلًا مِن أَهْلِ الْجَبَلِ هَجَمَ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ فِي عِيْدِهِمْ ذَلِكَ ، فرأى النساءَ وَصَبَّاحَتَهُنَّ ، فأَتَى أَصْحَابَهُ ، فأخبرهم بذلك فتحوَّلوا إِلَيْهِنَّ ، ونزلوا معهنَّ ، فَظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِنَّ ، فذلك قَوْلُ اللَّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾))⁽¹⁰⁾.

و " الجاهلية الأولى " مُصْطَلَحٌ يُعَبِّرُ عَنْ مَرَحَلَةٍ زَمْنِيَّةٍ مُّحَدَّدَةٍ . فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كانت الجاهلية الأولى أَلْفَ سَنَةٍ فيما بين نُوحٍ وإدريس))⁽¹¹⁾.

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٥٨) : [واختلف الناس في (الجاهلية الأولى) ، فقليل : ((هي الزمن الذي وُلِدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ _ عَلَيْهِ السَّلَام _ ، كانت المرأة تلبس الدَّرْعَ مِنَ اللَّوْلُؤِ فتمشي وسط الطريق تعرض نَفْسَهَا عَلَى الرَّجَالِ)) . وقال الحكم بن عُيَيْنَةَ : ((ما بين آدَمَ وَنُوحٍ ، وهي ثمانمائة سنة ، وَحُكِّيتَ لَهُمْ سِيرَ ذَمِيمَةٍ)) . وقال ابن عباس : ((ما بين نوح وإدريس)) . الكلبي : ((ما بين نوح وإبراهيم)) ، قيل : ((إن المرأة كانت تلبس الدَّرْعَ مِنَ اللَّوْلُؤِ غير مخيط

(١٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٩٨) برقم (٤٠١٣) ، وسكت عنه الذهبي .

(١١) دَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٨ / ٥٢٠) ، وقال : ((إسناده قوي)) .

الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ، ولا توارى بدنها)) . وقالت فرقة : ((ما بين موسى وعيسى)) . الشَّعبي : ((ما بين عيسى ومحمد ﷺ)) . أبو العالية : ((هي زمان داود وسليمان ، كان فيه للمرأة قميص من الدُّر غير مخيط الجانبين)) . وقال أبو العباس المَبَرَّد : ((والجاهلية الأولى ، كما تقول الجاهلية الجهلاء)) ، قال : ((وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يُظْهَرْنَ ما يَقْبَح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زَوْجها وَخِلَّها ، فينفرد خِلَّها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد زَوْجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل)) [اهـ .

هذا الانهيارُ الشاملُ يتمحور حول الغري والتَّعري والإغراء ، حيث كانت المرأة تختصر وسائل إغراء لجذب أنظار الرِّجال، وتُلبِّس اهتمامهم ، والسيطرة على مشاعرهم ، وتهيج شهواتهم، وبالتالي تصبح المتعة منظومةً مشتركة بين الرِّجل والمرأة ، ويشترك الاثنان في الاستمتاع المحرَّم . ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ . حَافِظُنَّ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . والصلاة والزكاة زَكَنان من أركان الإسلام ، ففي الصلاة يتجلى توحيد الله تعالى ، وهي عبادة بدنية . وفي الزكاة يتضح التكافل الاجتماعي ، وهي عبادة مالية .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٣٩٥/٤): ((خُصَّ الصلاة والزكاة ، لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية)) اهـ .

﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . هذا أمرٌ إلهيٌّ لهنَّ بطاعة الله ورسوله ﷺ في كُلِّ الأوامر والنَّواهي (في كُلِّ ما هو شرع) ، كي يَصِلْنَ إلى أعلى درجات العبودية والتقوى . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٣٦): ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . نهاهُنَّ أولاً عن الشر، ثُمَّ أمرهنَّ بالخير، مِنْ إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وَحْدَهُ ، لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين . ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وهذا مِنْ باب عَطْفِ العام على الخاص)) اهـ .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ . هذه الآية دليلٌ واضح على أَنَّ زَوَجات النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ . وَهُنَّ المقصودات بأهل البيت في هذا السِّيَاق .

إنما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي يَدْنُسُ الْأَعْرَاضَ وَيُلَوِّثُهَا ، كما تُلَوِّثُ النجاسةُ الأبدانَ . وهذا تعليلٌ لأمرهنَّ وَنَهْيهنَّ . وَالرِّجْسُ هو العملُ الْمُنْكَرُ ، شديد القُبْح والقذارة . وقال الله : ﴿ عَنْكُمُ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : عَنْهُنَّ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِيهِنَّ ، فَغَلَبَ الْمُنْذَرُ .

واللغة أيضاً تدل على أنها لنساء النبي ﷺ ورجال آل البيت . يعني : للنساء والرجال جميعاً . ولو كانت للنساء خاصة لقال : عَنْكُمْ . فتم تغليب الرجال على النساء . ويجب القول بالتغليب ، وإلا فإن فاطمة الزهراء ستخرج من آل البيت . وهي من آل البيت باتفاق المسلمين .

﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ . نُصِبَ عَلَى الْمَدْح ، أَوِ النَّدَاء ، أَيْ : يَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ .

وقال الشَّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٣٩٥) : ((أَيْ : إِنَّمَا أَوْصَاكَ اللَّهُ بِمَا أَوْصَاكَ مِنْ التَّقْوَى وَأَنْ لَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ ، وَمِنْ قَوْلِ الْمَعْرُوفِ ، وَالسُّكُونِ فِي الْبُيُوتِ ، وَعَدَمِ التَّبَرُّجِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالطَّاعَةِ ، لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . وَالْمَرَادُ بِالرَّجْسِ الْإِثْمُ وَالذَّنْبُ الْمُدْتَسَانُ لِلْأَعْرَاضِ ، الْحَاصِلَانِ بِسَبَبِ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَفَعَلَ مَا نَهَى عَنْهُ ، فَيَدْخُلُ تَحْتَ ذَلِكَ كُلِّ مَا لَيْسَ فِيهِ لِلَّهِ رِضَا)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٨١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴾ . وَفِيهِ لِلْمُفَسِّرِينَ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا الشَّرْكُ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَالثَّانِي : الْإِثْمُ ، قَالَهُ الشُّدِّي . وَالثَّلَاثُ : الشَّيْطَانُ ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ . وَالرَّابِعُ : الشَّكُّ ، وَالْخَامِسُ : الْمَعَاصِي ، حَكَاهُمَا الْمَاوَرِدِيُّ . قَالَ الزَّجَّاجُ : الرَّجْسُ كُلُّ مُسْتَقْدَرٍّ مِنْ مَأْكُولٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ فَاحِشَةٍ . وَنُصِبَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا عَلَى مَعْنَى : أَعْنِي أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَالثَّانِي عَلَى النَّدَاءِ ، فَالْمَعْنَى : يَا أَهْلَ الْبَيْتِ . وَفِي الْمَرَادِ بِأَهْلِ الْبَيْتِ هَاهُنَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ نِسَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لِأَنَّهُنَّ فِي بَيْتِهِ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ عِكْرِمَةُ وَابْنُ السَّائِبِ وَمُقَاتِلٌ . وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْقَوْلَ أَنَّ مَا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ مُتَعَلِّقٌ بِأَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَعَلَى أَرْبَابِ هَذَا الْقَوْلِ اعْتِرَاضٌ ، وَهُوَ أَنَّ جَمْعَ الْمُؤَنَّثِ بِالتَّنْوِينِ ، فَكَيْفَ قِيلَ : ﴿ عَنْكُمْ ﴾ ، ﴿ وَيُطَهَّرُكُمْ ﴾ . فَالْجَوَابُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِنَّ ، فَغَلَبَ الْمُذَكَّرُ . وَالثَّانِي أَنَّهُ خَاصٌّ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَعَلَيَّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ، قَالَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ، وَزُيِّعَ عَنْ أَنَسٍ وَعَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ نَحْوَ ذَلِكَ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُمْ أَهْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَزْوَاجُهُ قَالَهُ الصَّحَّاحُ)) اهـ .

﴿ وَيُطَهَّرُكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . وَيُطَهَّرُكُمْ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَقِذَارَةِ الذُّنُوبِ ، وَنَجَاسَةِ الْآثَامِ ، تَطْهِيراً شَامِلاً وَكَامِلاً . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ وَصْفَ الذُّنُوبِ بِالرَّجْسِ ، وَوَصْفَ التَّقْوَى بِالطُّهْرِ ، يُشِيرَانِ إِلَى أَنَّ عَرَضَ الْإِنْسَانِ يَتَلَوَّثُ بِالْمَعَاصِي ، كَمَا يَتَلَوَّثُ جِسْمُهُ بِالنَّجَاسَاتِ . وَهَذَا تَنْفِيرٌ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَتَرْهيبٌ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ ، وَتَرْغِيبٌ فِي الطَّاعَاتِ ، وَخَضُّ عَلَى التَّقْوَى . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٧٣) : ((وَاسْتِعَارَةُ الرَّجْسِ لِلْمَعَاصِي ، وَالتَّرْشِيحُ بِالتَّطْهِيرِ لِلتَّنْفِيرِ عَنْهَا)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٨٨٣) : قالت عائشة : خرج النبي ﷺ عَدَاةً ، وعليه مِرْطٌ مُرَحَلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ ، فجاء الحسن بن عليٍّ ، فأدخله ، ثُمَّ جاء الحسين ، فدخل معه ، ثُمَّ جاءت فاطمة ، فأدخلها ، ثُمَّ جاء عليٌّ ، فأدخله ، ثُمَّ قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

لقد خَرَجَ النبي ﷺ في أول النهار ، وعليه كِسَاءٌ نُقِشَ فِيهِ تصاوِيرُ رِحَالِ الْإِبِلِ ، ولا بأس بهذه التصاوِيرِ . وهذا الكِسَاءُ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ . وقد أدخلهم النبي ﷺ ، وظَلَّلَهُمْ بِالْكِسَاءِ لِبَيَانِ خصوصيتهم وفضلهم ، ومكانتهم العظيمة ، وقَدَّرَهُمُ الرِّفِيعَ . وقد اعتمدَ الشَّيْعةُ الروافضُ على هذا الحديث لتخصيص آل البيت بعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين ، والاحتجاج على عصمتهم . وَحُجَّتُهُمْ واهية ، لأنَّ التخصيصَ بِهِمْ يتعارض مع سياق الآيات (ما قَبْلُهَا وما بَعْدُهَا) . وهذا الحديث يُثَبِّتُ أَنَّهُمْ مِنْ آلِ الْبَيْتِ ، ولا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ . وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت : في بَيْتِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ . قالت : فأرسلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين _ رضوان الله عليهم أجمعين _ ، فقال : ((اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي)) . قالت أُمُّ سَلَمَةَ : يا رسول الله ، ما أنا من أهل البيت ؟ ، قال : ((إِنَّكَ أَهْلِي خَيْرَ ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، اللَّهُمَّ أَهْلِي أَحَقُّ)) (12) . وعن عُمر بن أبي سَلَمَةَ رَيْبِ النَّبِيِّ ﷺ قال : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ، في بيت أُمِّ سَلَمَةَ ، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً ، فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ ، وعليٍّ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ ، ثُمَّ قال : ((اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا)) . قالت أُمُّ سَلَمَةَ : وأنا معهم يا نبي الله ؟ ، قال : ((أَنْتِ عَلَى مَكَانِكَ ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ)) (13) .

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٥١) برقم (٣٥٥٨) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

(١٣) رواه الترمذي في سننه (٥ / ٣٥١) برقم (٣٢٠٥) . وقال السيوطي في الدر المنثور (٦ / ٦٠٤) : ((وأخرج الترمذي وصَحَّحَهُ وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصَحَّحَهُ وابن مَرْذُوقِيه والبيهقي في سننه مِنْ طَرُقٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قالت : في بَيْتِي نَزَلَتْ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، وفي البيت فاطمة وعليٌّ والحسن والحسين ، فَجَلَّلَهُمْ رسولُ اللَّهِ ﷺ بِكِسَاءٍ كانَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قال : " هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا ")) .

هناك احتمالان لفهم الحديث: الأول_ أنتِ على مكانك وموقعك باعتباركِ من أهل بيتي ، ولا حاجة لك في الدُّخول تحت الكساء ، خاصةً أنَّ عليًّا موجود تحت الكساء ، وهو رجل أجنبي بالنسبة لأم سلمة. وهذا هو الاحتمال الراجح والصواب . والثاني _ أنتِ على خير وإن لم تكوني من أهل بيتي. والمقصود بأهل البيت هنا ، هم الدائرة الضيقة المحيطة بالنبي ﷺ (علي و فاطمة والحسن والحسين) . وأهل البيت مفهوم واسع يشمل زوجات النبي ﷺ بنص القرآن .

وقال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

[الأحزاب : ٣٤] (14).

هذه الألفاظ تدل على أنَّ نساء النبي ﷺ من أهل بيته، لكنَّ قرابة النبي ﷺ (علي و فاطمة والحسن والحسين) أحقُّ بهذه التسمية، لذلك قال النبي ﷺ: ((وهؤلاء أهل بيتي، اللهم أهلي أحق)).

ومعنى الآية : واذْكُرْنَ هذه النعمة الإلهية الجليلة ، وهي نزول الوحي في بيوتكنَّ دون سائر الناس . ومُخاطبةُ الله لهنَّ رُفْعَ لِقَدْرهنَّ ، وتعظيمُ لمكانتهنَّ ، وتشريفُ لهنَّ ، ومن أجل إرشادهنَّ وتوجيههنَّ ووعظهنَّ ، وتذكيرهنَّ بالنعمة الإلهية بما يُتلى في بيوتهنَّ من آياتِ الله وسُنَّة النبي ﷺ (الحكمة) . وينبغي عليهنَّ أن يعرفنَّ قَدْرَ هذه النعمة ، وذلك بقراءة آيات القرآن ، والسُنَّة النبوية ، فإنَّ فيهما الصلاح والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة .

لقد جعلهنَّ الله أهلَ بيتِ النبوة ، وذكُرهنَّ أن بيوتهنَّ هي مهابطُ الوحي ، وأمرهنَّ بعدم نسيان آيات القرآن المشتمل على المواعظ ، والأخبار ، والعلوم ، والشرائع ، والمعارف ، وبراہين النبوة

(١٤) قال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٦١) : ((لفظ الذَّكْر يحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها : أي اذْكُرْنَ موضع النعمة، إذ صَيَّرَكُنَّ الله في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة.الثاني: اذْكُرْنَ آيات الله وأقْدُرْنَ قَدْرَهَا ، وفَكَّرْنَ فيها حتى تكونِ مِنْكُنَّ على بالٍ ، لِتَتَعِظْنَ بمواعظ الله تعالى. ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسِّن أفعاله. الثالث: ﴿ اذْكُرْنَ ﴾ بمعنى : احْفَظْنَ وأقْرَأْنَ والزَمْنَهُ الألسنة ، فكأنه يقول : احْفَظْنَ أوامِرَ الله تعالى ونَوَاهِيه ، وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكنَّ من آيات الله ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يُخْبِرْنَ بما يُنزل من القرآن في بيوتهنَّ، وما يَرَيْنَ من أفعال النبي ﷺ، ويسمعنَّ من أقواله حتى يُبلَّغنَّ ذلك إلى الناس فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين)).

، والتعاليم الدينية ، والمصالح الدنيوية . وفي الآية أمرٌ إلهيٌ لنساء النبي ﷺ بتبليغ آيات القرآن ، وأقوال النبي ﷺ وأفعاله ، والعمل على نشرها بين الناس ، حتى يقتدوا بها ، ويعملوا بها . وما شاهدنهُ من شِدَّة نزول الوحي ينبغي أن يدفعهنَّ إلى قوة الإيمان ، واليقين الثابت ، وزيادة الطاعات ، والابتعاد عن المعاصي .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ . الله لطيفٌ بعباده الصالحين ، وأوليائه المتقين . وكان لطيفاً بنساء النبي ﷺ ، إذ جعلهنَّ في مهابط الوحي (البيوت التي تُتلى فيها آيات القرآن) . خير بجميع خلقه ، وخبيرٌ بهنَّ ، إذ اختارهنَّ للنبي ﷺ . وهو سبحانه يَعْرِفُ ما يُصلح العباد فهو خالقهم ، لذلك شرعَ لهم ما فيه نجاحهم في الدنيا والآخرة ، وَيَعْلَمُ ما يُصدِّر عن عباده من خير أو شر ، ويُجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . والله تعالى هو مُدبِّر الكون ، ومُنزِل الوحي ، ويعلم ما ينفع الناس ، لذلك وَجَّه نساء النبي ﷺ إلى طريق الحق والخير ، وَوَعَّظَهُنَّ ، وجعل حياتهنَّ وفق الضوابط الشرعية . وَيَعْلَمُ سبحانه مَنْ يَصْلح للنُّبُوَّة ، وَمَنْ يَسْتَحِق أن يكون من أهل البيت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٣٦) : ((وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهنَّ بهذه النعمة ، وأحظاهنَّ بهذه الغنيمة ، وأخصهنَّ من هذه الرحمة العظيمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ، ورضي الله عنها ، فناسب أن تُخصَّص بهذه المزية ، وأن تُفرد بهذه المرتبة العليا)) اهـ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٧ / ١٠٣) : ((وأذكرنَّ ما يُتلى في بيوتكنَّ)) أي : اذكرنَّ للناس بطريق العِظَّة والتذكير ما يُتلى في بيوتكنَّ ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة ، الدالة على صدق النبوة ، بنظمه المعجز ، وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع ، وهو تذكير بما أنعم عليهنَّ ، حيث جعلهنَّ أهل بيوت النبوة ومهبط الوحي . وما شاهدنَّ من بُرحاء (شِدَّة) الوحي ممَّا يُوجب قوة الإيمان ، والحرص على الطاعة ، حتَّى على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفَنَّهُ . والتَّعَرُّضُ للتلاوة في البيوت دون النُّزول فيها ، مع أنَّه الأنسب ، لِكَوْنِهَا مَهْبطُ الوحي ، لِعُمومِهَا لجميع الآيات ، ووقوعها في كل البيوت ، وتكرُّرِهَا الموجب لِمَتَمَكِّنِهِنَّ مِنَ الذِّكْرِ والتَّذْكِير ، بخلاف النُّزول . وعدم تعيين التالي لِتَعَمُّ تِلاوة جبريل ، وتلاوة النبي ﷺ عليهما الصلاة والسلام _ ، وتلاوتهنَّ وتلاوة غيرهنَّ تعليمًا وتعلُّمًا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

لقد أحلَّ الله للنبي ﷺ أزواجه اللاتي أعطاهنَّ مهورهنَّ (أجورهنَّ) ، أي : اللاتي تزوجهنَّ بِصَدَاقٍ مُسَمًّى . وذلك توسعةً على النبي ﷺ ، وتيسيرًا لشؤون حياته . وهذا يُساهم في نشر الدعوة الإسلامية ، وتعزيز الروابط الاجتماعية والأسرية القائمة على الإيمان والحق والخير .

وفي صحيح مسلم (١٠٤٢ / ٢) : عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال : سألت عائشة زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ : كم كان صدَاقُ رسول الله ﷺ ؟ ، قالت : ((كان صدَاقُه لأزواجه ثِنْتِي عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًا . قالت : ((أتدري ما النَّشُ ؟)) ، قال : قلتُ : لا ، قالت : ((نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، فتلك خمسمائة درْهم ، فهذا صدَاقُ رسول الله ﷺ لأزواجه))⁽¹⁵⁾ .

الأوقية أربعون درْهمًا . (نَضْرِبُ ٤٠ بِ ١٢ ، فنحصل على ٤٨٠ درْهمًا) . والنَّشُ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، يعني عشرين درْهمًا . إذن ، ٤٨٠ + ٢٠ = ٥٠٠ درْهم . وهو صدَاقُ رسول الله ﷺ لأزواجه . ومن المستحب أن يكون الصَّدَاقُ خمسمائة درْهم استدلالاً بهذا الحديث⁽¹⁶⁾ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢١٥ / ٩ و ٢١٦) : ((فَإِنْ قِيلَ : فَصَدَاقُ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، كان أربعة آلاف درْهم وأربعمائة دينار ، فالجواب أن هذا القَدْرُ تبرَّع به النجاشي من ماله إكرامًا للنبي ﷺ ، لا أن النبي ﷺ أذاه ، أو عقده به ، والله أعلم)) اهـ .

(١٥) قال الحافظ في الفتح (٢٣٥ / ٩) : ((وقد قال الشافعي : النَّوْأَةُ رُبْعُ النَّشِ ، والنَّشُ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، والأوقية أربعون درْهمًا)) اهـ .

(١٦) قال ابن كثير في تفسيره (٦٥٨ / ٣) : ((وقد كان مَهْرُه لِنِسَائِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًا ، وهو نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، فالجميع خمسمائة درْهم ، إلا أم حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان ، فإنه أمهرها عنه النجاشي — رحمه الله تعالى — أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَيٍّ ، فإنه اصطفاها مِنْ سَيِّ خَيْبَرٍ ، ثم أعتقها ، وجعل عَتَقَهَا صَدَاقَهَا ، كذلك جُؤَيْرِيَّةُ بنت الحارث المِصْطَلِقِيَّةُ ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس ابن شِمَّاسٍ ، وتزوّجها — رضي الله عنهنَّ أجمعين —)) اهـ .

والجدير بالذكر أن المغالاة في الصداق مخالفة صريحة للسنة. وهي جزء من المظاهر الكاذبة ، والتفاخر أمام الناس من أجل الاستحواذ على نظرات الإعجاب ، وتبيل المديح والسمعة . وعن عائشة رضي الله عنها _ أن النبي ﷺ قال: ((أعظم النساء بركةً أيسرهنَّ صداقاً)) (17). هذا يشير إلى أن قلة المهر مؤشر على أفضلية المرأة وبركتها ، ويكون ذلك فالأ حسناً . كما أن قلة المهر تساهم في زيادة نسبة الزواج، ويصبح حلم تكوين أسرة في متناول الجميع، خصوصاً الفقراء . وهكذا يتخلص المجتمع من الكبت الجنسي والعقد النفسية ، مما يساهم في دفع عجلة الإنتاج ، وتحقيق التنمية الحقيقية لا الشعاراتية ، وبث روح الأمل في المجتمع ، وإحداث نهضة على كافة الأصعدة. وعن أبي العجفاء السلمي قال : حَظَبْنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رضي الله عنه _ فقال : ((ألا لا تُغالوا صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله ، كان أولاكم بها وأحقكم بها محمد ﷺ ، ما أصدق امرأة من نساءه أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن أحدكم ليغلي بصداق امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه ، ويقول : قد كلفتُ إليك عرق القرية)) (18).

على المسلم أن يلوذ بالاعتدال والوسطية في كل شيء ، فيبتعد عن المغالاة في كل الأمور . وإن النبي ﷺ هو السيد المتواضع ، حيث عاش حياة بسيطة بعيدة عن الترف ، والتفاخر بالمتاع الدنيوي ، والمظاهر الخادعة ، والاستعراض أمام الناس . ولا شك أن النبي ﷺ هو رأس المجتمع وزوجاته الطاهرات ، وبناته الشريفات ، هنَّ في أعلى الهرم الاجتماعي . وإن المغالاة في الصداق تحدث في نفس الرجل عداوة تجاه المرأة ، فهو يعرف أنه قد تحمّل فوق طاقته ، وحاصر نفسه بالأعباء الثقيلة ، والمسؤوليات الجسيمة ، ولقي من المرأة شدةً وجهداً كما أن حامل القرية يلقي شدةً من حملها حتى يعرق (19).

(١٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٩٤) برقم (٢٧٣٢) وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٩١) برقم (٢٧٢٥) وصحّحه .

(١٩) قال ابن الجوزي في غريب الحديث (٢ / ٨٨) : ((أي نصبت وتكلفت حتى عرفت كعرق القرية ، وهو سيلان مائها . وقيل : كما يعرق حامل القرية)) اهـ .

وعن أم هانئ بنت أبي طالب _ رضي الله عنها _ قالت : خَطَبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فاعتذرتُ إليه فَعَذَرَنِي ، ثم أنزل عليه : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ ، فقالت : لَمْ أَكُنْ أَحِلًّا لَهُ ، لَمْ أَهَاجِرْ مَعَهُ ، وَكُنْتُ مَعَ الطَّلَاقِ (20).

وهذا يعني أن عدم هجرتها مع النبي ﷺ جَعَلَهَا لَا تَحِلُّ لَهُ . وفي هذا دليل واضح على أهمية الهجرة ، وأنها مؤشِّر على الإيمان والتقوى والصلاح .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣٠١ / ٥) : ((فهذا يقتضي أنَّ مَنْ لَمْ تكن من المهاجرات لَا تَحِلُّ لَهُ ﷺ ، وقد نقل هذا المذهب مطلقاً القاضي الماوردي في تفسيره عن بعض العلماء)) اهـ.

وقال السيوطي في لبَّاب التُّقُول (١٧١ / ١) : ((وأخرج ابن سعد عن أبي رَزِين قال : هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُطَلَّقَ مِنْ نِسَائِهِ ، فَلَمَّا رَأَيْنَ ذَلِكَ جَعَلْنَهُ فِي حِلٍّ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ، يُؤْثِرُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾)) اهـ .

وهذا يدل على رِجَاحَةِ عقول أمهات المؤمنين، حيث إنهنَّ اخترنَ النبي ﷺ على مَتَاعِ الحياة الدنيا، وتنازلن عن حقوقهنَّ عن طيب نفس من أجل راحة النبي ﷺ وعدم مُضايقته . وهذا أعلى درجات الإيثار والإخلاص .

والجدير بالذكر أن هناك اختلافاً في تفسير قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ . القَوْلُ الأول هو أن الله تعالى أحلَّ للنبي ﷺ أن يَتَزَوَّجَ كُلَّ امرأةٍ يُؤْتِيهَا مَهْرَهَا ، وهذا يعني أن الزواج من أَيْةِ امرأةٍ مُبَاحٌ سِوَى المحارِمِ .

والقول الثاني (وهو قول الجمهور) أن الله تعالى أحلَّ للنبي ﷺ زَوَاجَتِهِ الموجودات عنده مكافأةً لهنَّ على اختيارهنَّ النبي ﷺ ، وتفضيله على كُلِّ الأشياء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨٢ / ١٤) : ((وهو الظاهر لأن قَوْلَهُ : ﴿ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط)) اهـ .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : ((ما تُؤَفِّيَ النبي ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يَتَزَوَّجَ)) (21).

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢٠٢ / ٢) برقم (٢٧٥٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢١) رواه الحاكم في المستدرک (٤٧٤ / ٢) برقم (٣٦٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يعني أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان بإمكانه أن يتزوج أَيْة امرأة خارج دائرة المحارم ، ولم يتم تقييده بزواجه أمهات المؤمنين . لكنَّه ﷺ تَمَسَّكَ بِزُوجَاتِهِ اللَّوَاتِي عِشْنَ مَعَهُ فِي ظِلِّ التَّحَدِيَّاتِ الْجَسِيمَةِ ، وَالظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ الْمَلِينَةِ بِالتَّقَشُّفِ ، وَالزُّهْدِ ، وَقِلَّةِ الْمَالِ . وبِالطَّبْعِ ، لَقَدْ صَحَّحَتْ زُوجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّفَاهِيَةِ وَالْبَذَخِ وَرَغَدِ الْعَيْشِ مِنْ أَجْلِ إِسْعَادِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمُسَانَدَتِهِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الشَّاقِّ ، وَقَدْ كَافَأَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، وَشَرَّفَهُنَّ ، وَجَعَلَهُنَّ أُمَهَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقُدُوءً لِلنِّسَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَفِي الْآخِرَةِ ، هُنَّ مُرَافِقَاتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ .

﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ .

وأيضاً ، أَبَاحَ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ التَّسَرِّيَ ، فَقَدْ أَحَلَّ لَهُ الْإِمَاءُ اللَّوَاتِي سَبَّاهُنَّ فِي الْحَرْبِ ، وَأَخَذَهُنَّ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ ، وَصَرْنَ مِلْكَاً لَهُ بِالْغَنِيمَةِ . وَقَدْ تَمَّ تَخْصِيسُ الْإِمَاءِ ضَمْنَ دَائِرَةِ الْغَنَائِمِ ، لِأَنَّهُنَّ أَفْضَلُ مِنَ الْإِمَاءِ اللَّوَاتِي يَتِمُّ شَرَاؤُهُنَّ . فَالصَّنْفُ الْأَوَّلُ لَا يَتِمُّ الْحَصُولُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ بَالِغَةٍ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٨) : ((وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّةٌ وَجُورِيَّةٌ ، فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا ، وَمَلَكَ رَيْحَانَةَ بِنْتَ شَمْعُونِ النَّضْرِيَّةِ وَمَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ أُمُّ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ — عَلَيْهِمَا السَّلَامُ — ، وَكَانَتَا مِنَ السَّرَارِيِّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا —)) اهـ .

﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ .

وَأَحَلَّ اللَّهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَرِيبَاتِهِ مِنْ بَنَاتِ عَمِّهِ وَعَمَّاتِهِ (نِسَاءَ قُرَيْشٍ) ، وَبَنَاتِ خَالِهِ وَخَالَاتِهِ (نِسَاءَ بَنِي زُهْرَةَ) ، بِشَرَطِ أَنْ يَكُنَّ هَاجَرْنَ مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَإِذَا لَمْ يُهَاجِرْنَ مَعَهُ فَهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ عَلَيْهِ ، وَلَا يَجُوزُ نِكَاحُهُنَّ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْهَجْرَةِ وَأَهْمِيَّتِهَا الْإِيمَانِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ .

وتوحيد لفظ الذَّكَرِ (عَمٍّ / خَالٍ) لِإِظْهَارِ شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَتَفَوُّقِهِ عَلَى الْأُنْثَى (عَمَّاتٍ / خَالَاتٍ) . وَجَمْعُ الْإِنَاثِ لِنَقْصِ عَقُولِهِنَّ وَدِينِهِنَّ . وَتَخْصِيسُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا بِالذَّكَرِ تَشْرِيفٌ لَهُمْ ، وَرَفْعٌ لِسَانِهِمْ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٨) : ((هَذَا عَدْلٌ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَإِنْ النَّصَارَى لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمَرْأَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا سَبْعَةُ أَجْدَادٍ فَصَاعِداً ، وَالْيَهُودُ يَتَزَوَّجُونَ أَحَدَهُمْ بِنْتَ أَخِيهِ وَبِنْتَ أُخْتِهِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ الْكَامِلَةُ الطَّاهِرَةُ بِهَدْمِ إِفْرَاطِ النَّصَارَى ، فَأَبَاحَ بِنْتَ الْعَمِّ وَالْعَمَّةِ وَبِنْتَ الْخَالِ وَالْخَالَاتِ ، وَتَحْرِيمَ مَا فَرَّطَتْ فِيهِ الْيَهُودُ مِنْ إِبَاحَةِ بِنْتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ، وَهَذَا شَنِيعٌ فَظِيعٌ)) اهـ .

﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ . وأحللنا لك أيها النبي المرأة المؤمنة الصالحة ، إن وهبت نفسها لك من غير صداق ، حباً لله ورسوله ﷺ وتقرباً إليه . والمعنى : قدّمت نفسها للنبي ﷺ كي يتزوجها بلا مهر ، وهي راضية ، وغير واقعة تحت أي ضغط . والآية دليل على أن المرأة الكافرة لا تحل للنبي ﷺ إذا وهبت نفسها له . والجدير بالذكر أن الله قال : ﴿ للنبي ﴾ ، ولم يقل : لك . وفي هذا إشارة إلى أن هذه القضية خاصة بالنبي ﷺ وحده .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٠) : ((أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ، ولا تطلب مهراً ، إن اتفق ، ولذلك نكرها)) اه .

وعن علي بن حسين : في قوله : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ أن أم شريك الأزدية التي وهبت نفسها للنبي ﷺ (22) .

﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ . إن أراد النبي ﷺ أن يتزوجها ، فهذا حلال له إذا وهبت نفسها له بغير مهر . والأمر يعود إلى اختبار النبي ﷺ ، والموضوع لا يتم إلا بموافقه . والنبي ﷺ يقبل الهبة أو يرفضها . وقال النسفي في تفسيره (٣ / ٣١٠) : ((وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة ، لأن رسول الله ﷺ وأُمَّته سواء في الأحكام ، إلا فيما خصّه الدليل)) اه .

وتكرير لفظ " النبي " للتفخيم والتشريف والتعظيم .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٢) : ((وكان اختصاصه ﷺ في ترك المهر ، لا في لفظ النكاح . واختلفوا في التي وهبت نفسها لرسول الله ﷺ ، وهل كانت عنده امرأة منهم ؟ . فقال عبد الله بن عباس ومجاهد : لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها منه ، ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين . وقوله : ﴿ إن وهبت نفسها ﴾ على طريق الشرط والجزاء . وقال آخرون : بل كانت عنده موهوبة . واختلفوا فيها ، فقال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة الهلالية ، يقال لها : أم المساكين . وقال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث . وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر من بني أسد . وقال غروة بن الزبير : هي خولة بنت حكيم من بني سليم)) اه .

(٢٢) رواه الطبراني (٢٤ / ٣٥١) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٠٩) : ((رجاله رجال الصحيح)) .

﴿ خَالِصَةٌ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾⁽²³⁾. هذا الأمر (النكاح بلفظ الهبة بلا مهر) خاصٌ بالنبي ﷺ وخُده . أمّا المؤمنون فيجب عليهم تقديم المهر ، ولا تحِلُّ لهم الهبة . ولا يجوز أن تهَبَ امرأةٌ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٠) : ((والغدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي ﷺ مُكْرَرًا ، ثُمَّ الرجوع إليه في قوله : ﴿ خَالِصَةٌ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إيدان بأنه ممّا خُصَّ به لشرف نُبُوَّتِهِ ، وتقدير لاستحقاق الكرامة لأجله ، واحتجَّ به أصحابنا على أَنَّ النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة ، لأن اللفظ تابع للمعنى ، وقد خُصَّ عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ)) .
وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٨) : ((وقوله تعالى : ﴿ خَالِصَةٌ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال عكرمة : أي لا تحِلُّ الموهوبة لِغَيْرِكَ ، ولو أن امرأة وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ لَمْ تحِلَّ له ، حتى يُعطيها شيئًا ، وكذا قال مجاهد والشَّعْبِي وغيرهما . أي أنها إذا فَوَّضَت المرأة نَفْسَهَا إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وَجِبَ عليه لها مَهْرٌ مثلها ، كما حَكَمَ به رسولُ الله ﷺ في بَرِزِ بنت وَاشِق ، لَمَّا فَوَّضَتْ ، فحكم لها رسول الله ﷺ بِصَدَاقٍ مثلها لَمَّا تُوفِّيَ عنها زوجها ، والموت والدُخُول سواء في تقرير المهر، وثبوت مَهْرِ المِثْلِ في الْمُفَوَّضَةِ لِغَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ . فأما هو عليه الصلاة والسلام ، فإنه لا يجب عليه لِلْمُفَوَّضَةِ شيء ولو دخل بها ، لأنَّ له أن يتزوَّجَ بِغَيْرِ صَدَاقٍ ولا وَلِيٍّ ولا شُهود ، كما في قصة زَيْنَب بنت جَحْشٍ _ رضي الله عنها _ ، ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ خَالِصَةٌ لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . يقول : ليس لامرأة تهَبُ نَفْسَهَا لِرَجُلٍ بِغَيْرِ وَلِيٍّ ولا مَهْرٍ إلا لِلنَّبِيِّ ﷺ)) اهـ .

وفي صحيح ابن حِبَّان (٩ / ٤٠٣) : عن سَهْل بن سعد الساعدي أَنَّ رسولَ الله ﷺ جاءته امرأة فقالت له : يا رسول الله ، إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ نَفْسِي لَكَ ، فقامت طويلاً ، فقام رجل ، فقال : يا رسول الله ، زَوَّجْنِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ حَاجَةٌ بِهَا ، فقال رسول الله ﷺ : ((هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تَصَدَّقُهَا

(٢٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٥) : ((وللمفسرين في معنى : ﴿ خَالِصَةٌ لَكَ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أَنَّ المرأة إذا وَهَبَتْ له نَفْسَهَا لَمْ يَلْزَمْهُ صَدَاقُهَا دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قاله أنس بن مالك وسعيد بن المسيَّب . والثاني أَنَّ له أن يَنْكِحَهَا بلا وَلِيٍّ ولا مَهْرٍ دُونَ غَيْرِهِ ، قاله قتادة . والثالث : خالصة لَكَ أن تملك عَقْدَ نِكَاحِهَا بلفظ الهبة دُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وهذا قول الشافعي وأحمد)) .

إِيَّاهُ ؟)) ، فقال : ما عندي إلا إزارِي هذا ، فقال رسول الله ﷺ : ((إِنْ أُعْطِيَتْهُ إِيَّاهَا جَلَسْتَ لَا إِزَارَ لَكَ ، فَالْتَمِسْ شَيْئًا)) ، فقال : ما أَجِدُ . قال : ((فَالْتَمِسْ)) ، فلم يَجِدْ شَيْئًا ، فقال رسول الله ﷺ : ((هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟)) ، قال : نعم ، سُورَةُ كَذَا ، وَسُورَةُ كَذَا ، لِسُورِ سَمَاهَا ، فقال رسول الله ﷺ : ((قَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ)) .

وهذا يدل على أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْمَهْرِ فِي النِّكَاحِ . لذلك رَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ تزويجه بدون مَهْرٍ . وفي صحيح البخاري (٥ / ١٩٦٧) : قال أنس : جاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ تَعْرِضُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا . قالت : يا رسول الله ، أَلَيْكَ بِي حَاجَةٌ ؟ ، فقالت بنت أنس : ما أَقَلَّ حَيَاءِكَ ، وَاسْوَآتَاهُ ، وَاسْوَآتَاهُ . قال : هِيَ خَيْرٌ مِنْكَ ، رَغِبْتُ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا .

لقد جاءت هذه المرأة تَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا إِنْ كَانَ يَرْغِبُ فِيهَا . فاعتبرت ابنة أنس ابن مالك رضي الله عنه_ هذه المرأة وقحةً وَغَيْرَ مُهْدَبَةٍ ، واعتبرت هذا الْفِعْلُ فُضِيحَةً ، وَيَتَعَارَضُ مع حياء المرأة وَأَنُوثَتِهَا ، فأرشدتها أنس إلى الصواب ، واعتبرَ هذه المرأةَ أَفْضَلَ مِنْ ابنته ، لِأَنَّهَا رَغِبَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَحَبَّتْ أَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ ، بِالْعَيْشِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ورعايته والعناية بِهِ .

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ . قَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا أَوْجَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي أَزْوَاجِهِمْ إِذَا أَرَادُوا نِكَاحَهُمْ ، مِنْ نَفَقَةٍ ، وَوَلِيِّ ، وَمَهْرٍ ، وَشَاهِدَيْنِ ، وعدم تجاوز أربع نساء حرائر . وهذا حق مفروض على المؤمنين ، يجب الالتزام بِهِ ، وما أَوْجَبَ اللَّهُ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي مُلْكِ الْيَمِينِ (الإماء) . أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فلم يُوجِبِ اللَّهُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، تَكْرِيمًا لَهُ ، وَتَوْسِيعَةً عَلَيْهِ ، وَتَسْهِيلًا لَشُؤُونِ حَيَاتِهِ . لذلك خَصَّهُ اللَّهُ بِخَصَائِصٍ . وَلَا يَجُوزُ الْاِقْتِدَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ بِهِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِكَ ﴾ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ وفي قولان : أحدهما أَنْ لَا يُجَاوِزَ الرَّجُلُ أَرْبَعَ نِسَاءٍ ، قاله مجاهد . والثاني أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ إِلَّا بِوَلِيِّ وَشَاهِدَيْنِ وَصَدَاقٍ ، قاله قتادة . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أَي : وَمَا أَبْخَنَّا لَهُمْ مِنْ مُلْكِ الْيَمِينِ مَعَ الْأَرْبَعِ الْحَرَائِرِ ، مِنْ غَيْرِ عَدَدٍ مُحْصُورٍ)) .

﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ . لقد سَهَّلَ اللَّهُ مَوْضِعَ النِّكَاحِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، لِئَلَّا يَكُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَشَقَّةٌ أَوْ صَعُوبَةٌ أَوْ ضِيقٌ . وَالنَّبِيُّ ﷺ يَضْطَلِعُ بِمَسْئُولِيَّاتِ جِسَامٍ ، وَيَحْمِلُ عِبْثًا ثَقِيلًا ،

ومشغول بنشر الدعوة الإسلامية، وبناء الدولة الإسلامية، ومواجهة الكفار والمنافقين . والله تعالى لم يُرِدْ أن يزيد الأعباء على كاهل النبي ﷺ ، فَوَسَّعَ عليه في النكاح والأمور المرتبطة بتكوين الأسرة .
﴿وكان الله غفوراً رحيمًا﴾ . والله واسع المغفرة ، وعظيم الرحمة ، يغفر الذنوب ، ويرحم عباده ، لذلك وَسَّعَ عليهم الأمور ، ورفع عنهم الحرج في النكاح ، ولم يُضَيِّقْ عليهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٠٩): ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَزْوَاجَكَ اللواتي ذَكَّرْنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ، لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ إِثْمٌ وَضِيقٌ فِي نِكَاحٍ مِّنْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ ، التي أَبْحَثُ لَكَ نِكَاحَهُنَّ مِنَ الْمُسَمَّيَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وكان الله غفوراً لك ، ولأهل الإيمان بك ، رحيمًا بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب منهم سَلَفَ ، بعد توبتهم منه)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَن ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥١] .

لقد وَسَّعَ اللهُ على النبي ﷺ في موضوع النساء ، وجعل الخيار إليه في نسائه ، وأباح سبحانه له أن يترك القسم والتسوية بين أزواجه ، فَيُؤَخِّرَ (يُرْجِي) مَن شَاءَ مِنْهُنَّ عَنْ وَقْتِ نَوْبَتِهَا ، ويتركها مِنْ غَيْرِ طَلَاقٍ ، ويضُمُّ (يُؤْوِي) إِلَيْهِ مَن شَاءَ مِنْهُنَّ مِنْ غَيْرِ نَوْبَتِهَا ، ويُجَامِعُهَا ، وينام عندها . ويكون الاختيار في ذلك إِلَيْهِ ، يفعل فيه ما يشاء ، وهذا من خصائصه .

وقد كان القَسْمُ بين زَوَجات النبي ﷺ واجباً عليه ، حتى نزلت هذه الآية ، فصار القرار بيد النبي ﷺ ، ولا شيء يَجِبُ عليه . ومع هذا ، كان النبي ﷺ يَقْسِمُ بين زوجاته ، ويُعَامِلُهُنَّ بِعَدْلِ وإنصاف احتراماً لهن ، ومُراعاةً لمشاعرهن ، وتألِيفاً لقلوبهن ، ولئلا يَشْعُرْنَ بِالْحِرْمَانِ أَوْ الْغِيَرَةِ أَوْ الظلم . وهذا يدل على كمال أخلاق النبي ﷺ ، وحُسن عِشْرَتِهِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٤) : ((اختلف المفسرون في معنى الآية : فأشهر الأقاويل أنه في القَسْمِ بَيْنَهُنَّ ، وذلك أن التسوية بَيْنَهُنَّ فِي الْقَسْمِ كانت واجباً عليه ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه ، وصار الاختيار إليه فِيهِنَّ . قال أبو رزِين وابن زيد : نزلت هذه الآية حين غَارَ بعضُ أُمّهات المؤمنين على النبي ﷺ ، وطلب بعضهنَّ زيادة النفقة ، فهجرهنَّ النبي ﷺ شهراً ، حتى نزلت آية التخيير ، فأمره الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ أن يُخَيِّرَهُنَّ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ مَنْ اخْتَارَتِ الدُّنْيَا ، وَيُمْسِكَ مَنْ اخْتَارَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ ، على أنهنَّ أُمّهات المؤمنين ، ولا

يُنْكَحْنَ أَبَدًا، وعلى أنه يُؤوي إليه مَنْ يَشَاءُ مِنْهُنَّ ، وَيُرْجِي مَنْ يَشَاءُ ، فَيَرْضَيْنَ بِهِ ، قَسَمَ لَهُنَّ أَوْ لَمْ يَقْسِمَ، أَوْ قَسَمَ لِبَعْضِهِنَّ ذُونَ بَعْضٍ ، أَوْ فَضَّلَ بَعْضَهُنَّ فِي النِّفْقَةِ وَالْقِسْمَةِ ، فيكون الأمر في ذلك إليه ، فيفعل كيف يَشَاءُ، وكان ذلك مِنْ خصائصه، فَرْضَيْنَ بذلك، واختَرَنَهُ على هذا الشَّرْطِ . واختلفوا في أنه هل أخرجَ أَحَدًا مِنْهُنَّ عَنِ الْقَسَمِ ؟، فقال بعضهم: لَمْ يُخْرِجْ أَحَدًا، بَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ مَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، يُسَوِّي بَيْنَهُنَّ فِي الْقَسَمِ إِلَّا سَوْدَةَ، فَإِنِهَا رَضِيَتْ بِتَرْكِ حَقِّهَا مِنَ الْقَسَمِ، وَجَعَلَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ . وَقِيلَ : أَخْرَجَ بَعْضُهُنَّ)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٧ و ٤٠٨) : ((سبب نزول الآية أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ الْمُتَقَدِّمَةِ، أَشْفَقْنَ أَنْ يُطْلَقْنَ ، فَقُلْنَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، اجْعَلْ لَنَا مِنْ مَالِكَ وَنَفْسِكَ مَا شِئْتَ ، وَدَعْنَا عَلَى حَالِنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَبُو رَزِينٍ . وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا تُطْلَقُ مَنْ تَشَاءُ مِنْ نِسَائِكَ ، وَتُمْسِكُ مَنْ تَشَاءُ مِنْ نِسَائِكَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي تَرْكُ نِكَاحِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْكِحِ مَنْ نِسَاءِ أُمَّتِكَ مَنْ تَشَاءُ ، قَالَ الْحَسَنُ . وَالثَّالِثُ تَعَزُّلُ مَنْ شِئْتَ مِنْ أَزْوَاجِكَ ، فَلَا تَأْتِيهَا بِغَيْرِ طَلَاقٍ ، وَتَأْتِي مَنْ تَشَاءُ فَلَا تَعَزِّلِهَا ، قَالَ مُجَاهِدٌ . وَالرَّابِعُ تَقْبَلُ مَنْ تَشَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّوَاتِي يَهْبَنُ أَنْفُسَهُنَّ ، وَتَتْرَكُ مَنْ تَشَاءُ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ وَعِكْرَمَةُ . وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُبِيحَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُصَاحَبَةَ نِسَائِهِ كَيْفَ شَاءَ مِنْ غَيْرِ إِجْبَابِ الْقِسْمَةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُسَوِّي بَيْنَهُنَّ . وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : مَا عَلِمْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْجَأَ مِنْهُنَّ أَحَدًا ، وَلَقَدْ آوَاهُنَّ كُلَّهُنَّ حَتَّى مَاتَ . وَقَالَ أَبُو رَزِينٍ : آوَى عَائِشَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ وَخَفْصَةَ وَزَيْنَبَ . وَكَانَ قَسْمُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ فِيهِنَّ سَوَاءً ، وَأَرْجَأَ سَوْدَةَ وَجُؤَيْرِيَةَ وَصَفِيَّةَ وَأُمَّ حَبِيبَةَ وَمَيْمُونَةَ . وَكَانَ يَقْسِمُ لَهُنَّ مَا شَاءَ . وَكَانَ أَرَادَ فِرَاقَهُنَّ ، فَقُلْنَ : اقْسِمْ لَنَا مَا شِئْتَ وَدَعْنَا عَلَى حَالِنَا . وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّمَا أَرْجَأَ سَوْدَةَ وَحَدَّهَا ، لِأَنَّهَا وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ ، فَتَوَفَّيَ وَهُوَ يَقْسِمُ لِثَمَانَ)) اهـ . وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ [الْبَخَارِيُّ (٤ / ١٧٩٧) وَمُسْلِمٌ (٢ / ١٠٨٥)] : عَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبَتْ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَقُولُ : أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا ؟، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ . قُلْتُ : مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ .

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ تَعِيبُ عَلَى الْوَاهِبَاتِ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ (وَهُنَّ اللَّوَاتِي عَرَّضْنَ أَنْفُسَهُنَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، أَنْ يَتَزَوَّجَهُنَّ إِذَا رَغِبَ بِمَا مَهَرَ يَطْلُبْنَهُ) ، وَتَسْتَعْرِبُ مِنْ فِعْلِهِنَّ ، وَتَتَعَجَّبُ مِنْ هَذَا الْعَرَضِ، وَتَقُولُ : " أَمَا تَسْتَحْيِي الْمَرْأَةُ أَنْ تَهَبَ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ ؟! " . وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ

يحمل معنى التَّعَجُّب. والمقصودُ أين حَيَاءُ المرأة وأنوشتها الرقيقة حينَ تَعْرِضُ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ ؟ . وماذا سَيَقُولُ عنها ؟ . فلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الْمَذْكُورَةُ ، قالت عائشة : " ما أرى رِيكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ " . أي : يُحَقِّقُ لَكَ مُرَادَكَ بلا تأخير ، ويُخَفِّفُ عنكَ ، ويُوسِّعُ عَلَيْكَ فِي الْأُمُورِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥٠/١٠) : ((هذا من خصائص رسول الله ﷺ ، وهو زواج من وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَهُ بِلا مَهْرٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . واختلف العلماء في هذه الآية، وهي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ . فَقِيلَ : نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ ، ومُبيحة له أَنْ يَتَزَوَّجَ مَا شَاءَ وقيل عكس هذا ، وإنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ ، والأولُ أَصَحُّ . قال أصحابنا _ الشافعية _ : الْأَصَحُّ أَنَّهُ ﷺ ما تُوفِّيَ حَتَّى أُبَيِّحَ لَهُ النِّسَاءُ مَعَ أَزْوَاجِهِ ((اهـ . وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : كان رسول الله ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ فيقول : ((اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ ، فلا تَلْمِني فِيمَا تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ)) (24) . قال إسماعيل القاضي: يعني القلب، وهذا في العَدْلِ بين نِسائِهِ .

والعدل المقصود في الحديث هو العَدْلُ في الْأُمُورِ الْمَادِيَةِ وَالْجَمَاعِ وَالْمَبْنِيَةِ مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ فِي نَوْبَتِهَا ، أَمَّا الْعَدْلُ فِي الْمَحَبَةِ (الْمَيْلُ الْقَلْبِي) فهذا غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ ، وقد عفا الله عنه ، فالقُلُوبُ بيدَ اللَّهِ وَخَدَهُ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سُلْطَانٌ عَلَى قَلْبِهِ . والحديثُ يُشِيرُ إِلَى أَخْلَاقِ النَّبِيِّ ﷺ الْحَمِيدَةِ ، وَحِرْصِهِ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ ، وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ . وفي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ٢٣٧) : ((وقال ابن العربي : قد أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَمْلِكُ الْعَدْلَ بَيْنَ النِّسَاءِ . والمعنى فيه : تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بَعْضُهُنَّ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ ، فَعَدَرَهُمْ فِيمَا يُكِنُّونَ ، وَأَخَذَهُمْ بِالْمُسَاوَاةِ فِيمَا يُظْهِرُونَ ، وذلك لأنَّ لِلْمُصْطَفَى ﷺ فِي ذَلِكَ مَرِيَّةً لِمَنْزِلَتِهِ ، فَسَأَلَ رَبُّهُ الْعَفْوَ عَنْهُ فِيمَا يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَيْلِ لِبَعْضِهِنَّ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ ، وكان ذلك لِعُلُوِّ مَرَاتِبِهِ . أَمَّا غَيْرُهُ فلا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي الْمَيْلِ الْقَلْبِيِّ إِذَا عَدَلَ فِي الظَّاهِرِ ، بِخِلَافِ الْمُصْطَفَى ﷺ ، حَتَّى هُمْ بِطَلَاقِ سَوْدَةَ لَذَلِكَ ، فَتَرَكْتَ حَقَّهَا لِعَائِشَةَ ((اهـ .

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٠٤) برقم (٢٧٦١) وصَحَّحَهُ ، ووافقه الذهبي .

وكان النبي ﷺ إذا أراد سفراً ، حَكَمَ بين نِسائه بالقرعة ، لاختيار الزوجة التي ترافقه . ففي الحديث المتفق عليه [البخاري (٩١٦ / ٢) ومسلم (٢١٢٩ / ٤)] : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا ، أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ ، فَأَيُّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا .

وذلك من أجل تنقية صدورهنَّ مِنَ الْغَيْرةِ أو الكراهية ، ومن أجل إرضاء جميع الزوجات ، وإشاعة جوِّ العَدْلِ والمساواة والمحبة بينهنَّ . والحديث دليلٌ على مشروعية القرعة .

﴿ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ . إِنْ طَلَبْتَ وَأَرَدْتَ أَنْ تُؤْوِيَ إِلَيْكَ امْرَأَةً مِمَّنْ عَزَلْتَهُنَّ مِنَ الْقِسْمَةِ ، وَتَضُمَّهَا إِلَيْكَ ، فَهَذَا حَقٌّ لَكَ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْكَ وَلَا عَتَبٌ .

لقد أباح الله للنبي ﷺ ترك القسمة بين زوجاته والتسوية بينهنَّ ، فهو يُؤخِّرُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُنَّ فِي نَوْبَتِهَا ، وَيَطَأُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُنَّ فِي غَيْرِ نَوْبَتِهَا ، وَيُرْدُ إِلَى فِرَاشِهِ مَنْ عَزَلَهَا . وهذه خصائص للنبي ﷺ ، لإظهار مكانته المميَّزة ، وفضله العظيم ، وأفضليته على سائر الرجال .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤١٦) : ((والحاصل أنَّ الله سبحانه فَوَّضَ الأمرَ إلى رسوله ، يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضَمَّ مَنْ أَرَجَأَ ، وإِرجاء مَنْ ضَمَّ إِلَيْهِ ، وما شاء في أمرهنَّ فَعَلَ ، توسعةً عليه ، ونَفْيًا لِلحَرَجِ عنه)) اهـ .

وعن مُعَاذَةَ عَنْ عَائِشَةَ _ رضي الله عنها _ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي يَوْمِ الْمَرْأَةِ مِمَّا بَعْدَ أَنْ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ . فَقُلْتُ لَهَا : مَا كُنْتَ تَقُولِينَ ؟ ، قَالَتْ : كُنْتُ أَقُولُ لَهُ إِنْ كَانَ ذَاكَ إِلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُؤْثِرَ عَلَيْكَ أَحَدًا (25) .

هذا يدل على شِدَّةِ حُبِّ عَائِشَةَ لزوجها ﷺ ، وإخلاصها له ، والسعادة بِقُرْبِهِ ، والاستفادة مِنْ عِلْمِهِ ، والتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِخِدْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ ورعايته والعناية به وقضاء حوائجه . وليست القضية شهوة جنسية عابرة أو مُتعة غريزية مُؤقتة ، فالتقرب مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قُرْبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٧٩) : ((هَذِهِ الْمُنَافَسَةُ فِيهِ ﷺ لَيْسَتْ لِمَجَرَّدِ الْإِسْتِمْتَاعِ ، وَلِمُطْلَقِ الْعِشْرَةِ ، وَشَهَوَاتِ النُّفُوسِ وَخُطُوطِهَا الَّتِي تَكُونُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ ، بَلْ هِيَ مُنَافَسَةٌ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ ، وَالْقُرْبِ مِنْ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَالرَّغْبَةِ فِيهِ ، وَفِي خِدْمَتِهِ ، وَمُعَاشَرَتِهِ ، وَالْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ ، وَفِي قَضَاءِ حَقُوقِهِ وَحَوَائِجِهِ ، وَتَوَقُّعِ نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَالْوَحْيِ عَلَيْهِ عِنْدَهَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ)) اهـ .

(٢٥) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤ / ١٧٩٨) برقم (٤٥١١). ومسلم (٢ / ١١٠٣) برقم (١٤٧٦) .

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾. هذا التخيير الإلهي للنبي ﷺ (يُرْجَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ نِسَائِهِ ، وَيُؤْوَى مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضُمُّ مَنْ عَزَلَهَا) ، إنما هو للتوسعة على النبي ﷺ وتسهيل شؤون حياته ، وعدم التضيق عليه . وهذا التخيير (التفويض الذي فوضه الله للنبي ﷺ) أقرب إلى رضاها ، وراحة قلوبهن ، وأطيب لنفوسهن ، فلا يحزن ، ويقبلن بقرارات النبي ﷺ بسعادة ، وعن طيب خاطر . وإذا علمن أن هذا الأمر هو حكم الله تعالى ، سيسعرن براحة البال ، والطمأنينة ، والسرور والسعادة والهناء ، ولا يحصل لهن حزن بتفضيلك بعضهن على بعض . وسيرضين جميعاً بما أعطيتهن من تقرب وإرجاء وعزل وإيواء . وهذا الحكم يشملهن جميعاً ، وهن فيه سواء . وإذا سوى النبي ﷺ بينهن وجدن ذلك تفضلاً منه . وهذا الجميل سيقدرنه دائماً ، وإذا فضلت بعضهن على بعض ، عرفن أن ذلك حكم الله تعالى ، فترتاح قلوبهن وتطمئن نفوسهن .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦١) : ((أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بيمينك عليهن في قسمتك لهن وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن وعدلك فيهن)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إذا كان عند الرجل امرأتان ، فلم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وشقه ساقط)) (26).

هذا الرجل مال إلى إحدهما دون الأخرى ، وبني العلاقة الزوجية على الظلم وعدم المساواة . وهذا دليل على وجوب العدل بين الزوجات ، وخزمة الميل إلى إحدهما . والشق هو النصف والجانب . وهذا الرجل الظالم يأتي يوم القيامة ونصفه ذاهب ، أو أنه مشلول . والعدل المقصود في الحديث إنما هو في الأمور المادية المحسوسة ، أما الحب والميل القلبي فهما بيد الله وحده .

وقال العيني في عمدة القاري (٢٠ / ١٩٩) : ((قيل : المراد سقوط شقه حقيقة ، أو المراد سقوط حجته بالنسبة إلى إحدى امرأتيه التي مال عليها مع الأخرى ، والظاهر الحقيقة ، تدل عليها

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٠٣) برقم (٢٧٥٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

رواية أبي داود " وشقُّه مائل". والجزاء من جنس العمل. ولَمَّا لَمْ يَعدِلْ أو حَادَ عن الحق ، والجَوْرُ الْمَيْلُ ، كان عذابه بأن يجيء يوم القيامة على رؤوس الأشهاد وأخذُ شِقْيِهِ مائل)) اهـ .
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ مِنْ مَيْلٍ إِلَى بَعْضِ النِّسَاءِ دُونَ بَعْضٍ بِالْمَحَبَّةِ ، الَّتِي لَا يُمكنُ السَّيْطَرَةُ عَلَيْهَا . فَإِنَّ نِسَاءً لَا سُلْطَةَ لَهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَإِنَّمَا السُّلْطَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ . لِذَلِكَ ، وَسَّعَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي قَضِيَةِ النِّسَاءِ ، وَلَمْ يُضَيِّقْ عَلَيْهِ ، تَفَضُّلاً عَلَيْهِ ، وَتَكْرِيمًا لَهُ .

وفي الآية ترغيبٌ للنبي ﷺ في الإحسان إلى نِسَائِهِ ، وتحذيرٌ لنِسَائِهِ مِنْ عَدَمِ الرِّضَا بِقَرَارَاتِ النَّبِيِّ ﷺ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، يَحْلُمُ عَلَى الْعَصَاةِ ، وَلَا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ ، وَيُمْهَلُ وَلَا يُهْمَلُ ، كَيْ يَتُوبُوا ، وَيَغْفِرَ لَهُمْ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّائِبِينَ ، وَيَغْفُو عَنْهُمْ ، تَفَضُّلاً عَلَيْهِمْ ، وَرَحْمَةً بِهِمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ .
وفي تفسير الجلالين (ص ٥٥٨) : ((﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ ، وَالْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ ، وَإِنَّمَا خَيْرُنَاكَ فِيهِنَّ تَيْسِيرًا عَلَيْكَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ يَخْلُقُهُ . ﴿ حَلِيمًا ﴾ عَنْ عِقَابِهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] (٢٧).

(٢٧) قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦٢) : ((ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَابِنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ وَابْنَ زَيْدٍ وَابْنَ جَرِيرٍ وَغَيْرَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ مُجَازَةً لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَرِضَا عَنْهُنَّ عَلَى حُسْنِ صَنِيعِهِنَّ فِي اخْتِيَارِهِنَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، لَمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ ، فَلَمَّا اخْتَرَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِنَّ ، أَوْ يَسْتَبَدِّلَ بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرَهُنَّ ، وَلَوْ أَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ ، إِلَّا الْإِمَاءَ وَالسَّرَارِي ، فَلَا خَرَجَ عَلَيْهِ فِيهِنَّ)) اهـ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٣) : ((وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَالضَّحَّاكِ . وَقَالَتْ عَائِشَةُ : " مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحَلَّ لَهُ النِّسَاءَ " . قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ : يَعْنِي نِسَاءَ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ وَغَيْرِ الْمُهَاجِرَاتِ . وَالْقَوْلُ

لا يَحِلُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ هَؤُلَاءِ التَّسْعِ اللّوَاتِي فِي عِصْمَتِهِ (اللّوَاتِي خَيْرُهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ) فَاخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ . وقد شَكَرَ اللَّهُ لَهُنَّ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ النِّسَاءَ سِوَاهُنَّ ، وَمَنَعَ تَطْلِيقَهُنَّ ، وَالِاسْتِبْدَالَ بِهِنَّ . وهذه مُكَافَأَةٌ إلهية لَهُنَّ لِأَنَّهُنَّ اخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ﷺ . وهؤلاء التَّسْعُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ كَالْأَرْبَعِ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ . وَحَتَّى لَوْ مَاتَتْ إِحْدَى زَوَاجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، لَا يَحِلُّ لَهُ ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً أُخْرَى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٩ و ٤١٠) : ((وفي قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

أحدها مِنْ بَعْدِ نِسَائِكَ اللّوَاتِي خَيْرَتُهُنَّ فَاخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة في آخرين ، وَهُنَّ التَّسْعُ ، فَصَارَ مَقْصُورًا عَلَيْهِنَّ ، مَمْنُوعًا مِنْ غَيْرِهِنَّ . وَذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ طَلَاقَهُ لِحَفْصَةٍ ، وَعَزَمَهُ عَلَى طَلَاقِ سَوْدَةَ ، كَانَ قَبْلَ التَّخْيِيرِ . والثاني : مِنْ بَعْدِ الَّذِي أَخْلَلْنَا لَكَ ، فَكَانَتْ الْإِبَاحَةُ بَعْدَ نِسَائِهِ مَقْصُورَةً عَلَى الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ ﴾ ، قاله أَبُو بَنِي كَعْبٍ وَالضَّحَّاكُ . والثالث لا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ غَيْرَ الْمُسْلِمَاتِ ، كَالْيَهُودِيَّاتِ ، وَالنَّصْرَانِيَّاتِ ، وَالْمَشْرَكَاتِ ، وَتَحِلُّ لَكَ الْمُسْلِمَاتِ ، قاله مجاهد)) اهـ .

وعن ابن جُرَيْجٍ : فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ . قال ابن جُرَيْجٍ : فَحَدَّثَنِي عَطَاءٌ ، عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : مَا تُؤْفِي النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ .⁽²⁸⁾

وقال الشافعي في الأم (٥ / ٢٠٤) : ((كَأَنَّهَا تَعْنِي اللَّاتِي حُظِرْنَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

الثاني أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ ثُمَّ فِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثَابَ نِسَاءَهُ حِينَ اخْتَرَنَهُ بِأَنْ قَصَرَهُ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ يُحَلَّ لَهُ غَيْرُهُنَّ ، وَلَمْ يُنْسَخْ هَذَا ، قاله الحسن وابن سيرين وأبو أُمَامَةَ ابْنُ سَهْلٍ وَأَبُو بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ . والثاني أَنَّ الْمُرَادَ بِالنِّسَاءِ هُنَا الْكَافِرَاتِ وَلَمْ يُجْزَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ كَافِرَةً ، قاله مجاهد وسعيد بن جُبَيْرٍ وَعِكْرَمَةُ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ)) اهـ .

(٢٨) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٤٧٤) بِرَقْمِ (٣٦٣٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ . قال الشافعي: وأَحْسَبَ قَوْلَ عائشة: أَحَلَّ لَهُ النِّسَاءُ لِقَوْلِ اللَّهِ - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾)) اهـ .

﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ . وَلَا يَحِلُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُطْلَقَ وَاحِدَةً مِنْ زَوَجَاتِهِ، ثُمَّ يَتَزَوَّجَ مَكَانَهَا أُخْرَى . وقال النسفي في تفسيره (٣ / ٣١٢) : ((و " مِنْ " فِي ﴿ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ ، وَفَائِدَتُهُ اسْتِغْرَاقُ جِنْسِ الْأَزْوَاجِ بِالتَّحْرِيمِ)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤١٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنْ تُطْلَقَ زَوَجَاتُكَ ، وَتُسْتَبَدَّلَ بِهِنَّ سَوَاهُنَّ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ . وَالثَّانِي : أَنْ تُبَدَّلَ بِالْمُسْلِمَاتِ الْمُشْرَكَاتِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ فِي آخَرِينَ . وَالثَّلَاثُ : أَنْ تُعْطِيَ الرَّجُلُ زَوْجَتَكَ ، وَتَأْخُذَ زَوْجَتَهُ ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةً لِلْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ زَيْدٍ)) اهـ .

ففي الجاهلية ، كان هناك عملية تبديل للزوجات على نطاق محدود ، يقول الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ : بَادِلْنِي بِامْرَأَتِكَ ، وَأَبَادِلْكَ بِامْرَأَتِي ، فَيَأْخُذُ هَذَا زَوْجَةَ هَذَا ، وَالْعَكْسُ .

وفي تفسير الطبري (١٠ / ٣١٦) أن ابن زيد قال : ((كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم ، يُعْطِي هَذَا امْرَأَتَهُ هَذَا ، وَيَأْخُذُ امْرَأَتَهُ)) اهـ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ : تَنْزِلْ عَنْ امْرَأَتِكَ ، وَأَنْزِلْ لَكَ عَنْ امْرَأَتِي وَأَزِيدَكَ . قال : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ . قال : فَدَخَلَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَائِشَةُ ، فَدَخَلَ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا عُيَيْنَةُ ، فَأَيْنَ الْإِسْتِثْنَانُ ؟)) ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا اسْتَأْذَنْتُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ مُضَرٍّ مُنْذُ أُدْرِكْتُ . قال : مَن هَذِهِ الْحُمَيْرَاءُ الَّتِي إِلَى جَنْبِكَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((هَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ)) ، قال : أَفَلَا أَنْزَلَ لَكَ عَنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ ، فَقَالَ : ((يَا عُيَيْنَةُ ، إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ذَلِكَ)) ، قال : فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَن هَذَا ؟ ، قال : ((أَحْمَقُ مُطَاعٍ ، وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرَيْنَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ))⁽²⁹⁾ .

(٢٩) رواه الدارقطني في سننه (٣ / ٢١٨) . وقال الحافظ في الفتح (٩ / ١٨٤) : ((إسناده ضعيف جداً)) اهـ . قلتُ : في سنده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة . قال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢١٠) : ((وهو متروك)) اهـ . وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٦٦٢) : ((قال البزَّار : إسحاق بن عبد الله لَيْسَ بالحديث))

﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ . وَلَوْ أَعْجَبَكَ جَمَالُ غَيْرِهِنَّ مِنَ النساء . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٦) : ((يعني : ليس لك أن تطلق أحداً من نسائك وتُنكِحَ بَدَلَهَا أُخْرَى ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ جَمَالُهَا . قال ابن عباس : يعني أسماء بنت عُمَيْس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب ، فلمَّا اسْتَشْهَد جعفر ، أراد رسولُ الله ﷺ أن يَخْطُبَهَا ، فَنُهِىَ عن ذلك)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٣) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال ابن عباس : [نَزَلَ ذلك بسبب أسماء بنت عُمَيْس ، أَعْجَبَ رسولُ الله ﷺ حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حُسْنُهَا ، فَأَرَادَ أن يَتَزَوَّجَهَا ، فَنَزَلَت الآية] وهذا حديث ضعيف ، قاله ابن العربي)) اهـ .

وفي الآية دليلٌ على جَوَاز أن يَنْظُرَ الرَّجُلُ إلى مَنْ يُرِيدُ الزَّوَاجَ بِهَا . وَمَنْ عَزَمَ على خِطْبَةِ امرأة ، فيجوز له أن يَنْظُرَ إِلَيْهَا ليكون زَوَاجُهُ على بصيرة .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ أن المغيرة بن شعبة خَطَبَ امرأة ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((اذْهَبْ فانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَإِنَّهُ أُخْرَى أَنْ يُؤَدَّمَ بَيْنَكُمَا)) . قال : فذهب فنظر إليها ، فَذَكَرَ مِنْ مُوَافَقَتِهَا (30) .

والمعنى : أن يَكُونَ بَيْنَكُمَا المحبة والاتِّفَاق ، وتَدُومُ المودة والألفة بَيْنَكُمَا . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٦٢) : ((يُقَالُ : أَدَمَ اللهُ بَيْنَهُمَا ، يَأْدِمُ أَدَمًا بالسُّكُونِ : أَي أَلْفَ وَوَقَّ)) .

وعن جابر _ رضي الله عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ امرأةً ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أن يَنْظُرَ إلى بعض ما يَدْعُوهُ إلى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ)) ، فَخَطَبْتُ امرأةً مِنْ بني سُلَيْم ، فَكُنْتُ أَتَخَبَّأُ لَهَا فِي أَصُولِ النَّخْلِ ، حَتَّى رَأَيْتُ مِنْهَا مَا دَعَانِي إلى نِكَاحِهَا ، فَتَزَوَّجْتُهَا (31) .

إنَّ النظرَ إلى المخطوبة مِنَ السُّنَّةِ ، وهو بدافع الإرشاد إلى المصلحة والصواب . فإذا نَظَرَ إِلَيْهَا ، فَلَعَلَّهُ يَرَى مِنْهَا ما يُرَغِّبُهُ في نِكَاحِهَا . وهذا المعنى واضحٌ في الحديث . والنظرُ إلى المخطوبة ليس واجباً وإنما مِنَ السُّنَّةِ . وهذا يَتَضَحُّ في العبارة النبوية : " فَإِنْ اسْتَطَاعَ ... فَلْيَفْعَلْ " . وهذه العبارة لا تُقال في الواجب . وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٣) : ((اخْتَلَفَ فيما

جداً)) اهـ . وقال الذهبي في الكاشف (١ / ٢٣٧) : ((تركوه)) اهـ . قلتُ : الحُمَيْرَاءُ تصغير حمراء ، والمراد : البيضاء .

(٣٠) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٧٩) برقم (٢٦٩٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣١) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٧٩) برقم (٢٦٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَجُوزُ أَنْ يَنْظُرَ مِنْهَا ؟ ، فَقَالَ مَالِكٌ : يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا وَكَفِّهَا ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَّا بِأَذْنِهَا . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ : بِأَذْنِهَا وَيُغَيِّرُ إِذْنَهَا إِذَا كَانَتْ مُسْتَتْرَةً . وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَيَجْتَهِدُ وَيَنْظُرُ مَوَاضِعَ اللَّحْمِ مِنْهَا . قَالَ دَاوُدُ: يَنْظُرُ إِلَى سَائِرِ جَسَدِهَا تَمَسُّكَ بظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَأَصُولُ الشَّرِيعَةِ تَرُدُّ عَلَيْهِ فِي تَحْرِيمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْعَوْرَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ . اسْتِثْنَاءُ مِنَ النِّسَاءِ . إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْجَوَارِي ، فَإِنَّهُنَّ حَلَالٌ لَكَ بِلاَ عَدَدٍ ، وَلَا بِأَسْفَلٍ فِي ذَلِكَ ، وَلَا حَرَجَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، لِأَنَّهُنَّ لَسَنَ زَوَاجَاتٍ . وَقَدْ مَلَكَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ مَارِيَةَ الْقَبْطِيَّةَ ، وَوُلِدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمُ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ وَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٤٠٣) : ((وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال: أحدها إلا أن تَمْلِكَ بالسَّيِّ ، فَيَحِلُّ لَكَ وَطُوعًا ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ غَيْرِ الصَّنَفِ الَّذِي أَخْلَلْتَهُ لَكَ ، وَإِلَى هَذَا أَوَّماً أَبِي بِنِ كَعْبٍ فِي آخِرِينَ . وَالثَّانِي إِلَّا أَنْ تُصِيبَ يَهُودِيَّةً أَوْ نَصْرَانِيَّةً فَتَطَّأَهَا بِمِلْكِكَ الْيَمِينِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ . وَالثَّالِثُ إِلَّا أَنْ تُبَدِّلَ أَمْتُكَ بِأَمَةٍ غَيْرِكَ ، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ . قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ: وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ جَائِزَةٌ ، إِلَّا أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَكَحَ يَهُودِيَّةً وَلَا نَصْرَانِيَّةً بِتَزْوِيجٍ وَلَا مِلْكٍ يَمِينٍ . وَلَقَدْ سَبَى رَيْحَانَةَ الْقُرْظِيَّةَ ، فَلَمْ يَدُنْ مِنْهَا حَتَّى أَسْلَمَتْ)) اهـ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ . وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزًا ، يَطَّلِعُ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ تَجَاوُزِ حُدُودِ اللَّهِ ، وَتَخَطُّي حِلَالِهِ وَحَرَامِهِ . وَفِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (١٢ / ٦٧) : ((قَالَ الْمَفْسَّرُونَ : أَبَاحَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ أَصْنَافًا أَرْبَعَةً : " الْمَمْهُورَاتِ ، الْمَمْلُوكَاتِ ، الْمَهَاجِرَاتِ ، الْوَاهِبَاتِ أَنْفُسَهُنَّ " ، تَوْسَعُهُ عَلَيْهِ ﷺ ، وَتَيْسِيرًا لَهُ فِي نَشْرِ الرِّسَالَةِ وَتَبْلِغِ الدَّعْوَةِ . وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ الْآيَةُ ، وَخَيَّرَهُنَّ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ ، وَاخْتَرَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ ، أَكْرَمَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ قَصَرَ عَلَيْهِنَّ ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِغَيْرِهِنَّ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَغْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٥٣] .

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوحْدانيةِ الله وتبوءَ محمد ﷺ : لا تَدْخُلُوا بيوتَ النبيِّ إلا إذا أذنَ لكم ،
 تعظيماً لِقَدْرِ النبيِّ ﷺ ومكانته ، وعدم مُضايقته أو إيذائه ، واحتراماً لحقوق نِسائه .
 وإضافة البيوت إلى النبيِّ ﷺ : ﴿ بيوتُ النبيِّ ﴾ تشير إلى أنَّها بيوت شريفة كريمة ذات مكانة
 عظيمة ، وليست بيوتاً عاديةً مثل بيوت الناس . وشَرَفُ البيت من شرف صاحبه .
 والله تعالى يُعلِّم المؤمنين أدبَ التعامل مع النبيِّ ﷺ ، ومُراعاةَ حقوقه ، والحرص على راحته .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦٤) : ((حَظَرَ على المؤمنين أن يَدْخُلُوا منازل رسول الله
 ﷺ بغيرِ إذن ، كما كانوا قبل ذلك يَصْنَعُونَ في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غَارَ
 الله لهذه الأمة ، فأَمَرَهُمْ بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة)) اهـ .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ١٣ و ١٤٤) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا
 لا تَدْخُلُوا بيوتَ النبيِّ ﴾ الآية ، في سبب نزولها ستة أقوال : القول الأول أخرجاه في الصحيحين
 من حديث أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَ زينب بنت جحش دَعَا القَوْمَ ، فَطَعَمُوا ثُمَّ
 جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ ، فَلَمْ يَقُمُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، وَقَامَ مِنَ القَوْمِ مَنْ
 قَامَ ، وَقَعَدَ ثَلَاثَةٌ ، فَجَاءَ رسول الله ﷺ فَدَخَلَ ، فإِذَا القَوْمُ جُلُوسٌ ، فَرجع وإِنتهم قاموا فانطلقوا ،
 وَجِئْتُ فَأَخْبَرْتُ النبيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قد انطلقوا ، فَجَاءَ حتَّى دَخَلَ ، وَذَهَبْتُ أَدْخُلُ ، فَأَلْقَى الحِجَابَ بَيْنِي
 وَبَيْنَهُ وَأَنْزَلَ الله تعالى هذه الآية . والثاني أنَّ ناساً من المؤمنين كانوا يَتَحَيَّنُونَ طعامَ النبيِّ ﷺ
 فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِ قَبْلَ الطَّعَامِ إلى أن يُدْرِكَ ، ثُمَّ يَأْكُلُونَ ولا يَخْرُجُونَ ، فَكان رسول الله ﷺ يَتَأَذَّى
 بِهِمْ ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، قاله ابن عباس . والثالث أنَّ عُمر بن الخطاب قال : قُلْتُ : يا رسول الله ، إِنَّ
 نِسَاءَكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ البَرَّ والفاجر ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أن يَحْتَجِبْنَ ، فَنَزَلَتْ آية الحِجَابِ ، أَخْرَجَهُ
 البخاري من حديث أنس ، وَأَخْرَجَهُ مسلم من حديث ابن عمر ، كلاهما عن عمر . الرابع أنَّ عُمر
 أَمَرَ نِسَاءَ رسول الله ﷺ بالحِجَابِ ، فقالت زينب : يا ابن الخطاب ، إِنَّكَ لَتَغَارُ عَلَيْنَا وَالْوَحْيُ يَنْزِلُ
 فِي بَيْوتِنَا ، فَنَزَلَتْ الآية ، قاله ابن مسعود . والخامس أنَّ عُمر كان يقول لرسول الله ﷺ : اخْجُبْ
 نِسَاءَكَ . فلا يفعل ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ لَيْلَةً ، فقال عُمر : قَدْ عَرَفْنَاكَ يا سَوْدَةُ ، حِرْصًا على أن يَنْزِلَ
 الحِجَابُ ، فَنَزَلَ الحِجَابُ ، رواه عكرمة عن عائشة . والسادس أنَّ رسول الله ﷺ كان يَطْعَمُ معه بعضُ
 أصحابه ، فَأَصَابَتْ يَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَدَ عائشة وكانت معهم ، فَكَرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك ، فَنَزَلَتْ آية
 الحِجَابِ ، قاله مجاهد)) اهـ .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ ، دَخَلَ الْقَوْمُ فَطَعَمُوا ، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ ، فَلَمْ يَقُومُوا ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ ، فَلَمَّا قَامَ ، قَامَ مَنْ قَامَ مِنَ الْقَوْمِ ، وَقَعَدَ بَقِيَّةُ الْقَوْمِ ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ ، فَأَلْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية (32).

لا يجوز دخول بيوت النبي ﷺ بغير إذن ، ولا يجوز كذلك انتظار نُضْجِ الطعام ، وتصيّد تلك اللحظة ، لأن ذلك تَطَلُّلٌ ، ومُضايقة للنبي ﷺ وإزعاج لنسائه ، وسوء أدب لا يليق بالمؤمن . فليس المؤمن بليدًا ، ولا ثقیل الظل ، ولا عديم الإحساس .

إنَّ المؤمنَ طاقةٌ شعورية خلاقة تعرف النَّصَابَ الصحيح للأمور ، وتضع القضايا الاجتماعية في موضعها المناسب ، وتعمل على تقدير مشاعر الآخرين واحترامها ، وعدم إزعاجهم .

وفي فتح الباري (١١ / ٦٥) : ((قال ابن بطّال : فيه أنه لا ينبغي لأحد أن يدخل بيتَ غيره إلا بإذنه ، وأنَّ المأذون له لا يُطِيلُ الجلوس بعد تمام ما أُذِنَ له فيه ، لِئَلَّا يُؤْذِيَ أَصْحَابَ الْمَنْزِلِ ، وَيَمْنَعَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وفيه أنَّ مَنْ فعل ذلك حتى تَضَرَّرَ بِهِ صاحب المنزل ، أنَّ لصاحب المنزل أن يُظْهِرَ الشَّاغِلَ بِهِ ، وأن يقوم بغير إذن ، حتى يَنْفُطِنَ لَهُ ، وأن صاحب المنزل إذا خرج من منزله ، لم يكن للمأذون له في الدخول أن يُقيم إلا بإذن جديد ، والله أعلم)) اهـ .

وقال الإمام الغزالي في الإحياء (٢ / ٩) : ((أمّا الدخول فليس من السُّنَّة أن يقصد قَوْمًا مُتْرَبِّصًا لوقت طعامهم ، فيدخل عليهم وقت الأكل ، فإن ذلك من المفاجأة . وقد نُهيَ عنه . قال الله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ ﴾ يعني مُنْتَظِرِينَ حينه ونُضْجَه)) اهـ .

﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ ﴾ . لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﷺ بحالٍ من الأحوال إلا إذا دعاكم إلى طعام غير مُنْتَظَرٍ وقت نُضْجِه . وهذا أدبٌ أدَّبَ اللَّهُ بِهِ الثَّقَلَاءَ الَّذِينَ لَيْسَ لديهم مشاعر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦٤) : ((قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أي غير مُتَحَيِّين نُضْجَه واستواءه ، أي : لا تَرْقُبُوا الطَّعَامَ إِذَا طُبِّخَ ، حتى إذا قارب الاستواء تَعَرَّضْتُمْ للدخول ، فإنَّ

(٣٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. واللفظ للبخاري (٥ / ٢٣٠٣) برقم (٥٨٨٥). ومسلم (٢ / ١٠٤٦) برقم (١٤٢٨).

هذا مما يكرهه الله ويدُّمُّه . وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذي تُسمِّيه العرب الضَّيْفَن ، وقد صَنَّف الخطيب البغدادي في ذلك كتابًا في ذم الطُّفَيْلَيْن ، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها ((33) .

﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ . ولكن إذا دعاكم النبي ﷺ وأذن لكم بالدُّخول ، فادْخُلُوا . وفيه دلالة واضحة على أنَّ المراد بالإذن إلى الطعام ، هو الدَّعوة إليه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٧) : ((فَأَكَّد المنع ، وَخَصَّ وَقْتُ الدُّخُول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب وحفظ الحضرة الكريمة من المباشطة المكروهة . قال ابن العربي : وتقدير الكلام : ولكن إذا دُعِيتُمْ ، وأذن لكم في الدُّخول ، فادْخُلُوا ، وإلا فَنَفْسُ الدَّعوة لا تكون إذنًا كافيًا في الدخول . والفاء في جواب ﴿ إِذَا ﴾ لازمة ، لِمَا فِيهَا مِنْ معنى الْمُجَازَاة)) اهـ .

﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . فإذا انتهيتُمْ من تناول الطعام ، فَتَفَرَّقُوا ، واخْرُجُوا مِنْ مَنْزِلِهِ ، وذلك للتخفيف عن النبي ﷺ ، وأهل بيته ، وعدم إزعاجهم أو التضييق عليهم .

والله تعالى لم يجعل لهم أكثر من الأكل . والمقصود : وجوب الخروج من البيت بعد الأكل . وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٧) : ((والدليل على ذلك أنَّ الدُّخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح ، وعاد التحريم إلى أصله)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٣) : ((ولأنَّه خطاب لِقَوْم كانوا يَتَحَيَّنُونَ طعام رسول الله ﷺ ، فَيَدْخُلُونَ ، وَيَقْعُدُونَ مُنْتَظِرِينَ لِإِدْرَاكِهِ ، مَخْصُوصَةً بِهِمْ وبأمثالهم ، وإلا لَمَا جَازَ لأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ بُيُوتَهُ بِالْإِذْنِ لِغَيْرِ الطَّعَامِ ، وَلَا اللَّبَثِ بَعْدَ الطَّعَامِ لَهُمْ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢ / ١٠٥٢) أنَّ ابن عُمر كان يقول عن النبي ﷺ : ((إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ ، عُرْسًا كَانَ أَوْ نَحْوَهُ)) .

على المسلم أن يُلَبِّي دَعْوَةَ أَخِيهِ المسلم . وهذه القضية تدل على الاحترام المتبادل ، وتُساهم في تعزيز الروابط الاجتماعية ، وتقوية العلاقات بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامي المتماسك .

(٣٣) (التَّطْفِيلُ) : أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ وَلِيمَةً لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا . وَكُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُ نُسِبَ إِلَيْهِ ، وَقِيلَ : طُفَيْلِي . (الضَّيْفَنُ) : مَنْ يَجِيءُ مَعَ الضَّيْفِ مُتَطَفِّلًا .

وقال الحافظ في الفتح (٢٤٧/٩): ((وهذا يُؤيد ما فهمه ابن عُمر، وأنَّ الأمر بالإجابة لا يختص بطعام العُرس. وقد أخذ بظاهر الحديث بعضُ الشافعية، فقال بِوجوب الإجابة إلى الدَّعوة مُطلقًا، عُرْسًا كان أو غَيْرَه بِشَرْطِه ، ونقله ابن عبد البر عن عُبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة)).

وفي صحيح البخاري (١٩٨٥ / ٥) : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ)) .
والْكُرَاعُ يَدُ الشَّاةِ ، وهو شيء صغير لا قيمة له . والمعنى : إِنَّ النبي ﷺ سَجِيبُ الدَّعوة ، وَلَوْ على شيء قليل . وَسَقَبَلُ الهدية مهما كانت قليلة . وهذا يدل على تواضع النبي ﷺ ، وأخلاقه الرفيعة، وحرصه على تطيب خواطر الناس، والتعامل معهم باحترام، ومُشاركتهم ، والقرب منهم.

والنبي ﷺ لا يعيش في البُرج العاجي ، ولا يَتَكَبَّرُ على الآخرين ، أو يَتَرَفَّعُ عن مُشاركتهم في المناسبات أو قبول هداياهم. وإنما يتعامل معهم بأدب واحترام، ولا يَجْرَحُ مشاعرهم، ولا يُهينهم.
﴿ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾. معطوف على ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ﴾. والمعنى : وَلَا مُتَحَدِّثِينَ بعد انتهائكم من تناول الطعام ، إيناسًا مِن بعضكم لبعض به، أو بالتَّسْمُعُ لحديث أهل البيت . أي : لَا تَمَكَّنُوا طَالِبِينَ الْأَنْسَ لحديثٍ مِن بعضكم لبعض أو مِن أهل البيت. وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((وَلَا طَالِبِينَ الْأَنْسَ للحديث . وكانوا يجلسون بعد الطعام يَتَحَدَّثُونَ طويلًا ، فَتُنْهَوُا عن ذلك)).

﴿ إِنَّ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ . إِنَّ إطالة الجلوس في بَيْتِ النبي ﷺ كان يُضايقه ، ويُزعجه ، ويُضَيِّقُ المنزلَ عليه وعلى أهله ، ويُشغله بما لا يعنيه ، ويَمْنَعُه من قضاء مصالحه وأموره .
وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٢٢) : ((لَأَنَّهُمْ كَانُوا يُضَيِّقُونَ الْمَنْزَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَحَدَّثُونَ بِمَا لَا يُرِيدُهُ . قَالَ الرَّجَاجُ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْتَمِلُ إِطَالَتَهُمْ كَرَمًا مِنْهُ ، فَيَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى فِي ذَلِكَ ، فَعَلَّمَ اللَّهُ مَنْ يَخْضُرُهُ الْأَدَبُ ، فَصَارَ أَدَبًا لَهُمْ ، وَلَمَنْ بَعْدَهُمْ)) اهـ .
﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ . فَيَسْتَحْيِي مِنْ إِخْرَاجِكُمْ ، وَيَمْنَعُهُ حَيَاؤُهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ بِالْمُغَادَرَةِ . وهذا يدل على أخلاق النبي ﷺ الرفيعة ، وحرصه على مشاعر الآخرين ، وَلَوْ على حساب راحته .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦٤) : ((وقيل : المراد إن دخولكم منزله بغير إذنه ، كان يشق عليه ، ويتأذى به ، ولكن كان يكره أن ينهأهم عن ذلك ، من شدة حيائه عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه التهي عن ذلك)) اهـ .

﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ . والله لا يدع تأديبكم ، ولا يترك بيان الحق ، ولا يمتنع من إظهاره وتوضيحه . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٣) : ((يعني أن إخراجكم حق ، فينبغي أن لا يترك حياء ، كما لم يتركه الله ترك الحي ، فأمركم بالخروج)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١٤ / ١٩٧) : ((قال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب أدب الله به الثقلاء . وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم)) اهـ . والتعبير بعدم الاستحياء للمشاكلة . فالآية : ﴿ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ ، تشير إلى مفهوم المشاكلة اللغوية (المُقابلة في الألفاظ) ، وهذا المفهوم مُعْتَمَد عند علماء اللغة . وقال ابن حجة الحموي في خزنة الأدب (٢ / ٢٥٢) : ((المُشَاكَلَةُ في اللغة هي المُمَاتَلَةُ . والذي تحرر في المصطلح عند علماء هذا الفن أن المشاكلة هي ذكر الشيء بغير لفظه ، لوقوعه في صحبتته)) اهـ .

ويمكننا أن نذكر أدب التعامل مع النبي ﷺ في بيوته كآلاتي : ١ _ عدم دخول بيوت النبي ﷺ بغير إذن . ٢ _ تلبية دعوة النبي ﷺ إلى الطعام بدون انتظار وقت نُضْجِه . ٣ _ الانتشار في الأرض بعد تناول الطعام . ٤ _ عدم التحدث بعد الانتهاء من أكل الطعام مُسْتَأْنِسِينَ بالكلام . وهذه الأخلاق الفاضلة من شأنها توفير الجو المناسب لراحة النبي ﷺ في بيوته ، وعدم إزعاج أهله . وأيضاً إعطاء صورة طيبة عن ضيوفه بعيداً عن التطفُّل ، واصطياد الأوقات غير المناسبة للزيارة . فعدم وجود موعد مُسَبَّق ، أو الدخول بغير إذن ، يؤدِّيَان إلى عنصر المفاجأة ، وتكريس سوء الأخلاق ، وهذا ضد المنهجية الأخلاقية التي جاءت بها الدعوة المحمدية الإسلامية . والمؤمن مُتَمَيِّزٌ بأخلاقه وسلوكه ، ومشاعره مُرَهْفَةٌ ، وليس بليداً أو ثقيلاً الظِّل . ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ^(٣٤) . وإذا أردتم حاجة من زوجات النبي ﷺ الشريفات الطاهرات ، فاطلبوها من وراء حاجزٍ وسْتَرٍ ، وليس وجهها لوجه .

(٣٤) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٥١) : ((قال القاضي عياض : فَرَضَ الْحِجَابُ مما احتص به أزواج النبي ﷺ ، فهو فَرَضٌ عليهنَّ بلا خلاف في الوجه والكفين ، فلا يجوز لهن كشف

والضمير في ﴿ سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ لنساء النبي ﷺ لدلالة ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ . والمقصود بالمتاع في الآية كل حاجة متعلقة بالدين والدنيا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٧) : ((في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهم من وراء حجاب ، في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ، ويدخل في ذلك جميع النساء)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٨٧١) : ((إذا أردتم أن تخاطبوا أزواج النبي ﷺ في أمر فخطبوهن من وراء حجاب . وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يئززن للرجال ، فلما نزلت هذه الآية ضرب عليهن الحجاب ، فكانت هذه آية الحجاب بينهن وبين الرجال)) اهـ .
﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ . سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أطهر وأطيب ، وأنقى للرؤية والشكوك ، وأبعد للتهمة والخواطر الشيطانية ، وأقوى في الحماية والصيانة . ولا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع النساء الأجنبية ، مهما كان إيمانه قويا ، لأن الشيطان خبيث في الإغراء والإغواء ، والإنسان كائن ضعيف أمام شهواته ، والأفضل له أن يتبعد عن نار الفتنة لنلا يحترق بها ، ومن يلعب بالنار تحرقه . ولا شك أن وجود حجاب حاجز بينكم وبينهن يبعد الخواطر السيئة ، ويطرد الشكوك والرؤية ، وفي ذلك صيانة للقلوب ، وتطهير لها . ولا تخفى خواطر السوء التي تولد في صدور الرجال تجاه النساء ، والعكس صحيح . فالعين بريد القلب . والرجل إذا لم ير المرأة لم تقع في قلبه ، وكذلك المرأة ، إذا لم تر الرجل لم تقع في قلبها . والبعد عن العين بعيد عن القلب .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٢٢) : ((﴿ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ، أي : أكثر تطهيراً لها من الرؤية وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ، وفي هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه من الخلوة مع من لا تحل له)) اهـ .

ذلك لشهادة ، ولا غيرها ، ولا يجوز لمن إظهار شخوصهن وإن كنَّ مستترات ، إلا ما دعت إليه الضرورة من الخروج للبراز — يعني قضاء الحاجة — . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ، وقد كنَّ إذا قعدن للناس جالس من وراء الحجاب ، وإذا خرجن حجبن وسترن أشخاصهن ، كما جاء في حديث حفصة يوم وفاة عمر . ولما توفيت زينب — رضي الله عنها — جعلوا لها قبة فوق نعشها تستر شخصها . هذا آخر كلام القاضي)) اهـ .

والإنسان لا يعرف قلبه عند الشهوات والشبهات، هل سيصمد أم ينهار. لذا عليه أن يبتعد عن مواطن الفتن كلها، لأنها تزرع في القلب الوهن، وتغرقه في الشك والحسرة والقلق .
وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : كنت أكلُ مع النبي ﷺ حيساً في قعب ، فمرَّ عمر _ رضي الله عنه _ ، فدعاه ، فأكل ، فأصابَتْ أُصبعه أُصبعي ، فقال : حس ، أوه أوه ، لو أطاع فيكنَّ ما رأكنَّ عَيْنٌ ، فنزلت آيةُ الحِجاب (35).

إنَّ النبي ﷺ يعيشُ حياةً بسيطةً في بيته ، فها هو يأكل مع زوجته الحيس في قعب . والحيس خلطُ الأقط بالتمر يتم عجنه كالخميرة (36). والقعب هو القَدَح الضخم، أو قَدَح من خشب (37).
وقد مرَّ عمر _ رضي الله عنه _ ، فدعاه النبي ﷺ إلى تناول الطعام . وهذا يدل على كرم النبي ﷺ وحِرْصه على إكرام أصحابه ، ومشاركتهم في تناول الطعام . وحدث ما لم يكن بالحسبان ، فقد أصابَ أُصبع عمر أُصبع عائشة بشكل عفوي غير مقصود . وهذا الأمر يحدث للناس عندما يأكلون من إناء واحد. فتضايقُ عمر _ رضي الله عنه _ ، ولو كان الأمر بيده لَحَجَب نساء النبي ﷺ عن أعين الناس ، وذلك صَوْنًا لِشَرَف النبي ﷺ ، وحمايةً لأعراض أمهات المؤمنين . وهذا يدل على غيرة عمر الشديدة في الحق ، وحِرْصه الأكيد على صيانة نساء النبي ﷺ من الأذى والمواقف المُخرِجة . وقد نزلت آيةُ الحِجاب . حيث تمَّ تشريف أمهات المؤمنين ، ووضعهنَّ في مكانة سامية بعيدة عن أعين الناس .

وفي صحيح البخاري (١ / ١٥٧) : عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : ((قلتُ: يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنه يُكَلِّمهنَّ البُرُّ والفاجرُ ، فنزلت آية الحِجاب)) .

وهذا المنطق العمري صحيحٌ تمامًا، فنساء النبي ﷺ لهنَّ مكانةٌ مُميَّزة ، ومن الطبيعي أن يحرصَ الناس على سؤالهنَّ عن شتى الأمور بسبب قربهنَّ من النبي ﷺ ، وإطلاعهنَّ على حياته

(٣٥) رواه الطبراني في الصغير (١ / ١٤٩) . وصحَّحه السيوطي في بُاب النُّقول (١ / ١٧١) .

(٣٦) قال المطرزي في المغرب في ترتيب المُعرب (١ / ٢٣٦) : ((الحيسُ تمرٌ يُخلطُ بسمنٍ وأقطٍ ، ثم يُذَلِّكُ حتى يَخْتَلِط)) اهـ .

(٣٧) قال الزُّبيدي في تاج العروس (١ / ٨٦٩) : ((القَعْبُ : القَدَح الضخمُ الغليظُ الجاني . وقيل : قَدَحٌ من خَشَبٍ مُقَعَّر)) اهـ .

الشخصية ، ومعرفتهنَّ الواسعة بالشؤون الدِّينية والدُّنيوية . وهؤلاء الناسُ فيهم الصالح (البر) ، وفيهم الطالح (الفاجر) . ولا بُد من إغلاق باب الشُّبهات والشهوات والوساوس الشَّيطانية ، وسدِّ الدرائع الموصلة إلى الحرام . والحلُّ الناجعُ هو وجود حاجرٍ بينَ نساء النبي ﷺ والناس .

﴿ وما كانَ لَكُمْ أن تُؤذُوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ . وما يَنبغي لَكُمْ أن تُؤذُوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ ، وما يَصْلُحَ ذلكَ لَكُمْ ، ولا يَلِيقُ بِكُمْ . فقد أخرجكم بِإذنِ اللَّهِ من الظلمات إلى النُّور ، وأرشدكم إلى سعادة الدنيا ونعيم الآخرة . وما يَنبغي إيذاء النبي ﷺ بأيِّ شيء من الأشياء ، قولاً أو فعلاً . ومن ذلك _ على سبيل المثال لا الحصر _ : دُخول بيوته بِغيرِ إِذنه ، والبقاء فيها ، وتكليم نسائه بلا حجاب .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٦٤) : ((عن ابن عباس : في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وما كانَ لَكُمْ أن تُؤذُوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ . قال : نزلت في رجلٍ هَمَّ أن يَتَزَوَّجَ بعضَ نساء النبي ﷺ بَعْدَهُ . قال رجل لِسُفيان (وهو الثوري أحدُ رِواة الحديث) : أهي عائشة ؟ ، قال : قد ذَكَرُوا ذلك ، وكذا قال مُقاتل بن حَيَّان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السُّدي إنَّ الذي عزم على ذلك طلحة بن عُبَيد اللَّهِ _ رضي اللَّهُ عنه _ حتى نزل التَّنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا اجتمع العلماء قاطبةً على أن مَنْ تُؤْفِي عَنْهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ على غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِنْ بَعْدِهِ ، لأنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ في الدُّنيا والآخرة ، وأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، كما تَقَدَّمَ . واختلَفُوا فيمَنْ دَخَلَ بِهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا في حياتِهِ : هل يَحِلُّ لِغَيْرِهِ أن يَتَزَوَّجَهَا ؟ ، على قولين مَأْخُذُهُما : هل دَخَلَتْ هَذِهِ في عُمومِ قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [الأَحْزَاب : ٥٣] أم لا ؟ ، فَأَمَّا مَنْ تَزَوَّجَهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أن يَدْخُلَ بِهَا ، فما نَعْلَمُ في حَلِّهَا لِغَيْرِهِ والحالة هذه نِزاعاً ، واللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٧) : ((وقال ابن عطية : رُوِيَ أَنَّهَا نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسولُ اللَّهِ ﷺ لَتَزَوَّجْتُ عائشة ، فبلغ ذلك رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فَتَأَذَّى بِهِ . هَكَذَا كَتَبَ عَنْهُ ابن عباس ببعض الصحابة . وَحَكَى مَكِّي عَنْ مَعْمَرٍ أَنَّهُ قَالَ : هو طلحة بن عُبَيد اللَّهِ . قُلْتُ : وكذا حكى النَّحَّاسُ عَنْ مَعْمَرٍ أَنَّهُ طَلَحَهُ ، وَلَا يَصِحُّ قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حُكِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ بعضِ فُضَلَاءِ الصَّحَابَةِ وَحَاشَاهُمْ عَنْ مِثْلِهِ ! ، والكذب في نَقْلِهِ ، وإنما يليقُ مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ بِالْمُنافِقِينَ الْجَهَّالِ)) اهـ .

﴿ وَلَا أن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ . وَلَا أن تَتَزَوَّجُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ أَبَدًا ، لأنَّهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أن يَتَزَوَّجَ أُمَّهُ ، وَالنَّبِيَّ ﷺ كَالْوَالِدِ ، فَلَا يَنبغي إيذاء النبي ﷺ وَأَهْلِهِ . وَهَذَا مِنْ خِصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ ، حِفْظًا لِكِرَامَتِهِ ، وَحِمَايَةً لِشَرَفِهِ ، وَصَوْنًا لِعِرْضِهِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ مِيتًا كَحُرْمَتِهِ حَيًّا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٩٧) : ((فَحَرَّمَ اللَّهُ نِكَاحَ أَزْوَاجِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَعَلَ لَهُنَّ حُكْمَ الْأُمَّهَاتِ ، وَهَذَا مِنْ خِصَائِصِهِ ، تَمِيِزًا لِشَرَفِهِ ، وَتَنْبِيْهًا عَلَى مَرْتَبَتِهِ ﷺ . قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَزْوَاجُهُ ﷺ اللَّاتِي مَاتَ عَنْهُنَّ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ نِكَاحُهُنَّ ، وَمَنْ اسْتَحَلَّ ذَلِكَ كَانَ كَافِرًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّمَا مَنَعَ مِنَ التَّرْجُوحِ بِزَوَاجَاتِهِ ، لِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ فِي الْجَنَّةِ لِآخِرِ أَزْوَاجِهَا . قَالَ حُذَيْفَةُ لِمَرْأَتِهِ : إِنَّ سَرَّكَ أَنْ تَكُونِي زَوْجَتِي فِي الْجَنَّةِ إِنْ جَمَعَنَا اللَّهُ فِيهَا ، فَلَا تَزْوَجِي مِنْ بَعْدِي ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لِآخِرِ أَزْوَاجِهَا اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ ، هَلْ يَبْقَيْنَ أَزْوَاجًا أَمْ زَالَ النِّكَاحُ بِالمَوْتِ ، وَإِذَا زَالَ النِّكَاحُ بِالمَوْتِ فَهَلْ عَلَيْهِنَّ عِدَّةٌ أَمْ لَا ؟ ، فَقِيلَ : عَلَيْهِنَّ الْعِدَّةُ ، لِأَنَّهُ تُوَفِّي عَنْهُنَّ وَالْعِدَّةُ عِبَادَةٌ . وَقِيلَ : لَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ ، لِأَنَّهُا مُدَّةُ تَرْبُصٍ لَا يُنْتَظَرُ بِهَا الْإِبَاحَةُ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ عِيَالِي " (38) ، وَرُوي " أَهْلِي " ، وَهَذَا اسْمٌ خَاصٌ بِالزَّوْجِيَّةِ ، فَأَبْقَى عَلَيْهِنَّ النِّفَقَةَ وَالسُّكْنَى مُدَّةَ حَيَاتِهِنَّ لِكُونِهِنَّ نِسَاءً ، وَحُرْمَنَ عَلَى غَيْرِهِ ،

(٣٨) فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ [الْبُخَارِيُّ (٣ / ١٠٢٠) وَمُسْلِمٌ (٣ / ١٣٨٢)] : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَتَقَسِّمُ وَرَثَتِي دِينَارًا . مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمَوْؤِنَةٍ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ)) . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَرِثُهُ أَحَدٌ ، فَهُوَ لَمْ يَجِئْ لِمَجْمَعِ خُطَامِ الدُّنْيَا وَتَكْدِيسِ الْأَمْوَالِ ، وَتَوْرِيثِ عَائِلَتِهِ . مَا تَرَكَّهُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِهِ وَنَفَقَةِ عَامِلِهِ ، فَهُوَ صَدَقَةٌ . وَقَدْ خَصَّ أَزْوَاجَهُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ نِكَاحُهُنَّ ، فَجَرَتْ لَهُنَّ النِّفَقَةُ ، فَإِنَّهُنَّ كَالْمُعْتَدَاتِ . وَالْعَامِلُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَ الرَّجُلِ فِي مَالِهِ وَمُلْكِهِ وَعَمَلِهِ، وَالْمَقْصُودُ بِالْعَامِلِ فِي الْحَدِيثِ : الْخَلِيفَةُ بَعْدَهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٦ / ٢١١) : ((قَالَ الطَّبْرِيُّ : قِيلَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَلَكًا مِنْ أَزْوَاجِهِ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ ، فَسَكَنَ بَعْدَهُ فِيهِنَّ بِذَلِكَ التَّمْلِيكِ . وَقِيلَ : إِنَّمَا لَمْ يُبَازِعَهُنَّ فِي مَسَاكِنِهِنَّ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَةِ مُؤْنَتِهِنَّ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ اسْتِثْنَاهَا لَهُنَّ مِمَّا كَانَ بِيَدِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ، حَيْثُ قَالَ : " مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي " . قَالَ : وَهَذَا أَرْجَحُ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ وَرَثَتِهِنَّ لَمْ يَرِثْنَّ عَنْهُنَّ مَنَازِلَهُنَّ ، وَلَوْ كَانَتِ الْبُيُوتُ مِلْكًا لَهُنَّ لَانْتَقَلَتْ إِلَى وَرَثَتِهِنَّ . وَفِي تَرْكِ وَرَثَتِهِنَّ حُقُوقَهُمْ مِنْهَا دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَلِهَذَا زِيدَتْ يُبُوتُهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ بَعْدَ مَوْتِهِنَّ ، = لِعُمُومِ نَفْعِهِ لِلْمُسْلِمِينَ ، كَمَا فُعِلَ فِيمَا كَانَ يُصْرَفُ لَهُنَّ مِنَ النِّفَقَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٢ / ٨١) : ((ثُمَّ إِنَّ جُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ — صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ — لَا يُورَثُونَ)) اهـ .

وهذا هو معنى بقاء النكاح ، وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام لهن ، بمنزلة المغيب في حق غيره ، لكونهن أزواجه في الآخرة قطعاً ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار ، فبهذا انقطع السبب في حق الخلق ، وبقي في حق النبي ﷺ ، وقد قال عليه السلام: " زواجتي في الدنيا هن زواجتي في الآخرة " (39)، وقال عليه السلام: " كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي ، فإنه باقٍ إلى يوم القيامة " (40). فرع : فأما زواجه عليه السلام اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلية وغيرها ، فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ . فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ، لما روي أن الكلية التي فارقها رسول الله ﷺ تزوجها عكرمة ابن أبي جهل . وقيل : إن الذي تزوجها الأشعث بن قيس الكندي ، قال القاضي أبو الطيب: الذي تزوجها مهاجر بن أبي أمية ، ولم ينكر ذلك أحد ، فدل على أنه إجماع ((اهـ .

(٣٩) قال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣ / ١٣٢) : ((حديث " زواجتي في الدنيا زواجتي في الآخرة " لم أجده بهذا اللفظ . وفي البخاري عن عمّار أنه ذكر عائشة ، فقال: " إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة " . وأخرجه أبو الشيخ في كتاب السنة من حديثه مرفوعاً . في البيهقي عن خديفة أنه قال لامرأته : " إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي بعدي ، فإن المرأة لآخر أزواجها في الدنيا " ، فلذلك حرّم على أزواج النبي ﷺ أن ينكحن بعده ، لأنهن زوجاته في الجنة)) .

(٤٠) روى الطبراني في الكبير (٣ / ٤٤) : عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة ، إلا سببي ونسبي " . وقال الهيثمي في المجمع (٤ / ٤٩٩) : ((رجاله رجال الصحيح)) اهـ . والسبب بالزواج ، والنسب بالولادة . والسبب هو الوصلة والمودة ، وكل ما يتوصل به إلى الشيء . وهذا لا يتعارض مع تحذير النبي ﷺ لأهل بيته من الاعتماد على النسب ، وترك التقوى . وقد وضّح النبي ﷺ أنه لا يُغني عنهم من الله شيئاً . فالتقوى هي الأساس والنجاة ، وليس السبب والنسب . وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٢٠) : ((معناه أنه لا يملك لهم نفعاً ، لكن الله يملكه نفعهم بالشفاعة العامة والخاصة ، فهو لا يملك إلا ما ملكه ربه . فقوله : " لا أغني عنكم " أي مجرد نفسي من غير ما يكرمني الله تعالى به ، أو كان قبل علمه بأنه يشفع . ولما خفي طريق الجمع على بعضهم تأوله بأن معناه أن أمته تُنسب له يوم القيامة بخلاف أُمم الأنبياء)) .

﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ . إِنَّ إِيذَاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَنِكَاحَ زَوَجَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ عَظِيمٌ الْعُقُوبَةُ ، وَذَنْبٌ شَدِيدٌ لَا يُعَادِلُهُ ذَنْبٌ . وَالْآيَةُ تَحْمِلُ تَحْذِيرًا وَتَحْذِيرًا مِنْ هَذِهِ الْكَبِيرَةِ الْخَطِيرَةِ .
وقال البیضاوي في تفسيره (٣٨٣ / ١) : ((وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب لِحُرْمَتِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .
هذا توجية رباني للنبي ﷺ أن يأمر زوجاته أمهات المؤمنين الشريفات ، وبناته الطاهرات ، ونساء المؤمنين العفيفات ، أن يُعْطِينَ وجوههن وأبدانهن بالجلابيب التي تستر محاسنهن وزينتهن ، وتحميهن من ألسنة السوء . وذلك لكي يَتَمَيَّزْنَ عن صفة نساء الجاهلية ، وصفة الإماء . والجلابيب جمع جلباب ، وهو الثوب الذي يستر جسد المرأة بشكل كامل .

وقال الطبري في تفسيره (٣٣١ / ١٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ : لَا تَشْتَبِهْنَ بِالْإِمَاءِ فِي لِبَاسِهِنَّ إِذَا هُنَّ خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتِهِنَّ لِحَاجَتِهِنَّ فَكَشَفْنَ شُعُورَهُنَّ وَوُجُوهَهُنَّ ، وَلَكِنْ لِيُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، لئَلَا يَغْرَضَ لَهُنَّ فَاسِقٌ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُنَّ حَرَائِرٌ بِأَدَى مِنْ قَوْلٍ)) اهـ .

وقد كان الفساق يؤذون النساء إذا خرجن ليلاً ، فإن رأوا على المرأة قناعاً عرفوا أنها حرة فتركوها ، وإن رأوها بلا قناع عرفوا أنها أمة فآذوها .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أنَّ أزواج النبي ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ ، وَهُوَ صَعِيدٌ أَفْبَحُ ، فَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اخْجُبْ نِسَاءَكَ . فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي عِشَاءً ، وَكَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً ، فَناداها عُمَرُ : أَلَا قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سَوْدَةُ ، حَرَصًا عَلَى أَنْ يَنْزَلَ الْحِجَابُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ ^(٤١) .

والمناصع هي موضع قضاء الحاجة ، وهي صعيد أفبَحُ (واسع) . وقد كانت أزواج النبي ﷺ يَخْرُجْنَ إِلَى تِلْكَ الْأَمَاكِنَ لَيْلًا ، بَعِيدًا عَنْ عُيُونِ النَّاسِ . فَاللَّيْلُ سِتَارٌ كَثِيفٌ . وقد كان عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ _ رضي الله عنه _ حَرِصًا عَلَى شَرَفِ أُمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّاهِرَاتِ وَسُمَمَتِهِنَّ الطَّيِّبَةِ ، فَكَانَ يَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخْجُبَ نِسَاءَهُ ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ . فَالْنَبِيُّ ﷺ لَا يَتَصَرَّفُ مِنْ تَلْقَاءِ

(٤١) متفق عليه . البخاري (٦٧ / ١) برقم (١٤٦) ، ومسلم (١٧٠٩ / ٤) برقم (٢١٧٠) .

نفسه ، وإنما يتحرك خاضعاً للوحي السماوي . وفي ليلة من الليالي خرجت أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، ومع هذا فقد تمّ التعرف عليها بسبب طول قامتها . وقد قال عمر : ألا قد عرفناك يا سودة . وذلك حرصاً منه على نزول الحجاب ، فلا يمكن عندئذ التعرف على هوية نساء النبي ﷺ ، وهذا يؤفرّ لهنّ الحماية ، ويُبعد عنهنّ الأذى الفعلي والقولي ، ويصون شرفهنّ ، ويحفظ سمعتهنّ .

وفي هذا الحديث منقبة لعمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، وفيه تنبيه أهل الفضل والكبار على مصالحهم ونصيحتهم وتكرار ذلك عليهم ، وجواز خروج المرأة من بيت زوجها لقضاء الحاجة إلى الموضع المعتاد دون استئذان الزوج ، لأنه ممّا أذن فيه الشرع ⁽⁴²⁾ .

وقال السيوطي في لبّاب الثّقول (١ / ١٧١) : ((وأخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي مالك قال : كان نساء النبي ﷺ يخرجنّ بالليل لحاجتهنّ ، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهنّ فيؤذّين ، فشكوا ذلك ، فقيّل للمنافقين ، قالوا : إنما نفعله بالإماء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنينّ عليهنّ من جلابيبهنّ ذلك أدنى أن يُعرفنّ فلا يؤذّين ﴾)) .

واختلف العلماء في صفة الإدناء (الإرخاء) ، وطريقة وضع الثوب على بدن المرأة ، وكيفية تغطية الوجه . وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢١٥) : ((فقال ابن عباس وعبيدة السلماني : ذلك أن تلوّيه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عيّن واحدة تُبصر بها . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة : ذلك أن تلوّيه فوق الجبين وتشدّه ، ثم تغطّيه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستتر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تُغطّي نصف وجهها)) اهـ .

وعن أم عطية _ رضي الله عنها _ أنها قالت للنبي ﷺ : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب . قال : ((لئلبسها أختها من جلبابها)) ⁽⁴³⁾ .

والأخت هنا هي الأخت بالنسب أو الدين . فالمرأة التي تملك أكثر من جلباب يُمكنها أن تُعطّي واحداً لأختها ، أو تُغيرها إياه . حتى المرأة التي ليس لها إلا جلباب واحد ، ولا تريد الخروج من البيت ، يُمكن أن تُغيره لأختها للخروج به ثم تُعيده . أمّا الخروج بدون ارتداء جلباب ، فهذا أمرٌ شديد الخطورة . وفي تفسير القرطبي (١٤ / ٢١٥) : ((وقال عمر _ رضي الله عنه

(٤٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤ / ١٥١) .

(٤٣) متفق عليه . مسلم (٢ / ٦٠٥) برقم (٨٩٠) . والبخاري (١ / ١٣٩) برقم (٣٤٤) .

ـ: ما يَمْنَعُ المرأةَ المسلمةَ إذا كانت لها حاجة أن تَخْرُجَ في أطمارها أو أطمار جارتها مُستخفية لا يَعْلَمُ بها أحد ، حتى ترجع إلى بَيْتِها)) اهـ .

وعلى المرأة المسلمة أن تتميز بطهارتها ولباسها الساتر ، فهي ذات هُوية مُميّزة ، لا تُقَلَّد أحدًا ، ولا تتأثر بِمُغريات الموضة . وهي عندما تُغَطِّي بَدَنَها فإنها تَبْتَعِدُ عن عَالَمِ الإِمَاءِ ونساءِ أهل الجاهلية المعروفات بالتَّكشُّفِ ، وإبداء فِتْنَةِ أجسادهنَّ لِإِغْراءِ الرِّجالِ . ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ . والمعنى: أن يُعْرَفْنَ أَنَّهُنَّ حرائر عفيفات شريفات، بسبب ارتدائهنَّ ثياب الحرائر، فيتم الابتعاد عنهنَّ، ولا أحد يَطْمَعُ فِيهِنَّ ، ولا يَتَعَرَّضُ لَهُنَّ بِسُوءٍ ، سواءً كان بِالْفِعْلِ أم الْقَوْلِ . وليس المقصود أن يتم التعرف إلى هُويَّةِ المرأة . وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٣١) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : إِدْنَاؤُهُنَّ جَلَابِيهِنَّ إِذَا أَدْنَيْنَهَا عَلَيْهِنَّ أَقْرَبَ وَأُخْرَى أَنْ يُعْرَفْنَ مِمَّنْ مَرَزْنَ بِهِ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُنَّ لَسْنَ بِإِمَاءٍ ، فَيَتَنَكَّبُوا عَنْ أَذَاهُنَّ بِقَوْلٍ مَكْرُوهٍ ، أَوْ تَعْرُضَ بِرَبِيَّةٍ)) اهـ .

وعن أنس قال : رأى عُمَرُ أُمَّةً لَنَا مُتَقَنَّةً ، فضربها ، وقال : ((لَا تَشَبَّهِي بِالْحَرَائِرِ)) ⁽⁴⁴⁾ .
الهدف من هذا الفعل هو إبعاد الأذى عن الحرائر ، وعدم تشويه صُورتِهِنَّ وَسُمْعَتِهِنَّ . فإن الإماء كُنَّ معروفات بالزُّنا ، وكانت الحرائر معروفات بالسَّتْرِ والطَّهارة . وإذا تَشَبَّهت الإماء بالحرائر حَصَلَتْ مفسدة كبيرة ، واختلطَ الحابلُ بالنَّابل .

(٤٤) رواه ابن أبي شَيْبَةَ فِي مُصَنَّفِهِ (٤١/٢) بِرَقْم (٦٢٣٦) . وقال الزَّيْلَعِيُّ فِي نَصَبِ الرِّايَةِ (١ / ٢٤١) : ((قَوْلُهُ : رُؤْيٍ عَنْ عُمَرَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَنَّهُ قَالَ : أَلْقَى عَنَّا الْخِمَارَ يَا ذِفَارُ ، أَتَشَبَّهِينَ بِالْحَرَائِرِ ؟ . قلت : غريب . وبمعناه رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي "مُصَنَّفِهِ" أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُمَرَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — ضَرَبَ أُمَّةً لَالَ أَنَسٌ رَأَاهَا مُتَقَنَّةً ، فَقَالَ : أَكْشَفِي رَأْسَكَ لَا تَشَبَّهِي بِالْحَرَائِرِ ، انْتَهَى . أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَنْهَى الْإِمَاءَ عَنِ الْجَلَابِيبِ أَنْ يَتَشَبَّهْنَ بِالْحَرَائِرِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : وَحَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ : ضَرَبَ عَقِيلَةَ أُمَّةً أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فِي الْجَلَابِيبِ أَنْ تَتَجَلَّبَّبَ . انْتَهَى . أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ : عَنْ نَافِعٍ أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ أَبِي عُبَيْدٍ حَدَّثَتْهُ ، قَالَتْ : خَرَجْتُ امْرَأَةً مُخْتِمَةً مُتَجَلَّبِبَةً ، فَقَالَ عُمَرُ : مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ ، فَقِيلَ لَهُ : جَارِيَةٌ لِفُلَانٍ ، رَجُلٌ مِنْ بَيْتِهِ ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى خَفْصَةَ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تُخَمِّرِي هَذِهِ الْأُمَّةَ وَتُجَلَّبِبِيهَا حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَقْعَ بِهَا ، لَا أَحْسَبُهَا إِلَّا مِنَ الْمُحْصَنَاتِ ؟ ، لَا تُشَبَّهُوا الْإِمَاءَ بِالْمُحْصَنَاتِ ، انْتَهَى . وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَقَالَ : الْآثَارُ بِذَلِكَ عَنْ عُمَرَ صَحِيحَةٌ)) .

وفي مُغني المحتاج (٣ / ١٢٣) : ((فَخَشِيَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَتَرَتِ الْإِمَاءُ حَصَلَ الْأَذَى لِلْحَرَائِرِ ، فَأَمَرَ الْإِمَاءَ بِالْتَّكْشُفِ ، وَيَحْتَرِزْنَ فِي الصَّيَانَةِ مِنْ أَهْلِ الْفُجُورِ)) اهـ .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِمَا سَلَفَ مِنْ تَرْكِهِنَّ إِدْنَاءَ الْجَلَابِيبِ عَلَيْهِنَّ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ ، رَحِيمًا بِهِنَّ أَنْ يُعَاقِبَهُنَّ بَعْدَ تَوْبَتِهِنَّ . وَاللَّهُ رَحِيمٌ بَعْبَادِهِ ، يَعْرِفُ مَا يُصْلِحُهُمْ وَمَا يُفْسِدُهُمْ . لَذَلِكَ شَرَعَ لَهُمُ الشَّرَائِعَ الَّتِي تَحْفَظُ مَصَالِحَهُمْ ، وَتَحْمِي أَعْرَاضَهُمْ ، وَتَصُونُ سُمُعَتَهُمْ وَشَرَفَهُمْ . وَفِي تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ (١ / ٥٥٩) : ((﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ لِمَا سَلَفَ مِنْهُنَّ مِنْ تَرْكِ السَّتْرِ ، ﴿ رَحِيمًا ﴾ بِهِنَّ إِذْ سَتَرَهُنَّ)) اهـ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التَّحْرِيمُ : ١] .

لَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِلَفْظِ النَّبُوءَةِ ، وَلَمْ يُخَاطِبْهُ بِاسْمِهِ الْمَجْرَدِ ، فَلَمْ يُخَاطِبْهُ : يَا مُحَمَّدُ ، كَمَا خَاطَبَ سَائِرَ الرُّسُلِ : " يَا إِبْرَاهِيمَ . يَا نُوحَ . يَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ " . وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى الْمَكَانَةِ الْعَظِيمَةِ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَفْضَلِيَّتِهِ ، وَتَمَيُّزِهِ ، وَتَقَدُّمِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الَّذِي يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ : لِمَاذَا تُحَرِّمُ عَلَى نَفْسِكَ الْحَلَالَ (مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ مِنْ النِّسَاءِ) ؟ . وَلَا شَكَّ أَنَّ تَحْرِيمَ الْحَلَالِ تَضْيِيقٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَحَصْرٌ لَهَا فِي دَائِرَةِ الْحَرَجِ وَالتَّعَبِ .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ خَلَا بِجَارِيَّتِهِ " مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ " فَجَامِعَهَا فِي بَيْتِ خَفْصَةَ أَثْنَاءَ غِيَابِهَا ، فَلَمَّا جَاءَتْ خَفْصَةُ ، وَعَرَفَتْ الْأَمْرَ ، غَضِبَتْ ، وَغَارَتْ أَشَدَّ الْغَيْرَةِ ، فَحَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةَ عَلَى نَفْسِهِ (حَلَفَ أَلَّا يَقْرَبَهَا) ، طَالِبًا بِذَلِكَ رِضَا خَفْصَةَ .

وَهَذَا الْعِتَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَا شِدَّةَ فِيهِ وَلَا قَسْوَةَ . بَلْ هُوَ عِتَابٌ لَطِيفٌ لَا يُحْطَمُ قَلْبُ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا يَكْسَرُ مَشَاعَرُهُ . لَقَدْ عَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَى تَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَالتَّضْيِيقِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهَا (45) .

(٤٥) قَالَ الصَّابُونِيُّ فِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (١٨ / ٧٩) : ((وَفِي افْتِتَاحِ الْعِتَابِ مِنْ حُسْنِ التَّلَطُّفِ مَا لَا يَحْفَى ، فَقَدْ عَاتَبَهُ عَلَى إِتْعَابِ نَفْسِهِ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ مَرْضَاةِ أَزْوَاجِهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تُعِيبْ نَفْسَكَ فِي سَبِيلِ أَزْوَاجِكَ ، وَأَزْوَاجُكَ يَسْعَوْنَ فِي مَرْضَاتِكَ ، فَأَرْجُ نَفْسَكَ مِنْ هَذَا الْعَنَاءِ)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١١١) : ((رُوي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ بَيْتَ حَفْصَةَ فِي يَوْمِ نَوْبَتِهَا ، فَخَرَجَتْ هِيَ لِبَعْضِ شَأْنِهَا ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَارِيَةَ جَارِيَتِهِ ، وَأَدْخَلَهَا بَيْتَ حَفْصَةَ ، وَوَاقِعَهَا ، فَلَمَّا رَجَعَتْ حَفْصَةُ عَلِمَتْ بِذَلِكَ ، فَغَضِبَتْ وَبَكَتْ ، وَقَالَتْ : أَمَا لِي حُرْمَةٌ عِنْدَكَ وَحَقٌّ ؟ ! . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " اسْكُتِي ، فَهِيَ حَرَامٌ عَلَيَّ أَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَاكَ " ، وَحَلَفَ أَنْ لَا يَقْرُبَهَا ، وَيَشْرَهَا بِأَنَّ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ أَبُوهَا وَأَبُو عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ذُكُورًا وَإِنَاثًا _ ، وَقَالَ لَهَا : " لَا تُخْبِرْنِي أَحَدًا بِمَا أَسْرَزْتُ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الْجَارِيَةِ ، وَأَمْرِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِي " . فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

مِنْ عِنْدِهَا ، أَخْبَرَتْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا _ بِذَلِكَ ، وَقَالَتْ : قَدْ أَرَاخُنَا اللَّهُ مِنْ مَارِيَةَ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَرَّمَهَا عَلَيَّ نَفْسِهِ ، وَقَصَّتْ عَلَيْهَا الْقِصَّةَ ، فَنَزَلَ : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ (١١١) اهـ .

إِنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ الْمَرْأَةُ ، سَوَاءٌ كَانَتْ زَوْجَةَ نَبِيٍّ أَمْ زَوْجَةَ رَجُلٍ عَادِيٍّ . بِمَعْنَى أَنَّ الْغَيْرَةَ مُتَأَصِّلَةٌ فِي جِنْسِ النِّسَاءِ . وَالْمَرْأَةُ كَائِنٌ عَاطِفِي ، تَسْتَسَلِمُ لِمَشَاعِرِهَا ، وَتَحْتَكِمُ إِلَى قَلْبِهَا . وَهَذِهِ هِيَ طَبِيعَةُ الْمَرْأَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى . فَلَا يَجُوزُ الطَّعْنُ فِي أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ نَتِيجَةُ هَذِهِ الْقَصَصِ أَوْ مَا يُشَبِّهُهَا ، لِأَنَّ الَّذِي يَدْفَعُ بِهَذَا الْإِتِّجَاهِ هُوَ اسْتِخْدَامُ الْمَرْأَةِ لِعَاطِفَتِهَا ، وَاحْتِكَامُهَا إِلَى مَشَاعِرِهَا الرَّقِيقَةِ ، وَلَيْسَ رَفْضُ أَوَامِرِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَوْ مُحَاوَلَةُ خِدَاعِهِ ، أَوْ التَّحَايُلِ عَلَيْهِ . كَمَا أَنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَنِسَائِهِ شَدِيدَةُ الْخُصُوصِيَّةِ ، فَلَا يَبْتَغِي الدُّخُولَ فِيهَا ، وَإِقْحَامَ أَنْفُسِنَا فِي الْمَشَاعِرِ الْمَشْتَرَكَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَنِسَائِهِ .

وَعَنْ أَنَسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ يَطَّأُهَا ، فَلَمْ تَزَلْ بِهِ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ حَتَّى جَعَلَهَا عَلَى نَفْسِهِ حَرَامًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ (٤٦) . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ قَالَ : جَاءَهُ رَجُلٌ ، فَقَالَ : جَعَلْتُ امْرَأَتِي عَلَيَّ حَرَامًا ، فَقَالَ : كَذَبْتَ ، لَيْسَتْ عَلَيْكَ بِحَرَامٍ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ (٤٧) .

(٤٦) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣٥) برقم (٣٨٢٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣٥) برقم (٣٨٢٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحَلَّ أَشْيَاءَ وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ ، وفق حِكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ . وَالتَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ رُكْنَانِ مِنْ أَرْكَانِ التَّشْرِيعِ . وَالتَّشْرِيعُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُشَرِّعُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ . وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَلَّا يُضَيِّقَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَحْشُرَهَا فِي الزَّوَايَا ، وَيَقُودَهَا إِلَى الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ .

وَقَدْ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ لِرَفْعِ الْحَرَجِ عَنِ النَّاسِ ، وَعَدَمِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِمْ . وَالْأَمْرُ كُلُّمَا ضَاقَ اتَّسَعَ . ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ﴾ . تَطْلُبِ رِضَا أَزْوَاجِكَ بِتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ؟ . وَالْمَقْصُودُ طَلَبُ رِضَا خَفْصَةِ بِتَحْرِيمِ مَارِيَةِ الْقِبْطِيَّةِ . وَقَدْ عَذَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ لِأَنَّهُ مَقْصُودُهُ كَانَ رِضَا زَوْجَاتِهِ ، وَمُرَاعَاةُ مَشَاعِرِهِنَّ ، وَإِنْهَاءُ حَالَةِ الْغَيْرَةِ بَيْنَهُنَّ ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ . وَلَمْ يَكُنْ هَدَفُ النَّبِيِّ ﷺ تَجَاوُزَ حُدُودِ اللَّهِ ، أَوْ تَغْيِيرَ مَنْظُومَةِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، أَوْ مُنَازَعَةَ اللَّهِ فِي التَّشْرِيعِ . لَقَدْ ارْتَكَبَ النَّبِيُّ ﷺ خِلَافَ الْأَوَّلَى ، وَلَمْ يَقْتَرِفْ ذَنْبًا ، لَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَرَحِمَكَ بِعَدَمِ مُؤَاخَذَتِكَ ، وَعَاتَبَكَ عِتَابَ الْحَبِيبِ لِلْحَبِيبِ ، رَفْعًا لِشَانِكَ ، وَحِمَايَةً لِعِصْمَتِكَ ، وَإِكْرَامًا لَكَ . وَالْعِتَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ تَضْيِيقِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ مُذْنِبٌ أَوْ آثِمٌ — وَحَاشَاهُ — .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٨ / ١٥٧) : ((غُفِرَ لِمَا أَوْجَبَ الْمُعَاتَبَةَ ، رَحِيمٌ يَرْفَعُ الْمُؤَاخَذَةَ)) . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [التَّحْرِيمُ ٢] .

قَدْ شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَتَحَلَّلُونَ بِهِ مِنْ أَيْمَانِكُمْ ، وَذَلِكَ بِالْكَفَّارَةِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّكُمْ وَنَاصِرُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، يَتَوَلَّوْكُمْ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ ، وَيُزِيلُ الْحَرَجَ فِيمَا تُحَرِّمُونَهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَالسَّمَاحَ لَكُمْ بِالْكَفَّارَةِ عَنْ أَيْمَانِكُمْ . وَهُوَ الْعَلِيمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ ، الْحَكِيمُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَلَا يَأْمُرُكُمْ وَلَا يَنْهَاكُمْ إِلَّا وَفْقَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ ، لِأَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ . وَالْعِتَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ (٤٨) .

(٤٨) قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٦٣) : ((وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي لَفْظِ التَّحْرِيمِ ، فَقَالَ قَوْمٌ : لَيْسَ هُوَ بِيَمِينٍ ، فَإِنْ قَالَ لَزَوْجَتِهِ : أَنْتَ عَلَيَّ حَرَامٌ أَوْ حَرْمَتُكَ ، فَإِنْ نَوَى بِهِ طَلَاقًا فَهُوَ طَلَاقٌ ، وَإِنْ نَوَى بِهِ ظَهَارًا فَظَهَارٌ ، وَإِنْ نَوَى تَحْرِيمَ ذَاتِهَا أَوْ أَطْلَقَ ، فَعَلِيهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ بِنَفْسِ اللَّفْظِ ، وَإِنْ قَالَ ذَلِكَ لِجَارِيَتِهِ فَإِنْ نَوَى عِتْمًا غُتِّقَتْ ، وَإِنْ نَوَى تَحْرِيمَ ذَاتِهَا أَوْ أَطْلَقَ ، فَعَلِيهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ . وَإِنْ قَالَ لَطَعَامٍ : حَرْمَتُهُ عَلَى

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٠٦ و ٣٠٧) : ((والمعنى : قد بيّن الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة ، فأمره الله أن يكفر يمينه ، فأعتق رقبة . واختلفوا هل حرّم مارية على نفسه يمين أم لا ، على قولين : أحدهما حرّمها من غير ذكر يمين ، فكان التحريم موجباً للكفارة اليمين ، قاله ابن عباس . والثاني أنه حلف يميناً حرّمها بها ، قاله الحسن والشّعبى وقتادة)) اهـ .

وفي تفسير ابن كثير (٤ / ٤٩٥) : ((عن عمر قال : قال النبي ﷺ لحفصة : " لا تخبري أحداً وإن أم إبراهيم عليّ حرام " ، فقالت : أئحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : " فوالله لا أقربها " ، قال : فلم يقرّبها حتى أخبرت عائشة . قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾

وهذا إسناد صحيح ، ولم يُخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢ / ١١٠٠) : عن ابن عباس رضي الله عنهما _ قال : ((إذا حرّم الرجل عليه امرأته ، فهي يمين يكفرها)) . وقال : ((﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾)) . وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [التحریم : ٣] .

أسرّ النبي ﷺ إلى زوجته حفصة خبراً ، وأمرها أن تكتمه ، ولا تُطلع عليه أحداً . وهذا الخبر هو تحريم مارية على نفسه ، وأنّ الخلافة من بعده ستكون لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما . (49)

نفسى فلا شيء عليه ، وهذا قول ابن مسعود ، وإليه ذهب الشافعي . وذهب جماعة إلى أنه يمين ، فإن قال ذلك لزوجته أو جاريتها ، فلا تجب عليه الكفارة ما لم يقرّبها ، كما لو حلف أن لا يطأها ، وإن حرّم طعاماً فهو كما لو حلف أن لا يأكله ، فلا كفارة عليه ما لم يأكل . يُروى ذلك عن أبي بكر وعائشة ، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة)) اهـ .

(٤٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٠٧ و ٣٠٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ يَعْنِي حَفْصَةَ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ عَلِمْنَاهُ . وَفِي هَذَا السَّرِّ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ قَالَ لَهَا إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَاحْفَظِيهِ ، سَرَّيْتِي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءُ وَالشَّعْبِيُّ

وقال الرازي في التفسير الكبير (٤٣/٣٠): ((لَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْغَيْرَةَ فِي وَجْهِ حَفْصَةَ أَرَادَ أَنْ يَتَرَضَّاهَا، فَأَسَرَّ إِلَيْهَا بِشَيْئَيْنِ: تَحْرِيمَ الْأُمَّةِ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْبَشَارَةَ بِأَنَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ)).

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ . لقد قامت حَفْصَةُ بإفشاء السِّر الذي أمرها النبي ﷺ بكتمانه ، وأخبرت به عائشة ، طَنَّا مِنْهَا أَنْ لَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ وَلَا لَوْمْ. وقال القرطبي في تفسيره (١٦٥/١٨): ((﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ﴾ أي: أَخْبَرَتْ بِهِ عائشة، لِمَصَافَاةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا، وَكَانَتَا مُتَظَاهِرَتَيْنِ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ)).

﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ . وَأُطْلِعَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِفْشَائِهَا لِلسِّرِّ بِوَسْطَةِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٠٩ / ٨) : ((أي: أُطْلِعَ اللَّهُ نَبِيَّهَ عَلَى قَوْلِ حَفْصَةَ لِعَائِشَةَ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا لِأَنَّهُ اسْتَكْتَمَ حَفْصَةَ ذَلِكَ ثُمَّ دَعَاها فَأَخْبَرَهَا بِبَعْضِ مَا قَالَتْ)).

﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ . أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ حَفْصَةَ بِبَعْضِ الْحَدِيثِ الَّذِي أَفْشَتْهُ ، وَعَاتَبَهَا بِذَلِكَ، وَتَرَكَ أَنْ يُخْبِرَهَا بِبَعْضٍ، حَيَاءً مِنْهُ وَتَكْرُمًا وَتَفَضُّلاً وَحُسْنَ عِشْرَةٍ. وَلَمْ يُرِدِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُدَقِّقَ وَيُشَدِّدَ عَلَيْهَا، لِأَنَّ مِنْ عَادَةِ الْكِرَامِ التَّجَاوُزَ وَالصَّفْحَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالْإِغْضَاءَ عَنِ الْغُيُوبِ، وَالتَّغَافُلَ عَنِ الزَّلَّاتِ ، وَتَقْلِيلَ اللَّوْمِ وَالْعِتَابِ ، وَالسَّتْرَ عَلَى أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، وَعَدَمَ التَّدْقِيقِ عَلَى كُلِّ كَلِمَةٍ . وَإِذَا زَادَ الْعِتَابُ عَنْ حَدِّهِ ، سَبَّحَ إِلَى تَقْرِيعٍ ، وَقَدْ يُؤَدِّي إِلَى نَتَائِجٍ عَكْسِيَّةٍ . وفي تفسير القرطبي (١٦٥ / ١٨) : ((وقال الحسن : مَا اسْتَقْصَى كَرِيمٌ قَطُّ)) اهـ . وفي تفسير التَّنْصِي (٢٥٩ / ٤) : ((قَالَ سُفْيَانُ : مَا زَالَ التَّغَافُلُ مِنْ فِعْلِ الْكِرَامِ)) اهـ . وفي كشف الخفاء (٧٢٧ / ٢) : ((وَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : التَّغَافُلُ يَرْفَعُ بَلَاءً كَثِيرًا)) اهـ . وكما قال الشاعر :

لَيْسَ الْغَيْبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَعَايِي
وَتَغَافُلٌ عَنْ أُمُورٍ إِنَّهُ لَمْ يَفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَابْنُهُ وَالسُّدِّيُّ. وَالثَّانِي أَنَّهُ قَالَ لَهَا : أَبُوكَ وَأَبُو عَائِشَةَ وَالْيَا النَّاسَ مِنْ بَعْدِي فَإِنَّكَ أَنْ تُخْبِرِي أَحَدًا ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَالثَّالِثُ أَنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي ، قَالَه مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ)) اهـ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٦٣) : ((وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ حَفْصَةَ أَرَادَ أَنْ يَتَرَضَّاهَا فَأَسْرَّ إِلَيْهَا شَيْئِينَ : تَحْرِيمَ الْأُمَّةِ عَلَى نَفْسِهِ وَتَبَشِيرَهَا بِأَنَّ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَفِي أَبِيهَا عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، فَأَخْبَرَتْ بِهِ حَفْصَةُ عَائِشَةَ ، وَأُطْلِعَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ .

﴿ عَرَفَ بَعْضُهُ ﴾ حَفْصَةَ ، وَأَخْبَرَهَا بِبَعْضِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ عَائِشَةَ ، وَهُوَ تَحْرِيمُ الْأُمَّةِ ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ يَعْنِي : ذِكْرَ الْخِلَافَةِ . كَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَنْتَشِرَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ ((اهـ .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ ﴾ . فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَفْصَةَ بِمَا أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ إِفْشَائِهَا سِرَّ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى عَائِشَةَ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١١١٢) : ((أَخْبَرَ حَفْصَةَ بِمَا فَعَلَتْ)) اهـ .

﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ﴾ . قَالَتْ حَفْصَةُ : مَنْ أَخْبَرَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَنِّي أَفْشَيْتُ سِرَّكَ ؟ . وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرْتَهُ بِالْأَمْرِ .

وقال أبو حَيَّانٍ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ (٨ / ٢٩٠) : ((ظَنَنْتُ حَفْصَةَ أَنَّ عَائِشَةَ فَضَحَتْهَا - وَكَانَتْ قَدْ اسْتَكْتَمَتْهَا - فَقَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ ، عَلَى سَبِيلِ التَّثْبُتِ ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - هُوَ الَّذِي نَبَّأَهُ بِهِ ، فَسَكَتَتْ وَسَلَّمَتْ)) اهـ .

﴿ قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الْخَبِيرُ بِأَحْوَالِ الْقُلُوبِ وَخَفَايَا الضَّمَائِرِ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٥٩) : ((قَالَ : نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ بِالسَّرَائِرِ ، الْخَبِيرُ بِالضَّمَائِرِ))

وقال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التَّحْرِيمُ : ٤] .

الْخَطَابُ لِحَفْصَةَ وَعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - . وَقَدْ خَاطَبَهُمَا اللَّهُ مُبَاشَرَةً لِلتَّشْدِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي عِتَابِهِمَا وَلَوْمِهِمَا ، وَدَفَعَهُمَا إِلَى التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ بِلاَ إِبطَاءٍ وَلَا تَأْخِيرٍ . فَيَجِبُ عَلَيْهِمَا التَّوْبَةُ مِمَّا بَدَرَ مِنْهُمَا مِنْ إِذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ .

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ أُبْتِهَمَا الْمَرْأَتَانِ ، فَالتَّوْبَةُ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ إِذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ . فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا وَمَالَتْ عَنِ الْحَقِّ وَمَحَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُمَا أَحَبَّتَا مَا كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَحْرِيمِ جَارِيَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ . وَسَرَّهُمَا هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي ضَاقَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَبَّبَ لَهُ الْحَرَجَ وَالْأَلَمَ .

والواجب عليهما الإخلاص التام للنبي ﷺ ، والحرص على راحته وسعادته ، وحب ما يُحِبُّه ، وكراهة ما يَكْرَهُه . والجدير بالذكر أنَّ الله قال : ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ ، ولم يقل : قَلْبَاكُمْ ، لأنَّ العرب تَكْرَهُ الجمع بين تَشْيِئَتَيْنِ في لفظٍ واحد ، لأنَّه جَمْعٌ ثَقِيلٌ على السَّمْعِ . وفي تفسير الجلالين (٧٥٢/١) : ((إِنْ تَتُوبَا ﴾ أي : حَفْصَة وعائشة ﴾ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ مالت إلى تحریم مارية ، أي سَرَكُمَا ذلك مع كراهة النبي ﷺ له ، وذلك ذَنْبٌ ، وجواب الشرط محذوف ، أي : تُقْبَلَا . وأطلق قلوب على قلبين ، ولم يُعبّر به لاستثقال الجمع بين تَشْيِئَتَيْنِ فيما هو كالكلمة الواحدة)) اهـ . وقال الرازي في المحصول (٢ / ٦١١ و ٦١٢) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ، فجوابه أَنَّهُ قد يُطْلَق اسم القلب على الْمَيْل الموجود في القلب ، فيُقَال للمُنَافِق أَنَّهُ ذُو لِسَانَيْنِ وَذُو وَجْهَيْنِ ، وذو قَلْبَيْنِ . ويُقال للذي لَا يَمِيل إِلَّا إِلَى الشَّيْءِ الْوَاحِدِ : لَهُ قَلْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ . وَلَمَّا خَالَفَتَا أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ وَنَمَّتَا بِأَمْرِ مَارِيَةَ وَقَعَ فِي قَلْبَيْهِمَا دَوَاعٍ مُخْتَلِفَةٌ وَأَفْكَارٌ مُتَبَايِنَةٌ ، فَصَحَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْقُلُوبِ هَذِهِ الدَّوَاعِي . وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ وَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ الْقَلْبَ لَا يُوصَفُ بِالصَّغْوِ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ الْمَيْلُ بِهِ)) اهـ . وعن ابن عباس أَنَّهُ قال لِعُمَرَ بن الخطاب : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنْ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — لَهُمَا : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ ﴾ . فقال : وَاَعْجَبِي لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ (50) .

وقد تَعَجَّبَ عُمَرُ بن الخطاب من عدم معرفة ابن عباس بذلك ، وهو المشهور بِعِلْمِ التَّفْسِيرِ ، أَوْ التَّعَجُّبَ لِحِرْصِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى مَعْرِفَةِ دَقَائِقِ الْأُمُورِ وَالسُّؤَالِ عَنْهَا . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ السُّؤَالِ عَنِ الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ وَغَيْرِ الْمَكْشُوفَةِ ، وَعَدَمِ جَوَازِ كَثْمِ الْعِلْمِ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٩ / ٢٨٠) : ((وَإِنَّ عُمَرَ تَعَجَّبَ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعَ شُهْرَتِهِ بِعِلْمِ التَّفْسِيرِ ، كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِ هَذَا الْقَدْرُ مَعَ شُهْرَتِهِ وَعَظَمَتِهِ فِي نَفْسِ عُمَرَ ، وَتَقَدُّمِهِ فِي الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِهِ ... وَمَعَ مَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَشْهُورًا بِهِ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَمُدَاخَلَةِ كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ ، أَوْ تَعَجَّبَ مِنْ حِرْصِهِ عَلَى طَلَبِ فُنُونِ التَّفْسِيرِ حَتَّى مَعْرِفَةِ الْمُتَّبَعِ . وَوَقَعَ فِي الْكَشَافِ كَأَنَّهُ كَرِهَ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ . قُلْتُ : وَقَدْ جَزَمَ بِذَلِكَ الزُّهْرِيُّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ بِعَيْنِهَا فِيمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرٍ عَنْهُ ، قَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ : قَالَ عُمَرُ : وَاعْجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ . قَالَ الزُّهْرِيُّ : كَرِهَ وَاللَّهُ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَلَمْ يَكْتُمْهُ . وَاسْتَبَعَدَ الْقُرْطُبِيُّ مَا فَهِمَهُ الزُّهْرِيُّ ، وَلَا بُعْدَ فِيهِ)) اهـ . ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ﴾ . يُخَاطَبُ اللَّهُ الَّتِي

(٥٠) متفق عليه . البخاري (٨٧١ / ٢) برقم (٢٣٣٦) ، ومسلم (١١٠٥ / ٢) برقم (١٤٧٩) .

أَسَرَّ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ حَدِيثَهُ ، وَالتِي أَفْشَتْ إِلَيْهَا حَدِيثَهُ ، وَهُمَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ :
 وَإِنْ تَتَعَاوَنَا عَلَى مَعْصِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَذَاهُ ، وَالْوَقِيعَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نِسَائِهِ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٥٩) : ((وَإِنْ تَعَاوَنَّا عَلَيْهِ بِمَا يَسُوؤُهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي الْغَيْرَةِ ، وَإِفْشَاءِ سِرِّهِ)) اهـ . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ . فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ وَلِيُّهُ فِي الْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ، وَمُؤَيِّدُهُ ، وَنَاصِرُهُ . وَلَنْ يَضُرَّ النَّبِيَّ ﷺ تَعَاوُنُكُمْ عَلَيْهِ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١١٢) : ((﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾ وَلِيُّهُ وَحَافِظُهُ ، فَلَا يَضُرُّهُ تَظَاهَرُكُمْ عَلَيْهِ)) اهـ . ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَجِبْرِيلُ عَظِيمُ الْمَلَائِكَةِ أَيْضًا وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ الصَّادِقُونَ . فَلَنْ يَعْدَمَ نَاصِرًا يَنْصُرُهُ . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٥٥) : ((فَلَنْ يَعْدَمَ مَنْ يُظَاهِرُهُ مِنَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَصُلَحَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ ، وَجِبْرِيلُ قَرِينُهُ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتْبَاعُهُ وَأَعْوَانُهُ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٣١٠) : ((وَفِي الْمَرَادِ بِصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ وَعِكْرَمَةُ وَالضَّحَّاكُ . وَالثَّانِي أَبُو بَكْرٍ ، رَوَاهُ مَكْحُولٌ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ . وَالثَّلَاثُ عُمَرُ ، قَالَه ابْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ . وَالرَّابِعُ خِيَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَه الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ . وَالْخَامِسُ أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، قَالَه قَتَادَةُ وَالْعَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ الْعَدَوِيُّ وَسُفْيَانٌ . وَالسَّادِسُ أَنَّهُ عَلِيٌّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ حَكَاهُ الْمَوْرِدِيُّ)) اهـ .

وَالْمَعْنَى الْعَامُ : إِنْ تَعَاوَنْتُمَا يَا عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ عَلَى إِذَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ ، وَإِفْشَاءِ سِرِّهِ ، وَإِحْدَاثِ ضَرَرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجَاتِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَانْتُمَا خَاسِرَتَانِ لَا مَحَالَةَ ، لِأَنَّ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيُؤَيِّدُهُ وَيُدَافِعُ عَنْهُ . وَمَاذَا سَتَفْعَلُ امْرَأَتَانِ ضَعِيفَتَانِ فِي مُوَاجَهَةِ تَأْيِيدِ اللَّهِ وَجِبْرِيلَ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ؟!

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . وَالْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ بَعْدَ نَصْرِ اللَّهِ لَهُ وَنَصْرِ جِبْرِيلَ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعْوَانٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى مَنْ أَذَاهُ ، يَنْصُرُونَهُ وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ . فَمَا يَبْلُغُ تَظَاهُرُ امْرَأَتَيْنِ عَلَى مَنْ هُوَ لَاحِظُهُمَا (أَعْوَانُهُ وَأَنْصَارُهُ) ؟! . وَ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ بِمَعْنَى ظُهُرَاءُ . وَهَذَا مِنَ الْوَاحِدِ الَّذِي يُؤَدِّي عَنْ الْجَمْعِ . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ يُشِيرُ إِلَى الْمُبَالَغَةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَى كِفَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحِمَايَتِهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ . وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَتَمَّ إِفْرَادُ " جِبْرِيلُ " بِالذِّكْرِ ، تَعْظِيمًا لَهُ ، وَتَشْرِيفًا لِقَدْرِهِ ، وَتَنْوِيهًا بِمَكَانَتِهِ الرَّفِيعَةِ ، فَهُوَ أَمِينُ الْوَحْيِ ، وَأَعْظَمُ الْمَلَائِكَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً بِاسْمِهِ الْمَجْرَدِ ، وَمَرَّةً فِي عُمُومِ الْمَلَائِكَةِ . وَجَاءَ ذِكْرُ " صَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ " بَيْنَ جِبْرِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ : ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ، وَهَذَا التَّوَسِيطُ

يدل على مكانة المؤمنين الصادقين المخلصين، وشرفهم العظيم، وفضلهم الجليل، وعناية الله بهم ورعايته لهم.

وَحُتِمَتِ الْآيَةُ بِذِكْرِ " الملائكة " الكرام الأبرار ، وَهُمْ أعظم المخلوقات ، وجنود الله الذين لا يعصونه ، ولا يستطيع مخلوق أن يواجههم . وهذا يدل على منزلتهم الرفيعة . وهؤلاء الملائكة أنصارُ النبي ﷺ وأعوانه . وهذا يُشير إلى مكانة النبي ﷺ العظيمة التي لا يصل إليها مخلوق . وإذا كان كل حاكم أو أمير أو شخص مشهور يستعين بحُرَّاس شخصيين وأعوان وأنصار ، لحمايته وحراسته ، والدفاع عنه ، فإن الملائكة هم أنصارُ النبي ﷺ وأعوانه ، الذين يحمونه ويدافعون عنه . فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْذِيَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ ؟ ! . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٥٥) : ((وتخصيص جبريل _ عليه السلام _ لتعظيمه ، والمراد بالصالح الجنس ، ولذلك عمم بالإضافة ، وبِقَوْلِهِ : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ تعظيم لمُظَاهَرَةِ الملائكة ، مِنْ جُمْلَةٍ مَا يَنْصُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢ / ١١٠٥) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رضي الله عنه _ قال: يا رسول الله، ما يَشُقُّ عَلَيْكَ مِنْ شَأْنِ النِّسَاءِ ؟ ، فَإِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَكَ ، وَقَلَمًا تَكَلَّمْتُ وَأَحْمَدُ اللَّهُ بِكَلامٍ ، إِلَّا رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يُصَدِّقُ قَوْلِي الَّذِي أَقُولُ . ونزلت هذه الآية آية التخيير : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ .

وهذا يُشير إلى شِدَّةِ حِرْصِ عُمَرَ عَلَى رَاحَةِ النَّبِيِّ ﷺ وسعادته، وإزالة حُزْنِهِ وَهَمِّهِ ، والتخفيف عنه . والصاحبُ الحقيقي لا يتخلى عن صاحبه في وقت الشدة ، وإنما يُسانده ، ويرفع معنوياته . وقد سأل عُمَرَ النَّبِيَّ ﷺ: ما يُتَعَبُكَ وَيُزْعِجُكَ فِي شَأْنِ أَزْوَاجِكَ ؟ . لا داعي للتعب ولا القلق، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنْ طَلَّقَهُنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ ، ويدافع عنه ، والملائكة ، وأبو بكر وعُمَرُ والصحابَةُ جميعًا . وقد نزل القرآن يُصَدِّقُ قَوْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ _ رضي الله عنه _ . وقال الله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التَّحْرِيمُ : ٥] .

هذا وَغُظُّ إِلَهِيَّ وَتَحْذِيرُ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ فِي الْغَيْرَةِ ، وَحُبِّ مَا يَكْرَهُهُ النَّبِيُّ ﷺ . و"عسى" مِنْ اللَّهِ وَاجِبٌ ، وَهِيَ فِي هَذَا السِّيَاقِ مُعَلِّقَةٌ بِشَرْطٍ ، وَهُوَ التَّطْلِيقُ ، وَلَمْ يُطْلَقْهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ .

وما غُلِّقَ بما لم يقع ، لا يجب وقوعه . والمعنى : حَقٌّ واجبٌ على الله تعالى إن طَلَّقَكَ النَّبِيُّ ﷺ ، أن يُرَوِّجَه في الدنيا نِسَاءً صالحات أفضل مِنْكَ . وهذا وَغْدٌ إلهيٌّ واقعٌ لا محالة ، لا يتخلف ولا يتبدل . والآية إخبارٌ عن القدرة الإلهية المطلقة ، وتخويف لنساء النبي ﷺ . وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ١٧٠) : ((والله كان عالماً بأنه كان لا يُطَلِّقُهُنَّ ، ولكن أخبرَ عَنْ قُدْرَتِهِ على أنه إن طَلَّقَهُنَّ أبدله خَيْرًا مِنْهُنَّ ، تخويفاً لَهُنَّ)) اهـ . وقال النَّسْفِي في تفسيره (٤ / ٢٦٠) : ((فإن قُلْتَ : كيف تكون المُبدَلات خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَمْ يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين . قُلْتُ : إذا طَلَّقَهُنَّ رسولُ الله ﷺ لإيذائهنَّ إيَّاه لَمْ يَقْبَلْنَ على تلك الصِّفة ، وكان غيرُهم من الموصوفات بهذه الأوصاف خَيْرًا مِنْهُنَّ)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٤ / ١٦٢٩) : عن عُمر ابن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : بَلَّغَنِي مُعَاتِبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ . قُلْتُ : إن انتَهَيْتُنَّ أَوْ كُيِّدَلْنَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكَ ، حتى أتيتُ إحدى نِسَائِهِ . قالت يا عُمر : أما في رسول الله ﷺ ما يعِظُ نِسَاءَهُ حتى تَعْطَهُنَّ أَنْتَ ؟ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إن طَلَّقَكَ أن يُبدِلَهُ أزواجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ ﴾ الآية . وهذا يُشير إلى قُوَّة عُمر بن الخطاب في الحق ، ومُسَانَدَتِهِ للنبي ﷺ في الأزمات والشَّدائد . فقد عَرَفَ أنَّ نساء النبي ﷺ مُجْتَمَعَاتٌ عليه في الغيرة، ووصل إلى مَسَامَعِهِ مُعَاتِبَةُ النَّبِيِّ ﷺ لبعض نِسَائِهِ . فأَرَادَ أن يُدافع عن النبي ﷺ ويُسَانِدَهُ ، ويُحذِّرُ زَوَجاتِهِ مِن إيذائِهِ ، واستغلالِ سَعَةِ صَدْرِهِ ، وأخلاقِهِ الحميدة ، وأدبِهِ الرفيع . وقد هَدَّدَهُنَّ ، ووضعَهُنَّ بين أَمْرَيْنِ لا ثالثَ لهما : إمَّا الانتهاء عن الغيرة والأذى ، أو إنَّ الله تعالى سَيَبْدِلُ النَّبِيَّ ﷺ نِسَاءً أَفْضَلَ مِن زَوَجاتِهِ الحالِيات . وقد استتكرت إحدى زَوَجاتِ النبي ﷺ كلامَ عُمر باعتباره شخصاً أجنبيّاً ، وقالت إنَّ النبيَّ ﷺ قادرٌ على وَعْظِ نِسَائِهِ ، فما علاقتك بالموضوع يا ابن الخطاب ؟ ، أو : اخْرُجْ يا ابن الخطاب من العلاقة بين النبي ﷺ وزَوَجاتِهِ . وعُمر إنما قام بهذا الأمر للدِّفاع عن النبي ﷺ وحمايته ، والتحذير من أذاه والإضرار بِهِ ، وليس تَدَخُّلاً في حياته الخاصَّة ، أو محاولة فَرَضِ وَجْهَةٍ نَظَرَهُ على آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ ، أو التَّحَكُّمِ بمسار الحياة العائلية للنبي ﷺ . فالنبيُّ ﷺ هو سَيِّدُ الدُّعَاةِ ، وأبْلَغُ الواعِظِينَ ، وأفصحُ العرب ، وأكثرهم قُدْرَةً على التأثير . كان قَوِيّاً في الحق لا يَخَاف ولا يُجَامِلُ .

وفي نَفْسِ الوقت ، كان رَحِيماً بالناس ، عَطُوفاً عليهم ، يُسامحهم ، وَيَتَجَاوَزُ عنهم ، ولا يَجْرَحُ مشاعرهم ، يتنازل عن حقوقه الشخصية لتأليف قلوبهم ، ورفع معنوياتهم . وهذه هي القُوَّة الحقيقية . وقال الحافظ في الفتح (٩ / ٢٨٤) : ((وهذه المرأة هي زينب بنت جَحْش ، كما

أخرج الخطيب في المُبَهَمَات ، وَجَوَزَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا أُمُّ سَلَمَةَ ((اهـ . وقد ذَكَرَ اللهُ صِفَاتَ هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ اللّوَاتِي سَيِّدَلَهُ بِهِنَّ : «مُسْلِمَاتٍ» خَاضَعَاتٍ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ وَمُسْتَسْلِمَاتٍ لِأَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ . «مُؤْمِنَاتٍ» مُصَدِّقَاتٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . «قَانِتَاتٍ» مُطِيعَاتٍ لِلَّهِ وَمُواظِبَاتٍ عَلَى الطَّاعَةِ . «تَائِبَاتٍ» تَائِبَاتٍ مِنْ ذُنُوبِهِنَّ ، وَرَاجِعَاتٍ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ ، وَتَارِكَاتٍ لِحِظْوِظِ أَنْفُسِهِنَّ . «عَابِدَاتٍ» كَثِيرَاتٍ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمُتَذَلَّلَاتٍ لَهُ ، امْتَزَجَتِ الْعِبَادَةُ بِقُلُوبِهِنَّ فَصَارَتْ سَجِيَّةً لَهُنَّ «سَائِحَاتٍ» صَائِمَاتٍ أَوْ مُهَاجِرَاتٍ . «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا» . مِنْهُنَّ ثَيِّبَاتٌ (جَمْعُ ثَيِّبٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي سَبَقَ لَهَا الزَّوْجُ) ، وَمِنْهُنَّ أَبْكَارًا (جَمْعُ بَكْرٍ وَهِيَ الْعَذْرَاءُ) . وَالتَّنَوُّعُ أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ وَأَحَبُّ إِلَيْهَا . وَوُجُودُ وَائِ الْعَطْفِ يَدُلُّ عَلَى بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَفَصَاحَتِهِ ، فَالْمَرْأَةُ تَكُونُ ثَيِّبًا أَوْ بَكْرًا ، وَلَا يُمَكِّنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، لِذَلِكَ كَانَ الْفَصْلُ بَوَاوِ الْعَطْفِ بَيْنَ الثَّيِّبَاتِ وَالْأَبْكَارِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/١٧٠): ((قَوْلُهُ تَعَالَى : «مُسْلِمَاتٍ» يَعْنِي مُخْلِصَاتٍ ، قَالَهُ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مُسْلِمَاتٍ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ . «مُؤْمِنَاتٍ» مُصَدِّقَاتٍ بِمَا أُمِرْنَ بِهِ وَنُهِينَ عَنْهُ . «قَانِتَاتٍ» مُطِيعَاتٍ ، وَالْقُنُوتُ : الطَّاعَةُ . «تَائِبَاتٍ» أَي : مِنْ ذُنُوبِهِنَّ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ . وَقِيلَ : رَاجِعَاتٍ إِلَى أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَارِكَاتٍ لِمَحَابِّ أَنْفُسِهِنَّ . «عَابِدَاتٍ» أَي كَثِيرَاتٍ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ عِبَادَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ التَّوْحِيدُ . «سَائِحَاتٍ» صَائِمَاتٍ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ جُبَيْرٍ ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِإِيمَانٍ : مُهَاجِرَاتٍ . قَالَ زَيْدٌ : وَلَيْسَ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ سِيَاحَةً إِلَّا الْهَجْرَةَ ، وَلَا سِيَاحَةَ الْجَوْلَانَ فِي الْأَرْضِ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَالْقَتَيْبِيُّ وَغَيْرُهُمَا : سُمِّيَ الصَّائِمُ سَائِحًا ، لِأَنَّهُ السَّائِحُ لَا زَادَ مَعَهُ ، وَإِنَّمَا يَأْكُلُ مِنْ حَيْثُ يَجِدُ الطَّعَامَ . وَقِيلَ : ذَاهِبَاتٍ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِنْ سَاحِ الْمَاءِ إِذَا ذَهَبَ . «ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا» أَي : مِنْهُنَّ ثَيِّبٌ ، وَمِنْهُنَّ بَكْرٌ . وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَتِ الثَّيِّبُ ثَيِّبًا ، لِأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى زَوْجِهَا إِنْ أَقَامَ مَعَهَا ، أَوْ غَيْرِهِ إِنْ فَارَقَهَا . وَقِيلَ : لِأَنَّهَا ثَابِتٌ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا ، وَهَذَا أَصَحُّ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ثَيِّبٍ تَعُودُ إِلَى زَوْجٍ ، وَأَمَّا الْبَكْرُ فَهِيَ الْعَذْرَاءُ ، سُمِّيَتْ بِكْرًا ، لِأَنَّهَا عَلَى أَوَّلِ حَالَتِهَا الَّتِي خُلِقَتْ بِهَا ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : أَرَادَ بِالثَّيِّبِ مِثْلَ آسِيَةِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَبِالْبَكْرِ مِثْلَ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ . قُلْتُ : وَهَذَا إِنَّمَا يَمْشِي عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنْ التَّبْدِيلُ وَعَدَ مِنَ اللهِ لِنَبِيِّهِ لَوْ طَلَّقَهَا فِي الدُّنْيَا ، وَزَوَّجَهَا فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

الفصل الثالث والعشرون
أفضلية أُمَّتِهِ وشهادته عليها

تمهيد

إنَّ الأُمَّةَ المَحْمَدِيَّةَ هِيَ أُمَّةٌ وَسَطٌ ، تَشْهَدُ عَلَى النَّاسِ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ .
عَقَائِدُهَا وَاضِحَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا ، وَسُلُوكُهَا قَائِمٌ عَلَى الْإِعْتِدَالِ وَالْوَسْطِيَّةِ ، بَلَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ . وَإِنْ
انْحَرَفَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَاعْتَنَقُوا التَّطَرُّفَ ، فَهَذَا لَا يَعْنِي شَيْئًا ، لِأَنَّ الأُمَّةَ المَحْمَدِيَّةَ هِيَ رُبْعُ
البَشَرِيَّةِ ، وَالْبَحْرُ لَا يَتَلَوَّثُ وَلَا يَتَنَجَّسُ ، مَهْمَا أُلْقِيَ فِيهِ مِنْ جِيفٍ وَأَوْسَاحٍ . وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ .
وَالْعِبْرَةُ كَامِنَةٌ فِي الْإِتِّجَاهِ الْعَامِ وَالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الأُمَّةَ المَحْمَدِيَّةَ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا ، لِأَنَّهَا تَسْتَنْدُ فِي حَيَاتِهِ إِلَى
ثَلَاثَةِ مَبَادِئَ رِئِيسِيَّةٍ : الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ
أَفْضَلِيَّتَهَا تَتَّبَعُ مِنْ أَعْمَالِهَا الطَّيِّبَةِ عَلَى أَرْضِ الْوَقْعِ ، وَلَا تَتَّبَعُ مِنَ الشَّعَارَاتِ الْفَارِغَةِ . إِنَّ الأُمَّةَ
الْمَحْمَدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ أَعْظَمُ الْأُمَمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَهَذَا لَيْسَ تَبَجُّحًا أَوْ غُرُورًا أَوْ خُضُوعًا
لِخِرَافَةِ نَقَاءِ الْعِرْقِ . فَالْأُمَّةُ المَحْمَدِيَّةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي تَحْمِلُ كَلِمَةَ اللَّهِ ، وَهِيَ وَحْدَهَا عَلَى الْحَقِّ (التَّوْحِيدِ) ، أَمَّا بَاقِي الْأُمَمِ فَغَارِقَةٌ فِي الشَّرْكِ وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ . وَأَفْضَلِيَّةُ الأُمَّةِ مُقَيَّدَةٌ بِالتَّزَامِهَا
بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْإِسْلَامِ صُكُوكُ غُفْرَانٍ ، وَلَا عَقْلِيَّةٌ قَبْلِيَّةٌ جَاهِلِيَّةٌ .

وَكُلُّ نَبِيٍّ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيُقَدِّمُ دَلِيلَهُ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهَا الْوَحْيَ
الْإِلَهِيَّ ، كَيْ تُقَامَ عَلَيْهَا الْحُجَّةُ ، وَيَنْقَطَعَ غُدْرُهَا ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ . وَهَذَا يُشِيرُ
إِلَى الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ الْكَامِلِ ، فَاللَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا .

وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ، يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِإِيمَانِهِمْ ، وَيُصَابُ الْكَافِرُونَ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ ،
وَيَتَنَدَّمُونَ أَشَدَّ النَّدَمِ ، وَلَكِنْ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ . إِنَّهُ النَّدَمُ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ . فَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ
جَزَاءٍ وَلَيْسَ دَارُ عَمَلٍ . لَقَدْ انْتَهَى الْامْتِحَانُ بِمَوْتِ الْإِنْسَانِ ، وَفِي الْآخِرَةِ تَظْهَرُ نَتِيجَةُ الْامْتِحَانِ :
إِمَّا الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ ، أَوْ الْخُلُودُ فِي النَّارِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْأُمَّةَ كَيْ يُدَمِّرَهم وَيُعَذِّبَهم . وَإِنَّمَا خَلَقَهم لِيَرْحَمَهم ، فَرَفَعَ عَنْهم الْحَرَجَ ،
وَلَمْ يُضَيِّقْ عَلَيْهِمُ ، وَهَدَاهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ . وَكُلُّ شَخْصٍ يَتَحَمَّلُ نَتِيجَةَ اخْتِيَارِهِ ،
وَسَيُلَاقِي جَزَاءَ عَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، سَيَجْتَمِعُ الْأَنْبِيَاءُ مَعَ الْأُمَمِ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَاضِي الْعَادِلُ ،
الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ، وَلَا يُحَاجِّي ، وَلَا يُجَاوِلُ ، وَلَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ ، وَلَا يَقْبَلُ الظُّلْمَ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

هذه الآية تأسيس دقيق للمنهج الوسطي بدون إفراط أو تفريط، لأن الوسط من كل شيء هو المنهج العادل المتوازن الذي يُلبّي احتياجات الأفراد والجماعات باعتدال ، وتنسيق ، ومُراعاة للأحوال النَّفسية بدون انحلال ، أو تميع للأحكام الشرعية ، أو لؤي أعناق النصوص .

ومن خلال هذا الفهم الوسطي يمكن تحديد معالم المنهج الإسلامي في التعامل مع الأفكار والأشخاص والمجتمعات بكل إنصاف ، حيث يُعطى كل ذي حق حَقُّه بدون إجحاف، مع بيان مواضع الصواب لدعمها والحرص عليه ، وكشف مواضع الانحراف للتحذير منها ودَحْضها .

وهذا هو الجوهر الأساسي للفكر الإسلامي في التعامل مع الكيانات الروحية ، والكيانات المادية. فلم يأت الإسلام لتدمير المجتمع ، والقضاء على إبداعات العقل البشري . وإنما جاء لوضع الأمور في نصابها الصحيح بدون تطرف. إذ إن العقل البشري له حدود ، والمجتمع البشري له حدود . وقد جاء الإسلام لإبراز هذه الحدود ، وخطورة تجاوزها ، ومدى الضرر الذي يترتب على وضع الأمور في غير نصابها الصحيح . وكما قال الشاعر :

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضِرَّ كَوْضَعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وروى الترمذي في سننه (٢٠٧/٥) وصحَّحه: عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، قال : ((عَدْلًا)) .

والوَسَطُ هو العَدْلُ^(١)، لأنه قيمة المعنى الفكري الدقيق ، والتأصيل الشرعي للخيلولة دون ممارسة التطرف ، إفراطاً أو تفريطاً . وسُمِّيَ الْخِيَارُ وَسَطًا ، لأنَّ الوَسَطَ محميٌّ بعكس الأطراف .

(١) الدليل على هذا التعريف قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]. وقد فسّر الطبري ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ : أعدلهم . ونقل هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك [انظر تفسير الطبري ١٢ / ١٩٣]. وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٢١) : ((قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبّير وعكرمة ومحمد بن كعب والريبع بن أنس والضحاك وقتادة : أي أعدلهم وخيرهم)) . وفي صحيح البخاري (٣ / ١٢١٥) أنَّ أبا سعيد الخُدريّ رضي الله عنه _ قد فسّر الوسط بالعدل . اهـ . أمّا في لغة العرب فقد قال الشاعر :

وَحَيْرُ الْأُمُور أَوْسَطُهَا ، وَالْعُلُوُّ وَالْتَقْصِيرُ مَذْمُومَان . وقال الآمدي في الإحكام (١ / ٢٧٠) :
((ووجه الاحتجاج بالآية أنه عَدْلُهُمْ ، وجعلهم حُجَّةً على الناس في قبول أقوالهم ، كما جعل
الرسول حُجَّةً عَلَيْنَا في قبول قَوْلِهِ عَلَيْنَا)) اه .

وهذا المديح الإلهي لجبل الصحابة وتعديلهم ، كشف قوة الإيمان الثابتة في نفوس هذا
الجيل الذهبي الذي حمل أمانة تبليغ الوحي كما هو . فاستحق هذه الرتبة العظيمة بسبب حجم
الإنجازات الخارقة في نشر الدعوة الإسلامية ، والثبات عليها . وقال الرازي في المحصول (٤ /
٩٨) : ((وَأَمَّا الْمَعْنَى ، فَلأنَّ الْوَسْطَ حَقِيقَةٌ فِي الْبُعْدِ عَنِ الطَّرَفَيْنِ ، فَالشَّيْءُ الَّذِي يَكُونُ بَعِيدًا
عَنْ طَرَفِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ الَّذِينَ هُمَا رَدِّيَانِ كَانَ مُتَوَسِّطًا فَكَانَ فَضِيلَةً ، وَلِهَذَا سُمِّيَ الْفَاضِلُ فِي
كُلِّ شَيْءٍ وَسَطًا)) (٢) .

إنَّ قيمة الفضيلة تتمركز في موضعها الوسطي بين النقيض والنقيض . فالكرم _ على سبيل
المثال _ فضيلة متوسطة بين البخل والإسراف ، والشجاعة قيمة نبيلة تتوسط طَرَفِي الْجُبْنِ وَالتَّهَوُّرِ .
وهكذا ، كُلُّ فَضِيلَةٍ هِيَ تَجَسِيدٌ أَخْلَاقِي نَبِيلٌ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٥٨) : ((يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قَبِيلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، وَاخْتَرْنَاكُمْ لَكُمْ ، لِنَجْعَلَكُمْ خِيَارَ الْأُمَمِ ، لَتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَمِ ، لِأَنَّ
الْجَمِيعَ مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالْفَضْلِ . وَالْوَسْطُ هَهُنَا الْخِيَارُ وَالْأَجُودُ ، كَمَا يُقَالُ : قَرِيشُ أَوْسَطِ الْعَرَبِ
نَسَبًا وَدَارًا ، أَيِ خَيْرِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ ، أَيِ أَشْرَفِهِمْ نَسَبًا ، وَمِنْهُ الصَّلَاةُ
الْوُسْطَى الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ ، وَهِيَ الْعَصْرُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا . وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ
هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا ، خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ ، وَأَقْوَمِ الْمَنَاحِجِ ، وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ)) اه .

إنَّ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَعْظَمُ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُهَا . وَهِيَ أُمَّةُ الْوَسْطِ وَالْإِعْتِدَالِ بَلَا إِفْرَاطٍ وَلَا
تَفْرِيطٍ ، بَلَا غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ . لَمْ تَغْلُ غُلُوَّ النَّصَارَى الَّذِينَ أَلْهَوْا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ ، وَلَا قَصَّروا تَقْصِيرَ
الْيَهُودِ الَّذِينَ اعْتَبَرُوا عِيسَى بْنَ زَنَا . وَإِنَّمَا هِيَ أُمَّةُ الْإِعْتِدَالِ ، دِينُهَا قَائِمٌ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ،
وَالْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا بَلَا اسْتِثْنَاءٍ . وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، تَشْهَدُ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ لِلْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُمْ قَدْ

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

(٢) هذا المعنى سبق أن أشار إليه أرسطو (٣٨٤ ق.م _ ٣٢٢ ق.م) الذي كان يرى أن الفضيلة هي
اختيار الإنسان للحالة الوسطى بين طرفين كلاهما رذيلة ، وهما : الإفراط والتفريط .

بَلَّغُوا أَقْوَامَهُمْ ، ويكون النبي محمد ﷺ شهيداً على أُمَّته ، بأنهم قد فعلوا ما أُمِرَ بتبليغه إليهم ، وحملوا الإسلام عقيدةً ودعوةً . أي إنَّ النبي ﷺ يُعَدِّلُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيَشْهَدُ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٥٤ و ١٥٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . سبب نزولها أَنَّ اليهود قالوا : قَبَّلْنَا قِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَنَحْنُ عَدُلُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مَقَاتِلُ . وَالْأُمَّةُ الْجَمَاعَةُ ، وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو سَعِيدٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ ... وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ أَنَّهُ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي الْفِعْلِ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَقْصُرُوا فِي دِينِهِمْ كَالْيَهُودِ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ، وَبَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَغْلُوا كَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ عِيسَى ابْنَ اللَّهِ . وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الدَّمَشَقِيُّ : فِي هَذَا الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ ، وَمَعْنَاهُ : جَعَلْتُ قِبْلَتَكُمْ وَسَطًا بَيْنَ الْقِبْلَتَيْنِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ يُصَلُّونَ نَحْوَ الْمَغْرِبِ ، وَالنَّصَارَى نَحْوَ الْمَشْرِقِ ، وَأَنْتُمْ بَيْنَهُمَا)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦ / ٢٦٧٥) : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يُجَاءُ نُوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فيقال له : هَلْ بَلَغْتَ ؟ ، فيقول : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ : هَلْ بَلَغَكُمْ ؟ ، فيقولون : مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ ، فيقول : مَنْ شُهِدَكَ ؟ ، فيقول : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ)) ، ثُمَّ قرأ رسول الله ﷺ : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) .

وهذه الشهادة الأخروية تدل على مكانة النبي ﷺ وأُمَّته ، حيث تُقَرَّرُ مصير هذه الأُمَّة الغابرة التي افترت على رسولها نُوحٍ ﷺ الذي قضى حياته في الدعوة إلى الله تعالى بكل إخلاص وكفاءة . لكن قومه لم يُقَدِّرُوا هذه الجهود الخارقة ، وإنما واصلوا مسلسل غطرستهم وعنادهم وكذبهم في الدنيا والآخرة ، ظَنُّوا مِنْهُمْ أَنَّ حِيلَتَهُمْ تَنْطَلِي عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَالِمِ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَتَمُرُّ الْأُمُورُ بِكُلِّ سَلَاةٍ ، وَيَنْجُونَ بِفِعْلَتِهِمْ . لكن هذا لم يحصل . و((إِنَّمَا طَلَبَ اللَّهُ مِنَ نُوحٍ شُهَدَاءَ عَلَى تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ أُمَّتُهُ _ وَهُوَ أَعْلَمُ _ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ ، وَلِمَنْزِلَةِ أَكْبَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ . فيقول : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ . الْمَعْنَى : إِنَّ أُمَّتَهُ شُهَدَاءُ ، وَهُوَ مُزَكَّ لَهُ ، وَقُدِّمَ فِي الذِّكْرِ لِلتَّعْظِيمِ ، وَلَا بَعْدَ أَنَّهُ ﷺ يَشْهَدُ لِنُوحٍ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ أَيْضًا لِأَنَّهُ مَحَلُّ النَّصْرَةِ))^(٣) .

(٣) شرح سنن ابن ماجه (١ / ٣١٧) ، السُّيُوطِيُّ وَآخَرُونَ .

وفي مسند أحمد (٣ / ٥٨) : عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ((يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغْتُمْ هَذَا ؟ ، فَيَقُولُونَ : لَا ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ ؟ ، فيقول : نعم ، فَيُقَالُ لَهُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ ، فيقول : محمد وأُمَّتُهُ ، فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فيقال لهم : هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ ؟ ، فيقولون : نعم ، فَيُقَالُ : وَمَا عَلَّمُكُمْ ؟ ، فيقولون : جَاءَنَا نَبِيٌّ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، قال : يَقُولُ : عَدْلًا ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾)) .

لقد بذل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ قصارى جهدهم في نشر الدعوة الإسلامية ، ومع هذا ، هناك أنبياء أتباعهم قلة قليلة ، وهذا ليس تقصيرًا من الأنبياء ، وإنما تقصير من أقوامهم . فالأنبياء يمتازون بالبلاغة والفصاحة وحسن البيان ، ويمتلكون القدرة على التأثير الاجتماعي ، وتقديم الحجج والبراهين . ولكن كثيرًا من الناس اختاروا الكفر والعناد والجهل والظلام .

ويدعى قوم النبي ، ويتم سؤالهم : هل بَلَّغْتُمْ هَذَا النَّبِيَّ ؟ ، فيُنْكِرُونَ أن يكون قد بَلَّغَهُمْ ، وهو الذي قضى حياته في دعوتهم . وهذا يدل على وقاحتهم وعنادهم واستكبارهم وجهلهم . ويسأل الله النبي : هل بَلَّغْتَ قَوْمَكَ ؟ ، فيُجِيبُ بالإيجاب ، ويأمره الله بإحضار شهود على تبليغه الدعوة . ويشهد له محمد ﷺ وأُمَّتُهُ ، ويصدقونه ، ويدافعون عنه . ويسأل الله الأُمَّةَ المحمدية : كيف عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ قَوْمَهُ مَعَ أَنَّكُمْ لَمْ تُشَاهِدُوا ذَلِكَ ، وبينكم وبينهم مُدَّةٌ زمنية طويلة ؟ . فتقول الأُمَّةُ المحمدية : إِنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ ، ونحن آمَنَّا بِهِ وَصَدَّقْنَا بِكَلَامِهِ .

وهذا يدل على الشرف العظيم للأُمَّةِ المحمدية ، ومكانتها الجليلة ، وكونها أعظم الأمم . وقد حصلت على هذه المنزلة الرفيعة ببركة نبيها محمد ﷺ الذي أخرجها من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى . وبما أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ هو أعظم الأنبياء ، كانت أُمَّتُهُ أعظم الأمم ، وقد استمدت شرفها من شرفه . وهي السائرة على خطاه ، والحاملة لميراث النبوة ، والناشرة لدعوته الإسلامية . إِنَّ الأُمَّةَ المحمدية الإسلامية هي آخر الأمم من الناحية الزمنية ، لكنها أول الأمم من ناحية الفضل والشرف والرفعة . فهي الأُمَّةُ الوسطُ العادلة المُنصِفةُ التي تشهد على الأمم . وفي صحيح مسلم (٢ / ٥٨٥) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) . وهذا دليل على أَنَّهُ لَا يَشْهَدُ إِلَّا الْعُدُولُ الْأَخْيَارُ . وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ أَحَدٍ إِلَّا إِذَا كَانَ عَدْلًا . والآية دليل على أَنَّ الإجماع حُجَّةٌ مُقَدَّسَةٌ وواجبة ومعصومة ، ولا يجوز خرقه ، فلو كان اتَّفَقَهم على شيء باطلاً أو

انحرافاً عن الحق ، لَسَقَطَتْ عدالتهم . وبما أَنَّهُم عُذُول بِحُكْمِ اللَّهِ ، إذن ، إجماعهم واتِّفَاقُهم حُجَّةٌ.

وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٤٨) : ((وفيه دليل على صِحَّة الإجماع ووجوب الحُكم به ، لأنهم إذا كانوا عُذُولاً شَهِدُوا على الناس ، فَكُلَّ عصر شهيد على مَنْ بعده ، فقول الصحابة حُجَّةٌ وشاهد على التابعين ، وقول التابعين على مَنْ بعدهم ، وإذْ جُعِلَت الأُمَّةُ شُهَدَاءَ فَقَدْ وَجِبَ قبول قولهم ، ولا معنى لِقَوْل مَنْ قال : أريد به جميع الأُمَّة ، لأنه حينئذ لا يَتَّبِعُ مُجْمَعٌ عليه إلى قيام الساعة ، وبيان هذا في كتب أصول الفقه)) اهـ . وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : كُنْتُ مع رسول الله ﷺ في جِنَازَةِ فِينَا في بني سَلَمَةَ ، وأنا أَمْشِي إلى جَنْبِ رسول الله ﷺ ، فقال رَجُلٌ : نِعَمَ الْمَرْءُ مَا عَلِمْنَا ، إِنْ كَانَ لَعَفِيفًا مُسْلِمًا ، إِنْ كَانَ . فقال رسول الله ﷺ : ((أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ؟)) ، قال : يا رسول الله ، ذاك بدا لنا ، والله أعلمُ بالسرائر ، فقال رسول الله ﷺ : ((وَجَبَتْ)) . قال : وَكُنَّا معه في جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ بني حَارِثَةَ أَوْ مِنْ بني عبد الأشَّهَلِ ، فقال رَجُلٌ : يَنْسُ الْمَرْءُ مَا عَلِمْنَا ، إِنْ كَانَ لَفَظًا غَلِيظًا ، إِنْ كَانَ . فقال رسول الله ﷺ : ((أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ؟)) ، قال : يا رسول الله ، الله أعلمُ بالسرائر ، فَأَمَّا الَّذِي بدا لنا مِنْهُ فذاك ، فقال رسول الله ﷺ : ((وَجَبَتْ)) ، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) (٤) . وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : مَرُّوا بِجِنَازَةٍ ، فَأَتْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا ، فقال النبي ﷺ : ((وَجَبَتْ)) . ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَتْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا ، فقال : ((وَجَبَتْ)) ، فقال عُمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ما وَجَبَتْ ؟ . قال : ((هَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَهَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِ شَرًّا ، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ)) (٥) .

الجِنَازَةُ الْأُولَى وصفوها بالخير ، والجِنَازَةُ الثَّانِيَةُ وصفوها بالشر ، فَقَبِلَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ فِي حَقِّ مَنْ شَهِدُوا لَهُ وَمَنْ شَهِدُوا عَلَيْهِ . وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى ، لأنَّهم مؤمنون مُخْلِصُونَ وصادقون

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٩٤) برقم (٣٠٦١) وقال : ((هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يُخرجاه ، إنما اتَّفَقَا على " وَجَبَتْ " فقط)) اهـ . وقال الذهبي عن أحدِ رِوَاةِ الحديث " مصعب ابن ثابت " : ((مصعب ليس بالقوي)) .

(٥) متفق عليه . واللفظ للبخاري (١ / ٤٦٠) برقم (١٣٠١) . ومسلم (٢ / ٦٥٥) برقم (٩٤٩) .

وأَتَقِيَاءُ، يُطْلَقُونَ أَحْكَامَهُمْ اسْتِنَادًا إِلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَلَيْسَ وَفْقَ أَهْوَائِهِمْ أَوْ مَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ عُذُولٌ ، فَلَا تُقَبَّلُ شَهَادَةُ إِلَّا الْعُذُولِ . وَغَيْرُ الْعُذُولِ شَهَادَتُهُمْ مَرْفُوضَةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : ((وَجَبَتْ)) ، يَعْنِي طَابِقُ الشَّأْنِ الْوَاقِعِ . وَكَمَا قِيلَ : أَلَسْنَةُ الْخَلْقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ . وَالْإِضَافَةُ فِي " شُهَدَاءُ اللَّهِ " لِلتَّشْرِيفِ وَبَيَانِ مَنَزَلَتِهِمُ الرَّفِيعَةِ . وَالْأَحْكَامُ الَّتِي يُطْلَقُهَا النَّبِيُّ ﷺ أَحْكَامٌ إِلَهِيَّةٌ ، وَلَيْسَتْ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ . وَهَذِهِ تَرْكِيبَةٌ وَمَدْحٌ لِلْأُمَّةِ بَعْدَ أَدَاءِ شَهَادَتِهِمْ .

وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الصَّحَابَةَ يُحَدِّدُونَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ يَذْهَبُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي وَصَفُوهُ بِالْخَيْرِ، رَأَوْا مِنْهُ عِلَامَةَ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. أَمَّا مَنْ وَصَفُوهُ بِالشَّرِّ فَرَأَوْا مِنْهُ عِلَامَةَ النِّفَاقِ أَوْ الْفُسْقِ أَوْ الْبِدْعَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ غَيْرُ خَاصَّةٍ بِالصَّحَابَةِ ، وَإِنَّمَا تَشْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْأَتَقِيَاءَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٣ / ٢٣١) : ((وَنَقَلَ الطَّبِيبِيُّ عَنْ بَعْضِ شُرَاحِ الْمَصَابِيحِ قَالَ : لَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ " أَنَّ الَّذِي يَقُولُونَهُ فِي حَقِّ شَخْصٍ يَكُونُ كَذَلِكَ حَتَّى يَصِيرَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَقُولُهُمْ وَلَا الْعَكْسَ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي أَتَنَوَّا عَلَيْهِ خَيْرًا رَأَوْهُ مِنْهُ ، كَانَ ذَلِكَ عِلَامَةً كَوْنِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَبِالْعَكْسِ، وَتَعَقَّبَهُ الطَّبِيبِيُّ بِأَنَّ قَوْلَهُ : " وَجَبَتْ " بَعْدَ الثَّنَاءِ حُكْمٌ عَقَّبَ وَصْفًا مُنَاسِبًا فَأَشْعَرَ بِالْعِلِّيَّةِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : " أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ " ، لِأَنَّ الْإِضَافَةَ فِيهِ لِلتَّشْرِيفِ ، لِأَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ عَالِيَةِ عِنْدِ اللَّهِ ، فَهُوَ كَالتَّرْكِيبَةِ لِلْأُمَّةِ بَعْدَ أَدَاءِ شَهَادَتِهِمْ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ. قَالَ : وَإِلَى هَذَا يُؤْمِي قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (الآيَةُ ...) .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٧ / ١٩٠ و ٢٠٠) : ((وَأَمَّا مَعْنَاهُ فَفِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا الثَّنَاءَ بِالْخَيْرِ لِمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ أَهْلُ الْفَضْلِ ، فَكَانَ ثَنَاؤُهُمْ مُطَابِقًا لِأَفْعَالِهِ، فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ هُوَ مُرَادًا بِالْحَدِيثِ. وَالثَّانِي وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمَخْتَارُ أَنَّهُ عَلَى عُمُومِهِ وَإِطْلَاقِهِ ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ مَاتَ ، فَأَلْهِمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ أَوْ مَعْظَمَهُمُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، سَوَاءً كَانَتْ أَفْعَالُهُ تَقْتَضِي ذَلِكَ أَمْ لَا ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ أَفْعَالُهُ تَقْتَضِيهِ فَلَا تُحْتَمُّ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ ، بَلْ هُوَ فِي خَطَرِ الْمَشِئَةِ، فَإِذَا أَلْهِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ، اسْتَدَلَّلْنَا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ شَاءَ الْمَغْفِرَةَ لَهُ، وَبِهَذَا تَظْهَرُ فَائِدَةُ الثَّنَاءِ... وَقَوْلُهُ ﷺ : " وَجَبَتْ " وَ " أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ " . وَلَوْ كَانَ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُ تَقْتَضِيهِ لَمْ يَكُنْ لِلثَّنَاءِ فَائِدَةٌ ، وَقَدْ أَثْبَتَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ فَائِدَةٌ. فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ مُكِّنُوا بِالثَّنَاءِ بِالشَّرِّ مَعَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ

في البخاري وغيره في النَّهْي عن سَبِّ الأموات ، فالجواب أَنَّ النَّهْي عن سَبِّ الأموات هو في غير المنافق وسائر الكفار ، وفي غير المتظاهر بِفَسْق أو بدعة، فأَمَّا هؤلاء فلا يَحْرُم ذِكْرُهُمْ بِشَرِّ للتحذير من طريقتهم ومن الاقتداء بآثارهم والتخلق بأخلاقهم . وهذا الحديث محمول على أن الذي أَثْنَوْا عليه شَرًّا كان مشهورًا بنفاق أو نَحْوِه مِمَّا ذُكِرْنَا. هذا هو الصواب في الجواب عنه، وفي الجمع بينه وبين النَّهْي عن السَّبِّ ((اهـ . وقال المُنَاوِي في فَيْض الْقَدِير (٣ / ٥١) : (((أنتم شهداء الله في الأرض) ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، فَهُمْ عُدُولٌ بَعْدِيلُ اللَّهِ لَهُمْ ، فَإِذَا شَهِدُوا عَلَى إِنْسَانٍ بِصَلَاحٍ أَوْ فِسَادٍ ، قَبِلَ اللَّهُ شَهَادَتَهُمْ ، وَتَجَاوَزَ عَنْ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ فِي عِلْمِهِ فَضْلًا وَكَرَمًا لِأَوْلِيَائِهِ . قال القاضي: والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر والإمام ، كأنه سُمِّيَ به لأنه يَحْضُرُ النَوَادي، وَيُبْرَمُ بحضرته الأمور، إذ التركيب للحضور إمَّا بالذات أو التَّصَوُّر . ومنه قِيلَ للمقتول في سبيل الله شهيد ، لأنه حضر ما كان يَرُجُوهُ ، أو الملائكة حُضُورُهُ (والملائكة شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ) . قال الطيبي: الإضافة للتشريف وأنهم بمكان ومَنْزِلَةٍ عَالِيَةٍ عِنْدَ اللَّهِ ، كما أَنَّ الملائكة كذلك . وهذا تَرْكِيبٌ مِنَ الْمُصْطَفَى ﷺ لِأُمَّتِهِ ، وإظهار معداتهم ، وَأَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ وَيُصَدِّقُ ظُنُونَهُمْ إِكْرَامًا وَتَفْضِيلًا . وقال الفخر الرازي : لَمَّا جَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُظْهَرُ قُبْحُ فِعْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِذْ لَوْ أَظْهَرَ ذَنْبَهُمْ صَارَتْ شَهَادَتُهُمْ مُرَدُّةً ، وَذَلِكَ لَا يَلِيْقُ بِحِكْمَةِ الْحَكِيمِ)) اهـ . ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ رَقِيبٌ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَحَفِيزٌ عَلَيْهَا ، يَشْهَدُ لِأُمَّتِهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَيُزَكِّيْهَا ، وَيُدَافِعُ عَنْهَا ، أَوْ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَهَا . وَقَدْ جُعِلَ شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِهِ ، وَهَذِهِ خَاصِيَّةٌ لَهُ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٥٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ، وبماذا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ؟ ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : بِأَعْمَالِهِمْ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ وَابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّانِي : بِتَلْيِغِهِمُ الرِّسَالَةَ ، قَالَه قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ . وَالثَّلَاثُ : بِإِيمَانِهِمْ ، قَالَه أَبُو الْعَالِيَةِ . فَيَكُونُ عَلَى هَذَا ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بِمَعْنَى : لَكُمْ . قَالَ عِكْرِمَةُ : لَا يُسْأَلُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا نَبِيُّهَا)) اهـ .

وهذا الشرف الكبير الذي حصل عليه النبي ﷺ فضل إلهي. والشهادة على الأمة ليست مسألة سهلة ، ولا تُعْطَى لِأَيِّ كَانَ . لذلك كانت المنزلة النبوية السامية وراء تقديم هذه الشهادة التي مِنْ شَأْنِهَا رَفَعَ أَنَاسَ ، وَوَضَعَ آخَرِينَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَشْهَدَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، فَقَوْلُهُ حَقٌّ ،

وفعله حق . ومن هنا تأتي شهادته إحقاقاً للحق ، وإنزال الناس منازلهم اللاتقة بمستواهم صعوداً أو هبوطاً .

وهذا يشير إلى مكانة النبي ﷺ كمُعَلِّم ومُرْشِد أعلى للأُمَّة ، يعتني بها ، ويتفقد مصالحها ، ويُحاسب المخطئ على خطئه ، ويدفع المحسن إلى الأمام . وبعد كل ذلك يقوم بدور الشهادة على الأُمَّة ، لأنه قائدها الأعلى الذي تعنيه كل صغيرة وكبيرة في الدنيا والآخرة .

وليس النبي ﷺ قائداً صورياً ينام في قصره ، ويترك الأُمَّة ضائعة في حياتها ، أو زعيماً عسكرياً يختبئ في غرفة العمليات، ويترك الأُمَّة تموت في المعركة من أجل إشباع غروره ، أو صانع شعارات فارغة لا يعنيه مستقبل الأُمَّة . لقد كان ﷺ شديد الحرص على نجات أُمَّته في الدارين ، مع أنه قد ضَمِنَ أعلى درجة في الجنة ، وَلَمْ يَقُلْ : لقد نَجَوْتُ بِنَفْسِي ، وليكن الطوفان مِن بعدي . وهذا يدل على رحمته بالعالمين عَامَّةً ، وأُمَّته خاصَّةً . وهذا هو منهاج التَّبَوُّة الناصع في أبهى صُورِهِ ، حيث الحرص على إنقاذ الناس، كي ينالوا الحياة الهنيئة في الدنيا ، والسعادة الأبدية في الآخرة . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٥) : ((ﷺ لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﷻ عِلَّةٌ لِلْجَعْلِ ، أي لَتَعْلَمُوا بِالتَّأَمُّلِ فيما نَصَبَ لَكُمْ مِنَ الْحُجَجِ ، وأنزلَ عليكم مِنَ الْكِتَابِ ، أَنَّهُ تَعَالَى مَا بَخِلَ عَلَى أَحَدٍ وَمَا ظَلَمَ ، بَلْ أَوْضَحَ السُّبُلَ ، وأرسلَ الرُّسُلَ ، فَبَلَغُوا وَنَصَحُوا ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا حَمَلَهُمُ الشَّقَاءُ عَلَى اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ، والإعراض عن الآيات ، فَتَشْهَدُونَ بِذَلِكَ عَلَى مُعَاَصِرِكُمْ ، وعلى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ أو بعدكم . رُوي : [أَنَّ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجْحَدُونَ تَبْلِيغَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَيُطَالِبُهُمُ اللَّهُ بِبَيِّنَةِ التَّبْلِيغِ _ وهو أعلم بهم _ إقامةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْمُنْكَرِينَ ، فَيُؤْتَى بِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ فَيَشْهَدُونَ ، فتقول الأمم : مِن أينَ عَرَفْتُمْ ؟ ، فيقولون : عَلِمْنَا ذَلِكَ بِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ النَّاطِقِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ ، فَيُؤْتَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيُسْأَلُ عَنْ حَالِ أُمَّتِهِ فَيَشْهَدُ بَعْدَ النَّهْمِ] . وهذه الشهادة وإن كانت لهم ، لكن لَمَّا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالرَّقِيبِ الْمَهِيمِ عَلَى أُمَّتِهِ ، عَدَى بِعَلَى ، وَقُدِّمَتِ الصَّلَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِصَاصِهِمْ بِكَوْنِ الرَّسُولِ شَهِيداً عَلَيْهِمْ)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] (6).

إنَّ الأُمَّةَ المحمَّدية هي خير الناس ، وأعظم الأمم ، وهي أكثر الأمم استجابةً للإسلام . وقد أُخْرِجَتْ لمصلحة الناس ونفعهم وإرشادهم وهدايتهم ، وهذا ليس غرورًا ولا تكبرًا . فالأُمَّة المحمدية حَمَلَت الدعوةَ الإسلامية ، وأخرجت الخلقَ من الظلمات إلى النور ، وذلك بهدايتهم إلى الإسلام .

والمقصودُ بالأُمَّةِ المحمدية الصالحون منها والأتقياء والأولياء وأهل الفضل ، وهم الشهداء على الناس يوم القيامة . وخيريةُ الأُمَّةِ المحمدية وأفضليتها مُقَيَّدة بثلاثة شروط : الشرط الأول _ الأمر بالمعروف : الأمر بتوحيد الله والتصديق بنبوَّة محمد ﷺ والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها . الشرط الثاني _ النهي عن المنكر : النهي عن الشرك بالله وتكذيب النبي ﷺ . الشرط الثالث _ الإيمان بالله : التصديق بالله وعبادته وَحْدَهُ بلا شريك ولا ند . والجدير بالذكر أنَّ الواو في الآية لا تقتضي الترتيب . وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٣٨٩) : ((وأصل المعروف : كُل ما كان معروفًا فِعْلُهُ ، جميلًا مُسْتَحْسَنًا غَيْر مُسْتَقْبَح في أهل الإيمان بالله ، وإنما سُمِّيَتْ طاعة الله معروفًا ، لأنه مِمَّا يَعْرِفُهُ أَهْلُ الإِيمَانِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ فِعْلَهُ . وأصل المنكر : ما أنكره الله ، ورأوه قبيحًا فِعْلُهُ ، ولذلك سُمِّيَتْ معصية الله مُنْكَرًا ، لأن أهل الإيمان بالله يَسْتَكْبِرُونَ فِعْلَهَا ، وَيَسْتَظْمُونَ رُكُوبَهَا)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٧٨) : ((﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ يَتَضَمَّنُ الإِيمَانُ بِكُل ما يجب أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ ، لأن الإِيمَانُ بِهِ إِنَّمَا يَحِقُّ وَيُعْتَدُ بِهِ إِذَا حَصَلَ الإِيمَانُ بِكُل ما أَمَرَ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ ، وإنما أَخْرَجَهُ وَحَقَّهُ أَنْ يُقَدَّمَ ، لأنه قَصْدُ بَذْكُرِهِ الدلالة على أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِهِ ، وإِظْهَارًا لِدِينِهِ . واستدل بهذه الآية على أَنَّ الإِجْمَاعَ حُجَّةٌ ، لأنها تقتضي كَوْنَهُمْ آمِرِينَ بِكُل معروف ، وَنَاهِينَ عَنِ كُل مُنْكَرٍ ، إِذُ اللَّامُ فِيهِمَا _ يَعْنِي الْمَعْرُوفَ وَالْمُنْكَرَ _ لِلإِسْتِغْرَاقِ ، فَلَوْ أَجْمَعُوا عَلَى بَاطِلٍ كَانَ أَمْرُهُمْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ)) اهـ .

(٦) قال ابن عبد البر في الاستيعاب (١ / ٤) : ((وقال بعض أهل العلم : ﴿ كُنْتُمْ ﴾ بمعنى أنتم ، والكاف صلة . وقال آخرون : كنتم في اللوح المحفوظ ، وهو الذكر ، وأم الكتاب)) اهـ .

كانت الأمة المحمدية أعظم أمة عند الله في اللوح المحفوظ ، أخرجها الله للناس لهدايتهم وإرشادهم ، ولا يوجد أمة أفضل منها ، وقد مدحها الله تعالى ، لأنها تتحلى بالصفات الثلاث : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله . وهذا المدح الإلهي تشريف للأمة المحمدية ، وتثبيت لها على منهج الحق ، ورفع لمعنوياتها في سبيل نشر الدعوة الإسلامية . و﴿ كنتم ﴾ تشير إلى تحقق الشيء في الزمن الماضي ، ولا تنفي تحققه في الحاضر أو المستقبل . كما في قول الله تعالى :

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . فالله كان عليمًا حكيماً، وما زال عليمًا حكيماً، ويبقى عليمًا حكيماً .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قرأ عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، ثم قال : يا أيها الناس مَنْ سَرَّه أن يكون من تلك الأمة ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ مِنْهَا^(٧) . إن أفضلية الأمة المحمدية مُقَيَّدة بتحقيق الشروط الإلهية ، فهي لا تملك صُكوك غفران حتى تنام وتنتظر دخول الجنة . بل عليها العمل بالعلم ، والمشاركة في تحقيق المراتب الإلهية ، حتى تنال شرف الصدارة بين الأمم ، والرفعة في الدارين . وإذا لم تُحقق شروط الرفعة فلا بد أن تلاقى نفس مصير الأمم الغابرة التي ذهبت إلى الهاوية مع خزي الدنيا والآخرة .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٦٠) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، قال : خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ . تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام . والمعنى : تأتون بهم أسرى مُقَيَّدِينَ ، فَيَعْرِفُوا الإسلامَ ، ويعتقوه طَوْعًا ، فيكون أسركم لهم سبب إسلامهم ، وثباتهم عليه ، وهكذا يحصلون على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة الأبدية .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ١٤٥) : ((قال ابن الجوزي : معناه أنهم أُسِرُوا وقُبِدُوا ، فلمَّا عَرَفُوا صِحَّةَ الإسلامِ دَخَلُوا طَوْعًا فدخلوا الجنة ، فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول ، وكأنه أطلق على الإكراه التسلسل ، ولمَّا كان هو السَّبَب في دخول الجنة ، أقام المُسَبَّب مقام السَّبَب)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٤٠) : ((في قوله تعالى : ﴿ تأمروا بالمعروف وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ قولان : أحدهما أنه شَرَط في الخَيْرِية ، وهذا المعنى مروى عن عُمر ابن الخطاب ومجاهد والزجاج . والثاني أنه ثناء من الله عليهم ، قاله الربيع بن أنس . قال أبو العالية : والمعروف التَّوْحِيد ، والمُنْكَر الشُّرْك)) اهـ .

(٧) تفسير الطبري (٣/ ٣٨٩) . وانظر تفسير ابن كثير (١/ ٥١٩) ، والعُجَاب في بيان الأسباب (٢ / ٧٣٤) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قوله _ عز وجل _ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، قال : ((هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة))⁽⁸⁾ . وعن بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده : أنه سمع النبي ﷺ في قول الله _ عز وجل _ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، قال : ((أنتم تبتلون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله _ عز وجل _))⁽⁹⁾ .

إن الأمة المحمدية لها مكانة خاصة بين الأمم ، باعتبارها الأمة الحاملة لميراث الأنبياء كلهم _ عليهم الصلاة والسلام _ . لذلك كانت الشريعة المحمدية ناسخة وخاتمة . وبالتالي فإن الأمة المحمدية هي التي ستضطلع بمسؤولية المحافظة على الشريعة الإلهية حتى يوم القيامة . وهذا تشريف عظيم ، وتكليف عالي الشأن . وبدون هذه الأمة فإن نور الله تعالى سيختفي على الأرض ، وتلاشى الشريعة السماوية ، ولن يُعبد الله تعالى في الأرض . ومن هنا تنبع أهمية هذه الأمة الخاتمة الحاملة لمسؤولية الأمانة السماوية إلى قيام الساعة . إنها الأمة الوحيدة التي تعبد الله وحده بلا شريك ، وتؤمن بالأنبياء كلهم بلا استثناء . وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٨٣) أن النبي ﷺ قال يوم بدر : ((اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، لا تبعث في الأرض)) .

قال الحافظ في الفتح (٧ / ٢٨٩) : ((وإنما قال ذلك لأنه علم أنه خاتم النبيين ، فلو هلك هو ومن معه حينئذ ، لم يُبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان ، ولا يمتد المشركون يعبدون غير الله ، فالمعنى لا يُعبد في الأرض بهذه الشريعة)) اهـ .

والأمة المحمدية الإسلامية هي الوحيدة التي تعبد الله وحده . واليهود والنصارى يعبدون الشيطان والهوى ضمن غلاف ديني منسوب زوراً _ إلى الذات الإلهية المقدسة . فلو هلكت الأمة المحمدية ، فهذا يعني أن كوكب الأرض سيخلو من الإسلام الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، وعندئذ تفقد المفاهيم الشرعية معناها ، وتغيب الشريعة السماوية عن الأرض ، وتفقد

(٨) رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٢٣) برقم (٣١٦٠) وصححه ، ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٢٢٥) : ((وعن أبي بن كعب قال : [لم تكن أمة أكثر استحابة في الإسلام من هذه الأمة] . أخرجه الطبري بإسناد حسن عنه . وهذا كله يقتضي حملها _ أي حمل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ _ على عموم الأمة ، وبه جزم الفراء ... وقال غَيْرُهُ : المراد بقوله : ﴿ كنتم ﴾ في اللوح المحفوظ ، أو في علم الله تعالى ، ورجح الطبري أيضاً حمل الآية على عموم الأمة)) اهـ .

(٩) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٩٤) برقم (٦٩٨٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

ماهية الخلافة وإعمار الأرض معناها، ويصبح العالمُ بالكاملُ مُسَيَّطَرًا عليه من قِبَل الشيطان، ولا مكان فيه لِتَوْحِيدِ اللَّهِ تعالى . وهذا مُحالٌ نقلاً وعقلاً . وفي مسند أحمد (٩٨ / ١) : عن عليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((وَجُعِلَتْ أُمْتِي خَيْرَ الْأُمَمِ))^(١٠).

وهذا كُلُّهُ يَصُبُّ في مسار تفضيل الأمة المحمّدية على باقي الأمم بفعل إنجازاتها الدعوية المهمة ، وأدائها الثابت في تطبيق الشريعة الإلهية كاملةً غير منقوصة ، والمحافظة على المنهج الإسلاميّ الوسطي بدون إفراط أو تفريط ، والموازنة الدقيقة بين حاجات الروح وغرائز الجسد ، والتأسيس المنهجي العلمي لمجتمع العدالة والفضيلة والأخوة .

وقال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] . الاستفهام للتوبيخ والتّقرير . كيفَ يكون حال هؤلاء يوم القيامة ، وكيفَ يصنعون حين نأتي من كُلِّ أُمَّةٍ نَبِيَّهَا يَشْهَدُ عَلَيْهَا ، ونأتي بِكَ يا محمد شاهداً تشهد على أُمَّتِكَ والأُمَمِ السابقة ؟ . كيفَ يكون موقفهم ؟ ، وماذا سَيَفْعَلُونَ في ذلك اليوم العظيم ؟ . هل هُمْ مُعَذَّبُونَ أَمْ مُنْعَمُونَ ؟ . والآية تُشير إلى عَظَمَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وهَوْلِ الموقِفِ، فالمصيرُ إمّا الخلود في الجنة أو الخلود في النار.

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٦٦١) : ((يقول تعالى مُخْبِرًا عن هَوْلِ يومِ الْقِيَامَةِ ، وَشِدَّةِ أَمْرِه وشأنه ، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ؟ ، يعني : الأنبياء عليهم السلام)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٨٦) : ((والشَّهِيدُ نَبِيُّ الْأُمَّةِ ، وبماذا يَشْهَدُ ؟ ، فيه أربعة أقوال : أحدها بأنه قد بَلَغَ أُمَّتَهُ ، قاله ابن مسعود وابن جُرَيْج والسُّدِّي ومقاتل . والثاني بإيمانهم ، قاله أبو العالية . والثالث بأعمالهم ، قاله مجاهد وقتادة . والرابع يَشْهَدُ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ ، قاله الزَّجَّاج . قَوْلُهُ تعالى: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يعني نَبِيَّنَا ﷺ ، وفي ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنهم جميع أُمَّتُهُ ، ثُمَّ فِيهِ قَوْلَانِ : أحدهما أنه يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ ، والثاني يَشْهَدُ لَهُمْ ، فتكون ﴿ عَلَى ﴾ بمعنى اللام، والقول الثاني أنهم الكفار يشهد عليهم بتبليغ الرسالة، قاله مقاتل . والثالث اليهود والنصارى . ذَكَرَهُ الماوردي)) اهـ .

وهذه الشهادات النبوية إنما هي لإقامة الحُجَّةِ على الأمم ، لأن الله تعالى لم يخلق البشر ليظلمهم، فقد أعطاهم الفرصة تلو الأخرى لكي يُصَحِّحُوا مسارَهم. ولو أدخل الله الكافرين في

(١٠) حسَّنه الحافظ في الفتح (٨ / ٢٢٥) .

جهنم مباشرة دون حساب أو إقامة حُجَّة ، أو دُون إعطائهم فرصة لإبداء وجهة نظرهم ، لَمَّا استطاع أحد أن يعترض . لَكِنَّه تعالى _ بفضلٍ مِنْه ورحمة_ منح البشر حرية الاختيار بين الإسلام أو الكفر، وحق تقرير مسارهم الديني ، ومصيرهم الأخروي ، بكل حرية ودون إجبار ، لكي يكون الفرد مسؤولاً عن أعماله أمام الله تعالى وأمام نَفْسِه . والذي زرعه الإنسان قد حصده . وهذا نتاج حرية الإرادة الإنسانية التي تملك حق اختيار الطريق ، وتحديد طريقة المشي فيه من حيث الاستقامة أو الاعوجاج . وبالتالي فالإنسان عليه أن يتحمل المسؤولية كاملةً ، وألا يخترع الأعذار الواهية التي يضحك بها على نَفْسِه ، أو يُعلّق أخطائه على شَماعة الآخرين . فإن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى ، وإن وجد غير ذلك فلا يُلَوِّمَنَّ إِلَّا نَفْسَه . وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال: قال رسول الله ﷺ: ((أَقْرَأْ عَلَيَّ)). قال: قلتُ : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟، قال: ((إني أشتهي أن أسمع من غيري)). قال: فقرأتُ النساءَ حتى إذا بلغتُ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ . قال لي : ((كُفْ _ أو أَمْسِكْ _)). فرأيتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَان (11).

في هذا الحديث دلالة واضحة تشير إلى حرص النبي ﷺ على أن يسمع القرآن من غيره ، لِمَا في ذلك من تأكيد انتشار القرآن في أوساط المؤمنين ، وإتقان تلاوته ، ممَّا ينعكس إيجاباً على المجتمع المسلم داخلياً وخارجياً. فالإيمان يزداد ، ويتكسر اليقين في القلوب، وينعكس ذلك الإيمان على الجوارح سلوكاً طيباً، وصورةً ظاهرية حسنة مستندة إلى عمق إيماني داخلي حقيقي. فتنتج حياة حضارية مُتَقَدِّمة على كافة الأصعدة . وقد ظهر تأثير القرآن واضحاً على النبي ﷺ ، حيث ذرفت عَيْنَاه دُمُوعاً تدل على عُمق تأملِه في الآية التي سمعها، وفهمه لأبعادها والظروف المحيطة بها . وما الدموع إلا انعكاس لتأثر القلب وحرارته ، وحساسيته العالية تجاه الأحداث .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ١٩٠) : ((قال علماؤنا : بكاء النبي ﷺ إنما كان لعظيم ما تَصَمَّنَتْهُ هذه الآية من هَوَلِ المَطْلَعِ وشِدَّةِ الأمر ، إذ يُؤْتَى بالأنبياء شهداء على أَمَمِهِم بالتصديق والتكذيب ، ويُؤْتَى به ﷺ يوم القيامة شهيداً . والإشارة بقوله : ﴿على هؤلاء﴾ إلى كفار قُرَيْشٍ وغيرهم من الكفار ، وإنما خُصَّ كُفَار قُرَيْشٍ بالذكر ، لأن وظيفة العذاب أشدُّ عليهم منها على غيرهم ، لعنادهم عند رؤية المُعْجَزَات ، وما أظهره الله على يديه من خوارق العادات . والمعنى فكيف يكون حال هؤلاء الكفار يوم القيامة)) اهـ .

(١١) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٤/ ١٩٢٧) برقم (٤٧٦٨). ومسلم (١/ ٥٥١) برقم (٨٠٠) .

وإذا لم يَبْكِ الإنسان حين يتأمل ويتفكر في آيات الله تعالى، فمتى سيكي ؟ . فالقلب القاسي الذي لا يتأثر بكلام الله سوف تمر الآيات عليه سريعاً، بلا تدبُّر ولا فهم لدلالات الآيات . فالبكاء يغسل القلب ، ويُطهره من الشوائب العالقة فيه . وعن ابن أبي مُليكة قال: جلسنا إلى عبد الله ابن عمرو في الحجر ، فقال : ((ابْكُوا ، فإن لم تجدوا بُكاءً ، فَتَبَاكَوْا))⁽¹²⁾.

لقد كان النبي ﷺ شديد التأثير عند سماعه القرآن ، وذلك لِعلمه بِعظمة كلام الله وأهميته ، وأنَّ أمر القرآن لا يَحتمل المزاح أو المرور العابر بلا تفكير . لذلك فبكاء النبي ﷺ من خشية الله تعالى _ وهو المغفور له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر _ منهجٌ واضح وثابت في سيرته العطرة التي انعكست على سلوك أصحابه والتابعين .

وعن محمد بن فضالة الطُّفري _ رضي الله عنه _ أنَّ رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في مسجد بني ظفر اليوم ، ومعه عبد الله بن مسعود ، ومُعاذ بن جبل ، وأناس من أصحابه ، فأمر رسول الله ﷺ قارئاً ، فقرأ حتى أتى على هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياءه ، فقال : ((أي ربِّ ، شهدت على من أنا بين ظهرانيه ، فكيف بمن لم أر ؟))⁽¹³⁾.

كان النبي ﷺ حريصاً على نشر قراءة القرآن في المجتمع ، فأمر قارئاً أن يقرأ ، حتى وصل إلى هذه الآية، فتأثر النبي ﷺ بِشدة لأنَّه يَعْرِف معنى الآية ودلالاتها . وهذا يدل على أهمية فهم الآيات، وليس مُجرد القراءة . وبكى النبي ﷺ بِخرقة حتى اضطرب العظمان اللذان فيهما الأسنان. وهذا يدل على التأثر العميق ومعرفة أبعاد هذه الآية يوم القيامة. حيث يشهد النبي ﷺ على أُمَّته بعملهم، وعملهم قد يكون مُنحرفاً ، وفيهم الفساق والغارقون في الكبائر والآثام ، وشهادة النبي ﷺ عليهم قد تُؤدِّي إلى تعذيبهم، لذلك رَحِمَهُم النبي ﷺ. والنبي ﷺ يقول الحق، ولا يَقْدِر أن يتلاعب بالشهادة.

قال الحافظ في الفتح (٩ / ٩٩) : ((قال ابن بطلال : إنما بكى ﷺ عند تلاوته هذه الآية لأنه مثلَ لِنَفْسِهِ أهوالَ يوم القيامة، وشِدَّة الحال الداعية له إلى شهادته لأُمَّته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له طول البكاء . اهـ. والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأُمَّته ،

(١٢) رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٦٢٢) برقم (٨٧٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٣) رواه الطبراني (١٩ / ٢٤٣) برقم (٥٤٦) . وحسنه السيوطي في الدر المنثور (٢ / ٥٤١) .

لأنه عِلْمٌ أنه لا بُدَّ أن يَشْهَدَ عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيماً ، فقد يفضي إلى تعذيبهم ، والله أعلم)) اهـ .

وبكاءُ النبي ﷺ يدل على سَعَةِ عِلْمِهِ بأحوال الدنيا والآخرة ، وقلبه العَطُوفُ المُشْفِقُ . وهذه النظرة النبوية الأبوية الحانية تشير إلى عُمق المعاني الإنسانية في الشخصية النبوية المضادة للأنانية ، والمنطلقة نحو مساعدة الآخرين في تنفيذ مشروع خلاصهم وتخليصهم في الدنيا والآخرة . وهذا الارتباط الوثيق بين النبي القائد الأب وبين أُمَّتِهِ يُشِيعُ جَوْ الاطمئنان في أوساط الجماعة المسلمة التي تزداد ثَقَّةً بِرَبِّهَا وَنَبِيِّهَا وَنَفْسِهَا ، في ظِلِّ وجود مرجعية نبوية مُتَّصِلَةٌ بالسماة . وكل هذه المؤشرات تعكس مدى الترابط الأسري في المجتمع الإيماني الساعي لبناء حضارة إنسانية سامية بُغِيَّةُ إعمار الأرض. وأيضاً لكي ينال المؤمنون السعادة الأبدية في الآخرة مُكَافَأَةً على إنجازاتهم الطيبة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١] (14) .
ومن بعض الأمم التي خَلَقْنَا أُمَّةً لِلْجَنَّةِ ، قائمة بالحق ، ومُتَمَسِّكَةٌ بشرع الله قولاً وفعلاً ، يَهْتَدُونَ بالحق ، وَيَهْدُونَ النَّاسَ إلى الحق والخير والطريق المستقيم ، وبالْحَقِّ يَقْضُونَ وَيَحْكُمُونَ . وهذه الأُمَّة هي أهل الإيمان والتقوى والهداية. وظاهر الآية أنها شاملة لكل المؤمنين في كُلِّ زمان ومكان .

وفي الآية دليلٌ على أَنَّ إجماع كُلِّ عصر حُجَّةٌ ، وأنَّ هذه الأُمَّة لا تَجْتَمِعُ على باطل ، وهي مَعْصُومَةٌ عِصْمَةٌ عَامَّةٌ . والمقصود بالآية الأُمَّة المحمدية. فهذه الأُمَّة هي أفضل الأمم وأعظمها ،

(١٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٩٤/٣): ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي يَعْمَلُونَ بِهِ ﴿ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ ، أَي : وبالعَمَلِ بِهِ يَعْدِلُونَ . وفيَمَنْ أُريدَ بهذه الآية أربعة أقوال : أحدها أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان مِنْ هذه الأُمَّة ، قاله ابن عباس. وكان ابن جُرَيْج يقول : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " هَذِهِ أُمَّتِي بِالْحَقِّ يَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ وَيَقْضُونَ " . وقال قتادة : بَلَّغْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ : " هَذِهِ لَكُمْ وَقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ مِثْلَهَا " ثُمَّ يَقْرَأُ : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] . والثاني أنهم من جميع الخَلْق ، قاله ابن السائب. والثالث أنهم الأنبياء. والرابع أنهم العلماء ، ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ الماوردي)) .

وهي أُمَّة مَهْدِيَّة ومُهْتَدِيَّة في نَفْسِهَا، لِأَنَّهُ تَهْدِي النَّاسَ وَتُرْشِدُهُمْ. وَلَوْ كَانَتْ غَيْرَ مُهْتَدِيَّة لَعَجَزَتْ عَنْ هِدَايَةِ النَّاسِ ، لِأَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ . وَالضَّلَالُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى الْهَدَايَةِ .
وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ، قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ))^(١٥).

الْأَمْرُ غَيْرُ مُحْصُورٍ فِي عَصْرِ الصُّبْحَةِ أَوْ عَصْرِ النَّاهِيَةِ. ففِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هُنَاكَ طَائِفَةٌ (جَمَاعَةٌ) تَتِمَّتْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ الْقِيَامُ بِشَرَعِ اللَّهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِ . وَلَا يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِجْمَاعِ .

وَالْإِسْلَامُ لَا يَنْكَسِرُ وَلَا يَنْهَارُ ، مَهْمَا اشْتَدَّتِ الْخُطُوبُ وَالْأَزْمَاتُ . وَمَهْمَا كَثُرَ الْفَاسِقُونَ وَالْمُنْحَرِفُونَ ، فَهَذِهِ حَالَةٌ نَادِرَةٌ ، لَا عِبْرَةَ بِهَا ، وَالنَّادِرُ لَا حُكْمَ لَهُ . وَالْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ ، وَهُوَ مُتَنَصِّرٌ لَا مُحَالَةٌ لِأَنَّهُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ . وَالْبَاطِلُ مَهْمَا عَلَا صَوْتُهُ ، لَا يَغْلِبُ الْحَقَّ ، لِأَنَّ عَوَامِلَ ضَعْفِ الْبَاطِلِ كَامِنَةٌ فِيهِ، وَهُوَ يُدْمِرُ ذَاتَهُ بِذَاتِهِ . وَذَوْلَةُ الْبَاطِلِ سَاعَةٌ ، وَذَوْلَةُ الْحَقِّ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. وَالحديثُ يَحْمِلُ بَشَارَةً أَنَّ الْإِسْلَامَ يَزْدَادُ رِفْعَةً وَشَرْقًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَهْمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ ضَعْفَاءَ. وَالْمَقْصُودُ بِـ " أَمْرُ اللَّهِ " الرِّيحُ ، الَّتِي تَأْتِي فَتَأْخُذُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . وَقِيلَ : قِيَامُ السَّاعَةِ.

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٣ / ٦٧): ((وَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَةُ، فَقَالَ الْبُخَارِيُّ: هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ . قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ : إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَدُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ. قُلْتُ (النَّوَوِيُّ) : وَيَحْتَمِلُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ مُفَرِّقَةٌ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْهُمْ شُجْعَانٌ مُقَاتِلُونَ ، وَمِنْهُمْ فَقَهَاءٌ ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ ، وَمِنْهُمْ زُهَّادٌ ، وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنَ الْخَيْرِ ، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ ، بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْوَصْفَ مَا زَالَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْآنَ ، وَلَا يَزَالُ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ لِكَوْنِ الْإِجْمَاعِ حُجَّةً ، وَهُوَ أَصَحُّ مَا اسْتُدِّلَ بِهِ لَهُ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَأَمَّا حَدِيثُ : " لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ " فَضَعِيفٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) اهـ .

(١٥) متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٣١) برقم (٣٤٤٢) ، ومسلم (٣ / ١٥٢٤) برقم (١٠٣٧) .

وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [التخل : ٨٤] .

هذا إخبارٌ من الله تعالى عن حال المشركين يوم القيامة . فالله يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها يشهد لهم بالإيمان والتّصديق ، أو يشهد عليهم بالكفر والتكذيب . ثمّ لا يؤذّن ولا يُسمح للكافرين بالأسف والاعتذار ، لأنهم يعلمون أنّ أعدارهم كاذبة ، وخجّتهم داحضة . فقد أقيمت الحجّة عليهم ، وانقطع عُذرهم . ولو كانوا صادقين لأعطاهم الله الفرصة في الكلام ، وتقديم أعدارهم ، وقيلها منهم . ولكنّ الله لم يأذن لهم بتقديم الأعذار ، وهذا دليلٌ على أنهم كاذبون ، ولا حجة لهم ولا عُذر . والله لم يظلمهم ، ولكنهم ظلّموا أنفسهم باختيارهم الكفر على الإيمان . ولا أحد يطلب منهم العُتْبَى ، أي الرّجوع إلى ما يُرضي الله تعالى ، لأنّ الآخرة ليست دار تكليف . إنها دار جزاء لا دار عمل .

وقال البغوي في تفسيره (٣٧ / ١): ﴿ولا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُسْتَرْضَوْنَ . يعني : لا يُكَلَّفُونَ أن يُرْضُوا ربّهم ، لأنّ الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون . وحقيقة المعنى في الاستعتاب أنّه التعرض لطلب الرضا ، وهذا الباب مُنْسَد في الآخرة على الكفار)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (٤١٥ / ١) : ((و﴿ثُمَّ﴾ لزيادة ما يحقّ بهم من شدّة المنع عن الاعتذار ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِقْنَاتِ الْكُلِّيِّ عَلَى مَا يُمْتَنُونَ بِهِ مِنْ شَهَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _)) . وقال الله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج : ٧٨] .

جاهدوا المشركين في سبيل الله حَقَّ جهاده ، وذلك بنية إعلاء كلمة الله ، وإقامة دينه . و﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ لا تتحقّق إلا بنية صادقة . ولا تأخذكم في الحق لومة لائم ، وجاهدوا أهواءكم وشهواتكم ووساوس الشيطان . وينبغي أن يجتمع القلب والنفس لفعل الطاعات ، وقتال أعداء الله ، ومُحاربة أهواء النفس وشهواتها . وفي تفسير القرطبي (٩١ / ١٢) : ((قيل: غنيّ به جهاد الكفار . وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به ، والانتهاز عن كلّ ما نهى الله عنه ، أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله ، وردّوها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في ردّ وسوسته ، والظلمة في ردّ ظلمهم ، والكافرين في ردّ كفرهم)) اهـ . و﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ تشير إلى المُبالغة ، وبذل الوسع في الجهاد

واستفراغ الطاقة فيه. والمعنى : جهادًا خالصًا لله تعالى ، لا شائبة فيه ولا نقص ولا رياء ولا سُمعة

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٤٢) : ((حَقَّ جِهَادِهِ)) أي : جهادًا فيه حقًا خالصًا لوجهه ، فَعَكَسَ . وَأُضِيفَ الحق إلى الجهاد مُبَالَغَةً كَقَوْلِكَ : هو حقُّ عالم ، وأُضِيفَ الجهاد إلى الضمير اتِّسَاعًا ، أو لَأَنَّهُ مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالى ، ومن أجله)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٥٥ و ٤٥٦) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ ﴾ . في هذا الجهاد ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّهُ فعل جميع الطاعات ، هذا قول الأكثرين ، والثاني أَنَّهُ جهاد الكفار ، قاله الضحاك . والثالث أَنَّهُ جهاد النَّفْس والهوى ، قاله عبد الله بن المبارك . فأَمَّا حق الجهاد ففيه ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّهُ الجِد في المُجَاهِدَة واستيفاء الإمكان فيها ، والثاني أَنَّهُ إخلاص النِّية لله _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، والثالث أَنَّهُ فعل ما فيه وفاء لحق الله _ عَزَّ وَجَلَّ _)) اهـ . وفي صحيح ابن حبان (١١ / ٢٠٣) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ)) .

وفي الحديث : ((رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ))^(١٦) . الجهاد الأصغر هو قتال الأعداء في المعركة ، والجهاد الأكبر هو مُجَاهِدَة النَّفْس والهوى . والجهاد الأصغر يشتمل على قتل الأعداء بالسَّيْف ، والجهاد الأكبر هو قتل النَّفْس بِغَيْرِ سَيْف . وقال المُنَاوِي في فَيْض الْقَدِير (٤ / ٥١١) : ((لِأَنَّ قِتَالَ الْكُفَّارِ فَرَضَ كِفَايَةً ، وَجِهَادُ النَّفْسِ فَرَضَ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ)) .

﴿ هُوَ اجْتِبَاكُمْ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَكُمْ لِحَمْلِ دِينِهِ وَنَشَرِهِ وَنُصْرَتِهِ وَقِتَالَ أَعْدَائِهِ . وبما أَنَّ اللَّهَ قد اختاركم ، وَجَبَ عَلَيْكُمْ نَشْرُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وهذا تَكْلِيفٌ شَدِيدٌ وَتَشْرِيفٌ عَظِيمٌ فِي آنٍ مَعًا . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣١٧) : ((أَي : يَا هَذِهِ الْأُمَّةُ ، اللَّهُ اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَفَضَّلَكُمْ وَشَرَّفَكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَمِ رُسُلٍ وَأَكْمَلَ شَرْعٍ)) . ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ تعالى اخْتَارَ الْعَرَبَ لِحَمْلِ رَايَةِ الْإِسْلَامِ ، وَاصْطَفَاهُمْ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وفي هذا تَفْضِيلٌ لَهُمْ عَلَى

(١٦) قال العراقي في تخریج الإحياء (٣ / ٢) : ((أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الرَّهْدِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ ، وَقَالَ : هَذَا إِسْنَادٌ فِيهِ ضَعْفٌ)) .

باقي الأمم ، وإعلاء لشأنهم وشرفهم ، فقد خَصَّهم بأعظم رسول ، مُحَمَّد ﷺ ، وبأعظم شريعة .
وبما أنَّ في التكليف مشقةً على النَّفْس ، وَضَحَ اللهُ تعالى أنه ما جَعَلَ عليهم ضيقًا أو شِدَّةً ، لَقَدْ وَسَّعَ اللهُ الشَّرِيعَةَ المَحْمَدِيَّةَ الإسلامية كَمِلَّةً أبيهم إبراهيم ﷺ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٥٦) : ((فَإِنْ قِيلَ : هذا الخطاب للمسلمين وليس إبراهيم أبا لِكُلِّهِمْ . فالجواب أنه إن كان خِطَابًا عامًا للمسلمين ، فهو كالأب لهم لأن حُرْمَتَهُ وَحَقَّهُ عليهم كحق الوالد . وإن كان خِطَابًا للعرب خاصَّةً ، فإبراهيم أبو العرب قاطبةً ، هذا قول المفسِّرين . والذي يقع لي أن الخطاب لرسول الله ﷺ ، لأن إبراهيم أبوه ، وأُمَّة رسول الله ﷺ داخلة فيما خُوطِبَ به رسول الله)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٩ / ١٩١) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، نَصَبُ ﴿ مِلَّةَ ﴾ بمعنى : وما جَعَلَ عليكم في الدِّين من حرج ، بل وَسَّعَهُ كَمِلَّةَ أَبِيكُمْ ، فَلَمَّا لَمْ يجعل فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قَبْلُهَا ، فَتَنَصَّبَتْ . وقد يُحْتَمَلُ نَصَبُهَا أن تكون على وجه الأمر بها ، لأن الكلام قَبْلَهُ أمر ، فكان قِيلَ : اركعوا واسجدوا والزَمُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم)) اهـ . والشريعة المَحْمَدِيَّةُ الإسلامية جاءت لرفع الحرج لا إحراج الناس ، وَلَمْ تَجِئْ لتعذيبهم والقضاء عليهم . والله تعالى لَمْ يُكَلِّفْهُمْ إِلَّا بِمَا يُطِيقُونَ ، وَلَمْ يُلْزِمْهُمْ بعبادات تعجزية ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بأوامر صعبة ومُهْلِكَة . إذن ، لا ضيق ولا تعقيد في الدِّين الإسلامي ، فالمسلم لا يمكن أن يصل إلى طريق مسدود ، إذ إن الشريعة الإسلامية أوجدَتْ له مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ أزمَة . فَالتَّوْبَةُ مَخْرَجٌ مِنْ بعض الذنوب ، والكَفَّارَةُ مَخْرَجٌ مِنْ بعض ، والقِصَاصُ مِنْ بعض . إذن ، ما مِنْ شيء يقع فيه المسلم إِلَّا وله حل شرعي وَمَخْرَجٌ ، كالتَّوْبَةُ ، أو الكَفَّارَةُ ، أو القِصَاصُ ، أو الرُّخْصَة . وإن الأمر كُلُّما ضاق اتَّسَعَ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣١٧) : ((فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، بعد الشهادتين ، تجب في الحضر أربعا ، وفي السَّفَرِ تُقْصَرُ إلى اثنتين ، وفي الخوف يُصَلِّيُهَا بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث ، وتُصَلَّى رَجَالًا وَرِجَالًا ، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وغير مُسْتَقْبِلِيهَا ، وكذا في النافلة في السَّفَرِ إلى الْقِبْلَةِ وَغَيْرِهَا ، والقيام فيها يَسْقُطُ لِعُذْرِ الْمَرَضِ ، فَيُصَلِّيُهَا الْمَرِيضُ جَالِسًا ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فعلى جَنْبِهِ ، إلى غير ذلك من الرُّخْصِ والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات)) اهـ . والنبي ﷺ بُعِثَ بالحنيفية السَّمْحَةِ ، وهي الشريعة المائلة عن كُلِّ دين باطل ، فهي حنيفية في التوحيد ، سَمْحَة في العمل . وفي الحديث : ((بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ))^(١٧) . وفي صحيح البخاري (١ / ٢٣) :

(١٧) رواه أحمد في مسنده (٥ / ٢٦٦) ، والطبراني (٨ / ٢٢٢) . والحديث صحيح ، لكنَّ سنده ضعيف .

عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ)) . وقد أوصى النبي ﷺ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى حين بعثهما إلى اليمن قائلاً : ((يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا ، وَيَسْرًا وَلَا تُنْفِرَا ، وَتَطَوَّعًا وَلَا تَخْتَلِفَا)) [متفق عليه . البخاري (٣ / ١١٠٤) ومسلم (٣ / ١٣٥٩)] . ونشر المعاني الطيبة الهادئة في النفوس بأسلوب ناعم وسلس من شأنه أن يلين قلوب الناس ، ويعمل على استقطابهم إلى الإيمان بالله تعالى ، لأن النفوس مجبولة على حُب من أحسن إليها ، وقدم لها المساعدة بأسلوب طيب . وكما قال الشاعر : أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان . إن الإحسان إلى الناس يجعل المرء يسيطر على قلوبهم ، فتتقاد جوارحهم إليه وتخضع له ، وتسمع لكلامه ، وكأنها تحت تأثير السحر . فالكلمة الطيبة لها وقع عميق في النفوس . وقال الطبري في تفسيره (٩ / ١٩١) : ((عن قتادة قال : أُعْطِيَتْ هذه الأمة ما لم يُعْطَهُ إلا نبي . كان يُقال للنبي : اذهب فليس عليك حرج . وقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . وكان يُقال للنبي : أنت شهيد على قومك ، وقال الله : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وكان يُقال للنبي : سل تعطه ، وقال الله : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .)) .

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ . إن الله سمّاكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي هذا القرآن . يعني أن الله شرفهم ونوّه بذكرهم في كتبه كلّها . ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ . لقد اختار الله المسلمين وسمّاهم ليكون الرسول محمد ﷺ شهيداً على أمته بتبليغه إيّاهم ، وتكون الأمة المحمدية شاهدة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم . لقد جعل الله الأمة المحمدية وسطاً مشهوداً لهم بالخير والعدالة ، وجميع الأمم معترفة بفضل الأمة المحمدية وعظمتها ومنزلتها الرفيعة ، لذلك تُقبل شهادة الأمة المحمدية على الأمم يوم القيامة ، بأن الأنبياء قد بلغوا الوحي الإلهي ، والرسول محمد ﷺ يشهد على أمته بأنه بلغها . وشهادة الرسول محمد ﷺ لنفسه مقبولة ، لأنه صادق وأمين ومعصوم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٥٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فِي الْمُشَارِ إِلَيْهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْجُمْهُورُ ، فَعَلَى هَذَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قَوْلَانِ :

قال الهيثمي في المجمع (٥ / ٥٠٨) : ((رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألحاني وهو ضعيف)) اهـ . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤ / ٦٦) : ((أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف)) .

أحدهما من قَبْلِ إنزال القرآن سَمَّاكم بهذا في الكُتُب التي أنزلها. والثاني من قَبْل ، أي في أم الكتاب. وقَوْلُهُ : ﴿ وفي هذا ﴾ أي في القرآن. والثاني أنه إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ ﴾ [البقرة : ١٢٨] . فالمعنى من قَبْلِ هذا الوقت ، وذلك في زمان إبراهيم عليه السلام ، وفي هذا الوقت حين قال : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ ﴾ . هذا قول ابن زيد ((اهـ .
وفي صحيح ابن حبان (١٤ / ١٢٤) أن النبي ﷺ قال : ((فادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكم المسلمين المؤمنين ، عِبَادَ اللَّهِ)) .

ينبغي ترك صفات الجاهلية القائمة على العنصرية والقبليّة والتمييز العرقي ، والالتزام بالإسلام قَوْلًا وَفِعْلًا . فالله قد سَمَّانا المسلمين المؤمنين ، فينبغي الاعتزاز بهذه التسمية ، والقيام بأداء حقّها على أحسن وجه . وذلك بالتحلي بالأخلاق الإسلامية ، ونشر الدَّعوة ، ورفض الصفات القبيحة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص : ٢٥] (١٨) .

وأخَصَرْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا مِنْهَا ، وهو نَبِيُّهَا الَّذِي يَشْهَدُ أَنَّهُ بَلَغَ رِسَالَةَ اللَّهِ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا . وأنبياء الأمم شُهَدَاءُ عَلَيْهَا ، يَشْهَدُونَ بِمَا كَانَتْ أُمَمُهُمْ عَلَيْهِ . فَقُلْنَا : هَاتُوا حُجَّتَكُمْ ودليكم على إشراككم بالله وتكذيب الرُّسُل . وهذا توبيخٌ وتعجيز لهم . فَعَلِمُوا أَنَّ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَلِرُسُلِهِ ، وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لِذَلِكَ لَمْ يَنْطَقُوا وَلَمْ يَقْدَمُوا جَوَابًا . لقد أذْكَرُوا بعد فوات الأوان أَنَّ الْحَقَّ مَا دَعَا اللَّهُ إِلَيْهِ ، وَأَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ . وقد أُقِيمَت الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ، فَانْقَطَعَ عُذْرُهُمْ ، وَأَيَّقَنُوا أَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَلَا فُرْصَةَ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ . وغاب عنهم وبطلَ في الآخرة ما كانوا يَخْتَلِقُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّ لِلَّهِ شُرَكَاءَ يَسْتَحِقُّونَ الْعِبَادَةَ . وَلَمْ تَنْفَعِهِمْ آلِهَتُهُمُ الْمَعْبُودَةُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى . وقال أبو السُّعُود في تفسيره (٧ / ٢٤) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ صِيغَةُ الْمَاضِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّحَقُّقِ ، أَوْ حَالٍ مِنْ فَاعِلِهِ بِإِضْمَارِ قَدْ . والانتفاءُ إِلَى نَوْنِ الْعِظَمَةِ لِإِبْرَازِ كَمَالِ الْإِعْتِنَاءِ بِشَأْنِ النَّزْعِ وَتَهْوِيلِهِ ، أَيِ أَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ شَهِيدًا نَبِيًّا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ)) اهـ . وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ _ رضي الله عنه _ قال :

(١٨) قال الثعالبي في تفسيره (٣ / ١٨٢) : ((مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ انْتَزَعَ قَوْلُ الْقَاضِي عِنْدَ إِرَادَةِ الْحُكْمِ : أَبَيَّحْتُ لَكَ حُجَّةً ؟)) .

قال النبي ﷺ: ((يا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟)). قال: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : ((أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟)). قال: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: ((أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ))⁽¹⁹⁾.

إنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، أَيِ إِنَّهُمْ مُلْزَمُونَ بِهِ ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرٌ حَتْمِي لَا مَفْرَءَ مِنْهُ. وَعِبَادَةُ اللَّهِ هِيَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ. وَقَدْ أَلْزَمَ اللَّهُ تَعَالَى ذَاتَهُ الْعَلِيَّةَ بِعَدَمِ تَعَذِيبِ الْمَوْحِدِينَ فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً ، غَيْرَ خَاضِعٍ لِأَحَدٍ ، وَلَيْسَ وَاقِعًا تَحْتَ أَيِّ ضَغْطٍ . فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الَّذِي يَأْمُرُ وَلَا يُؤْمَرُ ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا شَيْءٌ فَوْقَهُ .

(١٩) متفق عليه . البخاري (٢٦٨٥ / ٦) برقم (٦٩٣٨) ، ومسلم (٥٨ / ١) برقم (٣٠) .

فَهْرَس

5.....	مقدمة.....
9.....	الفصل الأول : الشخصية.....
49.....	الفصل الثاني : البعثة.....
105.....	الفصل الثالث : الوحي.....
159.....	الفصل الرابع : طبيعة الرسالة.....
196.....	الفصل الخامس : تأييد الرسالة.....
319.....	الفصل السادس : النَّاسِي والافتداء.....
327.....	الفصل السابع : معرفة أهل الكتاب إِيَّاه.....
336.....	الفصل الثامن : صفاته في التوراة والإنجيل.....
359.....	الفصل التاسع : أخلاقه وصفاته وفضل الله عَلَيْهِ.....
414.....	الفصل العاشر : عصمته وحمايته.....
425.....	الفصل الحادي عشر : مآثره وخصائصه.....
521.....	الفصل الثاني عشر : جزاء مَنْ يُشَاقِق الرسول.....
528.....	الفصل الثالث عشر : أدب المؤمنين معه.....
535.....	الفصل الرابع عشر : أقوال الكافرين.....
590.....	الفصل الخامس عشر : صدقه واستحالة تقوُّله على الله.....
595.....	الفصل السادس عشر : تنزيهه عن الشُّعر.....
602.....	الفصل السابع عشر : تسليته وتشييته.....
641.....	الفصل الثامن عشر : مُخَاطَبَةُ الله إِيَّاه.....
699.....	الفصل التاسع عشر : مُعَاتَبَةُ الله إِيَّاه.....
722.....	الفصل العشرون : الإسراء والمعراج.....
744.....	الفصل الحادي والعشرون : هجرته ومَنْزِلَة المهاجرين.....
808.....	الفصل الثاني والعشرون : أزواجه وبناته.....
874.....	الفصل الثالث والعشرون : أفضلية أُمَّته وشهادته عليها.....

تَمَّ الْكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى